فهرست الجزء الاول من كتاب صفوة الاعتبار بمستو

صحيفة

﴿القسم الثانى من الكتاب﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفه

﴿تمت الفهرست﴾

Muhammad Bairam al Khamis
al-Tunisi
Safwat al-i'tibar &c.

هذا كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار تأليف الفاضل المحقق والاستاذ المدقق قدوة العلماء وصفوة الازكياء وحيد عصره وفريد دهره الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي نفعنا الله به وبعلومه آمين

﴿الجزء الاول﴾

﴿طبعة أولى﴾
﴿بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٢ هجرية﴾

ما شاء الله كان

بسم الله الرحمن الرحيم

❁ الحمد لله مالك الملك والممالك ❁ خالق النور والظلمة والضلال والهدى الى أقوم المسالك ❁
سبحانه الخالق الحكيم ❁ المبدع للكون ومافيه من حقير وعظيم ❁ رسم عليه
دلائل وحدانيته لتدبر المتبصرين ❁ ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم ان
فى ذلك لآيات للعالمين ❁ والصلاة والسلام الأكملان الأتمان على تاج العالم
المصون ❁ ومظهر الكمالات المسرى به الى المسجد الاقصى والمقام المكنون ❁
سيدنا ومولانا محمد رسول الله ❁ المطهر عنصره الجثمانى ❁ والمنزه جوهره
الروحانى ❁ من الكدر والاشتباه ❁ وعلى آله الطاهرين ❁ وأصحابه
❁ الذين جابوا الارض فى هداية المخلوقين ﴿أما بعد﴾ فان الله جلت عظمته اقتضت
حكمته الباهرة ❁ ان ربط فى هاته الدار الاسباب بالمسببات خفية كانت أو ظاهرة ❁
وأخفى مراده فى التكوين ❁ فكان مدار تكاليف الشرع هو اعتبار الاسباب
رحمة بالمؤمنين ❁ وتفويض ماوراء ذلك الى خالق السبب يجرى على مقتضى تقديره
فى الازل ومايدرك أسرار حكمته الا قليل من الكاملين ❁ وكان مما عرض للعبد

الحقير

الحقير * ان بليت بمرض اعيى علاجه أطباء قطرنا الشهير * وأشير على بالسفر لاجل ذلك الغرض * فاستخرت الله تعالى واستشرت الاصدقاء لتحصيل ذلك الحق المفترض * فجبت بحارا وقفارا * ومدنا وامصارا على حسب ما يسره المقدور * وساعفت الوسائل على الوصول الى مشاهدته من المعمور * ورأيت بعيني البصر والبصيرة * امورا عجيبة خطيرة * أحببت نظمها فى عجالة حفظا لها من الاهمال * وتطفلا على منح العلماء أولى الكمال * كل سر جاوز الاثنين شاع * كل علم ليس فى القرطاس ضاع * وهى وان كانت بالنسبة لمعارف الكاملين والفحول * ليست مما يلتفت اليه أو يلاحظ بالقبول * لكنها على كل حال بضاعة من علم * تلاحظها بالاغضاء أعين أهل الحلم * فلعل الله بفضله يفيد بها أهل وطننا واخواننا المسلمين * ويهدينا الى احياء معالم ديننا المتين * (وسميتها) صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار * معتمدا على فضل المانح الجليل * وهو حسبى ونعم الوكيل * فنقول ان هاته الرحلة مرتبة على مقدمة ومقصود وخاتمة فالمقدمة فيها (ثلاثة) أبواب (الباب الاول) فى السفر من حيث هو ويشتمل على ثلاثة فصول (الباب الثانى) فى السفر لغير أرض الاسلام وفيه فصلان (الباب الثالث) فى تقسيم أحوال أهل الارض وفيه خمسة أقسام وستة وثمانون فصلا والمقصد فيه ثلاثة عشر بابا (الاول) فى سبب سفرى (الثانى) فى مملكة تونس (الثالث) فى مملكة ايطاليا (الرابع) فى مملكة فرنسا (الخامس) فى قطر الجزائر (السادس) فى مملكة انكلتره (السابع) فى جزيرة مالطه (الثامن) فى قطر مصر (التاسع) فى الحجاز وجزيرة العرب (العاشر) فى بقية الممالك العثمانية (الحادى عشر) فى مملكة اسفيسره (الثانى عشر) فى مملكة النمسا (الثالث عشر) فى مملكة الرومانيا وكل باب يشتمل على فصول حسبما فيه من الفروع (الخاتمة) فيما ينبغى للامة الاسلامية اتخاذه من زيادة بث المعارف وما تثمره من الخيرات

﴿المقدمة وفيها ثلاثة أبواب﴾

الباب * الاول

﴿فى السفر من حيث هو﴾

الفصل * الاول

﴿ فيما جاء في ذلك من الكتاب العزيز ﴾

(اعلم) ان الله تعالى قد أمر في كتابه العزيز بالسير في الارض للاعتبار والاستدلال على وجوده ووحدانيته فقال تعالى قل سيروا في الارض في آيات من الكتاب المجيد وفي بعضها قال ثم انظروا وفي أخر قال فانظروا فكان العطف تارة بالفاء وتارة بثم اشارة الى ان النظر والاعتبار كما يلزم في حالة السير يلزم بعده حتى لا يكون الزمن والعمل خاليا عن فائدة صحيحة في نظر الشرع فأولا يحصل النظر الاجمالي في حالة السير ثم يحصل النظر التفصيلي بالاعتبار عند الانفصال منه حتى يستقر في النفس بغاية التروي ولا يخفى ان القاعدة الاصولية عندنا هي ان الامر (للوجوب) وهو حقيقته ولا يصرف الى غيره الا عند القرينة الصارفة وقد اشتملت الآيات المذكورة على أمرين وهما الامر بالسير والامر بالنظر فكلاهما واجب غير ان الاول واجب لكونه وسيلة للثاني والثاني واجب مقصود لذاته وافادة ترتبه على سابقه تحصل بكل من (الفاء) و (ثم) بيد انه تحصل بكل واحدة فائدة خاصة (فالفاء) تفيد ترتب النظر على السير بغير مهلة (وثم) تفيد ترتبه عليه بعده حتى يكمل رسوخه وبهذا تبين الوجه في العطف بهما ولا يحتاج الى ان الاتيان (بثم) لافادة التفاوت بين مراتب الواجبين حيث ان أحدهما مقصود لذاته والآخر مقصود لكونه وسيلة كما ذهب اليه أبو السعود والقونوي لأن هذا لا يكون فائدة يستدعيها المقام بخلاف ما ذكرناه ثم ان كون السير واجبا كما ذكر هو ما عليه المحققون وان سبق قلم الزمخشري وتبعه القاضي البيضاوي الى ان الامر بالسير للاباحة والامر بالنظر للوجوب فقد قال غيرهم ان ذلك ينبو عنه المقام اما أولا فلأنه اخراج للأمر عن حقيقته وأما ثانيا فلا وجه لذكر اباحة السير للتجارة وغيرها في سياق الافحام للجاحدين ثم يعطف عليه ما هو واجب ولا يتم الا بسابقه وأما ثالثا فقد تقرر في الاصول أن ما لا يتم الواجب الا به يكون واجبا فكيف يكون النظر في آثار المكذبين واجبا بدون سير فان قيل انا لم نر في دواوين أصول الدين ان من واجبات الديانة السفر كما ذكر فالجواب ان معنى الوجوب معلق بما اذا لم يحصل الاعتبار المفضي للاعتقاد الا بالسفر لانه يؤدي الى رؤية الآيات بالمشاهدة التي

لها

لها من التأثير ما ليس لغيرها أما إذا حصل الاعتقاد فلا داعي حينئذ لوجوب السفر وإنما هو مباح ولهذا كانت الآيات المذكورة في سياق الحجاج للعاندين وكأن ما ذكر هو الذي أدى بعض المفسرين للقول بأن الامر للاباحة وقد ذكر الغزالي في الاحياء ان السفر تعتريه الاحكام الخمسة من الوجوب والندب والاباحة والكراهة والحرمة لانه من الوسائل فيأخذ حكم ما قصد به وأبان ذلك بيانا شافيا وإذا تقرر ان السير واجب لاجل الاعتبار فنقول ان المعتبر به أشياء منها ما دلت عليه الآيات المذكورة من الاعتبار بعاقبة المكذبين للرسل ومنها ما دل عليه قوله تعالى ومن آياته اختلاف ألسنتكم وألوانكم فان المسافر يرى من عجائب قدرة الخالق جل وعلا من اختلاف الطباع واختلاف الاشكال والهيئات واللغات والبشرة ما يقضي بوجوب وجود صانع ذلك المختار في أفعاله إذ لو كان الامر مستندا للطبيعة لجاءت الخلق على هيئة واحدة في جميع ما تقدم مع انا نرى الاختلاف والتباين تارة مع قرب المناخ وتارة مع بعده مع ان الارض واحدة وعناصرها واحدة وأصل البشر واحد ومزيد البسط لهذا في كتب الكلام (ومنها) ما دل عليه قوله تعالى قل انظروا ماذا في السموات والارض الآية فأمر تعالى بالاعتبار بما خلق من الاجرام العلوية وكيفية وضعها وحركاتها كما أمر تعالى بالاعتبار بما خلق في الارض من الجماد والنبات والحيوان وفي هاته الآية اجمل المنظور فيه وقد فصله في آيات كثيرة من كتابه العزيز للاستدلال على وجوده ووحدانيته فقال في سورة الرعد الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى (الآية) فذكر ان الاجرام العظيمة الهائلة قد بقي كل منها في مركز مخصوص من الجو وله حيز يمتاز به عن غيره من غير اضطراب ولا تلاطم وليس لكل منها ما يعتمد عليه من الاجرام المرئية مع ان اجرامها هي في نفسها مرئية على خلاف المعهود فلا بد أن يكون جميع ذلك لموجب أوجبه فان قيل ان موجبه هو وجود أعيانها وذواتها فهذا مردود لوجهين (الاول) ان الاجسام متساوية في تمام الماهية ولو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب حصول كل جسم في ذلك الحيز (والثاني) ان الخلاء لانهاية له والاحياز المعترضة في ذلك الخلاء الصرف غير المتناهية وهي بأسرها متساوية ولو وجب حصول جسم معين في حيز لوجب حصوله في جميع الاحياز ضرورة ان الاحياز متساوية فثبت بهذا ان وجود الاجرام الفلكية في احيازها ليس هو لذاتها وانما هو لمدبر حكيم قادر خص كلا منها

❁ بعباشاء (ثم ان) كمال الاعتبار بترتيب تلك الاجرام العلوية وكيفية أوضاعها وأشكالها الغاية تم على أكمل وجه بالسير فى الارض فمايرى منها فى جهة القطبين لا يرى من المناطق المعتدلة وكذلك مايرى فى أحد نصفى الكرة لايرى من النصف الآخر

❁ (ثم قال تعالى) عقب الآية السابقة وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون قال المفسرون انه تعالى لما قرر الدلائل العلوية أردفها بالدلائل الارضية بالاعتبار بذات الارض وما احتوت عليه من عجائب قدرة الخالق الحكيم القاضية

❁ بوجوب وجود صانعها فان حكماء المتأخرين الذين وصلوا بالمعارف والتحليل والآلات الى مالم تبلغه فلاسفة الاقدمين حتى زيفوا لهم كثيرا من خرافاتهم وبينوا خطأهم فهؤلاء حذاقهم قد أقروا بانه لابد من خالق لما هو موجود اذ ما يعللون به كثيرا من الاشياء من قولهم الجاذبية والنواميس والطبيعة وغير ذلك قد صرحوا بانها عبارات اصطلاحية والاخفاء انها أمور مجهولة يلتزم متتبعها بالاعتراف بالصانع فمن هؤلاء الحكيم المتبحر فيلكس لامروس وهو من مشاهير فحول علمائهم فى القرن التاسع عشر المسيحى حتى ان كتابه فى الجغرافية الطبيعية الموسوم بالدراسة الاولية عليه مدار تعاليمهم فى المدارس وأختير للتعريب ليعلم ويعمل به فى المدارس المصرية وقد صرح هذا فى كتابه المذكور فى مبحث الجو وكرة الهواء بقوله واذا فرض زوال التثاقل العمومى من الهواء فانه يتشتت فى الفضاء الى أن قال لكن الحكمة الالهية اقتضت الآن حفظ الاشياء وضبطها فى مواضعها الشاغلة هى لها بموجب قوة مجهولة ذاتها الا فعلها تسمى بالجذب وهى كلمة يعلم منها الفعل لا السبب اذ هذا الاخير مع كثرة بحث الطبيعيين عنه وتفتيشهم عليه لم يزل مجهولا الى الآن وعلى المولع بدراسة العلوم ان لا يأخذ بظواهر مثل هاته الكلمات العلمية التى يوضح بها سبب أو أسباب طبيعية مجهولة لحادث من الحوادث فاذا قيل هنا مثلا ان الاجرام تزن أو تثقل لانها مجذوبة لغيرها أو انها جارية على مقتضى نواميس الجذب كان ذلك الدور المعيب (الخ كلامه) ثم ان الاعتبار باحوال

❁ الارض المشار اليها فى الآية الكريمة هى من جهات أولها هيئة الارض وهى كونها جرما عظيما حتى ان مقدار ما يصل اليه بصر الانسان منها يراه مبسوطا مع انها هى كرة قال العلامة الرازى ما معناه انه لا ينازع فى كونها كرة الامن لا تدبر له (وقد) ألف الشيخ محمد بيرم الثالث قدس سره رسالة فى ذلك استدل على تكويرها بكلام الحكماء والفقهاء

واهل

وأهل الباطن وها نحن نسرد هنا نبذة من ذلك مع اختصار وزيادة فأما كلام الحكماء ❁
فمنه ظهورا على الاشباح من بعد رمنه ارتفاع الشمس والكواكب في جهات من
الارض بخلاف جهات أخرى حسبما حرر ذلك بموازين أخذ الارتفاع وأما كلام ❁
الفقهاء فقد ذكروا في كثير من المسائل انه لا عبرة باختلاف المطالع في الصوم فيجب على
أهل المشرق برؤية أهل المغرب للهلال لان الوجوب معلق بشهود الشهر لطائفة
من الناس بخلاف الامساك والفطر فانه يكون لكل أهل قطر بحسب ما عندهم لان
الوجوب معلق بدخول الوقت للمكلف وذكروا في الصلاة ان بعض الجهات تطول فيها
الاوقات وبعضها تقصر حتى يفقد بعض الاوقات كالعشاء في بعض الجهات الضاربة الى
أقاصي أحد القطبين وذكروا في المواريث اذا مات متوارثان في يوم واحد وزمن واحد
منه لكن أحدهما في المشرق والآخر في المغرب فان المغربي يرث المشرقي اما ان وقت
المشرقي متقدم في الوجود على وقت المغربي كالزوال مثلا وأما كلام أهل الباطن فقد ❁
نقل عن سيدى عبد العزيز الدباغ رضى الله عنه ان ساعة الاجابة من يوم الجمعة الوارد
فيها الحديث بانها من عند جلوس الامام على المنبر الى انقضاء الصلاة قال ان ذلك خاص
بوقت صعود امام المدينة المنورة ولما كان ذلك الوقت لا يتحد في جميع البلاد منّ الله
بساعة النبي صلى الله عليه وسلم وجعلها تختلف باختلاف صعود الائمة على المنابر من
ذلك اليوم وجميع ما تقدم انما يتأتى على القول بان الارض كروية ولو كانت بسيطة
لما تأتى شئ من ذلك اذ الشمس اذا ظهرت تظهر على الجميع في آن واحد ومن كلام ❁
القطب سيدى أحمد بن عروس رضى الله عنه الصريح فيما نحن بصدده وهو من
أنواع النظم المسمى بالملحون قوله

وادينا مثلها دلاعا ❁ تتكركب في جلة أدلاع
ماذ لحقوها من طماعا ❁ ورماتهم في بير ما لوقاع

وهو صريح في تكويرها ودورانها على ما سيأتي وليس في القرآن ما يعارض ذلك اذ
مساق الآيات لما يشاهد والمشاهد البسط في نظر العين ولما كان خطاب التكليف ❁
بلسان الشريعة المطهرة عاما لجميع طبقات الناس كان خطابهم على أسلوب يقتدر به
كل على التوصل الى قدر مدركاته هذا في مسائل التكاليف العامة كالاستدلال على
وجود الخالق وصحة الرسالة والعلم بدخول أوقات الصلاة والصوم واشباه ذلك أما ما
يكتفى فيه بالاستفتاء من الغير فقد خص الله به الفقهاء (فقال تعالى) فاسئلوا أهل الذكر

ان كنتم لا تعلمون وهذا أصل نافع يجرى فى كثير من الاشياء وقد بسطه الشاطبى فى موافقاته (وثانى) الجهات المشار اليها فى الآية الاستدلال بالجبال المعنون عنها بالرواسى فان عظم خلقتها واختلاف أوضاعها واختصاص كل بحد محدود قاض بوجود مدبر خصها بتلك الحالات ولو كانت بمجرد الطبيعة التى هى اسم بلا مسمى لتساوت فى جميع الحالات مع ان المشاهد هو اختلافها هذا بحسب الظاهر وأما اذا دق النظر فيما تختلف به مما تشتمل عليه من أنواع الصخور والتراب والطين والمعادن فذلك أمر يبهر العقول ويوقف الاذهان ومن أراد الاطلاع على أسرار ذلك فليراجع كتب الطبيعيات والكيمياء (وثالث) الجهات المشار اليها فى الآية الاعتبار بالانهر واختصاصها بأحوالها التى هى عليها مما يقتضى وجود مخصص لها والاغلب فى نظم القرآن قران الانهر بالجبال اشارة الى أن تكون الانهر بسبب الجبال اما من الثلوج المذابة منها أو من منابع العيون المنفجرة فيها وكأن سبب كثرة هاته المنابع فى الجبال هو ان الجبال من أسباب جذب الابخرة والامطار وعلى قدر تشرب سطح الارض للمياه يكثر فى باطنها اجتماعها ففى الاراضى البسيطة تتصاعد تلك المياه ابخرة لسهولة نفوذ البخار فى أجسام الارض المتخلخلة بخلاف الاراضى ذوات الجبال فانها بصلابتها تمنع نفوذ الماء بخارا كما تحميه من تأثير حرارة الشمس فلا يزال الماء يجتمع فى طبقات الجبال الى ان يتكون منه مقدار عظيم فينفذ بقوة لانه أعلى مما حوله من الارض فتتكون منه الينابيع والعيون وتسيل جداولا ونهيرات فاذا اجتمعت فى حوض تكون منها انهر ويعظم ويصغر بحسب ما يلتقى فيه من الانهر والينابيع (ورابع) الجهات المشار اليها فى الآية الاعتبار بما فى الارض من الثمرات وانها كلها مثل الحيوان ذكر وأنثى وهذا التفسير البين المحمولة فيه الآية على حقيقة اللفظ من (قوله تعالى) ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين انما اطلعنا عليه من ترقى العلوم الطبيعية والفلاحية فقد تبين بالتجربة والمشاهدة وقرره جميع فلاسفة المتأخرين فى كتبهم ان جميع أنواع الثمرات بل حتى الزهور أيضا تشتمل على ذكر وأنثى واذا افرد أحدهما عن الآخر لا تتولد الثمرة غير ان بعض الانواع تكون فيه الشجرة الواحدة مشتملة على البزر الذكر وعلى البزر الانثى وتتلاقح مع بعضها بالريح وهو المشار اليه (بقوله تعالى) وأرسلنا الرياح لواقح وبعض الانواع تكون فيه شجرة الذكر منفردة عن شجرة الانثى وهذا النوع الاخير كان معلوما منه سابقا بعض افراد كالنخل والتين لكن الآن قد تحقق ان جميع الانواع لا تثمر الا بالتلاقح

بالتلاقح بين الذكر والانثى حتى اذا تتبع قطع أحد الصنفين من شجرة تشملهما وأبقى نور الآخر بحاله ولم يكن فى ذلك الموضع شجرة أخرى مثلها فان مابقى فيه من النور لا يثمر وقد حرر ذلك وعلمت علامات الذكر وعلامات الانثى فى كل نوع بحسبه فسبحان القادر الحكيم الذى أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم حقا وصدقا بأوضح المعجزات فقد أنبأ بهذا منذ أكثر من ثلاث عشرة مائة سنة عندما لم يكن هناك حكيم يختلج هذا بفكره فضلا عن الامة الامية وهو أحدها لا يقرأ ولا يكتب فلا شك أن هذا انما هو بوحى من الخالق الذى يعلم ماخلق سبحانه وتعالى ولدقة هذا الامر وغرابته قد اعترف منصفوا أهل هذا العصر بأن الحكمة قد فازت بها الامة العربية منذ بعث فيها رسولها واستفادوا لما اشتمل عليه القرآن من بديع الحكم فان معرفة كون الريح تلقح الاشجار لم تعلم عند الحكماء الا فى آخر هذا القرن والقرآن الكريم ناطق بها ولهذا قال مستر اجنيرى (حرف ج ينطق به بين التاء والشين) الانكليزى معلم اللغة العربية فى مدرسة عامة الفنون فى بلد أكس فورد الكائنة جنوبى لندرة ان أصحاب الابل قد عرفوا أن الريح تلقح الاشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرنا أقول وكذلك كون الثمار تشتمل على الزوجين وماذلك الا بتعليم الخالق لا بواسطات ولا تعلمات ولا تجربات وتحليلات كيماوية وبذلك يعلم حقية قول من قال ان القرآن لم يفسر على حقيقته وانما كانوا يبينونه على قدر ما تصل اليه العقول وعلى قدر الحاجة فى الاحكام وبما تقدم يظهر أنه لاحاجة الى تأويلات المفسرين فى قوله تعالى ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين حيث حملوا الزوجية على معان أخر كاختلاف الطعوم والطبائع مما ينبو عنه التأكيد باثنين فان ماذكروه لا ينحصر فى اثنين الا بالنظر للمقابل وحيث تبينت الحقيقة فلا داعى الى التأويل ويخالف ماقالوه من التأويل ويؤيد ماحررناه من الحمل على الحقيقة أن ما أولوا به لا يستقيم على نمط واحد فى آيات القرآن العظيم الواردة فى هذا المقصد كقوله تعالى فى سورة الحج وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج فان ماقالوه من اختلاف الطعوم أو الطبائع لا يطرد فى جميع ماتنبته الارض بل فيها المتوافق فى ذلك وان كان بحسب التشخيص مختلف الانواع بخلاف ماقلناه فانه مع الحمل على الحقيقة هو مطرد أيضا (وبما تقدم) يعلم وجه طالب العلوم الرياضية على ماسيأتى فى محله ان شاء الله تعالى حيث ان التفسير المتقدم فى الجملة الشريفة انما تبين بها كما أن تمام الآية اشتمل على اشارة غريبة من ذلك القبيل وهو الجهة (الخامسة) من

جهات الاعتبار المشار اليها بقوله تعالى يغشى الليل النهار فقد تقدم أنه تعالى بعد أن ذكر فى الآية السابقة الدلائل العلوية ذكر بعدها الدلائل الارضية ونسق فيها تعاقب الليل والنهار فجعله من الحوادث الارضية فقال المفسرون لظهوره فيها وان كان هو من متعلقات العلويات وهو الشمس واعلم أن مسئلة حركة الارض أى هل هى التى تدور أو أن الشمس هى التى تدور هى من المسائل الظنية أعنى ان أدلتها ظنية وكثير من مسائل علم الهيئة هو على هذا النحو الى الآن كمسائل الابعاد بين الكواكب ومقادير اجرامها وطبائعها وما تشتمل عليه وعلماء هذا الفن مقرون بذلك كما يأتى ويشهد له أنهم كانوا متفقين على أن بعد الزهراء من الشمس مقادير معلومة ففى سنة (١٢٩٣) كان اقتران الشمس بالزهراء يعنى أن الزهراء تمر حائلة بين الارض والشمس فاعتنوا لذلك من قبل وأرسلوا العارفين الى الجهات التى يمكن منها رؤية ذلك لتحرير الرصد بالآلات فحرروا ذلك ووجدوا أن جميع حسابات السابقين خطأ فان البعد الذى حرروه أقل مما كانوا يحسبون وكذلك مقدار جرم الزهراء ومن الجائز أيضا ظهور الغلط فى هذا التحرير فى وقت آخر وحيث كانت المسائل فى هذا الفن ظنية اختلف علماؤه فى أسباب وجود الليل والنهار واختلاف الفصول بالحر والبرد بعد الاجماع على أن ذلك من آثار تقابل الشمس والارض فقدماء الفلاسفة ذهبوا الى أن الارض هى التى تدور والذين بعدهم ذهبوا الى أن الارض مركز للفلك وبدوران الفلك يحدث الليل والنهار وأن الشمس هى التى تدور معه ولها سير خاص بها يحدث منه الصيف والشتاء واشتهر هذا المذهب وزاد انتشارا عندما انتشر هذا العلم وتهذب فى الامة الاسلامية لما استفحل فيها العلم وكان ذلك المذهب هو المشتهر عن أخذوا عنه العلوم الرياضية ثم أحيى المذهب الاول وتأكد الآن عند علماء العصر بهذا الفن وأنكره المنتسبون للعلم من المسلمين ظنا منهم أن المذهب الآخر هو من عقائد الاسلام أو أن المذهب الآخر مصادم للنصوص والحق أن ليس شئ من هذا ولا من ذلك هو مما يجب اعتقاده عندنا وانما المدار عندنا على الاعتبار بالآثار المشاهدة من الليل والنهار وأشباه ذلك واثبات جريان للشمس وأما كيفيته فلا تعلق لها بالعقائد وسير الشمس ثابت على كلا المذهبين لان المتأخرين يثبتون لها حركة رحوية على نفسها وحركة ثانية على منطقة لها أيضا ثم حركة ثالثة لها مع جميع ما يتبعها من الكواكب حول شئ مجهول كما أن هاته الدورة مجهولة المستقر أيضا وكأنها هى المشار اليها بقوله (تعالى) والشمس تجرى لمستقر لها

ذلك تقدير العزيز العليم وذلك أن المستقر أوتى بلفظه منكر الابهام فيفيد أنه غير معلوم للخلق ولهذا أوتى به مضافا الى الشمس باللام فكان منكرا ولم يقل مستقرها بالاضافة المفيدة للتعريف لان ذلك المستقر غير معروف وعلماء هذا الفن الآن من غير المسلمين مقرون بذلك فهو (حينئذ) اجماعى بيننا وبينهم ثم ان كون حدوث الليل والنهار هو من آثار دوران الارض ربما كانت آيات عزيزة تشير اليه فمنها الآية المتقدمة فانه (تعالى) بعد أن ذكر الدلائل على وجوده من السماء ذكر الدلائل الارضية وخلط فيها الليل والنهار فيشير ذلك الى انهما من آثار الارض لان وجودهما وان كان يستلزم الشمس والارض معا لكن تخصيصه بالانخراط فى الدلائل الارضية يدل على تعلق خاص وهو كون دورانها هو السبب على أن منطوق الآية فيه تدعيم لهذا حيث قال يغشى الليل النهار فجعل الليل الذى هو ظلمة الارض يغشى به النهار الذى هو ضوء الشمس ففيه تلميحة الى أن الارض هى التى تحدث ذلك بفعل الله ومن الآيات المشيرة الى ذلك أيضا (قوله تعالى) والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشيها فجعل النهار الذى هو مقابلة وجه الارض للشمس مجليا لها والليل الذى هو الظلمة الاصلية للارض مغشيا لها فأسند فاعلية ذلك لغير الشمس بل لفاعل آخر وهو الليل والنهار الذى هو من آثار الارض واذا كان هذا ثابتا فما يدل من الآيات على طلوع الشمس وغروبها وغير ذلك يمكن تأويله باعتبار الابصار والعرف الجارى فى اللسان (ثم اعلم) أنه لا يلزم من دوران الارض نفى السماء على ما يتوهمه غير العارف لان السموات لا شك فى وجودها للنصوص القطعية عليها غير أن جرمها غير معلوم لنا وانما نعتقد أنها اجرام شداد هى بالنسبة لكل من على الارض فوقه كما هو المفهوم اللغوى للفظ سماء وأما ماهية اجرامها فالله أعلم بها ونعتقد أنها سبع طبقات شداد ثم طبقة أخرى تسمى بالكرسى ثم طبقة أخرى تسمى بالعرش ولا يلزم من كونها شدادا أن لا تخترقها الكواكب بسيرها فان ذلك مشاهد لنا كما أنه لا يلزم من سير الكواكب انعدامها حتى يقولون ان الكواكب ملقاة فى الفضاء لان ذلك متوقف على معرفة كنهها وهو فوق عقولنا لان العقول انما تتوصل الى المعهودات للحواس وما لا تعهده الحواس يعسر ادراكه على حقيقته ولهذا كان علينا ان نصدق الصادق ونكل معرفة ذلك الى خالقها فقد قال سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه عند قراءته (لقوله تعالى) واكواب كانت قوارير قوارير من فضة ما معناه ان القوارير الزجاج الذى لا يحجب ما وراءه

والفضة اذا طرقت ما ساها ان تطرق لا تكون الا كثيفة فهاته الفضة هى نوع آخر لا نعلمه ونكل علمه الى الله بل الاغرب أن مثل هاته المسائل أقر بها الحكماء الذين لا يعتقدون الشرع فقد قال أحد حكماء الفرنساويين المتأخرين ماترجمته ان للعقل حدا محدودا لا يتجاوزه كما أن للبصر حدا محدودا لا يتجاوزه فاتعاب العقل فى التوصل الى معرفة كنه الاجرام العلوية وماهيتها كاتعاب البصر فى أن يرى مافوق السقف من أسفله فهب أنك أعنته بأعظم المرايا المكبرة فانه لا يمكن أن يخترق السقف حتى يرى مافوقه (اه) ويمكن لنا أن نقرب لأولئك المنكرين للسماء فهم وجودها على مقتضى علم الهيئة الذى هم عليه الآن بأنهم يسلمون وجود كرة الهواء محيطة بالارض وأنها عظيمة شديدة حتى قرروا أن ذات الانسان المتوسط مضغوطة وحاملة لا كثر من ثلاثة وثلاثين ألف رطل من الهواء ومع ذلك فان هاته الكرة العظيمة الشديدة تخترق كيفما أراد المخترق لها فلم لا يجوز ان تخترق الكواكب السيارة السموات على هذا النحو ثم ان هاته الكرة الهوائية نهاية ارتفاع سطحها الاعلى عن سطح الارض نحو ستة عشر فرسخا وهى فى ذاتها تختلف طبقاتها وما فوقها ليس بخلو لانه لا يوجد فى الكون خلو مطلق كما هو رأى قدماء الفلاسفة ومتأخريهم كما قرره الحكيم لامروس فى كتابه السابق ذكره فلم لا يجوز أن يسمى الشئ المعبر بحد محدود من الفضاء بالسماء ومافوقه من حد آخر بسماء آخر وهكذا وان كنا نجهل حقائقها لكنا نقول انها لا تمنع من سير الكواكب فى مناطقها ومن ذلك الارض فالارض التى يقع بها الاعتبار بالاوجه المتقدمة لا يحصل مزيد الاعتبار بما فيها من اختلاف أقطارها حرا وبرودة ليلا ونهارا وجبالا وسكانا الا بالسفر ومشاهدة عجائب خلق الله فيها

الفصل * الثانى

فيما ورد فى السفر من السنة روى السيوطى فى الجامع الصغير عن ابن السنى وأبى نعيم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه (عن النبى صلى الله عليه وسلم) أنه قال سافروا تصحوا وتغنموا فأرشد الرسول صلى الله عليه وسلم الى أن فى السفر ثمرتين راجعتين الى الجسم زيادة على ما تقدم من الثمرات الروحية (الاولى) هى الصحة لما يشتمل عليه السفر من الرياضات البدنية اذ لا يخلو غالبا عن مشقة ولهذا رخص فيه من الرخص ماهو معلوم

في الفروع بقطع النظر عن العلة الباعثة عليه كما هو المذهب الحنفي واتعاب البدن يغير
صحته وأيضا لاستنشاق المسافر الهواء السليم الذي هو أنفع للجسم من الاكل والشرب
لان الانسان لا غنى له عن التنفس في كل لحظة بخلاف الاكل والشرب لامكان الصبر
عليهما مدة ما (وبيان وجه احتياج الانسان الى الهواء في كل لحظة للتنفس) هو أن الله
قدر بحكمته تركب الجسم الانساني على أبدع وجه وجعل سبب قوامه هو الدم المصفى
من الغذاء فبعد هضم الغذاء في المعدة يمتص صفوه في قناتين توصلانه الى القلب بعد
اجتماعهما في قناة واحدة وهو اذ ذاك في لون البياض وقبيل الوصول الى القلب يصب
ذلك في قناة دم الدورة الراجع الى القلب أيضا والقلب شكل صنوبري منقسم داخله الى
قسمين يمين وشمال وكل منهما منقسم الى قسم علوي وقسم سفلي وبينهما حاجز فيه منفذ
يوصل بينهما له غطاء ينفتح وينطبق فالقناة المتقدمة تصب في الطبقة العليا من القسم
الايسر ومن هناك ينفتح له الغطاء فيصب نقطة في الطبقة السفلى ثم ينقبض الغطاء
بسرعة ثم نقطة أخرى وهكذا وكلما انطبق الغطاء ضربت جميع الانباض التي في البدن
فحركتها تابعة لحركة الغطاء قوة وضعفا سرعة وبطئا ثم يخرج الدم من القسم الايسر
السفلي في عرق عظيم هو مجمع عروق الانباض فيصعد الى أعلا ثم يتفرع منه فروع
وهاتيك الفروع تتفرع منها فروع أخر أقل منها حجما وهكذا الى أن يعم جميع اجزاء
البدن وهي عروق الانباض وكلما انتهى نبض الى حده يتلقى الدم منه عرق من عروق
الشرايين التي لا تتحرك وهاته وظيفتها ارجاع الدم الى القلب فتكون عند اتصالها
بالانباض صغيرة الحجم ثم لا تزال تجتمع فتعظم الى أن تصير عرقا واحدا فيصب في القسم
الايمن من القلب الذي هو مقسوم أيضا مثل الايسر وحركته مثل حركته غير أن الدم يخرج
من الطبقة السفلى منه في عرقين يوصلانه الى الرئة ولا يخفى أنه أي الدم اذ ذاك قد دار في
جميع البدن ونقص من أصل كميته بما ترشحه العروق الى اللحم والعظم وقد تغيرت
عناصره فقل منه الاكسوجين وزاد فيه الحامض الفحمي حتى يتغير لونه فيصير مسودا
بعد أن كان أحمر فلو بقي على حالته لضر بقاؤه في البدن لكن حكمة الله تداركت هذا
الالم بالالطف فجعلت الرئة تجذب الهواء الذي هو مركب في حالة سلامته الاصلية من
الازوت وهو أكثر اجزائه ولا يضر ولا ينفع الحيوان ذا الدم اذا كان مخلوطا مع بقية
الاجزاء ومن الاكسوجين الذي هو الجزء النافع للحيوان ذي الدم وأقل منه كمية
الحامض الفحمي الضار للحيوان المذكور ومن شيء يسير من الماء حالة كونه بخارا فاذا

دخل الهواء الرئة استرجع الدم منه الا كسوجين الذى فقده ودفع فيه ما عنده من الحامض الفحمى المضر ثم أخرجته الرئة بالتنفس وأخذت هواء آخر لما ورد اليها من الدم أيضا وهكذا فى كل لحظة وعندما يصفو الدم فى الرئة برجوعه الى اعتداله ينبعث منها فى عرق عظيم ويرجع الى القلب من الجهة اليسرى على نحو ما قدمناه وهكذا (فسبحان القادر الحكيم اللطيف) وبهذا البيان ظهر وجه احتياج الانسان للهواء أكثر من الغذاء واذا علم ذلك علم وجه كون السفر مثمرا للصحة لان الهواء فى الاماكن المسكونة يكثر فيه الجزء الحامض الفحمى المدفوع بتنفس السكان بخلاف الاماكن الغير المسكونة فان هواءها يكون أصفى وأنقى من غيرها والمسافر لابد له من قطع مفاوز وبحار فيستنشق ذلك الهواء الحسن فيصفى دمه ويصح بسببه بدنه كما قال (عليه الصلاة والسلام) وبما قررناه فى التنفس والهواء يعلم وجه كراهة النفخ على الماء والطعام شرعا لان الهواء المنفوخ به يكون حاملا لجزء كثير من الحامض الفحمى الذى هو مضر بالصحة واعلم أن ما قررناه فى حسن الهواء وسلامته للمسافر هو بالنظر الى الغالب الكثير فلا يعترض عليه بأن هناك أماكن خالية عن السكان ومع ذلك هى وخيمة لما يعرض لها من تعفن أو غيره فلا يكون هواؤها سليما لان ذلك قليل والحكم على الغالب (وهكذا) القول فى الغنيمة أى الربح المالى اذ شأن المسافر الاطلاع على أحوال التجارة والسعى فيها فيربح اذا سعى لها ولا يعترض بكون المسافر لا يربح اذا سافر لقصد سياسى أو تنزهى أو بدنى أو غير ذلك اذ مدار حصول الشئ على السعى فى اسبابه

الفصل * الثالث

فيما ورد فى السفر من كلام الحكماء والادباء اعلم أنه قد ورد فى مدح السفر كثير من كلام البلغاء والحكماء فلا نطيل بجلبه هنا ونقتصر على كلام الامام الشافعى رضى الله عنه حيث قال

تغرب عن الاوطان فى طلب العلا * وسافر ففى الاسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة * وعلم وآداب وصحبة ماجد

فقد جمع من فوائد السفر ما تتشوق النفوس الى اكتسابه

الباب * الثانى

﴿فى السفر لغير أرض الاسلام وفيه فصلان﴾

الفصل * الاول

﴿فى النصوص الدالة على الجواز﴾

لاخفاء أن الاعمال بمقاصدها فاما أن يكون السفر لقصد صحيح شرعا كقصد مصلحة عامة أو مصلحة خاصة لامندوحة عنها أو يكون لمجرد توسع فى المال وتنزه وعلى كلا الوجهين فالسفر جائز غير انه يختلف حكمه بالنسبة للمروءة وحفظها حتى تبقى العدالة أولا تبقى بانعدام المروءة وها نحن ننقل ما اطلعنا عليه فى المسئلة ففى الفتاوى البيرمية نقلا عن خط الشيخ محمد بيرم الرابع ما نصه سئل جدى رحمه الله عن ركوب البحر والذهاب لدار الحرب هل يسقطان العدالة أم لا فاجاب بما نصه أما نفس ركوب البحر فانه لايمنع قبول الشهادة الا عند ظن الهلاك وأما الذهاب الى دار الكفر فينظر فيه للسبب الحامل عليه فان كان مصلحة اما عامة للمسلمين أو خاصة بالذاهب كما اذا كان به مرض عجز عن علاجه هنا فهذا لابأس به ولا تسقط العدالة بسببه واذا كان لغرض التجارة والاستكثار من حطام الدنيا فهذا هو الذى تسقط به العدالة هذا ملخص ما فهم من كلام أصحابنا كما فى الوهبانية وشروحها والله تعالى أعلم انتهى وفى الفتاوى الهندية من كتاب السير بعد أن ذكر أن الرجل لايخرج للجهاد الا اذا رضى أبواه أو من يقوم مقامهما على التفصيل المقرر هناك قال وان أراد الخروج للتجارة الى أرض العدو وكرها خروجه (أى الابوان) فاذا كان أميرا لايخاف عليه منه أو كانوا قوما يوفون بالعهد يعرفون بذلك وله فى ذلك منفعة فلا بأس بان يعصاهما ثم ذكر مسائل تحوم على أن المدار فى الجواز وعدمه على غلبة الظن بالامن فاذا حصل ذلك جاز له السفر ولو بغير رضى الوالدين فتلخص مما تقدم أن السفر الى أرض غير المسلمين جائز كيفما كان المقصد على شرط الامن وانما يختلف الحكم بالنسبة للعدالة ولا يخفى أن العدالة مدارها على حفظ المروءة والتنزه عن الرذائل وسفاسف الامور فاذا كان يقتحم الاخطار من السفر المذكور لمجرد الزيادة فى التحسينات كالتنعم بالنظر أو بزيادة المال كان ذلك قادحا فى العدالة وان لم يكن محرما وأما اذا كان

السفر المذكور لغرض صحيح ولو لتجارة محتاج اليها له خاصة أو له ولغيره فهو مع كونه مباحا لا يسقط العدالة أيضا بل له الاجر الاخروى اذا صحح النية واخلصها التى هى أساس العبادة وقد علم مما مر أن شرط الجواز هو الامن وهذا الشرط لا يختص بأرض غير الاسلام بل هو شرط أيضا فى أى أرض كانت كما فى حواشى الشيخ ميارة على لامية الزقاق حيث قال أثناء الكلام على الامامة ما مفاده ان الانسان ان لم يستطع كف الظلم والمعاصى تجب عليه الهجرة فاذا كانت تجب الهجرة منها فكيف يجوز الاقدام على الدخول اليها والله تعالى يقول ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ثم ان الامن يعلم حصوله وعدمه من الباب الآتى اذ أهل الارض الآن مختلفوا الصفات والاحوال

الفصل * الثانى

فى تطبيق الحكم على سفر العبد الضعيف الى ممالك أوروبا سيعلم من المقصد الوجه الحامل لى على السفر الى ممالك أوروبا وهو اما التداوى بعد العجز عن علاج المرض فى بلادنا أو مصلحة أو ضرورة وكل الوجوه الثلاثة مما يسوغ السفر بلا سقوط العدالة واذا اعتبرنا ما حصل من ثمراته وأقله الحمل على جمع هاته الخلاصة فانى أرجو من كرم الله تعالى أن يعفو عن زلاتى ويعاملنى بمحض جوده وفضله سيما والبلاد التى قصدناها من بلاد الاجانب هى تامة الامن كما يعلم من الباب الآتى

القسم الثانى من
الجزء الاول
من صفوة
الاعتبار

ما شاء الله كان

بسم الله الرحمن الرحيم

(الباب الثالث)

في تقسيم أحوال أهل الارض الآن

وفيه سبعة وثمانون فصلا

اعلم ان الله جلت قدرته قد قسم الخلائق في هاته الارض وخالف بين عوائدهم واصطلاحاتهم ولغاتهم وان اتحد الجميع في أصول الاحتياجات كالطعام والملبس والوازع وقد قرب الجغرافيون سكان كرة الارض من اثنتى عشرة مائة مليون الى ثلاثة عشر مائة مليون وقسموا الارض الى أقسام خمسة وهي (آسيا) و (أوروبا) و (أفريقيا) و (أمريكا) و (استراليا) وهي أقسام اعتبارية اذ الارض واحدة ومافيها متقارب متماثل

القسم

القسم الاول آسيا

اعلم ان القسم الأقدم عمرانا والاكثر سكانا والاشرف معنى لما حواه من كونه مصدرا للديانات الالهية ودار الرسل (عليهم أفضل الصلاة والسلام) ومنبع سطوع النور العظيم الحاوى للذات الشريفة المحمدية (عليها أفضل الصلاة وأزكى التحية) هو قسم (آسيا) الشامل لمكة والمدينة والقدس وهو يحده شرقا خليج برنغ والمحيط الشرقى وجنوبا المحيط الهندى وخليج فارس والبحر الاحمر وغربا البحر الاحمر والبحر الابيض وبحر مرمرا والبحر الاسود ونهر ردون وجبال أورال وشمالا المنجمد الشمالى وهذا القسم يشتمل على عشرين مملكة

الفصل * الاول

فى المملكة العثمانية

اعلم ان أعظم الممالك الاسلامية فى هذا القسم هو المملكة العثمانية لاستيلائها على أغلب الممالك الاسلامية التى كانت تقسمت واتحادها تحت سلطنتها ولاشتمالها على الحرمين الشريفين ولان سلطانها هو صاحب الحرمين الشريفين ولامتدادها على ممالك وسيعة اسلامية فى أفريقية كما أن لها فى أوروبا ممالك واسعة فتألف من المجموع مملكة عظيمة تختها القسطنطينية وتسمى فاروقا لفرقها بين أرض آسيا وأرض أوروبا ولفرقها بين البحر الابيض والبحر الاسود فكان لها بهذا الموقع عظيم الاعتبار وسكان هاته القاعدة زهاء مليون ونصف وأقسام هاته المملكة هى الاناضولى وفيه آسيا الصغرى والشام والعراق وديار بكر وأرمينية والجزيرة والحجاز واليمن ولها فى أوروبا قسم الروملى ولها فيه ولايات ممتازة وهى ايالة البلغار والروملى الشرقية وفيه جزائر البحر الابيض التى منها ماله امتياز كجزيرة كريد وسيواس ولها فى أفريقيا ممالك أيضا وهى طرابلس ومصر وتونس وهاتان الاخيرتان لهما امتيازات خاصة فى الادارة وتشتمل المملكة الآن فى الاقسام الثلاثة من الارض على نحو اثنين وعشرين مليونا عدى الممالك التى لها امتيازات فاذا انضم ذلك كان الجميع يناهز الاربعين مليونا والذى يخص قسم آسيا فقط من السكان نحو ستة عشر مليونا وقد ابتدأ تأليف هاته المملكة من سنة ٦٩٩ تحت سلطنة السلطان عثمان فى أرمينية

ولازالت تعظم الى ان بلغت نهاية السطوة على جميع ممالك المعمور ثم ابتدأت الروسيا في حروبها وتداخلت الدول الاوروباوية تارة بالدفاع عنها واخرى للربح منها ولازالت بين الدول لها اعتبار وحكومتها شوراوية في الرسم لكنها الآن تحت الحكم العرفي ولم تزل سلاطينها يحضون على الامن في جميع انحاء المملكة وفي جميع أنواع السكان الذين أغلبهم مسلمون وهم نحو ستة عشر مليونا وباقيهم أغلبهم نصارى على مذاهب شتى والباقي من ديانات مختلفة ولزيادة توطيد الامن واجراء العدل أسس المقدس السلطان عبد المجيد التنظيمات الخيرية في سنة (١٢٥٧) ثم أكدها ولده السلطان المعظم عبد الحميد بالقانون الاساسي الذي أصدره في سنة (١٢٩٣) وفقه الله لما يرضاه وبقية التفاصيل المتعلقة بهذه المملكة تأتي ان شاء الله تعالى في المقصد وقوتها المالية والحربية تأتي في آخر المقدمة في جدول قوات الدول بحول الله وارادته

الفصل * الثاني

﴿ المملكة الثانية هي مملكة فارس ﴾

وهي مملكة اسلامية قاعدتها ايران وعدد سكانها من الخمسة ملايين الى سبعة ما بين سنية وشيعية ولها تقدم في الحضارة وبعض رجال دولتها مهذبون لهم معارف كافية في السياسة ورئيس الدولة يلقب بالشاه وهو الآن الشاه ناصر الدين من آل البيت المطهر وقد التفت الى الاصلاحات التي يقتضيها الحال لما شاهده في أوروبا وغيرها عند أسفاره لها منذ استدعته الدولة النمساوية (في سنة ١٢٩٠) للحضور للمعرض الذي فتحته فأجاب دعوتها كما أجاب السلطان عبد العزيز العثماني دعوة دولة فرانسا لمعرضها (في سنة ١٢٨٧) والشاه المشار اليه زار في سفرته المذكورة الدولة العلية فانه بعد أن وصل الى لندره على طريق الروسيا والمانيا رجع على طريق فرانسا ثم النمسا المدعو اليها ومن هنالك توجه للاستانة ولما علم السلطان بقصده لزيارته أرسل له باخرة جليلة سلطانية لركوبه وجفنين مدرعين بحفانه وأرسل له فيها وزير البحر فركب الشاه الباخرة من احدى فرض ايطاليا بعد زيارته لملكها فوصل الى جناق قلعة في يوم الاحد (٢٢) من جمادى الثانية (سنة ١٢٩٠) فأطلقت له المدافع من القلعة واصطفت له العساكر واقتبله هنالك الصدر رشيد باشا في باخرة سلطانية ومعه سفير الشاه في الاستانة ووالي جزائر البحر

الابيض

الابيض وفي يوم الاثنين لاقاه في بحر مرمرا سفراء الدول في بواخرهم الرسمية ووجوه تجار الفرس في ستة بواخر أخر ولاقاه هنالك أيضا فرقة من الاسطول العثماني فوصل في موكبه البهي الى الاستانة من يومه وأرسى قبالة قصر بكلر بيك المعد لنزوله فأطلقت له المدافع وتوجه السلطان للقائه في الباخرة ورحب به وآنسه وابتهما مليا والمترجم بينهما ميرزا حسين خان صدر دولة الشاه ثم نزلا معا الى القصر وأطلقت المدافع من جميع الاسطول العثماني ثم رجع السلطان الى قدمه بباشكطاش ثم زاره الشاه بعد الاستراحة وآنسه وكان كل منهما متقلدا بنيشان صاحبه وزينت له سائر الدواوين الملكية ومنازل تجار الفرس وحصل له من العناية ما أكد له مزيد الالفة بين السلطنتين ثم عاد الى بلاده وأخذ في فتح الطرق للتقدم لكن السير فيها بطيء ثم عاد الى أوروبا سنة (١٢٩٥) لزيارة معرض باريس على وجه غير رسمي وزاد استبصارا فيما ينبغي اتخاذه وشرع في شيء من التنظيم سنة (١٢٩٦) تداركا لما يحيط به سياج الحفظ لامته ومملكته التي أخذت منها الروسيا سهما عظيما في أواسط القرن الحالي وهاته المملكة حكمها الآن استبدادي مطلق غير ان ما لا باعث عليه من الجزئيات يجري فيه الحكم الشرعي الاسلامي والغرباء لهم الامن من جهة الحكم اذا دخلوا المدن العظيمة منها وحلوا فيها ﴿أما غيرها﴾ فلا اطمئنان فيها الا اذا أخذ المسافر وصيات من رؤساء الحكام أو خفراء له ودخل هاته الدولة وتوجها يأتي ان شاء الله تعالى

الفصل الثالث

﴿المملكة الثالثة هي مملكة أفغانستان﴾

وموقعها شرقي فارس وقاعدتها كابل وقد كانت هاته المملكة مقرا لمملكة الغزنوية ثم السلجوقية ثم استقلت بولاية أحمد شاه في القرن الثاني عشر ثم دخلت تحت السابقة الذكر ثم استقلت في عشرة السبعين بعد الالف والمائتين باعانة الانكليز وسكانها نحو الستة ملايين وقيل ثمانية والاول أقرب أكثرهم أهل بادية وسكان جبال والديانة العامة هي الاسلامية السنية والحكم استبدادي مطلق ولا راحة تستقر فيها لكثرة الثورات وعدم انقياد القبائل ثم تعارض سياستي الروسيا والانكليز فيها حتى اغتر أميرها وحارب الانكليز فوقعت المملكة في قبضتهم وخذلته الروسيا حيث ثم لها جل

قصدها من حرب سنة (١٢٩٤) بتسليم الانكليز لها ومن عادات هاته المملكة أن يكون نحو عشر السكان عساكر دفاعية عن الوطن وفيهم المشاة والخيالة وهم غير منتظمين ولا يبقون فى الخدمة العسكرية الانوبا والاهالى تقوم بهم فان كل مقاطعة أو ولاية عليها مقدار معلوم من العساكر بما يلزمهم ثم هم يقيمون اللوازم على ما يقتضيه الحال فأصحاب الاملاك يقومون بالخيالة وغيرهم يقومون بالمشاة ﴿وأما الطبجية﴾ فمنهم خيالة ومنهم مشاة وكلهم ملازمون للخدمة والدولة تقوم بهم وتجرى لهم مرتبات وحدث فى جندهم بعض تنظيم على النوع الجديد منذ مدة قريبة وتقدير دخلها مجهول

الفصل * الرابع

﴿المملكة الرابعة هى مملكة بلوجستان﴾

وتسمى سابقا بالسند أى داخلة فيه وموقعها جنوبى المملكة السابقة وعدد سكانها نحو المليونين وهم متفرقون تحت رؤساء شتى وأعظمهم الآن خان كيلات والديانة الغالبة هى الاسلام على مذهب أهل السنة لكن كأنها بالنظر للغالب اسم بلا مسمى حيث كانت الغارات مستمرة بينهم وسفك الدماء يفتخر به سيما فى الاقوام المشركين الذين بقوا فى الجبال فهم لا يبقون هناء للمسلمين وحيث كانت أراضى هاته المملكة رديئة وهواؤها رديئا وتجارتها قليلة لم يرغب فيها الانكليز ورضوا باستمالة رؤساء القبائل اليهم بعضهم بالارهاب وبعضهم بالارغاب وبما تقدم يعلم حال هاته المملكة

الفصل * الخامس

﴿المملكة الخامسة هى مملكة الهند الانكليزية﴾

وموقعها على شاطئ البحر المحيط الجنوبى الهندى وتتوغل فى دواخل القارة الى جبال هملاى وهى محاذية للمملكتين الاخيرتين فى الذكر من شرقيهما وهى مملكة عظيمة جدا تشتمل على ما ينوف عن المائة والتسعين مليونا من النفوس منهم مسلمون نحو أربعين مليونا وازدادوا فى السنين الاخيرة نحو خمسة عشر مليونا بدخول الاهالى فى دين الاسلام طوعا عند وقوع المناظرات الآتى ذكرها والجميع تحت الاستيلاء الانكليزى غير أن بعضهم لهم استقلال فى اداراتهم الداخلية وهم عدة ملوك وأمراء وعدد هاته الممالك

المنازة ثمان عشرة مملكة وسبب استيلاء الانكليز على هاتيك الممالك الرحيبة على وجه الاجمال ان هاتيك الممالك كانت فى القرون الاخيرة انقسمت الى امارات وملوك طوائف يتناحرون على مدى الزمان سيما بعد ضعف المملكة الاسلامية هنالك عند انقراض دولة السلطان محمد شاه فى أواسط المائة الثامنة هجرية الموافقة للمائة الرابعة عشر مسيحية فمن ذلك الوقت تزايدت المناقشات بين ملوك تلك الاقطار وزاد انقسامهم الى طوائف صغار مع أن نفس أجسامهم وخلقتهم ليست بمستعدة للحروب والاتعاب لانهم أناس نحاف الاجسام فيميلون الى الراحة والتنعم بالملابس الرائقة والمآكل الخفيفة والاستكثار من المال والجوهرات لاسيما أهل الاقطار الجنوبية لحرارة أقاليمهم بقربها من خط الاستواء ولهذا من قديم كانت سلطة الافغانستان متوالية عليهم من غير بيهم وشمالهم فداموا على تلك الحالات التى سئمت منها نفوسهم وضجروا أشد الضجر لما ينافى طباعهم وقد كان أهل البرتغال من الاوروباويين فتحوا السير على طريق رأس الرجاء الصالح من أوروبا الى الهند وتملكوا بعض مراكز فى تلك الجهات سنة (٩٠٣هـ و١٤٩٧ م) ثم قلدهم فى التجارة غيرهم من الاوروباويين حتى عقدت شركة انكليزية للتجارة فى الهند وعينت أولا سفينتين عظيمتين شراعيتين ومحتويتين على قوات دفاعية للخوف مما عساه يطرء عليهم من تحرى أهل تلك الاقطار الذين كانوا يجهلون تفصيل أحوالهم لبعد المسافة وطول الطريق الذى هو رأس الرجاء الصالح وكان هذا فى سنة (١٠٥٣هـ و١٦٤٠ م) فنفقت التجارة الانكليزية هنالك وكثرة خلطة الانكليز بالاهالى وتعرفوا أحوالهم بما سهل لهم التداخل فى سياستهم وتداخلوا فيها وابتدا تلك الجمعية التجارية الى أن وقعت الحرب بين فرانسا وانكلترا فى سنة (١١٥٩هـ و١٧٤٦ م) فمن ثم ابتدأ النفوذ السياسى وأبطلت الشركة وتسلط الانكليز على بعض الشطوط الهندية مع النفوذ والوجاهة فى غيرها حتى ان بنباى أعطيت من الهنود مهر الكترينة زوجة كارلوا الثانى ملك الانكليز فى عشرة الستين وسبعمائة وألف أى حدود سنة (١١٧٥) والممالك التى استولت عليها دولة الانكليز بدون واسطة الشركة التجارية هى الممالك المعروفة بحكومة الخلجان ومنها جزيرة سيلان التى هى فى الجنوب الغربى من الهند وسكانها نحو (٢٣٧٥٠٠٠) وكذلك جهات الخلجان فالجميع استولت عليها دولة الانكليز بلا واسطة ولهذا كانت ادارتها هناك مخالفة لبقية ممالك الهند فلحكومة الخلجان ادارة منفردة تحت حاكم عام له

مجالس شورى ومجالس نواب للنظر فى مصالحهم وتأليف ما يصلح بهم من القوانين أعضاؤه هم كل ذى وظيفة فى تلك الحكومة من الاهالى وأعضاء أخر من الانكليزيين توظفهم الدولة ثم الرئيس العام هناك يرجع نظره لوزير المستعمرات لا لوزير الهند ويخاطبه بدون واسطة الحاكم العام فى الهند (وأما بقية) الممالك الاخر فقد أخذتها الدولة من الشركة المار ذكرها ولم تزل سلطة الانكليز تتقدم هناك حتى استولوا على بنغالة فى سنة (١٢٧١ هـ و ١٨٥٧ م) وازدادت حينئذ السلطة تقويا ونفوذا وامتدت فى تلك الممالك حتى دخلت فى حوزتها جميعها من غير كبير مشقة الى أن حدثت ثورة عامة شديدة هائلة من الاهالى وأوقعوا بالانكليزيين الذين هناك أشد وقعة فى سنة (١٢٧٤ هـ و ١٨٥٧ م) حتى آيس الانكليز من تلك المملكة وأيقنوا بتقاص ظلهم منها ولولا اغترار الافغانستان ومعاضدتهم للانكليز على قهر الهنود فقهروهم وقتلوا منهم خلائق لا تحصى ومثلوا بهم شر مثلة وعادت السلطة الانكليزية بسلطة تامة ولم يحصل للافغانستان الا التسلط على سياسته ومملكته بما لم يستقر معه قرار الى الآن ثم ان الانكليز لقبوا ملكة انكلترا بامبراطورة الهند فى سنة (١٢٩٣ هـ و ١٨٧٦ م) وعقدوا له فى الهند موكبا حافلا لا يسمع بنظيره وحضره كل ملوك الهند الذين تحت ولاية الانكليز وحيث كان من العجائب بمكان رأينا أن نثبت هنا ما ذكره أحد مراسلى الصحف العربية فى شأن ذلك الموكب ونصه بينما الناس فى فترة واذا بالانكليز اخترعوا طريقة أنتجت جملة فوائد لهم ولرعيتهم وهاك بيانها تفصيلا وهى تلقيب ملكة الانكليز بامبراطورة الهند فلهذا أجمعت جمعية عمومية من ملوك الهند ومن أمرائها فى بلدة دهلى التى كانت قبلا تخت ملك ملوك الهند فبعد أن حضر جميع هؤلاء الملوك والامراء وأهل الثروة العظمى ونصبوا خيامهم الفاخرة خارج البلدة كرت الناس من كل فج عميق الى دهلى ما بين متفرج وتابع وما بين تاجر وصانع وعامل الى أن غصت المدينة بالناس وصار المحل الذى أجرته عادة فى الشهر خمس روبيات مائة روبية والعجلة التى تكرى عادة بربع روبية بعشرة روبيات فكأن السماء أمطرت والارض أنبتت بنى آدم فان شارع دهلى عرضه أربعون مترا وكان المار فيه يخشى على نفسه من شدة الازدحام وجل هؤلاء الناس وصل الى دهلى بواسطة سكة الحديد فانها متشعبة فى جميع أقطار الهند كتشعب عروق الجسد وهذه الجمعية الكبرى تسمى بلغة أهل الهند بالدربار فجميع ما شاهدته فى هذا الدربار يعجز لسانى عن بيانه وقلمى عن حسابه

واغا

وانما أشرح لك فصلين (أحدهما) فى كيفية دخول حكمدار الهند الى دهلى وكيف استقبلته ملوك الهند وأمراؤها وكيف مشوا فى صحبته وانقادوا فى موكبه وخلف ركابه ﴿والفصل الثانى﴾ فى صورة الجلسة أى هيئة اجتماع الملوك وكيف ألقى عليهم خطاب امبراطورتهم وكيف تلقوه بالاحتفال والقبول ﴿أما الفصل الاول﴾ فهو أنه فى السادس من ذى الحجة سنة (١٢٩٣) بعد الظهر بساعتين اصطفت العساكر الانكليزية البيض وهم فى أحسن الملابس وبغاية النظام فى الطول والاستواء من محطة سكة الحديد الى محل قيام الحكمدار وهو مسافة ثمانية أميال وارتصوا من طرفى السوق الكبير من الجانبين فبعد الساعة الثانية سمعنا صوت المدافع ايذانا بوصول الحكمدار وشرع أول الموكب فى المرور وكان أولهم فرقة من خيالة على خيل حمر بغاية الجسامة على لون واحد وسروج بلون واحد ولباس فرسانها بلون واحد وعددهم نحو الخمسمائة ثم تلتها فرقة أخرى خيالة نحو الخمسمائة على خيل بيض جسام كنظام ماقبلها ثم تبعتها فرقة أخرى خيالة نحو الخمسمائة على خيل شهب فى غاية الضخامة كنظام ماقبلها ثم أعقبتها سرية أخرى خيالة نحو الخمسمائة على خيل بلق كنظام ماقبلها ثم حامية أخرى على خيل شقر ثم أخرى على خيل صفر ثم وثم وثم الى أن مر نحو خمسة آلاف خيال جميعهم بغاية الأبهة ثم أقبلت الطوبجية ومعهم مائة مدفع خلف بعضها فى غاية الضخامة وحسن النظام وحسن الآلات والعدد مع كبر الخيل وحسن هيئتها ثم أقبلت سرية الفيلة وأولها فيل عجيب الشكل أظنه أعلا فيل فى أرض الهند ونابه بارزان عن شدقيه نحو ذراعين وعليهما أطواق من الذهب حلية له وعليه تخت جسيم جميعه من الفضة الخالصة ورخت طويل الى الارض مرصع وعلى ذلك التخت اللورد ايتون حكمدار الهند وهو رجل ضخم الجسم أحمر اللحية وكان على يساره زوجته وخلفه فيل مثله فى الحلية عليه بنتان صغيرتان وخلفهم نحو عشرة أفيال أقل من الفيل الاول فى الحلية وعليهم أتباع ذلك الحكمدار وخدامه ثم أقبلت أفيال أخر نحو العشرة وجميعها بالحلى الفاخر وعليهم حكمدار مدراس وأتباعه ثم حلبة أفيال أخر نحو العشرة وعليهم حكمدار عباى وأتباعه ثم سرب أفيال أخر نحو العشرة عليهم حكمدار لاهور ثم أفيال أخر عليهم حكمدار السند ثم فرقة أفيال أخر نحو العشرين وهى مركوب سلطان حيدر أباد وأتباعه ورخت الفيل الاول منها مرصع بالجواهر ثم فرقة أفيال أخر نحو العشرة عليها راجا جيت براوور راوه (رهكذا) ثم أقبلت أفيال خلف أخر عليها

ملوك الهند والراجات وعددهم نحو التسعين وكانوا كلهم خلف الحكمدار بغاية الوقار والرزانة والخضوع والتؤدة ويقال ان عدد الافيال فى ذلك الموكب نحو ألف ومائتى فيل وليس فيها كلها أعلا من فيل الحكمدار (وهكذا) انتهى الموكب الذى لم يسمع بمثله منذ نزل (آدم عليه السلام) على جبل سرنديب ولا أظن أنه سيحصل مثله وكان مبدؤ مروره من الساعة الثانية افرنجية الى الساعة الرابعة واتفاقات ان هذا الموكب لم يسمع بمثله لاننا ما سمعنا أن ملكا من ملوك الهند المتقدمين أطاعه جميع النوّاب وجميع الراجات بدون توقف ولا مخالفة ولا توان أو أنهم مشوا خلفه فى موكبه وتحت ركابه وهو جالس بالتعاظم على فيل أعلا من جميع أفيال الدنيا وجميع الملوك ينقادون خلفه مع الادب والتؤدة واذا أمكن لاحد قياصرة أوروبا العظام وملوكها الفخام أن يحشر اليوم عسكرا مثل هذا العسكر ومدافع مثل هاته المدافع فمن اين له ألف ومائتا فيل تنقاد خلفه وعليها تسعون ملكا فوالله لولم يكن للانكليز فى الشرق فخر الاهذا الموكب لكفاهم (الفصل الثانى) فى صورة الجلسة أى كيفية اجتماع الملوك ✻ وكيف ألقى عليهم الحكمدار خطاب امبراطورتهم وكيف تلقوه بالقبول والاحترام وكان ذلك يوم (١٤) ذى الحجة سنة (٢٩٣) وهيئته نصف دائرة جنوبى ونصف دائرة شمالى وجميعه مسقف بالقماش وبين الشطرين طريق فاصل للمرور فالنصف الجنوبى عليه ملوك الهند أرباب التيجان وهو عبارة عن دكة مرتفعة بدرجتين عرضها نحو أربعة أذرع وطولها نحو مائة ذراع وعليها كراسى الملوك مصطفة بحسب رتبتهم والنصف الشمالى هو قسمان بينهما طريق فاصل وارتفاع الربعين نحو أربعة أذرع وله درجات للجلوس وفى وسط الدائرة دكة مرتفعة نحو أربعة أذرع مساحتها خمسة فى خمسة ولها مرقاة للصعود عليها فهذه الدكة الوسطى جلس عليها حكمدار الهند ووجهه الى جهة الجنوب جهة الملوك والربع الذى على يمينه جلس عليه الانكليز المتفرجون أرباب المناصب والربع الذى على يساره جلس عليه أعيان أهل الهند وأمراؤها غير أرباب التيجان وهم المدعون للحضور وقطر هذه الدائرة نحو مائة ذراع وحولها دائرة أخرى كبيرة خالية عن الناس لها حاجز من درابزين خشب فاصل بين المتفرجين العوام وبين مجلس الامراء والمسافة بين الدائرة الداخلة والدائرة الخارجة نحو مائة ذراع ومن حول الدائرة الخارجة عسكر الانكليز نظاما وخيالة مرتصين فى ذلك الفضاء وعددهم بالتقريب نحو العشرين ألفا وأكثرهم من الانكليز البيض ومسافة ما بين المجلس

وما

ومابين دهلي ستة أميال في صحراء واسعة بقرب جبل صغير يسمى جبل الفتح فان الانكليز فتحوا دهلي من هذا الجبل سنة (١٢٧٤) ثم اجتمع الناس المتفرجون من كل فج عميق مابين ماش وراكب حتى ملؤا ذلك الفضاء فصار من بيده تذكرة العزيمة يدخل في الدائرة الداخلية ومن ليس بيده تذكرة يقف خارج الدرابزين الخشب ففي الساعة الثانية عشرة أقبل حكمدار الهند وهو لابس من فوق السترة والبنطلون جبة واسعة الاكمام وطويلة الذيل وهي أشبه بالفرجية التي تلبسها كبار العلماء بمصر ولونها رمادي وجميع أطرافها مطرزة بالذهب ومع الحكمدار زوجته ومن خلفه ابن السلطان لكهنو وابن أخي سلطان بنبال في صورة خادمين فلما صعد على درج التخت رفع الغلامان أذيال جبته عن التراب الى أن استقر فوق التخت فأجلساهما على كرسيين صغيرين خلفه وجلس هو على كرسي مذهب وزوجته على يساره ثم أخرج الحكمدار من جيبه ورقتين أعطاهما الرجل انكليزي جهوري الصوت فقرأ الاولى وهي باللغة الانكليزية ومضمونها ان الملكة لقبت بامبراطورة الهند وان جميع الامم ارتضوا بذلك ثم قرأ الورقة الثانية وهي باللغة الهندية ومضمونها مثل الاولى فعند ختامها قام جميع ملوك الهند وصاحوا بارك الله لها في هذا اللقب ونحن أيضا جميعا راضون بذلك فأطلقت المدافع من طرف عساكر الانكليز ومن طرف ملوك الهند واشتغلت آلات الموسيقى بأحسن الالحان وانفض المجلس في الساعة الواحدة فكانت مدة جلوس الملوك نحو ساعة ومدة جلوس الحكمدار وقراءة الورقة نحو ربع ساعة ثم نورت جميع البلدة ليلتين جرى فيهما من ألعاب البارود ما يعجز عن تصوره وكيفية وصول ملوك الهند ✻ الى الدربار أن كل ملك قدم بعساكره من أبناء جنسه وبمدافعه فلما وصلوا الى محل الجلوس دخلت الملوك وجلسوا على كراسيهم تجاه الحكمدار ووقفت عساكرهم وأفيالهم خارج الدائرة وعددهم نحو التسعين ملكا وهم مرتبون بحسب العدد (وهكذا) المدافع التي كانت تقابلهم بالسلام عند قدومهم أعني انه عند قدوم ملك حيدرأباد على قلاع الانكليز أطلقوا له واحدا وعشرين مدفعا ولراجا برودة كذلك ومثلها لراجا جيبور وتسعة عشر لراجا كشمير وثلاثة عشر لنواب رامبور غالب على خان لان رتبته بالنسبة لاقرانه هي العدد الثاني والخمسون (وهكذا) يتقهقر العدد في مدافعهم الى آخرهم وهم نواب دجانة اذ لم يطلق له سوى ستة مدافع فكانت كثرة الاطلاق باعتبار كبر دولتهم وكثرة ايرادهم واتساع دائرتهم بالحرية والتصرف المطلق

❁ وأكثر ملوك الهند من الوثنيين أما المسلمون فاهم خمسة عشر ملكا ثم ان الانكليز
❁ استفادوا من هذا الدربار ثلاث فوائد (احداها) انهم جعلوا أهل الهند وملوكها رعية لهم برضاهم واختيارهم لا بالسيف وطريق التغلب كما مر في الازمان السابقة (الفائدة الثانية) انهم جمعوهم ليختبروا حالهم من جهة المال والقوة العسكرية وهل عندهم أسلحة جديدة يخشى بأسها أولا فوجدوهم على الحالة الهمجية القديمة في الاسلحة وآلات الحرب حتى ان بعضهم كان لعساكرهم البنادق والفتيلي أي المشادلي وبعضهم يحمل القوس والنشاب والرمح وبعضهم يلبسون الدروع والخود على العادة الجاهلية فاطلعوا على قوتهم وعرفوا انهم ماداموا يجهلون الاسلحة الاوروباوية فلا يمكن للخناس الذي وسوس للصرب ان يوسوس لهم (الفائدة الثالثة) أن تجار الانكليز ربحوا من هذا الدربار عشرة ملايين ليرة لما حصل عنه من رواج التجارة ونفاق السلع حتى فاق على معرض باريس في زمن نابليون حيث جلب اليه من كل غريبة ونادرة وعجيبة فان عدد تذاكر سكة الحديد التي بيعت الى السفر الى دهلي بلغت نحو مليون تذكرة وبعض الوفود رحل من محل بعيد عن دهلي مثل أهل كلكوته وأهل مدراس وأهل السند وأهل بمباى وأهل بشاور وكان بعضهم يركب في الدرجة (الاولى) وبعضهم (في الثانية) وبعضهم (في الثالثة) فالدرجة (الاولى) أجرتها نحو (عشرين) جنيها والدرجة (الثانية) أجرتها نحو (عشرة) جنيهات والدرجة (الثالثة) نحو (ثلاثة) فاذا ضربت القليل في الكثير والقريب في البعيد كان المدفوع من مليون نفس ثمانية ملايين ليرة وجميع ملوك الهند حضروا ذلك الدربار امتثالا لاوامر الحكمدار ما عدى ملكة تجاور فانها اعتذرت بأنها في حالة الولادة ونواب وأمير وغالب على خان فانه تعلل بأنه مريض بداء البرص وأنه لا يمكنه الحضور في مجمع الملوك لئلا تنفر طباعهم منه (انتهى)
❁ ثم زار تلك الممالك ولي عهد مملكة انكلترا واحتفلوا به وهادوه بهدايا نفيسة ملوكية يأتي الكلام عليها في الكلام على معرض باريس من المقصد ثم ان استيلاء الانكليز كما تقدم كان شيئا فشيئا فبعض الملوك والامراء سلموا اليه السيادة وابقاهم على ولايتهم عند قصده لهم بالحرب وأبقى لهم ما يملكون من المال والجوهرات في خاصة ذاتهم وبعض التصرفات والتصرف الحقيقي بيد الانكليز سواء كان في الادارة المالية أو السياسية (وأما العسكرية فالكل عساكر تحت أمره وكثيرا ما تأتي

العساكر

العساكر الانكليزية لارهاب الولاة والملوك واخضاعهم فالتصرف حقيقة للانكليز لكن للملوك الأبهة والاسم بحيث ان التصرفات تنسب اليهم بالاسم كما ان بعضا من الملوك والامراء طلب الدخول لما رأى العواقب آيلة اليه فلذلك لم تزل الى الآن ممالك مستقلة بارادتها تحت ولايته فمنها ما يؤدى له خراجا ومنها ما يأخذ الملك وحكومته مقدار ما يكفى للقيام بمصالحهم وما بقى يرجع الى حكومة الهند العامة وتصرفهم على نحو ما سبق وقد قسم الانكليز تلك الممالك الهندية عدى حكومة البلدان المتقدمة الى (ثلاثة) أقسام كبيرة فالقسم (الاول) مملكة بنغالة وقاعدتها كلكوته وهى مقر الحاكم العام ويتبع هذا القسم من الممالك الممتازة بالادارة (احدى عشرة مملكة فأولها) مملكة نيزام وهى واقعة فى وسط أرض دكين بين مملكة بنباى من غربها وبين مملكة مدراس من شرقها وتخت هاته المملكة مدينة حيدر أباد التى سكانها نحو أربعمائة ألف نفس والانكليز ساكنون فى بلدة صغيرة من غربها تسمى سكندر أباد وبهاته المملكة بلد تسمى أهور بها معابد عجيبة تحت الارض دالة على مهارة مهندسى ذلك العصر عندهم وسكان هاته المملكة نحو عشرة ملايين وملكها من الهنود وله زيادة استقلال فى ادارته على ما للممالك التابعة للانكليز ويؤدى لهم خراجا معينا سنويا وهى مملكة اسلامية (وثانيها) بوندلكندو بها عدة خانات كل خان يحكم على قبائل وجهات خاصة وعدد سكان هاته المملكة الموزعة على الخانات نحو ستة ملايين ولكل خان مركزه وتخت حكومته (وثالثها) مملكة بوبول ولها ملك أيضا وسكانها نحو ستمائة ألف وسبعين ألفا وتختها بوبول (ورابعها) مملكة شنديا ولها ملك أيضا وسكانها نحو مليونين ونصف وفى هاته المملكة بلدة أوجين التى تعبرها الهنود مبدأ خط الطول وتختها كواليور (وخامسها) مملكة هلكار ولها ملك أيضا وسكانها نحو ستمائة ألف وتختها اندور وهاته الممالك الاربعة الاخيرة فى الذكر كانت هى مملكة المهرجات سابقا (وسادسها) مملكة راجابوتان ولها ملك وسكانها نحو سبعة ملايين وتختها أوديبور (وسابعها) مملكة بهوبال ولها سلطانة اسلامية بالوراثة للملك من آبائها وزوجها مباشر للتصرفات بالنيابة عنها وهو رجل عالم كما ذكرنا فى غير هذا المحل وسكانها نحو ستمائة ألف وتختها بهوبال (وثامنها) مملكة لادك ولها أمير وسكانها نحو مائة ألف وسبعين ألفا من الانفس وتختها الادك (وتاسعها) مملكة بدستان ولها ملك له زيادة امتياز فى الادارة وسكانها من المسلمين وقاعدتها على نهر

السند تسمى اسكردو وتسمى هاته المملكة أيضا ببلاد البلتى (وعاشرها) مملكة
كاوود وهي صغيرة وعدد سكانها قليل ولها أمير (وحادي عشرها) مملكة سيره ومنل
المتقدمة عليها وتختها مجمين ❁ (والقسم الثاني) من الاقسام الكبرى هو ممالك بونباي
ويتبعه من الممالك الممتازة خمس ممالك (فأولها) مملكة كاش وتختها بوهيج
(وثانيها) مملكة كانبي وتختها كانباي (وثالثها) مملكة كوي كووا وسكانها
نحو مليون وثمانمائة ألف نسمة وتختها باردوه (ورابعها) مملكة ساوندواري وتختها
ساوندواري (وخامسها) مملكة كولابور وتختها مدينة كولابور ❁ (والقسم
الثالث) من الاقسام الكبرى هو ممالك مدراس ويتبعه من الممالك الممتازة اثنان
(فأولها) ميسورا وتختها ميسورا وسكانها نحو ثلاثة ملايين (وثانيها) مملكة
اترا وانكور وعدد سكان هاته المملكة مليون وثلاثمائة ألف نسمة وتختها بلد اتريفان
ديرام ولكل حاكم مستقل بامتياز في الادارة على نحو ما تقدم ذكره فما تقدم هي الاقسام
الكبرى التي لكل منها أقسام صغرى تحتها وممالك ممتازة ترجع اليها كما انه يوجد
أربعة أقسام صغرى ليست داخلة تحت الاقسام الاولى وانما لها ادارة منفردة تحت
نظر الحاكم العام الانكليزي وهي أقسام أربعة داخلة تحت الانكليز وادارتها
بيدهم مثل الاقسام الكبرى وهاته الاربعة أقسام (أولها) المسماة بولاية الشمال
الغربي (وثانيها) المسماة اود (وثالثها) المسماة بنجاب (ورابعها) المسماة
بالولاية الوسطى كما تتبع ممالك الهند الانكليزي مملكة كشمير لكنها لما
كان لها زيادة امتياز ذكرناها منفردة وسيأتي الكلام عليها والممالك الممتازة ان كانت
اسلامية فرئيسها يلقب بنائب لانهم في السابق كانوا نوابا للسلطان المسلم الذي تحته
بلد دهلي وان كانت الممالك غير اسلامية فرئيسها يلقب براجا هذا ❁ (وأما كيفية
الادارة السياسية والعسكرية في جميع الممالك الهندية فان جميع الاقسام ترجع الى
حاكم عام انكليزي يرتبط مع دولة انكلترا بواسطة وزارة الهند في لوندره ثم هو في نفسه
قد وظفته دولته بهذا الاسم في (سنة ١٢٧٥) هـ و (١٨٥٨ م) ورتبت للهند
قانونا خاصا فمن مهمات كلياته أن الحاكم العام له النظر العمومي على أقسام المملكة كلها
وما يتبعها وتصرفه مقيد بمجلس شورى مركب من أعيان الانكليز المقيمين في الهند ومن
أحد كبراء الاهالي وهذا المجلس والرئيس عليه الذي هو الحاكم العام تحت احتساب
مجلس الندوة في لندره ومسؤول له والواسطة بين الدولة والحاكم العام هو وزير الهند

في

فى لندره وله فى الوزارة مجلس عدد أعضائه خمسة عشر وكاتبان ومن حقوق مجلس الهند المذكور انشاء القوانين العامة فى الهند وتنظيم الادارة السياسة والعسكرية وانشاء الاحكام العامة وما ينشؤه هذا المجلس اذا وافق عليه مجلس الندوة فى لندره يصير معمولا به فى ممالك الهند ثم لكل من الاقسام الثلاثة الكبرى المذكورة حاكم خاص ومجلس شورى مركب من أعيان الاهالى وأعيان الانكليز تحت رياسة الحاكم ومن وظائف هاته المجالس انشاء قوانين الاحكام الخاصة بقسمهم وعرضها على الحاكم العام وبعد نظره هو ومجلسه فيها والتصديق عليها يرفعها الى الندوة بلندره كما تقدم كما أن للمجالس الثلاثة المذكورة الاحتساب على سيرة الحكام فى قسمهم والنظر على الضابطة المكلفة بالامور السياسية والاحوال العرفية ولهم النظر على الملوك والامراء الراجعين الى قسمهم كما أن لحكام هاته الاقسام المقيد تصرفهم بالمجالس قوة على التنفيذ بواسطة القوة العسكرية ثم لكل قسم ولايات فرعية ومنها الممالك والامارات المستقلة وكل من هاته الولايات لها مجالس ادارة تحت رياسة الوالى أو الامير أو الملك و يتصرف بمشاركة نظر المجالس فى الادارة السياسية والمالية والعسكرية والمتوظفون يكونون بحسب أهالى الولاية اما من مسلمين فقط أو هنديين فقط أو مختلطين والتصرفات الصادرة من هؤلاء سواء كانت حكمية أو سياسية أو مالية يمكن رفعها لمجلس القسم الراجعة الولاية اليه وله تحقيق النظر فى النازلة على قواعد عندهم فى ذلك وهكذا الاحكام الشخصية فى كل ولاية لها مجالس وقوانين يتصرفون بمقتضاها وهاته القوانين قواعدها الكلية هى قواعد أحكام الانكليز غير أن لكل ولاية قوانين خاصة مطابقة للعوائد والعرف المتعارف فيها أما ما يرجع الى الزواج والارث والملك فان الاهالى تجرى عليهم أحكام دياناتهم بواسطة مجالس من أهل الديانة ويمكن رفع أحكامهم الى مجلس الولاية ومنه الى غيره الى ان ينتهى الى المجلس العام والديانات التى لها متوظفون هناك من الدولة هى الديانة الاسلامية والبرهمية وما أشبههما من الديانات المجوسية والوثنية ولهم خرافات مبسوطة فى كتب الكلام والسكان الآن مختلطون من عرب وفرس وأوروباويين وهنود أصليين والمعارف عندهم الآن فى تقدم سيما العلوم الكيمياوية والحكمية لفتح الانكليز هناك المدارس مشتملة على ما فى أوروبا من المعارف واقتدت بهم الاهالى حتى ضعفت تجارة الانكليز بما ينتج من مصنوعات البلاد والعلوم الاسلامية نافقة السوق ولها فحول مؤلفون منهم سلطان بهوبال الذى طبع الآن

من تأليفه فى مطبعته ومطابع الممالك العثمانية كثير من تاليفه فمنها تفسير للقرآن سماه فتح البيان فى مقاصد القران نحا فيه التوسط بين المنقول والمعقول ومنها الحصول فى علم الاصول ومنها لقطة العجلان فيما تمس الى معرفته حاجة الانسان وهو كتاب بديع فيه تحرير كثير من المسائل الاصولية والكلامية والفرعية وله عدة تآليف أخرى وهذا العالم الملك هو من نوادر هذا العصر فانه مع اشتغاله بمهام السياسة التى تقلدها بالنيابة عن زوجته سلطانة تلك المملكة قد تبحر فى الفنون العلمية سيما الشرعية وآلاتها وفصاحته فى نسج تآليفه يحمده عليها أهل اللغة العربية وعلى الخصوص فى هذا الزمن الذى كادت أن تتلاشى فيه اللغة والعلوم من الامة الاسلامية ومن فحول علمائهم فى هذا العصر الشيخ العلامة رحمة الله صاحب تأليف اظهار الحق الذى ألفه بسبب مجادلات دينية فتح بابها قسيسو البروتستانت راغبين دعوة أهل الهند المسلمين الى ديانتهم فأفضى الحال الى مناظرتهم مع الشيخ المذكور وآل الحال الى مناظرتهم بالتأليف فأفحمهم بتأليفه المذكور مستندا فى الرد الى كتبهم وأقوال علمائهم بما ينبئ عن اتساع باعه واطلاعه وهذا التأليف قد ترجم الى الفرنساوية وغيرها من اللغات وهو بديع فى بابه وقد صار الآن عزيز الوجود مع انه طبع مرتين وشاعت منه آلاف من النسخ وفى هاته المملكة علماء أخر (ولله الحمد) كما ان لاهاليها تقدما فى الحذق والصناعات سيما النقش والترصيع فى الخشب والعاج من قديم الزمان ومنسوجاتها وطرازها شائع فى أغلب الاقطار كما ان أهاليها هم الذين اخترعوا الارقام الحسابية ولذلك تسمى بالارقام الهندية الى الآن وهو اختراع عجيب شمل جميع الاعداد فى تسعة أشكال ويكفى للدلالة على ما كان عندهم من الحذق فى الصنائع المعابد التى فى جزيرتى الفيلة وساسيت الكائنتين قرب بنباى فان تلك المعابد منحوتة فى الصخر نحتا عجيبا فى الصناعة والاتقان كما أنه فى ايالة بجابور فى جبل نحات مدينة فيزيابور التى كانت تختا للملك المسلمين هناك وفيها بناآت بديعة والآن خربت وهاته المملكة لما كانت متسعة جدا فهواؤها مختلف ولكن تغلب فيها أمراض تقل فى غيرها وتشتمل على أغلب النباتات المعروفة فى غيرها ولها نباتات تختص بها كالقمارى والجوز الطيبى وغيرها وقد امتدت فيها الآن طرق الحديد تخترقها فى أغلب الجهات كما أن المواصلات فى أنهرها العظيمة متوفرة بالسفن كما أن الطريق الحديدى اخترق أهم جهاتها ودونك أهم ما وصل اليه فمنه فرع من كلكوته الى دكة ومنها الى ميرزابول ومنها أيضا الى دهلى ومنه الى أبادالى

بنباى

بنباى ومنها الى كوراتشى ومنها أيضا الى مدراس ومن هاته الى بيهول ومنها الى نيغاباتام ومن مدراس الى كلكوته ومن كوراتشى الى حيدرأباد ومن ملتان الى لاهور ومنها الى بيشاور ولا زالوا يمدونها فى أغلب الجهات حتى قربت الى حدود الافغانستان ويمكن ان تصل الى الصين والممالك العثمانية اذ التفكر فى ذلك مستمر بحيث ان السفر الآن فى الهند مع الامن فى غاية سهولة الموصلة بالطرق الحديدية والعادية والانهر والترع كما ان السلك الكهربائى واصل بعضها ببعض كما وصلها باوروبا بحيث ان انكلترا تصل لها الاخبار من الهند على ثلاثة طرق (فأولها) من الهند الى خليج فارس الى الممالك العثمانية الى بقية أوروبا (والثانى) من لندره الى جبل طارق الى مالطه الى السويس الى عدن الى الهند (والثالث) من لندره الى فرنسا الى الجزائر الى مالطه الى البقية مما تقدم ولا يبعد أنه يصل أيضا على طريق رأس الرجاء الصالح فانه وصل من لندره الى هناك ومنه الى زنجبار فلم يبق الا منها الى الهند ومن أخشابها المنفردة بها عود القمارى وأما قوة هاته المملكة الحربية والمالية فستأتى ان شاء الله فى جدول الدول

الفصل * السادس

(المملكة السادسة)

هى مملكة بورما وهى الى الشمال الشرقى من المملكة السابقة وعدد أهلها نحو ثلاثة ملايين ونصف وديانتهم بوذية مشركون وحكمهم استبدادى مطلق وهم اهل مكر وخديعة وليس لهم ولوع الا بعلم النجوم والارصاد والسحر وأكثرهم يعلم القراءة والكتابة ولاراضيهم نتائج حسنة وتجارة واسعة مع مجاوريهم من الهند والصين وقاعدة المملكة مدينة آفا فى القديم والآن مدينة مندلاى والداخل اليهم يكون فى قبضة البخت من حكامهم وان كان الانكليز فى هاته الازمنة مرشدا اليهم بعد أن أخذ منهم قسما فى سنة (١٨٢٥) وقد صار يأمرهم بالعدل حتى انكر على ملكهم فى سنة (١٢٩٦) قتله لثمانين نفسا من الرجال والنساء والاطفال شرقتله وهم من عائلات الملك وكاد ان يعقد معه حربا لاجل استتباب الامن جوار الهند ودخل هاته الدولة وخروجها مجهول وقوتها من النوع الهمجى وكأنها لا تلبث ان تدخل فى حكم الانكليز

الفصل السابع

﴿المملكة السابعة﴾

مملكة سيام او صيام وهى جنوبى المملكة السابقة وشرقى بقية المملكة الهندية الانكليزية وعدد أهلها مع ما يتبعها فى جزيرة ملاقا وغيرها نحو ستة ملايين ونصف وديانتهم وحكمهم مثل المملكة السابقة ومعارفهم أقل من سابقيهم لكنهم يوصفون بالامانة وتجارتهم من معادن بلادهم الغنية مع الهند والصين والاوروباويين وقاعدة المملكة صيام فى القديم والآن مدينة بان جوك والدخل والخرج والقوة كلها مجهولة وهى فى القوة على غير نظام

الفصل الثامن

﴿المملكة الثامنة﴾

هى مملكة كوشين الصين أو أنام وهى شرقى المملكة السابقة وعدد أهلها قبل استيلاء الفرنسيس على قسم منها ما بين اثنى عشر مليونا الى ستة عشر مليونا لكنها الآن نحو تسعة ملايين وقاعدتها مدينة اووى و باسان الهنود فوشواش وقيل وهو الاصل مدينة هو يفو وهى مربعة الشكل يحيط بها نهر هو من جانبين وترعة من الجانبين الآخرين عرض هذه الترعة سبعون ذراعا وكل ذكر عندهم ملزوم بالدفاع عن الوطن من سن العشرين الى الستين ولهم خلق بشوش ولبس النساء والرجال سواء وهو سراويل وجبة الى الكعب والرجال لا يزيلون شيأ من شعورهم واغاير بطونها ومن عاداتهم اباحة السكر ولا ديانة عندهم وانما يعتقدون خرافات كثيرة والنسوة لا يحتجبن و يتعاطين الاشغال مثل الرجال وملكهم له اعتناء بتعليم الاهالى العلوم الرياضية و يرسل خمسة عشر تلميذا من أبناء أعيانهم الى فرانسا للتعلم فى مدارسها وعند رجوعهم يعوضهم بغيرهم وهم يبثون علومهم فى الاهالى و بعد استيلاء الفرنسيس على قسم من مملكته صار محافظا على موالاتهم وحفظ عهودهم حتى ارسل سفيرا مخصوصا لباريس مدة ولاية الرجل الشهير تيارس رياسة الجمهورية الفرانساوية كما رتب هذا الملك جيوشه

على

على الطراز الاوروباوى وستأتى قوته العسكرية فى جدول الدول وأما المالية فمجهولة وأما العادات الحكمية فلا تخرج عن عادات الممالك السابقة

الفصل * التاسع

﴿المملكة التاسعة﴾

مملكة كمبوديا وهى غربى بعض المملكة السابقة وجنوبى بعض صيام وعدد أهلها نحو مليون وقاعدتها مدينة سايكون فى القديم والآن مدينة بنوم بنه ويقال فى ديانتهم وحكمهم وقوتهم ماهو واقع فى الممالك المجاورة لهم وقد استولى الفرنسيس على قسم من هاته المملكة عند مصب نهر كمبوديا وقد صارت هاته المملكة تحت حماية فرانسا منذ سنة (١٢٨٠ هو ١٨٦٣ م)

الفصل * العاشر

﴿المملكة العاشرة﴾

هى مملكة ملقا وهى شبه جزيرة الى الجنوب من مملكة صيام ويحيط بها البحر من جميع بقية الجهات وعدد أهلها نحو ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألف نسمة والديانة الغالبة فيها هى الاسلام وحكمهم الصورى ملك مستقل مستبد لكنه قليل النفوذ وأغلب القبائل تعيش بحريتها تحت رياسة كبرائها وكل قبيلة تدافع عن نفسها ولذلك يعدها الجغرافيون منقسمة الى أربعة قواعد (الاولى) براك (والثانية) سلانكور (والثالثة) جوهر (والرابعة) باهنك وأراضيهم غير مخصبة لكنها فيها معادن غنية وأشجار الافيون كثيرة فتجارتهم فيه مع الصين واسعة وقد استولى الانكليز على جهات من هاته المملكة منها مدينة ملقا

الفصل * الحادى عشر

﴿المملكة الحادية عشرة﴾

هى مملكة الصين وهاته المملكة هى أكثر ممالك العالم سكانا وأغناهم لاحتوائها

على أقاليم مختلفة ففيها جميع أنواع النبات والمعادن وتجارتها متسعة مع جميع الاقطار ولاهلها شهرة قديمة فى الصنائع وأهمها صناعة الخزف فانها اشتهرت باتقانه على جميع النواحى فيتنافس الناس فى اقتناء أوانى الخزف الصينى تنافسا كليا وبعضهم يبلغ به درجة خارقة للعادة وللاعتدال سيما فى أوروبا حتى تجد الواحد منهم يزين بيته بترصيف تلك الاوانى التى تتكلف عليه بمئات الالوف وكذلك ملوك الهند وماوالاه يتنافسون فى اقتناء الرفيع من أوانى ذلك الخزف وقد يبلغ ببعض الناس اشتراء صحن واحد بالف فرنك فما فوق وعلى وجه العموم كل الناس يرون رقته وحسنه غير أن هاته الصناعة الآن انحطت فى هاته المملكة عما كانت عليه بكثير لعدم الاتقان السابق فالتنافس والتغالى انما هو فى الخزف القديم وله صفات كثيرة تميزه عن غيره فمنها أنه هو وان كان كثيفا لكن النور يظهر من ورائه ومنها أنه اذا ضرب عليه يكون حسن طنينه كانه طنين معدن مطرق من المعادن العزيزة ومنها حسن الالوان فيه كما أنهم لهم اتقان فى صناعة النقش والتصوير فى سن الفيل وغيره (واما المعارف والعلوم) فالظن انهم كانت لهم فى القديم فنون كثيرة وبقيت فيهم الدعوى فقط بحيث يرون أنفسهم أعلم أهل الارض لكن فى الواقع ليس لهم الاشئ من الحكميات والنجوم مغرمون باستخدامه فى علم الغيب وأشباهه مما لا طائل تحته وحدث فيهم أخذ بعض الطبيعيات عن الاوروباويين واستخدموها فى منافعهم كالبخار والكهربا لكن لم يتجاوزوا الى الآن المقدار الذى أخذوه ولم يخترعوا شيأ فيه وقد كانوا اكتشفوا بيت الابرة وقد أثبت بعض المؤرخين أنها من اختراع العرب كما أن أهل الصين اخترعوا البارود ولم يعرف انهم استعملوه فى حرب قبل استعماله فيها عند غيرهم وانما كانوا يستعملونه للاصلاح كدك التلال وغيره وان وجد من آثار سلاحهم قديما مايدل على أنهم كانوا يستعملونه فيه وأول ما عرف البارود فى جهاتنا من العرب سنة (٧٣٧) هجرية ومو قع هاته المملكة من مبدأ الشطوط الشرقية من آسيا على المحيط الشرقى الى ان تتصل بأملاك الروسيا ومن الجهة الجنوبية تبتدئ من جبال هملاى الى سبيريا من جهة الشمال فهى حينئذ تحاد الهند من شماليه وماوالاه من الممالك الشرقية منه وعدد سكان هاته المملكة نحو الثلث من سكان العالم كله وهم على ماتحرر فى سنة (١٢٨٦ هـ و ١٨٦٩ م) قريبا من خمسمائة وسبعة وثلاثين مليونا من النفوس وهذا المقدار يساوى نحو الضعف من سكان أوروبا كلها ومع هاته الكثرة التى

هم عليها كانوا في السالف لا تكاد تجد منهم خارج مملكتهم الا النادر القليل لاعجابهم
بأنفسهم ولان اصطلاحات أحكامهم تمنع الخروج من الوطن الا باذن خصوصي مع
التشدد فيه حتى يتبين وجه أكيد لمريد السفر ثم مع ذلك اذا غاب المسافر عن وطنه
مدة ثلاث سنين يمنع من العود اليه والدخول فيه كما أن من احكامهم منع دخول أجنبي
الى أرضهم الا برخصة مخصوصة فاذا اتاها كان أين ما حل مكرما محروسا (وأما) اذا دخل
بغير رخصة فلا يأمن على نفسه سيما من الحكم وقد بقوا على هاته العوائد الى أواسط
هذا القرن ثم اطلق الاذن لمن يريد السفر فصار يخرج منهم الكثير الى الهند وجزائره
والى امريكا والخارجون لهم براعة في التجارة وتكاثر الخارجون لضيق الارض بهم حتى
انهم في وطنهم يضطرون الى السكنى على الالواح في الشطوط بل انهم يجعلون على الالواح
بساتين لان الارض لا تكفيهم لكثرتهم واتقانهم لتعميرها بالفلاحة حتى انهم يعملون من
أنواع السرقين ما لا يعلمه غيرهم الى الآن وهذه المملكة تنقسم الى ثماني عشرة ولاية
تسمى كل واحدة منها بلغتهم سنقا (وأولها) المحتوية على تخت السلطنة تسمى با كنغ
أو با أوتاشي أو بي ويبلغ عدد سكانها أربعين مليونا ثم ان كل ولاية تنقسم الى أوطان
يقال للواحد منها بلغتهم فو وكل وطن من هاته ينقسم الى أجزاء يسمى كل واحد منها
تشيو ثم كل جزء ينقسم الى أقسام متعددة صغار تسمى هيان وكانوا يمنعون اقامة نواب
الدول الاجانب في مملكتهم فضلا عن قاعدتها وحيث كانت دول أوربا في هاته القرون
الاخيرة لهم مزيد الاعتناء باتساع تجارتهم طلبوا من تلك الدولة الاذن لتجارهم بالاشتغال
في المملكة والاقامة بها كما يقيمون سفراءهم عندها وبعد مشقات شديدة حصلوا على
الرخصة في وفود تجارهم لكن بخصوص مراسي معلومة على البحر وكذلك السفراء على
شرط أن لا يبيت أحد منهم في البلد أو في البر وانما يبيتون في سفن حول الشاطئ ثم
في أواسط هذا القرن أرادت الدول زيادة اتساع الخلطة والتقدم في الالتحام بأن يكون
لتجارهم الدخول الى دواخل المملكة مع التعهد من الدولة بحمايتهم وأن يكون
سفراؤهم يقيمون في قاعدة المملكة وحيث كان أهل الصين أشد الناس تحفظا على
عوائدهم امتنعوا من ذلك وجرت من تجاسر الاوروباويين مهاوش قتل فيها منهم كثير
ممن وجد في مراسي المملكة مخالفا لما اذن له فيه فتعصبت حينئذ دولتا انكلترا وفرنسا
على محاربة الصين وحاربوهم فما كانت بضع أشهر حتى وصلت عساكر أوروبا الى
قاعدة المملكة وعقدوا صلحا على نحو ما طلبوا وبهذا يتبين للطالع حالة أهل المملكة في

الشجاعة والفنون الحربية لانهم مع كثرتهم المفرطة قهرتهم دولة الانكليز والفرنسيس بعساكر قليلة لما لا يخفى من كثرة البعد بين أوروبا والصين سيما وقد كان ذلك قبل فتح خليج السويس الذى سيأتى الكلام عليه فى المقصد ان شاء الله تعالى فكان طريق الوصول انما هو رأس الرجاء الصالح نعم ان لكل من الدولتين مراكز حربية فى الهند لاسيما دولة الانكليز التى مملكتها فى الهند أعظم من مملكتها فى أوروبا لكن هم بلغوا ما بلغوا فلو كانت دولة الصين على كثرة سكانها لها الاستعداد الحربى مع الرجولية فى السكان لامكن لهم الفيضان على جميع العالم فضلا عن المدافعة عن نفسها وكان السبب فى عدم اقتدارهم كثرة استعمال الافيون الذى هو مصيبة عامة فيهم وتبلغ ببعضهم مبالغ نسئل الله تعالى منها اللطف والحماية غير ان هاتيك الخلة لا تعم جميع أقسام المملكة وذلك ان هاته المملكة الرحبية تنقسم الى ثلاثة أقسام كبرى (الاول) منشورية وهو الجهة الشمالية الشرقية من المملكة (الثانى) المقاطعات الثمانى عشرة وهو الجهة الشرقية والوسطى من المملكة وهو الصين الاصلية وتغلب عليه أهل القسم الاول ثم تغلبوا على القسم (الثالث) وهو الاملاك الاضافية مثل المغول والتبت وغيرها وصارا لجميع مملكة واحدة معروفة بالصين فأهالى الصين الاصليون هم الذى تغلب فيهم الصفة المتقدم ذكرها وأما المنشورية والمغول وغيرهم فانهم أقوياء وأشداء لاسيما التتر المغولى (ولهذا) كانت السلطنة لغير الصينيين الاصليين ولما تفطنوا فى السنين الاخيرة لما لحقهم من قهر الاروباويين لهم مثل ما تقدم من جهة انكلترا وفرنسا ومن جهة أخرى قهر الروسيا لهم من جهة الغرب الشمالى وحمايتها لبعض ممالك التتر المغول منهم جدوا الآن فى الاستحضارات الحربية حتى روى بعض الاوروباويين عنهم انهم احدثوا ترتيبا فى القوات الحربية يمكنهم من احضار خمسة ملايين من العساكر تحت السلاح وشرعوا فى الاستكثار من الآلات الحربية وجلبها من أوروبا على الطراز الجديد كما فتحوا معامل فى ممالكهم لاجل ذلك وكذلك القوات البحرية استحضروا منها فى ممالكهم معامل لاجل السفن والمدرعات والتروبيد واصطنعوا فى أوروبا كثيرا منها فان تم استحضارهم على نحو ما تقدم يمكن ان يصيروا على حالة الهجوم بقوات مجتمعة (واما الديانة) فانهم ليسوا على دين واحد بل على (ثلاثة أقسام) كبرى ﴿أولها﴾ وأقدمها الدين الذى أسسه حكيمهم المسمى عندهم بو وقيل انه كان أول سلطان فى عائلة هيا وذلك قبل هذا التاريخ بنحو أربعة

آلاف

آلاف سنة وعقائد هذا القسم وفروع عباداته لهم فيها تآليف يعتبرونها كأنها كتب سماوية وفي القرن السادس عشر قبل التاريخ المسيحي هذب لهم تلك الديانة حكيمهم المسمى كنفوتسي ومضمون هاته العقائد الاقرار بالخالق سبحانه وتعالى وبالحشر ومن أخلاقهم السماحة ولا يغصبون على ديانتهم أحدا ولا يحتقرون ديانة من خالفهم ﴿القسم الثاني﴾ هو الدين الذي أسسه حكيمهم لاوتسو ومضمون عقائدهم القول بالتناسخ وعدد أتباع هذا الدين نحو مائة مليون ﴿القسم الثالث﴾ الدين الذي أسسه حكيمهم المسمى فواوصا كيا أو بدهة ويعرف بالمذهب البدهي وكان أول ظهوره أواسط القرن السابع قبل الميلاد وعندهم من الكتب تآليف عديدة منقسمة الى مجموعين (احدهما) يقال له عندجور وهو مائة وثمانية مجلدات والثاني يسمى دندجور وهو مائتان وأربعون مجلدا ويوجد من كل منها نسخة تامة بمكتبة باريس الكبرى قيل ان المجموع (الثاني) اشترته دولة الفرنسيس بأربعين ألف فرنك كما أنه يوجد أقسام أخرى من الديانات كالبراهمة وغيرهم من عبدة الاصنام أو النصارى واليهود والديانة الغالبة فيهم هي البوذية وهي نوع من الوثنيين كما أن فيهم قسما عظيما من المسلمين يبلغ الى ما ينيف عن الستين مليونا فمن هؤلاء نحو أربعين مليونا متفرقين في الممالك أصلهم من الاهالي ومن العساكر المسلمين الذين جاءهم ملك الصين في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور حيث ثارت عليه رعاياه فاستنجد بالخليفة على ان يؤدي اليه معلوما اذا أنجده فأرسل له أربعة آلاف من صناديد المسلمين وقهر بهم رعاياه وجازاهم عن ذلك بجواز الاقامة في مملكته مع جواز التزوج ببنات الاهالي ومصاهرة الاعيان واعطائهم ما يحتاجون اليه فأقاموا على شروط وهي استقلالهم في اداراتهم الخصوصية وعباداتهم واشهارها فاجازلهم مطالبهم لكن فرقهم على المدن العظيمة في مملكته وصار في كل مدينة مدينة مستقلة بالمسلمين على حسب كثرتهم وقلتهم مستقلين في أحكامهم الخصوصية مشهرين لشعائر الدين ولهم قضاة وأئمة بحيث لا يتداخل فيهم الحكم الصيني الا في عموم السياسة ومنهم في مدينة باكين قاعدة المملكة نحو عشرين ألفا ولهم جامع ضخم قديم حسن جدا ويسمونه بلغتهم هوي هوي ومساجد أخرى نحو العشرين منها اثنان لاهل الشيعة حيث حدث فيهم هذا المذهب في القرون الاخيرة وأغلبهم أهل سنة على مذهب أبي حنيفة وكذلك بقية المسلمين في الصين مثل ما ذكر من القسمين ومن عادات هؤلاء المسلمين أن ينشروا في رأس كل سنة تقارير تشتمل على بيان أوقات الصلاة مكتوبا

بأعلاها من أركان الاسلام الخمس كلمة الشهادة والصلاة والزكاة والصوم ولا يذكرون الركن الخامس وهو الحج قال بعضهم ان علمائهم أسقطوا ذلك لعدم تحمل مشقة الطريق لبعد مسافة الحج عندهم وأظن أن علة منع الخروج من ممالكهم هي الباعث على ذلك والافليست مملكة الصين بأشق في السفر من أهالي سمطرا وأقصى الغرب ودواخل السودان فجرت على ذلك عادتهم ولو بعد انتفاء الموانع وسهولة السفر بحرا في البواخر ومن عاداتهم أيضا أن يكتبوا على أبواب الجوامع خواي خوي ثانغ أي محل الجماعة الاسلامية وأن يكتبوا تسين جين سواي معبد الاله الحقيقي ويسمون علمائهم لاوجوفو أي المعلم الاكبر وأما أهل الصين فيسمون جوامع المسلمين ليطاسواي محل العبادة الاسبوعية وحيث كان الدين الاسلامي لا يجوز مناكحة المشركين أسلم كثير من نسائهم بل وعائلات النساء وتزوج بهن المسلمون وتناسلوا الى أن بلغ عددهم نحو الاربعين مليونا في هذا العصر ولم يزالوا على الاستقلال الاداري حتى حكى طرفا منه ابن بطوطه وهم عليه الى الآن ومن المسلمين أيضا أقسام في الجهة الغربية والغربية الشمالية من المملكة فمنهم المجتمع والمفترق وتسلطت على ممالكهم دولة الصين ولا يزالون ينتهزون الفرص للخروج عنها فتارة يتمكنون من ذلك وتارة تعود للاستيلاء عليهم مثل مملكة كاشغار في الجهة الشمالية الغربية فقد استقلت تحت ملك في عشرة الثمانين ومائتين وألف وهو الامير يعقوب خان الذي ولد في جوار تشقند وحصل العلوم في سمرقند واشتهر في أعظم مدارس بخارى مع مهارة في السياسة أهلته لان يكون مشيرا مطاعا عند أمير خوقند وأرسله حاميا لمهاجمات الروس على قلعة أكتشيت ثم توجه الى كاشغار للحرب مع الصينيين وحصل على انتصار عظيم أورثه شهرة وثقة من المسلمين به هناك وطمع في تعويض مملكة سلطنة الصين بمملكة اسلامية وكسر لهم جيشا فيه أزيد من مائة ألف مقاتل واستولى على جهات معتبرة حتى ارتعدت منه مملكة الصين في سنة (١٢٩٣) وحيث كان بين عدوين مال الى مسالمة الروسيا وعقد معها معاهدة تجارية ورام احكام وحدة الاسلام فبايع بالخلافة للسلطان العثماني وتلقبه الدولة العثمانية بالامير أدبامع الخليفة وجلب هو من قاعدة الخلافة معلمين للفنون الحربية والصناعات الهندسية ونظم الجيوش فاخترمته المنية قبل رسوخ المملكة وتناحر بنوه وقسموا المملكة فانتهزت دولة الصين الفرصة واستولت على الجميع والى الآن أحوالها مخضرمة (وهكذا) أنشأت دولة اسلامية في أواسط الصين يميل الى الغرب تحت

سلطنة

سلطنة رجل يسمى السلطان سليمان فى حدود السنين المذكورة وجعل قاعدة مملكته مدينة طليفة وانشاء السلاح فى ممالكه وطلب التعرف به من الدول وانه متسلط على نحو السنين مليونا من مسلمين وغيرهم فلم يكن الا حلما وانتزعت منه السلطنة (ومن عجائب مملكة الصين السور العظيم الذى يبتدئ من الشطوط الشرقية و يمتد بوسط المملكة الى حيث العرض أربعين درجة شمالية والطول تسعة وتسعين شرقيا فمجموع طوله نحو ألف ومائتين وخمسين ميلا وسمكه من الاسفل نحو خمسة وعشرين قدما ومن أعلا نحو خمسة عشر قدما وارتفاعه ما بين خمسة عشر الى عشرين قدما وفى أماكن منه حصون يبلغ ارتفاع بعضها الى أربعين قدما وهو مبنى بالحجارة والآجر والقرميد وبعض أماكن طين فقط بناه بعض ملوكهم قبل التاريخ المسيحى بنحو مائتى سنة وعشرين سنة قاصدا به رد المهاجمات على المملكة الصينية الاصلية من المغول والقبائل الشمالية ولم يجده نفعا اذهم الذين تسلطوا على المملكة والسور الآن خراب فى جهات كثيرة وقد غلط من توهمه السد الذى بناه ذو القرنين لمنع فساد يأجوج ومأجوج محتجا على ما يقول بان ليس فى الارض سور ذو عظمة غيرذلك ورد قوله ظاهر لان الصفات المذكورة فى القرآن للسد غير الصفات التى عليها ذلك السور ثم ان صفات يأجوج ومأجوج المذكورة فى النصوص المروية غير موجودة فى أولئك الاقوام ودلت النصوص أيضا على ان ذلك السد يدك قرب الساعة وتحدث منهم حوادث لم تظهر الى الآن فلا يكون حينئذ ذلك السور هو السد ولا يخفى ان بعض الاروباويين الآن لهم دعوى مثل بقية البشر الغير متبصرين من العجائب بما هو عليه وادعاء بلوغ النهاية فى العلوم حتى انهم انكروا وجود السد لدعواهم ان كرة الارض صارت الآن معلومة ولم يجدوا فيها السد فهاته الدعوى هى فى الواقع مبالغة منهم وانما يقال ان اكتشافهم الآن للكرة أكثر من اكتشاف الامم السابقين الذى وصلت الينا مؤلفاتهم وان احتمل اطلاع غيرهم على ما اطلع عليه الآن أو أكثر لكن لم نجد لذلك أثرا ولا يلزم من عدم وجود الدليل انعدام المدلول أما الاحاطة بجميع كرة الارض وعلم جميع ما فيها فهو غير مسلم لوجوه فمنها ان جميع علماء الجغرافية نصوا فى تآليفهم أن جهة القطبين لم يمكن الاكتشاف عليها الى الآن وأن المجهول جهة القطب الجنوبى أكثر من المجهول جهة الشمالى لانه أى الجنوبى أشد انحرافا عن وصول الاشعة الشمسية اليه مستقيمة ومنها ان الاكتشافات لازالت تنمو اشياء فشيأ فانه منذ أربعمائة سنة لم تكن أمريكا معروفة وكان علماء ذلك

العصر يرون أن ماوراء شطوط القارات القديمة انما هو بحر صرف حتى ان من ضمن في وجود عمران وراء ذلك سخر وامتهن تارة واضطهده جهلاء علماء الديانة تارة أخرى كما يأتي الكلام عليه في أحوال أمريكا ثم تبين بالواقع وجود ذلك العمران الذي يحسب ﴿القسم الثاني﴾ من أقسام الارض ثم منذ ستين سنة اكتشفت استراليا التي هي القسم الخامس من القارات ولازالت الاكتشافات متتابعة الى الآن في أمريكا وفي غيرها ومنذ أربع سنين فقط اكتشف سواح الانكليز جزيرة صغيرة جهة الشمال معمورة بخلق صغار الجثث فطس الانوف كبار الاذان يأكلون نوعا من السمك ويلبسون جلده ويوقدون عظامه وكذلك اكتشف منذ قريب قوم من البشر على نحو تلك الصفة في شمالي أمريكا الشمالية يحتون من جبال الثلج بيوتا ويجعلون لطواقي المنفذة للضوء قطعا من الثلج الصفيق لكي لا تمنع الضوء وتقيهم مرور الارياح (وهكذا) لازال الاكتشاف يتتابع وما يعلم جنود ربك الا هو ومن تأمل سياق الآية الكريمة في حكاية حال ذي القرنين الى بلوغه الى ياجوج ومأجوج ظهر له من السياق انهم جهة أحد القطبين (اذ قال تعالى فأتبع سببا حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكا وكان وعد ربي حقا الآية) فذكر أن ذا القرنين اتخذ أولا طريقا الى أن بلغ منتهى الارض من جهة الغرب فوجد الشمس هناك تغرب في ماء أسود كأنما هو بالحمئة اى الطينة السوداء وهو والله أعلم البحر المحيط الغربي لشدة عمقه يترا آى انه أسود وسمى عينا نظرا الى سياق عظمة قدرة الخالق وما اطلع عليه ذو القرنين الذي البحر المذكور بالنسبة اليه ما هو الا كالعين الى آخر الآية ثم ذكر اتباعه لطريق آخر وصل

به

به الى منتهى مطلع الشمس من الارض وقص ماوقع هنالك أيضا ثم ذكر اتباعه لطريق آخر فظاهر السياق أنه لغير المشرق ولغير المغرب فهو حينئذ الى أحد القطبين وهو الذى ذكر فيه قصة يأجوج ومأجوج وعلى ذلك فذو القرنين سافر الى أقاصى ثلاث جهات من الارض والله أعلم أى القطبين الذى هو الجهة الثالثة ويؤيد هذا الفهم المأخوذ من السياق ماروى من أن سيدنا الخضر كان وزيرا لذى القرنين وانه اجتاز معه أرض الظلمة حتى وجد بها عين الحياة الخ وأرض الظلمة لا تكون الا فى أحد القطبين أوما قاربه لانه هو الذى يطول مغيب الشمس عنه كما هو معروف عند الحكماء والفقهاء وبنى عليه هؤلاء أحكاما فى الصوم والصلاة مقررة فى دواوين الفقه وليست هى أرضا غير المعروفة وانما أنتها الظلمة مما أشرنا اليه ثم ان قارات الارض ان كانت اذ ذاك على حالتها الآن ربما تقتضى ان القطب الذى وصل اليه هو الشمالى هذا اذا كانت هيئة الارض اذ ذاك هى على نحو ما عليه الآن أما اذا كانت على شكل آخر فيمكن أن يكون القطب هو الجنوبى أيضا وانما قلنا هذا لان الارض تتغير أشكالها على طول الزمان بما يحدث فيها من الزلازل العظيمة وانخفاض جهات من اليابسة وارتفاعات فى جهات من البحر (وهكذا) فان امريكا على ماسيأتى كانت متصلة بقارة آسيا من جهة بوغاز برن بل ان جهة من مملكة تونس الشرقية تسمى برج بوالشاطر فى عمل بن زرت كانت قديما مرسى السفن فى دولة القرطاجنيين والآن صارت محترثات خصبة والبحر يبعد عنها نحو خمسين ميلا وكذلك فى الجهة الجنوبية جنوبى الجريد كان فيها بحر يدخل الى دواخل القارة الافريقية والآن صار صحراء وهى المسماة بالصحراء الكبيرة وسيأتى بقية الكلام عليه فى الكلام على تونس وكذلك خليج السويس كان بحرا موصلا بين البحر الابيض والبحر الاحمر ثم سد ثم فتح الآن على ماسيأتى فى الكلام عليه أيضا فى محله (ان شاء الله تعالى) فقد قال المفسرون فى قصة سيدنا (موسى) وسيدنا (الخضر) عند (قوله تعالى) حتى أبلغ مجمع البحرين الآية ان المراد بمجمع البحرين هو محل اتصال بحر الروم ببحر فارس وهل ذلك الا من السويس أو من مكان آخر من آسيا اليابسة وهو أيضا يفيد المطلوب فتقلب حالات الارض لا تبعد أن يكون سد يأجوج ومأجوج جهة القطب الجنوبى الذى هو وماقاربه أكثر مجهولية من الشمالى سيما وآثار سلسلة الجزائر الى استراليا كالآثار الدالة على الاتصال ويؤيد أنه فى أحد القطبين الصفات التى ذكرت ليأجوج ومأجوج فى خلقتهم فى الاحاديث الصحيحة كما فى البخارى وغيره من الصحاح

وهى صفات تقرب كثيرا من الصفات التى وجد عليها أهالى الجزيرة التى ذكرناها قريبا جهة الشمال واكتشفها الانكليز وشاع أمرها وذكرها فى صحف الاخبار ورسمت فى خارطات الجغرافيين ووصول ذى القرنين الى هاتيك الجهات وماوراءها ليس بغريب أما أولا فلأن حرارة الارض اذ ذاك ليست هى التى عليه الآن فجهات القطبين لم تكن على هاته الدرجة من البرودة ولذلك أدلة مسلمة فى كتب الجغرافية الطبيعية خلاصتها على مذهب المتأخرين الذى لا يخالف الشرع ان هاته الارض كانت كوكبا نائرا ناريا ثم انطفت طبقتها العليا ولا تزال تثخن تلك الطبقة وعلى قدر ثخنها تبرد وتنحصر الحرارة فى جوف الارض ومركزها ومهما وصلت الطبقة الى درجة من الاعتدال الصالح لخلق من مخلوقات الله يخلقه الله فيها (وهكذا) على التدريج الى أن تم ما أوجده الله فيها واضمحل منها من أنواع الحيوان مالم تبق صالحة له كنوع يشبه الفيل وهو أضخم منه وأنيابه مرتفعة الى فوق فانه الآن انعدم مما هو معروف من الارض واكتشف على عظامه فى طبقات سفلى من الارض بالحفر جهة سيبريا ويشهد بصحة هذا القول الاحاديث الواردة فى التكوين وأن (آدم عليه السلام) خلق بعد الارض بمدة طويلة وأن الخيل خلقت قبل (آدم عليه السلام) بكثير الى غير ذلك من الصفات الواردة عن الشارع فى كيفية التكوين وقد وجد فى سيبريا من عظام الحيوانات التى لا تعيش الا فى الارض الحارة كالفيل وغيره بكثرة مما يدل على أنه ليس بمجلوب وانما هو حيوان أصلى هنالك مايقضى بأن تلك الجهة كانت حارة ليست على ماهى عليه الآن من شدة البرد فيحتمل أن زمن ذى القرنين كانت الحرارة معتدلة هنالك حتى يمكن الوصول الى تلك الجهة بلا مشقة ولا يقال ان التاريخ من زمن ذى القرنين الى الآن لا يقتضى هذا التغير الكثير لانا نقول ان ذا القرنين هذا هو عربى كثر ذكره فى أشعار العرب واسمه الصعب ملك من ملوك العرب العرباء معاصر (لابراهيم عليه السلام) أو بقرب منه هذا هو الصحيح وان غلط الرازى وغيره فى توهمه انه اسكندر المقدونى ومقدار زمنه لا يمكن الوقوف على تحقيقه وذلك ان ذا القرنين كان قبل (موسى عليه السلام) بكثير حسبما تقدم فى كون (الخضر عليه السلام) وزيره وهو الذى عاش وتعلم منه (موسى عليه السلام) وجميع التواريخ القديمة يعتمد فيها المؤرخون على التوراة وهى قد وقع فيها التحريف قطعا فى كثير من الآيات لاسيما مايتعلق بالتاريخ تحريفا فاحشا ولا يلتفت لغلط ابن خلدون فى دعواه عدم التحريف بعد اثباته بالعيان وفيما أثبته الشيخ رحمة

الله

الله قدس سره فى كتاب اظهار الحق من الاختلاف الكثير فى التاريخ بين نسخ التوراة القاضى بعضها باجتماع (نوح وابراهيم) وبعضها بالبعد الكثير بينهما وحرره مؤرخوهم أنه سنة (٣٥٢) مع ان العبرانية تقضى باجتماعهما لان نوحا مات بعد ولادة (ابراهيم) ٥٨ سنة والسامرية تقتضى أن (ابراهيم) ولد بعد موت (نوح) ٥٩٢ سنة واليونانية تقتضى انه بعده (٧٢٢) سنة والاولى يخالفها الاجماع والأخريين بينهما التناقض التام وغاية المحقق أن (ابراهيم) لم يجتمع (بنوح) فى عصر (عليهما السلام) والاختلافات على هذا النمط وعدم التحرير فى التواريخ كثير جدا فلا اعتماد حينئذ على ماهو موجود من التوراة ثم أن متأخرى المؤرخين قد اعتنوا بهذا الفن وحرروه باستدلالات من الآثار القديمة والاطلاع على لغات قديمة لكن لم نطلع الى الآن على أدلة وجدوها تثبت مدة زمن ذى القرنين على فرض تعينه وكم عدد السنين بيننا وبينه وأما ثانيا فلا يبعد أن يكون لذى القرنين اذ ذاك من آلات حمل الاثقال وتيسير السفر مالا يعلم الآن ويداعمه (قوله تعالى) فى حقه (انا مكناه فى الارض وآتيناه من كل شئ سببا) مما يقتضى اتساع اقتداره وتهيء الاسباب لمقاصده كعلم جر الاثقال مثلا الذى شوهدت الآن آثاره مما لم يقدر عليه متأخروا هذا العصر وكذلك النحت للقطع الهائلة التى لم تعلم كيفية قطعها ونقلها سيما وقد وجد فى مصر من صورة الفلك الكهربائى والرتل ما يقتضى علمه سابقا مع صور آلات أخرى غير معلومة كما سيأتى الكلام عليه فى أحوال مصر فيمكن أن تكون حالة الارض على هيئتها هاته ولذى القرنين وعماله وجنوده من المعارف والآلات ما تيسر لهم به الوصول الى الاماكن الصعبة مما لم نعلمه الآن وأما قول بعض المؤرخين ان الواثق من بنى العباس أرسل معتمدين الى السد وقاسوا ابابه وقفله الى غير ذلك من الصفات التى ذكرت له فانا لم نكن على ثقة منه ولم نعتمد عليه سيما ولم يعين أولئك المؤرخون مكانه وانما يقتضى كلامهم انه فى الجهة الشمالية الشرقية من آسيا فلا يبعد أن يكون ماوصلوا اليه هو سور الصين واذا فرضنا انه هو المراد بالسد فى النصوص الواردة يلزم حمل الصفات المذكورة فيها على بقاع من ذلك السور ككونه من زبر الحديد ومفرغ عليه النحاس والصدفان (حينئذ) طرفان من ذلك السور كما تأول صفات يأجوج ومأجوج الى مايصح اطلاقها به على التتر والمغولية ويكون وعد الله الذى يدك فيه السد هو قرب الساعة ولا شك أن الساعة قربت كما أعلم به

(رسول الله صلى الله عليه وسلم) في قوله بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى كناية عن مزيد القرب وكما (قال تعالى) اقتربت الساعة وانشق القمر الآية فما بقي من الدنيا بالنسبة الى ما مضى شئ قليل جدًا والطبيعيون أنفسهم مقرون بذلك لما يستدلون به من كيفية تكوين الارض وارتباطها بالاجرام العلوية (وحينئذ) يكون الفساد الموعود به في النصوص من أولئك القوم هو ما وقع من التترا المغولي من الفساد في الممالك وكفى بوقائع جنكس خان وما عثاه هو وأصحابه في الدنيا مصداقا لذلك فان من له المام بتاريخه يرى فيه العجب العجاب وهي مصيبة عظمى لم تحدث على المسلمين مثلها وانما تطاول الزمان وعدم علم الجمهور بها هو الذي لم يصير لها اعتبارا الآن وكل هذا الاخير مستبعد وانما يلزم المآل اليه اذا فرضنا الاحاطة حقيقة بجميع أطراف الارض والحاصل انه مهما وجدنا نصا عن الصادق يلزم التسليم اليه والتصديق به فان وجدنا ما يخالف فهمه في الوجود وجب فهمه على مقتضى الوجود اذ يستحيل مخالفة خبره للواقع وقد نص على هذا العلماء الراسخون ومنهم سعد الدين التفتازاني في التلويح (ثم ان) لمملكة الصين من الانهر العظيمة الحاملة للسفن الشراعية والبخارية ما أغناهم عن تكثير الطرق الصناعية في الارض (وأما الجهات) التي لا تصل اليها الانهر فانهم يصنعون فيها ترعا متصلة بالانهر ميسرة للسير وحمل الاثقال حتى ان منها ترعة هي من عجائب الدنيا طولها نحو سبعمائة وخمسين ميلا وصنعت في عدة أجيال من الجيل السابع من تاريخ المسيح أي القرن الثاني الهجري الى القرن الثامن من الهجرة ولم تحدث فيها الطرق الحديدية الى الآن (وأما المعادن) فعندهم أغلب المعادن المعروفة ولكنهم لقلة مهارتهم في استخراجها وتصفيتها يحتاجون الى جلبها من خارج (وهكذا) نباتات هاته المملكة فيها أغلب نبات المعمور لاتساعها واختلاف أقاليمها وكذلك الحيوانات والهواء وقاعدة المملكة هي مدينة باكين التي هي من أعظم مدن العالم سكانها أزيد من ثلاثة ملايين ولها سور يحيط بها وأغلب أبنيتهم طبقة واحدة مقسمة الى عدة أقسام الاقصور الملوك ففيها طبقات والاهالي يتزوجون امرأة واحدة شرعية ويتخذون غيرها كالسراري على انهن خديمات لها ولهم شارات في التفاخر والدلالة على البيتوتية والغنا منها ان الاغنياء والاكابر يخلدون الى الراحة حتى لا يكادون يتحركون وتغلب هاته الصفة في نسائهم فكان من عجائب عاداتهم في من ان بنت الاعيان اذا ولدت يجعلون لها حذاء من حديد أو ما أشبهه من الاشياء الصلبة ويلبسونه لها في سن المهد

ونترك

وتترك كذلك الى انتهاء شبابها فتكون أقدامها صغيرة جدا بحيث لا تستطيع المشى وكذلك كفوف يديها حتى لا تقدر أن تشتغل ولا ترفع شيأ مع الاعتناء بقمعينها فتصير ذاتها ضخمة وكفها وقدماها فى غاية الصغر دلالة على أنها لا تحتاج لحمل شئ بنفسها وكل الضروريات وغيرها تفعلها لها الخوادم فيصنعون مساطب لحملها على الاعناق عندما تريد المشى لاى جهة كانت وهكذا جميع الحركات ويستكثرون من الخدم على قدر البسطة فى المال والجاه وعادة الحمل على الاعناق عامة حتى فى الرجال الكبراء والاغنياء وهاته الخلة جارية أيضا فى أهالى الهند (وأما حكم) هاته المملكة المتسعة فهو يرجع الى عامل واحد ذى حكم استبدادى مطلق وله وزراء يديرون ويجرون أمر المملكة على ارادته ثم فى الجهات أمراء مستبدون فى التصرف فى أماراتهم تحت أوامر السلطان العام الذى يقلد ويعزل منهم حسب ارادته ومع ذلك الاستبداد فانهم لتحفظهم على العوائد القديمة تجد كأن أحكامهم قانونية لاجرائهم الحوادث شبه بعضها ولا يتجاسرون على خرق العادات القديمة فى جميع تصرفاتهم الا فى أمر أكيد عظيم وقلما يقع ولهم اعتقادات فى ملكهم ربما أدتهم الى اعتقاد الوهيته ولهم أيضا دواوين يضبطون بها ادارات التصرف والاموال وأرزاق العساكر فمن نظر الى مجموع تصرفات المملكة يجدها مشابهة أعظم مشابهة الى الدول القانونية وكان ذلك هو سبب قدم هذه الدولة وعدم تلاشيها الا أن السلطان عندهم وان كان له ان يفعل ما يشاء الا أنه لا يفعل شيأ الا بمشاورة رجال دولته وأرباب مجالسه فى جميع الامور وكل من أمرائه لا يتصرف الا بمشاورة رجال مجالسهم ولا يتوظف أحد فى خطة أيا كانت الا أن يكون من أصحاب العلوم والمعارف الذين هم وجهاء الامة كما يشترط فى كل موظف أن يكون متأهلا وجديرا بالخطة التى يتقلدها ومن عاداتهم الشبيهة بالقانونية ان المتوظف اذا ظلم أحد الرعايا ولو فى أقل الاشياء يعاقب أشد العقاب بل انهم مطلوبون كل على حسب خطته بما يطرء على الاهالى من المصائب السماوية التى يكون فى وسع البشر تداركها كفيضان الانهر وسقوط الجدران وما شاكل ذلك ويعاقبون عليه بالعزل ولهم صحيفة رسمية قديمة قبل أن تعرف الصحف فى أوروبا بقرون ولها نحو ستين صحيفة تنشرها يوميا ولا تحتوى الا على الحوادث الخاصة بدولتهم وتصرفاتها وحيث كانت الكتابة عندهم صعبة جدا (لانها فيها) علامات عوضا عن الحروف منها أصلية ومنها فرعية تدل على الكلمات فكانت نحو الفين وخمسمائة علامة وهى المستعملة الآن (أما)

العلامات القديمة التي لم يبق استعمالها الا نادرا فهي نحو اربعة واربعين الفا واربعمائة وتسعة واربعين شكلا فلذلك كانت معرفة الكتابة عندهم قليلة جدا وقد تعارفوا صناعة الطبع قبل معرفتها في اوروبا بكثير وهي على غير الصورة المعروفة الآن فانهم كانوا ينقشون الكتابة في ألواح بحيث تكون على عدد صفحات الكتاب الذي يريدون طبعه وان شئت قلت ينسخون الكتاب أو الكتابة بالنقش في ألواح ويطبعون بها ماشاؤا ثم يدخرونها الى وقت الحاجة فيعيدون الطبع متى أرادوا (وأما) الغناء في المملكة فهو كثير لكثرة موارد الثروة وكثرة السكان ومع ذلك هو بالنسبة لغنى الممالك المتمدنة ذات الصنائع المخترعة قليل نظرا لعظم المملكة ومافيها وقد تقدم ما في عزم دولتها وما شرعت فيه من القوة الحربية (وأما القوة المالية) فهي غير معروفة لاختلاف أنواع الاداء وتفرقه على أنواع المتوظفين كل منهم له كيفية في الاستخلاص على وظيفته من الاهالي

الفصل * الثاني عشر

﴿المملكة الثانية عشر مملكة الروسيا في آسيا﴾

هاته المملكة تبتدئ من الشمال الاقصى من القارة ثم تنعطف مع حد الصين الغربية وتصل الى مملكة ايران من شمالها والى المملكة العثمانية من شرقيها فهي متسعة جدا ولاتزال تتوسع في الممالك الصغيرة بأواسط آسيا حيث تفرقوا شيعا فصارت تتغلب عليهم بتسليط بعضهم على بعض وانتصارها لبعضهم حتى تبتلعهم شيأ فشيأ بحيث لم يبق منهم الا القليل كما سيأتي الكلام عليه بعد وحكمها في هاته المملكة سيبين في الكلام على هاته الدولة في ممالك أوروبا وكذلك بقية التصرفات السياسية وانما نقول هنا أن فيها قسما يسمى سيبريا هو شمالي الصين في نهاية شدة البرد وهو قليل السكان والحيوانات الا بعض الحيوانات المتجلدة على البرد كالدب الابيض والذئب الكبير وقد اطلع علماء الطبيعة على ان تلك الجهة كانت عامرة بانواع من الحيوانات التي تألف الجهات الحارة كالفيل وبعض أنواع من الحيوانات فقدت الآن مثل حيوان أكبر من الفيل ويشبهه في الخلقة وله شعر صلب مستطيل يمتد من مبتدأ رأسه الى مغرس ذيله يكون مرتفعا مفرزا عن بقية شعر بدنه وله أنياب طوال متجاوزة اشفتيه مثل أنياب الفيل غير أنها مرتفعة الى فوق واطلعوا على وجود هاته الانواع هناك بكثرة عظامها في طبقات

سفلى

سفلى من الارض تدل على أن تلك الجهة كانت حارة كما تقدم وهى الآن من شدة بردها اتخذتها الروسيا منفى لاصحاب الجرائم الشديدة فما يصلون اليها الا بعد فقدان أكثرهم فى الطريق ومن وصل منهم لا يبقى سالما وتحدث لهم وللسكان الاصليين أمراض فى الاعين من شدة الضوء المنبعث من سطوع الاشعة الشمسية فى بياض الثلج المتكاثر الدائم ويوجد فى هاته المملكة أعنى بقية مملكة الروسيا فى آسيا أنواع شتى من الفراء العالى وفيها أنواع النبات المختلف الذى يوجد فى أغلب الاقطار الباردة والمعتدلة وتجارتها متصلة مع جميع الاقطار لكنها ليست بمتسعة لصعوبة النقل حيث لم تتم الطرق الكافية الموصلة لشواسع هاته المملكة المتسعة ولاجل انحطاط درجة المعارف والصنائع التى يمكن بهما مناكبة الاوروباويين فى هذا العصر ولا يخفى أن مملكة متسعة مثل هاته تشمل أصنافا من البشر لابد أن يكون أهلها مختلفى الطبائع والعادات فالمسلمون كالجركس والكرج هم أهل شجاعة وتجلد وصبر على اقتحام المشاق مع تعصب لبعضهم وغيرهم من المسلمين وغيرهم كأهل خيوا والقريم والداغستان هم أيضا فيهم تلك الصفات غير أنها أقل من سابقيهم ودونهم أيضا فى التعصب وقد استولت الروسيا على هاته الممالك تدريجا منذ نحو ثلاثمائة سنة وهى تمتد فيهم شيأ فشيأ ومع كون الروسيا استبدادية فالمسلمون الذين طال استيلاؤها عليهم وتناسوا العداوة تعاملهم الآن بالرفق وحرية الديانة بحيث يكون الاذان والصلوات فى المساجد وعقد الانكحة كلها قائمة وكذلك تعلم العلوم الدينية ولسانهم هو أيضا مباح ولا يتعرض لهم بشئ وتجرى عليهم بقية الاحكام الشخصية والسياسية مثل بقية الروسيين حتى فى اتخاذ العساكر منهم لكن أكثر العساكر منهم هم على غير نظام مما يسمى قزاق نوع من الخيالة الغير النظامية وأما المسلمون الذين تسلطت عليهم من قريب فتجرى فيهم أنواع القهر والغلظة من الحكم العسكرى البحت ما تنفر منه الطباع وذلك للتحرس من ثورتهم وتربية الجيل الناشئ على المذلة والخضوع الى حكمها ولله الامر من قبل ومن بعد

الفصل * الثالث عشر

﴿المملكة الثالثة عشر مملكة هرات﴾

هاته المملكة موقعها شرقى ايران وغربى بعض الصين والهند وجنوب الروسيا وشمال

أفغانستان وكانت تابعة الايران ثم استقلت عند استقلال الافغانستان وأهلها مسلمون سنيون والظن أنها لا تلبث أن تلتهمها بعض الدول المجاورة لها لصغرها بالنسبة اليهم والاقرب رجوعها الايران باعانة الانكليز في هاته المدة لاتمام ما ربه هو في الافغان حيث انهم موافقون لهم في المذهب ويعدونهم بالاعانة على حرب الانكليز فلذلك أغرى ايران بالحرب لهم والاستيلاء عليهم بيد أن سياسة الروس يا عطلت ذلك وعدد الاهالى مجهول الحقيقة وعلى التخمين انهم نحو مليونين تحت ملك مسلم استبدادى مطلق من ذرية أحمد شاه الذى أنشأ في أفغانستان وما والاها مملكة ذات شأن والاحكام الشخصية شرعية ولهم أيضا فيها احكام سياسية لكن النفوذ قليل لان أغلب السكان قبائل رحالة فيهم حرية البداوة وهم من أصل التركمان وكانت في المملكة مدن عظيمة في أودية بين الجبال التى على جنوبي صحراء خوارزم هدمت كلها بتخريب جنكس خان التترى وقاعدة المملكة مدينة هرات وهي مدينة عظيمة تسقى بنهر يتشعب في شوارعها ودورها ولها تجارة حسنة في نتائج أراضيها المخصبة مع الممالك المجاورة وفيها من النباتات كل نبات الاراضى المعتدلة لاعتدال هوائها وسلامته وكانت مناخا للعلوم ومنبتا للعلماء الافاضل حتى قال ياقوت في المشترك ان علماءها لا يحصى كثرتهم الا الله وهي الآن دون ذلك وانما فيها من العلماء حسب الحال ولاهلها من الصنائع الجيدة السيوف وآلات القطع لان تيمورلنك نقل اليها ماهرى هاته الصناعة من دمشق فبقيت فيهم الى الآن ولهم مهارة في صناعة البسط والاقمشة الحريرية ويقال في قوتها الحربية والمالية ما قيل في أفغانستان على نسبة عدد سكانها

الفصل ❁ الرابع عشر

﴿المملكة الرابعة عشر هي أمارات التتر المستقلين﴾

هاته الامارات موقعها غربي الصين وشرقي وجنوبي بعض الروسيا وشمالى وشرقي هرات وبعض ايران وجميع السكان مسلمون سنيون وحقيقة عددهم مجهول وانما يقال على التقريب انهم نحو سبعة أو ثمانية ملايين وقد كانت الممالك منقسمة الى (خمسة) أقسام كل قسم مستقل تحت حاكم يلقب بالخان (وهي) خيوه وبخارى وتشقند وخوقند وقبائل التركمان الرحالة المعروفة بتيكى (وأما الآن) فان خيوا دخلت في حوزة الروسيا

وصارت

وصارت جزأ من ممالكهاوان أبقيت لهما بعض امتيازات ظاهرية كابقاء خانهاولقبه غير أنها فى الواقع هى من مستملكاتها الداخلة فى حكمهاوتحت أمرها (وأما بخارى) فهى أيضامثل خيواغيرأن امتيازاتهاأكثرمنهاوعلى كل حال فكلاهما يصح أن يقال انهما مستقلتان بالادارة الداخلية تحت الامرالروسى و يؤديان له الخراج السنوى ولهما عساكر بقدرما تسمح لهما به الروسيا للتحفظ على الراحة فى المملكة أولاعانة الروسيا فيما تأمرهما به (وأما تشقند) فقد صارت ولاية روسية تحت حكم جنرال روسى فهى حينئذ مشمولة بالكلام الذى سبق فى أحوال مملكة الروسيا (وأما خوقند) فلازالت مستقلة تحت أمارة خانها وحكمها استبدادى وعددسكانها نحوملمونين (وأما قبائل التركمان) فقاعدة مملكتهم هى (مرو) وموقعها جهة الشرق الجنوبى من بحرقزبين المستملكة جميع شطوطه الروسيا وعدد السكان نحوملمونين ونصف لكنهم ليسوا خاضعين حقيقة للخان وانما هم قبائل لكل منهارئيس وكأنهامع أختها لاتلبثان أن تلحقا اخواتهما اذ الحرب الآن قائمة على ساق بين الروسيا وقبيلة تيكى وقد كسروا الروسيا فى هذا العام وهوسنة (١٢٩٧) مرتين انكساراهائلا ولازالت تستعد لحربهم واخوانهم ممن استولت الروسيا عليهم وغيرهم ينظرون اليهم كما كانوا هم ينظرون الى حربهم معها الى أن ينفذ حكم الله الذى لامعقب لحكمه وتكون له الحجة البالغة (سبحانه وتعالى) حيث تفرق المسلمون شيعا للاغراض والاهواء النفسانية ولم يجروا الشرع فى الاحكام الكلية والجزئية واخلدوا الى الجهل والتنعمات الزائلة حتى تمكن العدومنهم وصارت بلدان الاسلام ومناخ العلوم لعبة بأيدى الاعداء وأصحاب الاهواء (ولاحول ولاقوة الابالله العلى العظيم) فوا أسفاه على بخارى وسمرقند وغيرهمامن مدارس الدنيافى الفنون والعلوم الدينية والرياضية وواهاعلى تلك الدقائق والاستنباطات والاختراعات لتأسيس العلوم وتهذيبها واتقانها ورحم الله أولئك الرجال الذين عمروا الارض وحموا الدين ولم تزل الأمم تستنفع بمعارفهم الى الآن ولم يهملوا بها بل ولم يتعلموها حق علمها حتى كادت أن تصير فى خبر كان والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

الفصل الخامس عشر

(المملكة الخامسة عشر هى ممالك الائمة فى جزيرة العرب)

هاته الممالك يحيط بها البحر من جهتين فمن الشرق خليج فارس ومن الجنوب المحيط الشرقي ويحده غربا الحجاز واليمن من توابع الممالك العثمانية وعدن التابعة للانكليز ومن الشمال العراق العربي للدولة العثمانية وهاته الممالك هي المعروفة سابقا بنجد وتهامة واليمامة وأخلاقهم هي أخلاق العرب في هذا العصر من التجرد عن أغلب الصفات التي كانت للعرب السابقين وأما الديانة في الجميع فهي الاسلام وأما المعارف والعلوم فيكاد أن لا يعرف عندهم منها اسم ولا مسمى الا قليلا منهم في قليل من علوم الدين والحاصل أنهم أمم يقدرهم الجغرافيون بستة ملايين من النفوس على البداوة وأغلبهم رحالة ينقسمون في الاحكام الى شيع كثيرة يلقب كل رئيس منهم بالامام كامام مسقط وامام رياض بنجد من الوهابيين أعنى أتباع عبد الوهاب الذين ظهروا في أوائل القرن الثالث عشر ناشرين دعوة شيخهم محمد بن عبد الوهاب حيث كان مدعيا بحفظ السنة وابطال البدعة فتجاوز الحدود حتى منع المباح وقويت شوكته وكثرت أتباعه حتى تسلط على الحرمين الشريفين وقطعة من العراق الى كربلا وسجد على ونحربه وهدم البناآت على القبور وأزال الكتابات التي عليها وأراد أن يحمل الناس على الاتباع حتى في العادات والاحوال الدنيوية وان اختلف الاعصار ولم يتقيد بمذهب خاص بل انه يدعى العمل بالحديث على مقتضى ما يفهمه وسيأتي ما يتعلق بهاته المسئلة في فصل من المقصد عند الكلام على رجوعي من السفر الاول الى باريس وملخص الكلام أن هاته الفرقة تجاوزت المقصد الصحيح في الدين الذي ينبغي التيقظ اليه وان كانت تدعيه كما أن بعض الرادين عليها تجاوز واحد ما ينبغي وخرجوا أعمالها كلها عن حدود الشرع بل كادوا أن ينسبوها الى الكفر وقد ألفت تآليف كثيرة في الرد على مذهبهم من علماء مصر وتونس وغيرهم لما استفحل أمر هاته القبيلة واستولت على الحرمين الشريفين ونشرت دعواها في تأليف خاص وبقيت على ذلك الى ان تجرد لها ابراهيم باشا من أمراء مصر وقهرها وأسر رئيسها سعود بن عبد العزيز العنزي من ربيعة الفرس حيث كان هذا من أعظم أنصار الوهابي والقائمين بدعته وانتشار مذهبه الى ان مات في ضراعة وتلاشت من ذلك الوقت تلك الدعوة والدولة ولم يبق لها اعتبار الا في نجد وأمامها الآن احد نسل سعود المذكور وهو في التصرف أشبه بشيخ قبيلة بعيد عن الملك وانتظامه وشارته وهكذا سائر الائمة المتقاسمين بتلك الجهات والاحق أن لا يعتبروا ممالكة مستقلة وانما يعتبرون كانهم قبائل في أطراف الممالك العثمانية غير خاضعين اليها ولو أنها أحسنت

التصرف

التصرف بالدين والسياسة فانها بارادة الله تضمهم الى ممالكها وتنظم أمرهم على أحسن ترتيب فينصلح حالهم وتتقوى بهم الدولة الاسلامية لان فى أراضيهم أودية فسيحة خصبة وجبالا غنية بالاشجار والمعادن لاسيما فى نجد مع كرامة خيلها فى الدنيا والرغبة فيها من جميع أهل العالم العارفين بالخيل وكذلك عندهم من الحيوانات الانسية والوحشية ما هو مورد للثروة فكما امتدت الدولة العلية بالولاية على اليمن شيأ فشيأ الى العهد القريب كذلك ان شاء الله تجمع كلمة الاسلام هنالك على خليفة واحد وكان سبب بقائهم الى الآن لم تستول عليهم احدى الدول هو اتساع أراضيهم وكون أغلبها صحارى وقفارا وأكثرهم قوم رحل فلا يضبطون بسهولة لانهم يلتجؤن الى الدواخل والدولة العلية يسهل عليها ذلك لاتحاد الدين والاستيلاء على أغلب حدودهم فلا يصعب عليها المدد والاستعانة بمن جاورهم وبالعلماء فى هدايتهم حتى تجرى فيهم التراتيب الشرعية وتنتفع بهم الامة كما ينتفعون هم بالعدل والتمدن والمعارف ولا شك أن لاتحادهم اعتبارا عظيما عندما يتقدمون لاسيما وأصل الغريزة العربية سليمة ولله الحمد أصفى قابلية للتقدم من غيرها وشاهده ما حصل من العرب بعد غرس الحكمة فيهم بالدين الاسلامى وأهم هؤلاء القبائل وأعتها الآن هى قبيلة مسقط ولها امام وقد أدخل تحته طوعا قبيلة ظفار فى هاته السنة وهى (سنة ١٢٩٧) وله نوع احتماء بالانكليز كما سيأتى فى الكلام على زنجبار من أفريقية.

الفصل * السادس عشر

* المملكة السادسة عشر *

هى مملكة نيبول وموقعها بين جبال هملاى الوسطى وتراى وبين سكين من شرقيها وكيماوون من غربيها فهى واقعة بين الصين والهند الانكليزى فلها الصين من الشمال والشرق الشمالى والهند من الجنوب والغرب والشرق وعدد سكانها نحو مليونين ونصف وعوائدهم مثل أو قريب من الهمج من الدول الشرقية مع شجاعة وكذلك أحوال ديانتهم

الفصل * السابع عشر

﴿المملكة السابعة عشر﴾

هى مملكة بوتان أو بهتان وهى أرض بين جبال همالاى وأسام وهى شرقى المملكة السابقة وتفصل بينهما قطعة من ممالك الهند الانكليزى فيحدها جنوبا الهند الانكليزى وكذلك شرقا وغربا ويحدها الصين شمالا وسكانها نحو مليون من النفوس وديانتهم وثنية ولهم ملكان أحدهما دينى ويعتقدون حلول الاله المسمى عندهم بودا فيه ويلقبون هذا الملك دورمه رجا والثانى هو الملك السياسى وبيده القوة الحربية والحكمية ويلقبونه دب رجا ويتصرف فى العسكرية بواسطة أميرين أحدهما فى مشرق المملكة والثانى فى مغربها وهم فى الحقيقة همج اذا القبائل غير خاضعين للحكام

الفصل * الثامن عشر

﴿المملكة الثامنة عشر﴾

هى مملكة كشمير الشهيرة بما لها من المنسوجات الرفيعة وتختها مدينة كشمير وقد صارت دولة مستقلة من سنة (١٢٦٣ هـ) و(١٨٤٦ م) غير أنها تودى خراجا سنويا الى الانكليز وموقعها فى الشمال الغربى من ممالك الهند الانكليزية فيحدها جنوبا ما ذكر وشرقا الصين وشمالا التتر المستقلين وغربا افغانستان وأهلها نحو سبعمائة ألف لكنها ازدادت اتساعا بما استولت عليه من قبائل الجبال التى فوق التتر وأهاليها مسلمون ولها ملك بادارة استبدادية شبه القانونية وعليه نظر الحاكم العام الانكليزى فى الهند لكن لكثرة امتيازاته ذكرناه مستقلا وكذلك يرسم فى الخرايط

الفصل * التاسع عشر

﴿المملكة التاسعة عشر مملكة الجابون﴾

هاته المملكة هى أول ممالك الجزر التابعة لآسيا وهى متكونة من عدة جزر شرقى مملكة الصين وكانت فى القديم تابعة للصين وأهلها مثل أهل الصين فى الشكل

والعادات

والعادات والحذق بالصنائع وعددهم نحو ثلاثة وثلاثين مليونا وثلاثمائة ألف وستمائة وخمسة وسبعين نفسا ثم استقلوا فى أحكامهم وملكهم وفى أواخر هذا القرن أعنى منذ نحو عشرين سنة استولى ملكهم رجل عاقل من عائلة الملك وشمر عن ساعد الجد فى احداث عصر جديد للمملكة حتى خرجت عن أن تشبه الممالك الشرقية وصارت كأنها دولة ومملكة أوروباوية غربية من أعظم الممالك ذات السطوة والشأن والتمدن والتقدم والمعارف والصنائع وذلك انه تولى ملكهم المسمى الميكادو وكان حدث السن ذا أخلاق حسنة وتربية صالحة وكان معجبا بأحوال الاوروباويين القادمين الى دولته للسياحة والتجارة وكان سمع من أحوال أوروبا وتقدمها ما هو معروف ورأى من تقهقر مملكته وما جاورها ما أوجب له العزم على تغيير حالتها ولكنه خشى من تمسك قومه بالعادات القديمة التى يحافظون عليها كأهالى الصين لكنه استعان بالخلة المخصوصة بهاته الامة وهو اعجابهم بالحوادث الجديدة فابتدأ بتغيير زى المتوظفين ورؤساء الدولة وجعله على النحو الاوروباوى وبقى هو فى ذاته على الزى القديم مختبرا لافكار القوم بذلك فلم ير منهم الا الاسراع والاستحسان لما أمر به فلم يلبث أن غير زيه فى نفسه وأرسل سفراء الى أوروبا لاستقراء ما فيها من أصول المنافع والصنائع وآلات الحرب وحركاته وجلب المبادى المحتاج اليها فى مملكته من علماء وآلات وغير ذلك ثم ألزم أمته باعطاء الحرية العمومية حيث كانوا تحت حكم الاشراف بمعنى أن كل عائلة شريفة تملك قسما من الاراضى بمن فيها من الناس يكونون تحت عبوديتهم وامتثال أوامرهم فأبطل هاته العادات وانتخب من قوانين ممالك أوروبا ما صلح فى نظره وصححه على مقتضيات عادات بلاده وأمر بالعمل به كما ألزم العمل بالطريقة العسكرية فى حركات الحرب المعمول بها فى أوروبا وألزم كل ذكر يبلغ سن العشرين بالانتظام فى سلك العسكرية للدفاع عن الوطن على قانون معروف وفتح المكاتب والمدارس فى العلوم الرياضية وغيرها وكثر منها التكثير اللازم وألزم الاهالى بعقد الشركات للبريد وأنواع التجارة والفلاحة وفتح الطرق الحديدية واستخراج المعادن وزيادة عما جلبه من السلاح الاوروباوى من الطراز الجديد أحدث معامل فى مملكته وأنشأ السفن حتى كانت عنده احدى عشرة مدرعة وبالجملة فان انقياد الامة الجابونية الى هذا الملك وتقدم هاته المملكة فى أسرع وقت من عجائب هذا القرن التى تخلد فى التواريخ وستأتى قوتها الحربية والمالية فى جدول الدول وعلى ما تقدم فتعتبر كاحدى الدول

الاوروباوية الاول المتقدمة وفيها من الثروة والتمدن والغناء مافى ممالك أوروبا ومافى مملكة الصين وقاعدة هاته المملكة مدينة جدو فى جزيرة نيغون التى بها جبال بالكان كثيرة ولاجلها يكثر فيها الزلزال ومعادنها غنية وأصل ديانتهم كديانة أهل الصين

الفصل * العشرون

﴿المملكة العشرون مملكة اتشين﴾

وهى قاعدة جزيرة سومطرى وهاته الجزيرة خصبة جدا وفيها معادن جيدة ومغاص على اللؤلؤ ويقسمها خط الاستواء الى قسمين وهواؤها على العموم جيد فى الجبال ردى فى الاودية وسكانها نحو ثلاثة ملايين وكان من الحق ذكرها فى اتباع الدولة العثمانية لكن التغافل من بعض المتوظفين أوجب اهمال الدولة لحقوقها فيها على ما سيأتى وأوجب التكلم عليها باستقلالها وذلك أن هاته المملكة كانت فى الزمن القديم تحت رؤساء من المجوس الى أن فتحها السلطان (جوهشاه) من أمراء الهند فى ٤ رمضان (سنة ٦٠١) وأسلم كل أهلها وتمذهبوا بمذهب الشافعى وفى (سنة ٩٢٢) فى ولاية سلطانها (فرماه شاه) بايعت بالخلافة للسلطان (سليم خان) وحصلت منه على فرمان متضمن لقبول حمايتها وابقاء سلاطينها على يد الوزير سنان باشا ثم جدد ذلك السلطان عبد المجيد (سنة ١٢٦٧) وأرسل الى سلطانها (علاء الدين منصور شاه) فرمان التبعية ونيشانا مرصعا ونشرت على قلعها وسفنها الراية العثمانية وعدة سلاطين تلك العائلة الى (سنة ١٢٩٣) ستة وثلاثون سلطانا وبمقتضى مالهم من الرخصة فى ادارة المملكة مع تكاثر الاجانب وحبهم التسلط فى جهات الهند وجزره عقد أحد سلاطينهم المسمى علاء الدين محمود شاه سنة (١١٥٥) معاهدات مع الهلانديين على أحوال التجارة والسياسة ومنها أن لا يقع منهم التعدى على أحد رعايا اتشين ولا التعدى على حقوقها وممالكها ثم معاهدة أخرى مع الانكليز سنة (١٢٤١) أيام السلطان جوهر العالم شاه وبموجب ذلك سوغ للانكليز المتاجرة فى مملكة اتشين فاما الانكليز فازالوا قائمين بعهدهم الى الآن وأما الهلانديون فأخلوا بالعهد منذ سنة (١١٨٠) فاستولوا على بعض جوانب من المملكة لكن لما كان أهلها نافرين عن سلاطينهم وبينهم عداوة سكتت دولة اتشين على الاستيلاء عليهم كما هى المصيبة فى هذا الزمن بالمسلمين من الشماتة ببعضهم بدخول الاجانب فيهم حتى يتمكنوا منهم

جميعا الاقدر الله ثم لازالت هولانده تقتحم فى أبواب التسلط على المملكة الى ان فتحت عليهم حربا فجأة سنة ١٢٩٣ وكان سلطانها اذ ذاك حديث السن وهو (محمود شاه علاء) وعند غيبة الناظر عليه ومدبر أمور مملكته الامير عبد الرحمن الزاهر حيث توجه الى الاستانة لاستنجاد الدولة العلية أيام السلطان عبد العزيز فلم يساعدوا واشتدت الحرب بينهم ولا زال الهلانديون يفتحون فى تلك المملكة الى الآن وان وجدوا من الحمية والشجاعة ما عاقهم من انفاذ غرضهم عن عجل لكن اعانهم خذلان بعضهم لبعض مع عدم آلات الحرب وعدم معرفة آلاته الجديدة وأما قوة هاته الدولة المالية والحربية فغير معلومة وكانها لا تلبث ان تصير من أتباع هلاند كما وقع فى جزيرة جاوة وجزاير واقواق وغيرها مما استولى عليها الفرنسيس والهلانديون وغيرهم من الدول الاوروباوية فان لكل من هاته الدول مستعمرات فى هاته القارة فى شطوط الهند وفى شرقيه وجزره وتجرى فيهم أحكام الدول المتغلبين لكنها ليست كأحكام ممالكهم وانما هى أحكام استبدادية عسكرية بمراعاة العوائد للاهالى ولما كانت هاته المستعمرات لا تبلغ الى مستعمرات الانكليز لم نذكرها على حدتها مثل ما ذكرنا الهند الانكليزية ولله ميراث السموات والارض

﴿القسم الثانى من الارض﴾

هو قارة أوروبا هاته القارة يحيط بها البحر من جميع جهاتها الا الجهة الشرقية فتتصل بقارة آسيا المار ذكرها والحد بينهما هو جبال ارال ونهر دون الذى مصبه فى البحر الاسود ثم يحدها جنوبا البحر الاسود وبحر مرمرا والبحر الابيض وبغاز طارق وغربا المحيط الغربى والمانش وشمالا المحيط الشمالى والمنش والبلتيك والمتجمد القطبى وهاته القارة الآن رمقها السعد بالحاظه وحط لديها ركابه فكما تسعد أفراد الانسان وتنحس كذلك بقاع الارض حاشا البقاع المكرمة بالانوار الالهية وانما نعنى البخت الدنيوى فان هاته القارة كانت قد لبثت مدة وهى فى الحضيض الاسفل ما بين خلاء وخراب ودثار وتوحش فيما سلف من العصور الى أن حدثت فيها دولة الرومان واليونان وتشعشعت فيها المعارف وارتقى فيها التمدن والصنائع لكنها لم تلبث ان عادت كما كانت عليه من التوحش والبربرية لاقتصار تلك المبادى الحسنة على افراد وان كانوا كثيرين فى مراكز مخصوصة وانحصار السلطة القهرية فى تلك المراكز فزال التقدم بتقهقر تلك السلطة غير انها حدث فيها تمدن آخر فى مدة الامبراطور شارلمان المعاصر للخليفة هارون

الرشيد الذى أكب على المعارف وملازمة أهلها وبث منها فى ممالكه ما وسعه الامكان غير انها تقهقرت بعده أيضا وشرع فيها تمدن منذ خمسمائة سنة على خلاف المعهود سابقا وامتد فيها تدريجا الى أن بلغت فى هذا العصر الى الدرجة القصوى من التهذيب والتمدن والمعارف الدنيوية حتى صار لاهلها الوجاهة والنفوذ على جميع أقسام الارض

❀ ودونك انموذجا الاخبار ذلك الترقى وحاصله ان أهالى اوروبا استفادوا من العلوم التى باللسان اللاتينى واليونانى اللذين تحفظت عليهما الكنيسة وكان أهلها فى مدة الجهل العام يبذلون أقصى الجهد فى التحفظ على تعلم ذينك اللسانين وترقى تلامذتهم فى العلوم الموروثة من الرومان واليونان كما استفادوا من الامة العربية فى المغرب بمجاورتها فى الاندلس فأخذوا عنها العلوم الرياضية وتهذيب الاخلاق والجغرافيا التى علمها المسلمون بالاسفار للجمع من الاقطار القاصية والفتوحات الممتدة شرقا وغربا والاعتناء بالتجارة حتى ان ملك صقلية دعا اليها العلامة الادريسى وألف عنده كتابه الغريب المسمى نزهة المشتاق فى الجغرافيا واستفادوا أيضا من الاسلام فى المشرق فى مدة حروب الصليب لخالطوهم وتعلموا منهم مسالك الترقى والقوة وفنون المعارف فانبثت فيهم فى جهات عديدة فى وقت واحد فكانت فى القرن الثالث عشر المسيحى الموافق للقرن الخامس والسادس الهجرى علماء فى الفلسفة وغيرها فى كل من فرانسا وايطاليا والمانيا واجتهدت من ذلك الوقت كل جهة فى ترقية نفسها والتشبث بالوسائل التى لاتحوجها الى غيرها وأعظم الوسائل التى أعانتهم على بلوغ المعارف صناعة طبع الكتب التى كثرت بها الكتب ورخصت حتى تيسر الاطلاع عليها حتى لغير ذى الثروة

❀ ولما انفتحت بصائرهم وعلموا ان العوائق عن بلوغ المقصود منحصرة فى عدم انسجام الادارة والاحكام على مقتضى المصلحة وعدم صرف النظر الى منافع الامة حيث لم تكن لهم شريعة تضبطهم وانما الملوك المستبدون هم الذين يتصرفون كما أرادوا وجذبوا اليهم العلماء بالترغيب والترهيب فأعانوهم على العامة الى ان وصلوا الى درجة الاضمحلال فلما انفتحت بصائر الامم تحزبوا فى جهات الى تقييد التصرف من الملوك بمشاورة رؤساء الامم ووجهائهم وان تكون الادارة على قانون معلوم موافق لعادات الامة وما يقتضيه حالها وان يستوى الشريف والمشروف فى الحقوق الشخصية وان لا يمتاز قسم من الناس بالاشياء الضرورية كالعلوم والاراضى والتجارة وغيرها فحصل هذا المقصود فى بعض تلك الممالك باراقة الدماء الغزيرة بين الملوك المستبدين وبين الامة

وفى

وفى بعض الممالك تفطن عقلاء ملوكها الى وجوب العمل بذلك الوجه اما لحذقهم وايثارهم للمصلحة العامة على الخاصة بهم حيث علموا انها أى الخاصة لا تدوم الا بدوام الامة فآثروا مصلحة الامة أو اتقاء من ايلولة أمر المملكة الى ما آل اليه غيرها مما الاثمرة لهم فى الاصرار على منعه فسارعوا الى منح الاهالى بالقوانين والحرية منة منهم وما حصل فى احدى الممالك أجراء القوانين على أى وجه من الوجوه المتقدمة الا اخذت فى الترقى والثروة لانكفاف الظلم المؤذن بالخراب فتحسنت أحوالها ونمت سكانها وعمرت أرضها وكثرت صنائعها وانتشرت فيها المعارف وزادت اتقانا واختراعا وامتدت تلك المملكة بسطوتها على من لم يجاريها فيما هى عليه وسرى العمل على ذلك النحو فى جميع ممالك أوروبا تدريجا الى ان عم جميعها ولم يبق منها الآن مخالفا لبقيتها الا مملكة الروسيا بحيث يصح ان يقال ان جميع أوروبا كانها مملكة واحدة على نمط واحد وغاية الاختلاف بينها انما هو بزيادة الثروة والقوة والحضارة أما أصول هاته الاشياء فهى موجودة فى الجميع ولذلك نتكلم على هاته القارة كلاما عاما ونذكر أسماء ممالكها وقواها اذ هذا كاف فى المقصود من هذا التأليف حيث ان المقصود هو معرفة الممالك الآمنة من غيرها سيما ونحن سنذكر ان شاء الله تعالى فى المقصد تفاصيل ممالك مهمة منها فيقاس عليها غيرها اذ هى متشابهة على التقريب وانما انفردت دولة الروسيا المخالفة سيرتها لبقية وأما الدولة العلية فقد تقدم الكلام عليها فى قسم آسيا فاحكامها جارية فى الجميع على السواء غير انها لما كانت لها فى قسم أوروبا ولايات ممتازة وولايات غير ممتازة فنعيد ذكرها هنا أيضا وعلى ذلك فنقول ان أوروبا تنقسم الى دول جنوبية ودول وسطى ودول شمالية وجميعها ثمانية عشرة مملكة كلها نصرانية الا الدولة العلية كل منها مستقل عن الآخر وان كان بعضها يتألف من أكثر من مملكة واحدة فالدول الجنوبية ستة وهى الدولة العلية والجبل الاسود واليونان وايطاليا واسبانيا والبرتقال والوسطى ستة أيضا وهى فرانسا وسفيسرا والبلجيك وأوستريا والصرب والرومانيا والشمالية ستة أيضا وهى الروسيا والسويد والدانيمرك وهلاندة والمانيا وانكلتيرة

الفصل * الحادى والعشرون

فأما الدولة الاولى فهى الدولة العلية وتختها القسطنطينية فحالتها العامة تقدم الكلام

عليها وأما الخاص منها بهاته القارة فان لها ممالك رحيبة فمنها ما هو ممتاز ويؤدى اداء سنويا معلوما وادارته فى نفسه مستقلة كولاية البلغار التى قاعدتها صوفية فانها بعد معاهدة برلين الناتجة من حرب سنة ١٢٩٤ التى سيأتى تفصيلها فى المقصد ان شاء الله تعالى صارت هاته الولاية أمارة نصرانية مستقلة وادارتها على نحو الايدارات العامة فى ممالك أوربا ذات القوانين التى يرد الكلام عليها عن قريب ان شاء الله تعالى

❋ وأغلب سكانها بلغاريون وبقية سكان الامارة من المسلمين واليونان وكل منهما فى أشد الضنك لاسيما المسلمين من قساوة القسم الغالب الذى صارت له السيادة على الجميع لانهم

❋ ولان كانوا ظاهرا ادارتهم حرة قانونية لكن الباطن استبدادية تحت اشارة الروسيا المستبدة المواددة للامارة المذكورة وهاته الامارة ليس لها حق فى انشاء حصون على حدودها والحصون التى كانت فيها للدولة تهدم بمقتضى معاهدة برلين وعساكر الامارة

❋ يكونون من الاهالى واغلب رؤسائهم الآن من الروس والى الآن لم يتعين مقدار الاداء السنوى الذى يلزمها اداؤه للدولة العلية بسبب التراخى عن اجراء جميع فصول معاهدة برلين وكذلك للدولة العلية فى هاته القارة ولايات أخر مستقلة فى الادارة ومازاد من دخلها عن مصارف مصالحها الذاتية يؤدى الى خزنة الدولة الا الكمرك والدخان

❋ فهما راجعان للدولة وهاته الولايات نصرانية وشروط واليها أن يكون نصرانيا يولى من الدولة بعد موافقة الدول عليه ولا يعزل قبل اتمامه خمس سنين وأما العساكر فليس لها أن تنتظم جيشا وانما تحدث حرسا أهليا لانفاذ الاحكام وحفظ الراحة المعتادة وان أحوج الحال الى قوة عسكرية فان الدولة ترسل للوالى مقدار ما يطلبه لذلك وللدولة أن تقيم فى الحصون والحدود عساكر على حسب ما يظهر لها بشرط أن لا يكون على الاهالى منهم أدنى كلفة أو تعلق وهاته الولايات هى الرميلى الشرقية واكريت والسوسام

❋ والاحكام الجارية فيها قانونية بواسطة مجالس من الاهليين كما ان للدولة ولايات أخر فى هاته القارة ليس لها امتياز عن غيرها من بقية الممالك وهى ولايات الرميلى كادرنة وشقودرة وسلانيك وجزاير البحر الابيض وأما بوسنة وهرسك فكلاهما تحت تصرف النمسا وهما من حقوق الدولة ولذلك كان لها فيهما العلم بحيث ينشر كل من علم أوستريا وعلم الدولة معا والخطبة باسم السلطان العثمانى والمتوظفون العثمانيون ان صلحوا فى نظر الوالى الاوستورياوى يبقون كما ان أوستريا أدخلت عساكرها مشاركة للعساكر العثمانية فى صنجق نوفى بازار مع بقاء الادارة بيد الدولة وكل ذلك بموجب معاهدة

برلين

برا فيحد أملاك الدولة فى أوروبا الآن شمالا نهر الطونة وغربا النمسا والصرب والجبل الاسود وبحر البنادقة ويحدها جنوبا بوغاز القسطنطينية وبحر مرمرا وبوغاز جناق قلعة وبحر الجزر والبحر الابيض واليونان وشرقا البحر الاسود وبحر الجزر

الفصل * الثانى والعشرون

وأما الدولة الثانية وهى الجبل الاسود فانها استقلت بعد الحرب الواقعة سنة ١٢٩٢ وكانت تابعة للدولة العلية ولازالت تلقب بالاماوة ثم ضم اليها قطع من ممالك الدولة العلية وصار الآن سكانها نحو ثلاثمائة ألف ويحدها تلك المملكة شمالا فى البعض أوستريا وغربا بحر البنادقة ومن بقية الجهات الدولة العلية وقاعدة المملكة ستين

الفصل * الثالث والعشرون

وأما الدولة الثالثة وهى اليونان فانها كانت تابعة للدولة العلية أيضا واستقلت فى سنة ١٢٤٦ وكان اذذاك عدد سكانها نحو ثمانمائة ألف فتكاثروا الى ان بلغوا الآن الى مايزيد على المليون ونصف ولهذا الجنس الشهرة التامة فى التقدم وفنون العرفان فى الاعصر السابقة الا انهم لم يبقوا على ما كانوا عليه والى الآن لهم اعتناء زائد بالاسفار وقوة البحر وهذه المملكة شبه جزيرة فى البحر الابيض فيحيط بها من جميع الجهات الا الجهة الشمالية فيحدها الدولة العلية ولها جزائر أخر بقربها تابعة لها وقاعدتها اتينا

الفصل * الرابع والعشرون

وأما الدولة الرابعة وهى ايطاليا فقد كانت منقسمة الى عدة امارات وممالك ثم فى أواسط هذا القرن أخذت فى الاتحاد الى ان تم اتحادها بجعل مدينة رومة تختا لها فى سنة ١٢٨٧ وصارت دولة من الدول العظام سكانها نحو سبعة وعشرين مليونا ويحدها البحر الابيض من الغرب فى البعض وفى الباقى فرانسا ويحدها جنوبا البحر المذكور ويحدها من الشرق بحر البنادقة فى الجل وفى البعض أوستريا ويحدها شمالا أوستريا فى البعض وفى الباقى سويسرة وفرانسا وسيأتى مزيد الكلام عليها بانفرادها فى المقصد ان شاء الله تعالى

الفصل * الخامس والعشرون

وأما الدولة الخامسة فهي دولة اسبانيا وقد كانت متلاشية في شمال الاندلس ولما أكب المسلمون هناك على شهواتهم وعملوا بالظلم بعد ان بلغوا الدرجة القصوى من العدل والمعارف والقوة حتى فتحوا قسما عظيما من فرانسا ثم تركوا ما كانوا عليه وانقسموا ملوك طوائف كما قال شاعرهم

مما يزهدني في أرض أندلس * ألقاب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب سلطنة في غير موضعها * كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

فحينئذ استعانت دولة الاسبنيول بذلك الانقسام والظلم واعانت بعضهم على بعض وتستبد هي بالفائدة الى أن تسلطت على الجميع وفعلت من التوحش والقسوة ما تنفر عن سماعه الآذان حيث ألزمت المسلمين اما تبديل دينهم أو القتل فهرب من قدر منهم على النجاة أفواجا أفواجا حفاة عراة وتشتتوا في المغرب والجزائر وتونس ايدي سبا * ثم استفحل أمر تلك الدولة أي الاسبنيولية الى أن كانت هي وحدها اذ ذاك ذات التقدم على سائر الدول الاوروباوية لما فازت به من ثمرات فنون المسلمين وصنائعهم وكانت وحيدة في القوة البحرية حتى ان أول من اكتشف أمريكا كان من اسطولها كما سيأتي ذكر ذلك ان شاء الله تعالى وعمرت مستعمرات في أمريكا والبحر الهندي وأفريقية وغيرانها فيما بعد دا تحن فيها الاستبداد جراحه سنة الله في أرضه فتقهقرت الى ان كادت أن تتلاشى وخرج عنها كثير من مستعمراتها وخربها الظلم ونقصت فيها الانفس والاموال والثمرات الى أن استفاقت الامة من غفلتها وثار وا ثورة واحدة حتى حصلوا على ترتيب دولة قانونية وامتد أمرهم في تحصيل مقصودهم بضع سنين وهي من سنة ١٢٨٦ الى سنة ١٢٩٣ فاستقر حالهم على حكومة حرة وملكوا عليهم ابن ملكتهم السابقة التي ثاروا عليها بعد ان سيروا الحكومة الجمهورية ثم عدلوا عنها وارادوا أحد عائلات ملوك أوروبا فملكوا عليهم ابن ملك ايطاليا ثم بدا له منهم النفرة فخلع نفسه وأوصلوه الى بلاده محروسا مكرما وعادوا الى الجمهورية فأنف منها شرفاؤهم وأغلب الاهالي فاستقر أمرهم على ابن ملكتهم المذكور على ان يكون تحت القوانين المرتبة وخاضعا لها فاستقام حالهم بذلك واقبلوا على اصلاح شؤونهم بيد ان ذلك لما كان حاصلا من عهد قريب وبعد

حروب أهلية لم تتراجع دولتهم الى ان تعد من الدول الاولية وسكان هاته المملكة عدى ما بقي لها من المستعمرات سبعة عشر مليونا ولها مستعمرات في أمريكا وفي شطوط أفريقيا وآسيا وجزر الاقيانوس يبلغ عدد سكانها نحو تسعة ملايين وهاته المملكة يحدها جنوبا بوغاز طارق والبحر الابيض وشرقا البحر الابيض في البعض وفرانسا في الباقي وشمالا المحيط الشمالي وغربا المحيط المذكور ومملكة البرتقال وقاعدتها مدريد

الفصل * السادس والعشرون

وأما المملكة السادسة وهي مملكة البرتقال فقد كانت قسما من الاندلس ثم اسبانيا وعند تقهقرها هاته استقلت عليها واجرت القوانين فكانت مستقيمة السيرة على قدر حجمها وسكانها نحو أربعة ملايين ونصف ولها مستعمرات في شطوط افريقية والصين والهند يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة ملايين ونصف ويحد هاته المملكة غربا المحيط الغربي ومن بقية جهاتها اسبانيا وقاعدتها اشبونة بالتسمية العربية وحرفوها الآن فصارت لزبون

الفصل * السابع والعشرون

وأما الدول الوسطى فاولها دولة فرانسا ذات النخوة والشأن المتقدمة في التمدن والسطوة والعرفان وسيأتي تفصيل الكلام عليها ان شاء الله تعالى وانما نقول هنا ان هاته المملكة حوت من المحاسن والصفات ما أقر لها به معاصروها ومناكبوها ولولا تقسيم أهلها الاحزاب مع سرعة الجعل بينهم لما جارتها دولة وهي تشتمل على نحو ستة وثلاثين مليونا من النفوس ولها مستعمرات في جميع القارات يبلغ عدد سكانها نحو خمسة ملايين واستقلالها قديم وتختها مدينة باريس ويحدها جنوبا البحر الابيض وايطاليا واسبانيا وشرقا ايطاليا وسفيسرة وجرمانيا والبلجيك وشمالا البلجيك والمانش والمحيط الشمالي وغربا المحيط المذكور وهي من اقدم الدول القانونية وان طرأ عليها في الوسط شيء من الاستبداد لكنها ازاحته وحكومتها جمهورية وقاعدتها باريس

الفصل * الثامن والعشرون

وثانيها دولة سفيسرا ويحدها جنوبا ايطاليا وشرقا أوستريا وشمالا المانيا وغربا فرانسا

وقد كانت تداولها كل من فرنسا والمانيا مدة قرون وفى خلالها يحصل لها فى بعض الاحيان استقلال الى أن تم استقلالها باعتراف جميع الدول الكبيرة وضمانتهم لاستقلالها وذلك (سنة ١٦٤٨) أى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى ولازالت على ذلك وسكانها نحو مليونين ونصف وحكومتها جمهورية خالصة بمعنى ان المجالس العليا ينتخب أعضاؤها من أنفسهم سبعة أشخاص لمدة ثلاث سنين يكونون بمثابة الوزراء فى ادارة الامور على نحو ما تتفق عليه المجالس وينتخب لهؤلاء السبعة رئيس لمدة عام واحد يكون هو رئيس الدولة العام وتخت المملكة مدينة بارن

الفصل * التاسع والعشرون

وثالثها دولة البلجيك فيحدها جنوبا وغربا فرنسا وشمالا بحر المانش والمحيط الشمالى وشرقا المحيط الشمالى وهولانده والمانيا وعدد سكانها نحو خمسة ملايين وتخت المملكة مدينة بروكسل وكانت من ملحقات فرنسا ثم استقلت بأمرها مع اتحادها بهولانده بعد سقوط نابليون الاول ثم استقلت بتا (سنة ١٨٣٠) مسيحية الموافقة (سنة ١٢٤٦) هجرية فسبقت أيضا فى العمران والثروة

الفصل * الثلاثون

ورابعها مملكة دولة النمسا المتركبة من دولتين مستقلتين وهما أوستريا وهنكاريا وكل منهما لها ادارة خاصة بجميع داخليتها ووزراء يباشرون الادارة فى كل منهما ولهما ملك واحد يلقب بامبراطور أوستريا وملك هنكاريا ولهما قانون معلوم فى كيفية الاتحاد والانفراد وحدود كل منهما ومنها أن يكون وزير الخارجية وعلائقه متحدا فى كل من المملكتين ودولة أوستريا من أقدم دول أوروبا وكانت فى مبدئها صغيرة ثم تعاظمت ودخلت فى العصبة الالمانية حيث ان من أهاليها قسما عظيما من الجنس الالمانى وصارت لها الرياسة على العصبة مدة الى ان انتزعتها منها دولة بروسيا (سنة ١٢٨٤) فى حرب عاضدتها فيها ايطاليا واستقرت الآن منفردة عن العصبة الالمانية وصار عدد أهالى هاته الدولة نحو سبعة وثلاثين مليونا ويحدها جنوبا الرومانيا والصرب والدولة العلية وبحر البنادقة وايطاليا وغربا سويسرة والمانيا وشمالا المانيا والروسيا وشرقا

الروسيا

الروسيا ورومانيا وقاعدة المملكة الاولى هى مدينة فينا وقاعدة الثانية هى مدينة بست وتحت تصرفها بوسنة وهرسك

الفصل * الحادى والثلاثون

وخامسها دولة الصرب وانما صارت دولة مستقلة بعد حرب سنة ١٢٩٣ وكانت أمارة مستقلة بالادارة تابعة للدولة العلية وتؤدى لها الخراج وبمقتضى معاهدة برلين صارت دولة مستقلة يحدها جنوبا الدولة العلية بامارة البلغار وغيرها وشرقا هى أيضا ونهر الطونة وشمالا النهر المذكور والنمسا وغربا ولاية بوسنة وهرسك الراجعة للدولة العلية وتصرفها بيد النمسا وعدد سكان هاته الدولة مع ما أضيف اليها بمقتضى المعاهدة المذكورة نحو المليونين وقاعدتها بلغراد

الفصل * الثانى والثلاثون

وسادسها دولة الرومانيا يحدها جنوبا الدولة العلية بولاية البلغار فى البعض وفى الباقى نهر الطونة ويحدها شرقا البحر الاسود والروسيا وشمالا الروسيا والنمسا وغربا النمسا وقاعدتها بخارست وعدد سكانها نحو خمسة ملايين وبقية أحوالها مثل الدولة المتقدمة عليها فى الذكر لكنها متقدمة فى التمدن والمعارف والقوة وعندما كانت تابعة للدولة العلية كانت تسمى بالولايتين أى الافلاق والبغدان حيث كانت منقسمة اليهما ثم اتحدتا فى عشرة السبعين والمائتين وألف تحت أمير واحد ثم استقلت بمقتضى معاهدة برلين بعد ان دخلت فى اعانة الروسيا على كره من الاهالى ولا زالوا محبين للترك الى الآن

الفصل * الثالث والثلاثون

وأما الدول الشمالية فالدولة الاولى منها دولة انكلاتيرة السابقة فى الحرية والثروة وهى جزيرتان منقطعتان فى المحيط الشمالى يحيط بهما البحر من جميع الجهات وأقرب جهة من القارة اليها هى مملكة فرانسا ويفصل بينهما بحر المنش واضيق جهة منه بينهما نحو عشرين ميلا وسكانها نحو الاثنين مليونا وقاعدتها مدينة لندرة ولها مستعمرات فى جميع أقسام الكرة فمنها الهند وجزره وعدن فى آسيا كما تقدم الكلام على ذلك

❁ ومنها رأس الرجا الصالح وغيره فى أفريقيا ومنها آيالات فى أمريكا الشمالية وأخرى فى الجنوبية وأعظم جزائر أوستراليا وعدد جميع من يتبعها فى المستعمرات نحو مائة وتسعين مليونا وسيأتى الكلام على هاته المملكة مفصلا فى باب خاص من المقصد ان شاء الله تعالى

❁ الفصل ❁ الرابع

﴿والثلاثون﴾

والثانية منها دولة هلاندة ويحدها شمالا وغربا المحيط الشمالى ويحدها جنوبا ❁ البلجيك وشرقا المانيا وقد كانت تداولتها دول جرمانيا وفرانسا واسبانيا الى أن استقلت مع البلجيك بعد سقوط نابليون الاول ثم انفصلت عنها البلجيك سنة ١٨٣٠ م ❁ و ١٢٤٨ هـ وعدد سكانها نحو ثلاثة ملايين وثمانمائة ألف نفس ولها مستعمرات فى جزائر الهند وجاوا وسمطرا وأمريكا وأفريقيا عدد سكانها نحو عشرين مليونا من الانفس وقاعدة المملكة مدينة هاك

❁ الفصل ❁ الخامس

﴿والثلاثون﴾

والثالثة منها دولة المانيا المتولفة من ستة وعشرين دولة كل منها مستقل بادارته الداخلية ولهم قانون فى الوحدة ومجلس يشترك فيه الجميع عدد أعضائه على قدر مناسبة سكان الممالك المشتركة فيه والرياسة على جميع هاته الدول الآن لدولة بروسيا وملكها ملقب بامبراطور المانيا ويحد جميع المملكة شرقا الروسيا والنمسا وبحر البلتيك وشمالا البحر المذكور والدانيمرك وغربا هلاندة والبلجيك وفرانسا وجنوبا سفيسرة وايطاليا ❁ والنمسا وعدد سكان الممالك احد وأربعون مليونا والقاعدة الكبرى للجميع هى براين ❁ وهذه أسماء الدول المتألفة منها العصبة مع عدد السكان وأسماء القواعد

أسماء الممالك	أسماء القواعد	عدد سكان الممالك
بروسيا	برلين	٢٥ و ١٧١ و ٠٠٠
بافير	مونيخ	٤ و ٨٦٤ و ٠٠٠
فورتنبرغ	استوتكادر	١ و ٨١٨ و ٠٠٠
بادن الكبرى	كارلس	١ و ٤٦١ و ٠٠٠
الساكس	درازد	٢ و ٥٦٠ و ٠٠٠
مكلنبورغ ستراتس	نيوستراتس	٠٠ و ٠٩٧ و ٠٠٠
أولدنبورغ	أولدنبورغ	٠٠ و ٣١٦ و ٠٠٠
الساكس ويمر	ويمر	٠٠ و ٢٨٦ و ٠٠٠
الساكس مينجن	مينجن	٠٠ و ١٨٨ و ٠٠٠
الساكس كوبرى غوطا	غوطا	٠٠ و ١٧٤ و ٠٠٠
الساكس التين بورغ	التنبورغ	٠٠ و ١٤١ و ٠٠٠
اشفارزبورغ	رودول استاد	٠٠ و ٠٧٥ و ٠٠٠
شوراشبورغ سوندرسوزن	سوندرسوزن	٠٠ و ٠٦٨ و ٠٠٠
أدليس شلايز	شلايز	٠٠ و ٠٨٩ و ٠٠٠
أوليس غرايز	غرايز	٠٠ و ٠٤٥ و ٠٠٠
أنحات	ديسو	٠٠ و ٢٠٣ و ٠٠٠
ابرونزويك	ابرونزويك	٠٠ و ٣١٢ و ٠٠٠
ليب ديتموله	ديتموله	٠٠ و ١١١ و ٠٠٠
ليب شاومبورغ	بوكي بورغ	٠٠ و ٠٣٢ و ٠٠٠
فالديك	ادرسن	٠٠ و ٠٥٦ و ٠٠٠
ايس دارمستاد	دارمستاد	٠٠ و ٨٥٣ و ٠٠٠
للجاس واللورين (ميتس) (استرسبورغ)	(كولمار)	١ و ٥٤٨ و ٠٠٠
بلدة هامبورغ	هانبورغ	٠٠ و ٣٦٠ و ٠٠٠
بلدة لنك	لونك	٠٠ و ٠٥٢ و ٠٠٠
بلدة بريم	بريم	٠٠ و ١٢٣ و ٠٠٠
		٤١ و ٠٠٣ و ٠٠٠

وكلها ذات قوانين والسياسة الخارجة متكفلة بها الدولة الرئيسة

الفصل * السادس

﴿ والثلاثون ﴾

والرابعة منها دولة السويد المتألفة من دولتي السويد والنورويج وكل منهما مختصة بادارتها الداخلية والوزارة والالسان والعساكر بحيث لا يجمع بينهما الا كون الملك واحدا والسياسة الخارجية أيضا لحكومة السويد وكانت المملكة قديما ذات عظمة فاستقلت عنها الداغرك وأخذت قسما عظيما منها الروسيا واستقرت على الحالة التي هي عليها الآن منذ سقوط نابليون الاول فمجموع سكان المملكتين نحو خمسة ملايين ونصف يخص السويد نحو أربعة ملايين ويخص النورويج نحو مليون ونصف وقاعدة الاولى استكولم وقاعدة الثانية كريستيانية ويحد المملكتين اللتين هما شبه جزيرة تمتد الى نهاية القطب الشمالي فمن الجنوب بحر البلتيك وخليج بوتنيا وشمالا المتجمد الشمالي في القطب وغربا خليج الصوند والبحر الشمالي وبحر الاسكندنافيا اللذان هما من المحيط الشمالي وشرقا الروسية في البعض وفي الباقي الخليج الفاصل بينهما

الفصل * السابع

﴿ والثلاثون ﴾

والخامسة منها دولة الداغرك وانفردت عن السويد والنورويج في أواسط القرن الثالث عشر من الهجرة ثم في أوائل عشرة الثمانين ومائتين وألف هجرية حاربتها كل من بروسيا والنمسا وامتلكا منها ولايتي الشواسويغ وهولستين التي هي أول شرارة القيت لانقلاب الموازنة السياسية في هذا القرن كما يأتي تفصيله في المقصد عند ذكر ايطاليا ان شاء الله تعالى فاستقرت المملكة شبه جزيرة ممتدة من الجنوب الى الشمال ويحدها جنوبا حيث تتصل بالقارة المانيا البروسيانية وشرقا خليج الصوند وبحر البلتيك الفاصلان بينها وبين السويد وشمالا خليج سكاجيراك الفاصل بينهما أيضا وغربا البحر المحيط الشمالي وسكانها نحو مليون وسبعمائة ألف ولها مستعمرات في جزائر البحر الشمالي من أوروبا ولها في أمريكا أيضا مستعمرات ومجموع سكان مستعمراتها نحو مائة ألف وخمسة وعشرين ألفا وقاعدتها كوبنهاغ

الفصل الثامن والثلاثون

والسادسة منها دولة الروسيا ومملكتها بالنظر لسطح الارض هى اكبر الممالك وقد تقدم الكلام على قسمها من آسيا وأما فى أوروبا فيحدها شمالا المنجمد الشمالى وشرقا جبال أورال ونهر دون الفاصل بين آسيا وأوروبا وجنوبا البحر الاسود والرومانيا والنمسا وغربا المانيا والسويد وعدد جميع سكان المملكة بين آسيا وأوروبا نحو نيف وثمانين مليونا من النفوس منهم نحو ستين مليونا من المذهب المسمى ارتيدوكس وهو مذهب اليونان من المسيحيين وكلهم من نوع البشر المسمى بالسلاف وبقية العدد منه نحو ثمانية ملايين مسلمون والباقى من مذاهب شتى من الديانة المسيحية وغيرها والدولة على المذهب الارتيدوكس وهى وان لم تجبر غير أهل ذلك المذهب على تبديل ديانتهم أو مذهبهم غير انها تمنعهم من حرية المذهب واشهار تعاليمه بل تجبرهم على تعليم أبنائهم فى مكاتبها وتجبرهم أيضا على ترك لغاتهم ولا يخفى ان أهل مملكة مثل تلك فى الاتساع وكثرة الاجناس لابد أن يكون لهم لغات شتى حتى قيل ان اللغات الاصلية فيهم تتجاوز الخمس عشرة لغة وهاته الدولة تكونت على الصفة المار ذكرها فى مدة قليلة فان هاته المملكة كانت قديما لا يعرف منها الا أهل الجنوب باسم قبائل الى القرن الثالث المسيحى فتألفت فى روسية أوروبا سلطنة عظيمة من أمة الغوت ثم تلاشت بالحروب الاهلية وبهجمات الامم الشرقية على أوروبا وتمادت على ذلك الى ان استولى على أغلبها التتر فى مدة باتوخان ابن جنكزخان ثم ابتدأ تأسيس المملكة سنة ١٤٨١ م و٨٨٦ هـ على يد ايفان الملقب بالامير الكبير وخضعت له ولذريته القبائل المتكونة منها روسية الاصلية ثم انقطعت عائلته وحدث فى المملكة تقهقر أشرف بها على الاضمحلال الى أن تولاها ميشال رومانوف وهو الذى أسس الدولة الموجودة الآن وذلك سنة ١٦١٣ م و١٠٢٢ هـ فأخذت فى الراحة الاهلية وضم ما كان خرج عنها الى أن تولاها بطرس الاكبر محيى تلك الدولة فهو الذى أسس اسمها بين الدول المعتبرة واجتهد فى ترقيها وكان مع مزيد اعتنائه بالسياسة ومباشرتها بنفسه تحمل أتعاب السفر الشاق فى ذلك الوقت لتعلم الصنائع بنفسه حثا لامته على الاقتداء به وبقى مدة فى ترسخانة هلاندة لتعلم صناعة النجارة حتى اتقن تعلمها وجلب للمملكة معلمين من عدة صنائع وأخذت من ذلك الوقت فى الترقى والاتساع مع حزمه هو ومن

خلفه ومهارتهم فى الفنون الحربية والمكايد السياسية الى ان بلغت الآن الى ماهى عليه من مزيد القوة والاتساع ولوانها كانت فى المعارف والحرية مثل بقية ممالك أوروبا لما كادت ان تسلم منها دولة بيدان بقاءها على اصول الاستبداد أوجب فيها قلة الثروة والمعارف فلم تقدر على انجاز كل ما تضمره وان كان القيصر الموجود الآن وهو الاسكندر الثانى قد حرر الفلاحين من تملك الاعيان لهم حيث كان سابقا ان قسم الاعيان من المملكة من ملك منهم أرضا ملكها بمن فيها من البشر ويستعملهم استعمال العبيد بحيث يتصرف فيهم تصرفه فى المتاع كما كانت تلك العادة جارية فى أوروبا حتى ان الفلاح اذا أراد التزوج بعد الاذن له من سيده يأتى بعروسه ليلة عرسه الى سيده ولا يمكن له أن يدخل بها قبل أن يبارك له عليها سيده وان أراد الاختلاء بها فله حق ذلك وقس على ذلك من أنواع الشناعة ماشئت ففى سنة ١٨٦٧ م و ١٢٨٤ ﻫ أبطل القيصر اسكندر الثانى ذلك الحكم وحرر الفلاحين وأما ادارة هاته المملكة فهى من قبيل الاستبداد المطلق بمعنى ان رئيس المملكة ويلقب عندهم بالكزار بمعنى قيصر أو امبراطور مع انضمام معنى الرياسة الدينية فهو الذى يتصرف فى الكليات والجزئيات على حسب ارادته واختياره ومن ينوب به فى الوظائف يتصرف مثل ذلك التصرف باسم الكزار وللكزار رياسة التصرف فى الديانة وفى الملك وفى العسكر وفى الشخصيات ومع ذلك لهم تراتيب ومجالس لتدبير الملك وادارة الولايات فأول هاته المجالس المجلس المسمى بمجلس السلطنة وهو مجلس تشريع وادارة وحكم فيستشار فى جميع الامور المهمة غير السياسة الخارجية فانها مختصة بالملك ويستعين بوزرائه فيها ولهذا المجلس النظر فى احداث القوانين واجرائها وتعين المداخيل والمصاريف وتدقيق النظر فى محاسبات الوزراء وترفع اليه الاحكام الشخصية الثقيلة ويتركب من الوزراء واعضاء العائلة الملكية واعضاء ينتخبهم الامبراطور لمدة حياتهم وحضور الاعضاء فيه على نوعين فالاول لازم الحضور والثانى يحضر بالاستدعاء لداع يقتضيه وله تقاسيم فى الادارة كل قسم مناط به شئ مما يتعلق بالوظيفة المجلس الثانى هو مجلس السناتو الذى أسسه بطرس الاول ووظيفته حراسة القوانين والمراقبة على سيرة كبار المتوظفين والولاة والحكم النهائى فى الجنايات السياسية الاخصوص نوازل يختص بها الامبراطور وهو ينقسم الى أقسام مراكزها فى عدة جهات من المملكة فى المدن الكبيرة ويجتمع فى أوقات الاجتماعات العامة المجلس الثالث مجلس ينظر فى خصوص المعاريض المقدمة للامبراطور وهل للمشتكين

من

من الحكام عرض نوازلهم على أحد المجلسين المذكورين سابقا المجلس الرابع المجلس الديني المركب من اساقفة الايالات الكبيرة ووظيفته تسمية كبار الكنائس والنظر في ادارتها اذا أمضاه الامبراطور والمجلس الخامس مجلس الوزراء المؤتلف من تسعة وزراء فأكثر على ما يقسم الامبراطور ادارة الوزراء اليه والمجلس السادس مجلس الرقيب العام أعضاؤه مثل الوزراء ثم ان المملكة تنقسم الى أقسام وهي أيضا تنقسم الى أصغر منها الى آخره سواء كانت في المدن أو في البوادي فالاقسام الكبار المتصرف فيها هو الوالي العام البلدي وهو المطالب للامبراطور بجميع ما يحدث في ولايته ولذلك كان له الاطلاق أيضا في امضاء ما يراه مجلس الولاية أو دحضه وهكذا كل رئيس في قسم أصغر منه هو مطالب لمن فوقه فلا جدوى في ان كان لكل منهم مجلس مركب من أعضاء من أهل المكان وفي كل قسم كبير جمعية تسمى جمعية الاعيان عدد أعضائها على حسب الدوائر والمشيخات الراجعة لذلك القسم ورئيسها يلقب بمارشال الاعيان ووظيفتها تعيين غالب المتوظفين في كل ثلاث سنين اذا امضاه الوالي أو الامبراطور وفي كل مدينة أو قرية مجلس بلدي تحت رياسة أحد أعيانهم والذي ينتخب أعضاء المجلس والرئيس هو البلدية من البلدان ومعنى البلدية هو الاعيان والاواسط من الناس وأما أصحاب الخدم البدنية فليس لهم هذا المقام ووظيفة المجالس البلدية ادارة الاشغال العامة ومصالح البلدان والحكم فيما يحدث بين البلدية في التجارة كما انه يوجد في هاته الاقسام مجالس للحكم في الجنايات ومجالس للحكم في الامور العرفية وامضاء الحكم مناط برئيس القسم كما تقدم كما ان لكل مشيخة بالبادية جمعية من كبار عائلاتهم لفصل نوازلهم وتقسيم الاداء اللازم للدولة وتعيين من يدخل للعسكر ورؤساء هاته الجمعيات هم أقدمهم في المشيخة ولهم الخيار أيضا في تنفيذ رأي الجمعيات ومن مجالسهم مجلس الصلح وهو الذي يونج المتوظفين عن تجاوزه أموريا تهم والحكم في الجنايات الخفيفة والماليات التي لا تبلغ أربعمائة فرنك ومن قواعدهم ان الخصمين اذا حكما أحدا مضى حكمه على شرط تقييده في دفتر مخصوص لذلك أما أحكام الحكام فهي شفاهية ويشترط في المتوظفين ان يكون أصحاب عرض وان لا ينقص سن أحدهم عن الخمس والعشرين سنة وفي خصوص الولايات التي في حدود المملكة يوجد حاكم عسكري مع الحاكم المدني وله الرياسة عليه وبخصوص ولاية فلاندا وزارة خاصة في قاعدة المملكة ومجلس سناتو اسميه الامبراطور في كل ثلاث سنين وتخت جميع المملكة هي صان بطرسبوغ فادارة هاته المملكة وان

كانت لها مجالس وقوانين وكثير من موظفيها تنتخبهم الاهالى لكنها فى الواقع استبدادية حيث ان اجراء كل شئ وتنفيذه منـاط بالامبراطور ثم بخلفائه ولهم الخيار فى التنفيذ وعدمه من غير تقييد بمرجع ولا يخفى ان ذلك الرئيس وان كانت أغراضه لا تعم جميع الجزئيات لكنه له حواشى وأتباع فيراعى لكل منهم بعض الوجوه ولكل منهم علائق وأغراض فيتسع الخرق فى المراعاة والمداراة وتجرى الامور على الشهوات ولهذا لما كثرت الصحف الخبرية فى نفس المملكة وكثرت فيها الصحف الاجنبية وكثرت المدارس التى تعلم اصول التهذيب وكثرت المواصلة ببقية ممالك أوروبا بالطرق الحديدية انفتحت بصائر أهالى المدن الكبيرة فى الروسيا وسرى الامر منهم لمدن ثوانى فى جهات من المملكة فحصل منهم سنة ١٢٩٦ ثورات عديدة ولازالت مستمرة الى الآن لكن تارة تشتد وتارة تخف فى طلب اجراء الحرية والقوانين مثل بقية أوروبا وزادهم جلاء على ذلك ما رأوه من دولتهم عند اعلانها الحرب على الدولة العلية سنة ١٢٩٤ الآتى خبرها فى المقصد ان شاء الله تعالى حيث حررت أهل البلغار مع انهم أحسن ادارة منهم وجعلت لهم ولاية ممتازة ادارتها قانونية فقالوا اما لنا نتحكم على جيراننا وننفع غيرنا ونهرق لاجلهم دماءنا وأموالنا ونحن فى حالة اتعس منهم فكأن لسان حالهم يقول

يا أيها الشيخ المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم

فالحاصل ان مملكة الروسيا انما تقدمت بالسطوة والقوة لمجرد حذق أمرائها فان القيصر ولان كان له التصرف المطلق لكنه دائما يراعى مصلحة المملكة ويقدمها على حظوظه الخاصة ولا يصرف من أموال الدولة الا فى مصالحها وهو فى حد ذاته فى غاية الاقتصاد ثم انه يستعين بالرجال العارفين الحازمين الصادقين ولا يغير أحدا من الكبراء من منصبه الا لمصلحة مهمة أو ذنب ثابت حتى ان وزيره الاكبر الآن وهو غرتشقوف له فى الوزارة سبع وعشرون سنة مع كبر سنه الذى بلغ الثمانين ولم يغيره بل انه مرض مرضا شديدا فى هاته السنة وهى سنة ١٢٩٧ واضطر للاستعفاء فلم يعفه وجعل له نائبا عنه لمباشرة الاشغال الى ان يتيسر له مباشرة الاحوال وعاده بنفسه فى مرضه كما انه استعفى مرارا ولم يجبه الى ذلك وهو أى القيصر منقاد لتدابير وزرائه والناصحين العارفين وهكذا أسلافه فان الوزير نسل رود الذى كان قبل غرتشقوف مكث فى الوزارة ثلاثين سنة وبذلك حصل التقدم للدولة وصارت مدنها الكبيرة لا يفرق بينها وبين

مدن أوروبا القانونية لافي الادارة الحكمية ولا السياسية ولا التحسين التشخيصي اما
غيرها من بقية المملكة فكأنما الناس عبيد مستعملون للرعاة حتى حكى لي أحد
السواح الثقاة ان مشايخ القرى يضربون الرعية بالسياط وهم مارون بالطريق
ولا يأمر الشيخ أحدا بشئ الا ويتبعه السوط ضربا لاجل ضيافة السائح فتعجب السائح
من ذلك وقال له يا أيها الشيخ لالزوم لهذا الاكرام حيث ان الواقعة هي ان السائح لما قدم
للقرية وبيده توصيات من الحكومة في الالتفات اليه من الرعاة واكرامه عمل شيخ
القرية بذلك وأمر في الحال أحد الاهالي بالاتيان بعلف الدواب من عنده وأمر آخر
بالاتيان بالاكل الطيب من عنده أيضا وأتبع الامر بالضرب والشتم فقال له السائح
المقالة المارذكرها فأجابه بدع عنك هذا الكلام ان هؤلاء الكلاب لايصلح فيهم
الاهذا العمل فلواني طلبت منهم ماطلبت باءلا مايكون من الثمن عن طيب نفس لما
أجابوا الشئ وكلام هذا الشيخ وان أمكن ان يكون فيه مبالغة لكنه لايخلوا عن الصحة
لان الاهالي أعني أغلبهم تربوا على السذاجة الحيوانية ولم تتهذب أخلاقهم مع النشأة على
الذل والهوان والتحكم الشديد فلوطلب منهم الحاكم شيأ اعتادوا على اعطائه مجانا بالوعد
بالثمن لماصدقوا بذلك ورأوا ان رزقهم يؤخذ منهم قهرا وحب المال مجبولة عليه
الطباع فيتكاسلون عند اعطائه الا بالغضب فيصنع الحكام معهم ذلك الصنيع ولوانهم
عودوهم من الصغر والنشأة على مكارم الاخلاق واكرام الضيف ورأوا منهم مرارا اعطاء
الحقوق والثمن لماخالفوا طبع سائر البشر واعلم ان في أقسام هاته المملكة أقواما
كثيرين من المسلمين منهم أهالي ولاية قازان الذين أسلموا منذ العصر الاول اذقيل انهم
أسلموا في عصر بني مروان في كبد القرن الاول من الهجرة وقيل في خلافة المأمون وقيل
في خلافة الواثق ابن أخيه وانتشر فيهم الاسلام باسلام ملك بلغار الماس خان بن سلكي
خان في خلافة المقتدر فتسمى بالامير جعفر وقاعدة هاته الولاية مدينة بلغار المذكورة
في كتب الفقه للاختلاف في وجوب العشاء على أهلها في مدة الصيف حيث لايغرب
فيها الشفق وانما أفردت بالذكر مع شمول الحكم لكل ماقرب الى أحد القطبين لانها
هي التي كانت اذذاك معروفة باسلام أهلها ولم يحدث الخلاف في الوجوب الا في المائة
السادسة اذلانص عن المتقدمين وقد أفرد المسئلة بتأليف بديع أحد علماء هاته البلدة
في هذا العصر وهو العلامة هارون ابن بهاء الدين المرجاني ابن شهاب الدين البلغاري
أيد القول بالوجوب وله نفس بديع وقول مصيب اختصره ملك بهوپال السيد محمد

صديق خان فى لقطة العجلان فلله الحمد على وجود أمثالهم فى هذا العصر الذى تغرب فيه الدين فضلا عن العلم وتلك المدينة واقعة على عرض خمس وخمسين درجة شمالا ونحو سبع وأربعين درجة طولا شرقيا من باريس وهى على نهر الفلكى الشهير

❁ الفصل ❁ التاسع والثلاثون

وخلاصة الكلام على جميع قسم أوروبا هو أن يقال ان جميع الممالك المار ذكرها الا ما استثنى كلها ممالك قانونية يعنى ان ادارتها منضبطة فى السياسات بأمور محدودة مكتوبة يعلمها الخاص والعام ولا يجوز للمتصرف مجاوزتها والمباشر لاجرائها هم الوزراء باذن رئيس الدولة على اختلاف لقبه من امبراطور أو ملك أو رئيس جمهورية وعدد هؤلاء الوزراء يختلف بحسب كبر الممالك وصغرها حتى تحتاج الادارة الى زيادة الفروع أولا وأصول الادارات التى لابد منها فى كل مملكة هى ادارة الداخلية ثم الخارجية ثم المالية ثم الحربية وقد يتفرع عن هاته فروع على حسب الحاجة ولاهميتها تنفرد بوزارة مثل غيرها من الاحوال فمن هاته وزارة الاحكام والبحر والمعارف والاشغال العامة والديانة ويجعل لهؤلاء رئيس فى الاغلب يكون هو أحدهم وتارة يكون منفردا لبرأسهم عند الاجتماع وينفذ ما يتوقف على جمعهم ورئيس المملكة ينتخب هذا الرئيس وهو يعين لصاحب المملكة بقية اقرانه فيوظفهم وليس له بعد ذلك الا امضاء تصرفاتهم أو تبديلهم ان وافقه القانون وما يراه من التصرف انما يتصرف فيه بواسطتهم ثم يحتسب على الوزراء مجلسان أحدهما مجلس الاعيان من الامة واختيار أعضائه بيد صاحب المملكة او بواسطة وراثة تتوارثها بعض العائلات وقد تنتخب الاهالى بعض الاعضاء من بعض المملكة والثانى مجلس النواب أى نواب الامة تنتخبهم الاهالى لمدة معلومة بغاية الحرية فى الاختيار على شروط فى المنتخب والمنتخب تؤول الى صفات تثبت حق الغيرة على الوطن ومعرفة مصالحه والاهلية لنصحه ومجموع المجلسين يصح ان يسمى مجلس الامة أو المملكة فاذا رأى هذا المجلس فسادا فى تصرف أحد الوزراء أو مجموعهم وأصر المعترض عليه على رأيه لزمه الاستعفاء لانه يتصرف على خلاف ارادة الامة وهنا يكون لصاحب المملكة الحق فى قبول اعتراض المجلس وابدال المعترض عليه أو يأذن الامة بانتخاب مجلس آخر بعد حله للاول فان وقع انتخاب الامة على أناس

موافقين

موافقين للمعترض عليه بقي الامر على ماهو وان انتخبوا أهل المجلس الاول انفسهم أوغيرهم ممن يوافقهم في الرأى لم يبق لاصحاب المملكة حينئذ الا ابدال الوزراء المعترض عليهم وتوظيف غيرهم ممن يوافق رأى الامة هذا زيادة عما لهذا المجلس من حفظ جميع القوانين ومراعات مصالح المملكة في المال والسياسة والاحكام وعقاب المذنبين من المتوظفين ولو من الوزراء غير ان مباشرة العمل ليست بيده وانما هي لمن تعود اليه من وزير أو مجلس حكم أو صاحب المملكة فهذا هو أصل ادارتهم السياسية وأما أصل الادارة الحكمية الشخصية فهي منفردة عن السياسة ولا تسلط للسياسة على الحكام الشخصيين وهم يوظفون لمدة حياتهم او انتقال لدرجة أعلى وتصرفهم مناط بمجالس متعددة الاعضاء ووراءها مجالس أخر لرفع المحكوم عليه اشكواه من المجلس الحاكم بها وراء ذلك احتساب مجلس الامة والاحكام يستندون فيها القوانين مرتبة برضاء مجلس الامة وتكون الاحكام علانية الى غير ذلك من الاوجه المقربة لبحث الانصاف ودفع الظلم فهاته هي الاصول المعمول بها وتختلف فروعها بحسب الممالك وعاداتها فليس قانون الاحكام متحدا في جميع الممالك بل انما يتحد الجميع على أصل الجنايات كالقتل مثلا هو ممنوع في الجميع ومرتكبه يعاقب في الجميع وان اختلف عقابه بحسب العادات كما ان من الاحوال المتفق عليها ان يكون قسما مما تدفعه الاهالي الى دولتهم يصرف في تحسين المملكة ورونقها واصلاحها كمدد الجسور والطرق الحديدية وتنظيف الطرق زيادة على انشائها وكذلك كل ما يؤول لتوسيع التجارة والمعارف والفلاحة وغير ذلك مما يعود على المملكة بالتحسين والتحصين

﴿القسم الثالث من الارض﴾

هو قارة أفريقيا هاته القارة صارت الآن جزيرة عظيمة جدا يحيط بها البحر من جميع جهاتها فيحدها شرقا المحيط الشرقي والبحر الاحمر وخليج السويس والبحر الابيض ويحدها شمالا البحر الابيض وبوغاز طارق والمحيط الغربي ويحدها غربا المحيط الغربي ويحدها جنوبا المحيط الجنوبي وقد عرفت جميع شطوطها وما قاربها على التحقيق وبقيت دواخلها غير مسبورة على التحقيق الى الآن لشدة حرها حيث كان خط الاستواء قاسما لها ولصعوبة السفر من توحش أهلها وقلة الماء والطرق وتشتمل هاته القارة على ستة وأربعين مملكة ما بين مستقل وتابع لغيره فأما الجهة الشمالية من القارة

فانها لها الشهرة التامة وناكبت بتقدمها غيرها من القارات فى العصور السابقة ولازالت الى الآن مرعية الاعتبار

الفصل * الاربعون

فأول دولها سلطنة مراكش ويحدها غربا المحيط الغربى وجنوبا الصحراء الكبيرة وشرقا ولاية الجزائر والصحراء المذكورة وشمالا البحر الابيض وبوغاز طارق وهى مملكة متسعة اختلف الجغرافيون فى عدد سكانها من خمسة ملايين الى ثلاثة عشر مليونا والاقرب للصحة على حسب مايسمع من أهلها الذين لهم خبرة بأحوالها ان السكان المطيعين للحكم نحو سبعة ملايين ومبتدأ الحكم النافذ من الشطوط الشمالية الى بلدة رودانة فى الجنوب وهى تبعد عن مراكش من جنوبها نحو مسيرة ستة أيام وموقعها جهة السوس الاقصى وهناك أمم تابعون بالاسم وهم أكثر من الخاضعين للحكم وليس فيهم من أمارات الخضوع الا الخطبة باسم سلطان المغرب وهم على نوع من الحمية وتناصر الجاهلية وجميع السكان مسلمون الا نحو ثلاثمائة ألف من اليهود وبعض الغرباء من الافرنج فى المراسى وحكمهم استبدادى فى السياسة وأغلب الاحكام الشخصية يحكم فيها بالشرع والمباشر للحكم هو قاض يختار من اعلم الموجودين والمذهب العام هو المذهب المالكى ولهم مفتون يوليهم القاضى وبعضهم يوليه السلطان وهؤلاء المولون من السلطان يستشيرهم القاضى عند طلب الخصم للشورى فى حكمه أو عند توقف القاضى فى وجه الحكم وهكذا فى كل مدينة أو قبيلة قاض وجميع مايرجع الى تلك المدينة من الايالة يرجع الى ذلك القاضى وله نواب فى القرى الصغيرة وفوق الكل قاضى فاس وهو قاضى القضات وفى فاس قاضيان بهاته الصفة كل منهما استبد بجهة من المدينة ومايتبعها لانها تنقسم الى فاس القديمة وفاس الجديدة ثم فى هاته المدة زيد قاض ثالث دون الآخرين فى الرتبة وانما هو بصفة نائب عن قاضى فاس القديمة لان هذا مع كبر علمه ومزيد فضله استعفى مرارا معتذرا بكبر السن وضعف البدن فلم يساعفه السلطان لذلك ووظف له ذلك النائب وهذا القاضى هو الذى يولى جميع القضاة الا قضاة مراكش فلا دخل له فيهم اللهم الا اذا أراد السلطان أن يولى أحد علماء فاس قاضيا بمراكش فحينئذ يستشير قاضى فاس فى تعيين القاضى وكل مكان يشتمل

على

على قاض له وال يسمى فى عرفهم قائدا له فصل النوازل العادية والسياسية وبعض الشخصيات والدولة مركبة من السلطان والوزير والحاجب ووزير القضايا وكتبة ورؤساء للجند ولجهات سياسية فأما السلطان فان له عائلة شريفة ثابتة النسب برسول الله صلى الله عليه وسلم كان أرسل اليها بعض أهل المملكة وتواجدهم من ينبع النخل من المدينة المنورة منذ نحو ستمائة سنة للتبرك بهم فى صلاح ثمار نخلهم حيث بانت بركت آل البيت فى جهات أخرى من المملكة ثم عند وقوع حروب أهلية وانقسام المملكة الى طوائف نادى بجدهم مولاى محمد قسم من المملكة وبايعوه فى الثلاثين بعد الالف ثم اجتمعت بقية المملكة على ولده من بعده ولم يزل الملك فيهم لكن المتولى لا يعهد الى معين من عائلته وانما له ان يوظف منهم من رآه أهلا فى كبار الاعمال وعند فقد السلطان تجتمع أعيان المتوظفين والعلماء وأعيان الاهالى وينتخبون أحد أعضاء العائلة ويبايعونه بالسلطنة وبقية أعضاء العائلة يجب عليهم قراءة العلم ومن يوظفه منهم السلطان يشتغل بوظيفته ومن لا وظيفة له يشتغل بصناعة يتعيش منها وهى لا تكون الا عالية كالتجارة والتدريس والفلاحة ومع ذلك يجعل لهم من بيت المال شئ لا يكاد يسد من عوز وأما الوزير فينتخبه السلطان ولا يكون الا عالما ذا وجاهة من الاهالى وهو وزير القلم على الطريقة القديمة فى دول العرب من أن يكون الوزير هو وزير الانشا ولذلك يجب ان يكون ماهرا فى فنون الادب مع مشاركة حسنة فى غيرها ولعمرى ان صناعة الانشاء فى الدول باللغة العربية كادت الآن أن تكون مقصورة على دولة مراكش وأما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا وكادت كتابتهم أن تخرج عن الاسلوب العربى بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن والكلمات البربرية بخلاف كتاب المغرب وهذا ديدنهم من قديم ومما يحسن ذكره هنا ان حموده باشا رحمه الله الرجل الشهير من أمراء العائلة الحسينية بتونس المتولى فى أوائل هذا القرن كان وقع فى أثناء ولايته قحط شديد اضطر بسببه لطلب الميرة والحبوب من سلطنة المغرب لان أرضها كانت خصبة فى ذلك العام ولم تكن المواصلة فى أوروبا وغيرها من الاقطار سهلة فى ذلك الوقت وكان من عادة سلطنة المغرب ان تمنع خروج الحبوب من مملكتها فارسل حموده باشا العالم المقدس سيدى ابراهيم الرياحى لطلب ذلك المهم ووجه معه مكتوبا كان من جملة عباراته تبقى تأذن بخروج القمح الخ فقوله تبقى عبارة بربرية اعتادها كتاب التونسيين فى الاوامر الرسمية ولما قرأ ذلك الكتاب تعجب وزير القلم بدولة المغرب من

تلك العبارة واشتد حنقه منها كيف يخاطب السلطان بها ولولا تبحر سيدى ابراهيم في العلوم لخاب المسعى فقال لهم انها عبارة عربية وهى جملة دعائية فى صورة الخبر اذ انا بتحقيق الاجابة ببقاء السلطان وما بعدها جملة حالية ايذانا بأن بقاءه يكون دائما مشمولا بمثل الكعب الذى تحتاج اليه المسلمون من الاقطار وهو دايم الاذن بما ينفعهم ثم قال لهم وعلى فرض لحن العبارة هل يسوغ لسلطان من المسلمين ان لا يرحم عصابة اسلامية ويتركهم بما يكون جوعا لسوء عبارة من جهل الكاتب وقرائن الحال حافة بحسن القصد على انها المحل وجيه الخ فنجح سعيه رحمه الله وأما بقية المتوظفين فينتخبهم السلطان ايضا على حسب ارادته والسلطان يجلس يوميا صباحا ومساء لقبول المشتكين كيفما كانت الدعوى ويكون قبل جلوسه قد هيأه وزير القضايا تقريرا فى جميع من ورد ذلك الوقت مع بيان دعوى كل واحد ثم ينتظم مجلس السلطان بوقوف وزيره والحاجب وكبار الاعوان ويمكن وزير القضايا التقرير من السلطان فيقرأه ويأذن بادخال المشتكين على حسب ترتيبهم فى كتاب التقرير ويسمع من المشتكى دعواه ويطابقها على التقرير وعند ذلك لهم طريقتان الغالبة هى أن السلطان يجيب المشتكى بما يراه فى فصل نازلته أو تحويلها الى الشرع ثم ينفذ وزير القضايا ما أمر السلطان به والطريقة الثانية هى انه بعد فراغ جميع المشتكين وتطبيق شكواهم على التقرير يوقع السلطان على التقرير فى كل نازلة بما يراه ويدفع التقرير الى ذلك الوزير وهو يخرج من بين يديه وينفذ ما أمر به السلطان وسيرة عموم الدولة على السنن القديم فى الامم التى لم يتسع نطاقها فى التمدن وفى الاغلب محافظون على الشعائر الدينية وسوق العلوم الدينية رائجة جدا بحيث لا تخلو المملكة من فحول فى كل وقت ومن أهم صفات سلاطينهم العلم وأما العلوم الرياضية فاما أن يقال انها منقطعة عندهم بالمرة أو أن بعض فروعها لم يزل فيه رمق على النمط القديم وذلك مثل علم الاسطرلاب والهندسة كما ان لبعضهم ولوع ودعوى فى علم الطلسمات وسر الحرف وكذلك علم الكيمياء بمعنى قلب بعض المعادن الى الذهب الذى ضاعت فى البحث عنه رجال وأموال من غير طائل وأغلب السكان غليظوا الطباع على السذاجة البربرية أهالى شجاعة واقتحام للمشاق ورضاء بشظف العيش ولاهل المدن اخلاق حميدة وصفات جيدة متمسكين بالديانة ومتحاشين عن المعاصى وكل قادح فى العدالة ولهم اليد الطولى فى التجارة بحيث ان تجارة داخل المملكة أعنى غير المراسى التى على البحر هى بيد الاهالى

ويرسلون

ويرسلون منهم الى أقاصى الممالك لمعاطات الاشغال التجارية ووصلها بممالكتهم حتى لاتكاد تجد مدينة شهيرة للتجارة فى احدى قارات أوروباوآسياوافريقيا الاوفيها من تجارهم من له مزيد الرواج والثروة ولهم براعة فى ادارة التجارة يناكبون بها الاوروباويين ولازالوا يحترسون من تداخل الاجانب فى أحوال مملكتهم حتى انهم يمنعونهم من السكنى فى غير المرامى التى على البحر وسفراء الدول يسكنون فى مرسى طانجه ومن أراد منهم مواجهة السلطان يرسل اليه بطلب ذلك فيرسل له السلطان خفراء مخصوصين ويقدمون به من هناك الى تخت المملكة فينزل فى احدى القصور الملكية ويعين له يوما للواجهة فيخرج فيه ويقف فى ساحة أوطريق رحيبة معلومة وتقف العساكر والموظفون يميناوشمالا ثم يأتى السلطان راكبا فى خاصته وحاشيته وهم مشاة الى أن يقرب من السفير فيتعرض له وعند الوصول اليه يوقف السلطان سير جواده ويسلم على السفير ويلقى اليه السفير الكلام الرسمى المعهود للاقبال فيجيبه السلطان بمثل ذلك ويعلمه انه اذن وزيره باقباله والتفاوض معه فى مأموريته ويستمر فى سيره وينفصل الموكب وبعد ذلك يقع التفاوض بين الوزير والسفير الى أن يستقر القرار على شئ فيعود السفير الى البلد المستقر به محفوفا بالخفر ومن عوائدهم فى أمن الطرق ان كل قبيلة حول احدى الطرق تكون كفيلة عن غيرها فى ذلك الطريق على حدود معلومة ثم يدخل المسافر فى كفالة غيرها وهكذا على شرط ان لا يسافر ليلا وان يعطى على كل دابة أجرا مخصوصا لتلك القبيلة وهذا الاجر لا يجحف بالمارين فاذا حصلت مضرة لاحد المسافرين تغرمها القبيلة التى وقع فى حدودها ذلك الحادث واذا دخل وقت الغروب فيجب على المسافر المبادرة الى أحد المنازل الواقعة على الطريق لتلك القبائل وهم يرحبون به ولهم منازل كثيرة حول الطريق وكذلك البريد له فى كل بلد شيخ وله أتباع يحملهم المكاتيب ويأخذ عليها أجرا زهيدا ويسافر به الحامل ومعه رفيق لكى لا يقع التعطيل بعرض أوغيره ويمشون راجلين ويمكثون المكاتيب فى كل بلدة بيد شيخ بريدها وهو يوزعها مالم يعرض أمر خاص فلصاحبه ارسال بريد خاص بأجر وافر على على حسب بعد المكان ولاصحاب البريد سرعة فى السير أما بريد الدولة فهو فى عهدة القياد يرسلونه من واحد الى آخر الى أن يصل لمقره وأصحابه ركاب ولا يسمح لاجنبى مطلقا أن يقيم بداخل المملكة واليهود يسكنون فى المدن وغيرها على صفة أهل الذمة غير ان عوائدهم القديمة معهم تجاوزوا فيها حد الشرع فى اهانتهم واذا يتهم حتى فتحوا

عليهم بابا لمداخلة الدول بواسطة الجمعيات اليهودية فى ممالك أوروبا وكانت أرسلت فى
أواسط هذا القرن دولة الانكلاتيرة طالبة من السلطان تغيير تلك العوائد فأجابهم
لطلبهم قائلا ان الحكومة تسلك معهم هذا المسلك وأما الاهالى فحيث كانوا غير منقادين
لجميع الاوامر فعلى الحكومة مراقبتهم بقدر الاستطاعة ولما علم اليهود بذلك امتنعوا من
قبول تلك المنح وأرسلوا الى أوروبا قائلين دعونا على عادتنا المألوفة ولا تتداخلوا فيها
واعلنوا للحكومة والاهالى بذلك طالبين التألف بهم والامان على أنفسهم فأمنوهم
واستقروا على ما كانوا عليه ووجه سلوكهم ذلك المسلك أمران أحدهما ظاهرى وهو
ان ديانتهم قاضية عليهم بتحمل الهوان والمشاق الى خروج المسيح لكى ينقذهم على
دعواهم وثانيهما وهو الباطنى انهم يعلمون تسلط الاهالى عليهم وعدم معارضة
الحكومة لهم اما عجزا أو تعاجزا فيقعون فى الهلاك وعلى فرض أخذ الدول لثارهم فما
فائدتهم بعد انقراضهم وصرح بذلك بعض رؤسائهم لانهم أحرص الناس على حياة وفى
هاته السنة وهى سنة ١٢٩٧ أحرق الاهالى يهوديا فعادت الكرة من الجمعيات المذكورة ❋
آنفا ووجدت دولة اسبانيا الفرصة للتداخل تعاميا عما فعلته هى مع اليهود مما هو من
ذلك القبيل أو أشد وما بالعهد من قدم كانت تمنع دخولهم الى مملكتها ولم يزل ذلك الا
عند اعطاء الحرية العامة فى اسبانيا منذ عهد قريب ولكن مريد التداخل يفتش
على ما يوافق قصده فلذلك دعت دولة اسبانيا جميع دول أوروبا لعقد مؤتمر للنظر فى
أحوال اليهود ورعايا الاجانب فى مملكة المغرب لان اليهود أكثروا بالرحيل الى بعض
الممالك الافرنجية ويحصلون منها على الحماية ثم يعودون الى المملكة المغربية ويسكنون
باماكنهم الاصلية وعند اجراء الاحكام والعادات عليهم يتجاسرون باظهار الحماية
الاجنبية فلم تعترف لهم الدولة المغربية بذلك وتقول اما أن تكون أجنبيا فلا تدخل
للمملكة واما أن تكون أهليا فتجرى عليك الاحكام هذا على تسليم الحماية ودولة
اسبانيا تريد الانتصار للمحتمين وأن يكون لهم السكنى فى دواخل المملكة بدعوة تعميم
التجارة وبعض الدول يوافقها لكى يتسع باب التداخل فى المملكة حتى يتسلط عليها
والدولة المغربية مصرة على الامتناع والتمسك بالمعاهدات والعادات المألوفة فعقدوا
لذلك مؤتمرا فى مدريد فى شهر جمادى الثانية سنة ١٢٩٧ وكانت كل من دولتى فرنسا
وانكلاتيرة مساعدة لدولة المغرب أما فرنسا فلمجاورتها لها فى الجزائر وهى قد رأت
من أهالى الجزائر متاعب شديدة فانها استولت عليهم منذ خمسين سنة وهم لا زالوا يحدثون

الثورة

الثورة عليها فهي ما سمحت لهم الفرصة مع قلة الفائدة بالنسبة للخسارة فتريد توكيد المودة مع دولة المغرب لكي لا يحدث لها عشائرتها هيجان في الجزائر سيما وهي تعلم ان الاستيلاء على المغرب غير متيسر لمعارضة دول اوروباوية قوية في ذلك وأما انكلتره فتريد استجلاب دولة المغرب وبقاؤها لكي لا يتسلط على خليج طارق دولة قويه يمكن أن تمنع الانكليز من المرور به الى البحر الابيض كما تخشى أيضا من انها اذا أظهرت لها التشدد عليها ربما تميل الى دولة أخرى ذات اقتدار وتحالفها ويصير الجميع ضدا للانكليز في وقت الحاجة ومثل هاتين دولة المانيا فكثيرا ما تظهر المودة لدولة المغرب رجاء أن تمكنها بمرسى على احد شطوطها ولا أقل من ان تكون مجرد حليفة لها حتى تخشى الفرانساويون عند عقدهم الحرب مع المانيا من هجوم المغرب على الجزائر وبقية الدول لا أرب لهم هنالك ولذلك يظن ان لا يحصل ضرر على هاته الدولة من ذلك المؤتمر لان اسبانيا وحدها لا تقدر على جلب مساعدة الدول اليها وهي بنفسها ولان كانت قادرة على التسلط على المغرب لكن الدول السابقين الذكر اللاتي لها منافع هنالك تعارض اسبانيا في قصدها ومع هذا كله فانهم لابد ان يظهروا شيأ للتلك المملكة حتى تراعي الاتحاد الاوروباوي وبالتهم تجنبوا ما نهى عنه الشرع ولم يعملوا مع أهل الذمة الا ما أمر به الشرع لان مجاوزة الحدود تقضي بالانقلاب ولا حول ولا قوة الا بالله ثم ان صناعة النقش في الجص على ظواهر الحيطان المسمات في العرف بنقش حديدة لها اتقان عظيم بهاته المملكة وكذلك دبغ الجلود واما القوة الحربية فان لهم قبائل مخصوصين معفون من جميع الاداء للدولة وهم القائمون بحمايتها مع اعطاء الدولة اليهم المعاشات والسلاح والخيل وعلى بقية القبائل زيادة على الزكاة والعشر ان يدفعوا للدولة مقادير معينة من الخيل اما عند حدوث الحرب فيلزم جميع المملكة أداء ما يحتاج اليه من الكراع والذخيرة ولا زال سلاحهم على الطرز القديم وكذلك حركاتهم العسكرية لكن منذ نحو ثلاثين سنة ابتدؤا بتنظيم العسكر على الطرز الجديد وألفوا جيشا يحتوي على ستة عشر ألفا ومعلموه من عساكر تونس ولكنه انخرم وهرب أغلبه ولكن قد أخذ السلطان المتولي الآن وهو مولاي حسن في تنظيم الجيوش على مقتضى الطرز الجديد وأرسل تلامذة الى مدارس فرانسا والمانيا لتعلم الفنون الرياضية والله ينجح سعيه ويحرس المملكة

الفصل * الحادى والاربعون

﴿ المملكة الثانية ﴾

هى مملكة الجزائر وهى شرقى السابقة ويحدها شرقا تونس وجنوبا الصحراء وغربا المغرب وشمالا البحر الابيض وهى تابعة لفرانسا منذ سنة ١٢٤٧ وسيأتى تفصيل الكلام عليها فى المقصد وانما نقول هنا ان عدد سكانها نحو مليونين ونصف واكثرهم مسلمون وقاعدة المملكة هى بلد الجزائر والاحكام السياسية والضبط مثل فرانسا والاحكام الشخصية بين شرعية اسلامية وبين قانونية فرانساوية

الفصل * الثانى والاربعون

﴿ المملكة الثالثة ﴾

هى مملكة تونس ويأتى تفصيل الكلام عليها فى المقصد ان شاء الله تعالى والاجمال انها مملكة اسلامية تابعة للدولة العثمانية مستقلة بالادارة وحكمها استبدادى محض وسكانها نحو مليون ونصف وقاعدتها مدينة تونس ويحدها شرقا وشمالا البحر الابيض وغربا الجزائر وجنوبا الصحراء الكبيرة وطرابلس

الفصل * الثالث والاربعون

﴿ المملكة الرابعة هى طرابلس الغرب ﴾

وهى مملكة اسلامية من عهد سيدنا عمر رضى الله عنه وكانت فى أيام دولة الرومان والقرطاجنيز فى غاية العمران والخصب وان كانت المياه بها قليلة لكن الآثار القديمة دالة على اخراج منابع المياه بها من العيون والآبار وحفظ ماء المطر غير انها الآن قليلة الخصب والسكان فسكانها لا يتجاوزون المليون والمعمور منها أودية خاصة وقاعدتها طرابلس ويتبعها ولايات مثل برقه وغدامس وفزان وبنغازى وهاته الاخيرة تارة تفرد بالادارة وتارة تتبع طرابلس وقد استولت الدولة العثمانية على هاته المملكة فى المائة العاشرة من الهجرة سنة ٩٥٨ وذلك ان الدولة الحفصية التى قاعدتها تونس لما ضعف

امرها

أمرها واستبد عليها الولاة فى الاطراف كان من جملة من عصى عليها والى طرابلس التى كانت تابعة لها وجار فى الاهالى فتجهز اليه السلطان الناصر الحفصى وغلبه وأولى على طرابلس أبا محمد عبد الواحد ابن حفص فقبل الولاية بعد امتناع طويل على شروط أولها ابقاءه واليا الى أن يعيد البلاد الى أعز ما كانت عليه من الغناء والراحة الثانى أن يستقل بالادارة مدة ولايته بحيث لا يعارض ولا يرد أمره فى شئ الثالث أن ينتخب مقدارا من العساكر حسب ارادته لابقائهم فى اعانته فأجيز له ذلك وبقى فى الولاية الى أن مات وولى ابنه الذى هو على شاكلته فاستقر العدل والغناء فى المملكة حتى بلغ النهاية واخلدت الاهالى الى الراحة وترك السلاح لما ضجروا منه سابقا حتى كان ذلك سببا لطمع العدو فيهم وذلك انه قدمت الى ثغر طرابلس سفينتان مشحونتان تجارة فاشترى جميع ما فيهما رجل واحد ونقد الثمن حالا واستدعى من فيهما الوليمة أعدها لهم وبعد احضار الطعام أخذ لؤلؤة فاخرة ذات قيمة عظيمة ودقها فى الهاون بمرأى منهم وذرها على الطعام قائلا هذا لكم مقام الفلفل ثم أحضر بطيخة خضراء وأراد قطعها فلم يجد سكينا فسأل منهم سكينا ولما سئل عن سبب عدم السكين عنده قال ان الاهالى كانوا ضجروا من حمل السلاح ليلا ونهارا أيام الظلم والعدوان ولما استقر الامن والعدل صار السلاح يتخذ لديهم عيبا ومن حمله أهين بين الاهالى فتعجب المدعوون الذين هم من الاسبنيول القائم فى ذلك الوقت كما يرد خبره فى تاريخ تونس فأخبروا أصحاب السفن دولتهم بما رأوا فطمعت فى طرابلس وكان عندها ابن السلطان الحفصى مستنجدا بها على أبيه فجاءت بجيش قليل على طرابلس وامتلكتها باسم أحمد الحفصى الابن المذكور وجار فى البلاد أشد الجور هو والاسبنيول ولما رأى ذلك النابلطان الذى هو أحد ممالك ايطاليا تداخل بين الاهالى بالافساد ووعدهم بالحماية من الظلم وانهم اذا أطاعوه حماهم من المظالم ولا يتداخل فى أمورهم وانما يستولى على الحصون فقط فكان ما كان واجرى فيهم الامر أولا على نحو ما وعد ثم ابتدأ بالتداخل فى أمرهم فامتنع بعض أعيان الاهالى وتحصنوا فى (تاجورى) وكانت الحرب بينهم قائمة غير انهم علموا بضعفهم عن امتداد المقاومة فارسلوا وفدا منهم الى الاستانة مستنجدين بالدولة العثمانية فى انقاذهم ودعوها للاستيلاء على جميع البلاد حيث كانت هى اذ ذاك أقوى دول الاسلام وجمعت تحت رايتها أغلب الممالك الاسلامية كمصر والشام والعراقين ولما وصل الوفد الى الاستانة تعجب من شكلهم كل من رآهم ولم يجدوا أحدا يفهم لغتهم حتى صادف أحد

الطواشيين فى القصر السلطانى الجمع المختبك للتفرج فيهم وكان عالما باللغة العربية فعلم القصد وكان هو الواسطة فى ابلاغ مطالبهم للدولة فاولته هو على تلك البلدة وأرسلته معهم مع حامية ضعيفة لانهم مهملوا الامر على الدولة لكنه لما ان وصل ذلك الوالى وعلم حقيقة الامر أرسل بتفصيل الاخبار الى الدولة وكان اذ ذاك اسطولها الموجه الى الاستيلاء على تونس على أهبة السفر تحت رياسة سنان باشا فأمر بالتعريج على طرابلس أولا فافتكها من أيدى النابلطان وبقيت مستقلة بالادارة وليس للدولة عليها الاهدايا واعانات فى وقت الحرب الى ان عصى يوسف باشا قره منلى وحاربته الدولة فى أواسط هذا القرن أى سنة ١٢٥١ واستولت استيلاء باتا على المملكة وصارت ادارتها مثل ادارة سائر الولايات العثمانية ومركز الولاية مدينة طرابلس الغرب وسكان نها يميلون للبداوة ولو أهل المدن ويحدها شرقا مصر وشمالا البحر الابيض وتونس وغربا تونس وجنوبا الصحراء الكبيرة

الفصل * الرابع والاربعون

المملكة الخامسة هى مصر واجمال الكلام عليها انها مملكة اسلامية مستقلة بالادارة تابعة للدولة العثمانية وقاعدتها مصر ويتبعها ممالك مثل النوبة ودارفور وكردفان وزيلع وغيرها من ممالك السودان وجميع سكانها مختلف فى عددهم من الثلاثة عشر مليونا الى الستة عشر مليونا والاخير باعتبار الاضافات اللاحقة بها أقرب وحكمها ظاهرا قانونى بين شرعى وسياسى ويحدها شمالا البحر الابيض والصحراء وغربا طرابلس وشرقا الشام وجزيرة العرب والبحر الاحمر وجنوبا الحبش والسودان والصحراء الكبيرة وتفصيل الكلام عليها يأتى فى المقصد ان شاء الله تعالى

الفصل * الخامس والاربعون

المملكة السادسة هى الحبشة ويحدها من جميع جهاتها السودان المصرى وعدد أهلها نحو خمسة ملايين على التوحش والبربرية والديانة عندهم الغالبة نوع بين النصرانية واليهودية والوثنية أعنى انها كانت نصرانية ثم امتزجت بفروع من تلك والحكم استبدادى متوحش ولا يعرفون حقائق العلوم ولا التمدن ولذا لا يعلم كم دخلها

ولا

ولاخرجها وهى لاتزال فى ضعف من الحروب الاهلية وبين أهلها كثير من المسلمين دخلهم الاسلام من عهد البعثة

الفصل * السادس والاربعون

المملكة السابعة هى مملكة الزنجبار وموقعها على شطوط افريقية الشرقية على المحيط الشرقى وقاعدتها فى جزيرة امام القارة وهاته المملكة هى اسلامية عربية من قديم وتارة تكون تابعة لغيرها من ملوك جزيرة العرب وتارة تستقل وفى أوائل هذا القرن استفحل ملك أحد أئمة مسقط بجزيرة العرب وهو المسمى بالسيد سعيد من أعيان ملوك الاسلام المتأخرين فعبر السيد سعيد البحر واستولى على زنجبار وجعلها مقرا لملكه وأشاد فيها الحصون ورتب فيها الادارة الملكية مع انتحال شعائر الدين الاسلامى وكان من أتباع المذهب الوهابى كما أنشأ اسطولا بحريا نيفا ألف من أربع سفن كبار حربية ذات مدافع ومن عمل مداركه السياسية انه لما علم ازدياد القوات الاوروباوية وطموح أنظارهم الى الجهات الشرقية وغيرها كما حصل بالفعل فى شطوط أفريقية والهند ركن حينئذ دولة الانكليز وجعل معها عهدا حتى تكون كافلة بحماية ممالكه من تسلط الغير لانها أقوى دولة أوروباوية لها شوكة فى تلك الاقطار وفى آخر حياته أولى على مسقط أحد ولديه وهو المسمى السيد توينى مستقلا بها كما أولى على الزنجبار ولده الآخر المسمى السيد ماجدى وبعد وفاته حصلت نفرة بين الاخوين وعزما على الحرب فتداخلت بينهما دولة الانكليز وتصالحا على اداء ملك الزنجبار الى امام مسقط مقدارا سنويا حيث ان المملكة الأولى أغنى من الثانية والثانية أقوى وكانت مالكة للأولى ثم ازدادة نماء مملكة الزنجبار واعتبارها بعد فتح خليج السويس لاعتناء سلطانها السيد برغش واجراءه للعدل ولاهاليها تمدن وفطانة عربية وقد زار سلطانها السيد برغش ممالك أوروبا فى أوائل عشرة التسعين بعد المائتين والف وأخذ ينحوا منحى التمدن الاوروباوى فى بعض أشياء سالكا مسلك الاستشارة الذى هو أساس العدل ودخل هاته المملكة يأتى ان شاء الله تعالى فى جدول دخل الدول وأما عدد السكان فهو نحو مليونين تقريبا

الفصل * السابع والاربعون

المملكة الثامنة هي مملكة برنو وهي في دواخل القارة في الجهة الشمالية الشرقية ويحدها شرقا وادای وجنوبا الاراضي المجهولة وشمالا الصحراء الكبيرة وغربا قبائل بنبرا وهي مملكة سودانية اسلامية يقال في صفتها واحوالها ما يشبه مملكة مراكش وملكها من نسل العرب ويقال من الاشراف وتخته كوكا أو كوكو قرب بحيرة انشات أكبر بحيرات دواخل أفريقية وهذا التخت منقسم الى قسمين كل قسم له سور وفيها بلدان للتجارة منها مابه معامل للصبغ واخرى لنسيج الثياب القطنية وسلطانها مستقل ويلقب في عرفهم بالشيخ ومن دونه يلقبون سلاطين وله اقتدار ويوسم بالعلم بل يقال عنه انه يقرأ درسا من تفسير البيضاوي ودرسا من صحيح البخاري وبمملكته قبائل تؤدي خراجا له وهي مركى وتختها دورا ومندرا ولوكون ولهم صنائع في النسج وغيره ولسلطان برنو جيش من السودان على أنواع غير نظامية وله معسكر خاص يقدمه بين يديه على أحسن صورة وأكمل خلقة أشداء لهم رماح وأقواس من الحديد ولكل في ذراعيه حلق من حديد ماسكة لزنديه علامة على القوة ولا لبس لهم الا ما يستر العورة وبأصابعهم خواتم من حديد تعين على جذب القوس لصلابته ليبعد رميه ولا يلبس العمامة الا السلطان وهي عمامة كبرى بيضاء ولدولة المانيا معه مواصلة ومهادات لاعانة جمعية الجغرافيا على الاكتشاف ويقال انه يقدران يعسكر من الفرسان أزيد من مائة ألف من عموم الاهالي ويستعمل عندهم الاسلحة النارية ولغة الدولة هي العربية وفيها العلماء وعدد السكان باعتبار الاضافات نحو ثمانية ملايين تقريبا

الفصل * الثامن والاربعون

لا يخفى ان بقية أفريقيا لما كانت غير مكتشفة حق الاكتشاف بجميعها وليس لاهاليها من التقدم ما يماثل بقية الممالك قد قسمها الجغرافيون الى احد عشر قسما كبرى فأولها مسمو بالسودان ويحده شرقا ولايات مصر السودانية مثل دارفور ويحده شمالا الصحراء الكبيرة ويحده غربا سانيغال ويحده جنوبا كينيا العليا وبلاد الكفر وهذا القسم يشمل عدة ممالك وقبائل مستقلة * تنبيه * لما كان غالب أسماء

هاته

هاته الجهات والقبائل منقولة من لسان أعجمى الى الفرانساوى ومنه نقلنا أغلبها فربما وقع تحريف فى الاسم ولكن على كل حال يفيد تقريبا المقصود بالمادة ومن ممالك هذا القسم سلطنة برنو المتقدمة وأكثر الممالك التى فيه أهلها مسلمون وفيهم علماء أجلة لهم تآليف الى هذا العهد ولكن الاطلاع على تفاصيل أحوالهم بالنسبة الينا لما كان عسرا اكتفينا بالذكر الاجمالى

الفصل * التاسع والاربعون

مملكة واداى وهى مملكة اسلامية لها ملك مستقل ولها تجارة واسعة مع مصر وطرابلس الغرب ولاهلها وفاء عظيم بالعهد كما حكى ثقة ان احد أهالى واداى قضى عليه بالاسر فبيع فى طرابلس والحال انه حر وبذلك يعلم اصابة منع الممالك الذى هو مباح للخوف من الوقوع فى الحرام حسبما يشهد لذلك ما كتبه عالم أفريقية سيدى ابراهيم الرياحى من المالكية وشيخ الاسلام بيرم الرابع لاحمد باشا عند أمره بعتق العبيد فكتب اليه كل من العالمين المذكورين كتابة جيدة فى اصابة رأيه ثم ان ذلك الاسير بعد ان أقام مدة وصل فيها الى سن الشيخوخة بطرابلس اعتقه مالكه ورجع الى بلاده وكان غنيا وبعد نحو ثمان سنين قدم على معتقه ومعه هدية ثمينة وفاء بحق الصحبة ومعه تجارة وقضى أمره ورجع الى بلاده وعدد أهالى هاته المملكة نحو من مليونين ونصف وتختها مدينة وره وعادات هاته المملكة وأحكامها على نحو مملكة برنو تقريبا

الفصل * الخمسون

فى بقية ممالك القسم المسمى بالسودان فأولها قبيلة كانم بو وهى فى الجهة الشمالية من برنو وقد كانت سابقا مستقلة ثم صارت الآن تابعة الى واداى المتقدمة مع امتياز وقاعدتها ماو ثم قبيلة باكرمى وهم تابعون الى واداى أيضا بامتياز وقاعدتهم ماسنا وهى غربى السابقة ومن غريب ما فيها ان عندهم نوع من النمل يحفر بيوته كبيرة جدا بحيث يكون ارتفاعها نحو عشرين ذراعا واتساعها نحو مائة وعشرين ذراعا وهاته الممالك والتى قبلها هى حول أعظم بحيرة فى قسم السودان المسماة تشاد فواداى من شرقها وكانم من شمالها وباكرمى من جنوبها ويليها قبيلة موزكو ومن غريب

عاداتهم ان الرجل والمرأة اذا تشاجرا فاذا ابتدأ أحدهما بالكلام خيط الآخر فمه بالخيط حتى اذا انتهى صاحبه فتح هو فاه وفعل صاحبه مثل فعله لكي لا يقطع عنه الكلام ولذلك ترى أفواههم مثقوبة من الصغر لاجل ذلك ويدعى انهم يأكلون الاسرى بل وان من تفطنوا به منهم انه أصابه مرض أكلوه قبل ان ينحف فلا يصرح أحد بمرض للخوف على نفسه

الفصل * الحادى والخمسون

مملكة فلاتا ومركز قوتهم بلاد هوسا التى بها شعبان أقوياء من السودان ويسمون باسم بلادهم وهم خاضعون الى فلاتا وهؤلاء جاوهم مسلمون حسن السيرة على ماهم عليه وتختهم بلاد سا كاتو ولهم سلطان مستقل مسلم ومسكنه بلدة ورنو وأعظم بلاد للتجارة عندهم بلاد كانو وأهلها مسلمون ولهم بعض صنائع جيده كالدبغ والصبغ والنسج ولهاته القبيلة السيادة على جميع القبائل المجاورة لها الا نحو ثلاثة قبائل جوار الصحراء وهى كوبر ومريادى وكاغو ولذلك كانت فلاتا مملكة وموقعها غربي الممالك السابقة على نهر نيجر الذى هو أعظم أنهر قسم السوداز ولهم عليه قوة عظيمه

الفصل * الثانى والخمسون

القبائل المتحدة المسمات بركو المتألفة من تنبكتو وكورما واتبا كو وقد كان الجميع تحت سلطنة واحدة جمعهم عليها أحد علماء فوت المسمى عمر الفوتى وهو من العلماء الاجلاء من كبار تلاميذ سيدى احمد التجانى رضى الله عنه وتوصل باجتماع التلامذة عليه الى ان صار ملكا وجمع هاتيك القبائل والتى يأتى ذكرها تحت سلطنته لكن فى آخر الامر وقعت حروب معه الى ان قتل بالغ يقال انه اثاره على نفسه لما أيس من الحرب وكان ذلك فى حدود سنة ١٢٨٣ وله عدة تآليف وجميع هاته القبائل مسلمون وفيهم الصالحون ولهم تجارة مع المغرب لكنهم الآن حكمهم كأنه حكم جمهورى تحت عدة رؤساء متعاضدين على دفع مهاجمات الفلاتا من الجنوب والتوارك من الشمال ثم يلى هاته المملكة من غربيها قبائل (بنبره) وقاعدتهم سان سان دنك وهاته القبيلة مستقلة تحت رياسة حاكم منهم وبقربها مكان كان يسكن به قبيلة بربا والآن لا يعلم من به

﴿القسم الثانى﴾

هو أراضى سانيغال أو سانيغانبى وهو يشتمل على عدة أمم ويحده شمالا الصحراء وشرقا قسم السودان وجنوبا ممالكة جبال الاسد وكينيا العليا وغربا و بعض الجنوب المحيط الغربى وفيها جبال كثيرة ونهران عظيمان وعدد جميع سكانها نحو اثنى عشر مليونا وقد استولى الفرانسيس والانكليز والبرتقال على أكثر شطوطها

الفصل * الثالث

﴿والجنسون﴾

فى المستقل من سانيغال قد بقيت دواخلها منقسمة الى عدة حكومات أكبرها ثلاثة الاولى بالس الثانية ماندنيك الثالثة كيولوفس ثم البقية صغار متفرقون

الفصل * الرابع

﴿والجنسون﴾

ممالك تيمانى وسوليمانه وموقعها فى جنوب السابقة بينها وبين كينيا العليا وتحتها فالاباو بأزاء هاته قبائل كورانكو وتحتها كورا كونكا

﴿القسم الثالث﴾

هو كينيا العليا وفيها قبائل وأقسام وهذا القسم ممتد مع شاطئ البحر الغربى منعرج معه الى الشرق ثم الى الجنوب الى مبدأ خط الاستواء القاسم للقارة ويحده جنوبا كينيا السفلى عند خط الاستواء والمحيط الغربى وغربا المحيط وشرقا بلاد الكفر وشمالا قسم السودان فى الاغلب وفى الاقل سانيغال

الفصل * الخامس

﴿والجنسون﴾

أول أراضى هذا القسم هى المسماة كرومان وهى قبيلة من الاصليين هناك ذات أخلاق حسان وهم أقوياء تألفهم الغرباء ويوفون بالعهد وهم فى شمال كينيا العليا وعلى الاجمال فجميع سكان كينيا العليا متوحشون من السودان و بينهم مسلمون ونصارى ارتحلوا الى هناك ومنهم من صار لهم فيها مستعمرات

الفصل السادس

(والخمسون)

فى مستعمرات الانكليز بهذا القسم وهى الاراضى المسماة جبال الاسد وسكانها من السودان وتختها فريتوفن

الفصل السابع

(والخمسون)

فى مملكة ليبرياهى مملكة جمهورية مستقلة تسمى ليبرياسكانها من السودان المعتوقين من امريكا وتعرفت بها دول أوروبا من سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٧٤ م وسكانها نحو خمسمائة ألف من السودان ولها مجلس نواب الى غيرذلك من سمات الدول المتمدنة ولغتهم انكليزية ونهاية مساعيهم تحرير العبيد السود فى الدنيا وموقعها على الشاطئ الغربى المذكور وتختها مدينة مرنوفيا وتحت هاته الجمهورية ولاية أخرى انشأتها الجمعية الحرة المذكورة ومن قانونها ان لايدخلها الا السودان الذين يقسمون ايمانا على ان لايشربوا مسكرا واسم تختها هدبر

الفصل الثامن

(والخمسون)

فى أرض شطئ الفيل وهى تلى المملكة المتقدمة وهى من أراضى كينيا يحدها المحيط المذكور جنوبا بقرب خط الاستواء ولم يمكن للسواح التوغل والاقامة بها لفساد هوائها وان اصلح الفرنساويون أماكن أقاموا بها وشرقى الارض المذكورة الارض المسماة بشطئ الذهب سميت بذلك لغناها به واستعمرها الانكليزيون ببلدان كثيرة

الفصل التاسع

(والخمسون)

فى دواخل كينيا العليا وفى دواخل كينيا عدة ممالك سودانية منها قبائل فانكى كانهم

عصبة

عصبة ضد حروب قبائل اسبانتى التى هى فى الدواخل المذكورة وهم مثل أمة قوية مخوفة لسفكهم الدماء حتى انهم يضحون الآدمين فى جنائز كبرائهم وعند انتصارهم وتختهم يسمى كوماسى

الفصل * الستون

فى بقية شطوط كينيا العليا ودواخلها ثم شرقى الشاطئ الذهب شاطئ الممالك يسمى باسم التجارة الرائجة هناك ثم فى دواخله ممالك داهوميه سكانها نحو ثمانمائة ألف من السودان ولها ملك له عشرون ألفا من العسكر منهم خمسة آلاف نساء ويضحون المآت من الآدميين فى أفراحهم وتختهم (أبوميخ) ثم فى شرقى ماذكر ممالك (هاونكلا وأناكلا) وهوى (وبالى) وشرقيها ممالك (يربا) تمتد الى ان تصل الى قرب ممالك برنو وماجاورها وقد تقدم ذكرها وبازائها قبيلة (أكباس) الذين التجؤا من كثرة الحروب معهم الى جبال صخرية وانشؤا هناك بلدا متحصنين بها وعددهم نحو مائة ألف تحت رياسة رئيس بانتخابهم ولهم رئيس حرب واسلم منهم كثير وأمنوا سبلا الى مملكة تنبكتو وشرقى السابقة مملكة بنين وشرقى هاته شاطئ كالابار ثم جنوبى هاته محاذا لها على الشاطئ مستعمر فرنساوى يسمى كابون وهو نهاية ممالك كينيا العليا

﴿القسم الرابع﴾

﴿من الاقسام الكبرى قسم افريقية الجنوبية﴾

الفصل * الحادى

﴿والستون﴾

فى ممالك رأس الرجاء الصالح فى نهاية الجنوب على الشاطئ من المحيط الجنوبى رأس الرجاء الصالح وهو مستعمر للانكليز وتختها بلد الرأس سكانها سبعمائة ألف ويليها شمالا فى داخل القارة ولايات صغار وهى تاماكاس وكوراناس وبوشمس

﴿القسم الخامس﴾

﴿من الاقسام الكبرى بلاد الكفر﴾

وهو شمالى الرأس وهو أراض واسعة عظيمة تنتهى الى الشاطئ الغربى والشاطئ

الشرقي وتتوغل في القارة وتسمى بلاد الكفر ومنهم قبائل الزلوس وقبائل ناتال وجمهورية نهر أورنج وجمهورية ترانزفال وبلاد البتجوأناس وبلاد أوتانتو

الفصل * الثانى

﴿والستون﴾

فاما الزلوس فهم أقوياء أشداء أهل حرب وقد حاربوا الانكليز سنة ١٢٩٦ كما هي عادتهم معه ومات في هاته الحرب ابن نابليون الثالث امبراطور الفرانسيس لترؤسه على عسكر انكليزي ثم قهر الانكليز الزلوس وأسروا املكهم الذي يعتقد نفسه كنابليون الاول وخضعوا الى الانكليز على شروط استقلال ادارتهم

الفصل * الثالث

﴿والستون﴾

وأما أراضي ناتال فسكانها انكليز وهلانديز وزلوس وباستوس بربريس وهنود وجميعهم نحو أربعمائة ألف نسمة وتختها ماريس بورك

الفصل * الرابع

﴿والستون﴾

وأما جمهورية نهر أورانج وهي شمال رأس الرجاء سكانها من الكفر المدعون بوتجوانس وهلانديز وتختها بلوم فنتين ولهم رئيس ومجلس شورى ومجلس نواب وديانتهم برتستانت وهناك قبيلة من الكفار مستقلة تسكن بالجبل الازرق

الفصل * الخامس

﴿والستون﴾

وأما جمهورية ترانسفال فهي واقعة في بلاد الزلوس وعددهم نحو ثلاثمائة ألف وثلاثين ألفا وتنقسم الحكومة الى أربعة أقسام لكل مجلس ورئيس ومنفذ وكاتب وتختها

وتختها بونش شيفستروم ومن قوانينهم ان رئيس الجمهورية معه اثنا عشر عضو الادارة الحكومية يبقون ثلاث سنين

الفصل السادس

﴿والستون﴾

وأما مملكة بادجوانه فتختها كورومان و بجوارها مملكة اوتانتو وهم فاسدوا الاخلاق حتى شبهوهم بالمنغرل وعقولهم رديئة حتى انهم يدخلون منازلهم يمشون على أيديهم وارجلهم كالحيوانات وفى كلامهم يلصقون لسانهم بلهاتهم وفى شمالى نهر أورنج صحراء تسمى كالاهارى لاماء فيها ولا نبات الا اذا صب المطر فتنبت عروقا و بطيخا بكثرة ويوجد الفيل هناك بكثرة والجاموس والزرافة والنعام والكركدان وهناك نوع من البشر وحشى يصطادونه كما تصطاد السباع ثم أراضى الزنبيز يسكنها نوع من السودان يسمى ماتيونا وانتنفى وكولولو وغيرهم

﴿القسم السادس﴾

من الاقسام الكبرى كينيا السفلى وهى على شاطئ المحيط الغربى يحدها شمالا كينيا العليا وغربا المحيط وشرقا بلاد الكفر وجنوبا قسم الرأس وهى أرض غنية بها نوع من القصب عجيب يسمى بانبه ويدوم من الاربعة الى الخمسة آلاف سنة وساق شجرته محيطه نحو ستين ذراعا و بها نوع من القردة أكثر شبها بالانسان لكن بها نوع من الذباب قتال لمن يلسعه وأغلب السكان من السودان وحشيون ومنقسمة الى عدة عمالات

الفصل السابع

﴿والستون﴾

فى عمالك كينيا السفلى فالاولى تسمى لونقو وتختها بوالى ثم عمالة كاكونكو وتختها كين كلى ثم عمالة نكويو وتختها كانبدا ثم عمالة كونكو وتختها بنزا كونكا ثم عمالة انكلا تحت استعمار البرتقال وتختها لوواندا ثم عمالة بنكلا للبرتقال أيضا تختها صان فليب وهذان سكانهما نحو ستمائة ألف من السودان ولكل حاكم وفى جنوبيها صحراء سيمبازى

﴿القسم السابع﴾

من الاقسام الكبرى هو المسمى موزنبيك وهو شمالى بلاد الكفر على الشاطئ الشرقى للمحيط ولا يعرف منه الا الشط وهو مستعمر للبرتقال ومنقسم الى سبع حكومات

الفصل * الثامن

﴿والستون﴾

فى ممالك هذا القسم وهى مركزوانهابانى وسوفالا وسينا وكيليمانى وموزنبيك وديلكاد ويحد هذا القسم شمالا مملكة الزنجبار التى تقدم ذكرها

﴿القسم الثامن﴾

من الاقسام الكبرى قسم سوموليس وهو فى الشرق الشمالى من زنجبار ويحده شمالا جون عدن وشرقا المحيط وجنوبا المحيط وزنجبار وغربا زنجبار

الفصل * التاسع

﴿والستون﴾

فى ممالك هذا القسم فسكانه من بربر افريقية الشمالية والعرب والسودان وهاته المملكة هى المسماة بزيلع وكانت شطوطها للدولة العلية ثم سلمتها الى مصر بالزيادة فى خراجها وفى نهاية شمالها بلاد عدل واغلب سكانها مسلمون ولهم امام من العرب وفى الشمال الغربى منها بلاد هرر وقاعدتها مدينة هرر وسكانها نحو الثمانين ألفا كلهم مسلمون على أوصاف جيدة وبلادهم حصينة ذات اسوار والتجار آمنون ولهم تجارة واسعة مع اليمن وغيره مع خصب الارض وسلامة الهواء فى أغلب الجهات وهى داخلة فى الممالك التابعة لمصر

﴿القسم التاسع﴾

﴿من الاقسام الكبرى﴾

هو القسم المجهول وهذا القسم الكبير الاوسط من افريقية الجنوبية مجهول ويحده شرقا زنجبار وما حولها وغربا كينيا السفلى وما حولها وشمالا برنو وماوالاها وجنوبا بلاد الكفر ويخرقها خط الاستواء وتمتد منه جنوبا نحو عشرة درجات وكذلك شمالا

ولا

ولا يعرف منها عند الجغرافيين الا ثلاث عمالات أولها عمالة كازمب وتختها لوسندا وثانيها أونيام وزى وتختها كزخ وثالثها وجيجى وتختها كاولى

﴿القسم العاشر هو الجزائر البحرية﴾

وأما الجزائر التابعة لافريقية وهى فى المحيط كلها الا اعتبار لها الا جزيرة سنتيلين المقابلة لجون كينيا فى دواخل المحيط وانما اشتهرت لكونها مات بها نابليون الاول منفيا فى أسر الانكليز وأغلب تلك الجزائر فى تملك دول أوروبا الا ما يتبع الزنجبار وكذلك ما يتبع جزيرة ماداغسكار التى هى الجزيرة الوحيدة فى افريقية فى المحيط الشرقى تجاه شاطئ موزنبيك كما سيأتى

الفصل ❁ السبعون

فى مملكة ماداغسكار أو كسكار وهى من الجزائر الكبيرة المعتبرة فى الدنيا وهى غنية وفيها انوع من السباع اسمه ماكيز وهاى هاى وغيرها من الحيوانات الغير المعروفة وسكانها نحو خمسة ملايين وكلهم من السودان ونوع يسمى هوواس يظن انهم من نوع سكان الهند وعددهم نحو ثمانمائة ألف والدين الغالب هو الكفر من عباد الاوثان والجميع تحت حكم واحد وعليهم ملكة أنثى اسمها رانافولو الثانية وقد أمرت باحراق جميع آلهتهم وهدم جميع معابدهم وأمرتهم بالديانة البروتيستانت فاطاعوها وهم على ذلك الآن لكنهم بالاسم فقط اذلا يعتقدون شيأ وكان ذلك الامر فى سنة ١٨٦٨ وتخت المملكة بلدة تناناريفو وقد اكتشف هاته الجزيرة العرب قبل البعثة وعرفها أهل الصين وأهل همالاى

﴿القسم الحادى عشر﴾

من الاقسام الكبرى قسم الصحراء فتنقسم الى ثلاثة أقسام (أولها) صحراء المغرب (وثانيها) الوسطى أو بلاد التوارك (وثالثها) الشرقية أو بلاد التيبوس فالاولى هى بين مراكش وسانيغال على شاطئ المحيط الغربى والشاطئ فى البحر مملوء صخرا والريح الغربية تخرج من البحر رمالا تحدث فيه جزرا متنقلة وقد تحقق ان وسط هاته الصحراء يكون الرمل دائما متنقلا الى الجهة الجنوبية الغربية وكان ذلك أحد أسباب عدم النبات بها وتسمى هاته الصحراء بالساحل ويوجد بها عدة جزائر

بالنبات على خط واحد انما لوجود ماء جار على منحاها تحت الارض أو ندى والقوافل تمر دائماً على سمتها للسقى من آبارها والتزود من عشبها

الفصل * الحادى

﴿ والسبعون ﴾

فى ممالك الصحراء الغربية ويسكن بهاته الجزائر فى بعض الاوقات نوع من البشر يسمون زنقا وكذلك التوارك والعرب يجذبهم الى هناك ربح تجارة العبيد وكلهم يتعيشون من القوافل المارة عليهم وتارة يسرقونهم وتارة يسافرون معهم هداة للطريق والاصليون من سكان الصحراء المذكورة مسلمون وهم مركبون من عرب بنى حسن الذين يقال انهم رحلوا من اليمن فى القرن الحادى عشر ميلاديا وفيها عمالة تسمى تيريس فى الشمال الغربى على الشاطئ تأتيها الحيوانات من المغرب وسانيغال والرعاة لرعى حيواناتهم زمن الربيع لكثرة الخصب وسكانها اولاد دليم وهم أقوياء شداد متسلحون ويخترقون الصحراء بالهجاش السريعة ويتعيشون بالنهب وفى جنوبها بلاد بها كثرة سباخ يتزودون منها الملح جميع أهالى الصحراء الى بلاد تنبكتو وكان فى صحراء المغرب جزائر نباتية تسمى ادرار على نحو ثلاثين ميلا من سانيغال وبها جبال كثيرة وبلدان وقرى وتختها يسمى وادان وسكانها بين عرب وبربر ثم جزائر تاغانيت كان يسكنها قبائل زاغانا وتختها تيشيت ثم جزائر والاتا فى الجنوب الغربى وبلاد الهث ضاربة فى الجنوب تختها كسانبرا وبقرب سانيغال بلاد ترارزا س وبراكاس وبلاد سيدى هاشم الذى كان دخل الى مراكش

الفصل * الثانى

﴿ والسبعون ﴾

فى ممالك الصحراء الوسطى وأما الصحراء الوسطى فيسكنها العرب المنتقلون الى هناك بالاستيطان والتوارك ويمتدون من حدود فزان ببلاد طرابلس الى بحيرة تشاد ومركز قوتهم فى ربا على شكل مثلث وبه اجبال كثيرة ونهيرات وثلاثة جبال كبرى بجبل يسمى غمات وخارج المثلث المذكور جهة الجنوب الغربى بلاد ازاود وبقية الجهات قفراء والتوارك يسمون انفسهم ايموشاك بمعنى مستقلين واشراف واسم التوارك اطلقه

عليهم العرب وهو يعني التاركين اتركهم الحق في الصدر الاول (وأما) الآن فهم ❁
مسلمون ولغتهم تسمى تاماشك وينقسمون الى عدة قبائل توارك هرر في جبال هكار ❁
وتوارك أزقر في جبال غات وتوارك مويدير في جبال سكارن وتوارك الفوقاس وفي
الجنوب جهة تنبكتو وتوارك الفراج وتوارك أنّهو وأولاد أحمد والقبائل وتالغوى
وجميع هؤلاء القبائل ينقسمون الى أربعة أقسام كبرى وهي توارك هكار وتوارك ازقر
في غات وتوارك كلوى وتوارك والى منيدن في شرق تنبكتو والقسمان الاولان معروفان
بكثرة التجارة معهم من الجزائر ويدعون بأنهم أشراف البربر وهم بيض حسان الخلقة ❁
شجعان يحملون الرماح والسيف والمكحلة أي البندقة والسكين ويركبون الهجين
السريع للغاية مع قوته ويلبسون قميصا أبيض أو أسود وعلى رؤسهم شواشي طوال ولثام
بحيث لا تظهر الا أعينهم ولهم ملك يحكم مع كبار القبائل وولد أخت الملك هو وريث الملك
(هكذا) قانونهم وحكمهم ليس بقري مطلق بل لهم نوع من الحرية ومن عاداتهم ❁
أن لا يتزوج الرجل الا امرأة واحدة شرعية وله غيرها ودياتهم الآن الاسلام ليسوا
بمتغالين فيها كما هي حالة مجاوريهم ولهم غنم أصوافها قصيرة وألياها كبيرة للغاية ولهم معز ❁
وابل تحمل الاثقال وهجائن للركوب ولهم نوع من الخيل من أجود الجياد وفي جزائر
الصحراء لهم نخيل كثير والقبائل الرحالة هم الحارسون للقوافل المارة في بلادهم بين
شواطئ أفريقية الشمالية والسودان بأجرة مقوننة معروفة والقادم من فزان يجد غات
على مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما من لغوات والامطار هناك قليلة جدا ومرض الاعين كثير
وهو أصعب طريق بين السودان وطرابلس ومن شهر سبتمبر الى غاية شهر نفبر يجتمع
في بلاد غات أزيد من ثلاثين ألف جمل بأحمالها وفي الجنوب الغربي هضاب على
جبال هقر تكادان تسمى سفيسرة أفريقية لانها جبال ذات آجام وغابات ووهادات
تسقى من عيون غزيرة ويدوم فيها الثلج من دجنبر الى مارس ومن هاته الجبال منبع
أعظم أنهر الصحراء المسمى ايغرغر ويذهب جهة الشمال وينقطع قرب تكرت ❁
في حدود الجزائر وهي مسكن التوارك الخالصين المخيفين لمن جاورهم بقوتهم وشجاعتهم
واكبر بلدانهم تسمى ادلى وفي الشمال الغربي جهة مملكة مراكش عمالة توات
المكونة من عدة جزائر نباتية متقاربة وبها نوع من الشجر يسمى كرنك هو أحسن
فحم للبارود وأرضهم خصبة لجميع النبات ولهم حيوانات كثيرة والسكان أناس طيبون ❁
مسلمون متصلبون ويتجرون مع المغاربة والجزائريين ومع غات والسودان وأكبر

مدنها بتميوم وادرار وتامنتيت وتجتمع الطرق فى بلد أولف ولذلك كانت موقعا مهما للحرب وفى الجنوب عمالة اير فى طريق السودان وهى متكونة من جبال صخرية وفى الاودية ينبت كل نبات وفى شهر استمبر تنزل أمطار غزيرة والسكان يسمون كاوى أصلهم ما بين التوارك والسودان وتختهم يسمى اوكاديس ولهم ملك يسكن بها وفى حدود السودان بتوغل فى الجنوب ايالة دامركو وفى الغرب منها قرب نهر دوريبا ايالة والى ماتبدن وبها بلدة مبروك الواقعة على الطريق بين تنبكتو وغات

الفصل * الثالث

﴿ والسبعون ﴾

فى مملكة الصحراء الشرقية وأما الصحراء الشرقية المحادة لمصر من غربيها فهى ليست كبقية الصحراء لانها بها الطفل نوع من الطين بكثرة وبها جبال لونها رصاصى أو اصفر وبها ربا من الرمل رحالة الى جهة الجنوب وجهة الغرب وسكانها يسمون تبدوس من السودان من نوع القانورى التابع ابرنو ومنقسمون الى عدة قبائل وهى الرشاد وقران وبركو وباتلين وغيرها والطريق ما بين مرزوق الى كوكامارة على سلسلة من الجزر النباتية طويلة جدا واكبرها تسمى كوار وهو حقيقة اسمها وان سموها باقما ويوجد فى هذا القسم جزائر أخر وهى تبستى وبركو وموقعها بين مرزوق ووادى ثم جزيرة كوفارا التى بها بلدة كبابو الواقعة فى الشمال وجهة الشرق من هذا القسم تسمى ليبيا بها بعض جزر تابعة الآن لمصر وهاته الاماكن التى عبرنا عنها بالجزر تسمى فى العرف بالواحات (والخلاصة فى افريقية) ان جميع سكانها عدى الممالك الشمالية والممالك التى على الشطوط نحو مائة مليون وأهم الشطوط بيد ممالك أوروبا ولهم فيها حكم استبدادى بمراعاة العوائد غير انهم يستعملون القوة القاهرة لتوحش السكان وبقية السكان غير الممالك التى مر ذكرها بتفصيل حالتها هم أناس متوحشون كالحيوانات العجم ودأبهم غزو بعضهم بعضا ولبعضهم رؤساء يلقبون بألقاب الملك ويجرون الحكم القهرى ولهم عادات مبنية على خرافات وجلهم اشد الناس تعلقا بالسحر وزعما منهم ويعتقدون له من التأثير أمورا عجيبة يكاد السامع أن لا يفهمها حتى ان بعضهم يستعمل السحرة فى الحرب بل ويعتقدون فيهم

الاحياء

الاحياء والاماتة ومن هذا القبيل فى حكاية ما يعتقدونه ما أخبرنى به ثقة عدل راويا عن والده الذى هو مثله انه رأى من عجائب سحرهم ان قبيلة وتقرومن عادتهم التجارة و يرحلون لاجلها الى بلاد جنى من بلاد قسم السودان فيتهيأ لذلك كل عام نحو ثمانية أو عشرة من كبرائهم أهل السحر و يعلنون بذلك فلا يزال الناس يأتونهم بأقربائهم ووكلائهم المريدين للسفر و يستودعونهم عندهم الى ان يجتمع منهم آلاف كل منهم يحمل بضاعته على عاتقه و يسافرون (هكذا) مشاة فاذا مات أحد المستودعين اجتمع السحرة وطلوه باشياء من نوع شجر عندهم لكى لا يفسد جسمه ثم يأخذون ذنب بقرة مستودع فيه السحر على زعمهم و يمسكونه بيده ثم يوقفوه ولا يزال سائرا معهم الى الليل فيجذبونه (وهكذا) ذهابا وايابا و بضاعته على عاتقه وهو ميت الى ان يرجع الى صاحبه ولولا تواتر الاخبار بمثل ذلك فى أنواع سحرهم لما أثبتناه هذا هنا للعلم بأحوال ما يعتقدونه وديانتهم شتى من أنواع الكفر و بعضهم يعتقد الالوهية فى ثعابين أو عقارب أو حيات أو أصنام أو ملوك حتى اعتقد قوم منهم فى سائح أبيض انه ابن الشمس وعبدوه ولما أراد الرجوع خاف على نفسه منهم من غصبه على البقاء بين أظهرهم الى أن اختفى ونجا وهكذا يعتقدون الالوهية فى كثير من الحيوانات و بعضهم له لباس و بعضهم عراة بالمرة والنساء كانات الحيوانات المشتركة و بعضهم يستتر على العورة الغليظة و بعضهم يلبس شيأ من الثياب و بعضهم يسكن تحت السماء و يتقى البرد والحر بظل الاشجار و بعضهم يتخذ بيوتا من الهشيم أو أغصان الشجر و بعضهم له قرى وهم يتفاوتون فى هاتيك الخلال شدة وضعفا وفى هؤلاء الاقوام قبائل من المسلمين وهم على توحشهم أحسن حالا من غيرهم لان الديانة هذبت من أخلاقهم نوعا ما وان كان بعضهم لا يعلم من الديانة الا الانتساب اليها و بعضهم يعلم الكليات الخمس الواجبة اجمالا من غير معرفة تفصيلها واذا قام أحدهم الى الصلاة يصير يركع و يسجد من غير عدد مخصوص لانهم انما يعلمون وجوب الصلاة التى هى قيام وركوع وسجود من غير تفصيل ولا عدد ولا ترتيب وهكذا يوجد فى افريقية أقوام ينتسبون الى الديانة النصرانية واليهودية وليست على قواعدها المعروفة ولا زال الاوروباويون يرسلون دعاة لادخالهم فى النصرانية هم وغيرهم من أمم تلك القارة كما يرسلون سواحا لاكتشف عنها وتحقيق ما فيها وكأنها لا تلبث أن تصير مطمح الانظار ومحطا للتقدم فقد اعتنوا من كل الجهات بالبحث عن ذلك رغبة فى ازدياد التجارة والربح ونجح كثير من سواحهم فى

الحصول على اكتشافات نافعة من خصب أقطار وكثرة سكان ووفور معادن وغير ذلك من حيوانات وحشية وأهلية لها فائدة في التجارة والفوا في صفات البلدان التي شاهدوها كتبا مفيدة وعلى الاجمال يقال ان قارة افريقية لازالت غير معروفة حق المعرفة الاما يتناهامنها منفردا وقد رأيت أبياتا للشيخ احمد بابا التونبكتي وهو عالم مشهور من علماء السودان في أوائل هذا القرن قدم من بلده تنبكتو قافلا للحج مارا على المغرب وتونس وهاته الابيات تفيد معرفة أسماء قبائل من السودان ومعرفة ديانتهم وهي

كل الذي من صنف منش قدما * عليك بالكفر عليه فاحكما
كذلك كرم كنذ كل ويربا * تنبع ويركبس وبوبا كتبا
فهم يجوز فيهم السباء * وبيعهم يجوز والشراء
واحكم باسلام بلاد برنو * كشنكاغ وكنو وعفنو
مولي وكوبر وصفي كذلك * وجل فلات وبعض زكزكا

﴿ القسم الرابع من الارض ﴾

هي قارة أمريكا يدعي غالب أهل العصر ان هاته القارة كانت مجهولة عند القدماء الى سنة ١٤٩٢ مسيحية الموافقة لاوائل القرن العاشر من الهجرة فاكتشفها رجل اسمه كرستوف كلمبوس وهو من أهالي جنوه متخذا صناعة الملاحة وهي اذ ذاك تستلزم معرفة الحروب لكثرة الحروب البحرية سيما في شطوط أوروبا وكان الفتى في فكره وجود أرض وراء المحيط الغربي والجزائر الخالدات لمعرفته بالجغرفيا ورسم الخارطات فسعى الى ذلك مع ملك البرتغال ثم مع ملك جنوه وخاب أمله وبعد المحاولات الطويلة مع ايزابلا ملكة اسبانيا في مدة ثمان سنين حصل على المساعدة بثلاث سفن والعهد اليه بأن يكون خليفة الملك عما يكتشفه ويأخذ العشر من المداخيل لنفسه ثم بعد مقاسات شديدة له من الملاحين الذين أرادوا قتله ليأسهم من النجاح كلل سعيه بالنجاح بعد سبعة وعشرين يوما من شطوط اسبانيا الى جهة الغرب وأول جزيرة اكتشفوها سماها سان سلفدوري ولازال يكتشف فيها جزيرة بعد أخرى كلها في غاية النضارة وسذاجة الاهالي وسلامتهم حتى انهم عراة نساء ورجالا ولونهم ذهبي ويبنون بيوتا من أغصان الشجر وبعض الجزر يبنون القرى من الحجارة والطين واكتشف فيها على البطاطس والتبغ اللذين لم يكونا معروفين من قبل وهكذا اكتشف بها على

الطماطم

الطماطم التي يقال انها هي السبب في حدوث المواد الطبرية في القارات لانه لم يكن معروفا ذلك المرض من قبل حتى سمي بالحب الافرنجي نسبة الى الافرنج لانه عرف منهم بجلبهم للطماطم وسيأتي الكلام ان شاء الله تعالى على وجه تسمية أهل أوروبا بالافرنج ثم ان كلمبوس رجع الى اسبانيا وعاد باسطول وعساكر أكثر مما كان أتى به سابقا فلم يبق هناك ثم قدم بعد مدة رجل يقال له أمريكوس وهو الذي اكتشف على أمريكا الجنوبية وبه سميت جميع القارة والحق انها كانت معروفة سابقا وكذلك طريقها من جهة المحيط الغربي ودليله انهم أثبتوا ان أهالي النوريج كانت لهم تجارة ومعاملة مع أهالي كرنيلاندا من أمريكا الشمالية منذ القرن الثالث والرابع من الهجرة حيث ذكروا ان رجلا من أهالي اسكلانده التي هي الآن من ممالك انكلتره وكانت اذذاك تحت حماية النورويج قذفته الرياح في ذلك الزمان في البحار الشمالية الى ان وصل الى كرنيلاندا ثم رجع الى بلاده وصار لهم اتصال معهم غير انهم لم يثبتوا زيادة اكتشاف عما عدى ذلك مع ان القارة كبيرة جدا وكذلك رأيت في جغرافية ابن الوردي انه قال ما معناه ان وراء الجزائر الخالدات وبحر الظلمات جزائر عظيمة جدا وفيها خلق كثير وقد وصل اليها أحد النوتية عن غير قصد بطاردة الرياح ثم رجع منها بعد ان أيس من الحياة ووصفها بأوصاف جميلة مطابقة لما اكتشف من بعد وانما قال في المحيط الغربي بحر الظلمات لانه تتكاثف فيه جهة الشمال الابخرة حتى يصير ظلاما الليل والنهار كما هو مشاهد الآن لجميع المسافرين بين أوروبا وأمريكا حتى تضطر البواخر مدة سفرها ان تصرخ بعد كل دقيقة ببوق البخار كي لا يقع لها تصادم مع غيرها لان نور الشمس محجوب ونور المصابيح لا يخرق تكاثف الابخرة وكذلك نقل لي ثقة انه رأى في بعض كتب الشيخ محي الدين ابن العربي ان وراء المحيط أمما من بني آدم وعمرانا وهو في القرن السادس رضي الله عنه فدل هذا على معرفة تلك القارة من قديم وانما الانتفاع التام بها لاهالي هاته القارات لم يعرف الا منذ قريب ثم ان هاته القارة العظيمة التي تعد نحو نصف الارض المكشوفة هي يحيط بها البحر من جميع جهاتها و يفصلها عن غيرها من القارات الا جهة القطب الشمالي الى أزيد من درجة نيف وثمانين فهي مجهولة كما ان القليل من الجهات الشمالية وسط القارة لم يعرف بالتحقيق وهكذا الوسطى من الجنوبية وجميع القارة تقسم الى شمالي وجنوبي ويوصل بينهما برزخ من الارض ضيق يبلغ في بعض الجهات الى أربعة وعشرين ميلا يسمى برزخ بناما وقد أرادت في

هاته المدة جمعية فرنساوية نرقه حتى يتوصل من المحيط الشرقي الى المحيط الغربي بقصر في المسافة وكأنه يتم عن قريب وسكان جميع هاته القارة يبلغون الى نحو الستين مليونا ولو أضيف اليهم أربعمائة مليون لوسعتهم الارض وقامت بجميع ثروتهم وأكثر أولئك السكان من أهالي أوروبا وآسيا وافريقيا والاصليون قليلون ثم تنقسم القارة الى عدة دول

الفصل الرابع

﴿والسبعون﴾

المملكة الاولى دولة أمريكا المتحدة وموقعها في أمريكا الشمالية وتمتد من الشرق الى الغرب على جميع القارة فيحدها شرقا المحيط الغربي ويحدها غربا المحيط الشرقي ويحدها جنوبا خليج مكسكو ومكسكو وخليج كاليفورنيا ويحدها شمالا الاملاك الانكليزية والبحيرات الشمالية وسكان هاته المملكة نحو اثنين وأربعين مليونا منقسمون الى ستة وثلاثين حكومة كل حكومة مستقلة بادارتها الداخلية ومجتمعون في الاحوال العامة مما يعود الى مصلحة الجميع وتحت الجميع بلاد واشنطون يتركب فيها مجلس من جميع الحكومات وينظر في مصلحة الجميع ورئيس هاته البلاد هو رئيس جميع الدول التي هي جمهورية وهي التي لها المعاملة السياسية مع الدول الاجنبية ورياسة العساكر والبحرية وسيرة الدولة وقوانينها مثل سيرة الدول الاوروباوية الاكثر حرية وتقدما ولازالت تتقدم في الحضارة والمعارف والقوة حتى كان لها الشأن العظيم وصار لها الاعتبار التام عند جميع الدول وكانت سابقا من مستعمرات الانكليز ثم استقلت سنة ١٧٨٩ أوائل القرن الثالث عشر هجريا وهاته هي أسماء الحكومات المركبة منها العصبة وهي (نيوهمشير) و (مساشوست) و (رد ايسلند) و (كنكتيكوت) و (نيويورك) و (نيوجرسي) و (فنسلوانيا) و (دلاوار) و (مريلاند) و (ورجينيا) و (كروليفا الشمالية) و (كروليفا الجنوبية) و (جاورجيا) و (ماين) و (فرمونت) و (مشيغان) و (أوهيو) و (أنديانا) و (الينوى) و (كنتوكي) و (تنيسى) و (الاباما) و (فلوريدا) و (مسسپي) و (لوسيانا) و (وسكونسن) و (ايووا) و (مسوري) و (اركانساس) و (كانساس) و (نبراسكا) و (ارجون) و (منيسونا) و (تكساس) و (كاليفورنيا) و (واشنطون) وهاته الاقسام تكونت شيأ

شيأفشيأ وأول ماتم منها الثلاثة عشر الاولى فاستقلت كما تقدم ثم بعدهما أتم قسم شروط العمران والدخول فى العصبة قبل ولهذا بقيت بعض أقسام الى الآن تتمم فى استعدادها لكى تدخل فى العصبة وسكان هاته الممالك من الغرباء وأطردوا السكان الاصليين الى شمالى القارة والاصليون يسمون بالهنود لشبههم بهم فى اللون والخلقة وقد تهذب منهم أفواج ولازال أغلبهم على التوحش يسكنون مع الوحوش أما الغرباء فقد بلغوا الغاية فى التمدن والحرية فمن حريتهم ان ولى رئيس الجمهورية عندهم رجل صناعته الاحذية حيث كان مستكملا شروط الانسانية ووقع عليه الانتخاب وذلك فى عشرة الثمانين ومائتين وألف كما تقدموا فى فنون المعارف الرياضية والسياسية واخترعوا أشياء عجيبة من الكهرباء والبخار فاول ماعرف استعمال البلون أى القبة الهوائية للاطلاع على أحوال العدو فى الحرب فى هاته المملكة عند ما كانت الحرب مستعرة بين الحكومات الشمالية من الدولة المذكورة والحكومات الجنوبية منها التى نشأت بسبب منع العبودية فان الجنوبيين أصروا على ابقاء ملك العبيد وبقيت الحرب بينهم عدة سنين وذلك فى عشرة الثمانين من القرن الثالث عشر من الهجرة فمن الاختراعات فى ذلك الحرب ان أصعدوا ركابا فى قبة الهواء مستصحبين باسلاك كهربائية ليخبروا امراء الجيش باحوال جيوش العدو المستتر وراء جبال أو ربا ومن ثمرات قوة الاجتماع التى ظهرت عندهم الطريق الحديدية التى وصلت بها شطوط المحيط الشرقى بشطوط المحيط الغربى وكان يوم تمامها يوما مشهودا احتفلت له جميع البلاد وآخر مسمار انتهت به صناعة الطريق صنع من ذهب ودق بطرقة من فضة وربطت به عند آخر دقة أسلاك الكهرباء الى جميع البلاد فعند آخر دقة على المسمار حصل العلم لجميعهم بذلك فى آن واحد ولهم ثروة عظيمة بالمعادن جميعا سيما معدن الذهب فى كاليفورنيا الذى يخرج منه الذهب صخرا عظيمة وهكذا الصنائع والتجارة مع الامن العظيم والاطمئنان التام وقد امتلكت هاته الدولة بالشراء من الروسيا املاكها جهة الشطوط الشمالية من جهة غربى القارة

الفصل * الخامس

﴿والسبعون﴾

فى بقية ممالك أمريكا الشمالية (فأولها) مستعمرات الانكليز فى القسم الشمالى

حاد الممالك السابقة الاملاك الانكليزية وهي يجرى فيها الحكم الانكليزى بنوع امتياز (وثانيها) مايلي ماذكر شرقا وهوقسم المتوحشين الاصليين وبقية الاقسام المريدة للدخول فى العصبة السابقة

الفصل * السادس

﴿والسبعون﴾

(وثالثها) مكسكو وهى تلى البلاد المتحدة جنوبا واستقلت أواسط هذا القرن من تسلط اسبانيا عليها ولكنها لم تزل متأخرة فى جميع أنواع العمران حتى الأمن لاختلاف سكانها وحكمها الآن جمهورى وعند اكتشاف الاسبنيول عليها وجد فيها أمما فيهم بقايا التمدن ولهم ملك والموجود فيها من آثار المدن يدل على تقدم أهلها وقوتهم قديما وعدد سكانها نحو تسعة ملايين وقاعدتها مكسيكو

الفصل * السابع

﴿والسبعون﴾

(ورابعها) أمريكا الوسطى وهى تلى السابقة جنوبا وحكمها جمهورى وهى أقرب الى الخراب لتعاظم الفتنة بين أهلها واستقلت أيضا عن اسبانيا فى أواسط هذا القرن

الفصل * الثامن

﴿والسبعون﴾

(وخامسها) الجزائر الكثيرة المتفرقة وهى تابعة أما تماما أو تحت الحماية لدول متفرقة من أوروبا كانكلتره واسبانيا وفرنسا وهولاندا والدانيمرك والسويد كما ان لهؤلاء الدول أملاكا فى القارة الجنوبية وأكثرهم تملكا اسبانيا وانكلتره وحقيقة عدد السكان مجهولة لكثرة التوحش وعدم الفائدة الكبرى للدول بتهذيبهم وقد جربوا ان كل من تمدن هناك حاز الاستقلال بادارة نفسه مع ان عدد السكان قليل فى نفسه ثم ان بقية القارة الجنوبية تشتمل على دول شتى

الفصل * التاسع

﴿ والسبعون ﴾

فالدولة السادسة كاومبيا المنقسمة الى ثلاثة أقسام كل منها مستقل تحت الحكم الجمهورى وعدد جميعهم نحو ثلاثة ملايين وهم على حالة التأخر وموقعها من مبدأ البرزخ الموصل بين القارة الجنوبية والشمالية يقسمها خط الاستواء متصلة بالشاطئ الغربى والشمالى والشرقى

الفصل * الثمانون

(والسابعة) دولة بيرو وسكانها نحو مليون ونصف وحكمها جمهورى وموقعها على الشاطئ الغربى جنوبى المملكة السابقة

الفصل * الحادى

﴿ والثمانون ﴾

ثم يليها شرقا وتمتد الى الشطوط الشرقية وعلى جميع دواخل القارة الدولة الثامنة وهى برازيل وسكانها نحو ستة ملايين ونصف وحكمها ملكى مقيد بالقوانين ويوجد فيها عدة آلاف من المسلمين أصلهم من سودان افريقية ولكنهم لا يعلمون الا كليات الديانة على سبيل الاجمال كما يستفاد ذلك من رحلة عبد الرحمن بن عبد الله البغدادى الذى كان اماما فى بعض السفن المدرعة العثمانية وسافرت الى البصرة على طريق البحر المحيط الغربى على بغاز طارق وصادفتهم زوابع اضطرتهم عن غير قصد الى شطوط برازيل ولما خرجوا الى التفسح فى البر أقبل عليهم أقوام مسلمون وطلبوا ابقاء الامام عندهم لتعليم الديانة فبقى هناك مدة وألف رحلته المختصرة المترجمة الى التركى المسماة مسلية الغريب وكان سفره سنة (١٢٨٢) ولا يبعد أن يكون فى جميع أمريكا أمم كثيرة من المسلمين ولا يجدون من يهديهم ولا حول ولا قوة الا بالله

ال ف ص ل * ال ث ان ى

﴿ والثمانون ﴾

وبين بيرو وبرازيل الدولة التاسعة وهى بوليفا سكانها لا يبلغون نصف مليون وحكمهم جمهورى

ال ف ص ل * ال ث ال ث

﴿ والثمانون ﴾

والدولة العاشرة هى الشيلى سكانها نحو مليون وربع وحكمها جمهورى وموقعها على بقية الشطوط الغربية الى نهاية القارة فى الجنوب

ال ف ص ل * ال راب ع

﴿ والثمانون ﴾

والدولة الحادية عشرة دولة سيونس ايرس ويقال لها الابلاتا وهى وسط القارة الجنوبية تحدها شيلى من الغرب والمحيط الشرقى وبرازيل من الشرق وسكانها مجهولوا العدد وحكمها جمهورى

ال ف ص ل * ال خ ام س

﴿ والثمانون ﴾

الدولة الثانية عشرة أوروكواى هى جنوب برازيل سكانها نحو مائة وخمسين ألفا تحت الحكم الجمهورى المستقل وهى على الشاطئ الشرقى الجنوبى

ال ف ص ل * ال س ادس

﴿ والثمانون ﴾

والدولة الثالثة عشرة هى بقية أمريكا الجنوبية المعروفة بتاكونى وأهلها من الاصليين هناك طوال شداد متوحشون يقال تقريب عددهم مائة وخمسون ألفا فى تلك الاراضى

الواسعة

الواسعة وموقعها على الشاطئ الشرقى فى نهاية القارة جنوبا وغربها الشيلى والحاصل ان غير الدولة المتحدة لم يكن فى أمر يكامن الدول ما يعتبر اذ أغلب الاقسام المذكورة ولان كانت تحت أحكام منتظمة لكنها لم يتسع فيها نطاق المعارف والتقدم وألهتهم الحروب الاهلية عما يصلح شأنهم سيما وأغلبهم حديثوا عهد بالعتق من تسلط الدول الاوروباوية عليهم الذين كانوا يجرون فيهم الحكم الاستبدادى الظالم وأما أقلهم فانهم من الاهالى الاصليين الذين امانهم تناسوا التمدن أولم يعرف فيهم ولم يحسن الغرباء معاشرتهم وانما عاملوهم معاملة الوحوش وأطردوهم أوأفنوهم من ديارهم فبقوا على الجهل والتوحش وفى بعض الاماكن لا تساعدهم طبيعة الاقليم على شئ فقد ذكروا ان فى الجهات الضاربة لاقاصى الشمال قوم يحتمون من الجليد بيوتا ويجعلون لها مضاوى تحتا ويسدونها بطبقات من الجليد الصفيق ليمنع مرور الهواء ولا يمنع الضوء ويبقون فى تلك الدهاليز الى الشتاء الطويلة التى هى أغلب أيام السنة عندهم ويكتسون بجلد عجل البحر ويأكلون لحمه ويوقدون عظمه ومن أغرب ما يحكى عنهم انهم يطبخون اللحم المذكور فى قدور من الخشب وصورة طبخهم انهم يتخذون من بعض الاشجار التى تنبت فى الارض الجليدية قدورا يضعون فيما تجرف منها اللحم ويصبون عليه الماء ثم يأخذون الحجارة ويحمونها فى النار الى أن تصير حامية جدا فيلقونها فى القدر فتطفأ ويسخن الماء بحرارتها ثم غيرها وغيرها الى أن يصل الطبخ الى الاعتدال الذى اعتادوه وربك يخلق ما يشاء ويختار وهو القادر الفعال

﴿القسم الخامس من الارض استراليا﴾

هى مجموع جزائر جهة الجنوب من المحيط الشرقى قبالة الهند والظن انها كانت متصلة بشبه جزيرة سمطرا قديما وفصلتها زلازل هائلة قديما كما يتبين من النظر الى الخريطة ويدعى ان أعظمها اكتشف منذ أقل من مائة سنة والحال ان بها سكانا نحو مليونين من البشر وفى لونهم السواد فى أشكال من جهة التعليل بان سواد اللون من كثرة الحر تحت خط الاستواء مع ان عرض أعظم جزيرة هناك يبتدئ من عرض خمسة وثلاثين جنوبيا وذلك العرض من المناطق المعتدلة مع ان الاهالى الاصليين سود وكلهم متوحشون وانما يفترقون فى شدة التوحش وضعفه وقد أخذت بعض الجهات فى التمدن شيأما وكل هاته الجزائر تحت تسلط دول أوروباوأغلبها تملكه الدولة الانكليزية وقد جعلت أوستراليا

منفا لاصحاب الجرائم العظيمة فبالتغرب والحكم المشدد هناك تهذبوا وتقدموا شيأ فشيأ الى ان انكروا على الدولة الانكليزية نفي المجرمين اليهم لانهم ليسوا بأهل لمعاشرتهم ثم أخذوا استقلال ادارتهم برضاء الدولة الانكليزية ولازالوا تحت حمايتها وبقية دواخل الجزر مجهولة الى الآن وهكذا جهة القطب الجنوبي وا كتشف النوتية منذ اربعين سنة على أرض فى تلك الجهات واسعة ولم يروا فيها سكانا والى الآن لم يزل البحث على مافيها وماوراءها وكذلك سنة (١٢٩١) اكتشف نوتية من النمسا أرسلتهم دولتهم للاكتشاف على أحوال القطب الشمالى فى باخرة تامة التجهيز فرجعوا بعد عامين بعدان خلصتهم باخرة روسية عند ما كادوا ان يهلكوا لانكسار باخرتهم بالجليد ورجوعهم فى قوارب صغيرة فأخبروا باكتشافهم لارض واسعة فى درجة ثلاثة وثمانين وانهم لما انتهوا الى رأس فيها سموه رأس أوستريا وجدوا بحرا جهة الشمال مائعا عليه يسير من الجمد لا يتحمل حمل المراكب الجليدية وحدس بذلك علماء هذا الفن على ان الحرارة من الكهرباء جهة القطب يمكن معها الحياة والسكنى أزيد من المناطق المتجمدة وهو يؤيد ماقلناه فى بحث السد عند الكلام على الصين والله أعلم بما خلق وذرأ وهو الحكيم الخبير

الفصل * السابع

﴿ والثمانون ﴾

وحيث قد تبين فى هذا الباب اجمال حالات الممالك وماهى عليه من الاحكام والامن ناسب ان نذكر هنا خلاصة فى أسماء الممالك وقواعد بلدانها وعدد سكانها وكمية عساكرها وعدد سفنها الحربية ومقدار دخل حكومتها ومقدار خرجها وكذلك قيمة السلع الداخلة والخارجة بتجر تلك المملكة وكم على حكومتها من الدين وكمية مامد من طرق الحديد فيها ليتبين بذلك قوة الممالك ومراتبها فى الاعتبار وهاتيك التفاصيل جمعناها من عدة موادوتقويمات كلها فى سنين متقاربة من سنة (١٢٨٨) الى سنة (١٢٩٧) بحيث لاتتجاوز العشر سنين وانما نبهنا على هذا لان الاعداد المذكورة فى الاغلب يتغير بعضها بطول السنين لكنها فى الاغلب لاتتغير فى أقل من عشر سنين الا بأمور جزئية الاان يطرأ على مملكة من الممالك حادث غير اعتيادى بحرب هائلة أوغيرها كما انا

لم نعتبر فيما نقلناه الاعداد القليلة بالنسبة الى ما يقتضيه كل نوع من الانواع المذكورة لعدم الجدوى فيه بالنسبة لما نحن بصدده سيما وكثير من تلك الانواع هو من أصله غير محرر بالتدقيق الا فى بعض مواد فى بعض الممالك

﴿ جدول احصاآت الممالك ﴾

﴿المقصد﴾

﴿وفيه أبواب﴾

الباب * الاول

﴿فى سبب سفرى﴾

﴿فصل﴾

قد عرض للعبد الحقير السفر الى أوروبا ثلاث مرار الى هذا التاريخ وهو سنة (١٢٩٧) فاما فى مرتين وهما الاوليتان فكان السفر لاجل التداوى فقط على ما سيأتى بيانه وأما المرة الثالثة فكانت لما ذكر أيضا ولاشغال سياسية أوعزالى بها الوزير ثم عند رجوعى من هاته الثالثة نقض المذكور غزله وحملنى على مفارقة الوطن حفظا لما يوجب الله على حفظه فوجهت القصد الى أداء الحج المفروض والتشرف بزيارة أعظم الرسل (عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام وعلى آله الكرام وخلفائه الاعلام وأصحابه الفخام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) ثم استقررت بالقسطنطينية العظمى ثم سافرت الى أوروبا رابعا سنة (١٢٩٨) وعدت الى الاستانة وسنفرد كل مملكة شاهدتها بباب خاص نذكر فيه أحوالها وما شاهدته فيها كما انى أبين فى هذا الباب المرض الذى حملنى على السفر وما قيل فى التداوى شرعا وما عولجت به وحيث كان لاصل النشأة والاقليم دخل عظيم فى العلاج كما قرره الاطباء المتقدمون والمتأخرون لزم أن نذكر طرفا من حال نشأتى ونفرد كل قسم من هاته الامور بفصل خاص والله المستعان

فصل

﴿فى نشأتى﴾

اعلم ان نهاية ما نعلم من نسبى هو ما نذكر وهو انى محمد بن مصطفى بن محمد الثالث ابن محمد الثانى ابن محمد الاول ابن حسين بن أحمد بن محمد بن حسين بن بيرم وهذا الجد الاعلى قدم الى تونس عند قدوم سنان باشا وزير الدولة العلية مع العساكر العثمانية لفتح تونس من يد الاسبنيول سنة احدى وثمانين وتسعمائة ثم أقام بها وتزوج بابنة ابن الابار أحد وزراء الاندلس وعلمائها صاحب القصيدة التى يستغيث بها على لسان

صاحب

صاحب الاندلس سلطان المغرب للاندلس عند قدومه عليه سفيرا من مخدومه (ومطلعها)

ادرك بخيلك خيل الله أندلسا ❊ ان السبيل الى منجاتها درسا

ثم تناسل نسله الى حسين الاخير منخرطين فى سلك الوظائف العسكرية أو الملكية مع التحلى بالآداب العلمية فتزوج حسين هذا ابنة طاهرة من ذرية المولى الشريف سيدى (حسن الشريف الهندى) الشهير رضى الله عنه وبارك فى آل بيته العامر السعيد الى قيام الساعة فولدت له محمد بيرم الاول ومنه دخل النسل الى سلك العلماء الى الآن والمرجو من كرم الله ان يديم ذلك فى أعقابنا ماقدرلهم بالوجود واستفحل العلم فى هذا البيت ولله الحمد حتى سمعت من شيخنا العلامة شيخ الاسلام محمد ابن الخوجه يعرف جدى محمدا الثانى بقوله أبو يوسف الثانى ومؤلفات هذا الجد تشهد لشيخنا بصدقه وكذلك لبقية علماء بيتنا تآليف عديدة عظيمة مفيدة وتقلبوا فى الوظائف العلمية الى رياسة الفتوى وتلقب منهم أربعة بشيخ الاسلام ولما تأهل (والدى قدس الله روحه) للزواج زوجه أبوه بابنة وزير البحر محمود بن محمد خوجه ووالدتها من بيت العماد ذى الشرف المعروف وقد ألف الجد محمد بيرم الثانى تأليفا خاصا فى التعريف بنسبه الجثمانى والروحانى بلغ فيه الى نفسه والعبد مذيل عليه بذكر من لم يحوه ذلك التأليف من فروع هذا البيت وما ذكر فى هذا الفصل انموذج منه وكانت ولادتى فى سنة (١٢٥٥) ثم اشتغلت بالقراءة والتعلم متفرغا الى ذلك الى أن وليت خطة التدريس سنة (١٢٧٨) وكذلك مشيخة المدرسة العنقية ولم يكن لى هم بشئ من أحوال الدنيا الا مطالعات الحوادث السياسية الداخلية والخارجية الى أن توفى والدى رحمه الله ونعمه سنة (١٢٨٠) فاضطررت الى ادارة مخلفاته ولم يكن لى الا محض الوداد مع سائر السكان لبعدى عن مواقع التحاسد بينهم وتجنبى للخطط حتى ان خطة التدريس والمشيخة المذكورتين انما قبلتهما بعد الالحاح عند وفاة عمى شيخ الاسلام محمد بيرم الرابع وانحلال الخطتين المذكورتين بسبب موته حيث كانت مشيخة المدرسة اليه وانحلت وظيفة التدريس بسبب انتقال صاحبها الى ما فوقها وصاحب مافوقها ترقى الى مشيخة الاسلام وهو شيخنا العلامة محمد ابن الخوجه المشار اليه آنفا وبقيت على ذلك مرتاح البال سليم الوداد الى ان ولى الوزارة الكبرى بتونس الناصح الامين خير الدين باشا ونحا منحى الحكومة الشوروية فى اجراء العدل فرأى اجتهادا منه فى انتقاء

المتأهل للخطط ان يستعين بالعبد فى بعض الخطط حسن ظن منه فلم يسعنى الامساعفته لما كنت منه على علم من توغله فى حب العدل والميل الى القوانين والشورى حتى كان أول ناشر لمفاخرها فى قطرنا بتأليفه أقوم المسالك مع امتناعى سابقا عن كل وظيفة لما أعلم من خمول الانصاف وظهور الاعتساف وعندما غلب على الظن حصول الجدوى بولاية الشهم المذكور أجبت استدعاءه وقلدت رياسة جمعية الاوقاف التى هى من مبتكرات الوزير المذكور فى تونس اذ رتب قانونا لها بحفظ الاوقاف و بنموها بضبط لم يسبق اليه فاستعنت الله وبذلت مقدورى للوفاء بما عهد الى ثم ضم الى ذلك نظارة المطبعة وهكذا بذلت فيها استطاعتى غير انى فى ذاتى تحملت من الاتعاب الفكرية والبدنية مالم تتحمله نشأتى بل وكذلك الخسائر المالية لان المرتب الذى جعل لى وان كان فى نفسه نظرا للبلاد وافرا لكنه كان غير واف بما اعتدته من المصاريف التى كنت أحصل على الوفاء بها من دخل أملاكى ومعاطاة تجارتى ولما استغرقت الوظيفة الاوقات لقيام بها حق القيام تعطل الدخل السابق فعوضا عن الاستغناء بالوظائف صرت أبيع من كسبى شيأ بعد شئ للوفاء بحاجات المعاش ولا أعد ذلك شيأ فى جنب القيام بحق الوطن بل انى أحمد الله تعالى على ما أنعم

فصل

فى مرضى وما عولجت به حيث كان نسل بيتنا متوارثا فيه ضعف الابدان وكثرة الاسقام حتى قال الجد الثانى فى تأليف نسبه المشار اليه آنفا عند الكلام على اقرائه شرح صدر الشريعة على الوقاية والسبب فى طول مدة اقرائه له كثرة ما كتب على مباحثه المهمة من التعاليق المختصرة والمطولة مع الشغل بخطة القضاء والضعف البدنى الى ان قال فانا أهل بيت باض السقم فى بيتنا وفرخ وشوى وطبخ نسأله سبحانه ان يجعل ما فاتنا من القوة فى أبداننا قوة فى ديننا وان يعافينا ويعف عنا ويميتنا على الاسلام بلا محنة انه جواد كريم وقد كان الجد المذكور مبتلى بمرض عصبى أعيا علاجه أطباء زمانه الى أن حصل له انكماش فى أصابع يديه وهو مع ذلك يطالع ويؤلف الى أن توفى سنة (١٢٤٧) وهو ابن أربع وثمانين سنة لا يفتر عن التحرير والمطالعة قدس الله ثراه كما ان والدى رحمها الله ونعمها كان بها مرض الاعيا يعتريها بكثرة فى

ركبتها وهو من الامراض العصبية وكذلك كان بها مرض عصبي في معدتها فلما
تقدم كان مزاجي منهشا للمرض العصبي لانه من الامراض التي يعتريها التوارث ولما *
شقت علي الاشغال الفكرية والبدنية وكانت طبيعة اقليمي مائلة الى الحرارة واشتد
الحر في الصيف كنت استحم بالماء البارد بعد التعب بالشغل نحو سبع ساعات تطلبا
للنشاط والارتياح للاستعانة بذلك على الاشغال عشية فارتكبت ذلك مرتين أو ثلاثا
وعند آخرها حصل لي وجع شديد يكاد لا يطاق يبتدئ من فم المعدة ثم يمتد للجنبين مع
مصاحبة الاسهال وتطول حصته من الساعة الى الساعتين وتكرر ذلك مع شدته ولم
ينجع فيه شيء من علاج أطباء بلادنا مع تنوعه وكثرة اجتماع الاطباء اليه بحيث لم أبق
واحدا من مشاهيرهم لم أحضره فرادى ومجتمعين وغاية ما أرسى عليه حالهم هو استعمال
المسكن المسمى بكلوراتو مرفينا الذي يستخرج من روح الافيون ويستعملونه محلولا في
الماء المقطر وزن نصف قمحة من العلاج المذكور أي عشرة من مائة من غرام واحد
في ستة غرامات من الماء المذكور ثم يملؤون منه حقنة صغيرة تحمل غراما واحدا الا ربعا
من الماء المدبر المذكور ويحكمون ادخال أنبوبها في رأس أبرة خاوية الوسط ورأسها في
غاية الحدة ثم يمسكون الجلد من المريض بأصابع اليد ويجذبونه الى أن يبعد شيئا ما عن
اللحم ثم يدخلون الابرة هنالك ويجذبونها الى خارج الى أن لا يبقى الا آخرها داخل الجلد
ويبقى محلها هنالك متمددا وحينئذ يحقن الماء المذكور تحت الجلد ثم يزيلون الابرة وقد
تم حينئذ عمل العلاج فبعد دقيقة أو دقيقتين أو أقل يسكن الألم بفضل الله وتمادى
الحال على ذلك مع كثرة تردد المرض كل يوم مرة أو بعد يومين مرة وبعد كل نوبة يتركني
في غاية التعب ويورث ارتخاء وضعفا جسيما وقد كنا لا نعلم كيفية استعمال ذلك المسكن
فيلزم الصبر على شدائد الألم الفادح الى أن يأتي الطبيب فما يأتي الا وقد وجد في أخذ
مني الألم أخذا عظيما فلذلك نحل جسمي وصار يعتريني في بعض الاحيان دوار وتارة
يعتري تخضرم في النبض مع شدة ضعفه وامتد ذلك نحو ثمانية أشهر وحينئذ ألح علي
الحكيم الماهر النصوح منيابيني بالسفر الى أوروبا وقد كان أشار علي بذلك من أول
الامر غير ان غيره من الاطباء خالفوه فأنهم قالوا لا يلزم السفر ويمكن العلاج في البلاد
لكني لما رأيت من طول الامر وزيادة الضعف ما رجح لي كلام منيابيني أعدت
استشارة الاطباء فوافقوه وكان قصده من السفر (أولا) ذات السفر فانها من أسباب
الصحة طبا وقد علمنا من الفصل الثاني من المقدمة ان السفر من أسباب الصحة شرعا أيضا

(وثانيا) الارتياح لي من الاشغال الفكرية التي لم يمكن لي التجنب عنها في البلاد (وثالثا) الملاقاة مشاهير الاطباء الذين لا يوجدون عندنا كما سيعرف في محله وهذا الاخير هو الذي أوجب تعيين الوجهة الى خصوص أوروبا فسافرت حينئذ وكان ذلك في دجنبر

✽ واجتمعت بمشاهير من أطباء ايطاليا وفرنسا واستقر رأى أغلبهم وأعلمهم على ان المرض عصبي مع ضعف شديد في الدم ومركزه ما بين أعصاب المعدة والقلب وعالجوني بالمياه الباردة جدا المنبعثة بقوة وذلك بأن يضرب بها كفي القدمين ثم العقابين ثم فقرات الظهر ثم فم المعدة ثم الوجه والرأس ويتم جميع ذلك في دقيقتين أو ثلاث ثم ينشف البدن بخرق من الكتان مع عنف وضرب خفيف واستعجال ثم تلبس الثياب ويداوم المشي العجول نحو نصف ساعة أو أزيد الى أن يسخن البدن ويحصل شئ من العرق أو حك حوالي فقرات الظهر بخرقة من الشعر الصلب ثم امرار اسفنجة مبتلة بالماء البارد على ذلك المحل عند النوم مع تكبيس الاعضاء والظهر بالايدى وظهر لهذا العلاج بعض النفع غير أن شدة البرد هناك الخارقة لعادتنا في اقليمنا المعتدل أوجبت على الاطباء الاشارة بالعود الى الاقاليم مع التوصية بالتحذير من الأسباب المحيرة للمرض ككثرة الشغل والمآكل العسيرة الهضم ثم تعاهد المعالجة بالماء البارد وشرب أدوية عديدة منها شئ قليل من روح الزئبق وأشباهه من أجزاء يسيرة من عقاقير قتالة مع التحذير من مقاديرها وخف المرض عند الرجوع الى الوطن حتى اني لم أضطر الى استعمال المسكن بالحقنة نحو ثمانية أشهر لكن المرض لم ينقطع وانما كان يأتي خفيفا ومع العود الى الاسباب التي لم أجد عنها مندوحة عاد الألم لما كان واضطررت للسفر ثانيا لخصوص باريس التي وجدت بها أمهر من رأيته من الاطباء وهو الحكيم شاركو وقد ورد الخبر باكتشافه لعلاج جديد من المعادن ولما عدت اليه عالجني بالكهرباء التي سيرد الكلام عليها ان شاء

✽ الله وصورة العلاج بآلات على نوعين أحدهما مسكنة للهيجان العصبي وهي آلة مركبة من ثمانين اسطوانة منقسمة الى قسمين كل قسم يشمل أربعين اسطوانة ويوضع كل قسم فوق القسم الآخر وكل اسطوانة مركبة من طبقات احداها نحاس والاخرى روح النوتيه المسماة بالزنك والثالثة طبقة من الجوخ وفي مركز كل اسطوانة عمود من سلك حديدى يخرقها ويتصل الجميع بطبقة من الكاوتشو ويغمس الجميع في ماء مخلوط بالنشادر وهذا الغمس لا يلزم في كل مرة بل اذا حصل ضعف في عمل الكهرباء ثم يجفف من التقاطر ويوضع في صندوق من خشب بداخله صفحتان من

الفولاذ

الفولاذ موصلتان للكهرباء بسطح الطبقة العليا وفي هذا السطح بيت ابرة ومسامير من
نحاس مسطحة الرأس منقوش عليها أعداد من عشرة الى أربعين يمينا وهكذا شمالا
وعمودان قصيران مثقوبان ويدان تداران على مركزهما ويوضع طرفهما على العدد
المطلوب من المسامير اليد اليمنى على المسامير اليمين واليسرى على المسامير الشمالية وعلى
بيت الابرة ضلع من خشب وعند ارادة العمل بذلك الصندوق المهيأ يلزم وضعه بحيث
يكون الضلع الخشبي الممتد على بيت الابرة متوجها جنوبا وشمالا ثم تدار اليدان لتحريك
القوة الكهربائيه وتوضع احداهما على أحد الاعداد المناسبة لقوة الهيجان وقوة
المريض أيضا وهكذا الاخرى بحيث لا يبلغ بهما معا الى نهاية العدد من الجهتين التي هي
درجة الثمانين في القوة الكهربائية لان ذلك يخشى منه من الصاعقة على الانسان ثم
يؤخذ سلكان من الفولاذ محكم لفهما بخيوط الحرير حتى لا يبدو منهما أقل جزء ويوضع
كل منهما في أحد العمودين المثقوبين ويحكم امساكهما هناك بلواب وفي رأس طرفيهما
الآخرين شبه ختم من معدن ملفوف في جلد رقيق يبل بالماء لسهولة توصيل الكهرباء
وكل من الختمين له يد من خشب يمسكها العامل ويسمى أحد السلكين بالموجب
والآخر بالسالب تبعا لنوع تسمية الكهرباء والموجب هو الذي تكون اليد الدوارة
من جهته في درجة أعلى من الجهة الاخرى فاذا ألصق الختمان ببعضهما أو اتصلا بجسم
يوصل بينهما رأيت الابرة في بيتها تضطرب يمينا وشمالا ويشتد اضطرابها أو يضعف على
حسب الدرجة المجعولة فيها قوة الكهرباء واذا حصل هيجان في المرض يوضع الختمان
على المريض بقرب مجلس الألم على هيئة التقابل بين السلكين ففي بضع ثوان يسكن
الهيجان باذن الله من غير أن يحس المريض بأدنى حركة أو ألم ويسمى هذا النوع من
الكهرباء الكهرباء الساكنة وهاته الآلة من اختراع كستاف طروفية وعندما كان
يعتريني المرض بالدوار وضيق الصدر كان الحكيم يضع الختم الموجب على العنفقة
ساكنا والسالب على الجبهة يديره من أحد طرفيها الى الطرف الآخر فكان اذا قرب
من الحاجبين أرى كأن البرق يتطاير من عيني متواليا ويلزم ازالة السالب شيأ فشيأ بأن
يرفع بعض أطرافه ثم وثم الى أن ينفصل جميعه وأما الآخر فيفصل دفعة واحدة والآلة
الثانية الكهربائية هي آلة لتقوية البدن والاعصاب وصورتها مربع من خشب عليه
اسطوانتان من البلور مركوزتان على قطع من الكاوتشو (هو نوع غروي يجف
ويتصلب مستخرج من صمغ الاشجار) غير أن احداهما يحيط بها الكاوتشو الى نحو

الثالثين منها والثانية الى نحو الربع ويمد عليهما اسطوانة عظيمة من النحاس خاوية
الوسط وفى أواسط كل من الاسطوانتين البلوريتين رباط من نحاس فيه موضع لوضع
قطب أحد الدائرتين الآتى بيانهما وهذا القطب وسطه فولاذ وظاهره كاوتشو يتصل
بدائرة مسطحة جيدة من الكاوتشو أيضا وأحد طرفى قطبها خارق للاسطوانة البلورية
متصل بدائرة صغيرة من نحاس كما انه فى نحو الربع السفلى من الاسطوانتين موضع
لقطب دائرة مثل تلك لكنها من البلور وانضمام مركزها على القطب من الكاوتشو وبقية
قطبها من النحاس وأحد طرفى قطبها خارق للاسطوانة البلورية متصل بدائرة من خشب
لها يد تدار بها وعلى خط نهايتها محل لوضع حبل من جلد مركب يوصل بينها وبين
الدائرة النحاسية التى فوقها المتصلة بقطب دائرة الكاوتشو وبدوران هاته الدائرة
الخشبية يدور كل من دائرة البلور ودائرة الكاوتشو اللتين وضعهما بين الاسطوانتين
وتبعد احداهما عن الاخرى نحو أصبع عرضا ومركز الكاوتشو أعلى من مركز البلور ثم
ان المربع الخشبي تلصق به آلة ذات وسادتين لاصقتين فى خشبتين وهما جلد
محشوتان بالشعر ولهما لوالب يقربهما من بعضهما أو يبعدهما وفائدتهما هى ادخال
الدائرة البلورية بينهما بحيث يلتصق بكل من سطحيها احداهما حتى اذا أديرت يحصل
حكها بهما ويدلك كل الوسادتين بشئ مجحر من الكبريت تقوية لاحداث
الكهرباء ثم يتصل باحدى الاسطوانتين البلوريتين عند مركز قطب الدائرة العليا قوس
من نحاس ينفتح وينغلق بحيث اذا أغلق يتصل طرفه بالاسطوانة الكبرى النحاسية وفى
هاته الاسطوانة حلقة من جنسها خارجة عن رأس الاسطوانة البلورية ليوضع فيها رأس
قضيب من نحاس وذلك الرأس منحنى ليمكن امساكه فى الحلقة وهو أى القضيب طويل
أزيد من ثلاثة أمتار وجميع تلك الآلة يوضع على مائدة من خشب مرتفعة على
الارض نحو ذراعين ونصف بأرجل متينة لا تضطرب عند ادارة الآلة ويكون وضعها
فى محل خالى عن الندا متجدد الهواء بعيدا عن الاشجار والبحر نحو عشرة أو اثنى عشر
ذراعا ووضعها هى فى المحل يكون بعيدا عن الحيطان فى الاقل ذراعين واذا كانت
الكهربائية ضعيفة يربط برجل القوس عند الاسطوانة البلورية سلسلة من أى معدن
وجد ويربط طرفها الآخر بالحائط ثم يوضع كرسى أرجله من البلور الثخين بعيدا عن
الآلة قدر ذراعين ويوضع عليه طرف القضيب الماسك فى الاسطوانة النحاسية
ويجلس على الكرسى المريض وتدار الآلة اما بالبخار أو باليد ويفتح القوس النحاسى

وعند

وعند ذلك يمتلئ الجالس بالكهرباء من غير ان يحس بشئ الا اذا قرب منه جرم ما فانه يتطاير بينه وبين الجالس شرر يشبه البرق ويحس به الجالس ضربا واحراقا لكنه لا اذية فيه ولزيادة الدواء يأخذ الحكيم عصا من نحاس ويدها التي يمسكها من البلور وفيها حلقة تربط بها سلسلة معدنية متصلة بالارض وللحذر منها للحكيم يدخلها بحلقة متسعة من النحاس موصولة بيد من البلور يمسكها الحكيم بيده اليسرى ليبعد جرم السلسلة عن نفسه من غير تعطيل لحركتها واتصالها بالارض حيث كانت تمر في الحلقة الواسعة ثم يصوب رأس القضيب الذي بيده وهو مخروط مذبب صوب المريض الجالس على الكرسي على الجهات التي هي مجالس للألم واذ ذاك ترى شعلة من النار الزرقاء المبيضة خارجة من رأس القضيب ويحس المريض بريح باردة واصلة اليه وان قرب منه القضيب خرج الشرر وتارة يعوض رأس القضيب بكورة نحاسية توصل به وتارة يعوض بكورة خشبية متعددة الانواع من صلابة الخشب ورخاوته لان الصلب أشد كهربائية فيستعمل من تلك الانواع على حسب قوة المريض ويدام العمل من خمس دقائق الى عشرين دقيقة تدريجا مع تأنس المريض ونقاهته وحصل لي بهذا العلاج مدة أربعين يوما نفع عظيم ولله الحمد كاد ان ينقطع به الألم بالمرة الا بقايا قليلة لا عبرة بها وعند الرجوع الى الوطن اكد علي الحكيم الحذر من الاسباب وتفقد العلاج المذكور أو شرب قطرات صغيرة من محلول الذهب الذي بان نفعه أيضا من ست قطرات في نصف كأس من ماء الى خمس عشرة قطرة تدريجا قبل الاكل فطورا وعشاء وعند النوم فكنت أستعمل آلة الكهرباء الدوائية التي ظهر نفعها غير ان الاطباء أوصوني على عدم ملازمتها خوفا من تأنس البدن ولذلك تركتها مدة مع اني كنت اشتريت آلة واستصحبتها معي والفرق بينها وبين الآلة التي عند الحكيم في باريس ان التي أخذتها تدار باليد والاخرى تدار بالبخار لكثرة استعمالها حيث يعالج بها كثيرين وأما التي عندي فتكفي فيها يد الادمي اذ لا يدوم العمل بها اكثر من عشرين دقيقة في اليوم ثم عند تركي للعلاج بها مدة كنت أخاف من اشتداد الألم الذي تتظاهر مخايله من حدوث بعض الدوار والارتخاء والحزن الذي هو من علامات الهيجان للنوع الثاني من المرض وهو اعتراء برد شديد في الاطراف وصغر في النبض مع ألم عام لا أقدر أعبر عنه ولا أعلم محله أين هو مع ارتعاش في الاعضاء وجفاف في الريق وصعوبة في ابتلاع الريق والطعام وضيق في النفس وهذا الهيجان لا تنفع فيه الآلة المسكنة الا اذا كان

شديدا واما اذا كان خفيفا فلا ومن عجيب عوارض هذا النوع من الهيجان شدة السمع
حتى كنت أسمع الشئ الخفي البعيد الذى لا يسمعه الحاضرون معي مع التأذى من شدة
صوته عندى فضلا عما اذا كان الصوت قريبا حتى يلتزم من حضر عندى السكوت
بل ربما تأذيت من صوت نفسه وهكذا الشم فقبل حصول الهيجان كنت أشم ما لا يدركه
أمثالى الكن وقت الهيجان يصيبنى زكام مفرط وربما هاته الحالة لا يسكنها ولا يسكن
الحقنة الا بعد مدة وهى أشد على من هيجان الوجع ولذلك كنت أستعمل عند تعطيل
التعاهد بالآلة العلاجية شرب ماء الذهب المتقدم ذكره وقد قلت للحكيم عند وصفه
هذا الدواء وانه من مخترعات هذا العصر ان أكل الذهب المقوى معلوم عندنا وقد كان
الامام ابن عرفة فى المائة الثامنة والتاسعة يبرد كل يوم بندقيا (البندقى نوع من سكة
الذهب منسوب الى البندقية وزنه نحو نصف دينار ذهبا) على دجاجة ويطبخها جيدا
ويأكلها فقال البندقى كثير فقلت له حيث ان الذهب غير محلول فلا يأخذ منه البدن
الا مقدار ما تهضمه المعدة وما عداه يذهب فى الفضلة فقال نعم وعلى كل حال فلهذا
العصر فضل فى الاقتصاد فلم يبق الا التسليم وهذا العلاج بالمعدن كنت استعمله قبل
السفر ثانيا الكن على ظاهر الجسد وذلك بأن يؤخذ شئ من أحد المعادن الخالص
ويجعل منه نحو سوار فان ظهر فى المريض بلبسه نوع ملايم ديم عليه والا يبدل بمعدن
آخر وأول من اكتشفه طبيب نمساوى ولم يلتفت الى قوله الى ان أصغى اليه الحكيم
شاركو الفرنساوى وجربه فوجده صادقا وأعلن به من مجلس فن الطب بباريس وصار
معمولا به غير انى وجدت فرقا بين الكيفية التى جربها الى الطبيب البارون كستلنوفو
وبين ما فعله الطبيب بباريس فان الاول كان يستعمل المعدن ويبقيه ان وافق وكل
المعادن التى جربتها لم توافق سيما النحاس فانه يحدث التحيير الا الذهب فلما جربته لبسا
خف التحيير وسخنت أعضائى وكان العرق الذى يأتى من الألم حارا على خلاف ما كان
من برده ولما أعلمت بذلك الحكيم شاركو أذن الطبيب المباشر وهو فغرو بأن يجرب
المعادن فأعطانى ميزان القوة وقبضت عليه بجهدى وقيد الدرجة وكذلك علم ميزان
النبض ثم أول ما بدأ به من المعادن معدن المغناطيس وهو على هيئة قطعة من حديد
موضوع على مائدة فالصقه بذراعى الأيمن وجعل فاصلا بينه وبين البدن قطعة من
ورق فما ابث نحو دقيقتين الا وحصل هيجان عظيم فى المرض خشيت منه وكان تابعى
مجلا باستعمال الحقنة للتسكين فنهاه الطبيب واستعمل الآلة الكهربائية الساكنة

المار

المار ذكرها فى فصل السكون بفضل الله وتبين ان ذلك المعدن غير ملائم وهو نظرى ووافقنى عليه الحكيم شاركو وان كان الطبيب فيغرو يرى انه موافق بمعنى انه لما أحدث تأثيرا دل على تأثير البدن منه لكنى أقول ان البدن يتأثر منه بالضرر لا النفع ولم أعد اليه ولا لغيره ذلك اليوم حذرا على البدن من كثرة الاضطراب ثم جربنا النحاس وهو أيضا غير موافق كما تقدم غير انه لم يحدث هيجانا كبيرا ثم جربنا الفضة فلم توافق ولم تضادد بدليل موازنة ميزان القوة والنبض ثم جربنا الذهب فكان ملائما بحرارة البدن وزيادة القوة ونشاط النبض ولذلك استقر الرأى على عمله لكن لا يكتفى فيه بالاستعمال على ظاهر الجلد فقط بل بالشرب أيضا على نحو ما تقدم وكل معدن كان تجربته فى يوم خاص كما عولجت قبل السفر الثانى بماء البرمور وبوتاسيوم باشارة الطبيب كستانوفو ورأى فى كميته وأوقاته كيفية رآها الطبيب منديا نفى كثيرة فلما استعملها مع المواظبة أكثرت على النوم حتى كدت ان أكون نائما ثمان وأربعين ساعة تماما والمقدار هو قدره ملعقة كل بعد كل ساعة من الماء المذكور وبعد رجوعى من باريس والعلاج بالكهرباء على نحو ما مر بقيت على العافية ولله الحمد مدة عام الاستة أيام حيث تراكمت الاتعاب الفكرية والبدنية وحوادث فى البلد أوجب جميعها السفر ثالثا الى باريس والاشتغال بغير الدواء فى هاته المرة مع مصاحبة الاتعاب الفكرية أوجب عدم نجح العلاج السابق وان خف الألم شيأ ما فلما عدت بعد افراغ المستطاع وجدت الحال فى الوطن غير الحال وأخلاق الحكومة وان شذت ذات الوزير بخصوصه غير ما تركته عليه كأنى أتيت شيأ على غير أمره وتحقق لدى ما كنت أتوقعه من السوء لكل ناصح أمين غير ممالى على سوء الاعمال كما سيرد شرحه ان شاء الله تعالى فعزمت على التوجه لبيت الله الحرام ملتجأ الى الرسول عليه الصلاة والسلام لكشف الضر الخاص والعام فنلنا بجاهه المرام ولا زلنا نؤمل التمام مما التجأنا اليه فيه ومنه حسن الختام

فصل

﴿فى حكم التداوى شرعا﴾

اعلم ان التداوى قد ورد بالهداية اليه القرآن العظيم كما فى (قوله تعالى يخرج من بطونها

شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) فدلت الآية الشريفة على ان العسل دواء للآلام يستشفى به منها كما بينه الحديث الشريف الوارد في صحيح البخاري وغيره من قصة الصحابي الذي قال (للنبي صلى الله عليه وسلم) ان أخي يشتكي بطنه فقال له (صلى الله عليه وسلم) اسقه عسلا ثم عاد وأعاد الشكوى وأعاد له (صلى الله عليه وسلم) صفة الدواء ثانيا ثم وقعت الاعادة أيضا ثالثا وقال الصحابي قد سقيته وما زاده الا انطلاقا فقال (صلى الله عليه وسلم) اسقه عسلا صدق الله وكذب بطن أخيك ففعل الصحابي وشفي المريض فان الحديث قد بين ان شفاء الناس هو تداويهم به من أمراضهم حيث قال صدق الله أي في قوله فيه شفاء للناس ثم يدل الحديث أيضا على ان استعمال الدواء لابد فيه من مقادير وأوقات ولذلك أمره بالتكرار لانه تعالى كما له ارادة في جعل الشئ سببا في البرء له ارادة في خصوص مقداره وأوقاته وانه لا ينبغي ان يهمل الدواء اذا لم يرمنه نفع في المرة الاولى اذ لعله لم يكن هو المقدار الكافي لما استعدله بدن المريض ولله سبحانه وتعالى حكم في الاشياء لم تصل عقولنا للاطلاع على تفاصيلها فيلزمنا اتباع مادلت العادة والتجربة على جعله سببا للمسبب بمقتضى الحكمة الازلية ومن ادعى عمل الاشياء بالطبع لايسعه الا العجز عند ماتجاريه بسؤالك لماذا كان طبعها كذا واذا علل تقول له لماذا كان ذلك التعليل وهكذا بل انهم كثيرا ما يعجزون من أول الامر فيقولون ان الشئ الفلاني يفعل كذا بالخاصية حيث لم يجدوا شيأ يمكن لهم به التعليل الاولى والحق ان ذلك جميعه بخلق الله وجعل تلك الاشياء أسبابا عادية يخلق عندها ما أراده بسابق حكمته ولما تقدم أجمعت الامة على جواز استعمال الادوية وانما وقع الخلاف في جواز استعمال المحرم دواء ووقع الخلاف في الترجيح عند الحنفية ومحل الخلاف هو ما اذا تعين الشفاء في خصوص ذلك المحرم ولم يوجد شئ آخر حلال يقوم مقامه اما اذا وجد فلا يصح (حينئذ) والقائل بالاباحة يستدل بالضرورة وانها مبيحة للمحذور فيكون كالخائف من الهلاك جوعا في أكل الميتة ومقتضى تجويزهم للكتابة بالدم على جبين صاحب الرعاف لكي ينقطع عنه هو ترجيح للتداوي بالمحرم لان الكتابة بالدم النجس اهانة للحروف ولاسيما اذا كان فيها اسم الله وذلك محرم قطعا وانما جاز للضرورة فلا يكون اذ ذاك حراما وبه يجيبون من احتج بقوله (صلى الله عليه وسلم) لم يجعل الله شفاءكم فيما حرم عليكم فان الشئ اذا تعين فيه الشفاء يرتفع عنه التحريم وبيان هذا المعنى هو ان يقال ان الاشياء المحرمة انما حرمت لما فيها من المفاسد

والمضار

والمضار للمخلوق لانه تعالى منزه عن الاحتياج لشئ وكلما ورد به الشرع فانما هو لهداية لما ينفعنا فنؤمر به أو لما يضرنا فننهى عنه وحيث لم يكن فى طوق عقولنا الاحاطة بعلم جميع ذلك لان بعضها يتوقف على علوم تشيب الغراب وهو تعالى خالقنا الرؤف العالم بنا ورسوله هو الاب الرحيم بخلق الله ونحن على يقين من ذلك ولله الحمد فما علينا الا أن نتبع ماشرع لنا موقنين ومسلمين أن ذلك هو الصالح بنا كتسليم الابن لابيه العاقل وتسليم الجندى لرئيسه الخبير من غير بحث عن موجب تكاليفه مع ان المشبه به يمكن فيه حصول الاعلام بالبواعث غير انه ترك حذرا من فوات الفرص واطالة الامر بخلاف المشبه فقد علمنا عجز عقولنا عن ادراك جميع مصالحنا بتعاليها ولذلك ما أمكن ادراكه قلنا انه معقول المعنى وما لم ندركه عملنا به وقلنا انه تعبدى والكل معقول فى نفس الامر فالشئ المحرم اذا اضطر للتداوى به ليس المعنى انه يرتفع الضرر الذى حرم من أجله بل ان الضرر الحاصل الذى يراد دفعه به أعظم من الضرر السابق فيرتكب أخف الضررين كما هى القاعدة الشهيرة فالخمر مثلا المحرم لتوقع جره الى افساد العقل اذا غص الانسان وخشى الهلاك جاز له شربه لدفع الهلاك الذى هو أعظم ضررا من توقع جره لافساد العقل ولا يقال انه على هذا يلزم التوقف فى كل جزئية على علم مفسدة المحرم الذى أريد استعماله وحرم من أجلها ومقايستها بالمفسدة التى يراد دفعها به مع انك مصرح بعدم علم الجميع والقائلون بالجواز لم يخصصوا اما علمت مراتبه وقيس بينها الانا نقول القواعد الكلية فى مثل ذلك كافية فى حصول المقصود وقد علمنا منها ان حفظ النفس هو ثانى مرتبة بعد حفظ الدين وجميع الاشياء المبحوث عنها آيلة الى حفظ النفس من الهلاك والهلاك أعظم مفسدة ومضرة من كل ما يمكن ان يكون فى الاشياء المحرمة من أسباب التحريم الراجعة الى أجزاء خاصة من النفس كالعقل مثلا فيقدم حفظ النفس جميعها عليها ولا يمس ذلك الدين لان محله القلب أى الروح التى هى محل الاعتقاد وذلك لا يخرج منه الا بما دخل فيه كما هى العبارة المشهورة ولذلك صرح الفقهاء بأنه لا يفتى بالردة استعجالا حتى يثبت اضطراب العقيدة والعياذة بالله ولو صرح فى الفتاوى ببعض أشياء انها مكفرة فلا يعول عليها ثم ان جميع الشعائر الظاهرة هى من الدين أيضا ومنها حفظ النفس وقد علمنا من الشرع تقديمها على كل ما سواها الا الاعتقاد ولهذا يجوز اتلافها فى القتال على الدين وهكذا على شعائره فانهم صرحوا بأن من تركوا جميعا الاذان يقاتلون حفظا للدين وتقديما له على النفس لكن ذلك

اذا كان منبعثا من الاستخفاف الراجع للاعتقاد اما اذا نشأ من التأويل أو العذر المنبئ عن صحة الاعتقاد فلا يقاتلوا (حينئذ) ولهذا لم نؤمر بقتال تاركى الجمعة بتأول وجوب الامام المعصوم مع انهامن شعائر الدين وبما تقدم يعلم جواز تلقيح الجدرى من الحيوان أوالانسان لانه قد ثبت بالتجربة المفيدة للقطع انه حافظ من الهلاك أو مما يقرب منه ومن هذا الباب تجويزهم للكتابة بالدم مع انه فيه استخفاف بالحروف التى مرجعها الدين وبيانه أن الاستخفاف فعل القلب والاعمال الظاهرية دالة عليه وأقيمت مقام الحرمة بسبب دلالتها الالذاتها فهلاك النفس تعارض مع مايدل على الاستخفاف فقدم دفع الهلاك للتيقن بسلامة الاعتقاد وغاب ذلك الدلالة لارتكاب أخف الضررين فان قيل كيف يكون أخف الضررين مع ان الآخر مرجعه للدين وهو مقدم على النفس فالجواب أن الدين قد علمت انه سالم وهو الاعتقاد ولم يبق الا الدلالة فى مقابلة النفس التى هى محل الاعتقاد والقيام بجميع التكاليف فغلب ترجيحها كما صرحوا به فى جواز التيمم لخوف المرض فى أن ذلك ليس تقديما للنفس على الدين بل من باب تقديم أغلب الدين على بعضه لان الانسان اذا سلم أقام الطهر والصلوات الكثيرة وغيرهامن التكاليف بخلاف ما اذا هلك فتسقط بموته جميع التكاليف المتعلقة بذاته فلا يسوغ له ان يسعى فى ابطاله تكاليف كثيرة لاقامة عبادة واحدة فهو (حينئذ) من باب أخف الضررين كما تقدم واعلم ان للعبد توقفا شديدا فى دعوى جواز مسئلة الكتابة بالدم لحفظ النفس من الرعاف (الخ) وبيانه ان صاحب الفصول العمادية وغيره ممن نقل عنهم الشيخ بيرم الثانى فى كتابه حسن النبا فى جواز التحصن من الوباقد صرحوا بأن تعلق الاسباب بمسبباتها على ثلاث مراتب أحدها التعلق القطعى "وهو مالا يتخلف فيه المسبب عن السبب الا على وجه خرق العادة كالشبع للاكل والرى" للشرب وثانيها الظنى " وهو ما يكثر فيه ارتباط المسبب بالسبب وقد يتخلف نادرا ومثلوا له بالادوية مع الامراض وثالثها الوهمى " وهو مالا يرتبط فيه المسبب بالسبب الانادرا ومثلوا له بالكى والرقى مجمعين على ذلك وغاية مااختلفوا فيه هوان تعاطى القسم الثالث هل هو مخالف للتوكل أم لا واحتج صاحب حسن النبأ لكونه غير مخالف للتوكل رادا على صاحب الفصول بثبوت الرقيا من (النبى صلى الله عليه وسلم) وكذلك الكى فليراجع ما أطال به هنالك فأنت ترى أطباقهم على جعل الرقيا من الموهوم وما تقدم من الكتابة بالدم للراعف ليست هى الا رقيا فكيف ينطبق عليها شرط جواز استعمال

المحرم وهو تعينه للشفاء وأين التعين من الوهم وكيف يقدم على أمر محرم باجماع لامر موهوم فعلى الآخذ للاحكام الشرعية التثبت وعدم الاغترار ولهذا صعبت درجة المفتى لكى لا يضل ويضل بغير علم ولا ينفعه مجرد وجود المسائل فى كتب بعض المتأخرين اذ كثيرا مازلقت الاقدام من بعضهم فينقلها عنه غيره كأنها المذهب الذى عنه لا يذهب والله يحفظ المسلمين من مزالق الشبهات وكان منشأ ذلك القول هو ماقاله صاحب النهاية فى مبحث جواز التداوى بالمحرم اذا تيقن فيه الشفاء وساق لذلك مثالا وهو جواز كتابة الفاتحة بالدم للراعف على جبينه وأنفه لكنه قيد ذلك بحصول العلم الذى هو اليقين وذلك على معرض التمثيل بدليل عطفه البول حيث قال وبالبول أيضا أى اذا حصل العلم ومن المعلوم ان الفقهاء يصورون المسائل ولو المستحيلة تقريرا للحكم لما عسى ان يطرأ فى زمن لا يقدر فيه على استنباط الاحكام فليس كلامه دليلا على الجواز فى تلك المسئلة لانه مقيد بالعلم وقد علمت انها من قبيلة الرقيا والرقيا من الموهوم فلا يجوز الاستناد الى كلامه مع الغفلة عن قيده الذى هو العلم ولم نرفى كلامهم من يسوغ اطلاق العلم على الوهم وغاية ماقالوه فى المسئلة ان بعضهم جعل كلام حذاق الاطباء مما يحصل به العلم وقال العلامة السيد ابن عابدين فى حواشى الدر انه لعله من التوسع فى اطلاق العلم على الظن أقول وذلك لان مسائل علم الطب على قسمين أحدهما ما يرجع الى علم التشريح وكيفية تركيب الابدان وهى يقينية والثانى ما يرجع الى الدواء ومسائله ظنية كما تقدم ثم اعلم ان تعاطى الاسباب بأقسامها الثلاثة التى تقدمت فى صدر هذا المبحث هو من أعمال الكاملين فى الدين ولا ينافى التوكل على الله وقد بسط المسئلة بيرم الثانى فى كتابه حسن النبأ المشار اليه وحققناها فيما كتبناه على باب لا يلدغ (المؤمن من جحر واحد مرتين من البخارى) وخلاصة الكلام ان العمل بالاسباب مع التوكل على الله فى نجاحها هو المشروع ومخالفة ذلك سوء أدب مع الخالق جل وعلا فيعصى الانسان من حيث يظن انه يطيع وقد صرح بمثل ذلك العارف الشعرانى فى المواثيق والعهود حيث قال ان التوكل لا يشرع الا مع الاسباب أو عند فقدها اما مع امكانها فهو كالعاصى وبكلامه (رضى الله عنه) يتبين الوجه فى الفرق بين حالى (النبى صلى الله عليه وسلم) مع صاحبه الصديق (رضى الله تعالى عنه) فانه (عليه الصلاة والسلام) لما هاجر الى المدينة عند اجتماع قريش على أذيته لم يكن له (عليه الصلاة والسلام) من الاسباب الحامية منهم مع كثرتهم وشدة عداوتهم

واتفاقهم الا الاعتماد على أمر الله له بالهجرة ووعده له بابلاغه الى المأمن وانتصار الدين وظهوره فلما سافر واختفى فى الغار مع صاحبه (الصديق رضى الله عنه) وخرجت قريش فى تطلبهم ووصلوا الى الغار ولم يكن لهم مانع ما عن تفتيشه والدخول اليه مع شدة حرصهم على ذلك كان (سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه) خائفا فزعا يدعو الله (والرسول عليه الصلاة والسلام) مطمئن يقول له ما أخبر الله به لا تحزن ان الله معنا وفى غزوة بدر لما أعد (الرسول صلى الله عليه وسلم) العدد والعدو وهيأ أسباب القتال والتقى الجمعان للطعان كان (الرسول صلى الله عليه وسلم) يدعو الله بالحاح حتى قال لان تهلك هاته العصابة فلن تعبد بعدها فى الارض أو كما قال وكان (الصديق رضى الله عنه) يقول له لا تحزن ان الله منجز لك ما وعدك من النصر ولا شك ان (النبى صلى الله عليه وسلم) أكمل حالا من جميع الخلق فكيف اختلف حاله فى الواقعتين مع ان ظاهر الامر فيهما مع (صديقه رضى الله عنه) فالوجه يتبين مما قرره الشعرانى فى القاعدة المارذكرها وهو ان حال الغار ليس فيه مجال للاسباب لفقدانها فليس هناك الا التوكل البحت ولذلك كان (صلى الله عليه وسلم) مطمئنا لانه أكمل توكلا واما حالة الغزوة فهى حالة الاخذ فى الاسباب ثم التوكل معها ولا يسوغ التوكل البحت ولذلك كان (صلى الله عليه وسلم) مجتهدا فى الدعاء لتكون الاسباب ناجحة وليس للامة الا اتباع الرسول فالعمل بالاسباب عند وجودها مع التوكل على الله فى نجاحها هو المشروع ولا يشكل على هذا ما ينقل عن كثير من الصالحين من تركهم للاسباب وخرق العادة اليهم لانه مندفع بما قرره أبو اسحاق الشاطبى فى الموافقات من ان هؤلاء وان خرقت لهم العادة لكنهم لم يخرجوا عن الاسباب لان خرق العادة من الاسباب الخفية واستشهد لذلك بأدلة تشفى الغليل ويبينه ما وقع من العارف الربانى الامام فى علم الباطن والظاهر سيدى (عبد العزيز المهدوى) شيخ مظهر العلم (سيدى محى الدين ابن العربى) الحاتمى الذى ألف لاجله الفتوحات المكية ويخاطبه فى رسائله بقوله يا ولى فانه قد ذكر عنه أن أحد الصالحين كان مارا بطريق فوقع فى جب فمر بعض السابلة على ذلك الطريق ورأوا الجب فقالوا ان هذا الجب يضر بالسابلة لوقوعه فى الطريق فاندفع أذاه بوضع هذا الصخر العظيم على فمه وسده ففعلوا من غير ان يعلموا بالصالح الواقع فيه وخطر هو بباله ان يعلمهم ثم قال لا ألتجئ الى مخلوق والله أعلم بحالى وبعد مامر السابلة جاء سبع وحفر فرجة من فم البئر ✲

وادلى

وأدلى ذنبه الى الرجل الصالح فقال ان هذا اذن من الله بنجاتى فمسك بذيل السبع وأخرجه السبع من البئر وذهب الى حال سبيله وسمع منادياً يقول قد نجيت من الهلاك بالهلاك وسئل الشيخ سيدى (عبد العزيز) كيف يصح هذا العمل من هذا الرجل الصالح والحال انه مخالف للشريعة لان (الله يقول ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) وعدم اعلامه هو للسابلة من باب الالقاء باليد فأجاب سيدى (عبد العزيز رضى الله عنه) بأن التكاليف الشرعية العملية هى ثانى رتبة من التكاليف الاعتقادية وذلك الرجل الصالح علم من نفسه ركونها للاسباب وعدم صحة توكلها فقهرها حتى يثبت صحة الاعتقاد الذى هو الدرجة الاولى فلهذا كان الرجل قد عمل بالشريعة بوضع درجات التكليف مواضعها هذا محصل كلامه (رضى الله عنه) وبه يعلم ان كل من ارتكب منهم مخالفة الاسباب لابد أن يكون له حامل خاص والا فهم (رضى الله عنهم) أشد محافظة على الشريعة فلا يغتر أحد بأن أعمالهم مخالفة لمشروعية الاسباب بل يحمل كل منهم على أمر خاص يليق بحاله وفقنا الله للاهتداء بهداهم

الباب * الثانى

﴿فى قطر تونس﴾

لما كان مسقط الرأس فى هاته البلاد وهى منبت الآباء ومستقر الاجداد ونحن بصدد التعريف والكلام على ماشاهدناه فى الاقطار على حسب مشاهدتنا لها فى التواريخ لزم بالضرورة تقديم الكلام على الوطن النابت حبه فى القلب النبات الحسن

فصل

﴿فى التعريف بالقطر التونسى﴾

اعلم ان موقعه على شواطئ افريقية الشرقية الشمالية على البحر الابيض ويحده البحر المذكور شمالا وشرقا وطرابلس الغرب فى بعض الحد الشرقى والصحراء الكبيرة جنوبا والجزائر غربا ويبتدئ شمالا من عرض سبع وثلاثين درجة وسبع عشرة دقيقة وعشرين ثانية هذا عند أعظم المرامى هناك وهى مدينة بنزرت ويمتد من هناك الى الجنوب الى ان يدخل فى الصحراء الكبيرة من غير تعين للحد وانما أشهر المدن جهة

الحد الجنوبي هي مدينة توزرو هي واقعة في عرض اربع وثلاثين درجة واحدى عشرة ثانية وعشرين دقيقة وهذا القطر طوله من الشمال الى الجنوب أكثر من عرضه من الشرق الى الغرب ممتد على ساحل البحر فيبتدئ من عرض درجة (٣٧) ودقيقة (١٩) وينتهي معموره الى درجة (٣٣) ودقيقة (١٠) ويبتدئ في الطول المؤسس على باريس من طول درجة (٩) ودقيقة (٢٢) الى نحو درجة (٥) ودقيقة (٥٠) وبه رأس داخل في البحر يسمى رأس ادار وهو أطول رأس في البحر الابيض و يتصل ببقية القارة بالمكان المسمى دخلة المعاوين كما ان بالقطر رؤس أخر وهي الرأس الابيض ورأس الزبيب الاثنان حول بنزرت ورأس سيدي على المكي ورأس جبل المنار ورأس المهدية ورأس كبودية ورأس الغدامسي و يتبع هذا القطر عدة جزر صغيرة أعظمها جزيرة جهة الحدود الجنوبية ثم قرقنة وهي امام صفاقس ثم جزيرة الكلاب والجوامير وجالطه وغيرها وبه خمسة اجوان كبيرة أحدها جون سيدي ابي سعيد وهو بقرب الحاضرة وجون قابس جهة الجنوب وجون الحمامات وجون بنزرت وجون رواد وبه ثلاث بحيرات أولها بحيرة الحاضرة وثانيها بحيرة المرزوقة عند بنزرت وثالثها بحيرة الكلبية بين القيروان والساحل (وأما الانهر) فليس به الانهر واحد وهو مجرده ومنبعه من ولاية قسنطينة التابعة للجزائر و يحدر من هنالك مشرقا مع زيادة تعاظمه بالجداول التي تصب فيه الى ان يخترق القطر التونسي مارا من الغرب الى الشرق في الجهة الشمالية من القطر وتزداد مياهه أيضا بما يصب فيه من الجداول الى ان يصب في البحر في جون رواد من شماليه قرب غار الملح وهذا النهر وان لم يكن سواه في هذا القطر فهو لا يحمل الا القوارب الصغيرة في الصيف واما في الشتاء فيمكن انه يحمل القوارب الكبيرة لا السفن واذا تكاثرت الامطار فانه يفيض و يطفو على أراضي وسيعة وربما حصلت منه بعض أضرار واما الجداول فهي ليست بكثيرة جدا ولكنها خارقة لاغلب الجهات ومنها ما يجري دواما ومنها ما يجري عند هطول الامطار ومن أشهرها نه الجداول وادملاق ومنبعه من جبال برقو من الجهة الجنوبية و يخترق وطن رياح ثم يحدر الى ان يصب في البحر في رادس بعد عن الحاضرة عشرة أميال وكثيرا ما يمنع المارة عن عبوره عند كثرة الامطار وتارة يفيض لكن لا يحصل منه ضرر لمن يجاوره غير انه يضر عن يكون فيه من الرعاة والمارين حيث ان فيضانه يأتي دفعيا وجريان مائه سريعا لكثرة انحداره واما العيون فليست كثيرة في عموم القطر لكنها تكثر جدا في الجهة

الشمالية

الشمالية فى جبال ماطر وجبال طبرقة وجبال باجة وفى الكاف عين عظيمة جدا كثيرة ماء وعذوبة وبرودة حتى تقع المخاطرة فى الصيف لمن يقتدر ان يرفع شيأ من قعر الماء الجارى عند منبعه ثم تنحدر من الجبل وتسيح فى البساط مهملة وكذلك فى اسبيطلة عين عظيمة وفى زغوان وجقار عيون كثيرة وبعضها وهو أكبرها مجلوب الى تونس الآن فى قنوات من حديد مع آثار القنوات القديمة التى كان جاب فيها الرومان الماء من هنالك الى قرطاجنة وكذلك فى الجريد عيون غزيرة عذبة الماء وحارة كما يوجد بالقطر مياه كثيرة معدنية أشهرها ماء حمام الانف النابع من جبل أبى قرنين وهو ماء حار عليه عدة حمامات والماء نابع من عدة عيون أحسنها عين حمام العريان ثم عين الحمام الكبير وله نفع عظيم لعدة امراض قد افردت منافعه وكيفية استعماله برسالة خاصة للحكيم الكبر وترجها ونقحها العلامة بيرم الاول قدس ثراه وهذا الحمام يبعد عن الحاضرة خمسة عشر ميلا جهة الجنوب الشرقى مطل على شاطئ البحر جامع للنزهة والنفع والتأنس حيث كان على الطريق العام الموصل الى الساحل وغيره من أكبر جهات القطر ودرجة حرارة مائه من (٤٨) الى (٤٩) من ترموميترصانتى غرام الذى هو ميزان للحرارة الذى سفره من الجمد والمائة درجة هى درجة غليان الماء وكل ليترة منه تزن ألف غرام وعشرة غرمات وسبعة صانتى غرام ومعتاد الماء المطلق المقطر يزن ألف غرام والغرام هو نوع من مقادير الموازين كل ثلاثين غراما بأوقية وتفصيل الاجزاء التى فى هذا الماء من المعادن هو ما يأتى بيانه

صانتى غرام	غرام	
٠٠	٠٢٨	ففى كل ألف غرام من الماء المذكور حامض فحم الجير
٠٠	٠١٢	حامض المانيزيا
٠٠	٠٠٠	حامض الحديد قليل
٥٢	٠٠١	الجبس
١١	٠٠٠	ملح دسود
١١	٠٠٠	ملح بوتاس
٧٥	٠٠٩	مانيزيا كلولورد يسوديوم
٩٠	٠٠١	كلولورد كالسيوم
٥٥	٠٠٠	كلولورد مانيزيوم

٠٧ ... كاولو رديه د تاسيوم

٠٧ ... آسيد سيليسيك أى طين البلور

وفى كل كيلو (٢٢٠) صانتى ميتر ومربع من الحامض الفحمى وفيه (٢) ميلغرام من برومور ومانيزيا واصطلاح هاته الاعداد معلوم فى الحساب وكذلك يوجد فيه حمام قربص البعيد عن الحمام السابق بحوار بعين ميلا فى الجهة الشرقية الجنوبية منه وهوأ كثرعيونا وأشد حرارة وله نفع عظيم فى كثير من الامراض العصبية وأمراض المواد الطبية ومن غريب خواصه انه اذا وضعت دجاجة فى مجرى الماء قرب منبعه نحو بضع دقايق يزول ريشها بتمامه بل ان بعضا من الاهالى يضع قدرة للطعام هنالك فيطبخ اللحم أحسن طبخ وهكذا غيره الابيض الدجاج فمع شدة تلك الحرارة ومع سهولة طبخ البيض فانه لا ينضج ولو أبقى هنالك يوما تاما هكذا يروى عن كثير واجزاؤه تقرب من أجزاء ماء حمام الانف وكذلك يوجد قرب رأس الجبل من وطن بن زرت حمام معد فى غيرانه لا يستعمل الا عند بعض البوادى وأهل القرى هنالك ولا شهرة له مع انه كثير المنافع وكذلك يوجد فى الفيضة مياه معدنية نافعة للشرب والاستحمام وهى مهجورة كغيرها من منابع الثروة والتقدم واما جبال هذا القطر فتتصل به سلسلة جبال أطلس التى تبتدئ من عرض (٢٨) درجه وتنتهى فى عرض (٣٧) فى مملكة المغرب وأعلى رأوسها بين فاس ومراكش وارتفاعه على سطح البحر ثلاثة عشر ألف قدم ومائة قدم وفى اختراقها القطر التونسى عدة فروع أشهرها جبال مطماطه وجبل طبرقة وجبل الرقبة وجبل زغوان وهو أعلاها وجبل الرصاص وجبل أبي قرنين ومناخ هاته الجبال هى الجهة الشمالية والغربية الشمالية ثم لا تزال تنخفض وتضيق عند توجهها للجنوب مارة بقرب سواحل البحر الى ان تتصل بجبال الودارنه من عمل الاعراض وعدى هاته لا يوجد جهة الجنوب الاربا لا اعتبار لها وليس منها جبل بلكانى الاجبل أبي قرنين فان الآثار دالة على انه كان فى الاصل بلكان حيث يوجد فى قنتها العليا فوهة مسدودة الآن مع منابع الماء الحار المتدفقة منه ومع الانفجار البليغ الكائن فى أحد رؤسه التى بقرب البحر فى الجهة الشمالية منه المعروفة بضربة السيف الحادث ذلك الانفجار الهائل بسبب الزلزال الشديد الذى هو من علايق البلكانية وقد علمنا ما ان فى الحد الجنوبى (الصحراء) الكبيرة وقد قال قوم انها كانت بحرا متصلة بالبحر الابيض بخليج من شطوط قابس ومما يستدلون به الارض السواخة التى بين الشاطئ المذكور

والصحراء

والصحراء ورام فردينانددليسبس الرجل الشهير باعمال خليج السويس ان يحفر خليج قابس لكي يصير البحر في وسط افريقية وحققوا أن سطح البحر أعلا من سطح الصحراء بما يحمل السفن الكبيرة وأن البحر يمتد هنالك الى طول نحو ثلاثمائة ميل ورأى قوم امتناع ذلك ولكن المريد أشتغل الآن بخليج بنما في أمريكا فترك الكلام والعمل في بحر الصحراء (وأما) معادن هذا القطر فهي لم تزل في حجب الترك ولاشك أنها غنية نافعة والمحقق منها الآن المعروف هو الرصاص والفضة في كل من جبل الرصاص ودجبة وأولهما كان مستعملا بكثرة وآثار خدمة الرومان له العظيمة لازالت الى الآن واستخراج المعدن منه لا يحتاج الكبير معالجة حتى ان الاعراب تأخذ منه ما تريد ولهذا صار اسم المعدن عنوانا على الجبل وقد منح في وزارة مصطفى خزنه دار الى احد الطليان ثم انتقلت منحته الى لجنة طليانية ولم تزل بأيديهم الى الآن من غير حصول فائدة لهم ولا للبلاد وثانيهما الآن بيد لجنة فرنساوية هي صاحبة امتياز طريق الحديد والظاهر من اعمالها السريعة الجدة أنها تستخدمه عن قرب وان كانت الى الآن لم تحدث فيه شيئا كما يوجد المعدنان المذكوران في جهات أخر من جبل الرقبة وكذلك قرب اسبيطله كما يوجد قرب هاته معدن من الذهب وفي وطن أولاد عون يوجد القزدير والزيبق و يوجد الحديد في الجبل الاحمر قرب باردو وفي دجبة وهو غني سهل الاستخراج في كليهما كما يوجد السيمان في الجبل الأحمر وهو غني سهل و يوجد فيه الفحم الحجري أيضا كما يوجد معدن المرمر الرفيع الاحمر والاخضر الذي كانت تستعمله الرومان والقرطاجنيز في هياكلهم الشهيرة وهو قرب طبربة وآثار استخراج الاقدمين موجودة تعدها البوادي غيران تأوي اليها كما يوجد الرخام الاسود في جبل أشكل من وطن ماطر و يوجد الكذال الرفيع الصلب في جبل أبي قرنين وهو مستعمل الى الآن و يسمى محله مقطع الحجر وكذلك في الجبل الاحمر الجبس كما يوجد الملح في سباخ عديدة أشهرها سبخة سكره قرب الحاضرة وفي عشرة الثمانين والمائتين والف أرسلت دولة فرانسا أحد علماء الطبيعيات بطلب من الحكومة التونسية وطاف في جميع القطر بتدقيق وكتب ما يشتمل عليه من المعادن ومقدار درجتها وأماكنها لكن بعض تلك التقارير لم تصل للحكومة التونسية الى الآن (وأما أراضي) هذا القطر فهي خصبة جدا تبعا لماء السماء وكأنها لكثرة خصبها واشتمالها على اكمل الصفات الجيدة خصت باسم أفريقية من باب اطلاق العام على الخاص لمزية فيه حتى صار كأنه هو الجميع أو ان أصل الاسم خاص

بهذا القطر ثم سمى به جميع ما اتصل به من القارة ويؤيده تسمية الجهة الاكثر خصبا منه بخصوص هذا الاسم وهى الجهة الشمالية الشاملة لماطر وباجة وما بينهما فانها الى الآن تسمى على لسان العام والخاص بافريقية غير انهم يبدلون القاف كافا مفخمة وينقسم القطر الى ثلاثة اقسام باعتبار الخصب فالجهة الشمالية التى هى أكثر جبالا هى الاكثر خصبا على مرور السنين فالمزارعون هنالك لا تكاد تجد سنة لا يربحون فيها من مزروعاتهم ولا أقل انهم لا يخسرون شيأ وعلى الخصوص فى هذا جهة جبال ماطر كما ان الخصب فى هاته الجهات لا يتجاوز الحدود المتعارفة فى الربح وأما القسم الثانى فهو الجهة الوسطى من القطر والجهة الشرقية من الجنوب على قرب من البحر وذلك كالساحل والقيروان والاعراض وصفاقس وخصب هذا القسم باعتبار السنين ومافيها من المطر قلة وكثرة وحيث كان نزول المطر فى تلك الجهات قليلا فكذلك الخصب قليل ففى العشر سنين مثلا يحصل عندهم الخصب مرة أو مرتين لكنه خصب خارق للعادة ويكاد السامع أن لا يصدق به لولا ما شهد به العيان وتواتر النقل فيه حتى بلغ حد القطع فان رجلا زرع فى أراضى الساحل التابعة لبلد سوسه ربع قفيز قمحا فحصل مائة قفيز وخمسة عشر قفيزا وبلوغ هاته الدرجة قليل والكثير أن من يزرع قفيزا يأخذ من الستة عشر قفيزا الى الخمسة والثلاثين قفيزا وقد حكى الوزير أبو محمد خير الدين باشا عندما كان وزيرا بتونس الى نائب احدى الدول ما يحصل بتلك الجهة من عظم الخصب وان الامير أحمد باشا كان أتى فى أحد أسفاره بجذر من شعيرة واحدة أنبتت ستمائة سنبلة وأزيد فظهر على وجه النائب استبعاد الحقيقة وسكت الوزير اذ ذاك ثم أرسل الى عامل القيروان وجلاص بأن يبحث عند استواء الزرع على أعظم جذر وأكثره سنابل فأرسل اليه صندوقين عظيمين بكل واحد منهما جذر واحد فاستدعى الوزير ذلك النائب ومعه طائفة من الاعيان وأراهم الجذور فاعتنوا بأنفسهم بالبحث عن المنبت ووجدوا أصله شعيرة واحدة وعدوا كم تفرع فى أحدها فتجاوز وافى العد الاربعمائة والخمسين وبقى نحو الثلث بلا عد وقالوا يكفى الذى تحصل منه هذا العدد فله ان يتجاوز حتى الالف ويعظم طول السنبل أيضا حتى يحجب الفارس بفرسه اذا مر فيه والعادة عند فلاحة تلك الجهات ان يزرعوا حبات الشعير كزرع الشجر اعنى يتركون بين الشعيرة والشعيرة مسافة وسيعة وأما بقية السنين فاما ان يخسروا رأس المال أو بعضه أو يحصل لهم ربح يسير وذلك لقلة نزول الامطار

بتلك الجهات لخلوها عن الجبال المرتفعة والاشجار الطويلة وأراضى هذا القسم يلزمها البذر القليل بالنسبة للقسم الاول فالمقدار من الارض الذى يبذر فيه قفيز فى القسم الاول يبذر فيه فى هذا القسم الربع وأقل وأما القسم الثالث فهو غير صالح لزرع الحبوب بالمرة وهو الجهة الجنوبية المسماة بالجريد لانها أراضى متسعة من الرمل وقريبة الى الصحراء الكبيرة ولا تصب فيها المطر الانادرا واذا صبت أضرت بأهلها الان نباتهم أكثره النخيل والمطر تضر بثمره العجيب (وأما نبات) هذا القطر فأغلب زراعة أهله فى القسم الشمالى والاوسط هى الحبوب من القمح والشعير وأقل منها الذرة والفول والدرع والجلجلان والحبة الحلوى والكروية والبسباس والتابل والحبة السوداء والكتان والقطن واللوبياء والبطاطس والحمص والعدس ولكثرة خصب هذه الاشياء كان هذا القطر يسمى بمخزن حبوب رومة ويزرعون من البقول الطماطم والبصل والساق والكرنب والبروكلو والقناوية أى البامية والملوخية والفلفل الاخضر والاحمر والمعدنوس والسفناخ والكرضون والدبا بأنواعها والجماء والشبت والثوم والخس والكوريا والبراصا والفجل والسماق والكلافس والفراولو والبطيخ الاحمر والاخضر والقثاء واللفت والكسبراو بونويش والاطفاليما وفيه أنوار برية عجيبة الرائحة والمنظر لايحيط بها الاخالقها ومنها القحوان والبابونج والاتاى وهو غير مستعمل وفيه من الازهار المستنبتة زهر البنفسج وينبت بنفسه أيضا فى زغوان وغيره من أماكن المياه الكثيرة وهكذا الورد والياسمين بأنواعهما والفل والقرنفل على أنواع شتى وغير ذلك من الزهور الطيبة الزكية بحيث تكون جبال هذا القطر وأوديته وبساتينه أيام الربيع وأواخر الشتاء وأوائل الصيف روضة نضرة بالوان النبات المخضرة به الارض وأنواع الزهور والنور المختلف الاشكال والروائح ومما ينبت بنفسه القرنين الخارج من الخرشف الذى يقال انه الجزر والكوم وينبت فيه جميع النباتات من الكلأ البرى ومن أحسنه لغذاء الحيوانات النجم وفى الجهات الشمالية (آجام وغياض) وغابات عظيمة غنية وأشهرها غابة طبرقة يستخرج منها الاخشاب لبناء السفن والخفاف وأعواد السقوف من الطرفا وغيرها مع المتانة والدوام والعجب انها مع كثرتها فتجارة الاخشاب المجلوبة من أوروبا رائجة فى أغلب حواضر القطر وتلك الغابات أشجار عظيمة جدا ذكرلى ثقة انه رأى فى غابة طبرقة شجرة من الزيتون أحاط بساقها ستة عشر رجلا كل منهم فاتح يديه لغاية

ليمسك صاحبه وأشجار تلك الغابات هي الذرو والصفصاف والبلوط والبندق والقسطل والزان والفرنان ومنه يستخرج الخفاف وقشره لدبغ الجلود وفيه تجارة رائجة وشجر الذيم والدردار والعرعار وغيرها من غير ذات الثمر (كما يوجد فيها) ذات الثمر نحو الجوز ولأخشابه سوق نافعة كالعرعار وقه أيضا فانهم يأخذون قشرها ويستعملونه للصبغ وغيره وأكثر هذا في جبل زغوان وكل تلك الاشجار والغابات نابتة بنفسها من غير حراسة الا الحفظ طبرقة من جهة الجرلان للحكومة معلوما على الخفاف وهي مختصة بأخشاب السفن كما هو معلوم على نوع من قشر الفرنان المستعمل للدبغ وبقية المنافع مكنوزة أرضائعة ويستنبت في جميع جهات القطر شجرة الزيتون المباركة الا في الجهة الضاربة للجنوب وكيفية غراسته على أنواع فمنها ان يؤخذ قطعة من الفروع الغضة بأوراقها وفروعها فتغرس وتبقى الفروع ظاهرة ويسمى الشطبة وهو أردؤها ومنها ان يقطع من فروع الشجرة ما بلغ ولم يجف ويقطع في طول ذراع ثم يحفر اليه عمق ذراعين في طولهما وعرضهما وتلقى تلك القطعة المسماة بالقنوط هناك ممتدة مع خلط التراب الذي تردم به بالسرقين وهو المسمى عندهم بالغبار ومنها ما يؤخذ من قاعدة الشجرة الجافة عندبد واللقاح منها ويقطع بآلة من حديد مكركبا حيث ان أصل خلقته في القاعدة كذلك الى أن يبقى ماسكا للاصل شئ قليل فيجذب باليد لكي ينسلخ من القشر سالما ويغرس على النحو السابق ويسمى السلعة ومنها ان يزرع النوى وبعد كبر شجرها تلقح من شجرة الزيتون لان النابت من النوى يخرج ثمره رديا لا زيت فيه وهو المسمى بالجبوز ويوجد من هذا النوع غابات كثيرة مهملة في الجبال وغيرها وأعظمها ما بين اسبيطله والقيروان ومنها ما يزرع من القنوط المذكور لكن ليس كل شجرة منفردة من أول الامر بل يزرع عدد كثير منها في مكان مخصوص متقارب لبعضه ويسمى بالمشتلة وبعد ثلاث سنين من نباته تنقل كل شجرة لمحلها وهذا الصنف هو الاكثر استعمالا وللأهالي اعتناء باتقانه وتنميته وسقيه والاغلب في هاته الشجرة ان تستنبت من غير سقي الا في السنين الاولى فاذا ثبتت عروقها ترك سقيها الاعتنا بأتيهما من ماء المطر ولثمرها أنواع كثيرة مختلفة في الطعم والزيت كثرة وقلة والاغلب هو النوع الاسود الصغير الحجم وهو العام ويختلف زيته بالنظر للكثرة والحسن على حسب الارض التي يزرع بها فما يزرع في الجبال والاراضي الكثيرة الحجارة يكون أكثر زيتا وأحسن زيوت هذا القطر زيت زيتون بلد قفصة وبلد توزر فانه ألذ طعما وأنقى لونا كأنه ماء

لايكاد يبدو من الزجاجة اذا وضع فيها ومن أنواع الزيتون الحسنة الطعم النوع المسمى بالمرساين وهو أخضر متوسط الحجم مائل الى الطول دقيق النوى ويتقن صنعه أهل زغوان بالنارنج وأهل الحاضرة بذلك أيضا وبالليمون والفلفل الاحمر والاخضر ومثله النوع المسمى بالطازلا الكبير الحجم جدا الاسود اللون ومن أنواعه الحسان المسمى بالمسكى وهو مكركب مائل الى البياض بخضرة وبقية أنواع الاشجار المستنبتة فيها البردقال أى النارنج الغير المر وفيه أنواع وهى الطرابلسى والمالطى والجبالى وأغرب نوع لم أره فى غير هذا القطر مع البحث عنه البردقال المسكى وهو لاحموضة فيه أصلا بل فيه حلاوة زائدة كأنه مخلوط بسكر أو عسل ومنها النارنج والليم الحلو والليمون الحامض وفيه أنواع منها ما يبقى فى جميع الفصول الاربعة والكمثرى وفيها أنواع لكل زمن من فصول السنة نوع وقد نقل من أوروبا أنواع تعظم كثيرا وعنى بتربيتها بعضهم فأنجبت فى السنين الاولى ثم أخذت فى التراجع والتفاح مثل ذلك والمشمش ومنه نوع يسمى بالشاشى صغير مبيض منقط بحمرة أو سواد لم أر مثله فيما رأيت من الاقاليم طعما ونكهة والاجاص بأنواع كثيرة منه الاحمر والاسود والابيض والاخضر والمكركب والمستطيل والصغير والكبير ويسمى بالعوينة وأحسنه المسكى وهو صغير مستطيل واللوز والعنب والتين والخوخ والهندى أى التين الهندى وهو نوع يخرج من شجرة لها شوك كثير ولا ساق لها وورقها أمثال أظلاف الابل له شوك كثير ويسمى فى المشرق بالصبارة ويستعمل بكثرة سياجا على البساتين وهو مرغوب فيه فى هذا القطر لتعيش أقوام مثل جلاص وتفكه الآخرين ولو من أهل المدن لطيب نكهته وطعمه مع قلة ضرره الا اذا كثر أكله على جوع فانه قابض جدا ربما قتل بذلك ومن طبيعته انه يكثر فى سنين الجدب أى فى العام الذى تقل فيه الامطار ولذلك صار الهندى أهم النبات النافع للفقراء كما يستنبت فى هذا الاقليم التبغ أى ورق التدخين والنشوق فاما ورق التدخين ففيه الجيد ولكنه لايبلغ الى أعلى نوع منه واما ورق النشوق فانه أعلى من جميع أنواع ما يزرع منه فى غير هذا القطر سيما ما يزرع منه فى جهة باجة وتبرسق وقربة وعادة دقه فى هذا القطر انه يدق ناعما للغاية وقد كانت فيه أرباح للقطر بكثرة خروجه منه والآن صار يجلب اليه كثير من الخارج لتحجير الحكومة زرعه باطلاق حيث كان لها عليه آداء وافر وينبت أيضا الجوز والسفرجل والعناب والزعرور والرمان وبوصاع والموز والنخيل غير انه فى غير الجريد لا يثمر الا ثلاثة أنواع

وهى البسر الاخضر والاصفر والرطب واما فى الجريد فله أنواع عدها بعضهم ثمانين
نوعا واختص على جميع ما علمنا من الاقاليم رؤية وسماعا بالنوع المسمى بالدقلة الذى
لا نظير له حلاوة ولذة طعم ويحمل منه لسائر المعمور رغبة فيه الى غير ذلك من سائر نباتات
الاقاليم المعتدلة لاسيما الجبال الشمالية الكثيرة المياه فانها يوجد بها حتى بعض
نباتات الاقاليم الباردة وهى على مر الايام نضرة خضرة بما كساها الله من جمال النبات
والخصب (واما هواء) هذا القطر فهو معتدل الاغلب والجهة الجنوبية يغلب فيها
الحر واذا هب الريح الجنوبى على أى جهة وفى أى وقت يحصل منه الحر لاسيما فى
الصيف فأنه يؤذى بحره حتى بعض الثمار والاشجار وفى غير ذلك الاعتدال هو الغالب
و يشتد البرد فى الشتاء لكن لا يصل الى انجماد الماء أو نزول الثلج الا نادرا نعم فى جبال
الشمال المرتفعة يحصل الجمد فى كل سنة بل يبقى الثلج فى بعضها ولو فى الصيف لكنه
قليل واغلب جهات القطر سليمة الهواء موافقة للصحة وفيه جهات حسنة الهواء جدا
نافعة للمرضى ولو بمرض السل الذى أحسن علاجاته الهواء لان مجانسه الرئة فمن هاته
الجهات الحسنة المشهورة المكان المعروف برأس الجبل وهو جهة الشمال من القطر
بقرب شاطئ البحر تبعد القرية التى هى مركزه على البحر نحو أربعة اميال والبحر من
شمالها وهو على سفح جبل منخفض مرمل تحف به بساتين ناضرة الى البحر تسقى بآبار ذات
ماء حلو جيد نقى وعلى شاطئ البحر عين عذبة ضعيفة الجريان لكنها نابعة من الصخر حلوة
جدا نقية مسرعة للهضم كثيرا بحيث يصير الشارب منها يأكل أكثر من عادته وكذلك
من الاماكن الشهيرة بحسن الماء والهواء بلد نابل التى هى قاعدة الوطن القبلى وهى
على مبتدئ الرأس الطويل رأس ادار عند اتصاله بالقارة تبعد على البحر نحو ميل وهو
من شرقيها الجنوبى وهى فى وهاد مرمل وراءها جبل وامامها بحر وتحدق بها البساتين
والجنان بأنواع الليمون والبردقال وغيرهما من الفواكه وأحسن من هذين المكانين
هواء الجبل المعروف بالانصارين يبعد على الحاضرة نحو ستين ميلا جهة الشمال مع بعده
عن البحر فان هواءه لارتفاعه يغلب عليه البرد وفى أعاليه مسارح ومزارع متسعة وعيون
دافقة وآجام وغياض نضرة لا يركد فيها الماء بل ينحدر الى أسفل والشاهد على ان هذا
المكان أحسن هواء من جميع جهات القطر أن أهله لم يصبهم كثير من الامراض الوبائية
مع ان كل تلك الامراض عمت القطر التونسى عدة مرار ولم يعلم ان احدا من أهل ذلك
المكان أصيب بشئ من ذلك بل ان الوافد اليه يسلم عند الحلول به وسبحان من خص

ما

ماشاء ما شاء غير أن هذا المكان به عاهة صعباء هى كثرة الحيات المؤذية به والله لطيف كما يوجد بالقطر جهات وخمة رديئة الهواء فأولها انفرة من عمل الجريد وثانيها باجة قاعدة العمل المسمى بها فيغلب على أهاليها الامراض وترى وجوههم صفرا والوافدون عليهم فى أقل زمن يمرضون لاسيما فى الصيف وأما غيرما تقدم فالهواء معتدل سليم

(وأما حيوانات) هذا القطر ففيه أغلب حيوانات أقاليم الاعتدال أنيسة ووحشية فمن الوحشية الاسد وأغلبه فى الجهة الغربية ويضرب المثل بجرءة أسد عرار من أقسام تلك الجهة والنمر فى كل الآجام القليلة العمران والضبع والذئب والثعلب والفهد والنمس وهو النسناس والخنزير وبقر الوحش والغزال والارنب والذربال والقنفذ ذو الوعل والورل والجرذ على أنواع والبقر الجاموس كان جلب وسرح فى جبال ماطر وجبل أشكل الذي تحيط به بحيرة أشكل وهى حلوى فتناسل هنالك وتكاثر وهو على ملك الحكومة وتوحش بحيث صار اذا احتيج الى شئ منه يلزم صيده حيا وقد تأخذ منه الحكومة أو بعض رجالها لجر الاثقال واللبن وقد قل فى هاته المدة لكثرة صيد الولاة وعدم حراسته حقيقة ويوجد فى القطر (من الحشرات) الثعبان ولاسيما فى جبال الودارنة فانه يعظم جدا لكنه غير ضر هنالك بحيث يكون مساكنهم كأنه من الحيوانات الاليفة كالقط وأشباهه وهم لا يؤذونه وهو لا يضر ولا ينضر منهم ويبلغ طول الواحد الى ثمانية أذرع وغلظه أزيد من شبرين وأما فى جهات الجريد والصحراء فهنالك أنواع من الثعبان مضرة ومنه نوع يسمى بالزريق رقيق قوى جدا اذا قصد شيأ يطفر عليه فيخرقه كالسهم وكذلك الحيات القتالة وتوجد بكثرة فى الشبيكا وتامغزا من الجريد والعقارب فى الجهات غير ان كثرتها الفادحة فى الجريد وهى مؤذية ولاسيما فى القيروان وفى بعض الجهات لا أذية منها كما فى باردو ومقر الامراء بل لا تكاد توجد هنالك وفى جبل المنار توجد بكثرة صغيرة الجرم لا أذية منها وكذلك يوجد العنكبوت وتارة يعظم الى ان يصير فى حجم العصفور الصغير وهو قليل الاذية وكذلك يوجد النمل على انواع شتى وكثيرا ما يضر بالزرع من القمح والشعير وكذلك الجراد يأتى فى بعض السنين ويدمر بالنبات جميعا اذا كان كثيرا والخنفس على أنواع شتى والوزغ والحرباء وغير ذلك مما هو قابل الوجود فى هذا القطر (وأما الحيوانات) الانيسة فيوجد منها الخيل ومنها الجياد العتيقة العراب وأكثر الوانها الازرق أى الشهب المشوبة بالسواد وبقية الالوان كالحمر والكميت والدهم والشهب موجودة أيضا بكثرة غير انها أقل من الاول ويوجد بقلة

البلق والصفر وهذا الجنس يستعمل للركوب وجر العجلات بانواعها والحرث ومثله البغال وأما الحمير فهى موجودة بكثرة لكنها لا تستعمل لركوب أهالى المدن وأعيان القبائل بل عادتهم الاستحياء من ركوبها وانما تركب من عامة الاعراب والسوقة وتستعمل للحمل ومثل ذلك الابل فلا تركب الا كما تقدم فى الحمير وكذلك يوجد البقر والضأن والمعز والكلاب على أنواع ومنها السلوقية والقط (وأما الطيور) فى هذا القطر فمنها الانيسة وهى الدجاج على أنواع والاوز والبط والدجاج الهندى وهذا النوع اختلفت أسماؤه فترى كل اقليم ينسبه الى جهة ففى تونس قد رأيت نسبته وفى غيرها بعض يقول رومى وآخرون فارسى وآخرون صينى الخ وكذلك يوجد الحمام على أنواع شتى وغير هذه الاجناس يجلب بقلة مشغلة للترف وأما الوحشية فمنها المقيم ومنها الرحالة فأما المقيم فمنه البزويش أى عصفور البيوت وهذا النوع لا تكاد تخلو منه بلاد وان اختلفت بشدة الحر والبرد فقد رأيته فى لندره كما رأيته فى مكة المشرفة لا فرق بين ذا وذا سوى تأثير فى اللون ففى البلاد الباردة يميل لونه الى السواد وفى البلاد الحارة يميل لونه الى البياض ومنه القنابر والزريص والحمام والحجل والمقنين والشبروش ودجاج الحرث والغر والنسر والعقاب والفاس والبرنى والعصفور الكانالوغيرانه برى والزراعة وبورأس والغراب وغراب الزرع والفاخت وخادم الحجل والطوطو والمرل وأما الرحالة فمنها الاوز والبط والزرزوق والكركى والدراج والسمان والبلبل والمنيار والبيبط والزرزور والابابيل والخطاف والهدهد (وأما مدن) هذا القطر فقاعدته تونس وهى فى عرض ست وثلاثين درجة وست وأربعين دقيقة وثمان وأربعين ثانية شمالا وطول تسع درجات شرقا من باريس بقرب من ساحل البحر الابيض على جون سيدى أبى سعيد على تسعة أميال منه يفصل بينهما بحيرة ملحة لها منفذان الى البحر تمر بهما القوارب احدهما يمر فى حلق الوادى والثانى بينه وبين رادس والبحيرة قليلة العمق بها جزيرة تسمى شكلى بها حصن قديم وعلى شاطئها على حافة البلاد مرسى للقوارب الحاملة للبضائع والركاب بين القاعدة ومرسى حلق الوادى ويتصل بهاته المرسى أى مرسى البحيرة بالحاضرة فرع من طريق الحديد الغربية ويقال انه عقدت مع لجنة فرنساوية تسمى لجنة بون كالمه وهى صاحبة امتياز طريق الحديد الغربية شروط فى جعل تلك المرسى مؤمنة للسفن ويلزم لذلك حفر البحيرة وغير ذلك من الاعمال وهاته القاعدة هى اكثر طولا من الشمال الى الجنوب من العرض ويحيط بها سور

الامن جهة الشرق فان حدها هنالك هو البحيرة المذكورة كما أن السور ابتدئ فيه من جهة الجنوب ولم يتم ما بين باب الفلة وباب القرجاني وفى السور تسعة أبواب أولها فى قرب نهاية السور عند اتصاله بالبحيرة من جهة الشرق الشمالى ويفتح الباب الى الشمال ويسمى باب الخضراء ثم يليه (باب) ابن عبد السلام ثم باب سعدون ثم باب حومة العلوج ثم باب سيدى عبد الله ثم باب سيدى قاسم ثم باب القرجاني ثم باب الفلة ثم باب علي وه وهو فى نهاية السور من جهة الجنوب الشرقى عند اتصاله بالبحيرة أيضا ولهاته القاعدة حصون على كل باب الا باب حومة العلوج وفى خلال السور حصون أخرى كحصن القصبة وهو أكبرها وموقعه على أعلا ربوة فى البلاد لان البلاد جاءت فى سفح ربوتين متصاعدة فيهما أحداهما ربوة القصبة والثانية ربوة القرجاني ومن الحصون حصن درب بن عبال وحصن سيدى يحيى وخارجها أيضا بقرب منها حصون فمنها حصن الجلاز على أعلا رأس فى جبل الجلاز من جهة الجنوب للحاضرة ومنها حصن الرابط فى الجهة الشمالية الغربية فى الجبل الاخضر وبقربه حصن فليفل وحصن زوارة وامام حصن القصبة داخل المدينة بطحاء عظيمة وفى جهتها الجنوبية سراية المملكة التى بناها جوده باشا ولا زالت معتنى بها الى الآن وهى مقر الحكومة والوالى عند وفوده للحاضرة وفى جهتى الشرق والشمال من البطحاء سوق ذو حوانيت وامامها مظلات مرفوعة على أعمدة من الرخام وفى جهتها الغربية الحصن وبوسطها جنينة وفوارة للماء من ماء زغوان ويحيط بالمدينة فاصلا بينها وبين الربضين طريق متسع وأشهر الاماكن الرحيبة بالحاضرة بطحاء رمضان باى وبقربها مركز الضابطية وبطحاء الممر بربض باب الجزيرة وكذلك بطحاء المركاض امام القشلة الحسينية وبطحاء الحلفاوين بربض باب السويقة وبه أيضا بطحاء التبانين وبين الربضين بطحاء باب البحر وهى أنزه وأرحب الاماكن وحولها بناءات أنيقة وبوسطها جنينة وفوارة ويمر منها طريق عظيم متسع الى مرسى البحيرة وذلك المكان هو منتزه الاهالى فى عشايا الصيف لان حول الطريق العريض أشجار وقهاوى وملاهى وحول باب البحر وبقربه حارات الافرنج ويتصل بها حارات اليهود وماء زغوان مخترق لاغلب جهات البلد فى قنوات من حديد وأغلب الاسواق متصل بعضه ببعض وقد كانت كل صناعة لها سوق مخصوص لكن الآن وقع بعض تداخل ومناخ هاته الاسواق هو الجهة الغربية من المدينة حول جامع الزيتونة الذى هو بقرب القصبة المار ذكرها وجامع الزيتونة هو أول جامع بنى بالحاضرة

وكان تمامه سنة ١٤١ حسبما كتب ذلك على أقواس بيت الصلاة بالقوس المواجه لمحل المصحف فنقش عليه تاريخه لفظ ﴿ اتلم ﴾ وهذا الجامع هو أعظم جامع بالحاضرة وهو بركة أهلها ولا يخلو من رجل صالح وهو مناخ العلوم وتخرجت فيه فحول عظام قديما وحديثا وان كان أقدم منه في البناء جامع القصر لانه كان كنيسة قبل الفتح فصار جامعا وتشتمل الحاضرة على سبعة جوامع خطب للحنفية وأعظمها جامع محمد باي تجاه زاوية سيدي محرز بن خلف وبقية الجوامع والمساجد البالغة نحو ثلاثمائة كلها مالكية وأعظمها جامع الزيتونة وفي الحاضرة زوايا كثيرة منها ما به ضريح سادات من الصالحين كزاوية سيدي محرز بن خلف عماد البلدة رضي الله عنه وزاوية سيدي علي بن زياد من كبار أصحاب مالك بن أنس وزاوية سيدي أحمد بن عروس وزاوية سيدي منصور وغيرهم رضي الله عنهم وتبلغ أزيد من مائتي زاوية ✻ وسكان الحاضرة تقريب عددهم نحو مائة وخمسين ألف نسمة منهم نصارى وآفدون اتباع الدول الاجنبية نحو عشرين ألفا ويهود نحو أربعين ألفا والمسلمون ما بين أهالي أو جزائريين نحو تسعين ألفا وبقرب الحاضرة على نحو ثلاثة أميال من الغرب الشمالي بلدة باردو والتي هي مقر الحكومة وتشتمل على قصور للادارة ومساكن الوالي وقرابته وعلى جامع واحد وحمام ولها قاض خاص وحول الحاضرة الى مسيرة تسعة أميال وأقل بساتين وعمران وأحسنها المكان المسمى منوبة لاشتماله على قصور رجيلة في بساتين أنيقة وبها قرية حول زاوية الولية الصالحة السيدة عائشة المنوبية وهي في الجهة الغربية من الحاضرة على مسيرة تسعة أميال وفي الجهة الشمالية بساتين أريانة تضاهي السابقة مع حسن هوائها ثم في الجهة الشرقية بساتين مرسى قرطاجنة التي هي انزه وأبهى مكان حول الحاضرة تبعد عنها نحو سبعة عشر ميلا على شاطئ البحر الذي تحدث محاسنه شعراء القطر وقال أبو عبد الله الباجي المسعودي فيه عدة موشحات منها قوله

يا شاطئ المرسة السلام ✻ عليك يا نزهة العيون

وأشهر أماكنها العبدلية المشتملة على سوق وقصور أنيقة لولي العهد في الولاية الامير علي باي وفي الجنوب الشرقي من الحاضرة على بعد تسعة أميال مستقيما مرسى حلق الوادي التي هي أكبر مراسي القطر ويكثر سكانها صيفا حيث ينتقل الوالي والحكومة اليها وكثير من اليهود للتنزه بها ويبلغ سكانها اذ ذاك الى نحو ثلاثين الفا وقد أحدث خارج سورها بناآت كثيرة نحو بلدة جديدة في شرقيها على ترتيب هندسي وبينها وبين مرسى

قرطاجنة

قرطاجنة المتقدمة بلدة جبل المنار هي أقرب الى الشانية وهي مقر انتزاه أهل الحاضرة في الصيف تشتمل على أزيد من أربعمائة دار أغلبها أنيق متقن مطلة على البحر بحيث يراها القادم في البحر على أحسن منظر لتصاعدها في الجبل مع تزويق الابنية وان كانت طرقها وسخة وقد التفتوا في المدة الاخيرة الى شيء من نظافتها وتشتمل على ضريح الوالي الصالح سيدي أبي سعيد الباجي وغيره من الاولياء رضي الله عنهم وتنسب البلدة الى سيدي أبي سعيد كما أنه بين هاته البلدة وبلدة حلق الوادي عدة قرى في مكان مدينة قرطاجنة العتيقة التي هي الآن خراب ولم يبق منها قائما الا مواجل الماء وقد كانت مردومة بالتراب ثم في هاته المدة الاخيرة فرغت منه ووجدت حيطانها وطاتها أحسن مما يبنى جديدا وهي نحو احدى عشرة ماجلا متصلة ببعضها بمنافذ ولا تحتاج الا لشيء يسير من الاصلاح وهي من المباني العجيبة التي تقصدها السواح لرؤيتها كما أن خرائب قرطاجنة لا زال يستخرج منها الصخور الضخمة والاسطوانات المرمر وكثير من الافرنج يبحث فيها على الاشياء العتيقة ويستخرج منها تصاوير وأصنام وصناديق من رخام عليها كتابات عتيقة وهي قبور لقدمائهم وتارة يستخرج بعض فصوص منقوش عليها تصاوير في غاية الاتقان فمنها فص قدر ظفر منقوش به عجلة وأربعة من الخيل ومن اتقان النقش أن صفائح الخيل تظهر مساميرها ولا يستبين عجمها الا بالمرآة المكبرة كما يستخرج أحيانا قطع من السكة ذهبا أو غيره والحاصل ان هاتيك الجهات وما حولها الى الجبل الخاوي لا زالت تشتمل على عجائب من آثار الاقدمين ومن القرى الواقعة هنالك الآن أشبه شيء بالخراب المعلقة ودوار الشط ثم بينهما وبين حلق الوادي بساتين قرطاجنة على الشط وهي جميلة ذات قصور أنيقة وفي الجهة الشمالية الشرقية من الحاضر بساتين سكرة وسميت بذلك لانها كان يزرع بها قصب السكر بكثرة وتسقى من عين عظيمة عذبة مارة تحت الارض لا يعلم منبعها وانما هي آتية من الشمال الغربي ذاهبة الى الشرق الجنوبي في قنات من البناء المتقن والآن عليها آبار كثيرة ولكن من التقهقر صارت تلك الجهة كأنها خلاء وليس بها قصبة واحدة سكرية اذ صارهوا وها رديئا من السبخة التي هي في شمالها الشرقي بينها وبين بساتين قمرت التي هي قرب شاطئ البحر شمالي الجبل الخاوي فيها جبال عظيمة من الرمل المنتقل أهلكت أغلب بساتين تلك الجهة وهي آتية من الشمال محاذية للشاطئ ذاهبة الى الجنوب وكأنها من الرمال التي يقذفها البحر بعد التصفية مما يأتي به نهر مجردة والمدينة

الثانية في القطر هي القيروان وهي اختطتها الصحابة رضوان الله عليهم عند الفتح في مكان صالح بمعيشة حيواناتهم وقريب من طبيعة أرض الحجاز لتأنسهم بها وبعيدة من البحر حذرا من هجمات المحاربين قبل التمكن وهي في الجنوب الغربي من الحاضرة في طول (٤٥) ثانية و (٣) دقائق وعرض (٤١) ثانية و (٣٥) دقيقة وبها الجامع الكبير الذي بنته الصحابة ثم جدده بنو الاغلب عندما كانت تلك البلدة هي قاعدة القطر ولا زال بعض سقوف الجامع مما صنعه الاغالبة الى الآن كما أنها فيها ضريح السيد الصحابي سيدنا أبي زمعة الانصاري رضي الله عنه وعليه بناآت ضخمة ومدارس للعلوم وأوقاف كثيرة ولتلك البلدة سور وضريح السيد خارج السور وفي السور منافذ ضيقة معوجة للخروج منه راجلا عند غلق الابواب وعلى السور عدة حصون وهي الآن ليست على ما كانت من العمران وسكانها الآن نحو عشرين ألفا كلهم مسلمون ولا يدخل البلد غير مسلم وهم قائمون بجميع ما يحتاجون اليه من صنائع وتجارة ولا زال العلم في أهلها وبالجامع الاعظم وبمدارس السيد عدة دروس في علوم شتى (ثم ان القطر) التونسي ينقسم الى عدة أعمال بالنظر الى السياسة (١) فالحاضرة وما حولها الى نحو عشرين ميلا من كل جهة عمل (٢) ويليه من الجهة الشرقية الجنوبية عمل الوطن القبلي وهو ينقسم الى الجزيرة مما يلي الحاضرة وقاعدتها بلد سليمان وسكانها نحو أربعة آلاف نسمة والى الوطن وقاعدته بلد نابل وسكانها نحو خمسة عشر ألف نسمة وفي الجميع أزيد من ستين قرية فمما يتبع الاولى المنزل وبني خلاد والصمعة وأقليبية التي هي حصن على رأس ادار ومما يتبع الثاني بني خيار وقربة والحمامات وهي حصن في الجون المعروف بها وفي ذلك الرأس الطويل مقر السادات المعاوين الثابتي الشرف رضي الله عنهم ثم يلي ذلك جنوبا (٣) عمل الساحل المنقسم الى وطن سوسه ووطن المنستير ويتبع كل منهما عدة قرى فمما يتبع سوسه بلد مساكن أهاليها أشراف والقلعة الكبرى والقلعة الصغرى وغيرها وسوسه التي هي القاعدة ذات سور وحصون وهي مرسى على البحر وبها جامع عظيم وسكانها نحو تسعة آلاف نسمة ولهم حضارة وبقايا من العلوم ومما يتبع المستير بلد المهدية ولها حصن وسور وجامع وهي مرسى تجارية أيضا ولها قاض خاص وأكثر سكانها حنفية من أبناء الترك الذين استوطنوا تونس وعدد سكانها نحو ثمانية آلاف نسمة ويتبعها أيضا بلد جمال وبلد المنارة وغيرها والمنستير هي القاعدة ولها سور وحصون وهي مرسى تجارية أيضا وسكانها نحو

سبعة

سبعة آلاف نسمة وهى دون سوسة فى الحضارة والمعارف ويلى هذا العمل (٤) عمل صفاقس وهو جنوبى السابق على شاطئ البحر وقاعدته مدينة صفاقس وسكانها نحو عشرة آلاف ولاهلها اشهرة بالتجارة فى دواخل القطر وفى الممالك الاسلامية ولهم مزيد محافظة على الصلوات فى المساجد ولهم بقايا من العلوم الدينية والادبية وهاته البلدة لها سور وحصون وهى مرسى تجارية أيضا وتأوى اليها سفن الحكومة فى الشتاء لانها مأمن طبيعى للسفن واشاطئها مد وجزر ويتبعها جزيرة قرقنة التى بها قرى ولاهلها صناعة الحلفة والحبال ثم يلى هذا العمل على الشاطئ الجنوبى (٥) عمل الاعراض على جون قابس التى هى قاعدة العمل وسكانها نحو تسعة آلاف وهم على البداوة ولها مرسى قليلة التجارة وهذا العمل ينتهى الى غايته الحدود من جهة الجنوب والجنوب الشرقى الى طرابلس ثم يلى هذا العمل فى الشرق (٦) عمل جربة التى هى جزيرة فى البحر وعدد سكانها أزيد من ثلاثين ألفا متفرقين على عدة قرى ولهم شهرة تامة بالتجارة فى سائر ممالك الاسلام ويلى عمل الاعراض من غربيه (٧) عمل الجريد الواصل الى نهاية الحدود الجنوبية فى الصحراء وهو منقسم الى أربعة أقسام الاول فى جنوبيه وهو وطن الوديان والشبيكة وتامغزا ويليه شمالا وطن نفطة ويليه شمالا وطن توزر ويليه شمالا وطن قفصة وهاته لها حصن وقاعدة جميع الجريد هى توزر وقد كانت مناخا للعلوم ولازالت فيها بقايا وعدد سكانها نحو ألفى نسمة ثم شمالى هذا العمل (٨) عمل القيروان وقدم ذكرها لانها لها التقدم على غيرها ويلى عملها شمالا (٩) عمل أولاد سعيد من البوادى سكان الخيام ويليه فى الشمال الغربى (١٠) عمل رياح المشتمل على بلد زغوان فى جبلها الشهير وعلى بلد تستور وعلى بلد مجاز الباب وغيرها وأكبرها تستور وعدد سكانها نحو أربعة آلاف وهذا العمل يتصل بعمل الحاضرة (وحينئذ) فقد عرفنا جهة الشط الجنوبى الشرقى الى الحدود ثم ماوالاه من دواخل القطر وبقى علينا تقسيم جهاته الغربية والشمالية فاما الغربية فيتصل بعمل الحاضرة (١١) عمل طبربة وقاعدته طبربة وهى قرية الآن فى غاية التأخر (١٢) ثم عمل تبرسق وهى قاعدته وسكانها نحو ألفى نسمة (١٣) ثم عمل باجة وهى قاعدته وهو عمل كبير وقاعدته ذات حصن وقصر لنائب الوالى الذى يسافر بالمعسكر كل صيف الى هناك فى القديم وعدد سكانها نحو خمسة آلاف نسمة (١٤) ثم عمل الكاف وهى قاعدته ولها حصن وهى فى رأس جبل وعدد سكانها نحو خمسة آلاف نسمة ويتصل

عملها الى نهاية الحدود الغربية غير أنه لا يصل الى الشط من جهة الشمال فتلك الجهات هى الاعمال الشمالية وتبتدئ من جهة الحد بجبال طبرقه وسكانها (١٥) بوادى وبها حصن ويليه (١٦) عمل جبال ماطر وهى قاعدته وسكانها نحو الفى نسمة من البوادى ثم يليه (١٧) عمل بن زرت وهى قاعدته وهى مرسى أمينة جدا وسهل لها بعض تسهيل فى منفذها الى البحر لامكن أن تأوى جميع سفن الدنيا فى أمان ولموقعها اعتبار عظيم فى التمكن من البحر الابيض وسكانها نحو ستة آلاف نسمة ولها حصن وسور والماء يجرى اليها فى قنوات من البناء من بعد للشرب لاهلها ويخترقها خليج يوصل الى بحيرة المزوقة المتصلة ببحيرة اشكل التى بها جبل كالجزيرة فيه حيوانات كثيرة هو منتزه لمريد الصيد ويتبع هذا العمل بلاد غار الملح التى هى فى نهاية الحد الشمالى من الشرق وسكانها نحو ألف نسمة ويتصل هذا العمل من جنوبيه بعمل الحاضرة وعلى ذلك فقد تصور القارئ هيئة تقسيم أرض هذا القطر غير أنه بقى له تقسيم آخر حكمى أيضا بالنظر الى القبائل الساكنين به ومرجع أحكامهم فنقول (ان اصل) أهالى هذا القطر هم من البربر وكانوا قبل الفتح اما نصارى أو وثنيين ثم اسلموا كلهم ولا زال فى بعض القبائل شئ من عادات النصارى يفعلونه عن غير قصد وهو الوشم بين أعينهم على جباههم بصورة صليب صغير وكذلك استوطن به كثير من العرب واختلطت أنسابهم بالاصليين ثم استوطن به أيضا من هاجر من الاندلس بعد المائة الثامنة وقد بنوا بلدانا بالقطر خاصة بهم وكذلك فى ربض باب سويقة من الحاضرة بنوا حارة خاصة تسمى الى الآن حومة الاندلس ومن بلدانهم التى أسسوها سليمان وزغوان وطبربه ومجاز الباب وتستور وكلها مؤسسة باماكن جيدة على شكل حسن متقابلة الطرق واسعتها مستقيمتها واختلط نسلهم بالقاطنين ثم وفد عليهم الترك واختلط نسلهم أيضا بالقاطنين ولكن الاكثر هم النوعان الاولان وديانة الجميع هى الاسلام الانحو ستين ألفا من اليهود أغلبهم فى الحاضرة وباقيهم متفرقون فى أغلب بلدان القطر كما ان فى القطر من النصارى الاوروباويين نحو الاربعين ألفا من أجناس شتى أغلبهم مالطيون من الانكليز ويليهم الطليانيون ثم الفرنساويون ثم غيرهم قليلا هذا من غير اعتبار المسلمين التابعين للفرنسيس والا فعدد الفرنساويين بذلك الاعتبار أكثر من غيرهم ثم ان الاهالى الاصليين كانوا فى صدر المدة على مذهب أبى حنيفة هم وجميع سكان الجزائر والمغرب الى ولاية المعز بن باديس فحملهم على أتباع مذهب مالك وذلك فى حدود سنة (٤٠٦) وبقوا على ذلك

الى

الى ان جاء الترك فكانوا هم ونسلهم على مذهب أبي حنيفة ولذلك كان أكثر الاهالى مالكية وهذا بيان أسماء الاعمال والقبائل والاشارة الى أماكن اقامتهم *
(١) الحاضرة (٢) القيروان (٣) أولاد خليفة من جلاص جنوبي القيروان (٤) الكعوب والكوازين منهم غربي القيروان (٥) أولاد بدر منهم مثل السابقين (٦) أولاد سنداس منهم مثلهم (٧) كسرى في الغرب الجنوبي منهم (٨) الساحل (٩) المثاليث حول صفاقس من غربيها وجنوبيها (١٠) صفاقس (١١) جربة (١٢) الاعراض (١٣) نفات في الاعراض (١٤) نغزاوة من الجريد في جنوبيه الغربي (١٥) الوديان في جنوبيه (١٦) الحامة في جنوبيه الشرقي (١٧) توزر في شماليه (١٨) نفطة في وسطه (١٩) الشبيكة وتامغزا في نهاية الجنوب منه (٢٠) قفصة في شماله (٢١) أهل بيت الشريعة من عرب دريد رحالة مابين الجنوب الغربي والغرب الشمالي (٢٢) أولاد سيدي تليل في تلك الجهات (٢٣) أولاد سيدي عبيد مثلهم (٢٤) أولاد عزيز من الهمامة مابين القيروان والجريد والاعراض وهم رحالة في تلك الاراضي الرحيبة (٢٥) أولاد معمر منهم مثلهم (٢٦) أولاد رضوان منهم مثلهم (٢٧) المحامدية في غربيهم (٢٨) أولاد وزاز من الفراشيش في جهة الغرب الجنوبي (٢٩) أولاد ناجي منهم مثلهم (٣٠) أولاد علي منهم مثلهم والجميع رحالة في تلك النواحي (٣١) شقمة في الغرب المتوسط من القطر (٣٢) الفواد قرب السابقين (٣٣) أولاد مهنة مثلهم (٣٤) أولاد بوغانم في الحدود الغربية (٣٥) الزغالمة مثلهم (٣٦) شارن مثلهم (٣٧) العوامر منهم مثلهم (٣٨) أولاد يعقوب قربهم (٣٩) التوابع مثلهم (٤٠) ورغة في جبال الشمال (٤١) الخامسة ودوفان في بحاير الكاف (٤٢) الكاف سبق ذكره (٤٣) ورتنان في الجنوب من الكاف (٤٤) أولاد عيار قربهم (٤٥) أولاد عون قربهم (٤٦) جندوبة شمالي الكاف (٤٧) أولاد بوسالم قربهم (٤٨) الرقبة شرقي الكاف الجنوبي وغربي جنوبي باجة وفيها جبال وقبائل من سكان الخيام (٤٩) باجة سبق ذكرها ويتبعها جبال تشتمل على قبائل شتى غير خاضعين حقيقة للحكومة ممتنعين بجبالهم الوعرة وكثيرا ما ترسل معسكرات لأخذ الضرائب منهم وكثيرا ما يؤدون البهامة مدارا عن غير تحقيق لعددهم وكسبهم وهم عمدون ونغزة ومقعد وخمير والشيحية (٥٠) تبرسق سبق ذكرها (٥١) رباح

تقدمت أيضا (٥٢) المجدية ورادس كل منهما قرية لهاعامل مخصوص والاولى كانت مدينة قاهرة فى ولاية أحمد باشا فأخنى عليها الذى أخنى على لبد فى بضع سنين وكانت مستقرة ومستقر جنده (٥٣) ثم المرسى وحلق الوادى وقد تقدما (٥٤) أريانة وجعفر كذلك (٥٥) بن زرت كذلك (٥٦) ماطر وبجاوة بجبالها وقد تقدمت (٥٧) الوطن القبلى كذلك (٥٨) قمطنة (٥٩) طباش (٦٠) هجرى ليس لهم مقر بل هم متفرقون فى الاوطان (٦١) أولاد سعيد فى القبضة فى الشمالى الشرقى للقيروان (٦٢) السواسى جنوبيهم (٦٣) الطرابلسية متفرقون فى الاوطان (٦٤) الغرابة كذلك (٦٥) العروش الرقاق الاولى كذلك (٦٦) العروش الرقاق الثانية كذلك (٦٧) دريد رحالة مابين الغرب والجنوب (٦٨) عرب مجور تابعون اليهم (٦٩) أولاد حسن حقيقوا المذهب من دريد (٧٠) فطناسة اتباع جلاص (٧١) أولاد سيدى عبد الظاهر فى الجهة الغربية الجنوبية (٧٢) طبرية تقدمت (٧٣) السبالة فى الشمالى الغربى من الحاضرة على نحو اثنى عشر ميلا وعدد جميع السكان نحو مليون ونصف لان تحقيق العدد غير موجود سيما وكثير من أعراب الاعراض مثل ورغمه وكذلك جبالية باجة لا يعرف عدد ذكورهم البالغين القادرين على التكسب فضلا عن غيرهم وانما يعرف عدد الذكور البالغين من بقية السكان الغير العاجزين عن التكسب وهم مائة وسبعة وعشرون ألفا عدى سكان بلدة تونس والقيروان والمنستير وصفاقس لاستثنائهم من الاداء المرتب على الرؤس

فصل

﴿ فى اجمال تاريخ هذا القطر التونسى ﴾

ويشتمل على ثمانية مطالب (الاول) فى نبذة من تاريخه القديم (الثانى) فى علاقته بالدولة العثمانية (الثالث) فى سياسة الخارجية (الرابع) فى سياسة الداخلية من العائلة الحسينية (الخامس) فى وزارة مصطفى خزنه دار (السادس) فى وزارة خير الدين باشا (السابع) فى وزارة محمد خزنه دار (الثامن) فى وزارة مصطفى بن اسماعيل

(المطلب الاول) فى نبذة من تاريخه القديم أعلم ان هذا القطر تداولته ولاية الرومانيين والقرطاجنيين منذ قرون عديدة قبل البعثة وصدر من زمن الخلفاء الراشدين الى ان افتتح

افتتح الخليفة الثانى (سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه) مصر ووصل أمير جيشها بالفتح الى برقة بين طرابلس ومصر فأرسل يستأذنه فى فتح أفريقية يعنى بها تونس كما تقدم بيان وجه التسمية فى الفصل السابق فأرسل اليه يقول ما مفاده انها الغدارة المغدور بها ماؤها قاس مفرقة لقلوب أهلها لا تفتح مادمت حيا الخ وكان وجه ذلك سياسة منه (رضى الله عنه) لخبرته بالامور وهو علمه بالاختلاف الدائم بين أهلها الذى صار طبيعة لهم بحيث لا ينقادون لبعضهم ولذلك وهنت شوكتهم وصاروا طوع الاجانب المستولين عليهم بحيث لا يعهد منهم قيام بشأن أنفسهم بل تسلم أنفسهم الانقياد الى الغريب عالا تسلمه الى واحد منهم والدليل على ذلك أن هذا القطر مهما تغلب عليه أجنبى انقاد له أهله الى أن ينقرض أو يستولى عليه أجنبي آخر وحيث كانوا على تلك الصفة فالاستيلاء عليهم ولان كان سهلا غير أنه لا تؤمن عواقبه أما (أولا) فلان الجيش اذا استقر هنالك ربما سرت اليه طباع أهل الاقليم كما هو شأن الطبيعة البشرية من سريان الطباع بالمخالطة والملازمة فيقع بينهم التنافر الواجب التباعد عنه وأما (ثانيا) فاذا غاب الجيش الاسلامى ولاة القطر الذين هم أجانب من الرومان لا يبعد أن يرجعوا الى بنى جنسهم ويعيدون الكرة على المسلمين وهؤلاء لا يمكن لهم الاعتماد على أهل القطر فى امدادهم واعانتهم لما تقدم من طبعهم وأنهم طوع الغالب كيفما كان وذلك لا يجدى معه رؤيتهم لعدل المسلمين واستقامة أمور دينهم ودنياهم لما فى أصل الطباع من النفرة عن التعاون وميل كل لخويصة نفسه والحامل الدينى وحده غير مجد لانه يلزم له رسوخ وتخلق ومع ذلك قليل من يكفى له ذلك فقد قرر (أبو اسحاق الشاطبى) فى موافقاته أن العلماء على ثلاثة أقسام الاول من يبلغ به العلم الى درجة تصيير النظرى فى حقه ضروريا لاطلاعه على أسرار العلوم وتخلقه بها حتى يصير العلم له طبيعة راسخة يرجع اليها رجوعه الى سائر الضروريات ولا يمكن له العمل على خلاف ذلك كما لا يمكن للانسان العمل على خلاف الضرورى وهذا القسم قليل ماهم والقسم الثانى اطلع على أسرار العلم لكن اطلاعا محتاجا الى المراجعة والتذكر والتدبر وهؤلاء لا يجرون على مقتضى العلم الا بكلفة من خوف الوازع الظاهرى غير أنهم ينقادون اليه بالتسليم وهو فى حقه خفيف فأدنى درجاته تؤثر المطلوب منهم والقسم (الثالث) هو الذى لا يطلع على شئ من أسرار العلم وانما يسمع تكاليفه وينقاد اليها بالتقليد البحت وهذا لا يحمل نفسه على مقتضاه الا بالوازع الظاهرى وهو القسم الاكثر والاغلب فى الوجود ولهذا أقيم فى الدين

وازع الحكم ليحرس الدين الشامل لجميع أقسام التصرفات الدنيوية والاخروية ولا يقال ان أهل القسم الاول يلزم أن يكونوا معصومين وذلك لا يصح لانا نقول تصدر منهم الخطيئة على وجه الغفلة كما تغفل الحواس فى بعض الاحيان هذا اجمال كلامه وأنى لاهل أفريقية اذ ذاك وبلوغ درجة القسم الاول هذا على فرض اسلامهم وأما اذا رضوا بالطاعة وضرب عليهم الخراج فالامر أبين مع أن المنعة اذ ذاك للمسلمين وخط التجائهم بعيد جدا وهو جزيرة العرب حيث كانت مصر اذ ذاك فى أول فتحها ولم يستقر قرارها وليس من المعقول الرغبة فى الفتوح بالتهور وبما تقدم يندفع أشكال بين وهو كيف يتوقف سيدنا عمر رضى الله عنه عن بث الاسلام فى افريقية استنادا لمجرد ذلك التعليل وهو تفرق أهلها مع أن الامر ببث الاسلام ليس بعشر وبابة ق قلوب أهل الاقاليم ويؤيد ما قلناه أن سيدنا عثمان رضى الله عنه لما ولى الخلافة واستقر اذ ذاك أمر الاسلام فى مصر وكان لجيش المسلمين قرب منعة ومدد أمرهم بفتح افريقية ففتحت سنة ٢٩ على يد سيدنا عبد الله بن سعد بن أبى سرح رضى الله عنه مصحوبا بعشرين ألفا من الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم وكانت أسبيطلة هى القاعدة الثانية فى القطر وهى مركز المشاورة واجتماع أهل الحل والعقد لكى يكونوا أحرارا فى مفاوضاتهم لبعدهم عن الملك الذى مقره فى قرطاجنة وما يرمى عليه أمرهم يبعثون به اليه وحيث كانت تفاصيل التواريخ لهذا القطر قديما قد تكفلت بها مؤلفات منفردة ومن أجلها الحلل السندسية فلا يمكن استيعابها فى هاته العجالة لانها خارجة عن المقصود الذى هو معرفة الحالة الراهنة وانما الذى يتوقف عليه المقصود هو بيان ما عليه الحال لكن هذا لما كان له مساس بامور سابقة لزم بيان مقدار الحاجة لتتبين الاسباب ومسبباتها ولذلك نذكر جملة الدول التى تولت هذا القطر من حين الفتح فى جدول مع ذكر صفة الدولة اجمالا وتاريخ مدتها بداية ونهاية وأسماء أصحاب الملك الى أحمد باشا من أمراء الدولة العلية العثمانية ومنه نأخذ فى ذكر بعض التفاصيل التى ينبنى عليها المقصود حتى يكون المقصود مستوفى البيان ان شاء الله تعالى

﴿تاريخ الولاية﴾	﴿الاسماء﴾	﴿الملاحظات﴾
٠٢٩	عبد الله بن أبي سرح	عامل للخليفة ثم من بعده عمال لوالى مصر التابع للخليفة
١٥١	عمر المهلبى أول دولة المهلبيين	تابع للخليفة المنصور العباسى وهكذا من بعده تابعون للعباسيين مع الاطلاق فى التصرف بجميع وجوهه حتى الحرب والصلح
١٨١	ابراهيم بن الاغلب هو أول دولة الاغالبة	مثل السابق وتوارثها بنوه
٢٩٧	دولة العبيديين وأولهم عبد الله المهدى	فى نفس الامر مستقلة وفى بعض الاطوار تظهر الخضوع للعباسيين وطورا للفاطميين بمصر
٣٦٥	دولة صنهاجة وأولهم المنصور بن يوسف	مثل السابقة
٦٠٣	دولة الحفصيين وأولهم الشيخ عبد الواحد	مستقلين واستولوا على المغرب ودانت لهم مصر والحرمين الشريفين برهة من الزمن
٩٨١	الدايات والبايات المراديون والباشوات منهم	اتباع للدولة العلية العثمانية فتارة يكون صاحب التصرف يلقب بالداى وتارة يلقب بالباى وتارة بالباشا
١١١٧	الحسينيون أولهم حسين باشا ابن على تركى	اتباع للدولة العلية بامتياز فى التصرف
١١٥٣	ابن أخيه على باشا	مثله
١١٦٩	محمد بن حسين باشا بن على	مثله
١١٧٢	أخوه على باشا	مثله

تاريخ الولاية	الاسماء	الملاحظات
١١٩٦	ابنه حموده باشا	مثله
١٢٢٩	أخوه عثمان باشا	مثله
١٢٣٠	محمود بن محمد باشا	مثله
١٢٣٩	ابنه حسين باشا	مثله
١٢٥١	أخوه مصطفى باشا	مثله
١٢٥٣	ابنه أحمد باشا	مثله
١٢٧١	محمد بن حسين باشا	مثله
١٢٧٦	أخوه الصادق باشا	مثله

المطلب الثانى فى علاقة القطر بالدولة العثمانية

اعلم أن سبب استيلاء الدولة العثمانية هو أن الدولة الحفصية ضعف أمرها أخيرا الى أن استولى الطليان على طرابلس وجربه ثم افتكتها الدولة العثمانية سنة (٩٥٨) وامتد أمرها الى القيروان بطلب من أهلها اذ كانت الدولة العثمانية هى الرافعة لعلم الدول الاسلامية واستقلت الجزائر وكثرت حروبها الاهلية وكانت قاعدتهم تلمسان وخشى الاهالى من استيلاء الاسبنيول عليها وكان أحد كبراء رجال الدولة العلية المسمى خير الدين باشا وأخوه عروج غازيان فى البحر فاستصرخهم أهل بجاية للنجاة من ربقة الاسبنيول فاستولى خير الدين عليها وانقادت له سائر أهالى الجزائر وخطب للسلطان سليم العثمانى وذلك فى حدود عشرة الثمانين والتسعمائة ثم أنقذ تونس أيضا من جور الحفصى والاسبنيول ثم استعان آخر الحفصيين حسن الحفصى بالاسبنيول وعاد الى تونس فأنقذها منهم سنان باشا سنة (٩٨١) ورتب بها جندا من عسكر الينكشارية قدره أربعة آلاف وعلى كل مائة رئيس ومرجع الجميع الى الوالى الملقب بالباشا وهو اذ ذاك حيدر باشا ثم وقع تنافر بين الرؤساء آل الى حرب واستقر قرارهم الى تسليم الامر الى واحد منهم يلقب بالداى وجعل على خلاص الجباية مولا يلقب بالباى وفى عهدته تأمين السبل وهناء القبائل ويسافر لاجل ذلك مرتين فى السنة أحداهما شتاء الى الجهة الجنوبية والثانية صيفا الى الجهة الشمالية ويسافر فى عسكر مؤلف من العساكر المشاة وهم اذ ذاك الينكشارية ومن قسم الفرسان الموظفين فى الحكومة ولهم جراية

ويسمون

ويسمون بالحوانب والصبايحية وعلى كل خمسمائة رئيس يسمى بالآغا وكل قسم يسمى بوجق وجميعهم سبعة أوجاق لكل وجق مركز من القطر كما يستصحب الباى فى سفره قسما من فرسان القبائل يسمون بالمزارقية ويسمى جميع الجيش المسافر فيه الباى محله وجرى العمل على ذلك غير أن رياسة التصرف العام تارة تكون بيد الداى وتارة تكون بيد الباى تغلبا منه واحيانا يحصل الباى على رتبة الباشا من الدولة العثمانية واستقر الامر على ذلك الى أن كثرت الحروب الاهلية ما بين البايات والدايات على حوز الرياسة العامة وملت الاهالى من ذلك فنادوا بطيب نفس واختيار منهم بحسين ابن على تركى جد العائلة الموجودة الآن اذ كان اذذاك آغة وجق باجة وسلموا له امر الولاية العامة بعد قتل كل من الباى والداى السابقين وأقرت ولايته الدولة العلية ولا زالت الولاية متوارثة فى عائلته كبيرا عن كبير الا ما ندر من ولاية حموده قبل محمود بعهد من أبيه وكذلك أخوه عثمان وأمضت الدولة العلية ذلك له فى حياته ومنذ ذلك التاريخ استقرت الرياسة العامة للباى وصار هو الذى يولى الداى الى أن انقطع هذا اللقب وعوض برئيس الضابطية فى سنة (١٢٧٧) فى ولاية الصادق باشا غير أن استقرار الولاية هكذا على نحو ما مر لم يكن بتعهد من الدولة العلية رسميا بالكتابة وانما اقتضاه جريان العمل وذلك أن الدولة العلية كانت عادتها فى الولايات اطلاق التصرف للوالى بحيث يكون له التفويض المطلق لاتساع أطراف الممالك مع صعوبة المواصلة الا بعد مدة مديدة لاسيما فى مثل الاماكن التى طريقها البحر من مقر الخلافة كتونس وطرابلس والجزائر ومصر وغيرها وتسمى عندهم بالاوجاق ومن كمال الاطلاق الذى اضطر اليه البعد اختيار الوالى لانه اذا مات الوالى أو وقع ما يوجب عزله بتغلب غيره أو بثورة عامة يسلم أهل الحل والعقد فى تلك الجهة لواحد منهم لاجراء ما لا بد منه وما يصل الخبر للدولة الا بعد مدة وحيث لم يكن من قصدها الا هناء الممالك الاسلامية واجراء الشرع فيها والادلاء بالخضوع للخلافة والانقياد اليها واداء الواجب لها من مال أو غيره لم يكن من فائدتها مخالفة ما يراه أهل الحل والعقد فى الصقع الواقع به الواقعة لان ذلك لا يحصل لها فائدة بل ربما توقع حصول غير فائدتها المار ذكرها (ورب البيت أعلم بما فيه) ولذلك تولى هى من ارتضوه لحفظ أمورهم وحفظ حقوقها والمتقرر فى هذا القطر التونسى من الحقوق التى رسمتها الدولة العثمانية فيه عند فتحه هو أعانته بالسفن الحربية وما يلزمها فى الحروب وهدايا ترسل من الوالى الى دار الخلافة عند ولايته أو عند ولاية سلطان

أو عند ما توجد مناسبة للاهداء والاغلب فى الهدايا سابقا أن تكون من نتائج البلاد كالخيل والحيوانات الغريبة من الصحراء والمنسوجات الحريرية والصوفية ومنها رايه عظيمة متقنة تصنع عند ولاية السلطان فقط ويكتب فيها آيات قرآنية وأبيات من البردة وتزركش بالفضة ومنها أيضا السروج المحلات وسبح المرجان والعنبر والطيب والاسلحة الموصعة بالمرجان ومنها التمر والزيتون والسمن والشمع ثم توسع فى هاته الهدية حتى صارت من المال والجوهرات النفيسة وقد بلغت فى بعض الاحيان الى مليونين فرنكا وما يساويها من الجوهرات وكذلك رتب على القطر من الاشياء التى هى علامة على التبعية الخطبة باسم السلطان والراية من نوع راية الدولة ورسم اسم السلطان على السكة وأصحاب الهدايا هم الذات السلطانية والصدر الاعظم مع خواص الوكلاء كقبطان باشا والسرعسكر وأمثالهم وأما غير ذلك فلم تكن حالة القطر تقتضيه ولذلك لما رأى وزير الدولة سنان باشا الفاتح حالة القطر أمر رؤساءه بأن الجباية يقيمون بها ضروريات‍هم وما يلزم لحماية القطر من الاستعدادات الحربية وما يلزم اليه من المصالح العامة ولم يرسم بشئ آخر ثم قدم قبطان باشا فى حدود سنة (١٠١٣) لتفقد حال القطر وما تقتضيه حاله بعد استقرار الامر فأرسى باسطوله فى حلق الوادى وخرج له اذ ذاك عثمان داى فى جماعة من كبراء الجند وتفاوضوا معه على مصالح بلادهم وبعد أن تحقق عنده انقيادهم لطاعة الدولة وعدم الاقتدار على الاداء أقلع من هناك راجعا وبقى الامر على ذلك الى أن بدى للدولة العلية ابدال عادات الدولة فى شأن ولاة الاقطار من اطلاق التصرف اليهم لما تفاقم حال ظلمهم وعدم انقيادهم أحيانا الاوامرها ومنهم حسين باشا والى الجزائر الذى تسبب بأعماله فى دخول الجزائر تحت الفرانسيس بحربهم وكان ذلك الانقلاب فى دولة السلطان محمود وصدر من ولاية أحمد باشا فخشى الباشا المذكور من وصول النوبة اليه فى التغيير وزاد خوفه بسبب ما كان حصل من سلفه من تعريضه بالامتناع من نزول قبطان باشا فى حلق الوادى عند قدومه لارادة التوجه برا للجزائر لعزل واليها الذى عقد الحرب مع الفرانسيس وبزواله يزول الارتباك فاعتذر له بأن الكرنتينة اى التحفظ من المرض العام لا تبيح نزوله واكرم مقدمه وهاداه فى ذاته وكان السبب الحامل له على الامتناع هو أن دولة الفرانسيس لما أعانت بحرب الجزائر بعد التشكى للدولة العلية كاتبت حسين باشا والى تونس بالانذار بأنه اذا أعان بشئ يلحق الحصار والحرب به مع اجماع الخلق على ظلم والى الجزائر فخشى والى تونس أن يعد مرور

قبطان

قبطان باشا أعانة للجزائر لانه لا يمكن مروره بدون حامية فاذا دخل للجزائر بحامية من عسكر تونس يعدّها الفرنسيس أعانة وأيضا اذا تسامعت العربان بمرور باشا تركى فى وسط الولاية هاجوا المسافى طباعهم من التشكى من المتولى كيفما كانت سيرته ظنا أن الجديد يساعدهم على مرادهم كيفما طلبوا وقد كان ذلك من الغفلة التى سبق بها القدر لانفاذ الامر فى الجزائر ففشى أحمد باشا ما سبق وأنضاف الى ذلك فتح الباب من الدولة العلية فى مقدمات ما كان يخشاه وهو طلبها من تونس الاداء السنوى والحاح وافيه المرة بعد المرة الى أن توجه اليها عالم القطر الافريقى سيدى ابراهيم الرياحى وواجه السلطان محمودًا وقبل اعتذاره وسكت عن طلب الخراج وأيضا طلب من الباشا القدوم بنفسه لدار الخلافة ولم يكن معتادا منذ الفتح الخاقانى الى الآن وطلب منه أيضا أن تكون خلطة تونس مع الدول باذن خاص وولاية المناصب بأمر السلطان والاختيار لاصحابها من الوالى ويرفع فى كل عام حساب دخل الحكومة وخرجها وأيضا قد فعلت الدولة فى طرابلس ما فعلته فى سائر ولاياتها من التغيير وكذلك فى مصر لكنها بامتياز فقوى خوف الرجل وجعل يرود كل الابواب للاطمئنان على ابقاء عادته المألوفة له ولآل بيته وللقطر من غير أنه يخطر بباله قط الاستقلال لا هو ولا من سلف من آله فضلا عن الدخول فى حماية دولة أجنبية وغاية الامر زيادة المواصلة منه مع دولة فرانسا والمدارات بما لا يخل بشئ من العادات مع طلب محافظة عاداته لو تريد الدولة العلية الحاقه بغيره وغاية ما حصل عليه من دولة فرانسا هو الوعد الشفاهى بحمايته وحماية امتيازاته الجارى بها العمل والعادة (ويشهد) لما مر سيما بعد ولاية العائلة الحسينية المستقرة الآن أن الدولة العلية فى سنة (١١٥٣) اعطت جزيرة طبرقة التى هى من القطر التونسى الى دولة الجنويز وأذنت بذلك والى تونس فسلم الجزيرة بالشروط التى عينتها الدولة وهى أن لا يكون لهم بها حصن ولا يتجاوزون فى بناء بلد هنالك حدا محدودا ثم خالفوا الشروط ولذلك افتك الجزيرة منهم على باشا والى تونس اذ ذاك فى تلك السنة وفى سنة (١١٨٤) حصلت وحشة بين فرانسا وبين على باشا الثانى والى تونس من جهة الخلاف فى الاسرى الذين أخذتهم تونس من قرسكا قبل استيلاء الفرنسيس عليها وكذلك صيد المرجان الذى أبيح للفرنساويين لمتين بعدد معلوم من القوارب وأداء معلوم وتفاقم الخلاف الى أن جاء الاسطول الفرنساوى الى شطوط تونس ورمى بعض الحصون وكان اذ ذاك رسول الدولة فى تونس قادما لطلب اعانة السفن الحربية على العادة

فى حرب الدولة اذذاك مع الروسيا فتداخل رسول الدولة فى النازلة وأبرم الصلح على أن تدخل كرسكا فى عهدة فرانسا وأن ترد الاسارى الذين أخذوا بعد استيلاء الفرانسيس عليها وأن يمكنوا من صيد المرجان خمس سنين مستقبلة باثنى عشر زورقا لاغير وأن يمكنوا من شراء ثلاثة آلاف قفيز قمحا ويخرجونها من غير أداء سراح عليها وأن يدفعوا ما جرت به العادة عند عقد الصلح من الهدية ورجعت بعد ذلك العلاقة الحسنة المعتادة بين تونس وفرانسا على يد رسول الدولة العلية وكذلك أرسلت خمس سفن حربية بجميع لوازمها لاعانة الدولة فى حرب الروسيا المذكورة سنة (١١٨٥) وفى سنة (١٢١٣) أمرت الدولة العلية حموده باشا بحرب الفرانسيس معها عند استيلائه على مصر فامتثل الامر وقطع المخالطة مع القنسل وأرسل سفنه الحربية لاعانة الدولة غير أنه تحفظ للغاية على أموال التجار الفرنساويين فى بلده ولم يتعرض لسفنهم التجارية حتى قال تجار الفرانسيس اذذاك نحن بلا قنسل أحسن حالا من وجود القنسل وأعلم الباشا الدولة بسبب تلك المعاملة وهو كثرة المخالطة التجارية المتقادمة الموجبة لاشتراك مال التونسيين مع مال الفرانسيس فلو تعرض لاموالهم لكان تعرضا لمال التونسيين أيضا واتهمت عليه من بعض الجهلاء من الداخل والخارج وعند وقوع الصلح عرفها له نابليون الاول وصارت بينهما مهادات واعتراف بالكمال وفى سنة (١٢٣٦) أرسلت الدولة العلية رسولا أمرا بحفظ الوحدة وترك الحرب بين تونس والجزائر وعمل بامره وفى سنة (١٢٣٧) أرسل محمود باشا سبع سفن حربية ثم أردفها باثنتين لاعانة الدولة على حرب اليونان وفى سنة (١٢٤٣) أرسل حسين باشا اسطولا حربيا لاعانة الدولة فى حرب اليونان واحترق مع جملة سفن الدولة ومصر والجزائر بعمل اساطيل الدول كما يأتى تفصيله فى بابه وفى سنة (١٢٥١) أرسل مصطفى باشا والى تونس هدية لقبطان باشا عند قدومه على طرابلس انتزعها من ايدى آل قرمانى ثم طلب قبطان باشا الاعانة الحربية من تونس فأرسل والى تونس فى تلك السنة ثلاث سفن حربية وأتبعها بتسع سفن تجارية حاملات ثلاثمائة من الخيل وفى سنة (١٢٥٥) طلب أحمد باشا والى تونس تقليده رتبة مشير مع هدية فانعمت الدولة عليه بذلك ثم زادته نيشانا آخر يرسم فى غطاء الرأس والآن زال من رسم الدولة ولم يزل معمولا به فى ولات تونس وفى سنة (١٢٥٦) أمرت الدولة العلية والى تونس بالعمل بالتنظيمات الخيرية وقرئ أمرها فى موكب مشهور وأجاب عنه أحمد باشا الوالى بالامتثال غير أنه طلب وقتا للعمل مع مراعات ما يلزم من التغيير بسبب عادات البلاد ثم ألح عليه فى

اتمامهاسنة (١٢٥٨) فارسل هدية فاخرة منهاسفينة حربية ومائتين وخمسين ألف فرنك وطلب الامهال فى العمل بالتنظيمات وفى سنة (١٢٥٧) لما رتب الوالى المذكور أمر تنظيم المولد النبوى قال له يمين حكومته أبو العباس أحمد بن أبى الضياف المناسب أن تخرج من باردو راكبا وعندنا من العساكر ما يكفى الى الوقوف بين باردو وجامع الزيتونة فقال له يفعل ذلك السلطان العثمانى وليس لنا أن نفعل مثله فالمناسب الادب معه ورايت ذلك بخط الوزير المذكور وفى سنة (١٢٥٩) حصلت نفرة بين دولة الصاردو ووالى تونس أحمد باشا كادت أن تفضى الى حرب بسبب منع الوالى اخراج الميرة الى سردانيا للقحط حصل بالقطر وكانت الشروط مخالفة فأرسلت الدولة العلية رسولا خاصا للبحث عن السبب وأمر الوالى بفصل النازلة بصلح فأخذ تقريرا فى النازلة وفصلت بصلح ببقاء ما كان على ما كان ودفع ما خسره تجار الصاردو فى شراء الميرة وفى سنة (١٢٦٣) أرسلت الدولة رسولا مخصوصا للوالى المذكور لتأمينه من جميع ما توهم مع اسقاط مطلب المال السنوى وتأييد الوالى فى الولاية مدة حياته فأجاب بالفرح والقبول لكنه طلب ابقاء جميع الامتيازات ومنها انتقال الولاية لآله عند موته وفى سنة (١٢٦٥) أرسل عباس باشا والى مصر مكتوبا ودادياعلى وجه الاخوة ينصح فيه الوالى المذكور بترك الاوهام الحاملة له وانه هو قد ذهب للاستانه ونال رتبة الصدارة مع أن أباه وأخاه قد فعلا ما لم يحم حوله ولاة تونس وانه لو ساعفه على اللقاء فى بلد معين ويصطحبا معا للاستانة يكون له الحظ الاوفر فاجابه بانه عبد للدولة ولم يختلج بفكره شئ مما يتهم به وقصارى أمره التمسك بالامتيازات السابق بها العمل والجارية من القديم فى القطر التونسى ثم أرسل عباس باشا رسولا من العلماء وآخر من التجار للتفاهم مع الوالى فى مقصود الدولة فقرر لهم غاية آماله من ازدياد اللحمة الاسلامية والخضوع للدولة العلية على ما جرى من الامتياز للولاية ومنه عدم وجوب قدوم الوالى الى الاستانه وفى سنة ١٢٦٣ وقع خلاف بين والى تونس أحمد باشا ودولة فرانسا فى شأن قبيلة نهد من جبالية باجه حيث أن القبيلة منقسمة الى فخذين فخذ تابع لتونس وفخذ تابع للجزائر فاستولى الفرانسيس على الجميع فسجل الوالى أحمد باشا وكتب الى القنصل فاجابه القنصل بمضمون مكتوب دولته وهو أن فرانسا تعطى الى تونس أرضا أخرى عوضا عن هذه بعد تحرير الحدود فاجابه الوالى بما نص محل الحاجة منه وأما تجديد التحديد أو ابدال بعض العمالة بجزء من غيرها فمعلوم انا نتوقف فيه على المشورة من جهة الدولة العثمانية وان كان

لنا التصرف العام فى الايالة بما يقتضيه اجتهادنا من المصلحة أما التنقيص منها أو ابدال بعضها فلا يحسن منا بغير اعلام لمولانا السلطان وتقرير ما ينشأ لنا من المضرات بسبب ذلك لجنابه العلى اه وفى سنة ١٢٧٠ أرسل أحمد باشا أربعة عشر ألف عسكرى بجميع لوازمهم الضرورية والحربية وفرقاطة شراعية وستة سفن منها بابوران لاعانة الدولة العلية فى حرب القريم وفى سنة ١٢٧١ أردف ابن عمه محمد باشا عند ولايته ذلك العسكر بأربعة آلاف وخيل ومهمات وفى سنة ١٢٨١ أرسلت الدولة العلية رسولا مخصوصا اسمه حيدر أفندى لمراقبة حال الثورة العامة فى القطر التى سيرد بيانها وأرسلت الى الحكومة مليونا فرنكا لاعانتها على ما حصلت فيه من الضيق وفى سنة ١٢٨٨ أبرم الفرمان الآتى ذكره الذى استقر عليه القرار وفى سنة ١٢٩٣ أرسلت الايالة نحو مليون ونصف فرنكا لاعانة الدولة على حرب الصرب وفى سنة ١٢٩٤ أحضرت الايالة نحو ذلك المقدار لكنه لم يصل منه الى خزانة الدولة العلية الا أقل من الربع والباقى صرف منه على تهيئة العساكر التى قدرها نحو أربعة آلاف فى كسوتهم وتعينوا للارسال وحصل الصلح قبل سفرهم وهم فى انتظار سفن الدولة العلية لحملهم اذ لم يكن للحكومة قدرة على ما تحملهم عليه وسبحان محول الاحوال كما أرسلت الولاية فى تلك السنة للاعانة المذكورة نحو ستمائة بغل وأربعمائة حصان ومازاد على ذلك مما سلمته الاهالى بقى عند الحكومة التونسية وما تقدم كله زيادة على الرسل التى تتوارد فى أغلب الاحيان بين التابع والمتبوع الذى هو كثير وها نحن نثبت هنا نص بعض المكاتيب التى أرسلت من ولاة هذا القطر فى النصف الاخير من هذا القرن حتى يتيقن معها زوال كل شبهة ولمنذكر ما كان قبل هذه المكاتيب لان المكاتيب كانت ترسل باللسان التركى ولما تقادم عهد الولاة بتونس نشأ جيلهم الاخير على جهل باللغة التركية وكان أحمد باشا صاحب المكتوب الاول ذا احتراز ونقد فكر فلم يرد ان يمضى كلاما لا يفهم اسرار تراكيبه فكتب باللغة العربية وقبلته الدولة اذ كثير من عمالها عربى ولا يسعها انكار لغة شريعتها التى هى الحامية والذابة عنها وكان ارسال هذا المكتوب مع عالم القطر سيدى (ابراهيم الرياحى) فى الغرض الذى تقدمت الاشارة اليه وهو طلب العفو عن الاداء السنوى ونص المكتوب (اللهم) بالثناء عليك نتقرب اليك يا فاتح أبواب القبول والاقبال وما نح المنح التى لا تمر شوار دها على البال تنزهت فى العظمة والجلال ولا تول عبادك الاهمال بمحض الرحمة والافضال فاقت عليهم خليفة

تعرض عليه الاحوال ويرفع عنهم باعانتك الاختلال ويسوسهم للصلاح في الحال
والمآل صل على سيدنا (محمد) خاتم الارسال والملجأ المنيع عند اشتداد الازمة
والاهوال وعلى آله وأصحابه الذين ورثوه في الاقوال والاعمال وسرت مكارمهم
مسرى الامثال واستوهب منك عز الايام غزحده ونصر ايمضى في الاعداء حده لهذه
الدولة العلية والسلطنة العثمانية والمملكة الخاقانية التي رفعت من الملة
الحنفية أركانا وشيدت من معالمها بنيانا وأقامت للحق قسطاسا وميزانا وروت
أحاديث العناية الربانية صحاحا حسانا وورث ملوكها الارض وهم الصالحون سلطانا
فسلطانا حتى استنار الوجود بخليفة الوقت الموجود وهو مولانا السلطان محمود اللهم
أعنا على ما أوجبت له من فروض الطاعة وتأييد الحق بجهد الاستطاعة واحفظنا
برفقه وعدله من الاضاعة واجعل الملك فيه وفي عقبه الى قيام الساعة وعطف قلبه الى
سماع هذه الضراعه من ايالته ومن بها من الجماعه على لسان أحد المقيم على طاعته
فيها والمجتنى من ثمرتها ما يلزمها ويكفيها وطاعة خلافتك فرض على أهل الارض
وهي عند الله أغنى قرض فاذا لم يعرض الحال عليك فعلى من العرض تونس موضع
شعائر الاسلام غريبة ببعدها عن استمطار أياديك الجسام ومساحة معمورها السير
نحو الستة أيام شأن أهلها التمعش من الزيت والبر والصوف والوبر يعانون في
تحصيلها من ألم الحر والقر هذا غالب ما يسد لهم الخلة ويوجد غيرها لكن على قلة
ومقدار زكاة ذلك لا محالة بحسب اتساع العمالة فما يفضل من خصبها فهو للقحط
عدة وبذلك دام عمرانها لهذه المدة لا فضل من ذلك اترف ولو في سبيل شرف هذا
معظم دخل القطر ان جادت السحب بالقطر ويلزمه ضرورة لحفظ عمرانه وحماية
أوطانه وتأمين سكانه واصلاح مراسيه وبلدانه حماة وأجناد في كل جهة
وبلاد لتأمين الجبال والوهاد وردع أهل الفساد ويلزم العساكر الكسوة والطعام
والمرتب على الدوام ولابد لهذا العدد من آلات وعدد وقوام هذا بالمال وهو
السبب في عرض الحال بان الدخل على قدر الانفاق وذلك بشهادة الله غاية ما يطاق
واذا كلفنا الرعية المشاق ونزعنا الرفق والاشفاق كان ذلك ذريعة للنفاق وسلما
للشقاق وربما هرعوا للدولة شيوخا وولدانا وكهولا وشبانا يسوقهم العجز
ويقودهم الامل الى من في طاعته انثيالت منا والعمل فالسلطان ظل الله في أرضه
يأوي اليه كل مظلوم وهذا من الواضح المعلوم وعندكم حسبه تأمين البلاد وحفظها

من طوارق الفساد بمن معه من الحماة والاجناد سهرنا الانامة أجفانها وتعبنا الراحة شيوخها وولدانها واقتحمنا المخاوف لامانها وماتنتجه غلاتها تسديه خلاتها وعلى هذه السيرة ولاتها لا يقتنون لانفسهم مالا ولو بسطوا الذلك آمالا الاما يقتضيه الحال من العادات المألوفة والمراسم المعروفة يصدهم عن ذلك عدم اليسار لازهد الابرار والله المطلع على الاسرار وعبابسطنا من الكلام في حال هؤلاء الاسلام يظهر للقائم بمصالح الانام أن لاقوة لهذه الايالة على آداء المال في كل عام هذه ضراعة رعيتك المتمسكين بطاعتك المستجيرين بحمايتك المرتجين لعنايتك واعانتك قت بتبليغها بين يدى سلطنتك الخاقانية وهمتك العثمانية وتبليغها من الواجب في حقى وهو ثمرة طاعتى وصدقى والمأمول من تلك الهمة النظر لهذا القطر بعين الرحمة وهذا المال في خزائن الدولة لا يزيد وثقله على هذا القطر شديد فارحم أيها المولى ضراعتنا ولا تفرق بما لا نطيق جماعتنا فالامر جال وما قررناه بعض من الاسباب والعلل وقد فكرنا وأعيتنا الحيل فلم نجد اجابة المطلب الا بتنقيص عمل يفضى الى نقص وخلل أوتثقيل يقطع من الرعية الامل ويضعف بسبب ذلك هذا العمران وتشتد الحاجة للاستمداد من كرم مولانا السلطان والله يجيرنا من حوادث الازمان هذه وسيلة من بعدت داره ولم يكن بيده اختياره على لسان مملكة تونس مع قدوتها المونس صالح مصرها وامام عصرها شيخ الجماعة ومفتيها الذى دانت له البلاد بدينها ونالت به الملة أقصى أمانيها السارى ذكر تآليفه فى النواحى السيد ابراهيم الرياحى وجهنه حالتنا وانتظرت ومن سحائب رحمتك استمطرت اللهم أنت أعلم بنا منا فلا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا وارزقنا الرحمة من سلطاننا والهمة لاعانة أوطاننا انك على كل شئ قدير وكتب فى أواخر أشرف الربيعين سنة (١٢٥٤) وفيها ما كتبه أحمد باشا المذكور فى تبرئة نفسه مما رمى به من ارادة المخالفة ونصه الجناب المقصود لبلوغ الآمال ونجاح الاعمال جناب ركن الدولة وشمس ضحاها وقطب رحاها صدر صدور الكبرا ومركز دائرة الوزرا المشير الافخم والصدر المعظم السيد مصطفى رشيد باشا لا زال محط الرحال وقبلة الوجوه بالغا من الله ما يؤمله ويرجوه (اما بعد) تقديم ما يجب للسلطنة من فروض الطاعه بحسب الاستطاعه فان هذا العبد الذى مات فى خدمة الدوله سلفه وعاش فى فضلها خلفه وروابطه مع الدولة العليه ثابته الاساس معلومة فى الناس واضحة وضوح الصبح غنية عن الشرح كما أن ما جبل عليه سلطان زماننا

زماننا من كرم الطباع وطول الباع أمر انعقد عليه الاجماع وما على الصبح غطاء وما على الشمس قناع والامان الذى مهده لاهل الايمان واضح للعيان لا يختلف فيه اثنان ولا يخطر بالبال ما ينافيه لانه من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وطالما تمنى هذا العبد الوفود الى الحضرة العليه ومشاهدة الانوار المجيديه لو ساعده الزمن وتجرى الرياح بما لا تشتهى السفن وما صده والله عدم الامان لانه من المستحيلات العقليه مع انه لم يصدر منه خلل فى عمل ولا نية فاعلل النفس بأن التوجه انما هو تعرض لعناية الدولة والمقام انما هو لحفظ مالها فى هذا القطر من الصولة ونؤثر واجب الخدمة على التعرض لمزيد النعمة والنصح فى خدمة السادات مقدم على نفع خاصة الذات فاقتصرت بالضرورة على السنن المألوف والمسلك المعروف من تقربى الى الباب العالى بتقديم الهدية طبق الاصول الاعتياديه فى هذا الوجق الذى أشرقت عليه الانوار العثمانيــة وحمته الشوكة الخاقانية وان كانت الدولة على أضعافها غنيــة فراعنى الامانى مكتوب الوزارة من انه صدرت المساعدة من حضرة صاحب الخلافة بالتفضل بتوقيفها وان هدايا الوكلاء العظام صار فى حيز القبول بمقتضى الرخصة السلطانية ففهم العبد من التوقيف عدم القبول ومن عدم القبول نقصان الرضاء وفى المكتوب المذكور ما يشير الى ذلك مع ما بلغه الرسول من تفسير الاشارة بصريح العبارة كما ذلك محرر فى صحيفة فحزن لذلك الفؤاد وماج فى تيار الانكار اذ لم يصدر منا ما يقتضى ذلك وما سلكنا فى غير مسالك أما كون سلامة تونس وسعادتها متوقفة على تأييد الروابط القديمة مع الدولة العليـة فهو من المعلوم ضرورة وجاحده منكر للبديهيات وأما التبعد والتوحش الموجب لانواع المحاذير فمحله اذا صدر منا خلاف ما انطوى عليه الضمير أو فعل لا يقتضى نوعا من التغيير (أما) والحالة هذه فان العبد لم يجد حقا معتادا ولا أضمر بشهادة الله عنادا ولا وطأ الاسباب الشبهات مهادا ولم يصدر منه الا المعلوم بسالف الازمان وأقره السادة القادة من آل عثمان والاصل بقاء ما كان على ما كان فلا مخاطرة والحالة هذه بالنفس ولا بالوطن أما النفس بوجود الامان من ظل الله فى أرضه والقائم بواجب الاسلام وفرضه وعدالته العمريه ونيته الخيرة وشفقته على البريه بأ كثر من هذه الآمال حريه وأما الوطن فانه فى حماية دولته محوط بصولته يدافع عنه بقوته ويكافح من ناواه بشوكته ولا منافات بين الذب على القطر الاسلامى وحمايته وبين التفضل

باستمرار عادته واستغفر الله ان يخطر بالبال والحال الحال ما لا أقدر أن أفوه به من توهم الاستقلال أعوذ بك (اللهم) من هذا المقال كيف ومنابر القطر فى كل جمعة تنادي بطاعته مع الشكر على تقرير عادته ولا رواج للدرهم والدينار الا باسمه العالى فى سائر الاقطار وأشرف ألقاب هذا العبد هو ما جعلته له السلطنة العليه وأهلته له من المراتب السنيه بمحض فضلها وكمال عدلها وعدم امكان الحضور لهذا العبد الشكور اذا كان سببه صلاح الامور والمثابرة على دوام حفظ الجمهور لا يتوقع منه المحذور واختلاف البشر فى مدارك العقول معقول ومنقول وصدق الخدمة يقتضى التصديق فى القول هذا وطاب الوزارة شد الله أزرها وقرن باليمن نهيها وأمرها من العبد الفقير ان يودع لامانتها ما فى الضمير يوجب ان نشرح نيتى وما انطوت عليه طويتى فأقول والله شهيد على سرى وعلانيتى هذا العبد الذى نشأ فى طاعة الدولة العليه ورفل فى حال مرضاتها الجلية وتغذى بلبانها وعاش باحسانها واستظل بأمانها وتشرف بخدمة سلطانها من بيت هو عاشر آله فى الخدمة ومظهر ما للدولة من النعمة أعظم أمانيه دوام رضى مولانا السلطان وظل أهل الايمان وان تبقى خدمته على سنن أبيه وجده ونيل هذا هو سعادة جده وان هذه الايالة الطائعة على هذه الحالة لا يراع لها سرب ولا يتكدر لها شرب بحماية القوة السلطانية والشوكة الخاقانية وبهذا الحال حفظ طاعتها وصلاح جماعتها وهو السبب فى اجتماع الكلمه لهذه الامة المسلمه والله يقول (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) واختلاف عوائد الآفاق لا ينافى الطاعة والاتفاق ولا يكون ذريعة للافتراق وتمسك البلدان بعاداتها مخلوق مع ذواتها والمأمول من الحضرة العليه أدام الله نصرها اذا رأت هذا العبد فى مقعد صدق وحققت ان نطق بحق ان يرق لهذه الفئة القابلة ويرحم ضراعتهم ويجمع بابقاء عاداته الجميلة جماعتهم حاشا فضله وانصافه ان ينزع حلة تفضل بها أسلافه بل المأمول من كرمه الزيادة وهو المحيي لمآثر أسلافه السادة هذا ما فى الجنان نطق به اللسان بلا شبه ولا تمويه ولا خواطر تنافيه فاذا ساعد القدر بالقبول فهو المظنون المأمول وان كانت الاخرى فالله مع الصابرين وهو سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم والله يعلم اننا ما غيرنا ولا أضمرنا غير الذى أظهرنا ويوم تبلى السرائر نسأل عما صدرنا وهذا المكتوب يشرف ببلوغه الى الباب العالى المستوجب لكل المعالى

الثقة

الثقة الفاضل المؤتمن نخبة أقرانه لنباهة شأنه ابننا محمد أمير لواء عسكر البحر ومعه الكاتب الثقة الخبير العفيف الفقيه ابننا على الدرناوى وجناب الوزارة يثق بأن ما يلقى الى الحاملين من المقال يصل للعبد الفقير على أحسن حال والمرجو أن يعودوا الينا بخبر يبسط النفس ويعيد لها الانس والله يديم للدولة العلية المجيدية عزا لا يطاول حده ونصرا يمضى فيمن عاندها حده والسلام وكتب فى ٢٠ ذى القعدة سنة (١٢٦٥) (ومنها) مكتوب من أحمد باشا المذكور أصحبه مع العساكر المرسلة فى حرب القريم مخاطبا به الصدر الاعظم (ونصه) أما بعد تقديم التحية المناسبة لتلك الوزارة العلية والفخامة الراسخة الجلية فهذا أمير الامراء وأحد أعيان الكبراء الثقة العمدة فارس هذا الميدان ابننا رشيد وجهه معظم قدركم بهذه الفئة القليلة السابق تقريرها الجليل وزارتكم ووجهنا معه ابننا محمد أمير الاوا والله يرى ما للعبد الفقير من الاستحياء عند عرضها على الباب العالى ويسهل الامر ان ذلك على قدر العبد الفقير لا على قدر الدولة ذات العظمة والصولة والاعتماد على الوزارة العظمى فى الانهاء والتقرير وبهمم الرجال تنال الآمال وتحسن الاعمال والمأمول من وزارتكم المحمودة الصفات ان تهب لبائع نفسه لله حسن الالتفات فاليد فى طاعة الله وخدمة الخلافة واحدة والقلوب على ذلك متعاضدة والانفاس متواردة والمأمول ان يرى أمير هذا الجيش من عنايتكم فوق الامل والله يسدده الى مرضى العمل وينصر مولانا السلطان ويعلى بسطوته أركان الايمان ويديم وزارتكم ركنا منيعا وكهفا رفيعا والسلام وكتب فى شوال سنة (١٢٧٠) (ومنها) مكتوب من محمد باشا عند ولايته على القطر يطلب التولية والتقرير ويعلم بارسال نجدة عسكرية لحرب القريم وهدية مالية مصاحبة للمكتوب (ونصه) اللهم بالثناء عليك نتقرب اليك وبالصلاة على رسولك وخلفائه المتناسقين نسلك سبل المتقين وبشكر نعمك نقرع باب كرمك وهو باب الدولة العلية العثمانية والسلطنة المجيدية الخاقانية المخدومة بالاعمال والنية المقصودة لبلوغ الامنية الوارد فضلها على الاقطار من كل ثنية والشمس عن مدح المادح غنية وكفاها أن رفعت من الملة الحنفية اركانا وأقامت للحق قسطاسا وميزانا وروت أحاديث العناية صحاحا حسانا وورثها ملوكها الارض وهم الصالحون سلطانا يتبع سلطانا من سمى ذى النورين الى من اختاره المجيد سبحانه لعباده وأقام به شرائع دينه وفروض

جهاده وتولاه باعانته واسعاده ويسر على يده مصالح أرضه وبلاده لازالت القلوب بطاعته مؤتلفة والسيوف والاقلام بخدمته متصفة والالسن فى الاقرار بعجزها عما يجب له منصفة وبعد اذا أحيى تلك الحضرة العلية الشامخة والقدم التى فى كل فضل راسخة ضاق نطاق العباره ولم يبق الا مسلك الاشارة فالرجوع الى السنة وتحية أهل الجنة السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله من عبد نعمته العاكف منذ نشا على خدمته محمد بن خديم الدولة حسين باشا باى (أما بعد) فالمعروض على تلك الحضرة وهلم أول العمر ونفوذ الامر ان رهين نعمتكم وعبد طاعتكم وعاشر هذا البيت فى خدمتكم ابن عم عبدكم ومقام أخيه المشير احمد باشا باى سار الى عفو الله فداء الحضرة السلطانية متزودا بما مات عليه من طاعة الخلافة وخدمتها بالعمل والنية وفى الحين بادر أهل الايالة التونسية عموما وخصوصا وكافة أبنائنا مرصوصا الى هذا العبد الفقير وألقوا اليه مقاليد أمورهم والنظر فى حفظ مفردهم وجمهورهم فقام العبد بما وجب عليه من جمع الكلمة الاسلامية والدعاء على المنابر للسلطنة المجيدية راجيا من رضى الخلافة فى تأمين البلاد وزوال روعة العباد وسد طرق الفساد واعتصمنا بحبل الله جميعا ولى العبد الفقير سلطنتكم سامعا مطيعا على عادة اسلافه الخدام مع السلف الصالح السلاطين الكرام ووسيلة هذا العبد انه نشأ فى ظل سلطنتكم وتغذى بلبان نعمتكم وتعرف من نعمكم الانواع والاجناس واستضاء من عنايتكم بنور يمشى به فى الناس والكرم يرى اسالف الخدمة تاكد حرمة وقد ترجى العناية من ذلك الباب اعتمادا على فضل ذلك الجناب ولا يمت بغيره من الاسباب وعادات السادات سادات العادات والامل ان تزيد خدمة عبدكم على خدمة من مضى حتى يرى من ظل الله الرضى والله يعاملنى فى نيتى فيما عرضت من أمنيتى قبل حلول منيتى وقد ابتدأ العبد خدمته بما كانت اليه فيه مع من تقدم واحده والقلوب والجوارح عليه متعاضدة وهو ارسال طائفة من العسكر اعانة لتلك الفئة القليلة التى تقدمت وبحسن القبول قوبلت والامل الذى عليه المعول ان يشملها الفضل الاول ومعها جهد المقل ومنتهى طاقة الضعيف وعلى قدر المهدى الهدية فى هذه الاعانة الجهادية وعلم السلطنة بالحال والكنه يقتضى الاغضاء عنه يقدم ذلك عبد السلطنة المكتفى بوثوقه وأمانته وسياسته ونجابته أحد خواص عبدكم ومحل ابنه محمد أمير الوا وهو النائب عن العبد العاجز فى باب الفضل الذى وسيلته الرجاء والامل وفضل الكرام لا يتوقف على ملاحظة عمل اللهم أعنا على

ما

ما أوجبت لهذه السلطنة من فروض الطاعة وتأدية الحق جهد الاستطاعة واعصمنا بيدها الطولى من الاضاعة واجلنا من مرضاتها على سنن السنة والجماعة (اللهم) انا اليه ناظرون وعن أمره صادرون ولانجاز وعدك في نصر من ينصر دينك منتظرون فما فقد شيأ من وجدك ولا خاب من قصدك آمين يارب العالمين وسلام على المرسلين والخلفاء الراشدين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين وكتب في شوال سنة ١٢٧١ (ومنها) مكتوب من محمد الصادق باشا عند ولايته في طلب الولاية والتقرير مثل السابق (ونصه) الحضرة العلية الخاقانية السلطانية المخدومة بالجمل والنية والثقة من عدلها وفضلها ببلوغ الامنية والشمس عن مدح المادح غنية خليفة (رسول الله) وظل الله في الارض الحامي لشعائر الاسلام من سنة وفرض من اختاره المجيد سبحانه للخلافه وزين بما يرضيه أوصافه ومحى بعدله كل اخافه (اللهم) يا كريم يا مجيد أدم له النصر والتأييد والخير المزيد والعمر الطويل المديد في الزمن السعيد والعيش الحميد وأعن العباد على ما أوجبت له من فروض الطاعة واجعل السلطنة فيه وفي عقبه الى يوم الشفاعة (أما بعد) السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله فان العبد الشاكر على وراثة خدمته الناشئ في نعمته السابح في بحار منته يعرض للاعتاب العالية ومنبع الفواضل المتوالية انه تقدم منه اخبار للباب العالي بوفاة أخي وللحضرة العلية طول العمر ودوام الامر فصبر العبد على القضا ورجونا له حيث توفي في خدمة الخلافة الرحمة والرضى وحفظ العبد العاجز رتبته على العادة المقررة من السلاطين السادة ووجه لباب الفضل عبد السلطنة العلية نخبة الاعيان وصفوة الاقران وزير البحر ابننا أمير الامراء خير الدين يطلب على لسان العبد الفقير الفضل المعتاد من لباب السلاطين الامجاد وعلى عادة هذه البلاد وقدم العبد على قدره ما يستحي لعظمة السلطنة من ذكره وان كان مقام السلطنة الكبير يسمو على التقدير ويرى الفضل بالقبول أول مأمول فالعبد وجه رسله لباب الفضل وانتظر وفاز من وضع الامل موضعه بنيل الوطر والله أسأل أن يطيل بقاء أمير المؤمنين ويعز به الدين ويقوي بشوكته حبل الله المتين ويحيي بعدله سنن الخلفاء الراشدين ويديم الخلافة فيه وفي عقبه الى يوم الدين آمين يارب العالمين والسلام على أمير المؤمنين من عبد نعمته المخلص في خدمته المؤمل لنعمته الفقير الى ربه تعالى المشير محمد الصادق باشا باي وفقه الله كتب في ١٨ ربيع الثاني سنة ١٢٧٦ وكاتب فيما ذكر الصدر الاعظم بما (نصه) الصدارة العظمى والركن الاعظم الاحمى

والرتبة الشامخة الشما صدارة ركن الدولة وعز الوزارة ومنتهى الامال ومصدر الاشارة ومن لاتفى بمحاسنه العبارة الوزير الشهير الصدر الاعظم السيد محمد باشا لازال كما يختار سعيد الاراء محمود الاثار ومناقبه تخلدها أقلام الاقدار (أما بعد) تقديم التحية المناسبة للوزارة العلية المستمدة من أنوار الخلافة المجيدية فان العبد الفقير قدم للباب العالى خبر وفاة أخيه انا لله وانا اليه راجعون وان أهل الايالة قدموا العبد الفقير العاجز لجمع الكلمة من هذه الامة المسلمة فاجبتهم لحفظ مصلحة الوطن وقات ماراه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن والآن وجهنا الباب السلطنة العلية ومنبع الفضائل الجلية عبد السلطنة نخبة الاعيان وصفوة الاقران وزير البحر أمير الامراء ابننا خير الدين وفى رفقته أمير اللواء ابننا حسين لطاب الفضل المعتاد من السادة القادة السلاطين الامجاد ووجهنا معه الهدية على قدر العبد الفقير لاعلى قدر السلطنة الكبير كما يرى جنابكم السامى تقييد ذلك وجنابكم يسير رسولنا فيما يراه من المسالك والمحقق المأمول ان وزارتكم العظمى تعامل رسل العبد العاجز بحسن القبول كما هو المعروف من آثاركم والشائع من أخباركم و يرجع الرسول بفضل السلطنة قرير العين مسرور الفؤاد ودمتم ودام لكم الاسعاد وبلوغ المراد على ممر الآماد والسلام من معظم قدركم العالى وشاكر فضلكم المقدم والتالى الفقير الى ربه تعالى المشير محمد الصادق باشاباى وفقه الله وكتب فى ١٨ ربيع الثانى سنة ١٢٧٦ والمكاتيب على هذا النمط كثيرة وكفى باعلان الولاة فى جميع مكاتيبهم الرسمية بلقب التشريف الذى منحتهم به الدولة العلية يقول كل منهم من المشير فلان باشاباى وهاته السياسة هى التى يدين بها أهل القطر التونسى كالاعتقادات الدينية مع التمسك بالامتيازات الحاصلة الآن وأهمها بقاء آل حسين بن على على الولاية لالتحامهم بهم ومعرفتهم طبائع أهل القطر ومنازلهم وطبقاتهم وانما جلبنا ما تقدم بيانه وان كان الامر غنى عن البرهان لما شاع فى أذهان بعض من لاخبرة له بان أحمد باشا شق عصا الاسلام وتبعه من بعده وكادوا ان يلزموا أهل تونس بالكفر لرضاهم باعماله مع انه لم يأت شيأ فريا وغاية أمره التحفظ على الامتيازات التى أوجدتها العادة ورام أن يحصلها ر عياجاه على غير الطريق المناسب ولم يحصل الاسقاط طلب الاداء السنوى وابقاء الولاية فى مدة عمره وان تاب الى الله مما سلكه من عدم الانقياد لما طلب منه الذى ترائى للجمهور انه شبه خلاف و رقع خرقه بزيادة ارسال العساكر على ما كان يعهد الذى هو

فى أواخر عهده بهذه الدار وعزمه هو وابن عمه من بعده على التوجه الى دار الخلافة كما هو مشهور عند خاصتهم وقال ان تخوفنا من الدولة العثمانية أراه ان يجر بنا الى العدم ومعاذ الله ان أكون سببا فى خروج هذا الصقع الاسلامى من يد المسلمين وخروج روحى أهون على من ذلك هب ان الدولة نتزعت من يدى هذا الملك ألست بمسلم ورأيته بخط أمين أسرارهم كاتبهم الخاص الوزير أحمد بن أبى الضياف

﴿المطلب الثالث﴾

فى سياسة القطر الخارجية (اعلم) انه لم يكن من الدول جميعا معارض للسياسة المتقدمة حتى ان الدولة الانكليزية كانت مراقبة لحركات ولاة القطر معارضة لكل ما يخالف التبعية للدولة العلية مما يظهره بعض الدول والولاة وقد كانت تشدد فى ذلك بعد استيلاء الفرنسيس على الجزائر حتى انها لم ترد أن تقبل أحمد باشا فى سفره الى أوروبا الا بواسطة سفير الدولة العلية وعدل هو عن زيارتها لمخالفة ذلك للعوائد معه حيث كانت تقبل رسله بلا واسطة غيرانها بعد حرب القريم اغضت وقصرت من مسالكها ارخاء للعنان مع من يريد زيادة النفوذ من الدول كى يعوضها بمثله فى الجهات التى لها فيها منافع مع وجود الاستناد الرسمى للدولة العلية الذى كانت تحوم حوله فتستند لذلك عند الحاجة وأما دولة ايطاليا فانها كانت فى المدة السابقة متفرقة ولما اتحدت وصار لها اعتبار التعديل فى السنين الاخيرة فكانت موافقة لسائر الدول رسما وعلمنا وفى السر ينزع بعض متوظفيها الى ما صارت تنزع اليه دولة فرنسا على غير الطريقة الرسمية وذلك لان باتحاد ايطاليا صارت مشاركة للدول العظام فى النفوذ فى البحر الابيض وتطلب المنافع التى تناسبها فى جوارها ثم ان وحدة ايطاليا وجعل تختها مدينة رومة أحيت رسم خريطة الاستيلاء على قرطاجنة تذكار الملك الرومانيين غير أنها لم تحم حول ذلك الحمى جهارا لما تقدم من حق الدولة العلية ولان دولة فرنسا ناشرة لواء السطوة وسياستها لا توافق على ذلك فصارت ايطاليا محافظة على ابقاء ما كان على ما كان وأما دولة فرنسا فانها لم تخالف تلك السياسة ولم يكن يعنيها أمر تونس وعلاقتها بالدولة العلية الى ان استولت على الجزائر للاسباب التى ستردفى الباب الخامس عند الكلام على الجزائر فمن ذلك التاريخ صارت متحذرة من زيادة تداخل الدولة العلية فى القطر التونسى لاسباب (منها) ان الجزائر أصلها تابعة للدولة العلية ولم يكن استيلاؤها عليها بحرب مع الدولة العلية وانما اضطر اليه الحال فى الانتقام من والى الجزائر لاهانته نائب فرانسا (ومنها) ان نفس

الاستيلاء على الجزائر اغتاموا بعد سنين وحروب طويلة مع أهلها ومازال أهلها يدينون في عقيدتهم بالخلافة للسلطان العثماني (ومنها) ان مجاورة دولة قوية مثل الدولة العلية توجب مشاحنات يقتضيها الجوار ولا تذعن احداهما للاخرى بسهولة بخلاف ما اذا كان الجار ضعيفا فما هو الا ان يؤمر فيتبع وشاهده ان بمجرد ما تم أخذ الجزائر سنة ١٢٤٥ قدمت فرقة من الاسطول الذى كان على شطوط الجزائر وطلب رئيسها من والى تونس زيادة في الشروط منها ان لا تختص الحكومة التونسية بمتجر بل ولا تتجر ومنها ابطال التلصص بالسفن على السفن التجارية وابطال ملك الاسرى وابطال ما اعتيد من الهدايا وان يكون للفرانسا وبين التعامل في القطر مثلما يتعامل أهله فعقد الوالى معه ذلك على كره وسجل وأرسل الى دولة فرانسا معلما بان الشروط أخذت شبه غصب وكانت اذذاك دولة فرانسا في شغل من الثورة على ملكها فعدلت تلك الشروط بعض التعديل فمثل تلك الاسباب لزم فرانسا مراعاة مصالحها ومداخلتها في حراسة سياسة تونس والذى استقر عليه القرار من الدولة الفرانساوية من ذلك التاريخ الى الآن هو ما يشير اليه ما رأيته بخط امين أسرار الحكومة أبي العباس الوزير أحمد بن أبي الضياف ونصه لما اجتمع أبى أحمد باشا بملك فرانسا وهو لويز فليب في خلوة قال له ان كنت تروم الاستقلال فلا سبيل اليه والذى تعتقده منى ان فرانسا تحمى بسياستها حالتك التى انت فيها الآن بحيث لا يتعدى عليك أحد من جهة البحر وأما البر فدبر أمرك فيه من جهة طرابلس وأساس حمايتك هو التحبب الى الرعية والرفق بهم سمعنا ذلك منه مشافهة رحمه الله اه وهاته السياسة التى صرح بها ملك فرانسا اذذاك هى السياسة المعول عليها عند عقلاء الفرانسيس قديما وحديثا حتى قال أحد كبار جنرالات الفرانسيس وأحد حكام قطر الجزائر بقصد التبليغ الى حكومة تونس والحال انه عسكرى والغالب على الحزب العسكرى هو الميل الى الاستيلاء وذلك سنة ١٢٩٥ عند ختام مؤتمر برلين في شأن الحروب الاخيرة بين الدولة العلية والروسيا وقد اشتهر اذذاك ان بعض نواب الدول في المؤتمر لما رأوا مشاحنة نائب فرانسا في تسليم قبرس الى الانكليز أوعزوا اليه على غير الطريقة الرسمية بان تستولى فرانسا على تونس ارضاء لها ولم تعمل بذلك فرنسا فقال الجنرال المذكور ان يبلغ قل لوزيركم ولباى ها انتم ترون من هى الدولة التى تصدقكم من التى تكذبكم فانهم يقولون لكم انا نريد الاستيلاء عليكم ليبعدوكم وينفروكم منا والآن قد أعطوكم لنا وأبينا من الاستيلاء عليكم فلتعلموا من هو الصادق ولتعلموا انا لم نمتنع من الاستيلاء

الاستيلاء عليكم لمجرد حب الباى لان مصالح الدول لاتتداخل فيها الشخصيات وانما امتنعنا لعدم فائدتنا لان فائدتنا فى تونس ان كانت هى المال فهى فقيرة وخالية وفرانسا ليست بمحتاجة وان كانت هى تكبير الارض ففى الجزائر اراضى وسيعة ولازالت الى الآن خاوية محتاجة الى العمران فالاولى بنا تعمير أرضنا قبل ان نأخذ أرضا أخرى خالية فأى مصلحة لنا فى ان نرسل عساكرنا لاطلاق الرصاص عليهم فى قابس والحالة ماذكرنا غاية ماتطلبه منكم هو الهناء والراحة فى داخليتكم حتى نرتاح نحن براحة جوارنا وأما اذا أحدثتم الاختلال فى داخليتكم وأحوجتمونا الى اطلاق الرصاص لاجلكم فالاولى ان نطلقوه اذا لاجل انفسنا لان ما كنا نتباعد عنه توقعونا انتم فيه الخ فكلامه صريح فى ان سياستهم هى ابقاء تونس على ماهى عليه وكذلك سمعت من أعيانهم فى السياسة انهم كما لا يريدون هم الاستيلاء على تونس لا يريدون غيرهم ان يتولاها مصرحين بحقيقة سياستهم التى وفى بها كلام الجنرال المذكور مع الانفة من منة الدول فى المؤتمر باعطائهم شيئا لافائدة فيه زيادة على ماهم حاصلون عليه وهو غاية اربهم فى تونس بان يكون لدولة فرانسا المنزلة الأولى فيها وتتقدم على غيرها فى النفوذ السياسى والمتجرى بحيث تكون كل مصلحة عامة لايقتدر على عملها الاهالى أو الحكومة تسلم الى الفرنساويين و يرغبون فى أن تكون الادارة فى الداخلية حسنة تثمر كثرة العمران والثروة ليزداد بذلك متجرهم وحركتهم ونفوذهم لكن على وجه فى الادارة لايمكن أن يتعطل به قصدهم و يرى بعضهم ان من أسباب التعطيل ان تكون الحكومة قانونية شورية اذ عبارأوا ان ذلك يعارض مصلحتهم فى بعض الاحيان باستبداد الحكومة فى الامتناع من الاجابة الى بعض مقترحاتهم لرأى الامة التى هى مقيدة به وذلك عندهم مما لايمكن ان يعارض لانه هو القاعدة الاساسية فى مملكتهم وماعدى ماتقدم فلا أرب لهم فى الاستيلاء على الاحكام أو معارضة الوصلة مع الدولة العلية التى لاتنقض هاتيك الاساسات فهاته هى مقاصدهم فلو تجديد الادارة فى الحكومة قادرة على الانتفاع بها ودفع غائلتها ومنها عدم الاستواء فى الحكم لكان مما يعين على الراحة ورجال الدولة الفرنساوية قابلون لاصلاح الاحكام وانفرادها كما سيأتى بيانه ومثل ذلك تقييد الحكومة بالقانون الذى لامندوحة عنه و يتبين لرجال الدولة الفرانساوية أن التقييد بالقانون لايفوت مصلحتهم المذكورة لان عقلاء الامة باجتماعهم تكون حالتهم أدعى الى مايزيد فى خير الوطن ومايدركه أفراد المستبدين

فى تونس بالتصرف من وجود مراعات الدولة القوية المجاورة يدركه مجموع العقلاء للامة على وجه أتم مما هو للافراد ويراعون مقتضى الاحوال نعم انهم يفرقون بين مايعود لما ذكر ومايعود للافراد فى خويصة ذاتهم مما لايرضاه عموم الامة لو اطلع على تفاصيله ولمثل ذلك ألحت دولة فرانسا على تونس فى تأسيس التنظيمات سنة ١٢٧٤ كما سيتضح وعاضدتها دولة الانكليز حتى ورد اسطول الدولة الاولى وكان فى آثاره اسطول الدولة الثانية وألح كل من قنسليهما فى اجراء الامر محتجين بالشريعة وعمل الدولة العثمانية والسياسة الحاضرة وعاضدهما رئيس الاسطول الفرنساوى وتحققوا ان ذلك غير معارض لمصالح دولهم الخاصة وان استند بعض متوظفيهم فى بعض الاحيان ميلا الى موافقة الولاة الممتنعين الى ان الحكومة الشورية يخشى منها تعطيل مقاصدهم وينهون الى دولهم الاحوال على مايوافق سلوكهم وربما أشاروا الى فوات مقصود دولتهم اذا خالفت رأيهم فتضطر دولتهم الى السلوك على مايشيرون اليه حيث ان الدول العظيمة تراعى الوصول الى مقاصدها فى الخارج بأى طريق أمكن وتكسو تلك الوسائل بحال تحسنها أيدى السطوة والقوة ولا مقايسة بين سيرتهم فى داخليتهم وسيرتهم فى الخارج سيما فى الجهات التى لهم فيها مآرب فربما ارتكبوا فى ذلك مالا يمكن تصور مثله فى داخليتهم ووجه ذلك هو التوصل الى نفع دولتهم لان مثل تلك المنافع اذا ساغ ان تعقد لاجله الحروب التى تراق فيها الانفس وتضيع فيها الاموال من الطرفين فلئن يتوصل اليها بوسائل أخرى أيا كانت فهو أخف وأولى ولهذا لاترى أثرا لمثل تلك السيرة فى الجهات التى لامقاصد لهم بها بل تراهم هنالك يسيرون على نحو سيرتهم فى داخليتهم وسيأتى لهذا مزيد بيان فى الخاتمة ان شاء الله تعالى اذ القصد هنا خصوص مايتعلق بالقطر التونسى من جهة سياسته الخارجية وحاصله من جهة فرانسا ابقاء تونس على حالتها وامتيازاتها والامتناع من زيادة الالتحام بالدولة العلية ولذلك لما قدم قبطان باشا الى طرابلس لافتكاكها من يد آل قرامانلى سنة (١٢٥١) أرسلت فرانسا اسطولا الى حلق الوادى حذرا من قدوم الاسطول العثمانى الى تونس فتخوف اذ ذاك والى تونس مصطفى باشا من أن يتهم بسعيه فى ذلك وكاتب قنسل فرانسا بما نصه وبعد فان جناب الدولة الفرانساوية وجهت أجفانها لمرسى عملتنا على مقتضى المحبة والمودة وقابلناهم باكرام لان شقوفنا فى مراسى الفرانسيس كأنها فى مراسى عمالتنا فكذلك شقوف الفرانسيس عندنا وأما اقامة الاجفان فى هذا الوقت بحلق الوادى ودونانمة مولانا

السلطان

السلطان بقربنا وفيها السيد قبطان باشا بما تنتج لنا مضرة في الحال أو في المستقبل من جهة الدولة العثمانية أدام الله لنا وجودها الانها بما تظن في جنابنا ظنا يضر بنا ومعلوم اننا تحت طاعة مولانا السلطان في أمره ونهيه وباسمه نخطب في جوامعنا وعلى سكتنا فلا يخطر به انا انعصيه أو نخالف أمره أو نعارضه بشيء فالمراد ان تعرف الامرال بهذه المضرة التي نتوقعها والاعتماد على كمال عقلكم في حسن التبليغ وشفوف الفرانسيس مهما قربنا أو أتى لمرسانا فرحبا بها ونقابلها بالاكرام على مقتضى قوانين المحبة ولا زائد الا الخير والعافية وكتب في (١١) جمادى الثانية سنة (١٢٥٢)

وأجابه القنسل بما نص تعريبه انه بلغنا ووصلنا المكتوب الذي تشرفنا به من عند السيادة وأعلمنا به الامرال للندن وعلمنا جميع ما تضمنه وجوابنا عليه هو ما سنذكره وهو ان جنابكم العلي بريء وأجنبي وخارج من الاتفاق الذي اقتضاه نظر الدولة الفرانساوية في ارسال هذا الاسطول لسواحل تونس وأنتم لا يمكن لكم ان تمنعوا دولة الفرنسيس من ذلك وهو ارسال شقوفها لسواحل تونس ولاجل ذلك لا يوجد عليكم لوم ولا عتاب من جناب الدولة العثمانية لانه لا وجه لذلك والدولة الفرانساوية تعلم تحقيق حالتكم مع الدولة العثمانية وحاشا جناب دولتنا أن ترضى بما يوجب لكم غبارا مع دولتكم وانما مراد الملك أن تبقى جناب دولتكم مع الدولة العثمانية على العهد القديم السابق من غير تبديل ولا تغيير لكن الدولة العثمانية لا يمكن لها ان تخترع أمرا جديدا تضر به مصلحة الفرانسيس في الناحية التي تحت يده في أفريقية ولاجل ان يمنع ما عسى ان يقع من المضرة أرسل الملك اسطوله لتونس ليمنع به قدوم قبطان باشا لاجل التصرف بما هو مأمور به والامرال لما بلغه ان قبطان باشا أتى لطرابلس وأعلم ان مراده الاتيان لتونس في ذلك الحين أرسل الامرال جفنا من الاجفان التي تحت حكمه هنا ليعلم قبطان باشا ان حبيب السلطان الصافي وهو ملك الفرانسيس لا يمكن له ان يتحمل هذا التعدي بوجه من الوجوه في المملكة التي تحت يده في أفريقية لان قدوم دونانمة المسلمين الى تونس يتقوى بها قلب باي قسنطينة الذي عندنا معه في التاريخ مكالمة وربما كان بيننا وبينه حرب فلاجل ذلك نعلم قبطان باشا أن لا يقدم ويرجع للمحل الذي جاء منه فان صمم وعزم على القدوم فان الامرال واجب عليه أن يصده ويمنعه بالمدافعة القهرية بالقوة اهـ فانت ترى كيف صرح بالحالة المطلوبة مع تصريحه بان الدولة العلية هي دولة تونس لكنها باامتيازها كما هو صريح عبارته لمن تدبرها فهذه هي السياسة

الخارجية لهذا القطر واستمر عليها الى سنة ١٢٨٠ التى حصلت فيها الثورة العامة الآتى بيانها ونادى الاهالى بالتشكى للدولة العلية وقدمت شكايات شفاهية وكتابة لرسولها حيدر افندى عند قدومه بالاسطول العثمانى مع أساطيل الدول وطلبوا بواسطته تداخل الدولة العلية فى تحسين ادارة القطر بل ان بعض البلدان طلبوا الانضمام الحسى للدولة ورفعوا العلم العثمانى وتداخل فى هاته الثورة نواب الدول كل على حسب ما تقتضيه سياسته فاثرت الحالة فى الوالى ووزيره مع ما هو معلوم من الحالة السياسية السابقة وانتج الرأى أن يرسل بالشكر للدولة العلية عما فعلته ويطلب منها تحرير الروابط والامتيازات كتابة بما لم يبق معه مقال لقائل فسافر بذلك الوزير خير الدين مع التفويض التام وقص على الصدر الاعظم وهو اذذاك فؤاد باشا مطالبه وحصلت مذاكرات مع رجال الدولة عديدة أنتجت الاتفاق على أصول الروابط المبنية على العوائد المعروفة الآتى بيانها فى نص الفرمان الآتى وتلقى الوزير خير الدين مع مزيد الترحاب به من الدولة ما يبلغه للوالى شفاها من مزج حلاوة الثناء عليه بمرارة الاعتراض على تصرفاته التى هوت بالقطر الى الخراب وتلقى ذلك حتى من فم السلطان عبد العزيز نفسه ثم رجع بمكتوب من الصدر فؤاد باشا محتويا على الاصول التى وعد بأنها سيصدر بها الفرمان الذى صدر الاذن السلطانى به ولم يساعف الوقت للعجلة بصدوره ثم كتب الوالى بشكر ذلك واستنهض صدور الفرمان مرارا فيرد الجواب بالوعد وكان جميع ذلك غير معلن به الى سنة (١٢٨٨) وكانت فرانسا اذذاك فى شغلها الشاغل من حرب المانيا لها فاطمأنت ايطاليا من جهتها وظنت تأثير التباعد من الدولة العلية وسنحت لها فرصة وهى ان وزير الحكومة التونسية مصطفى خزنه دار اكترى ارضا وسيعة تسمى بالجديدة الى لجنة ايطالية وأرسل الوزير أحد أعوانه الى تلك الارض وانما التسبب لفسخ الكراء مع ما فى نفس ايطاليا من جهة تونس فادعت اللجنة خسائر حصلت لها من تعدى تابع الوزير لو بسطت من الذهب على سطح تلك الارض لساوت سعتها وامتنع الوزير من تحمل ذلك فأعلن قنسل ايطاليا بقطع الخلطة وتهدد الوالى وجهزت ايطاليا أسطولها للاستيلاء لولا تعرض الدولة العلية الذى حجزها عن ذلك وانفصلت النازلة بالشروط التى أرادتها دولة ايطاليا فى الخسائر التى ادعت بها اللجنة ولم تختص بالواقعة فقط بل هى عمومية فتيقن الوالى ان لا نجاة الا باحكام الوصلة مع الدولة العلية بأمر ان تحصل منه الراحة

فكتب

فكتب الوالي يستحث اصدار الفرمان وكتب الوزير خير الدين للباب العالي مكتوبا في بيان الاخطار المحيطة بالايالة اذا لم تتدارك الدولة العلية بحفظها فورد الجواب من الصدارة بأن نازلة الفرمان مهما تقتضي ارسال من يعتمد من الوالي للتفاهم في النازلة مع تلميح أو تصريح باستقباح السيرة التي عليها الوالي والصدر اذذاك على باشا ففهم رجال الحكومة ان الدولة غير راضية بأن يبنى الفرمان على ما في مكتوب الصدر السابق فوجه الوالي الوزير خير الدين بالتفويض الذي (نصه) من عبد الله سبحانه الموكل عليه المفوض جميع الامور اليه المشير محمد الصادق باشا باي سدد الله تعالى أعماله وبلغه آماله الى الهمام المفخم أمير الامراء ابننا خير الدين الوزير المباشر أدام الله حفظه وأجزل من السعادة حظه (أما بعد) فاننا بمقتضى ما نحققه من صدقك وأمانتك وكفايتك وجهناك للابواب العلية السلطانية العثمانية أعز الله نصرها وأدام الله فخرها للكلام فيما يؤكد أصول عاداتنا المألوفة المعروفة الآن وما تتفصل به مع الدولة العلية في ذلك بالكتابة فهو ماض في حقنا فوضنالك في ذلك التفويض التام بحيث لم تستثن عليك في ذلك فصلا من فصول التفويض ولا معنى من معانيه وأقمناك فيما ذكر مقام أنفسنا تفويضا تاما عرفنا قدره والتزمنا به والله أسأل لكم التوفيق والامداد وبلوغ الامال والاسعاد ومع التفويض المتقدم ومعرفة العادات المألوفة فان الوزير المذكور لم يتمم شيأ مع الدولة الا بعد ان عرض على الوالي الشروط التي استقر عليها الرأي للفرمان وقبول الوالي لها مع الاستحسان فتمم الفرمان مع الصدر اذذاك محمود نديم باشا وقاسى الوزير خير الدين متاعبا من امتناع رجال الدولة العلية في زيادة شروط الامتياز وناضل الوزير خير الدين عن حسيني عاما يشهد له بصدق الوفاء والبراعة في السياسة ولم يرد في الفرمان مكتوب الصدارة الا قليلا ورجع الوزير خير الدين بالفرمان علنا مع اعلاء واتيانه بالنشان المجيدي المرصع للوالي ولعدة من كبار رجال الحكومة ... اقامة مدة الاحتما بها حيث كان في الاستانة مرض الكوليرا ومن استبشار الوالي به وشكره على عمله أرسل له أمير لواء العسة مصطفى بن اسماعيل وهو اذذاك أعز المقربين اليه فواجهه من خارج محل الاحتما وأبلغ اليه التشكر وبات ليلة ورجع في البابور الخاصة التي قدم فيها ولما قدم الوزير المذكور بالفرمان المشار اليه عقد له موكب كاعلى ما يمكن من المواكب وألبس

الوالى النيشان ثم تشرف بالفرمان وعظمه ثم قرأه علنا (وهذا نص) تعريبه بتعريب الباب العالى الدستور المكرم المشير المفخم نظام العالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهمات الانام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى الوالى بتونس الآن الحائز الحامل للنيشان المجيدى الشريف من رتبة الاولى مع النيشان الهمايونى العثمانى المرصع وزيرى محمد الصادق باشا أدام الله تعالى اجلاله آمين ليكن معلوما عندما يصلكم توقيعى الرفيع الهمايونى انه منذ وجهت وأودعت من جانب سلطنتنا السنيه ادارة الايالة التونسية التى هى من ممالك دولتنا العليه المحروسة المتوارثة الى عهدتك ذات اللياقة والاهلية كما وجهت سابقا الى عهدة أسلافك لم تزل تظهر حسن السيرة والخدمة وتنهى الى طرفنا الملوكى الاشرف خلوص النية والاستقامة حتى صار ذلك قرينا لعلمنا المضئ بالعالم فأمولنا السلطانى على مقتضى الشيم المرضيه التى جبلت عليها هو الدوام فى ذلك المسلك المرضى والجد والاجتهاد فى كل ما يمى عمران مملكتنا الشاهانية وسعادة أهاليها تبعة دولتنا العليه ورفاهيتهم وراحتهم حتى تستديم بذلك استحقاق عنايتى الشاهانية واعتمادى السلطانى المبذولين فى حقك وان فهمنا وتعرف قدر تلك العناية والاعتماد وتشكرهما ولما كان المقصود الاصلى والمراد القطعى لسلطنتنا السنية هو ارتقاء طمأنينة الايالة المهمة الراجعة لدولتنا العلية وغو عمرانها وتأسيس أبنية الامن والراحة لسكانها يوما فيوما وكان من البديهيات أن السلطنة العزيزة لا يعزها ولا يؤودها صرف الهمة والعناية العائدة الى حقوقها الاصلية لتمام استحصال هاته المطالب وورد الطلب المندرج بكتابك المخصوص الموجه من طرفك أخيرا الى جانب الخلافة العلية قررت وأبقيت ايالة تونس المحدودة بحدودها القديمة المعلومة بعهدتك بضم امتياز الوراثة وبالشروط الآتية وحيث ان مرغوبنا السلطانى [illegible] بيانه اغماه وتزايد عمران تلك المملكة الشاهانية [illegible] دقة [illegible] وتأخر فى الواردات لكل من الحكومة [illegible] ال [illegible] ما كان يرسل باسم معلوم من الايالة [illegible] بموجب التبعية المقررة المشروعة ترجمة لأهالى تلك الايالة (ولما) كانت الايالة المشار اليها من الاجزاء المتممة لممالكنا الملوكية صدرت ارادتنا السنية بان يكون الوالى بتونس مرخصا له فى تولية المناصب الشرعية والعسكرية والملكية والمالية وهما السياسة لمن يكون منا أهلا لها

وفى

وفى العزل عنها ءقتضى قوانين العدل وفى اجراء المعاملات المعلومة مع الدول الاجنبية كما كانت سابقا فيما عدا المواد البوليتكية العائدة الى حقوقنا المقدسة الملوكية ونعني بها ما كان كعقد الشروط المتعلقة باصول السياسة والحرب وتغيير الحدود ونحوها مما يكون اجراؤه راجعا الى حقوق سلطنتنا السنية وعند حلول القدر المحتوم فى الولاية وتقديم المعروض بطلب الفرمان الشريف من الوارث الاكبر من عائلتك لطرف سلطنتنا السنية يرسل له الفرمان الشريف مع منشور الوزارة والمشيرية الهمايونى كما استمر العمل بذلك الى الآن بشرط أن تستمر الخطبة باسمنا السلطانى وتزين به السكة التى تضرب هناك علامة علنية للارتباط القديم الشرعى لايالة تونس بمقام الخلافة الجليل وأن يبقى السنجق على لونه وشكله ومهما وقع حرب لسلطنتنا السنية مع أجنبي يرسل العسكر من تلك الايالة الشاهانية بقدر الاستطاعة طبق ما جرت به العادة القديمة فى الجميع ومع تلك المواد يكون أمر الولاية بطريق الوارثة مخصوصا بعائلتك على أن تبقى سائر المعاملات الارتباطية مع دولتنا العلية جارية مرعية كما كانت سابقا وان تجرى الادارة الداخلية لتلك الايالة مطابقة للشرع الشريف وموافقة لقوانين العدل التى يقتضيها الوقت والحال الكافلة بتأمين السكان فى النفس والعرض والمال فاعلا لما ذكر صدر هذا الفرمان الشريف الجليل القدر من ديواننا الهمايونى وأرسل موشحا أعلاه بخطنا الهمايونى السلطانى فخلاصة نياتنا الشاهانية انما هى اصلاح حال تلك الايالة المهمة ومالا يتمكن وتقوية ذلك حالا ومآلا واستكمال أسباب السعادة والرفاهية والامنية لصنوف تبعتنا المستظلين بظل عدلنا السلطانى ومأمولنا القطعى الملوكى ان يبذل من جهتنا الجهد فى حصول ماذكر بتمامه حيث كان تمام المحافظة على حقوق سلطنتنا السنية المحققة بتونس من قديم الازمان وعلى أمنية الاهالى القاطنين بتلك الايالة المودعة بعهدة صداقتك من حيث النفس والعرض والمال وسائر الحقوق العمومية شرائط امتياز الوارثة الاساسية المقررة فيقتضى ان تتأكد محافظتها عن تطرق الخلل دائما سرمدا ومتباعدا عن وقوع الحالة والحركة على خلافها اذا عرفت ذلك فلابد ان تعرف أنت ومن يقوم مقامك فى أمر الولاية بالتوارث من اعضاء عائلتك قدرهاته النعمة العلية الشاهانية وتشكرها فعلى ذلك تسعى لتحصيل رضاى السلطانى بالغيرة ومزيد الاهتمام باجراء هذه الشروط المؤسسة حرر فى اليوم التاسع من شهر شعبان المعظم سنة ثمانية وثمانين ومائتين وألف ونشر الفرمان فى صحف الاخبار وحصل اذ ذاك من عموم

الاهالى أفراح خارقة للعادة فى ذات الحاضرة وفى سائر بلدان القطر وفى سائر قبائل العربان كل بما يناسب عوائده ودامت الزينات أزيد من ثلاثة أشهر متوالية والسبب فى ذلك أما ما يتعلق بالوالى فلاستقرار أمره على أساس متين له ولعائلته طالما سعى فيه من كان قبله ولم يحصل عليه كما تقدم مع الارتياح من مقاصد الاجانب المتنوعة وأما الاهالى فلحصول مرغوبهم من تمام الاتصال بالدولة الاسلامية مع شروط الامن لهم وحسن الادارة فيهم من ولاتهم المتحمين بهم والمجبو بين عندهم وان لم يجر المطلوب فيهم على وجهه مما أبقى الباب مفتوحا فى حقهم ولم يحصل من الدول الاجنبية أدنى انكار ولا معارضة لما تضمنه الفرمان المذكور الا دولة فرنسا فلم توافق على الاعتراف به وبقى الامر على ذلك رسميا الى الآن لكن المقاصد والسيرة الصادرة من الوزير الحالى مصطفى بن اسمعيل وما نشأ عنها من الارتباكات يجهل ماهو منتهاها فالله فيهم علم غيب هم صائرون اليه فهذا هو خلاصة السياسة الخارجية لهذا القطر الى هذا العهد وهو جمادى الثانية سنة ١٢٩٧

تنبيه قد حدثت حوادث مهمة مما أشرنا اليه بعد الفراغ من هذا الجزء نفردها بذيل وحدها ان شاء الله تعالى عند الكلام على سياسة فرانسا الخارجية

﴿ قد تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى
أوّله مطلب فى السياسة الداخلية
من العائلة الحسينية ﴾

﴿جدول الاحصاآت﴾

﴿جدول الاحصاآت﴾

الديانة	التجارة فرنك	سكك الحديد أميال	الديون فرنك	الخرج فرنك
اسلام	٥٠٠٠٠٠٠٠٠	١٣٨٦	٥٠٠٠٠٠٠٠٠	٣٦٨٠٠٠٠٠٠
اسلام	٥٠٠٠٠٠٠٠٠	١٢٠٥	٣٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٠٩٠٠٠٠٠٠
اسلام	٤٠٠٠٠٠٠٠	٢٠٠	١٢٧٠٠٠٠٠٠	١٤٠٠٠٠٠٠
اسلام	م	لا	٤٠٠٠٠٠٠٠	م
اسلام	م	لا	لا	٥٤٥٠٠٠٠
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	٢١٣٥٠٠٠٠	لا	لا	١٧٥٠٠٠٠
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م
اسلام	م	لا	لا	م

الدول	التخوت	السكان عدد النفوس مليون	العساكر وقت الحرب	السفن حربيه	الدخل فرنك
العثمانيه	القسطنطينيه	٢٢٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠	٧٨	٣٦٨٠٠٠٠٠٠
مصر تابع لها	مصر	١٦٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠	١٣	٢١٦٠٠٠٠٠٠
تونس مثلها	تونس	١٥٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	٢	١٤٠٠٠٠٠٠
العرب	فاس	٧٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
الفرس	طهران	٥٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠	لا	٦٢٠٠٠٠٠٠
افغانستان	كابل	٦٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	لا	م
بلوجستان	كلات	٢٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
مقا	براك	٧٥٠٠٠٠	م	م	م
هرات	هرات	٢٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
خوقند	خوقند	٢٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
التركمان	مرو	٣٥٠٠٠٠٠	م	لا	م
مسقط	مسقط	٢٠٠٠٠٠٠	م	م	م
رياض وغيرها	رياض	٢٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
عرب الجزيره		٢٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
كشمير	كشمير	١٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	لا	م
تشبن	احسن	٣٠٠٠٠٠٠	م	م	م
الزنجبار	زنجبار	٢٠٠٠٠٠٠	م	٥	١٧٥٠٠٠٠
برنو	ككوا	٨٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	لا	م
وداي وتوابعها	وره	٤٥٠٠٠٠٠	م	لا	م
فلاتا	ساكاتو	٦٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
تامبكتو وتوابعها	سانسان	٤٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
عادل وحواليها	هرر	٨٠٠٠٠٠٠	م	م	م
الصحراء الغربيه	كبرا وغيرها	٢٠٠٠٠٠٠	م	لا	م

اسلام	م	لا	لا	م	
اسلام	م	لا	لا	م	
نصرانيه	م	لا	لا	م	
مشركون	م	لا	لا	م	
مشركون	م	لا	لا	م	
مشركون	م	لا	لا	م	
مشركون	م	لا	لا	م	
مشركون	م	م	لا	١٨٠٠٠٠٠٠٠٠	
مشركون	م	م	٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٩٠٠٠٠٠٠٠	
مشركون	م	لا	لا	م	
مشركون	م	لا	لا	م	
نصرانيه	م	لا	لا	٢٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	١٩٥٤٠٠٠٠٠٠٠	٠٠١٢	٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٦٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	٢٨٢٥٠٠٠٠٠٠٠	٩٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٣٨٤٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	م	٥٠٠٠	٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٦٢٤٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	م	٠٨٠٠	٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٣٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠	٢٤٢٩٣٠٠٠٠٠٠٠	٢٦٦٧٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	م	٢٠٠٠	٢٥٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٤٠٠	١٠٦٠٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠	٨٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٥٩٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	٨٠٠٠٠٠٠٠	لا	٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٤٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	٤٦٢٠٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠	٣٥٠٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	١٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٧٠٠٠	١٩٤٨٠٠٠٠٠٠٠	١٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠	
مختلطه	٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١١٠٠٠	٢٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠٠٠٠٠	
مختلطه	تابع	م	تابع	تابع	
نصرانيه	٢٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٥٢٨	٢١٥٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٢٠٠٠٠٠٠٠٠	

التوارك	ادلى وغيرها	٤٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
صحراء تيبوس		١٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
الحبشه	ادواح	٥٠٠٠٠٠٠	م	م	م
بورما	مندلاى	٣٥٠٠٠٠٠	م	لا	م
سيام	بان حوك	٦٥٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠	م	م
كوشى الصين	نوشواشين	٩٠٠٠٠٠٠	م	م	م
كمبوديا	بنوم بنه	١٠٠٠٠٠٠	م	م	م
الصين	باكين	٥٣٧٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠	٣٧	١٨٠٠٠٠٠٠٠
الجابون	جدو	٣٣٠٠٠٠٠٠	٥٠٢٣٠	١٣	٢٩٠٠٠٠٠٠
نيبول		٢٥٠٠٠٠٠	م	لا	م
بوتان		١٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
الجبل الاسود	جيتين	٣٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠	م	١٥٠٠٠٠
اليونان	اتينه	٢٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٣٠	٣٦٠٠٠٠٠
ايطاليا	رومية	٢٧٠٠٠٠٠٠	٨٢٩٨٢٧	٨٧	٢٩٠٠٠٠٠٠
اسبانيا وملحقاتها	مدريد	٢٦٠٠٠٠٠٠	٢١٦٠٠٠	١٨٢	٥٨٨٠٠٠٠٠
البرتقال وملحقاتها	لزبون	٨٠٠٠٠٠٠	٧٠٠٠٠	٥٠	١٣٠٠٠٠٠٠٠
فرانسا وملحقاتها	باريس	٤١٠٠٠٠٠٠	٢٤٢٣١٦٤	١٥٤	٣٦٦٧٠٠٠٠٠٠
سفيسره	بارن	٢٥٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	لا	٣٧٠٠٠٠٠
بلجيك	بروكسل	٥٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	م	٣٠٠٠٠٠٠٠
النمسا تابعها	فيينا	٣٨٥٠٠٠٠٠	١٠٩٤٠٠٠	٧٠	١٠٨٧٥٠٠٠٠٠
الصرب	بلغراد	٢٠٠٠٠٠٠	٢٢٥٠٠٠	لا	١٤٠٠٠٠٠
الرومانيه	بخارست	٥٠٠٠٠٠٠	١٤٠٠٠٠	م	١٠٠٠٠٠٠٠
انكلاتيره	لوندره	٣٠٠٠٠٠٠٠	٥٤١٢٣٥	٣٨٣	١٨٣٠٠٠٠٠٠٠
الهند التابعة لها	كالكوته	١٧٥٠٠٠٠٠٠	٤٩١٠٠٠	لا	١٣٠٠٠٠٠٠٠
بقية مستعمراتها		١٥٠٠٠٠٠٠		لا	تابع
هلانده وتوابعها	هاك	٢٣٨٠٠٠٠٠	١٤٠٠٠٠	١١٨	٢٢٠٠٠٠٠٠٠

نصرانيه	٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	١١٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٧٧٠	٢١٢٠٠٠٠٠٠٠٠	١٢٣٠٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٥٤٠	٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٦٣٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٩٠٠٠	٩٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	
مختلطه	م	لا	لا	م	
مختلطه	م	لا	لا	م	
مختلطه	م	لا	لا	م	
نصرانيه	م	لا	لا	م	
مختلطه	م	لا	لا	م	
مختلطه	م	لا	لا	م	
مختلطه	م	لا	لا	م	
مختلطه	م	لا	لا	م	
مختلطه	م	لا	لا	م	
مختلط	م	لا	لا	م	
مختلطه	م	لا	لا	م	
نصرانيه	٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٧٤٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٧٥٠٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	م	٥٧٠	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٢٥٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	٣٨٧٧٥٠٠٠	لا	م	٨٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	م	لا	٠	م	
نصرانيه	٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٣٧٠٠	١١٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٢٠٠	١٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٨١٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	م	م	م	م	
نصرانيه	م	٤٠٠	٣٠٠٠٠٠٠٠	٨٥٠٠٠٠٠٠٠	
نصرانيه	م	م	م	م	
نصرانيه	٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠	م	م	م٠	
نصرانيه	٥٢٥٠٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١١ ٠٠٠٠٠٠٠	

المانيا	برلين	٤١٠٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	٧٢	١٣٢١٠٠٠٠٠٠
اسويد والنروج	ستكهولم	٥٥٠٠٠٠٠	١٤٠٠٠٠	١٢٨	١٣٦٠٠٠٠٠٠
الدانيمرك	كوبنهاغ	١٨٠٠٠٠٠	٤١٠٠٠	٣٧	٧٠٠٠٠٠٠٠
الروسيا	سان بترسبورغ	٨٢٠٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	٢٢٥	٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠
باس وماجاورها	سمار	م	م	لا	م
تيه بي	كوران كوكا	م	م	لا	م
كرومان		م	م	لا	م
ليبريا	برنوفيه	٥٠٠٠٠٠	م	لا	م
فازكي وماعها		م	م	لا	م
دهومه	ابومج	٨٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	لا	م
الباس وماعها		م	م	لا	م
اورنج وماجاورها		م	م	لا	م
بادجوان	ذومان	م	م	لا	م
المجهول من وريقيا		١٠٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
مادغسكار	تناناريفو	٥٠٠٠٠٠٠	م	لا	م
امريكا المتحدة	واشنطون	٤٢٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	١٧٨	٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠
المكسيك	مكسيكو	٩١٣٤٠٠٠	٢٢٤٠٠	٩	١٢٥٠٠٠٠٠٠٠
امريكا الوسطى	اكواتيمالا	٢٥٨٠٠٠٠	م	لا	٨٠٠٠٠٠٠
كلومبيا	سانتي دي بوكوتا	٣٠٠٠٠٠٠	م	م	م
بيرو	ليما	١٥٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	٣٥	٣٠٠٠٠٠٠٠٠
برازيل	ريودوجنيرو	٦٥٠٠٠٠٠	٦١١٢٤١	٨٧	٢٨١٠٠٠٠٠٠
بوليفيا	شوكيزاك	٢٥٠٠٠٠٠	م	لا	م
الشيلي	سانتياكو	٢٢٥٠٠٠٠	م	م	٨٥٠٠٠٠٠٠
اوروكواي	لنفسيون	٢٥٠٠٠٠٠	م	م	م
تاكونيا	منتفيديو	٢٥٠٠٠٠٠	م	م	م
ارجانتين	بوينوس ايرس	١٨٧٧٤٩٠	م	م	١١٥٠٠٠٠٠٠٠

ملاحظات

كل ما هنا اعتبار لما هو واقع في سنة ١٢٩٧

١١٦٢٥٠٠٠٠	عدد نفوس المسلمين المستقلين بأحكامهم	
	يضم عليهم عدد نفوس المسلمين الداخلين تحت أحكام غيرهم	
	٦٠٠٠٠٠٠٠	في الصين
	٤٠٠٠٠٠٠٠	في الهند
	٨٠٠٠٠٠٠	في الروسيا
	٣٠٠٠٠٠٠	في فرانسا
	١٠٠٠٠٠٠٠	في بقية الممالك
	١٢١٠٠٠٠٠٠	
١٢١٠٠٠٠٠٠		
٢٣٧٢٥٠٠٠٠		
٣٩٧٧٤١٤٩٠	عدد نفوس النصارى	
٧٨٩٣٠٠٠٠٠	عدد نفوس الباقي من المشركين وغيرهم	
١٤٢٤٢٩١٤٩٠		

﴿الجزء الثاني﴾

من كتاب

صفوة الاعتبار بمستودع الامصار

والاقطار تأليف الفاضل المحقق والاستاذ

المدقق قدوة العلماء وصفوة الاذكياء

وحيد عصره وفريد دهره

الشيخ محمد بيرم الخامس

التونسي نفعنا الله

به وبعلومه

آمين

﴿طبعة أولى﴾

﴿بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٢ هجرية﴾

ما شاء الله كان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* (المطلب الرابع) فى السياسة الداخلية من العائلة الحسينية اعلم انه منذ وليت العائلة الحسينية هذا القطر التونسى كان مدار أمرهم الرفق بالاهالى والخمول والتباعد عن سمات الملك والرفاهية وغاية الالقاب التى تحلى بها اتباعهم وأعوانهم هى (ما يأتى)

* فأولها صاحب الطابع يعنى حافظ ختم الوالى ومأموريته ختم المكاتيب ومباشرة المتوظفين فيما لم يباشره الوالى ويكون هو الواسطة بينهما وثانيها باش كاتب وله رياسة الكتابة ومحاسبة العمال والرأى فى كل الأحوال وثالثها خزنه دار وهو حافظ مال الحكومة فى قصر الوالى ورابعها باش أغه وله رئاسة أغوات أوجاق الخيل وخامسها كاهية وله نيابة الوالى فى الأحكام وسادسها أمين الترسخانة ولنظره ما يرجع الى البحرية وسابعها باش حانبه وهو الواسطة بين الوالى والمشتكين اليه مع رياسة الحوانب وهم الأعوان الخيالة للحكومة وهاته الوظيفة منقسمة الى شخصين أحدهما باش حانبه ترك والآخر باش حانبه عرب وهذا له نفوذ على الآخر وثامنها باش مملوك وله

رياسة

رياسة ادارة القصر الأميرى وتاسعها الداى وله الحكم فى الجنايات مطلقا الا القتل فهو خاص بالوالى وله حفظ الراحة فى خصوص الحاضرة وعاشرها شيخ المدينة وله الحكم فى الليل وحفظ المدينة ليلا من السراق وترجع اليه سائر المعاملات العرفية وخصومات الاجانب فى الديون كما ان فى كل ربض شيخا لخصوص حفظه ليلا وحادى عشرها آغة القصبة وله التحكم فى العسكر الينكشارى والجنايات الخفيفة ومثله آغة الكرسى بانحطاط درجته عن السابق وثانى عشرها رئيس مجلس التجارة ومعه عشرة أعضا يسمون العشرة الكبار ولا يجتمعون الا فى مهم كما ان لكل صناعة أمينا يفصل الخصومات المتعلقة بالصناعة وثالث عشرها كاهية دار الباشا وله فصل الجنايات الخفيفة حول الحاضرة فهاته هى أهم الرتب السياسية والعسكرية وأما العلمية فأولها الباش مفتى الحنفى أى رئيس المفتيين ثم المالكى ثم المفتى الحنفى ثم المالكى وقد يزاد على واحد فى كل من المذهبين ثم قاضيان لكل مذهب قاض ثم قاضى باردو ثم قاضى المحلة أى العسكر المسافر مع وارث الولاية ثم قضاة المدن الكبيرة ومفاتيها ثم قضاة المدن الاخرى والجميع مالكية الا ما يحدث أحيانا من ولاية مفتى حنفى فى المهدية والمستير فهؤلاء أصحاب الاحكام وهناك وظائف دينية كالمدرس والامام والخطيب وصاحب الولاية أى الامير يجلس يوميا بمحل يسمى المحكمة صباحا لتلقى المشتكين من العمال والمتوظفين ومن الحرابة وقطع الطريق وامثال ذلك أما نوازل المعاملة بين الناس فهى للحكام الشرعيين ونوازل التجارة لمجلسها والجنايات الخفيفة يباشرها الداى وله الحبس مع الاعمال الشاقة المسمى بالكراكة وله الضرب ثلاثمائة سوط فقط واعظم به من مبلغ حومه الشرع وهكذا كل نازلة فانها ترجع الى حكامها من مرتباتهم مع التوقير التام للحكام أهل الشرع ونفوذ أحكامهم ولو على ذوى المناصب العالية ويجتمع رؤساء المفتيين والمفتيون والقاضيان وقاضى باردو يوم الاحد بحضر الوالى وترد عليهم سائر النوازل المهمة فى الحقوق الشخصية وليس للوالى الا تنفيذ ما يحكمون به مع غاية التعظيم والتوقير ولا زال طرف من هذا العمل الى الآن بحيث ان هيبة العلماء وتوقير الشريعة لا زالت فى القطر التونسى على بعض ما يجب لها من الاجراء وكذلك سائر الشعائر الدينية ولقد ادركت ان سب الدين لا يمكن ان يكنى عنه بهاته العبارة تعظيما وتوقيرا بل يكنى عنه بسب المنكر وترى الكبير والصغير يقول من سب المنكر أذيب الرصاص فى حلقه كانه هو حكمه المعروف وكذلك سائر العبارات الفاحشة مما يكنى به

عن العورات لاتذكر أبدا ومن يذكرها فى خلواته يعد من السفهاء ولقد تغيرت فى هذا المعنى الحال ولله الامر (وأما) ما يتعلق بالجباية وصرفها فقد كان لا يؤخذ من الاهالى الا اعشار الحبوب من القمح والشعير ثم عشر الزيت واداء مالى حسب مقدار مرتب العساكر اليذكشارية مقسم على بلدان القطر يؤدى على ستة أقساط فى السنة وهو نزر يسير ثم العاشر وهو المسمى فى العرف بالقمرق ثم مداخيل الاراضى والاملاك الراجعة لبيت المال مع ضرائب ضعيفة على القبائل مثل البلدان المار ذكرها عوضا عن زكاة المكاسب يوزعها على أفرادهم مشايخهم وعرفاؤهم كل قبيلة بحسب حالها ولما امتدت ايدى العمال بما يسمونه الهواء وهو أخذ ما يقدمه أهل العمل للعامل برسم الضيافة ثم ما يلتقطه منهم باسم وهبة أى هبة ثم العقاب على الجناية بالمال جعل لذلك حموده باشا على العمال أنفسهم اداء يسمى بالاتفاق هو فى الواقع قسط مما ينهبونه من الاهالى ثم زيد على ذلك ما يسمى بالفضية وهو ما يجعل رشوة للواسطة بين الوالى والعامل وآخذها اما أن يعطى منها قسطا للحكومة أو يأخذ الكل على حسب قربه من الوالى ثم ان جميع ذلك مشروط فيه أن لا تشتكى منه الاهالى فاذا ضجت قبيلة واشتكت للوالى من عاملها عزله حالا ويقال له لم يؤخذ منك مقدار يجحف بالاهالى فأنت تجاوزت الحد ثم يصرف جميع ما تقدم فى مصالح الحكومة والقطر من مرتبات العساكر وأقواتهم وجرايات المتوظفين بغاية الاقتصاد وهى جرايات ضعيفة والناس اذ ذاك مقتنعون بعيدون عن الترف يكتفون بمصنوعات القطر فى اللبس والمسكن والمركب يكفيهم القليل لا سيما العلماء فقد رأيت بخط بيرم الثانى رحمه الله فى حساب خاص بشؤونه بيان مرتباته وجراياته من الاوقاف والحكومة بلغ مجموعها شهريا الى ثلاثين ريالا وسبعة أرباع الريال التونسى وثمنه مع ما هو عليه من جميع وظائفه العلمية وهى رياسة الفتوى ونقابة الاشراف ومشيخة المدرسة الباشية ودرس وذلك فى أوائل هذا القرن نعم كان له كما لبقية المجلس الشرعى جراية من الطعام وهى اثنا عشر قفيزا قمحا ومثلها شعيرا واثنا عشر مطرا زيتا وكان ذلك كافيا له ولعائلته وأبنائه وكانت ولاة القطر من بنى حسين بن على يعتنون بالاقتصاد وحمل الاهالى عليه بأوجه سياسية لطيفة منها ان حموده باشا رأى كثرة لبس الشال الكشميرى أى الطيلسان فى الاهالى فحضر من الشال المصنوع فى جربة عددا ولبس هو منه وألبس رئيس الكتبة أيضا وخرجا بذلك اللبس يوم العيد لتلاقى وفود الهناء والصلاة وكان فى اثناء اقبال الاعيان على هنائه يلتفت الى رئيس الكتبة

ويقول

ويقول جهرة نعم الشال هذا صنع بلادنا في اللنا ولا ضاعة أموالنا خارجها والاعيان يسمعون وهم لابسون للشال الكشميري فودوا ان لم يكونوا البسوه من الخجل حتى ان من سمع منهم قبل الدخول عليه ازاله واستعار من غيره الشال الجربي وانكفوا من ذلك التاريخ عن الكشميري وله وقائع عديدة مثل هاته وهو في الحقيقة أعقل فروع ذلك البيت الذين استولوا على القطر فقد أنشأ فيه ما لم يكن فيه من الحصون والقشل والسفن والذخائر حتى ان مبانيه الخاصة به لم ترل منتفعا بها الى الآن كبستان منوبه الذي صار قشله للخيالة وداره بتونس المسماة الآن بسراية المملكة وأعانه مقام وزيره يوسف صاحب الطابع الملقب بأبي الخيرات من كثرة أياديه في طرق البر مع الانصاف والاقتصاد الذي لم يكن القطر يتحمل سواه حتى ان حسين باشا لما توسع في الرفاهية زيادة عما تقدم توقفت حكومته في دين قدره خمسة ملايين ريالات أي ثلاثة ملايين فرنك باع بها زيتا سيما للتجار الافرنج ولم يمكنه احضاره لهم فنشأ عن ذلك ولاية شاكير صاحب الطابع الادارة بشروطه الشديدة على الوالي في تقصيريده عن التصرف في المال وفي العمال وأخذ من دار الوالي أغلب ما فيها من فضة وذهب واحتسب على خاصة مصاريفه الذاتية وتحمات الاهالي أول ولايته مظالم مالية الى ان خلص الدين وعمر خزائن الحكومة وموجبات الاقتصاد الكلي هي ضعف واردات الحكومة للاقتصار على الحد في المداخيل الشرعية أو ما له شبهة بها كما تقدم في توزيع جرايات العساكر تحفظا على الديانة وللسير على ما تساعفه الديانة أيضا في غالب الاحوال الامانية در كالعقاب بالمال على الراجح من منعه شرعا وأمثاله كما تقدم طرف منه مادامت الرعايا راضية به ثم ان الاقتصار على ذلك لا يجتمع منه مبالغ تقتضي الترف لان طبيعة أرض القطر ولان كانت غنية غير ان كثرة توالي الحروب عليه والامراض والمظالم في الدول السابقة أفنت من السكان القدر الاوفر فقد نقل بعض المؤرخين ان عدد سكان افريقية في صدر الاسلام ويعني بها ما يشمل برقه المعروفة الآن ببني غازي وطرابلس وتونس والجزائر هو تسعة عشر مليونا مع ان عدد الجميع الآن لا يبلغ ستة ملايين ثم مع قلة السكان ضعفت أعمالهم واقتنعوا بسد الخلة وبقيت الارض معطلة لوجوه منها عموم الجهل بصناعة الفلاحة وتعمير الارض وتكثير الاشجار ومنها خوف صاحب الثروة على نفسه وماله فيرى انه يعمل لغيره فينزع منه الباعث ومنها الاكتفاء بما خف لسهولة الرحيل في الفتن ومنها عدم الثمرة اذا كثرت الغلال والحبوب لصعوبة نقلها للمدن وعلى تقدير

وصولها الاتجد لها مشتريا لمنع اخراجها من القطر لاجل الحروب المستمرة مع أوربا الا لبعض الاجناس أحيانا لوقوع الصلح معه فاذا بقيت النتائج في البلاد رخص سعرها لزيادتها على قدر الكفاية واستمرت السيرة على نحو ما مر الى (ولاية أحمد) باشا فأخذت الحكومة في طور جديد وتبعها الاهالي على مقتضى قاعدة الناس على مذهب أمرائهم وذلك ان هذا الوالي كانت له همة عظيمة اكبر من حالة القطر وقد وجد في ولايته ابتداء تنظيم العسكر النظامي فاعتناؤه بهم وبمهماتهم وتعظيم رؤسائهم ثم جد في تفخيم هيئة الحكومة تفخيما لايخرجها عن المقام الحقيقي فلم يقل في مكاتيبه القابا تشعر بالاستقلال كاطلاق لفظ الدولة والمملكة ولم يطلق على نفسه لفظ ملك متحاشيا عن ذلك كل التحاشي هو وابن عمه محمد من بعده والغا غيرما لايمس الحقوق حتى غير الالقاب المار ذكرها آنفا في الوظائف الشرعية لقب رئيس المفتين الحنفية محمد بيرم الرابع بشيخ الاسلام في العساكر النظامية صيرها رؤساء على مقتضى أصل اصطلاحهم وأهمها على الترقي بين باشي ثم آلاي اميني ثم قائم مقام ثم اميرآلاي ثم أمير لوا ثم أمير الامرا اوفريق وأنشأ النياشين المسماة بالافتخار وجعل له خمسة رتب ثم العليا وتسمى افتخارا اكبر ومعه شريط من الحرير أخضر يسمى بالفاشه ويلبس على الكتف والصدر والظهر على هيئة حمائليه ثم نيشان آل بيته خاص بهم ويعطى للملوك وأعيان بعض الكبراء وشكل للوظائف السياسيه وزراء ولقب كلا منهم بالوزير في خطاباته الرسمية الا اذا عرض ذلك في مكاتيب الدولة العليه فانه يتحاشا عنه وأول من تلقب بتلك الالقاب في هذا القطر هم الوزير مصطفى صاحب الطابع وهو رئيس الوزراء عند اجتماعهم وصاحب التقدم عليهم لسنه وسابق تربيته للوالي لكنه لاتصرف له في شيء معين ثم الوزير مصطفى خزنه دار وزير العمالة أي الداخلية والمالية ثم مصطفى أغا وزير الحرب ثم محمود كاهيه وزير البحر ثم جوزاف رافو وزير الخارجيه وفي آخر مدته لقب الداي بوزير التنفيذ وهو اذ ذاك كشك محمد وكان كل من هؤلاء الوزراء يباشره بنفسه فيما يتعلق بوظيفته ولايتداخل واحد في وظيفة الآخر بشيء ولانفوذ لاحدهم على الآخرين وسيما الا الوزير الاول لكنه لرزانته وخموله وفهمه مغزى الوالي كان يقتصر على نصح الوالي فيما يراه أو يبدي له رأيه عندما يستشيره وصاحب النفوذ الحقيقي هو مصطفى خزندار لتقريب الوالي اليه ولان مقتضى وظيفته التعلق بالاهالي والعمال وجميع أصحاب الادارة وحيث كان هذا التفخيم يستدعي زيادة المصاريف والميل

الى

الى الترف مع ما فى نفس الوالى من الكرم على أهل اصطفائه وكبراء العساكر دعاه ذلك الى زيادة الضرائب على الاهالى باسماء سموها أثقلت الظهر وأوجبت الفقر وزعيم ذلك المضمار هو محمود بن عياد باتحاد مع الوزير مصطفى خزندار مع انحصار جميع أنواع مصاريف الحكومة فى يده من قوت العساكر وملابسهم وجميع المهمات للحكومة ولذات الوالى ولذلك وظائف باسماء وهى الرابطة وهى قبض الاعشار ودفعها والكوشة وهى معمل الخبز والغابه وهى قبض اعشار الزيت وخرجها والغرفة وهى اشتراء جميع مهمات الحكومة والوالى وانحصر جميع ذلك وغيره فى ابن عياد وتغاضى الوالى عن المذكور وكادت ان تنحصر فيه ولايات جميع العمال ووظائف سائر جبايات الاموال اشركة سرية بينه وبين ذى اليد وقدم ابن عياد لاقتداره على ارضاء الوالى باحضاره فعلا ووعدا ما يطلبه من المهمات والاموال وامتدت يده بزيادة المظالم على ما ترسمه الحكومة باضعاف مضاعفة ومن اشتكى لايجاب الا بقول الوالى الخاص مع عاملك وتوصل الى كتب الاوامر بخطه سراهو والوزير ويمضيها له الوالى من غير علم أحد مع تحسين الوزير لذلك عند الوالى بان ما يربحه ابن عياد يكون خزينة حاضرة متى ما طلبها الوالى وجدها بالاستيلاء على كسبه وجمع ابن عياد بذلك أموالا عريضة قدرها رشاردوود قنسل الانكليز بتونس الذى أقام بها ما ينوف عن العشرين سنة فى رسالته التى ألفها قدحا فى طريقة تلزيم مداخيل الحكومة بثمانين مليونا وهو المشتهر على السنة العارفين فى تونس وأرسل ابن عياد تلك الاموال الى فرانسا واحتال على السراح للسفر الى هناك للتداوى عندما علم هو وشريكه ان عاقبته وخيمة وأحس بمباديها وسرحه الوالى ولم يحاسبه الوزير حتى سافر من غير حساب فلما سافر الى هناك احتمى بدولة فرانسا وأعلن بعدم الرجوع كما طلب الحماية لشريكه وحصل على الاذن فيها غير ان دولة فرانسا تفطنت لامره ورجعت عن حماية الوزير وعلمت ان سببها هو خيانته لبلاده وهو عندهم من أعظم الذنوب كما هو فى نفس الامر لكن ابن عياد لما تم الشروط الواجبة فى نيل الجنسية الفرانساوية وحصل عليها بالفعل قبل الاطلاع على أعماله لم يكن فى وسع دولة فرانسا نزع ما ناله اذ قوانينهم لا تسمح بذلك وعندما علم أحمد باشا بامتناع ابن عياد مع الاموال الذريعة التى نهبها ولم يحاسب على تصرفه قيض لخصامه الوزير الناصح خير الدين واتفق الفريقان على تحكيم امبراطور الفرانسيس نابليون الثالث فامر بعقد مجلس من ثقات المعتبرين فى الوزارة الخارجية

للنظر فى النازلة وعرض الوزير خير الدين مطالب الحكومة وعرض ابن عياد مطالبه وألف كل منهما نحو ثمانية عشر رسالة فى النازلة وأرسى الامر فيها بعد عدة سنين على صدور الحكم من الامبراطور رعا ملخصه

﴿ريالات﴾	
٠١٤١٧١٤٩٠	ثبوت مال عين قبل ابن عياد للحكومة
٠٢٠٩٠٢٧٥٠	وثبت عليه أيضا قيمة رسوم بانكه وتذاكر سراح
٠٣٥٠٧٤٢٤٠	
٧٨٤٥٩٠٧ ـ	وثبت لابن عياد على الحكومة
٠٢٧٢٢٨٣٣٧	فاذا طرح ذلك من مجموع ما ثبت للحكومة بقى

قبل ابن عياد سبعة وعشرون مليونا ومائتان وثمانية وعشرون ألفا وثلاثمائة وسبعة وثلاثون ونصف كما صدر الحكم عليه بان يحاسب فى تونس على الرابطة وغيرها مما لم يمكن الحساب عليه فى باريس وقد أفردت هاته النازلة بتأليف مخصوص للوزير حسين حيث كان له خبرة بالنازلة لانه كان بمعية الوزير خير الدين عند خصامه فيها وسماه حسم الالداد فى نازلة محمود ابن عياد وما انفصلت هاته النازلة الا بعد ما نشئت فى الحكومة نازلة مثلها اذ الوالى مرض فى تلك الاثناء بمرض الفالج وطالت مدته واستبد الوزير مصطفى خزنه دار وعوض ابن عياد بالقائد نسيم الذى وظيفته انه قابض للاموال وكذلك عوض ابن عياد فيما يرجع للعمال بسعد بن عبيد وغيره ولم يمكن لبقية الوزراء انهاء الامر الى الوالى لمرضه وبقى الحال على ذلك الى ان توفى ذلك الوالى سنة ١٢٧١ فى نصف رمضان ولم يترك على الحكومة ولا دانقا من الدين بالربا ولا بغيره الا ما لا يمكن خلو الوجود منه كدفع أثمان بعض مهمات مما لم يحل أجله ولقد أعان على عدم حصول الدين الوزير خير الدين لان الوالى كان أرسله لعقد قرض فى فرانسا عند ارسال العسكر لحرب الروسيا سنة ١٢٦٩ ولم يمكن له معارضته لانه مستبد لكنه تشدد فى شروط القرض وسوف حتى توفى الوالى المذكور وساعده وريثه محمد باشا على عدم الاستقراض ومع ما تقدم فاحمد باشا مدة صحته لم يستبد عليه وزيروله مآثر حسنة فى القطر أهمها أحياء العلم بعد ان كاد يندثر فرتب فى جامع الزيتونة ثلاثين مدرسا بجارية قدرها ستون ريالا فى الشهر وهذا المقدار اذ ذاك له موقع عظيم لما تقدم لك فى مقادير مرتبات العلماء ثم رتب اثنى عشر مدرسا انحو عرتب خمسة عشر ريالا فى الشهر وخصص للاولين موار يث

من

من لاوارث له الراجع ذلك لبيت المال وللثانيين احباسا تلاشتها أيدى العدوان كما أقام بالجامع خزائن كتب بها نحو سبعة آلاف مجلد ونتج من ذلك احياء العلم وكثرة العلماء بالقطر ومنهم فحول يعز نظيرهم ولا زال ذلك مستمرا ولله الحمد ولما ولى محمد باشا في سنة ١٢٧١ لم يغير شيأ من فخامة الحكومة لكنه جعل أكبر همه رفع المظالم على الرعايا وجاب ثروتهم لما كان يتيقنه من المضرات التى كانت حاصلة لهم وأبقى وزراء ابن عمه على ما كانوا مع ما فى نفسه من حالة مصطفى خزنة دار لكنه غلبه على أمره فيه وزيره المستنصح لديه اسماعيل السنى صاحب الطابع فكان كالباحث على حتفه بظلفه عفى الله عن الجميع كما يرد خبره (والسبب) فى ذلك هو تخوف اسماعيل من تقدم أحد اقرانه للوزارة المعتبرة وهى وزارة العمالة فانفت نفسه من ذلك وواعده وعاهده مصطفى خزنة دار على الالتحام به وتقديمه على غيره اذا أبقى فى الوزارة فسارع للوالى وقال له لاغنى لنا عن مصطفى خزنة دار لعلمه بما لم يعلمه غيره من أسرار الحكومة وأموالها الى غير ذلك ولم يزل به الى ان أقره وعاهده على الصفاء والنصح وأما الوزير مصطفى صاحب الطابع فقد أبقاه شيخ الوزراء من غير مباشرة وأما محمود كاهيه وزير البحر فانه توفى وولى عوضه الوزير خير الدين وافتتح الوالى أمره بتنقيص كمية العساكر بعد انفصال الحرب مع الروسية مع مراعات ضباطهم فابقى فى الخدمة القادر العارف على قدر الحاجة وجعل لغيرهم نصف مرتب مع ابقاء المقام وكذلك أسقط جميع المظالم على الاهالى وعوضها باداء واحد على كل فرد ذكر بالغ قادر على السعى وهو ستة وثلاثون ريالا فى السنة أى ثلاثة ريالات فى الشهر وهى قدر فرنكين الذى لا يجحف باحد مع امكان ضبطه وضبط أيدى العمال عن التجاوز فيه مع تحجير العقوبة بالمال وعمم ذلك الاداء على جميع القبائل والبلدان بالسواء ولم يبق عليهم غيره الاعشر الحبوب من القمح والشعير وعشر الزيت أوعوضه من القانون وقانون النخيل أى الخراج على اعداد النخيل ولم يستثن من ذلك أحدا الا أهالى المدن الكبيرة وهى تونس والقيروان وسوسه والمستير وصفاقس فابقى بها أنواع الاداء السابق المختلف الاسماء على أنواع المكاسب وتلقت الامة ذلك العمل بالسرور والانقياد الا السادات المعاويين الاشراف من أهالى الوطن القبلى لعدم سابقية أداء عليهم وكذلك ضبط اعشار القمح والشعير وجعل على كل ماشية قدرا معينا هو أقل ما يمكن حصوله فى الغالب الا أن يكون قحط بالمرة واذا ثبت القحط يسقط على صاحبه وذلك المقدار هو ربع القفيز من كل نوع وان زاد العشر الحقيقى على

ذلك القدر فهو موكول الى ديانة صاحبه يدفعه لمن شاء كل ذلك تحاميا عن أبواب المظالم وهكذا رتب اعشار الزيت وجعل لها مكاييل منضبطة ولا ياخذ الا العشر وشيأ يسيرا مقدارا معينا لكراء المعصرة وشدد النكير على العمال فيما اذا امتدت أيديهم الى شئ زائد من الرعايا لانه جعل لهم مرتبات على حسب أعمالهم ياخذونها من الحكومة ولم تنفع جناية العامل قرابته لانه كان صلبا في الحق حتى عاقب اصهاره بأخذ ما أخذوه من الرعايا وسجن بعضهم بساكنهم وسجن أتباعهم الذين شاركوهم في الاخذ وتوسطوا فيه ولذلك انكف الوزير مصطفى خزنه دار وصار على حذر الا ماندر أوان مدة الوالي المذكور وكان هذا الوالي جريا على الحكم ولو بالقتل فيما يراه من الحقوق واشتد خوف الوزير منه باطنا الى ان حصل من أحد أتباع القائد نسيم اليهودي سب الدين الاسلامي علنا في مجمع عظيم من المسلمين وكان أمر الدين اذ ذاك وشعائره بالمكان الاعلى على ما تقدم بيانه فاهتزت البلاد تعظيما للخطر سيما وقد رأوا أن الرجل لا تناله الاحكام لانه انما قدم على مثل ذلك اعتمادا على الاحتماء بسيده الذي هو من خواص الوزير و بلغ ذلك للوالي وقد كان منذ قريب قتل عسكريا بالقتله يهوديا على مقتضى المذهب الحنفي من قتل المسلم بالذمي مع ان احكام قتل النفس في القطر جارية على مقتضى المذهب المالكي لانه يرى القود بغير الحد وهو الموافق لحالة أهل القطر ولمذهب أغلبهم وهذا المذهب لا يرى قتل المسلم بالكافر فخالف الوالي عادة البلاد وأجرى حكم المذهب الحنفي فلزمه نظرا للهيجان العام توجيه النازلة الى المجلس الشرعي فحكم المالكية بقتل اليهودي ووافقهم أغلب الحنفية وكتب فيها الشيخ بيرم الرابع بالموافقة مع نقل نصوص مدارها على التعزير المغلظ وقد يبلغ به للقتل وهو المعين في معروضات أبي السعود وقد تحقق ما ظنته العامة فان الوزير عارض انتصار التابعة في انفاذ الحكم وطلب من الوالي ان يحكم هو في الجاني بغير القتل وألح عليه فامتنع لما تقدم واحتال الوزير حتى باغراء قنسل الفرانسيس بالتداخل في النازلة وأنفذ الوالي الحكم فانتهزها الوزير فرصة ولاذ بفرانسا بواسطة قنسلها الى ان أتى الاسطول الفرنساوي في المحرم سنة ١٢٧٤ وألح رئيسه وقنسلهم وعضدهم قنسل الانكليز على انشاء عهد الامان ومما استدل به كل منهم عمل الدولة العثمانية بالتنظيمات الخيرية حتى صرح بذلك وزير الخارجية لفرانسا في مكتوبه المرسل في ذلك الشأن الى قنسله المأمور بقراءته على الوالي وتفاوض الوالي مع خاصته ووزرائه في ذلك واستقر الامر على انشاء عهد الامان

الامان وقرئ فى موكب شامل لجميع المتوظفين وأعيان البلاد ونواب الدول ورئيس الاسطول الفرانساوى (ونصه) بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى أوضح للحق * سبيلا وجعل العدل لحفظ نظام العالم كفيلا ونزل الاحكام على قدر المصالح تنزيلا ووعد العادل وتوعد الجائر ومن أصدق من الله قيلا والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى مدحه فى كتابه بالرؤف الرحيم وفضله تفضيلا وبعثه بالحنفية السمحا فبينها تبيينا وفصلها تفصيلا ورتبها كما أمره ربه اباحة وندبا وتحريما وتحليلا فان تجد لسنة الله تبديلا وان تجد لسنة الله تحويلا وعلى آله وأصحابه الذين أقاموا على معالم الهدى علما لمن اقتدى ودليلا وفهموا الشريعة نصا وتأويلا وأبقوا سيرتهم الفاضلة وأحكامهم العادلة أمانا جليلا ونستوهبك اللهم توفيقا يوصل الى الاسعاد برضاك توصيلا وعونا على أمور الامارة التى من حملها فقد حمل عبئا ثقيلا فقد توكلنا عليك واتجهنا اليك وكفى بالله وكيلا (أما بعد) فان هذا الامر الذى قلدنا الله منه ما قلده وأسنده الينا من أمور خلقه بهذا القطر فيما أسنده ألزمنا فيه حقوقا واجبة وفروضا لازمة راتبة لا تستطاع الا باعانته التى عليها الاعتماد ولولاها فمن يقوم بحق الله وحق العباد فمحضنا النصيحة لله فى عباده وأرضه وبلاده والامل أن لا نبقى فيهم بحول الله ظلما ولا هضما ولا نخرم لهم فى اقامة حقوقهم نظما وانى ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيته من يعلم أن الله لا يظلم مثقال ذرة ولا يحب الظالمين فى بريته فقد قال لنبيه المعصوم الاواب ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب والله يرى انى آثرت فى قبول هذا الامر على خطره مصلحة الوطن على ذاتى وعمرت بخدمته الفكرية والبدنية غالب أوقاتى وقدمت من التحقيقات فى الجبايات ما علم خبره وظهر بعون الله أثره فانتشرت الامال وتشوقت النفوس الى ثمرات الاعمال وانقبضت عن التعدى أيدى العمال واستقصاء المصالح يقتضى تقديم اجمال ومن رامها عاجلة فقد عرضها بسبب التعذر الى الاهمال ورأينا غالب أهل القطر لم يحصل لهم الامنية باجراء ما عقدنا عليه النية وجرت عادة الله أن العمران لا يقع من نوع الانسان الا اذا علم ان براءته هى الامن له والامان وتحقق أن سياج العدل يدفع عنه خوف العدوان وان لا وصول لهتك ستر من حرماته الا بقوة الدليل ووضوح البرهان ولا يكفى لتحققه

الواحد والاثنان فاذا رأى الجانى تعدد الانظار غلط ان كان منصفا حدسه وقال ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه وقد رأينا سلاطنة الاسلام والدول العظام الذين على سياستهم الدنيوية اعمال الاعلام فى النقض والابرام يؤكدون الامان من أنفسهم للرعية ويرونه من الحقوق الواجبة المرعية وهو أمر يستحسنه العقل والطبع واذا اعتبرت مصلحته فهو مما يشهد باعتباره الشرع لان الشريعة جاءت لاخراج المكلف عن داعية الهوى ومن التزم العدل وأقسم عليه فهو أقرب للتقوى وبالامن تطمئن القلوب وتقوى وقبل هذا كاتبنا علماء الملة الاركان وبعض الاعيان بعزمنا على ترتيب مجالس ذات أركان للنظر فى أحوال الجنايات من نوع الانسان والمتاجر التى بها ثروة البلدان وشرعنا فى فصوله السياسية بما لا يصادم القواعد الشرعيه هذا وأحكام الشريعة جارية مطاعه والله يديم العمل بها الى قيام الساعه وهذا القانون السياسى يستدعى زمنا لتحرير ترتيبه وتدوينه وتهذيبه وأرجو الله الذى ينظر الى قلوبنا أن تستقيم بهذا الترتيب أحوال الرياسة ولا يخالفه ما ورد عن السلف الصالح من اعتبار السياسة وأنا العبد الفقير نجعل لمرضاة ربى بما تطمئن اليه النفوس وتكون منزلته فى النفس منزلة المشاهد المحسوس وتأسيسه على (١١) قواعد الاولى تأكيد الامان لسائر رعيتنا وسكان ايالتنا على اختلاف الاديان والالسنة والالوان فى أبدانهم المكرمة وأموالهم المحرمة وأعراضهم المحترمة الا بحق يوجبه نظر المجلس بالشورى ويرفعه الينا ولنا النظر فى الامضاء أو التخفيف ما أمكن أو الاذن باعادة النظر (الثانية) تساوى الناس فى أصل قانون الاداء المرتب أو ما يترتب وان اختلف باختلاف الكمية بحيث لا يسقط القانون عن العظيم لعظمته ولا يحط عن الحقير لحقارته ويأتى بيانه موضحا (الثالثة) التسوية بين المسلم وغيره من سكان الايالة فى استحقاق الانصاف لان استحقاقه لذلك بوصف الانسانية لا بغيره من الاوصاف والعدل فى الارض هو الميزان المستوى يؤخذ به للمحق من المبطل وللضعيف من القوى (الرابعة) أن الذمى من رعيتنا لا يجبر على تبديل دينه ولا يمنع من اجراء ما يلزم ديانته ولا تمتهن مجامعهم ويكون لهم الامان من الاذاية والامتهان لان ذمتهم تقتضى أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا (الخامسة) لما كان العسكر من أسباب حفظ النوع ومصلحته تعم المجموع ولا بد للانسان من زمن لتدبير عيشه والقيام على أهله فلا نأخذ العسكر الا بترتيب وقرعة ولا يبقى العسكرى فى الخدمة أكثر من مدة معلومة كما

نحرره

نحرره فى قانون العسكر (السادسة) ان مجلس النظر فى الجنايات اذا كان الحكم فيه بعقوبة على أحد من أهل الذمة يلزم ان يحضره من نعينه من كبرائهم تأنيسا لنفوسهم ودفعا لما يتوهمونه من الحيف والشريعة توصى بهم خيرا (السابعة) اننا نجعل مجالسا للتجارات برئيس وكاتب وأعضاء من المسلمين وغيرهم من رعايا أحبابنا الدول للنظر فى نوازل التجارات بعد الاتفاق مع أحبابنا الدول العظام فى كيفية دخول رعاياهم تحت حكم المجلس كما يأتى ايضاح تفصيله قطعا للتشعب الخصام (الثامنة) ان سائر رعايانا من المسلمين وغيرهم لهم المساوات فى الامور العرفية والقوانين الحكمية لافضل لاحدهم على الآخر فى ذلك (التاسعة) تسريح المتجر من اختصاص أحد به بل يكون مباحا لكل أحد ولا تتاجر الدولة بتجارة ولا تمنع غيرها منها وتكون العناية باعانة عموم المتجر ومنع أسباب تعطيله (العاشر) ان الوافدين على ايالتنا لهم ان يحترفوا بسائر الصنائع والخدم بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتى يمكن ان تترتب مثل سائر أهل البلاد لا فضل لاحد على الآخر بعد الانفصال مع دولهم فى كيفية دخولهم تحت ذلك كما يأتى بيانه (الحادية عشر) ان الواردين على ايالتنا من سائر أتباع الدول لهم ان يشتروا سائر ما يملك من الدور والاجنة والارضين مثل سائر أهل البلاد بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتى تترتب من غير امتناع ولا فرق فى أدنى شئ من قوانين البلاد ونبين بعد هذا كيفية السكنى بحيث ان المالك يكون عالما بذلك وداخلا على اعتباره بعد الاتفاق مع أحبابنا الدول فعلى عهد الله وميثاقه ان نجرى هذه الاصول التى سطرناها على نحو ما بيناها وورائها المبيه ان لمعناها وأشهد الله وهذا الجمع العظيم المرموق بعين التعظيم فى حق نفسى وعلى من يكون من بعدى ان لا يتم له أمر الا باليمين على هذا الامان الذى بذلت فيه جهدى وجعلت سائر الحاضرين من نواب الدول العظام وأعيان رعيتنا شهداء على عهدى والله يعلم ان هذا القصد الذى أظهرته وجمعت له هؤلاء الاعيان واشهرته هو ما أودعه الله فى نيتى واجراء أصوله وفروعه فورا أعظم أمنيتى والمرء مطلوب بجهده ومن عاهد الله لزمه الوفاء بعهده والحق هو العروة الوثقى والآخرة خير وأبقى واستحلف من لدى من هؤلاء الثقات والحماة الكفاة ان يكونوا معى فى اجراء هذه المصلحة يدا واحدة بقلوب سليمة متعاضدة واقول لهم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون اللهم من أعاننا على مصالح عبادك فكن له معينا واورده من توفيقك عذبا معينا اللهم اجعل لنا من عنايتك واعانتك مددا

وهب لنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا منك الاعانة على ما وليت ولك
الشكر على ما أوليت المهدى من هديت والخير كله فيما قضيت هذه مقدمة أنتجتها
الاستشارة ورآها العبد الفقير ناجحة صالحة فاعنا اللهم ببركة القرآن وأسرار الفاتحة
والسلام من الفقير الى ربه تعالى عبده المشير محمد باشا باى صاحب المملكة التونسية
فى ٢٠ محرم الحرام سنة أربع وسبعين ومائتين وألف صح من كاتبه المشير محمد باشا
باى والله على ما نقول وكيل (ثم عقد الوالى) مجلسا رئيسه الوزير مصطفى خزنة دار
وزير العمالة وأعضاؤه مصطفى آغه وزير الحرب وخير الدين وزير البحر والوزير
اسماعيل السنى والوزير محمد وكاتب أسرار الوالى أحمد ابن أبى الضياف وأذنهم
باستخراج أحكام سياسية تدور عليها أعمال الحكومة واستخراج أحكام فرعية فى
الحقوق الشخصية يجرى بها الحكم فى القطر وأذن أن يكون شيخ الاسلام محمد بيرم
الرابع أحد أعضائه فامتنع من الحضور دون مشاركة من العلماء الحنفية والمالكية
واستقر الرأى على اضافة الشيخ محمد ابن الخواجه المفتى الحنفى والشيخ أحمد بن حسين
رئيس الفتوى فى المذهب المالكى والشيخ محمد البنا المفتى المالكى وهؤلاء الاعلام
الاربعة هم أكبر علماء القطر اذ ذاك فحضروا أولا ثم امتنعوا واكتفوا بان كتب كل
منهم شرحا منفردا على الاحدى عشرة قاعدة المار ذكرها أبدوا فيها الاحكام الشرعية
المطابقة لتلك القواعد واقتصروا على ذلك متعللين بان الذى بدا لهم من مغزى الجماعة
هو الميل البحت للسياسة الساذجة من غير التفات الى محاذاة الشرع بل وربما عرض
ما يصادم القواطع وحيث كان عمل المجلس على ما يستقر عليه رأى الغالب لم يأمنوا ان
يستند الى المجلس ما يخالف الشرع ويحمل ذلك على عاتقهم والذى تبين لكل من
الفريقين فيما بعد مما ولدته الليالى ان الصواب فى غير مسلكه على ما يتحرر ان شاء الله
تعالى فى الخاتمة ولم يتم هذا المشروع فى مدة الوالى المذكور مع حرص القناسل عليه
وتأكيدهم بانه لا محيص عما أشهدهم عليه بالنيابة عن دولهم ولم يخل الوالى بذلك
لانه محب طبعا للعدل وانما عاقه عن اتمامه الاجل وفى آخر مدته أغراه وزيره بتعاضد
مع روش قنسل فرانسا حيث كان العامل فرانساويا على ما يأتى وحسنا للوالى جلب ماء
زغوان الذى كان جاريا بالقرطاجنة فى قنوات من البناء وعلى حنايا بان يجلب على يد جمعية
فرانساوية فى قنوات من حديد ويوصل الى المرسى والحاضرة وانما يحصل من ثمنه للديار
وللمزارع يوفى بالمصروف عليه فى مدة يسيرة وينشأ منه فوائد للزراعة حول الحاضرة

والمرسى

والمرسى وكان الوالى مغرما بحب العمران والفلاحة وبالمرسى أيضا وهى معطشة من قلة الماء الحلو فوافق على ذلك واتفقوا على جلبه وعلى بناء دار لقشلات فرانساهية خارج باب البحر من الحاضرة بمقدار للجميع قدره اثنا عشر مليونا تدفع على اقساط أربعة كل قسط فى سنة بثلاثة ملايين وقد عد بعضهم ذلك مبدأ محن القطر حيث آل الى دين بالربا والحق انه لا لوم على الوالى فى ذلك لان الحكم على ما هو موجود وعلى اعتبار جريان الامر على الاستقامة ولا يحمل عليه فساد غيره وان بناه على شئ من أعماله هو فى نفسه سليم اذ المفسد يبنى فساده على ما يريد والنظر فى الحقيقة للعمل من حيث هو فينظر فيه هل فيه مصلحة أم لا وجلب ذلك الماء على الكيفية المذكورة فيه مصلحة وهو تعطش البلاد فى أغلب السنين لان شربها من المواجل المحبوس فيها ماء المطر ومن بير خارجها ماؤها غير خالص العذوبة تسمى بير كلاب ويستعمل لغسل الصابون مياه فساقى حول الحاضرة لان ابارها ماؤها ملح لا يصلح الا لاستعمال تنظيف البيوت وكثيرا من السنين تحصل الشدة للاهالى من قلة الماء صيفا حتى يبلغ ثمن القلة لمقادير وافرة مع التعب فى جلبه ثم اعزام الوالى بالفلاحة ترغيبا للسكان فى العمران الذى أغرا قبالهم عليها على ما سيرد يستدعى جلب الماء الحلو على أن مالية الحكومة اذ ذاك وافية بذلك المقدار لان الفلاحة التى هى ركن ثروة هذا القطر قد تكاثرت فى تلك المدة واقبلت عليها الناس اقبالا عجيبا حتى غلت أسعار الاراضى ملكا وكراء وغلت أسعار الحيوانات وغلى قرض الاجير المسمى بالخماس غلوا فاحشا حتى بلغ قرض الخماس الى ألف وخمسمائة ريال وذلك لكثرة استغناء الاهالى سيما الاعراب وانفتهم من صناعة الخماسة لاقتدار كل على أن يصير فلاحا مستقلا بنفسه ونتج من ذلك ثروة الحكومة ثروة زائدة على المعتاد مع نقصان المصاريف على العساكر فكان دخل الحكومة فى الاول نحو نيفا وعشرين مليونا فى السنة وبيان تقريبه ما يأتى

﴿ريالات﴾

٩٧٠٠٠٠٠ عدد النفوس التى تؤدى الجباية ٢٧٠٠٠٠ على كل نفس ريالات ٣٦

٦٠٠٠٠٠ مدخول مكس الغلال فى الحاضرة المسمى فندق الغلة

٥٠٠٠٠٠ دار الجلد أى محل دبغ الجلود

٥٠٠٠٠٠ كمرك الدخان

﴿ريالات﴾	
٠٦٠٠٠٠٠	كمرك السلع الداخلة والخارجة
١٠٠٠٠٠٠	سراح خروج الزيت والقمح والحبوب
١١٠٠٠٠٠	قانون زيتون الساحل وصفاقس
٠٩٠٠٠٠٠	قانون نخيل الجريد
٠٥٠٠٠٠٠	محصولات المدن وغيرها أي الاداء على ما يباع في الاسواق
٠٥٠٠٠٠٠	لزامات صغيرة في الحاضرة وغيرها كالحوت والخيل وغيرها
٦٧٥٠٠٠٠	اعشار القمح والشعير على كل ماشية ربع قفيز قمحا ومثله شعيرا وعدد ١٢٠٠٠٠ المواشي فيجتمع من ذلك اقفزة ٣٠٠٠٠ قمحا ومثلها شعير سعر ١٥٠ الاول وسعر ٧٥ الثاني
٠٣٠٠٠٠٠	اعشار الزيت متوسطا كل سنة امطار زيتا ١٢٠٠٠ سعر ٢٥ المطر
٢٢٩٥٠٠٠٠٠	الجمع

فالحكومة التي دخلها ما تقدم ومصاريفها الاعتيادية لا تتجاوز الاثني عشر مليونا الان أحمد باشا مع كثرة عساكره ومصاريفها كان دخل الحكومة زمنه نحو خمسة عشر مليونا الى الثمانية عشر ومصاريفها مثل ذلك لانه لم يتداين شيأ ومحمد باشا نقص كثيرا من العساكر فلم يكن مصروفه الاعتيادي مجاوزا الاثني عشر مليونا ثم له مصاريف غير اعتيادية فيما يخص ذاته وماذا عساها ان تبلغ فاذا فرض من دخل الحكومة ثلاثة ملايين في السنة مدة أربع سنين لمنفعة عامة لا يكون فيه ضرر ولاعتماده على مثل ذلك اشترى له الوزير المذكور مصطفى خزنة دار مصوغا بقيمة خمسة عشر مليونا مقسط ثمنه أيضا ليكون ذلك ذخرا للحكومة عوضا عما باعه أحمد باشا من ذخائرها الثمينة في مصاريف حرب الروسيا لان المال الناض يسهل اليه امتداد الايدي بخلاف الجوهرات مع ما في طبع الوالي من الميل الى طبائع الاقدمين ومنها ادخار المصوغ وهو وان كان مسرفا فيما يتعلق بذاته وحرمه بالنسبة لاسلافه لكنه يؤثر الاقتصاد للعامة واتباع الحكومة بان يستلطف لهم لكي يقتصدوا في مصاريفهم فقد قدم عليه المولى الامام الشريف سيدي محمد الشريف في رمضان وكان محبا للاشراف معظما لهم شنشنة أهل تونس الاسلامية

فأدخله

فأدخله لقصر حرمه مختليا معه مباسطا ومؤانساله فعرض فى اثناء الخطاب لومه للشريف على التقصير فى القدوم اليه فاجابه معتذرا ببعد مسكنه حيث كان مسكن الوالى بالمرسى وبتعب الركوب على ظهر مركوب للوصول اليه لانه ليست له كروسة أى عجلة فاجابه الوالى بان مثله للكروسة مضر لما يلزمها من المصاريف السنوية وهو لا يبخل عليه باعطاء كروسة له بلوازمها ولكنه يخشى عليه كثرة مصاريفها فلذلك رأى أن يعطيه ثمنها وثمن ما يجرها على شرط ان يشتغل به فى ماله دخل فى مصالحه وأما ركوبه فانه مهما أراد الركوب يرسل اليه ليبعث له كروسة ليركبها وأعطاه خمسة آلاف ريال ولعمرى انها من نصح الاصدقاء وله فى مثل ذلك كثير من المساعى سيما فيما يعود الى تكثير الفلاحة وغراسة الزيتون والاشجار من الاهالى حتى رغب أهالى الحاضرة أيضا وأنشأوا فى مدته القصيرة ما ينيف على الستين ألف شجرة من الزيتون فى أرض تعرف بعد ذلك بعدى خوجه من مرناق وتوفى رحمه الله ولم يترك على البلاد ولا دانقا دينا بل ولا الاموال المقسطة فى مقابلة الاشياء المار ذكرها وبقايا أثمان أشياء مما لا يخلو الامر عن مثله مع انه ترك خزائن من الحديد مملوأة بمسكوكات الذهب التى أنشأ ضربها كما ترك خزانة مهمة جدا ملآنة بالمصوغ والياقوت الابيض المسمى بالالماس أو الديامنت المتجمع من النياشين التى أبطلها وأخذها من أصحابها وعوضها بنياشين من الفضة على حسب مجرى الدول وعوض أصحاب الرتب العسكرية علامات فى أعناق لباسهم وقد كان كل من أرباب نياشين الافتخار ومن أهل الرتب العسكرية له نياشين من الديامنت مختلفة النوع والنفاسة على حسب الرتب فمنها نيشان يبلغ خمسة عشر ألف ريال ومنها دون ذلك وهى كثيرة جدا فاجتمع منها مع ما اشتراه مقدار وافر يعرف ذلك كل رجال الحكومة وأتباعهم بل وجميع آل بيته واستولى أخوه محمد الصادق باشا فى (٢٤) صفر سنة (١٢٧٦) ولما كان هذا الوالى يتقى الصعوبات ويأتمن من يرى أمانته ويطلق له التصرف من غير معارضة كانت الوقائع تختلف فى مدته اختلافا بينا بحسب الوزير الذى بيده التصرف مع ان الوالى متحد فلذا لزم ان نذكر كل وزير بانفراده والوقائع التى جرت مدة ولايته ومساعيه لان الوالى يأتمنه ويعمل على رايه وهى القاعدة الجارى بها عمل الممالك المتمدنة لو تمت شروطها وهى جعل محتسب من الامة لمراقبة أعمال الوزير حتى لا تضر به ولا بالامة غير انه ينسب الى الوالى تفخيم أمر الحكومة فاطلق عليها لقب الدولة وعلى نفسه لقب الملك وأدمج ذلك فى ألفاظ القانون المسمى بقانون الدولة ونزع منه

نسخا على سائر الدول ليكونوا شهداء عليه وسلم بيده الى يد الامبراطور نابليون الثالث نسخة منه عند الاجتماع به فى الجزائر وكتب تلقيب وزرائه باسم الوزير فى مكاتيبه للدولة العلية وقيل له فى ذلك من بعض رجال حكومته فقال الدولة لها السيادة علينا وطاعتها واجبة ولكن لانهين أنفسنا وكذلك اخترع زيادة النياشين وقلد بها نفسه ورجال حكومته وغيرهم فمنها نيشان العهد وهو مرصع بالياقوت الاحمر والاخضر جعل لابسه قانونا وعددا ويتبعه شريط أبيض مثل الذى سبق ذكره فى اختراع أحمد باشا ومنها نيشان عهد الامان على شكل آخر وخصصه بأصحاب المباشرة فى الوزارة الى غير ذلك من الاشياء التى مدارها على الابهة مع رأفة نفسه ورقة قلبه وأول ما افتتح به حلفه باليمين اللازمة فى قبول بيعته على مقتضى عهد الامان وسرد عند البيعة العامة التزاماته

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

تبارك من جعل الامان أقوى أسباب العمران والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم باحسان (أما بعد) فيقول العبد الفقير الى ربه المشير محمد الصادق باشا باى وفقه الله لما يرضاه وأعانه على ما أولاه انى قبلت البيعة من الاعيان الحاضرين على ما وقع الالتزام به فى العشرين من محرم الحرام سنة (١٢٧٤) من المرحوم المقدس أخينا المشير سيدى محمد باشا باى وهو عهد الامان لسائر السكان على الاعراض والاموال والاديان وما حواه من القواعد واللوازم والاركان وحلفت وأحلف بالله وعهده وميثاقه على مقتضاه وان لا أخالفه ولا أتعداه وهذا الكلام صدر منى ونقله الناطق به عنى وخطى وختمى فيه أقوى شاهد وأوضح اعلان لكل من حواه هذا الديوان وسائر الرعية والسكان وعلى مقتضاه عليكم السمع والطاعة ويد الله مع الجماعة حرر يوم السبت الخامس من صفر الخير سنة (١٢٧٦) ثم التفت الى الوزراء فوجد الوزير مصطفى خزنه دار هو صاحب الشفوف على الكل لاتفاق أغلب أتباع الحكومة عليه وانقيادهم اليه رغبة ورهبة لما له من اليد وكذلك قناسل الدول فسلم اليه أمر الحكومة ولقبه بالوزير الاكبر وبقى منفذ الرأيه ملازما للسير على نهجه فى كل أمر حتى فيما يعود الى خاصة ذاته فكثيرا ما كان يلبس الوالى ثيابه ويتقلد منطقته تهيئا لركوبه الى الحاضرة فى كل يوم من رمضان لكون عادته ذلك ويبقى منتظرا للوزير ليركب معه لانه لا يركب دونه فيرد عليه رسول الوزير معتذرا له بأنه غير قادر فى ذلك اليوم على الخروج لمرض أو شغل

فيلوى

فيلوى الوالى عزمه ولا يتوجه للحاضرة وحده وكان لا يباشر فيها شيأ من الادارة وانما يذهب لمجرد التنزه والتفرج على الاسواق من شبابيك قصره وحيث علمت ما تقدم نذكر لك بعض حالات هذا الوزير وما طرأ من تصرفاته كما نذكر لك غيره من الوزراء

﴿المطلب الخامس﴾ فى وزارة مصطفى خزنه دار (اعلم) انه رجل أصله من قرية قرب ساقس جلب الى تونس وسنه دون العشر سنين وأخذه أحمد باشا ورباه وتعلم القراءة والكتابة وبعض الفروض العينية كالتجويد والوضوء والصلاة ونشأ على مسايرة أخلاق سيده بشوشا غير متفحش غيورا على من انتمى اليه جالبا لهم الارباح بكل وجه كما انه كان غيورا على تقرب أحد من الوالى ومع ذلك كان كثير الاعتقاد فى الصالحين ومن انتمى الى معرفة الحدثان مواظبا على قيام الثلث الاخير من الليل وله فيه أوراد مخصوصة الى ان يصلى الصبح ثم ينام وكان أولا قبل كبر بنيه ذا كرم كثير العطاء لحاشيته ثم صار شحيح النفس حريصا على الامساك والتقتير ولم يعهد انه باشر أحدا بشتم أو كلام منكر مدة وزارته على طولها وهى خمسة وثلاثون سنة الارحاين يقال لاحدهما على زيد وللآخر عثمان هاشم وكان لا يقدم اليه أحد بطاب شيأ منه الا يعده بقضاء حاجته كيفما كان حالها مع أنه ربما كان الوفاء ببعضها غير ممكن وقيل له فى ذلك فأجاب بأن سليقته تأبى أن يقنط الطالب ويؤيسه بل يصرفه بالوعد وان كان عازما على عدم اعطائه ويرى أن تعليق الآمال أولى من الاياس منها ولذلك كثيرا ما حصل منه الخلف بما يعد وصاهره أحمد باشا على أصغر أخواته ثم ولاه خزنه دار ثم لما أحدث أحمد باشا القاب الوزراء ولاه وزارة العمالة وهى عبارة عن التصرف فى الداخلية فراكن اليه محمود بن عياد وتشاركا سرا حتى صار المحتسب والمحتسب عليه شريكين وحصر دخل الدولة وخرجها فى محمود كما تقدم وللنجاة بما حصلا معا سهل خروج محمود الى فرانسا من غير حساب وخانه محمود فأظهر عقد الشركة مع مصطفى خزنه دار وطلب على يد مجلس الحكم الزام الشريك بدفع نصف قيمة السلع المجلوبة لصالح الحكومة واستولت هى عليها بعد خروجه من تونس وعرض هذا الحكم على الوزير مصطفى خزنه دار بواسطة قنسل فرانسا فى تونس كما أظهر ان شريكه خزنه دار كافه بطلب حماية فرانسا له كما قرره فى الصفحة الرابعة من الرسالة الاولى التى عرضها على مجلس التحكيم وبعد ان كاد يحصل على الحماية عدلت فرانسا عن ذلك والحال انه لم يبد له من سيده موجب لذلك بدليل بقائه على منصبه وتصرفه الى ان مات سيده ثم بعد سفر محمود بن عياد استعوضه بسعد بن عيد وجعله سمسارا على بيع

الوظائف فكان المتولى يدفع ما اتفق معه عليه والمعزول يغرم ما يدعى به عليه أهل عمله مع كونه مضطراً اليه لانه ما دفع المال لشراء الوظيفة الا ليربح ما يتعش به وما يدخره للمستقبل وعظم بذلك الخطر والفقر على الرعايا حتى شاهدت قبيلة أولاد عيار ان كثيراً منهم يستاقطون حب الزيتون بالاجرة لاربابه وعندما يتم عملهم يأتون الى الفلاح ليحاسبوه عما تجمع لهم من المال ومعهم أحد أتباع هذا العامل فيحصى لهم جميع أجرهم بعد اخراج مقدار ما أخذوه لقوتهم ويرسله الفلاح معهم الى دار العامل ليقبضه لانه حاجر عليهم فى قبضه وأشباه ذلك كثيرة كما انه استعوض عن ابن عياد فيما يتعلق بشراء مهمات الحكومة ودفع أموالها أناساً منهم عطية الذى وقع منه أمور عجيبة منها انه ولى على اعشار الزيت ودفعها فى مصار يفها المعينة ومنها الاجحاف فى مؤنة العساكر فكان يدفع اليهم الردىء من الزيت زيادة على مضاعفة الكيل من الدافع بل من سوء عمله انه كان يدفع للعساكر أوساخ الزيت الذى يحمل فى قفاف الحلفة ولا يسيل منها كما كان يحك ما لصق بحيطان مراجل الزيت ودنانه المسماة بالجرار وما تجمع من ذلك الدسم الوسخ يغلى فى الماء السخن ويدفع للعساكر على انه زيت والارباح التى تحصل لعطية كان يصرفها المصالح الوزير خزنه دار ومنها انه ابتدأ فى بناء جامع قرب باب القرجانى ونسبه الى نفسه مع أن المصروف عليه من مال الحكومة بعض منه على يد ابن عياد والبعض الآخر كان صرفه على يد عطية المذكور والدليل على ان ما صرفه لم يكن له أنه مات مفلساً ومع ذلك لم يتم الجامع الى الآن وقد بنى الوزير خزنه دار سبيلاً ببطحاء القصبة ووقف عليه حوانيت بجواره ولا زال مستمراً الى الآن وقد استعوض عن ابن عياد أيضاً القائد نسيم شمامة وجعل وظيفته كونه قابض الاموال وكان يشترى المهمات بسعر ويحتسبها على الحكومة باضعاف كما انه حصل بواسطة الوزير المذكور بناء لعدة زوايا فنها تجديد زاوية الولى الصالح القطب سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه الكائنة بجبل الجلاز بنيت على شكل حسن متقن حيث كان الوالى اذذاك أحمد باشا تلميذاً للشاذلى رضى الله عنه وكذلك جدد بناء زاوية الولى الصالح سيدى على الحطاب رضى الله عنه الذى هو أحد تلامذة الشاذلى الكبار وهى فى الجهة الغربية من تونس تبعد عنها ثمانية عشر أو عشرين ميلاً فى الوطن المسمى بالمرناقية وبنيت أيضاً بناء حسناً ومنها زاوية الحاج على شيحه الكائنة قرب الحلفاوين من ربض باب سويقة من حاضرة تونس وهو منتسب للولى الصالح سيدى عبد السلام الاسمر رضى الله عنه وبنيت

بناء حسنا ومنها تجديد بناء زاوية الولى الصالح ملاذ أهل تونس وعمدتهم سيدى محرز بن خلف رضى الله تعالى عنه وهو رجل كبير فى العلم والصلاح من كبار رجال مذهب الامام مالك رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وبنيت بناء حسنا وما صرف على جميع ذلك من مال الحكومة كما انه استوهب من الوالى محمد الصادق باشا سبخة السيجومى التى بقرب الحاضرة من الجهة الغربية الجنوبية وأنفق على تنشيفها عدة مئين من الالوف من مال الحكومة وحفر لذلك خندقا يمر فى واد بين جبال المحل المعروف ببئر القصعة ثم يمر على الوهاد المعروف ببحيرة باش حانبه ثم يصل الى الأرض المعروفة بمدار ابن عروس وهناك ينهمل الماء المنحدر من السبخة فحصل بذلك تلف الاراضى التى على مصب ذلك الخندق لانه لم يجعل لها سبيلا الى الوصول الى البحيرة مع كون مائه ملحا أجاجا وتعطلت عند مصبه الطريق الموصلة الى مرناق والى حمام الانف ثم ماوالاه من الجهة الجنوبية فى وقت الشتاء لتعطل طريقه الاصلى من الوحل فصار الطريق الشتوى أيضا امامعطلا أو صعبا جدا مع ان نفس السبخة لم تنشف لان ارتفاع قعرها على سطح البحيرة انما هو نحو ميترين ونصف فقط ويلزم لانحدار الماء فى الاقل صانتى ميترا لكل ميترو طريق الخندق لما كانت طويلة لم يكن فيها الانحدار المطلوب فلم تنشف السبخة وقد أنذر بذلك أحد حذاق المهندسين وقال لايمكن تنشيفها الا بنفق تحت جبل المنوبية لقرب المسافة الكافية للانحدار فلم يعمل بقوله ولم يحصل المقصود وبقى الامر على ذلك الى ان سد الخندق فى بعض جهاته باذن الحكومة فى وزارة خير الدين لرفع الضرر عن الطريق وعن الاراضى المشار الى جميعها كما شرع فى عمل طريق صناعى بين تونس وحلق الوادى فعمل فيه من جهة حلق الوادى نحو أربعة أميال ومن جهة تونس نحو خمسة أميال ثم ترك فأما الذى من جهة حلق الوادى فأبطله جمعية طريق الحديد وأما الذى من جهة تونس فلم يزل منتفعا به لكنه محتاج الآن الى التدارك بالاصلاح لانه ضرورى فى وقت الشتاء حيث ان الارض التى يمر عليها المسماة بالخضرا صعبة المرور لكثرة الوحل ولما ولى محمد باشا واقر الوزير المذكور بمعاضدة الوزير اسماعيل السنى حصل الاغراء للوالى على محمد المرابط أمير امراء عساكر القيروان وصهر أحمد باشا وعلى صالح شيبوب أمير لواء عساكر غار الملح وغيرهما من خاصة أحمد باشا من أبناء البلاد فنزعت رتبهم واستؤصلت جميع أموالهم وسمع الثقات من وزراء أحمد باشا الحاضرين مواطن الاغراء شدة انفعالهم من ذلك ولما وقع استقراره بالوزارة عند محمد باشا بواسطة

ماتقدم أراد أن يبرهن على صدق ماوسمه به الوزير اسماعيل السني من الصدق والنجابة وعلم مالا يعلمه غيره فطلب من الوالي عمل حسابه عما مضى وبعد اتمامه جاء بالدفاتر وبتلخيصها وعرضه على الوالي محمد باشا ورأيت في صفة الموطن بخط الوزير ابن أبي الضياف مانصه وقال له بمحضر الوزراء ورجال الدولة هذا حسابي قبضت في مدة خدمتي ماهو مرقوم في هذا التلخيص وصرفت في المدة ماهو مرقوم أيضا وكان المصروف أكثر وأنا غير طالب له ولم أدفعه من مالي وليس على دولتك المباركة دين فقال له بعض الحاضرين من الوزراء بديهة أنا أول قادح في هذا الحساب ومن أين جاءت هاته الزيادة فأجابه الوزير بلين وسياسة لك أن تنظر في فصول القبض هل نقص منها شئ وفي فصول الدفع هل زاد فيها شئ وماوراء ذلك نتيجة أصابعي ولي أن أطلبه لو استحللت الخيانة ولهذا أتيت بالدفاتر ليطلع عليها كل من يريد الانتقاد فخجل القادح الخ والكاتب المذكور عالم بالبلاغة حيث ورى بقوله فخجل أي خجل من الجواب لانه قيل ان المال من الاشياء التي لاتنمو بذاتها فالقسمة العقلية اما أن يكون من فصول المقبوض شئ لم يرسم كأن يكون المقبوض من الطوارى التي لاتنضبط كالاخذ من العمال زيادة على الموظف أو يكون بعض وجوه المصروف لم تصرف حقيقة أو يكون المقدار الحقيقي منها دون مارسم في الدفاتر أو يكون الدافع دفع من عنده أو اقترض وهذان الاخيران قد اقر الوزير بعدمهما واقرار الانسان ماض عليه فلزم بالضرورة أحد الوجوه السابقة ولعلها هي المرادة بقوله بأصابعي ثم انه في مدة محمد باشا لم تقع مظالم الرعية من العمال لما تقدم من سيرة ذلك الوالي وانما يقال انه جعلت له حصص من المال والمصوغ جعلا من الجالبين لماء زغوان وباقي المصوغ ليكون العقد بتلك المقادير وفي آخر مدة الوالي المذكور لما رسخت قدمه حصل الاخذ للوزير من بعض العمال بدعوى انه مع تشديد الوالي في قبض أيديهم لابد أن يسرقوا وجعل السمسار رجلا يقال له خليفة السائس مشاركا لسعد بن عبيد مع التحذير من ان يظهر أدنى تشك من الرعايا وقد أدركت المضرات حذاق القطر حتى قال أحد العلماء قصيدة يستغيث بها القطب الصالح سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه لما دهى القطر من تلك الاعمال

﴿ مطلعها ﴾

كادت تنيط رجاءها باليأس * مهج فغوثا ياأبا العباس

(الى ان قال)

انا اليك نبث ما قد نابنا * من مكر ذى شر شديد الباس
درب على فعل القبائح قائم * بالجور ناء عن مدى القسطاس

(ثم قال)

نشبت مخالب كيده فى قطرنا * وبدت مضرته على أجناس
ومراده والله يمحو رسمه * الحاقه بالأربع الادراس
خفيت مدارك كيده فتحيرت * فى غورها النبها من الاكياس
حار اللبيب ولم يفد تخمينه * مع ضربه الاخماس فى الاسداس

(ثم قال)

واستأصل الاموال من أربابها * ورماهم بالذل والافلاس
كل تراه وقد أمض فؤاده * يشكو القديم وللجديد يقاسى

الى آخرها وهى طويلة مع أن التباعد بين وظيفة المشتكى والمشتكى منه مما يؤيدان الشكوى من غير اغراض شخصية ودليل صدقها الخارج ثم لما استولى محمد الصادق باشا وكان الوزير يخشاه لما هو مشتهر عنه من الصلابة جد الوزير فى اتمام قوانين عهد الامان سيما واليد كانت فيها جائلة من قبل للاطمئنان على نفسه بدليل ما جرى بعد وأظهر ميله اليها لعموم العدل لكى يستعين بمجيء الانصاف على انفاذها فتممها وشرع فى العمل بها فى ١٥ شوال سنة ١٢٧٧ وحلف الوالى على انفاذها وعدم مخالفتها وكذلك سائر المتوظفين واستغرقت جميع مداخل الحكومة فى المصاريف التى عظمت وكثر المتوظفون والكتبة على ما تستدعيه القوانين وزيادة ووفرت المرتبات على نحو غير معهود فى القطر حتى صار لذات الوزير خزنه دار من المرتبات ما بيانه فى السنة

ريالات	
١٤٠٠٠٠	مرتبه على الوزارة الكبرى
٠٦٠٠٠٠	مرتبه على وزارة العمالة
٠٦٠٠٠٠	مرتبه على وزارة الخارجية
٠٦٠٠٠٠	مرتبه على وزارة المال
٠٦٠٠٠٠	مرتبه على نيشان آل بيت الوالى الذى هو حامل له
٣٨٠٠٠٠	المجموع

مع انه يصرف مصاريف غير ذلك من أموال الحكومة كما تبين من الحسابات فى الحكومة

وجعل القائد نسيم لا يدفع لمن يطلب مالا من الحكومة الا باسقاط مقادير رابحة زيادة على الارباح من شراء المهمات واستغرق بمثل ذلك جميع مداخل الحكومة ثم جعل جميع المال المطلوب للمعاقدات المارذ كرها من ماء زغوان وغيره دينا بالربا واستقرض له مبلغا بالربا من أوروبا قدره نحو تسعة عشر مليونا فرنكا حسبما هو محرر بالتقرير المصحح بخطه وخط المجلس الاكبر وقد برح اذذاك الخفاء وبان لعقلاء رجال الحكومة سوء تصرفاته فكان أعظم المضادين له من كان أكثرهم قربا اليه وألحوا عليه في الكف عن تلك السيرة فصار لهم بالمرصاد وصار يشيهم عند الوالي ويقدح فيهم ضدما كان يقول فيهم لانه علم حالة الوالي وانقياده اليه ورام نقض القانون أو ابقائه صورة لان مقصد الامن على خصوص ذاته قد حصل بجريان الوالي على رأيه وابعاده كل أحد عنه الا الخدمة لخدمة ذاته واشتدت المشاحنة بينه وبين الوزير خير الدين الى ان استعفى من وظائفه ثم تبعه الوزير حسين والوزير مصطفى أغه والوزير رستم وخلا الجو لخزنه دار وأخذت السيرة في طور آخر جديد ورام ان يضاعف أداء الجباية على الاهالي ويصيرها اثنين وسبعين ريالا على الرأس عوضا عن الستة والثلاثين ريالا التي أسسها محمد باشا وطلب موافقة المجلس الاكبر فامتنعوا واستبد هو بامضائها مع تحذير العقلاء له فلم يلتفت اليهم مع ان الاهالي في ثروة من أثر سيرة محمد باشا تقويهم على الدفاع عن انفسهم مع ما استأنسوا به من تلك السيرة وسماعهم بأن العدل والانصاف قد شملهم بالقانون وان لهم الكلام على حقوقهم فامتنعوا قاطبة وأراد غصبهم على ذلك فثار القطر كله ثورة واحدة لم تعهد من قبل على غاية من الرياضة والامن بحيث لم يتعرضوا بالاذية لاحد مع أمن السبل وكثرة الغادي والرائح وضبط كل جهة بعض أهلها لردع السفهاء وحفظ الراحة والامن وكان متولي أكبر الجهة الغربية والمتفق عليه أكثر قبائل الاعراب رجلا يسمى علي بن غذاهم وذلك سنة (١٢٨٠) ولا زالت هذه الثورة تسمى ثورة ابن غذاهم وكاتب الجهات بانا اخوان ووطننا واحد وليس المراد منه الا فساد فالواجب حفظ الامن والراحة وتأمين السبل ولا نتعرض لاحد بشيء سوى اتباع الحكومة فاذا أرادوا غصبنا على الظلم ندافع عن أنفسنا وأنذرت القبائل عمالهم الذين كانوا بين أظهرهم فمن أراد منهم التوجه الى الحاضرة أوصلوه بأمان ومن أراد الاقامة منكفا عن التداخل في أمرهم أبقوه بأمان ولما توجه أمير الامراء فرحات الى الكاف لاجبار قبائل ما جرى على ذلك الاداء تعرضوا له وقتلوه فشدد النكير عليهم علي بن غذاهم وقال لهم أصل اتفاقنا انما هو على الدفاع عن أنفسنا وما ضركم

قدوم

قدوم الرجل الا اذا حار بكم فدافعوا عن أنفسكم وكاتب المذكور رئيس الفتيا العلامة الشيخ أحمد بن حسين وطلب منه التوسط فى الصلح مع الحكومة وحاصل مطالب الجميع ابطال الاداء الجديد وعزل الوزير مصطفى خزنه دار ومحاسبته فامتنع الوالى أولا من جميع مطالبهم واشتد الكرب على الحكومة حتى لم يبق أمر الوالى نافذا الا فى الحاضرة ونحو اثنى عشر ميلا حولها واشتد الخوف فى الحاضرة وقدمت اساطيل الدول وأسطول الدولة العثمانية وفيه رسول سياسى انزل فى قصر المملكة بالحاضرة وتداخلت نواب الدول فى النازلة وفى قبائل القطر وبلدانه كل بما يوافق سياسته وكان من جملة الحاح قنسل الفرانسيس على الوالى لارجاع الراحة عزل الوزير خزنه دار لكنه خاطبه بذلك شفاها كما هو مشهور فى البلاد ورأيته بخط الوزير ابن أبى الضياف وأصر الوالى على الامتناع الى ان أحضر الوالى معسكرا قليلا وجهه تحت رياسة اسماعيل السنى لميل الاعراب له لصدقه ثم خلفه الوزير رستم عند مرض الاول ووقع الاتفاق مع جمهورهم على اعطاء الوالى الامان الى الجميع واسقاط الاداء المطلوب وعفا الله عما سلف وكتب الوالى بذلك أوامره وباشر باعطاء الامن كل من وفد عليه من الرؤساء وانتهز الوزير الفرصة لابطال القوانين بدعوى ان الثورة قامت لطلب ابطالها وما سمع ذلك من أحد لان أصولها لا تنافى الشريعة وغاية ما تكلمت فيه الناس هو فروع منها وذلك انهم أنكروا كون قوانين الاحكام الشخصية لم تكن شرعية فى كثير من المسائل ونسبها الجهلاء الى انها كلها مخالفة للشرع لجهلهم ولرؤيتهم هيئة الحكم على خلاف ما تعودوه فى هيئة الاحكام الشرعية وللتصريح بقصر الاحكام الشرعية على أبواب خاصة دينية ولعدم ادخال الحكام الشرعيين فى الحكم بالقوانين ولان بعض من ادخل فى الحكام لاجدارة له بها حتى خرج عن طوره بما لم تحمله انفس المعاصرين ولانه أجريت القوانين دفعة واحدة فى جميع الانحاء حتى فى القبائل التى لم يوجدان يوظف فيها من يعرف القراءة والكتابة التى هى ضرورية فى المتوظف وصاروا يخبطون خبط عشواء وكذلك مل الاهالى من التطويل الزائد فى الاحكام على ما هو عادة الاشياء فى مبدئها فهو فى الحقيقة ارادة لاصلاح نفس القوانين لا كره ذاتها بدليل ان المجلس الاكبر لم يتعرض له أحد من العامة والخاصة بالقدح فيه الا بعدم اشتماله على افراد من جهة المملكة حذاق لكى يعرفوا بما يليق بأحوال أطراف القطر والحال ان المجلس الاكبر هو روح القوانين لمحافظته على أساسها الكن الذى لم يكن له قصد سوى الامن على نفسه

وقد وجد الوالى لايخشى منه أشاع هو ومن كان على شاكلته ان الناس يطلبون ابطال القانون وقد اعتمدت تلك الاشاعة وابطل القانون والدليل على ان الناس لم يطلبوا ذلك المكاتيب التى أرسلها قنسل الانكليز تعجيلا على ابطال المجالس ومفهومها قاض بموافقته قنسل فرانسا على ذلك وان كان سر الامر هو الاغراء من قنسل فرانسا بابطالها الماذكر فى سياسة فرانسا بتونس ونص تعريب مكتوب قنسل الانكليز الاول فى فبراير سنة (١٨٦٤ م ١٢٨٠ ه) المعروض على جنابكم الرفيع انى ترى من الواجب على ان نذكر جنابكم فى هذا الوقت الذى أحواله الزمت جنابكم الرفيع توقيف تراتيب الحنان المؤسسة على الحرية فى بلادكم فان هاته التراتيب وقعت الوصاية فى شأنها وكان ترتيبها بملاحظة الدولتين الحبيبتين الانكليزية والفرنساوية وجنابكم وعدهما اذ ذاك رسميا باتمامها وابقائها على جميع قوتها وعدم تغييرها ووكيل الدولة الامبراطورية الفرانساوية ورد له الاذن من دولته كما ورد لى الاذن من دولتى لانهما على اتفاق واحد فى النازلة وفى الحث على طلب ترتيب المجالس المختلطة بسرعة لفصل نوازل الجنايات والنوازل المتجرية لما يلزم من الوقت لعمل القانون المتجرى ولما كان الاذن المذكور الصادر لنا من دولتنا الذى تشرفت بعرضه على جنابكم بمكتوبى المؤرخ فى (١٧) اشتنبر سنة (١٨٥٧) وهو نظير المكتوب الذى خاطبكم به موسيو روش نصاسواه ولم تزل المكاتيب موجودة يجب ان تكون سير نواب الدولتين فى هذه المملكة على مقتضاها ولهذا يجب ان نطلب من جنابكم بشدة حرص أمراز انداء على ابقاء المجالس وهو المبادرة الى المجالس المختلطة الموعود بها منذ زمان طويل وبمقتضى ماتقدم من الاذن طلبت مشاركة قنسل جنرال دولة فرانسا فى هذا المطلب كما يطلع جنابكم على نسخة مكتوبى اليه وهو موسيو دين بوفال هذا وزيادة على الوعد الرسمى الذى اعطاه جنابكم الى ملكى انكلاتيره وفرانسا بحفظكم التراتيب المبنية على الحنان والتمدن التى أعطاها جنابكم لبلاده لايخفى عليكم ان دولة انكلاتيره عقدت مع دولتكم شروطا تقتضى دوام التراتيب المذكورة لانها هى الحافظة لحقوق رعايا انكلاتيره فى هذه المملكة ومع وجود ذلك فتبديل تراتيب الحكومة الآن والرجوع الى الكيفية القديمة بدون سبقية اعلام للدولتين الانكليزية والفرنساوية بمقصود جنابكم يظهر منه فى السياسة انه فعل يدل على نقصان الاعتبار ولاشك فى عدم وقوع ذلك من جنابكم مع دولتين حبيبتين وايضا يظهر منه انه غير صواب مع الدولة الانكليزية

الانكليزية التي في شروطها الاخيرة صدقت امان الحكومة التونسية ومحبة الدولتين الى جنابكم توجب على عدم الزيادة في المشاق الموجودة في حكومتكم بمطالب تشق في هذا الوقت ولكن واجبات خدمتي تلزمني ان أطلب منكم رسميا دوام الاصول المؤسسة عليها ادارة الحكومة وخصوصا انى اترك لجنابكم انتخاب الكيفية التي تظهر لجنابكم انها الأنفع ومناسبة لاجراء تلك الاصول والجنوس المتقدمة في التمدن ربما لزمهم في أزمان متعددة بدون أن يتعرضوا للاصول المؤسسة عليها قوانينها تبديل كيفية العمل بها وهذا الباب مفتوح لتونس اقتداء بالدول الاوروباوية الذين لاشك في فطنتهم وحكمتهم وهذا الامر ظهر لى انه سهل حيث ان التشكى الواقع من زيادة الاداء ومن تطويل المجالس في الحكم يمكن دواؤه بما تتهنى به البلاد وترجع الى حالها الاصلى وهذا أعظم دليل على حسن خلق الرعية المستنتجة من هذه التراتيب لانه لم يوجد في تواريخ تونس مثل سيرة القبائل في هذا الزمن لما لهم من الشكايات وهم متسلحون على عاداتهم السابقة في سالف الزمن لكن لم يتعرضوا بسلاحهم الالاحتماء من أداء ثقيل فوق طاقتهم اه ثم كاتب الوالى أيضا بما نص تعريبه في مايه سنة ١٨٦٤ الواضع اسمه أسفله يتشرف بتقريرما يأتي وهوانى لما اعتبرت شأن الحال الغير المترقب الذى عرض لحكومة تونس رأيت من مقتضى الوداد أن لا أعطل سير عملها بما لا يقتضيه الحال ومع ذلك حيث لم يبلغنى اعلام رسمى منكم بشرح كيفية مقدار التوقف الوقتى الذى وقع في قيود العمالة علاجا لامرها فقد وجب على الواضع اسمه أن يطلب التعريف في ذلك كما أنه يجب عليه المحافظة بمقتضى هذا المكتوب على ابقاء ماحصل لدولة بريطانيا العظمى من الحقوق التي لانزاع فيها بمقتضى شروطها مع على جناب الباى محافظة متعلقة بما يمسها بمقتضى التوقيف الوقتى المذكور فالواضع اسمه يقرر للجناب أن تلك الحقوق معتمدها الاعتماد العمومى وقد لزم شرح الاسباب المبنى عليها تقريره وهو أن المرحوم سيدى محمد باى والجناب العلى أدام الله عزه لما أصدرا عهد الامان فهما ووزراؤهما والمفتون والقضاة وجميع علماء الشريعة الشريفة حلفوا يمينا وأكدوا يمينهم باستدعاء حضرة وكلاء الدول الاجانب بانهم يحافظون على الوفاء بعهد الامان بجميع شروطه وأبانوا أن عهد الامان جزء من شروط الشريعة الشريفة والعلماء الكرام المذكورون ورجال الدولة أشهدوا الله على صدق نيتهم في ابقائها على الدوام والاستمرار من يوم صدورها فصاعدا وأن دولة بريطانيا العظمى اعتمدت

على الوفاء والاعتقاد الذى لايمكن منه فسخ لعهد الامان بمقتضى هذه الايمان وعقدت مع على جناب الباى اتفاقا متعلقا بامور منصوصة فيه فينتج من ذلك ان الحقوق المسلمة لرعية الانكليز ولوازمها التابعة لتلك الحقوق بمقتضى الاتفاق المذكور معتمدها هو عهد الامان والقوانين الناشئة منه وبذلك صار حقا من حقوق الدولة الانكليزية يقتضى ان تطلع بسبب ذلك على حقيقة الحال فى شأن عهد الامان هل هو عامل بجميع شروطه أم لا وكذلك توقيف القوانين الناشئة منه هل هى معالجة وقتية ثم هل الحكومة التونسية مرادها ان تجرى فى المستقبل الاصول المقررة به على صورة مناسبة لحفظ مكاسب الانكليز فى العمالة التونسية وتأمينها والواضع اسمه يطلب بحرص واجتهاد لاينافى الادب والتواضع جوابا شافيا شارحا للاستفهامات المذكورة ليخبر بها دولة ملكته المعظمة وكذلك ان الواضع اسمه يبقى ويتحفظ على اسان دولته فى حقها على جميع الحقوق ولوازمها والكفالات التى أعطيت لرعايا الانكليز بمقتضى ماهى مبينة بالاتفاق المذكور ويقرر أيضا ان ذلك الاتفاق اتفاق عمومى لايخالف فيه من الجانبين اهـ واعاد الكتابة فى يوليه الموافق لاواخر صفر سنة (١٢٨١) ونص تعريب المكتوب الواضع اسمه أسفله نائب وقنصل جنرال حضرة المعظمة ملكة بريطانيا العظمى قد تشرف بمخاطبة الجناب العلى بمكتوب مؤرخ فى مايه سنة (١٨٦٤) طالبا منه الشرح فى شأن التوقيف الوقتى الذى وقع فى رسوم العمالة بسبب أمر غير متوقع وقد أبقى وحافظ على اسان دولته فى حقها على الحقوق التى يستحيل النزاع فيها الحاصلة لدولة المعظمة الملكة بموجب اتفاقها المعقود مع على جناب الباى بمقتضى عهد الامان والقوانين الناشئة منه وتوقيفها يمس الحقوق المذكورة وان الواضع اسمه لايمكن ان لا يحصل له فى النازلة شئ من الفكر لانه يرى انه مضى شهران ونصف ولم يتشرف من الحضرة برد الجواب عن مكتوبه ولمراعاة الحكومة التونسية لم تقع معارضة غير ضرورية فى سبيل اطلاق عملها وانما الواضع اسمه أتاه الاذن بعد ذلك فى تقوية عهد الامان بسند مع ان دولة المعظمة الملكة لها اعتقاد بان عهد الامان لما كان مبنيا على شروط الشريعة الشريفة لايمكن نقضه الا بنقض نفس الشريعة ولم تتخيل ولا يخطر ببالها بوجه من الوجوه ان السادة الاجلاء المفتيين والمدرسين للشريعة الذين حلفوا يمينا على ابقاء عهد الامان ان يرضوا بان يشيع فى العالم مالا يناسبهم من وقوع الشك فى وفائهم بما عاهدوا عليه ومع ذلك دولة المعظمة الملكة ترى فى الامور المتعلقة باتفاق

عمومى

عمومى بينها وبين الحكومة التونسية أعظم اعتمادها دون الاعتقاد العمومى وهو صدق الباى ومحبته فى اجراء العمل كما يجب بمقتضى الاتفاق المذكور ولذلك الواضع اسمه يرجو ان على جناب الباى يتفضل بالجواب عن الاسئلة المبينة فى مكتوبه المورخ فى مايه وذلك لاعلام دولته بجواب مقنع فأجابه الوالى فى ذلك التاريخ بان عهد الامان باق على قوته ومفهومه فلو كانت الاهالى طلبوا ابطال القانون لما استطاع القنسل ان يسجل ضد الرأى العام فيما يرجع اليهم على انه قد صرح رسميا بما هو مطلوبهم كما هو بين لمن تدبر عبارة مكتوبه وكذلك ما نسب الى قنسل الفرانسيس ولو كان امتناع الاهالى من القوانين موجود الكان للوالى أعظم حجة فى التعلل بدليل انه يحتج به فى خلواته على من لا يقدر على معارضته ومن وقتئذ تسلطت أيدى العدوان على الاهالى بسلب الاموال والقتل والضرب بالسياط المؤدى الى القتل لان الوزير اشتد حنقه عليهم حتى دخل عليه أحد الاعيان يوما وهو يقول طلبوا دمى فلا أرضى الابدمائهم طلبوا مالى فلا أرضى الا بأموالهم ولعل مراده بطالب دمه هو طالب عزله وقد اعتادوا فى بعض الوزراء السابقين قتلهم فظن ان العزل يؤدى للقتل والانفس قتله لم يطلبه أحد أما المال فنعم قد طلبوا حسابه وأول باكورة بعد ابطال القوانين افتتح بها لاهل الحاضرة مع انهم هم وحدهم الذين بقوا خاضعين للحكومة الا انه كثر بينهم الكلام فى انصاف مطالب الاهالى فجلد أحد أعيانهم المسمى محمد بن مصطفى عجم الشهير فيهم بالوجاهة بمجرد تهمته انه أغرى بعض غلمان القصر الاميرى بالهروب فجلد خمسمائة سوط مؤلمة بحضور أحد خواص الوالى لاتقانها واكمال عددها وسجن مع الاعمال الشاقة فى الكراكة ومنهم محمود بن سالم أحد الاعيان من التجار وأحد أعضاء مجلسهم ادعى الوزير انه اشتكى به اليه من جماعة المجلس وسجنه ومن أغرب الامور انه لما لاذ أهل المسجون بالوزير طالبين تسريحه أو بيان ما هو مطلوب فيه ارسل الى جماعته يسألهم ماهى شكوا كم التى سجنا بها الرجل فأجابوه ان جنابه أعلم بها منهم لانه اعتمدها حتى عاقب الرجل بالسجن كما حصل لرجال الحكومة اشياء فمنها أنه حجر على الوزير اسماعيل السنى الذى اعتمد فى حل عقدة الثورة وعلى أمير الامراء رشيد الذى سافر بالعساكر الى الاستانة فى حرب القريم وأمير اللوا الشريف السيد حسن المقرون الذى له اليد البيضاء فى حفظ الراحة فى الثورة فى الحاضرة وحسين ورديان باشا وخمرف وعلى جهان ويونس الجزيرى أمير لوا وحسن المدلجى أمير ألاى والسيد محمد المقرون ومحمد بن الحاج

رئيس عساكر زواوة الذى جمعهم له عند عدم وجود غيرهم فى الثورة واعانه بما استطاع فجبر على جميع هؤلاء فى الخروج من بيوتهم وخلطة الناس لانه كان يوجس منهم الاعتراض على التصرفات ثم قتل الاولين فى بضع دقائق من غير سماعهم لدعوى ولا حجة ولا استشارة وارتجت البلاد لذلك وشنعت القناسل سيما الفرانساوى والانكليزى وسجلوا تسجيلا شديدا فكاتب الاول اى الفرنساوى الى الوالى بما نص تعريبه انى اتمم خدمتى التى ساء فى اتمامها وهى اعلام دولة الامبراطور بالحادث الموجع الذى لوث قصر باردو بالدم فان الفريق رشيد وزير الحرب كان رئيس العساكر التونسية فى حرب القريم والفريق اسماعيل السنى صهر جنابكم وقع قتلهما فى القصر بمجرد تهمة لم يقع اعلامهما ممن صدرت ومن غير اذن فى وجه من أوجه الحكم فلم يتيسر لى السكوت فى مثل هذا الامر وكان همى ان أقرر لجنابكم التأثير الذى لا بد ان يقع من ذلك وفى سيرتى هذه سبقت اذن جناب دولتى التى استحسنت فعلى المذكور استحسانا تاما وان كنت مأذونا باعلام دولة جنابكم واعلام حضرتكم العلية نفسها بالتأثير الذى وقع لجناب دولة الامبراطور من قتل الشخصين المذكورين ولم تتوقف دولة جنابكم فى تحملها تلك المسؤلية العظيمة كما انى مأذون أيضا بان أقرر لجنابكم التشويش الواقع من مشاق هذه الاحوال التى لم تزل تعظم من سائر جهاتها (انتهى) وكتب الثانى أى الانكليزى للوالى أيضا بما نص تعريبه ان الملحوظات الشفاهية التى تسامح الواضع اسمه أسفل هذا المكتوب فى عرضها على جنابكم فيما يتعلق بالامور الموجعة التى وقعت بقصر باردو فى شهر التاريخ لابد انها افادت جنابكم بانها صادرة من التأثر القوى الذى عندى فى شأن همة جنابكم ومصالحكم وفى شأن التأثير الموجع الذى سيقع بانكلتره من ذلك ودولتى لا توافقنى اذا ادعيت التداخل فى تصرفات الدولة الداخلية التى يظهر لجنابكم استعمالها لحفظ الراحة العامة من مقاصد بعض الاشرار وبعد الشرح والتفصيل الذى تفضل به جنابكم على لا يبقى لى شك فى وجود حجج كافية أظهرت لجنابكم توقع مقاصد موجهة نحو ذاتكم العلية لاتلافها فى قصركم نفسه ولا شك بناء على كونكم كبير الدولة ان يكون لكم الحق فى استعمال سائر الطرق اللازمة لحل تلك العقدة التى مؤداها اتلاف ذاتكم العلية وخراب المملكة ولكن بسبب كون جنابكم هو شخص الدولة المرتفعة شرعا فصلحتكم تقتضى ضرورة انكم لا تسعوا الا بما سم الشرائع وعلى مقتضاها فانها أحسن ضمانة لكم ولا يبعد عنها الا المتعدى عليها بفساده وبعد ان راضت نفس جنابكم وتأملتم فى الاحوال

لاشك

لاشك انكم تحققتم ان الخطر الحال الذى كان فيه جنابكم لم يكن حجة كافية فى قتل فريقين من دولتكم لان فى تباعدكم عن طريقة سيرتكم المعتادة بعدا عن القواعد السالمة المرتسمة فى القوانين التى منحتم بها بلادكم وهى وان توقفت بالضروب الموجعة الخارقة للعادة فانها لم تزل موجودة مع ان دولتكم مطلوبة بالشروط المنعقدة بينها وبين بريطانيا العظمى وجنابكم معترف بهذه الحقائق غاية الاعتراف لانكم لم تتوقفوا فى اقراركم الرسمى بانكم تحترمون القواعد المذكورة وذلك بمكتوبكم لمسيو اوود المؤرخ فى (١٨) اغسطس واستانفتا طرعن مدة توقيف القوانين وقد حصل لى سرور لما حقق لى جنابكم بانه لا يقع فى المستقبل مثل هذه الامور الموجعة التى وقعت واعيد القول لجنابكم انى لا اتداخل فى البحث عن جرم الجناية التى يمكن ان الشخصين المذكورين ارتكباها الان انسانية جنابكم التى كثير من أدلتها كافل لى بان جنابكم كان متحققا بانهما قتلا على حق ومع هذا التحقق كان ودان كيفية الحكم تكون على الصورة التى تقتضيها القوانين دفعا لما عسى ان يتهمكم به اعداؤكم فان جنايتهما لم تثبت ولا يوجد شك فى مساعدة ان القوانين هى أقوى الضمانات التى تستند اليها الملوك كافراد الناس وقد رأينا فى كل وقت ان كل من بعد عنها ليستعمل القوة المادية فى تصرفه يكون سببا لاعدائه فى أن يفعلوا معه كذلك مقتفين آثاره وأرغب من فضلكم المسامحة فى هذه الملحوظات فانها لم تقصد الامور والاحوال التى فاتت لسوء البخت ولا يتيسر لاحد اصلاحها وانما المقصود بها الطلب من فضل جنابكم أن تتذكروا ان بلادكم لم تبعد كثيرا عن أوروباوانها اذا لم تتقدم مع تقدم العصر فان قواعد التمدن المتداخلة فى كل مكان تعمها ولا يتيسر التصرف الآن كما كان فى زمن الجدود لان كل عصر له احكامه وأحكام هذا العصر لا تقتضى ان الحكم الذى يقع على الاسرى الذين لم يزالوا فى العسكر ان الامير يتصرف فيهم بما عنده من القدرة ويرى ان الحق له فى التأمل بذاته فى نازلة شخصية بل يلزم توفية حق المتهمين لدى مجالس وانه يسمع مقالهم ويخاصمون على انفسهم ويبرؤون انفسهم من التهمة الموجهة عليهم فاذا أثبتت جنايتهم فالقانون يحكم وبهذه الكيفية تستحفظون على همتكم ولا تأخذون من القانون الا الرفيع العالى فى حق الملك وهو العفو عن المحكوم عليه (انتهى) ثم جمع الوالى جميع رجال الحكومة وأخبرهم وابلى فى ذلك اليوم الوزير خير الدين البلاء الحسن بقوله القرائن التى ذكرت لا تبيح لونافضلا عن القتل ثم على فرض صحة التهمة فبعد ايقافهما كان الواجب اقامة الدعوى عليهما وسماع

جوابهما عليها الى غير ذلك من الاعمال الواجبة وغاية الحجة في قتل الشهيدين هي التهمة باعانة أخ الوالي محمد العادل باي على الهروب مع انه لم يذكر في معرض الاحسان معه الا رشيد اولم يعرج على اسماعيل بشيء ورشيد نفسه لم يسمع الدعوى ولا قامت عليه حجة وادمج في اثر ذلك نفي جميع من تقدم ذكره وكان في اثناء ذلك الوزير حسين خارج المملكة لما توقع من عظم كربها بعد تسليمه في جميع وظائفه فنجا منها الحق غيره ولحق به الوزير رستم فلم يبق من يعترض على التصرفات من رجال الحكومة وأما أهالي بقية القطر فقد أحيي فيهم ما دثر خبره ونسي ذكره من تسليط الحزب الحسيني على الحزب الباشي الى ان خضدت شوكته والصق بالارض ثم كر على هذا الحزب أيضا ولحق بصاحبه فعاثت أيدي الاول بأهل الساحل وقتلوا النساء والصبيان مع معسكر الوزير أحمد زروق الموصى بالنكال وأحدث فيهم ما تقشعر من سماعه الجلود من قتل أربعة من رؤس الساحل حكما هنالك ولما أتى أهل المجلس الشرعي بالمستجير لرئيس المعسكر أحمد زروق قابلهم بعسف وأحكم الاغلال والقيود في أعناقهم وارجلهم وأمر بازالة عمامة رئيس المفتين بلفظ مستهجن وعامل وفد صفاقس بما يقرب من ذلك وسجن القاضي وحكم ايدي النهب في الجميع وقد رايت بخط الوزير الكاتب لاسرار الولاية في معرض ماحصل من أحمد زروق ما نصه وبالجملة فجميع ما ينسب في هذه الوجهة لاحمد زروق انما هي نسبة تنفيذ لانه مقيد التصرف بما يرد اليه في الامر في كل نازلة الخ مما يصدق نسبة ما ذكرناه الى صاحب التصرف وان كان أحمد زروق تفاخر بما صنع حتى رآه بعض رجال الحكومة الكبار داخلا الى جامع الزيتونة وهو لابس لنعله وقد جرى العمل باحترام الجوامع بعدم دخولها بالنعال فقال له في ذلك فأجابه بمرأى من الناس ومسمع بقوله لولاي لربطت في هذا الجامع خيل أهل الساحل مع ان أهل الساحل معلوم اسلامهم وعلى فرض منعه المسجد من ذلك لا يسوغ له ذلك جواز اهانته وهذا الرجل أعني أحمد زروق لم يزل مقربا عند الوزير خزنه دار الى ان انفصل عن التصرف ومن تصرفاته في تلك الوجهة انه فلس الشيخ محمد الصويلح رئيس الفنوى بالاعراض وغرم أهالي تلك الجهات أموالا كثيرة افنت الطارف والتالد وبقوا في قيد ديونها المثقلة للاجانب الى هذا الوقت بحيث يصح أن يقال ان جميع ما يمكن ان يباع قد بيع وما لا يباع كالاوقاف وجميع ما تحصل من كسب أبدان أهل الساحل كله دفع للاجانب بسبب ديونهم ولو افردت نازلة الساحل وحدها بتأليف لجاء مستكملا زيادة على القتل والسجن مع الاعمال الشاقة

وضرب

وضرب السياط الموجع أو القاتل حتى ان الوزير خزنه دار المذكور لما رأى خروج
الضرب عن حده في السيد الشريف علي بن عمر من أهل مساكن مع من أتى معه الى محل
حكم الوالي أظهر الشفقة وأرسل الى الاعوان وقال لهم ان سيدنا أمر بضرب هؤلاء
لا بقتلهم فان القتل آلات تخصه وانما أسند الامر للوالي لان ذلك هو دأبه كما تقدم من
عدم مكافحته لاحد بما يوجع و يسند جميع الاعمال للولاة وأما جهات القطر الآخر
التي سافر اليها المعسكر تحت أمر الوزير رستم فلم يقع بها من المضرات ما وقع بالاولى لانه
اقتصر على مجرد قود الطاعة واستخلاص المال الممكن للاهالي وعمل بالمثل القائل ولي
أذن عن الفحشاء صماء عن الاوامر التي ترد عليه في سلب اللحم والعظم ومن ذلك
التاريخ حصل تغير الوزير خزنه دار عليه لما ذكر مع تعرضاته لتصرفات العمال على
غير الوجه المعقول وكذلك المعسكر الذي سافر تحت امرة ولي عهد الولاية أمير الامحال
أبي الحسن علي باي فقد اقتصر فيه على مثل ما ذكر واستعطف أخاه في العفو عن كثير من
رؤساء تلك الجهات وانكرت عليه تلك السيرة ممن يريد الخراب حتى أرسل معه ابراهيم
ابن عباس الرياحي قائد زيد وأمر أمير الامحال باتباع اشارته وتنفيذ أمره لكي لا يجد
الامير سبيلا للاعتذار عن الناس مع ما هم فيه من الفقر وضاق الخناق بسبب ذلك بين
جذب ودفع لما في طبع هذا الامير من النفرة عن تلك السيرة وكان ذلك سببا للوشاية به
لاخيه واتهم مستشاره المقرب محمد الطاهر الزاوش باذية الاهالي ونسب اليه بعض
ما صدر من ابراهيم بن عباس المذكور والحال اني رأيت بخط كاتب اسرارهم الوزير
أحمد بن أبي الضياف المذكور في وصف المستشار المشار اليه ما نصه واعتمد باي المحلة
في الوساطة بينه و بين الناس وحمدت بذلك سيرته الخ وذلك هو المعروف عند السكان
في الثناء على أعمال المستشار وتوصل الوزير خزنه دار بما تقدم الى ابطال سفر الامير
المذكور بالمعسكر على عادة اسلافهم واستعوض عن ذلك بسفر أحمد زروق المذكور
ثم ان ما رقعه كل من الامير علي باي والوزير رستم قد خرقته أيدي العمال والبعوث التي
وجهها الوزير خزنه دار وأتى باعيان من قبائل الجهات الغربية والشمالية يبلغون نحو
المائتين وأغلبهم كان في خدمة الطاعة والموافي قود الاهالي وارجاعهم للسكون البلاد
الحسن ولا ذنب لهم الا كسبهم وأوقفوا في صحن البرج من قصر الحكومة بباردو وخرج
لهم الوالي وخاطبهم بانه لولا شفاعة الوزير لامر بقتلهم وليته لم يشفع لانه أي القتل أهون
الموتتين ثم حكم عليهم بالجلد بالعصا ورأيت بخط الوزير الكاتب المذكور في قصة هؤلاء

الرهط الذين منهم الشيخ الهرم المنسوب الى الصلاح الحاج مبارك صاحب زاوية تاله مانصه فتقدمت مردة العذاب الى ما كرم الله من أبدان بني آدم يكبون الواحد على وجهه ويسحبونه على الارض موثوق اليدين والرجلين ودام الضرب في أولئك المساكين يومين أو ثلاثة بمرأى ومسمع وفي خلال أيام الضرب قدم ابن المملكة الاتكليزية انجا فلم يقع الضرب يوم قدومه خشية وقوع الشفاعة منه عند مشاهدته تلك الحالة الفظيعة الشنعاء ولما تم الضرب باعداده واتقانه سجنوا بسلاسلهم وأغلالهم ومات منهم بسبب الضرب الذي لا تتحمله القوى الحيوانية علي بن عباس شيخ تاله وخرجت روحه قبل كمال عدد الضرب فكملوا العدد بضرب شلوه وهو ميت ومات بعد الضرب الحاج مبارك شيخ الطريقة بتاله المار ذكره ولم يسمع منه حالة الضرب الا قوله يا ربي يا ربي الى ان أغمي عليه والحاج صالح بن القليبي من بيوت الفراشيش وغيرهم وعدد من مات بالضرب في أقل من عشرة أيام ستة عشر رجلا اه كلامه باختصار وسجنت خلائق مع الاعمال الشاقة ومنهم علي بن غذاهم بعد تأكيد الامان اليه وقدومه مع ابن القطب الصالح سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه وبقي في حبس مظلم ندي الى ان مات وكذلك كثير ممن سجن ولا يمكن أحصاؤهم وفشا الخبر في الآفاق واستفظعه من سمعه حتى ان نابليون الثالث امبراطور الفرانسيس اثر رجوعه من الجزائر لثورة وقعت فيها ومهدها بالطف وتحبب للاهالي بسعيه بنفسه وكان ذلك في أثناء الهرج بتونس خطب عند رجوعه وذكر أسباب ثورتهم من جهلهم بما يراد منهم وعدم سلوك الطريقة المناسبة لوصولهم وأثنى على عساكره ثم قال وبعد الحرب واطفاء الثورة لم يقع منا انتقام ولا شدة ولا ما ينقص فخر النصرانية الخ وكان الدولة الاسلامية لم يبلغها الحال الذي لم يزل شبهه الى الآن مع نص الفرمان المخالف لذلك ومع هذا التعذيب في الابدان فقد اتى على أموال الاهالي عن آخرها ولم يبق للبلدان والقرى وقبائل العرب شيء مما يسد العوز ومن كان له أدنى شيء من القوت كان يخفيه ويرسل نسوانه لالتقاط العشب وعروق الاشجار لقوتهم ولقد ذكر لي أحد ثقات دريد انه كان يرسل نسوته اللائي لم يعهدن التطوف في البراري لجلب عروق الترفاس وينشره على ظهر بيته ليراه أعوان العامل ويطبخ الملا القمح في الماء من غير طحن لكي لا يسمع الناس حس الرحا فيتهم بالمال وذكر لي أحد الثقات من التجار انه كان يوما جالسا عند ابراهيم العامل المذكور وهو يوصي نائبه العازم على السفر الى القبيلة ويحرضه على خلاص المال فاجابه النائب بانه يعمل غاية جهده بحيث يبيع كل ما يجد فمن وجد

عنده

عنده نجمة باعها ومن وجد عنده عنزا باعها ومن ومن الى ان قال وفى أقرب وقت تخلص
مال الدولة ونرجع فحنق عليه ابراهيم ووبخه وقال ان مال الدولة لا يضيع وانما القصد
مال الوزير فقال له الحق معك هو مقدم وذهب على ذلك العزم هذا كله بعد تأكيد
الامن الذى خدع الرعية بالكتابة والكلام فزيادة عن الظلم هو شين على الخائن وقد
ذكر الوزير حسين قبل خروجه من القطر الوالى بامانه عند قدوم أهل الساحل طالبين
فحنق عليه وأجابه بما يكره مع وجوب الوفا بالعهد عقلا وشرعا وما كفى الناس ما هم
عليه من الفقر المدقع او المظالم التى لم تعهد اذ دهمهم الجوع والقحط المتسببان عن
حبس المطر لكثرة الظلم وعن فناء الاموال التى تعمر بها الارض فى الفلاحة واشترك
فى العسر حتى أهل الحاضرة لاتباع مكاسبهم لمكاسب بقية أهل القطر فاقبلت أفواج
الاقوام تراهم من كل حدب ينسلون متوجهين الى الحاضرة والمدن وما وصل اليها الا
القليل افشو مرض الحمى الخبيثة فيهم وكان مرضا متوبيا أفنى خلائق لا تحصى
وبقيت أكثر جثثهم فى الفلاة للوحوش بعد ان أفنت منهم الكواسر اعدادا وافراد من
ساعده الأجل وصل الى الحاضرة مات منهم أكثرهم فى الطرقات ثم ابتدر أفراد من
أهل الحاضرة لاغاثة أولئك المساكين وعقدت لهم جمعية يرأسها المقدس سيدى حسين
الشريف نعمه الله وأذن الوالى فى عقدها وجعلوا يجمعون المال من الاهالى كل على
حسب استطاعته على حالة ضعفهم الحالى الشديد التى كادت ان تلحق كثيرا منهم
بأولئك الوافدين المساكين وشمرت الجمعية عن ساعد الجد وخففت بعض الضر بالقوت
والمسكن وان كان المرض تمكن منهم وصاروا الى حالة ضعف لا توصف وفشا فيهم الموت
الى ان صاروا يرفعون خمسة فادون فى نعش واحد رحمهم الله وقد كنت كتبت لصديق
وهو غائب بوصف الحالة فى القطر عندما طلب منى أن أرسل اليه نسخة من ضرب مثل للحالة
المذكورة فى القطر التونسى واصور ذلك بصورة واقعة تاريخية مما ينسب لرؤيا رآها
بعض ملوك المانيا فى القرون المتوسطة ونصها رأى بعض ملوك المانيا فى القرون المتوسطة
من تاريخ المسيح عليه السلام رؤيا فهاله أمرها فبحث عن معبر يعبرها له (وهو عندهم
المنجم لان أصحاب التنجيم هم الذى كانوا يدعون معرفة علوم الحدثان) فحضر المعبر بين
يديه وقال له الملك انى رأيت البارحة فى المنام ما هالنى أمره ولا يبعد شأنه عندى من منام
فرعون فى مصر فى أيام يوسف الصديق عليه السلام وذلك أنى رأيت ثلاثة جرذان مجتمعة
فانتبهت أولا قبل استكشاف حالها ثم غمت ثانية فرأيت جرذة من تلك الجرذان على غاية

من العجف والهزال بحيث ان سائر ضلوعها بادية ولا تستطيع الثبات على رجليها ورأيت الجرذ الثاني على غاية من السمن يترعرع في مشيه ترعرع القنفذ ثم تأملت الجرذ الثالث فرأيته أعمى من كلتي عينيه لا يبصر بهما شيء فانتبهت ثم غمت الثانية فرأيت الجرذان الثلاثة معا على تلك الحالة فالسمين يقود الاعمى والاعمى يقود الهزيلة فانتبهت وهم يتقاودون فافتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون فاجابه المعبر بقوله سيدي ان رؤياك أشهر من ان تعبر ولكنها تكتب وتسطر أما الجرذة الهزيلة فهي مملكتك والسمين هو وزيرك والاعمى هو أنت أيها الملك يقودك وزيرك الى مافيه صلاح نفسه وتقود أنت رعيتك الى مافيه هلاكك وهلاكهم انتهى وكتبت الى صديق في ذيلها مانصه هذه حال رؤيا القرون المتوسطة أما رؤية حال القرون الاخيرة * في هاته الحضيرة * مما دهاها من النفوس الشريرة * فهي سنو يوسف عليه السلام التي كانت تعبيرا لتلك الرؤيا * على مافيها من البلاء * فلو رأيت ماعليه القرار * لملئت رعبا ولوليت منه الفرار * من ذئاب تغتال * وثعالب تحتال * مجتهدة في قلب الرحال * وتشتيت الرجال * وثعبان شاغرفاه لابتلاع الاموال * فيالها من حال يرثى لها من رام النزال * وتخر لشدتها شامخات الجبال * افتضحت فيها ربات الحجال وهوت الابالة الى الزوال * وتمكن من القلوب الزلزال * وتقاربت الآجال وانقطعت الآمال * وعدا الصلاح من الحال * فقد فاز من نهض بنفسه * واستراح من فتنة باطنه وحسه * اذا الآيات وردت على ذلك ناصة * فقال تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة * ففاز المخففون * وابتلى المتأهلون والله العظيم * ونبيه الكريم * طالما نهضت عزائمي الى الترحال * فاثقلتني قيود العيال * مع ما أنا عليه من الوحدة عن أخ شقيق * أو قريب يخلفني فيهم عند الضيق ولم استطع التخلص بكلي * لما يخفي مما يثقل كلي * واقسم بالقرآن * وصفات الرحمن * انني عرضت للبيع أملاكي * لاتخلص بها من اشراكي * واستعين منها بالاثمان فلم أجد من يصرف لهذا الوجه عنان * ولو من أعيان الاعيان * فالناس حيارى في الاقوات * تائهين في جلب الضروريات * يكادون من القحط ان يأكلوا الحديد * ويقولون هل من مزيد * وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد * الى غير ذلك من زفرات تتصعد * وجمرات تتوقد * وانين بقوارع الطريق * وصياح على الابواب ونعيق * وضجيج بالاسواق * حتى تخالها قد التفت الساق بالساق

بالساق * فلا تسأل عن القلوب * وما دهاها من الخطوب * وقد فوضنا الامر الى علام الغيوب
اهـ ومع تلك الحالة في الاهالي فغاية ما رحمهم به الوالي من الخزنة خمس عشرة ألف ريال
وله العذر لانه كثيرا ما باتت أتباعه بل قيل عائلته طاوية الى بعد نصف الليل حتى يرسل
وزيره أحد أعوانه الى حميدة بن عياد المكلف بعمل الخبز ليستقرض ما يمكن ان تتعشى
به عائلة الوالي والوزير غاية ما تكرم به على أولئك المساكين سبعة آلاف ريال وان كان
سيدي حسن الشريف الح عليه في اعانة المصابين مرارا فيعطيه من خزنة الحكومة كما
انه في هاته الشدة ابلى البلاء الحسن كثير من الاهالي والاجانب سرا وعلنا وقاموا بكثيرين
قوتا وكسوة وسكنا ودواء واطباء جزى الله الجميع بفضله وفي أثناء المدة هرب العادل باي
أخو الوالي الى جبل باجه حيث كان أهله اذ ذاك ثائرين بعد ان نسي مثل ذلك في البيت
الحسيني منذ نحو مائة سنة وسبب ثورته الضيق الحالي الذي حصل له من تعطيل مرتبه ومثله
سائر آل بيته واذ ذاك اضطر ولاعادة سفر ولي العهد بالعسكر فارجع أخاه وقاد الطاعة ثم
أعيد ترك سفره هذا وبينما كان القطر على هذا الحال فالاموال المستخلصة لم تكف
وجهات الحكومة تستقرض من أروبا قرضا بعد قرض فاول استقراض كان خمسة
وثلاثين مليونا لاستهلاك الدين السابق الذي قدره تسعة عشر مليونا ولم يزل باقيه لم
يستخلص الى أن تشكل الكومسيون الآتي بيانه وهكذا كل قرض يدعى فيه مثل
ذلك ويبقى الاصل على ما كان واشترى من تلك الديون بوانو حربية باضعاف قيمتها بلغت
أكثر من سبعة سفن منها فرقاطة سميت بالصادقية أصلها كرويت فزيدت فيه طبقة
وصار شكلا مضحكا لارباب ذلك الفن وقد شاع عند الخاصة والعامة ان القصد من شراء
تلك السفن وغيرها مقاسمة الارباح من الوزير مع أصحابها ثم عما يستفاد من القرض وقد
بيع بعض ذلك الاسطول بثمن مؤجل واكترى بعضه باصلاحه وذلك عند عجز الحكومة
عن القيام به بعد شرائه بنحو أربع سنين فافلس المشتري والمكتري وذهبت السفن
وثمنها المتجاوز خمسة عشر مليونا فرنكا سدى مع ان أصل شرائها لا حاجة اليه سوى تحصيل
الربح من ثمنها والربح من الاستقراض لدفع الثمن وشاهده ما وقع في شراء مائة مدفع
مدسسة بمليون فرنك فلما أرى السمسار صك الاتفاق الرسمي للبائع الذي باع تلك
المدافع بثلاثمائة ألف فرنك تعجب البائع من فحش التباين بين الثمنين فأجابه
السمسار بان وزير تونس أراد ان يربح خمسمائة ألف في هذا البيع وانا لا نقدر على منعه
واست مكافأة بصالح حكومة تونس فربحت أنا أيضا ما زاد على ذلك هكذا افشا الخبر ولما

قد وضاه فرانساوى باستدعاه للتأمل فى سلامة تلك المدافع فوهبا بدون المائتين ألف فرنك لانها غير سليمة وبقيت ملقاة على الارض بلا فائدة وبأمثال ذلك ربح السماسرة فى الاستقراضات وفى الشراء ماصاروا به أغنياء حتى ان أحد أهالى الشام المسمى برشيد الدحداح الذى انتقل الى فرانسا وصار فرانساويا توسط بوسائل لان يخدم فى حكومة تونس راضيا بمرتب قدره ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك أى ستة آلاف ريال فى السنة قد رجع الى باريس بعد ثلاث سنين أو أقل وبنى بها قصرا بهي باشا محاورا يته فى أعز حارات البلدة وهى قرب شانزيليزى وأخبرنى أحد الثقات هناك ان تجارة الرجل التى يخوض فيها بكسبه الخاص نحو خمسة ملايين فرنك حتى تصدق على احدى معابد النصارى بستين ألف فرنك كل ذلك من تعاطيه السمسرة للوزير المذكور ومثل ذلك القائد نسيم المذكور مع زيادة ربح مايسقطه الطالبون من الحكومة لانه يسوف أصحاب المرتبات وغيرهم ممن يطلب المال حتى يسقط له مقدارا مما يطلبه ويصح فى الحجة انه قبضها كاملة وتفاقم الامر أواخر المدة الى ان بلغ الاسقاط أحيانا الى ثلاثة ارباع المطلوب والوزير لا يقبل فيه الشكاية ولما خشى القائد نسيم فى أثناء الثورة العامة على نفسه سرحه الوزير الى أوروبا من غير أن تعمل معه الحكومة حسابا وما ت فى بلد قرنه من ايطاليا وأرادت الحكومة التونسية بواسطة الكومسيون الآتى ذكره فصل مطالبها من ورثة المذكور بالتراضى من غير خصام وجنحوا هم أيضا الى ذلك وبينما العمل جار فى ذلك فاذا بالوزير خزنه دار جلب أعيان الورثة الى بستانه وهم موموشمامه وناتان شمامه ويوسف شمامه وعرض على كل منهم كتابين أحدهما يتضمن اعطاء خمسة فى المائة للوزير خزنه دار مما يصح لهم من الارث والثانى يتضمن ابراء عاما للوزير المذكور مما عساه أن يطلب من جهة نسيم فامتنعوا من الامضاء على ذلك وتخلصوا بطلب مهلة للتروى وهرب مومو الى قنسلات فرانسا ويوسف وناتان الى قنسلات ايطاليا وأرسلت الحكومة محمد البكوش مستشار الخارجية والمترجم الاول بها كونتى والقابض لياه شمامه الى سؤال المذكورين عن سبب هروبهم فاجابوا بما ذكر من مطلب الوزير خزنه دار وكان ذلك بمحضر من القناسل وكتب التقارير فى ذلك موجودة بالوزارة والقنسلاتو ولذلك سافر الورثة قبل فصل النازلة ووجهت الحكومة لتحرير الحساب والخصام معهم الوزير حسين ودامت الخصومة نحو تسع سنين ولازالت الى الآن منشورة ولما تفاقمت الديون فى أوروبا وعلموا ان الفائض يستقرض اضعافه كل مرة لاجل خلاصه امتنعوا من الاقراض حتى جعلت

رسل

رسل الوزير يرددون كل باب لذلك ولم يحصلوا على شيء حتى ان الياس مصلي المستشار الثاني بوزارة الخارجية ذهب لمثل ذلك وأخذ لمصاريفه تذاكر وسندات على المالية باسم الحامل وطفق يبيع منها المائة بخمسة فرنكات وترتب على الحكومة بذلك أزيد من المليونين فرنكا لاجتناب أصحاب الاموال من ضياع أموالهم فلذلك عدل الوزير الى الاقتراض من الاجانب المقيمين بالحاضرة على أخذ كل منهم رهنا في يده يتصرف فيه من مداخيل الحكومة وهي المسماة باستقراض الكونفرسيونات واستعان في تصرفاته فيما يرجع الى ذاته ولو من وظائف الحكومة بولده الاكبر واستغنى به عن السماسرة وخالطه بل واشتهر انه شاركه في استلزام بعض مداخيل الحكومة وفي التجارة في رقاع أموالها ورقاع لدول الاجنبية جاى الصباغ أحد تجار اليهود كما داخله وقيل انه شاركه في معمل الخبز وقبض اعشار الحبوب وصرفها وغير ذلك من موارد مصاريف الحكومة أميرا للواء حميدة بن عياد وولاه على عمل ابن زرت وأطلق له التصرف بعد ان كان الوالي واخوه من قبله يجنبونه في الولاية لما استقر في النفوس من مظالم محمود ابن عياد وأغلب عائلته ولان حميدة المذكور محتم بالانكليز فلا تناله الاحكام ومع ذلك فان حميدة المذكور لم يضر الرعية وفيه جهة لارفق وأعان أهالي ابن زرت على مساعيهم باقراضهم المال والحبوب ولم يجحف بدافعي الاعشار ولا بقابض الحبوب وعامل أهل العلم معاملة حسنة واقتصر في الارباح الوافرة على ماربحه من الحكومة مثل الربح من معمل الخبز فانه تبين بمقتضى الحساب الذي جعله الكومسيون أي اللجنة المالية في السنين التالية بعد خروج المعمل من يد المذكور ان أرباحه كانت تقرب من الخمسين في المائة ثم لما رأى الوزير عسر خلاص أموال الحكومة لفقر الاهالي وتكاثر الطلب من الاجانب لاموالهم نقل وزارة المال بالاسم الى الوزير الشيخ محمد العزيز بوعتور باش كاتب لكي يتحمل المصاعب ويبقى متحملا للقضاء بلا كره ولا رضا والاموال يرسل اليها ابن الوزير أعوانه ليخلصها من العمال باسماء مختلفة منها اشتراء مطالب من له مطالب على الحكومة مالي سواء كان من الطوارى أو المرتبات ومنها اخراج تذاكر باعداد من المال يؤمر فيها وزير المال بدفع ذلك القدر الى محمد بن الوزير في مصالح على يده من غير بيان وكانت ترد تلك التذاكر مكتتبة الى وزير المال أيصحح على جريدتها لترسل لامضاء الوالي فلم يكن في وسعه الا الامضاء من غير أن يعلم شيأ من تلك المصاريف وذلك معلوم عند الجميع ولذلك لم يعرج على طلب وزير المال بشيء الكومسيون المالي على ان ما يمكن ان يرسله

العمال الى الحكومة ليسكت به الاجانب أصحاب الديون كانت تتخطفه أعوان الوزير خزنه دار من الطرقات حتى وقعت خصومات شديدة من الاجانب فى مثل ذلك ولما كثر القيل والقال من الاجانب فى خراب القطر و وقوف حاله وانه تلزم مساعدة الحكومة للاهالى لرجوع شئ من رمقه كان الوزير خزنه دار يقول لخواصه مجيبا لهؤلاء القوم أفأنا المطلوب بابطال العرب للفلاحة أليسوا بعارفين بكيفية الحرث والارض موجودة فما منعهم عن ذلك كأنه لا يعلم السبب لكنه أراد اسكات الاجانب فاعطى الى الكنت صانس الفرانساوى أربعمائة ماشية أرضا أى نحو أربعين ألف وستمائة هكتار بحساب كل ماشية مائة واثنان وتسعون حبلا والحبل خمسون ذراعا ويكون اعطاء المواشى مدرجة على أربعة اقساط ومن شرطها أن تكون قابلة للزرع والسقى وان تعفى من جميع الاداآت التى بواسطة والتى بدون واسطة فى جميع ما ينبت فيها وما يربى من الحيوانات ونتائجها ولزم بسبب ذلك الحكومة مشاق سيرد تفصيل بعضها كما منح لجنة انكليزية احداث طريق حديدية من تونس الى حلق الوادى ومنح لجنة طليانية صيد نوع من السمك كبير يسمى التن فى مصيده بالمنستير ومنحها أيضا معدن جبل الرصاص واكترى لها أرضه المسماة بالجديدة التى حصلت فيها الخصومة المشار اليها عند الكلام على سياسة القطر الخارجية ونشأ من كل منحة منها اسهام من الصعوبات القاضى بها عدم الفائدة وعدم اتحاد الحكم وزادت المشاكل بكثرة الديون وعدم المال وروج فى القطر سكة من النحاس كل قطعة منها بنصف ريال وكان مقدار ما روج منها فيه يبلغ اثنى عشر مليونا ريالا وعظم الخطب لامتناع الاجانب من قبولها فى أثمان سلعهم وديونهم العامة لاهل القطر وبلغ سعر الصرف الى أن المائة ريال فضة تصرف بنحو ثلثمائة ريال وبلغ سعر الويبة من القمح الى السبعين ريالا بتلك السكة وبعد انفاق ما ضربته الحكومة منها واشتداد الحال أنزل قيمة السكة النحاسية الى أصلها حقيقة وهو الربع مما انفقت به فصار نصف الريال ثمن الريال وضاعت على الاهالى تسعة ملايين سدى مع ما زاد على ذلك مما جلب من نوع تلك السكة خفية وأكثر ما أصيب بالخسارة أهل الحاضرة فكانت قطعهم من غرم المال ولما بلغ الحزام الطيبين شدد الاجانب فى طلب ديونهم وفائضها وقطع القنسل الفرانساوى المخالطة مع الحكومة ثم استرضته واستقر القرار على تشكيل لجنة مختلطة من الاهالى والاجانب وسميت بالكومسيون المالى ونص الامر الصادر فى ترتيبه ﴿أما بعد﴾ فقد اقتضى نظرنا لمصلحة مال مملكتنا ورعيتنا والمتجران ترتب

كومسيونا

كوموسيونا ماليا على صورة الامر الصادر فى الرابع من ابريل من العام الفارط المؤكد بامرنا المؤرخ فى التاسع والعشرين من مايه الموالى للشهر المذكور على الكيفية الآتية ﴿الفصل الاول﴾ الكميسيون الذى صدر به أمرنا المؤرخ فى الرابع من ابريل سنة ١٨٦٨ يجتمع بحاضرتنا فى مدة شهر التاريخ ﴿الفصل الثانى﴾ يقسم الكوموسيون المذكور الى قسمين متميزين قسم للعمل وقسم للنظر والتصحيح ﴿الفصل الثالث﴾ قسم العمل يركب على الصورة الآتى بيانها وهى عضوان من متوظفى دولتنا نسميهما نحن أنفسنا وناظر مالى فرانسيس نسميه نحن أنفسنا أيضا بعد تعيينه من طرف دولة جناب الامبراطور ﴿الفصل الرابع﴾ قسم العمل هو المكلف بحصر المداخيل التى يتيسر للدولة أن تخلص بها ذلك ﴿الفصل الخامس﴾ قسم العمل يجعل دفترا فيه يقيد جميع الديون المنعقدة خارج المملكة وداخلها وهى التذاكر المالية ورقاع سلفى عام ١٨٦٣ وعام ١٨٦٥ وأما الديون الغير المحصورة بكنترانوات فعلى حاملى تذاكرها ان ياتوا بها فى خلال مدة شهرين وكذلك يسعى قسم العمل فى الاعلان عن ذلك فى جرنالات تونس واوروبا ﴿الفصل السادس﴾ مهما أراد قسم العمل الاطلاع على جميع الحجج الصحيحة المتعلقة بالمداخل والمصاريف فان وزارة المال تجيبه الى ذلك حق الايجاب ﴿الفصل السابع﴾ بعد ان يقع حصر مداخيل الدولة ومقابلتها بجامعة المصاريف مزادا عليها مبلغ الدين يبحث قسم العمل عن توزيع المداخيل العمومية على وجه الانصاف باعتبار جميع الحقوق على طريق العدل وكذلك يجعل تجريدة المداخل التى يمكن زيادتها على جميع الضمانات السابق تعينها لارباب الديون ﴿الفصل الثامن﴾ لقسم العمل ان يجعل جميع التأويلات والتراتيب المتعلقة بالدين العمومى ويمده بكل ما يلزم من الاعانة لانفاذ ذلك الانفاذ التام ﴿الفصل التاسع﴾ قسم العمل يتولى قبض جميع مداخيل المملكة من غير استثناء ولا يسوغ اخراج تذاكر مالية من أى نوع كان الا بموافقة القسم المذكور على ذلك بعد التفويض اليه فى ذلك من قسم النظر والتصحيح واذا اضطرت الدولة لعمل سلف فلا يسوغ لها ذلك الا بموافقة القسمين وجميع التذاكر التى تخرج فى مقابلة المبلغ الذى يعينه الكوموسيون لمصاريف الدولة تكتب باسم الكوموسيون ويعلم عليها قسم العمل وقدر هذه التذاكر يلزم ان لا يتجاوز المبلغ المحدد فى قائمة المصاريف ﴿الفصل العاشر﴾ قسم النظر والتصحيح يتركب على الكيفية الآتى بيانها يعنى من عضوين فرانساويين ينوبان عن حاملى رقاع سلفى عام ٦٣

وعام ٦٥ ومن عضوين انكليزيين وعضوين طليانيين ينوبان من حاملى رقاع الدين الداخلى وهؤلاء الاعضاء يكونون بوكالات مخصوصة من قبل حاملى رقاع السالفين وحاملى كونفرسيونات مملكتنا ويصدر لهم اعلان فى ذلك منا تحت نظر قسم العمل

﴿الفصل الحادى عشر﴾ قسم النظر والتصحيح له الحكم فى جميع تصرفات قسم العمل وهو المكلف بتحقيقها وبالموافقة عليها عند الاقتضاء وموافقته ضرورية حتى ان الذى يستقر عليه رأى قسم العمل مما يتعلق بالمصلحة العمومية يصير بذلك واجب العمل به

﴿الفصل الثانى عشر﴾ اذنا وزيرنا الاكبر بالعمل بما تضمنته الفصول الاحد عشر المذكورة أعلاه ونعين العضوين وطالب الناظر المالى الفرانساوى المذكورين بالفصل الثالث فى أقرب وقت ممكن كتبت الاثناعشر فصلا أعلاه بسراية حلق الوادى فى السادس والعشرين من ربيع الاول سنة ١٢٨٦ ستة وثمانين ومائتين وألف فانتظم هذا الكومسيون واستولى رياسته الوزير خير الدين والعضو الاول فى قسم العمل هو صاحب رتبة الوزارة فى فرانسا فيليت والعضو الثانى الوزير محمد خزنه دار وسيأتى تفصيل ما نشأ عن هذا الكومسيون وجمع ديون الحكومة فكانت ما يأتى

جملة الجوامع	فرنكات	
	٣٥٠٠٠٠٠٠	الاستقراض من دار ارلانجى بباريس لايفاء الدين السابق الذى لم يخلص بتمامه وقدره نحو تسعة عشر مليونا كما تقدم
	٠٩٠٠٠٠٠	الاستقراض من بينار بباريس سنة ١٨٦٣
	٢٥٠٠٠٠٠٠	الاستقراض من دار ارلانجى وغيره سنة ١٨٦٥
٦٩٠٠٠٠٠٠	٦٩٠٠٠٠٠٠	الجملة تسعة وستون مليونا
٦٩٠٠٠٠٠٠		

الاستقراضات الداخلية المعروفة بالكونفرسيونات

جملة الجوامع	فرنكات	
٦٩٠٠٠٠٠٠	١٣٥٠٠٠٠٠	الاول
	٠٩٦٧٠٠٠٠	الثانى
	١٧٨٥٠٠٠٠	الثالث

٧٨٠٠٠٠٠ الرابع

٤٨٨٢٠٠٠٠ ٤٨٨٢٠٠٠٠

جملة الدين الغير المنضبط بالتذاكر الرائجة ٣٦٨٠٠٠٠٠

١٥٤٦٢٠٠٠٠

جملة الفوائد المتأخرة تقريبا ٠٢٠٣٨٠٠٠٠

ريالات ١٧٥٠٠٠٠٠٠

جملة صرف تلك الديون بالريالات التونسية	٢٨٠٤٣٧٥٠٠	
فاذا أضفنا الى ذلك مداخيل الحكومة من وقت تعطيل القانون الى انتصاب الكومسيون الذى هو سنة ١٢٨٦ بحساب كل سنة خمسة عشر مليونا ريالا الذى هو اقل ما يمكن نظرا الى ما تركها عليه الوالى السابق محمد باشا ونظر الدخلها فيما بعد فيكون المجموع لست سنين	٠٩٥٠٠٠٠٠٠	٠٥٨٤٥٠٠٠٠
	٣٧٥٤٣٧٥٠٠	٢٣٣٤٥٠٠٠٠
تقريب الغرم الذى دفعه السكان على مصاريف الثورة لانه ثبت بالحساب ان أهل الساحل وحدهم دفعوا من ذلك عشرين مليونا	٠٦٠٠٠٠٠٠٠	٠٤٠٠٠٠٠٠٠
ما أعانت به الدولة العلية الحكومة وقت الهرج	٠٠١٦٢٥٠٠٠	٠٠١٠٠٠٠٠٠
ما اهداه صاحب القرض الاول باسم المارستان وأخذته الحكومة	٠٠١٦٢٥٠٠٠	٠٠١٠٠٠٠٠٠
	٤٤٣٦٨٧٥٠٠	٢٧٥٤٥٠٠٠٠

فكانت جملة الاموال التي خاضت فيها الحكومة في مدة نحو سبع سنين مائتين وخمسة
وسبعين مليونا فرنكا وصرف هار باللات ماهو مرقوم بآزائها مع مزيد التضايق المالي
بتعطيل الجرايات حتى امتدت الايدي الى الاوقاف وعطل ارسال مال الحرمين الشريفين
من أوقافهما عدة سنين وكذلك عطل مرتب المدرسين والعلماء من بيت المال الذي
اسسه أحمد باشا لاستيلاء الحكومة على ما فيها من المال ولم يحصل من تلك الاموال في
القطر ما يمكن ان يذكر او يعد سوى ما تقدم ذكره من السفن والمدافع البالغ مجموع ثمنها الى
ثمانية عشر مليونا وان اضفت الى ذلك ما خسره القطر والحكومة مما ضاع عند ابن
عياد ونسيم وكله بواسطة الوزير المذكور كان مجموعه مما يزيد على خمسمائة مليون
ريالا وحيث كان الحال مما لا يمكن اخفاؤه على الوالي بالمرة ذكر له وزيره خزنه دار انه
خزن له في بعض البنكات اربعة عشر مليون فرنكا احتياطا لما عساه ان يقع لان
الثورة العامة انذرت مما يخشى من مثله فلابد أن يكون له ذخر خارج المملكة وذكر ذلك
له مرة بمحضر أحد قناسل الدول ثم طلب هذا القنسل اسقاط الطلب عنه بتلك الملايين
عند عزله ومن وقت انتصاب الكومسيون المالي قصرت يد الوزير خزنه دار عن
التصرف وكاد أن يكون اسناد الوزارة اليه اسما بلا مسمى وحنق من ذلك أشد الحنق
ورام ان يغير الحال فلم يوافقه الوالي لاطلاعه على حقائق الامور وعلمه ان رجال الحكومة
لم يبقوا على ما كانوا عليه من الاتفاق على الوزير وبقي على ذلك الى ان ظهرت نازلة
ارلانجي البنكير بطلب مالي وادعى انه بروسياني وكان ذلك في خلال محاربة فرانسا مع
المانيا وشد القنسل البروسياني في مطلبه ولم يكن للحكومة مال وظهر للوالي ان
يستقرض من وزيره المال المطلوبة فيه الحكومة فاقرضها اياه باورهن آجام وغابات
طبرقه بفائدة عشرين في المائة في السنة ثم ظهرت نازلة الالفي رقعة وحاصلها ان
الكومسيون المالي لما حصر جميع الديون ووحدها في دين واحد جعل له رقاعا جديدة
وشرع في ابدال القديمة بالجديدة فعند ذلك تبين ان الرقاع الجديدة المقدرة على ما ضبط
من مقدار الدين لا تفي بالرقاع القديمة التي جاء بها أصحابها للتبديل فاستقرى الكومسيون
اسباب ذلك وتبين انه لما انتصب الكومسيون المالي وجهت له الحكومة حسابا رسميا
فيه بيان حساب الرقاع الرائجة من سلفتي سنة ١٨٦٣ و سنة ١٨٦٥ بعد طرح الرقاع
التي رجعت بالخلاص للحكومة في الاقتراعات وبعد طرح الفي رقعة اشتريت على يد
البنكير ارلانجي للحكومة من ديونها فلم يعتبر الكومسيون في ديون الحكومة الا ما بقي

من

من رقاع السلفين بعد طرح القسمين المذكورين لان كلا منهما هو خلاص لقداره من الدين وأذن الكومسيون بطبع عدد من الرقاع جديد بمقدار ما بقى من الدين ولما شرع فى تبديل الرقاع وجد فى رقاع سلف سنة ١٨٦٣ أكثر مما كان قدره على مقتضى الحساب الرسمى المشار اليه فظن أول الامر ان الزائد مزور وفتش فى جميعها ولم يجد فيها مجالا للزور فحاول حينئذ الكشف عن منشأ هاته الزيادة واستفسر من الوزير خزنه دار عن الالفى رقعة المشتراة على يد دار لانجى وما كان فيها فلم يجب واصر على السكوت مدة أكثر من سنة مع تكرر السؤال له كما يتبين ذلك من تقرير الجلستين المنعقدتين من الكومسيون فى ١٥ أغشت سنة ١٨٧٢ وفى غاية سنة ١٨٧٣ ولما ألح الكومسيون على الوزير فى طلب الجواب زعم أن الحكومة لم تتصل بالرقاع المذكورة وان دار لانجى هى المطالبة بذلك لكن الكومسيون قبل أن يطلب من ارلانجى البيان تحرى فيما يلزم من الاطلاع على الحساب مع الدار المذكورة وعلى الرسائل الواردة منها لكى يعتمد فى المخاطبة ما هو الواجب فاذن الوالى فى ذلك وأطلع عليه الكومسيون وثبت عنده أن الدار المذكورة سلمت تلك الرقاع للحكومة وكان من المعلوم لدى الكومسيون انه كان بين الوزير خزنه دار و بين رشيد الدحداح المتقدم ذكره معاملة خصوصية وان الوزير رهن سبعة آلاف رقعة من سلف سنة ١٨٦٣ فظهر للكومسيون أن يطلب بواسطة ثانى الرائس وهو قنسلات الحائز رتبة الوزارة من رشيد الدحداح المذكور جريدة أرقام الرقاع المذكورة كما يطلب من دار ارلانجى جريدة أرقام الالفين رقعة التى استرجعتها الحكومة فاتصل بالجريدتين وكشف الحال أن الالفى رقعة روجها الوزير خزنه دار على يد الدحداح بعد خلاصها فعرض ثانى رائس الكومسيون على الكومسيون تقريرا مفصلا فيما ثبت لديه فى النازلة وتضمنه تقرير جلسة الكومسيون المؤرخ فى ٤ يونيه سنة ١٨٧٢ وملخص تقرير الجلسة أن الرقاع المذكورة سلمت فى ١ فبراير سنة ١٨٦٤ للحكومة التونسية على يد شميت النائب عن دار ارلانجى وقيد ثمنها فى الحساب الواقع بين الحكومة والدار المذكورة المؤرخ فى ١٧ مايه سنة ١٨٦٧ ثم روجها الوزير مصطفى على يد الدحداح القاطن فى باريس وان استعمال الرقاع المذكورة على الوجه المذكور أضر بالحكومة وأرباب الديون وان رأى كل الكومسيون أجمع على طلب التعويض والخسائر من الوزير مصطفى المذكور اه وعلم الوزير بما وقع ونصحه الوزير خير الدين بفصل النازلة من محل

فابى لمنافاته لامتثال الاحكام وبلغ ذلك للوالى سرا بواسطة مصطفى بن اسمعيل اقرب المقربين لديه لتعصب الوزير خير الدين به فى انهاء قطائع خزينة دار البيه وافهامه ان الوزير خير الدين مضاد حقيقة لذلك الوزير وان كانت له عليه يد المنة والمصاهرة لما ذكر من سيرته فامتلأ وطاب الوالى من انكاره أعمال وزيره ولم يزل الوزير مصرا على الامتناع من بيان الوجه فى رواج تلك الرقاع ثانيا الى ان واجه الوالى ثانى رأس الكومسيون بمحضر المذكور وعرض على الوالى ملخص النازلة وطلب منه امضاء الحكم فباشر الوزير ثانى رأس الكومسيون بكلام شديد الى ان انتهره الوالى وقال له ان جوابك له اما ان يكون بالحجة فى تبرئة نفسك أو تدفع الحق الذى عليك وانفصل الموطن وتيقن الوزير تغير الوالى عليه لكنه لم يكن يظن انه يعزل فكاتب الوالى بالاقرار باخذه للالف رقعة وطلب عفوه وادى للكومسيون ما طلبه ولما تيقن الوالى قطاعة النازلة وتيقن عدم الخوف من عزل الوزير بعد ان جس جميع الجهات ابرم عزله فى غرة رمضان سنة ١٢٩٠ وكان مبدء تقلده منصب الوزارة فى سنة ١٢٠٥ وارتجت البلاد عند سماع عزله فرحا وكاد ان لا يصدق بعضهم بذلك لشدة تمكنه من الولاة حتى ينقلون عن بعض الصالحين انه يقول له انه يخدم ثلاثة امراء يكون مع اولهم بمنزلة الابن ومع الثانى بمنزلة الاخ ومع الثالث بمنزلة الوالد وعمّ ذلك من آخر مدة أحمد باشا وزينت البلاد عند عزله ولم يسمع بمثل ذلك فى هذا القطر وابتدع عمل الافراح جميع البلدان والقبائل وحزن على عزله افراد من خواص حاشيته ومن توفرت ارباحهم على يديه وافراد قليلون من الاجانب ورام من له وجاهة منهم ان يتداخل فى ارجاعه لمنصبه أو فى الاقل ان يواجه الوالى كآحاد المتوظفين فامتنع الوالى وجعل اتباعه يرودون كل وجه لارجاعه حتى سافر احدهم الى اروباوالى الاستانة واجتمع برجال الدول وبذل فى التوصل أموالا فلم يجد من يتداخل فى توليته وزيرا فى حكومة مختارة فى ادارتها وحيث تيقن الوالى كثرة الاموال التى توصل اليها الوزير المذكور من أموال الاهالى والحكومة سيما الاموال التى أخذها ابنه الاكبر بتذاكر على المالية مكتوب بها يدفع فلان وزير المال مقدار كذا من المال لامير الامراء ابننا محمد فى مصالح على يده الخ ويقبض الابن المال ويمضى بخطه على القبض مع انه لا وظيفة له رسمية تقتضى صرف تلك الاموال ومع عدم بيان الجهة المصروف فيها المال فاراد محاسبته ومحاسبة ابنه على أموال الحكومة فتبرأ الوزير خير الدين من مباشرة ذلك على ما جرت به العادة من ان صاحب الوزارة يباشر مثل ذلك مع كل المتوظفين وعقد

لذلك

لذلك مجلسا مخصوصا برأسه ولى عهد الولاية الامير أبو الحسن على باى واعضاؤه المفتى الحنفى الشيخ أحمد بن الخواجه والقاضى المالكى الشيخ محمد الطاهر النيفر والوزير محمد رشيد كاهية ووكلت الحكومة على طلب حقوقها الشيخ عمر بن الشيخ أحد كبار المدرسين بالجامع الاعظم وأرسل المجلس يدعو المطلوبين لسماع الدعوى كما أرسل الوزير خير الدين مكتوبا الى الوزير السابق يعلمه فيه بعقد المجلس للتأمل فى نازلة المطالب المتوجهة عليه وعلى ابنه وجوابه عنها فامتنع من الحضور ولما ألح عليه بالحضور أرسل الى قنسل فرانسا يطلب حمايته وتوجيه أحد اعوانه ليحميه عند ذهابه للمجلس فتعجب القنسل من الطلب وأجابه بانه لا يتداخل فى أحكام البلاد سيما ولم يجر عليه ظلم يقتضى مثل ذلك ثم أرسل وكيلا عنه من أحد رعايا الاجانب فلما دخل الى المجلس سأله الرئيس هل هو داخل تحت أحكام البلاد أم لا فاجابه بلا وتفاوض المجلس فى قبوله وعدمه على تلك الصفة فظهر لهم انه يجب ان يكون الوكيل داخلا تحت أحكام البلاد ليؤاخذ بأعماله وأقواله فيما يتعلق بموكله وفيما يعود اليه ولما علم الوزير خزنه دار بذلك أرسل ابنه الثانى محمد المنجى الذى هو برئ من جميع الاعمال السابقة وجعله وكيلا عن والده وأخيه وعلم ماهى مطالب الحكومة منهما وحيث علم ان الحجة قائمة عليهما ركن الى طلب الصلح فصالحته الحكومة وقال بعض الاعيان ان الصلح كان لا ينبغى وقوعه لان المال مال بيت المال فاما ان يتحقق مقداره ويؤخذ بتمامه وعلى فرض لدده يجبر بالحبس ولا مقالة لقائل اذا كان يصدر الحكم عليه من ذلك المجلس واما ان تثبت براءته ولا يؤخذ منه شئ وأجاب الوزير خير الدين بان اجباره يحصل منه القيل والقال سيما وشيعته يشيعون ان أصل المطالب غير صحيحة لقصد تداخل الاجانب فى أمره وحيث طلب الصلح فالصلح خير ووقع هذا الصلح بخمسة وعشرين مليونا فرنكا وملخص صورة الصلح هو ما يأتى بيانه

		فرنك
أصل المبلغ الذى صولح عليه يطرح منه ما اسقطته		٢٥٠٠٠٠٠٠
عنه الحكومة		٠٥٠٠٠٠٠٠
بيان مادفع		٢٠٠٠٠٠٠٠
	فرنك	
ما سبقه للحكومة فى مقابلها من ربح دار السكة	٠٠٦٠٠٠٠٠	
ماهو بقية قرضه لها برهن طبرقه	٠١٢٣٥٩٢٢	
مادفعه عينا	٠٠٢٠٠٠٠٠	
قيمة مايملك من الربع والعقار والمنقول واستثناء قصر الحلفاوين والخشب المقطوع من طبرقه	١٠٩٦٤٠٧٨	
	١٣٠٠٠٠٠٠	١٣٠٠٠٠٠٠
فبقى قبله سبعة ملايين مقسطة لاقساط كل قسط بنصف مليون فى سنة وضمن الولد الاكبر اباه مع خيار الحكومة فى الطلب وكتب بشرح ماتقدم رسم امضى فيه الجميع وختمه شاهدان من عدول الحاضرة		٠٧٠٠٠٠٠٥
يطرح ما اسقط عنه فى مقابلة اسقاطه الاتفاق فى عمل دار السكة الذى احاله اليه حميدة بن عياد		٠١٥٠٠٠٠٠
		٥٥٠٠٠٠٠

فكان الباقى على النحو المار ذكره خمسة ملايين ونصفا فرنكا ولم يدفع الاقساط التى حلت عليه منها لدعوى الافلاس وذكر الاعيان ان المقادير التى دفعها لم يكن فيها شئ من العين الا مائتى ألف فرنك ومابقى من الاملاك كلها الا ماندر أخذها بهبات من الولاة كما تشهد به رسومها أو اشتراها من الحكومة باثمان ضعيفة دفع فيها املاكا كانت الحكومة وهبتها له مثل قرنباليا التى اشتراها من الحكومة بنحو ثلاثمائة ألف ريال تونسية ودفع فى ثمنها أرض سبخة امام حمام الانف مع الحمام المذكور الذى كان أخذ

جميعه هبة من الوالي الحالي ثم بعد أربع سنين عند الصلح المشار اليه عرض ان تكون ذمة قرنبالية المذكورة أربعة ملايين ونصف فرنكا ومما ينافي دعوى الافلاس أيضا ان كثيرين ممن لهم علاقة بالكومسيون المالي وبمجلس ادارة المداخيل علموا ان الوزير المذكور كان قبل عزله يرسل من يستخلص له فوائض أربعة وعشرين مليونا فرنكا من خصوص الدين التونسي ثم بعد انبرام الصلح صدر له اذن الوالي بان يخالط من شاء ويذهب أين شاء داخل القطر وخارجه والعود اليه متى شاء هو وابناؤه الازوجه وزوج ابنه الاكبر لكونهما من عائلة الوالي ولم تكن عادتهم تسمح بخروج أحد عائلتهم خارج القطر ولم يستثن عليه الا الاجتماع بالوالي وكان يظن ذلك بسعي الوزير خير الدين المتولي بعده لكنه كشف الحال انه من ذات الوالي لانه دام على الامتناع من مواجهته حتى بعد انفصال الوزير خير الدين عن الوزارة وبقي الوزير المذكور على حالة انفراده في قصره بالحاضرة يتردد عليه قليل من اتباعه والاجانب الى ان توفي في سنة ١٢٩٥ رحمه الله (المطلب السادس) في وزارة الوزير خير الدين هذا الوزير أصله من ابناء الجراكسة القاطنين في جبال القوقاز ونشأ بالقسطنطينية ثم شب في تونس بقصر الوالي أحمد باشا واستكمل القراءة والكتابة والتجويد والفروض العينية ولحدة ذهنه أقبل بها على تحصيل الفنون العسكرية والسياسة والتاريخ ومشاركة في الفنون الشرعية حصلها بمثافنة أهلها ومطالعة الكتب وتعلم اللسان الفرنساوي فكان فصيحا في العربية عارفا بالتركية والفرنساوية شديد التوقير للشريعة والعلماء محافظا على شعائر الدين عالي الهمة وقورا حتى يخاله من لم يخالطه متكبرا فاذا ثافنه رآه حسن القبول عفيفا عن الرشا راسخ الطبع ثابت الفكر لا يتزلزل عن رأيه حازما في العمل ترقى في الخطط العسكرية في مدة أحمد باشا مع استنجابه اليه وقربه الوزير مصطفى خزنه دار حتى صاهره على ابنته ثم ولاه أحمد باشا أمير اللواء الخيالة سنة ١٢٦٦ ولما وقعت حرب القريم أرسله أحمد باشا المذكور الى باريس ليبيع مجوهرات للحكومة يستعين بثمنها في مصاريف العسكر المرسل لاعانة الدولة العثمانية وناضل هناك على التعرض في ارسال العسكر بما تقدم شرحه ولم يبع المجوهرات الا بعد عرضه لاثمانها على الوالي أحمد باشا مع انه فوض اليه وانكر عليه التأخير بسبب الاستشارة وكتب له تفويضا تاما كما كلفه في تلك الوجهة بعقد قرض مع احدى ديار المال فباع المجوهرات وأرسل ثمنها وحاسب عليه وقدره نحو مليونين فرنكا وأخذ حجة تامة من محمد باشا في الحساب وبراءة ذمته وماطل في العقد للقرض وكيفية

شروطه لما يراه من المضرة على القطر وراجع الوالي مرارا الى ان توفي الوالي المذكور ووافقه خلفه محمد باشا على عدم القرض وقد رأيت بخط كاتب اسرار الولاة الوزير أحمد ابن أبي الضياف في هذا الغرض ما نصه وشكر رأي محمد باشا خير الدين في عدم الاستعجال وانقذنها البلاد من هاوية الخ ثم عرض للوزير المذكور في اثناء سفرته المذكورة هروب ابن عياد وتكليف الوالي أحمد باشا الوزير المذكور بخصامه فدام في خصامه سنين مبدأها من سنة ١٢٦٩ ومنتهاها سنة ١٢٧٣ ونجح في عمله بما تقدم شرحه عند الكلام على ولاية أحمد باشا ورأيت بخط الوزير أحمد بن ابي الضياف في ذلك ما نصه ولو تم مراد ابن عياد و وجد من خير الدين اذنا صاغية لمواعيده لكانت المملكة في أسره لو قتناها هذا الكثرة ما يبده من الاوامر والرسوم الى ان قال لولا تدارك لطف الله على يد خير الدين الخ ثم في سنة ١٢٧٢ قدم الوزير خير الدين من فرانسا لتهنئة الوالي محمد باشا فاكرم مقدمه وعرف له نصحه في النوازل المذكورة ورقاه الى رتبة الفريق وعاد لاتمام الخصومة المذكورة فولاه محمد باشا وهو غائب وزارة البحر لموت صاحبها محمود كاهية سنة ١٢٧٣ وعند ابرام الحكم على ابن عياد رجع الوزير خير الدين الى تونس واعتنى بمباشرة وزارته مع اعتماد الوالي عليه في الاستشارة فحسن حالة حلق الوادي التي هي أعظم مرسى في القطر بما استطاع ورتب هيئة خدمة الوزارة بتقييد المكاتيب الصادرة وضبط جميع الحركات اليومية في دفتر وكان أول من عرف ذلك في القطر وكانت الامور تجري بلا ضبط وجعل اتفاقا مع الاجانب الذين استولوا على أكثر أراضي تلك البلاد بلا وجه فجعل معهم الاتفاق على ثلاثة أوجه فمن كانت بيده حجة من الوالي في الاذن بالبناء جعل له قيمة كراء الارض خاوية سنويا على حسب الكراء المؤبد لورثته ميراثها من بعده ومن كانت بيده حجة في البناء من خصوص وزير البحر فقط فله ابقاء البناء مدة حياته لخصوص ذاته ومن بعده ترجع للحكومة وان امتنع قلع بناؤه أو تراضى مع الحكومة في شراء الارض أو كرائها ومن لم تكن بيده حجة لزمه التوافق مع الحكومة أو قلع بنائه ووافقه على ذلك قناسل الدول وحصل من ذلك نفع كثير وتحصل من الكراء المؤبد ما هو وقف الآن على جامع حلق الوادي وقام به أحسن قيام ثم أحدث معملا لبخار بالماء تحتاج اليه السفن من الادوات الحديدية والخشبية وأبدل الجسر الذي كان على الخليج بجسر حسن متين وأوسع الطرق ونظمها وبنى محلا لادارة الوزارة حسنا وجعل امامه بطحاء وحسن لباس العساكر البحرية ثم لما

أنشأ

أنشأ عهد الامان كان الوزير المذكور فارس ميادين انشا القوانين ابـله للحرية والعدل وكان المجلى فى مضمارها بتدابيره وفصاحته وعدم استغنائه من الحق حتى ان الوالى المذكور لما أراد جلب مازغوان وجمع رجال حكومته واستشارهم وكان أغلبهم ذاهبا الى عدم الموافقة فاجابهم الوالى بانى أعطيت كلمتى للقنسل بالموافقة على جلبه فتنفس الوزير خير الدين وقال أى فائدة لجمعنا حيث أعطيت كلمتك وحسبنا سماع هذا الخبر من سيادتكم كذا رأيته بخط كاتب أسرارهم الوزير أحمد بن أبى الضياف ولما ولى على القطر محمد الصادق باشا أرسل الوزير خير الدين المذكور الى الدولة العلية لطلب فرمان الولاية على العادة واستقبله استقبالا حسنا وقضى مأموريته ولما أنجز الوالى المذكور القوانين كان من ولى الوزير خير الدين عضوا فى مجلسه الخاص الذى يرأسه بنفسه كما ولاه رياسة المجالس الاكبر اى مجلس النواب وكان فى مبدء الامر رئيسا ثانيا للوزير مصطفى صاحب الطابع وهذا هو الرائس الاول غير انه أخذ لقب الوظيفة فقط مراعاة لمقامه وسنه وعجزه سنا ومعارفا عن الوفاء بتلك الخطة ومن انصافه رحمه الله كان يصرح للوزير خير الدين بذلك ويقدمه حتى ان القانون بعد اتمام تأليفه عين الوالى أعضاء المجالس حسب الانتخاب وأمرهم بقراءة القانون وفهم معناه قبل العمل به فلم يحضر الرائس الاول وقام مقامه الوزير خير الدين وقال فى شأن ذلك الوزير أحمد ابن أبى الضياف ما نصه وأبدى فى تقريره أى القانون وبسطه وتفسيره من حسن البيان وفصاحة اللسان ما أعجب السامع وشنف المسامع وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء اه واعترف له بالفضل كل من حضر من العلماء وغيرهم ثم توفى الرئيس الاول وصار الوزير خير الدين هو الرئيس بالاسم والرسم والعمل وقد كان على غره ظانا أن القانون مراد لذاته حقيقة فشمر عن ساعد الجد وطفق يبرهن على المصالح ويفتح البصائر الى مغزاها وتنقاد الاعضاء لسد أبواب المفاسد الى أن نشبت مخالب التضاد بينه وبين الوزير السابق كما تقدم شرحه واضطربت أعضاء المجالس ورأى ان المآل الى جعل المجالس صورا بالانفاذ الاغراض على عاتقه فاستعفى من الرياسة وبقى عضوا فى كل من المجالسين وقال فى ذلك الوزير أحمد بن أبى الضياف وانتفع المجالس باعانته أى انتفاع مترديا بحبه نبله وعفافه وانصافه الخ ثم أرسله الوالى سفيرا عنه الى دولة السويد والبروسيا والبلجيك والدانمرك وهلاندا مكافأة بارسال نياشين الى ملوكهم عما أرسلوا به اليه من النياشين اكرامالة على انشائه القوانين وكذلك فعلت غالب دول أروبا وفى اثناء عضويته عرض على المجالس الخاص

ان فواضل الاوقاف تصرف للقيام بالعسكر بموافقة أحد العلماء المالكية معتمدا الفتوى بما جرى عليه العمل من غير المشهور من مذهب امام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه من ان فواضل الاوقاف تصرف فى طرق البر ورأوا أن القيام بالعسا كر من طرقها فخالفهم الوزير خير الدين محتجا بان القيام بالعسا كر له نصيب معلوم شرعا من بيت المال فان كان النصيب المعين شرعا صرف جميعه على العسكر ولم يف بذلك فحينئذ ينطبق النص ونوافق على ماذكرتم وأما اذا كان دخل بيت المال يصرف فى غير وجهه الشرعى كما يعلمه الجميع فلا أرى انطباق النص على ماذكرتم ولعمرى انه لهو صميم الحق فثمرة العلم تحقيق المناط وان ذهبوا الى العمل بما رأوا وكان ذلك من أسباب ايغار صدور الخاصه والعامة كما تقدم ولما راموا أن يضاعفوا الاداء المسمى بالاثنين وستين الذى كان سببا فى الطامة الكبرى كما مر قال الوزير المذكور للوالى حسبما رأيته بخط الوزير ابن أبى الضياف الحاضر فى المجلس ياسيدى ان أخفيت ماظهر لى من نصح سيدى وبلادى أكون خائنا الامانة الاستشارة نرى ان هذه الزيادة فى مال الاعانة تؤدى الى زوالها بالمرة أو تلجئ الى مال أكثر منها التجهيز الجيوش لغصب الناس ولا نجد فى السنة التى بعدها مايقارب الاعانة الاولى هذا باعتبار القدرة على الغصب ولعمرى أنها مقالة دين ونصح تجد ثوابها يوم تجد كل نفس ماعملت الخ كلامه وصرح بمثل ذلك فى المجلس الاكبر أيضا ولما سأله بعض أعضائه سرا عما أوجب تسليمه قال انى رأيت السقف يريد أن ينقض ولم استطع استدراكه ولا وجدت اذنا صاغية فخرجت من تحته وعلى بخويصة نفسى ثم لما أبطل القانون بقى الوزير خير الدين فى بستانه مقبلا على شؤون نفسه لا يختلط بالحكومة الا نحو يومين فى الشهر يتوجه الى الوالى للسلام عليه أو عندما يدعوه لامر ما كما وقع عند قتل الشهيدين اسماعيل السنى ورشيد لان الوالى جمع بعد ذلك جميع رجال حكومته وأعلمهم بالقتل ورأيت فى صفة المواطن بخط الوزير ابن أبى الضياف الذى كان حاضرا فيه مانصه وقال له الوزير المنصف أبو محمد خير الدين نرجو الله أن يكون هذا احد البأس وان لا تقع ندامة على هذا الاستعجال بعد وصولهما الى محبسهما الان ابع الزمان ينافى هذا الاستعجال فاغتاظ الوالى وكاد أن يستهويه الغضب لولا لطف الله بخير الدين الخ وله فى أمثال ذلك من النصح والاقدام كثير وفى اثناء استعفائه كان التزاور بينه وبين الوزير مصطفى خزنه دار مستمرا للقرابة المصاهرة ولا يتداخل معه فى رأى من تصرفاته كما كان الاعيان من

المتوظفين

المتوظفين والاهالى يزورونه ولايخوض معهم فى شئ من أحوال سياسة البلاد متجنبا القيل والقال مستكفيا فى التأنس واراحة البال بخواص من أصحابه مقبلا على مطالعة الكتب والتأليف فالف كتابه أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك وهو أول كتاب مبتدع فى السياسة التى يقتضيها الحال والشرع وكفى بتقاريظ العلماء فيه مع أن الرجل اذذاك بعيد عن شائبة التملق اليه ثم لما شددت الاجانب فى طلب أموالهم وأنشئ الكومسيون المالى باتفاق الدول دعاه الوالى الى رياسة ذلك الكومسيون فامتنع ولما ألح عليه الوزير السابق قال له مامعناه ان الحال قد بين التباين بينى وبينك فى طريق السياسة وانت رجل مثل والدى لك التقدم على فان وافقتك خنت دينى وأمانتى وان خالفتك صرت الى العداوة معك فالاولى بقائى على ما أنا عليه فاجابه بترك جميع مامضى وان الحال قد بلغ النهاية وانه لا يريد فى المستقبل الا الاصلاح وموافقة الرأى فاعاد الوزير خير الدين مقاله وأن طبع الوزير مصطفى خزنه دار لا يوافق السيرة التى يراها هو فاكد له مزيد الموافقة فى عدة مواطن وقبل اذذاك الوزير خير الدين رياسة الكومسيون ومن هذا الوقت وهو سنة ١٢٨٦ تنسب التصرفات اليه وان رجع الوزير السابق عن وعده وتحمل الوزير خير الدين بسبب ذلك مشاقا صعابا لكنه لم يتنح للوزير مصطفى خزنه دار مراده الى ان انفصل عن الوزارة بالمرة كما تقدم شرحه فاول ما ابتدأ به الوزير خير الدين من الاعمال انه رأى تداخل الكومسيون المالى فى مالية الحكومة يتسع نطاقه الى التداخل فى السياسة كما يقتضيه صريح فصول تركب ذلك الكومسيون ودليله انه بعيد انتصابه وجه تقرير اللوالى فى أمور تقتضيها وظيفته من مباشرة العمال فى استخلاص الاموال وغير ذلك وتوقف عن امضائها الوزير السابق لانها تؤل الى خروج التصرف عنه بل وعن الحكومة أيضا فاشتكى أعضاء الكومسيون الاجانب الى قناسلهم بان أعمال الكومسيون توقفت لان أساسها توقفت الحكومة فى امضائه فكتبت القناسل للوالى بالتعجيل والحث على اجراء ما التزم به للدول الثلاثة وهى فرانسا وايطاليا وانكلترا فجمع الوالى جميع رجال الحكومة وعرض عليهم الامر وكان من الحاضرين الوزير احمد ابن أبى الضياف وكتب حسبما رأيته بخطه فيما وقع فى المجلس مانصه وتكلم الوزير خير الدين بالمجلس بما يكتب على صفحات الايام الى أن قال انكم دفعتمونى الى هذه الخدمة وأنا عبد لخدمة سيدنا وبلادنا على كل حال ونطلب الاعانة من جميعكم فان أعنتمونى فلكم الفضل وان أسلمتمونى لا أجمع

للهروب وانما أقول اخدم برهة من الزمان وأتأخر ليقدم غيرى من أمثالى يخدم مثل مدتى وهلم جرا فضمن الجميع له الاعانة كل على حسبه وانفصل الموطن الخ وأمضى الوالى مطلب الكومسيون وخاطب القناصل بذلك وكان ذلك مما يجر الى ابقاء الحكومة صورية لان استخلاص الاموال يستدعى تحسين الادارة وهو يستدعى العدل فيتداخل الكومسيون فى جميع ذلك وترجع اليه الاهالى ولا يبقى للحكومة الا التزرفلذلك أشار الوزير خير الدين على الوالى بوجه تمضى معه حقوق الكومسيون وتحفظ به حقوق الحكومة وناموسها وهو توظيف رئيس الكومسيون بوظيفة وزير للوالى فى رتبة الوزير الاكبر بحيث يشاركه عند حضوره وينفرد عند غيابه وتنقل خدمة الكومسيون الى محل الوزارة ويكون مصدر جميع الاعمال واحدا فاستحسن الجميع ذلك الرأى ووظف الوالى الوزير خير الدين وظيفة سماها بالوزير المباشر فرتب أشغال الوزارة على الصورة الآتية وهى الوزارة الكبرى وتنحصر فيها جميع شعب الادارة الا الوزارتين الآتيتين بمعنى أن الوزير الاكبر ثم الوزير المباشر هما اللذان يباشران جميع المصالح اما بواسطة أو بدونها ثم قسم ادارة هاته الوزارة الى أربعة أقسام (فالقسم الاول) تحت رياسة مستشار ويرجع اليه جميع الامور السياسية العامة وأحوال المالية الخاصة بدخل الحكومة ونحو جهادون ما يتعلق بالكومسيون المالى (والقسم الثانى) تحت رياسة مستشار ويرجع اليه ما يتعلق بشكايات الرعية من المتوظفين والعكس (والقسم الثالث) تحت رياسة مستشار ويرجع اليه ما يتعلق بالحقوق الشخصية ثم اتحد هذا القسم بالقسم الثانى (والقسم الرابع) تحت رياسة مستشار ويرجع اليه ما يتعلق بالخارجية كما جعل كلا من وزارتى الحرب والبحر مستقلا بنفسه كل منهما له وزير خاص غير انه تحت نظارة الوزارة الكبرى فهذا ما يتعلق بكيفية الادارة وأما ما يتعلق بما حصل من الادارة فان ديون الحكومة حصرت فكانت مائة مليون وخمسة وسبعين مليونا فرنكا كما تقدم تقريبه آنفا وكان الفائض الذى يدفع سنويا نحو العشرين مليونا فرنكا فاسقط من الاصل نحو مليون فرنكا ثم طرحت العشرون مليونا التى هى الفائدة التى لم تدفع وجعلت دينا بلا فائض يستهلك من الدخل المضروب جديدا على البضائع الداخلة للقطر وبقى المقدار الذى يؤدى الفائض نحو مائة مليونا وخمسة وعشرين مليونا فقط فجعل له فائضا خمسة فى المائة وصار مقدار الفائض السنوى نحو ستة ملايين فرنكا وخمسمائة الف فرنك الذى هو نحو الثلث مما كان جاريا

وخصص

وخصص له أنواع مخصوصة من مداخيل الحكومة لان نواب أصحاب الديون وهم قسم النظر من الكومسيون المالى لم يرضوا بان الحكومة تتعهد لهم بدفع الفائض بل أرادوا ان تكون ادارة المال الراجع اليهم تحت أيديهم فجعل لذلك مجلسا يسمى مجلس الادارة أعضاؤه أجانب منتخبون من قسم النظر من الكومسيون وعددهم خمسة وعضو تونسى ينتخبه قسم العمل وفوض اليهم قبض المداخيل الراجعة الى الفائض تحت احتساب قسم العمل ثم قسمت مداخيل الحكومة الى قسمين (القسم الاول) يتولى قبضه ذلك المجلس والانواع التى سلمت الى ذلك هى ما يأتى بيانه مع بيان تقريب دخله حسب الميزانية المسلمة من الوزارة السابقة

فرنكات	
٠٣٥٠٠٠٠	لزمة فندق الغلة أى الاداء على الخضراوات والفواكه المباعة فى الحاضرة
٠٤١٢٠٠٠	محصولات سوسه والمستنير أى الاداء المرتب على نحو ماذكر وعلى بيع الحيوانات وغيره
٠٠٩٧٠٠٠	الرحب أى الاداء على بيع حبوب القمح والشعير وشبهه
٠٥٠٠٠٠٠	القمرق أى الاداء على السلع الداخلة والخارجة للحاضرة من الممالك
٠١٠٠٠٠٠	خروبة الاكرية بالحاضرة أى أنه يؤدى على كل ريال المنقسم الى ستة عشر خروبة خروبة واحدة أى جزء من ستة عشر على كل مكان يكرى
٠٠٤٥٠٠٠	قمرق صفاقس
٠٠٠٨٠٠٠	قمرق وادى قابس
٠٠٢٥٠٠٠	قمرق سوسه والمستنير والمهدية
٠٢٢٠٠٠٠	قمرق الدخان أى انحصار بيع الورق المدخن به والمستنشق فى الحكومة
٠٠٥٥٠٠٠	قمرق الخل أى ما يؤدى على المسكرات
١٨١٢٠٠٠	

فرنكات	
١٨١٢٠٠٠	نقلت
٠٠٤٥٠٠٠	فندق البياض أى مايؤدى على بيع الفحم
٠٠٦٠٠٠٠	الجبس أى انحصار بيع الجبس فى الحكومة
٠٠١٠٠٠٠	صيد الحوت أى الاداء على صيد السمك وانحصار أماكن البحر فى صيد الحكومة
٠١١٠٠٠٠	الملح أى انحصار بيعه أيضا فيها
٠٠٥٥٠٠٠	الاداء على النشاف والقرنيط أى الاسفنج ونوع السمك المسمى بالقرنيط
٠٨٥٠٦٠٠	قانون الزيتون فى سوسة والمستير والمهدية وصفاقس أى الخراج على شجرة الزيتون عوضا عن العشر
٣٠٣٢٠٠٠	
٠١٥٠٠٠٠	قانون زيتون الوطن القبلى
٠١٠٠٠٠٠	محصولات صفاقس مثل ما بيناسابقا
٠٠٩٠٠٠٠	محصولات جربه وقرقنها
٠٠٨٠٠٠٠	محصولات بن زرت
٠٠٢٠٠٠٠	محصولات حلق الوادى
٠٠٠٨٠٠٠	لزمة صيد المرجان أى المقدار الذى يؤدى على ذلك من الفرانسيس
٠٠٨٥٠٠٠	محصولات الوطن القبلى
٠٣٠٠٠٠٠	التنبر اى الاوراق المختوم عليها من الحكومة ليكتب فيها الاحتجاجات بحيث لاتقبل حجة فى غير ورقة مختومة
٢٦٤٠٠٠٠	المراحات أى الاداء على مايخرج من القطر من الحبوب والزيت والتمر والصوف والصابون
٢٥٠٥٠٠٠	

وقد أقيم الحساب على مقتضى هاته الميزانية فلم توف فى أغلب السنين للغلط الذى وقع فى

فى تقدير فصل المسامحات وهو الاخير لان ذلك غير صحيح كما أبانه الواقع وسبب ذلك عدم امكان ضبطه فى الوزارة السابقة فقرب تقريبا بالقياس على سنة كانت خصبة مع الطلب فى الثمن الى أروبا ولذلك لزم الحكومة ان تكمل من دخلها الخاص ما ينقص من ذلك الدخل عن الوفاء بالفائض حسبما هو مشروط فى اللائحة التى جعلها الكومسيون المالى أساسا لاعماله فان منها ان فائض الدين الذى هو ستة ملايين ونصف فرنكا كما تقدم ان وفت به المداخيل المعطاة لمجلس الادارة فبها ونعمت والا فالحكومة ملزومة بان تكمل من باقى مداخيلها ما يوفى بذلك المقدار غير انها فى السنة الاولى لا تكون ملزومة الا بما يكمل خمسة ملايين وما نقص يذهب مجانا على أرباب الديون وفى السنة الثانية تكون ملزومة باكمال خمسة ملايين ونصف وفى السنة الثالثة تكون ملزومة باكمال ستة ملايين وفى السنة الرابعة تكون ملزومة باكمال الستة ملايين ونصف وهكذا فيما بعد للاسباب التى تقدم شرحها فى ضعف القطر ومن الشروط أيضا ان الحكومة لها ان تستقرض من خزانة مجلس الادارة مليونا متى أرادت لسبب قوى على ان ترجعه قبل مضى ستة أشهر ولا تؤدى عليه فائدة ومنها أيضا اذا زاد دخل القسم المذكور من المداخل على القدر اللازم فانه يبقى منه نصف مليون للاحتياط وما زاد على ذلك يشترى به رقاع من الدين وتستهلك وهكذا فى كل عام الا اذا زاد الدخل على ثمانية ملايين فرنكا فان ما زاد يقسم أيضا فالنصف يلحق بما تقدم فى استهلاك رأس مال الدين والنصف الآخر تصرفه الحكومة على نظر قسم العمل من الكومسيون فى المصالح العامة كالطرقات وغيرها (وأما القسم الثانى) من مداخيل الحكومة وهو ما بقى من أنواع المداخيل كاعشار الحبوب والزيت وخراج النخيل ومدبغة الجلد والاداء على الرقاب المسمى بالجبا أو الاعانة الذى هو نحو خمسة ملايين ونصف فرنكا فانه يتولى قبضه قسم العمل من الكومسيون وهو الذى يتولى دفعه الى الحكومة على مطابقته للميزان الذى يجعل فى رأس السنة لمصاريف الحكومة فى مصالحها ومرتبات العائلة الاميرية ولسائر المتوظفين وتكون بطاقات الاذن لحافظ الخزنة بالدفع صادرة من الوالى غير انه لا يختمها بامضائه مالم يجد عليها امضاء أعضاء قسم العمل من الكومسيون اعلاما بان البطاقة موافقة لاصول الميزان المالى ولا يكتب من تلك البطاقات فى وقت من الاوقات الا بقدر ما فى الخزنة من المال بحيث لا تقع المماطلة لصاحب البطاقة من القابض الذى هو حافظ الخزنة حتى ربما يضطر صاحبها الى اسقاط شئ مما بها لتدفع اليه أو انه يبيعها لغيره

مما يوجب احداث دين جديد على الحكومة هذا هو الرسم الذي جرى عليه العمل في الظاهر وربما وقع ما يخالفه على وجه تصعب مراقبته فهذا ما يتعلق باحوال الديون وما جرى عليه العمل فيها وقد رفعت فوائضها في السنين الاولى على نحو ما تقدم من مداخيلها المعينة لها ثم في بعض السنين أكملتها الحكومة من مداخيلها وفي بعضها زاد الدخل المعين لها حتى اشترى منه شئ من أصل الدين وفي بعضها رهنت الحكومة دار الجلد أي مدبغته لاكمال الفائض بحيث ان جميع مدة تصرف الوزير خير الدين لم يبق على الحكومة شئ من فائض الدين وانتسق دفعه في أوقاته ثم جعل هذا الوزير معاهدة متجرية مع سائر الدول الاجنبية على ان يزاد في اداء القمرق على السلع الداخلة من ممالكهم الى القطر والمقدار المزاد خمسة في المائة وعين هذا المقدار الى استهلاك الدين الذي بقي بلا فائض وأصله فائض الديون السابقة الذي لم يدفع وقدره نحو عشرين مليونا على نحو ما تقدم ثم بعد خلاص ذلك الدين يرجع ذلك المقدار مع بقية دخل القمرق الى فائض الدين المتحد واستهلاكه وصار اداء القمرق على السلع بين المزيد والمزيد عليه ثمانية في المائة وأما ما يتعلق بتحسين الادارة المالية والحكمية في القطر فاحدث أمورا عديدة نافعة فمنها انه أبطل أنواع المجابي التي اختلفت كيفيتها وكميتها في السنين المتقدم ذكرها وجعل على كل ذكر بالغ قادر على التكسب أربعين ريالا تونسيا في السنة مدرجة على أربع سنين (ففي الاولى) يدفع المطلوب خمسة وعشرين ريالا (وفي الثانية) يدفع ثلاثين ريالا (وفي الثالثة) خمسة وثلاثين ريالا (وفي الرابعة) أربعين ريالا ويجري بها العمل من غير زيادة وشدد في الاخذ على أيدي العمال بحيث لا تمتد يد أحد منهم الى شئ زائد عما ذكر وجعل لهم أجرهم ستة في المائة يأخذونها من ذات الاموال المستخلصة على أيديهم الراجعة للحكومة منها أربعة للعامل وريالان للشيخ ثم أبطل هذا الاجر وعوض بواحد على كل عشرة تستخلص من الدافع زيادة على العشرة بحيث صار على كل نفر أربعة وأربعون ريالا في السنة وذلك الواحد الزائد يجمع عند العامل فيأخذ هو النصف والنصف الآخر يقسم بين مشايخ العمل ونواب العامل المعينين بالخلفاوات (ومنها) جعل قانون معلوم لرسل الحكم في استخلاص الاموال سواء كانت راجعة للحكومة أو للاهالي أو للاجانب بحيث يأخذ المرسل نصف ريال على كل عشرة يستخلصها من الملة هذا اذا كان رسولا من الحكومة أي من أعوان الوالي اما اذا كان من أعوان العامل وغيره من الحكام غير أهل الشرع فانه يأخذ ربع ريال على كل عشرة وقد كانت قبل ذلك على

حسب المشقة (ومنها) ترتيب استخلاص أعشار الحبوب التى اضطرب حالها أيضا فخص
ه شر كل ماشية أى ما يحرثه الرجل الواحد فى السنة الواحدة على الحيوانات المناسبة
بحسب كل جهة و بذرها مما يطلق عليه اسم الماشية هنا ثلاث فى خمسة و يبات قمحا
ومثلها شعيرا الذى هو أقل ما يمكن ان يكون عشر الخارج من النبات فى أغلب السنين
وما زاد على ذلك من العشر الحقيقى فهو فى عهدة ديانة صاحب الزرع يدفعه ان أراد
واذا أثبت صاحب الزرع ما احتاج زرعه فانه يسقط عنه بمقدار ماضاع له و يؤدى أجرة
الكيل والتقييد والتقدير أربعة ريالات على كل ماشية هذا كله فى الجهات التى تدفع
العشر من ذات الحبوب النابتة وأما الجهات التى تدفع عوض ذلك دراهم لبعدها عن
محل الدفع فان الدافع يدفع خمسين ريالا على كل ماشية فى كل سنة ور بالين أجرة
المستخلص وهذا المقدار مراعى فيه حالة صاحب الفلاحة لان ثمن الخمسة و يبات من
القمح وحده تبلغ الخمسين ريالا بحسب ثمن كل و يبة عشرة ريالات الذى هو السوم فى
أغلب السنين وروعى فيه أيضا جهة الحكومة لما يلزمها من كثرة مصاريف الحمل لعدم
الطرق الصناعية ثم ان ذلك المقدار قسط أيضا تدريجا على أربعة سنين يبتدئ بثلاثة
و يبات ونصف من كل نوع على حدته و يزيد فى كل سنة نصف و يبة الى ان يوصل فى
العام الرابع الى خمسة و يبات من كل نوع ومثله ما يقابله من المال وقد نتج من ذلك
عمران الايالة بدليل انه عند ولاية المذكور وزيرا مباشرا لم يكن فى الايالة عشرة آلاف
ماشية ارضا مزروعة وعند خروجه من خطة الوزارة ترك فى المملكة أكثر من مائة ألف
ماشية مزروعة (ومنها) التخفيف على خراج الزيتون المسمى بالقانون فى الوطن القبلى
الذى كان أجحف باهله فى المدة الماضية حتى سمت أصحاب الاملاك فيما يملكون ولم
يقبل منهم وأغروا البوادى باحراقه للاستراحة من مطالبه فنزل من رتبة الريال والنصف
ريال على كل شجرة الى الثمانية نواصر على كل شجرة والناصرى هو جزء من تجزئة
الريال الى اثنين وخمسين ناصرى ثم اسقط عن أصحاب الزيتون احدى وثلاثين ألف
شجرة زيتونا احترقت واسقط عنها اداءها وبه يعلم مقدار ما كانوا يحملون ومقدار
نقصان العمران فيما سبق ونشر ذلك فى العدد الثانى من رائد سنة ١٢٨٦ الذى هو
الصحيفة الرسمية للحكومة ثم اسقط هذا الاداء بالمرة ورجع الامر الى الوجه الشرعى وهو
العشر على ما يحصل من الزيت وفرح بذلك أصحاب الاملاك وأقاربهم فرحا شديدا
لارتياحهم من اعباء ذلك الثقل العظيم (ومنها) تخفيف قانون النخيل ببلاد نفزاوة من عمل

الجريد حيث كان ملحقا بسائر عمل الجريد مع انه غيره ساو لما فيه من شجرة النخيل خصبا وحسنا فاذلك جعل على كل شجرة من نوع الدقلة ريالا ونصفا وعلى بقية أنواع النخيل ستة خوارب على كل شجرة والخروبة جزء من ستة عشر جزاء من الريال كما تقدم (ومنها) ترتيب مجلس محاسبة العمال والمتوظفين عما تعاطوه بحسب وظيفتهم ولم يوصلوه الى الحكومة وبقيت قبائلهم وبلدانهم مطلوبين للحكومة بيقايا ماعليهم فتحرر من ذلك مبالغ جسيمة قبضت الحكومة بعضها وبعضها لم يقبض اما الاعدام من قبضه أو للعفو عنه واسقط ذلك من المطالب الباقية على أصحابها من أهل الجريد ودريد وجندوبه والساحل وأولاد عيار وأولاد محمود ومن ذلك محاسبة أحمد زروق واتباعه وابراهيم بن عباس واخوانه وعلى السامي وعبد الرحمن بن عمر والحاج الحسنى وملخص الحسابات ما يأتى بيانه

ريالات	
٨٠٠٠٠٠٠	من الساحل حسبما أفاد أحد اعضاء مجلس المحاسبة
١١٥٨٠٨٥٣	من بقية الاعمال المذكورة حسبما اثمرت المحاسبات
٩١٥٨٠٨٥٣	

٥٨٨	منها أيضا غنم		ر ١٢	منها أحمرة
٠٦٤	منها بقر	١٣	ر ٠٧	منها اقفزة قمحا
٠٢٠	منها خيل	١٢	ر ١١	منها اقفزة شعيرا
٠٠٢	منها ارطال فضة		ر ٠٤	منها بغال
٣٤٠	منها ابل		ر ٢٦	منها اطرحات تبن

(ومنها) تنقيح المتوظفين بما لا يوغر الصدور الامن تفاقمت سقطاته فدحض واما غيرهم فلم يؤثر من كان من حزبه على غيره ولو على اضداده فلم يفد فيهم الاحسان ونقص بذلك اعتبار حزبه حتى رآه الوالى مفقود الاعوان واتخذها ذريعة لعزله من الوزارة وصدقت وصايات الحكماء الاقدمين الحاثين على جلب الاصدقاء والاعوان وعدم الركون الى الاعداء لان تقريبهم لا ينفع والاصدقاء يضمحلون بذلك واما دعوى التحزب بالجهور فذلك أمر لايتم الا للملوك الذين رسخت قدمهم فى الملك بالتوارث وصار انقياد الانفس اليهم طبيعيا مالوفا اذهم أشد الاصناف احتياجا الى معونة الاصدقا (ومنها) الترغيب فى غرس الزيتون والنخيل بان جعل لكل من غرس منها شيأ ان لا يؤدى عليه شيأ من الاداآت

الاداآت المرتبة على ذلك النوع مدة خمسة عشر سنة (ومنها) رفع الضرر عن أهل
الساحل من وطأة أصحاب ديونهم فانهم كانوا يسجنون المديون مع قيام الرهن بيد الدائن
ويبيعون غلة الاحباس المشتركة مع المديونين وغيرهم ويستولون على الجميع ويطلبون
الضامن قبل فلاس المديون مع عدم اشتراط ذلك ويستولون على مخلفات من مات من
المديونين ويبيعونها على غير يد الحكام واذا أفلس المديون لا يتركون له ما يستر بدنه
ولا ما يقتات به ويتركون المديون فى السجن بلا تحديد مدة فأبطل جميع ذلك وأجرى
فيه أحكام البلاد الشرعية والعرفية (ومنها) ارجاع من هاجر من القطر من الاهالى
بالامن لهم والعفو عمن سبقت منه جناية واسقاط ما عليهم من المطالب الى الحكومة
وكذلك العساكر الذين فروا من القطر شملهم بمثل ذلك (ومنها) ارجاع من نكب من
أتباع الحكومة وتأمينهم وتقليدهم بمثل ما كانوا عليه من الوظائف اذ لم يكن من سبب
معقول لابعادهم أو نفيهم أو نكبتهم فرجع للقطر وللوظيفة السيد الشريف أمير اللواء
حسن مقرون وأخوه والوزير رستم والوزير حسين وأمير الامراء محمد المرابط وأمير اللوا
يونس الجزيرى وأمير اللوا مرادو وأمير الالاى حسين ورديان باشا وأمير الالاى حسن
مدلجى والقائم مقام على جهان وغيرهم (ومنها) حصر الديون التى على أهل الساحل من
الاجانب وبناؤها على أساس لائق بالجانبين بحيث انقطع تفاقم الربا وتضاعفت زيوت
السلم وجعل لخلاصهم مدة معينة على اقساط (ومنها) ان أمير لواء العسة اذ ذاك على ابن
فريجة نقم عليه الوالى وأرادوا ان يأخذوا منه أهم مصوغه وكسبه باوجه من الدعاوى
بلا بينة ولا ترافع كما وقع مع الشهيد ابن اسماعيل السنى ورشيد فامتنع الوزير خير الدين
واقام له مجلس المحاسبة ومكنه من مصوغه وما ثبت عليه بعد الحساب دفعه باختياره
(ومنها) بذل وسعه فى استحصال فرمان سنة ١٢٨٨ السابق ذكره على ما مر شرحه
ومن فرح الوالى به واكرامه على ما تم على يده ان وجه له وهو مقيم بعاطه لمدة الحمية
مصطفى ابن اسماعيل أقرب المقربين اليه ومستشار الخارجية محمد البكوش لاكرام
خاطره وابلاغ الشكر اليه وأراد ان يلبسه نيشان البيت الحسينى فتعرض له الوزير
مصطفى خزنه دار وأبدل له نيشان الصنف الاكبر بنيشان منه مرصع ثم كافأه على ذلك
بمرتب عمرى قدره خمسة وسبعون ألف ريال تونسيه فى السنة ثم عاوض له هذا المرتب
بهنشير أى أرض وسيعة تعرف بالنفيضة (ومنها) اسقاط جميع البقايا الباقية على الاهالى
من مداخيل الحكومة على اختلاف أنواعها مما سبق تاريخه سنة ١٢٨٦ الذى هو

مبدأ مباشرته للوظيفة وانبعثت بذلك آمال الاهالى الى تعمير الارض حيث كانوا يرون ان ثمرة أعمالهم يستأثر بها غيرهم للوفاء بتلك البقايا الباهظة التى دفعوا أضعافها (ومنها) تركيب المجلس للحكم فى نازلة الوزير مصطفى خزنه دار عند عزله كما تقدم شرحه وتجنبه للعادة فى مثل ذلك من كون الوزارة هى التى تباشر مثل تلك النوازل لينفى الشكوك والتهم ومنذ ذلك التاريخ انفرد الوزير خير الدين بالوزارة حساً ومعنى ولقبه الوالى بالوزير الاكبر وابطل لقب الوزير المباشر وقلده بنيشان بيته الحسينى مع بقائه على رياسة الكومسيون المالى وذلك فى غرة رمضان سنة ١٢٩٠ فزينت البلاد وعقد الاهالى محافل ليلية مع التنوير وهكذا سائر بلدان المملكة وقبائل عربانها بما أذكرهم احتفالهم بفرمانه سنة ١٢٨٨ حسبما سبقت الاشارة اليه لتيقنهم بالاستراحة من تصرفات السابق وأملهم بازدياد اصلاحات المتولى لما عرفوا من اياديه مما مر ذكره وفى هاته الاثناء تم اسقاط خراج الزيتون المسمى بالقانون فى الوطن القبلى الذى مر ذكره وجعل عوضه لخزنة المدين تعميم الخروبة على جميع الاملاك سواء اكتريت أو سكن فيها المالك بان يقوم كراءها ويدفع بحسبه خروبة على الريال أى جزأ من ستة عشر جزأ وعم ذلك البلدان والقرى والبساتين لان نواب أصحاب الدين لم يرتضوا باسقاط القانون الا بعوض عنه فى الدخل ومن تصرفاته بعد ذلك انشاء جمعية الاوقاف بان جعل نظر الاوقاف مطلقا فى جميع انحاء القطر لجماعة من أعيان الاهالى مركبة من رئيس ونائبه وعضوين وكان الحقير متوليا ادارة هاته الوظيفة التى صارا بها ينظرون فى مصالح الاوقاف سواء كانت أهلية أو على أعمال البر لكن الاهلية نظرهم فيها بارشاد أهلها لاقامتها وحراستها من الاتلاف والتى على أعمال البر يتولون ادارتها وحفظها اذ كانت تلاعبت بها أيدى الاهمال وكانت كانها مناط التفضلات فما من وقف له شئ من الدخل قليل أو كثير الا ويعطى لاحد ذوى التقرب أو الاستناد لمن بيده التصرف فتعطلت منافع الاوقاف وأهمل الموقوف عليه الى ان خرب أكثره وقد عينت ثقاة لتحرير ما يكفى لاصلاح الموقوف عليه وحده فكان تقدير ما يكفى ٣١٦٦٧٧٥ ريالات مع تعطيل مرتبات الشعائر وتراكم ديون القوانين الراجعة للحكومة من الموظفات على الاوقاف حتى صار عليها من الدين ما يقرب من نصف مليون فتدارك أمرها بذلك الترتيب وأقيمت الجوامع والمساجد والمدارس فى كل جهات القطر وهكذا الاوقاف على قراءة القرآن وغيره من أنواع البر وكان دخل الاوقاف عدا أوقاف الحرمين الشريفين

وعدا

وعدا أوقاف جامع الزيتونة لان ذلك مستثنى من العموم لكل ادارة مخصوصة وهكذا أوقاف المدرسة الصادقية الآتى فى بيانها فاعدا ماذكر وعدا الاوقاف الاهلية والزوايا التى لها ذريه كان دخله فى السنة الاولى من مباشرتى وهى سنة ١٢٩١ ١٢٠٤٠٠٠ وصار دخلها فى السنة الخامسة وهى آخر السنين التى باشرت الادارة فيها بقيامها وهى سنة ١٢٩٥ ماقدره ٢،١٥٤،٠٧٣ وأصلحت فى مدة الخمسة سنين ٣٣٣٠ مكانا وكان المصروف فى سنة ١٢٩٥ على خصوص اقامة الشعائر ٠٦٧٠٨٢ ومادفع للحكومة فى قوانينها على مايخص الاوقاف ١٩،٩٣٤ وكان المصروف فى الاصلاحات ١٦٨٠٧٢ فمجموع ذلك ٩٣٠١٢٣ ثم كان المصروف من الداخل المذكور على عموم المصالح غير الموقوف عليه ٥٥٦٤٠٩ الجميع ريالات تونسية كما نشر جميع ذلك بالرائد التونسى الذى هو الصحيفة الرسمية للحكومة ومن تصرفاته التى فقت باجرائها اجراء مرتب لاهل المجلس الشرعى بالحاضرة وقد كان هذا المرتب عين لهم فى مبادى ولاية محمد الصادق باشا على ان يكون من فواضل الاوقاف وجعت اذذاك الاوقاف لنظر محتسب فلم تقم بنفسها ولاوفت بتلك المرتبات الا فى بعض أشهر واستخلصت اذذاك معاوضات كثيرة وصرفت فى ذلك المصرف وضاعت الموقوفات ومع ذلك لم يحصل المقصود حتى انيطت وكالة بعض الاقاف باهل المجلس الشرعى مفرقة عليهم لكى يستنفعوا منها بمايقابل المرتب فجرى فيها مثل ما كان ولم يحصل لهم المقصود حتى ذكر بعضهم انه كان يناله فى جميع السنة خمسمائة ريال فأجرى لهم الوزير خير الدين من فواضل الاقاف خمسمائة ريال فى كل شهر على مجرد الخطة الشرعية ولكل من شيخ الاسلام ورئيس الفتوى من المالكية ثمانية آلاف فى السنة عدا مالكل منهم من مرتبات وظائف أخرى وجرايات من القمح عشرة أقفزة ومثلها شعيرا واثنى عشر مطرا زيتا ويزيد لكل من الرئيسين المذكورين على ماذكر قفيزين من كل نوع وثلاثة امطار زيتا وأطرد جريان ذلك ولم يتأخر عن أصحابه ولا شهرا واحدا مدة مباشرتى (ومنها) أيضا الزيادة فى مرتب المدرسين بجامع الزيتونة الذين مرذكر ترتيبهم من أحمد باشا فزاد لكل مدرس من الطبقة الاولى ثلاثة ريالات يومية ولاهل الطبقة الثانية ريالا واحدا وكان اجراء ذلك أولا من مال الحكومة ثم أجريته لهم من فواضل الاوقاف (ومنها) جعل مرتب للحكام الشرعيين فى جميع بلدان القطر على خصوص وظيفة الحكم الشرعى ولم يكن لهم

ذلك من قبل بل كانوا مقتصرين على مرتبات من دروس وامامة وخطابة فاجريت لكل قاض ببلد فيها مفاتي مائة وخمسين ريالا في الشهر ولكل مفتي مائة وعشرين ولكل رئيس فتوى مائة وخمسين ولكل قاض في بلد لا مفتي بها وهي البلدان الصغيرة تسعين ريالا في الشهر (ومنها) جعل وكيل للخصام عن الناس العاجزين عن الخصام بأنفسهم والعاجزين عن أجرة الوكيل (ومنها) احداث طريق صناعي بين تونس وحمام الانف طوله نحو اثني عشر ميلا وقد كان ذلك الطريق الذي هو أهم طرق جهات القطر يتعطل المرور فيه زمن الشتاء لكثرة الوحل وتموت فيه حيوانات كثيرة للمارة ولا يكاد يصل صاحب العجلة فيه مع قوة مراكيبه التي تجر العجلة الا في نحو نصف يوم هذا ان سلمت عجلته حتى ان الامراء والوزراء يربطون في عجلاتهم أربعة من الخيل أو البغال أو أكثر ان يسوغ له ذلك ولا يصل الى حمام الانف الا في أربع ساعات أو أزيد أما الضعفاء فلا يستطيعون المرور فيه وترى المارة يرودون الطرق البعيدة باضعاف طول ذلك الطريق الذي هو ضروري لجميع من كان في الجهة الجنوبية الشرقية من القطر كاهل الساحل وصفاقس والاعراض والجريد وغيرهم فزال جميع التعطيل باحداث ذلك الطريق وان عده بعضهم انه من التحسينات التي تأتي عن غيرها فهذا لجهله باسباب العمران وعدم تفرقته بين الضروري والتحسيني (ومنها) التحجير على معاوضة الاوقاف بمال من النقود بل لا بد بعد المسوغ الشرعي من أن يعوض مكان الوقف بمكان آخر يدا بيد حيث كان ضاع على الاوقاف بسبب مخالفة تلك الطريقة أموال لها بال اذ حررت الاموال التي وجدتها مقيدة بدفاتر القضاة والمفتين بانها ثمن أوقاف عوضت ولم يشتر بثمنها شئ فكان مجموع المال ٢٤٠٠٦٧٣ هذا عدا ما عوض ولم يرسم في الدفاتر وانما كتب في رسوم أصحابه ولم يبق للوقف حجة فيه وهو أيضا كثير ثم ذلك المبلغ أكثره ضاع بالمرة اما لجهل من أمن تحت يده حيث يقال في الرسم وأمن تحت يد من يوثق به أو لانه أمن تحت يد اناس قد ظهر افلاسهم حتى انه مع غاية الاجتهاد انما أمكن ان يستخلص من المليونين ونيف المذكورة نحو مائتي الف ريال فقط واشترى بها أملاك وقفت على مرجعها وزالت اسباب الضياع بسبب ذلك التحجير (ومنها) التحجير على العدول الذين يكتبون رسوم بيوع الاملاك بانهم مهما وجدوا في رسم معاوضة أو انزال أو أي كراء مؤبدا الا وأخبروا به جمعية الاوقاف لكي يحرر بذلك الوقف فنتج من ذلك ظهور أموال للاوقاف تبلغ قيمتها مائات الالوف كما ظهر بالبحث

أيضا

أيضا أملاك أخرى أصلها وقف واستولت عليها أيدى العدوان ورجعت الى أوقافها بالمرافعة والاحكام الشرعية وكان من جملتها نيف وسبعون هنشيرا أى قطعا من الارض المترفة ما بين كبير وصغير زيادة على الزياتين وغيرها من الاملاك التى تتجاوز قيمة المليون (ومنها) ابراء من كانت عليه رسوم فى أموال من المعاوضات المذكورة مقيدة فى دفاتر القضاة مع ان أصحابها دفعوها أواشتروا بها أملاكا رجعت الى أوقافها ولم يكتب على المرسوم فى الدفاتر ذلك حتى لو ضاعت حجة الخلاص على المدين لبقيت رسوم الدين عليه قائمة والحال انه خالص وكان الذى تحرر من ذلك القبيل ما يبلغ ما بين ألف ريال أو تزيد فابرئت أصحابها وعلم على رسوم الدين بالخلاص (ومنها) ان عائلة حاى الصباغ الذى مر ذكره انه كانت له علاقة بالوزير السابق قد نال الحماية من دولة المانيا مع انه تونسى ولم يجر عليه ظلم فتكلم الوزير المذكور مع دولة المانيا بوسائط سياسية الى ان صدر مكتوب منها رسمى بان الصباغ المذكور لا تناله حماية المانيا فى خصوص القطر التونسى بل تجرى عليه أحكام بلاده وانما يكون المانيا اذا كان فى غير ذلك القطر (ومنها) انشاء مجلس مختلط من متوظفى أغلب قنسليات الدول الاجنبية الذين لهم كثرة رعايا فى القطر ورئيسه أحد المتوظفين التونسية للحكم فى نوازل الديون والمعاملات المالية الواقعة بين أهل القطر والاجانب فيما اذا كان لا يتجاوز المال الالف ريال ولم يتخلف عن الدخول فيه الا دولة ايطالية لخلاف وقع فى المقدار الذى يجوز التحاكم فيه لدى ذلك المجلس لان قوانينها انما تسوغ الحكم فى رعاياها على خلاف قانونهم فى مقدار لا يبلغ الا ألف ريال فقط ودامت المذاكرات فى ذلك المعنى الى ان انفصل الوزير المذكور عن الوزارة وحصل من هذا المجلس قطع تشعبات عظيمة وهرج كثير فى الخصام لان الديون القليلة والمعاملات الضعيفة كثيرة الوجود واختلاف الحكم فى بلد واحد من المصائب العظمى فزال ذلك بوجود ذلك المجلس (ومنها) شروعه فى المذاكرة مع الدول العظام على اتحاد الاحكام فى القطر ولما كان يعلم ان دول أوروبا لا ينقادون الى ادخال رعاياهم تحت أحكام الشريعة الاسلامية فى تونس اذا بقيت حالة القضاة على ما هى عليه الآن حيث انه يوجد لكل من المذهب الحنفى والمذهب المالكى قاض مطلق الحكم فى النوازل مع ما يوجد بين المذهبين من الخلاف فى كثير من الفروع بل وفى المذهب الواحد تختلف الاقوال ويكون للقاضى الاجتهاد فى الترجيح والتطبيق باعتبار الاصلح والعرف فيحكم هذا القاضى فى حادثة بما يخالف حكم قاض آخر فى

مثلها والاروباويون يريدون ان تكون الاحكام المدخول عليها معروفة لهم من قبل مضبوطة بما لا يتوهمون معه ميل الحاكم الى غير ما توجبه الحجة فلذلك أحضر الوزير خير الدين القوانين المعمول بها في الدولة العلية المتعلقة بالاحكام وكذلك القوانين المعمول بها في مصر وكلف أحد المهرة العارفين بالاحكام الاروباوية بان يستخرج من أحكامهم ما يوافق حالة القطر وعرفه وبعد ذلك عقد الوزير المذكور مجلسا مؤلفا من شيخ الاسلام من العلماء الحنفية وهو الشيخ أحمد بن الخوجه ومن عالمين من المجلس الشرعي المالكية وهما الشيخ محمد النفير المفتي والشيخ عمر ابن الشيخ قاضي باردو ومن احد الوجهاء العقلاء العارفين باصلاحات البلاد وتجارتها وهو الوجيه حسونه الحداد ليستخرج هذا المجلس من مجموع ما تقدم قانونا شرعيا مطابقا للاحكام الشرعية والعرفية التي عليها عمل القطر من غير تخصيص باحد المذهبين ولكن عاق عن الاستفادة من ثمرة هذا العمل خروج الوزير المذكور من الوزارة فترك المجلس مع ان اتحاد الحكم على سكان قطر واحد ضروري (ومنها) انشاء المدرسة الصادقية لتعليم مبادى الفنون الشرعية كالقراءة والكتابة والقرآن والعقائد والفقه الحنفي والمالكي والنحو والصرف والادب والتاريخ والخط والمعاني وتهذيب الاخلاق والحديث وتعليم اللغات التركية والفرانساوية والطليانية وتعليم الفنون الرياضية كالحساب والهندسة والهيئة والجبر والجغرافيا والفلك ورتب لها معلمين لكل فن وجعلها تقبل مائة وخمسين تلميذا من جميع ابناء القطر المسلمين منهم خمسون تلميذا من ابناء العاجزين عن القيام بهم وهؤلاء يسكنون بالمدرسة وتقوم بهم زيادة على التعليم بالاكل واللبس والمسكن مجانا وأما المائة الباقية فالمدرسة تقوم باكلهم نهارا مرة فقط وبالتعليم مجانا ويلزم ان تكون جميع التلامذة في لبسهم على شكل واحد وأوقف عليها من أملاك الحكومة أوقافا لها بال يزيد دخلها السنوي على المائتين والخمسين ألف ريال وتبع من أبناء البلاد ما شهد لهم به الوافدون من أهل أروبا والحاضرون لامتحانهم ومثل هاته المدرسة ضروري للممالك الاسلامية سيما في العلوم الرياضية التي اضمحلت من الامة وانما خص التلامذة من أبناء المسلمين من خصوص الاهالي لان ابناء الاجانب لا يمكن اجراء التراتيب في حقهم مطلقا الا اذا وافق أولياؤهم والموافقة منهم كانها غير مامونة في كل وقت سيما مع اختلاف الاحكام التي مر ذكرها وأيضا من خصوصيات المنح للتلامذة عند استكمالهم للمعارف ان يتقدموا في جميع الوظايف المحتاج اليها في القطر على غيرهم

وهذا

وهذا انما يليق بابناء القطر اما الاجنبي فانما يتقدم بل يستخدم بخصوصيات أخرى واما تخصيص المسلمين فلان غيرهم بالنسبة اليهم قليل جدا كما مر ذلك في فصل صفة القطر ثم أولئك القليلون لا يرغبون في اتباع جميع تراتيب المدرسة التي منها تعلم العلوم الشرعية التي هي المقصد الاهم لكي يحصل التبصر من علماء الديانة بالعلوم الرياضية و يوفقون ما بين ما يظهر بحسب بادي الامر انه مخالف للشرع من بعض العلوم الرياضية ثم ان الوزير المذكور عزم على ايجاد مدرسة على ترتيب آخر صالح لدخول غير المسلمين فيه (ومنها) تحبيس كتب رجعت للحكومة من صلح الوزير السابق تبلغ نحو ألفي مجلد فالحقها بنحو تحبيس الكتب من أحمد باشا باي الخزائن التي عمرها صدر جامع الزيتونة (ومنها) ما أنشأته بامره من احداث المكتبة الصادقية حول جامع الزيتونة وجعل لها ترتيبا لم يسبق في البلاد على نحو التراتيب الجارية في الاستانة والممالك المتمدنة بحيث لا يخرج الكتاب من المحل و يستنفع المريد بما شاء من الكتب وأنواع الاستنفاع مع تحسين هيئة المكان واحضار فرشه والمحابر والاقلام وساعة للاعلام بالوقت والرسم بان كل الاوامر الرسمية العامة العمل يحفظ منها بتلك المكتبة نسختان لكل من أراد مراجعة ذلك وانتظام وضع الكتب وترتيبها على نسق يسهل الاستنفاع بها ومناولتها وأوقف عليها جميع كتبه العربية وكانت تبلغ نحو ألفي مجلد كما جمع بها سائر الكتب التي كانت مفرقة في الجوامع والمدارس وتلاشتها أيدي التلف حتى ضاع أكثرها فان خزانة الكتب الحنفية بالمدرسة الحسينية وجد بها مكنسة ولم يوجد بها ولا ورقة مع انها كانت تشتمل على مئات من المجلدات وهكذا أغلب الخزائن مع عدم النفع بها الا لمن كانت بيده وهم افراد قليلون يعسر عليهم وجدان الكتاب الذي يريدونه لعدم ترتيب وضعها وضبطها بدفتر واعداد فضبطت وعم النفع بها لكل مريد من المسلمين حتى قال بعض من كانت بيدهم تلك الخزائن أقسم اني الآن استنفع بما كان تحت يدي من الكتب أحسن مما كان عندي (ومنها) انشاء مجلس مكلف بنظافة البلاد كانه شعبة من المجلس البلدي لكنه يزيد عليه بدخول أعضاء من الاجانب لتيسر اداء الاجانب ما يلزم للنظافة وحصل به شئ من النظافة الضرورية (ومنها) انشاء ترتيب للعلوم وتدريسها بالجامع الاعظم جامع الزيتونة حتى لا تهجر علوم ولا يزاد على قدر الحاجة من غيرها وتضبط الدروس وتجرى على الوجه المطلوب للوصول وجعل امتحانا للتلامذة في كل سنة حتى لا يتقدم للوظائف العلمية

الامن قدمته نجابته وتحصيله (ومنها) انشاء ترتيب فى ادارة المجالس الشرعية لقطع وجوه تطويل الخصومات ودفع تعارض الاحكام وتسهيل المراجعة بينهم وتحديد أجرا تباعهم وتعيين محل للحكام الشرعية خارج الحاضرة حيث كان كل يحكم فى مكانه بحيث صارت المحاكم الشرعية معلومة مضبوطة أوقات الانتصاب فيها الى الحكم وان كانت لذلك سابقية فى خصوص الحاضرة من مدة محمد باشا لكن اعتراها الخلل فجدد انتظامها على حسب الوقت (ومنها) انشاء ترتيب لاعمال العدول المنتصبين للشهادة وضبط عددهم بالموجودين وحصر المحتاج اليه فى كل جهة بعدد مخصوص وعدم تولية غير الموجودين الى ان يصل العدد الى القدر المحصور فيه فاذا نقص منه أحد لا يزاد الا بانتخاب أهل الشرع مع ضبط كيفية أدائهم للشهادة وتحملها او كتبها مما يندفع به حصول الزور وتبعد به التهم (ومنها) أحياء ارسال محصل أوقاف الحرمين الشريفين للمستحقين من أهلهما بعد ان مضت على ابطال ذلك سنوات وأكلت أموال تلك الاوقاف على غير وجهها فمنذ ولاية الوزير خير الدين اطرد ارسالها (ومنها) انشاء سجن عمومى للنساء وآخر للرجال على صفة السجون فى البلاد المتمدنة من النظافة وتخلل الهواء والطبيب والفرش الضرورية للنوم ومحل للطهارة ومسجد للصلاة وجعله مقسما على عدة اقسام بحسب الجنايات التى يسجن فيها وبحسب حال المسجون من السن والعرض بحيث صار سجنا لا كما كان مقتلا وان حصر دخوله بمن يحكم عليه بالسجن أما الموقوفون فقد بقوا يوقفون فى السجن القديم فكانوا أشد عقوبة ممن ثبتت عليهم الجنايات ولذلك كان الوزير خير الدين المذكور عازما على احداث محل للايقاف (ومنها) حصر أجر أعوان الحكومة وأتباعها المرسلين فى الاتيان بالجناة فى مقادير معلومة معلنا بها للعموم على حسب الجنايات وبعد مكان المجلوب بحيث صار ذلك القدر معينا بالحكم بمقدار غير مجحف لا كما كان من تفويضه لارادة المرسل الذى كثيرا ما أضر بالجناة بل بالذى تثبت براءته أكثر مما يناله من الحكم (ومنها) جعل خزانة يجمع بها أجر أولئك الاعوان المتوجهين من الحكومة ويخرج منها فى رأس كل شهر أجر معين للاعوان المسمين بالبوابة الذين كانوا يأخذون مقادير ممن يريد الشكاية ويقع بسبب ذلك محاباة فى تقديم بعض المشتكين على بعض ثم يقسم الباقى على الاعوان الاخر الذين فى نوبة الخدمة على حسب رتبهم وحصل بذلك تعادل فيما

يحصل

يحصل للاعوان وتحسين فى هيئتهم وشارتهم لانه قبل ذلك كان المقرب عند رئيسهم يحصل على مال كثير وغيره يبقى على الاعدام مع اتحاد الوظيفة (ومنها) ان من يجلب من المشتكى بهم وتثبت براءته لا يؤدى أجر جالبه سواء كان فى مال أو جناية فان كان للمشتكى شبهة راجحة فى شكايته لا يؤدى هو أيضا الاجر ويحسب المتوجه فى النازلة كان لم يتوجه فيها ويعاد توجيهه فى نازلة أخرى لان أجره فى الواقع يخرج من عموم مافى خزنة الاعوان والا بان ظهر تعمد المشتكى للباطل فهو أحق بالحمل عليه (ومنها) حصر أجر مايكتب من التسجيلات فى خصومات الاهالى على أيدى العمال فى مقدار معين وهو ريالات ١٢٢ بحيث لم يبق الامر على مشيئتهم الذى كثيرا ما كان سببا لامتداد أيديهم لاموال الاهالى (ومنها) الامر بعدم التشديد فى توثيق الكفاف على من يجلبه أعوان الحكومة من الجناة اذ كان وسيلة لهم فى التوصل الى المال (ومنها) ابدال السكة الفضة التى كانت ناقصة فى الوزن ومن كانت فى يده تبدل له فى الحال بسكة الذهب الكاملة يدا بيد على خلاف ما سبق كما مر ذلك فى واقعة الفلوس النحاس (ومنها) ضبط العرف الجارى به العمل فى الفلاحة التى هى اهم اشغال أهل القطر ومورد ثروته وضبط مايتعلق بشركة الخماس فى قانون معروف يرجع اليه عند الحاجة وقد كان من قبل لا يعرف له مرجع الا الاستخبار من افراد أصحاب الفلاحة وكثيرا ما يقع بينهم الاختلاف فى الاخبار عن العادة والعرف حتى يحتار الحاكم فيما يحكم به (ومنها) ترتيب مجلس التحفظ العمومى على النحو الجارى به العمل فى الممالك المتمدنة وجعل له قانونا خاصا يرجع اليه وأدخل فى اعضاء المجلس اعيانا من موظفى الحكومة مع قناصل الدول الذين هم اعضاء لذلك المجلس (ومنها) انشاء ترتيب لكيفية أعمال العمال فى مواصلاتهم مع الحكومة وضبط مكاتيبهم وأحكامهم فى دفاتر لتكون حجة فيما يراد الرجوع اليه وليعلم الداخل للوظيفة ماهى أعمال السابق عليه هذا وأما ما يرجع الى تحسين مالية الحكومة والاهالى فقد شدد النكير على العمال وسائر المتوظفين وحصر أوجه الدخل والخرج وبناها على ميزان سنوى على نظر قسم النظر من الكومسيون المالى وضبط كيفية القبض من الرعايا بان كل من يدفع ماعليه من المال المعين الذى استوت فى معرفة مقداره الاهالى جميعا يأخذ بيده حجة من نوع خاص من البطاقات على شكل خاص مختومة من شيخ القبيلة أو عاملها مقطوعة من دفتر خاص بذلك بحيث يبقى نصف الرقعة فى الدفتر مرسوما بها نظير ما بيد صاحب المال لينضبط الاستخلاص ولا تمتد

الايدى الى الاموال ومن خالف ذلك عوقب على حسب جنايته ثم خفف كثيرا من الاداء على السلع الخارجة من القطر الذى هو الامر المعقول لتكثير الثروة فى القطر بنفاق نتائجه واستعواضها باموال غيره وذلك يحصل بترخيصها وتسهيل نقلها واخراجها فصدر لذلك مكتوب الوالى للقناسل معلما بما ياتى بيانه (الاداء على البضائع)

ما كان سابقا	ما استقر عليه الحال	
ريالات	ريالات	
٢٠	١٠	قنطار الشمع
٤٠	٣٠	الصوف المغسوله عدا ما يؤدى للقمرق ودار الجلد وهو ٤
١٢	٦٠	قنطار الجلد القريق
٣٠	١٠	قنطار الصوف بونتوف أى المركبة من المغسولة وغيرها
٢٠	١٠	قنطار الصوف غير المغسوله عدا ما للقمرق ودار الجلد وهو ٢
٢٥	١٠	قنطار التمر الدقلة
٦٠	٣٠	قنطار التمر الحرة
٦٠	١٢	تمر قابس
٠٢	٠٢	البسر
٣٠	١٠	جلد المعز
١٥	٠٨	بطانة الغنم أى جلدها
٣٠	١٠	القطن الغير المصنوع
٣٠	١٠	النيله
٠٥	٠٥	القماعة كاصله نوع من الابزار
٠٤	٠٤	القنطس مثله
٢٥	١٠	العسل
٦٠	٣٠	النشاف أى الاسفنج المغسول
٤٠	١٠	الغوه نوع من الصبغ
٧٢	٠٣	الحنة
٢٥	١٠	القرنيط نوع من السمك

ما كان سابقا ريالات	ما استقر عليه الحال ريالات	
١٠	٠٥	رطل العلق أى دود الماء يستعمل لامتصاص الدم من الانسان فى الامراض
١٥	٠٥	قنطار بيض السمك ولحم التن
١٥	١٥	قنطار القشاف أى الاسفنج غير المغسول كاصله
١٥	٠٧	قنطار النحاس أسقط عنه الاداء بالمرة قنطار الصابون
١١	٠٨	صابون سوسه مع ان اداء الطبخ داخل فى ذلك
٠٠	١٦	الزيت وقد كان من قبل يؤدى بالمطر فصيره وزنا

وعلى النسبة المذكورة وقع التخفيف على مصنوعات الصوف والقطن فى جربه التى هى أعز صنائعها على ما مر فصار على ما يأتى

على ما يباع من الغزل	٦	فى المائة
على ما يخرج من جربه الى مراسى المملكة	٣	فى المائة
اداء للعامل على كل شدادة من المصنوعات	٣	ريالات
على ما يباع من المصنوعات	٦	فى المائة
على كل شداده للزام	١٢	ريال ونصف

(ومنها) انشاء مراكز للقمرق فى جهات الحدود لضبط القمرق (ومنها) انتساق دفع المرتبات لاصحاب الوظائف سيما الوالى وآل بيته بحيث يقبضون مرتباتهم من أول الشهر الا ما ندر اما الوالى فلم يتخلف مرتبه ولا شهرا واحدا عن ميعاده وقد حصل فى بعض السنين زيادة فى الدخل عن المقدار المعين للمصروف فاشترى به مقدارا من دين الحكومة لذاتها لأنه مما يرجع الى مجلس الادارة النائب عن أصحاب الديون واستفادت منه الحكومة فى وقت قلة الدخل لكن لم تتم الفائدة حيث ان بعض المغرضين سعى فى اسقاط اعتبار مالية الحكومة على ما سيأتى بيانه فلزم لرفع ثمن سهام الدين اقراض الحكومة بعض التجار لتظهر الرغبة فى شراء الرقاع بما يطمئن به التجار فرهنت الرقاع المشتراة للحكومة لذلك القرض ولم ينفع ذلك فى ارتفاع الثمن بل زاد فى الانحطاط الى ان خسرت الرقاع بالمرة وبيعت فيما رهنت فيه وأفلس التاجر الذى أقرض المال ومما

حصل من أعمال هذا الوزير مدة ولايته جعل مراكز من العربان فى الطرق المخيفة واعفاء أصحاب المراكز من الاداء الموظف على بقية السكان واجراء شئ من الحبوب اليهم على ان يعمروا تلك الجهات ويكونوا مطلوبين بما يحصل فى أماكنهم من الجنايات على المارة حيث انهم هم الحارسون وبذلك وبانفاذ الاحكام من غير محاباة امنت السبل واستقر الامن حتى صارت القوافل والفرادى فى الامن وعدم الخوف سواء (ومنها) الاحسان الى المحسن من الاهالى بامنه فى ماله وعرضه ونفسه وان كان مرقابعدة انتباه الوزير واجراء العقاب بلا ضعف على من يحب الراحة ولا يطيع أوامر الحكومة حتى انه لما ظهر من فرقة من قبيلة الهمامه عصيان وتحير للامن بانتهابهم لغيرهم من القبائل واخافة السبل وجه لهم معسكرا تحت رياسة وزير الحرب رستم وزجرهم وعاقبهم عند ما ظهر واحربه وارجعهم الى الطاعة وأمن تلك الجهات وعند مارجع للحاضرة وعلموا باستقراره عادوا الى ما كانوا عليه ظنا بعجز الحكومة عن ارسال معسكر أثر السابق فلم يكن من الوزير خير الدين الا ان وجه عليهم فرقة من العساكر الفرسان المسمين بالحوانب والصبائحية مع أوامر ان يمرون عليهم من قبائل العربان بان يتوجه معهم فرسانهم فى أقرب وقت لردع البغاة فلم تكن الا بضعة أيام حتى عاقبوا البغاة وخضدوا شوكتهم بما استقر معه الامن منهم الى الآن وبمثل هاته الشدة فى ابانها والرفق واللين فى ابانه خضعت القبائل وبادروا الى دفع أموال الحكومة فى ابانها ونفذت أوامر الحكومة فيهم وانقادوا لها بطيب نفس لاجرائها العدل فيهم بما لم يبق لهم معه خوف من امتداد الايدى الى مكاسبهم فاقبلوا على العمران وكثرت ثروتهم حتى ان فى العام الثانى والثالث من ولاية هذا الوزير كثر شراء الاعراب للحلى من الفضة لما سبق من عدمهم منها وتكاثر ذلك تكاثرا فاحشا الى ان صار الصياغ لا يوفون بحاجهم وصارت دار السكة كل يوم تضع علامة السلامة والصحة مع المصوغ المذكور بما يبلغ وزنه الى عشرات أو مئات القناطير الى ان كتبت اخباره فى الصحف العربية والاروباوية (ومنها) جعل صندوق مقفول له منفذ لوضع المكاتيب فيه لمن أراد رفع نازلته للوزير أو انهاء مصلحته بان يشرح مقصوده ويبين دليله ولا يلزمه التصريح باسمه ليسهل رفع المظالم وعدم الخوف وجعل مفتاح المحل الذى يمكن وصول كل الناس اليه عنده والتزم ان يفتح هو بنفسه جميع المكاتيب ويوقع عليها بما يراه من الملاحظات فيها ويوجهها لاحد أقسام الوزارة الراجعة اليها النازلة بحيث تكون النوازل على ذكر منه لكى لا يقع التحريف فى تلخيصها

أو

أواهـما الهامما ربما يمكن ان يحدث فى بعض النوازل وان نسب اليه بعض المتوظفين فى ذلك عدم الثقة ببعضهم وحب الاستبداد بكل الاشغال وهو يقول انه انما جعل التعب على نفسه ولم ينقص من مراتب المتوظفين شيأ الا عدم القدرة على فتح المكاتيب الا باذنه (ومنها) تحسين حالة مطبعة الدولة التى هى ضرورية فى هذا الزمان لطبع الكتابات الرسمية وغيرها مما يعجز عن الوفاء به الكتاب وتيسير نشر الكتب فى الفنون ليسهل تناولها بالثمن اليسير ويتوصل للانتفاع بها ذوا الجدة وغيره الذى هو من أعظم الاسباب لترقى الامة فى المعارف والعلوم وهكذا تحسين ادارة الرائد التونسى الذى هو الصحيفة الرسمية للحكومة وصار صدوره موقتا مثل سائر الصحف بعد ان كان لا يخرج منه الا عدد يسير ربما بلغ النصف أو أقل مما يلزم خروجه سنويا والحال انه أسبوعى ثم الافادة فيه بافكار الوزير فى المسائل السياسية بما كان ينشر فيه من المقالات المرشدة الذى هو ضرورى للحكومة فى ايقاظ أهلها والسكان وارشادهم لما تراه بالطف الى غير ذلك من فوائد الصحف على ما سيأتى فى الخاتمة ان شاء الله تعالى زيادة على نشر الاوامر الرسمية ليستوى فى معرفتها القريب والبعيد ودليل ما ذكرناه اختلاف معنى الرائد بعد خروج الوزير من الوزارة عما كان من شحنه بالمقالات السياسية كمقالة المدار على الرجال غيرها مما هو كثير والزم المتوظفين بقراءته وأخذه اذ يقبح بالمتوظف ان لا يعلم أحوال حكومته فضلا عن غيرها بل ذلك شرط فى المتوظف فى الممالك المستقيمة (ومنها) جعل خزائن لمكاتيب الحكومة وجمع العتيق منها على ترتيب يسهل به معرفتها والتوصل اليها فى أقرب وقت وذلك من أهم الامور (ومنها) تعميم أمر تعظيم المولد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بجعل له مواكب فى جميع البلدان بالقطر مع اطلاق المدافع عند الوقوف لسماع الابيات (وهى قوله)

قابل لمدح المصطفى الخط بالذهب * على ورق من خط أحسن من كتب
وأن تنهض الاشراف عند سماعه * قياما صفوفا أو جثيا على الركب
اما الله تعظيما له كتب اسمه * على عرشه يا رتبة سمت الرتب
فقم أيها الراجى لنيل سعادة * قيام محب صادق الحب والادب
ففى الذكر لاسم الحب احضار ذاته * بقلب له فى الحب وجد له لهب
ورب جليل عظم الناس ذكره * فكيف وهذا سيد العجم والعرب
عليه صلاة الله ثم سلامه * يكونان للرضوان من أعظم السبب

وعمل جميع مايعمل مثله فى الحاضرة على نفقة الحكومة (ومنها) تحرير المكاييل والاوزان وتحريره كال الجبس أى الجص (ومنها) انشاء محل الفازيه لجمعية انكليزية فى الحاضرة (ومنها) انشاء بطحاء القصبه وتحسينها وانشاء قصر للوالى على الوجه المطل على البطحاء المذكورة من قصر المملكة الذى بناه حموده باشا واكمال بناء السوق المحيط بالبطحاء المذكورة وتعميره بتجار من الاهالى وترغيبهم بالشراء منهم والجلوس بحوانيتهم وقدوم الوالى اليهم فى بعض ليالى المواسم وتحسين الحصن المطل على البطحاء المذكورة (ومنها) فتح باب للجامع العتيق الكائن بالقصبة على الطريق العام حتى عمر بالمصلين وانتفع به المسلمون وقد كان من قبل لا تكاد تصح فيه جماعة لان له بابا واحدا داخل القصبة وقد خليت من السكان منذ زمان (ومنها) تدارك السور الخارج المحيط بالحاضرة بالاصلاح فأصلحته من الاوقاف وأصلحت الحصون المحيطة بالحاضرة وكذلك أغلب حصون البلدان التى بها حصون كصفاقس والقيروان وسوسه وغيرها و(منها) انشاء بطحاء عظيمة خارج باب البحر واستقامة الطريق الموصل منها للبحيرة وهكذا انشاء عدة طرق فى البلاد واصلاح غيرها (ومنها) العناية باحياء صناعة النقش حديده أى النقش على الجص المطلى على الحيوط والقباب التى هى أغرب صناعات تونس والمغرب فى المبنا وقد انعدم صناعها من البلدان فجاء عارف بها من المغرب فجعل له الوزير خير الدين اجرا وصاحبه بعدة اناس من الاهالى وأحسن اليهم الى أن تعلموا الصناعة الغريبة بعد اندثارها والحاصل انه أجرى مصالح عديدة ومن أعظمها قطع مادة الرشا وبيع الوظائف الذى هو أساس العدل حتى غت المكاسب وانكفت أيدى المتوظفين الا ماكان على وجه الاختلاس مما لا يمكن التحرز منه ولم يرفع أمره اليه أو لم ينتبه بواسطة من الوسائط اليه بحيث يقال فى مدة ولايته فى القطر ان حكومته استبدادية عادلة ناحية منحى الشورى لان أغلب ما مر ذكره من الخصال كان يعقد له مجلسا من اعيان الاهالى أو أعيان المتوظفين أو العلماء والاغلب ان تكون تحت رياسته ولا يتم امرا الا بعد التوافق والتدبير فيه وأحبته الاهالى واعترفوا بفضله سيما وقد أتاهم بعد شدائد مر ذكرها حتى انه لما تم امتحان تلامذة المدرسة الصادقية فى السنة الاولى ورأى اباؤهم مالم يعهدوه فى التعليم اظهروا ممنونيتهم وشكرهم بان اتخذوا مصحفين كريمين وجعلوا لهما سفرين فاخرين وكتبوا على الاول منهما بالياقوت الابيض على احدى الدفتين المحفوظ بالسور والآى وعلى الثانية محمد الصادق باى وعلى الثانى منهما بالياقوت الابيض

الابيض أيضا على احدى الدفتين الناصح الامين وعلى الثانية الوزير خير الدين وذلك اللقب هو الذى جرى التعارف فى اطلاقه عليه عند أغلب الاهالى ودفع ثمن ذلك ابناء التلامذة من انفسهم كل على قدر ثروته فمنهم من دفع ريالا واحدا وهو مافى وسعه وتكدر ان لم يؤخذ منه ومنهم من دفع عدة آلاف وأهدوا المصحفين للوالى وللوزير مع خطبة مفصحة عن الباعث على ذلك وهو نتايج المعارف لابنائهم ثم بعد سنتين اجتمع اعيان من التجار البلدية وغيرهم من اعيان العربان وبعض أصحاب الاملاك المثرين وصنعوا فى لندره مكتبة أى مائدة للكتابة من خشب رفيع مذهبة وملونة وادواتها من ذهب وعليها ميزان اشارة الى العدل وكتب عليها اسم الوزير خير الدين واهدوها فى رأس العام الى الوزير المذكور مع خطبة مفصحة عن الباعث وهو ماحصل من ثمرة أعماله فى عموم القطر حتى ازدادت الثروة وغلت اسعار الملك وراجت التجارة وهكذا كانت علقة سياسته فى الخارج على سلم وهناء ولم يحدث مع احدى الدول أدنى صعوبة ولاظهر من أحد القناصل تشدد فى نازلة مامن متعلقات دولهم ورعاياهم مع أن بعضهم كان ينفر من ذاته لصحبة أو منفعة له من الوزير السابق ومع ذلك لم يجد شيئا يستند اليه فى انشاء صعوبة أو تعكير هناء ولم يعترض على ماحدث مدة ولايته فى الداخل أو الخارج الامايأتى بيانه وهو اعطاء منحة لشركة فرانساوية فى احداث طريق حديدية من حاضرة تونس الى الجهة الغربية فانتقم هذا العمل بان سياسة فرانسا فى تونس معروفة وذلك الطريق يؤل الى تسهيل استيلائها على البلاد وهنا العقول على فرقتين فبعضهم يرى السهولة من تسهيل نقل العساكر من الجزائر الى تونس فى أقرب وقت ومنهم من يراها بالتسهيل المعنوى وهو زيادة النفوذ والاختصاص بالمتجر بل يقول بعض الانكليزيين ان مراسى تونس تصير خالية وتصير عنابه أى بونة هى مرسى تونس وهى فرانساوية وذلك لان السلع التى توسق من تونس لاتدخل الى فرنسا الاباداء بليغ عليها فى مراسى فرانسا بخلاف ما يوسق من مرسى عنابة فانه اذا دخل الى مراسى فرانسا لايؤدى شيأ فيكون سببا فى التزام التجار توجيه البضائع الى عنابة وتبقى مراسى تونس خالية وزاد المعترضين قوة فى أن المقصد بذلك الطريق أمر سياسى ان الاتفاق فيه تم فى أقرب وقت حتى أشاعوا أنه وقع من غير استشارة بقية الوزراء هذا مدار الاعتراضات ونحن نقص قصص ماوقع فى النازلة وأحوال متعلقاتها ونكل الحكم فيها الى المطالع وهو أنه فى سنة ١٢٩١ قدمت شركة انكليزية وطلبت منحة لاعمال الطريق حديدية بين تونس ودخلة جندوبه فى الجهة

الغربية من القطر المعنية بافريقية التي هي أهم الجهات في الفلاحة على ما تقدم بيانه في الفصل الاول من الباب الثاني من المقصد على ان تمر الطريق حذو بلد باجه وتصل الى معدن دجبه المركب من الرصاص والفضه وتختص بتشغيله على أن يكون للحكومة قسط من دخله بعد طرح المصاريف فقسطها يكون من الربح وحيث كانت منافع طرق الحديد في الممالك من أعظم أسباب عمرانها على ما سيرد ان شاء الله في الخاتمة وكانت تونس من أحوج الاقطار اليها لعدم وجود الانهر والترع التي تمكن بها المواصلة بل ولا مجرد الطرق الصناعية وكانت نتايج الزرع في الاماكن الخصبة يتعذر نقلها بل يستحيل زمن الشتاء والوحل وكان نقلها في زمن سهولة الطرق يكلف مصاريف باهظة ربما لا يوفي بخلاص اثمن الحبوب عند بيعها حتى كان الشعير لا يجلب من تلك الاماكن لمراسي المملكة ولا للبلدان أسواقه لعدم وفاء ثمنه بأجرة حمله فضلا عن التبن فان كلا منهما يترك في مكانه الى ان يضيع على أصحابه ولا زال مثل ذلك الى الآن في جبال ماطر وغيرها بل وكان جلب الحبوب من الاماكن الاجنبية في البحر أيسر وأرخص من جلبها من داخل القطر ورايت في رسالة كابيزول القنسل الفرانساوي بثغر حلق الوادي من تونس التي ألفها في التعريف باحوال القطر ما معناه ان هاته البلاد التي كانت تسمى بمخزن حبوب أروبا في الزمن السالف ها هي الآن يجلب اليها القمح من خارج ويباع بارخص مما يجلب من داخلها حتى كان ذلك سببا في تعطيل أكثر أراضيها وفقر أهلها (الخ) ولقد صدق في ذلك وكان تأليفه لتلك الرسالة في حدود سنة ١٢٨٠ التي مر تفصيل أهوالها فلما ذكر كان احداث الطريق الحديدية ضروريا للقطر فبقي الكلام فيمن يصنعه والامر منحصر في ثلاثة أوجه الاول ان تصنعه الحكومة وقد علمنا مما مر ان أغلب ماليتها راجع للاجانب بسبب ديونهم وما بقي من دخلها انما يوفي بضروريتها التي لا مندوحة عنها فلا سبيل لها لاعمال الطريق المذكورة لما يلزمها من كثرة النفقات (والوجه الثاني) ان يتولى عملها الاهالي وهذا أيضا اما متعذر أو صعب جدا لان سابقية الفقر فيهم قد أخذت مأخذها وما تراجع لهم من بعد لم يكن موفيا بالمقصود وعلى تسليم اقتدارهم فانهم لا يلتفتون الى ذلك (اما أولا) فلعدم معرفتهم بفوائد الشركات لان مثل ذلك لا يوفي به قدرة الواحد وقد علمنا ان فتح أبصارهم لمثل العلوم الرياضية والاقتصادية والمدنية انما كان بعد ذلك التاريخ وعلى فرض حصول مبدأ التعليم من قبل فلا بد له من زمان ليرسخ ويعمل به (واما ثانيا) فانهم لا يأمنون على اظهار أموالهم وما بالعهد من قدم قد

رأوا

رأوا نقض عهد الامانة الملتزم به بعهد الله وشهادة الدولة العلية وسائر الدول الاجنبية وحرص دولة فرانسا فى اتمامه ورأوا باعينهم كيف جرى قتل النفوس وتعذيب الابدان واستئصال الاموال فما هى قدرة الوزير وحده فى حفظ حقوقهم وأمنهم وهل ذلك الا موقت بوقت تصرفه على انه من الضامن لهم فى بقاء الوزير على ما هو عليه وهل هو الا بشر قابل لتغير الافكار وبهذا يعلم أيضا عدم امكان حمل الاهالى غصباً على منفعتهم فى ذلك الطريق من الوزير خير الدين ولانه كان لهم فيه نفع لكنه يظلمهم باتلاف أموالهم لما أشرنا اليه بل ولو بجامع ما يتوقع من استيلاء الحكومة على مداخيل الطريق والتداخل فى ادارته لا يدوم شغله كما حصل بالفعل فى معمل الملف الذى كان انشاه أحمد باشا ويؤيد ذلك ما حصل من الخلل فى أشياء أسسها هو مما مر ذكره وسيأتى كيفية خلله فتعين حينئذ (الوجه الثالث) فى أعمال الطريق الحديدية وأعمالها يد لها اقتدار على المال وتأمن عليه وليس ذلك الا الاجانب ولما قدمت الشركة الانكليزية المار ذكرها وطلبت تلك المنحة عقد الوزير عدة مجالس من بقية الوزراء والمستشارين وكان بعضها تحت رياسة الوالى نفسه وتفاوضوا فى مصالحها مما مر ذكر بعضه واستقر الرأى على عقد الاتفاق مع تلك الشركة فى احداث الطريق المذكورة سيما وقد سبقت شركة انكليزية لاحداث طريق بين الحاضرة وحلق الوادى وتم الاتفاق على شروطه التى منها ان للشركة ان تمد فروعاً من الخط الاصلى يميناً وشمالاً كل فرع طوله خمسون ألف متر وأى نحو خمسة وأربعين ميلا أينما أرادت ومنها انه اذا مضت سنة ولم تشرع الشركة فى العمل يفسخ العقد فشرعت الشركة فى جمع المال لذلك غير انها لم تنجح لان الانكليزيين ليس لهم هم فى تجارة تونس ولا فى سياستها ولا يصرفون المال الا بغلبة الظن فى الربح وقد علموا ان الطرق الحديدية غالباً فى أول أمرها تخسر وشاهدوا فى طريق حلق الوادى عدم الربح الذى أطمعوهم فيه فبعد انقضاء الاجل طلبت الشركة أجلا ثانياً لعلها تحول الرغبة فلم تحصل على شئ وآل أمرها ان طلبت من حكومة تونس ان تتعهد لها بربح خمسة فى المائة على ما تصرفه فان وفى دخل الطريق بذلك أو زاد فهو لها وان نقص أو لم يحصل شئ فالحكومة تلتزم بايفاء الخمسة فى المائة أو ان الحكومة تدخل شريكة مع الشركة المذكورة بالربع من رأس المال ولا يخفى ان ذلك لا يتيسر لان الوزير خير الدين على علم من ضعف مالية الحكومة ومن خسارة الطرق فى أول أمرها ومن الشك فى حصول الربح من المعدن ومن صعوبة المحاسبة والاحتساب مع الاجانب

مع اختلاف الحكم زيادة على كون مثل ذلك لايتم الا بموافقة الكومسيون المالى الذى هو المحتسب على مالية الحكومة من الاجانب فرفض مطلب الشركة الانكليزية المذكورة وفسخ الاتفاق معها واشتهر ذلك فجاءت فى أثره شركة فرانساوية وهى المدعاة الآن بشركة بون كالمة وطلب زعيمها من الوزير خير الدين احالة الاتفاق الذى فسخ مع الشركة الانكليزية لعجزها الى الشركة الفرانساوية المذكورة بلا اشتراط الضمان المذكور لكن على شرط ايصال الطريق بطريق الجزائر فاجابه حالا بعدم تيسر ذلك لجلبه مسائل سياسية لاداعى لفتحها فرجع الزعيم وقال نكتفى بالحلول محل الشركة الانكليزية التى سمعتم لها وارتضيتم بشروط الاتفاق معها فذلك الاتفاق يحال الينا فاجابه بانه يعرض المطلب على الوالى وأخبر الوالى وعقد مجلسا مركبا من سائر الوزراء والمستشارين الا الوزير حسين حيث كان فى بلاد فرنسه لخصام ورثة القايد النسيم واستقر رأيهم على نقل المنحة لما تقدم من البواعث والاسباب ولان الامتناع من خصوص الفرانساويين بعد حصول المنحة لغيرهم وعدم الفرق فى الشروط ربما لا تسوغها المعاهدات والحجاج نعم وان كان هنالك فرق فى سياسة أصل كل من الجنسين لكنه لايمكن الاستناد اليه فى الحجاج سيما وصريح المعاهدات مع الدول قائل ان كل منحة أو امتياز أو اعتبار يحصل لاحد الاجناس يكون للجنس المعقود معه المعاهدات مثله بل فى بعضها يقول انه يكون له مثل الجنس الاكثر اعتبارا (الخ) فكيف مع ذلك كله يمكن الامتناع ولذلك أحيل الاتفاق المشار اليه الى هاته الشركة مع زيادة التحرى فى شروطه للحكومة فكان مما زيد على الشروط السابقة ان قسط الحكومة الذى تأخذه من المعدن يكون من ذات الخارج قبل طرح المصاريف ومنها ان الجهات التى تمد اليها الفروع يلزم الاتفاق فيها من قبل العمل مع الحكومة على المركز المنتهية اليه وعلى محل المرور ومنها ان لا توصل الطريق بطريق الجزائر وعند هذا الشرط طلبت الشركة المذكورة ان يزاد أيضا وان ليس للحكومة ان تمنح الوصل بالجزائر لغير الشركة المذكورة فزيد ذلك بحيث ان المنحة كانت خاصة بمثل منحة الشركة الانكليزية مع زيادة شروط لفائدة الحكومة ولم يقع الايصال ولا طلبه مدة الوزير المذكور وانما وقع فيما بعد على ما يأتى شرحه فى المطلب الثامن ان شاء الله تعالى ويشهد لما فى ذلك من المنافع وعدم المضرة المكتوب الذى أرسله قسم النظر من الكومسيون المالى الى الوزير خير الدين أثر انعقاد الاتفاق ونصه سيدى فان اعضاء قسم النظر من الكومسيون المالى رأوا ان

من

من واجبات مأموريتهم ابداء سرورهم لجنابكم بالاتفاق المنعقد في هذه الايام على احداث طريق حديدية بين الحاضرة و وطن باجه لان ما يلزم لنقل نتايج الوطن من المصاريف الباهظة عطل وسق النعمة فكادان يبطل أهم فروع متاجر المملكة مع الاقطار الاجنبية فكان من الاكيد ازالة هذه العوائق بتيسير اشتغال الفلاحة والمعاملات وقد عرض فيما سبق قسم النظر على جنابكم صورة احداث طريق اعتيادي بين الحاضرة والوطن المذكور رجاء لحصول الثمرات الاكيدة فلما وقع الآن ما تؤمل به اتمام هذه المصلحة بما لا يثقل مالية الدولة مع استيفاء الشروط الواجب اعتبارها في مثل هذه المشروعات صار فرضا علينا نظرا الى مصالح البلاد التي هي لا محالة مصالح أهل المملكة والاورباويين المستوطنين بها على اختلاف أجناسهم كما هي مصالح أرباب الدين ان نهني جنابكم باتمام هذا المقصد المبارك ولم يبق لمحبيكم الآن يؤملوا المناجزة فيه في أقرب وقت بحيث تستكمل به رغبة الاهالي فيرون ان شاء الله اتساع نطاق التعامل ونمو أسباب العمران في تلك الجهات و يفتح ما بقي مرتجا الى الآن من أبواب الفلاح وموارد الثروة وهذا أول ما ترتبط به فيما بعد سائر جهات المملكة من الطرق السهلة السريعة فلا حاجة (حينئذ) الا المداومة ومساعدة الوقت لتجديد شباب المملكة وفلاحتها والصناعة والمالية بها فيتم بذلك ما لم يزل جنابكم ساعيا فيه حق السعي منذ ثلاث سنين من تعمير هذا القطر والكتب من معظمي السيادة أعضاء قسم النظر من الكومسيون المالي في ٢٠ مايه المسيحي سنة ١٨٧٦ وصحح من الاعضاء الانكليزيين والطليانيين والفرانساويين فلو كان في تلك الطريق ما يخل بالسياسية لما صحح الانكليزيون والطليانيون لان ذلك مباين لسياستهم ولو فرضنا جهلهم بها لنبههم أهل سياستهم لكي يكون لهم مستندا يوما ما بل ان أهل سياستهم لم يتعرض منهم أحد رسميا لذلك على ان توهم الاستيلاء الحسي بمجرد الطريق المذكورة من الفرانسيس ليس هو الا وهم لان قوة فرانسا ومنعها من الاستيلاء على تونس ليس هو لتوقفها على صعوبة الطريق فان بين مرسى عنابه ومرسى حلق الوادي مسير اثني عشر ساعة فقط بالبوابر في البحر بل ان مرسى ابن زرت لا تبعد عليها أكثر من ثمان ساعات وسفن فرانسا التي توصلت بها من فرانسا الى الجزائر بل ومن فرانسا الى سانيغال بافريقية الغربية والى كنبوديا بالهند الشرقية لا يصعب عليها قطع تلك الساعات (تنبيه) قد أيد هذا الرأي ما حصل بالفعل في خارج

القطر من هجوم عساكر فرانسا براو بحرا على القطر سنة ٩٨ ولم تركب ولا فرقة منهم طريق الحديد المذكورة مع وصولها الى حدود الجزائر وأما الاستيلاء المعنوى فان كان المراد منه زيادة النفوذ وزيادة المتجر فسيأتى عليه الكلام فى المطلب الثامن ان شاء الله وان كان بالمعنى الذى مرنقله عن أحد الانكليزيين و بقاء مراسى القطر خالية فهو مدفوع بان السلع التى تؤدى عند دخولها الى فرانسا تصير تؤدى ذلك فى حدود الجزائر وغاية الامران يتبدل الطريق ومحل الاداء وأما ذات الاداء فهو واحد وبه يتحد ثمن البضائع سواء شحنت من هاته المراسى أم من هاته وقد اجتمعت فى موطن مع الوزير خير الدين بعد الاتفاق المذكور وشيوع ذلك الاعتراض بما تقدم ذكره فذاكرنى فى دفعه بما يقرب مما شرحناه وزاد فى الجواب وهو متبسم بان قال ان الاعتراض بان مآل ذلك الطريق هو اخلاء مراسى القطر التونسى وانحصار الشحن فى مراسى الجزائر (الخ) هو مما لا يقوله الا جاهل أو متجاهل بما ينشأ عن الطرق الحديدية من العمران وسهولة المواصلة مما يكفى فى البرهان عليه الوجود الخارجى فى الممالك الحاوية لتلك الطرق والخالية عنها فان ازدياد عمران الاولى وتوفر مكاسبها وعكس ذلك فى الثانية مما يغنى فيه العيان عن البيان فاما المتجاهل فالكلام معه ضرب فى العبث وأما الجاهل فجوابنا له ان المضرة من نقل البضائع بطريق الحديد الى الجزائر على ما قالوا لا تخلو اما ان تحصل للاهالى أو للحكومة فان قلنا انها للاهالى بالنظر اليهم فرادى فالجواب ان الافراد مدار نفعهم على زيادة أسعار بضائعهم بقطع النظر عن المحل المشحون منه وذلك لا يحصل الا بتسهيل النقل المنحصر فى طريق الحديد نعم اذا خشى من خروج النتايج الغلاء فى البلاد فللحكومة منع الاخراج من أى طريق كان سواء كان من مراسيها أو من الحدود البرية وان قلنا ان المضرة تحصل للاهالى بالنظر لمجموعهم من حيث نفع الوطن فهو يرجع (حينئذ) الى منع الحكومة فيكون الجواب شاملا لكليهما معا وهو ان مضرة الحكومة مندفعة بما تقدم شرحه من أخذها اداء الشحن الى خارج القطر سواء خرجت النتايج من المراسى أم من الحدود البرية على السواء بل نقول ان بالطريق الحديدية يحصل النفع ودفع الضرر فى خصوص الاداء المذكور بخلاف وقت انعدام الطريق وبيانه ان الحدود ما بين تونس والجزائر ممتدة على جميع طول الحد الغربى للقطر التونسى المتجاوز أربعمائة ميل وأغلب سكانه اعراب رحالة يتكسبون بما يحملونه على ظهور ابلهم فاذا وجدوا اثمان النتايج أغلا فى الجزائر لدخولها الى فرانسا

بدون

بدون اداء لاشك انهم ينقلون نتائجهم الى المحل الذى تسوى فيه أ كثر من غيره كما هو واقع ويتحملون غلو الكراء بالحمل على الابل لاجل ذلك فاذا جعلت الحكومة مراكز لاخذ الاداء عند الاخراج من الحدود لا يخلو الحال اما ان تجعل المراكز على طول خط الحدود أو تجعلها فى اماكن مخصوصة هى اكثر وروداً من غيرها (فاما الاول) فهو ممتنع لكثرة ما يلزمه من الحراس الذين لا يوفى بمؤنتهم مدخول ذلك الاداء (واما الثانى) فلا يحصل منه المقصود لانه لما كانت جهات الحدود كلها سواء فصاحب النتائج يتحمل مسير نصف يوم زائد على جهة مركز الحراسة ويخرج نتائجه بدون اداء شيء فتلخص من ذلك ان النتائج تخرج الى الجزائر دون اداء للحكومة التونسية بخلاف ما اذا وجد طريق الحديد فان رخص الحمل فيه يعادل اضعاف الاداء على النتائج للحكومة فالاهالى تعدل عن الحمل على ظهور الابل لغلوها وتؤدى اداء الحكومة فى مركز الطريق الحديدية ولا يضرهم ذلك لانهم يربحون ما توفر لهم من الكراء مع قرب المسافة وقصر الوقت والحكومة يمكن لها ضبط مركز الاداء بجعل حراس عليه لانه متحد وبعد هذا كله اذا فرضنا توجه الاعتراض وصحته لماذا يحمل علينا وحدنا والحال ان المنحة انما أعطيت بمشاركة جميع الوزراء والمستشارين ممن تقدم بيانهم فاذا تشارك جماعة فى رأى فلماذا يحمل منكره على واحد منهم فقط لمجرد مباشرة تنفيذ ما استقر عليه رأى الجميع هذا كلامه على ان هذا كله مفروض عند وصل الطريق وقد علمنا اشتراط عدم وصله لمجرد الاسباب السياسية التى يأتى بيانها لا لما تقدم ذكره فلا يتأتى الاعتراض الا عند ذلك وسيأتى لهذا مزيد بيان فى موضعه ان شاء الله تعالى كما وقع الاعتراض على هذا الوزير فى كون الفائض جعل للدين أ كثر من القسط الذى عينت مداخيله لذلك حتى لزم الحكومة اكمال الفائض فى بعض السنين من دخلها والاستقراض فى بعض السنين برهن مدبغة الجلد للايفاء بالفائض أيضا ومن المعلوم ان خلاص الدين بالدين يؤدى الى تفاقمه وأجيب عن هذا الاعتراض بما تقدم شرحه فى كيفية الوجه الذى أعمل فى الديون فقد علمت ان الفائض قد حط من عشرين مليونا فرنكا الى ستة ملايين ونصف بمشاركة نواب الدائنين ثم تأسيس ذلك المقدار على معدل الميزانية التى ارسلت من الوزارة السابقة التى وقع فيها الغلط فى تقدير فصل السرحات كما بيناه هنالك سيما وقد رأى الحكوميون الوفاء بذلك فى بعض السنين ورأى اقتدار الحكومة على الايفاء فى بعضها فلا يسلم صاحب المال فى

رهنه بسهولة الابعد تيقنه العجز ولا يحصل ذلك الابعد اخلة قسم النظر من الكومسيون
في أحوال ميزانيـة الحكومة الراجعة اصاريفها الخاصة وربما كان ذلك غير ملائم
لسياسة الحكومة لمزيد التضيق عليها والتحجير على تصرفاتها فاختير أخف الضررين
الى ان يكشف الواقع على ماهو في الاقتـدار حقيقة بطول المدة والتجربة وتنقاد وكلاء
أصحاب الديون عن بينة لكن الوزير خير الدين خرج قبل حصول ذلك كما ان الوزير
المذكور افراد قليلون من الموظفين على عدم احبائه للقوانين لكن على ان تكون على
غير الكيفية التي سبق بها العمل في تونس بل على وجه يندفع به الاعتراض الذي مر فيها
بان تكون موافقة لاحكام الشرع والمباشرين للاحكام الشخصية هم نفس الحكام
الشرعيين بضبط نفس الاحكام في قول واحد شرعي وجعل مجلس شورى لمصالح القطر
اعضاؤه من جميع جهات القطر الى غير ذلك مما يناسب الحال من القوانين لما هو معلوم
من ميله اليها كما مر في الكلام على قوانين عهد الامان وحاصل جوابه الذي علمناه منـه
عنـد ابلاغ الاعتراض اليه وهو بتونس هو ان الدول الاسـلامية لا يتيسر ذلك فيها
الا بارادة الملوك أو الامراء الذين لهم استقلال في الادارة وقد كان والي تونس اجراها ثم لما
ابطلت بالكيفيات التي مر ذكرها كان الوالي المذكور أشـد النافرين عنها فلا يصغى الى
انشائها وليس في ذات الاهالي من يرغب فيها بالحاح في طلبها الا أفراد قليلون كما بان
بالكاشف فيما وقع عنـد الغائها وكما بان بالاستخبار للاعيان عند اعلان الدولة العليـة
بالقانون الاساسي فلم يبق الا أحد شيئين وهما اما بقاء الوزير خير الدين في الخطة بدون
القوانين لرفع ما يستطيعه بذاته أو انه لا يبقى في الخطة الا بوجود القوانين فاختار هو
الوجه الاول بدعوى عدم امكان الوجه الثاني وهاته الدعوى المستندة لما تقـدم ذكره
ربح عنـد البعض خـلافها لانه لو تمكن والي تونس في أول الامر اصرار الوزير على عدم
البقاء في الخطة الا بوجود القوانين لكان يحصـل المقصود وتدوم القوانين معمولا بها في
الاقل مدة بقاءه ولا لوم عليه بعد انفصاله ومن بلغ المجهود حق له العذر وقد كنا اطلعنا على
تحرير للوزير المذكور بعد انفصاله عن الخطة بتونس في الجواب عن الاعتراض بما ذكر
فائدتنا خلاصته هنا ليحكم المطالع بين الشقين وحاصله انه بلغنا ان أناسا لاموا على عدم
تأسيسنا في مدة وزارتنا التنظيمات السياسية المعبر عنها بالكنستيتوسيون التي كنا أوضحنا
في كتابنا أقوم المسالك الادلة النقلية والعقلية على لزوم تأسيسها واجراء العمل بها ولما
كان صدور مثل هـذا اللوم منبأ عن عدم فهم من صدر منه لما كنا شرحناه في الكتاب
المذكور

المذكور من الاحوال التي تنبني عليها التنظيمات وجب اعادة الكلام على ذلك وبذلك يتضح الجواب عما ذكر فنقول ان تأسيس التنظيمات السياسية الحاملة على اتباع المصلحة قد شوهد انها نشأت في الممالك المستقرة بها باحدى طريقتين احداهما ان يكون تأسيسها من الراعي وثانيتهما ان تطلبها الرعية والصورة الاولى هي الممكنة في الممالك الاسلامية اذا انتبه الراعي لفوائد التنظيمات فيسعى بجد واجتهاد في تأسيسها وحمل الناس عليها مستعينا بالله وباهل الدراية والمروءة حتى تدرك العامة منافعها ويتمسكوا بها ويحصل لمن تسبب فيها فخر واجر من اسس ما يدوم به العدل الذي فضل الحكماء صاحبه على فاتح الاقاليم الكثيرة ووجه ذلك ظاهر وهو ان مصير الفتوحات المؤسسة على غير العدل الى النقاص والاختلال ومصير المملكة ذات العدل الى البسطة والاعتدال والحكيم من لاحظ العاقبة والمآل وعند ذلك تدوم معمولا بها اذا كان في العامة استعداد الى فهمها وقبولها وبدون ما تقدم لا يمكن اجراء ما ذكر فيما علمت فلا يكفي لذلك معرفة الوزير وحده بمصالحها وميله اليها ولا اظن احدا من رجال السياسة العارفين باصول مبنى التنظيمات يخالفني في هذا فكان الواجب على المعترضين ان يبحثوا اولا عن معرفة حال امير تونس هل هو ممن يسعى في تأسيس ما ذكر على الوجه المذكور وعن حال الاهالي هل فيهم من يعتبر حفظها وقبولها وفي ظني ان كلا الامرين لا يوجد معه ما يسوغ الاقدام على تأسيس التنظيمات وفي يقيني عدم نجاحه بدون ذلك كما اعطته التجربة فان التنظيمات التي اسست في هذه المملكة سنة ١٢٧٧ المتقدم بيان اصولها الكافلة بتأمين السكان ابطلت مشيتها مع الحاف على اجرائها سعي الوزير واتباعه حتى آل امر المملكة الى ما قد رأيت من تصرفات الحكومة زمن وزارة السيد مصطفى وما نشأ عنها من المضار في النفوس والاعراض والاموال ولم يتعرض احد لذلك بادنى انكار (فلما) كان الحال ما ذكر وأيست من الوالي بتونس في تأسيس التنظيمات سعيت في تحسين ادارة المملكة وتأمين راحة السكان بقدر الطاقة والامكان مستعينا بالله وبمن كان من أهل المروءة من رجال الحكومة الى ان آل امري الى الاضطرار الى الخروج وان ترتب عليه ما حصل لنا بعده من الصعوبات بمنع الناس من مخالطتنا ولم احصل على الحقوق البشرية الواجبة شرعا وطبعا مع ان ذلك وقع في حق رجل تقلب في سائر رياسات الحكومة وحصل على بعض مصالح حسب الوسع ويسوغ له ان يقول حكاية للواقع انه

باعانة الله وعنايته حمى وحده مدة وزارته جميع السكان من الظلم والتعدى عليهم بدليل انه بعد خروجه من الخطة رجع الامر لما كان عليه قبل ذلك لان الوالى فى الحكومة لازال هو بذاته وكذلك رجال الحكومة الذين خدموا معه وهم الذين خدموا مع السيد مصطفى أيضا لازالوا متوظفين وهؤلاء قسمان عفيف فى نفسه غير قادر على منع غيره من الظلم وظالم كان محجوزا بنا عن ظلمه فانطلق بخروجنا من الخطة هذا وانى لازلت أقول ان تونس لا تستقيم بدون تنظيمات وانها لابد لاجرائها من الطريقة المار ذكرها والا فالتنظيمات فى تونس بدون ماذكر كالعنقاء اسم بلا مسمى فلا تغترن بقول من لا يدرك الحقائق والله تعالى يرشدنا واياهم الى ما يرضيه عنه آمين انتهى وبما تقدم من انتقاد بعض التصرفات وجد اضداد الوزير خير الدين السبيل الى ايقاع التنافر بينه وبين الوالى الامسئلة القوانين فلم يعرجوا عليها غيران ذلك لم يفدهم لانه مدفوع بما تقدم شرحه والوالى على علم منه فلذلك نزعوا الى أوجه أخرى وبيانها يستدعى بيان منشاها واسبابها وحاصله ان الوزير خير الدين لما باشر الوظيفة بلقب وزير مباشر لم يكن له ضد فى نقض اعماله الا الوزير السابق مصطفى خزندار لكنه لم ينجح لتبصر الوالى فيه ومعرفة سائر المتوظفين والاهالى بتصرفاته التى نفروها حتى ذات خدمة الوالى فى نفسه وقصره فكان الجميع يدا واحدة مع الوزير خير الدين ولما زل الوزير السابق مصطفى خزندار وولى مكانه الوزير خير الدين واستقر أمره بعد الانفصال معه على ما مر شرحه طمعت نفسه للرجوع الى المنصب أو فى الاقل مواجهة الوالى واسقاط خير الدين عن الوزارة واستعان على ذلك بافراد من الاجانب وباحد خاصة الوالى وهو الوزير مصطفى بن اسمعيل واعتضد الجميع كل على حسب فوائده فتارة يقدحون فى التصرفات العامة واشاعة ذلك فى الصحف الاجنبية ويبلغونها بذاتها أو بتعريبها للوالى بواسطة خاصته المذكور لكن لما رأوا عدم نجاح المقصود بذلك لانه لا يروج على الاهالى لمشاهدتهم حسن ادارة الوزير رجعوا الى اشهار اراجيف تتعلق بالسياسة الخارجية فمنها ما يرجع الى تنفير الوالى وعائلته من الوزير خير الدين وأشهروا ان المذكور اتفاقا سياسيا مع الدولة العلية ومنها ما يعود الى تنفير الاهالى من الوزير المذكور فاشهروا ان مراده تسليم البلاد للفرانسيس ومنها ما يعود الى تخويف اصدقاء الوزير خير الدين وعموم الناس فاشهروا ان مراد الوالى ارجاع الوزير السابق مصطفى خزندار لخطة الوزارة حتى أثر كل قول فى أصحابه ونشأ عن الاخير التشويش فى عقول العامة

العامة وتجار أوربا بما أوجب انحطاط أسعار الرقاع للدين التونسى عدة مرار للخوف من تبديل السيرة فى السياسة الموجبة لتعطيل فائدة الدين حتى اعلن الوالى بتكذيب تلك الاشاعات فكتب للوزير خير الدين مكتوبا ونشره فى الرائد التونسى ونصه بعد الحمدلة والصلاة اما بعد السلام عليكم ورحمة الله تعالى فانه بلغ لحضرتنا ان بعض اشخاص كادت ان تكون اسماؤهم معروفة ممن كان لهم فى تصرف امير الامراء ابننا مصطفى منافع شخصية تعطلت عنهم بسبب مساعيكم الجميلة بالادارة المنوطة بعهدتكم اشاعوا اراجيف لا حقيقة لها جاهم عليها الميل لما يوافق شهواتهم وهى وان كانت مما لا يترتب عليه أثر ولا يكون لها موقع لاولى الاحلام الا انها ربما توجب لمن كان خلى البال شغلا ما بعينه مع ان الاسباب التى اقتضت عزل المذكور لم تزل تعضدها انظارها والآثار التى أنتجتها مساعيكم الجيدة لم تزل تحمد اخبارها وتظهر للاعيان آثارها ولعلمنا بما فى شغل الاسماع وطى الآذان بسماع هذه الاراجيف التى لا توصل قائلها الى مقصوده من اضاعة الوقت بنقلها والالتفات اليها حررنا لوزارتكم هذا الرقيم لنهى من يشتغل بذلك وليتحقق السكان ان استحساننا للادارة المنوطة بعهدتكم لم يزل والمنة لله تعالى متزايدا بتزايد آثارها وان ما ارجف به أولئك الاشخاص لا يجدون اليه مستندا وتشهر ذلك للسكان ليزول عنهم الشك الذى قصدا يقاعهم فيه وشغل بالهم به لترتاح افكار من يريد مصلحة وطنه ونجح خدمته فالعمل ان تجتهدوا بالاستمرار على تلك السيرة الحسنة التى ظهرت آثارها للدولتنا والله تعالى يحرسكم ويمدكم بحفظه واعانته والسلام من الفقير الى ربه تعالى المشير محمد الصادق باى وفقه الله تعالى بمنه كتب فى الثانى والعشرون من شهر رمضان المعظم سنة احدى وتسعين ومائتين والف (التوقيع) صح من كاتبه محمد الصادق باى فانت ترى ما صرح به الوالى من حسن نتيجة خدمة الوزير خير الدين وهو الذى تشهد به سكان الايالة على اختلاف اجناسهم ومع ذلك لا زالت الاعداء تسعى بالفتن بين الوالى والوزير حتى كان فى خلال تلك المدة جميع رجال الحكومة فى كدر من خوف تفاقم النفرة بين الوالى ووزيره الموجبة لانفصال الوزير عن الوظيفة ولما تيقن الوالى ذلك دعى الوزير خير الدين ووعده بقطع التعرضات وامر مصطفى بن اسمعيل بالكف من سيرته وموالاة الوزير خير الدين وكان ذلك أواخر سنة ١٢٩٢ فدام على نحو ذلك بضع أشهر ثم عادت الكرة فى أواسط سنة ١٢٩٣ واثرت الاقوال فى الوالى الى ان صار يستفهم من جمعه عن

رأيهم فى فصل الوزير عن الخطة فرأى منهم استعظام الامور عما قال بعضهم ان بلدنا صغيرة وليست عتانسة بفصل الوزراء على التتابع سيما مع رؤية الرعية لسيرة هذا الوزير فر عما نشأ من فصله مايسوء العموم فاحجم الوالى عن فصله فى اثناء تلك المدة وقال أحد المحبين للوزير خيرالدين ان استناد الاضداد فى اختراعاتهم يؤل الى الاستبداد منك على الوالى ورؤساء المتوظفين وذلك ينقطع بامرين أولا أن تتشارك مع بقية المستشارين والوزراء فى اعطاء رأيهم مع مستشار القسم الاول من الوزارة ومع أعضاء قسم العمل من الكومسيون بحيث يشترك الجميع فى الرأى عند تحرير ميزان الحكومة فى الخرج فى رأس العام وثانيا تقسيم الادارة فى الرسم تبعا لما هو جار فى المعنى فى أقسام الوزارة حتى يكون مستشار كل قسم يلقب بوزير و يمضى هو على المكاتيب و يتحمل مسؤلية مايعود عليه ولما بلغ ذلك الكلام الوزير خيرالدين لاحظ فيه ما يأتى وهو أن الاول واقع بالفعل لانه بعد تحرير الميزان من قسم العمل ومستشار القسم الاول يعرض على بقية الوزراء والمستشارين و يبدون مايظهر لهم فيه ثم يعرض بعد ذلك على الوالى للتروى فيه ويمضى مايستقر عليه الرأى وأما الثانى فانه حالة ضيق القطر وصغر الادارة لاتقتضى تعدد المصادر بل ربما أوجب ذلك التعاوض فى الاوامر لأمور واحد فى حادثة واحدة مع مافى ذلك من زيادة المصاريف بتعدد المأمورين فى كل جهة وكل قبيلة و ذلك لاتطيقه مالية الحكومة ولا تحمل الرعايا الزيادة عليهم هذا خلاصة جوابه الذى لم يقنع الناصح حيث أن العرض فى الاول انما هو صورى والتضايق فى الثانى مدفوع بالاقتصاد وحسن التقسيم مثل ماهو واقع بين المستشارين لكن الاهم من جميع ماتقدم امتناع الوالى من اجراء المطلوب بدليل ماجرى من بعد خروج الوزير خير الدين عن الوزارة واستمرار نوع الادارة على ماسبق من انحصارها فى شخصية الوزير الاكبر كما نصح الوزير المشار اليه لابعاد التهم عنه بانه ينبغى له أن يسوى بين نواب الدول فى المعاملة ولا يزيد فى تقريب نائب فرنسا وهو يقول ان معاملته مع ذلك النائب شخصية لاتعلق لها بالادارة على انه لو قيل ان تلك المعاملة مما يقتضيها الحال فى دفع غائلة فرانسا لما بعد ذلك لان ترجيح كفتها بتونس ضرورى وارتكاب اخف الضررين واجب فان لم ترض لنفسها رجحانا تكالبت الى أن تصل الى قصدها ولو بالتغلب على تلك البلاد كما أوضحنا خلاصة سياستها سابقا ولما تقدم عادت المصافاة بين الوزير خيرالدين والوالى حتى كتب الوالى الى قنسل الفرانسيس بتكذيب ما أشيع تارة بعزمه على ابدال الوزارة

وتارة

وتارة بالعزم على التنقيص من مقدار الفائض بها أو جبه عدم الاطمئنان بمالية الحكومة وانحطت أثمان رقاع دينها فكتب اليه فى جمادى سنة ١٢٩٣ بما نصه الحمد لله وحده اما بعد فقد رأينا فى الجرنالات الفرنساوية ذكر ظنون ابرزت فى صورة مقدمات مسلمة واستخراج نتائج منها بريد صاحبها التنفير من ادارة دولتنا وتنقيص ثقة حاملى الرقاع بما بايديهم من رقاع الدولة مع أن تلك الظنون لا حقيقة لها فى الواقع ولا أصل وما استخرج منها ترده الادلة المشاهدة زيادة على كونه مبنيا على غير الواقع وهذه الاراجيف وان كانت باطلة عند المنصف وعند من يعلم حقيقة الواقع ولم يترتب عليها ما قصده من الامور السياسية فانه نشأ عنها الغير من ذكر وان لا اعتناء له الا بالتحفظ على ماله بمراعاة كل ما يطرق سمعه خوف ترتب عليه بعض انحطاط فى سعر الرقاع مع أن كوبونها يدفع فى أوقاته كاملا وادارة مداخيله جارية على الوجه الكافل بحفظه وغير خفى على جنابكم ما يلحق كلا من الدولة والمتجر من ضرر هذا الارجاف الذى مع كونه لا حقيقة له ومضاد للواقع لا داعى اليه الا الاغراض غير خفية ولما كنا على يقين من أن جنابكم يود الخير لبلادنا كاتبناكم بهذا مؤملا منكم السعى الجميل بحسن وساطتكم فى ايقاف هذا الضرر اذ لا شك فى أن المتصدى لنشر ذلك والحالة هذه لم يكن له قصد الا ما ذكرناه وحرصه على ترويج ما أبرزه تكلف ما يظن انه يعينه على مقاصده وهو توزيع نسخ من الجرنال وتبليغها لمساكن اناس لا معرفة لهم به ولا اشتراك لهم فيه مجانا من غير أن يطلب منهم عوضا عنه خلافا للعادة ونشر ما هو من فروع مقصده بغيره فتعين بما أشرنا اليه ان ذلك لم يكن للارشاد ولا للنصح اللذين ابرز كلامه فى صورتهما وانما هو للقصد المشار اليه الذى نتحقق ان جنابكم لا يرضاه ويبذل الجهد فى تعطيله ولو باشهار هذا اعانة لنا بما تقتضيه المودة على ما املناه من الخير وتأييد الحق باظهار الواقع كما هو المقطوع به من انصافكم ومحبتكم ودمتم فى أمن الله وكتب فى ٢٠ جمادى الثانية سنة ١٢٩٣ ألف ومائتين ثلاثة وتسعين ثم حدث بعد ذلك فى الآستانة ولاية السلطان مراد فتوجه الى تهنئته من تونس على لسان الوالى وزير الحرب رستم وله مودة اقتضتها المعاشرة الطويلة مع الوزير خير الدين كما له معه مصاهرة حيث أن الاول زوج بنت الثانى وكان ذلك فى جمادى الثانية سنة ١٢٩٣ وحصلت اذ ذاك الحرب بين الدولة العلية والصرب فظهر من جهات الاسلام الاعانة للدولة العلية بالمال لضيق ماليتها وبمقتضى الحقوق الدينية والارتباط السياسى بين تونس والدولة لزمت الاعانة بالمال أيضا من

تونس وكان حال الحكومة فى ضيق المالية وعدم امكان القرض ما علمت فاجتهد الوزير خير الدين بعد الاستشارة والمفاوضة فى حصول الاعانة بالمال من الاهالى عن طيب نفس وصدرت بذلك مكاتيب الوالى والوزير الى الجهات من الحرص فى التعجيل فظهر من الاهالى غاية الرغبة الى ان حصل مقدار مليون وأربعمائة ألف فرنك مع مصاريف الصرب والحوالات لارسال المال سكة رائجة فى الآستانة وقدر ما دفعته الاهالى ريالات ٢٣٨٤٠٤٢ ونشر حسابه فى الصحيفة الرسمية ووصل بتمامه للباب العالى وفى اثناء ذلك رجع وزير الحرب رستم المذكور ثم حصل فى الدولة العلية صعود سلطاننا المعظم عبد الحميد على تخت السلطنة وأعيد ارسال وزير الحرب المذكور للتهنئة أيضا وأقام بالآستانة ثمانية أشهر لتثبيطه من الباب لاحضار جوابه واحضار ما تتفضل به الحضرة السلطانية على الوالى مع كثرة شغل الدولة اذ ذاك بحرب الصرب والجبل الاسود والبلغار وهرسك وبوسنه وبالمؤتمر الذى عقد فى الآستانة وبانجاز القانون الاساسى ثم بحرب الروسية وكان وزير الحرب اثناء اقامته بالآستانة فى المدة الاخيرة قدر شهرين أو ثلاثة لم يرسل مكاتيب تبين سبب تأخره لان كل أسبوع يظن انه يرجع فيه وطالت غيبة المكاتيب وجعلها ذوو الاغراض على ما سيتلى (ثم طلبت) الدولة العلية الاعانة العسكرية لحرب الروسيا ولم يكن لحكومة تونس من العساكر التى تحت السلاح الا مقدار ما يكفى لحفظ الراحة فى القطر كما أن المال الضرورى لذلك حاله ما علمت فرأى الوزير خير الدين المسئلة مهمة جدا ولم يكتف برأى الوزراء ورؤساء الحكومة وطلب من الوالى عقد مجلس عام من ولى العهد فى الحكومة وأهل المجلس الشرعى والوزراء وأعضاء جمعية الاوقاف والمجلس البلدى ورؤساء سائر أقسام الادارات ورؤساء الكتبة والمستشارين وضباط العساكر من أمراء الالوية والفريقان وأعيان الاهالى ورؤساء ديانة اليهود وكبرائهم العرفيين فاسعف الوالى على ذلك وانعقد المجلس تحت رياسة الوالى نفسه وأذن وزيره خير الدين بالقاء المراد على المجلس فقال ما معناه ان الدولة العلية قد أعلمت الوالى بان الروسيا أعلنت عليها حربا وان لها فى الحدود للمدافعة عن الخلافة الاسلامية والوطن نحو ثمانمائة ألف وانها مع ذلك لازالت محتاجة الى كثرة العدد والعدد وانها تطلب من الولاية ارسال العسكر وله سرد ذات التلغراف الوارد من الدولة ثم قرر أن للدولة حقوقا على تونس وان تونس لها عادات مع الدولة لا محيص عنها وان حالة الحكومة فى العسكر وفى المال معروفة للجميع وان الوالى جمع هذا المجلس

ليشير

ليشير عليه بما يراه فى الطرق الموصلة للمقصود فخاض المجلس فى الكلام وطالت المذاكرات وحصل التشاحن فى الرأى الى ان علت الاصوات وحاصل آراء المجلس هوان بعضهم يرى ارسال العسكر بالمقدار الذى يطيقه القطر من العسكر النظامى المسرح أكثره وتقريبه نحو ستة عشر الفا لكن فيهم من عجز فلا أقل من وجود ستة آلاف تقدر الاهالى على القيام بهم بما يلزم من الكسوة والقوت واما السلاح فالحكومة من المدافع من الانواع الجديدة أزيد من بطرية كما ان لها من المكاحل المسدسة أزيد من عشرة آلاف وان كانت تعمر من أفواهها من النوع العتيق فالحكومة حينئذ تقوم بالسلاح وتعين عليون من المال الذى لها ان تستقرضه من خزنة مجلس الادارة لمدة ستة أشهر بلا فائض وترجعه بالاقتصاد من مرتبات ذوى المرتبات كل على ما يقتضيه حاله فان بعضهم اراد اسقاط جميع مرتبه لذلك ويتم التجهيز وترسل العساكر ويحمل على الاهالى تقسيط ما يقوم بهم يدفعونه منجما مع جريان الاقتصاد من الحكومة على نحو ما تقدم مع الاعلان بان كل من أراد القتال بنفسه فله ذلك ويعلل هذا القسم رأيه بان احكام الدين قاضية بذلك مع ان نص فرمان سنة ١٢٨٨ مصرح بشرط ذلك وانه على فرض الاعانة بالمال الذى يمكن ان يوازى مصروف العسكر فلا يزال التبكيت على القطر بانه لم يوف بشرطه وأصحاب هذا الرأى قليلون وبعضهم يرى ان الاعانة انما تجب بالابدان واما المال فلا يجب على أحد شئ ومن قدر ببدنه وماله فعليه ان يذهب وليس على هذا الرأى الا اثنان وجميع العلماء والعامة ضدهما وسقط اعتبارهما وقتئذ من اعين بعض رؤساء الحكومة سيما الوزير خير الدين وبعضهم يرى ان العسكر يحتاج الى التدريب والى السلاح الجديد وبدونه العسكر كالعدم والمال لاقامة ذلك غير موجود لان الغصب على أخذ المال من الرعية غير سائغ لما هم عليه والجهل الحال فى الملا والفقر فلذلك يلزم ان يوكل الامر الى الاختيار كل بما يستطيع وبهاته الصورة لا يعلم مقدار ما يحصل حتى يمكن الاعتماد عليه وتجهيز العساكر على مقداره وعلى فرض حصول شئ أولا فلا تحقق لجريانه فى المستقبل للقيام بالعسكر فى المؤنة والذخائر ولذلك يكون اللازم هو احضار المال لاعانة الدولة العلية بالمال واعانتها واجبة لامحالة غير ان جمع المال يوكل الى اختيار الدافع واجتهاده كما حصل فى اعانة الحرب مع الصرب وهذا هو الرأى الغالب الذى استقر عليه أمرهم وهذا القسم يدفع تعليل القسم الاول من شرط الفرمان بوجوب ارسال العسكر بان شرطه الطبيعى ان

يكون ذلك فى الامكان وقد تبين ان الامكان غير موجود وعمل بهذا الرأى لانه رأى الغالب وحكم المسئلة شرعا أفردناه برسالة فيما كتبناه على باب الجهاد من صحيح البخارى جامعة لحكم المذهب الحنفى والمالكى ثم جمعت الاعانة المالية على نحو ما تقدم وارسل بعضها فى مدة وزارة خير الدين وقدره ٣٠٠٠٠ فرنك ولم يعلم حسابها بالتحقيق لان الوزير خير الدين خرج قبل نهايتها وبعده لم ينشر حسابها كما انشر حساب السابقة ثم أرسلت الدولة العثمانية بطلب سمائة بغل لجر الاثقال الحربية وان كانت خيلا وبغالا فلا بأس به فعمل الوزير خير الدين عزمه فى طلبها من أعيان المتوظفين وقبائل العربان والبلدان بان عين لكل فرد ما يدفعه من عدد البغال أو الخيل وكذلك القبائل والبلدان على ان يسعر ما يدفعه أهل البلدان والقبائل من الحيوانات بالمال ويقسط ثمنه على جميع الاهالى على حسب الجدة ويدفع الثمن لاصحاب الحيوان بحيث لا يناله من المال الا امثال غيره فتسابقت الناس الى ذلك وتما فسوافيه وكثير من أصحاب الحيوانات فى القبائل والبلدان امتنع من أخذ الثمن وجعلها فى سبيل الله واحضرت الحيوانات وبقيت تنتظر سفن الدولة لحملها الان حملها فى السفن التجارية غير مأمون عليه خشية تعرض سفن المحارب الذى اشاعه من يريد اجتناب تونس من الدولة العثمانية وشحنت تلك الحيوانات للآستانة بعد خروج الوزير خير الدين من الوزارة ببضعة أيام وفى مبداء الحرب سأل أحد نواب الدول الوالى والوزير عن قصد الحكومة فى التداخل فى الحرب وحذرها من عواقب قدوم الاسطول الروسى الى مراسيها وخسارتها من ذلك مع عدم كبر الفائدة من اعانتها للدولة فاجابه الوزير بان الوالى لا يستطيع ربط نفسه بالكلام فى عدم التداخل فى الحرب ثم جاء قنسل الروسيا وانذر واحتج بان الوالى صرح بانه لا يتداخل فى الحرب فكذبه الوزير وان الوالى لم يصرح بشئ ينزع حريته كما ان الرائد التونسى نشر من المقالات السياسية المنتصرة للدولة العلية ما هو مشهور وهو لا ينشر الا ما يوافق مشرب الحكومة لانه هو الصحيفة الرسمية لها والوزير هو الذى يشير بالمقاصد التى تنشر فيه فمن جميع ما تقدم اتخذه اضداد الوزير خير الدين سبيلا لتنفير الوالى منه واسقاطه من الوزارة فقالوا ان وزير الحرب كان سبب طول مكثه فى الآستانة السعى عما يضر بالوالى وانه يكاتب الوزير خير الدين وهو لا يظهر مكاتيبه للوالى لانها ضده وان زيادة ميله للدولة العثمانية ظاهرة مما تقدم بيانه والوزير يقول ان تأخر وزير الحرب لا علم له بسببه لان واقعه فى نفس الامر هو

ما

ما تقدم شرحه وانه لو تروى القائل فى قوله لو جده غير صحيح لانه لو كان بينهما شئ حقيقة للزم ان يأتى من وزير الحرب مكاتيب صورية ليطلع عليها الوالى ولما ساغ عدم اظهار ولا مكتوب واحد حتى يتفطن الوالى مما لا يفعله عاقل فدل ذلك على بطلان أهل التهمة وقد حققه الخارج كما يقول الوزير ان ما فعل مع الدولة العلية هو الواجب بمقتضى فرمان سنة ١٢٨٨ وهو الواجب ديانة ولا قصد الا حفظهما ولكن لم يحب ذلك فى السعاية بل أثرت فى الوالى لانه كان حصل قبيل تلك المدة نازلة ادعاء مصطفى بن اسمعيل على يوسف بن عطار أحد تجار اليهود بتونس انه يطلبه بسبعة ملايين أو أزيد من جهة رقاع مالية ومصوغ اعطاه اله للتجارة بها وأنكره المدعى عليه واستظهر وكيل مصطفى بن اسمعيل بحجة ثبت فى الوزارة زورها على ما يسرد تفصيله فى المطلب الثامن وأراد الطالب ان يكون هو الخصم والحكم ورفع المطلوب أمره للوزير بهروبه الى قنسلاتو انكلترة وحمايتها له وتداخل القنسل فى النازلة له فرأى الوزير ان يعقد لفصلها مجلسا اوانف من ذلك الطالب ووافقه الوالى وامتنع الوزير من الحكم فى النازلة تجنبا من الكلام فيها من الجهتين فازداد حنق مصطفى بن اسمعيل من الوزير ومن ذلك التاريخ اشتدت الوشاية واشاعوا ان الوالى نفر من الوزير بسبب ما تقدم وانه بلغه عدم ارتضاء رؤساء الحكومة بسيرة الوزير مستندين الى ما سبقت الاشارة اليه ثم اشاعوا ان الوزير يريد تسليم البلاد الى فرانسا مستندين بسكة الحديد المار ذكرها والى عدم ارسال العسكر الى اعانة الدولة العثمانية وازداد اشاعة هذا بعد انفصال الوزير خير الدين عن الوزارة لقصد تنفير الاهالى منه حيث ان الوجه الاول لم يؤثر فيهم والوزير يجيب بنفس الوقائع وأدلتها مما وقع فى الخارج واستوفينا ذكره وكثر الكلام فى هذه المنحى الى ان خاطب الوزير الوالى بحكاية مضمون ما تقدم شرحه من كثرة ما أشيع فى شأنه وان الاشاعات صادرة من خاصته وان ذلك مما يقدح فى نفس المنصب ويعطل الادارة وانه يلزم أحد شيئين اما توثق الوالى به ورفع العوائق أو استعفاؤه وقد كان الوالى اذ ذاك صمم على قبول استعفائه لا لاعتقاده ما أشيع بل لان مصطفى بن اسمعيل غير متداخل فى الادارة بما يرضيه لان الوزير مانع له لما يراه من تصرفاته حسبما يأتى ان شاء الله فى المطلب الثامن وعلم ان الحامل للوالى هو ما ذكر بما صرح به مصطفى بن اسمعيل عند ولايته فانه قال ما معناه لو ان الوزير خير الدين ساعفنى لما خرج عن الوزارة فلما ذكر اجاب الوالى الوزير خير الدين بسؤاله عن رأيه فى النازلة فاجابه بان رأيه

ماذكره فقال اعد على الكلام يوم السبت عند اجتماع الوزراء بعد الاشارة الى ان أوداءه خانوه بما أوقعه فى تلك الحال وذلك مما يؤيد القول بان الوشايات لم يصدقها حقيقة وان يريد تغيير الصدور بينه وبين أحبته فاجتمع الوزير خير الدين بالوزراء والمشارين قبل الدخول على الوالى وقص عليهم الخبر بما كان ذكره لهم فرادى ومجتمعين وكان مآل كلامهم ان الاولى به تحمل المشقة وعدم فتح باب الكلام فى الاستعفاء وقال الوزير محمد الذى تولى بعده وكان معلوما عند جميع الناس انه هو الذى يتولى باشاعة المعرض المتقدم ذكره واتباعه بان لهم اتفاقا مع الوزير محمد على ولايته وابلغوا للوالى رضاه بذلك وكان على بن الزى صاحب مصطفى بن اسمعيل الخاص كثير التردد على جهات مسكن الوزير محمد ليظهر للناس صدق الدعوى فقال الوزير محمد للوزير خير الدين اما انا فانى لا اتولى مكانك ولو دقت عظامى ولكنى اخدم مع كل من يوليه الوالى كذا شاع وحمل كلامه ذلك على تكذيب ماشاع عنه ولما دخلوا على الوالى اعاد الوزير خير الدين الكلام فى الاستعفاء على نحو مامر فاجابه الوالى بانه هو أبو عائلة وقد حصل له التعب ومحتاج للراحة فيأمره ببقاءه مرتاحا فى محله فرجع لبستانه بقرطاجنه وكان ذلك فى رجب سنة ١٢٩٤ ومنع الوالى المتوظفين من الاجتماع بالوزير خير الدين حتى خواص احبائه بل واتباعه الذين على ايديهم متعلقات كسبه الى ان خرج من القطر للاستانة ولم يعمل حسابه معهم وفى عشية يوم انفصاله عن الوزارة تذاكر بعض رؤساء المتوظفين فى زيارة الوزير المذكور وذكر أحدهم من أبلغ اليه النهى بواسطة انه عازم على زيارته تلك العشية متغافلا عما بانه فحذره الحاضرون من الوزراء والمستشارين من وقوع ذلك قبل الاستشارة وانهم هم فى أنفسهم عازمون على مثل ذلك وانما علقوه على استشارة الوزير الجديد فلما استأذنوه احالهم على اذن الوالى ولما استأذنوه اعلن بالمنع وجعلت عيون على كل من يقدم اليه فبقى منفردا وتكاثرت الاقوال فى الخوف عليه ونازلة الشهيد بن اسمعيل السنى ورشيد لم تبرح من البال وكان هو متجلدا متغافلا عما يظهر اليه من الغضب وطلب مواجهة الوالى لمجرد الزيارة فاضطرب فى أمره ثم اذن له فى وقت خاص ووقع بين الوالى وقنسل الفرانسيس كلام سأل فيه القنسل الوالى عن سبب خروج الوزير خير الدين عن الوزارة فاجابه بان خروجه ليس كخروج الوزير السابق لان الوزير السابق ارتكب ماشين العرض واما خير الدين فلا سبب لخروجه الا الخلاف السياسى الواقع بينى و بينه

وأنت

وأنت تعرفه وهو اشارته الى ميل الوزير للدولة العلية لان الوالي كان تحقق لوم قنصل فرنسا على سياسة الوزير مع الدولة العلية والا فما هو الخلاف السياسي الذي يعلمه القنصل دون غيره وهذا يؤيد الكلام السابق في حقيقة أسباب انفصال الوزير المذكور عن الوزارة ولما تفاقم التنافر طلب الوزير خير الدين السفر لمداواة مرض عصبي فاذن له بعد التصعب التام ووداع الوالي ولما استقر في أوروبا حذر من العود خوفا عليه فكاتب هو الوزير محمد بما مضمونه انه كان أرسل اليه مكتوبا جوابا عن مكتوب به بان الوالي سأل عن حاله وعن وقت رجوعه وانه انما كان سافر لاجل التداوي أولا وثانيا لاجل التباعد عن القيل والقال وهو المقتضي لتطويل الغيبة فاذا رأى رجوعه لا بأس فيه فليأمر الوالي به لان غاية مراده هو ان يعيش في بلاده مع عائلته تحت ظل الوالي مع حريته الشخصية من غير ان يتداخل في شئ من الامور كما هي عادته عند انفصاله من الوظائف بدليل سيرته في التسعة سنين السابقة التي بقي فيها بلا مأمورية وانه كان ينتظر الجواب عن ذلك المكتوب الذي تضمن الاعلام بعزمه على السكنى بالقطر خلافا لما يشيعه المفرضون متعهدا بعدم التداخل في شئ من الامور السياسية وانه طلب حريته الشخصية حيث صدر الاذن للاهالي والمتوظفين باجتنابه ومع انتظاره للجواب مدة من الزمن لم يرد له الجواب الا بكون رجوعه لا يتوقف على اذن مع التغافل عن الموجبات المشار اليها مع انه لم يطلب الا ما كان الوالي سمح به للوزير مصطفى خزندار في صفر سنة ١٢٩٢ من الرخصة في مخالطة من يشاء والسفر الخ مع ان ذلك الوزير كان مطالبا بمال جسيم وليس خروجهما من الوظيف سواء لاختلاف الاسباب وما طلبه الوزير صاحب المكتوب هو ضروري في حقه لما صدر من الاذن في المنع من الاجتماع به حتى ان وكيله المالي امتنع من القدوم اليه هذا زيادة على الصعوبات التي وقعت عند ارادته السفر ولم يجب عن هذا المكتوب وكان القصد من اضداده اما حمله على عدم العود أو انه اذا عاد يتسبب له بابقائه في محذور وخيم ومع ذلك قدم الوزير خير الدين لتونس عند ماشاع ان بعض بواخر الروسيا قادمة الى تونس وكانت حالته مع الوالي أشد مما سبق فارسل اليه بان يقصر من القدوم اليه الا باذن متعللا بان الوزير مصطفى خزندار تشكى من منعه هو من زيارة الوالي مع عدم منع الوزير خير الدين وقال كثير من الناس هو قياس مع الفارق ثم عاد الوزير خير الدين الى السفر أواسط سنة ١٢٩٥ ورجع الى ان أتاه اذن بتلك الاشارة من الاعتاب السلطانية بالقدوم الى الاستانة فاستأذن الوالي وامتنع من

الاذن له حتى دعا الفضلاء المعتبرين واستشارهم فى ذلك فكلهم اشاروا عليه بان لا وجه فى منعه والاوفق له الاذن بطيب نفس منه فاذن له عن كره ومنعه من وداعه وسافر فى رمضان سنة ١٢٩٥ وترقى فى عناية الخليفة به الى ان صار صدرا أعظم فى ذى الحجة من تلك السنة وجلبت عائلته فى بابور سلطانية ومن ذلك الوقت خرج الكلام على هذا الوزير عن موضوعنا الذى نحن فى صدده وقد انحصرت دعوى اعداء خير الدين فى أمرين احداهما ارادته تسليم البلاد للفرانسيس والثانى ميله الى الدولة العلية فلا شك ان الخلاف السياسى الذى ذكره الوالى لقنصل فرنسا لا يتعلق بالدعوى الاولى وعليه فلا سبب الا الثانى وعلى كل فقد أشهد الوالى قنصل الفرانسيس بعد خروج الوزير خير الدين من الخطة باستحسان سيرته الا الخلاف المذكور فعلى الواقف المتأمل فى ذلك اذا الحق ما شهدت به الاعداء فعداوة الوالى لخير الدين بعد خروجه من الخطة لا يجهلها أحد والحجة القطعية فى ذلك امتناعه من مقابلته عند صدور الاذن بالقدوم لدار الخلافة وطلب الوداع (المطلب السابع) فى وزارة محمد خزندار (اعلم) ان هذا الوزير أصله من اليونان وحضر الى تونس فى ولاية حسين باشا وربى فى الحكومة وتعلم الفروض العينية والقراءة والكتابة ونشأ على صفة التعفف عن الرشا وسوما يحسن الرأى جيد الطبع كثير الصمت صبورا محبا بالسادة الاشراف صاهره أحمد باشا بالمولى الشريف سيدى محمد الشريف على ابنته صاحب صدقات سرية متباعدا عن الشفوف محمد السيرة كان قربه الوالى حسين باشا مراعاة به صاحب التصرف اذ ذاك شاكير صاحب الطابع وصار من خواصه وزادت به عناية الوالى المذكور حتى أولاه خزندار وكذلك أخوه من بعده مصطفى باشا فى استنجابه الى ان قيل انه حصلت غيرة منه لشاكير صاحب الطابع المذكور واتهم بانه أغرى بعض خواصه به فى المعسكر الذى توجه تحت رياسة صاحب الطابع المذكور لثورة أهل جبل باجه فاطلق على الوزير محمد الرصاص فى واقعة حربية هنالك فاصيب فى رجله وعوفى مع بقاء تأثيرها ثم استنجبه أحمد باشا وولاه عاملا على الساحل وحسنت فيه سيرته وطالت مدة ولايته عليه من حدود سنة ١٢٥٣ الى سنة ١٢٨٠ ودافع عن أهله ما استطاع من تعديات محمود بن عياد بتكفله بخلاص كلما يطالب منهم ابن عياد على أن لا يباشرهم ابن عياد بتوجيه أعوان لخلاص المترتبات التى يطلبها منهم وأعان على مصاريف عسكر حرب القريم بالف قفيز من الشعير ووجهه أحمد

باشا

باشا رسولا عنه للدولة العلية فى استطلاع نيتها فى ترتيب الاداء على تونس والاعتذار اليها ثم وجهه أيضا لاحضار مهمات العسكر فى حرب القريم ثم عاد مع العسكر وأقام هناك مدة ثم رجع ولما ولى محمد باشا أرسله بالهدية والنجدة الثانية من العسكر وطلب تقرير ولايته فقضى مأموريته وعاد وكان فى عزم الوالى المذكور تقديمه لوزارة الداخلية فعاقه عنه ما تقدم فى ابقاء الوزير مصطفى خزندار ولكن الوالى المذكور قربه واعتمده ورفع شأنه وأرسله رئيسا على العسكر الموجه الى الاعراض والجريد لجلب رئيس قومه من اعراب طرابلس المسمى بغومه عند ثورته على الدولة العلية هناك ثم التجائه الى تونس عند خشيته الاستيلاء عليه وأحدث فى أطراف الجهة الجنوبية من قطر تونس شيأ من الاختلال فوجه عليه الوالى المذكور معسكرا تحت امرة الوزير محمد المذكور ولقيه فى تلك الوجهة بامير الاعراض واستقال الوزير محمد من اللقب ولم يساعفه الوالى وفى ولاية الصادق باشا ولى الوزير محمد وزارة الحرب عند استعفاء وزيرها منذ ولاية احمد باشا وهو مصطفى أغا ثم ولى عوضا عنها وزارة الداخلية ثم عوضها بوزارة البحر كما ولى رئيسا ثانيا بالمجلس الاكبر عند وجود القوانين حينما استعفى الوزير خير الدين ثم لما حدثت الثورة العامة سنة ١٢٨٠ بقى الوزير محمد فى زوايا الخمول الى ان حدث الكومسيون المالى فولى فيه عضوا وأرجعت اليه الولاية على الساحل وابلى فى التخفيف على أهله من مصاعب الديون ما تقدم شرحه باعانة الوزير خير الدين ثم سنة ١٢٩٠ ولى مستشار القسم الثانى من الوزارة الكبرى مع التلقب بوزير الاستشارة ولما حصلت مبادى استعفاء الوزير خير الدين شاع التعاضد بالوزير محمد القصد تقليده الوزارة الكبرى حيث كانوا على علم بان نقل الوزارة من خير الدين الى ابن اسماعيل صعب عظيم فى اعين العامة والخاصة ويلزم مدة الاستئناس بمباشرة مصطفى ابن اسماعيل للسياسة تحت رياسة غيره فلما استعفى خير الدين قلد الوالى الوزارة الكبرى للوزير محمد خزندار بعد ان استقاله منها وبكى واعتذر بكبر السن ومرض البدن فلم يساعفه الوالى فتلقاها وألبس نيشان البيت الحسينى وطلب من الوالى أن لا تتغير سيرته عن الطور المعتاد له فى الابهة اللازمة لرياسة الوزارة كما قلد أيضا رياسة الكومسيون وكان ذلك فى رجب سنة ١٢٩٤ وولى فى وظائفه التى كانت بيده مصطفى ابن اسماعيل وبقى الوزير محمد فى الوزارة متحفظا فى ما يستطيعه على ابقاء ما كان على ما كان وصاحب النفوذ هو غيره على ما سيأتى شرحه ومع أكثر الجزئيات التى تعرض له

لا يبدى فيها أمرا الا بالاستشارة ولم يحدث فى مدته شئ جديد سوى حرص الدولة العلية على ارسال العسكر فاقتدر اليهابان غاية ما فى الوسع هو الاعانة الماليه للاسباب التى مر شرحها فلم تصغ لذلك و زادت الحاح شديد بلزوم العسكر وطالت المراجعات والاعتذارات من تونس الى ان صرحوا الدولة العلية بان غاية ما فى الوسع والقدرة هو احضار أربعة آلاف من النفوس بلباسهم فقط وسلاحهم من النوع القديم وما عدا ذلك يلزم أن يكون جميعه على الدولة فرضيت بذلك وأعلمت بانها ترسل الى حملهم على محل سفنها فتجب المبادرة باحضارهم فاحضروا وصرف على كسوتهم ولوازمهم مدة حضورهم وانتظارهم للسفن مما اجمع من الاعانة المالية من الاهالى التى سبق ذكرها فى وزارة خير الدين وانعقد الصلح قبل سفرهم فورد الاذن بسراحهم وكذلك حدثت نازلة انتهاء اجل الكنتدى صانسى لكنها لما كان كل من الحرص فيها وانتهاء خصامها فى مدة الوزير مصطفى ابن اسماعيل وهكذا نازلة وصل الطريقة الحديدية المار ذكرها بطريق الجزائر فانها وان وقعت فى وزارة الوزير محمد لكنها فى الواقع منسوبة لسعى مصطفى ابن اسماعيل حيث كانت التصرفات بين هذين الوزيرين فى مدة وزارة محمد مثل التصرفات بين الوزير مصطفى خزندار والوزير خير الدين بعد ولاية هذا وظيفة وزير مباشر وغاية الفرق بينهما ان وزارة محمد وابن اسماعيل لم يظهر فيها جهرة التباين والعناد ووزارة خزندار وخير الدين بخلاف ذلك فليس من الانصاف نسبة مساعى احد الرجلين الى الآخر كما ذكرنا مثل ذلك سابقا سيما مهم المسائل الخارجية فقد كادت ان ينفرد بها الوزير ابن اسماعيل وليس للوزير محمد فيها الا الاجراء ودام الوزير محمد على ذلك متجنبا الكل صعوبة مقتصرا على امتناعه من الرشا وبيع الوظائف فى نفسه مشيرا بلطف الى استقباحها لمن يريدها مدار بالسائر المتوظفين الى ان احس بالكلام بارادة استعفائه بعد ولايته بستة اشهر فعرض بذلك للوالى متعللا بالعجز والمرض فاشار عليه الوالى بالتحمل والبقاء فى الخطة الى الوقت الذى يشير عليه الوالى بالاستعفاء فعمل بذلك وفى ربيع الاول من سنة ١٢٩٥ كثر الكلام فى عود الوزير الاسبق مصطفى خزندار فكذبته الحكومة بنشرها فى صحيفتها الرسمية فصلا طويلا فى ان ذلك الكلام مما يشوش على السكان ويحير الافكار وانه بهتان والوالى لا يعمل به وانه من الافتراء والارجاف وذلك فى عدد ١١ من الرائد فى ١٦ ربيع الاول سنة ١٢٩٥ وانما ذكرنا ذلك ليتيقن ان نفرة الوالى للوزير المذكور لا عماله حقيقية

لا

لا كما قيل من أنه ابسعى الوزير خير الدين حيث انه فى ذلك التاريخ بعيد عن الوالى واشغاله ثم ان الوزير محمد ابقى منتظرا الاشارة لاستعفائه كما بقى من جهة طالب المنصب وصاحب الولاية انتظار اعادته هو للاستعفاء أو التعريض به و بقى هكذا الحال كل شق ينتظر صاحبه مدة أشهر الى أن أظهر الوالى كثرة الكلام فى الرغبة فى استعفاء الوزير وأحضر نيشان آل بيته الذى صار علامة ملازمة للوزارة الكبرى وفطن بذلك الوزير محمد فقدم للوالى معرضا بالاستعفاء على حذر حيث اعتمد الوصاية بان الوالى هو الذى يشير عليه فقبل بالرحب والبشر وأوصاه بان يكتب غداه مكتوب الاستعفاء فلما احضر الجميع الى قصر المملكة من الغد امر الوالى قبل أن يصل اليه مكتوب الاستعفاء الوزير محمدا بان يستصحب معه الوزير مصطفى بن اسماعيل الى محل الوزارة و يعلن لجميع الموظفين بعد جمعهم بان الوالى أولى مصطفى الوزارة الكبرى ورياسة الكومسيون بعد أن ألبس الوزير مصطفى نيشان البيت ولاطف الوالى الوزير محمدا وأمره بان يعود اليه بعد ذلك الموكب مصاحبا للوزير الجديد فعمل بذلك على هيئة استغربت اذ لم يعهد مثلها و بعد ذلك كتبت مكاتيب الاستعفاء وقبوله ونشرت فى الرائد وكان ذلك فى شعبان سنة ١٢٩٥ فمدة وزارة محمد عام وشهر ولقب فى ذلك الوقت بوزير الاستشارة و جعل له مرتب عمرى وقدره ستون ألفا فى السنة وأمره الوالى بان يقدم اليه فى كل أسبوع فى يوم السبت مع جملة الموظفين أو عند ما تدعو حاجة لحضوره وجعل منزلة حضوره فى موكب الوالى فوق منزلة الوزير الحالى بحيث لم ينزل عن مرتبته ثم استقال هو من ذلك ونزل تحت الوزير ثم ولى عضوا فى مجلس الشورى الآتى ذكره وبقى على ذلك الى الآن (المطلب الثامن) فى وزارة مصطفى بن اسماعيل هذا الوزير من الناشئين فى حاضرة تونس ولما شب رباه أحد موظفى قصر الحكومة الملقب بزهير حتى نسب اليه فى اللقب ثم أخذه منه الصادق باشا الوالى الحالى وصار من خدمته وقربه ورقاه الى رتبة أمير لواء مع انضمام رتبة أمير لواء ثانيا فى عسته العسكرية الخاصة وهى وظيفة مقصورة عليه لم تكن من قبل ولا بقيت من بعد ومن حدود تلك المدة عرف بلقب ابن اسماعيل نسبة الى والده الذى يقال انه مسمى بذلك وهو متواضع بشوش كثير التردد على الصالحين وزيارتهم شديد الاعتقاد فيهم ينتمى الى علوم الحدثان شره على الاشياء الجديدة كثير الانفاق على ما يعود الى لذاته محب للتجمل بالملابس المجوهرة حتى تتعدد الخواتيم المكللة باصبعه وترى الجوهرات على صدره وسلسلة ساعته

عارفا باخلاق سيده ملائما في سيرته معه لمرضاته حتى تمكن ميله اليه واشتدت رغبته في استرضائه الى أن قدمه على معاصريه وأبناء جنسه فبلغ الى الرتبة المشار اليها ثم رقاه الى رتبة أميرلواء العسة وأبطلت الرتبة الثانية المشار اليها وفي أوآخر مدة التنافر بين الوزير خير الدين ومصطفى خزندار انتهزت تلك الفرصة الى التنويه بشأن مصطفى بن اسمعيل ورقي الى رتبة الفريق وأرسل من الوالي كما تقدم الى مالطه لابلاغ العناية بالوزير خير الدين وكان يظهر اليه الميل عن مصطفى خزندار ثم ولي عاملا على الوطن القبلي أوآخر مدة مصطفى خزندار وأخذ مستلزمات العمل المذكور بنقلها اليه بدون انتهاء مدة من كانت بيده وامتدت الايدي الى ارزاق أهالي العمل المذكور بالرشا في الاحكام وغيرها حتى قال كثير من أهله لقد زال العناء عن أهالي القطر الانحن فانا لم نرشيأ من اثر ذلك لاغضاء الوزير خير الدين النظر عنه لمعاضدته اياه واستولت بعض حواشيه على الاوقاف ببلد سليمان الى أن آل أمرها لما كنا شرحناه بعضه فان جامع الحنفية والمدرسة ببلد سليمان لم يكتف فيهما باخذ دخل الوقف واهمال الموقوف عليه حتى خرب وتعطل جريان الشعائر بل نقل منهما مهمات من الرخام وغيره الى دار المتولي كما أقيمت في ذلك حجج من أهالي البلد وقدموها الى جمعية الاوقاف وجرى على الاهالي من المتاعب ما بلغ الى قتل النفس كما ذكر واذلك في قتل جيده بايوض أحد أهل الحاضرة الذي انتقل بالسكنى الى هنالك وذهب دمه هدرا وسودت في موته رقعة على انه مات حتف أنفه تبرئة عند الحكومة رغما من دمه وشدد على الاعيان من أهل الحاضرة وغيرهم في خلاص قانون الزيتون الذي كان مرتبا على الوطن القبلي الذي مر ذكره وتحملوا من مباشري الخلاص اهانات لم تعهد لهم حتى ان بعضهم كان جالسا بحانوت أحد أصحابه في العطارين فجاءه المستخلص وألزمه بالخلاص حالا مع ان العسر عمومي فضلا عن كون الرجل لم يكن مستعدا ولا مال معه ولا معه فأهين بما أذرف دموع المشاهدين من ذلك الملأ ومثل ذلك متعدد ثم ولي الوزير ابن اسمعيل وظيفة صاحب الطابع أواسط سنة ١٢٩٠ ويوم ولاية الوزير خير الدين الوزارة الكبرى ولي الوزير ابن اسمعيل وزارة البحر غير انه لم يباشرها انه الوظيفة في محل الوزارة وانما جعل ما يتوقف على امضائه يحمل اليه أين كان ليمضيه حتى يقال انه انفصل عنها وهو لا يعلم مضمون تلك الوظيفة اذ لم يكن التصرف على نحو ارادته ولانه يعتمد من ينيبه من غير احتساب عليه ثم عزل عن ولاية الوطن القبلي لان الوزير خير الدين قد استقر في

الوزارة

الوزارة الكبرى وظن انه غنى عن معاضدة ابن اسمعيل حينئذ فاقتحم مع الوالى صعوبة الالحاح بعزله ومن ذلك التاريخ برح الخفاء فيما كان كامنا من منافرة الوزير ابن اسمعيل للوزير خير الدين وان اظهار الميل اليه لم يكن حقيقيا والتفت عليه عصبة الوزير الاسبق خزندار من الاجانب وبعض المأمورين لترويج اغراضهم مما تقدم شرحه وفى اثناء تلك المدة كانت أموال الوالى وذخائر الحكومة من الجوهرات والياقوت الابيض الذى تركه محمد باشا كلها فى تصرفات الوزير ابن اسمعيل المذكور الا ما أخرج من ذلك مما أرسله فى هدايا الدولة العلية وما اعطاه الوالى الى الوزير خزندار وله قسط وافر أو غيره وكان التحم فى تلك المدة بالوزير ابن اسمعيل شخص من سكان الحاضرة يقال له على ابن الزى كانت الناس تتقيه من قبل ثم ازدادوا منه اتقاء لما التحم بالمذكور وتفصيل حالة هذا الشخص لا تناسب هذا التأليف على ان من شاهدها لا يبلغ ما نذكره لما يعلمه ومن لم يشاهدها لا يكاد يصدق بوجودها ولذلك لا نذكر الا ما يتعلق به من حوادث سيده فمنها انه حسن اليه معاطاة التجارة فى رقاع ديون الدول وراد له تاجرا بعد تاجر الى ان استقر أمره مع أحد تجار الاقمشة الحريرية من يهود الحاضرة المسمى بيوسف بن عطار وأرسله الى فرانسا للتجارة هنالك ثم لما عاد التاجر حصلت بينه وبين على ابن الزى نفرة فاغرى به سيده لارادة استئصاله وسجن التاجر فى سجن الضابطية لان الضابطية كانت لا تسأله عمن يريد سجنه وانما حسبها التنفيذ لما يراه وادعى على التاجر بنحو سبعة ملايين فرنكا أو تزيد بين مال ومصوغ وحجارة كريمة من الياقوت الابيض على انها من أعلى نوع وانه سافر بذلك الى فرانسا ولم يؤخذ منه حجة فى بيانها وانه أرجع اليهم بالارسال من فرانسا مقدارا وافرا من الياقوت الابيض من النوع الردىء على انه لم يبع مما تسلمه منهم وقبلوا ذلك وبقى التاجر الى ان أحضر بالضابطية وأخذت منه حجة على انها بصحيحه وأنكرها هو وطال الامر الى ان تخلص التاجر من السجن وهرب الى قنسلات الانكليز محتميا بها طالبا اجراء الانصاف فى نازلته وتداخل القنسل الانكليزى مع الحكومة فى انصاف الرجل ولاحت علائم الزور على الحجة ولم يكن معها من القرائن أو الاسلوب التجارى ما يؤيدها سيما فى مبلغ وافر مثل ذلك بل ربما كان معها من القرائن عكس الدعوى اذ ان المدعى به عليه من الياقوت هو من أعلى نوع وهو المصرح به فى الحجة ثم النوع الذى أرجعه اليهم وقبلوه وارسلوا له فيه مكاتيب بوصوله من غير انكار لكونه من نوع

ما اعطوه ولا تعريض بذلك مع ان ذلك المقدار البليغ يعطى لانسان من غير بيان ولا حجة ولا دفتر ولا تؤخذ عليه الحجة الا بعد رجوعه بمدة وهو تحت الغضب زيادة عما كان عنده انتهائها فان جميعه يؤيد كلام التاجر فانه بعد ان رفعت النازلة الى الوزير خير الدين وارادته تشكيل مجلس للنظر فيها وامتناع الوزير ابن اسمعيل من ذلك حسبما تقدمت الاشارة اليه وبقى التاجر محتميا بالقنسلاتو تصالح معه الوزير ابن اسمعيل بمائة ألف فرنك وعشرين ألف فرنك وتعجب كل من سمع بالدعوى التى هى نحو ثمانية ملايين كيف يصالح عنها بذلك القدر لو كانت حقا والنازلة مقررة فى الوزارة وفى القنسلاتو ولو نظرنا الى ما وقع فى النازلة من الكلام على ألسنة الناس الذى منه ان مما قاله على ابن الرزى الى الوزير ابن اسمعيل ان التاجر المذكور لما عاد من فرانسا ارجع له مصوغا أو أتاه بمصوغ بقيمة بليغة من المال وانه اكتشف عن حالة المصوغ بعد الانفصال بالصلح مع التاجر فاذا هو من البلور المقلد على الياقوت فاذنه الوزير ابن اسمعيل ببيعه حيث لم يكن فيه من فائدة فاخبره بانه بيع ببضع آلاف وأدخلها له فى حسابه ولما وقعت الواقعة الآتى بيانها مع ابن الرزى تبين ان عين ذلك المصوغ لم يزل بخزائنه وانه من الياقوت حقيقة وامثال ذلك اطال الكلام فى النازلة لكن لا داعى لنا فى ذكر ما يقال على ألسنة الناس سيما وهو مما يعود الى ما بين الخادم والمخدوم وانما الداعى الى ذكر ما تقدم هو بيان كونه سببا فى خروج عائلة التاجر المذكور من رعايا تونس وصيرورتها تحت الحماية الانكليزية كما انها كانت سببا فى تمكن النفرة واظهارها بين الوزير خير الدين والوزير ابن اسمعيل وميل الوالى الى معاضدة هذا لانه مكنه من جميع أمواله حتى ان نفقته ونفقة عياله كانت على يده وقد نشرت أخبار متواردة فى الصحف الخبرية عربية وغيرها فيما اقتحمه العائلة من تباعة ذلك ولم يقع تكذيبه وحيث كان من الخصوصيات فلا نخليه هنا أيضا وانما أشرنا اليه لتعلم خلاصة التصرفات المالية وبما تقدم وغيره حصلت الاشاعات التى أشرنا اليها فى أسباب استعفاء الوزير خير الدين وقرائن الحال دلت على انه كان القصد توجيه الوزارة الى الوزير مصطفى ابن اسمعيل غير ان معرفة حال المتوظفين والاهالى فى التسليم لذلك كانت مجهولة فقدم للوزارة الوزير محمد وقدم الى استشارة القسم الثانى من الوزارة الوزير مصطفى ابن اسمعيل لكى يباشر العمال والاهالى فى شكاياتهم ويتأنس بمباشرة التصرفات العامة فكان لا يتعرض لتصرفات الحاضرين

من

من اتباع الحكومة عند ورود الدعوى الان تكون نازلة له بها خبرة بواسطة أحد علائقه وتقررت له من قبل قدومها الى الوزارة فحينئذ يأذن فيها بما كان وقع عليه الانفصال وحصلت فى اثناء هاته المدة الرشوة التى كادت تقنناس سيما فى توظيف العمال ولم يقتدر الوزير محمد على دفاعها غير انها لم تتفاحش اذ ذاك كما ولى الوزير مصطفى ابن اسمعيل عاملا على الساحل لاستعفاء الوزير محمد عنه فجرى أول الامر العمل فيه على ما كان ثم ولى على المستنير رجلا نائبا عن العامل بجعل ينيف عن المائة ألف وكان ذلك الرجل مدينا للاجانب من قبل واشترى الوظيفة لخلاص ما اشتراه به ولخلاص دينه وتكسبه وامتدت يده الى الاهالى والى النواب الذين تحت نظره وتفاقم الامر مع شدة الضعف المالى فى الساحل واشتكت رعايا الاجانب الى قناصلهم هناك لان أهل الساحل لم يزالوا فى رق دينهم فما يحصل لهم من المال عوض ان يدفع لدائنهم صاروا يدفعونه الى المتولى وبقى أمرهم على ذلك الى نحو ما سيرد خبره وفى أول مدة تداخله فى الادارة وجه قصده الى التداخل فى المسائل الخارجية والمداخلة مع نواب الدول فاستعطفه أحد نواب الاجانب على أمير اللواء الياس المصلى لعلاقة بينهما ذاتية على ارجاع المذكور الى خطته التى كان فيها وهى وظيفة مستشار ثان فى الوزارة الخارجية وقد كان عزل عنها فى أواخر وزارة خزندار اثناء ولاية خير الدين وزيرا مباشرا بسبب واقعة وهى ان احدى الجمعيات الاجنبية التى تجمع المال لنوع من أنواع المرحمة توسطت اذ ذاك بقنسل فرانسا لتعين لها الحكومة التونسية شيأ من المال على وجه المرحمة فارسلت الحكومة بواسطة المستشار المذكور مقدارا من المال ولما اجتمع القنسل بالوزير شكر صنعه وذكر له المقدار الواصل لتلك الجمعية فاذا هو غير مطابق لما أعطته الحكومة ووقع التحقق فى النازلة الى ان عزل المستشار المذكور وبقى بلا وظيفة ولا مرتب الى ان قدم من الاجانب من عطف على المذكور فتوسط له لدى الوزير خير الدين فى وظيفة فافهمه ان ذلك غير لائق لما تقدم فألح على ان يحصل له نفع ونال بواسطته مرتبا سنويا قدره ستة آلاف ريال وقطعة من أرض مقدار ما يبنى بها دار للمذكور وكبر ذلك على الوزير بن اسمعيل اذ ذاك وجعلها جبيراه فلما تعاطى هو الاشغال السياسية وتوسط لديه فى ارجاع المذكور للخطة السابقة بادر بالاجابة بالقبول ولما انتهى الامر للوالى استفظع النازلة سيما وقد سمع بعض القناصل بذلك وأوغر بالانكار بل ربما قال بعضهم انه يعد ذلك اهانة لهم وحصل من المتوسط أيضا

التشديد في الاتمام بمقتضى القبول الذي اجابه به الوزير ابن اسمعيل وهو وان لم يكن اذذاك وزيرا للخارجية الا انه علم ان كلامه رسمي مثل وزير الخارجية وانكر ابن اسمعيل التعهد بالقبول وانما قال انى وعدت بابلاغ الوالى المطلب فقط وتفاقم الخلاف الى ان استرضى الطالب ووظف المذكور وظيفة مخترعة وهى كاتب سر الوالى بالفرانساوى وجعل له مرتب اثنا عشر الف سنويا ثم ابتدأت نازلة المكنت دى صانسى فالح الوزير ابن اسمعيل فى تعجيل فصلها وكان فيها ماسيرد خبره ثم جاءت نازلة وصل السكة الحديدية التونسية بسكة الجزائر وذلك ان الشركة التى بيدها المنحة وشرعت فى العمل بها بعد ان قربت ان تصل ببلاد باجه لزمها وصل السكة المذكورة بسكة الجزائر لانها ان لم تصلها اتوقع الخسارة وبفوتها تيقن ربح الخمسة فى المائة لان دولة فرانسا ضامنة للشركة المذكورة ربح الخمسة فى المائة على ما تنشئه من الطرق الحديدية بافريقية وتتصل بالجزائر ودولة فرانسا انما ضمنت ذلك لانه مما يعمل به كثيرا فى الممالك الاروباوية لترغيب ارباب الاموال فى انشاء المنافع العامة مع تحقق الربح من اموالهم وهى لا تثقل عليها مثل ذلك لغناها وكثرة مواردها من الطرق الحديدية فعلى فرض خسران جهة من الجهات فى الطرق يعدل بالربح الحاصل من الجهات الاخرى واذا بقيت طريق تونس غير متصلة بالجزائر لا تحصل الشركة على الضمانة المذكورة فلذلك قدم الى تونس زعماؤها وطلبوا وصل السكة مستندين الى الفصل الثالث عشر من الاتفاق الذى بايديهم فى اصل المنحة من الشركة وهو ان الشركة يسوغ لها مد فروع يمينا وشمالا عن الخط الاصلى بعد الاتفاق مع الحكومة على جهة المركز الواصل له الفرع وعلى جهة مروره وان المقدار الذى بين نهاية الخط الاصلى وبين حدود الجزائر لا يبلغ الى مقدار طول الفرع الذى لهم الرخصة فيه وهو خمسون كيلومتر واى نحو خمسة واربعين ميلا وانهم غاية ما يطلبون الاتفاق على تعيين المركز المنتهى اليه وتعيين جهة المرور كما يطلبون مد فرع الى جهة الكاف بمقتضى الرخصة الاولى ايضا فنالت النازلة فى البلاد وعند رجال الحكومة اهمية تامة لا بالنظر الى فرع بلد الكاف لانه خال عن كل شائبة وليس فيه الا النفع وانما الاهمية من حيث وصل الطريق بالجزائر وكثرت الاقوال فى وجود مليون ومائتى الف فرنك لتيسير اسباب الوصول الى المقصود وتولى امر الحرص فيها الوزير ابن اسمعيل وكان القنسل الفرانساوى معينا الى الشركة على غير الطريقة الرسمية وانما هو من باب المجاملة والنصح ويود فصل النازلة من غير ان تدعو الى تداخله

الرسمى

الرسمي باستنجاده من الشركة على ما يمكن ان تدعيه فيبرا الوزير محمد اذ ذاك من تحمل العبئ وعقد لها مجلسا تحت رياسة مستشار الخارجية واعضاؤه ثلاثة تونسيون واثنان فرانساويان واثنان طليانيان وكاتب انكليزي والجميع من متوظفي الحكومة فتفاوضوا في المسئلة لكن مع الاشارات المتواردة بالتعجيل واختلف رأى المجلس هل ان الفصل ١٣ المستند اليه من الطالب يقتضي ذلك أم لا لانه بالنظر للخريطة يتبين ان المقدار المطلوب ليس بفرع بل هو تطويل لاصل الخط حيث يتجاوز منتهاه النقطة الاصلية المنتهى اليها الخط الاصلي في البعد ولكن الذي ترجح عند أغلب المجلس أنه يصدق عليه انه فرع اذ لم يقيد الفرع بعدم تجاوزه نقطة الاصل ومع هذا فان الاستناد الى ذلك الفصل لا ينتج المطلوب لانه ولان تضمن امكان امداد أحد الفروع ضمنا يعارضه التصريح القطعي بفصل خاص وهو أن الوصل بطريق الجزائر ليس للشركة عمله ولا رخصة لها فيه الا باتفاق جديد ولهذا خصص أيضا بان الحكومة ليس لها اعطاؤه لغير الشركة المذكورة وهو حجة قطعية بان ايصال طريق الحديد لحدود الجزائر لم يعط مدة وزارة خير الدين بل انه شرط عدم الايصال للحدود وان اعطاء الرخصة للشركة الفرانساوية في ايصال الطريق للحدود هو امتياز جديد أعطته الحكومة التونسية بعد خروج الوزير خير الدين من خطة الوزارة ولهذا انتقل الكلام الى أن الوصل هل للحكومة عمله أم لا فتذاكر الجميع في منافعه ودفع الاعتراضات والمضرات الناشئة منه بما تقدم بيانه عند الكلام على وزارة خير الدين بل زاد بعضهم ان قال انه اذا لم يصل تحقق المضرة المالية للحكومة بان ما يصل الى المركز النهائي يقرب من الحدود مع عدم انحصار جهة الخروج منها فتحمل النتائج على ظهور الحيوانات وتخرج الى الجزائر من غير أداء اضرائب الحكومة الى غير ذلك من المصالح ودفع المضار ومما عساه ان يقع من الارتباكات السياسية عند الامتناع من الوصل ولما كنت أحد أعضاء ذلك المجلس وافقت على ما ذكر غير اني لاحظت شيئين (أولهما) ان الوصل الى الحدود يلزم منه تعيين الحد وهو واقع فيه خلاف وطال النزاع فيه مدة أحمد باشا وليس للحكومة أن تعين الحد وانما ذلك يتوقف على اعلام الدولة العثمانية وهي التي تعين الحد (وثانيهما) ان وصل الطريق ينشأ عنه كثرة القادمين من رعايا الجزائر لسهولة الانتقال وقرب الوقت ورخص المصروف وذلك هو موجب رواج التجارة وان الخلائق من كل نوع فيهم المستقيم وغيره فاذا كثر الوارد من رعايا الفرانسيس وحصلت كثرة المخالطة استدعى ذلك كثرة الخصومات الطبيعية

وليس لحكام تونس الحكم فى نوازلهم بل النوازل ترفع الى القناصل وأين هذا فى قبائل العربان التى يمر بها الطريق بل وفى نفس البلدان ليس لاتباع الحكام وضع اليد على المطلوب فيفعل المتعدى ما يريد و يركب و يرجع الى بلاده قبل ان يصل العلم الى حاكمه فيجر ذلك الى ضياع الحقوق سواء كانت للاهالى وهم الاكثر أو لغيرهم ويضطرون الى اعمال وجوه يتوصلون بها الى حقوقهم ربما أوقعت البلاد فى ارتباك أو خروج الرعية عن حكمها ولا مندوحة عن هذا الا باتحاد الحكم وقد كان السعى فيه من قبل ودولة فرانسا موافقة على أصله فلم يبق الا انجازه ولذلك لا تمكن الموافقة على وصل الطريق الا بالوجهين المذكورين فقيل لى ان لهاته المسئلة التجارية من تعليقها بمسئلة الحكم وهل ترضى باتحاد الحكم جميع الدول حتى تدخل فرانسا معهم اذ لا ترضى بذلك وحدها فقلت ان كانت نازلة الطريق تجرية محضة فلا ضرورة لنا تحملنا على اقتحام المسئلتين السياسيتين المشار اليهما الا بعد التخلص منهما او مضرتهما تعدل وتفوق على المنافع المشار اليها أولا وان كانت النازلة فيها شائبة سياسية ففرانسا تعيننا فيما يتعلق بها بجلب موافقة الدول على اتحاد الحكم وتبدأ بنفسها الان الداعى معها وهو اتصال المملكتين وسهولة الوصلة بالطريق الحديدى على ما شرحه لا تشاركها فيها بقية الدول فاذا رأوا جريان العمل بذلك مع جلبها الوفاق فهم يغلب على الظن توافق الجميع وكانت هذه الملاحظات هى مبدؤ رمي بضدية قوم ومعاكسة آخرين وأغلب الاعضاء انصفها وتكررت المذاكرات حسبما هو طبيعى فى تعدد الآراء وكلف فى اثناء ذلك أحد الاعضاء بصورة الشروط التى يمكن أن يقع عليها التعاقد وبينما المجلس يوما فى اثناء المذاكرات واذا بالخبر بان الوزير بن اسماعيل أخبر بان القنسل قادم على الوالى ذلك اليوم للحرص على النازلة وانها لا تتحمل زيادة الطول فمن ذلك التاريخ خرجت النازلة عن كونها شورية حقيقية وعدلت الشروط المشار اليها فى أقرب وقت ودفعت أولى الملاحظات المشار اليها بالنص على أن مركز القمرق لا يكون علامة على الحدود وانظر هل يجدى ذلك أم لا كما دفعت الملاحظة الثانية بان تكتب بانفرادها فى أوراق الوزارة لتكون اشارة على الحكومة فى السعى على مقتضاها وأبقيت فى خزانتها مع تقرير كل ما وقع فى المجلس وأمضيت المنحة وسمع ممن ناجزها وسعى فيها انها من تصرفات الوزير خير الدين والواقف على كل ما قررناه يحكم بانصافه ثم أرسل هذا الوزير من الوالى لتهنئة ملك ايطاليا أمبيرتو بالولاية عوضا عن والده ثم سافر الى معرض باريس

واحتفل

واحتفل به الوالى العام بالجزائر واجتمع فى باريس برئيس الجمهورية ورجال السياسة وذاكر بعضهم فى فتح البحر بالصحراء الكبيرة من خليج قابس وعدد له منافع تنشأ من ذلك للجريد وذكر له أوصاف الجريد التى هو عليها الآن فتحاشى الوزير ابن اسمعيل من الخوض فى النازلة لانه يخشى من المذاكرات السياسية بانه كان فى سن الصغر لما كان الوالى يسافر الى تلك الجهات ولذلك لم يكن يعرفها وان المذاكرة فى النازلة تجرى فى الوزارة بتونس فتعجب المخاطب من الجواب ثم شاع الخبر بالاستعانة ببعض نواب الدول على توجيه الوزارة الكبرى الى الوزير ابن اسمعيل وان بعض النصحاء صرح له بان الوظيفة ما آلها اليه لتوجه عناية الوالى اليه فلا داعى الى الاستعانة بالاجانب على ذلك لانه يفتح بابا غير مناسب فان الذى يستطيع ان يعين على الولاية يستطيع ضدها عند ما يريد فلم يفد ذلك ثم استقرت ولاية الوزير ابن اسمعيل الوزارة الكبرى فى شعبان سنة ١٢٩٥ على الكيفية التى تقدم ذكرها فى استعفاء الوزير محمد واستبد الوزير ابن اسمعيل بالتصرفات وحصلت فى البلاد تزيينات تشبها بما وقع عند عزل الوزير خزندار وقد علموا ما بعثهم على ذلك اذ ذاك وأما هاته فكانت امتثالا لما أشير به عليهم بالايعاز من الاتباع فحدث فى هاته المدة أمور فى الحكومة والقطر (فمنها اتفاقهم) الامر فى نازلة دى صانسى وخلاصتها ان هذا الرجل الفرانساوى كان منح فى وزارة مصطفى خزندار ان تعطى له أرض قدرها اربعمائة ماشية كل ماشية كيل مائة واثنين وتسعين حبلا وكل حبل طوله خمسون ذراعا على ان تكون الارض قابلة للزرع والسقى ويعطى له ذلك المقدار على أربعة أقساط مهما وفى بشروطه فى سنة يعطى له قسط وعلى ان تعفيه الحكومة من جميع الاداآت واشترط عليه ان يربى فى الارض المذكورة أنواعا ثلاثة من الحيوانات وهى الخيل والبقر والغنم فى كل مائة ماشية عدد خاص من الانواع المذكورة على ان تكون الانواع من أحسن الموجود فى القطر أو خارجه الى غير ذلك من شروطه وهو يبيعها لمن شاء وليس للحكومة شئ فى عوض ذلك الا تحسين الانواع المذكورة فى القطر فمضت آجال منذ قبوله للارض الاولى وادعت الحكومة عدم وفائه بالشروط وادعى هو التعلل بانها هى لم توف له أيضا حيث طلب الاعفاء من الاداآت التى بواسطتها أيضا وكان ذلك فى مدة وزارة الوزير خير الدين فآل الامر بعد ان كادت ان تفصل النازلة بالمرة وبعد ان عقد لها مجلس من موظفى الحكومة الى اجراء مطلبه وأخذه القسط الثانى من الارض واسقاطه كل

دعوى فيما تقدم تاريخه فلم يوف بما اشترط عليه أيضا وادعى ان سبب ذلك تداخل تونس فى حرب الروسيا وان الارض التى أخذها ليست كاملة المقدار وانها ليست بكاملة الصفات وانها لم تعف مما هو مشروط وان الحكومة لم تحم حقوقه من التعدى عليه من الاهالى فعقد لذلك مجلس تحت رئاسة الوزير ابن اسمعيل فى مدة وزارة الوزير محمد وطالت المراجعات بين الحكومة و بين دى صانسى والقنسلاتو الى أن ولى الوزير ابن اسمعيل الوزارة الكبرى فحرص فى اتمام النازلة وتخليص الارض من يد المذكور وانعقد لذلك مجلس من موظفى الحكومة من الاهالى والفرنساويين وتكررت المراجعات الى ان استقر الرأى على ان لاحق للكنت المذكور فارسل الوزير ثلاثة من موظفى الحكومة مع مصاحبة قنسل أوستريا لحوز الارض المذكورة والشهادة على كيفية الحوز وقبيل ارساله أعلمه قنسل فرانسا بان الاولى الصلح فى النازلة بان يضرب لصاحب المنحة أجل ثان للوفاء بشروطه ويسقط جميع دعواه فان لم يوف تخلص دولة فرانسا الارض منه وترجعها للحكومة تونس وبدون ذلك لا يمكن تسليم الارض الا بمجلس تحكيم مختلط وانه لا يسمح لاتباع الحكومة بالدخول الى الارض وان أتوا للاستيلاء يجدون من يعارضهم من أتباع القنسلاتو فلم يقبل منه ذلك وعند وصول الرسل منعهم أتباع القنسلاتو من الدخول بالكلام فرجعوا وكتبوا التسجيل حالا فورد من قنسل فرانسا طلب (أربعة) مطالب (أولها) طلب الترضية من الحكومة (ثانيها) القاء المسؤلية على من تسبب فى النازلة (ثالثها) عقد مجلس مختلط للنظر فى اثبات دعاوى دى صانسى أو عدمها (رابعها) الجواب عن ذلك قبل مضى يومين والا فانه يقطع الخلطة وشاع بالايعاز ان المراد بالقاء المسؤلية هو عزل الوزير فاضطرب الوالى والوزير واشتد الخوف وقال بعض الاجانب ان قطع الخلطة لا يعقبه الحرب فتربصوا حتى تعلم الدول ولعله يكون منهم التداخل فتنفصل النازلة بوجه آخر ولم يقع من أحد القناسل جواب مقنع فى عدم خوف الحكومة لعدم وصول الاخبار التلغرافية وضيق الوقت ولم يعلموا الدولة العثمانية وسعى أمير الالواء الياس عند القنسل بالوجه الخصوصى بان يكون الوزير فى امان ويجاب بجميع المطالب على ان يعزل الكاتب الذى توجه فى النازلة وهو الحاذق الفطن المتفنن دايد سنطليانه الذى على صغر سنه كان يحسن سبع لغات ومطلع على السياسة ونصوح لتونس كاتز النصحاء ووفى بجميع لوازم وظيفته و يقال ان سبب الرضاء بعزله هو شخصيات نفسانية فارسل الكاتب

استعفاءه

استعفاءه قبل العزل وقبل ووقع الرضا الشفاهي بان يكون ذلك نهاية المؤولية التي هي احدى المطالب ووقعت الاجابة الى المطالب من الوالي بعد ان كتب تلغرافا الى وزير خارجية فرانسا بانه يريدان يرسل له رسولا خاصا ليشرح له النازلة فأجيب بواسطة القنسل بان لا فائدة والحالة هاته في ذلك وان القنسل معتمد من قبل دولته فاجاب الوالي حينئذ بالقبول ونزل الوزير ابن اسمعيل الى القنسلاتو باللباس الرسمي ترضية عن الواقعة ثم عقد مجلس برأسه موسيو فولون أحد أعيان الحكام الفرانساويين وكان رئيس مجلس التحقيق بالجزائر وهو رجل منصف عفيف واعضاء المجلس اثنان تونسيان واثنان فرانساويان وبعد التروي في مجرد دعاوى دي صانسي هل هي واقعة أم لا عدا دعوى التعطيل بالحرب استقر الرأي على ان مقدار الارض بالقيس الهندسي الذي لم يجر بكيفيته العمل في تونس هو ناقص وان صفتها مطابقة للشروط وان الاعفاء لم يقع لان شروطه لم تقع وان حماية الحقوق موفاة من جهة الحكومة ثم بقيت الارض بيد دي صانسي الى الآن وعند قبول الشروط كوفئ أمير الالواء الياس بولايته مستشارا ثانيا بالوزارة الخارجية ومما حصل أيضا انه ورد على تونس أحد الفرانساويين وطلب انشاء مرسى أمنية للسفن على شاطئ قرطاجنه قرب حلق الوادي وألح على ذلك وتخوف من منعه فاعطى خمسة وعشرين الف فرنك لكي لا يتشدد وأعطى الى أمير الالواء الياس عشرة آلاف ريال لتوسطه عنده بان يرضى ولا تعطى المرسى وكذب في الصحيفة الرسمية ان كون اعطاء المال كان بسبب طلب قنسل فرانسا (ومنها) جعل موكب لاحراق تذاكر الكبون أي الفائض الذي استخلص من مبدء الكومسيون الى ذلك الوقت وجازى الوالي الوزير ابن اسمعيل على ذلك الاحراق بالسيف المرصع الذي أنعم به من طرف الخلافة (ومنها) ان أحد العمال من اشراف مساكن ولي على قبيلة المثاليث فادعى عليه بانه أخذ منهم زائدا عن موظفات الحكومة نيفا ومائتي ألف ريال ولم يجر الحساب على مقتضى الانصاف المطلوب فطلب تحرير الحساب بمحضر أعيان من ثقات الحكومة فلم يجب وقبض به اثنان من اعوان الوزير ومنعوه من الخروج من داره الى ان تخلص منهم بحيله ورمى بنفسه من احدى طواقي علوه والتجأ جاريا الى قنسلاتو انكلترة فدخل بها صائحا مستغيثا وأغمي عليه ولما أفاق سأله القنسل عن سبب حاله فقرر انه عذب بربط يديه واحراق الحطب في وسط بيته والسكر فيه اوصب الخمر أو القاذورة على رأسه وغير ذلك من أنواع التعذيب

ليؤدى المال وأخذوا منه ما اجروا على ذلك خمسة عشر ألف ريال وآل الامر الى طلب القنسل اعادة الحساب فامتنع الوزير من ذلك وحصلت بينه وبين القنسل نفرة ودامت مدة الى ان ابدل القنسل المذكور لفراغ مدة خدمته بالسن وهو مستر ريتشارد وود ورقته دولته ثم جاء خلفه وصولح العامل المذكور باقل من ربع ما ادعى عليه يدفعه على اقساط (ومنها) ان أحد اغنياء الساحل الملقب بابن الحفصية ادعى عليه بانه اشترى زيتا من الوزير وكتب عليه حجة بنحو ثلاثين ألف ريال فتلطف بالتخلص فلم يفد ثم طلب ان يتوجه الى جهة الافرنج ليستقرض منهم ويدفع فارسل معه أحد الاتباع لمراقبته ولما وصل تجاه قنسلاتو فرانسا دخلها مستغيثا فتلقته أعوان القنسلاتو وقرر نازلته واجتهد القنسل فى حمايته لما ثبت عنده ظلمه وحماه من ذلك ولم يخرج من هنالك الا وهو وجميع عائلته تحت الحماية الفرانساوية وتراقم الامر فى الساحل على ذلك النوع الى ان كتب أحد القناسل الى نوابه بقبول كل من يلتجى اليهم وكتب تقريرفيما هو واقع فاحس الوزير ابن اسمعيل بذلك فاستعفى من ولايته عاملا على الساحل وتلطف للقنسل بان يكون ذلك ختام النازلة فانفصلت على ذلك (ومنها) ان أحد التجار الملقب بالصباغ الذى تقدم ذكره عند الكلام على الوزير مصطفى خزندار اقرض أهل مساكن فى نكبة الساحل العامة سنة ١٢٨٠ اموالا اسلما على الزيت وتضاعف أمرها الى ان عجزوا وسجنوا مدة طويلة فلما ولى الوزير ابن اسمعيل على الساحل توسط فى الصلح مع التاجر على ان يتحمل هوله بما يطلبه منهم وهم يدفعون ذلك للوزير على اقساط فسرحوا على ذلك ونقل الناس عن التاجر المذكور ان المال اسقطه هو عن الوزير ابن اسمعيل لتوسطه فى ارجاع بستان الوزير مصطفى خزندار بمنوبه الذى كان دفعه فى الصلح عن مطالب الحكومة منه كما سبق ذكره وان لم يرجع البستان الا لورثة خزندار عند موته وانما فعل التاجر ذلك للعلاقة بينه وبين خزندار المذكور وبقى الوزير ابن اسمعيل يستخلص المال من أهل مساكن شيأ فشيأ هكذا شاع عند من سمع من الصباغ (ومنها) ان أحد اتباع الوزير ولى على قبائل جلاص فالبث فيهم مدة الا واقبل منهم فوج عظيم شاكين الى الوالى بانهم ضربت عليهم غرامة بنحو مائتى ألف ريال زيادة على أموال الحكومة ووقع فى النازلة مبادى هرج الى أن صولحوا برفع الغرامة وابقاء العامل (ومنها) تكاثر الجعائل على الوظائف من العمال فقسمت لذلك بعض القبائل كالهمامه وعادما تخوف الناس منه من

امتداد

امتداد الايدى الى الاموال حتى أشاع بعض العمال انه شريك للوزير فيما يستلزمه من أنواع الدخل وبسبب ذلك انحطت بعض المداخيل فلزمة غابة الزيتون سنة ١٢٩٧ أخذها تابع الوزير ابن اسمعيل بسبعة وعشرين الف مطرز يتا وأحجم عن الزيادة عليه سائر الاهالى لما أعلن التابع ان أخذه لها شركة مع الوزير وليست هاته مما يتقدم اليها الاجانب الذين لا يخشونه لانها تحتاج الى ممارسة الاعراب ولم تسبق لهم عادة باستلزامها (ومنها) ان قبيلة تسمى بالقوازين من المنتسبين الى أحد الصالحين وعددهم لا يبلغ الى الثلاثمائة رجل يسكنون فى الجهة الجنوبية فى حدود الصحراء كانت الحكومة منذ قديم معفية لهم من الاداء لقلتهم وقلة كسبهم واستمر الامر على ذلك الى سنة ١٢٩٦ فاريد الزامهم بالاداء فامتنعوا متعللين بالعادة والحال فالح عليهم وتهددوا بالغصب فتحملوا باداء شئ من المال سنويا على انهم يوزعونه على أنفسهم من غير أن يتداخل العامل فى عددهم وتوزيع المال عليهم مثل ماهو جار فى بعض القبائل المتوحشين كورغمه ومطماطه وشبههما وكان الفرق بين ما يمكن ان يحصل عليه وبين ما أرادوا هم اعطاءه بانفسهم لا يتجاوز الالفى ريال على ما قرره أحد العارفين بهم فامتنع الوزير من مساعفتهم وأذن بغصبهم واستعمل لذلك بعض القبائل الذين لهم معهم عداوة مع بعض العساكر الخيالة الغير المنضمين المعروفين بالجوانب والصبائحية فعاثوا فيهم وقتل منهم كثير حتى النساء والاطفال بتمزيق جثثهم رحمهم الله (ومنها) ان رئيس أطباء الوالى طلب أن يكون بالحاضرة مستشفى على النحو الاروباوى فتم ذلك بمال الاوقاف وانتظم أمره وقد وفيت فيه بكل ما تحتاج اليه المرضى وتتم به راحتهم حيث كنت أنا المباشر الى انشائه وجعلت فيه قسما منفردا خاصا بالنساء وكل ما يصرف على الداخل من المستشفى يكون من فواضل مال الاوقاف ولا يعطى المريض شيأ ولهذا اشترط أن يكون الداخل اليه فقيرا كما جعلت به قسما منفردا خاصا بالاغنياء ويقوم المستشفى بجميع لوازمهم على أحسن حال علاجا وسكنا ويعطون عوض ذلك قدرا زهيدا من المال وجميع أدوات هذا القسم من الاسرة والخدم والفرش مماثل لحالة بيوت الاغنياء المقتصدين فى مصاريفهم وفائدة هذا القسم ان كثيرا من أهالى الحاضرة اذا مرض لا يجد من يوفى له بواجبات العلاج للجهل من العائلة مع انهم يستكثرون أجرة الطبيب فيندفع عنهم ذلك فى المستشفى وهناك فائدة أكبر من هاته وهى أن أغلب بلدان القطر خلية عن الاطباء وكثيرا ما يأتى منهم أناس للتداوى بالحاضرة فلا يجدون مأوى سوى

منازل المسافرين التي تسمى وكائل وهي غير صالحة لمثل ذلك فتحصل لهؤلاء هاته الثمرة مع الاشتراك في الفائدة المقررة لاهل الحاضرة (ومنها) أن الوزير ابن اسماعيل استوهب من الوالي الاوقاف التي كان حبسها علي باشا الثاني على الاناث من ذريته فسمي في جعل بينات تشهد بملكيتها في مدة وزارة خير الدين وعطلها اذ ذاك الوزير المذكور ثم بعد خروجه تمت الهبة وبقيت الاوقاف عنده بالهبة ولما تكاثرت عنده الاراضي المسماة بالهناشير المختلفة كبرا وصغرا باع منها عددا وافرا الى لجنة فرانساوية وغيرها (ومنها) انه استوهب من الوالي أيضا مصيدة السمك ببحيرة المستير المسماة بالتنارة ثم احالها الى لجنة أخرى كذا اشاع أيضا (ومنها) عمل طريق بين باب البنات وباب سويقة من الحاضرة قرب دار الوزير وفيها أكثر مروره الى جهة باب البحر (ومنها) أن أحد الاغنياء من الاهالي توظف في الحكومة المسمى بمحمد عريف توفي رحمه الله عن غير ولد وكانت له بنات من ابنه فاوقف كسبه عليهن وعلى من يتزايد له وبعد وفاته وضعت زوجها فكان ولدا ذكرا ثم توفي في أثر ذلك وكان للمتوفي ابن عم فتعاضد مع الزوجة وأرادا أن يبطلا الوقف المذكور ليصير المخلف ارثا فيرثان أغلبه واستعانا بتابع الوزير المسمى علي ابن الزي على مواعيد له وقد كان القاضي جعل وصيا على البنات وحفظ الوقف والمنقول فطلب التابع ان ينقل حكم النازلة من الشريعة الى الوزارة على خلاف الديانة والعادة من تحكيم الشرع في المواريث والاوقاف وارسل الوزير الى القاضي مكتوبا بان يسلم رسوم الوقف الى كاتبين أحدهما من خواص الوزير والثاني من الوزارة مع الوعد في المكتوب بان الوزارة بعد الاطلاع على الرسوم ترجعها وكان المتسلم لها أبو الزوجة وهو وكيلها مع أحد الكاتبين فطال الزمن وأبلغ الوصي الى القاضي التخوف على الرسوم اذ شاع انها سيقع فيها تغيير فارسل الى أبي الزوجة والى الكاتب اللذين تسلما الرسوم بطلب ترجيع الرسوم فأبيا فاحضرهما فامتنعا فسجن ابا الزوجة حيث انه هو المتسلم وأخبر بان الرسوم بعلو في داخل المحكمة الشرعية هو محل اشتغال الكاتب المذكور حيث كان من شهود الاوقاف وذلك العلو هو مكان اجتماعهم فبعد أن الح القاضي على الكاتب وامتناعه أمر بان يمنع من دخول العلو خشية اخراج الرسوم منه وبقي القاضي يجعل حكمه على الهيئة الشرعية حسبما سبق التعريف بذلك من كون أهل الشرع بتونس لهم من التعظيم والتوقير قريبا مما كان عليه الحال في الاعصر المعظمين للديانة وشعائرها فما كان غير بعيد الا وعلى ابن الزي المذكور رقارم فضرب باب العلو برجله وكسر قفله وأمر الكاتب بالصعود

واخراج

وانواج الرسوم واخرج المسجون وامره بالذهاب حيث شاء وقدم على القاضي وباشره بما لا يناسب ذكره وفشا الخبر وعظم الامر عند العلماء والعامة الى درجة لم تعهد فأبطلت الدروس من الجامع الاعظم واغلقت دار الشريعة وكثر اللغط وسرى الى خارج الحاضرة وأبلغ أمر النازلة الى الوزير ابن اسماعيل فاراد أن يهون النازلة بمنع تابعه من القدوم الى تونس وأرسل معلما الى القاضي بانه سجنه فلم يلتفت لذلك العلماء وتقدم الشيخ أحمد بن الخوجه شيخ الاسلام وجمع العلماء مرارا واظهر أشد الانتصار للشرع وكتب جميع المجلس الشرعي مكتوبا وأرسلوه الى الوالي قصدا بلا واسطة الوزير على خلاف المعتاد وقدم به رسولهم على الوالي في مجلسه العام فقرئ عليه فاذا فيه تفصيل الواقع والاشارة الى ان الخطب عظيم فاهتز الوالي وتوقى عاقبة الامر وأحضر الجاني وأمر بنزع رتبته وحبسه ثم نفيه الى حصن جربه وقدم على أهل المجلس باشكاتب ووزير الشورى وتأسف لهم على ما وقع وهدأ بالهم بما صدر من الحكم فاقتنعوا في الجاني بما وقع ولكنهم طالبوا مواجهة الوالي وقصوا على باشكاتب المذكور ما هو حال بالقطر مما تقدم شيء منه الى أن بلغ الحال الى تلك الدرجة وتوقعهم لما هو أعظم وكان شيخ الاسلام يبكي على حالة من لا أرب له في الدنيا وكل تكلم بما بدا له من فظاعة الحال فابلغ باشكاتب ما سمع وما رأى فاضطربت أفكار الوالي وتكاثر الكلام في الناس وكانوا كلهم على كلمة واحدة في اتباع أهل المجلس الشرعي ومما ذكر اراد تم انهاء الامر والشكاية الى خليفة المسلمين وطلب اجراء ما تضمنه الفرمان المؤرخ في شعبان سنة ١٢٨٨ من اجراء العدل والانصاف في الرعايا وبلغ الوالي قصد العلماء وهو طلب تشكيل مجلس للنظر في المصالح وفي أعمال المأمورين لكي لا يقع مثل ما وقع وخشي مما شاع من تداخل الخلافة الكبرى لظنهم ان السلطان لا يرضى بضياع أهالي تونس لمخالفة السيرة الادارية لما هو مشروط في الفرمان السلطاني سيما وقد بلغ الامر الى ما هو راجع الى الشرع وحمايته وان ذلك أيضا يجري الى تداخل بقية الدول العالمين بقبح السيرة مع كون الصدر بالدولة العثمانية اذ ذاك هو خير الدين باشا الذي يراه عدوا له فارسل الوالي الى العلماء ثانيا يقول لهم امهلوني بضع أيام فان جعلت ترتيبا سياسيا يقنعكم فاقدموا الى حينئذ شاكرين والا فلكم ان تبدوا ما يظهر لكم وكان هذا رأى أشير به على الوزير بان يعمل كما قيل بيدي لا بيد عمرو وخشية تفاقم المطالب على ذلك النحو ووقع اذ ذاك مبادي انحلال في عزم أهل مجلس الشريعة لان رئيسهم تقرب اليه الوزير سرا فانحط

حرصه وتوجهت أطماع البعض الى المسابقة لارضاء الوزير فاجابوه بنعم ثم جمع الوالى وزراءه وأعلمهم متأسفا من مطالب أهل الشريعة بانه يريد ان يجعل مجلسا مركبا منهم أى من الوزراء ورؤساء الادارة دون غيرهم من الاهالى للنظر فى المصالح وجريان السياسة فاجابوه بان ما يظهر له حسن فهو حسن وكان هذا الجمع من الوزراء والمستشارين مشتملا على جميعهم حتى ان الوزير حسين كان اذ ذاك قدم من ايطاليا لمصالح فى مأموريته فصادف الواقعة وكان ممن وافق الوالى على رأيه فى جعل المحتسب والمحتسب عليه واحدا خلافا للمعقول ولما يعلم من طبعه من لزوم الاحتساب الحقيقى على تصرف المأمورين بثقات من الاهالى الى غير ذلك من أوجه العدل ومع هاته الموافقة فلم يسلم من القدح ثم ان الوالى أرسل لاهل الشريعة يعلمهم بانه أنشأ مجلسا مؤلفا من عشرة أعضاء تحت رياسة الوزير ابن اسماعيل وأعضاؤه هم الوزراء والمستشارون وبعض رؤساء الادارة ولما بلغ لاهل الشريعة ذلك قالوا ليس قصدنا المتوظفين لانهم دائما تحت الامر ولا خبرة لهم بما فى أطراف القطر وانما المراد أن يكون المجلس من المتوظفين والعلماء واعيان من البلاد والعربان ولا أقل أن يكون عددهم ثلاثين عضوا وانهم لا يقصدون الا مصلحة البلاد لانهم ليس لهم غرض الا هناء القطر وهناء الوالى وقيل أن قنسل فرانسا صرح بانه لا يتعرف بالمجلس وانه ان أراد الوالى الاستعانة بعساكره لردع الطالبين فهو حاضر له حيث أن طريقة الوزير هى التى تبلغه الى قصده كما ذكرناه فى محله ثم لما بلغ الوالى جواب العلماء أرسل اليهم بانه يزيد اثنين من رؤساء المتوظفين وأن هذا المجلس ينظر فيما يقتضيه الحال من الكيفية ويجرى العمل به وكان فى اثناء هاته الايام دبت السعاية بالترغيب لبعض العلماء والترهيب لهم من تداخل الاجنبى بلا مستند فرضى عدد منهم بذلك وكان سيما فى تمكن الفيض على من زيد حيث انتهى رضاه المقترحين عند ذلك وصرح الوالى بما يشف عن ذلك والله المطلع على السرائر ثم جعل هذا المجلس فى نفس الامر اذا اجتمع يعرض عليه ما يريد الوزير والاغلب أن يكون المعروض هو بعض النوازل التى تعرض بقلة ولما كان أغلب الاعضاء يسايرون الوزير لم يظهر لوجوده من أثر اذ لا يتداخل فى نصب ولا فى عزل ولا سيرة عامل اوشاهد ذلك الخارج فانه لم يمض عليه شهران حتى وردت الرسل على شيخ الاسلام بان يتشفع فى الجانى على الشرح فلم يوافق جهرة بل أظهر زيادة الامتناع ثم سودت سرا بطاقة الى المنفى ليكتب على غطها مكتوبا لاهل المجلس الشرعى ولما ورد مكتوبه على نحوها

كتبوا

كتبوا الى الوالى مستشفعين بعدان امتنع بعضهم وقيل عند ماه مع بذلك ليت شعرى ماهو وجه كتبهم مع علمهم بالحقائق ومنها انه شرع الوزير اثر ماتقدم فى بناء دار شيخ الاسلام المذكور بتونس وكذلك داره بجبل المنار وكثر تردد تابعه الجانى المذكور عليه حتى نشأ عنه قيل وقال بسوء جانب العلم والخطة ومنها انه اشتكى بعض السكان فى مطاب له من تابع الوزير المذكور الى القاضى فلما ادعى للجواب امتنع وورد الاذن الى القاضى الشرعى بان المذكور لاترفع نوازله الا للوزارة فليس له النظر فيها وقد علمت سابقا ماهى حالة احترام الشريعة وحكامها ومنها بناء محل للكرنتينة أى الاحتماء للواردين من الاقطار التى يكون بها مرض عام معدى وبنى ذلك بحسب رغبة الاجانب وحرص رئيس أطباء الوالى وجعل له طبيب خاص وكان بناؤه باحدى المراسى المسماة غار الملح ومنها حصول الهرج فى القبائل بالجهة الغربية حتى ادعى قبائل الجزائر التعدى من قبيله وشناته التونسية فأرسل عليهم الوزير بعض أتباع الحكومة وشاع انهم اغتصبوا منهم نحو ثمانمائة راس من البقر أعطوهم الى قبائل الجزائر وأخذوا الانفسهم وكبيرهم خمسمائة راس من البقر ومنها ان تابع الوزير بن اسمعيل استلزم لزمة الصاغة أى دخل الحكومة مما يؤخذ على المصوغ المباع من الفضة فادعى على أحد أهالى القيروان الاغنياء من الذين يتعاطون التجارة بانه أخفى مايلزم الاداء عليه للزام وسجن وكاد أن يفلس وراد لنفسه وجها للحماية فى المستقبل ومنها ان شركة طليانية طلبت مد سلك كهربائى بين تونس وايطاليا ولم يجبها الوزير الى ذلك وكان ذلك سببا فى تعكير الخلطة مع ايطاليا بدعوى ان شروط أصل انشاء التلغراف لايقتضى منعهم ومنها جعل اداء على العجلات التى فى الحاضرة حسبما هو جار فى سائر البلدان لاصلاح الطرق ومنها منح لجنة فرنساوية لانشاء مرسى فى شاطئ البحيرة بالحاضرة بعدان طلبت ان تكون المرسى حول حلق الوادى مع انشاء طريق حديدية اليها من الحاضرة مارة على طريق رادس فمانعت فى ذلك الشركة الطليانية التى اشترت من الشركة الانكليزية الطريق الحديدية الواصلة بين تونس وحلق الوادى المارة على العوينة مستندة الى شروطها وكادان يتفاقم الخلاف الى ان أرسى على ماتقدم ومنها منح اللجنة الفرانساوية المذكورة وهى صاحبة طريق الحديد الواصلة الى الجزائر بان تنشئ طريقا حديدية الى الساحل وأخرى الى ابن زرت وان تستمد بالطرق الحديدية فى المستقبل الى أى جهة ومنها ان أحد أقارب صهر الوزير ابن

اسمعيل قتل حلاقا باطلاق مكحلة عليه فى دكانه لمشاجرة بينهما ولم يقتص منه ومنها ان أحد التجار الطليانية كان يدعى بان جده كان أتى لحمود باشا الذى توفى سنة ١٢٣٩ بشئ من السلع ولم يأخذ ثمنه وهو نحو خمسة عشر ألفا وكانت أثمرت النازلة مرارا ولم تقبل حتى عند الكومسيون المالى المختلط وحفيد ذلك التاجر صهر لامير اللواء الياس المتقدم ذكره فاعطى حينئذ ما طلب ولما كانت مالية الحكومة ضيقة والكومسيون غير متعرف بالدعوى أعطى الطالب أرضا قيل ان قيمتها نحو ستين الفا ولما ورد الاذن من الوزير على الكومسيون بان يأذن وكيل أملاك الحكومة بتسليم الارض المذكورة للطالب توقف المحتسب العام الفرنساوى فى وجه ذلك ولكن قد تمكن الطالب من الارض ومنها ان فى راس سنة ١٢٩٧ صنع بعض أتباع الوزير مصحفين على النحو الذى تقدم فى وزارة خير الدين وقدموهما للوالى والوزير بن اسمعيل فى موكب باسم الاهداء من الاهالى وانظر ماهى الخصلة التى كانت سببا لذلك ثم فى ربيع الاول من تلك السنة قدموا للوزير أيضا مثل ما تقدم سيفا مجوهرا ثم فى شوال من تلك السنة قدموا له أيضا دواة مجوهرة بقلمها باسم اليهود من الاهالى لكن الخصلة التى استحقت ذلك لم تتعين ولا فى واحدة من تلك الاشياء ومنها ان أحد المهندسين الفرنساويين كان ادعى انه مطالب للحكومة بمال مدة وزارة مصطفى خزندار وتوملت مطالبه فلم تقبلها الحكومة وكذلك عند انتصاب الكومسيون المالى عرضت عليه تلك المطالب واستقر الامر على عدم قبولها ومهما ادعى به لم تقبل ولا وجدت قناسله مستندا لتدعيم دعواه ففى وزارة الوزير بن اسمعيل قبل ان يجعل فيها تحكيم وعقد لذلك مجلس مختلط من التونسيين والفرانساويين ورئس عليه أولا أحد رؤساء الاحكام فلون الذى تقدم ذكره فى نازلة دى صانس غير انه لم يقبل كانه علم غيره لائتمامها هو عليه فقدم للرياسة غيره وصدر الحكم على الحكومة باداء المذكور نحو ثلاثمائة ألف وخمسة وخمسين ألف فرنك ومنها ان التاجر الصباغ الذى تقدم ذكره أيضا كانت له دعوى من نوع السابقة ولم تقبل لا من الحكومة ولا من الكومسيون المالى فكذلك الوزير بن اسمعيل قبل فيها التحكيم وصدر الحكم باداء الحكومة نحو أربعمائة ألف وخمسين ألف فرنك والحال ان الحكم كان صدر من الكومسيون المالى الذى هو مختلط من تونسيين وفرانساويين وطليانيين وانكليزيين وفيه أحد كبراء الموظفين من دولة فرانسا وانتصابه باتفاق الدول المذكورة على التراضي به فى جميع النوازل المالية وردهم كلا

من المطالب المارذ كرهاواستمرا لعمل بذلك أزيد من عشرة سنين مع مافيه الحكومة من العسر المالى كما تقدم شرحه وأضيف اليه استيهاب مابقى على ملك الحكومة من مهم الاملاك للوزير بن اسمعيل حتى تمم مابقى مما يعتبر منها عندماتزايد له مولود بل حتى الاحباس التى أوقفتها الحكومة على المدرسة الصادقية ارادان يأخذمنها أهمها هو وبعض من المقربين عنده بوجه الانزال أى الكراء المؤبد وعند امتناع القاضى من ذلك جعلت الاوقاف المذكورة من أملاك الحكومة وخوطب بذلك رئيس الفتوى من المالكية فانزلوها على يده فالعمال يشترون الوظائف والاهالى تحمل أعمالهم والمالية والسياسة والشريعة على ماتقدم ذكره وآخر المنح التى بلغتنا انها حصلت فى هذا العهد ان وقع الالتزام الى دولة فرانسا بان لا يحدث شئ جديد فى القطر من الاعمال العامة النافعة الابعد عرضه على الفرانساويين فان لم يوجد منهم من يريد عمله فاذ ذاك يسوغ ان يباشره غيرهم بحيث وقع التقييد فى ذلك بارادتهم وهذه خلاصة التاريخ فى القطر التونسى الى هذا العهد وهو مبدؤ سنة ١٢٩٨

تنبيه قبل طبع هذا الجزء طرأ الحادث العظيم على القطر وسنفرده بذيل خاص فى الجزء الثالث ان شاء الله تعالى عند الكلام على سياسة فرانسا الخارجية

(فصل فى بعض عوائد أهل القطر وصفاتهم)

(مطلب فى الاوصاف العامة) قد تقدم ان السكان مسلمون الاماقل من يهود ونصارى الذين مجموعهم نحو مائة ألف وأما التبصر فى أحوال الديانة فانما هو فى المدن وبعض القرى وأما فى القبائل الساكنين بالخيام فلهم معرفة اجمالية خصوصا ذوى الثروة والذين تنشأ فى أوطانهم زوايا لبعض الصالحين فيرشدهم مشايخ الطرق وأما باقيهم فيعرفون من عقائد الاسلام الوحدانية لله ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم صادقة وربما كان بعضهم لا يعرف عدد أوقات الصلوات وغيرها من الفروض العينية وكافى بانهم يتحمل به من يعلم حالهم ولا يرشدهم والكل على مذهب الامام مالك رضى الله عنه الا القليل فانهم على مذهب الامام أبى حنيفة رضى الله عنه والجميع أهل سنة الا بعض أهل جربة فهم على مذهب الاعتزال ولهم علماء ومساجد خاصة وللاهالى تعظيم لشعائر الدين ومنها الحياء فان الابن سيما من الاعيان لا يجلس أمام والده الا باذنه ولا يستنشق التبغ ولا يدخن به أمامه أبدا وكذلك أمام والدته هذا فضلا عن الكلام الفاحش أو خطاب زوجته بل حتى اذا كان له ابن صغير فانه لا يحمله ولا يخالقه أمام

والديه وبقبلون أيدي والديهم في السلام عليهم وربما كان ذلك كل صباح وهي تحية التلامذة لمشايخهم وتحية السادات الاشراف ولجميع الاهالي تعظيم كامل لهم وأما سلام الاكفاء فهو التقبيل في الكتف الا الاعراب فان بعضهم يقبل يد بعض أو رأسه ولا تكاد تسمع أحدا من ذوي المروءة يغني فضلا عن النساء اللاتي صوتهن عورة بل لهاته الصناعة أناس خاصون وفيهم من النسوة عاهرات وهن يسكن بديار في حارات مخصوصة وماذكر من الغناء ومثله الرقص خاص بالحاضرة وأكثر البلدان بخلاف الاعراب فعندهم ذلك غير معيب كما ان الاكل في الطريق أو في الاماكن المكشوفة للمارة معيب تسقط به العدالة وكذلك دخول القهاوي تتجنبه أصحاب المروءة حتى ان الاعيان ليس لهم محل اجتماع عمومي وغاية تفسحهم بالمشي في الطرق النزهة أو أماكنهم الخاصة مع أحبابهم نعم يتساهلون في دخول القهاوي في أماكن النزهة خارج الحاضرة ولكن أعيان الاعيان لايدخلونها أيضا والتدخين بالتبغ لازال معيبا عند ذوي المروءة وليس ذلك الا مجرد اتباع للعادة والا فلا فرق بينه وبين النشوق مع كثرة استعمالهم لهذا جهرة وحكم الجميع شرعا على مذهبنا الحنفي الجواز وكذلك المعمول به من المذهب المالكي لابتنائه على مسئلة الاصل في الاشياء الاباحة وهي مسئلة خلافية فقالت طائفة الاصل الاباحة حتى يرد المحرم وقالت طائفة بالمنع حتى يأتي المبيح وقالت طائفة بالتوقف والصحيح الاول لقوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا فجميع ما في الارض خلق لمنفعتنا فنستعمل كل شئ في محله الا ما ورد فيه المنع ويشهد له أيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم ان أعظم المسلمين جرما من سأل عن شئ لم يحرم فحرم من أجل مسألته وقوله عليه الصلاة والسلام دعوني ما تركتكم فانما أهلك من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم وكل من الحديثين منقول في الصحيح وكان ورود الحديث عقب السؤال عن أشياء لم يرد فيها حكم بالتحريم فدل على الاباحة وهذا التبغ لم يكن معروفا زمن البعثة وانما عرف بعد الاكتشاف على أمريكا كما تقدم فيكون حكمه هو الاباحة الاصلية وكان الاستحياء من استعمال التدخين مطلقا أو النشوق أمام الوالد والكبراء مبني على أصل آخر غير التحريم وهو انه لما كان فيه خلاف فالورع تركه اذ الورع هو ترك ما لا بأس به حذرا مما به البأس ولما كان الاصل في المؤمنين هو السلوك على أكمل الصفات فكان أهل تونس يستحيون من ترك الورع أمام ذوي المقام كما انه لا يوجد في الحاضرة أماكن

للاهي

للملاهى أى الملاعب الا فى رمضان فتكون فيها أماكن للصبيان ليلا يلعب فيها بتصاوير من وراء الستار بالخيال من الصور فى نور المصابيح ويسمى المكان خيال الظل وربما أحضر فيها نوع من السماع وصورة اللعب هى تشخيص حكاية بصور من الجلد على هيئة المحكى عنه واللاعب يتكلم على لسانها والجميع من وراء الستار بحيث يشخص للناظرين من خارج الستار كان الواقعة مشاهدة وان كانت الصور صغيرة طولها قدر شبر والاغلب أن تكون الاماكن وسخة ولا يدخلها الا الصبيان وبعض من لا مروءة له من الرعاع لتقضية الاوقات فيما لا فائدة فيه سوى السخرية والضحك واضاعة الزمان والاغلب فى الحكايات أن تكون مضحكة مما يدركه الصبيان وربما شخصوا المستحيلات العادية كالغول والشيطان اذ هذا لا يرى ولا تعرف صورته بحيث يصح أن يقال ان تلك الملاهى لا ثمرة فيها الا مجرد لهو الصبيان وكان الاصل فى اباحتها ما نص عليه فقهاؤنا فى كتاب الحضر والاباحة من جواز شراء اللعبة للصبيان فقاسوا عليه اتخاذ ملاهى لهم ليلا فى رمضان لكى يسهروا ولا يستيقظوا مبكرين فيوقظون والديهم اذ عادة الناس فى رمضان هى السهر أغلب الليل ومنهم من يستغرق جميع الليل بحيث لا يشتغلون الا قرب نصف النهار وكان هاته عادة مبنية على العبادة اذ قيام ليالى رمضان بالعبادة مندوب اليه بيد أن الكثير يشتغل بالملاهى كسماع آلات الطرب فى القهاوى أو لعب الورق المسمى بالكارطة وهو الكثير ولهم منه أنواع شتى أشهرها ما يسمى بالتريسيتى أو لعب النرد أو الدامة أو الشطرنج وهى الالعاب الموجودة فى القطر ويوجد أيضا لعب المنقلة والخربقة بقلة فى الحاضرة وبكثرة فى غيرها لكن الاعيان انما يسهرون فى رمضان أو غيره بديارهم أو ديار أصدقائهم وبعضهم بعد صلاة التراويح يسردون كتابا فى السير أو الحديث ثم يتسامرون بالكلام وبعضهم يتعاطى أحد الالعاب المذكورة وأما فى غير رمضان فعموم الناس يبكرون الى أشغالهم ولا يرجعون الى ديارهم الا عند الظهر للفطور ثم يعودون الى اشغالهم الى قرب الغروب وبعضهم ممن تكون ديارهم بعيدة عن محل اشغالهم يفطرون فى حوانيتهم ويوجد فى حارات الافرنج ملاهى على نحو ملاهى أوربا كما يوجد فيها قهاوى كثيرة على نحو قهاوى أوربا ومنازل للمسافرين مثلها ولكن أعيان الاهالى يتحاشون عن الدخول الى الجميع وان كانت مخالطتهم مع الاجانب وغيرهم حسنة وقد كان لعموم الاهالى ولوع بالفروسية ولهم فى مسابقة الخيل مواكب تسمى ملاعب يعقدها كبراء الحكومة أو كبار العمال ومن له انتساب الى الاعراب

خارج الحاضرة فى احدى الجهات المتسعة ويستدعون اليها الفرسان فيأتون باحسن الملابس والسروج المزركشة بالذهب والفضة والسلاح مثل ذلك وتارة يلبس الفارس على رأسه شيأ من ريش النعام يسمى عروج والاصل فيه تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا حمزة فى احدى الغزوات بريش كما فى عيون التواريخ والحاصل ان لبس الفرسان جميل جدا ولهم براعة فى الحركات الحربية فترى الفارس فى حال السباق يطلق ويعمر مكحلته عدة مرار وتارة يطلق أربعة مكاحل كل بحبتين ثم يطلق ترابيته ثم أربعة طبانجات ثم يخترط سيفه وجميع ذلك السلاح محمول عليه ولا يعطل له شيأ من خفة حركاته وتراه اذا اخترط السيف يصير بين كر وفر وبعضهم فى حالة السباق يدلى يده الى الارض فيحمل منها قبضة من تراب وبعضهم يفرش له بمحاذاة ميدان السباق رداء من حرير فى نهاية الصفاقة ففى حالة الركض النهائى يمد يده ويرفع طرف الرداء ثم وسطه ثم آخره وبعضهم يركض فرسه وبينما هو فى حالة السباق واذا بالفارس يقف على رجليه فوق السرج ويطلق البارود ثم يجلس ويلتصق بديد الفرس ثم يلتصق بحزام الفرس ثم يقف على رأسه ويديه فوق السرج ورجلاه الى فوق وعليهما مكحلة ثم يدفع المكحلة ويلتقفها بيده ويجلس ويطلقها كل ذلك والحصان فى نهاية ركضه وجميع أعماله فى بعض دقائق وهذا العمل الاخير من النادر فى الفرسان ومنهم من يلعب فى دائرة لا يتجاوز قطرها عشرة اذرع والحصان فى حالة الرباع بل رايت من يركب على حصانه ويركز الحصان رجليه فى الارض ويرفع يديه معا ويلتفت يمينا فيطلق فارسه القرابينة ثم يرفع يديه كذلك ويلتفت شمالا فيطلق فارسه القرابينة أيضا والحال انه عمرها فى حصة رفع الحصان يديه ويستمر ذلك كذلك بالتتابع نحو نصف ساعة وليس بين الطلقة والطلقة الا بضع ثوان من الدقائق الزمانية على غاية من السرعة والتتابع وهذا أيضا نادر ومنهم من يخترط السيف ويصير مع راجل أو فارس مثله فى غاية الطعان والكر والفر والحاصل انهم يشخصون حالات الحرب بالخيل على أنواع شتى وتكون اذ ذاك طبول الحرب تعزف ومعها مزامير للعربان وذلك أعظم العاب الاهالى التى يفتخرون بها ويتبادرون فى اتقانها وذلك مبنى على أمر دينى وهو ما ورد من ان كل لهو حرام الا ثلاث منها ملاعبة الفارس لفرسه وورد أيضا الحث على الفروسية وعلى السباق وأبيح فيه المخاطرة اذا كانت مع ثالث فلذلك كانت هاته الخصلة مما يتنافس فيها من رجال الحكومة وغيرهم فى جميع القطر لكن فى هاته المدة الاخيرة تناقص الامر منذ كثرت الكراريس

ودبما

وربما صار الكبراء يتنزهون عن اللعب بخيلهم جهرة نعم بقى ركوب الخيل مرغوب فيه كما ان الصفات الاولى لازالت عامة فى البلدان والاعراب وهو الحق لانهما من صفات الرجولية والدين ومما يشملها (قوله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وهاته الخلة تستلزم الرماية التى هى من مشمولات القوة المأمور بها فى الآية الكريمة وقد تجرد منها أغلب أهل الحاضرة حتى ان بعضهم لا يكاد يستطيع ان يطلق طبانجة كما انه لازال فى الحاضرة وبعض البلدان تعليم الخيل والبغال من نوع الهملجة وهى أن يرفع الحيوان يدا ورجلا معا من أحد شقيه على الاستقامة ثم الشق الآخر ليكون سيرها لينا لا يتعب الراكب بخلاف الخبب ثم يتقنون ذلك التعليم الى أن يصير الحيوان به يجارى الراكض ولهم فى ذلك اعتناء بحيث تجد منهم جماعات يخرجون كل عشية صيفا ونحو بها الى حد الاماكن القريبة من الحاضرة النزهة كسيدى فتح الله قرب شوشة رادس أو منوبة فى قهوة سيدى ابن الابيض أو سبالة الاحواش وبعد الاستراحة هناك يركبون ويتسابقون بالسير المذكور وربما اعتنى بعض غير الاعيان حتى بالمسابقة على الحمير بالسير وقد يوجد بعض منها يسابق الخيل والبغال مع ان هاته يمكن ان تجارى الحصان فى ركضه اذا لم يكن شديد الجرى والخيل على حسنها فى القطر يعتنون بتربيتها وتهذيب أخلاقها كى تصير مساعدة للفارس فى جميع أغراضه ثم ان الاهالى ينقسمون الى ثمانية أقسام فالاول الاصليون من البربر والثانى العرب وهم الذين قدموا عند الفتح ثم بعده على أجيال عديدة والثالث الاندلسيون وهم الذين قدموا عند تغلب الاسبنيول على بلادهم والرابع الترك وهم الذين وردوا عند الاستيلاء على تونس ثم من ورد منهم بعد ذلك والخامس السودان وهم الذين جلبوا من دواخل أفريقية لبيعهم والسادس الجزائريون الذين رحلوا بعد استيلاء الفرانسيس على الجزائر والسابع اليهود وهم قدماء فى السكنى والثامن الوافدون من أوربا فالاقسام الستة الاول تخالط نسلهم ولم يبق تمييز بينهم الا قليلا من البربر فى جهات الاعراض لازالوا يستعملون لغتهم وكذلك قليل من السودان متميزون بلونهم وقليل من أهل الجزائر يتميزون بمجرد نحلتهم وانتمائهم واللون الغالب على الجميع هو لون البياض المشوب بسمرة ومنظرهم جميل يكثر فيهم الحسن وهم أقوياء ملبون أهل مروءة وتواضع وبشاشة وحسن معاشرة

(مطلب فى التجارة) اعلم ان أغلب الاهالى تقاصر وا فى هذا الميدان وقصارى

الامرائهم يتجرون في البضائع التي تنفق في البلاد الاسلامية باخراجها اليها ويجلب ماروج من بضائعها في القطر مع ان أغلب الخارج منه والمجلوب اليه من بلاد أوربا وكله منحصر في الاورباويين الا النادر من الاهالي ثم ان قيمة التجارة بين الداخل والخارج لا يتجاوز معدلها الاربعين مليون فرنك في السنة فاما البضائع الخارجة فهي الحبوب من قمح وشعير وفول وغيرها وكذلك الزيت والصوف الساذج والمنسوجة والقطن والاسفنج وبيض السمك ولحم نوع منه ومنسوجات الحرير والقطن والشاشية وأشياء أخر زهيدة وأما البضائع الداخلة فهي كثيرة منها المنسوجات القطنية والحريرية والصوفية وانواع الاخشاب والحديد والقرميد والسكر والقهوة وأواني النحاس وغير ذلك مما هو محتاج اليه في الحضارة ولا وجود له من نتائج البلاد وحمل السلع الى خارج القطر في السفن البحرية وقد أرسى باعظم مراسي القطر وهو حلق الوادي في سنة ١٢٩٥ مايتان وسبعة وخمسون بانوة وأربعمائة وثمانون سفينة شراعية كلها للاجانب الا عددا يسيرا وأغلب الاجانب رواجا في التجارة هي التجارة الفرانساوية والطليانية وأما حمل السلع في البر فهو على ظهور الابل والخيل والبغال والحمير والعجلات المسماة بالكرطونات وواسطة المواصلة هم فرق من تجار القطر يسمون بالجمارة تكون لهم دواب وافية ويكونون ذوي عرض وامان تسلم اليهم التجار البضائع وهم يبلغونها الى جهاتها بعدت أو قربت ولكل جهة جمارون مخصوصون ولا يكون ذلك الا بين البلدان وأما القبائل الاعراب فلهم قوافل يجتمعون عند قصد احدى البلدان أو الاسواق التي تقام في أيام من الاسبوع باحدى الجهات كسوق الخميس قرب الركبة وامثاله ويحملون على دوابهم ما اشتروه ويرجعون الى أماكنهم ولما كانت الطرق الصناعية قليلة تعطل أغلب التجارة زمن الشتاء في دواخل القطر لكن الطريق الحديدية المارة الى الجزائر سهلت التجارة الى الجهات الغربية كما انه رتبت بواخر للبريد والسلع بين مراسي القطر الشهيرة زيادة على البرد التي هي ثمانية تأتي أسبوعيا من أورباثنتان الى فرانسا والجزائر واثنتان الى ايطاليا وأربع الى مالطا وقد يأتي غيرها على غير انتظام وليس للاهالي من السفن شئ الا قليلا من ذات الشراع لاهل جربة وصفاقس والساحل

(مطلب في ترتيب الاحكام والادارة) الآن الوالي يجلس يوم السبت في كل اسبوع غالبا بمحل من قصر الادارة الكائن في بلد باردو يسمى هذا المحل بالمحكمة وهو بيت كبير

مستطيل

مستطيل و بصدره كرسي ذو درج مموه بالذهب وعليه تاج معلق والدرج مكسوة بالحبر
نوع من منسوج الحرير الثخين الغالي يجلس عليه الوالي و يوضع بجنبه زوج طبانجة
و يقف عن يمينه وشماله على الدرج من حضر من اهل بيته و يقف الوزير عن يمينه من
اسفل الدرج بحيث يكون مواجها الى الجهة اليسرى من الوالي و يليه بقية الوزراء على
حسب اسبقيتهم في الوظيفة ثم يليهم كبراء العساكر النظامية ثم رؤساء العساكر الخيالة
غير النظامية المسمون بالاغوات ثم العمال والاغاباشية والكواهي اي الصنف الثاني
والثالث من رؤساء العساكر الخيالة الغير النظامية وعند نهاية الصف عن اليمين يتمون
الصف عن اليسار فان زادوا جعلوا صفا ثانيا وراء الصف الاول ويجلس باشكاتب على
مسطبة على يسار الوالي مقابلا للاول الصف الايمن ثم يليه مسطبة طويلة يجلس عليها
كتبة من أقسام الوزارات على حسب رتبهم ثم يقف تجاه الوالي عن بعد في آخر الصفوف
نحو ستة رجال يسمون شواش السلام والشطار بلباس أحمر مقصب بالفضة وعلى رؤسهم
شواشي حمر وشراباتها فضة وعليها مما يلي الجبهة قطع من النحاس الاصفر ومغروز فيها
أنواع من ريش أجنحة الطير الطويل و بايديهم معاول طوال من النحاس الاصفر
يركزونها و يتكئون عليها وعند جلوس الوالي في ذلك المجلس يرفع صوته كبير هؤلاء
الشواش بكلام باللغة التركية معناه دعاء بالنصر والتأييد للوالي ثم يرفع صوته بقوله
سلام ورحمة الله ثم يقف وراء هؤلاء رؤساء البوابة أي اصحاب الباب وتعزف الموسيقى
العسكرية عند دخول الوالي لذلك المحل وأذن اذذاك الوالي بادخال أصحاب الشكايات
فيرفع صوته رئيس البوابة بقوله باش حانبا اي يارئيس الحوانب ادخل وهو الترجمان
بين الوالي والمشتكين لا لكون الوالي يحتاج الى فهم لغة المشتكين بل لكونهم بعيدين
في الوقوف عنه وربما يكون بعضهم لا يحسن الالقاء لدعوته رهبة أو انخفاض صوته
فيبلغ باش حانبه للوالي معنى كلام المشتكي وهاته الوظيفة لها كبيران احدهما من
العرب والآخر من ابناء الترك وللاول تقدم على الثاني فالمشتكي ان كان من المالكية
يمسكه الاول وهو الذي يتولى الوساطة في امره وان كان من الحنفية رجع الى الثاني
ولكن لهؤلاء هيئة أخرى في القاء الشكاية فان باش حانبه لا يمسكه و يقدمه الى قريب
من الوالي و بعد استقرار باش حانبة بنوعيه أمام الوالي يرفع صوته بقوله باش بواب
شكاية أي يا كبير أصحاب الباب أدخل المشتكين فيرفع صوته هذا خارج باب المحل
بقوله ياسعد ثم يدخل المشتكون فردا فردا على حسب الصدفة وتقدم المشتكي

بالازدحام وربما صار التقديم باعطاء شيء من المال لكنه لا يتجاوز عشرة ريالات فادونها وكل مشتك في حال شكايته في ذلك الموكب الهائل زيادة عن باش حانبه المقبض به تكون محدقة به الحوانب والاوطاباشية واذا كانت له حجة مكتوبة قدمها واخذها من يده باش حانبة ومكنها الباشكاتب ويوخر اذذاك المشتكي ويؤتى بغيره وبعد قراءة باشكاتب للحجة يقول مضمونها للوالي مع الاشارة الى صحتها او فسادها فيأمر الوالي بما يراه وتنفصل بذلك النحو عدة خصومات في نحو ساعة او ساعتين اذا طال المجلس وربما انهيت في ساعة واحدة ستون نازلة بلا تعقيب للحكم وكثيرا ما يستشير الوالي وزيره سرا في النوازل او يسأله عما يعلم فيها كما ان الوزير كثيرا ما يشير عليه في بعض النوازل ابتداء وكثيرا ما يأمر الوالي بارجاع بعض النوازل الى الشرع او الوزارة واذا كان هناك بعض من يحكم عليه بالقتل فانه يؤخر دخوله الى آخر المجلس والغالب ان يكون هذا النوع اما حكم عليه في مجلس الشريعة ورفع للوالي لينفذ الحكم المكتتب بعد اجراء جميع اللوازم الشرعية وطول مدة المناضلة والمدافعة لدى المجلس الشرعي او يكون قد حررت نازلته في الوزارة وفي النادر ان يؤتى بالمشتكي به من ذلك النوع بديهة للمحكمة ويصدر الحكم بقتله في الحين فيخرج في اثر المحكوم عليه بالقتل احد الشطار اي الجلادين ويقطع رأسه قدام باب باردو او باب البلدة التي فيها الوالي او يشنق هنالك في مشنقة من خشب وهو ان يربط عنقه في حبل وتكتف يداه او يعلق من عنقه فيختنق وتارة يعلق كذلك في سور المدينة القديم قرب باب سويقة وعند انتهاء المشتكين او ملل الوالي يقول يا باش حانبة عافيه فيرفع صوته بها باش حانبة فيرفع صوته بها باش بواب ويقوم الوالي وينفصل الموطن فيجري اذذاك باش حانبة ما امره به الوالي من ارسال الاعوان لجلب المدعى عليهم او خلاصهم وكذلك باشكاتب يحضر المكاتيب التي صدر بها الاذن ولا تحضر الامن غد فيختمها الوالي على نحو ما سيأتي وجميع من حضر في ذلك الموكب من المتوظفين يكون بلباسه الاعتيادي الا من له رتبة عسكرية فانه يتقلد سيفا في منطقته وقبل دخول الوالي للمحكمة يجلس في بيت انيق في سراية الحكومة على كرسي اصغر مما سبق ويدخل عليه الوزير وحده او انه يأتي معه من قصر سكناه ثم يجلس الوزير عن يمينه واهل بيت الوالي من شماله وقوفا ثم يأذن للمتوظفين بالدخول فيدخل اولا الوزراء وبعض مشيخة المتوظفين الكبار المتقاعدين وكل من وصل منهم الى الوالي قبل يده واذنه بالجلوس فيجلسون يمينا وشمالا واعلاهم شمالا الباش كاتب واصحاب اليمين يجلسون دون الوزير ثم

يدخل

يدخل كبار المتوظفين على صف واحد وكل من انتهى الى الوالى قبل يده ورجع خارجا ثم الذين يلونهم ثم وثم الى ان يصل الوالى اصغر المتوظفين كالاعوان الذين يرسلون لجاب المدعى عليهم والهيئة المتقدمة فى المحكمة هى الهيئة فى سائر المواكب الكبار كالاعياد غير ان هاته تكون فيها الناس باللباس الرسمى المزركش بالفضة والنياشين وتكون ايضا فى محل آخر اكبر من المحكمة وهو بيت عظيم يصعد اليه بدرج كثيرة مكسوة بالحلف نوع من المنسوج الصوفى الاحمر والبيت مفروش بالزرابى والستائر الحريرية الرفيعة وكرسى الوالى أكبر وأضخم من السابق والكتاب لا يجلسون فى هذا الموكب والناس كلهم وقوف ومتولى ادارته هو أمير لواء العسة وعوضا عن دخول المشتكين يدخل المعيدون أفواجا أفواجا على نحو ما تقدم فى تقبيل يد الوالى من المتوظفين ويجرى ذلك على كل القادمين من جميع المتوظفين وأصحاب الرتب العسكرية النظامية وغيرها والاهالى والتجار الا أهل المجلس الشرعى وخواص السادات الاشراف والمدرسين فان الوالى يجلس لهم مجلسا خاصا بعد الموكب العام بحصة يسيرة فى بيت أنيق أسفل الاول وتدخل عليه كل فرقة من الفرق الثلاث وحدها واولها أهل المجلس الشرعى معا الاول فالاول فيقف اليهم ويتقدم لهم خطوات ويتعانقوا ويقبل كل منهم كتف الاخر ثم يجلس ويجلسون الحنفية عن اليمين والمالكية عن الشمال ويؤتى اليهم باطباق من الفضة فيها شئ من الحلو ويطعمه الوالى معهم ثم يرشون بالطيب ويقرؤن الفاتحة ويقوم الوالى لوداعهم ويقبلونه أيضا مثل ما صار عند دخولهم وينصرفون وهكذا غيرهم غير انهم لا يقوم لهم الوالى ويقبلون ذراعه الا بعضا من السادات الاشراف فانهم يقبلونه مثل اهل المجلس الشرعى وبعض المدرسين من الطبقة الثانية يقبلون كفه كسائر الناس وكذلك لا يجلسون ولا يأكلون وانما بعد فراغ آخرهم من التقبيل وأولهم وقوف يمينا وشمالا يقرؤن الفاتحة وينصرفون وهكذا كل فرقة دخلت عليه فى الموكب الاول الا المتوظفين فانهم يقفون ويزدحم بهم الموكب لانه يجتمع فيه أغلب المتوظفين ولو من جميع جهات القطر والذين يقفون هم أصحاب الرتب من العسكرية أو الكبار من غيرهم وموكب المعايدة يدوم يومان أولهما أعظم من الثانى وكلاهما صباحا وفى اليوم الثانى يقدم عليه قناسل الدول ويدخلون عليه على حسب أسبقيتهم فى الوظيفة وكل منهم معه متوظفو قنصلاته فيجدونه واقفا ويصافح القنصل ويتخاطبون بالترجمان بكلمات فى التهنئة والموكب محتبك كما سبق ذكره الى أن يتوافى جلوس الوالى على كرسيه ويتم بقية الاهالى على نحو

ماسبق ولا يختص هذا الموكب باعيان الاهالى بل حتى أصحاب الصناعات وفى بقية ايام يكون الوالى فى قصره لايجتمع به الا الوزير الاكبر يوميا بل هو الآن ساكن معه فى قصر واحد وفى يوم الاثنين قرب الزوال يقدم عليه الوزير ومن كان فى الوزارة من المتوظفين واذا كانت هناك نوازل تلزم فيها المذاكرة أمام الوالى تكون فى أحد ذينك اليومين أعنى يوم السبت والاثنين أو يدعوهم الوزير بالخصوص ليوم معين وجميع الولايات انما تكون باذن الوالى وكتبه لرقعة فى ذلك تسمى أمرا وأما كيفية ادارة الوزارة فقد سبق ذكرها فى الكلام على وزارة خير الدين باشا ولا زالت على تلك الهيئة والمتوظفون يأتون فى بكرة النهار الى الوزارة يوميا الا يومى الخميس والجمعة وينفصلون منها عند الزوال وعندما يأتى الوزير ويجلس فى البيت الخاص به يقدم الى السلام عليه جميع كبراء الاقسام ثم يتوجه كل الى محل مأموريته وكل فى بيت خاص يجمعها قصر واحد فى ناحية من قصر الوالى لادارة الحكومة ولكل من اقسام الوزارة كتاب وأعوان وتكتب فى النوازل سجلات ويمضى الوزير على الرأى فيها ثم تعرض على الوالى وهو يمضى على مايراه الوزير وتسمى تلك السجلات معاريض وتجرى على مقتضاها الامور وكثيرا ما تجرى بامر الوزير شفاهيا وترسل تلك المعاريض مع بطاقات الاوامر فى ظرف مختوم ليمضيها الوالى بخطه فى المعاريض وختمه فى الاوامر ولكل عمل من الاعمال التى مر ذكرها عامل خاص الا الحاضرة فان حاكمها يلقب رئيس الضابطية والغالب أن يسكن العامل فى محل عمله وله نائب يلقب بالخليفة وتحته مشايخ على عدد أفخاذ القبائل ولكل عامل أعوان على حسب كبر عمله وصغره وترفع اليه الشكايات فيحكم فيها برأيه وكذلك خليفته والشيخ عند مغيب العامل ولا يختص حكمهم بنوع من أنواع الخصومات وانما الغالب ان نوازل صحة الاملاك فى غير المنقول والزواج والاوقاف والمواريث يرجعون بها للحكام الشرعيين وهؤلاء لهم مجلس فى الحاضرة فيه قاض حنفى ومثله مالكى ومفتيان حنفيان وخمسة مالكية ورئيس للحنفية يلقب شيخ الاسلام ومثله للمالكية يلقب أحيانا أيضا بذلك وقد يزاد أو ينقص من عدد المفتيين ولهم محل خاص يسمى دار الشريعة يجلس به يوميا صباحا القاضيان ومفتيان من المذهبين على التناوب وفى يوم الخميس يجتمع جميع المجلس ببيت كبير وينضم اليهم رئيس الضابطية للمشورة فى النوازل التى يريد الخصم فيها العرض على المجلس ولا يرضى بحكم القاضى أو المفتى وحده ورئيس الضابطية ينفذ ما يلزم فيه قوة الغصب الا القتل فانه يرفع الى الوالى وفى كل من بلدان

القيروان

القيروان وسوسة والمستير وصفاقس والاعراض وتوزر ونفطة والكاف وباجة مجلس شرعي أقل ائتلافه من قاض ومفتي ورئيس فتوى يجري به العمل مثل ماهو في الحاضرة لاجراء التحقيق فيها من مجلس الشريعة والمنفذ هو العامل كما أن في نابل والمهدية وجربة وقفصة مفتي مع القاضي وبقية الاعمال ان كانت كبيرة ففيها قاض فقط وللوالي التصرف في جميع النوازل نقضا أو ابراما وكذلك الوزير وأما القابض لاموال الحكومة أو العمال فهو من اليهود الاقليلا من العمال بجرد عادة في ذلك ويتوظف منهم مترجمون ونظار على الصاغة ودار السكة كما يتوظف من النصارى في الترجمة وغيرها الا العمال والوظائف الدينية ثم ان جميع العقود التي تحتاج الى الشهادة وكذلك كتب الحجج وصكوك الاملاك لها طائفة من العلماء والمنتسبين الى العلم يوليهم الوالي ويسمون الشهود أو العدول وهم بالخصوص الذين يباشرون ماذكر ولاغلبهم حوانيت مفتوحة لهاته الصناعة في سائر البلدان وكذلك قبائل الاعراب ويوجد في خصوص الحاضرة مجلس بلدي لمصالح الطرقات والبناآت ومجلس مختلط للاحكام بين أغلب الاجانب والاهالي فيما دون الالف ريال وجمعية للاوقاف ولها نواب في سائر القطر ومجلس تجارة ومجلس لحفظ الصحة أعضاؤه القناسل ومستشار الخارجية ورئيس المجلس البلدي وشيخ المدينة ولكل من المدينة والربضين شيخ لبعض النوازل العرفية وحفظ الامن ليلا واما الضابطية فهي موجودة غير منتظمة وأمور المعاش يقومها القاضي المالكي ولها أمناء يطوفون عليها لحراستها من الغش وأما بقية المملكة فليس فيها الا الحكام المار ذكرهم أو بعض امناء على الصنائع أو المعاش

(مطلب في المعارف) الموجودة الآن ومناخها جامع الزيتونة من الحاضرة هي العلوم الدينية ووسائلها وهي القرآن والتفسير والمصطلح والحديث رواية ودراية والعقائد وأصول الفقه حنفية ومالكية وشافعية والفقه الحنفي والمالكي والمنطق والمعاني والبيان والنحو والصرف والاشتقاق والعروض والادب والتاريخ والحساب والهيئة والفلك واللغة ولكل كتب معينة للاقراء بها من الحواشي كما هو معين في قانونها الذي أحدث في وزارة خير الدين باشا ومنها فنون وكتب لابد من وجود اقرائها كما أن مواد المطالعة والتحصيل سهلة بخزائن الكتب المعروفة في الاسلام الاماندر مما هو في اللسان العربي وقليل جدا بالتركي والفارسي والفرانساوي ومشايخ جامع الزيتونة الموظفون ولهم مرتب مائة وخمسون ريالا في الاشهر باعدهم ثلاثون مدرسا والطبقة الثانية مرتبها

تسعون ريالا شهريا وعددها اثنا عشر مدرسا والذين لا مرتب لهم واعانتهم اعانات سنوية مما يحصل من تخلف المدرسين والخصم عليهم من مرتباتهم عددهم نحو ستين وهم يزيدون وينقصون وعدد التلامذة بالجامع المذكور نحو الثمانمائة ويزيدون وينقصون أيضا وكيفية الدرس حسنة الالقاء والسؤال والجواب ولا يطول الدرس أكثر من ساعة كما توجد مدارس نحو الخمسة عشر مدرسة يقرأ بكل منها درس أو درسان من الفنون المذكورة وكذلك بعض جوامع بها قليل من الدروس وتوجد المدرسة الصادقية تقرئ مبادى فنون الديانة واللغة مما مر ذكره وتقرئ الفنون الرياضية واللغات التركية والفرانساوية والطليانية ومن الرياضيات الحساب والجبر والهندسة والهيئة والفلك والجغرافية ومبادى الطبيعيات وهي تعلم مجانا المائة وخمسين تلميذا وتقوم بأكلهم نهارا ومنهم خمسون تقوم بهم حتى في السكنى واللباس وكذلك يوجد مكتب أنشأه قسيسو الفرانسيس في صان لويس يعلم العلوم الرياضية واللسان العربي والفرانساوي والطلياني وتلامذته لا يبلغون الخمسين الآن ويوجد مكتبان للفرانساويين أيضا بالحاضرة يسميان مكتبا الفرير تلامذتهما نحو اربعمائة وكذلك مكتب للطليان به نحو مائتي تلميذ وكذلك مكتب لجمعية اليهود به نحو تسعمائة تلميذ كلها تعلم مبادى الرياضيات واللغة الفرانساوية والطليانية والعربية ويعلم بعضا من الصنائع كشئ من الفلاحة والموسيقى ويعلم اللغة العبرانية وكلها تعلم الاغنياء بالمال وبعضها يعلم الفقراء مجانا كما يوجد فيها مكتب للبرتستنت من الانكليزية نحو مائتي تلميذ كما يوجد بالحاضرة نحو مائة واحدى عشر مكتبا للقرآن العظيم وللكتابة العربية نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة تلميذ وأما جهات القطر فلا يوجد الا في قليل من البلدان شئ من العلوم الدينية كالفقه والعقائد على قلة والنحو وأشهر البلدان بذلك القيروان وصفاقس والمستير وسوسة وجربة والاعراض والكاف وباجة وابن زرت وبعضها تزيد شئ من الادب والحديث كما يوجد في بعض زوايا الصالحين بالقبائل شئ من القراءة والكتابة والفقه وجميع الجهات انما يقرأ فيها الفقه المالكي الا المهدية والمستير فيوجد أحيانا الفقه الحنفي أما غير ذلك فلا نعم توجد مكاتب للقرآن ومبادى الكتابة العربية في جميع البلدان والقرى بحيث لا تخلو قرية عن ذلك فضلا عن بلد ويقرب جميع تلامذتها نحو اثنى عشر ألف تلميذ لكن هيئة التعليم قاصرة للغاية في هاته المكاتب الابتدائية ولو في الحاضرة بحيث يمكن أن يبقى التلميذ فيها عشر سنين

ولا

ولا يحصل على حسن القراءة والكتابة وانما النجيب منهم يخرج حافظا للقرآن المجيد فقط وأما بقية التعاليم المار ذكرها فهى جيدة سيما العلوم الدينية بجامع الزيتونة نتجت منه فحول تزين المسلمين ولهم براعة فى كل الفنون سيما الانشاء بالعربية الذى كاد أن يشبه أسلوب الاعجام فى عدة جهات فان علماء تونس لهم براعة فى ذلك وهم محافظون على الاسلوب العربى ومحترزون عن اللحن وان وجد فى الكتبة أو الشهود من يلحن فذلك من تقليد الوظيف لغير المستحق كما أن أصحاب الاقلام أو الشهود مطلقا محافظون على الشعائر الدينية فى كتابتهم بحيث يفتحون كتبهم بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد وآله ومن والاه

(مطلب فى الصنائع) أهم صنائع الاهالى هى الفلاحة وما زالت آلاتها على الطرز القديم ويأخذونها عن بعضهم بالمشاهدة مع ان فيها كتبا عديدة بخزائن الكتب لا يلتفت اليها احد ولذلك انحطت رتبة هذه الصناعة عما كانت وقل العمران مع انضمام أسباب سياسية كما تقدم شرحه وصناعة التلقيح فى الاشجار لا يعلمها الاقليل ولذلك حصل الاروباويون على تقدم عظيم فى القطر فى هاته الصناعة ولو فى زرع الحبوب وكان فيها أكثر ربحا من الاهالى وكذلك من أعظم مكاسب أهل القطر زيت الزيتون فاما جمعه واستخراج زيته فهو بيد الاهالى ثم يبيعونه اما للاهالى أو للتجار الاجانب واما التجارة فيه لخارج القطر فهى بيد الاجانب الا قليلا من الاهالى كما انه دخل فى جمعه واستخراج زيته قليل من الاجانب عندما استخدمت المعامل بالبخار لاخراج الزيت وهى قليلة بل ليس منها الا واحدة فى الحاضرة وهناك قليل من المعاصر على النحو المخترع فى أوربا والاكثر على النحو القديم الذى صنعه الاندلس أو نوع آخر أقدم منه وكلاهما لا يتقن اخراج الزيت من زيتونه واما صناعة الشاشية فانها كانت هى عيال أكثر اهل الحاضرة ومنذ صنعت الشاشية بالمعامل فى أوربا رخصت ولا زال صناعها فى تونس متمسكين بالآلات القديمة وهى تكلفها غالية فلا زالت فى تناقص الى أن كادت أن تكون مقصورة على أهالى القطر وقليل من غيرهم وبقى من حوانيتها نحو ثلاثين أعنى الذين يخدمون حقيقة بعد أن كانت حوانيت هاته الصناعة تبلغ نحو الالاف وبسبب ذلك بقى أكثر الناس فى الحاضرة بلا صناعة ويوجد من الصنائع فى الحاضرة صنعة البلغة وهى نوع من الاحذية وهى رائجة وصناعة الكنترة نوع مما ذكر وهى رائجة وهى بيد اليهود والافرنج وأصحاب صناعة السباط التى هى نوع مما ذكر أفلسوا لانهم لا زالوا

متمسكين بخياطتها على الهيئة القديمة والناس تركوها وأنفوا من جعلها على أسلوب الكنترة بمجرد الاعتياد الى أن أفلسوا ولم يجدوا هاديا بحمالهم على مصلحتهم وكذلك توجد صناعة العطارين أى الطيب والحرائرية أى نساجي الحرير وصناعتهم متقنة وفيها بعض رواج ويصنعون أشياء مخلوطة من الحرير وخيوط الفضة ونوعا من الحرير الصرف المسمى بالختم وفي بعض أنواعها رغبة في حواضر أوروبا ويوجد لها مروج سيما الطيلسانات ويوجد أيضا صناعة النوارزية أى الخياطين ولهم براعة فى خياطة الابريسم على اشكال من النوار بديعة فى سراويل النساء وغيرها وكذلك صناعة الحياكة للمنسوجات الصوفية وفيها رواج كبير لاوروبا وغيرها ولو تجد المروج لكانت من أعظم اسباب الرفاهية للقطر وتوجد صناعة الصاغة وصناعة السروج ولاصحابها براعة فى الطرز فى الحرير والفضة والعدس اى قطع من الفضة مموهة بالذهب مثقوبة الوسط ليمسكها خيط الطرز وكذلك صناعة الحدادة وهي قاصرة وان وفد من الاروباويين التقدم التام على الاهالى وكذلك صناعة النجارة أى نحت الاخشاب ولاهلها براعة فيها وكذلك البناية وكذلك النقاشة أى نحت الاحجار وكذلك صناعة طرز الحرير والصوف والخيط والقطن والفضة والعدس على المنسوجات وهى خاصة فى النساء وزدن فى هاته المدة تقدما فيها بما تعلمن من الاوروباويين حتى صارت تقوم بها آلات وتوجد صنائع السلاح بأنواعه لكنها متأخرة ويوجد معمل للمدافع وآخر للسفن وكلاهما معطل ونوجد معامل كثيرة للكراريس وكذلك توجد صناعة النسج للقطن وهى ضعيفة رديئة وكذلك صناعة تجليد الكتب وهى حسناء وصناعة النسج وهى قليلة وكذلك صناعة نقش حديدة أى النقش فى الجص التى هى من أبدع الصناعات التحسينية على الجدران وكذلك صناعة الدهن أى التلوين وصناعة الفخارين أى صنع الاوانى من الطين وكذلك نوع يسمى بالجليز مما يلصق على الجدران وعلى أراضى البيوت ولكن نوعه ردىء ولاهله اقتدار على ايصاله للحسن المعهود فى أوروبا اذ كان عندهم قديما أحسن منه وانما يحتاجون الى الاعانة وأما الموسيقى فلهم مهرة فى معرفة الالحان يأخذونها على قواعد وانما هى بالسماع من بعضهم ويعتنون لاخذها فى بعض الزوايا التى تعقد فيها اجتماعات لاجل الذكر كسرد البردة ومدائح قادرية وهذا العمل اختلف فى جوازه لكن الراجح جوازه شرعا ان لم يكن فيه تشويق لمحرم فالتحريم على كل حال ليس لذاته وانما هو لما يتوصل به اليه ثم بعد الجواز ليس هو بطاعة كما يظن

يظن العوام وسيأتي لاستلة بسط في الخاتمة ان شاء الله تعالى كما أن لهم معرفة في فن الموسيقى أي دق آلاتها وأخذونها عن بعضهم والآلات هي الرباب والعود والجرانة وكلها من ذات الاوتار والطار والدف والدربوكة وهي أكبر منه والطبل والجميع من نوعه والكرنيطة والناي والغيطة والشبابه والصفاره والفحل وكلها من آلات النفخ ويضربونها بدون أوراق امامهم بل من حفظهم وفيهم المهرة وهاته الصناعة في الموسيقى قد ذكر في الاغاني انها كانت محفوظة على نمط واحد بحيث لا يخرجون عما كان مسموعا من الطرق يأخذها الخلف عن السلف الى أن دخل فيهم ابراهيم ابن المهدى عندما أراد الامن على نفسه بتنصله من سمات الخلافة فزاد فيها ونقص على حسب ما يستلذه هو ثم جعل من اتبعه يسلك ما يستلذه السامع ولو خالف الطرق الاصلية وتمادى الامر على ذلك الى أن فقد الآن ما يعرف به الالحان التي كانت تستعمل في تلك الاعصار ولهذا لا يمكن فهم ما يشير اليه في كتابه الاغاني من الطرق والالحان ثم ان حكم سماع آلات اللهو هو عندنا حرام الا الدف وما كان على شاكلته مما لاوتر فيه اذا ضرب في الافراح الجائزة لكن رأيت رسالة لسيدي عبد الغني النابلسي مال فيها للجواز ان لم تؤد الى محرم مقطوع به كما رأيت سؤالا لليوسي في أيما أشد حرمة الغيبة أو السماع لآلات اللهو أجاب عنه بان لا مقايسة بين الامرين فان الغيبة محرمة باجماع بخلاف سماع آلات الطرب فانه مختلف فيه ولا قادسعة بالتمسك بقول أحد المجتهدين ثم توجد بقية الصنائع الضرورية كالبقالين والجزارين والقصابين والفحامين والحلاقين وغيرها بحيث يقال ان أغلب الصنائع الحاجية معروفة ولكنها غير موفية بالاستغناء عن جلب المصنوعات من خارج القطر بحيث من نظر الى لباس أهل المدن ومسكنهم وفرشهم يجد أغلبها من مصنوعات الاجانب وذلك موجب لفقر المملكة وأما خارج الحاضرة فالمدن يوجد فيها ما يقرب مما تقدم بأقل بدرجات الا بعض صنائع فاقها فيها التقدم على الحاضرة فمن ذلك منسوجات الفرش في الجريد فان ما يصنع منه في طوزر هو من أرفع ما يوجد في العالم وكذلك يصنع في جربة ولها نوع يسمى بالسوسي من الصوف والحرير صفيق من أرفع المنسوجات وكذلك يصنع في القيروان الاواني النحاس وفي نابل أنواع من الطين الرفيع المرغوب في كثير من الجهات وكذلك يصنع في الكاف نوع من البرنس رفيع وأما أهل البوادي فلا يعرفون الا صناعة الفلاحة المتداولة والرعي للحيوان والفروسية والصيد ولاهل جبل باجة وماطر معرفة بصناعة البارود وسائر القبائل تعرف نساءهم صناعة

نسج الصوف لفرشهم ولباسهم ونسج بيوت الخيام من شعر المعز والابل والعدل كما ان لبعضهم اتقانا في صناعة البسط من الصوف كقبائل دريد وجلاص ومثلهم القيروان وبخصوص أهل الجريد اتقان كلى فى الاردية التى تتردى بها الرجال من الحرير والصوف

﴿مطلب فى المساكن والطرقات﴾ الحاضرة ذات بطحاوت وطرق صناعية محصبة أو محجرة بحجارة منحوتة لا تعب فيها على الماشى ولا الراكب حسنة المنظر ولقليل من طرقها المتسعة أشجار يمينا وشمالا وجميع البناآت من حجر مبنى بطين الرمل والجير وتارة يبنى بالآجر والقرميد وهو أقل من الاول وتارة بعوض الطين بالجص وهو أيضا أقل ثم ان دورها ماذات طبقة واحدة أو طبقتين وقليل ما يزيد على ذلك وصورة الدار ان تدخل من الباب الذى على الطريق فتجد محلا مسقفا ان كان كبيرا سمى دريبة أى دهليزا والا سمى سقيفة ثم آخر أصغر منه ثم وسط الدار والاغلب أن تكون الابواب المدخول منها اليه غير متقابلة لكى لا يكون مكشوفا لمن بالسقيفة وهو محل مربع الشكل مكشوف الى السماء وبه أبواب وشبابيك الى البيوت وهو مفروش الارض اما بالرخام أى المرمر الابيض أو الكذال والجميع على شكل مربع متقن الاثبات فى الارض حتى يصير كأنه قطعة واحدة مخطط فى المنظر بخطوط الحدود وحيوطه مكسوة بالزليز اما الى نهايتها واما الى النصف والنصف الاعلى مطلى بالجص الابيض وبه نقش حديدة ونهاية الحيطان عليها قرميد أخضر والابواب التى به من الاربعة الى الاثنى عشر يدخل منها الى بيوت ومرافق والبيوت غالبا بعضها أحسن من بعض فأكبرها على شكلين فالشكل الاول أن يكون اذا دخلت من الباب تجد البيت طويلا يمينا وشمالا وقبالة الباب بهو ذو قوس مرتفع وفى نهاية أرجل القوس تجد مرفعا أى شيأ من الخشب المتقن النقش المزوق بالالوان دائرا مع حيطان البهو توضع عليه أوانى رفيعة من الخزف والصينى والبلور وفى نهاية البيت يمينا وشمالا تجد اسرة عليها فرش النوم مسواة باتقان وأمامها مصاطب ومتكئات وجميع الحيطان على نحو ما مر فى وسط الدار مع زيادة اتقان النقش والابواب كلها ذات زواية كاملة ليست بمقوسة الاباب الذريبة ثم لكل باب أو شباك عواضد من الاربع جهات من الرخام أو الكذال أو الخشب كل جهة فى قطعة واحدة غالبا وعرض العاضدة من شبر ونصف الا العواضد السفلى فى الابواب فانها تكون منخفضة لا ترتفع على الارض أكثر من أصبعين وأغلب ارتفاع السقف

من الستة الى اثنى عشر ذراعا وهى أى السقوف ما بين بناء بالآجر أو الحجر المعقود أو أعمدة من حديد وآجر أو قرميد أو انها خشب مما يجلب من السويد المسمى بالالواح الطرطوشى والبندقى من النمساوعلى أى نوع كانت فانها ان كانت من الخشب نقشت و زوقت والاطليت بالجص ونقشت وزوقت وتارة يطلى النوعان بالفضة المموهة بالذهب على اشكال بديعة مع التزويق بالالوان والاغلب فى سقوف الخشب ان تكون على هيئة خشبات ممدودة على عرض البيت وعمقها نحو شبرين أو شبر ونصف وعرضها نحو ثمانية أصابع وكل الابواب ذو دفتين وتارة يكون ذا أربع دفف وهذا فى خصوص أبواب البيوت وأما غيرها فلا أكثر من دفتين ثم عن يمين البهو وشماله مقاصير اثنان فما فوق اما للنوم أو الجلوس أو المرافق وعلى الابواب جميعا ستارات متعددة على حسب الرفاهية ويوضع فى البيت أيضا مرايات كبيرة على المرفع وراءه قطع البلور والخزف وكذلك حول اسطوانتى البهو وهذان يوضع أمامهما خزنتان من خشب الجوز المتقنة الصنعة وعليها ساعتان وفوانيس بأوانى من الزهور المصنوعة وغير ذلك من التحف وفى الشتاء تفرش أرض البيت بحصير وعليها بسط صوفية وأما الشكل الثانى فى البيوت فانه يكون براحا واحدا امامربع أو به استطالة والحيوط والسقف والفرش كلها على نوع واحد غير أنه يغلب فى هذا الشكل أن يكون السقف من خشب وعيدانه مغطاة من أسفل مما يلى البيت بألواح من خشب مزوقة أيضا حتى ترى كأنها قطعة واحدة والاغلب لحسن المنظر وعدم ظهور القطع بين الالواح أن تغطى الالواح من أسفل بمنسوج من الكتان أو القطن على عكس امتداد الالواح وتدق بمسامير ثم تلون وتزوق كما مر وفى وسط هاته السقوف على أى نوع كانت توضع قطع من خشب مرتفعة منقوشة باشكال بديعة مذهبة وتمسك فى السقف بقضيب حديد مناسب ويعلق فيها ثريات من البلور وما دون ذلك من البيوت يكون أقل اتقانا فى طلى الحيطان ومفروش الارض والستائر فقط أما أصل الطلى وتبليط الارض بنوع صلب فلا بد منه وفى قليل من الديار الكبرى للاغنياء يوجد بيت واحد ذو ثلاث بهوات أو أربع ووسطه مربع والجميع فى أعلى نوع من اتقان المواد والصناعة وكذلك يوجد بقلة جنائن فى الديار وانما كثرت بعد وجود ماء زغوان فى الحاضرة وكل دار لا بد فيها من بئر وماجل ومطبخ وبيوت لخزن القوت وأدواته ولا بد أن يكون خارجها مخزن للدواب أو بعض الضروريات ولا أقل أن يكون أسفل وسط الدار أو السقيفة دهاليز لذلك ان لم يكن لها مخزن وقليل أن يكون لها علو

بابه فى السقيفة الخارجية أو الدربية خاص بالرجال والواردين على أصحاب الدار والاغلب أن يكون ذلك للاعيان ويكون العلو تام المرافق والفرش وأكثر من ذلك أن يكون فى عوضه بيت واحد يجلس به صاحب المحل ومن يفد عليه من الرجال واذا كانت الدار ذات طبقتين فان الهيئة المارذكرها هى هى ولايزاد فيها سوى رواقين أو أربعة أمام البيوت فى صحن الدار تكون مرفوعة السقوف على حيطان وجوه البيوت من جهة ومن الجهة الثانية على أقواس مستندة على اسطوانات من الرخام الابيض المتقن أو من حجارة الكذال والاقواس مطلية بالجص المنقوش بالنقش حديدة وفوق هاته الرواقات رواشن للطبقة العليا ولها درابزين من الجهة المطلة على صحن الدار ومن تلك الرواشن يدخل للبيوت التى فى الطبقة العليا وهى مبنية على البيوت السفلى وهيئة البناء والفرش على الضوالاسفل سواء ويصعد الى هاتيك الطبقة بدرج فى أحد الابواب التى بوسط الدار والاغلب فى الدرج القديمة أن تكون على هيئة غير مناسبة لبقية بناء الدار لانهم لايعتنون بها سوى كونها موصلة للاعلى فتارة تكون ضيقة وتارة تكون مرتفعة تتعب الصاعد لكن فى الابنية الجديدة صارت الدرج متقنة الهيئة من الاتساع والارتفاع المناسب بحيث لايكون ارتفاع الدرجة أزيد من شبر وعرضها قدم ونصف وطولها ستة أقدام فما فوق وعلى أى هيئة كانت فلابد لها من التبليط بالزليز أو الرخام وكثيرا ماتكون كل درجة من قطعة واحدة من الرخام الابيض أو الاسود أو الكذال أو الصوان وجميع الحيطان اما مكسوة بالجليز أو مطلية بالجص ولا يكون فى السفلى ولاشباك واحد على الطريق وان احتيج الى الضوء ولابد تجعل له منافذ قرب السقف لكى لايسمع صوت النساء نعم فى الطبقات العليا توجد شبابيك على الطرق ولها أبواب غير منفكة من المقصب الخشب وجميع الشبابيك سواء كانت لوسط الدار أو للطريق لابد لها من قطع من الحديد على أشكال مرونقة وفى القديم كانت جميع الاشكال مربعة هذا فى أماكن النساء وأما أماكن جلوس الرجال فليس فى شبابيكها مقصب الخشب نعم للشبابيك مطلقا أبواب من الخشب وأبواب عساطر من خشب وطيقانها من البلور أو الزجاج والحاصل ان الديار من داخلها فى غاية الاتقان والنظافة على حسب الرفاهية لكن خارجها لا يعتنى باتقانه فوجه الحيوط مما يلى الطرق كثيرا مايكون غير مجصص وانما يبيضونها بالجير والسطوح كلها مستوية وتبيض سنويا بالجير فلذلك لم يكن منظر البلاد فى الطرق جميلا مثل ماهو فى الدار هذا كله فى غير حارات الافرنج أما هى فانها

على

على النحو الاروباوى الذى سيأتى شرحه ولذلك كانت أنظر ونظافة الطرقات متوسطة بحيث انها ليست بعفنة ولا انها متقنة النظافة وفى الشتا يحصل فى بعض الطرق التى لم تبلط كثير من الوحل والطين وهذه لم تبق الا نادرا فى المدينة واما فى الربطين فهى لا زالت كثيرة وبواسطة المجلس البلدى لا زال يتدارك فى تبليطها وتحصيبها وقد عمت الطرق الاكثر مرورا سيما للعجلات والطرق خارج الحاضرة ليس منها طرق صناعة سوى طريق بين تونس وحمام الانف واخرى الى باردو ومنوبة واخرى الى جهة العوينة وطريق حديدية الى حلق الوادى واخرى الى الجزائر وبرادة واخرى الى الساحل واخرى الى ابن زرت واما فى الحاضرة فالطرق منقسمة الى مناهج وهى متسعة اقلها تمر فيه عجلتان متحاذيتان وهى قليلة والى طرق وهى لا تمر فيها الا عجلة واحدة وهى اكثر من الاولى وكثيرا ما تتعارض فيها العجلات ويوجد بها بعض جهات متسعة لرفع ذلك التعارض والى زناق وهى التى لا تمر فيها العجلة بل بعضها لا يمر فيها الا انسان واحد واغلب هاته فى وسط الحارات ولا زال المجلس البلدى يوسع فى الكل مهما خرب حائط على الطريق الا أخذ من محله توسعة للطريق واغلب انواع الطرق غير مستقيم بل فيها تعاريج وانعطافات وتحت الطرق خنادق تجرى فيها القذورات والمياه الخارجة من الديار تحت الارض واكثرها غير متقن البناء والتسقيف ولذلك يكثر فى الشتاء خرابها فتتعطل الطرق عن مرور الحيوانات والعجلات وتلك الخنادق تصب فى البحيرة التى هى فى الجهة الشرقية من الحاضرة هذا واما قصور الوالى وعائلته والوزراء والاعيان فانها وان كانت بعضها على نحو ما تقدم وبعضها على النحو الاروباوى لكنها تفوق غيرها فى اتقان البناء والكبر وحسن الفرش والتزويق والتزيين وكذلك بساتينهم واما الحوانيت والاسواق فليست بجميلة المنظر لان اغلب الاسواق ضيق الطريق ومسقف بالخشب الغير المنظم وبعضها مسقف بالاجر وهو احسن منظرا لكن الجميع لا يتأنقون فى نظافة الحوانيت وحسن هيئتها واغلبها صغير نحو اربعة اذرع فى مثلها وارضها مرتفعة على ارض الطريق فى البناء نحو ذراع وبعضها ابوابه من خشب غير منحوت وهى قطع مفرقة يضع صاحبها لوحة حذو اخرى الى ان يمتلئ عرض الباب فيجعل قفلا على الوسطى من تلك الالواح يمسكها بالعواضد فى الفرض التى تدخل منها الالواح ويكون المسك بواسطة حلق صغيرة بعضها فى الالواح وبعضها فى العتبة بالتخالف فى الوضع ويدخل القفل فى تلك الحلق ثم يقفل بالمفتاح وصورة القفل فى الاغلب على الشكل العتيق وهو قضيب من

حديد فارغ الوسط به لولب ينجذب وينـدفع بواسطة ادارة المفتاح الذى يدخل فى فراغ ذلك القضيب وهناك فى خارج القضيب قوس يدخل فى تلك الحلق و يدخل طرفه فى ثقب فى طرف ذلك القضيب ثم يدار المفتاح الى ان ينجذب اللولب ويدخل فى ثقب فى طرف القوس الذى أدخل فى القضيب ثم ينزع المفتاح ولكن لازال هذا الشكل يتناقص ويجعل على النحو المتعارف فى أغلب المدن فى الابواب و بسبب ذلك مع وجود الخراب فى عدة جهات وعدم تبييض جميع الحيطان كل عام لم يكن منظر البلاد اجمالا جيلا لمن رأى المدن الجميلة والاقواس أغلبها نصف دائرة والسقوف البنائية لابد فيها من شئ من الانحداب ثم فى المدة الاخيرة حدثت الاقواس والسقوف المبنية المبسوطة هذا وأما منازل المسافرين ففى حارة الافرنج منازل مثل ماهو فى أوربا وقل ان يسكنها أحد المسلمين وانما يسكنون فى خانات وفنادق ومخة فيها بيوت لافرش لها ولامطابخ فيلقى المسافر العناء من ذلك الا اذا تعود على السفر لبلاد المسلمين فان الجميع فيها متماثل وكان السبب فى هذا مع كثرة أسفار المسلمين هو خصلة دينية وهى ان الكرم والضيافة مندوب اليها فمهما دخل المسافر بلدا للمسلمين الا كان حقا على اخوانه ان يستضيفوه فلم يكن من داع لاتقان محلات المسافرين اذ غايتها هو وضع الدواب والسلع التجارية (وكان ذلك هو سبب) عدم وجود لفظ مفرد عربى دال على نزل المسافر لما جبلت عليه العرب من الكرم والضيافة ولكن حيث تغيرت الطباع اليوم فينبغى الاعتناء بمثل تلك المنازل وماذكر جار فى سائر انحاء القطر وعلى نحوما تقدم فى هيئة الحاضرة بقية المدن والقرى لكنها على حسبها فى التقصير والغنى غيران الطرق الصناعية لاتوجد فى غير الحاضرة نعم ان البلدان التى احدثها الاندلسيون هى انظم طرقات من غيرها اذ طرقاتها مستقيمة متسعة متقابلة بل بعضها يراعى فيها حتى تقابل أبواب الديار وفى غير المدن لاتجد البناء الامن طبقة واحدة بل وهو الاغلب حتى فى المدن وكثرة الخرابات فى بعض البلدان سيما القرى وعدم تبييض وتجصيص الحيطان من خارج تجعل الرائى يحسب الجميع خرابا وكثيرا ما تكون ديار القرى غير مبلطة واغاتة مدبالطين والجير المسوى (وأما البطروى) فمساكنهم خيام من شعر المعز والابل تنسجها الاهالى وتارة تجلب من طرابلس وللاغنياء خيام من ذلك النوع فى غاية الاتساع والارتفاع بحيث يقدران يدخلها الراكب على فرسه ويقسم البيت لاقسام بأردية وستارات قسم للنوم وآخر للمؤنة وآخر لاولادهم

وآخر

وآخر لاولاد بعض حيواناتهم وأهل الغنى يجعل لكل نوع من ذلك بيوتا خاصة كما ان للضيوف وجلوس صاحب المكان بيتا خاصا ويفرشون بيوتهم بنحو ما يفرشه أهالى الحاضرة الاعيان من المرايات والساعات والتحف الخزفية والمفروشات الحريرية والاسرة المذهبة والفوانيس والشموع الى غير ذلك من أنواع الحضارات لكن العموم يفرشون فى أرض البيت حصيرا وفراشهم أردية من الصوف مثل ما يلبسونها ووسادات وغطاء وبيات الرجل وزوجته واولاده كلهم فى فراش واحد ويطبخون فى فم البيت أو أمامه وكثير منهم من لا ينور فى الليل الا بما يوقد من الحطب وبعض القبائل يسكن فى خصوص أو بناء شبهها

(مطلب فى اللبس) لباس الحكومة والعساكر النظامية هو اللباس الافرنجى غير ان للعساكر علامات على الرتب وهى صورة نجم من فضة خالصة لرتبة الفريق ويجعل ستة نجوم فى رقبة سترته ثلاثة من كل جهة وهو نهاية رتبة يعطيها الوالى ثم أمير اللواء له أربعة ولامير الالاى اثنان وللقائم مقام والامين آلاى ستة من طرز خيط الفضة المذهبة وللبينباشى أربعة وللقلاعى اثنان ثم للرتب التى تليه ثلاثة من الفضة الغير المذهبة وهكذا من يليه على النحو السابق وهاته الرتب تعطى أيضا بعينها لغير العسكر من ذوى الوظائف السياسية اذ ليس هناك رتب ملكية وفى المواكب يلبسون اللباس الرسمى المطروز بقصب الفضة المذهبة الا الضابطية فطرزهم من غير المذهبة وتعلق فى صدورهم النياشين التى هى من الفضة المزوقة بالمينا وللصنف الاكبر منها له شريط أخضر ولنيشان العهد شريط أبيض على نحو ما سبق ذكره فى الكلام على أحمد باشا والصادق باشا والوالى يلبس بشاشيته ثلاثة نياشين كبار أحدها كانت الدولة العلية أعطته لاحمد باشا عندما كان ذلك من رسوم المشير ثم زاده ثانيا مثله ثم زاد الصادق باشا ثالثا مثله وهى نياشين من ذهب على صورة أوراق من النبات وبوسطها ترصيع بالياقوت الابيض كما يلبس نيشان المشير المرصع الذى كان أيضا من رسوم الدولة العلية ويلبس نيشان آل بيته المرصع والعهد المرصع والصنف الاكبر المرصع والغير المرصع وجميع نياشين الدول التى اهدتها له مع شرطانها وكذلك جميع المتوظفين كل منهم يلبس ما عنده من النياشين ثم كل من له رتبة أمير آلاى فما دون له علامة تلصق بشاشيته من نحاس على صورة شارة الحكومة مكتوب بها اسم الوالى الصادق

باشا اذ هو مخترعها واما أهل المجلس الشرعي بالحاضرة فيلبسون قلانس بيضا مكورة غيران المالكية قلانسهم مفلطحة والحنفية مرتفعة ويلبسون عليها طيلسانا من الكشمير ويلبسون جبائب اكمامها واسعة وهي طويلة الى الكعب أو قربه وهنالك فرق بين جبائب الحنفية والمالكية فالاول جبائبهم مشقوقة الجيوب الى أسفل والاخر مشقوقة الى السرة فقط ويزيد المالكية برنسا واسعا من الجوخ الصوفي له حواشي وشرابات من الحرير وفي أرجل الجميع حذاء من النوع المسمى بشمق وريحية لونه أصفر وهو لبس لا يتحمل المشي به في الطين ولو قليلا اذ هو أشبه شيء بالنعل لكن له وجه على اصابع القدم ويلزم للمشي به تعلم وتعود لكي تمسكه أصابع الرجل اذا رفعت الرجل سيما اذا كان مع الريحية فيقع الازدلاق بين ملوسة جلد البشمق وجلدها نعم ان منظره جميل وأما أهالي الحاضرة فيلبس الرجال قميصا وصدرية وأخرى تسمى فرملة غيرانها بلا صدر ومبتان أي صدرية بلا صدر ولها ايدي ضيقة الى الرسغ وتارة يكون في هاته الايدي فتح من أسفل قرب الرسغ وتارة لا وتارة تكون قصيرة الى أسفل المرفق فقط وتسمى كنبرة وسراويل رجلاها أسفل الركبة بيسير ووسطها غير معتدل كثيرا ولا مرتفع كثيرا وهي عريضة بحيث اذا لبست كان فيها انكماشات بين الرجلين ولا يبلغ تدليها الى الركبتين واحذيتهم من أنواع فمنها الكنترة وهو من لباس الافرنج على أنواع شتى ومنها البلغة ولونها أصفر ومنها السباط الاحمر أو الاسود لبعضها شرابات من الجلد وبعض الاعيان يلبسون البشمق والريحية وعلى رؤسهم شواشي حمر لها شرابات من الحرير الاسود وعليها عمائم ملوية اما بيض أو مطرزة بطرز الهند أو بطرز البلاد وعلى الجميع برنس شتاء وصيفا غيران كيفية استعماله كانه حمل لا لبس اذ يلقونه على أكتافهم بميل لاحد الشقين فقط وهيئة البرنس هو رداء متسع طويل الى القدمين وله رأس يسمى بالطربوش وكله في قطعة واحدة وأسفله مقصوص معرج على هيئة نصف الدائرة ثم ان الاعيان والاواسط يزيدون تحت البرنس جبة مشقوقة الى السرة فقط وليس لها اكمام بل انها مشقوقة من أعلى الجنبين لاخراج اليدين منها فهي عباءة غير مشقوقة الاسفل ويلبسون أيضا الجورب من القطن فقط أو مع الصوف من تحته وبعض قليل يلبس الجوخة والقفطان وهما جبتان ضيقتان مشقوقتان الى أسفل ولا فرق بينهما غيران ما تلبس من أعلى اكمامها مدورة قصيرة الى قرب المرفقين وأسفلهما يتحزم عليها بالحزام الذى لابد منه لكل

احد

أحد كما ان البرنس لا يمكن خروج الانسان فى الطريق بدونه وغاية الفرق بين لباس الاغنياء وغيرهم هو رفعة المنسوجات وحسنها وكلاهما مع مفروشات الديار من الصنائع الاجنبية الا البرانس والشاشية وبعض أنواع حريرية كما يحمل الاعيان والاواسط ساعات بسلاسلها من الذهب أو الفضة أو النحاس واما التختم فقليل جدا وكثيرا ما يعدانه من سمات ذوى الدناءة الا لبعض اعيان الاعيان ومع ذلك كثير منهم يتحاشا عنه ومثل هذا اللباس لباس أغلب المدن والقرى أو قريب منهم وبعضهم يلبس جبة من الصوف وسراويل منها كلها من صناعة الاهالى وعوضا عن البرنس يلبسون كبوطا وهو شبيه البرنس غيرانه ضيق وله ايدى وقصير الى الحزام فقط وهو أيضا لابد من لبسه لسائق العجلات للاعيان فى الحاضرة غيرانه من نوع الجوخ المطرز بخيوط الفضة وله منظر جميل واما البوادى فلباسهم قميص ورداء من الصوف يسمى بالحرام وبرنس من الصوف غيرانه يلبس لبسا بان يدخل الرجل رأسه فى الطربوشة وتارة يبقيها على رأسه وتارة يلقيها الى ورائه على كتفيه وهما من مصنوعاتهم وعلى رؤسهم شواشى وعمائم من خيوط من وبر الابل أو صوف الغنم الاسود أو الاحمر وفى أرجلهم البلغة والاعيان منهم يلبسون فوق القميص مثل لباس أهل الحواضر وحرامهم يكون من الصوف الجيد الرفيع والحرير وكذلك عمائمهم مثل الحواضر ومثلهم أهالى بعض البلدان كبلدان الجريد والكاف وباجة وتبرسق وأما لباس النساء ففى الحاضرة يلبسون القميص لكنه قصير الى أعلى الفخذ وفوقه مثل الصدرية بلا صدر ويتأنق فى اتقانها وتحليتها بالفضة أو الحرير أو العدس وتسمى فرملة وفوقها جبة ضيقة بعض الضيق بلا أكمام وقصيرة مثل القميص المذكور وسراويل ضيقة جدا مثل سراويل رجال الافرنج لكنها مخروطة الرجلين مع اتقان تحليتها والتغالى فيها وعلى رؤسهن على الشعر منديل حرير أسود يسمى تقريطة وفوقه قوفية أى نوع من العراقية محلاة ولها جبين مرتفع من أصبعين الى الثمانية أصابع صلب بالطرز الحرير الاسود على خيطان من الكتان الصلب وفى مؤخرها ذيل من الحرير مدلى الى قرب ذيل الجبة ويطرز بانواع جميلة من الفضة والحرير ثم تلف رأسها ورقبتها بلثام من أنواع الحرير والقطن ويطرز أيضا كما مر على هيئة متقنة وتعصب على الجميع بتقريطة ملونة أو مزوقة بالفضة بعد طيها على عرض أربعة أصابع بحيث يكون ما فوق القدف من غطاء الرأس مكشوفا من تلك التقريطة وتربط أطرافها من جهة الجبهة على هيئة

تكون بصورة التاج مسوكة بمساك من النحاس دقيقة صغيرة ويكن أذرعهن مكشوفات ويلبسن فى أرجلهن أنواع الاحذية الافرنجية والاعيان يلبسن الجوارب والخادمات يلبسن على نصفهن الاسفل فوق جميع الثياب ازارا من القطن أو مخلوطا بالحرير أو الحرير الصرف ملون أغلب ألوانه مائلة الى السواد لتحمل الوسخ ولما تقدم لم يكن شكل النسوة جميلا من لبسهن واذا خرجن للطريق فالاعيان يلتحفن برداء أو طيلسان واسع ثم يدخلن فى الكروسة وتدخل أى الكروسة الى داخل الدهليز لتركب المرأة فيها ثم تسدل ستارات الكروسة بحيث لا يرى من ركب فيها ونسوة الاواسط يلبسن عند الخروج رداء عريضا بالغا قرب القدم ومغط للرأس على هيئة ساترة لجميع أجزائها وعلى وجهها بخمار من الحرير الاسود وأطرافه مزوقة مغروز فى غطاء رأسها بمساك وتمسك طرفيه بيدها مع لفهما فى ردائها وعلى رجليها ساقان عريضان من منسوج ثخين مطرز ونعلها خاص بالخروج وأما الاسافل فهن مثل ذلك أيضا سوى الخمار فعوض بلثام أسود ملفوف على الوجه ثخين لا تظهر منه البشرة ولا تبان الا عيناها ونسوة اليهود مثل ذلك الا ستر الوجه فهن مكشوفات وأما لباس نسوة البلدان فهو على ذلك النحو غير انه ساترا كثر لانه ممتد الى قرب الكعب والجبة أوسع وبعضهن يتمنطقن بحزام وأما نسوة الاعراب فهن مثل ذلك أيضا سوى الجبة فعوضها رداء واسع تمسكه المرأة بمساك كبار من فضة أو ذهب أو نحاس حذو كتفيها مما يلى الصدر وتمنطق عليه بحزام ويكون ساترا حتى الى القدمين مع الاتساع غير انهن لا يلبسن السراويل ولا يتقنعن على رقابهن فغطاء رؤسهن أجل من نسوة الحواضر وكثير من نسوة القرى مثلهن والجميع يلبسن من الحلى أنواعا شتى من القرط فى الاذن بعد ثقبهما منذ صغر البنت والاساور والخواتم والتيجان وغير ذلك من الجوهرات الثمينة والمكللة بالياقوت والزمرد واللؤلؤ وبعض الحواضر والقرى والاعراب يتخلخلن فى أرجلهن أيضا كل على حسب الثروة واليسار

(مطلب فى الاكل) أما أهل الحاضرة فاكلهم جامع بين أنواع أكل أهل المشرق والمغرب والاورباويين بحيث لهم من كل أحسنه سيما الاعيان والغالب فى البلد واعرابها وسائر بلدانها هو طعام الكسكوس أو العصيدة وتزيد البلدان بالشكشوكة طعام من زيت وقديد وبصل وطماطم وفلفل واغلب السكان يأكلون الطعام الحريف المسمى عندهم بالحار من الفلفل ويكثرون من الابزار الا البوادى فاغلب طعامهم بسيط

من دقيق القمح أو الشعير أو الذرة والابن واللحم المشوى وفى ولائم الاعراس بالحواضر يكثرون أنواع الحلويات وهيئة الاكل عموما هى الجلوس على الارض اما على متكآت أو بسط أو حصير ووضع الطعام جملة ويأكلون من اناء واحد ثم غيره وهكذا والغالب طعام واحد وأهل البلدان يصنعون مائدة يوضع الطعام عليها وهى من خشب مدورة ارتفاعها عن الارض نحو شبر وبعضهم يجعل عليها أو على كرسى مثلها طبق من النحاس وفى بعض الاعيان ومتوظفى الحكومة صارت هيئة الاكل كما هى عند الافرنج وبعضهم صيرها بين بين بحيث يؤكل من اناء واحد لكن بالشوكات والسكاكين والخبز له أنواع ففى الغربان اما أن يكون منضجا فى فرن يسمى الطابونة وهو حسن جدا سيما السميذ منه واما أن يكون العجين غير مخمر ويشوى فى اناء من الطين وهو ردىء لقلة نضجه وعدم تخميره وكلا النوعين موجود فى البلدان الا الحواضر فيوجد الاول بقلة عند الاعيان على وجه التفكه والخبز الغالب فى المدن هو خبز مرتفع صغير قليل النضج مخمر لذيذ ينضج فى الفرن المعتاد ونوع آخر كبير وهو الذى يصنع فى الديار أنضج من الاول والاول لا يأكله الا من لا عائلة له أو الفقراء ذوو العيال وأما خصوص الحاضرة ففيها اثنا عشر نوعا من الخبز كلها جيدة مايسة ناضجة على النحو الذى يعرف فى المشرق بالافرنجى وعادة الجميع فى الطبخ ان النسوة هن المكلفات به ويطبخن فى اليوم مرتين فطورا وهو عند الزوال وعشاء وهو بعد الغروب كما توجد مطابخ فى الاسواق يطبخ بها الرجال لمن لا عائلة له أو داره بعيدة عن محل صناعته وأغلب طبخها ردىء الا قليلا ومن طعام السوق الجيد القليل النظير ريك البيض فيشتريه حتى الاعيان فى ديارهم للذة أكله والغالب ان الاهالى زمن الصيف يدخرون مؤنة السنة من الكسكسو ونوع مثله يسمى المحمص والقديد والابزار وأما الحطب فانما يخزن فى أواخر الشتاء عند تنقية شجر الزيتون لانه هو أغلب الحطب والفحم لا يطبخ به الا قليلا وبقية المأكولات تشترى يوميا كاللحم والخضراوات ومنها شهريا أو أسبوعيا كالزيت والسكر والقهوة

(مطلب فى الاعراس والمواكب) أول المواكب فى عيد الاضحى والفطر وقدم كيفية التعييد على الوالى وأما الاهالى فيتزاورون بعضهم أربعة أيام ويحصل من ذلك تعب كثير سيما اذا لم يجد الزائر المزورفانه يعود اليه ولو مرارا ويعطى للزائر قهوة والاقارب يعطى لهم أنواع من الحلويات وفى جميع المواكب التحية بالتقبيل فالعظماء بتقبيل أكفهم ثم من دونهم بتقبيل المرافق ثم المتساويان فى الاكتاف وقليلا فى الافواه

وبعض الاعراب يقبل كل يد صاحبه وتارة رأسه وكذلك يحصل موكب فى المولد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام على نحو ما مر تفصيله فى الكلام على السياسة وأما بقية المواسم فلا موكب فيها وإنما فيها الصدقات والقراآت والتوسع على العيال وفى عاشوراء تطلق النيران والبارود اعتقاد انها من تفريح الصبيان وكأنها نزعة باقية من آثار الخوارج الذين كانوا بالقطر وفى رمضان تتأنق أهل الحواضر سيما القاعدة فى الاكل وكل يدعو أحباءه للعشاء عنده ولا أقل أن يتعشى ولو انسان واحد مع صاحب الدار ويصرفون فى ذلك زيادة على العادة وأما الختان فانهم يجعلون له وليمة مثل العرس وسيأتى بيانها وفى هذا زيادة وهى ان الطفل المختون يؤتى به قبل الختن من مكتبه وهو لابس لاجل لباسه الذى كثيرا ما يكون مقصبا بالفضة أو مطرزا بطراز السراجين ومعه تلامذة المكتب بملابس جميلة أو نظيفة ويرفع رجل على رأس المختون لوحا مزوقا ويطوفون فى حوالى حارتهم وأمامهم أو خلفهم فرقة من الرجال يذكرون قصائد فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم وتجيبهم التلامذة ببيت القصيد على الحان جيدة رافعين أصواتهم الى ان يصلوا الى دار المختون فيقدم لهم موائد من الحلويات ثم يختن الولد أحد الحلاقين المجاز لهم فى ذلك بمقص من حديد ثم يوضع فى فراشه المرونق ثم يهدى اليه من أقاربه وأوداء أبيه اما مال أو مصوغ وأعلى الهدية قدر أربعمائة ريال فما دون وقد قلت هاته العادة فصار الختان أكثره مخفيا بدون هدية ولا غيرها ويتناقلون فى اخفائه روايات منها قولهم أعلنوا النكاح وأخفوا الختان ولم توجد فى كتب الصحيح ولم نر نصا لاصحابنا فى المسئلة سوى انى رأيت فى الاحياء للغزالى الذى هو شافعى انه عد فى أنواع السماع الجائز السماع عند الختان وعند حفظ القرآن الخ فهو دال على ان اشهار الختان غير منهى عنه كما انه غير مندوب لقوله وهو أى السماع مباح ان كان ذلك السرور مباحا كالغناء فى العيد وفى العرس وفى وقت قدوم الغائب وفى وقت الوليمة والعقيقة وعند ولادة المولود وعند ختانه الخ فهو دال على عدم النهى عن اشهاره فقط وأما الاعراس فان الزوج بعد الخطبة يرسل المهر وأعلاه ألف ريال الا الامراء والوزراء فيزيدون على ذلك الى العشرين ألفا ثم يرسل مع المهر هدية تسمى الملاك وهو صندوق صغير مجلد بصفائح الفضة أو خشب مرصع بالصدف وفيه المهر مصرور فى مناديل من حرير مخلط بالفضة ثم صندوق آخر أصغر من الاول من فضة أو ذهب أحيانا مقسم الوسط به قنينات مملوءة اعطارا وأسفلها أنواع من طيب البخور العنبر

والقمارى

والقماري ثم حقة من ذهب أو فضة فيها قطعة كبيرة من سكة الذهب أماد بلون من سكة الاسبنيول أو قطعة مائة ريال ذهبا التوضع في كف العروس عند وضع الحناء ثم حصير أو أزيد مملوءة بالحناء الورق مخيطة على شكل مدور لكي تحفظ وتلف الحصير في ملاحف من قطن أو حرير ثم صحن من الزجاج أو الفضة به شكل كالعصيدة من الحناء موضوع في طبق من الزعف مكسو بمنسوج من الحرير أو الفضة مغطى بمنديل مثل ذلك ثم قطعة من مصوغ مكال بالاحجار ثم حزم من الشمع الابيض كل معصبة بالتقارط الحريرية أو الفضة من ثلاثة حزم الى العشرين ثم شمعتان أو أكثر كبيرتان نحو الاسطوانة معصبة أيضا مثل ما ذكر ثم خمسة أي شمعة صورة كف ادمي كبيرة طولها نحو ذراعين فما فوق وتارة تكون أزيد من واحدة كلها من الشمع معصبة كما ذكر باشكال حسنة ثم أطباق كبار من الزعف بها قنطار فما فوق من السكر الابيض ويرسل ذلك الى دار العروس مع أقارب الزوج من النساء عشية وفي الليل تسرج دار العروس التي قد زينت ودعى اليها النسوة من الاقارب والاحبة وتزين العروس باجمل لباس ويوضع على رأسها رداء من منسوج الفضة الثخينة وعلى وجهها برقع من الحرير الصفيق وتوقد تلك الشموع المهداة لها وتجلس في بيت أبيها على مسطبة ومتكئات من الحرير أو الفضة ثم يهدى اليها ممن حضر مال لا أزيد فيه من مائة ريال ثم تحنى يداها بالحنة المهداة بعد وضع قطعة الذهب في كفها الايمن وينفصل الموكب بعد ان تعشى النسوة الضيوف ويفطرن صباحا ويتهيأ أبو العروس الى انفاق الاموال فيجعل لابنته ملبوسات لا تلبس الا يوما كالقمجة الكبرى وماوالاها وهي جبة كبرى من نوع من الفضة المنسوجة ثخينة ثقيلة تتكلف بنحو ألف ريال ويتبعها سراويل مثلها وهكذا مما لا يلبس الا يوما أو يومين مع ألبسة أخرى معتادة للتجمل والعادة مما يكفيها سنة أو أزيد مع كسوة لبيت زوجها من فرش الصوف والاردية والستائر للابواب والاسرة والمتكئات كلها من نوع القمجة من الفضة والمدس الذي لا تكسى به البيت الا أسبوعا واحدا فيصرف أبوها اضعاف اضعاف من المهر وبعد أسبوع من عرسها تباع تلك الاشياء بما لا يبلغ الربع من ثمنها الاصلي وعند العرس يحضر الزوج داره ويبقى بيته فارغا الا أحد مقاصيره منه لا يجعل فيه مالا تأتي به المرأة كما يجعل الاسرة في البيت والساعات والمرايات والبساط وقبل ليلة العرس بيومين تستدعى الاحباب من كل على ان تكون الملاقاة في أحد المساجد عند صلاة العصر ان دعاه الزوج وأما المدعوون من أب الزوجة فيقدمون الى

داره تواثم يقدم أب الزوج أو وكيله مع من دعاه لدار الزوجة و بعد الجلوس والدار مزينة و بوسطها جميع الجهاز الذى أحضر للعروس ليرفع لداره على هيئة منظمة يخطب الخطيب وهو أحد الشهود المتخذين الشهادة صناعة وتارة لبعض الاعيان يخطب أحد أهل المجلس الشرعى أو غيرهم من العلماء ويقع الايجاب والقبول ولا يكون من الزوج والزوجة بأنفسهما بل ان كان لهما أب فهو أو ولى أو وكيل و بعد ذلك تقرأ الفاتحة من الحاضرين الذين يبلغون أحيانا الى ألف فما دونها وتضيق بهم دار الزوجة وربما لا تحملهم الدار لانه كثيرا ما لا يتفاهم الاصهار على عدد المدعوين وان وقع التفاهم وكانت الدار لا تحملهم جعل العقد فى أحد المساجد ليسع الجميع ثم يسقى الحاضرون ماء محلى بالسكر فيه أنواع الطيب ثم يرشون بمياه الطيب و ينصرفون الا الخواص من الاحباء فيرفعون الجهاز على حيوانات و يطاف به فى البلاد ليرى ويسمع واع وتفرش به بيت الزوج وقبل ليلة العرس بيوم تصنع وليمة بالحلويات الخفيفة على مائدة مستطيلة كبيرة فى احدى البيوت حولها كراسى و يدعى اليها شتات من الناس من أول النهار الى ما بعد نصفه كلما جاء فوج أدخل أعيانه ليرى بيت الزوج ثم ادخلوا جميعا الى المائدة فيأكل كل شيأ يسيرا من الحلو و يشرب قليلا من المشروبات الملونة الحلوة و يقرؤن الفاتحة و ينصرفون ثم ترفع المأكولات والمشروبات لتعود كاصلها و يدخل اليها فوج آخر وهكذا الى الختام وقد يعوض عنها بعشاء فى النصف الثانى من النهار وهو يحتوى على مطبوخ من اللحم والطير والسمك والحلويات على مائدة واحدة وتدخل عليه الناس أيضا كما مر غير ان الا كل منه أكثر من السابق وان لم يكن حقيقيا لا شبع وقد يعوض عن الجميع بوليمة ليلة العرس لمجرد أحباء الزوج وأقربائه ثم يؤتى بالعروس بعد الغروب هى وقرابتها فى كراريس يرسلها الزوج أو وليه و يذهب للاتيان بها أحد قرابات الزوج و يهدى الى العروس فى ليلة العرس ما يسمى قصان الدلال والهدية على أقرباء الزوج وكذلك فى ليلة الوطئة الكبرى وهى قبل العرس بثلاثة أيام للحنة للعروس والمهدى قرابة العروس كما تهدى العروس للزوج و بعض الرجال من قرابته كابيه وأخيه شيأ من الملبوس و بعد خروج العروس من دار أبيها تجتمع حثالة النسوة اللاتى يرون الذهاب لدار الزوج و يوقدن تلك الشموع ويذهب معهن أقرباء العروس من الرجال ومن أتى لمصاحبتهم من أقارب الزوج لكن هؤلاء يمشون فى مقدم الموكب والآخرون فى آخره والنسوة فى الوسط و يصرن يولون فى

فى الطريق ويدققن الابواب ويصرخن ياسعد ياسعد ثم يدخل الزوج على عروسه ويعمل الخلوة الصحيحة ويخرج ولا يبات ولا يعرسون الا ليلة الجمعة والاثنين والخميس ولا يعرسون فى المحرم تشاؤماو بسبب ماتقدم من كثرة المصاريف عضلت بنات من يخشى على عرضه وتفقرت أقوام ولا حول ولا قوة الا بالله وقريب مما مر مايقع فى البلدان والقرى يخرج فيه ذلك بعادات العرب وهى ان بعد الخطبة والعقد يرسل المهر ومعه شئ من الملبوس أو المصوغ والطيب ثم أبو الزوجة يكسو ابنته وعليه شئ من لباس الزوج ثم يأتى بالعروس لبيت زوجها فى محفل على ناقة هو جل مزين بالثياب الرفيعة والحلى وحوله أفواج من قرابة الزوجين بأحسن لباسهم والطبل يعزف والبارود يصرخ وتارة الخيل والفرسان تلعب الى ان تصل لبيت زوجها ويجعل لهم أبو الزوج وليمة قسم للرجال وقسم للنساء فيعطى لكل شخص لحمة فى يده من رجل أو امرأة واللحم موضوع فى قفة ثم تقدم قصع الكسكسو وان أخذ لحمة فوجدها عظما أن يردها ويأخذ غيرها ثم يدخل الزوج على عروسه ويتزوجها واذذاك يطلق البارود وتعلن النسوة بالولولة ثم يبقون بين غناء وسرور والغناء من الغنائين والرجال تمدهم بالمال شيأ فشيأ لكن يعطون قطعا من النحاس فلا يصرفون كثيرا غالبا والنسوة ضاربات خمورهن على جيوبهن وهن منصتات وتارة يغنين والرجال يسمعون كما كان اهل الحاضرة يحضرون اهل الموسيقى فى ليلة العرس وعند الوليمة وتحضر معهم عاهرات مغنيات اذ مطلق النسوة لا تغنين أبدا ولو بين ايدى ازواجهن والغالب على اصحاب الموسيقى ان يكونوا من اليهود لأن أكثر المسلمين يتحاشون منها لما تقدم فى مطلب الصنائع وذلك كله فى غير الموسيقى العسكرية فانها على النحو الاروباوى ومثلها موسيقى الاروباويين فى تونس ويصنع مثل ماتقدم ايضا ليلة السابع من العرس وهى ختامه وتارة تجعل ولائم للولادة ومنذ حضر احد كبار العلماء أسكتت الموسيقى لكن وقع التساهل فى ذلك الآن واما المآتم فاذا مات انسان بكى عليه النسوة برفع صوت وتارة ينحن عليه وقد قل ذلك ولله الحمد والمنة وعند خروج الجنازة يفعلن مثل ذلك ثم عند الاتيان بما يغطى به النعش بعد الدفن يفعلن ذلك وعند الموت يفرغ بيت الرجل مما بها من الاثاث واما المرأة فلا ثم يحضر قراء يقرؤن القرآن حوله وهو مكروه شرعا للاجتماع على صوت واحد ولانه قبل غسل الميت ثم عند الغسل يؤتى بخواجات يكبرون ويهللون بصوت عال وهو من البدع ثم يؤتى بالقراء والمنتسبين الى زوايا

الصالحين بعد التكفين وكل يقرأ اما القرآن او أورادا للشيخ المنتسبين اليه وهو من البدع ثم يحمل على نعش وتارة يوضع في تابوت من خشب ويحمل على النعش ويصير كل من أولئك الفرق يصيحون بالقراءة والتكبير وغير ذلك وهو حرام أو مكروه اذ قراءة القرآن في الطريق لا تخلو زلما فيه من النجاسة المحققة سيما بعض الطرق في الحاضرة ثم يصلى عليه في صحن المسجد أو عند القبر وهو الافضل ثم يدفن وتقف أقرباؤه للعزاء فيتعبون ويتعبون من تقبيل كل من قدم للجنازة وقيم المحلة يصيح بقوله أثابكم الله كل خطوة بحسنة الخ من البدع ثم في اليوم الثالث والسادس والخامس عشر والاربعين والعام يجعل في دار الميت موكب تجمع فيه النسوة للبكاء سرا وتارة جهرا وتجتمع الرجال بالاستدعاء الا في اليومين الاولين لمشاهدة قراءة القرآن والبردة وتارة تكون بتغن والحاصل أن جميع ما يفعل في ذلك هو من البدع المحرمة لابتداعها فضلا عما اشتمل عليه من الافعال المحرمة لذاتها الا ما كان منها مشروعا كالغسل والتكفن والصلاة والدفن واهداء الاكل لاهل الميت أيام موته لا في السادس وما بعده وما أحق ذلك الموطن باتباع الشرع اذ هو واجب في كل حال فضلا عن حال هو أول درجة من درجات الآخرة ومن ملحقات ذلك البناء لذات القبر وبناء القباب والرخام والاسرافات في المقابر وهي أغلبها خارج البلدان الا قليلا في الحاضرة وهاتيك البدع قليلة في قبائل العربان لكن فيهم النائحات والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

﴿مطلب في اللغة﴾ لغة جميع أهل القطر هي العربية وهم أفصح من رأيت على العموم بالنطق بجميع الاحرف العربية الا القاف فيبدلها غير الحواضر بكاف أعجمية وقد ورد أنها لغة ويستند بعضهم حتى الى حديث لكنه مروي مناما ومن المعلوم أن مثل ذلك لا يبنى عليه حكم ثم اللسان وان كان عربيا فقد أدخلت فيه كلمات كثيرة بربرية أو أعجمية فمنها ما كان من أصل لغة السكان البربر كالفاظ كشطة أي عمامة وتواي الآن وللا أي سيده ولا زالت لغتهم في جهات جبال ورغمة من الاعراض وجربة مستعملة فيما بينهم ومنها ما كان من لغة الطليان كالفاظ فينو أي جيد ومركانتي أي تاجر كبير وكارتة أي ورق اللعب ومنها ما كان من لغة الترك كقولهم هم كذا وهم كذا وقولهم في النسبة قهواجي وبلغاجي وحماجي الى غير ذلك ومنها تحريف للاختصار كقولهم ما نحبش أصلها ما نحب شيأ ولهذا كثر استعمال الشين في لسانهم حتى كاد أن تكون عندهم كشكشة مع أنهم يتمدنون بالساكن والحاصل أن لسانهم عربي محرف وفي الحواضر

لا

لا يذكر الانسان غيره الا بزيادة لفظ سي فيقول سي فلان وكأنها مختصرة من سيدي ثم في المكاتبات الناس على ثلاث درجات فيكتب الاكفاء لبعضهم سيدي فلان ومن كان دونه بيسير يكتب له السيد فلان ثم الاسفل يكتب له سي فلان واما اذا كان خادمه أو تابعه فيكتب ابننا أو ولدنا فلان وهي اصطلاح خطاب الوالي في جميع مكاتباته الا للعلماء فيكتب الشيخ سي فلان ثم ان اللقب لابد منه في الكتابة بحيث لا تجد اسما بدون لقب والشهود يزيدون في كتابتهم الكنية لكن بالكنية العامة مثلا كل من اسمه علي يكنى أبا الحسن وهكذا (واما) البوادي وغالب القرى فمخاطباتهم وكتاباتهم من دون تسييد ولا لقب وانما ينسبون الى الاباء فيقال فلان بن فلان وأغلب البلدان لهم نحلة في لغتهم يكاد الماهر ان يعلم بها المتكلم من أي بلدة والغريب أن ذلك كائن ولو مع تقارب البلدان فان اريانة التي لا تبعد عن الحاضرة اربعة أميال لغة أهلها فيها نحلة بعيدة عن لغة أهل الحاضرة بل الاغرب أن اليهود الساكنين في الحاضرة مع أهلها الحارة جنب الحارة ترى لغتهم فيها تمييز كبير عن لغة المسلمين في كلمات كثيرة كقولهم الحين بفتح النون أي الآن وبلغة أهل تونس تو وكقلبهم الشئ شيئا وغير ذلك وأظن أن العلة في ذلك هي التربية من الصغر في الدار فيجري عليها اللسان ولو بعد الكبر والمخالطة وهذا واقع في اللغات الاخرى أيضا فأصل اللغة وان كان واحدا لكن النحلة مختلفة كما في أهل مرسيليا وباريس في اللغة الفرانساوية وكما في لغة أهل الاسلامبول وبقية الاناطولي في اللغة التركية بل هذا موجود حتى في أصل اللغة العربية فان قبائلها كل منهم له نحلة ولغة لا تفهم عند غيرهم وقد عد من معجزات نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معرفته بالجميع بل وقيل حتى في غير اللغات العربية وليس ذلك بغريب ومما ثبت في الصحيح في اللغات العربية مارواه القاضي عياض في الشفاء حيث قال فصل وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الافضل والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع وبراعة منزع وايجاز مقطع وفصاحة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغاتها ويباريها في منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسئلونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه وليس كلامه مع قريش والانصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني

وطهفة الهندى وقطن بن حارثة العليمى والاشعث بن قيس ووائل بن حجر الكندى وغيرهم من قبائل حضرموت وملوك اليمن * وانظر كتابه الى همدان ان لكم فراعها ووهاطها وعزازها تأكلون علافها وترعون عفاءها لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والامانة ولهم من الصدقة الثلب والناب والفصيل والفارض والداجن والكبش الحورى وعليهم فيها الصالغ والقارح * وقوله صلى الله عليه وسلم لنهد اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها ومذقها وابعث راعيها فى الدثر وافجر له الثمد وبارك له فى المال والولد من أقام الصلاة كان مسلما ومن آتى الزكاة كان محسنا ومن شهد أن لا اله الا الله كان مخلصا لكم يا بنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك لا تلطط فى الزكاة ولا تلحد فى الحياة ولا تتثاقل عن الصلوات وكتب لهم فى الوظيفة الفريضة ولكم الفارض والفريش وذو العنان الركوب والفلو الضبيس لا يمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم ولا يحبس دركم ما لم تضمروا الاماق وتأكلوا الرباق من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى فعليه الربوة * وفى كتابه لوائل بن حجر الى الاقيال العباهلة والارواع المشابيب وفيه فى التيعة شاة لا مقورة الالياط ولا ضناك وأنطوا الثبجة وفى السيوب الخمس ومن زنى مم بكر فاصقعوه مائة واستوفضوه عاما ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالاضاميم ولا توصيم فى الدين ولا غمة فى فرائض الله وكل مسكر حرام ووائل بن حجر يترفل على الاقيال أين هذا من كتابه صلى الله عليه وسلم لانس فى الصدقة المشهور وربما كان كلام هؤلاء على هذا الحد وبلاغتهم هذا النمط وأكثر استعمالهم هذه الالفاظ استعملها معهم ليبين للناس ما نزل اليهم وليحدث الناس بما يعلمون وكقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث عطية السعدى فان اليد العليا هى المنطية واليد السفلى هى المنطاة فكلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغتنا وقوله عليه السلام فى حديث العامرى حين سأله فقال له النبى صلى الله عليه وسلم سل عنك أى سل عما شئت وهى لغة بنى عامر وأما كلامه المعتاد صلى الله عليه وسلم وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب ومنها ما لا يوازى فصاحة ولا يبارى بلاغة كقوله عليه الصلاة والسلام المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم وقوله صلى الله عليه وسلم الناس كأسنان المشط والمرء مع من أحب ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له والناس معادن وما هلك امرؤ عرف قدره والمستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم ورحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم وقوله

عليه

عليه الصلاة والسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان أحبكم الى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وقوله لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه وقوله صلى الله عليه وسلم ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها ونهيه عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال ومنع وهات وعقوق الامهات ووأد البنات وقوله صلى الله عليه وسلم اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن الى ان قال وقد جمعت من كلماته التى لم يسبق اليها ولا قدر أحد أن يفرغ فى قالبه عليها كقوله عليه الصلاة والسلام حمى الوطيس ومات حتف أنفه ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين الخ كيف لا وقد أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلام ومنابع الحكم عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيات

﴿فصل فى قوة الحكومة الحربية والمالية﴾

نفـــرا

٠٢٠٠٠	العساكر النظامية العاملة
٠٠٥٠٠	الخيالة غير النظامية العاملة
٠٠٣٠٠	العساكر المعروفين بزواوة العاملين
٠٠٢٠٠	العساكر المعروفين بالحنفية العاملين وكل هذين غير نظامى
١٤٠٠٠	الرديف النظامى
٠٢٠٠٠	الرديف من الخيالة
٠٧٠٠٠	الرديف من الزواوة
٠٤٠٠٠	الرديف من الحنفيه وكل الاعداد على التقريب لان الضبط غير متيسر
٠١٥٠٠	العساكر البحريه
٣١٥٠٠	
٠٠٠٠٢	السفن الحربية بابورتان من نوع الكرويت

فرنـــك

١٤٠٠٠٠٠٠	دخل الحكومة مع انضمام القسم المعطى لاصحاب الديون ودخل الاوقاف
١٤٠٠٠٠٠٠	خرجها الا قليلا من فواضل الاوقاف
٤٠٠٠٠٠٠٠	قيمة متجر القطر الداخل والخارج

قد انتهى طبع هذا الجزء من صفوة الاعتبار وهو الثانى
بتاريخ أوائل المحرم الحرام سنة ثلاث وثلاثمائة وألف
فى المطبعة الاعلامية لصاحب التأليف الشيخ
محمد بيرم افندى الخامس وتحرر تصحيحه
على يد الفقير اليه تعالى
مصطفى محمد
قشيشه
ويليه الجزء الثالث افتتاحه الباب الثالث فى ايطاليا

(الطبعة الاولى)

(بالمطبعة الاعلاميه بمصر سنة ١٣٠٣)

(تنبيه)

يوجد في جدول الاحصاآت بالجزء الاول ميم مفردة وهي علامة على مجهول و (لا) وهي علامة على معدوم أي لا وجود له وقد غفلنا عن اثبات ذلك في محله فأثبتناه هنا لتنبيه القارئ

(فهرست الجزء الثاني من صفوة الاعتبار)

صحيفة

صحيفة

صحيفه

الجزء الثالث من كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

تأليف الفاضل المحقق والاستاذ المدقق قدوة العلماء وصفوة الازكياء وحيد عصره وفريد دهره

الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي نفعنا الله به وبعلومه

آمين

﴿طبعة أولى﴾

﴿بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٢ هجرية﴾

ماشاءالله كان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الثالث فى ايطاليا

فصل فى سفرى اليها ومارأيته بها لما تكاثر بى المرض العصبى فى صائفة سنة ١٢٩٢ ودامت معالجته على نحو مامر ذكره فى الباب الاول من المقصد وأشارت على الاطباء بالسفر الى أوربا عزمت على ذلك فى شوال سنة ١٢٩٢ الموافق الى أواخر نفمبر الاعجمى واستأذنت الحكومة فكتبت لى على عادة المسافرين بطاقة الجواز بالاذن فى السفر من مرسى حلق الوادى وهى بطاقة عليها اشارة الحكومة وتكتب تارة بالفرانساوى وتارة بالعربى وذلك على حسب المكان المسافر اليه فان كان بلدة أفرنجية كتبت بالفرانساوى وان كانت اسلامية كتبت بالعربى وهذه العادة بتذاكر الجواز معمول بها فى أكثر الممالك وبعض الممالك يتركونها فلا يحتاج الداخل ولا الخارج لاذن وركبت من المرسى المذكورة فى التاسع عشر من شوّال سنة ١٢٩٢ وكان معى خادمان أحدهما يتكلم باللسان الطليانى والفرانساوى والالمانى والعربى وصاحبنى فى هاته الجهة العالم النحرير المتبحر فى علمى المعقول والمنقول الشيخ سالم أبو حاجب أحد أفاضل مدرسى

جامع

جامع الزيتونة حيث كان له مأمورية في ايطاليا مع وزير الاستشارة أمير الامراء حسين في
خصومة تتعلق باحد اتباع الحكومة التونسية المسمى بنسيم شمامة الذي كان مكلفا
بقبض أموال الحكومة وشراء المهمات اليها وخرج من القطر بدون تحرير للحساب معه
كما مر في ترجمة الوزير مصطفى خزندار وذلك في حدود سنة ١٢٨٩ وبقي يتردد بين
فرانسا وايطاليا الى ان مات في بلاد فرنومن ايطاليا وطلبت الحكومة من ورثته تحرير
الحساب وكاد أن يقع صلح بينهما ثم خرج الورثة كما مر ذكره كذلك في ترجمة الوزير
المذكور ولذلك لزم الحكومة أن عينت أحد وزرائها وهو أمير الامراء حسين ومعه
العالم الشيخ سالم لطلب الحساب وتوقيف التركة فذهبا الى هناك وباشرا النازلة وطالت
المدة فرجع الشيخ المشار اليه الى تونس لبعض مصالح ثم عاد الى مأموريته وكان من
المنة الالهية التصاحب معه فركبنا باخرة البريد الطلياني المسماة بفورياونزلنا في
الطبقة الاولى وكان كراء الواحد فيها من تونس الى نابلي مائة وعشرين فرنكا وأما في
الطبقة الثانية فثمانون فرنكا وأما في الثالثة فعشرون فرنكا لان الاولى والثانية
كلاهما يعطى الاكل والفرش بخلاف الثالثة فانها للحمل فقط مع الاختلاف في المكان
والفرش والاكل فكل بحسبه فأقلعنا من المرسى يوم الاربعاء بعد الزوال بخمس
ساعات وكان في البحر شئ من الاضطراب فحصل لي شئ من الدوار واشتد الامر لما جاوزنا
رأس غار الملح فاضطجعت في فراشي وأوفق الحالات للانسان هي الاضطجاع وهذا
الدوار البحري من أشد الامراض لمن يصاب به وبعض من الناس لا يعتريه شئ منه
وان لم يكن متعودا وقد كنت قبل الركوب استعملت باشارة الطبيب ثلاثة حقنات في
الجلد من العلاج المسكن لكي لا يزيد على ألم البحر الالم العصبي ومن فضل الله لم يعترضني
ذلك الالم مدة الطريق وبقيت الحال كذلك الى ان وصلنا الى جزيرة سردانيا اقرب
مرسى كالاري فدخلت الباخرة في جون محاط بالجبال عن بعد فسكن البحر ونشطت وهو
من غرائب مرض البحر اذ شدته تقتضي ان الانسان يبقى معه التعب وهو بخلاف ذلك
لانه اذا انقطع الاضطراب يحصل النشاط الاقبلا ولما انشطت صعدت الى سطح الباخرة
فرأيت الجبال محيطة بنا وهي جبال أكثرها صلد لا غابات بها ومنظرها ليس بحسن
وأغلبها خال عن العمران لان التمدن لم ينبسط في تلك الجزيرة ولم نزل سائرين في ذلك
الجون نحو ثلاث ساعات وكانت الباخرة تسير عشرة أميال في الساعة الى ان أرسينا في
مرسى كالاري التي هي تابعة لايطاليا وكان ذلك صبيحة يوم الخميس قبيل الزوال فاذا

بالمرسى مبنية بالرصيف لأمن السفن بحيث تستطيع أعظم سفينة أن تلصق بالبر مع الأمن من اضطراب البحر والالصقة بالبر ينزل سلمها على ذات البر وفى المرسى كثير من السفن والبواخر لان موقعها متوسط فيأتيها البريد من جهات ويفرق على بواخر كل تذهب الى جهة من الممالك المشرقية والمغربية ثم يحمل من الجزيرة فى السفن الملح والغلال والاثمار الى كثير من الجهات ثم نزلنا من الباخرة فى زورق كراؤه فرنك واحد والزوارق كثيرة تحيط بالبواخر وأصحابها سيؤ الاخلاق مع المسافرين يغرونهم بالركوب قبل المساومة فى الاجر فاذا نزل طلبوا منه أضعاف القيمة وربما سرقوا ما وجدوه معه ان أمكنهم وذلك ديدنهم فى كل المراسى لكننا ساومنا قبل الركوب ودخلنا البلد فاذا هى بلد غير متمصرة وأغلب طرقها ضيق وأبنيتها على النحو الاوروباوى الآتى بيانه ولا تزيد طبقات دورها على أربعة وهى بلدة متصاعدة فى الجبل وطرقها جميعا مبلطة فالذى تمر فيه العجلات يكون محصبا وغيره محجر بحجارة غير مسواة ولذلك كان منظرها والمشى بها متعبا وترى الحبال ممتدة بين شبابيك الديار من احدى الجهات الى ما يقابلها لنشر الثياب المغسولة عليها وفرش الديار مثل الفرش الاوروباوية وبأعلى البلد بستان عمومى متنزه للعامة وتأتيه الموسيقى العسكرية لبسط العامة عشية الاحد والاعياد وفيه ماء نابع حلو وبه أشجار صغيرة مهيآت للبيع فى أوقاتها وفى البلد منازل للمسافرين منها الحسن ومنها ما هو دونه وبها حوانيت وبطحاآت غير متسعة جدا وبها قهاوى ويباع بحوانيتها جميع ما يوجد غالبا من الضروريات والحاجيات والتحسينيات وفيها مستشفى ومدارس للتعليم فى مبادى الفنون وبها مطابع أيضا وفيها صحف يومية نحو الاربعة وهواء البلد ردىء تكثر فيها الحميات فى الصيف لمجاورتها السبخة وهاته السبخة يستخدم فيها أصحاب الجرائم الثقيلة المحكوم عليهم من محاكم ايطاليا وفيها معمل كبير من البناء لذلك مجلوب له الماء فى قناة من البناء مجتازة قرب شاطئ البحر ظاهرة للناظر وبسبب تلك السبخة فسد هواء كالارى حتى يقال ان عدد أهلها كل عام فى نقصان وقد شرع فى مد طريق حديدية من هاته البلدة التى موقعها فى الجنوب الغربى من الجزيرة التى هى مستطيلة من الجنوب الى الشمال وينتهى الطريق فى الشمال الشرقى من الجزيرة غير انه لم يتم الى الآن ولا زال العمل فيه ثم أهل البلد على قسمين (الاول) الاعيان والوافدون وكلاهم لباسهم مثل لباس الاوروباويين (والثانى) بقية الاهالى ومثلهم بقية سكان البوادى والقرى فى الجزيرة

يلبسون جلود الغنم بصوفها فالصوف مما يلي البدن والجلد من أعلى وهيئة اللبس هي صدرية ومنتان وسراويل نحو السراويل التونسية لكن يجعلون على الساق ألبسة مربوطة والنعال خشنة ذات مسامير كبيرة وعلى رؤسهم عرارق من الصوف أو قلانس من الصوف المنسوج طوال مدلاة على أكتافهم والنسوة يلبسن قريبا من لباس نسوة أوربا لكن على شكل غير نضر وفي أرجل أغلبهن قباقب من خشب ولغتهم طليانية والغالب هو عدم التمدن والاكل رخيص هنالك فالقهوة الثلاثة منا طلب صاحبها منا ستة صولدى والفرنك به عشرون صولدى كل صولدى خمسة سانتيم ثم ركبنا باخرة أخرى وهي التي توصلنا الى نابلي بعد ان أحسنا الى خدمة الطبقة التي كنا فيها وذلك من اللوازم في البواخر وكذلك الاحسان لخادمي المطاعم والقهاوي ومقدار الاحسان نحو خمسة في المائة مما يدفعه الدافع فان كان أقل نوزع في ذلك وان زاد شكر ونقلنا رحالنا الى الثانية فاقلعت قرب الغروب وتوجهنا الى نابلي فلم تزل الباخرة سائرة والبحر ساكن الى أن خرجنا من الجون والتفت الباخرة متوجهة الى الشرق وأرخى الظلام سدوله فنمنا في مضاجعنا الى الصباح فاستفقنا بكرة وحيث كان البحر في سكون كان يستطيع الانسان أداء جميع ضرورياته والوضوء والصلاة على أكمل حال وبعد شروق الشمس أول ما اكتشفنا قرب نابلي جزيرة اسكا وبها جبل مرتفع وهي تحتوي على قرى كثيرة ولها منظر جميل من بعد لارتفاع مبانيها وتزويقها من خارج ثم ظهر بركان نابلي وهو جبل مرتفع متصاعد من قنته دخان ثم وصلنا الى مرسى نابلي والبلد في سفح الجبل وهي أكبر مدن ايطاليا وكانت تخت الملك النابلطان وسكانها نحو أربعمائة ألف نسمة وهي محيطة بجون في البحر على شكل هلال والمرسى في الوسط وهي مرسى صناعية أكبر من مرسى كالاري غير أن السفن في وقت وصولنا اليها أقل من الاولى فتعرض لنا عند ارساء الباخرة أحد المعارف في زورق لانه بلغه خبر قدومنا بسلك الاشارة من كالاري فاصطحبنا جميعا ومررنا بوسط الكمرك ونظر المكلفون به رحالنا فلم يجدوا به شيأ يؤدي الكمرك سوى شيء من القشوق وماء الزهر فاخذوا ما عليهما من الضريبة ثم ركبنا بكروستين من الكراريس الموجودة في بطحاء الكمرك مهيآت لمن يريد الركوب وهي كراريس نظيفة أغلبها يركب راكبين فقط من النوع الذي ينفتح سقفه الى خلف ومثلها موجود في أغلب الجهات الكثيرة العمران من البلاد وتجرها الخيل وأما عجلات حمل الاثقال فتجرها الخيل والبغال والبقر وهكذا في غيرها من البلدان غير ان البقر

لا تستعمل فى الجر فى أعالى ايطاليا وفرانسا ثم نزلنا بأحد منازل المسافرين بعد أن ردنا فيه بيوتا على نحو ما يليق بنا وهو منزل كبير ذو خمس طبقات له شبابيك تفتح على نهج واسع يسمى طريق البوسطة وله شبابيك على بطحاء واسعة بها فوارتان للماء العذب المجلوب من الجبل الموزع على البلد وعلى ديارها وسائر مساكنها وكان الكراء لاربعتنا فى اليوم للسكنى والاكل خمسة وعشرين فرنكا سواء أكلنا أم لا وما زاد على ذلك مما يطلبه الانسان يؤتى به اليه لكنه يحسب عليه بثمنه كالورق للكتابة والشمع وغير ذلك بحيث انه كلما يطلبه يجده وانما ينبغى للانسان أن يساوم مدير المنزل قبل الاتيان بالشئ المطلوب والا فانه يحمل عليه باسعار باهظة وأما الاشياء الضرورية فهى داخلة فى اجرة السكن والاكل وهى ان يجد الانسان بيتا ذا فراش للنوم بغطائه ولوازمه وكراسى مكسوة بالحرير وخزنة وعليها مرآة وساعة وسائر الضروريات ومصباح وشمعة ومائدة لوضع الكتب وآلات الكتابة ومناديل للتنشيف من الماء عند الغسل وهكذا سائر الضروريات الا الأبريق للمستراح فينبغى حمله الى جميع جهات أوربا اذ لا يوجد عندهم وليسوا يتعودين عليه وهو من العادات اللازمة للسيرة الاسلامية والنظافة كما انهم فى أوربا لا يغسلون أيديهم بعد الاكل أما قبله فمن آدابهم أن يغسل الانسان يديه ووجهه فى بيته ويأتى بيت الطعام بثياب نظيفة غير ان من أراد غسل فمه وأصابعه بعد الاكل فله أن يطلب من الخادم فى بيت الطعام أن يأتيه بما يغسل به فيأتيه بصحن فيه قدح من الزجاج أو الخزف وفيه كاس به ماء حار قليلا مخلوط بشئ من روائح الطيب فيتمضمض به ويمج الماء فى القدح ويدخل أصابعه فى الكاس ويمسح بها شفتيه ثم يتمسح فى منديل ثم ان بيت السكنى مفروش بالزرابى وعلى أبوابه أردية رفيعة وهو فى غاية النظافة وله خادم لتنظيف البيت وتهيئة الفرش وعند الاستيقاظ يدعو الساكن الخادم فيأتيه بالقهوة وما يتفق عليه من الاكل صباحا ثم ينظف الخادم البيت ويغير المناديل واردية الفراش ان كان بها أدنى وسخ وعند الظهر أو قبله بساعة يضرب جرس للتهيئ للاكل ثم بعد خمسة عشرة دقيقة يضرب الجرس مرة اخرى لحضور الساكنين من بيوتهم الى بيت الطعام وهو بيت متسع فيه مائدة كبيرة أو أزيد يجلس عليها الحاضرون فوق كراسى ويفرق عليهم الاكل سواء والاغلب أن يكون أربعة أنواع أو خمسة من اللحوم والطيور والسمك ثم نوع من الجبن ثم فاكهة ثم ينصرفون ومن أراد الاكل فى بيته فله ذلك غير أنه يحسب عليه بزيادة فى الثمن أو يعطى أقل من ألوان

المائدة

المائدة العامة وكذلك وقت العشاء وهو فى الاغلب بعد الفطور بسبع ساعات ولما كان المسافر يريد التفرج فالاولى أن لا يكترى المنزل الا للسكنى وأما الاكل فيجعل له سوم خاص لكل أكلة ان حضرا كل والافلا يحسب عليه شئ لكى لا يلزمه الحضور والاكل فى محل واحد أو انه يخسر ثمنين للاكل باعطاء ثمن الاكل فى منزل السكنى ثم فى المكان الذى يأكل به واذا خرج المسافر يقفل بيته ويعطى مفتاحه لصاحب الباب لكى يكون رحله فى أمن اذ يعترى السرقة فى البيوت أحيانا سيما فى نابلى ولا يطالب صاحب المنزل بما يسرق الا اذا كانت الاشياء المسروقة ضمن وربا وضعها فى البيت كالصندوق وأما المال والمصوغ وشبهه فلا ولذلك ينبغى لمن له شئ من ذلك ان يحمله معه أو يضعه فى أحد البنوك لان وضعه عند صاحب المنزل مخطر وان أخذ منه حجة فى ذلك اذ يحتمل افلاسه فتذهب الامانة سدى ولذلك يكون الاوفق للمسافر أن يحمل معه من المال العين شيأ قليلا وبقية ماله يصرفه بتذاكر بانكات معتبرة كبنك فرانسا أو انكلترة ويحملها معه اينما ذهب لخفتها ويستريح ومهما أراد عين المال يصرف تذكرة من تلك التذاكر عند أى صراف أراد بل ربما ربح فيها اذ خصوص تذاكر البنك الفرانساوى والانكليزى يرغب فيها أزيد من المال العين ولذلك يؤخذ عليها نصف فى المائة زيادة من قيمتها بخلاف تذاكر بنوك ايطاليا أو غيرها فانها لا تصرف فى غيرما لكها وفى ذات مملكتها تعطى الصرف أقل من قيمتها فمثلا التذكرة المسمى بها مائة فرنك من بنك ايطاليا اذا أردت أن تدفع المال وتأخذها فانك تعطى مائة فرنك عينا وتأخذ مائة وثلاثة عشر ورقا وهاته الاوراق هى التى بها الرواج فى ايطاليا بحيث انها هى المعنية عند الاطلاق وفى ايطاليا عدة بنوك لها تذاكر من ذلك النوع فاما تذاكر بنك الدولة فانها تروج فى جميع ايطاليا سواء وأما تذاكر بنوك صيارفة أخر فلا تروج الا فى خصوص البلدان التى فيها البنك فمثلا تذاكر بنك نابلى لا تصرف فى رومة أو غيرها من مدن ايطاليا فضلا عن غيرها فينبغى لمن سافر أن يتنبه لهذا وقد أقمنا بنابلى ثمانية أيام وتفرجنا على أغلب جهاتها وغرائبها وأشهر طرقها الحسنة البهيجة هو طريق توليدو وهو متسع عامر يمينا وشمالا بالقصور الشاهقة وبأسفلها الحوانيت للبضائع والتحف الانيقة ويقرب منه فى المنظر طريق البوسطه وطريق الدومو وثم طريق جديد يسمى فوريدو وهو أوسع من غيره وأنزه وعلى حافتيه الاشجار لكن القصور التى حوله لم يكمل انتظامها اذ ذاك وهو فى الجهة العليا من البلاد وبقاعدة بطحاآت أشهرها وأكبرها التى أمام قصر

الملك ويحيط بها قهاوى ومحلات للأكل ومن المبانى الشهيرة التى رأيتها فيها قصر الملك الذى فى البلاد وهو قرب شاطئ البحر وأمامه من جهة البحر حصون وأسفله من تلك الجهة مسكن للعسكر وعلى سطحه بستان متسع ذو أشجار ونوابع مياه تطل عليه شبابيك القصر والقصر ذو أربعة طبقات والمعد منها لسكن الملك هى الطبقة الثانية وهو قصر ضخم متقن البناء والتحسين والتزويق يشتمل على كنيسة وعلى ملهى خصوصى للعائلة الملكية ويشتمل أيضا على جميع الاثاث والادوات المحتاج اليها فى السكنى من فرش وأوانى طعام على أنواع حتى من الفضة بحيث انه منتظم كان الملك ساكن فيه والحال أنه لا يأتيه الا أحيانا فى بعض أوقات التنزه أو تفقد المملكة لان مقر الحكومة مدينة رومة لكن لما كانت نابلى سابقا قاعدة مملكة النابلطان وكانت ملوكها مستبدين أشادوا ماشاءوا فى قصورهم وبقى التحفظ عليها على ما كانت عليه ولها خدمة ومكلفون حتى ان الملك اذا قدم الى هناك لا يستحق لجلب شئ معه سوى ملبوسه ويمكن له عقد الولائم الحافلة هناك كأحسن ما تصنعه الملوك وهكذا فى كل بلد كانت قاعدة الملك فى ايطاليا وبلاصق هذا القصر الملهى الكبير المسمى بصان كارلو وله منفذ من القصر الملوكى وهو من أكبر ملاهى أوروبا وأتقنها ضخامة وتزويقا ويحمل من المتفرجين نحو ألف وخمسمائة متفرج وهو ذو ست طبقات فمنها أربع طبقات كل واحدة تشتمل على احدى وثلاثين بيتا ومنها طبقتان كل واحدة تشتمل على ثمانية وعشرين بيتا وكل بيت تجلس به أربعة أنفس عدا بيت الملك التى فى صدر الطبقة الثانية مواجهة للعب هذا عدا المحل العمومى فى الوسط الذى به مقاعد عددها ستمائة وثلاثون مقعدا وهذا الملهى لم يفتح اذ ذاك منذ سنتين اقتصادا من الحكومة لانه يلزمها فى كل ليلة لفتحها تعين على مصاريفه بألف وخمسمائة فرنك لان دخل المتفرجين لا يكفى مصاريفه ومما شاهدته أيضا قصر الملك الذى خارج البلد فى رأس الجبل ويسمى كابودى مونتانى وهو قصر أصغر من السابق يحيط به بستان أنيق ولم يكن بالقصر فرش سوى بعض بيوته بها فرش عتيقة جدا لملوكهم الاقدمين موضوعة هناك للتفرج عليها وبقية البيوت بها آثار قديمة من السلاح وأدواته حتى كان منها بيت مملوء بصور أجساد آدميين متدرعين بأنواع شتى من الدروع على حسب اختلاف الزمان ومنها صور فرسان بخيلهم مدرعين ومنها صور بعض ملوكهم والدروع كانت حقيقية مستعملة حقيقة فى الحروب وبعضها به آثار الضرب والطعن

حتى

حتى بالرصاص من المكاحل وبقية بيوت القصر خاوية والجميع بناؤه أنيق ثمين
وشاهدت أيضا أكبر كنائسها وهى كنيسة صان جينارو وهى ضخمة ذات أعمدة من
المرمر ومن غريب ما فيها صورة صنم من رخام أبيض عليه ثوب كأنه صفيق بحيث
يبدو ما تحته والحال انه نحت من ذلك الرخام وشاهدت أيضا أكبر مارستان لهم وهو ✽
ذو بيوت كبيرة كل واحدة بها نحو المائة فراش كل منها بعيد من الآخر قدر فراشين
وكل فراش لمريض واحد عرضه نحو المتر وطوله نحو المترين وربع وهو على سرير من
خشب يحتوى على فراش وعليه ازار ووسادة وغطاء من القطن والمريض لابس لقميص
وعلى رأسه قلنسوة من نوع القميص والكل من منسوج الكتان الابيض وكل بيت
يحتوى على نوع واحد من نوع المرض أو متقارب النوع والكل بيت خدمة بالاجرة
يوفون للمرضى بجميع لوازمهم واعطاء الدواء فى أوقاته حسب اشارة الطبيب وزيادة على
ذلك كثيرا ما تأتى نسوة من الاعيان وغيرهم لخدمة المرضى والرأفة بهم حنانا منهم ورغبة
فى عمل الخير وللمارستان عدة أطباء منهم من هو ذو وظيفة وله أجر عليها ومنهم من
يداوى مجانا مارغبة فى الخير أولا تمام تعلمه لفن الطب حتى يأخذ الشهادة ممن له الاجازة
على قوانين لهم فى ذلك وللمارستان أيضا بيت أدوية ومواعين الجراحة والدواء وفيه
قسم للرجال وآخر للنساء المرضى وهكذا كل مارستان غير ان بعضها يداوى مجانا
وبعضها له أماكن لمن يريد التطبب من ذوى اليسار فيعطى مقدارا معينا يوميا
والمستشفى يقوم بجميع ما يلزمه ويختارون التداوى فى المستشفيات لانها أتقن من
مساكنهم سيما فى التحفظ على ما يتعلق بالدواء واداء الخدمة حقها مع مباشرة مشاهير
الاطباء الذين يلزم لاتيانهم لمساكن المرضى مصاريف وافرة ومحلات هؤلاء المستأجرين
فى المستشفيات أنقى وأنظف وأبهى من المحلات العامة ويمكن لكل مريض أن يبقى فى
بيت خاص به صغير موافق فى الهواء بحيث ان جميع حركات المستشفيات وأوضاعها على
مقتضى الحكمة الطبية ثم ان مصاريف المستشفيات على أنواع فمنها ما تقوم به الدولة ومنها
ما تقوم به المجالس البلدى ومنها ما يقوم به لجنات من الاهالى وهذا فى كل جهات أوروبا
سواء ويقبلون الصدقة ممن يريدها ولو من السواح وشاهدت فيها أيضا الدار التى بها
الآثار العتيقة ومنها الاشياء التى استخرجت من بلدة بونباى التى يأتى خبرها وهاته ✽
الآثار لو أراد الكاتب استيعابها لالزم لها مجلد ضخم اذ هى مشتملة على أنواع وأشكال
شتى من أقطار مختلفة فمما جلب من مصر المومى وهى ذات انسان ميت مصبرة على

ما كانت عليه منذ عدة آلاف من السنين لم يتغير منها شيء سوى ان اللون اسود وجوفه
منقوب لاخراج جميع احشائه وبقية حاله على ما كان عليه وفي هاته الدار نحو اربعة
أجسام من ذلك النوع منها النساء ومنها الرجال وذواتهم لا تختلف عن ذوات البشر
الموجود الآن لكن ليس فيهم ذو جسامة ولعل ذلك بسبب ان الميت المصبر انما يكون
من برقومه ومثل هؤلاء لا يموتون غالبا الا بالامراض والامراض تنحف الاجسام فلذلك
كانت أجسام المومياءات نحافا والافان التصبير يحفظ الجسم على ماهو عليه ثم ان ذلك
النوع من التصبير قد جهل ومع كثرة البحث عنه من حكماء الاعصار المتأخرة لم يطلع عليه
فهو من العلوم التي فاز بها المتقدمون ودثرت ومن غرائب ما في هاته الدار أيضا قطع من
ثياب منسوج من مادة حجرية وهذا المعدن يسمى اميانتو وهو الآن معروف وموجود
لكن كيفية تمديده حتى يصير مغزولا وينسج منه مجهولة الآن وقد كان في الاعصر
السالفة معلوما ومن فوائد تلك الثياب انها لا تحترق واذا توسخت فغسلها بالنار وهي
ثياب لينة تنطوي غير انها ثخينة ومن غرائبها أيضا ما وجد من آثار بونباي وهي أشياء
كثيرة من المأكولات وغيرها فرأيت فيها التمر والقمح والزيتون وغير ذلك مما مضى عليه
ألفا سنة أو أزيد لم يتغير منه شيء سوى اسوداد في اللون وقالوا ان طعمه أيضا لم يتغير
وسمعت انهم زرعوا حبوبا مما وجدوه كالقمح ونبت وأثمر مثل الجديد مما يدل على أن
النوع واحد لم يتغير حاله مع طول الزمن وكل هاته الحبوب موضوعة على ترتيب حسن
الى غير ذلك من الآثار القديمة الموضوعة المنضمة في أماكن محفوظة نظيفة وعليها
قيمون وتفتح يوميا لمن يريد التفرج بأجر زهيد وتسمى هاته الدار موزاي ناسيونال ومما
شاهدته في نابلي دار الفنون المسماة أنيفرسيتادي نابلي وهي يعلم بها فنون الطب
والاحكام والسياسة والتجارة والكيمياء والصيدلة والبناء والفلك والجبر والمقابلة
والهندسة والابعاد وجر الاثقال ولكل فن قسم ومدرسون وبها محل لاجسام
الحيوانات فيه أغلب ما يعرف منها من الانسان الى الذباب من الحشرات حتى الحيوانات
البحرية لكنها كلها ميتة مجعولة بوا أي منزوعة اللحم وغيره مع التحفظ على هيئة الجلد
ويحشا جلدها بمواد نباتية ويرسم على هيئة أصل الحيوان حيا وتجعل عيناه من زجاج
فيراه الناظر كأنه حي وفيها من تلك الانواع ما لا يكاد يحصى ويوجد كتاب مطبوع
في البلد مشتمل على تلك الحيوانات مع تراجمها وأغرب ما رأيته من حيواناتها ولم أره
في غيرها عصفور في حجم النحلة ملون الريش وذيله ذو ريشتين فقط طوالتين كل منهما

في

فى طول ما يقرب من الشبر لها الوان جميلة وكذلك رأيت فيها تنين البحر أعظم جسما من الفيل لكنه أقصر منه لان جملة هيئته تقرب من هيئة السلحفاة ورأسه أضخم من رأس الفيل وعيناه واسعتان جدا وفمه مفتوح وجلده منكمش وبجملته له منظر بشع منفر ويوجد فى هذا المحل جسم الانسان على جميع أطواره منذ يتكون مضغة الى ان يصير شيخا فانيا ثم يوجد تشريح اعضائه منفردة سواء كانت ظاهرية أو باطنية ذكورية أو أنوثية وجملة جسمه من الجاميع الاصلية كل منها منفرد عن الآخر فتجد جسما ليس فيه الا العظم فقط على نحو خلقته ثم آخر به العظم والعروق فقط وهكذا غير ان بعض هاته الاجسام هو حقيقى وبعضها صورى من الشمع لكنه متقن التصوير واللون حتى كانه هو الاصل لان اللحم بدون جلد لم يمكن لهم تصبيره فى الهواء وكذلك توجد أجسام المولودين على خلاف المعتاد كمكون وجهه فى بطنه وآخر ذو ثلاثة رؤس الى غير ذلك وكلها مصبرة فى زجاجات كبيرة مملوءة بمياه روحية لكى تقى الجسم من التعفن وفى هذا المحل يتعلم فن التشريح الذى هو جزء من الطب وفى هذا المحل أيضا خزنة كتب عظيمة بها مائة وثلاثون ألف مجلد كلها بالطبع الا النادر بخط اليد وبها كتب عربية كثيرة فمما رأيته فيها مصحف كريم مطبوع بالطبع الحجرى ثم كتاب يسمى الكمال المسيحى للراهب الفونس رودريكوس موضوعه تعاليم ديانتهم وهو فى مجلدين ضخمين ثم مجلد آخر يشتمل على توراتهم واناجيلهم مكتوب بلغات ستة وبخطوطها واللغات هى العربية والعبرانية واليونانية واللاتينية وجارتيانوو السريانية بنوعيها ويوجد بهاته الخزنة الكتبية كورتان محيط دائرة كل منهما نحو ثلاثة ميترو احديهما صورة الفلك وأخرى صورة الارض مرسوم بهما خريطات متقنة مكتوب عليهما بالخط العربى الثلثى الجميل قيل انهما من صنائع علماء الاندلس وبقرب نابلى على مسير نحو عشرين دقيقة فى الرتل بلدة بنمباى رهاته البلدة كانت منذ الفين سنة مصرا متمصرة وكان أهلها مولعون بالانكباب على الشهوات وقساوة القلب حتى ان من ألعابهم فى الملاهى والمراسح أن يخرجوا الحيوانات المفترسة ويلقون اليها بالناس الذين يريدون عقابهم فتخطفهم الحيوانات وتمزق أجسامهم شر تمزيق والمتفرجون محدقون فى البيوت المرتفعة المحصنة من وصول تلك الحيوانات اليهم وهم يضحكون فرحين ولم يكن ذلك مقصورا على رجالهم بل حتى النساء اللاتى هن أرق طباعا كن يتهورن وينبسطن من مثل تلك المناظر وتمادى تمرد أهل تلك البلاد على جورهم وقهرهم فأرسل

الله عليهم هيجان جبل الفز وفيو الذى هو بركانى وهو بقربهم على نحو ثلاثة أميال فزلزلت بهم الارض وهم على حين غفلة زلزالا شديدا وهرعوا للفرار الى الفضاء خارج البلد فأدركهم سيل العرم من النار التى قذفها الجبل فاحمر الافق بعدان أظلم واحلولك وطاف عليهم طائف من بحر النار فأهلكها وكل من فيها فى بضع دقائق وتراكمت عليها المادة السيالة النارية حتى صار مكان البلد وما حولها جبلا وامتد الى البحر سبحان الملك القهار وتمادى عليها ذلك الحال وتنوسى أمرها الان الواقعة وقعت عليها قبل التاريخ المسيحى بقليل وصار سطح أرضها بطول الزمان صالحا للزرع والنبات ففى عشرة الثمانين والمائتين وألف هجرية كان أحد الزراعين هنالك يحرث فنشب محراثه فى عروة احدى الاوانى التى كانت فى البلاد فبحث عليها فتراءى له ما ظنه كنزا وتبين انه كنز رفيع وهو البلد الغابرة فعينت دولة ايطاليا مقدارا من المال سنويا وكلفت مهندسين بالكشف عن تلك البلاد مع التحفظ على هيئة بنائها وجميع ما يوجد بها ولا زال العمل مستمرا الى الآن وانما كان السير بطيئا فى العمل لان المادة النارية تحجرت وصارت صلبة مع الاحتراس من افساد الموجود وتعسر الفرق أولا بين ما كان من البناء وبين ما التصق به من تلك المادة فأخرجوا من البلاد كما وجد بها اذ ما كشف عليه وجد كأنه على حالة أصله فأرباب الصناعات والمحلات على الهيئة التى أدركهم عليها الغرق والحرق والردم معا وكل الاجسام التى وجدت بقيت على حالها عند مس الهواء لها سوى الاجسام الحيوانية فانها عند مس الهواء لها تضمحل فجعل العاملون حيلة لابقاء صور الاجسام بان جعلوا كلما تفطنوا بمس آلة الحفر لجسم حيوانى أتوا بالجص وحلوه فى الماء ورفعوا ذلك آلة الحفر عن المحل الذى لمسته وأبقوا الهواء مماسا للجرم الحيوانى من ثقب آلة الحفر فينفش الجسم فى الهواء ويبقى محله فى المادة النارية خاويا فيصب فيه الجص وعند جفافه وانعقاده تكسر المادة النارية عنه وتخرج صورة الجسم على ما كان عليه ورأيت فى بعضها بقية من فقرات الظهر وعظام الاصابع لم تبل ومما يدل على جراءة أولئك الاقوام فى ذلك العصر وتجبرهم ان وجدت بعض جثثهم على حالة الوقاع حتى كان منها جنازة رجل وامرأة متداخلى الارجل لكن الرجل لما أدركه الموت انزعج على قفاه وهو ناعظ وبقيت المراة على حالتها منكبة على وجهها ومقعية على ركبتيها فانظر الى ذلك التجبر مع سابقية الزلزال ولم يؤثر فى شهوتهم حتى أدركهم الهلاك على شهوتهم وأما أبنية تلك البلدة فالظاهر ان أغلبها انهدم بالزلزال وما بقى منها قائما منه المتصدع والمنشق

ومنها

ومنها القائم على أصله وهيئة بنائهم يجعلون الحائط ضيقا نحو ذراع فما دون والسقوف
من بناء على هيئة قباب نحو نصف كورة أو أقل تكون زاوية ظمون تقابل الابواب فاذا
دخلت بابا الى دار من الطريق تجد سقيفة مربعة ثم بابا الى وسط الدار وفيه أربعة أبواب
الى كل بيت واحدى البيوت وراءها جنينة وبركة ماء واسرة النوم من بناء كالدكاكين
وجهة الوسادة بناء مرتفع يسيرا على سطح السرير ولا تختلف دور الاغنياء عن غيرهم الا
بالكبر والصغر ولكل بيت طواقى الى وسط الدار وكل الطواقى والابواب متقابلة
والحمام الذى رأيته فى البلاد هو على نحو الحمامات المعروفة الآن فى البلاد الاسلامية
وفيه تصاوير على الجدران بالالوان مثل الحمامات بتونس والمغرب ورأيت محل الحكومة
وتحته السجن وعند مجلس الحاكم عند رجليه طاقة يطل منها على المسجونين أسفله
والسجن مظلم لا يتخلله الهواء ولا الضوء الا من تلك الطاقة ورأيت الملهى فاذا هو على نحو
الملاهى الاروباوية غير ان مربع اللعب هو وسط الدائرة وهو أسفل مكان المتفرجين
والطرق كلها مبلطة بالحجارة الصلبة المنحوتة ومنقسمة على ثلاثة انحاء فوسط الطريق
منخفض عن جانبيه لمرور العجلات ومفروض لها على جانبيه سكة لمرور ذات العجلة فيها
وعن اليمين والشمال محل مرور الماشين وجميع عرض الطريق نحو ثلاثة ميتر وفى محل
مرور العجلات يقسم وسط الطريق بحجارة منحوتة مرتفعة على سطح الطريق بحيث تراها
ناتئة على طول الطريق وجميع الطرق مستقيمة لا اعوجاج فيها وتتلاقى على زوايا حادة
غير ان كل طريق لما كانت لا تمر فيها الا عجلة واحدة حسبما هو مفروض للعجلات فيلزم
بالضرورة ان تكون كل طريق لا تمر فيها العجلة الا لجهة واحدة كى لا تتلاقى
وفى محل الادارة لكشف تلك البلاد محل لوضع الاشياء المستخرجة ثم تنقل من هنالك الى
نابلى وتوضع فى محل الآثار القديمة كامر والمادة النارية المتصلبة يصنع منها تحف كثيرة
فى نابلى وفيها سوق نافقة وجميع الاماكن المعدة للتفرج اما أن يدخلها الانسان
بأجر قليل أو تكون له تذكرة الدخول من الدولة والحصول عليها سهل بواسطة أحد
الاعيان أو نواب الدول وقد أعطانا تذاكر الدخول قنسل الترك وقد اجتمعت فى نابلى
بأكبر حكمائها وهما توماسى وكنتانى وكان الثانى يعظم الاول جدا لكبر سنه حيث
أنه بلغ نحو الثمانين ولمشيخته عليه وكانت أجرة كل منهما فى كل زيارة ستون فرنكا
وبقيت فى نابلى ثمانية أيام وكان المسافر فيها يقدر أن يقيم كل يوم متوسط المعيشة
بأربعة فرنك يوميا للاكل ويقدر أن يأكل فى المحلات السافلة بنصف فرنك يوميا كله

فى المحلات العالية بعشرة فرنك فى الاكلة الواحدة وقد دعانى هناك أحد أعيان البلدة للمسامرة فى داره حيث كان حبيبا الى مصاحبنا من أهل البلد فرأيت كيفية مسامرتهم ورقصهم وفى آخر يوم من اقامتى بها أعلمت بان الابرة المسماة بالبوصلة اضطربت علامة على الزلزال ثم ركبنا الرتل بقصد بلد رومة وكان ذلك صباحا ولما وصلنا الى قرية كزرتا التى هى قريب نابلى مسير نحو ساعتين فى الرتل نزلنا هناك وتغدينا فى احدى منازل المسافرين وأما صناديق حوائجنا فانها ذهبت مع ذلك الرتل الى رومة وتنتظرنا فى الكمرك فى محطة الرتل الى ان نقدم الى هناك ثم ذهبنا الى قصر الملك فى بستانه المسمى بقصر كازرتا فاذا هو اعظم وأتقن قصر رأيته من جهة التأنق فى مواد بنائه المتخذة من الاشياء الحاقية كالمرمر والرخام والحجارة الضخمة المخرونة وان كان غيره اشد تأنقا من جهة صناعات النقش والتذهيب والتزويق وهو مربع الشكل كل جهة منه فى طول مائتين ميترو وأمام الباب بطحاء عظيمة على جانبيها اماكن للعساكر فاذا دخلت من الباب تجد القصر منقسما الى أربعة أقسام وكل قسم فى زاوية يشتمل على بطحاء وله مطالع الى القصر والمطلع الكبير المعد للوقت الرسمى يشتمل على مائة واحدى عشرة درجة من المرمر الموردا اللون كل واحدة فى قطعة واحدة الا قليلا منها فى قطعتين طول كل درجة ثلاثون قدما وعرضها قدمان وارتفاعها ستة أصابع وبعدد الدرج منفرد فاذا انتهت الى نصفها رجعت الى قسمين يمينا وشمالا فينتهيان الى ايوان عظيم مرفوع سقفه على ستة عشرة اسطوانة من المرمر المزرزر كل فى قطعة واحدة ارتفاع الواحدة نحو عشرة أذرع ومحيطها لا يستطيع الانسان الكامل الاحاطة به بذراعيه ومنه يدخل الى البيوت الضخام المختلفة أنواع السقوف وكسوة الحيطان والارض بانواع من المرمر أو الطلى أو الموزايكو أى القطع الصغيرة من المرمر كل قطعة نحو الانملة من لون مرصفة على أشكال بديعة أو من المنسوجات الصوفية أو الحريرية من المصانع الشهيرة فى العالم ويحتوى القصر على كنيسة وهو ذو ثلاث طبقات وقد تم منه بالبناء والادوات داخلا وخارجا ثلثه والثلثان لم يتم منهما الا بناء الحيطان والسقوف وبقيا ناقصى الادوات وليس فى القصر شئ من الفرش ويحيط به بستان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منها وفى منتهاه جبل منحدر منه عين ماء عظيمة مجعولة على نحو شلالة لانحدار مائها دوى واذا قابله الداخل من باب البستان جهة القصر يظهر له من بعد كانه منارة متصاعدة فى الجو من الزجاج الابيض ثم ينشأ من ذلك الماء نهر وبحيرات بها كثير من الطيور المائية وأنواع السمك

السمك ويحتوى البستان على مماشي وغياض منتقشة ذات أنوار وأزهار كما يحتوى على آجام وغابات وحيوانات للصيد ثم ركبنا قرب الغروب من هناك الرتل وسرنا نحو احدى عشرة ساعة وليس هناك من العمران مثل ما يأتي خبره بل أكثر الاراضي معطلة والجبال لا منظر جميل بها وانما توجد القرى وما حولها معمورا نسبيا وكانت القرى تبعد عن بعضها في أكثر الاحوال بنصف ساعة في الرتل فوصلنا بلد رومة التي هي تخت المملكة بعد نصف الليل وفتشوا في الكمرك رحلنا أيضا مع انا قادمون من احدى بلادهم وذلك لان لكل بلد ادامًا على ما يدخل اليها لمصالحها الخاصة زيادة على ما تأخذه الدولة من الكمرك العمومي ونزلنا في احدى منازل المسافرين وأخذنا اليه صندا يقنا التي وجدناها في الكمرك غيرانا وجدناها سرق منها برنس ووقع الخلاف بين مستخدمي المحطات فيمن سرقه فجماعة رومة يتهمون جماعة نابلي وهم يتهمون الآخرين والحاصل ان البرنس ضاع وسببه هو خروج طرف منه عن غطاء الصندوق فامكن للسارق جذبه ثم أقمنا برومة ستة أيام واجتمعت بأشهر أطبائها وهو الحكيم باشلي الذي هو أحد اعضاء مجلس النواب واجمال صفة هاته البلدة انها بلدة وسيعة سكانها نحو ثلاثمائة ألف نسمة ولهم حضارة على أهالي نابلي وطرقها كلها مبلطة نظيفة أما الطرق الخارجة عن البلد فهي وان كانت صناعية غير انها يعلوها الطين بكثرة وان لم يعطل العجلات وأحسن ما يقصد بالتفرج عليه في رومة هو كنيستها الكبرى المسماة بصان باولو التي هي أشهر مباني العالم في ارتفاع قبتها وضخامة بنائها وهي مستطيلة الشكل ذات قباب كثيرة وسطاها هي أعلاها وحيطانها مكسوة بقطع من المرمر منه الخلقي ومنه الصناعي كل قطعة في طول نحو عشرة أذرع وعرض نحو خمسة أذرع وبعض الحيطان مكسو بقطع من الموزايكو متقنة التصوير والقباب كلها مكسوة بذلك أيضا والقباب مرفوعة على اسطوانات من المرمر الخلقي وبعضها صناعي وليست مستوية السمك وبعضها في قامتين أو ثلاثة ومحيط كل واحدة من الحلقية أربعة عشر شبرا وقواعد القباب مبنية بناء ضخما جدا بحيث ان هاته الكنيسة قد أفردت بتأليف خاص من احد حذاقهم لما اشتملت عليه من اتقان البناء وضخامته وبلصقها قصر الباباو يسمى الفاتيكان وهو أكبر القصور الملكية يحتوى على اثني عشر الف بيت وبه خزانة كتب رفيعة هي احسن خزائن ايطاليا وبها كتب كثيرة بالخط منها العتيق ومنها نسخة من الانجيل باللغة العبرية مكتوبة قبل البعثة بنحو مائتين سنة وفيها

نص الآية القرآنية حكاية لقول عيسى عليه السلام وهى قوله تعالى ومبشرا برسول
يأتى من بعدى اسمه أحمد وقد اطلع على تلك النسخة أحد الانكليزيين فى هذا القصر
ورويت ذلك عن ثقة روى عنه وذلك القصر فيه من غرائب المصنوعات والذخائر الثمينة
شئ كثير حيث كانت تجبى الى البابا جميع النصارى الكاتوليك وملوكهم من ممالكهم
تقربا اليه بالملكة الروحانى زيادة عن الملك الجسمانى الذى كان له فى مملكة رومة وقد
زال ذلك باتحاد ايطاليا وآخر بابا كان جامعا بين الملكين هو بيو التاسع وهو الموجود
حين مررنا على رومة لكنه منذ افتك منه الملك الجسمى بقى منعكفا فى قصره وله التصرف
فى الديانة فقط على سائر الكاتوليك فى جميع الممالك سواء وأبقت له دولة ايطاليا جميع
ما فى قصره وما فى الكنيسة من الذخائر واستولت على كل ما عدا ذلك وبعد أن تفرجنا فى
الكنيسة الكبرى سألنا هل يمكن التفرج فى قصر البابا فأجيبنا بان ذلك اليوم لا يتيسر
بل نعود بعد أيام وكان ذلك بعد استئذان البابا ومن غد اجتمعنا بالمطران درعونى الذى
هو من نصارى الشام وله دير فى أعالى رومة ومعه كثير من نصارى الشام المتقسسين
وهو ذو اخلاق لطيفة فصيح بالعربية وكذلك من حوله وسبب الاجتماع به انه ساكن
حذو كنيسة متقنة الشكل والبناء مما يقصد بالتفرج عليه فحصلت المعرفة معه من
هنالك وكان مما ذكر لنا ان البابا يريد الاجتماع بنا عند الدخول الى قصره وانه كلفه
بالحضور ليكون ترجمانا عنه فاعتذرنا اليه بأننا على سفر ولا تيسر التأخير لذلك فلم
ندخل القصر ولا اجتمعنا بصاحبه اذ لا ملجئ الى تعظيمه مع ان الداخل عليه يلزمه
تعظيمه كتعظيم الملوك بل ملوكهم يؤدون اليه مزيد التعظيم كأنه هو مالكهم ولا
داعى لذلك الأمر دينى وديانتنا الاسلامية تمنع التعظيم الذى يكون مسببا عن ذلك
واعلم انه منذ استولت دولة الصارد وعلى جميع ممالك ايطاليا واجرت الحرية حتى فى
الديانات فالداخل للكنائس لا يلزمه تعظيم شعائرها كما كان من قبل بل لا يفعل
شيأ يخالف ديانته فكأنه يتفرج فى قصر من القصور كما انه ليس له أن يفعل شيأ من
الاهانات وحيث ان المسلم يدخل اليهم بامان فليس له التعرض لاذايتهم كما انه ليس له
خيانتهم ثم ان أمام كل من قصر البابا والكنيسة الكبرى بطحاء عظيمة وسيعة جدا وبها
عدة فوارات واشجار وفوانيس وهكذا كل بلاد تشعل بالفوانيس ليلا ويشق بلد رومة
نهر يحمل القوارب واذا طمى ربما أضر بالمجاورين وهو آت من جهة الشمال
ذاهب جهة الجنوب وخارج البلدة الآن الكنيسة القديمة وهى الآن خراب وانما

يوجد

يوجد منها أساسها والطلال من جدرانها وقد غطت الارض عليها كثيرا فكشف عنها وبقيت عبرة للناظرين وهي أوسع من الكنيسة الموجودة الآن الكبرى كما يوجد بقربها ما هي قديم مثلها في الخراب على نحو ما بقي في صفة ما هي بونباي وقيل انه دار الندوة اذ ذاك وهو كبير جدا وفي رومة أيضا منزه عمومي في الجبل ذو مماشي وحدائق وفورات في أعلى الجبل وهو نزه أما غيرما ذكر فليس في رومة معامل أو أماكن تقصد للتفرج سوى ماهو خارجها من آثارينا آت الرومان في القديم وفيها ملاهي كثيرة متقنة اللعب لشهرة الطليانيين بذلك على غيرهم ودور الاهالي غالبا البيت بتقنية النظافة وأسعارها في السكنى والمأكل وغيرهما غالية بالنسبة لبقية ايطاليا وهواء رومة وخم بسبب أن المرج التي قربها يركد فيها الماء لانخفاضها عما يحول بينها وبين البحر كما ان الكنائس بها كثيرة ولكل جرس فاذا دق جرس الكنيسة الكبرى دقت الاجراس من جميع الجهات وصار لها دوي يقلق الساكن ويقرب من ذلك نابلي أيضا ثم انا قدمنا الى مجلس النواب الذي كان اذ ذاك مفتوحا وهو يشتمل على خمسمائة عضو فاذاهم أناس يتدبرون في أمرهم ويتشاورون فيه بغاية الاطلاق وصادفنا في حضورنا البحث في نازلة مالية وهي أن وزير المال عرض على المجلس أن دخل الدولة غير واف بمصاريفها ولتعديل ذلك تلزم الزيادة في الدخل وقد رأت الدولة ان الانسب في الزيادة هو زيادة الضريبة على السلاح فوقع نزاع في أصل الزيادة وكان أشد المضادين نواب جزيرة سيسيليا الى أن قال أحدهم انك أيها الوزير لا تفكر الا في الزيادة في الدخل بوضع الضرائب على السكان الذين أفقرتهم لكي تأخذ أنت المرتبات الوافرة من دمائنا وكذا نائب المنتقل بصرف الاموال في شهواتك ومخفياتك فنهره رئيس المجلس وألزمه الادب في الكلام فعاد الى كلامه وقال نعم يأخذون خفية ويحملون نما الانطيق في اغراضهم وشهواتهم فاسكته الرئيس وأطال عليه اللوم والنكير بعبارات شديدة حتى وسمه بالوحشية وأنه يضطر الى اسكاته أو اخراجه من المجلس ان لم يلتزم آداب البحث فضج حزب المتعرض وقالوا ليس لكم منعنا من الدفاع عن حقوقنا وما أتينا الى هنا الا لحفظ حقوق الامة من التلاعب بها فاجابهم الرئيس بان الحقوق يتوصل اليها مع سلوك الادب فانقادوا اليه وطال النزاع في النازلة وأبقيت للمفاوضة يوما آخر وكان مكاتبو الصحف جالسين يحصون جميع ما يقال وما يقع حتى كتبوا نفس حضورنا الا انا كنا بلباسنا التونسي وذلك أوجب التفات الانظار الينا في أي مكان قصدناه حتى ان بعض البلدان

التى ليس لاهلها تهذيب تام كان يزدحم علينا فى الطريق العوام الى أن يوقفونا
بازدحامهم واكثر ذلك فى أهالى نابلى الى أن التزمت فيها أن لا اخرج فى الطريق
الا راكبا فى عجلة وذلك لعدم تعودهم على رؤية مثل لباسنا وصفة هيئة مجلس النواب
هو بيت كبير جدا يميل الى الطول أكثر من التربيع وسقفه قبة مرتفعة شاهقة مزوق فى
جدرانه وسقفه وأرضه وفى وسط صدره عرضاسة ارتفاعها نحو متر وعلى الارض
وفوقها كرسى وامامه مائدة ويصعد الى ذلك المحل بدرج يمينا وشمالا وهذا محل جلوس
الرئيس وحوله كتبة وكراسيهم وموائدهم على الارض وبقربهم فى وسط البيت كراسى
الوزراء وفى وسط البيت كراسى أربعة كتاب مخصوصين بمعرفة كتابة سريعة يتناوبون
اثنين بعد اثنين فى كتابة كل ما يلفظ به متكلم فى المجلس وبقرب الرئيس منبر مرتفع قليلا
يصعده خطباؤهم على التناوب بعد الاذن لهم من الرئيس يتكلمون فى مصالحهم ثم
كراسى منصوبة صفوفا صفا وراء صف على نحو دائرة مستطيلة ينتهى طرفاها حول
الرئيس فالصف الاول كراسيه على الارض والصف الذى وراءه كراسيه على سدة من
خشب أعلى من الذى امامه بدرجة من خشب ثم الذى وراءه أعلى منه وهكذا الى نهاية
الصفوف والدرج التى يصعد منها الى الكراسى مقسمة لتلك الدائرة وكل قسم من
الكراسى امامه مائدة مستطيلة وفيها لكل كرسى محبرة ودواة وأقلام لما يحتاجه صاحب
الكرسى وكل كرسى عليه عدد مخصوص مرسوم عليه بلون مخالف لاون الكرسى وفى
أعلى البيت محيطا به من جهاته الا الجهة التى بها الرئيس رواقات يجلس بها المتفرجون
ولصاحب الملك بيت بازاء محل المتفرجين يأتيه اذا أراد كما له كرسى فى المجلس واما وظيفة
المجلس فسيأتى الكلام عليها ثم رحلنا من رومة وقصدنا ليفورنو راكبين الرتل فاذا
بقرب رومة آجام راكدة فيها المياه وفيها من البقر شئ كثير مسرح هناك للاهالى
بدون حراس مخصوصين لكل أحد بل على المكان قيمون يؤتى اليهم بالبقر ويستودع
هناك الى وقت احتياج أصحابه ومنه ما لا مالك له فيتناسل هناك وتبيع منه الدولة
لمن أراد الشراء ومررنا فى سيرنا على مرسى يقال لها تافيكيا التى هى أقرب مرسى طليانية الى
رومة قاعدة المملكة وفى آماله مهندسيهم ان يفتحوا خليجا من تلك الجهات من البحر
ليصل الى حدود بلد رومة لان الارض هناك منخفضة وبه ينصلح الهواء من تعفن
المروج التى يركد فيها الماء واستمر الرتل سائرا بقرب الشاطئ الى ان وصلنا الى ليفورنو
فى الساعة الثالثة قبل نصف الليل بعد مسير احدى عشرة ساعة وقد توقف الرتل فى

المسير

المسير عندما وصلنا الى جسر على أحد الانهر حيث ان فيضان النهر هدم الجسر فنزلنا من الرتل وعبرنا النهر مشاة على أخشاب ضيقة والحال أن النهر عريض والوقت ليل والمطر نازل ثم ركبنا رتلا آخر مهيأ في الناحية الاخرى من النهر الى أن وصلنا الى ليفورنو فاذا هي بلدة واسعة الطرق نظيفتها متقنة التحصيب والتبليط بحجارة منحوتة مستوية وبها قليل من البطحاآت الوسيعة أشهرها ما تسمى بياصة دي كافورو كافور هذا وزير ايطاليا الذي جد في وحدتها الاخيرة فرسم تمثاله بتلك البطحاء وسميت به وكذلك البطحاء الكبيرة ويخترقها خندق به ماء البحر وعليه جسور وهذا الخندق كادان يكون مخترقا لجميع جهات البلد وذلك لفائدتين الاولى هي ان البلد أرضها سبخة ندية فذلك الخندق تنجذب اليه المياه مما حوله ويحصل جفاف الارض وما أخرج من ترابه الكثير علت به أرض البلاد والثاني أن البلد كانت من أهم مراسي التجارة لاعفائها من الاداء ترغيبا في عمرانها فتكثر فيها السلع وتحمل في القوارب وتسير في تلك الخنادق من السفن الى المخازن اذ ماء البحر بالخندق عميق وبخارجها على الشاطئ منتزه عمومي ممتد نحو ميلين به حدائق الاشجار والانوار ومغاطس من البناء أو الخشب على البحر وقهاوي وملاهي تنتدبها الناس زمن الصيف من أهالي البلد وغيرهم والطريق للمارة وسيع جدا وعلى حده قصور شاهقة ذات منظر جميل امامها الطريق ودونها الحدائق ومن ورائها القهاوي والملاعب والمغاطس ومن ورائها البحر وهي في الصيف ليلا ونهارا منتزه مريح ويسمى ذلك المكان البساجاتا وبرت ماري وفي البلد خزنة للماء مسقوفة ببناء ضخم شديدة النظافة حتى يرى الرائي في قعر الماء مع عمقه كتابة على الحجر بينة والماء في غاية الصفاء مع اتساع الخزنة ومحل استقرار الماء منقسم على عدة أقسام فيدخل الماء المجلوب من عين غزيرة الى أحد الاقسام الى أن يمتلئ ثم يخرج منه من أسفل الى قسم آخر ثم منه من أعلى الى قسم آخر وهكذا بحيث ان كل قسم يكون مملوأ ولا يخرج منه الا بقدر ما دخل فيه لتصفية الماء وترويقه حتى لا يخرج الى عموم البلد الا بعد انتهاء ترويقه وهاته البلدة موقعها على البحر وهو غربيها وهي من المراسي الشهيرة للتجارة والحرب وقد بني بها ميناء مأمن للسفن ذات حوضين قيل أنفق عليها مائة وعشرون مليونا فرنكا وبها مرفى للسفن ولانشائها ولما وصلنا الى البلد وجدنا الوزير حسين الذي قصدنا البلد لاجله غائبا في فيرينسا فتبعنا بادر سكناه حيث كان تابعه هناك ثم وادعت صديقي الشيخ سالم أبو حاجب حيث كانت مأموريته هناك وركبت بكرى ليلة وصولنا

قاصدا الوزير المذكور في بلد فيرينسا وأبقيت غالب رحلي وأحد تابعي هناك لاحتمال العود فسرنا في الرتل ثلاث ساعات وكان حول ليفورنو بعض غياض ليست حسنة جدا ومررنا على بلد بيزه منشأ علم الطب سابقا فاذا هي من مدن ايطاليا الشهيرة ويخترقها نهر وحوله منارة وقد انفردت هاته البلدة بشيئين أولهما أغرب شيء من مبانى العالم وهو الصومعة الوحيدة المائلة فان هاته الصومعة يراها الناظر مائلة ميلا كليا الى جهة الجنوب حتى يخالها انها ساقطة لامحالة وهي ليست بمرتفعة جدا وبناؤها من حجارة منقوشة ومرمر ودرجها كل في قطعة واحدة من المرمر وهي في وسط بطحاء قرب كنيسة وأسفل قاعدتها مائل أيضا غائر في الارض من جهة الميلان ومرتفع من مقابله وقد اختلف النقل في سبب ميلانها فقيل انها بنيت كذلك وهو من مهارة صناعها ومعرفتهم بفن الاثقال وقيل انها بعدما بنيت انخفضت بها الارض من احدى جهاتها فمالت وعلى كل فسبب عدم سقوطها هو عدم خروج قطر محيط ابا الميلان عن مركز قطبها والحاصل انها من عجائب المناظر وقيل ان ميلان أعلاها عن مساواة أسفلها أربع ميترات ومثلها في الميلان صومعة أخرى خارج البلد جهة الشرق لكنها ليست في اتقان الاولى ولا في ارتفاعها وقد بني حولها بناء ملاصق لها لتوقع سقوطها وبقي أثر الميلان ظاهرا وثاني الشيئين الغريبين الكنيسة وهي ليست بكبيرة ولكنها كثيرة التانق والرونق سيما من ظاهرها وزيادة غرابتها في الصدى الذي يحصل فيها من الاصوات اذ يدوم فيها الصدى ويعتلي على وجه خارق للمعتاد والسبب فيه شكل البنا وطلي الحيطان وبعد أن جاوزنا بيزه تبدلت الارض غير الارض التي عهدناها منظرها في بلادنا وما مررنا عليه من كيفية العمران واتصاله واتقانه ولا يوفي الوصف والقلم بتصويره وتقريبه وبالجملة فليس ان كل قطعة من العمران لم نعهدها بل عهدنا أمثالها ولنا قطع تضاهي أفراد تلك القطع سواء كانت في البساتين أو في القصور والتي بها أو في اثارة الارض وتعميرها لكن الذي لم يعهد لنا هو اتصال ذلك العمران وامتداده وتماثله الى ما لا يحيط به البصر مع تحسين جهات الاتصال العامة فانها تحدث من ذلك هيئة اجتماعية لها اعتبار زائد فوق اعتبار قطيعات منفردة وان بلغت من الاتقان ما بلغت ثم وصلنا الى فيرينسا فاذا موقف الرتل بها جميل انيق واذا البلد وسيعة لكن طرقها القديمة ضيقة وأما الجديدة فواسعة شديدة النظافة وتهذيب أخلاق السكان والحضارة ويخترقها نهر على جانبيه رصيف منحوت وفي مجرى الماء

عرضا

مرضاء وأرض مبنية لحصر الماء كي يكون عمقه حذاء محدودا ونشأ من ذلك خرير
عظيم له دوي وعلى جانب النهر منتزه عمومي ممتد أزيد من ميل وبه فوارات وحدائق
وأنوار وفي نهاية المنتزه عند ملتقى النهر المذكور بجدول صغير بطحاء بها قبة من رخام صغيرة
بلا حيطان مرفوعة على اسطوانات جيدة رخامية عالية على الارض وبوسطها صورة
مجسمة من الرخام لاحد أمراء الهند الشبان وملونة بلونه ولون ثيابه الرسمي وكان ذلك
الامير سائحا في أروبا بعد زيارته المملكة الانكليزية متداويا فلما حل بفيرنسا مات وكان
مجوسيا فأرسلت عائلته مكلفا انكليزيا بالرسم صورته في ذلك المحل الذي أحرقت جثته
فيه على عادة المجوس ودفن رماده تحتها وكان من عاداتهم ان مكان الاحراق يكون
في ملتقى نهرين فلذلك فعل به ذلك هنالك وجعل على ذلك المحل قيم ووقف وكان ذلك في
عشرة التسعين والمائتين وألف وفي حدود البلدة من الجنوب منتزه آخر في جبل مرتفع
نزه جدا ذو بساتين وقصور وطرق وسيعة سهلة الصعود بالكراريس وفي منتهى
ارتفاعه بطحاء وسيعة ذات مصاطب ومنازه وبقربها كنيسة قديمة مرصفة الحيطان
من خارج بالرخام الابيض والاسود تقصد بالتفرج وجملة ذلك الجبل منتزه ولما صعدت
الى هنالك أحسست ببرد شديد لارتفاعه وابرد الزمن ومن أحسن ما بالبلد قصر القاربة
الذي به بيت أغلب حيطانه من البلور وهو قصر ضخم وبه من التصاوير المرسومة
في الخرق المنسوجة مع النسج وفي الورق شيء كثير وكذلك المجسدة من الحجر والنحاس
وقال بعضهم أن مجموعها مليون من التصاوير كلها في غاية الاتقان تعتني بها المصورون
من الآفاق لتقليدها ومما بها من التصاوير صور الملوك من جميع الآفاق في اعصار
مختلفة ومنها صورة محمد باشا الاول والي تونس ويتصل هذا القصر بقصر سكنى
الملك عند استقراره الحكومة هنالك وهو قصر كبير ليس بغريب أصله لاحد السكان
فاشترى منه لاستقرار الملك وهو لا زال مشتملا على جميع المرافق مثل ما تقدم في قصر
نابلي ومن غرائب البلد ارتفاع قبة كنيسة بها مبنية من ظاهرها بالرخام الابيض
والاسود على أتقن صناعة وبها من الاسطوانات الجيدة الملاصقة بذلك الرخام ومن
النقش الغريب فيه ما جعلها من أتقن البناءات وارتفاع القبة مائة وسبعة عشر
ميترو وبإزائها صومعة جيدة ارتفاعها سبعة وسبعون ميترو وهي في البناء على نحو
الكنيسة وبالجهة الغربية منها صومعة أخرى أعلى منها ومن القبة أيضا وبالبلدة عدة
ملاهي حسنة وقد اشتد البرد في هاته البلدة بالنسبة لما اعتدناه وقد أقمت بها ضيفا

* عند صديق الوزير حسين التونسي وترجمة هذا الوزير باختصار هو رجل من الجراكسة أتى الى تونس وسنه دون العشرة فربي في سراية الوالي حسين باشا وأدخل الى مكتب المهندسين العسكرية فحصل مشاركة جيدة في النحو والادب والفقه ومهارة في الفنون العسكرية واجادة للغة الفرانساوية ثم وظف في عساكر الخيالة بعية أمير لوائها اذ ذاك خير الدين باشا وسافر معه الى فرانسا في خصام محمود بن عياد في ولاية أحمد باشا ثم ولي رياسة المجلس البلدي بحاضرة تونس وأحدث في الحاضرة اصلاحات عديدة في ولاية محمد باشا ثم عند ولاية الصادق باشا ولي رئاسة مجلس الجنايات ومستشارية الوزارة الكبرى وعضوية المجلس الخاص والمجلس الاكبر ثم استعفى من الجميع عند ايقاف القوانين ورحل الى أوروبا وساح سياحات وسيعة اذ كان قد لا عرف أكثر ممالك أوروبا كالمانيا والدغرك والسويد وهلاندا والبلجيك وايطاليا وفرانساوانكلترة والجزائر والاستانة في سفارته منفردا أومع خير الدين باشا سفيرا عن الوالي المذكور وعند استعفائه المذكور رحل الى المغرب واسبانيا والنمسا والروسيا وأمريكا ومصر والحجاز ثم استدعته الحكومة عند ولاية خير الدين وزيرا مباشرا هو وغيره ممن ابتعدوا عنها فولي مستشارا في القسم الثاني من الوزارة ثم سافر الى ايطاليا لخصام ورثة نسيم في حساب مورثهم مع الحكومة التونسية كما تقدم وأقام بليفورنو حيث مات المورث ولا زال في الخصام الى الآن ثم لقب بوزير الاستشارة ومستشار المعارف وهو ذو أخلاق كريمة وصفات عظيمة ومعارف وسيعة وفصاحة مريعة له عدة رسائل في كثير من المسائل وكانت اقامتي عنده في فيريفا في احدى منازل المسافرين الضخمة قريبا من النهر واجتمعت بأشهر حكماء البلد المسمى شيف وبعد ان استقرأ تقرير المرض واستخبر الجسم أشار الى مضمون كلامه ان المرض ليس بمخوف كما أنه من الامراض المزمنة وانه يدافع بترتيب المعيشة في الاكل والمسكن وارتياح الفكر والبدن والابتعاد من هواء البحر وحسن سكنى الجبال وان كثرة الادوية مضر قليل الجدوى ولقد صدق ثم طلبت تلغرافيا بقية رحلي وتابعي وسافرت قاصدا باريس مارا

* على تورين للاستراحة بها فركبنا الرتل صباحا وسرنا في الوهاد نحو الساعة على ذلك المنظر البديع ثم تصاعدنا في الجبال وكان للرتل حينئذ مزجيتان ومهما ازددنا تقدما في الارتفاع الا وازداد المنظر بهجة ورونقا الى أن انتهينا في الصعود فكان منظرا ترتاح له النفوس ويجلي عن القلوب كل بوس ياله من جمال ويالله من بدائع

بدائع صنع بتكوينه وبخلقه باعمال الرجال فالقرى البهيجة منتشرة على مد الابصار
والاشجار تمد أغصانها لتتناول الدرارى من الافلاك تخالها بقايا قد انتثرت
منها من الثمار اذ قد استعوضت عن خضرتها الزبرجدية بالثلوج الياقوتية
والارض والجبال قد بسط عليها بساط الفضة الزلال مع الاتقان فى تنضيد الاشجار
واثارة الارض بالحرث وتدفق المياه من ينابيع العيون وسيول أمياه الثلوج المذابة
المنحدرة فى جداول ثم نهيرات ثم أنهر متبحرة ولا يسير الرتل نصف ساعة الا ويقف على قرية
نضرة وتارة يمر حذور واشن القصور وأخرى حول سطوح الديار وطورا ترى البلدان
تحتك فى أسفل سافلين وهكذا مناظر بديعة مختلفة تتوالى كل لحظة ثلاث ساعات فى
الجبال وعلى الاجمال أن السفر فى جبال أوروبا المتمدنة ذات العمران ليس له من لذة
عندى توازيه سيما مع الركوب فى الرتل فى الطبقة الاولى فى مخدع منفرد للشخص
وأصحابه وعلى الخصوص اذا كان معه صديق يساجله فى سائر المقاصد فان ذلك من نعم
الدنيا الكبرى ومن هناك حجبت عنا الشمس بكثرة الابخرة المتصاعدة من الجبال
والثلوج ثم نزلنا الى الوهاد بعد ان جزنا فى الجبال الصعود اونز ولا خمسة وأربعين نفقا فمنها
ما يسير فيه الرتل عشرة دقائق ومنها ما يسير فيه دقيقتين وكل نفق مظلم ويشتد ظلامه ويخف
حسب طوله وبعد ان سرنا فى الوهاد نحو ساعة وتكاثر نزول الثلج وصلنا الى بلد بولونيا
وهى بلدة ضخمة لكن أبنيتها وطرقها ليست بجميلة سيما القديم منها وأغلبها على ذلك
النحو نعم بها متنزهات نزهة وأغلب الطرق يحفها يمينا وشمالا الارواقات لشدة حرها صيفا
وشدة بردها وكثرة ثلجها شتاء فتتقى المارة بتلك الرواقات وفيها موقف للرتل عظيم
جدا لانها مناخ للتجارة لتوسطها بين بقية ممالك ايطاليا وسفيسرة وفرانسا والنمسا
والمانيا فترد اليها الارتال من الجميع ونزلنا فى الموقف وتغدينا فى محل الاكل هناك
وكان وقوف الرتل نصف ساعة ثم سرنا الى تورين فى ذلك المنظر البهيج المنبسط على الوهاد
لكثرة اتقان الزراعة واثارة الارض وتعميرها وكثرة الابنية فى الاراضى الزراعية كل
ذى أرض له فيها بناء مع تحسين شكله وتزيين ظاهره ومع ذلك منظر الجمال فى الجبال
ابهج وعندما أراد الليل أن يسدل نقابه تبدى وجه الغزالة محمرا من برقع السحاب على وجه
الافق فياله من منظر بديع يشهد للبارى تعالى بحسن الصنيع وما ودعنا نور الشمس
الا بعد ما استخلف ضياء البدر المنير اذ كان ذلك أواسط شهر ذى القعدة فتفضض الافق
والنواحى ببريق البدر وكان جمال الليل مزهرا فى تلك المناظر الجميلة مستمرا الى أن

وصلنا الى موقف الرتل بتورين بعد نصف الليل فاذا بذلك الموقف أبهى وأبهج وأضخم من جميع ما رأيناه سابقا واستمر سير الرتل من مبادى متعلقات الموقف الى ان استغرق فيه أزيد من عشرة دقائق فكنت ترى فيها المزجيات والمركبات منبثة فى جميع الجهات ماشية لاركانها والرتل وارد وصادر من كل أوب ومحل نزول الركاب هو ساحة عظيمة مرفوع سقفها على أعمدة من الحديد المستطيلة من قضبان من الحديد مرصف فيها الزجاج والفوانيس موقودة بالغاز تضئ كالنهار فاسترحنا فى بيت الجلوس الى ان نزل رحلنا فى الكمرك وفعلوا فى تفتيشه ما فعل فى البلدان السابقة ثم ركبنا أحد الكراريس الكبيرة المعدة لنقل الركاب الى منازل المسافرين لان كل منزل كبير له كراريس كبيرة تسع الواحدة ثمانية من الركاب فما فوق تحملهم من المواقف الى المنزل والعكس وذهبنا الى المنزل فلم نجده لائقا فانتقلت الى منزل آخر حسن وأقمت بهاته البلدة يومين وهى مصر عظيمة ذات اتقان فى الابنية والمساكن والطرق ومن خصائصها أن طرقها تكاد أن تكون كلها متقابلة تتقاطع على التربيع بزوايا مستوية كما أن من سماتها ان طرقها تكاد أن تكون كلها محفوفة برواقات يمينا وشمالا قائمة سقوفها على أعمدة من البناء أو الحجارة المنحوتة ولا يمشى الراجل الا تحتها وفوقها أبنية القصور والمساكن واليها تفتح أبواب الحوانيت والديار وغيرها وأواسط الطرق للركاب أو العابر من جهة الى أخرى وأعظم بطاحها البطحاء التى امام قصر الملك وهى متسعة جدا فى صدرها القصر الملكى وعلى جانبيها مساكن للعساكر والجهة الرابعة قبالة القصر فى وسطها طريق كبير وعن يمينه وشماله ديار ومنزل المسافرين الذى نزلنا فيه وفى وسط البطحاء فوارات وأول ما رأيت الترموى فى هاته البلدة وهو مركبة ذات عجلات صغيرة من حديد تجرى فى صفحات من الحديد غائرة فى الارض ممتدة مع الطريق الى نهاية ما يريدون ايصال السير اليه ويجرها اثنان من الخيل ولهم فى كيفية ادارتها عند الوصول الى نهاية الطريق كى ترجع الى المكان الذى ابتدأت منه كيفيات فاحديها ان فى محل الادارة يكون وقوفها على دائرة من الحديد ذات قطب تدور عليه بسهولة فبادارة الدائرة تدور المركبة وثانيتها ان المركبة يكون مقدمها ومؤخرها سواء فعند بلوغ النهاية من الطريق تحل الخيل الجارة من تلك الجهة ثم تربط من الجهة التى كانت مؤخرا وتسير المركبة راجعة الى المكان الذى ابتدأت منه وثالثها أن تكون الصفائح التى تجرى فيها العجلات فى نهاية الطريق مرسومة على نحو

دائرة

دائرة متسعة فتدور بها الخيل الى أن تعود الى الطريق الذى جاءت منه وكل كيفية من
هاته فى طريق خاصة وبلد خاص وسبب اعمال هذا الطرق هو لتسهيل جر المركبة على
كبرها الذى يركب بها نحو العشرين نسمة فى داخلها وعلى سطحها نحو نصفهم ولا يجرها
سوى فرسين وهى وسيلة كبرى لترخيص أجرة الركوب وسهولة الانتقال فيقف فى
مراكز معلومة كما تقف لكل من يطلب الوقوف للركوب أو النزول ويؤدى الاجرة
زهيدة نحو ثلاثين سانتيم أى ثلاثين من تجزئة الفرنك الى مائة هذا اذا كان المكان
بعيدا وأما اذا كان قريبا فبنصف ذلك المقدار والقرب والبعد على حسب اتساع البلاد
وامتداد ذلك الطريق لكن القريب على كل حال لا يقصر عن الميل وهاته البلدة بها نهر
عظيم ومنظره خارج البلد بهيج وبقربه فى احدى تلك الجهات منزه عمومى كبير نزه وجبل
به أماكن للأكل والقهاوى وقصر الملك حسن جدا وكبير متسع مونق فى تزويقه
بالذهب والالوان وبه جميع فرشه وحوائجه وقد كانت هاته البلدة هى قاعدة مملكة
الساردو الذى استولى على جميع ايطاليا واتخذ أخيرا تخت ملكها وبها خزنة للكتب
عظيمة جدا وعندما دخلتها علمت كبير الفرق بين أهالى هاته البلاد وأهالى نابلى فان
الثانية لما دخلت خزنة كتبها لم أجد الا أفرادا لا يتجاوزون جمع القلة وهاته لما دخلت
الى خزنة كتبها وجدتها مفعمة بمئات من الرجال وقليل من النساء كل منهم منكب على
المطالعة فى كتاب ولا تجد حس الواحد الا همسا لكى لا يشوشوا على بعضهم فمن مطالع
ومن مقابل ومن ناسخ ومن مفكر والكتاب بين يديه فعلمت ان أهالى هاته البلدة
معارفهم أوسع وسوقها لديهم أروج وذات الخزنة كتبها أكثر مما رأيته سابقا وبها
مصاحف كريمة ذات خطوط أعجمية أنيقة مذهبة ومونقة للغاية القصوى ولها
صناديق وجهها وسقفها من الزجاج مقفولة لحفظها ولا يحلها الا القيم عند التأكد
ففتحها لى وتشرفت بها ثم رحلنا من هاته البلدة قاصدين باريس فى مرحلة واحدة ولما
كانت المرحلة بعيدة آثرت كراء مخدع فى الرتل ذى فرش ومستراح ولزم لذلك اعلام
مدير الرتل من قبل وقت الركوب لكى يحضره على الصفة التى نريدها ولكى يعلم موقف
الرتل فى حدود فرانسا باحضار مثله فى رتلهم حيث ان الركاب ينتقلون هنالك من الرتل
الطليانى الى الرتل الفرانساوى فركبنا فى الساعة الثامنة بعد الظهر ليلا فى مركبة ذات
مخدع له ثلاث مساطب فرشها حريرية وكل مسطبة تنفتح فتستطيل الى أن تصير فراشا له
وسادة وقد اخترتها بحيث يكون الراكب فيها مواجها الى جهة السير لان عكسه يورث لى

دوارا وفى وسط المخدع باب يدخل منه الى محل ذى مستراح فى أحد جهتيه ومقابله محل ذو أنبوب للماء ينفتح و ينغلق يجرى منه الماء وذو اناء ينزل منه الماء المغسول به وبه مرآة بحيث يستطيع الانسان التوضى هناك واصلاح لبس ثيابه وفى المخدع أيضا مرآة ومائدة تنفتح من جهة الحائط الموالى لمحل المرافق حتى ان الانسان يقضى هناك جميع حاجاته بغاية الراحة واغارفه ناءعنا منا ديل الوضوء وبيت ابرة لمعرفة القبلة فى صندوق صغير من الجلد فيه بعض الثياب ومناديل الانف واذا حان وقت الصلاة نصلى بلا تعب سوى ان الاتباع ينزوون الى جهة غير القبلة ولمثل هذا الاطلاق يتحرى الانسان فى الركوب مع الرفقاء لكى لا يكون عليه حرج فيما يريد كما انه اذا حان وقت الاكل و وقف الرتل فى احدى المواقف على البلدان ننزل الى محل الاكل فنجد فيه ألوان الطعام والفواكه فنشترى ما نريد ونحمله الى مخدعنا لكى نأكل بالاستراحة اذ الاكل فى المواقف يلزم أن يكون عاجلا خوف سفر الرتل والرتل ولان كان يقف بعد كل نحو نصف ساعة أو ساعة على البلدان غير ان وقوفه لا يطول الا بقدر ما ينزل الركاب القاصدين تلك البلدة و يركب منها غيرهم أو أخذ المزجية الماء أو الفحم أو ابدالها بغيرها اذا تمت ساعات نوبتها بحيث ان الحصة أطولها عشر دقائق (أما) فى وقتى العشاء والفطور فيقف الرتل نصف ساعة أو أزيد بقليل و يعلم الركاب جميع ذلك من المنادى الذى ينادى عند وقوف الرتل وافتتاح أبوابه بقوله بلد كذا و يسمى البلد الذى وقف عليه وكذا دقائق أى يقف كذا دقائق و يفتح الابواب للمركبات فينزل من يريد النزول ولو لقضاء ضرورة و يرجعون على عجل واستمر بنا السير الى أن وصلنا الجبال المثنى الشاهقة وطفق الرتل يجرى بين صعود ونفوذ فى انفاق واحدا بعد آخر الى أن جاز فى نفق استمر فى الجرى فيه خمسة وعشرين دقيقة غير أنه دون السير المعتاد وهو أطول نفق فى أروبا وصناعته من عجائب صناعة الهندسة اذ هذا الجبل واقع فى الحد بين فرانسا وايطاليا فناحيته الشرقية الجنوبية الى ايطاليا والشمالية الغربية الى فرانسا ولما أرادوا وصل الطرق الحديديه اتفقوا على خرق الجبل فجعلت عملة كل من الجنسين تشتغل من جهتهم وبعد الاشتغال بضع سنين اتصل العاملون بعضهم ببعض على خط مستقيم والحال ان طوله تسعة أميال تقريبا وتنور فيه فوانيس ليلا ونهارا و يقيم به حراس لتفقد الطريق ولهم مساكن منحوتة وأماكن وسيعة لوضع الضروريات التى يحتاج اليها اصلاح الطريق ومراكز لسلك الكهربا والرتل لا يدخل الا اذا رأى علامة الحارس بالاذن بالدخول وبينما

كنا

كنا سائرين فيه واذا بر تل آخر مقبلا من فرانسا ذاهب الى ايطاليا فرأينا متماسكين متحاذيين مع اشتداد دوي العجلات والصدى والظلمة وسرعة السير فكان منظرا هائلا واشتد البرد هنالك اشتدادا خارقا للعادة حتى أن بخار النفس كان يجمد على شبابيك وزجاج طواقي المخدع كان يجمد عليه بخارنا الى أن يمنع الضوء ويتكسر بالتكسير قطعا كالجليد وأيقظتني شدة البرد من النوم مع التردي بالثياب الثخينة الصوفية وأحدها مستبطن بجلد الفراء العالي وفي المخدع قنوات من النحاس ملآنة بالماء الحار جدا ملفوفة في خرق من الصوف وعند ما وصلنا الى بلد مودان أول موقف الرتل من جهة فرانسا نزلنا للانتقال للرتل الفرنساوي وابتدأ الامر فيما شاهدته بفرانسا فلنعد الآن لبقية الكلام على ايطاليا فاني عدت اليها ١٢٩٨ ﻫ سنة ١٨٨١ م وزدت معرفة بالبلدان التي ستذكر وهي ابرندزي التي هي أكبر المراسي جهة شرقي ايطاليا ولها مأمن حسن وحصون وبقية البلد ليست الافرية محتوية على لوازم أهلها وأقمت بها ليلة ثم توجهت الى باري وهي مرسى أيضا دون الاولى ولكنها أكبر منها بلادا وأحسن حضارة سيما الابنية الجديدة التي لها اتقان في انتظام الطرق وسعتها وأقمت بها ليلة ثم توجهت الى بولونيا وقد مر ذكرها وجميع ما مررنا عليه كان في غاية العمران والانتظام في الزراعة وكثرة الشجر من الزيتون المعمر بجميع تلك الارض مع بعض غلال أخرى شتى وجميعها يسقى بالنواعير من الآبار بادارة الدواب حيرا وخيلا وبغالا وكذلك القرى كانت كثيرة منتشرة وحيث كان مرورنا وقت الحصاد صيفا كنا نرى جميع الجهات مشتغلا أهلها فبعضهم يحصد الزرع حتى الذي تحت أشجار الزيتون وآخرون يتبعونهم بسقي الارض وفي أثرهم آخرون يثيرون بالحرث ما جف من الارض وهكذا بحيث لا تبقى الارض مدة بوارا ويزرعون في بعض الجهات اذ ذاك بقولا بحيث يصح أن يقال ان الجهة الشرقية من ايطاليا أعمر من الغربية وبعد اقامتي ليلة في بولونيا توجهت الى قرية منتكاتيني التي بها مياه معدنية عليها حمامات تهرع اليها الاهالي صيفا لنفع المياه وفيها شئ من التحسين غير أنها شديدة الحر لاكتنافها بالجبال المعمورة بالقرى والاشجار ذات الغلال الصيفية والحاصل ان الجهات البعيدة عن البحر صيفا في أوربا هي مساوية أو أشد حرا من شمال أفريقية ويشتد تعب الراكب في الرتل من الحر لانه ان فتح الطواقي اسودلونه وربما أوذيت عيناه من الدخان والغبار بسرعة الرتل وان أغلقها حميت عليه نارا لظى

وحالة البلدان فى الحر كمار ولذلك لم نطل الاقامة هنالك وتوجهت الى ليفورنو التى هى على البحر كما سبق وبقيت بها حتى توجهت منها السفينة ثم عدت اليها مارا على مدينة ميلانو التى أعد فيها اذ ذاك معرض عام لمصنوعات ايطاليا ومخلوقاتها فاذا هى أى ميلانو أجمل بلاد ايطاليا وأكثرحضرية وانفردت بالسوق المسمى الغلارية الذى هو فى غاية الجمال والبهجة ومن غرائبه انه توقد قبته الوسطى بزجيجة تمر على طريق حديدية باسرعة الايقاد للبخار الغازى وهى مزجيجة صغيرة نحو ذراع طولا وأما المعرض فهو انموذج من معرض باريس الآتى ذكره وانما هذا أصغر بكثير وخاص بمتعلقات ايطاليا وشاهدت فيه تجربة جرارتل بالقوة الكهربائية السارية فى قضبان طريق الحديد لكن التجربة افادت انهم لم يبلغوا المراد لحصول الوقوف احيانا عن غير اختيار لكن بلغنى فيما بعد انه تم أمره فى المانيا وصار مشتغلا به

فصل

❁(فى تعريف ايطاليا)❁

(اعلم) ان ايطاليا قسم من أوربا الجنوبية وهى شبه جزيرة فى البحر الابيض تتصل من جهتها الشمالية بالقارة فيحدها شمالا اسفيسره وفى الشمال الشرقى النمسا وفى الشمال الغربى فرانسا وفى الغرب والجنوب البحر الابيض وفى الشرق بحر البنادقة وهى على شكل مستطيل من الشمال الى الجنوب يميل الى الشرق على هيئة تشبه جزمة ذات عقب ومهماز وقبالة منتهى أصابع القدم جزيرة صقلية المسماة الآن سيسيليا يفصل بينهما خليج ضيق يعرف بخليج مسينا وتبتدئ من الشمال من عرض ستة وأربعين درجة وأربعين دقيقة وتمتد الى الجنوب الى عرض سبعة وثلاثين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالى وتبتدى جهة الطول من باريس من الدرجة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة الى ستة عشرة درجة وخمس دقائق فنهاية طولها نحو الف ميل وذلك من جبل مون بلانه الى رأس سبارتيفينتو وأما عرضها فيختلف جدا فمن جهة الشمال نحو ثلاثمائه وستين ميلا ومن جهة الجنوب نحو مائة وخمسين ميلا وفى بعض الجهات الوسطى نحو أربعين ميلا فقط ولها عدة جزائر أشهرها وأكبرها جزيرة صقلية وجزيرة سردانيا وأقرب تونس جزيرة بنتلريا فهى ذات شطوط وسيعة جدا وبها كانت دولتها دولة بحرية وأما جبالها ففيها عدة سلاسل منها اجبال الباو جبال البنين

وجبل

وجبل كورنو وهو أعلاها وارتفاعه على سطح البحر ٢٩٠٢٠ قدما وجبل فيلنيو وفيها عدة جبال بالكانية منها ما انعدم وصار عوضا عن فوهة النار بحيرات مثل بحيرة رسيمين وبرسيانو وبلسنا كلها فى الجبال وأما الباقى منها بالكانا فهو جبل الفوزوفيو قرب نابلى الذى ارتفاعه ١٢٠٠ ميترو وجبل اتنا فى سيسيليا وارتفاعه ٣٣١٣ ميترو والثلج دائم عليه وجبل الترنبل فى جزائر ليبرى ويظن ان بين هاته الثلاثة منافذ تحت الارض وبقرب نابلى عدة جبال تقذف بخارا كبريتيا وتسمى سلفتارو وبقرب ليفورنو جبل يقذف بخارا امانيا ويسمى سوفيونى وأما انهارها فهى كثيرة لكنها لا تعظم جدا لقربها من البحر واعظمها نهر بو الفاصل بينها وبين النمسا ونهر تيبر الذى يجرى الى رومة ونهر ارنو المار على فيرينسا وبيزة واديج جهة ولاية التيرول التابعة الى النمسا وغيرها وكلها لا تحمل السفن الا القوارب الصغيرة سوى الاول فانه يحمل القوارب الكبيرة وان كان السير فيه صعبا لوجود جزائر رملية به نعم ان نهر اديج يحمل السفن من بلاد تيرنتو الى البحر وبها أيضا ترع صغيرة أشهرها الترعة التى بين بيزة وليفورنو تحمل القوارب الصغار وكذلك الترعة الموصلة بين نهرى التيفر وارنو وبها أى ايطاليا عدة بحيرات منها المسماة لاغوماجورى أى الكبرى وكومو وغارداوليكو ولوغانو وايزيو وأما هواؤها فهو جيد فى كل الجهات الا فى الجهات الوسطى حيث توجد مستنقعات المياه المسماة بونتين فانها يحدث منها امراض عامة فى الصيف لاهالى البلاد ومنها رومية كما تقدم وتوجد تلك المستنقعات أيضا قرب فينسيا وقرب نهر بو وفى ولاية كالابريا الجنوبية ولازالوا مجتهدين فى ازالة تلك العوارض فان بلاد ليفورنو كانت من أشد الاماكن وخامة لذلك السبب وكان أهلها قليلين جدا فاجتهدوا فى تنشيف المياه ورغبوا فى عمرانها حتى أعفوا الساكن بها عن كثير من الضرائب وصارت الآن لا بأس بها وانها كثيرة العمران يتقدمها الناس صيفا من كثير الجهات العليا من شمال ايطاليا فانها متنزه جيد وكذلك جهات نابلى وجزيرة صقلية والهواء فيها على الاجمال مائل الى الحر المعتدل والصيف فى جنوبها طويل واذا هبت ريح السموم فعلت بها من المضرة بالجفاف ما تفعله بتونس وأما نباتاتها فهو الى البرداميل وأما نباتاتها فينبت بها الحبوب من القمح والشعير والذرة فى جهاتها كلها والبطاطس ونبات التنكرورى الذى يصنع منه الحبال والكتان والقطن والفوة والعنب وتنفرد الجهة الجنوبية بالبردقان والموز والنخيل والهندى أى التين الشوكى والتبغ وقصب السكر وان كان النخل لا يثمر الثمر وتنفرد

الجهة الشمالية بالارز والزعفران والقطن والحبة الحلواء والجوز كما يعم بها الزيتون والتفاح والكمثرى والاجاص والتوت والتين واللوز والفزدق وعروق رب السوس وبها عدة آجام وغابات غير انها في الجهة الجنوبية مهملة وغير منتظمة واشجارها متفرقة وانواع هاته الاشجار هي الصفصاف والدردار وغيره مما تقدم ذكره في غابات تونس (واما حيواناتها) ففيها الخيل لكنها قليلة واحسنها في فينسيا وماحولها ومنها نوع قصير جدا وحشي يوجد في جزائر سردانيا ومنها البغال واكثرها في الجهات الجنوبيه وكذلك الحمير ومنها البقر والمعز والضأن بقلة والجاموس والخنزير ودود الحرير والنحل والسمك بأنواع شتى في الانهر والابحر ومن الحيوانات الوحشية الضبع والثعلب والذئب والخنزير البري وبقر الوحش والدب (واما الطيور) ففيها أغلب ما في القطر التونسي وتزيد بالغربان بانواعه واكثره أباق اللون بين السود والبياض وهو أكثر ما رأيناه في البراري وهو ثقيل الطيران وحجمه أكبر من الحجل وأصغر من الدجاج وفيه أنواع حضرية كبيرة ولها ألوان جميلة مفضضة ومذهبة كما توجد به الحشرات التي توجد في الاقاليم الحارة سيما في الجهة الجنوبية غير انها ليست بشديدة الخبث بالنسبة لحشرات أفريقيا ومن غريب حيواناتهم نوع من الكلاب يربى عند قسيسين في جبل صان برناتو في الجهة الشمالية الدائم فيه الثلج ومن خصائص هاته الكلاب انه اذا اشتد البرد وحدثت زوابع فالقسيسون يسرحون كلابهم وفي عنق كل واحد اناء صغير معلق مملوء بشيء من الارواح المسكرة الحادة وله انبوب ينفتح فتذهب تلك الكلاب وترود الجهات لعلها تجد انسانا على شفا الهلاك من البرد فتقرب منه وتمكنه مما برقبتها الكي يسخن به فان استطاع بعد ذلك الذهاب معها ادلته على محل أصحابها وان رأته لم يتبعها ذهبت لاصحابها واعلمتهم بهيئة خاصة حتى يتبعونها ويخلصون الانسان من شدة البرد فتفرق الكلاب على ذلك النحو وتكون سببا النجاة من تطف ربه وهؤلاء القسيسون لا يبيعون من اناث هذا النوع ليكون خاصا بهم (واما معادنها) فليس فيها معادن كثيرة ولا غنية سوى شيء من الفحم الحجري في التوسكانه وقرب مسينة من سيسليا ونوع من الطين يشعل بعد التجفيف مثل الفحم الحجري وفيها زيت البترول أي النفط وفيها الحديد بكثرة في عدة جهات منها المبارديه وسردانيا وسيسيليا وكالابريا وجزيرة الباوفيها النحاس في جبل لمبارديه وفي فينيسيا والبا وتوسكانا وفيها الرصاص أيضا في عدة جهات والزاوق والزنيكو ومعدن انتمونيو ومعدن منقنيز والكبريت

واعظمه

وأعظمه في سيسيليا بقرب بلدة قطانيا في سيتنا وهو الذي تشتغل منه جميع أوربا وفيها من معادن الحجارة كثير وغني فمنه الرخام الابيض الشفاف الذي تصنع منه التحف والمرمر الاحمر والرخام الاسود والبرسلانه والطين الملون والمرمر الرفيع والرخام الابيض المعتاد وفيها سباخ عديدة للملح ومعادن مختلفة ومعدن التنكار الذي يشغله الصاغة وفيها مياه معدنية كثيرة أهمها في ولاية البيمنت وولاية فينيسيا وولاية التوسكانا وفي نابلي وأشهر الجميع منتيكاتيني في التوسكانه (وأما مدن) هاته المملكة فقاعدتها رومة التي أحدثت سنة ٧٥٣ قبل التاريخ المسيحي وموقعها كانها متوسطة بين الجنوب والشمال في المملكة وتقرب الى الشاطئ الغربي وقد تقدمت صفتها وقد انقسمت هاته المملكة الآن باعتبار الادارة الى اثنتي عشرة ولاية كبرى ولكل منها قاعدة أوطان فينقسم جميعها الى تسعة وستين وطنا كل وطن له مركز من المدن ويعرف باسمه فاما الولايات الكبرى فنذكرها باسمائها ونذكر عدد أقسامها فقط بدون ذكر لاسماء بلدان الاوطان الثانوية لطول الكلام وقلة الجدوى فالاولى من الولايات البيمنت وقاعدتها تورينو وسكانها ٢١٥٠٠٠ وبها أربعة أوطان وثانيها لمبارديه وقاعدتها ميلانو وسكانها ٢٦٣٠٠٠ ولها ستة أوطان وثالثها فينيسيا وقاعدتها مدينة فينيسيا التي أغلب طرقها خلجان بحرية يمرون فيها بالقوارب وسكانها ١٣٠٠٠٠ ولها تسعة أوطان ورابعها ليغوريا وقاعدتها جنوة وسكانها ١٣٠٠٠٠ ولها وطنان وخامسها أميليا وقاعدتها بولونيا وسكانها ١١٦٠٠٠ ولها تسعة أوطان وسادسها توسكانا وقاعدتها فيرينسا وسكانها ١٧٦٠٠٠ ولها سبعة أوطان وما تقدم كله جهة الشمال ثم في الوسط وسابعها ماركي وقاعدتها انكونة وسكانها ٤٦٠٠٠ ولها أربعة أوطان وثامنها الومبريا وتختها بروزه وسكانها ٥٠٠٠٠ ولها وطن واحد وتاسعها لاتسيو وقاعدتها رومة قاعدة الجميع وسكانها ٢٤٥٠٠٠ ولها وطن واحد ثم في الجنوب عاشرها نابلي وقاعدتها نابلي وسكانها ٤٠٠٠٠٠ ولها خمسة عشر وطنا وحادي عشرها سيسيليا وقاعدتها بالرمو وسكانها ٢٢٠٠٠٠ ولها ستة أوطان وثاني عشرها سردانيا وتختها كالاري وسكانها ٣٣٠٠٠ ولها وطنان (وأما مراسي) هاته المملكة فهي كثيرة فمنها جنوة في الشاطئ الغربي الشمالي ثم ما يأتي يليها جنوبا على الترتيب الآتي وهي اسبيسيا ثم ليفورنو ثم شيفي تافيكيا ثم نابلي ثم كستلاماري التي هي أعظم الكل لاشتمالها على معمل كبير للسفن ولو

المدرعة ثم ميسينا وهي في الجنوب وهي حربية تجارية ثم تارنتو في شاطئها الشرقي على بحر اليونان ثم مرسى ابرنديزي ثم انكونة ثم فينيسيا وهما على بحر البنادقة فهاته هي المراسي الكبيرة وهنالك غيرها كثير (وأما الاهالي) فعددهم على ما تحرر ١٢٩٨ ه سنة ١٨٨١ م تسعة وعشرون مليونا وهم في الاصل من أبناء الاصليين وهم من الامم الذين ارتحلوا الى هنالك من المشرق والشمال في أوقات مختلفة ولكن صاروا بالاكثرة جنسا واحدا يضاهم نفرة قليلة حسان تامي الخلقة أهل جد في الشغل وأهل الشمال منهم تقدمت فيهم الحضارة أكثر من أهل الجنوب اذ أهل الجنوب والوسط لا زال فيهم أناس على سذاجة تقرب من التوحش وكلهم على الديانة النصرانية على المذهب الكاتوليكي الا خمسة وثلاثين ألفا فهم على مذهب البروتستنت وثلاثة وعشرون الفا من اليهود ومن الاهالي ستون الفا من جنس الارناووط

فصل

(في اجمال تاريخ ايطاليا)

مطلب

(في تاريخها القديم)

(اعلم) ان أول ما تسمت ايطاليا بهذا الاسم حسبما وجد بتواريخ الرومان الاقدمين في أواسط الالف الثانية قبل التاريخ المسيحي نسبة الى ملكها أحد العائلة التي أتت من المورة واسمه ايطاليوس وقد كانت من قبل ذلك تسمى ساتورنيا وكانت مسكونة بام أصليين اسمهم أبوريجان ثم وفدت عليهم أمم في أزمان مختلفة من اليونان وأهل الشمال وغيرهم وابتدأ فيهم ملك الرومان العظيم من المائة الثامنة قبل الميلاد وكان منشؤه في مملكة رومية التي هي قطعة من ايطاليا وامتد شيأ فشيأ وتكاملت أوصاف الفخر في الرومان تدريجا في المائة الثانية والثالثة قبل الميلاد ثم اتحد تاريخ ايطاليا بتاريخ الرومان الى أن تسلط الرومان على غالب المعمور المعروف اذ ذاك تحت تسلط الدولة الجمهورية الرومانية ثم أبطلت الجمهورية وأحدثت الامبراطورية التي يلقب صاحبها بالقيصر قبل الميلاد بثلاثين سنة ودامت سلطنة عظيمة مع التقلبات والحروب الى أن انقسمت في سنة ٣٩٥ مسيحية الى سلطنة غربية وهي الاصلية وسلطنة شرقية مقرها

في

فى سوريه وآسيا الصغرى وماوالاها وأصحابها انه هم المذكورون فى سورة الروم وهم المعنيون بذلك اللقب أى الروم والسلطنة الغربية التى مقرها ايطاليا تخربت وتسلط عليها أمم متعاقبون ثم دخلت تحت سلطنة المشرق ثم افتكها منهم أمة لومباردلكن بقى للشرقيين الجهات الجنوبية وكانت تسمى السلطنة اليونانية أو الاغريقية أو الرومانية ثم انخرمت أيضا وتأسس تسلط البابا فى رومية من ١٠٤ ه سنة ٧٢٢م لكنها ماسلمت حتى ودعت فاستولى الفرانسيس على قسم من ايطاليا وقوم النباردى استولوا على قسم والسلطنة اليونانية على قسم وبقى البابا تحت ولاية الامبراطور شالمان ملك فرانسا وغيرها ثم استقلت ايطاليا وكان لها تاج خاص ووقعت انقلابات وانقسامات الى أن جدد ملك البابا ٤٦٦ ه سنة ١٠٧٣ م وتم ذلك فى ٥٢٦ ه سنة ١١٣١ م حيث تأسست مملكة الصقليتين واضمحلت بقية السلطنة اليونانية وغيرها وصار ملكها جير والاول تابعا للبابا ثم ثارت الثورات فى عدة جهات وانقسمت ايطاليا أقساما بعضها جمهورى وبعضها ملكى وتعاقبوا على رومية مقر سلطنة البابا ونفوه منها وحدث فى الجنوب مملكة صقلية التى كان المسلمون استولوا على جانب كبير منها بعبورهم البحر من تونس واستولى فتح قسم منها القاضى الامام أسد بن الفرات فقد كان جامعا بين علوم السياسة والحرب والشرع وتوفى هناك رحمه الله ثم بعد مدة تغلب النصارى عليها كما أن الجهة الجنوبية أيضا انتشأ بها مملكة نابلى ثم رجع البابوات الى ايطاليا من نفيهم الى فرانسا سبعين سنة ولم ينجح الاهالى فى ابعاد الاجانب من الاستيلاء عليهم مع الجهد فيه وتعاظمت حروب فرانسا واسبانيا على الاستيلاء على ايطاليا الى ان تم الامر الى اسبانيا ٩١١ ه سنة ١٥٠٥ م ولم يخرج عليها الا البندقية ثم تقهقرت اسبانيا هناك تدريجا ثم تغير الحال فى حروب نابليون الاول امبراطور الفرانسيس أوائل القرن الحالى هجرى وأولى الامبراطور على ايطاليا أخاه ثم صهره ولم يبق خارجا منها الاصقلية تحت حكم أحد عائلة البربون وكذلك سردانيا تحت حكم أحد عائلة ساقويا ثم عند سقوط الامبراطور المذكور ١٢٣٠ ه سنة ١٨١٤ م انقسمت ايطاليا الى سبع ممالك كل منها مستقل وهى مملكة رومية تحت حكم البابا الروحى والملكى ومملكة سردانيا تحت حكم عائلة ساقوريا و يتبع الجزيرة قسم من القارة الشمالية الغربية ومملكة الابارديه تحت ولاية امبراطور النمسا ومملكة بارمة تحت ولاية نسل امرأة نابليون الاول ومملكة مودينا تحت ولاية دوك من عائلة امبراطور

النمسا ومملكة توسكانا تحت ولاية دوك من تلك العائلة أيضا ومملكة نابلي و يتبعها صقلية تحت ولاية أحد عائلة البربون

مطلب

﴿في تاريخها الجديد﴾

اعلم ان دولة السارد واحدى الممالك المذكورة قد أسست القوانين والحرية الشخصية ومشاركة الامة في السياسة الكلية من عهد شارل البرت المتولى ١٢٤٧ ﻫ سنة ١٨٣١ م وكان من همه استقلال ايطاليا واتحادها تحت علم الحرية لكنه لم يصادف رجالا ذوى همم تعين على المقصود الى أن تنازل عن الملك لولده فكتور امانويل ١٢٦٦ ﻫ سنة ١٨٤٩ م وكانت دولته لها التقدم من جهة القوة المعنوية لانها ذات قوانين وحرية عادلة وان كانت مملكة نابلي أعظم قوة صورية وأما بقية الاقسام فما كان منها تحت النمسا حسا ومعنى فالاهالي نافرون منه وان كان بعضهم له الحرية والقوانين كما أن ما كان تحت البابا كان يجرى فيه الظلم بحسب الشهوات فدام الحال على ذلك الى ١٢٦٩ ﻫ سنة ١٨٥٢ م حيث وقعت الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا وتعاضدت فرانسا وانكلترة على اعانة الدولة العثمانية وكان ملك دولة السارد والمذكور ملكا عاقلا واستوزر وزيرا ذا دهاء وفطنة وهو كافور وكان يأتمنه ويثق ادا الى نصائحه كما ان الاهالي لهم اعتماد على صدقه ووفائه بحقوق الوطن وكان فيه من الاهلية ما أعانه على اتحاد ايطاليا بتدبيره وسعيه كما سيتلى عليك فقد عمل الجهد واتفق مع فرانسا على اعانة الدولة العثمانية في الحرب المذكورة وأرسل عساكره البالغة اثنى عشرة ألفا وسفنه مع قوات الدولة الكبيرة وكان ذلك أول خطوة لايطاليا في الدخول في زمرة الدول العظام في الاعصر الاخيرة ثم بعد وقوع الصلح وقع الاتفاق بين دولة السارد ودولة فرانسا على اخراج ما بيد النمسا من ايطاليا وضمه الى دولة السارد وعلى أن تعطى هاته الى فرانسا وطنى ساقوى ونيس اللذان هما في حدود فرانسا جهة ايطاليا حول الشامات بدعوى أن أصلهما من جنس الفرانسيس وأسس نابليون الثالث ملك فرانسا من ذلك الوقت قاعدة اتحاد الجنسية أى ان كل جنس من البشر له حق الوحدة في انشائه دولة مستقلة اذا كانت فيه أهلية لذلك وساعده على هذا المقصد كون مملكة فرانسا كلها جنسها متحد فرانساوى فلا يخشى على مملكته

مملكته من تلك القاعدة كما ان مستعمراتها يدعى ان ليس لاهلها أهلية لدعوى الوحدة وعند حصولها لهم لا يمنعهم من ذلك وعند اشهاره لهاته القاعدة وارادته الاعانة على انفاذها فى العالم كان عقلاء الفرانسيس معارضين له فيها ومن أشهر المضادين له تيرس ذو الشهرة بالتدبير والسياسة وكان يصرخ فى مجالس الندوة ان هاتيك القاعدة تؤل بالوبال على فرانسا الامن حيث الخوف من تفرق أهلها الانهم من جنس واحد ولكن من جهة تقوى جيرانها كايطاليا والمانيا فان الجار اذا كان ضعيفا لجاره القوى يكون آمنا منه بل يكون له النفوذ فيه بخلاف الجار القوى فانه يأبى الضيم ويقع معه التشاحن المؤدى الى الحرب التى تجهل عاقبتها فضلا عما تستلزمه من الخسائر المحققة فى الدماء والاموال غير أن صراخه لم يثمر شيأ لان دولة فرانسا فى مدة امبراطورية نابليون الثالث ولان كانت قانونية شورية ظاهرا فانها فى الباطن استبدادية فى السياسة العامة وكلما يريده الامبراطور يتم غرضه فيه ولذلك أعلنت دولة فرانسا بطلب النمسا أن تسلم فى الولايات الطليانية لدولة الساردو وأعلنت الحرب لذلك وتعاضدت فرانسا والساردو على حرب النمسا وحدها وقد كانت أنشئت جمعية أهلية طليانية تسمى جمعية وحدة ايطاليا تحت رياسة رجل منهم شهير بالشجاعة وحب الوطن وهو كاريبالدى وتعسكر تحته كثير من المتطوعين الطليانيين من جميع جهات ايطاليا وأعانوا الساردو والفرانسيس واستعرت الحرب وكان ملوك الدول الثلاث فى معسكراتهم وان كان قسم وحدة ايطاليا كله تحت رياسة امبراطور الفرانسيس واتخذلت النمسا ووقع الصلح المسمى بصلح زوريك نسبة للبلد التى امضيت فيها الشروط وبمقتضاها سلم امبراطور النمسا فى مملكة لمباردية الى امبراطور الفرانسيس وهو احالها الى ملك سردانيا كما سلم له هذا فى ولايتي نيس وساقوياوذلك ١٢٧٦ ﻫ سنة ١٨٥٩ م وبينما كانت الحرب مستمرة فى ميادين لمباردية واذا ببقية ايطاليا ثارت من جميع الجهات منادية بالوحدة تحت راية كاريبالدى الى ملك الساردو فاما الممالك الشمالية فعقدوا مجامع فى عدة مدن للتدبير فى أمرهم واستقرأمرهم على الاتحاد ورضيت به الامة فانخلع ملوكهم طوعا وسلمت ممالكهم الى ملك الساردو (وأما) الجهة الوسطى وهى مملكة رومية فخرج منها ولايتان اتحدتا مع بقية ايطاليا وبقيت مدينة رومة وما تبعها للبابالان الفرانسيس أبى على الساردو اذاية البابا حيث ان الرهبان لهم نفوذ على العائلات العالية فى فرانسا والامبراطور يتقى جانبهم فالزم الساردو الحيادة عن البابا وأرسل الفرانسيس الى رومة لحماية البابا من

ثورة رعاياه قسما من العساكر الفرانساوية واسطولا على مرسى شبقى نافيكيا (وأما الجهة) الجنوبية فثار أهلها أيضا ونادوا بالوحدة تحت راية كاريبالدى ثم وردت لهم عساكر السارد و واشتدت الحرب مع ملك نابلى الى أن قهر وفرهاربا وتمت وحدة ايطاليا بذلك ١٢٧٧ ﻫ سنة ١٨٦٠ م وقبل فيكتور امانويل الثانى الملقب بملك ايطاليا غيرانه بقى خارجا عنها بقية مملكة رومية وولاية فينيسا التى تحت النمسا الان امبراطور الفرانسيس فى الحرب المار ذكرها استشعر بان الروسيا تريد الاعلان بالحرب ضده اذا طالت المدة فعجل بايقاع شروط الصلح مقتنعا بهجة النصر بما أمكن وبذلك وحماية البابا لم تتم منية الفرانسيس على ايطاليا ثم ابتفت على قاعدة الوحدة الجنسية المار ذكرها دعوى المانيا التى كانت اذ ذاك تحت رياسة النمسا الحق فى الاستيلاء على ولايتى الهولستين والشولسويغ اللتين هما من جنس الالمان وولايتهما كانت بالوراثة راجعة الى ملك الدانيمرك وأجرى فيهما قوانين مملكة الدانيمرك فادعت المانيا بلزوم اخراجهما ولحوقهما بالمانيا وأعلنت بسبب ذلك الحرب بين دولة النمسا صاحبة الرياسة ومعها دولة البروسيا التى هى أكبر دول المانيا وبين دولة الدانيمرك الصغيرة واستغاثت هاته بكبار دول أوربا وكانت دولة انكلترة مع مصاهرة عائلتى الملك بينها وبين الدنيمرك مسلمة بالحق للدانيمرك ومتيقنة بان حرب المانيا معها مضر بالآخرة بالموازنة الاروبارية حتى قال اللورد بالمستون كبير وزراء انكلترة اذ ذاك ان هاته شرارة ألقيت فى أوربا لا تلبث أن تشتعل منها نارا غيرانه أحجم عن العمل لان فرانسا كانت مخالفة له ومضية لقاعدة الوحدة فاشتبكت الحرب بين المانيا والدنيمرك وغلبت هاته فى أقرب وقت وأخذت الولايتين منها غيرانه اشتد النزاع فيما بعد بين النمسا وبروسيا وذلك أن المانيا كما تقدم فى المقدمة منقسمة الى عدة ممالك وقد كانت الرياسة عليها متداولة بين دولتين النمسا والبروسيا حسب السطوة والاقتدار واستقرت منذ مدة الرياسة بيد النمسا غيرأن الدولة البروسيانية حانقة من ذلك ولم تساعفها الاحوال للغرض وقد كان ولى عليها ملك عاقل ذو خبرة وتبصر بالعواقب وهو افريدارك الكبير فاعطى الحرية للاهالى من نفسه ومن ذلك الوقت أخذت بروسيا فى التقدم واتساع المعارف وكان من قوانينها ان الاهالى كلهم تجب عليهم الخدمة العسكرية حتى انهم فى وقت الحرب يكونون كلهم عساكر وبذلك صارت دولة حربية قوية أيضا غيرانها مع ذلك لم تساعفها الظروف الحالية لانفاذ مقصدها فى الاستيلاء على الرياسة الالمانية الى أن تولى الملك غليوم الملك الحالى

فاستوزر

فاستوزر رجلا ذا تبحر فى السياسة وجد فى العمل وهو الامير بزمرك وكان الملك ماملا بافكاره حتى حصلت له ضديه من بطانة الملك وأهل بيته بل ومن مجلس نواب الامة أيضا عند مارسم بوجوب الزيادة فى القوة العسكرية اذ علم انها الوسيلة لاتمام الامل مع حسن اجراء السياسة فى الداخل والخارج لكن الملك لم يقبل فيه قول قائل لسيره لافكاره ومقاصده حتى انه لما خالفه مجلس النواب أمر بحله وانتداب الامة الى انتخاب غيره تحفظا على سياسة وزيره وبقى الوزير فى خطته وعمل بما رسمه ثم وقعت الواقعة المشار اليها مع الدانيمرك وكانت دولة ابروسيا أوعزت الى فرانسا استحسان قاعدة الامبراطور نابليون الثالث فى وحدة الجنسية واطمعتها بفوائد لو ساعدها ولو معنى فقط على ابعاد النمسا من بقية المانيا كما أن بزمرك أوعز الى بقية ممالك المانيا بالتنفير من رياسة النمسا عليهم لانها ليست من جنسهم خاصة بل هى مركبة من أعضاء متعددة وليس الالمان فيها الا جزأ من الاجزاء ودام اغراء صدورهم الى أن أثر فيهم أشد التأثير ثم حصلت المنازعة بين النمسا والبروسيا على الاستيلاء على الولايتين المأخوذتين من الدانيمرك وفى اثناء النزاع أغرت البروسيا دولة ايطاليا بالمعاضدة معها لاخراج بقية ايطاليا من تحت النمسا فاقامت الحرب بين البروسيا ومعها ايطاليا وبين النمسا فكانت النمسا غالبة لايطاليا لكنها مغلوبة غلبا فظيعا لبروسيا وذلك لان ابروسيا كانت اخترعت نوعا من المكاحل مدساتحشى من أسفله وتثور بارودة باندفاع ابرة من أسفل المكحلة ويسمى هذا النوع المكحلة ذات الابرة وكان أبعد مرمى وأسرع انطلاقا من النوع القديم بكثير فكانت عساكر النمسا يصيبهم رمى عدوهم المتوالى كالمطر الدافق من غير أن يصيب رميهم عدوهم ولو بواحدة وكان صف العساكر يخرميتا دفعة من قبل أن يتمكن من رمى عدوه الى أن ضجت عساكر النمسا ولم يكن لهم من وجه للتخليص الا عقد الصلح بما طلبته ابروسيا ومن العجب أن ذلك السلاح كانت عساكر ابروسيا مقلدة ومحاربة به للدانيمرك عند تعاضدهم مع النمسا ولم يلتفت اليه أحد اذ ذاك ولا تهيأت النمسا لمقابلته فوقع الصلح ١٢٨٣ ه سنة ١٨٦٦ م على أن البروسيا تتولى تلك الولايتين وتدخل فيها أيضا مملكة الهانوفر والهاس ودوكا توناسو وبلد فرنكفورت الحرة وان تخرج النمسا عن رياسة العصبة الجرمانية بالمرة وتبقى ممالك جرمانيا الشمالى منها داخل تحت رياسة ابروسيا مستقل بادارته والجنوبي منها له معاضدة مع البروسيا لكن ليس داخلا تحت رياستها تماما الى

أن وقعت الحرب مع فرانسا كما سيأتي في محله كانت ضمن شروط الصلح أيضا تنازل النمسا عن ولاية فينيسيا الى امبراطور الفرانسيس وهو سلمها للطليان وذلك لانه هو الذي تداخل بالصلح عندما رأى فظاعة تقهقر النمسا ثم لما انهزمت فرانسا في حربها مع المانيا ١٢٨٧ ﻫ سنة ١٨٧٠ م واضطرت الى اخراج جيشها من رومة تم اتحاد ايطاليا بجعل مدينة رومة تختا للمملكة فدخلتها جيوش الملك فيكتور امانويل والثائرون بعد محاربة ضعيفة من عساكر البابا وبقى البابا حاكما روحيا على الكاثوليك واتحد الحكم السياسي لمملكة ايطاليا ولم يبق خارجا عنها سوى صان مرينو التي أهلها نحو سبعة آلاف نسمة فانها مستقلة بنفسها وكذلك صان بيترو وهي كنيسة رومية الكبرى والفاتيكان وهو محل استقرار البابا وبقيت قطعة أخرى على شاطئ البنادقة العليا الحاوية لمرسى ترست تحت يد النمسا وفي نفوس الطليانيين الدعوى باستحقاقها ثم ان المزية في ذلك الاتحاد ولئن كانت الى الملك فيكتور امانويل لاجرائه القوانين في مملكته حتى أحبه سائر ايطاليا وفاز بالشهرة بذلك وزيره كافور لمهارته وحزمه في ادارة السياسة العامة وجلب المساعدة من الخارج وتقديم الاهم فالاهم لكن للامة الطليانية أيضا الحظ الاوفر من ذلك الفخر حيث هيأت نفسها واستعدت لانفاذ ذلك المراد بفتح بصائرها وتمييزها السقيم من المستقيم ومعرفتها بأبول لخيرها حتى كانت تعقد لذلك الجمعيات السرية في أقطار المملكة وتتواصل المخابرات بينهم في الاستعداد وغرس حب الوطن والنفرة من الضيم ومن تلك الجمعيات الجمعية المسماة بالفرمسيون التي نهاية سعيها نشر الحرية من غير اذاية لاحد على شروط عندهم وتحملت تلك الجمعيات مصاعب كبيرة في عدة جهات ومع ذلك لم يفتر عزمهم وآثروا النفع العام على حظوظهم الشخصية الى أن وجدوا يد المساعدة من دولة الساردو المستعدة لما يرومونه فنادوا بها من جميع أطراف المملكة وكان كاري بالدي مظهر وجود تلك الجمعيات التي كانت تنفق على متطوعيه كانفاق دولة على عساكرها وذلك الزعيم لما تم مقصد ايطاليا رامت الدولة مكافأته بترقيته في الرتب العالية فاحتسب عمله لفخر بلاده وأبى قبول شئ مامع احتياجه ومن أهم مساعدات البخت وجود قاعدة نابليون الثالث المار ذكرها ويقال انها مؤسسة منه قصدا لانه يدعى بانه كان من أعضاء الفرمسيون وانه لما كان منفيا بايطاليا وعد جماعته بالمساعدة اذا تولى ملك فرانسا واعانته لها اعتبار عظيم لانها كسرت سورة النمساذات الشأن فلولم تقع مساعدة فرانسا لكانت النمسا أول مخضد لشوكة الاتحاد ولو أنها ترى الحرب لاجل ذلك مع غيرها

(كنا بلي

(كنابلى مثلا) لانها تعلم ان الممالك بالحضرة لها حسبما قيل أقسم بحكم فئة فرانسا الاتنكر فى ذلك لان احياء الامة بعد الاندثار وتغلب الدول العظيمة عليها لايمكن بدون مساعدة دولة ذات شأن واقتدار كما بينه الاستقراء ومن غرائب ما سمعته من جهة علوم الحدثان هو أن نابليون الثالث زار ايطاليا اثر تمام اعانته لها وفى مسامرة الوليمة التى أعدت له من ملك ايطاليا كانت امرأة عجوز من الاعيان حاضرة فاختلت بالامبراطور مع بعض الاعيان المقربين اليه وقالت له هل وجدت ما قلته لك صدقا فقال نعم فقالت لكن ما أدرى كيف الحال فى الباقى فقطعها وفض المجلس فسألها أحد الحاضرين عن معنى كلامها فقالت انها تعلم نوعا من الحدثان وانها كانت أخبرت نابليون مدة هروبه بايطاليا قبل ولايته على فرانسا بجميع ما يقع له ومنه أنه يخلع بعد حرب وقدحان وقتها ولذا قطع الكلام وقد رويت هاته الحكاية عن ثقة قبل حرب فرانسا وبروسيا ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م فلم يطل الزمن حتى كان الامر كما ذكرت والله أعلم بكيفية علمها اذ كان بعض أنواع ذلك الفن لا يتوقف على صلاح ولا على دين بل كان اهو صناعة وفى مقدمة ابن خلدون كفاية لبيان ذلك (وأما أسماء ملوك ايطاليا) فان لها الآن ملكان فقط (الاول) فيكتور امانويل الثانى ابنه امبيرتو (وذلك) لقرب العهد بالاتحاد نعم ان الملك الاول كان ملكا على الساردوه وهو من عائلة ساقويا التى لها رسوخ فى الملك والامارة من قديم

مطلب

﴿فى الادارة الداخلية﴾

(أعلم) ان الادارة عندهم منقسمة الى كليتين (الاولى) هى ما يتعلق بالادارة العامة (والثانية) ما يتعلق باجراء الاحكام الشخصية (فكل) منهما ادارة مستقلة عن الاخرى ولا دخل لها فيها وكل من الادارتين راجعة الى رئيس الدولة وهو الملك فدولة ايطاليا دولة ملكية والملك لها ادارة السياسة العامة داخلية وخارجية ورياسة القوات الحربية برية كانت أو بحرية وعقد المعاهدات والحرب والصلح ورياسة الاحكام الشخصية وتنفيذها لكنه لا يتصرف فى كل ذلك الا على مقتضى قانون مرتب معلوم وملخص كليانه ان الملك يتصرف فى جميع ما تقدم بواسطة الوزراء وهو ينتخب الوزير الاول أى صاحب رياسة الوزراء ويكلفه بأن ينتخب هو بقية الوزراء ممن توفرت فيهم شروط

الاهلية وبعد اختيارهم يعرضهم على الملك وهو يوظفهم في وزاراتهم وهي وزارة الداخلية والخارجية والمال والاحكام والتجارة والمعارف والنافعة والديانة والحرب والبحر وقد يتقلد رئيس الوزراء احدى تلك الوزارات مع الرياسة وقد يجمع بين صغارها كالتجارة والنافعة والمعارف وكل وزير له حدود في ادارته يكون هو المسؤل عنها (وهناك) مسائل تجتمع فيها المسؤلية على الجميع وما يستقر عليه رأى الوزراء منفردين أو مجتمعين يمضيه الملك وان لم يره يعرضه على المجالس الآتي بيانها فان وافقوا الوزراء امضى الملك وان خالفوهم وأصر الوزراء على رأيهم لزمهم الاستعفاء وينتخب الملك غيرهم كما انه اذا وافق الملك الوزراء وخالفهم المجلس فللملك الخيار ان شاء انتخب وزراء آخرين وان شاء حل المجلس واذن العامة بانتخاب غيره ومن حقوق الوزراء الحضور في مجلس النواب والاعيان للمناضلة عن أعمالهم ثم وراء أعمال الوزراء مجلسان (أحدهما) يسمى مجلس الاعيان ووظيفة أعضائه عمرية وينتخبهم الملك من عموم أهل المملكة الاعيان وأعيان المتوظفين و جميع أعضاء العائلة الملكية اذا بلغ الرجل منهم احدى وعشرين سنة ولكن ليس له رأى وصوت يقبل الا اذا بلغ خمسا وعشرين سنة ولذلك لم يكن عدد أعضاء المجلس محصورا وكان مقتضى قواعدهم أن يكون من أعضائه كبراء الديانة لكنه لما كان البابا مضادا للملك ابطاليا حيث نزع منه السلطة الملكية كان جميع رؤساء الديانة مضادين للحكومة الطليانية ويرونها عاصية فلا يتداخلون في أمرها بل همهم في ابطالها واعادة سلطة البابا لكن العقلاء منهم الذين يؤثرون نفع الامة عموما على حظوظ نفوسهم يميلون ما ذكر ظاهرا فقط قياما بوظائفهم الدينية واما باطنهم فهو مع الدولة (ووظيفة) هذا المجلس هو الرأى في الاحتساب على أعمال سائر المتوظفين وفصل النوازل التي يقع فيها الخصام بين المتوظفين مما يرجع الى الوظيف واستحسان أو استقباح ما يرد من مجلس النواب بحيث لا يمضى شئ من تراتيبه الا بعد مصادقة مجلس الاعيان عليه وهو الحاكم في الجنايات السياسية (والمجلس الثاني) هو مجلس النواب وأعضاؤه تنتخبهم الاهالي من عموم المملكة فكل قسم من المملكة ينتخب عددا على قدر عدد سكانه بأن يكون على كل خمسة وثلاثين ألف نسمة عضو واحد بشروط في الذين ينتخبون وأن يكون كل منهم ذكرا طليانيا بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة وأن يكون غير محجور عليه وأن يعرف القراءة والكتابة وأن يكون مؤديا للدولة أربعين فرنكا في السنة من أى طريق كان من أنواع الاداء ويستثنى من هذا أقسام لهم

امتياز

امتيازا بالعلم والتجارة فلهم الانتخاب مطلقا كما يشترط فيمن ينتخب لان يكون عضوا أن يكون طليانيا وأن يعرف بالرشد وأن يبلغ ثلاثين سنة وأن لا يكون متوظفا له مرتب من الدولة نعم يغتفر في الشرط الاخير اذا لم يبلغ عدد أهله في المجلس قدر الخمس ووظيفة هذا المجلس هي المحافظة على القوانين الموجودة وتغيير ما يرى تغييره وتحرير ميزان الدخل والخرج وترتيب كيفية توزيع دخل الدولة على الاهالي والاحتساب على جميع أعمال الدولة ويوجد مجلس آخر يسمى مجلس الشورى ينتخب أعضاءه الملك من أعيان المتوظفين ووظيفة هذا المجلس هي اعطاء الرأي فيما يعرضه عليه الوزراء من المسائل [illegible] تهذيب القوانين لتعرض على من له قبولها من المجالس ثم ان تنفيذ جميع الاعمال [illegible] بالوزراء وهم المسؤلون عما يقع من الخلل بمباشرتهم أو بواسطة من يعينونه [illegible]ه في الوظائف ومسؤليتهم لمجلس النواب ولمجلس الاعيان فهذا هو ترتيب تصرفات الد[illegible] (وأما) الادارة في الولايات فقد تقدم ان المملكة منقسمة الى اثنتي عشرة ولاية كبرى [illegible]منها لها أقسام حتى صار مجموعها تسعة وستين ولاية ثم الولايات في ذاتها لها (أقسام) صغرى وهاته تحتها أقسام أصغر منها فلكل ولاية وال معين من الدولة وله مجلس يسميه الملك ومدة وظيفتهم ليست محددة ومأموريتهم هي تنفيذ أوامر الدولة وتنفيذ ما يستقر عليه رأي مجلس الولاية الآتي ذكره ولهم التدبر فيما يصلح بولايتهم وامضائه بعد موافقة المجلس المذكور عليه وفي كل ولاية أيضا مجلس أعضاؤه تنتخبهم الاهالي لمدة خمس سنين ويبدل خمسهم كل عام وعددهم على حسب عدد سكان الولاية لكنهم لا يتجاوزون الستين نفرا فيما اذا كان عدد السكان أزيد من ستمائة ألف وينقصون ان كان عدد السكان أقل ومدة اجتماعه مرة في السنة تدوم على قدر الحاجة ومأموريتهم هي تعيين المقادير اللازمة لمصاريف مصالح الايالة كتمهيد الطرقات وبناء الجسور والمكاتب والمستشفيات وتحسين البلدان وغير ذلك وأول ما يعتبر في مقدار الدخل المقدار الذي يحصل من الاوقاف المعينة لمصالح الولاية ثم ما يزيد عليه من المصاريف يوزع على الاهالي على نسبة ما يدفعونه لمداخيل الدولة ومن وظائفه أيضا تعيين حدود الولايات وتغييرها فيما بينها على حسب ما تقتضيه المصلحة (ويوجد) في كل ولاية (أيضا) مجلس مركب من الاعضاء المنتخبين من تلك الولاية لمجلس النواب العام ومأموريتهم مستمرة ما داموا أعضاء لمجلس النواب وادارتهم هي قبض وصرف المبالغ المعينة من المجلس السابق بواسطة الوالي ومجلسه ولهم الاطلاع على سائر أعمال المجالس

والمصالح المدارة فى ولايتهم ثم ان كل وطن تحت الولاية فيه نائب عن الوالى مأمور بنه الاحتساب على أعمال المجالس البلدية الآتى ذكرها وايقاف مايراه من أعمالهم مخالفا للقوانين وانهاؤه الى الوالى ثم فى كل جهة وبلد مأمور من الدولة وله أعوان مكلف بحفظ راحة السكان وحراستهم من الجنايات والمشاجرات وهم المعروفون بالضابطيه كما (يوجد) فى الاوطان أقسام من العساكر ومكلف بكيفية أخذ العساكر من الاهالى على مقتضى القانون (وكذلك) يوجد فى كل بلد قرية أو مدينة مجلس بلدى لا تتجاوز أعضاؤه الستين نفسا فى البلدان الكبيرة وينقصون فى غيرها على حسب كبرها تنتخبهم أهالى البلد لمدة خمس سنين كما تقدم فى غيرهم وشروط انتخابهم كشروط مجلس النواب بنقصان فى شرط مقدار الآداء للحكومة ومأموريتهم ما يتعلق بمصالح بلادهم والاحتساب ع[illegible] الضابطيه ومدة اجتماعهم مرتان فى السنة أو عند الاقتضاء ثم ينتخبون منهم لجنة[illegible] أعضاؤها على ستة ولا ينقصون عن أربعة بحسب عدد سكان البلاد تحت ر[illegible]ج البلد لاجراء المصالح المتفق عليها فى بقية السنة ومن حقوق صاحب الم[illegible]ان يغلق جميع المجالس المتقدم ذكرها اذا رأى ما يوجب ذلك بشرط أن ينتخب غيرهم هو فيما يرجع الى انتخابه ويدعو الامة الى انتخاب من يرجع الى انتخابها فى مدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر وفى مدة التعطيل يكلف الملك من يجرى المصالح التى ترجع الى المجلس المعطل وتكون عليه مسؤلية ما يجريه ولا يعزل صاحب وظيفة الا عن ذنب أو نقل لغيرها فهذا كله فى القسم الاول من الادارة وهو الادارة السياسية (وأما) القسم الثانى وهو الادارة الحكمية فان فى كل بلد مجلسا يحكم فى الحقوق الشخصية ثم فى كل قاعدة من قواعد الاوطان مجلس لتحقيق الاحكام الصادرة من مجالس أحكام البلدان الراجعة لتلك القاعدة عندما يطلب الخصم تحقيق الحكم (ويستثنى) من ذلك النوازل الصغيرة ثم وراء ذلك مجلس آخر لتحرير أحكام مجالس التحقيق اذا طلب الخصم ذلك أيضا فى نوازل معينة ثم فى كل بلد مجلس للجنايات الخفيفة ومجلس للصلح يدعو الخصوم اليه وأحكام هاته المجالس يستندون فيها الى قوانين مرتبة عندهم عقلية مستخرجة من عدة قوانين قديمة للرومان واليونان وغيرهم موصلة الحقوق الى مستحقيها على ما يرونه وزاجرة عن الجنايات ومراع فيها حالة البلاد وأخلاق الاهالى وعوائدهم واصطلاحهم ومجلس النواب يغير من قوانين الحكم ما تدعو المصلحة لتغييره بحسب تغير الزمان والعرف وقوانين الحكم معلن بها ليتوصل اليها كل أحد ليعرف ماله وما عليه واذا تغير

عندهم

عندهم حكم مسئلة لا يجرى العمل به الا بعد مدة لكى يكون الناس عالمين به وأحكام مجالس الحكم وسماعهم للدعوى والجواب يكون علنا ولكل من أراد الحضور فى تلك المجالس أن يدخل اليها ويجلس فى مكان معد لذلك ليسمع ويرى لكنه ليس له التداخل فى الشئ من اعمال المجالس نعم اذا رأى شيأ مخالفا للقوانين فانه يرفعه لمن له النظر فى حفظ القوانين أو يكتبه فى الصحف الخبرية ويعلن به وليس فى قوانينهم العقاب بالجلد وانما يعاقبون بالقصاص فى النفس وفى غيرها بالغرم المالى والسجن على حسب الجناية فى درجة عذاب السجن ومدته واحكام المجالس تنشر فى الصحيفة الخبرية المعدة لذلك لكى يعلم الحكم من اراده من العموم ووظيفة أعضاء مجالس الاحكام عمرية لا يعزل صاحبها عزل عقاب ولا تأخير ليكون فى اجراء الاحكام آمنا الا اذا ثبت عليه ذنب بمقتضى القانون فانه يعزل ويعاقب نعم يترقى العضو من مجلس الى غيره ومن بلد الى غيرها وذلك بيد وزير الاحكام على قانون لهم فى ذلك ولعموم الاهالى والواردين أيضا الحضور فى مجلس النواب ومجلس الاعيان لسماع مفاوضاتهم ولاصحاب الصحف الخبرية مكاتبون يحضرون فى تلك المجالس لينشروا جميع المفاوضات وكذلك فيها بيت معد لذلك اذا اراد الحضور الغير الرسمى وفيها بيت معد لمن اراد الحضور من أعيان الاهالى والسفراء والوافدين تعطى لهم أوراق الاذن بالدخول اليها من الوزارة كما أن العامة انما يدخلون بورقة الاذن من الرئيس والحصول عليها سهل وانما يلزم الاذن لكى لا يزدحم الحاضرون فى مكان الاجتماع بان يكون عددهم أكثر مما يسعه المحل ولان فى المجالس جلسات سرية يضر افشاء خبرها فلا يسمع عندها بحضور غير الاعضاء بل ربما اعترى ذلك فى وسط الجلسة الجهرية فيؤذن للحاضرين بالانصراف

مطلب

قد تلخص مما تقدم ان دولة ايطاليا هى دولة ملكية قانونية شورورية وللاهالى الحرية الشخصية والسياسية فاما كونها ملكية فلان الرياسة والتصرف العام هو بيد ملك وراثى أعنى أن الملك ينتقل من الاب الى ابنه الاكبر فى عائلة مخصوصة ومن هذا الى ابنه الاكبر وهكذا وبقية العائلة الملكية تستخدم فى الوظائف كسائر أعيان الاهالى على حسب التأهل (وأما) كونها قانونية فلان التصرفات العامة والاحكام الخاصة كلها منضبطة بقواعد عقلية مدونة معروفة (وأما) كونها شورورية فلان تطبيق تلك

القوانين على الحوادث منلطا بآراء متعددة ووراءها أنظار أخر متعددة بحيث لا يمضى شئ الا ما يستقر عليه غالب آراء أهل الحل والعقد (وأما) كون الحرية الشخصية للاهالى فلان كلا منهم له الاطلاق فى التصرف فى نفسه وكسبه داخلا فى دائرة حدود القوانين لا يخشى من مجاوزتها عليه وهى كافلة له بالامن فى دينه ونفسه وماله وعرضه (وأما) كون الاهالى لهم الحرية السياسية فلان كلا منهم اذا توفرت فيه الشروط المؤهلة من صفاته الذاتية فله التداخل فى تدابير المصالح الكلية العائدة لوطنه ولكل منهم نشر أفكاره على العموم بواسطة المجامع أو الكتب والصحف الخبرية على شرط عدم الخروج من حدود القوانين المراقب لها فى جمهور بنى جنسه

مطلب

﴿فى السياسة الخارجية لايطاليا﴾

(اعلم) أن دولة ايطاليا الآن هى سادسة الدول الاوروباوية الكبار وهى المانيا وفرانسا وانكلترة والنمسا والروسيا وايطاليا فهاته الدول بما لهم من القوة واتساع نطاق التمدن صار لهم المداخلات فى كل ما يمس حقوقهم من سياسات العالم وشدة مراقبة بعضهم لبعض لا تترك احديها تتداخل فى شئ يمكن منه لمس حقوق الآخرين ولو فى الوجاهة والنفوذ ولكنهم عموما يتحمون المداخلات فى أحوال الدول ذات الانتظام لا لمجرد مراعاة الانتظام بل لان الانتظام يشيد حصونا على أبواب المداخلات باستناد أصحابها الى أصولهم وآراء العموم مع جريان سيرتهم على استقامة من القيام بواجباتهم فى أنفسهم والوفاء بحقوق المعاهدات الاجنبية ومع ذلك فالقوة فى الدول الكبيرة تغرى بالتداخل فى أحوال الضعيف كيفما كان الحال لكن الغيرة والتحاسد بين الكبار يوجب ردع بعضهم بعضا فاذا كان المصوب اليه سهام التداخل مستقيما فى نفسه وجد بقية الدول الكبار مستندا لردع الجانى منهم على الضعيف اذ اختلاف منافعهم ومباينة مقاصدهم موجبة للاختلاف وعدم الاتحاد على الاضرار بالضعيف حيث ان الاضرار به لا يمكن أن يوفى بأغراض جميعهم فلا يسمح أحدهم برجحان كفة غيره على كفة نفسه ولذلك يجد الضعيف راحة من اختلافهم الذى كانت أعماله باستقامته سببا فيه (أما) اذا كان فى نفسه غير مستقيم تورث سيرته الكوارث التى تقلق جميع الدول الكبيرة فيتحمون تحمل ضياع بعض أغراضهم ليسدوا باب التشاحن من قبيل ارتكاب أخف الضررين

الضررين وذلك لا ينشأ الا في الجهات التي تشترك فيها منافع الجميع (أما الجهات) التي تختص ببعضهم فان المشاحنة انما تقع بين من له تشارك فيها فقط ولذلك كان لدولة ايطاليا مراقبة لاحوال شطوط البحر الابيض وكل الدول المجاورة لها ولم يكن يعنيها ما يقع في غربي أوربا ولا ما يحصل في الصين والهند وأمثال ذلك نعم ليست درجة غربي أوربا عندها كدرجة الصين والحاصل ان تداخلها هي أو غيرها على حسب منافعها السياسية والتجارية ولذلك كانت لها معاهدات مع الدول التي لها معها علقة في السياسة أو التجارة وهاته الدول هي جميع دول أوروبا والدول التي على شطوط البحور من آسيا وغالب جهات أفريقيا ولها سفراء نواب عنها في تخوت تلك الممالك وهم على طبقات في المقام فلها سفراء من الدرجة العليا في الدول العظيمة التي لها معها خلطة سياسية معتبرة ولها سفراء من الدرجة الثانية في غيرها من الدول المستقلة التي لها معها معاهدات ولها قناسل وهي رتبة أقل من السفير في الحكومات الغير المستقلة أو التي هي صغيرة وتارة تكلف بمصالحها نواب لمجرد الشرف بالرتبة من غير مرتب أو تكلف نواب بعض الدول الاخرى كل ذلك في الممالك التي تقل خلطتها معها ولكل سفير أو مكلف نواب وأعوان ومحل ادارة يسمى بالسفارة كأنه وزارة تنفق عليها الاموال في المرتبات وغيرها وكل دولة فيها سفير من ايطاليا يلزم أن يكون لها هي أيضا سفير فيها على قدر مصالح تلك الدولة وهي قاعدة مطردة في سائر الدول بالنسبة لسيرتهم في الخارجية ومنذ سنة ١٢٧١ ﻫ ١٨٥٤ م دخلت ايطاليا في عقد المعاهدات العامة بين الدول الكبيرة وان كانت اذذاك دخلت بصفة دولة سردانيا حيث انعقد الصلح بين الدولة العلية والروسيا وعقدت له شروط معاهدة باريس التي اجتمع لها نواب الدول الكبار الست الاوروباوية ونواب الدولة العلية ووقع الجميع على المعاهدة وكان منهم نواب سردانيا لدخول دولتهم في الحرب كما سبقت الاشارة اليه

فصل

(في بعض عوائد أهالي ايطاليا وبعض صفاتهم)

اعلم ان سكان ايطاليا من أبناء أجناس من الامم الذين وفدوا عليها قديما واتحد الجميع بصفة الطليانيين منذ قديم وديانتهم عموما مسيحية على المذهب الكاتوليكي وهو مذهب الدولة وكثير ممن تفننوا في العلوم الرياضية قادتهم الطبيعيات فصاروا لا يعتقدون شيأ من

المديانات ظننا منهم انها جميعا مردودة بالعقل مثل مايرون من عقائد ديانة النصارى واليهود لكن عقلاؤهم يقرون بالخالق جل وعلا ولو اطلعوا حقيقة على حقائق الديانة الاسلامية لما وسعهم من الانصاف الا اتباعها لمطابقتها للعقل وسطوع برهانها والمسؤل عن عدم ابلاغ الشريعة اليهم على حقيقتها هم من أناط الله بهم ذلك على ماسيأتى ايضاحه فى الخاتمة ان شاء الله تعالى وسكان ايطاليا هم بيض أقوياء مدنهم أكثر أهاليها مهذبون (وأما القرى) والبوادى فهم على الخشونة والاعتقاد التقليدى البحت للقسوس وهم أصحاب جد فى العمل والاشغال وأصحاب الاعمال البدنية يبكرون الى أشغالهم (وأما) ذوو الترف والاحكام فانهم يطلبون السهر ويفيقون من نومهم متأخرا ولا يبتدئون الاشغال الاقبل الزوال بساعة أو ساعتين أو عند الزوال وكثيرا مايدعو الاحباء بعضهم بعضا للسمر والرقص فى منازلهم وتارة يستدعونهم للعشاء مع ذلك وتارة يقتصرون على تقدم فواكه وحلويات وخمور وليس من عاداتهم الحياء مثل ماهو عندنا فترى البنت تخاطب زوجها وتفاكهه أمام والديها بل وتفعل مثل ذلك مع خطيبها وترقص مع الرجال أمامهم هذا فى البنات فكيف بالنساء وعندهم ان الغناء ليس بعيب من النساء فترى أكبر الاعيان يحتفل فى داره بدعوة عامة وتصير بنته أو زوجته أو احدى النسوة الاعيان المدعوات تغنى فى ذلك الملأ وترقص مع الرجال على اشكال شتى من معانقة ومخاصرة وغيرها ولا تأثيم من ذلك بل يرونه اكراما بحيث أن المسلم الغيور يكاد ينفطر مما يرى (وأما الرجال) الاعيان فالرقص عندهم مع النساء ولو فى المواكب غير معيب لكن الغناء منهم معيب والنسوة يخرجن مكشوفات الوجوه ويتعاطين من الاشغال مثل الرجال الا الاشغال الشاقة والتعاليم للعلوم العالية ويصاحبن الاجانب عن قرابتهن مثل الرجال ويقول رجالهم ان الذى حمل المسلمين على حجب النساء ما فى طباعهم من الخيانة وشدة الحجب توجب شدة الشوق وحيث اننا على خلاف ذلك فالامن على نسائنا محقق والتى لا يحميها عرضها لا يحميها حائط دارها هذا مدار كلامهم وهو خطأ فاحش اذ موجب الحجب أمر طبيعى فى سائر البشر بل فى سائر الحيوانات ومن المعلوم ان لكل شئ سببا فرؤية الذات والوجه مكشوفا ثم المكالمة ثم المداعبة ثم الرقص فى حالة شرب الخمر والطرب ثم المخاصرة كلها أسباب تدعو الى الاتفاق طبعا الى ماوراءها بلا شك واثبات ذلك بالوجود أقوى دليل حتى صار من عوائدهم ان البكارة هى التى لم تتزوج صاحبتها من غير نظر الى حقيقتها الاصلية والزيادة على هذا فى الاستدلال خارج عن موضوعنا

ومنصفهم يقر بذلك لا محالة وقد غلط من ادعى ان ديانة نساء تبيح النظر لوجه المرأة وهو جهل بعدم التفرقة بين كون وجه المرأة ليس بعورة وكذا كفاها وقدماها حتى يجوز لغير محرمها النظر الى تلك الاعضاء وكذلك النسوة أمثالها وبين كون الوجه يجب ستره عن الرجال الاجانب مطلقا لخوف الفتنة بنص الكتاب في قوله تعالى وليضربن بخمرهن على جيوبهن الآية وذلك هو الحق المستقيم والمشاهدة أقوى دليل فكل بلاد حافظت على ذلك قلت فيها الفاحشة حتى كادت أن لا تقع وكل بلاد تساهلت في خروج النساء مكشوفات الوجوه بالبراقع الصفيقة وغض النظر عن مكالمة النسوة للرجال والمزاحمة في الاسواق والمجامع فشت فيها الفاحشة واتخذ رجالها عبيداً ساروا تحت تحكم النساء سواء كانت بلدة اسلامية أو افرنجية وقلب الحقائق واخفاء الجهر وعكس الطبائع ليس في الوسع ولا يحاوله ذو انسانية وأهالي ايطاليا يستعملون الموسيقى ذات آلات النفخ وذات الاوتار وهم برعاء فيها والحانهم هي ألحان الاروباويين وهي ألحان مخالفة للالحان المعروفة عند المشرقيين والعرب وأهالي أفريقية الشمالية حتى ان هاته الالحان لا يحصل منها ما يحصل من السماع لهؤلاء وبالتعود تصير مؤثرة في النفس ولها تعاليم مخصوصة معتنى بها ولا يدقونها الا على تطبيق لما هو مرسوم في أوراق خاصة على اشكال يتبعها صوت النغمات بحيث ان كل صاحب آلة تكون أمامه تلك الاوراق ينظر فيها ويدق على نحوها ولا يدقون من محفوظاتهم الا قليلا وأهل البادية وبعض القرى لهم آلات من مزامير بالجلود ينفخونها بلا أوراق وفي كل بلدة مراسح للعب والتلهي على حسب كبر البلدة تفتح ليلا للسهر وتشكل فيها ألعاب على صور تاريخية مرئية أو للغناء والسماع ولهم تقدم وشهرة في ذلك على سائر أهالي أروبا والاهالي عموما ذوي رجولية في التمسك بالآلات الحربية حتى لا تكاد تجد من لا يحمل السلاح الصغير الخفيف مخفيا ويركبون الخيل رجالا ونساء غير أن المرأة تركب السرج بلا فتح لرجليها بل انها تثني رجلها اليمنى على مقدمة السرج ورجلها اليسرى تضعها في الركاب وعادة الاهالي في السلام عند الملاقاة هي المصافحة مع هز اليد ويقول احدهما للآخر يوم حسن أو ليل حسن واذا قدم مسافر على حبيبه أو قريبه قبله في خده ولو الولد مع والده أو امرأة مع قريبها لكن النسوة يزدن ان الحبيبات متى اجتمعن قبلن بعضهن في الافواه والرجال لابد في سلامهم من كشف رؤس بعضهم لبعض والرفيع بالنسبة للوضيع يضع يده على قلنسوته كانه يريد رفعها فقط واذا دخل وارد على آخر في بيته لا يجلس

الاوهـ امكشوفا الرأس وهى عادة جارية فى جلوسهم فى بيوتهم مكشوفى الروس الا من كان به أذى من رأسـه ومن عاداتهـم أن لا يبعـدوا المشى لتلقى القادم لكنهم يبعدون التشييع ومن الآداب أن يحـدث أحـدهم كلاما لصاحبه عنـد الفراق فيتمه فى حالة الوداع ويتصافحون أيضا عند ذلك

مطلب

(فى التجارة)

الطليانيون لهم مهارة فى التجارة كغيرهـم من أهالى أوربا فرادى ومجتمعين والذى وسع تجارتهم هو عقـد الشركات فأموال الواحـد لا تكفى لمزيد الاتساع فى التجارة ولذلك يعـقدون شركات ذات أسهام عديدة ويقيضون للمباشرة بعضا منهم ممن يأتمنونه وتكون لشركاتهم فروع فى الاقطار التى يواصـلون معهم التجارة ويعلنون كيفية التجارة والبضاعة وأسعارها وكيفية ايصالها بواسطة الصحف الخبرية وبأوراق وكتب يودعونها مجانا ويرسلون الرسل لاكتشاف تجارات البلدان والاقطار وان بعدت ويشهرون بها تجارتهم ودولتهم تحميهم فى أنفسهم وأموالهم أينما احلوا ولا تقتصر تجارتهم على نتائج بلادهم ثم اذا لم توف أموال الافراد أو الشركات بالمقصود من التجارة تراهم يقترضون من ديار الصيارفة وهؤلاء الصيارفة هم ذوو الاموال اما ان تكون لواحد أو لجماعة أو للعموم بان يكون كل من له شئ من المال ولا يريد التعب فى ترويجه والربح منه بنفسه أو غيره فانه يدفع ماله لاحدى ديار الصرافين المسماة عندهم بالبنوك ويأخذ منها حجة فى مقدار مادفع وتاريخه ويأخذ على ذلك ربا فى كل سنة وهو لا يتجاوز ستة على المائة فى السنة ومهما أراد رأس ماله فانه يحاسب على مقـدار مابقى عند الصراف ويأخـذ ربحه ورأس ماله حالا وكذلك اذا أراد أخـذ البعض من رأس المال فله ذلك وكذلك اذا أراد ارجاع ما أخذ أو أكثر أو أقل فله أن يدفع متى أراد ويأخذ متى أراد ويحاسب متى أراد فسهل بذلك ادارة أموال العاجزين مع أرباحهم ثم ان البنك الذى يأخذ الارباح على النحو المذكور يدفعه لمن يريد الاسـتقراض بزيادة فى مقـدار الربا على ما يعطى هو وهاته الزيادة محدودة لا تجاوز العشرة على المائة فى السـنة وكل من مقـدار المدفوع والمأخوذ يختلف بحسب البنوك والبلدان لكنه على كل حال لا يتجاوز الحـدود المذكورة لمنعه بالقوانين حتى ان من تجاوزها يعد سارقا ثم اعطاء البنوك المال للمستقرضين انما يكون برهن أو لمن له اعتبار

يأتمنه به صاحب البنك ثم ان بعض أصحاب البنوك تجيزهم الدولة على قانون معلوم بان يخرجوا أوراقا تتداولها الناس عوضا عن النقدين بشرط أن لا تتجاوز الضعف مثلا من مقدار رأس المال وبعض تلك البنوك مخصوص بالفلاحة وبعضها مطلق وبما تقدم تجد التجارة رائجة بين أيدي السكان با كثر من أضعاف كسبهم وأهم الوسائط لتزيدها الحوالات المالية وهي ان التاجر يشتري شيأ أو يأخذ مالا من أحد ويعطيه حوالة بقبض ما يطلب منه على أحد التجار أو البنوك على أن يقبضه لي تسعين يوما وهو الاكثر دورانا وتارة يكون أقل أجلا وتارة يكون أكثر وعند بلوغ تلك الحوالة للمحال عليه يوقع عليها بالقبول ليدفع في الاجل وقبل حلول الاجل يرسل المحيل المال اما مما باعه أو بما قبضه من حوالة أخرى بحيث ان المحال عليه يدفع المال في أجله من غير أن يخرج من ماله شيأ مع ربحه لجزء من المال لانه يلزم الاتفاق من قبل بين المحيل والمحال عليه في قبول الاحالة وفي مقدار ما يربحه ولا يتجاوز النصف في المائة وتارة يكون بلا ربح بالمرة لمصادقة أو معاوضة بمثلها بينهما كما ان المحال عليه يربح بقبضه ماله نسيئة أيضا جزأ يسيرا والمحيل يربح لانه يتجر بمال ليس له فيه رأس مال ولكن مع ذلك كثيرا ما يعتري الافلاس تجارهم وبنوكهم لان من أحكامهم انه اذا حان الاجل ولم يدفع المؤجل ما عليه في الحال يفلس ولذلك كانت أكثر البنوك بايطاليا التي لها أوراق ماليه لا تصرف الا ببخس بالصرف بالعين لاحتمال الافلاس ولا تتداول خارج المملكة بل ولا خارج بلدانها الا بنك الدولة فانه رائج في جميع مملكته فقط وفي كل مدينة محل ضخم للمناداة على المتاجر العالية يسمى بورسي يفتح بضع ساعات عند الزوال اذا دخله الانسان يجده محتبكا بالخلائق والضجيج بأصوات السماسرة ينادون على أوراق ديون الدول وأوراق الشركات التجارية الكبيرة ذات الحصص كطرق الحديد وخليج السويس واشباهها وكثير من التجار يفلسون في تلك المتاجرة لان بعضهم لا يشتري ولا يبيع الا يدا بيد وهؤلاء لا يعتريهم الافلاس الا النادر لانه اذا انحطت أسعار ما اشترى لا يطالبه أحد بشئ وانما يصبر على خسران نفسه الى ان ترتفع الاسعار وبعضهم يكون ليس له رأس مال لما يشتريه وما يشتريه أيضا ليس بحاضر بل هو مؤجل لرأس الشهر ويعتمد على أن ما يشتريه اليوم يرتفع سعره غدا أو بعد أسبوع فيبيعه ويأخذ الربح ويحيل المشتري على البائع فيما اشترى ويخرج من البين بالربح فكثيرا ما يربحون بذلك أموالا جسيمة وكثيرا ما يفلسون في أموال جسيمة بأن ينحط السعر عما اشترى به ويحل الاجل فيلزمه دفع الثمن

وأخذ المبيع أو دفع مقدار الخسران فقط فيستغرق كسبه في كرة واحدة أو عن كرات وهذا النوع لا يحكم به الحاكم عندهم لانه يراه من المقامرة لكنه لا يمنع منه فالمفلس يفلس نفسه بغير حكم لكي لا يسقط اعتباره رجاء ان يربح مرة أخرى بمعاملة التجار اليه فما تقدم كله من أسباب الثروة واتساعها وسيأتي في الخاتمة ان شاء الله تعالى ما يجوز منها شرعا عمله وما هو ممنوع ومن أعظم أسباب الثروة واتساع التجارة تسهيل الطرق لنقل البضائع بأجرة يسيرة وزمن قليل وكانت الطرق الحديدية أنفع وسيلة لذلك حسبما تقدم في الكلام على تونس ولكن الطرق الحديدية وحدها غير كافية لانها انما تمر على الاماكن الاكثر عمرانا فيلزم لها طرق فرعية صناعية لجلب البضاعة بسهولة لمراكز الطرق الحديدية ولذلك كانت سائر الجهات في ايطاليا لها طرق صناعية ومن أنفع وسائل التجارة والعمران انتظام البريد وهو أن الدولة تجعل أماكن في سائر البلدان لوضع المكاتيب في محل منها ويؤدي صاحب المكتوب أجرة على حمله أجرة زهيدة بالمرة بان يشتري بطاقة من الورق عليها علامة مخصوصة وظاهرها عليه صمغ قبيل الصمغ ويلصق البطاقة على المكتوب بحسب ثقل المكتوب في زيادة الاجرة ويكتب عنوان المكتوب باسم المرسل اليه وبلده وحارته وعدد منزله فتحمل المكاتيب من كل بلد في الرتل ولها مركبة خاصة بها مرافع ذات أقسام ومستخدمون فعندما تأتي المكاتيب الى المركبة في وعاء يسير الرتل ويشتغل المستخدمون في توزيع المكاتيب على أسماء البلدان ويميزون كلا على حدة ومهما وصل الرتل الى بلد أقبلت أتباع البريد عن محل الى تلك المركبة ودفعوا لها ما عندهم وأخذوا منها ما يخص تلك البلدة ثم يسير الرتل وهكذا وكل بلدة أخذت المكاتيب من الرتل يؤتى بها المحل البريد وتعطى لموزعين يوزعونها على أصحابها بحسب ما هو معنون عليها واذا وجدوا مكتوبا غير خالص الاجرة يوصلونه للمرسل اليه فان دفع أجرة حمله وهي اذ ذاك مضاعفة سلم اليه المكتوب والا أرجع الى محل البريد وحفظ فيه مدة ثلاثة أشهر فان جاء صاحبه باحثا عنه أدى أجرته وأخذه والا فتح فانه وجد به اسم مرسله ومحله أرجع اليه وأخذ منه الاجر مضاعفا والا أحرق وهكذا فيما اذا لم يوجد المرسل اليه بالمرة وكان خالص الاجرة فانه يرجع من غير أجرة واذا كان المكتوب ذا أهمية فلصاحبه تضمينه أي يجعل صاحب البريد ضامنا لايصاله بان يجعل عليه خواتم بالشمع خمسة أو علامة أخرى ويأخذ من صاحب البريد حجة في ايصاله الى صاحبه ويؤدي عليه اجرا ضعفين على المعتاد واذ ذاك لا يسلمه البريد الى صاحبه الا بأخذ حجة منه في الوصول اليه فاذا فرض

ضياعه

ضياعه من صاحب البريد فانه يؤدى ثلاث سنتيم أو خمسين فرنكا وهكذا سائر الاوراق
المكتوبة على الضو والمتقدم غيران الصحف الخبرية أجرة ايصالها زهيدة بالمرة وكذلك
الكتب وقد جربوا انه مهما رخصوا فى الاجرة الا ازداد الدخل للبريد وماتقدم فى
كيفية الحمل للبريد فى الاماكن المتصلة فى البر أما اذا كانت الاماكن يتوصل لها بحرا *
فان الدولة تتفق مع احدى الشركات التى لها بوابور سيارة للتجارة على ان تحمل البريد
باجرة سنوية على مقدار مايتفقون عليه من السنين على ان تقلع البوابير فى أوقات معينة
وتصل الى أماكنها فى أوقات معينة من غير تقديم ولا تأخير واذا تأخرت الباخرة عن
ميعادها فلابد أن تبين بحجة السبب الاضطرارى الذى حملها على التأخير والا فتغرم
شركتها أموالا بليغة ضمانا عن التأخير وكذلك الرتل اذا كان لغير الدولة أعنى فى
الاتفاق معه على حمل البريد أما فى تعيين الاوقات وانضباطها فالكل سواء برا أو بحرا
ولذلك تجد السفر مع البريد فى غاية الانضباط لانه لايتخلف عن مواعيده فالمسافر معه
يكون مرتاح البال عالما بيوم سفره وساعته وكذلك بساعة وصوله الا أن يعرض عارض
سماوى ثم ان السفر فى بوابر البريد هو أحسن من غيرها من البوابر التجارية لان تلك
أتقن نظافة وأقل ازدحاما وأرفق خدمة بالركاب حتى اذا كان البحر راكدا كان
السفر نزهة ولكن قلما يصفو الحال بسبب اضطراب البحر أما السفر فى الرتل فهو على
نحو ماتقدم من الانضباط سواء كان حاملا للبريد أم لا ولكل رتل رقاع مكتوب بها
الاعلام بوقت سفره من كل بلد ووقت وصوله وكم يقف بها من الدقائق و يحفظون
على تلك الاوقات للغاية وعندما يصل بلدة ترى خدمته يصيحون باسمها وعدد الدقائق
التى يقف بها اعلاما للمسافرين ووقوفه لايتجاوز نصف ساعة فى وقتى الاكل وأما غيرهما
فأكثر وقوفه عشر دقائق الى الدقيقتين و بلدان الوقوف للاكل يجد بها فى المواقف
بيوتا ضخمة بها موائد الاكل والمأكولات المطبوخة والفواكه كلها مهيئة فمنهم من
يأكل هنالك ومنهم من يشترى و يحمل أكله معه والاثمان فى تلك الاماكن أغلى من
غيرها كما ان البلدان الاخرى يوجد فى محطاتها الاكل لكنه دون ذلك وفى كل محطة
يجد المستراحات فالركوب فى الرتل منتزه على كل حال سيما مع ما أحدث فيه من المخادع
المنفردة حتى يستطيع الانسان أن ينام و يقضى جميع ضروريا ته بغاية الراحة وفى أيام
البرد تسخن المخادع بأوانى نحاسية مملوءة ماء حارا ويزيد أجر هاته المخادع على الاعتيادية
نحو عشرة فى المائة وقد أحدث نوع من المركبات ذو مقاصير للانفراد و بيت للاجتماع

فيكون الانسان كانه فى دار مع جيران وهو مسافر ولا يزيد الاجر فى هاته المركبات على المركبات من الطبقة العليا الاضعاف الثلاث ومن وسائط رواج التجارة ورود الاخبار بالاسلاك الكهربائية فأصحاب الشركات يخبرون أصحابهم كل حين بما يروج عندهم فى الاقطار المختلفة وما يكسد من البضائع فيكونون على بصيرة منه وأعظم ما يكون ذلك فى متاجر محلات البورصى فترى الاخبار تتساقط عليها كالمطر وبذلك ترفع أسعار أوراق الديون وغيرها أو تحط وأعظم ما يؤثر فى ذلك الاخبار السياسية سيما الواردة من قواعد الممالك السبع الكبيرة وهى الاستانة وباريس ولوندره وبرلين وفيينا ورومة وصان بطرس بورغ اذ هاته الدول هى التى عليها مدار السياسة العامة وقد اتخذ التجار الاخبار السياسية ملعبة للارباح حتى صاروا يختلقون أحيانا أراجيف سياسية تارة بالتصريح وتارة بالتلويح وتتلقفها عنهم صحف الاخبار فينشأ عنها أرباح أو خسائر مبنية على أوهام ولذلك يرى بعضهم ان سهولة قرب الاخبار ونقل البضائع مضر بارباح التجارة وان الارباح انحطت عما كانت عليه فى القديم وهو صواب بالنظر لهيئة التجارة القديمة لكن فى نفس الامر قد ازدادت كمية التجارة وذلك ان التاجر ذا البضاعة من الصوف مثلا كانت لا تأتيه سفينة شراعية بها ألف قنطار من الصوف والمكاتيب المعلمة بالاسعار الا بعد عدة أشهر فيبنى عليها عمل تجارته ويشتهر خبرها ولا يبيع تلك الالف قنطار الا بعد عدة أشهر فيربح فيها فى السنة عشرين فى المائة ان ساعده البخت والآن صار يأتيه فى كل أسبوع نحو ذلك القدر مثلا وتأتيه الاخبار كما تأتى غيره فيبيع صوفه بربح عشرة فى المائة فقط فى شهر ثم الشهر الذى بعده كذلك وهكذا فعوضا عن كونه كان يدير رأس ماله مرة فى السنة ويربح فيه عشرين فى المائة صار يديره اثنتى عشرة مرة يربح فيها أزيد من الضعف فبالنظر الى كمية الربح كل مرة تجد الارباح القديمة أوفر لكن فى الحقيقة الناتج فى السنة من الارباح الحالية أكثر ولا يظن ان ما قلناه مبالغة بدعوى ان كمية المحتاج اليه من الصوف مثلا فى القطر المجلوبة اليه لم تزدد فما يأتى زائدا لا يباع وبيان فساد ذلك ان الادارات والحركات كلها مرتبط بعضها ببعض فبتكاسهات المواصلة سهلت آلات النسج بالمعامل البخارية بالبلاد التى كانت تنسج ألف قنطار صوفا فى الشهر بآلات اليد صارت تنسج أضعاف أضعافها بآلات البخار وتلك المنسوجات تنفق مهما ازدادت بانحطاط أسعارها فيكثر راغبها فمن لم يكن قديما قادرا على لبس الملف وهو الجوخ لغلوه صار الآن

الآن يتوصل اليه لرخصه برخص ثمن الصوف بما نقص من أجرة جمالها وقلة ربح تجارها وبرخص آلات النسج وبقناعة البائع بالربح اليسير وهكذا وكذلك كثرت سكان الممالك المتمدنة وكثر المتمدنون وكثر اتساع التجارة وايصال البضائع الى الاقطار الشاسعة التي لم تكن تصل اليها من قبل فارتبطت الاشياء بعضها ببعض واتسعت التجارة وازدادت الارباح على نحو ما ذكرناه وأضف الى ذلك ان المنسوجات بالمعامل ليست متينة مثل عمل الايدى فصار أغلبها يبلى ويتمزق بسرعة بالنسبة للمنسوجات المصنوعة باليد ثم ان تجارة ايطاليا أغلبها بيد أهاليها وفيهم كثير من الاجانب وقد كانت سابقا تجارتها أغنى مما رجعت اليه ثم انحطت بتقدم الممالك المجاورة لها وتأخرها عند انقسامها وظلم ولاتها لكنها الآن تراجعت للغنى وأغلب ما يخرج منها الحرير الغير المصنوع والدقيق وأنواع العجين المصنوع والحبوب والحيوانات المأكولة والجلود وزيت الزيتون والكبريت وهى كما سبق لها انفرادبه وقد خرج منه فى عام واحد ما ثمن اثنان ألف وخمسون ألف وثلاثة أى قنطار ٥٠٠٠٠٠٠ وكذلك يخرج منها المرمر والرخام الابيض والكتان والحشيشة المعروفة بالكروري والمنسوجات الحريرية والاعطار والتبن المصنوع منه كراسي وغيرها والحجر مثل الحجر المعروف بحجر سيسيليا الذى هو لبن خفيف وبعض المعادن المشار اليها فى التعريف بايطاليا وقيمة تجارتها فى سنة واحدة وهى سنة ١٨٧٦ مليار دان وستمائة ألف فرنك والمليارد ألف مليون وهاته التجارة مع جميع الممالك المعروفة لكن أكثرها مع النمسا وفرانسا ثم بقية الممالك ويخص من ذلك الزيت وحده ثلاثمائة وخمسون مليونا

مطلب

﴿فى الصنائع الفلاحية فى ايطاليا﴾

(اعلم) ان هاته الصناعة لها ترق كبير لحسن الموقع واعتدال الهواء ومع ذلك لم تبلغ الى درجة النهاية نعم هى فى الجهة الشمالية مناكبة لما جاورها من فرانسا وغيرها فلاهلها اعتناء واتقان للزراعة وتربية الاشجار وتنميتها حتى ترى الارض كانها حديقة متقنة ولا تجد أرضا خالية من الاشجار ولو الاراضى الزراعية بحيث تجدها مقسمة بصفوف من الاشجار وبينها براحات للمزروعات فصاحب الارض ينتفع بغلال الاشجار والحطب والزرع معا وترى الارض مقسمة بتقاسيم لها منظر بهيج ونفع عظيم هذا زيادة عما

يحصل من الاشجار من السبب فى المطروذلك لان الله بحكمته البالغة جعل عروق الاشجار تمتص الماء من عوامق الارض ثم تنفثه بخارا من أغصانها وأوراقها وينشأ من البخار السحاب واذا كانت الاشجار مرتفعة جذبت ذلك السحاب لبطئ السير حتى يمطر عليها ويحصل بسبب ذلك كثرة المياه فى الارض فيكثر خصبها وقد بانت سببية ذلك بالتجربة والله الخالق الحكيم ثم ان صناعة الفلاحة لا يأخذونها بمجرد التقليد فى العمليات بل انها علم مخصوص يدرس ويصور بالمشاهدة وله مدارس مخصوصة ويعتمد كثيرا من الكيماويات وحول المدارس أراضى للبيان بالعيان والتجربة والعمل وأراضى الرعى مخصوصة ومن حسن التربية وحراسة الحكم لا يتجاسر أحد بالرعى ولا غيره فى أرض ليست له امابالملك أو بالكراء حتى انه ليس لبساتينهم حوائط تمنع الداخل ولا تقع عندهم سرقة الغلال الا نادرا وأما بقية الصنائع فلهم كفاية فى كل الصنائع الضرورية والتحسينية لكنهم ليس لهم معامل كثيرة التى هى من أعظم أسباب الثروة والترقى وان كانوا الآن مجتهدين فى ترقياتها الى بلوغها المثل درجة الامم البالغة للنهاية فى المعارف والتمدن والحاصلون عليه الآن هو ان لهم معامل للسلاح بأنواعه ومعامل لانشاء السفن والبواخر المدرعة ومعامل للتحليلات الكيماوية وللاعطار وللشمع المتخذ من الشحم للدباغة للجلود ولصناعة الورق وغزل القطن ونسج الجوخ والشاشية وأنواع المنسوجات الحريرية ومنه النوع الفاخر المسمى بالامبرا والقطيفة ومعامل للطرز كما انه يصنع بالايدى أيضا ولهم معامل للزجاج والفخار والعقيق والزهور الصناعية والآت المرايا المكبرة وآلات الموسيقى وخصوص أوتار بالدنابلى لها صيت كبير فى جميع الجهات وفى نابلى وميلانو معامل متقنة للكراريس أى عجلات الركوب كما ان فى ايطاليا اتقان لصناعة الاحذية وسائر الانعلة وخياطة الملبوسات وهم فائقون فى صناعة نحت المرمر ونقشه وكذلك صناعة المرجان والصياغة والكهربان والمادة المتجمدة النارية المتقذفة من أفواه البلاكين والموزايكو اى القطع المرمرالتى الواحدة منها قدر الظفر ترصف على أشكال بديعة ويلصق بعضها ببعض بنوع من الطين والجير وقد شاهدت فى معرض ميلانو ١٢٩٨ هـ سنة ١٨٨١ م من تقدم ايطاليا فى سائر الصنائع ما صيرها قادرة على الاستغناء بنفسها فى سائر الحاجات والتحسينات فضلا عن الضروريات حتى ان ملكها لما دخل المعرض مع رجال الامة تعجب مما احتوت عليه المملكة مما لم يكن يخطر بباله ومن جملة ما احتوى عليه هذا المعرض

المعرض تشخيص سائر أصناف الطليانيين بصور على ألوانهم وهيئة لبسهم فرأيت أكثر من ثلاثين صنفا كل منهم له سحنة وشارة خاصة وأعظم ترقيهم فى مصنوعات الجلد والطين والعجلات ولهم مشاركة فى سائر المصنوعات

مطلب

﴿فى المعارف﴾

المعارف الدينية المسيحية لها سوق رائجة من القسوس ولهم صوامع ومدارس لكنهم قد منعوا نوع القسوس الجزويت من التجمع فى المدارس لانهم يخلطون التعاليم الدينية بالتعاليم السياسية ويتخذون المدارس كالمشل للتعسكر فنعوا من ذلك لخوف الدولة من تشويش سياستها لمخالفة مشرب الجزويت لمشرب الدولة فى أصول السياسة (وأما العلوم) الرياضية فقد أخذوا فى التقدم فيها وعلى الاجمال فاهالى الشمال متقدمون على غيرهم فى سائر الفنون والتجارة والفلاحة وعلومهم الاصول ثلاثة (أحدها) علم جر الاثقال (وثانيها) علم الكيمياء أى تحليل الاجزاء وتركيبها (وثالثها) علم الطبيعيات والكل منها فروع كثيرة ومن فروع الثانى والثالث علم الطب الذى كانت اشتهرت به بلد بيزة قديما والآن لم يبق لها ذلك الاعتبار وعلى العموم ففى ايطاليا الآن مدارس ومكاتب على ثلاث طبقات والمكاتب العليا فيها الى الآن لم تناسب مكاتب فرانسا والمانيا وفى ايطاليا من أسباب تيسير المعارف كل اللوازم سيما المطابع والصحف الخبرية وخزائن الكتب ففيها ٤٩٣ خزنة كتب تحتوى على ٢٨١ ر ٣٤٩ ر ٤ مجلدا من الكتب المطبوعة و ٥٧٠ ر ٣٣٠ من كتب الخط وفى خصوص مكتبة قصر الفاتيكان ٠٠٠ ر ٣٠ كتاب وهى أحسن المكاتب من جهة حسن كتب الخط

مطلب

﴿فى هيئة المساكن والطرقات﴾

(اعلم) ان ايطاليا تكاد ان لا تجد بين بلدتين فيها طريقا غير صناعية بل كلها متصلة ببعضها بالطرق المحصبة المتقنة الصناعية غير ان الطرق فى البرية لا تنظف وانما لها قيمون لاصلاح ما يفسد منها كان يكون على كل ثلاثة أميال قيم له مركز يأوى اليه وفيه من آلات الاصلاح الخفيف ما فيه كفاية ويكون هو طول يومه متفقدا لما فى

عهدته ومهما وجد مكانا متغيرا بادر لاصلاحه وهكذا فاذا طال الامر على الطريق
واحتاج للتجديد باشره بذلك المكلف من المجالس البلدية وعلى أولئك الذين متفقدون
في كل الاوقات كما ان سائر أطراف المملكة متصل بعضها ببعض بالطرق الحديدية
وكذلك تتصل بسائر الممالك المجاورة لها بالطرق الحديدية وتلك الممالك متصلة بغيرها
بذلك أيضا فكانت أوروبا كلها كانها بلد واحد في سهولة الانتقال والسرعة من مملكة
الى أخرى ومن بلد الى آخر ومع ذلك فلم تزل ايطاليا مجتهدة في زيادة الفروع للطرق
الحديدية (أما الطرق) في دواخل البلدان فزيادة على كونها صناعية لها خدمة
ينظفونها مرات في اليوم ولا تجد في البلد مزبلة لان خدمة التنظيف يرفعون الازبال
الملقاة من الدور في آخر الليل ومن طرح الاوساخ من داره في غير الاوقات المعينة
عوقب على ذلك بالعقوبة المالية بحيث تجد سائر الطرق نظيفة وفي الليل منورة بالبخار
الغازي والفوانيس نظيفة وغاية ما هنالك هو الفرق بين البلدان في شدة النظافة
والتنوير واتساع الطرقات فقط (أما الاصل) فهو موجود في الكل ولو في القرى
والطرقات أغلبها عرضها مجلتان ومنها ما هو أوسع وفي البلدان القديمة لم تزل طرق ضيقة
لا يمر فيها الا الماشي وأما هيئة المساكن فان المدن لا تكاد تجد فيها الديار ذات طبقتين
فقط بل تزيد الى السبعة والثمانية ويكون ظاهرها على الطرقات متشابها بعضه ببعض
قريب المشاكلة في الصورة مع التحسين الظاهري والتنظيف وطول الطرق واتساعها
وجعل البطحاآت فيها والاشجار على أوسعها فكانت مدنهم بذلك ذات منظر بهيج حتى
ان الحكم يوجب على المالك ان يحسن ظاهر بيته على حسب ما يشير به المهندسون من
المجالس البلدي وأما داخل الديار على الاجمال فاذا دخل الانسان من الباب يجد سقيفة
ثم درجا متصلا بعضها ببعض متصاعدة اما على شكل دائرة أو مربعة الى أن تنتهي الى أعلى
طبقة ومهما وصلت الدرج الى طبقة تجد فيها فسحة ذات أبواب بقدر ما في الطبقة من
المساكن فاذا دخلت مسكنا تجد ايوانا مسقفا وبه أبواب للبيوت وباب الى ممر به
بيوت ومطبخ ومستراح وتارة يكون في احدى البيوت الاخرى مستراح آخر وجميع
الحيوط مطلية والسقوف اما خشب أو بناء مطلية مدهونة وكل البيوت لها طواقي
كبار ويعتنون بمقابلة الابواب والطواقي والابواب وعواضدها من خشب متقن الصنعة
وسائر الاماكن مبلطة اما بالجليز أي نوع من الآجر المطلي المتقن أو المرمر وكذلك الدرج
ومن اقتصادهم ان كل بلد تقتصر على ما عندها من مواد البنيان ولا تأخذ من بلاد

أخرى شيأ الا مالا يمكن الاستغناء عنه مما فيها ولو كان الشئ من بلد فى نفس المملكة ثم البيوت التى بكل دار أكثرها مائل الى شكل التربيع واحدها بيت للجلوس وآخر للأكل وهما أكبر البيوت ثم آخر للنوم وكل منها به من الفرش ما يناسب موضوعه وفرشها مختصرة متقنة مرونقة من كراسى كبار وصغار وساعات ومرايا وزرابى وأسرة يعتنون بنظافتها ويعتنون باتساع الادرج وراحتها وكل مسكن لعائلة فتجد الدار الواحدة يسكنها عدة عائلات كل عائلة منفردة فى احدى المساكن على قدر كبرها وطبقاتها وأما دور الاعيان والاغنياء المنفردين بديارهم فهى على ذلك النحو أيضا لكنها كلها تكون ذات مسكن واحد وطبقاتها لا تزيد على الثلاث أو الاربع وكثير من أغنيائهم يسكنون فى الديار المشتركة من النوع الاول لكنهم يختارونها وسيعة وكل مسكن يكون بابه مغلقا وعند الباب الخارجى للدار بيت يسكنه بواب بالاجرة من جميع أصحاب المساكن للحراسة وكل البلدان لها خنادق تحت الطرق لجريان القذورات فيها أولهاده البزوا لجميع مغطى ولا يفتح للاصلاح أو التنظيف الا ليلا وسطوح الديار فى جميع الجهات الشمالية مسنمة لئلا يتثاقل عليها الثلج وأما الجهات الجنوبية ففيها بعض من السطوح مبسوطة

مطلب

﴿فى اللبس﴾

الرجال يلبسون قميصا وسراويل وصدرية تسمى جيلى وسترة أى جبة مفتوحة الطوق الى أسفل قصيرة الى نحو نصف الفخذ ذات يدين ضيقتين وسراويل أخو طوال الى أسفل القدم ضيقة الرجلين والمقعدة جدا كأنها لاصقة بالعضو وفى بعض المواكب يلبسون سترة مقطوعة الذيول من امام وفى الشتاء يلبسون على جميع ذلك جبة أوسع من الاولى وأطول وتارة تكون مبطنة بأنواع من الفراو بعضهم يزيد لبس قمصان ضيقة من الصوف وفى أرجلهم الجوارب من قطن أو صوف وأحذية كالخف الضيق ولهم فيها أنواع كلها ذات أقدام مرتفعة وعلى رؤسهم قلانس من قطعة واحدة على أشكال منها ماهو من الجوخ ومنها ماهو سعف أو تبن ولما كانت ألبستهم ضيقة فلا يجلسون الا على الكراسى وماشا كلها ولذلك كانت فرش بيوتهم كلها ملائمة لذلك نعم لهم جبائب وسيعة ذات ألوان يلبسونها فى الاوقات التى لا يخرجون فيها ولا يأتيهم فيها أحد وكل

البستهم غير القمصان والجوارب لونها أسود أوما قارب به وأغلبها من الصوف ولا يلبسون الحرير الا نادرا في بعض الثياب ويلبسون في كفوفهم قفازا اما اسود أوما قاربه وكذلك في رقابهم يلبسون روابط ولقمصانهم رقبات بيض يطلونها بالنشا وكذلك أطراف أكمامها الضيقة وصدورها ويحفظون على نظافتها ويرسلون شعر رؤسهم لكنه لا يتجاوز شحمة الاذنين ويفرقونه وأما لحاهم وشواربهم فهي لعبة بايديهم تارة يحلقون الكل وتارة البعض دون البعض وتارة يبقون الكل فتجد الوجوه على اشكال شتى ولكن من يحلق تراه يحلق يوميا الان ابقاء أثر الشعر عندهم من الوسخ وأما لبس النسوة فقميص وسراويل وسيعة من كتان وصدرية مضبوطة على الصدر لها عيدان من شعر سمك البالين لتصغر البطن والخصر وترفع النهود وتعلى الردف وفوقها جبة طويلة الى الارض ضيقة النصف الاعلى ولها أكمام ضيقة الى الرسغ ووسيعة الاسفل من الخصر الى الارض ذات تكاميش ويتنوعن في هيئتها وقد يطلن ذيلها من وراء حتى يصير يجر على الارض نحو ذراعين أو أزيد من ورائها ويلبسن جوارب في أرجلهن وأحذية ذات أعقاب عالية وصرن يجعلن العقب قرب نصف القدم ليتراءى للناظر ان قدمها صغير مع انه لا يرى لطول ذيولهن واضرارهن كما يذكره الاطباء من انه يؤذي الرحم لنزول ثقل البدن على وسط القدم أي الاخمص وتارة يزدن فوق اللباس أردية أو معاطف عند الخروج في الطريق ويسدلن على وجوههن خمارا شفافا صفيقا لمجرد التزين ويطوين شعورهن الحقيقية أو التقليدية بهيئات حسنة على أنفوخهن ويلبسن قلانس ظرافا ذات أزهار صناعية وغيرها ويلبسن القفازين أيضا ويلبسن من الحلى اقراطا واسوارا وخواتيم وقلائد وما سلك من أنواع الجوهرات على حسب الرفاهية وأكثر ألوان لباسهن مائل الى السواد ثم الابيض ثم غيره (وأما) اللباس الرسمي لاصحاب الوظائف من الرجال فهو على الشكل الذي تقدم غير ان السترة تكون مطرزة بقصب الذهب أو الفضة على صدرها وعنقها ويديها وظهرها على حسب الرتب وكذلك يكون للسراويل شرطان من القصب وعلى القلانس علامات أيضا من القصب ويلبسون مع ذلك النياشين أي علامات الفخر ولبس العساكر نظيف جدا متقن من ذلك الشكل غير ان سترتهم مقفولة الصدر وتبلغ في الطول الى الخصر فقط الا ضباطهم فهي طويلة كغيرهم مقفولة الصدر

مطلب

﴿في الاكل﴾

هيئة الاكل عندهم هي موائد مرتفعة يجلس حولها على كراسي وتغطى برداء أبيض وكل آكل يجعل أمامه صحن فارغ و يأتي الخادم باناء الطعام فيأخذ منه الآكل في صحنه مقدار ما يريده ومن اصطلاحاتهم ان تجد حذاء الصحن بطاقة بشكل لطيف مكتوب بها ألوان الطعام الحاضر لتلك الاكلة حتى تأخذ ما تشتهيه وهاته العادة هي من المستحبات عندنا كما نص عليها في آداب الضيافة وقررها الغزالي في الاحيا لكن لا بخصوص الكتابة وانما هي باي اعلام للضيف بانواع الطعام ثم كل صحن حوله ملعقة وشوكة وسكين و بعد الفراغ من كل لون يبدل الصحن والسكين والملعقة بغيرها نظيفة وكذلك يوجد حذو الصحن كيسان على قدر أنواع المشروبات التي تكون لتلك المائدة من أنواع الخمر وفي وسط المائدة أواني بالزهور بحيث انها في غاية المنظر الحسن والنظافة و يحافظ الآكلون على النظافة والعادة أن لا يزيدون غالبا على خمسة ألوان الا في الضيافات والمواكب ثم بعدها يؤتى بنوع من الحلويات ثم بجبن ثم بفاكهة من احدى غلال الوقت وطعامهم له أنواع شتى أحسنها أنواع المشوي وأغلب أنواع الطعام مائل الى التجريد عن كثرة الاخلاط والابزرة حتى يضعون على الموائد أواني لطيفة بالملح والفلفل الاسود والخل والزيت لما لعله يطلب منه الآكل اذا وجد الطعام غير لائق به في الملح كما انه يجعل على المائدة أوان ظريفة بالخردل المسحوق المخلوط بالخل وقنينات بالماء وآخر بالخمر المعتاد عندهم للاكل ثم في أثناء الطعام يؤتى بأنواع أخر من الخمر أرفع من المعتاد وفي آخر الطعام يؤتى بنوع منه يسمى شنبانيا اذا صب في الكاس غلى وارتفع واذ ذاك يخطب خطباؤهم في مقاصد تلائم حالة الاجتماع اما قائما أو جالسا ثم في آخر كلامه يقف و يشير بعضهم الى بعض بالكؤس كناية عن التوادد و يشربونها ولكن هذا لا يقع في منازل المسافرين في الموائد العامة الاجتماع عن غير قصد وانما يقع في الضيافات والمحافل وتارة يصرخ الحاضرون بيعيش كذا ما فلان أو مقصد سياسي ومن لا يريد الشرب من الخمر لا يعيبون عليه ذلك بل يعرض له صاحب المحل تعريضا خفيفا بمدح نوع الخمر فان امتنع فلا تثريب عليه و يوجد فيهم افراد لا يشربون كما ان غالب متبصريهم يعلم ان الخمر حرام عند المسلمين والنسوة في الديار هن المتكلفات

بأحوال الاكل والطباخون يكونون من الرجال ومن النساء ولهم كتب مؤلفة في تركيب الاكل والطبخ

مطلب

﴿في المواكب﴾

أما المواكب الرسمية فان الملك له بيت كبير في القصر الرسمي وبصدره عرش على نحو ما تقدم في عرش والي تونس ويزيدبان يكون على يسار محل جلوس الملك كرسي لزوجه وقبل حضور الملك يحضر المأذونون بالحضور بملابسهم الرسمية ويقفون يمينا وشمالا على حسب رتبهم ولما يحفل الموكب يخرج عليهم الملك لابسا لباسه الرسمي الذي هو على نحو ما تقدمت صفته فيران بعض الملوك يزيد على ذلك بلبس رداء طويل الاذيال واسع جدا ليس له اكمام وانما يوضع على ظهره وكتفيه ويغلق حول العنق بأزرار ثمينة ويرفع أطراف ذيوله من ورائه بعض أبناء الكبراء من العائلة الملكية أو من أقاربهم الى أن يجلس الملك على عرشه وكذلك يكون له تاج مجوهر يضعه على رأسه مع اللباس الرسمي المقصب ويخرج في المواكب من حجرته ومعه زوجه وأهل بيته ويصعد على كرسيه ويكشف رأسه مسلما بالايماء الى ميمنتهم ثم الى ميسرتهم ثم يخاطبهم بخطبة مناسبة لمقتضى الحال موميا الاحوال السياسة الراهنة وتلك الخطبة تكون قد هيئت من قبل بتدبير الوزراء وتارة يلقيها الملك بنفسه وتارة يلقيها رئيس كتبته ويكون الحاضرون كلهم مكشوفي الرؤس فيحيونه بالدعاء له بطول العمر وينفض الموكب وهاته المواكب هي في رأس السنة وهو شهر ينايرالاعجمي وفي عيد ولادة الملك وكذلك يوم فتح مجالس النواب والاعيان من كل سنة ويكون ذلك في محل المجالس وكذلك تعقد مواكب أخرى على حسب الحوادث (وأما) المواكب الاهلية فهي رأس العام ولا يحتفلون لغيره من الاعياد وانما يكثرون استدعاء بعضهم الى بعض للمسامرة ليلا فيما بين المعارف زيادة على الاجتماعات في أماكن العموم كالملاهي والمنتزهات وبسبب ذلك يقع التعارف بين الرجال والنساء المريدين للتزوج فتكثر المخالطة بينهم في حالات مختلفة فاذا حسن عند كل طبع الآخر وسيرته خطب أب الزوج أبا الزوجة في بنته لابنه فاذا حسن لديه أيضا أجابه واذ ذاك في الغالب يجمعون خواص أحباب كل من الفريقين في بيت الزوجة لوليمة من طعام من الحلويات والخمور وان لم تكن الدار لائقة للاجتماع تجعل الوليمة

الوليمة فى احدى منازل المسافرين فيوصى صاحب الوليمة صاحب المنزل على مايريد ويعين له الوقت وعدد الاشخاص ويتوافقون على الثمن وعند قدوم المدعوين يجدون المحل على أحسن انتظام وكذلك يصنعون فى الولائم فى الديار اذا كان صاحب الدار ليس له عدة الضيافة مع ان داره قابلة فان صاحب منزل المسافرين يأتيه بكل مايكفى من أوان وأطعمة وخدمة وغيرها وليس على صاحب الدار الا دفع الثمن مع الراحة وحسن الانتظام فى سائر أنواع الولائم ثم اذا حان زمن العرس يحضر أبو الزوجة ويدفع للزوج مهرا بنته من مال عين أو أملاك ويكتب ذلك على الزوج ويكون أمانة فى يده ثم بعد ذلك يتوجهون الى الكنيسة فيجدون المدعوين هنالك ويحضر القسيس ويبارك على كل من الزوجين ويأخذ خاتما من ذهب من أصبع الزوج ويدخله فى أصبع الزوجة ويرش عليهما ماء وتكون العروس اذ ذاك لابسة لاحسن لباسها فى لون البياض ومخليه بما لها من الحلى ثم يحلق الزوج يده اليمنى على صدره وتدخل الزوجة يدها اليسرى فى ذراعه وينصرفون ويقف آباؤهم معهم فى محل عند باب الكنيسة لقبول الهناء من المدعوين ثم يسافر العروسان حالا الى أى بلد أرادوا مدة ما على حسب الرفاهية والجدة وذلك لامرين أولهما عدم الحياء من معارفهم بالاستراحة من الاشتغال بحركاتهم وسكناتهم وثانيهما انقضى مدة فى الانكباب على لذاتهما من غير تعب وأدنى كلفة مع الاقتصاد فى المصاريف للوليمة لاجل المعارف وينفقون ماينفقون فى لذاتهما هذا فى الاغنياء (أما الفقراء) فيستعوضون عن السفر بالخروج لاحدى المتنزهات ثم ان الزوجة لاتكسو فى العرس الا نفسها والزوج هو الذى يكسو بيته وبعد ذلك يكون مصروف الزوجة فى أكلها ولبسها وسكناها على زوجها وذلك المال الذى أعطته مهر الزوج باق على ذمتها وانما يصرفون دخله على كل منهما ومن ولائمهم أيضا وليمة بلوغ البنت فيلبسونها لباسا كله أبيض وبرقعا أبيض صفيقا وتذهب الى الكنيسة ثم تعود لدار أبيها ويصنع لذلك وليمة (واعلم) ان ماذكرناه من الذهاب الى الكنائس ليس أمرا حتميا بل هو عادى لمجرد التعود عليه عندما كانوا يجرون الاحكام الديانية فى الاحوال المدنية وموكب المأتم عندهم لايجهرون فيه بالبكاء وبعد قدوم القسيس لحضور موت الميت يبقى مدة من الايام لتحقق الموت حيث انهم وجدوا بعض الذوات يظهر عليها الموت وهى فى الحقيقة لم تمت مع تعسر الاطلاع ولو من حذاق الحكماء ويكون هذا بالخصوص فى موت الغشية وانما كان هذا الامانع فى دياننا فاذا استحباب

التهيل بالدفن انما هو عند تحقق الموت بيقين (اما قبله) فيحرم لانه يصير قتلا وقد شوهد ذلك فى كثير ممن نبشت قبورهم بعد زمان فيجدونهم فى حالة غير التى يوضع عليها الميت ويجدون الاكفان ممزقة وحيوط القبر بها آثار الخدش فيجب التنبه لمثل ذلك وقد قالوا ان ذلك النوع يحصل بكثرة فى الامراض المستوبية وقد سمعت بذلك فى بلادى مرات متعددة منها فى سنة ١٢٨٤ حيث استوبى مرض الحمى الخبيثة فكانت عدة جنائز ذاهبين بها فاطلع المارة على حركات فى الميت وأوقفوا الجنازة ووجدوه حيا وتارة ينادى هو من نفسه متفجعا من الحالة التى هو فيها ثم ان أهل ايطاليا بعد تحقق الموت يكفنون الميت فى لباسه النظيف ويجعلونه فى صندوق من خشب ملفوف فى رداء اسود عليه شرطان من قصب الفضة وتحمل الجنازة فى كروسة معدة لذلك ويركب مشيعوا الجنازة فى كراريس معدة للحزن كلها سود وأغنياؤهم يربطون فى كروستهم خيلا سودا أيضا وعدتها سوداء و يذهبون بالميت الى المقبرة فيدفن فى قبر عميق ويحكم سد التراب والبناء عليه ويجعلون على القبور هيا كل من الرخام ويتأنقون فيها (وأما) الفقراء فتجعل جنائزهم فى سراديب مع بعضها وقد اتخذ بعضهم ما تنوسى فى هاته الجهات ولم يبق الا عند بعض الهنود وهو احراق الميت فانهم يجعلونه فى فرن من حديد محكم السد لكيلا تخرج الرائحة ويصب عليه زيت النفط ويحرق ثم يأخذ رماده و يخزن فى اناء فى مكان عزيز فى دار أهله و بعض الاغنياء العزيز على أهله تصبر جثته بعد اخراج امعائه ويلبس ثيابه الفاخرة ويجعل واقفا فى جهة من البيت فى خزنة وجهها زجاج

مطلب

(فى اللغة)

لغة عموم الاهالى تسمى طليانية وهى فرع من اللاتينية ومايكتب فيها ينطق به على حسب الحركات المرسومة وهى لغة واسعة مساعدة فى النثر والنظم على بحور عندهم معلومة ولذلك تجد أشعارهم بها جيدة المعانى على حسب اصطلاحاتهم فمنها ما يستحسن عند أهل العربية ومنها ما يخالف الاسلوب البلاغى وتلك اللغة وان كانت هى اللغة العامة والرسمية فى الكتابة والعلوم وغيرها لكن توجد فى أطراف ايطاليا لغات شتى حتى لا يكاد بعضهم يفهم بعضا ان تخاطب اما اذا رجعوا للكتابة فيرجع الكل الى لغة واصطلاح واحد

مطلب

(فى القوة المالية والحربية)

فرنسا

٩٦٥و٨٣و٥٩٤٢و١٠	دخل الدولة سنة ١٨٨١
٩٦٥و٨٣و٥٩٤٢و١٠	خرجها
٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر١٠	دينها
٠٠٠ر٠٠٠ر٦٠٠ر٢	قوة التجارة فى المملكة بين الداخل والخارج من السلع

عساكر

٩٠١ر٣٩٥	تحت السلاح
٨٧٦ر٤٣٣	رديف
٨٢٧ر٨٢٩	
٥٠٠ر١٠	بحرية
٨٠	سفن حربية مدرعة وخشبا منها مدرعة تسمى الدويلو هى أكبر مدرعة فى البحر
٦٥٥	مدافع
٠٩٨ر٥	امتداد سكك الحديد أميالا سنة ١٨٨١

الباب الرابع

(فى مملكة فرانسا ومارأيته فيها)

الفصل الاول

(فى سفرى اليها)

قد تقدم أنا وصلنا الى بلد مودان التى ينتقل فيها المسافر الى الرتل الفرانساوى وكان وصولنا اليها الساعة واحدة ونصف بعد نصف الليل فوجدنا المحطة منورة والخدمة متدرعين باللباس الثخين لتتدثر من الثلج والبرد وبأرجلهم أحذية من الخشب فلما أردنا

الركوب فى الرتل الفرانساوى وجدنا المخدع الذى أوصيناه عليه بتلك الاشارة حاضرا فى الرتل وسألنا المكلفون عن ورقة الجواز فلما أخبرناهم أنا من تونس وأردنا احضار الورقة ورأوا الباسابورت رحبوا وقالوا لا يلزم اخراج الورقة ولا فتح الصناديق لنظرما بها فركبنا حالا فى غاية الراحة ووقف الرتل ساعة على الارض بسرعة أزيد من الرتل الطاليانى غير أن المخدع كان أقل انتظاما من المخدع السابق فأردنا النوم بقية الليل لكن شدة البرد منعت من استراحة النوم ولم يزل الرتل سائرا ولما بدا الفجر ظهر منظر الارض والحاصل انه على نوع متشابه مع أعالى ايطاليا غير أن الفرق الذى يرى هو كثرة البلدان والقرى بأرض فرانسا على ايطاليا وكثرة الديار المنفردة فى الحقول والاراضى بايطاليا على فرانسا ثم وصلنا الى باريس فى الساعة السادسة قبل نصف الليل ✻ فكانت مدة السير من تورين الى باريس احدى وعشرين ساعة وكانت باريس تظهر من بعد فى الليل كأنها سماء زينت بالكواكب واستمر الرتل سائرا من مبدأ علائق المحطة الى أن وقف نحو خمس عشرة دقيقة فاذا هى محطة أضخم وأوسع من جميع ما رأيناه فنزلنا ودخلنا الى الكمرك ولما نظرنا المكلفون قالوا الازم لتفتيش رحالكم وأنتم مصدقون هل عندكم من سلعة تؤدى الكمرك فقلنا ليس الا شوق وماء زهر وورد فقالوا هو بمقدار حاجتكم أم للتجارة قلنا بقدر حاجتنا فاذنوا بسراح الرحل بدون تفتيش ولا أداء فركبنا كروسة كبيرة لمنزل المسافرين المسمى أوتيل دى كابوسين الذى هو من المنازل الحسنة الواقعة بأعظم طرق باريس وأكثر التونسيين نزولا به فاستمر السير خببا من الخيل نحوا من ساعة من المحطة الى المنزل وكانت الطرق كلها منيرة بالفوانيس نورا زائدا على غيرها وهى طويلة وسيعة أزيد من غيرها بحيث ينتهى النظر فى طول الطريق فأقمنا بذلك المنزل تلك الليلة وتعشينا وفى الصباح أفطرنا فطورا خفيفا وطلبت الحساب حيث لم أساوم قبل النزول فاذا أجرة البيوت ليلة وثمن العشاء والفطور الصباحى لثلاثة أنفس نيف وسبعون فرنكا فخرجنا من هناك وتلاقينا مع المعارف واكترو الى منزلا خاصا اذا أربع بيوت بجميع لوازم فرشها وخدامها بثلاثمائة فرنك فى الشهر غير أن الاكل خارج عن ذلك بل يأتون به من احدى أماكن الاكل القريبة هناك وهى كثيرة اذ كان المنزل على النهج العظيم فى باريس المسمى بلغاردى كابوسين وهو من الاماكن الشهيرة بالعمران فى باريس ثم ان كثرة قرقعة العجلات التى تفوق عن الرعد فى ذلك الطريق ليلا ونهارا كدرت لى الاستقرار هناك حيث انها لا يخف دويها الا بعد

نصف

نصف الليل بساعة وما مضى من النهار الا وتعودلما كانت عليه فانتقلت الى منزل آخر أوسع من الاول ويحتوى على مطبخ وبيت جلوس وبيت أكل وثلاثة بيوت للنوم بجميع لوازم ذلك كله مع تغيير الفرش والمناديل بالنظيفة والكراء قدره ثلاثمائة فرنك فى الشهر وأحضرت طباخا بأربعين فرنكا فى الشهر وخادما بعشرين فرنكا وكان المصروف اليومى على لوازم الاكل نحو العشرين فرنكا فى اليوم مع الاقتدار على قبول بعض من الضيوف والارتياح من الاحتراس فى الاكل وكان هذا المحل أيضا باحدى الاماكن الشهيرة النزهة المسمى بشانزيلزى لكنه لما كان طريقه شديد الاتساع ومحل مرور العجلات فيه يبعد عن حيطان الديار نحو العشرين مترو وكان تحصيب الطريق بالحصا المسواة بالرمل بخلاف الاول لانه مبلط بالحجارة الصلبة التى فى قطع الشبر فكانت أذية الدوى مفقودة فى الثانى مع حصول المنظر الجميل واجتمعت فى باريس بأشهر أطبائها فى المرض العصبى اذ لكل نوع من الامراض عندهم مشاهير مخصوصون به والحكيم الشهير فى هذا المرض عندهم هو الحكيم شاركو وأحضر معه الى فى بعض الايام اثنين من مشاهير أطبائهم وكانت أجرة زيارة الواحد فى المرة الواحدة ستين فرنكا واذا زار الحكيم فى داره يعطى أربعين فرنكا ومما يدل على شهرة هذا الحكيم وغناه بعلمه انه دعى يوما لمريض فى بلد براين قاعدة مملكة المانيا فذهب عشية الجمعة ورجع عشية الاحد فى الرتل وأعطى خمسة عشر ألف فرنكا لاجل تلك الزيارة وعلى ذلك فقس وهو انما يقبل المرضى فى يومين فقط من الاسبوع وبقية الايام يقرئ فيها دروسا عالية فى الطب العصبى وله مستشفى خاص بالامراض العصبية تحت نظارته يحتوى على نحو ثمانية آلاف مريض ذكر لى يوما الطبيب فيفر والذى هو بمعية الحكيم المشار اليه ومباشر للعلاج بالكهربا ان ذلك اليوم كان فى المستشفى مرضى أخذوا الاكل سبعة آلاف وثمانية ونيف عدا من لم يستطع الاكل ومن كان ممنوعا منه وذكر ان المستشفى محسوب على الاطباق الزجاجية الموضوعة فى أبواب الطواقى فاذا هى ثمانون ألف طبق وذلك الحكيم مع سعة معارفه هو بشوش مؤانس حتى صار ودودا الى وله زوجه وله ولوع كبير بالثياب والمفروشات والاوانى وغيرها الصينية والمشرقية والعتيقة من صنائع أوروبا حتى كانت بيوت داره مكسوة بأشياء بديعة ذات قيمة عالية جدا اثمانها وزمئات آلاف فرنك ومن مصائب الجهل بالالسن ما حصل لى يوما وهو ان الطبيب أخبرنى بان المسكن الذى تعودت عليه بالاحتقان تحت الجلد ربما تأنس به البدن فلا يبقى مؤثرا ولذلك يريد أن يعمل

وجها في ذلك وان الاولى بي ان أنقص من مقدار الاستعمال منه بان أصنع ربع المحقنة فقط هكذا أفهمني المترجم ثم أتى بالعلاج المسكن من الصيدلاني فتصبرعلى الالم بين العشائين كما هو عادة طروه في الاغلب فعلت المقدار مثل ما قال الطبيب فلم يسكن وظننت ان الدواء هو المعتاد فزدت نصف محقنة فلم ألبث قدر ثلاث دقائق الا وأيقنت بالموت ووجدت آلاما لم أعهده ولا أقدر على التعبير عنه وانما أقول أظلم الجو في نظرى وأحسست بنفسي ساقطا في جب لا قعر له وغاية ما أدركت ان طلبت المصحف الكريم وضممته على صدرى واستشعرت انى أتلو آية لقد جاءكم سبعا ولساني لا يكاد يصحح الحروف ولم أدر ما وراء ذلك فلم يبتدئ شعورى بالوجود الا بعد نصف الليل بثلاث ساعات فرأيت أتباعي ومعارفي حولي يبكون وجميع ما أراه أحمر ثم رجع الاغماء ثم الاستيقاظ ولا زال الامر يتدرج في الخفة الى الصباح وأنا في غاية الضعف وسألت الطبيب عن السبب فأخبرني أن العلاج قد غيره بمسكن آخر يسمى الاترو بينا مضاد لمسكن المرفينا وأقوى منها بأضعاف كثيرة وانه كان شدد الوصاية في التحذير منه للترجمان اذ ذلك المقدار الذي عملته يكفي لقتل عدة أشخاص وان من لطف الله أن كان في مزاجي من المرفينا مقدار وافر من استعمالها سابقا حتى كانت مضادة لذلك السم القتال ولله الحمد على لطفه وعفوه وما ذلك الا من جهل اللسان واضرار المترجمين وقد أقمت بباريس في هاته السفرة نحو شهر ثم عدت اليها سنة ١٢٩٥ وأقمت بها شهرين ثم عدت سنة ١٢٩٦ وأقمت بها شهرا وها أنا أفرد لصفتها فصلا خاصا

الفصل الثانى

﴿في باريس وصفاتها﴾

باريس وما أدراك ما باريس هي نزهة الدنيا وبستان العالم الارضي وأعجوبة الزمان ولعمري انها أحق باسم مملكة من اسم مصر وهي انموذج لغرائب مصنوعات البشر وحق للفرنساويين التفاخر بها ومباهاة الامم بمحاسنها وجمالها وغناها ومعارفها ومصانعها فهما فكرت في احدى هاته الاوقلت ان القوم قد انحصرت أعمالهم فيها ثم اذا التفت للاخرى تقول مثل ذلك وهكذا وكانها فاقت على غيرها باجتماع الكل فيها فصدق عليها المثل كل الصيد في جوف الفرا ولو أراد الكاتب الاستقصاء في كل طرف مما احتوت عليه لضاقت عنه المجلدات واضطر الى الاكتفاء بالاشارات وبالجملة

فالواقف

فالواقف عليها يزداد يقيناً في العلم بقدرة الخالق وان أحوال الآخرة فوق عقولنا كما أخبر به الصادق الامين عليه الصلاة والسلام من وصف الجنان وان فيهما ما لا يخطر على قلب بشر فاذا كانت هاته مصر لم يكن يخطر بالفكر تشخص صورتها الا بعد رؤيتها مع انها من موادمعهودا تنا فكيف بعالم نعهد مادته ولا نتصور طبيعته وربك يخلق ما يشاء ويختار وهو على كل شئ قدير فاجمال وصف هاته المصر المتمصرة انها بلد في سهل بهار بي قليلة الارتفاع يخترقها نهر السين الذي يحمل القوارب والبواخر الصغيرة وعليه في البلد عشرون جسراً مختلفة الاشكال منها ما هو من قوس واحد من حديد ومنها ماهو من بناء وتمر تحته البواخر ومنها واحدة في طرف البلد جهة قرية تيسي عليه جسر آخر مرتفع جدا على حنايا يمر عليها الرتل في طريق الحديد فترى البواخر جارية في النهر وعلى الجسر المشاة والفرسان والعجلات ومن فوقهم الرتل كانه سابح في الهواء وكل جسر مقسوم على ثلاثة طرق فاليميني والشمالي للمشاة والوسط للركاب والعجلات وفي وسط النهر جزيرة كثيرة بها مباني وديار ويخرج من هذا النهر ترعة تذهب جهة الشمال الغربي من المملكة الى أن تتصل بنهر المارن وهي في أغلب البلد مغطاة بالبناء المنعقد وعليها الابنية ويحيط بالبلد سور منخفض شديد العرض عليه حصون في جميع انحائه وخارجه خندق عريض جدا عميق يملأ بالماء من النهر عند الحاجة وللسور أبواب أنيقة من الحديد ومحيط دائرة السور أربعة وثلاثون ألف متر وتم تقسيم المصر الى عشرين قسما كل قسم منفرد بادارته كانه بلد مستقل ثم يتحد الجميع في الادارة العامة في المجلس البلدي الذي هو أحق باسم دولة اذ دخله مليون ٢٦١ منها من ايراد الغاز ١٨٠ مليون ومصاريفه نحو ذلك منها ٩٩ مليون لفائدة الدين و ٢٢ مليون الى المكاتب والنافعة و ١٦ للمحتاجين وما بقي لمصالح المدينة كله يصرف في مصالح البلد وتحسينها وعلى المجلس من الديون أزيد من ألف مليون صرفت في التحسين اذ انه لم يزل يشتري حارات ويهدمها ويفتح فيها طرقا وبطحا آت وما فضل يبيعه أو يبني فيه مساكن وحوانيت على حسب ما يقتضيه المكان وقد شاهدت في سفرتي الثانية لهاته المصر أن المجلس البلدي فتح طريقا مستقيما متسعا من بطحاء الاوبرة الكبيرة الى بطحاء بالي اروايال وباع ما فضل من الارض فبلغ ثمن الميترو الواحد من الارض على التربيع أربعة آلاف وخمسمائة فرنك وبلغ سعر الميترو حول النهج الموصل الى ابوادي بولونيا الى ثلاثة آلاف فرنك وهكذا ثم ان طرق البلاد عددها أزيد من ثلاثة آلاف طريق وهي

تنقسم الى ثلاثة أقسام (الاول) يسمى آفنو وهو ما كان وسيعا جدا وحوله أشجار يمينا وشمالا ووراءها قصور (والثانى) يسمى بلغار وهو ما كان أضيق من الاول ويزيد عليه بان يكون تحت القصور حوانيت بهجة (والثالث) يسمى رو وهو بقية الطرقات ومن محاسن طرقها أنه يوجد فيها غالبا بسائر الطرق العامة محلات للبول مستورة بشكل ظريف على هيئة قباب فى وسط الطريق والماء بها جار كما توجد محلات الخلاء فى غاية النظافة وهى أيضا كثيرة وذلك من واجبات البلدان الكبيرة لبعد الماشى عن محله وذلك أمر ضرورى وأجل الطرق منظرا هو البلغار الذى يشق البلاد تقريبا من الجنوب الى الشمال وينتهى فى جهة الشمال الى البطحاء المسماة بلاس لاكنكورد فتتصل بها حديقة التانرى لرى وتنتهى الى البطحاء التى بوسطها قوس النصر المسمى ارك دى ترنيونف ويتفرع منها اثنا عشر نهجا وقد كنت فى سفرتى الثانية سنة ١٢٩٥ نزلت بأحد هاته النهوج المسمى قديما افنو الامبراطريس والآن افنوا وادى بولونيا وكان الوقت صيفا فركبت احدى الليالى مع أحد أصدقائى من منزلى فى كروسة يجرها فرسان وتوجهنا الى جهة البلغار وكان ركوبنا فى الساعة الثامنة بعد الزوال فسرنا خمسا ساعة ونصفا ولم نصل لمنتهى البلغار من جهة الجنوب ثم رجعنا وقد قضينا السهر فى الطريق ذهابا وايابا مع المنظر الجميل والبهجة بنور المصابيح وكثرة ازدحام الماشين والعواجل وبالجملة فهذا البلغار هو مما انفردت به باريس على غيرها من المدن الشهيرة وهو فى الليل أبهى منه فى النهار لكثرة ما ينور به الطريق والحوانيت مع حسن وضعها وتزويق ظاهرها وتنميق ما وضع بها من البضائع وجمال ذاتها وتنضيد ترصيفها وهذا البلغار له عدة أسماء باعتبار جهات منه وقد كان انشاء أصل هذا البلغار سنة ١٥٣٦ وكلما قرب الى المنتهى جهة الجنوب قلت نضارته بالنسبة لنفسه فى الجهات الاخرى والبلاد وان كانت تشمل بلغارات أخر كبلغار هوسمان وغيره لكن ولا كالبلغار السابق والذى زاد باريس بهجة ضخامة أبنيتها وارتفاعها وتناسقها وتشابهها فى الظاهر ثم فى باريس أماكن أخر أنيقة فمنها بالى اروايال جوار قصره لكى سمى به وهو عبارة عن مربعين يتصل أحدهما بالآخر محيط بهما حوانيت تحت سرادقات وفوقها قصور ومطاعم وحمامات ومنازل وفى وسط أحد المربعين حديقة نضرة بوسطها حوض وفوارات وحولها قهاوى ومقاعد والحوانيت تشمل جميع ما يحتاج اليه فترى حانوتا منضدة بترصيف اليواقيت والجواهر وبازائها حانوت أخرى منضدة باللحوم والخضراوات

وتلاصقها

وتلاصفها فهوة ذات متكئات وهكذا اولا يمل نظرك من تلك المناظر البهيجة ومع تباين
أنواع المبيعات تجدها في غاية التناسب لما لها من الرونق والنظافة وتجد المبيعات هنا في
غاية الغلاء ومع ذلك فلا تبور سلعهم لان مترفي الاهالي يشترون الشئ لبائعه ومحل بيعه
فباقة الزهر مثلا تشترى من هنا أو من البلغار بخمسمائة فرنك يهديها المترف لعزيزته باسم
صانع ربطها مع انها تشمل زهرة من أمريكا وأخرى من الجابون وورقة من أواسط أفريقيا
وهلم جرا وقد رأيت حانوتا تبيع الزهور في البلغار كراؤها خمسة عشر ألف فرنك في السنة
وباع صاحبها ابافقه في رأس السنة بخمسمائة فرنك وهكذا حوانيت بالى ارواپال وكان
أكثر بياعي اليواقيت مركزهم هو هذا المحل فلذلك كان له زيادة في حسن المنظر اذ كل
اللآلي واليواقيت ترى مرصفة وراء أطباق الزجاج مكشوفة لكل ناظر وقد كان انشاء
هذا المحل سنة ١٦٢٩ ومنها حديقة شانزلزى وهي غيضة في طول ميل تقريبا وفي
منتهاها قرب البطحاء تصير كأنها بستان أنيق ذو مماشي وقهاوى ومقاعد وملاهي منها
ما يسمى كافي شانتان فان الانسان يقدر أن يتعشى فيها منفردا بأطيب ما يشتهى والموسيقى
تعزف واللاعبون في الملهى يشعوذون ويغنون بالمضحكات وكذلك بها كافي لمباشاد
على نحو ذلك وفي أعلى الشانزلزى بطحاء وسيعة يتصل بها اثناعشر طريقا وبوسطها
قوس النصر المسمى ارك دى ترنيونف الذى بناه نابليون الاول ورسم على حيطانه صورة
جميع حروبه التى انتصر فيها وهو بناء ضخم جدا شاهق للغاية ذو أربعة أقواس متقابلة
متصلة ببعضها يصعد الى أعلاه بدرج داخل احدى زواياه وعدد درجه مائتان واحدى
وسبعون درجة ومنها جردان مابيل الذى يفتح ليلا وتخال أوراق أشجاره وزهوره بما
يبدعون من الانوار حتى يكون في أرضه وغصونه ما يبلغ عدة آلاف من المصابيح الملونة
الزيت كألوان الزهور غير أن من له عرض يتحاشا الدخول اليه لكثرة من يدخله من
المومسات ويصرن يرقصن هناك ويعبثن مع الرجال فقد سمعت من أخبار صحيفة الدنيا
الانكار على الحكم في اطلاق تلك العاهرات حتى عبثوا بالصينيين الذين قدموا المعرض
باريس سنة ١٢٩٥ عندما دخلوا اليه لا لذلك البستان للتفرج وسبب كثرتهن هناك
اعفاؤهن من الاداء على الدخول بخلاف الرجال فكل من دخل دفع خمس فرنكات مع
حضور آلات الطرب وكثرة المشروبات والحلويات في مقاعد ذلك البستان المنشأ سنة ١٦٧٠
ومنها سابلاس لا كنكورد المتصلة بغيضة الشانزلزى السابقة الذكر وبوسطها
حوضان كبيران وفوارات محيطها فوانيس وبين الحوضين العمود المسمى بالمسلة

الذى جلب من مصر وعليه كتابة بلسان المصريين القديم وحروفهم التى هى أشكال
حيوانات ونصب هناك سنة ١٨٣٠ وطوله اثنان وسبعون قدما فى قطعة واحدة من
حجر دون القاعدة المنفصلة التى ركز عليها وعرضه من أسفل سبعة أقدام وكلف جلبه
مصاريف عديدة ملايين حتى أنشأت له سفينة خاصة وقد نورت هذه البطحاء بالنور
الكهربائى الذى هو كنور القمر لونا وطول هاته البطحاء ميترو ٢٤٨ وعرضها ميترو
١٦٩ وتتصل بالنهر وبالبلغار ومنها ساحة التولرى المتصلة بالبطحاء المذكورة
أيضا ذات المقاعد والمساطب وهى امام قصر الملك ومنها بلاس فندوم التى بها عمود
نابليون الاول صنع هذا العمود من ألف ومائتى مدفع من النحاس غنمها الامبراطور
المذكور فى حروبه ورسم عليه صور المعامع التى انتصر فيها المذكور ووسط العمود به
مائة وستة وسبعون درجة يصعد بها الى أعلاه وفى قمته تمثال نابليون وقد أسقطه
الكمون أى جماعة الاشتراكيين الذين يريدون أن تكون الناس كلهم شركاء فى
جميع الموجودات وذلك فى ثورة سنة ١٨٧٠ فأعادته الجمهورية الى مكانه فى يوم
مشهود وكنت حاضرا سنة ١٢٩٢ ومنها افندودى لوبرة الواصل بين بطحاء الملهى
العجيب المسمى بلوبره وبين بالى اروايال وقد نورت بطحاآته وحافاته بالكهربا ومنها
الباساج أى الاسواق المسقفة بالزجاج التى لا يمر فيها الا الماشى وهى ذات حوانيت
يمينا وشمالا من أبدع الاشكال والتنميق ومنها غيضة أبوادى بولونيا أى غابة بولونيا
من أبدع الآجام والغابات المشتبكة بالتصنع وفيها بحيرة صناعية وجبال وأنهار وجسور
كلها صناعية وبها مماش للعواجل وأخرى للفرسان وأخرى للمشاة ومقاعد وشلالات
تنحدر منها المياه وآجام ورياض وقهاوى ومطاعم بأحسن تنظيم وفى البحيرة طيور مائية
وجزر وقوارب يركبها الناس الى الجزر والناس ينتابون هاته الغيضة التى هى خارج
باريس فى الجهة الغربية الشمالية ليلا ونهارا وهى ممشى أهل الترف سيما أيام الاحاد
والاعياد وقد شهدت يوم عرض الجيش ويوم السباق الاكبر سنة ١٢٩٥ ان طرق
المصرا الموصلة لهاته الغيضة قد غصت بالعجلات على كثرة وسعها فان طريق الشانزيلزى
عرضه أزيد من عشر كراريس متحاذيات ومع ذلك لم تستطع العواجل ان تتحرك فيه
وكذلك طرق هاته الغيضة حيث ان الميدان وراءها وهو سهل رحيب نحو ميلين فى
مثلهما وفى جهته الغربية ثلاثة أواوين منفصلة عن بعضها ومتلاصقة مستقبلة برواشنها
ومقاعدها جهة الميدان وأوسطها به بيت لصاحب الملك وجميعها هيئة جهة استقباله

هى

هى ان بعضه أعلى من بعض متدرجا و يدخل اليه من ظهره وامام كل منها فسحة بها كراسى و يفصل بينها و بين الميدان درابزين ولا يدخل الى ثلاث الاواوين الا من كان بيده تذكرة الاستدعاء من الدولة وقد حضر موكب السباق سنة ١٢٩٥ من خصوص المدعوين ما يزيد عن الخمسة والثلاثين ألفا (أما) مجموع المحيطين بالميدان بين راكب وراجل فهو ينوف عن نصف مليون من الخلائق وحول الغيضة أيضا ميادين أخر لغير السباق الكبير وبها محل للرماية وهاته الغيضة دمرتها عساكر المانيا وعساكر فرانسا سنة ١٢٨٣ حيث كانت مرسحا للحرب ولكني لما رأيتها سنة ١٢٩٢ كانت كان لم يكن بها شيء وكانت أشجارها ثابتة فيها منذ قرن حيث انهم لما أصلحوها نقلوا اليها الاشجار العظيمة من الغابات ولهم في كيفية نقلها براعة أعان عليها علم جر الاثقال وآلات البخار حتى انهم يحملون الشجرة بأرضها الثابتة بها من غير ان تمس عروقها و يبقى محلها كانه بئر ومنها غيضة بوادى فنسن وهى خارج البلد من الجهة المقابلة للغيضة السابقة وهى على نحوها وأشجارها أكبر غير انها الارونق عليها وكان ذلك لعدم انتداب الاغنياء اليها وانما يتفسح فيها الاواسط والفقراء لبعدها عن حارات الاغنياء ولكن انقها و بها ساحات لالعاب رياضية بدنية بآلات كثيرة تستعملها الاهالى وهاته الغيضة يوصل اليها بالعجلات والحوافل المسماة بالامنيبوس و بالترامورى الذى تجره مرجية بخارية وكلا هذين النوعين لا يستعمل فى الغيضة السابقة لكثرة واردها مع الغنى والترف ومنها غيضة بارك مونسو قرب الشانزى لزى لها أبواب من حديد مذهب أبهج من أبواب سرايات الملوك المسرفين وهى ليست بكبيرة جدا وفى باريس عدة غيضات على نحوها فى كل قسم منها غير انها ادون منها تأنيقا ومنها جردان دى كليماتسيون الذى أنشأته جمعية أهلية للنباتات والحيوانات وقد جمع فيه من كلا الامرين كلما يقدر عليه البشر من جميع أقطار العالم ولكل نوع من الحيوانات أو النباتات هيئة وهواء صناعى على نحو ماهو معتاد به فى قطره وقد تيسر بذلك التحفظ على حياة جميعها غير ان الاشجار المعالج هواؤها اذا أثمرت لم تكن ثمرتها كأصلها ومن ذلك النخل فان ثمره لم يكن تمرا ثم الحيوانات التى يصعب جلبها اذا مات منها شئ فانه يصبر جسمه لينظر على نحو ما كان عليه مدة حياته أما ما رأيته فيها من الحيوانات البرية والبحرية فيلزمه كتاب حياة الحيوان ليستوفى الكلام عليها وأقول باختصار ان أنواع الكلاب وحدها تزيد على المئات فضلا عن غيرها وكذلك أنواع

* الببغا من الطيور بألوانها وتذهيبها البديع ومن الحيوانات الغريبة نوع من الضأن الكبش منه كالحيوان المسبع غير انه لا يأكل اللحم وانما هو بري وحشي
* قوي جدا ومن حيوانات البحر أسد البحر وله صوت عال ويخرج الى البر أحيانا ليأكل
* مايلقى اليه وهو سريع الحركة قويها جدا ومن حسن تربية الأشجار ان شجرة ترى قاعدتها على أصل واحد ثم تتفرع وتصير كالكورة ثم تجتمع وتصير أصلا واحدا ثم تختلف على أشكال عديدة وفي هذا البستان عجلات تجرها خيل صغار جدا لمن يريد
* الجولان راكبا وفيه عجلة يجرها أربعة من المعز يركبها الصبيان وأخرى يجرها نعامة يركبها الصبيان أيضا وهناك أفيال برخوتها يركبها كل من يريد ذلك وفيه أيضا محلات للقهوة وأخرى للجلوس وتنقابه الموسيقى في أيام من الاسبوع وعلى كل داخل للبستان أن يؤدي فرنكا واحدا أما اذا أراد شيأ آخر غير التمشي والجلوس فيؤدي أجره
* وله أن يشتري من كل ما في البستان من الحيوان والنبات غير انهم اذا كان لهم من النوع فرد واحد فلا يبيعونه وقد وجدت فيه سنة ١٢٩٦ ملهى مركبا من سودان أفريقية سموهم بالزلوس لوقوع الحرب بينهم وبين الانكليز في ذلك التاريخ لكنهم في الواقع من سودان مصر كما صرحوا الى أنفسهم بذلك ويتكلمون بالعربية ويصورون حروبا
* وغيرها ومنها جردان دي بلانت وهو مثل السابق غير ان بينهما عموما وخصوصا فالاول أبهى منظرا وأكثر حيوانات والثاني يشتمل على الحيوانات المسبعة التي يمنع وجودها في الاول لان الثاني للدولة وفيه كل السباع الا الكركدان فقد كان لهم منه
* واحد لكنهم أكلوه عند محاصرة باريس ١٢٨٧ ﻫ سنة ١٨٧٠ م ومن أعجب ما رأيته من الثعابين ثعبان اسود في غلظ عقدتين وعيناه حمراوان جدا ويظهر عليه خبث شديد والزجاج المحيط به مزدوج ووراءه اسلاك غليظة من الحديد مشبكة تشبيكا ضيقا ويقال ان سبب ترديد الزجاج كون شعاع بصر الثعبان مسموما ورأيت فيه الحيات على أنواع ويلقون اليها أولاد الفار الصغار قبل نبات الشعر بجلدها فتنهشه الحية وتعرض عنه فيلقى مغشيا عليه يضطرب ثم تعود اليه الى أن يموت فتأكل منه ولعل ذلك لانها متعودة على أكل مثل ذلك وانظر من هذا المقدار اعتناءهم بتربية كل حيوان على طبيعته كما ينفرد هذا البستان بكونه فيه دار للتشريح والتاريخ الطبيعي مجسما فكانت جميع الاجسام من أنواع الحيوان فيه مصبرة ومشرحة والانسان على جميع أطواره من النطفة الى الشيخ الفاني كما يوجد فيه خزنة الكتب في الفن المذكور

المذكور ومنها قصر معرض سنة ١٨٥٧ الذى جعل فيه الآن أنواع الصور والاصنام ومنها قصر اللوفر الضخم المتقن البناء والتأنيق الملوكى وكان مسكنا للملوك والآن معرضا للطرف والآثار الدهرية وفيه بيت يشتمل على بعض بدائع ملوكهم ومجوهراتهم ومما فيه مائدة من المرمر الابيض مرسوم على سطحها خريطة أرضية بالوان المرمر الاخضر والاحمر وغيرهما بحيث أن كل جهة من الارض بلون خاص وفيه بيت لآثار الصينيين وآخر لدواخل أفريقية وآخر لاعمال فردينانددى لسبس سمى باسمه وفيه صورة خليج السويس مجسمة مع جميع آلات الحفر والاشغال وعدة بيوت لصور تشتمل على عشرات الآلاف من الصور وأخرى لبلدان مجسمة وبحار وسفن ومراسى وجميع غرائب الاقطار يقضى فيه الانسان مدة أيام ولا يستوفى حصر ما فيه وقد أخذ من هذا القصر قسم لادارة قسم من مالية الدولة ومنها قصر التولرى الذى وصله نابليون الثالث بالقصر السابق وخربه الاشتراكيون بالحرق فى ثورة ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م وعينت الدولة قسطاسنو بالترميمه على أصوله والعمل جار فيه غيران ما كان داخله من الفرش والطرف لايمكن استعواضها حيث كان مقر الامبراطور ويحتوى على أنفس بدائع الملوك وامام هذا القصر حديقة بديعة نضرة رجالها هى ينتابها الناس نهارا وليلا ورأيتهم ليلة معجبين من أحد العازفين بآلة كرباب كبيرة جدا فى طول الانسان حيث انه أتقن دقها بدون ان تكون أمامه ورقة التعليمات ومنها اهى كران اوبره الذى هو أبهى وأنظر من سائر القصور والملاهى واحتوى على الضخامة والتزويق والتأنيق والاسراف فدرجه المرمرية وشكلها ودرابزينها توقف الابصار وهو ذو تسع طبقات للمتفرجين وايوانين للاستريحين ويحمل خمسة آلاف من النفوس ويتنور بالكهربا وأخبرت انه صرف على انشائه وتنميقه مائة مليون وأربعة عشر مليونا فرنكا ومنها قصر لكسنبورغ وهو وان لم يلحق نفاسة ما سبق ذكره من القصور لكنه عجيب وبجانبه دار الرصد العجيبة التى هى فى أرفع ربوة بباريس وفيها من المرايا المكبرة أنواع شتى منها ما هو فى حجم مدفع كبير وفيه بيت سقفه يدور على عجلات لكى تدور المرآة الى أى جهة من السماء من غير مانع وترى منه الكواكب ليلا ونهارا فقد شاهدت نهارا بالمرآة نجم الربفولوس الذى لايرى ليلا الا بالمرآة وقال المديران بعده عن الارض أربعة وعشرون مليونا ميلا والحاصل ان فى هذا المرصد جميع آلات علم الفلك وبه علماء مثابرون على الرصد والتفتيش على ما يمكن لهم الوصول اليه ومنها قصر معرض سنة

١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م وهذا المعرض البديع الذى جعلت به باريس دارمأدبة لسكان الارض واحتفلت بهم احتفال الكرام هو أبدع من جميع المعارض التى سبقته فى جميع البلاد ولايفهم من قولى احتفال الكرام ان القادمين تقوم بشؤنهم فرانسا بل كل منهم يصرف على نفسه وانما المراد هو التهيئ لاحضار ماتشتهيه أنفسهم وتلذبه أعينهم من كل مايدخل تحت قدرة البشر ثم انفاق النفقات الباهظة للمحافل العامة والمآدب التى يضعها كبراء الدولة أحيانا ويدعون اليها أعيان المسافرين والاهالى فان دولة فرانسا قد دعت ملوك أروبا وغيرهم من الامراء والوزراء وكل من له اقتدار من غيرهم فانه يأتى لمشاهدة مالم يمكن الوصول اليه بسهولة حيث انه يرى أنموذج جميع مافى الارض كله بمحل واحد وقد كان ممن أجاب الدعوة من الملوك شاه ايران ومن غريب التواريخ ماقلته فى رحلته تلك وهو قولى مؤرخا (قدزار أروبا الشاه ناصر الدين) ١٢٩٠ لكنه قدم على غير الصورة الرسمية ولذلك سكن بأحد منازل المسافرين وذكرت الصحف انه أفطر يوما ببلد فونتين ابلو التى حولها غابة ومنتزهات فكانت نفقته فى ذلك الفطور أحد عشر ألف فرنك ولايخفى ان سائر الاشياء كانت فى تلك السنة فى نهاية الغلاء بباريس لاسيما المأكولات والمشروبات بداخل المعرض لكثرة الواردين من الاقطار حتى قيل ان معدل القادمين من الانكليز كل يوم أربعمائة ألف ومثلهم الراجحون فضلا عن غيرهم من سائر الاقطار وقد اجتمعت مدة هذا المعرض بأعيان من العرب وغيرهم فمن أعزة أبناء وطنى الحازم النصوح محمد الطاهر الزاوش الذى هو من خيار الاهالى وترقى بنصحه لدى الامير ولى العهد بتونس الى ان ولى مستشاره وأبدى من النصح والنجابة فى اسفاره مع مخدومه لسياسة القبائل والعربان ماأقر له به المنصفون وله دراية جيدة بأخلاق الاهالى وله نصح ووفاء عظيم مع الامير وسائر النصحاء وكذلك قدم من ابناء الوطن الوزير حسين والعلامة سالم أبو حاجب وقد تقدمت ترجمتهما واجتمعت بوحيد دهره الناصح للأمة الباذل فى الاخلاص اليها نفسه حتى مات شهيدا ألا وهو مدحت باشا الذى ولى صدارة الدولة العثمانية وأنفذ ماسعيه القانون الاساسى الذى لو جرى به العمل حقيقة لنجت الدولة مما ألم بها لكن لما كان الحق صعب الاجراء الاعلى من وفقه الله قد عزل ذلك الوزير الوحيد من الصدارة قبل استقرار العمل بالقانون ثم نفى الى خارج الممالك العثمانية ثم أذن له بالاقامة فى جزيرة كريد ثم ولى واليا على الشام ثم نقل واليا على أزمير ثم قبض عليه وحكم عليه بالقتل بدعوى اشتراكه فى خلع

السلطان

السلطان عبد العزيز وقتله لكن أكثر دول أوروبا أنكرت الحكم بسر العدم جريانه بالحق الصراح فعوض عن القتل بالسجن المؤبد في الطائف من الحجاز ثم أشيعت وفاته شهيدا للحق رحمه الله ونعمه وكذلك اجتمعت بذي الاصالة داود باشا المصري حفيد محمد علي باشا الاب ذات وصهر الخديوي الحالي وكذلك بسفير الفرس بباريس نازار آغا وغيرهم من أعيان الاقطار في الاجتماعات الخصوصية زيادة على الاجتماعات العامة في المآدب التي أشرنا اليها من دولة فرانسا فقد دعيت مدة اقامتي هناك تلك السنة لمأدبة في وزارة البحر وأخرى في وزارة الخارجية وأخرى في وزارة المال وكل منها كان خارج المحل وداخله على غاية من التنوير والتزيين وجناته ملونة الانوار الارضية والفوقية كالوان أزهاره وموائد المآكل والمشروبات والمثلجات مصفوفة والموسيقات عازفة والاعيان من النسوة والرجال يرقصون أو يتفرجون في الملهى المشخص للطربات وصاحب الوزارة المدعو اليها الضيوف يقف في البيت الثاني من المدخل هو وامرأته ويسلمون على الداخل ويتلقونه ثم يكون الداخل على حسب ارادته ولا يلزمه الوداع عند الرواح ويرى الانسان آلافا من المدعوين بالفخر لباسهم وذوي النياشين متقلدين بها ورئيس الجمهورية يؤانس البعض ونساؤهم يتهن بدلالهن ولباسهن وحليهن فان منهن من تلبس الشفوف المطرز باللؤلؤ النفيس من صدرها الى ذيلها عدا حليها المكللة بالياقوت الملون ولا يكلم بعضهم بعضا في هاته المواكب الا من كان له معرفة بالآخر أو عرفه معرف نعم انهم يتهيئون الى أدنى مناسبة للتعرف بالغريب يؤانسونه وربما اضطرت المرأة زوجها أو قريبها الى عمل مناسبة للتعرف بالغريب سيما اذا كان لباسه على خلاف معتادهم وقد عينت الدولة لمصاريف تلك المواكب عدة ملايين فضلا عن مصاريف الليلة الحافلة التي أعدوها تذكارا للجمهورية فقد روي أن مصروف الاهالي والمجلس البلدي في التنوير والتحسين والالعاب النارية تجاوز ستة عشر مليونا فرنكا وان ثمن الرايات التي نشرت على طيقان الديار والطرقات تجاوز الاربعة ملايين وكان مركز العاب تلك الليلة هو بركة ابوادي بولونيا وقد اكترى بعضهم طاقة في الطبقة التي فوق من الدار التي نسكنها للفرجة تلك الليلة بسبعمائة فرنك حيث كانت على النهج الكبير الموصل الى محل الالعاب وكان المهندسون والعملة متهيئين لها منذ نصف شهر وعلقت الثريات والفوانيس على الطرقات قائمة على عيدان ومشبكة بالاشجار وما قرب غروب تلك الليلة الا وانتشرت العساكر والخيالة في جميع المراكز حفظا للراحة وخشية من

الاحزاب المضادين للجمهورية وماغربت الشمس الاوناب عنها نور المصابيح ومنعت العجلات من السير فى الطرق مطلقا ومابدت النجوم الا وتصاعدت لها شماريخ البارود ترمى لها بانواع أزهار ألوانها المختلفة الاشكال وترا كم ازدحام خلق الله بما يذكر يوم الحشر الاكبر ودام الحال على ذلك وأصوات الموسيقى والبارود تتهادى من كل طرف الى نحو الساعة الثالثة من بعد نصف الليل فرجعت العساكر الواقفون على البركة بخيلهم ورجالهم وبايديهم فوانيس على ميدان والموسيقات تصدح بلحن المرسيليز وهى قصيدة فى اثارة الحمية لاهل الوطن كانوا أعلنوا بها فى الثورة الكبرى سنة ١٨٣٠ لطلب الحرية وقدكان ترجم هاته القصيدة العلامة رفاعة باشا رحمه الله ونظمها ودونكها بنصها

فهيا يابنى الاوطان هيا * فوقت فخاركم لكم تهيا
أقيموا الراية العظمى سويا * وشنوا غارة الهيجا مليا

عليكم بالسلاح أبا أهالى * ونظم صفوفكم مثل اللآلى
وخوضوا فى دماء أولى الوبال * فهم أعداؤكم فى كل حال
وجورهم غدا فيكم جليا * بنا خوضوا دماء أولى الوبال

أما تصغون أصوات العساكر * كوحش قاطع البيداء كاسر
وخبث طوية الفرق الفواجر * ذبيح بنيكم بظبى البواتر
ولا يبقون فيكم قط حيا

﴿عليكم الى آخر الابيات الثلاث﴾

فماذا تبتغى منا الجنود * وهم همج واخلاط عبيد
كذا أهل الخيانة والوعود * كذاك ملوك بغى ان يسودوا
تعصبهم لنا لم يجد شيا

﴿عليكم الى آخره﴾

لمن جعلوا السلاسل والقيودا * وأغلالا وأطوقا حديدا
لاهل فرانسا البروا عبيدا * وليس مرامهم هذا جديدا
أما هذا عجيب يا أخيا

﴿عليكم الى آخره﴾

وكيف

وكيف يسوغ ان نرضى رعاعا * من الإعراب يبغون ارتفاعا
ويجرى شرعهم فينا شراعا * واذ الا لديهم لا تراعى
رعايا بل تكب على المحيا

﴿عليكم الى آخره﴾

فلم يا سلام من المذلة * فما نرضى بان نبقى أذلة
ويأسرنا وفتيتنا أجله * فريق بالدراهم قد تولّه
فكيف وقدرنا أضحى عليا

﴿عليكم الى آخره﴾

الهى كيف يقهرنا ملوك * بسبل العدل ليس لهم سلوك
وأنذال للاستعباد حيكوا * ومافى الفخر شركنا شريك
ولا أحد به أبدا حريا

﴿عليكم الى آخره﴾

فقل لهم أيا أهل المظالم * وأرباب الجرائم والمآثم
اما تخشون من تلك المحارم * كذا أهل الخيانة للمكارم
وظلمهم لقد بلغ الثريا

﴿عليكم الى آخره﴾

أحلوا الخوف نحوكم أماما * وخلوا العدل عندكم اماما
ونقضكم لموطنكم ذماما * به تجزون ذلا وانتقاما
وتكتسبون عند القوم خزيا

﴿عليكم الى آخره﴾

فها كم قد تعسكرت الاهالى * وسارت كلها نحو القتال
لتقتحم المهالك لا تبالى * اذا ما مات ليث فى النزال
تولد أرضنا شبلا صبيا

﴿عليكم الى آخره﴾

صغير القوم منا والكبير * يحب قتالكم فرحا يطير
نحاربكم وليس لكم نصير * وليس لحربنا أصلا نظير
وحاشا خولنا يلقون عيا

﴿عليكم الى آخره﴾

لنا وطن به همنا غراما * به تقوى عزائمنا دواما
نمانعه ونخشى أن يضاما * ونأخذ ثاره ممن تعامى
وجار وإن يكن ملكا عتيا

﴿عليكم الى آخره﴾

لنا حرية فى الكون تسمو * تزيد اذا الحروب بدت وتنمو
تمانع من بغى سامانهم * بها ثمرات نصرتهم تتم
على نغم المثانى والحميا

﴿عليكم الى آخره﴾

تموت عداتنا موتا شنيعا * اذا ما أبصروا عزاما منيعا
بحوزتها تجد دارفيعا * فويل للذى يبغى الرجوعا
لرق يكتسى خطأ وغيا

﴿عليكم الى آخره﴾

سندخل سلك أرباب الجهاد * كأسلاف لهم طول الايادى
ونقفو نحوهم فى كل ناد * ونقفو فضلهم فى كل واد
ونبلغ فى العلى شأوا قصيا

﴿عليكم الى آخره﴾

نؤمل أن نكون لهم فداء * وكل فتى بفخر النصر باه
وان لا بعدهم نبقى مساء * اذا لم ننتقم لهم العداه
ويأخذ ثارهم من كان حيا

﴿عليكم الى آخره﴾

وهذه القصيدة جعلوا الها لحنا خاصا وكانوا يترغون بها فى ليلة تذكار الجمهورية ولم ينتظم فى تلك الليلة عنزان مع أن بعض اضدادا لجمهورية لم يفتح طاقة تلك الليلة ولم ينور فانوسا وبعضهم رحل عن البلاد بالمرة تلك الليلة ومن الاحتفالات الواقعة لضيوف المعرض الاحتفال الذى صنع بعرض الجيش حول ابوادى بولونيا كما مرذكره محله فبعد احتباك الموكب بالمتفرجين الذين يجاوزون النصف مليون ومنهم شاه ايران والعبا كرتى من بعد حول تلك التلال والهضاب واذا بالمارشال مكماهون رئيس الجمهورية

الجمهورية اذذاك قادما راكبا على حصان أشهب عربي يقدمه ثمانية فرسان من العرب سكان الجزائر بلباس العرب وبرانيسهم حمر وسمر وجهم عربية ووراءه وزير الحرب ثم نحو عشرين فارسا من ضباط العساكر والمعينين وكلهم بالملابس الرسمية فلما دخل الميدان وسامت وسط الموكب أومأ بالسلام لجهة المتفرجين الجلوس في الايوان الوسط ثم ركض حصانه وصار يطوف على كراديس العساكر ومهما وصل الى راية الاوكشف رأسه مومئا بالسلام الى ان طاف على الجميع ثم رجع الى أمام الايوان الوسط واستقبله ووقف وكان أمير الجيش كله المكلف بذلك الموكب هو أمير جيش باريس فجاء راكضا وسلم على رئيس الجمهورية ثم انحاز الى جهة الاواوين وأصدر أوامر الحركات العسكرية فاذا بالجيوش من كل حدب ينسلون وجاء الآلاي الاول وموسيقته تعزف أمامه فلما حاذت رئيس الجيش وقفت ومر الآلاي ماشيا من الجنوب الى الشمال بجميع لوازمه وسلاحه الى أن انقضى فجاء غيره ووقفت موسيقته وهكذا الى ان مرت خمسة وأربعون الفا من العساكر المشاة ثم أقبلت الخيالة المدرعون سربا سربا عشون خببا وكل سرب متقارب لون الخيل الى أن مرت خمسة آلاف خيالة ثم أقبلت الطبجية أي عساكر المدافع بمدافعهم تجرها الخيول ذاهبين خببا الى ان مرت مائة مدفع وثمانية مدافع وكل فرقة من الجيش يقدمها رئيسها راكبا ويقف بين يدي الرئيس الى أن تمر فرقته فيتبعها ومهما مرت راية كبيرة أومأت بالسلام للرئيس وكشف هو لها رأسه ومنذ سلم هو عند دخوله الموكب الى ان انفض الموكب كانت المدافع تطلق من الحصون وعندما مرت العساكر الاهلية أبناء باريس ضج الموكب بالتصفيق والتحيات استحسانا لسمتهم ونشاطهم حتى صارت كأصوات الرعد ووقع لغيرهم قليل من ذلك النوع وكان اليوم حارا والرئيس مستقبل الشمس بلا مظلة وقد سقط عسكري من حر الشمس ففي الحال حمل في نعش مصابي العساكر وعالجه الطبيب وأرسل اليه الرئيس مرارا متفقدا وعند خروج الناس للرجوع احتبكت الطرق واشتبهت الكراريس على أصحابها وكان يوما مشهودا واشتباه الكراريس انما كان مستغربا لانه من عاداتهم في هاته المواكب اذا حضرت كروسة يتلقاها أحد صغار المكلفين ولما ينزل الراكب يعطيه بطاقة بها عدد خاص ومثلها السائق الكروسة ويوقف كروسته في مكان رحيب على ترتيب الاسبق فالاسبق فاذا خرج الراكب أعلم أحد أولئك المكلفين بنمرته فيرفع صوته بها فتأتي العجلة بمجرد سماع

سائقوا بعد تجربته من غير أدنى اختلاط ولا تعب لكن فى ذلك اليوم حيث خرجت الناس دفعة مع كثرتهم ومع ازدحام الناس خارجا وقع الاختلاط وعدم التمييز لكبر الموكب ومثل ذلك احتفال يوم السباق فانه لما انتظم الموكب على نحو السابق تهيأت خيل السباق وكان الجعل من الدولة للمجلى مائة ألف فرنك وللمصلى عشرة آلاف ثم ألفان ثم علق فى عمود أسماء الخيول المندفعة أولا وكانت ستة عشر فرسا من عتاق الخيل الجياد العربية وكل منها مسرج بسرج صغير جدا وركابها متساوون فى الوزن حتى اذا كان أحدهم أخف حمل شيأ يستوى به مع أصحابه وكل منهم لابس لباسا لاصقا بالبدن وعليه نحو جبة قصيرة ضيقة من الحرير بأحد الالوان لكل لون خاص وكل منها يمسكه رجل ثم يتصافون سواء من مبدأ الميدان فيضرب جرس اذنا بالركض فاندفعوا راكضين وكان الميدان على هيئة دائرة واسعة تتصل بأخرى أوسع منها ثم أخرى أوسع ولكل فرقة من الخيل حد فأعلاها ما يقطع الدوائر الثلاث ومجموع طولها نحو تسعة أميال وأدناها ما يقطع الاولى فقط فالسرب الاول كان من المتوسط وحاز القصبة حصان أحمر وعلق اسمه واسم صاحبه ثم فرقة أخرى وهكذا ولما خرجت الفرقة العليا تهيأت الناس وكثر اللغط فى المخاطرة كل يدعى ان الفرس الفلانى يغلب وكثيرا ما تربح عشرات الملايين فى مثل ذلك السباق بالمخاطرة بين المتفرجين ثم انصبت الخيل راكضة وكانت ستة فقط وكانوا أولا يحتالون على أيهم يحوز الخط الداخلى من الدائرة ولا يطلقون عنان الخيل وعندما توسطوا الدائرة النهائية أرسلوا الخيل على غايتها فتخلف من تخلف ولم يبق الا ثلاث وعندما بقى الربع من الدائرة تخلف الثالث وتجارى اثنان فكان كل منهما تارة يكون مصليا وتارة مجليا لكن لما قربت قصبة السبق فاز الاجر الكميت وصار ينطنط المساراه من شدة نشاط راكبه وكنت تخيلت سبقه من أول الامر لما تفرست فيه من حدة نفسه وتقارب وسرعة حركاته مع ان الكل مستوون فى صفات الجودة غير ان هذا أحد وأخف وقد أعطى صاحبه للراكب عشرة آلاف فرنك من الجائزة لان عادتهم ان يكون لمضمار السباق فرسان خاصون أو ساس الفرس أما صاحبها فلا يسابق بنفسه الا ماندر مع أمثاله وليس ذلك لزهدهم فى الفروسية بل أنفة لانهم كثير والركوب للخيل نساء ورجالا ويصرفون على تربيتها وتوليدها أموالا جسيمة حتى يباع الفرس الواحد بأربعين ألفا وأزيد ويكتبون أنسابها مسلسلة وأصلها من العراب وذكر لى ان جد أقدم نسل من خيل انكلاتيره هو حصان تونسى

اشترى

اشترى من جمال ثم اعلم ان المعرض الذى نحن بصدد ذكره موقعه فى الجهة الغربية الشمالية من باريس يقسمه نهر السين الى شطرين فما كان من يمين انحدار السين يسمى التروكادرو وبنى به قصر على شكل بديع وبناء متقن ليبقى هنالك مستمرا وهو المشار اليه أولا وأمامه رواق وقدامه بركة ماء واسعة جدا على جهاتها صورة أسد وثور وفرس وخنزير كل صورة ضخمة جدا كلها مذهبة والماء متدفق بهيئة عجيبة ويحيط بالجميع حديقة أنيقة وحول هذا المكان بناآت اصورة بناآت الممالك التى أجابت الدعوة فمنها دار أرسلها سلطان المغرب كلها من خشب على هيئة ديار فاس وبها النقش ✻ حديدة وغيرها مما هو عادتهم وكذلك فرشها ومنها قصر ظريف لشاه ايران على نحو قصره ببلاده ومن عجيب ما به سقف بيت كله من البلور المضلع على هيئة عناقيد وهكذا كل مملكة أجابت الدعوى تبنى مكانا على هيئة ابنيتها فى بلادها وحول تلك الابنية مخادع ومقاعد وحوانيت وقنية فى تلك الحدائق والشطر الثانى من المعرض يسمى ✻ شان دى مارس وفيه حدائق أيضا وقهاوى ومطاعم وفيه المحل المهم المقصود من المعرض وهو بناء عظيم واسع طوله نحو ميلين فى ذلك العرض كله بناء من قضبان حديد ومقسم على أقسام على حسب الممالك كل مملكة تأتى بأنموذج ما عندها من الجمادات والنباتات والحيوانات والمصنوعات قل أوجل حقر أوعظم فكان ذلك المحل حاويا بالجميع أنواع ما يعلم فى الدنيا لانه أجابت دعوة فرانسا الى ذلك جميع الممالك ذات الشان الا الدولة العلية لاشتغالها بحرب الروسيا اذذاك فالمعرض حينئذ لما فيه عبث اذ يعجز عنه الواصف وانما اذكر أفرادا من المستغربات التى لم تزل عالقة بذهنى فمنها ساعة ذات أربعة أوجه مرفوعة على نحو أسطوانة ارتفاعها أزيد من ستة أذرع ورقاصها صورة كورة أرضية معلقة فى القبة التى فوق الساعة ويحيط بالكورة صورة الشمس والقمر وبقية الكواكب السيارة والغرابة من جهة كون الساعة ليس لها آلة تحركها سوى تلك الكورة وذلك بان اعتبر ثقلها وبعدها عن مركز تعليقها ومنعت من الاستقرار بمركزها باعتراض قائم فى رأس الساعة متصل بآلاتها سهل الدوران فكانت الكورة تطلب المركز وتدفع العارض بثقلها وهو يدور وهى تدور معه وهكذا وهى من مصنوعات الفرانسيس وقيل ان ثمنها ستون ألف فرنك ومنها مقعد من البلور الرفيع ذو ثلاث درج واثنى عشر ضلعا مرفوعة قبته على أسطوانات من البلور يجلس به اثنا عشر انسانا كله قطعة واحدة من البلور المضلع وهو من صناعة النمسا ومنها مطبعة تطبع بلونين فى آلة

واحدة وتخرج عددا وافرا فى كل دقيقة ومنها ارسال الرسائل المكتوبة فى قنوات من حديد مفرغة من الهواء فتصل بسرعة كالسلك الكهربائى وقد صار الآن فى عدة جهات من باريس ارسال الرسائل بتلك الصورة ومنها الجوهرات والتحف الغريبة التى اهداها ملوك الهند الى ولى عهد انكلاتيرة وهى كثيرة عجيبة جدا ومن أغربها معولان من العاج فى طول الذراع ورأساهما على صورة رأس أسد وعيناه ياقوتتان حمراوان لم أر اجل وأضوأ وأخلص منهما الى غير ذلك مما يقصر عنه وصف الواصف من بدائع الصنائع والمخلوقات وأما بقية اماكن وبناءات باريس الشهيرة فهى كثيرة جدا ومن أهمها

لزان فاليد وهو محل العاجزين من العساكر وبه آثار الاسلحة القديمة منذ عرف السلاح فى الدنيا الى الآن وبه قبر نابليون الاول والرايات التى غنمها وعلى قبره هيكل وتابوت فوقه نيشانه وسيفه ادخلوفى اليه وارونى جميع جزئيات غرائبه تكرمة منهم وحوله قشلة كبيرة للعاجزين من العساكر بالسن أو الحروب الذين يريدون الاقامة هناك زيادة على القيام بجميع ضروريا تهم لهم خدمة وكل من لا يقدر على المشى تجعل له عجلة صغيرة يحركها بنفسه ان قدر والا جرها خادم للتروح فى المنزه الذى حول ذلك المكان والمدير لهذا المحل رجل من رتبته أميرآلاى ذو اخلاق حسنة ومعارف جيدة أما ملاهى باريس فهى كثيرة ومختلفة المقاصد اذ لا يقصدون بالملاهى مجرد التلهى بل ظاهرها التلهى وباطنها فائدة من الفوائد كالاعلام بتاريخ غريب لتجتنى محاسنه وتجتنب قبائحه لان الرائى يشاهد النتايج عيانا فتكون أوقع فى النفس وكالافادة بفائدة

علميه مثلا تحصل فى أحد الملاهى من ذكر كورية الارض وان من يقطعها ذاهبا الى جهة الغرب فى نيف وثمانين يوما فاذا وصل الى المكان الذى خرج منه يجد انه نقص له يوم من أيام الاسبوع مثلا يرى انه وصل فى يوم الاحد والحال ان اليوم عند أهالى ذلك المكان هو يوم الاثنين وبعكس ذلك من يقطعها ذاهبا الى الشرق فانه يزداد عنده يوم فيرى انه وصل يوم الثلاثا والحال ان اليوم عند الاهالى هو يوم الاثنين وذلك لان السائر الى جهة الغرب يكون ذاهبا مع الشمس فاليوم بليلته عنده أزيد من أربع وعشرين ساعة فيجتمع فى تلك الايام يوم كامل يضيع على المسافر ويزيد عند مقابله مثله لان اليوم بليلته عنده أقل من اربع وعشرين ساعة لذهابه ضد سير الشمس وقد نص القرافى على هاته المسئلة وما هو الحكم الشرعى فيها اما اذا صادف اليوم المختلف فيه يوم الجمعة فان المقيم يعده يوم الجمعة والمسافر الى الغرب يعده الخميس والمسافر الى الشرق يعده السبت

السبت وغير ذلك من احكام العبادات والمعاملات الموقتة وان الحكم هو الاعتبار بما عند أهل المكان فأولئك اللاعبون يصورون هاته المسئلة العلمية بتشخيصها وصورة السفر برا او بحرا ومايعترض من العوائق وثمرة الحال للتوصل به الى الاغراض الى غير ذلك وهنالك ملاهى لافادة البراعة والبلاغة فى الكلام وأخر لافادة علم الموسيقى الى غير ذلك من الفوائد ولو السياسية فقد كانوا مدة رياسة المار يشال مكماهون على الجمهورية ❁ طلب مجلس الامة ان تعزل ولاة البلدان ورؤساء العساكر الذين هم من حزب الملكية فامتنعت الوزراء من قبول ذلك وحل الرئيس المجلس واذن بانتخاب اعضاء آخرين ولما انتظم المجلس الجديد أصر على مطلب سلفه فاراد الرئيس حله أيضا فامتنعوا من ذلك اذلا حق له الا فى حله مرة واحدة فى نازلة متحدة وحصل نزاع كاد يفضى الى شغب فكان أحد الملاهى لاعبا واذا باحد اللاعبين يقول ماترجمته نظما

المار يشال مكمهون يخضع * وان أبى من الخضوع يخلع
كذا الولاة من صياصى تدفع * لان ذاك للبلاد أنجع

فدخل الحرس وفتشوا على القائل فلم يقرلهم أحد ولا وجدوا الكلام فى كتاب الحكاية وآل أمر النزاع الى استعفاء المار يشال واعلم ان تلك الملاهى يوجد منها ماهو مضيعة ❁ ومشغلة لكنه قليل والحاصل ان ملاهيهم لاتخلو عن فائدة معتبرة ومع ذلك فهم غافلون عما فيها من مفسدة مهمة وهى تعليم الشبان والشابات أوجه العشق ومبانيه ووسائله اذ قل ان يخلو تشخيص عن مثله ويعتذرون عن ذلك بانه يعلم أيضا شناعة ثمرات العشق وشناعة الفضيحة وايثار الموت على حفظ العرض مما يكون خاتمة تلك التشخيصات وكان ذلك لايفيد اذ البواعث النفسانية غالبة على عقول الكثير من الناس فتأخذ مايلائمها وتغفل عما سواه ويؤيد هذا ان الكثير ممن يحضر تلك الملاهى انما يجعلها وسيلة لتمكن من امعان بصره فى اللاعبات والمتفرجات التائهات بدلالهن وجمالهن ولباسهن وترى كلا من الحاضرين بيده مرآة مقربة وهو لاشغل له الا الاشخاص من واحدة الى أخرى ثم يلتمسون الوسائل الى المخالطة بمن يعلقون بها بل وكذلك تفعل الابكار والشابات مع الرجال الا العفيفات وأعظم هاته الملاهى هو كران لوبره الذى تقدم ❁ ذكره وكان دخله من اكتوبر سنة ١٨٧٩ الى نهاية ينايرسنة ١٨٨١ الذى هو عام وأربعة أشهر ٤ر٧١٥ر٠٠٠ فرنك ومصروفه فى تلك المدة ٤ر٧٤٩ر٥٠٠ فكانت الخسارة أربعة وثلاثين ألفا وخمسمائة فرنك زيادة على ماتعطيه الدولة

اعانة له لانها تعين من دخلها في كل سنة اعانة للملاهي مبالغ وافرة فيكان معين للملاهي
المذكور وملاهي أوبيره كوميك وملاهي تياتر فرانسيز وملاهي لوديون في سنة ١٨٨١
٠٠٠ر٣٢٤ر١ فرنك عدا بقية الملاهي للفوائد التي مرذكرها وكراء البيت الواحد
في هذا الملاهي سنة ١٢٩٥ مائة وعشرون فرنكا في الليلة الواحدة وبه بيت لرئيس
الدولة يحتوي على مرافق وقد أذن لي بالدخول اليه تكرمة من رئيس الجمهورية
اذذاك المارشال مكماهون ومن أهم الملاهي البدروم الذي يلعب فيه بالخيول العابا
عجيبة وكذلك ملاهي السيرك فترى الخيل تدرك مثل الانسان الحاذق وكذلك غيرها
من الحيوانات ولو السبعية فان الاسود والفيلة وغيرها لها ملاهي خاصة وتطيع آمرها
كالآدمي حتى رأيت الشاة تسطو على الاسد وتركب على ظهره وتدخل رأسها كله في
فمه وهو منقاد خاضع وحوله في الحجرة التي هو بها أربعة اسود أخر وأربعة نمورة ومثلها
ضباع ثم ذئاب ثم أربعة من الدب كلها وقوف حول حيطان الحجرة كأصحاب موكب
محيطين وذلك الاسد الكبير في وسط الحجرة والنعجة تلاعبه وتركب عليه وصاحبها واقف
معها لكي لا يسطو واحد على آخر وتلك النعجة لا تخشى بأس جميع تلك السباع بل كأنهم
هم الخائفون منها فيراني شاهدت هاته السباع في تلك الحالة والضبع واقف يرتعد من
الاسود وبوله جار على رجليه ومع ذلك لا يخل بامر صاحبه ومثله الدب فان صاحبه اذا أمره
بالقرب من الاسد الكبير تراه يرتعد ويصيح ولكنه يفعل ما أمر به وكذلك الاسد
يكفهر ويكره قرب الدب منه ولكنه لا يضره بشيء فالنفرة بين النوعين شديدة بخلاف
الاسد مع النمر فالتآلف بينهما قريب ومن غريب ما شاهدته هناك ثعبان في غلظ شبرين
وطوله نحو خمسة عشر ميترو يحمله عدة رجال ويمسه كل أحد ولا يضر شيأ وهو من النوع
الذي ذكرناه بجبال الودارنة بقطر تونس وقلنا انه بين الاهالي مثل القط الاهلي كما لهم ملاهي
للشعوذة يعملون بها اعمالا غريبة وأما معامل باريس للصنائع فهي كثيرة جدا ومما اختصت
به عن غيرها معمل كبلان الذي ينسج به المنسوجات الثخينة كالزرابي التي يضرب بها المثل
وكذلك معمل السيفر الذي يصنع به الاواني الخزف التي يفضلونها على الخزف الصيني
وقد رأيت به مائدة على ساق واحدة أرفع ما رأيته من ذلك الشكل بالوان وصفاء بديع
ذكروا ان قيمتها ستون ألف فرنك وكذلك معمل التمويه بالفضة والذهب بالجاذب
الكهربائي فترى القناطير المقنطرة من النحاس مصنوعة ساعات وشوكات وملاعق
وغيرها يدخلونها في برك من مياه الفضة والذهب فتخرج كانها من ذلك المعدن وأما
منازل المسافرين فتكاد ان لا تحصى وأهمها المنزل الاكبر في بلفار الطليان فانه من
عجائب المباني والتنظيم وترى فيه ايوان الاكل العام متساعدا بقبة واحدة يحيط بها

رواشن

رواشن و يوقد به نحو سبعمائة مصباح وقبته وحيطانه كلها مموهة بالذهب على اشكال جميلة و به سبع موائد كل مائدة يجلس عليها خمسون نفسا فترى ثلاثمائة وخمسين نفسا في بيت واحد يأكلون جميعا على غاية الراحة والنزهة والابهة ولا تسمع فيها الاغيبة والكل يأكلون سواء والفطور له خمسة الوان والعشاء له سبعة الوان عدا الحلويات والفواكه وزينة المائدة البديعة وثمن الاكل فيها للواحد ستة فرنك عشاء واربعة فطورا و يحتوي المنزل على ستمائة حجرة للسكنى وستين بيتا متسعة للجلوس و يصعد الى طبقاته العليا بالجلوس على كراسي تصعدها آلة بخارية وأما حماماتها فهي على نحو ما سيأتي في الصفات العامة غير انها اختصت بحمام مريحي قرب البلغار وهو في نهاية التأنيق والتزويق والزخرفة شبيه بالحمامات العربية في كونه له بيت كبير حار للاغتسال والعرق و بيت كبير لنزع الثياب والراحة للمغتسل مستلقي بعد الاغتسال و بين البيتين حوض كبير مملوء بالماء البارد ينزل اليه كثير من المغتسلين بعد الغسل ليخرج منه الى بيت الارتياح وعند وصوله الى الحائط الفاصل بين البيتين يضطر الى ادخال رأسه أيضا في الماء لان الماء واصل الى اسفل الحائط وفي الحمام خدمة يكبسون المغتسل و ينظفونه على النحو المعتاد في البلاد العربية و بعضهم من الجزائر و بعضهم من السودان أما احوال المعارف وترقي العلوم فالباب فيها واسع جدا ونقول اختصارا ان في باريس مكاتب للعلوم العالية واولها مجمع كبار العلماء ثم مكتب فرانساوهو لنهاية المعلمين ومكتب اركان الحرب ومكتب المعلمين ومكتب الصيدلانيين ومكتب اتقان علوم الطرق والجسور ومكتب علوم المعادن ومكتب تعلم التجارة ومكتب الصنائع الظريفة ومكتب علم الموسيقى وعلوم تشغيل الملاهي وانشائها ومكتب اللغات الشرقية والآثار القديمة ومكتب الصنائع وخمسة مكاتب ابتدائية للدولة وأما الابتدائية للاهالي فغير محصورة وهي كثيرة جدا ومكتب للقسيسين عال ومكتب لهم دونه ومكتب للعمي وآخر للصم البكم يعلمونهم باللمس والاحرف المجسدة والخوارط المجسدة فيصلون الى سائر المدركات كما ان في باريس ثمانية خزائن كتب عظيمة للعامة تحوي من المجلدات نحو ثلاثة ملايين مجلدا واكبرها خزنة الكتب العمومية التي فيها أول ما عرف من آلة طبع الكتب وفيها بعض تحف عتيقة مثل قطع من الشطرنج الذي كان اهداه هارون الرشيد الى شارلمان وجملة ما فيها من الكتب أزيد من مليون مجلد منها أزيد من ثمانين ألف مجلد بخط اليد ومن تلك الكتب الكتب التي أخذها نابليون الاول من مصر ثم الكتب المأخوذة من الجزائر

وقد رأيت فيها كتبا نفيسة عربية ومصاحف كريمة أنيقة ذات أسفار بقطع من الذهب وخطوط جيلة وكان فيها من المطالعين والناسخين نحو خمسمائة نفس نساء ورجالا لكن الرجال أكثر على غاية من الادب والصمت وهاته الخزنة مثل قصر عظيم ذى طبقات ومحل المطالعة واحد ايوان واسع ثم وراءه تيك المكاتب والكتب واعتناء الدولة بواعث أخر للاجتهاد والتقدم فى العلوم وذلك بانعقاد جمعيات للتحريض والاعانة بالمال وسائر الوسائل للوصول الى المقصود فى خصوص باريس فمنها جمعية اللغة الفرانساوية وجمعية سائر العلوم وجمعية علوم الادب وجمعية المعارف الظريفة وجمعية العلوم العقلية وجمعية علوم الطب وجمعية التحريض على الاختراعات وجمعية علم النباتات وجمعية علم طبقات الارض وجمعية معارف آسيا وجمعية الاحصاآت الدنيوية وجمعية الجغرافيا وجمعية علم التاريخ وجمعية المرحمة الانسانية وجمعية الصيدلة وجمعية الفلاحة وجمعية مقدمات الفلاحة وجمعية تربية النبات والحيوان وجمعية الصنائع الفرانساوية وجمعية لتنمية سائر العلوم ومما يلحق بهذا الباب كثرة المطابع فمن أعظمها مطبعة الدولة ورأيت فيها من أنواع أحرف اللغات التى يطبع بها سبعة أنواع منها الاحرف العربية وعدد المستخدمين بها يقرب من ألف نسمة وفيها كتب عتيقة وحديثة فى كثير من اللغات ومنها كتب غريبة عتيقة بالخط الكوفى وغيره ومن المطابع المهمة المطبعة المختصة بطرق الحديد لطبع اعلاناتها ودفاترها وجميع ما تحتاج اليه فيها من المستخدمين أزيد من سبعمائة نسمة وتطبع بالحروف وعلى الحجر بخط اليد وهناك مطابع أخر كثيرة للصحف وغيرها فان الصحف لها تأثير كبير فى المعارف حتى انه يوجد ثلاثمائة صحيفة بين يومية وشهرية وأسبوعية فى السياسة أو التجارة أو العلوم ومنها ما يطبع منه يوميا أزيد من خمسمائة ألف نسخة وفى بعض الاحيان لا تجد منه نسخة للبيع اذ قل ان تجد سائق الكروسة ليس له صحيفة يطالعها فضلا عن غيره وأما أماكن المرحمة كالمستشفيات وديار اللقيطين فهى كثيرة ويكفى لعظمتها ما ذكرناه فى المستشفى الذى نظارته الى الحكيم شاركو واللقيط ينفق على تربيته وتعليمه مجانا الى ان يبلغ أشده وهم كثيرون بسبب كثرة الزنى والزانيات المتجاوز عددهم عشرات الآلاف منهن من هن فى ديار مخصوصة لذلك جهرة ولهن أطباء من قبل الحكومة لكى يمنعون المريضة بالامراض المعدية ويدخلونها المستشفى ومنهن من هن فى ديارهن أو فى الملاهى أو خادمات الى غير ذلك ومن أماكن المرحمة الدار الرحيبة المتخذة للفقراء الذين لا يجدون ماوى وهم قادرون على

التكسب

التكسب فان هاته الدار تأويهم ليلا وتطعمهم ما يسد الرمق وتعطيهم فراشا بشرط ان يغسلوا ارجلهم قبل دخوله ولا تقبلهم الا في الساعة الثامنة بعد الظهر وفي السهر يسرد عليهم قارئ كتابا في تهذيب الاخلاق والحث على العمل ولا يقبل الواحد أزيد من ثلاثة أيام ومع كثرة المراحم فكثيرا ما يموت الناس في الطرق جوعا أو بردا سيما في سوق الخضر لان من لا يجد مأوى يتقى به من الزمهرير فيجمد بردا (وأما طرق المواصلة) والانتقال من محل الى آخر في وسط البلد فلهم وسائل كثيرة كالبواخر في نهر السين تقف على الشطوط يمينا وشمالا من طرف البلد الى طرفها الآخر والركوب في هاته البواخر اذا لم تكن مزدحمة بالخلائق فيه نزهة جميلة سيما خارج البلد أيام الربيع والصيف ومنها ما يمر على القرى المجاورة للبلد ومن الوسائل الترامواي وتجره الخيل في أغلب الاماكن وفي الطرق القليلة المرور تجره مزجية بالبخار ومنها الاومنيبوس وهو مثل سابقه غير ان طريقه ليس حديديا ومنها الرتل يحيط بالبلد مارا حذو السور لكنه تارة يجري في نفق تحت البلد ومنها الكراريس ولها ترتيب منضبط في باريس أزيد عن غيرها لان التسعير المرسوم لا يزاد عليه ولا ينقص بخلاف غيرها من البلدان ومع ذلك فان سائقي العجلات أظن انهم في كل بلدهم أسوء أهلها أخلاقا الا ماندر وفي عام المعرض أكدت عليهم الحكومة التأكيد الزائد وشددت في الحكم على من يتعدى منهم الحدود ومع ذلك كانوا كثيرا ما يسيئون السيرة ومن الوسائل أيضا الركوب على الخيل لكنه خاص بأصحابها وأما المكثرون فهم أقل استعمالا لها من الكراريس وسائر العجلات وبالجملة فان في باريس مائة ألف عجلة ومائة وثمانين ألفا من الخيل وهذا كاف في بيان مقدار الحركة وأما رواج التجارة والسلع فلنكتف بذكر شيء منها وهو قصر البورص الذي تروج فيه كل يوم تجارة تجاوز آلاف ملايين وفي أحوال السلع نقتصر على ذكر مخزن اللوفر الذي هو قصر قدرحارة كبيرة ذو أربع طبقات فيه ستمائة مستخدم وفيه من السلع كل ما يحتاجه الانسان من الملبوس وأثاث المنزل والفرش بل وحتى الكراريس والخيل التي تجرها واذا دخل اليه المشتري تتلقفه الخدمة بالبشاشة واللين ويطلعونه على كل ما يريد فيختار ما شاء ويذكر لهم اسم محله ويذهب وهم يأتون بما اختاره مع صحيفة مبين بها الاثمان ممضاة بالخلاص فاذا وجد شيأ غير الذي اختاره أو سعرا غير الذي سمع به رد ما لا يعجبه وأخذ الباقي وأخذ صك الخلاص بعد دفع الثمن من غير مماكسة في السعر ولا يخشى المشتري من الغرر لان السلع هنالك أرخص ما يمكن ان توجد لان صاحب

المخزن يأخذها من العامل ويزيد على ثمنها نصفا في العشرة ربحا وكل من دخل المخزن الذى هو حقيق باسم قصر فله أن يدخل الى ايوان الجلوس ويقرأ فيه ما يشاء من الصحف ويكتب ما يريد ويشرب شيأ من المشروبات كل هذا مجانا ولصاحب المخزن دفاتر عديدة مقيد بها أسماء السلع باعدادها مع أسعارها يعطيها لكل من أراد ومن يريد بعد ذلك شيأ من السلع ولو من الاقطار البعيدة فليس عليه الا أن يكتب للادارة جريدة بها أسماء ما يريد باعداده فيأتيه مطلوبه مع البريد ويدفع اذذاك الثمن ويأخذ المطلوب أما اذا تعرف بتجار وجعل معهم حسابا متصلا فان دفع الثمن يكون حسب الاتفاق ومثل هذا المخزن مخزن بومرشى وهناك مخازن أخر عديدة ولكنها دون هذين ومن غرائب ما رأيته ببباريس القبة الهوائية الكبرى التى تسمى بالبالون وقد سماها علامة اللغة أحمد فارس بالمنطاد فقد صنعوا واحدة كبيرة جدا ونصبوها فى بطحاء التولرى وربطوها بحبل من النل تجذبه آلة بخارية وعلقوا بها مركبة تسع أربعة وعشرين نسمة وكل من ركب يدفع أجرة الركوب عشرين فرنكا ثم يطلقونها تصعد الى ارتفاع ثلاثمائة ميترو فيرى الصاعد جميع باريس وما حولها كله تحته وكان أول اختراع هاته القبة سنة ١٧٨٣ فى فرانسا وهى قبة متخذة من منسوج الحرير مدهون بنوع صمغى كالمسمى بالفرنيز تملأ بالبخار الغازى الذى هو أخف من الهواء العادى بأربعة وعشرين ضعفا فتصعد ضرورة فوق الهواء لانها أخف منه وتحمل ما يتصل بها مما لا يعادل ثقله خفة هوائها ومن محاسن باريس الماء المجلوب اليها من عيون غزيرة وجعلت له خزنة هائلة تقصد للتفرج عليها زيادة على الماء الذى يرفع من النهر بآلات بخارية فالاول للشرب والثانى للاستعمال ومن أماكن التفرج الدهاليز الكبيرة التى تحت الارض ويقال انها كانت لقطع الحجارة ثم جعلت مقبرة لعظام الموتى مرصفة مرتبة وكذلك الخناديق الوسيعة التى تجرى فيها الفضلات والمياه فانها تسير فيها آلات بخارية نحو الرتل لتنظيفها وتقصد بالتفرج ومن صفات باريس ان أغلب دورها يصله الماء فى قنوات صغيرة كل دار على قدر استحقاقها وكذلك كل دار لها قنوات للبخار الغازى للتنوير ليلا ولبعض الديار ساعات تحركها قوة الكهربا فى مكان متحد فى البلد بحيث تكون جميع الساعات متساوية الوقت على التحرير الصحيح فى المرصد من غير مشقة لاصحاب الديار ولبعض الديار أيضا قنوات لاتيان الحرارة لتسخين الديار على حسب ارادة صاحبها وما يقسمه على بيوتها من غير كلفة لايقاد النار ولا خوف من احراقها لان الحرارة الآتية هى حرارة هوائية

هوائية وليس لصاحب الدار الادفع ثمن هاتيك المرافق شهريا وسنويا بغير ان حمل القسيسين والساعات لم يتكاثر كثيرة ولا يلبث أن يعم واتحاد ساعات البلاد أمرمهم جدا في كثير من الامور ولهذا كانت أوقات طرق الحديد في كل مملكة معتبرة على قاعدة تلك المملكة فتجد جميع ساعات المحطات متحدة على وقت واحد

الفصل الثالث

﴿في بقية البلدان التي شاهدتها بفرانسا﴾

فاولها بلاد فرسال هي غربي باريس تبعد عنها مسيرنصف ساعة في الرتل وهي منتزه الملوك وبها قصور أنيقة وبدائع من تحف الملوك وما آثرهم منها الكراريس الرسمية التي تبلغ قيمتها الملايين لما فيها من الذهب والفضة واتقان الصنعة وحول تلك القصور البساتين والحدائق الجميلة ذات المياه الدافقة والبرك الواسعة قد جعل فيها سنة ١٢٩٥ وهي سنة المعرض عدة ليال للزينة واندفاع المياه فرأيت هاتيك الحدائق ملونة بقناديل الانوار المحاكية بكثرة النجوم وشماريخ البارود بألوان وأشكال صاعدة وفائضة ودائرة ومنابع المياه طائرة في الهواء كل عمود منها في غلظ نحو نصف ذراع مرتفع عن منبعه نحو أربعين ميترو فكأنها منائر من الزجاج تبرق بسطوع الانوار عليها وكذلك أنواع أخر من المنابع ترمي الى أمامها على استقامة الى أمد بعيد وكل تلك المياه منبعثة من نهر السين بآلات قوية بخارية والمتفرجون عدة مئات الالوف وحول البلاد غابات وتماشي جميلة والبلاد واسعة الطرق نظيفة ظريفة والقصور الملوكية ليس بها من المفروشات الاقليلا من آثار الملوك متحفظين عليها على ما كانت عليه وقد رأيت بها كلا من مجلس الاعيان والنواب اذ كانا نقلا الى هناك بعد حرب المانيا سنة ١٢٨٧ ه ١٨٧٠ م وكان جلوسي في بيت رئيس الجمهورية اكراما منه لي على عادتهم في الاكرام بمثل ذلك فاما مجلس الاعيان فلم يكن به شيء من المسائل المهمة ذلك اليوم اذهو يوم لتصحيح قانون استقر عليه رأيهم في استقراضات واصلاحات للولايات حتى رأيت الاعضاء كل مشتغل بالحديث مع صاحبه والكاتب يقرأ في القانون ولما كثر اللغط نبههم الرئيس مرارا الاستماع فكانه لم يخاطب أحدا واضطر للسكوت وذلك لان ذلك القانون قد تباحثوا فيه مرارا واستقر الرأي فيه وطبع ووزع على الاعضاء وعرفوه تفصيلا فكانت قراءة الكاتب اليه قراءة رسمية ليقع الامضاء عليه فقط وأما مجلس

النواب فتذاكروا فيه على مسئلتين أولاهما طلب وزير المال الرخصة فى صرف خمسة آلاف فرنك على جنازة أمير آلاى بلغ السبعين سنة من العمر ومات تحت السلاح فقيرا بعد ان ذكر تاريخ حياته وما ثره وطلب اجراء ستة آلاف فرنك سنويا بالعائلته وان ذلك المطلب استقر عليه رأى الوزراء فما ختم كلامه الا وارتفعت الاصوات من جهات اليمين منكرين لذلك وردت عليهم أصحاب الشمال واشتد الوطيس بين الفريقين الى أن التزم الرئيس باسكاتهم ورام اتباع القرعة فخرجت الاكثرية بموافقة الوزراء فقلت لرفقائى هل رأيتم ماوقع قالوا نعم لكن ماقصدك قلت ان دخل دولة فرانسا نحو ثلاثة آلاف مليون وقد اتفق وزراؤها ورئيس الدولة على صرف خمسة آلاف فرنك على رجل بذل فى خدمة دولته والدفاع عن أمته مجموع عمره ومع ذلك لم تستطع الدولة ان تنفذ أمرها فى مال الامة الا بعد مشورة أهل الحل والعقد وموافقتهم وبمثل ذلك لا يصرف المال الافى وجهه لا على اختيار فرد ولا على مداراته ثم قام وزير الخارجية وذكر ملخصا فى تجديد معاهدة تجارية مع ايطاليا وان شرح النازلة يوفى به أخوه الذى هو أيضا عضو فى المجلس فقام هذا العضو خطيبا نحو ساعة ذكر ملخص تاريخ التجارة بين المملكتين وان ايطاليا أربح تجارة من فرانسا وطلب تعديل فصول فى المعاهدة السابقة فوافقوه على ذلك (وثانيها) بلاد السيفر وهى قرية على نهر السين قريبة من باريس نحو نصف ساعة فى العجلة وبها معمل السيفر للخزف وبستان أنيق وقصر ملوكى (وثالثها) بلاد دصان اكلوا بقرب السابقة وقريبة من هيأتها والحاصل انك اذا خرجت من باريس راكبا كروسة الى فرسال فانك ترى كأن البلاد الثلاثة المتقدمة متصل بعضها ببعض وينتقل من واحدة الى أخرى بالرتل وبالكروسة وبالترامواى وبالامنيبوس وبالبواخر النهرية سوى فرسال فان النهر لا يحمل السفن الى قربها (ورابعها) بلدة فونتين ابلو التى هى اصغر من فرسال وعلى نحوها لكن ليس بها الا قصر واحد ملكى وبه أثاث لنابليون الاول ومنها مائدة كانت أمامه وقت اعلامه بانكسار جيوشه عند تعصب أوروبا عليه وكان بيده موسى فضرب به المائدة غيظا ولا زال أثره فيها لكن هاته البلد تفضل غيرها بما حولها من الغابة ذات الاشجار الفائقة ومحيط الغابة نحو أربعين ميلا وفيها من الطرق والمقاعد ما يفرح النفوس وفى وسط الغابة قهاوى ومعامل لخرط تحف من اخشاب الغابة وفيها كثير من الصيد كبقر الوحشى وغيره والغابة متصاعدة فى جبال جبلية بما كساها الله من النبات وفيها صخرة يعتنى بالتفرج عليها

سقطت

سقطت على حجارة صغيرة كانت فى الوسط فصارت الصخرة تتحرك كلما حركها أحد مع عظم جرمها وفى الجبال عيون كثيرة ويجرى حول البلد نهر فهى من منازه فرانسا المقصودة (وخامسها) بلدة ليون وهى بلدة كبيرة ذات بطحاآت وبناآت انيقة ويخترقها نهران أحدهما يسمى هالرون منحدر بسرعة وتسافر فيه البواخر بقلة وثانيهما نهر السون ثم يجتمع النهران خارجها ويذهبان الى البحر وهى متوسطة بين مارسيليا وباريس ومنظر الجبل الذى حولها جميل سيما جهة منتزهها المطل على النهر الاول ويصنع فى مطاعم ذلك المنتزه طعام من سمك النهر الاحمر ويتغالون فى ثمنه وعلى النهر عدة جسور فى البلد أحسنها الجسر الحديد ذو القوس الواحد المعلق وسطه فى اطرافه بسلاسل وأحسن أماكن هاته البلدة هو بطحاؤها الكبرى التى بها قصر البورس وقصر الحاكم واهاليها يظهر عليهم الجد فى الصناعة لان هاته البلدة هى أشهر البلاد الفرانساوية بمنسوجات الحرير فكانت السكان قليلو الجولان فى الطرقات اذ أغلبهم معتكف فى المعامل وتجارة أهلها شهيرة فى المعمور ورأيت فيها النفق فى الجبل الذى يصعد فيه الرتل صعودا بينا حيث كان قسم من البلد فى أعلى الجبل وقسم فى أسفله فجعلوا طريقا حديديا ولتقريب الطريق واستقامته ثقب له الجبل حتى يصعد مستقيما وجعلت فيه حافلة وسيعة تحمل نحو خمسين نسمة ويجذبها للاصعاد حبل من سلوك من الحديد بآلة بخارية الى ان تصل الى أعلى الطريق فينزل الركاب منها ويسمى ذلك بالتونيل واقمت بهاته البلد يوما وليلة وهى ليست الاشغلا للتجارة (وسادسها) بلدة مارسيليا التى هى أعظم مرسى تجارية لفرانسا بل وفى البحر الابيض وهى بلدة كبيرة ذات جمال ونزهة وفيها حركة عظيمة للتجارة الى سائر الاقطار وفيها اخلاط من السكان من سائر الاقطار وأحسن طرقها طريق كانوبيار فيه قهاوى ومقاعد ربما فاقت بجمالها على قهاوى باريس وفيها منتزه يسمى اشاتودو فى أعلى مكان بها ومنه ينحدر الماء المجلوب اليه على حنايا ذات بناء متين ومحل انقسام الماء له منظر بديع من حسن البناء وتأنيقه وحوله حديقة نزهة وبها حيوانات عديدة من أنواع شتى ومن محلات نزهتها دار الآثار القديمة قرب شاطئ البحر وقرب محل السباق وأنزه قصر بها هو القصر المسمى اوتيل دوديزيرف المتخذ مطعما على ربوة من الجبل المحدق بالبلد يحيط بالقصر من جميع جهاته رواقات على اسطوانات بشكل جميل مع تنميق للبناء وحسن الفرش واما كل يحيط به حديقة ظريفة فهو نزهة للخواطر ولولا ان منظره للبحر عشية تكدره الشمس لانه غربى لكان أجمل

ما رأيته من نوعه أما قوة حركة التجارة بهاته البلدة فهي عبرة للمتبصرين وذلك انك
تشاهد من حركة العجلات والسفن والقوارب والاثقال وكثرة البضائع من أنواع شتى
داخلة وخارجة الى الصين وأمريكا وسائر الاقاليم وترى من المخازن التي هي حقيقية
بالاسم قرى لكبرها وكثرة ما فيها من السلع ما يحير الفكر كما ان قصر البورس بها يكاد
يناكب بورس باريس والحاصل انها هي ثاني بلد لباريس فيما رأيته بفرانسا وأما
مرساها فهي ذات حوضين عظيمين ملآن من السفن وترى فيها من البواخر وغيرها ما يشبه
الغابات المحبكة وقد وردت على هاته البلدة ثلاث مرات في سفراتي وأقمت بها عدة أيام
ذهابا وايابا (وسابعها) بلدة طلون التي هي أول مرسى حربي على البحر الابيض وهي بلدة
حربية اذ لا نضارة لها ولا انشراح بالنسبة لغيرها لكن فيها من الحصون والاحواض
لانشاء السفن والمدرجات والمعامل لانشاء المدافع والمكاحل والالغام البحرية وغير ذلك
من قوات الحرب شيء كثير ورأيت فيها احدى عشر حوضا بكل واحد سفينة مشتغل
بانشائها منها ما هو على تمام ومنها ما هو في البداءة والخلائق منكبون على الاجتهاد
كالنمل في المصيف وقد كان سفري الماضي سنة ١٢٩٠ وكان مصاحبا لي في الرتل سفير
الصين القادم بالاستدعاء للمعرض وهو وزير البحر عندهم وهو رجل مسن شعره خفيف
على عادة أهل الصين وكل لحيته وشواربه بيض نحيف الجسم ومعه غلمان لا ادري أهم
ابناؤه أم اتباعه ومعهم غيرهم من الاتباع مجموعهم نحو ثلاثة عشر رجلا وكان راكبا في
حافلة منفردة هو واتباعه والحافلة ذات مخادع ومقاصير ومرافق بحيث لم ينزل منها
مدة السير الى ان وصلنا الى طلون فنزل هناك حيث أعدت له دولة فرانسا باخرة حربية
ذات طبقتين من المدافع لتوصله الى مرسى بلده في الصين وكانت الباخرة مباحة ذلك
اليوم للمتفرجين والحاصل ان هاته البلدة بلدة حربية تظهر عليها سمات القوة والشارات
العسكرية وأقمت بها نحو ستة ساعات (وثامنها) بلدة نيس التي هي على شاطئ البحر وهي
مأوى الاغنياء وذوي الترف من الفرانسيس وغيرهم من أهالي الاقطار الباردة في الشتاء
وذلك لان موقعها على جون مستقبل الجنوب ويحيط بها من بقية الجهات سلاسل جبال
شاهقة تمنع عنها مرور الرياح الباردة فكانت مأوى في الشتاء حسنا وكثرت بها القصور
والمباني الجميلة ومنازل المسافرين الرحيبة وجميع ديارها صغيرة لا تزيد على أربع
طبقات سوى منازل المسافرين وذلك لان عادة الانكليز في بناءاتهم على ذلك النحو
وهم أكثر القادمين الى هاته البلدة ولان غيرهم أيضا انما يقدم منهم ذوو الترف المتعودين

على

على سكنى الانفراد فلذلك كانت مبانيها جميلة ظريفة وسياج حدائقها من الآجر أو الحجر مرصوف على أشكال حسنة والبلدة يشقها نهر تجرى فيه المياه عند نزول الامطار فقط وعليه عدة قناطر ولها عدة ملاهى لكن لما قدمت لها صيفا وجدت البلد كانه خال من السكان لقلة من به بالنسبة لكثرة البساتين والديار المنفردة وليس بها ملهى مشتغلا سوى الملهى الصيفى على شاطئ البحر ويقرب من هاته البلدة عدة بلدان هكذا على نحوها ظرافة ونزاهة وأقمت بها ليلة ويوما (وتاسعها) بلدة أيانشو وهى قاعدة جزيرة قرسكا وهى مرسى امنية صناعية ومن عاداتهم فى المراسى ان البواخر مهما وصلت تتمم اشغالها الليل والنهار سواء فتحمل السلع وتنزل غيرها وكذلك الركاب بحيث ان ساعاتها المعينة لا تتأخر عنها ويجد المسافر فى المرسى وحولها ضروريات ما يحتاج اليه وهى منورة وهاته البلدة ظريفة جميلة ذات اشجار كثيرة من النارنج والليمون فكانت رائحة الزهر عند دخولى اليها فى الربيع عابقة وفيها بطحاء وسيعة بوسطها صورة نابليون الاول والدار التى ولد بها لازالت على هيئتها وفرشها للتحفظ عليها كالمصالح العامة لانه من رجال السياسة المعدودين فى الدنيا ورقى اسم فرانسا الى درجة عظيمة وهو فى الاصل من عموم أهالى هاته البلدة وأقمت فيها بضع ساعات ولما أوقدت المصابيح ليلا عند الغروب ثم طلع البدر نقصوا النصف منها اقتصادا فهاته هى البلدان التى دخلتها وأقمت فيها بفرانسا فى السفرات الثلاث وعند رجوعى الى الوطن فى السفرة الاولى راكبا من مرسيليا وكان ذلك فى ينايرالموافق لمحرم سنة ١٢٩٣ ليلا صادفت هيجانا عظيما فى البحر حتى كادت ان تهلك الباخرة بمن فيها وانكسر منها عمودان من حديد معلق فيهما قارب ومات ثلاثة من الخيل وانكسرت رجل أحد الركاب ولم يستطع أحد ولو من النوتية ان يتحرك من محله وجاءنى السفن صباحا بعد هدو البحر مهنيا بالسلامة وأخبرنى انه لم ير مثل تلك الليلة وانه ربط نفسه بحبل مع عمود الباخرة ليستطيع الثبات فى مكانه وما وصلت الباخرة الى جزيرة كرسكا الا بعد ميعادها باثنى عشر ساعة ومن غرائب المراءى انى رأيت فى الليلة الثانية فى البحران سنة من اسنانى سقطت وكأن احباءى سألونى عنها وكنت أسلى نفسى بانها كانت غير ثابتة بل مضطربة ولذلك لم أجد ألما فى نزعها فلما أفقت انقبضت من تلك الرؤيا ولم أعلم ما تشير اليه فلما وصلت الى الوطن ظهر لى فى أوجه الاحباب الملاقين غبار وفى اثناء الطريق سرد على الفاضل محمد السنوسى هاته الابيات قال

فاشكر الهك واذكر النعم التى * ردتك بعد تلاحم الاهوال
فاتيت ارضك سالما واعزما * تلقاه فيها فوزكم بالآل
فترى بنيك من السلامة فى حلى * موصوفة منكم بكل كمال
وجميع أهلك والاحبة كلهم * يلقونكم بتساحب الاذيال
هذى هى النعم التى لم توفها * حق الثناء على الولى المفضال
وهو الذى أبقى اليك الاخت كى * تسمو بعزك فى حلى الاجلال
اذلم تصب فى غير ليلة أمسنا * والآن ترقب منك خير هلال
فاشكر الهك صابرا متيقنا * بجزيل فضل الواحد المتعالى

فاعلمنى بوفاة أختى الوحيدة رحمها الله ونعمها وكنت تركتها مريضة بالسل فتوفيت ليلة قدومى بعد تلك الرؤيا بليلتين وحضرت جنازتها ولم أعلم بان رؤيا مثل ذلك تدل على موت الاقارب الابعدان حلت فى الاستانة سنة ١٢٩٧ فذكرمثل فى الوصول الى المقصود بالملاطفة وهو ان أحد الملوك كان رأى ان جميع اسنانه سقطت فأتى بمعبر فقال له سيموت جميع أهلك فبطش به ثم أتى بمعبر آخر فقال له ان الملك أطول عمرا من جميع عائلته فأجازه فتعجبت بتذكر تلك الرؤيا الى ان قال لى المتحدث ان أمر هذا مشهور فى علم الرؤيا فقلت نعم ها أنا قد شاهدته فى نفسى لكنى لا اريد معرفة هذا العلم لانه يشوش الفكر ولا يكاد يتوصل اليه الا القليل لان له شروطا فى الاحاطة باحوال الرائى ووقت الرؤيا والاحاطة بالمرئى الى غير ذلك وربما غفل عن شئ منها فيتغير المعنى وأما أصل العلم فلا شك فى ثبوته وما أوتيتم من العلم الا قليلا ويكفى فى ثبوت هذا العلم الاحاديث المروية فى صحيح البخارى ومنها ان الرؤيا الصالحة جزء من ثلاثة وستين جزأ من النبوة وأما سفرتى الثانية الى فرانسا ❋ سنة ١٢٩٥ فكانت من تونس الى مرسيليا تواعبرو رالباخرة البريدية على بلد بونة من اعمال الجزائر وكان البحر فى غاية الهدو حتى رأيت على سطح الماء قطعة من نبات بحرى مثل قطع القطن المنفوش متكاثرة وهى قليلة الظهور وانما ترى عندما يكون الماء فى غاية السكون كما رأيت أعمدة من البحر منبعثة بقوة مثل أعظم الفوالق فاخبرنى انها من نوع سمك يفعل ذلك وان منها العظيم الذى اذا صادف عمله ذلك احدى السفن الصغيرة ربما اغرقها وهو من عجائب المرئيات وكذلك عند رجوعى من هاته السفرة كان البحر مثل ذلك الى ان وصلنا الى بلد الجزائر وكان الوصول اليها صباحا بعيدا لشروق لكنا لم نر البر وكان السفن أخبرنا بالوصول لكنه لما لم ير البر مع تيقنه بالحساب للوصول

التزم

التزم الوقوف وذلك لكثرة الضباب المتكاثف ذلك الصباح فما انقشع الضباب بصعود الشمس الا ووجدنا البركانة في مقدم الباخرة والمرسى عن يمينها فكان من لطف الله التدارك بالوقوف والتزمت الباخرة ان ترجع القهقرى الى ان تيسر لها الدوران ودخلت المرسى وسيأتي الكلام على مملكة الجزائر في باب مخصوص (وأما) السفرة الثالثة فكانت على طريق ايطاليا ومنها الى فرانسا ومنها الى انكلاتيرة وهكذا الرجوع ولم يكن البحر اذذاك الا على ما هو معتاد ومما حدث في الوطن في سفرتي الاولى وبلغني خبره وأنا في باريس ظهور دعوى وقعت لها طنطنة من الشيخ المسن التقي أحمد بن المهدي في العمل بالسنة حسب ادراك كل من فهمها وترك الاخذ باقوال الائمة المجتهدين واختلفت الروايات في الواقعة ومدارها تصميمه على رأيه وتعصب العلماء عليه الى ان حكموا بنفيه فارتحل الى مكة المكرمة ومات بها رحمه الله وتحرير الكلام على المسئلة باختصار حسبما وعدنا به في الكلام على ائمة جزيرة العرب هو ان يقال ان الشيخ المذكور هو من تلامذة الشيخ السنوسي ذي السيط الشهير علما وعملا غير ان هذا التلميذ هو دون شيخه بمراحل في العلم فألف رسالة أراد ان يذكر فيها طريقة شيخه فلم يوف بها وتغير المعنى المقصود لشيخه اذ مدارها ته الرسالة ان لا يقلد أحد الا المعصوم ولذلك يجب على الامة ان لا يعملوا الا بالكتاب والسنة ويتركوا ما وراءهما ولا يخفى ان ظاهر ذلك يوقع في افساد الشرع حيث انه لا مخالف في ان لا اتباع الا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما في الكتاب والسنة لكن أين أهل الفهم منهما وأين ادوات ذلك التي كانت في صدر الاسلام سليقة وصارت على التدريج صناعة وعلوما تتعلم وتدلى الامر حتى لم يبق من يوفيها حقها فاذا سوغنا لكل أحد ان يعمل بما يفهم مع ما هو عليه من الجهل كان ذلك هو عين الفساد ولذلك لزم اتباع الاجماع والاجتهاد من أهله المسلم اليه وقد كانت المجتهدون كثيرين في الصدر الاول فمنهم من كثرت أتباعه وتسلسل النقل لاقواله الى الآن وهم الائمة الاربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل رضوان الله عليهم ومنهم من انقطع النقل عنه فلا يجوز الآن تقليده لعدم صحة السند في مذهبه بالنسبة لاهل العصر والافكاهم سواء بالنسبة للمقلد وكل من ليس له ملكة الاطلاع على الادلة ومناطاتها وترجيحها فهو عامي وله ان يقلد من شاء من الائمة المجتهدين لقوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وبذلك تحفظ الشريعة لان سند الاجماع هو نص من الشارع وسند القياس هو الاستنباط من نص الشارع أيضا فرجع الامر الى

ان لا عمل الا بالكتاب والسنة والشيخ السنوسي رحمه الله مقرر لذلك في رسالة له الفها في المعنى المتقدم واختصرها تلميذه اختصارا مخلا وذلك ان الشيخ السنوسي قرر في رسالته وجوب الاتباع للشارع والتباعد عن العمل بالرأي والبدع وحث على وجوب اخراج المكلف نفسه من حضيض التقليد الى درجة الاجتهاد والكمال حتى يقدر ان يفهم كلام الشارع ثم ذكر شروط ذلك وانه اذا ابتلى الانسان بالتقصير فحينئذ يلتجئ الى تقليد ائمة الهدى وعلى الناقل عنهم ان يتثبت في السند لكي لا ينسب لاحد مالم يقل به كما يقع كثيرا في تفريعات بعض المتأخرين فيخطؤن في التخريج ومع ذلك ينسبون القول لاحد الائمة فيما لم يقل به بل نقل عنه انه قال على ماهو عليه من العلم واتساع الباع اني اذا استفتاني مستفت من ملتزمي مذهب مالك فاني لا أفتيه الا بما نقل عن ذلك الامام ولو كنت مرجحا لغيره قوله حسبما الجأت عليه من الادلة وذلك لان المستفتي انما سألني عن قول مالك لا على قولي والحاصل انه في نفسه يرى صحة الاجتهاد له ويرى على كل مكلف ابلاغ نفسه الى تلك الدرجة فان لم تحصل فليقلد المجتهد ورأيت في تأليف كثير من أهل العصر في الهند النحو الى هذا المنحى وان من له اطلاع على الادلة ومناطاتها يجب عليه اتباع الدليل وكان هؤلاء العلماء يدورون من هو من طبقة أهل الترجيح المنصوص عليها في كتب الفقه

الفصل الرابع

﴿في التعريف بفرانسا﴾

(اعلم) ان فرانسا من ممالك أروبا الغربية وتبتدئ من عرض درجة ٤٢ ودقيقة ٢٠ شمالي الى درجة ٥١ ودقيقة ٥ من العرض المذكور ومن طول درجة ٦ ودقيقة ٥٠ شرقي الى درجة ٧ ودقيقة ٩ من الطول الغربي لان مبدأ الطول عند كثير من المتأخرين هو باريس التي هي قاعدة هاته المملكة ويحدها جنوبا البحر الابيض واسبانيا وشرقا ايطاليا وسفيسره والمانيا والبلجيك وشمالا بحر المنش وخليج كالي الفاصل بينها وبين انكلاتيرة وغربا البحر المحيط الغربي فلذلك كانت ذات موقع جسيم ونفوذ برا وبحرا في ثلاثة أبحر محيطة بها وبقرب بعضها عدة جزر منها كرسيكا وجزر يارس في البحر الابيض وجزر ري واوليرون وويسان في المحيط وفيها جبال كثيرة واعظمها جهة الشرق كالجورا والآلاب وتتصل بسلسلة مارة جهة الشمال الى جهة الجنوب الغربي فتتصل

بجبال بيرنى الفاصلة بين فرانسا واسبانيا وأعلى جميع جبال فرانسا هو جبل أوروفان
ارتفاعه على سطح البحر قدما ٩٢٣٠ وليس بها جبال بلكانية وأما انهارها فهى
كثيرة وليس بها ما يحمل السفن الكبيرة وانما البعض منها يحمل الصغيرة وأشهر
انهرها نهر السين الذى يخترق باريس وطوله ميلا ٤٥٠ ويصب فى المنش ثم نهر
السوار وطوله ميلا ٦٠٠ ويصب فى المحيط الغربى ونهر رون وطوله ميلا ٥٤٠ وهو عميق
سريع السير ويصب فى البحر المتوسط ونهر جيرون ويصب فى البحر الغربى الى غير ذلك
من الانهر وبها من الترع نحو من تسعين ترعة ولازالوا مجتهدين فى تكثيرها ووصلة
الانهر والبلدان بعضها ببعض لنقل الركاب والبضائع زيادة على سقى الاراضى ويبلغ
طول هاته الترع جميعا نحو خمسة آلاف ميل وأما بحيراتها فلم اعلم فيها الا ثلاثة (أولاها)
بحيرة ديورجى حذو جبل الموتسى حلوة محدق بها منظر جميل ويمر على شاطئها
طريق الحديد (وثانيتها) بحيرة دنسى قرب جبل آلاب وكلاهما اجار يصب فى نهر الرون
(وثالثتها) بحيرة آن قان قرب باريس وأما هواؤها فالجهة الشمالية منها باردة والجهة
الجنوبية معتدلة وينزل الثلج فيها جميعا شتاء ومع ذلك فهواؤها سليم لائق بالصحة ولا يقع فيها
الضباب الا بقلة وهو متعب جدا فقد صادفته فى سنة ١٢٩٣ وذلك انى ذهبت زائرا
أحد معارفى قرب الغروب نحو الساعة الرابعة بعد الزوال فخرجت فى الساعة السادسة
بعد مضى الغروب بنحو الساعتين فوجدت الطرقات فى غاية الظلمة ولم ادر الى أى جهة
الطريق فتعجبت من ذلك وسألت صاحب الباب ما بالهم لم ينوروا الطرقات تلك الليلة
فقال كلا ولكن الضباب منع نور الفوانيس من الظهور مع ما عليه باريس من كثرة
التنوير فارسلت ليؤتى لى بكروسة فلم يدر المرسل الطريق واضطررت الى تتبع الناس
للحائط ما تحذر من المصادمة وكنا نعلم قرب موقف الكراريس فذهبنا الى جهتها ولم
نر نور فوانيسها الا عند الوصول اليها فلما أردنا ركوب احديها امتنع صاحبها او كثر اللغط
بينه وبين التابع فجاء أحد الضابطية وألزمه بأن يركبنا ويوصلنا الى منزلنا فاجابه بانه غير
ممتنع لكن الخيل لا تمشى لانها لا ترى فقال اركبوا الى ان نعمل وجها فلم يكن غير بعيد حتى
ظهرت المشاعل على وجه الارض بيد الضابطية وغيرهم مشاعل من حبال غليظة تحرق
وتدار باليد فى الهواء على وجه الارض على نحو ما تفعله البوادى فاخذ سائق الكروسة
رجلا منهم ومكنه من أحد تلك المشاعل وجعل هو يسوق الخيل وراءه الى ان أوصلنا
واعطينا الرجل احسانه وكنا نسمع صهيل الخيل بكثرة فى تلك الليلة مع قلة صهيلها هناك

على كثرتها وكذلك كثر نباح الكلاب وزاد حسها وضوءها وحس العجلات ولما وصلنا
الى البلد فارعلى كثرة تنوير حوانيته وقهاويه لم يظهر منها شئ الا اذا الصق الانسان بالفانوس
فانه يرى نوره مقصورا عليه وقد ذكرت تلك الليلة بصحف الاخبار وشيدت بشأنها وان مثلها
كثير بانكلترا ليلا ونهارا أما البرد فهم مستعدون له لباسا ومسكنا ولهم عملة لازالة الثلج من
الطرقات وشدة ذلك البرد مع طول مدته أهون من شدة الحر في الصيف الذي لا تطول
مدته لانه يكاد أن يكون الهواء منقطعا من شدة سكونه وحره وأما نباتات فرانسا فينبت
بها جميع نباتات أراضي الاعتدال والاراضي الباردة بالنظر لجنوبها وشمالها وعلى
الاجمال فالجهة الشمالية منها أجمل منظر الان في الجنوب جبالا صخرية واراض اشاغير
صالحة للزراعة وأهم نباتاتها العنب سيما جهة بلد بردو وشمبانية لكن في هاته السنين
الاخيرة أصيب بمرض أوجب خسائر بليغة وفيها من الكمثرى أنواع فاخرة لذيذة سيما
في الشتاء و بطيخها وخوخها حسن لكنهم لا يأكلون البطيخ الاخضر المعروف بالدلاع
أو الحب وعندهم أكله معرة و بقية فواكهها وأشجارها حسنة وفيها آجام وغابات
لاخشاب السفن وغيرها كثيرة جدا وأما حيواناتها ففيها جميع الحيوانات الانسية والنعم
وخيلها على ثلاثة أنواع (فاولها) العراب العتيقة وهي مخصوصة للركوب (وثانيها)
البراذين وهي لجر الاثقال والحوافل الكبيرة للركاب (وثالثها) المختلط من نسل المذكورات
ويستعمل لكلا القسمين لكن أكثره لجر الكراريس ومنه الجميل للغاية القصوى
والبغال بالنسبة الى الخيل قليلة الاستعمال وأقل منها الحمير ورأيت في باريس ان الحمير
الاناث الوالدات يطاف بها بكرى الصباح على الازقة لحلب من يشتري لبنها وهي نظيفة
حسنة والبقر ضخم جدا يعتنى بتسمينه للاكل ولهم على من يفوز بأكثرية التسمين
جوائز حتى بلغ مرة وزن ثور منها نيفا وأربعين قنطارا وتستعمل للحرث أيضا ولجر الاثقال
بقلة والغنم من النوع الذي له ذيل وذوات الالية قليلة وأما أنواع الحيوانات المسبعة
فالظن انه لا يوجد منها الا الدب والذئب والثعلب والخنزير وأما غيرها فقد انقطع من
هنالك للاعتناء بقطعه مع كثرة العمران نعم يوجد منها مربي في الامصار كالاسود والنمر
ويتوالد الاسد ويرضع بنيه كلاب كبار لتقليل جرئته ولعدم ضعف والدته وأما الثعابين
والحيات فهي قليلة ولا يزالون مجتهدين في قطعها فان غابات فنتينبلو مجعول لكل من
أتى بحية منها مقدار من المال أما في باريس فلم أسمع بوجود عقرب ولا غيرها من الحشرات
ولا خنفسة وكان ذلك لشدة الاعتناء بنظافة الديار والطرقات حتى لا تكاد تجد في حائط ما

مغرز

مفروشة عمار وكلها متقنة العلى ظاهرا وباطنا بالجص أو الرمل والجير سواء الظاهر والباطن مع عدم وجود الخراب في أي جهة نعم في الجنوب من المملكة يوجد البق والذباب وغيرهما من الحشرات وهي أيضا قليلة في المدن بالنسبة لما نعرفه في البلاد التي تشبه تلك البلاد في الحروطيورها كثيرة رحالة ومقيمة ولا يصطادونها الا في أوقات معلومة كما انه ليس لاحد أن يصطاد الا برخصة من الحكومة يؤدي عليها معلوما وليس له ان يصطاد في غير أرضه المعدة لذلك أو اراضي العامة المعدة لذلك برخصة فيها من الحكومة أو يدخله غيره أرضه برضاه ومن خالف ذلك عوقب وأنواع الصيد كثيرة وفيها من نوع الفيران كثير (وأما مدن) فرانسا فقاعدتها باريس وقد تقدم ذكرها وهي مائلة الى الشمال من المملكة وبقية المملكة تنقسم الى ستة وثمانين ولاية لكل ولاية لها مدينة هي مركزها ويتبعها عدة أوطان لكل وطن مركز ويتبعه عدة أوطان صغار وهاته أيضا الى أصغر منها فمجموع النوع الاول من الاوطان عدده ٣٧٠ والثاني عدده ٢٩٣٨ والثالث عدده ٣٧٥١٠ ولكل منها مدينة أو قرية هي مركزه فهي حينئذ كثيرة جدا ومن أشهرها ما تقدم ذكره هنا (وأما معادنها) فليست بكثيرة لكن منها الغني للغاية فالذهب لا يكاد يستخرج من محله وان وجد لانه لا يوفي بمصاريفه والفضة موجودة بقلة ومثلها النحاس والفحم الحجري كثير غني وكذلك قطران الارض وأنواع من الحجر والرخام الابيض ومنه الشفاف وأنواع عديدة من الحجارة كحجر الطبع وأنواع الجص والكبريت ومقاطع الحديد والرصاص كثيرة وبها حجر الزجاج والمياه المعدنية نافعة شهيرة كحمام فيشي وحمام برني (وأما مراسيها) فكثيرة حربية وتجارية وقد تقدم ذكر بعضها ويقاس عليه ضخامة وحصانة باقيها (وأما سكانها) فاصلهم القديم من قبائل مختلفة وردت الى هنالك من المشرق في أوقات مختلفة وأشهر القبائل قوم من الكلتيين وقسم منهم عبر المحيط الى انكلتيرة وانضاف معهم في فرانسا قبائل أتت من جنوب افريقيا يسمون الباسليك ولا زال الى الآن سكان جبال برني يتكلمون بلغتهم ثم وفد عليهم الرومانيون ثم هجمت عليهم قبيلة الافرنج الآتية من الشرق واستوطنت قبل ذلك في البلجيك ثم تغلبت على قبائل فرانسا واختلط نسل الجميع واتحد باسم الافرنج ثم حول الى الفرانسيس وصاروا الآن جنسا واحدا وهو الفرانساوي الا أهل نيس وساقو يا وقرسكا فهم طليانيون وعدد الجميع ستة وثلاثون مليونا ونصف عدا ما في مستعمراتها والديانة الغالبة هي النصرانية على المذهب الكاتوليكي وقد كان هو مذهب الدولة الرسمي لكن الآن لم يبق من الدولة

اعتبار لديانة أو مذهب خاص حتى انها أزالت سنة ١٨٨٠ علامات التمذهب الملّية من الاماكن الرسمية والمكاتب كما وجد فيهم المذهب البرتستانتى وديانة اليهود وتوجد الدهرية بكثرة وقليل موحدون بالعقل أو باتباع لعيسى عليه السلام ويتبع فرانسا مستعمرات ففى افريقية قهرت الجزائر وادعت بالحماية على تونس واستولت على سانيغال وجزائر غورى وسانت مارى وبوربون وعدد سكان هاته المستعمرات نحو الخمسة ملايين منهم مسلمون نحو أربعة ملايين والباقى على مذاهب وديانات شتى ويتبعها فى قسم آسيا أرض بوندشيرى وكاريكال وماهى ويناون وشاندرنغور كلها فى شطوط الهند كما لها سايغون فى كوشين الصين وعدد سكان الجميع نحو الثلاثمائة ألف ولها فى أمريكا جزائر صان بييرو ميكلون ومارتينيك وغوادلوب والغيان الفرانساوية وسكان جميعها نحو الثلاثمائة ألف أيضا ولها فى الاقيانوس جزر مركيز وتاييتى وسكانها نحو المائة والخمسة وسبعين ألفا فجميع السكان والملحقات نحو اثنين وأربعين مليونا

الفصل الخامس

﴿فى اجمال تاريخ فرانسا﴾

مطلب

فى تاريخها القديم

كانت هاته المملكة تسمى قديما غاليا أو غالة ويجهل الحال فى تاريخها القديم أعنى ماقبل تاريخ الميلاد بألف وستمائة سنة ومن هذا الوقت عرفت أحوالها فكان أهلها شجعانا حاربوا من جاورهم ولم يخضعوا لدولة الرومان الا بعد مشاق ثم استقلت فرانسا عنهم باستيلاء أمة الافرنك فى القرن الخامس وذلك انها خضعت لعدة رؤساء متحدين ثم خضع الجميع لملك سنة ٤٢٠ مسيحية وأول عائلة معروفة من ملوكها تسمى الميروفنجيين وفى مبادى القرن السادس تغلب اسم قبيلة الافرنك على جميع الاهالى لانتصارها على جميعهم ثم قلبت الكاف سينا وصارت فرانسا وذلك لقب أطلق عليهم مأخوذ من فرانكس أى شجعان ثم انقسمت الى عدة ممالك واتحدت عدة مرار وكانت شوكة الملوك ضعيفة فيهم والنفوذ الى جمعيات الاعيان التى تجتمع كل سنة وتختار الملك وتعين

السيرة

السيرة في الادارة حتى كان للاهالي حرية تامة بل قد تخرج عن الاعتدال الى التهور فقد ذكروا انهم كانوا يقتسمون الغنائم ويعطون الملك حصة كآحاد الجيش فلما انتصروا في احدى الوقائع وقد انتهبوا فيها كنيسة كان من جملة ما فيها اناء من ذهب طلبه الملك من الجيش برضاهم فبينما هم بصدد اجابته واذا باحدهم تقدم وضرب الاناء ببلطته وقال له باعلى صوته ليس لك ادنى شيء سوى ما يخصك بالقرعة ولا نقر لك بامتياز واول تدين ملوكهم بالديانة النصرانية كان في اواخر المائة الخامسة مسيحية وفي اواخر هاته الدولة اعني سنة ٧٣٢ وقعت الحرب مع العرب الاندلسيين الذين تغلبوا على قسم كبير من جنوب فرانسا حتى وصلوا الى اليون وخرجت تلك المستملكات واتحدت مع فرانسا وبقيت فرانسا على نحو ما ذكر الى ان استولى عليها كارلوس الكبير ويعرف ايضا بشارلمان المعاصر للرشيد العباسي وقد ضم الى فرانسا عدة ممالك من اروباحتى تسمى باسم براطور المغرب وانتقل تاجه الى فروع من العائلة الى ان بقي الآن في المانيا التي كانت احدى ممالكه واستقل بها احد احفاده عندما قسم ابنه ممالكه على اولاده فملك بكره على جرمانيا والثاني على فرانسا والثالث على ايطاليا وضعف ملوكهم باسنادهم الامور الى غير اهلها فكانوا يقدمون خدمتهم الى اعلى المناصب والالقاب بدون جدارة فاستقلوا على ساداتهم وملتهم الامم وتناصروا الى ان خربت العائلة واستولت على فرانسا العائلة الكابيتيانية ومن مشاهير ملوكها فليب الثاني الملقب اوغسطوس الذي اتحد مع ملك الانكليز الملقب بقلب الاسد على حرب المسلمين المعروفة بحرب الصليب الثالثة لكنهما لما وصلا الى صقلية تنافرا وافترقا ثم بعد رجوعه من الشام بوقائع صلاح الدين اثار الحرب على الانكليز واستخلص منهم بعض ما كانوا ملكوه من فرانسا ومن هاته العائلة صان لويز الذي اسر بمرومات بتونس وله تذكار معروف قرب قرطاجنة وذلك في حدود سنة ١٢٧٠ ومنهم فليب الثالث الذي حدد للاعيان سلطتهم على العامة بمجلس الشورى لكن اضمحل ذلك بفعل فليب الخامس الى الاعيان واشرفت فرانسا على السقوط وتداخلت فيها الدول المجاورة ونشأت مع الانكليز الحرب المعروفة بحرب المائة سنة وكان مبدؤها سنة ١٣٣٧ وانتصر الانكليز في كثير من الوقائع وتملكوا كثيرا من الجهات حتى ذات باريس مع التناصر الداخلي في فرانسا ثم ظهرت بنت لاحد الفلاحين تسمى جان دارك فادعت علم الغيب والتأييد الالهي لانقاذ فرانسا وساعدها الملك بتأميرها على الجيش واظهرت شجاعة غريبة

وافتكت من الانكليز عدة جهات وفى محاصرة المدينة كميان أخذت أسيرة وحكم عليها بالحرق لانها ساحرة ثم عقد الصلح مع الانكليز سنة ١٤٤٤ ولم يبق بأيديهم الا الجهات البحرية ثم أعيدت الحرب ولم تخلص فرانسا الا سنة ١٤٥٣ فرتب الملك اذ ذاك كارلوس السابع الجيش المستمر تحت السلاح وقد كانت العادة من قبل ان الاعيان المالكين للمملكة بأهاليهم الذين يقدمون العساكر للملك فكسر كارلوس شوكتهم واعتنى بترقية المملكة فى المعارف حيث كان مطلعا عليها وقد نقلت صناعة الطبع الى باريس فى أيامه وأنشأ مدرسة خاصة للطب وباستقامة سيرته نال من الفتوحات والترقى ما لم ينله غيره من ملوكهم بالحروب ثم فى أيام هنرى الثانى سنة ١٥١٠ تعصب به الكاتوليك وأغروا أمه به وقتلوا كل من ظفروا به فى فرانسا من أهل مذهب البروتستنت فى يوم واحد ويقال ان عددهم اذ ذاك نحو سبعين ألفا وقتل الملك بيده عددا كثيرا وهو واقف متهللا فى أحد رواشين قصر اللوفر ثم تعاقب على فرانسا الصعود والهبوط على حسب سطوة الملك واقتداره الى ان عظمت جدا فى أيام لويس الرابع عشر الملقب بالكبير المتولى سنة ١٦٤٣ وفى أيامه وأيام والده حدثت الحروب المعروفة بحروب الثلاثين سنة وانتقل لفرانسا النفوذ الذى كان للنمسا فى أروبا وظهر فيها عدة مشاهير بالمعارف وهو الذى انشأ قصر فرساى وبساتينه وقصر ليزان فاليد لكنه فى آخر أمره فقدت فرانسا ما نالته فى الداخل والخارج بأسباب التعدى على الرعايا وضعفهم وبعده فقدت فرانسا المستعمرات الهندية وغيرها وان حازت كرسكا واللورين وكان ذلك باتباع لويس الخامس عشر اشهواته وتحكم النساء فيه والغائه للشورى مع مجلس نواب الامة وآخر الملوك من تلك العائلة هو لويس السادس عشر الذى انتقم من انكلاتيره باعانة أمريكا على استقلالها وحدثت فى أيامه الثورة العامة التى قلبت حال التاريخ حيث كان يرجى منه اصلاح ما أفسده أبوه وجده لكنه كان ضعيفا عن الوفا بذلك فهو خاتمة التاريخ القديم

مطلب

﴿فى تاريخ فرانسا الجديد﴾

اعلم ان الفرنسا وبينما انتشرت فيهم المعارف وعلموا مالهم وما عليهم ونالوا من بعض ملوكهم أحيانا انصافهم واشتهرت بينهم الصحف الخبرية المعلنة بالمحامد والمذام وحدث

فيهم أخيرا ما أشير اليه من الظلم انعقدت فيهم جمعيات سرية للتدبير والعمل فيما يمكن لهم به حفظ حقوقهم ومما لكهم وتفطن لذلك لويس السادس عشر فكان مرة يميل الى معاضدة الامة في سائر يده ومرة يجنح الى عادات الاعيان والسيرة القديمة حتى خشى على نفسه وفر مع عائلته لكن الاهالى أرجعوه غصبا وخضدت شوكته فخاف بعض ملوك أروبا من أن يلحقهم ما لحقه بسبب فتح أبصار رعاياهم وقد كانوا اذ ذاك مستبدين فتعاضدوا على اركاس الفرنساويين لاسيما امبراطور النمسا صهر لويس المذكور فانه تولى كبر تلك الحرب غير ان الفرنساويين دافعوا عن حقوقهم بجد وانظم اليهم ملكهم المذكور وأجرى الجمعية الاهلية المسماة بالجمعية الوطنية وذلك سنة ١٢٠٧ ﻫ ١٧٩٢ م ثم بدا لهم منه الخيانة فقتلوه مع زوجته وطردوا ابنه الى جده امبراطور النمسا وذلك بحكم الحكومة الاجرائية التى حكمت بالغاء الملكية واثبات الجمهورية وأعلنت لسائر الامم انها تساعدهم على نحو عملها وتسمت الحكومة جمعية اتفاق الامة وكان من أكبر زعمائها بولتير الذى لادين له وهو أحد الذين ثار واغيظ الامة بما ينشره من الاقاويل والكتابات ولما استتب أمر الجمعية تجاوزت حدود الاعتدال بمضادة الاديان وقتل رؤساء الكنائس وابدال أغلب العادات حتى الايام والشهور فجعلوا الاسبوع عشرة أيام ومبدأ التاريخ هو عام انتصاب الجمهورية وكذلك أشهروا الحرب على جميع الدول وانتصر الفرانساويون سيما تحت راية نابليون الاول بونابارتى الذى كان أحد أبناء العامة فتعلم الفنون العسكرية وساعده القدر بالانتصار الذى نال به أعظم الشهرة فكان من أعظم رؤساء العساكر ثم عوضوا تلك الحكومة بحكومة الدركتوار أى الحكومات المديرية مؤلفة من خمسة أشخاص وحدثت فى أيامها الحروب العظيمة مع سائر الدول ووافق نابليون البخت فانتصر على الجميع وملك ايطاليا ورتب فيها حكومات عديدة جمهورية ثم استولى على مصر وأراد الشام بقصد التوصل الى الاستيلاء على الهند انتقاما من الانكليز ثم عاضدت انكلاتيره الدولة العثمانية واسترجعوا مصر وما أخذ من الشام وهيجت انكلاتيره دول أروبا على الاتحاد على فرانسا فاستعدوا لحربها وحاربوها وكانت الحرب سجالا لكن نابليون الاول لما وصل الى باريس بعد ان كاد أن يكون أسيرا فى رجوعه من مصر وجد حكومة الدركتوار على شفا وأروبا منتصرة فى أغلب الجهات فاستعان بحزبه ورتب حكومة جديدة تسمى بحكومة القنسلات مؤلفة من ثلاثة أشخاص يسمون قناسل وتسموا هو رياستها وذلك سنة ١٢١٤ ﻫ ١٧٩٩ م

ثم تسمى قنسلا لمدة حياته وتسلم رياسة الجيش ورجع الانتصار المفقود والتفت عند ذلك الى لم شعث الداخلية واصلاح الامور فسماه مجلس الاعيان امبراطور سنة ١٢١٩ هـ ١٨٠٤ م ونال صيتا عظيما فى الدنيا بانتصاراته على أغلب اوروبا فدخل فيينا وبرلين وعقد الصلح مع دولتيهما كيف شاء وأمست ايطاليا وكثير من جرمانيا تابعة لفرانسا وانتصر على الروسيا أيضا وعقد معها صلحا ومعاهدة سرية من شروطها اقتسام جميع أوروبا بين فرانسا والروسيا عدا الممالك العثمانية وان بلغها انها أيضا فى القسمة حتى اغتاظ السلطان لذلك كما سيأتى فى محله ومن المستثنى من القسمة أيضا الممالك الانكليزية وكان ذلك سنة ١٢٢١ هـ ١٨٠٦ م وأتم تأليف قانون الاحكام الشهير المعروف بكود نابليون سنة ١٢٢٣ هـ ١٨٠٨ م وهو عمدة أحكامهم ونسجت اوروبا فيما بعد على منواله وهو كتاب مقسم على أبواب المعاملات والجنايات وكل مسئلة من الباب بعقد لها فصل يبين حكمها بعبارات بينة من غير بيان لدليل الحكم ولا محل استخراجه لسهولة التناول وكان ممن لتأليفه جمعية علمية عولت فى تنظيمه على ما يليق بالعادات من أحكام الشرع الاسلامى وأحكام الرومان وسنة ١٢٢٨ هـ ١٨١٢ م عاد لحرب الروسيا لنكثها شروط الصلح المار ذكرها وانتصر عليها الى أن وصل قاعدتها مدينة موسكو وقد أعد واله كيدا باحراق المدينة فلما وصلها وجدها قاعا صفصفا وكان الوقت شديد البرد فهلك عسكره بردا وجوعا وعاد هو متنكرا الى فرانسا وجهز نفسه لحرب الروسيا والمانيا وبروسيا والنمسا الذين اتحدوا عليه بسبب انكساره فغلب أخيرا ودخلت العساكر المتحدة الى باريس وملكوا على فرانسا لويس الثامن عشر وأسكنوا نابليون جزيرة الاب على انه ملك عليها وذلك سنة ١٢٣٠ هـ ١٨١٤ م وبعد عشرة أشهر عاد الى فرانسا وتلقته الاهالى بالرحب لما نالوه من العظمة فى أيامه فهرب لويس الثامن عشر الى مقره أولا بانكلترة ثم اتحدت الدول ثانيا ومعهم انكلترة وقهروا نابليون فتنازل عن الملك لابنه بلقب نابليون الثانى سنة ١٢٣١ هـ ١٨١٥ م فلم تعترفه الدول وأعادت لويس الثامن عشر وأما نابليون فطلب الاقامة بانكلترة مستأمنا تحت أحكامها فقبلته وعند ارادة نزوله من السفينة الحربية الانكليزية الى البر اعلمته بانه أسير للدول فسجل على ذلك ولم ينفعه ونفى الى جزيرة هيلانة فى الاقيانوس الاتلانتيكى الى أن مات ونقلت جثته فيما بعد الى ابزان فالبديه ار بس وانحصرت اذذاك فرانسا

فى

فى حدودها القديمة ثم تبوأ ملكها كالوس العاشر اخو ملكها الذى أجلسته الدول وفى مدته استولى على الجزائر وأراد أن يحجز من حرية المطابع والقوانين فثاروا عليه وولى لويس فليب سنة ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م فاطلق الحرية وأحبوه لكنهم أسقطوه أخيرا الامتناعه من اصطلاح قوانين الانتخاب وكانوا يميلون الى الجمهورية والى عائلة بونابارتى فاعادوا الجمهورية ثانية سنة ١٢٦٥ هـ ١٨٤٨ م ورأسوا عليها لويس نابليون ابن أخى نابليون الاول وورث ملكه حيث مات ابنه عن غير عقب وكان ابن أخيه محروما فى ولاية العهد وذلك بعد أن نفى مرة الى أمريكا وأخرى الى انكلترة وايطاليا وسجن مرة فى حصن وفر منه بتزييه بزى أحد عملة البناء بعد حاق شاربه وأشهر عدة تآليف تنوه بالحرية والفخر فسلموا له زمام الادارة وأبدى من المصالح الداخلية واستمالة رؤساء الجيش اليه ما اقتدر به على الاعلان بامبراطوريته سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م وتلقب بنابليون الثالث وعاضد الدولة العلية وانكلترة على حرب الروسيا سنة ١٢٧١ هـ ١٨٥٤ م لتهاونها باعترافه امبراطورا فى مبدء أمره ولداوعى السياسية من الخوف من استيلاء الروسيا على الممالك العثمانية وعقد الصلح على معاهدة باريس سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م وانتصر الى ايطاليا على النمسا بدعوى القاعدة التى أسسها وهى اتحاد الجنسية كما تقدم فى تاريخ ايطاليا الجديد حتى اتحدت ايطاليا سنة ١٢٧٦ هـ ١٨٥٩ م وحارب الصين مع انكلترة سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦٠ م وانتصرا عليه وافتتح المكسيك من أمريكا سنة ١٢٧٩ هـ ١٨٦٢ م وملك عليها مكسيميليان اخا امبراطور النمسا وكانت اذ ذاك دول أمريكا المتحدة فى حرب شديدة داخلية ولما فصلت حربهم حنقوا على فرانسا من تداخلها فى قارتهم فتسال نابليون بعساكره وترك المكسيك حتى قتلوا من ملكه عليهم وذهب سعى نابليون سدى ومن ذلك الوقت ابتدأ ميل القلوب عنه لاستبداده باطنا وتصرفه طبق شهواته فى السياسة بعد ان كان أوصل فرانسا الى ذرى المجد حتى خطبته سائر الدول بعين الوقار وهرعت ملوك الدنيا الى باريس فى دعوانه للمعرض وكانوا يفتخرون باستمالته نحوهم حتى فضله كثير من عقلائهم على عمه لكنه لما غره زيادة البخت استبد برأيه باطنا وأسرع الى التداخل فى أمر غيره فقلقت الاهالى من عمله ولما أحس بذلك أعان بعمل الانتخاب العام له من سائر السكان بحيث لا يختص باصوات الاعالى بل حتى العامة لانهم لهم الحق فى ذلك من حيث ان التملك اغا هو على الفرانسا و بين مطلقا ولما كانت العامة محبين له لعدم اطلاعهم على مخفياته أو عدم

تبصرهم مع أنه محسن اليهم بحيث يؤثر نفعهم ويوجد لهم أسباب الانتفاع عند الحل ثم ان حزبه يغريهم بالمال عند الانتخاب اذ كان ينفق فى مثل ذلك من أموال الدولة مقادير ذريعة سرا وترسم فى ميزانية الدولة باسماء أنواع من المصاريف اللازمة فبذلك الوجه حصل أغلبية عظيمة فى ارتضاء الفرانسيس بهما لكهم وانشئ اذذاك قانون الامبراطورية المؤرخ فى سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م ونص تعريبه (الحكم الاول) لمجلس الاعيان مزية وضع الاحكام والقوانين بالاشتراك مع الامبراطور ومجلس النواب وله أيضا البداءة فى وضع المعروضات واللوائح الا أن الامور المتعلقة بالمالية ينبغى أن تقرر أولا فى مجلس النواب (الحكم الثانى) عدد أعضاء مجلس الاعيان يمكن زيادته حتى يبلغ ثلثى عدد مجلس النواب ماعدا الذين يحضرون فيه بالاستحقاق وليس للامبراطور أن يعين فيه فى كل سنة أكثر من عشرين (الحكم الثالث) قد تعين الغاء المزية التى خص بها المجلس من جهة التشريع المذكور فى الحكم الحادى والثلاثين من القانون الذى تقرر فى ١٤ كانون الثانى أى ينار سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م (الحكم الرابع) التراتيب التى ألحقت بهذا القانون وهى المشمولة فى الاصول العمومية التى استقرت فى ١٤ وفى ٢١ من كانون الاول سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م وفى ٢١ وفى ٢٢ من الشهر المذكور فى السنة التى بعدها هى أصول المملكة وقوانينها الاساسية (الحكم الخامس) وهذه الاصول والقوانين انما يغيرها سكان المملكة بطلب الامبراطور (الحكم السادس) تعين الغاء الفقرة الثانية من حكم ٢٥ و١٧ و٢٦ و٢٧ و٢٨ و٢٩ و٣٠ و٣١ و٣٢ و٣٣ و٣٥ و٤٠ و٥٢ و٥٧ من تلك القوانين وكذا الاحكام المخالفة لهذا القانون (الحكم السابع) يبقى ماتقرر فى قوانين ١٤ من كانون الثانى دجنبر سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م وفيما بعد ذلك معمولا به اهـ ثم ألحق بهذا القانون علاوة أخرى هذا نص تعريبها

الفصل الاول

الاول قوانين المملكة تعترف وتثبت وتتكفل بالاصول المعظمة التى شهرت فى سنة ١٢٠٤ هـ ١٧٨٩ م وهى أساس شرع الفرانسيس العمومى

الفصل الثانى

﴿فى مزايا الامبراطور ومملكه الثانى﴾

المرتبة

المرتبة الامبراطورية التى خصت بلويس نابليون بونابارت وهو نابليون الثالث فوضت اليه بحسب قرار رأى جمهور المملكة وفى ٢١ تشرين الثانى (نفنبر) سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م وهى مزية متوارثة فى سلسلة ذريته الذكور الاول فالاول ويلغى منها الاناث وذريتهن العائد دائما (الثالث) اذا لم يكن للامبراطور المشار اليه وارث فله أن يتخذ وارثا من سلالة اخوة نابليون الاول الذكور وهذا الاتخاذ لا يباح لخلفائه ولا لورثتهم (الرابع) اذا لم يوجد له وارث حقيقى أو متخذ يخلفه فى الملك البرنس نابوليون وورثته الحقيقيون من سلالة الذكور الاول فالاول ويستثنى من ذلك الاناث وذريتهن استثناء دائما (الخامس) اذا لم يوجد وارث شرعى أو متخذ لنابوليون الثالث ولخلفائه فلسكان المملكة أن ينتخبوا امبراطورا ويعينوا من أهله الوارث من الذكور دون الاناث وفى مدة انتخاب الامبراطور تدار الامور بواسطة الوزراء القائمين بالوظائف بحسب اكثرية الآراء (السادس) افراد عائلة نابوليون الثالث الذين تثبت لهم الوراثة وكذلك سلالتهم ذكورا واناثا هم من العائلة الامبراطورية ولا يمكن لهم ان يتزوجوا الا باذنه واذا تزوجوا من دون اذنه كان ذلك سببا فى حرمانهم من حقوقهم فى الخلافة وفى حرمان ذريتهم أيضا ولكن اذا كان زواجهم عقيما فللبرنس الذى تزوج حق فى الخلافة وللامبراطور أن يعين القاب الباقى من العائلة ويعين حقوقهم وما يجب عليهم وله عليهم السلطة التامة (السابع) النيابة فى الملك مقررة فى القوانين التى نظمت فى ١٧ تموز (يوليه) من سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م وفى الاحوال المشروحة فى الفقرة الثالثة من الحكم الخامس ينعقد كل من مجلس الاعيان ومجلس النواب ويقرر رأيهم على اقامة من ينوب فى الملك (الثامن) كل من افراد العائلة الامبراطورية الذين تحق لهم الخلافة يسمى برنسا وأكبر أبناء الامبراطور يقال له برنس امبريال (التاسع) كل من يطلق عليه برنس يؤهل لان يكون من أعضاء مجلس الاعيان ومجلس الدولة بحيث يبلغ ثمانى عشرة سنة تامة ولكن جلوسه فى المجلسين متوقف على رضى الامبراطور

الفصل الثالث

﴿فى نوع حكومة الامبراطور﴾

(العاشر) الحكومة للامبراطور بمساعدة الوزراء ومجلس الاعيان ومجلس النواب ومجلس شورى الدولة (الحادى عشر) وضع الاحكام والقوانين يجرى بالاتفاق مع

الامبراطور ومجلس الاعيان ومجلس النواب (الثانى عشر) البداءة فى القوانين منسوبة للامبراطور والمجلسين المذكورين ولكن كل تقرير يرسم فيه بوضع الضرائب ينبغى الاقتراع عليه فى مجلس النواب

الفصل الرابع

﴿فى أحوال الامبراطور﴾

(الثالث عشر) الامبراطور مسؤل لامة الفرانسيس وله الحق فى كل وقت لان يبلغها استدعاءه (الرابع عشر) الامبراطور هو رئيس الدولة وهو يحكم على العساكر البرية والبحرية وله أن يأذن بالحرب و يجرى معاهدات السلم والتجارة والاتفاق والمحالفة و يعين جميع الوظائف ويثبت التراتيب والاحكام اللازمة لتنفيذ الشرع (الخامس عشر) اجراء الاحكام القضائية يكون باسمه (السادس عشر) له الحق فى منح العفو والاعفاء (السابع عشر) وفى ان يقر الاحكام ويشهرها (الثامن عشر) مايراد بعد الآن من تعديل الاحكام وتعريفات الكمرك وجعل البوسطة على حسب الموافقة مع أمم أخرى لايكون العمل به واجبا الا بعد أن يقرر أى المجالس عليه (التاسع عشر) الوزراء مرتبطون بالامبراطور وحده وهم يتذاكرون فى مجلس يكون الامبراطور رئيسه وهم مسؤلون (العشرون) يصح للوزراء ان يكونوا من اعضاء مجلس الاعيان أو مجلس النواب وان يحضروا فى أحدهما يان شاؤا وان ينصت اليهم حين يتكلمون (الحادى والعشرون) يجب على الوزراء وأهل مجلس الاعيان ومجلس النواب وضباط العساكر البرية والبحرية والقضاة وذى المراتب ان يحلفوا هذه اليمين وهى انى أحلف بان أكون خاضعا القوانين المملكة وامينا للامبراطور (الثانى والعشرون) الحكم الذى صدر فى ١٢ كانون الاول (دجنبر) سنة ١٢٦٩ هـ ١٨٥٢ م وفى ٢٣ من نيسان (ابريل) سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م مما يتعلق بالمرتب لمصروف الامبراطور يبقى معمولا به أمافى المستقبل فيكون مرتب صاحب التاج مدة ملكه مقررا برسم من لهم مزية وضع الاحكام عند اجتماعهم وذلك بعد نصبه

الفصل الخامس

﴿فى مجلس الاعيان﴾

(الثالث

(الثالث والعشرون) مجلس الاعيان يؤلف ممن هم فى مرتبة الكردينال والمارشال والاميرال ومن الاهلين الذين يرقيهم الامبراطور الى رتبة سيناتور (الرابع والعشرون) لا يتغيرون ووظيفتهم باقية ماداموا احياء (الخامس والعشرون) يصح ان يبلغ عددهم مقدار ثلثى أهل مجلس النواب ولا يصح للامبراطور ان يعين فيه أكثر من عشرين فى العام (السادس والعشرون) رئيسه ونائب رئيسه يكون تعيينهما من قبل الامبراطور وهو الذى يعقد المجلس ويطيل مدة انعقاده ويكون الجلوس فيه علانية ولكن عند طلب خمسة اعضاء منه يصح ان تجعل الجلسة خفية (السابع والعشرون) مجلس الاعيان يحافظ على الشرط الاصلى الجوهرى وعلى حرية العامة وله ان يتذاكر على التقارير المعروضة ويقترع على الضرائب

الفصل السادس

﴿فى مجلس النواب﴾

(الثامن والعشرون) اساس الانتخاب سكان المملكة (التاسع والعشرون) اعضاء المجلس يكون انتخابهم عاما (الثلاثون) مدة انتخابهم لا تنقص على ثلاث سنين (الحادى والثلاثون) ولهم ان يتذاكروا على القوانين ويقترعوا على الضرائب (الثانى والثلاثون) وان ينتخبوا رئيسهم ونواب رئيسهم وكتاب اسرارهم (الثالث والثلاثون) للامبراطور ان يعقد المجلس ويؤخره أو يطيل مدة انعقاده وان يحله لكنه عند حله يتعين عليه ان يعقد آخر فى مدة ستة أشهر (الرابع والثلاثون) الاجتماع يكون ظاهرا ولكن عند طلب خمسة أعضاء يصح ان يكون خفيا

الفصل السابع

﴿فى مجلس الدولة﴾

(الخامس والثلاثون) مجلس الدولة مكلف على حسب ارشاد الامبراطور بان يرسم التقارير واللوائح والتنظيمات المتعلقة بالادارة الدولية وبان يحل المشاكل الناشئة من معاطاة الامور (السادس والثلاثون) وان يرسم باسم الدولة المذاكرة فى المعروضات واللوائح فى كلا المجلسين (السابع والثلاثون) للوزراء حق فى حضور المجلس والاقتراع فيه اهـ فكان الامبراطور يرى ان هاته القوانين ترضى عنه جميع الاهالى سيما بعد

رجحان انتخابه من الجمهور وقد كانت اذ ذاك المشاحنة بين فرانسا وبروسية في ازدياد كما تقدمت الاشارة اليه في اخبار ايطاليا فغيرة من فرانسا على ما نالته بروسية من الشهرة والانتصار على النمسا مع وعد بروسيا امبراطور فرانسا بانها اذا تم قصدها فانها تساعدها على تعديل حدودها جهة نهر الرين وتعدو عن حقوقها من وضع العسكر في لكزنبورغ وادخالها عضوا في العصبة الجرمانية مع انها تحت تملك ملك هلانده ولما حصلت بروسية قصدها ماطلت تلك الوعود السرية التلويحية فهاجت لذلك فرانسا وكان من تخمينها انها اذا شهرت الحرب على بروسية تعاضدها النمسا عليها انتقاما مما حصل لها في سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م وبينما الامر على ذلك واذا باهالي اسبانيا خلعوا ملكتهم وطلبوا ان يولى عليهم الامير دوهنزولرن أحد قرابة ملك بروسيا فارعدت فرانسا لذلك وأبرقت وتداخلت انكلاتيرة في طلب ابقاء السلم لكن الامبراطور نابليون أبى الا الحرب والا فان الامير المطلوب الى الولاية على اسبانيا رفض طلبهم ولم يقتنع بذلك الامبراطور بل ذهب سفيره في برلين الى ملك بروسيا في غير وقت وغير محل معتاد واغلظ عليه الكلام بان يتعهد هو بان لا يقبل الامير المذكور في المستقبل الولاية فلان له الملك الكلام لكنه امتنع من ذلك التعهد وهاجت المانيا جميعا على ما لحق الملك من الاهانة كما ان فرانسا غلت بطلب اعلان الحرب ولم يخالف الا قليل من عقلائهم مثل تيرس فانتهزها نابليون فرصة لاشتغال فرانسا بالحرب عن الهيجان عليه اذ انه وان حصل على أكثرية الانتخاب لكنه كان على يقين من ان حزب النفوذ كاره له ومنتقد عليه وكان وزير الحرب بفرانسا اعلن للمجلس بان العساكر مستعدة كلها وانها تجاوز المليون وان الحرب ولو دامت سنين فلا يحتاجون الى زرة لباس وابتدأت فرانسا باعلان الحرب وتقلد نابليون رياسة العسكر بنفسه واناب زوجه في الملك فاتحدت المانيا على الدفاع وبقيت الروسيا معاضدة لالمانيا معنى لاتفاقها معها سرا فكانت بالمرصاد من النمسا لكي لا تعين بروسيا مع ما في نفسها أي النمسا على فرانسا من اعانتها لايطاليا ومساعدتها من قبل لجرمانيا فلم تتداخل بشيء وما مضت تسعة عشر يوما من ساعة الاعلان بالحرب حتى وقع نابليون اسيرا بيد عدوه اذ في نفس الامر لم تكن فرانسا مستعدة وكانت الاموال المعينة لمصاريف الحرب تصرف فيما يراه الامبراطور حيث كانت الوزراء مسؤولون له لا لمجلس الامة فيتصرف بهم كيفما أراد وكان يظن انه بسرعة الهجوم يحصل على بهرجة الانتصار ويعجل الى عقد الصلح لكن المانيا كانت لها

جواسيس من اعيانها في جميع دواوين فرانسا وفي قصور رجالها على صورة خدمة وغيرهم مع كمال استعدادها وعدم أهاليها على الحرب اذهي دولة عسكرية من قديم وأهالي فرانسا غاب عليهم الميل الى التنعم فالتقى مركز الجيشين في سيدان من عمل فرانسا وحمي الوطيس الى ان تيقن نابليون بالغلب وقوة قرنه عددا وعدة فكتب الى ملك بروسيا ما تعريبه يا أخي حيث اني لم يتيسر لي ان أموت في مقدمة جيشي فها أنا أضع سيفي لدى قدميك اه ورفع من هنالك اسيرا وسبحان الدائم عزه وملكه وهربت زوج نابليون واستقرت مع زوجها بلندرة الى ان مات بها وأما العساكر التي معه فطلبت الاستسلام على وجه لا يحط بشرفها وحيث كانت المخاطبات الواقعة في هذا الشأن واقعة بين الرؤساء بالسلك البرقي ولها أهمية رأينا اثباتها هنا نقلا عن كتاب ألف وطبع في باريس وهي (من الجنرال) دوومبين الفرانساوي الى الجنرال ملتك رئيس عساكر جرمانيا اريد ان أعرف (ماهي) شروط التسليم التي يريد ملك بروسة ان يوجهها الينا (جواب) الجنرال ملتك شروطنا سهلة فان جميع جيشكم أسرى مع كل ما عندهم من الاسلحة والذخائر ولكن نترك للضباط سيوفهم علامة على اعتبارنا لهم وعلى بسالتهم ولكن يكونون أسرى أيضا كبقية الجيش (الجنرال) دوومبين هذه الشروط شديدة ياجنرال اذ الظاهر ان بسالة عساكر فرانسا تستوجب مراعاة أكثر من هذه أليس من الممكن لجيشي ان يتحصل على شروط على هذه الصورة الآتية وهي ان أسلم لكم سيدان بما فيها من المدافع (وأما) العسكر فتتركوه يخرج بما عنده من الاسلحة والاثقال والرايات بشرط ان لا يعود لمحاربة بروسية في هذه الحرب والامبراطور يتعهد بنفسه بهذه الشروط بالمكاتبة وكذا أعيان ضباطه العسكرية ثم ينقل هذا الجيش الى احدى جهات فرانسا التي تعينها بروسية أو ان شئت ينقل الى الجزائر الى ان يبرم بيننا الصلح (جواب) الجنرال دوملتك طلبكم هذا لا يقارن القبول (الجنرال) دوومبين اني وصلت الى هنا من صحراء افريقية منذ يومين فقط وكان لي الى الآن شهرة عسكرية مرضية والآن فوض الى رئاسة جيش في ميدان القتال فاصبحت مضطرا الى ان أقيد اسمي في الاذعان لمصيبة مثل هذه حتى اضطررت أيضا الى تحمل جميع المسؤلية بدون ان أكون قد أحدثت هذه الوقائع الحربية التي هي سبب في هذا التسليم وحيث انك جنرال مثلي يلزمك ان تشعر بحالي المحزنة ولكن يمكنك تخفيفها باشتراطك على شروطا أهون وأيسر والا فلا يمكنني قبول شروطكم وحينئذ اذعو جيشي الى شرفهم واخترق بهم

صفوفكم والافابق فى سيدان متوقعا (جواب) الجنرال مالتكاه تمارى لكم عظيم وشرح حالكم فى محله ولكن أتأسف على انه لا يمكننى فعل شئ مما طلبتموه واما خرق الصفوف وخروجكم من سيدان فمن المحال وكذلك تحفظكم فيها لانه ان عندكم عساكر عظيمة ولا سيما المشاة فانهم على غاية من المهارة والاقدام وكذا فرسانكم وطوبجيتكم وقد أوقعوا بنا ضررا كبيرا فبان جل عساكركم قد فسدت اطوارهم وعندنا اليوم من اسراهم ازيد من ٣٠٫٠٠٠ نفر غير الجرحى فلم يبق عندكم الآن أزيد من ٨٠٫٠٠٠ نفر فلا يمكنكم اذا خرق صفوف جيشى فيلزم ان تعلم ان من جيشى حوالكم ٢٤٠٫٠٠٠ نفر و ٥٠٠ مدفع منها ٣٠٠ على هيئة الاستعداد لاطلاق النار على سيدان والباقى اعنى ٢٠٠ تكون على هيئة الاستعداد فى فجر الغد فان شئت تحقيق ذلك فارسل أحدا من ضباطكم الى والأرسله الى المواقع المذكورة حتى يشاهد بنفسه ما قلته لكم أما تحفظكم داخل سيدان فمن المستحيل لان المؤنة التى عندكم لا تكفيكم الا ٤٨ ساعة ولم يبق عندكم شئ من الذخائر (جواب) الجنرال الفرانساوى الظاهر ان من مصلحتكم حتى من المصلحة السياسية أيضا ان شروط التسليم لا تكون مخلة بشرفنا الان جيشى يستوجب ذلك ومرادكم عقد الصلح وما أظن الا انكم تريدون عقده بسرعة وأمة فرانسا كريمة أكثر من غيرها ومستعدة للفداء وعلى هذا فهى تقدر مكارمكم التى تخصونها بها وتراعى الجميل فان امكنكم ان تشرطوا علينا شروطا من شأنها مداراة خاطر الجيش فان الامة تحسبه أيضا متعلقة لها فيخفف عنها مرارة الانهزام و بث شروط الصلح على هذه الصورة يكون على الدوام (أما) اذا عاملتمونا بالقساوة فلا شك انكم تثيرون الكراهة لكم والبغض فى قلب كل عسكرى وعزة نفس جميع الامة تعود وقد استناءت و بذلك توقظون الاحساس الذميم الذى انامه التمدن وتخاطرون بايقاد حرب لانهاية لها بين فرانسا و بروسية فاجابه البرنس بسمارك قائلا برهانك يظهر بادى بدء انه على الجد وهو فى الحقيقة كلام ظاهر ولكن كما انه لا ينبغى ان يعتقد داعتقادا راسخا بممنونية الانفراد فكذلك لا ينبغى ان نتوقع ممنونية أمة كاملة أو نركن الى ممنونية ملك ومراعاة الجميل معه وان شئت فقل مع أهله أيضا نعم انه فى بعض الاحيان يمكن الركون الى عهد ملك ولكن اكرر لكم انه لا يمكن انتظار مراعاة الجميل من أمة ولو كانت أمة فرانسا مثل بقية الامم ولو كان عندها تنظيمات ومبادى راسخة ولو كانت مثل أمتى تحترم احكامها وتنظيماتها ولو كان عندها ملك جالس على سرير الملك على أصول راسخة

ثابتة

ثابتة لكنا نعتقد بعمومية الامبراطور وابنه أما فرانسا فقد مضى ثمانون سنة وحكومتها قد تغيرت نوعا وجنسا بصورة غير ثابتة فما عاد من الممكن ان يعتمد عليها فبناء آمالنا على مودة ملك فرانساوى يكون من قبيل بناء فى الهواء فاذا صدقنا ان فرانسا تسامحنا عن ظفرنا بهاسامح كونكم أمة سريعة الهياج ومجبولة على الحسد والكبر الى النهاية فذلك جنون فانها اعلنت بحرب بروسية منذ مائتى سنة ثلاثين مرة وهذه المرة اعلنتم الحرب معنا حسدا كعادتكم اذ لم يمكنكم ان تسامحونا عن ظفرنا فى واقعة سدوه فهل يمكنكم ان تسامحونا اليوم فى ظفرنا فى سيدان كلا ثم كلا فان عقدنا معكم الصلح الآن فبعد بضع سنين تعودون الى حربنا حين يتيسر لكم ذلك وهى المكافات على الجميل التى ترقبناها (أما) نحن فاخلاقنا مخالفة لاخلاقكم فانا أمة صادقة ساكنة لا تحرص على الفتوحات وانما تحرص على ان تعيش بالسلم وقد كفى اليوم فيلزم ان تتأدب فرانسا على تجبرها ويلزمنا ان نطمئن على سلامة اولادنا ولذا يلزم ان يكون بيننا وبين فرانسا حدود منيعة فلا بد لنا من ارض وحصون وحدود لنكون دائما آمنين من هجومها (جواب) الجنرال الفرنساوى قد غلطت يا أيها الذات الموقر فى حكمك على أمة فرانسا فانك انما تتصور فرانسا فى سنة ١٨١٠ وتتصور حالها من ابيات بعض الشعرا ومن كلام بعض الجرنالات وهى اليوم على غير حال فان بهمة الامبراطور صارت افكار أهاليها مشغولة بالتجارة والصنائع والعلوم وكل واحد منهم يسعى فى تكثير مكاسبه وينظر الى منافعه وكلهم يحبون الاخاء انظر الى انكلترة مثلا فاين اليوم تلك الكراهة التى طالما أبعدتنا منها أليس ان الانكليز اليوم اعز أحبابنا وكذلك يكون أهل المانيا اذا أظهرتم المكارم معنا (البرنس) بسمارك قف هنا يا جنرال ان فرانسا لم تتغير فانها هى التى اكرهتنا على الحرب ولاجل خداع الامة حرصا على نفع آل الامبراطور نابليون الثالث أعلن بحربنا ثم انا ندرى ان كثيرا من أهل فرانسا وهم العقلاء لم يريدوا الحرب ولكن تلقوا افكار الامبراطور بالقبول والباقى هم الذين تحمسوا للحرب حتى أصحاب الجرنالات أيضا فهؤلاء القوم يلزم تأديبهم ولذلك يلزمنا ان نسير الى باريس ومن ذا الذى يدرى ماذا يقع بعده اذ من المحتمل انه ينشأ عندكم دولة من الذين لا يعفون عن شئ بل يحدثون أحكاما على حسب هواهم ولا يعترفون شروط تسليم جيشكم فربما ألزموا الضباط نقض عهودهم ثم انا نروم الصلح ولكن الصلح الذى يكون على أساس الثبات والدوام وشروطه صارت معلومة لكم فيلزمنا ان نجعل فرانسا

بصورة بحيث لا يعود يمكنا الها ان نقاومنا فيما بعد وقد قدر الله ان تكون زهرة عساكركم أسرى عندنا فمن الهوس ان نعيدهم اليكم ليعودوا الى محاربتنا وشأن ذلك دوام القتال ومصلحة بلادى تأباه أيها الجنرال مهما يكن من المصالح المختصة بذلك ومهما يكن من أفكارك عن جيشكم فلا يمكننى الاجابة الى مطلوبك أو تغيير شئ من الشروط التى أبلغتك اياها (الجنرال) الفرانساوى فلا يمكننى اذا ان أوقع شروط التسليم على هذا المنوال بل يلزمنا ادامة القتال (جواب) الجنرال كستلان من أعيان الامراء الفرانساوية الى البرنس المشار اليه عندى ان الوقت قد حان لابلاغ ما ذكرتم الى الامبراطور (جواب) البرنس بسمارك انا سامعون لكم (الجنرال) كستلان قد كلفنى جناب الامبراطور ان أبلغ مسامع جناب ملك بروسية انه كان بعث اليه بسيفه بدون شرط وسلم نفسه له بلا شرط وانما فعل هكذا أملا فى ان الملك يشعر بما يوجبه هذا التسليم فيقع لديه موقع الاعتبار فيتساهل مع جيش فرانسا بتسليم أشرف لهم كما تستحقه بسالتهم (البرنس) بسمارك أهذا كلامكم كله (الجنرال) كستلان نعم (البرنس) بسمارك ما هو السيف الذى سلمه الامبراطور هل هو سيف فرانسا أو سيفه الخاص به فاذا كان سيف فرانسا أمكن تعديل الشروط ولكن يكون جوابكم الاخير ذا بال (الجنرال) كستلان السيف الذى سلمه لكم الامبراطور هو سيفه فقط (الجنرال) ملتك فعلى هذا لا يمكن تبديل شئ من الشروط وانما يكون للامبراطور ما يختص به (الجنرال) دوويمبين اذا نستأنف الحرب (الجنرال) ملتك المهلة تنقضى فى فجر الغد وفى الساعة الرابعة أشرع فى اطلاق النار عليكم (البرنس) بسمارك نعم أيها الجنرال ان عندكم عساكر شجعانا فلا أشك انهم يظهرون غدا بسالة غريبة ويرزؤن منا ويوقعون بنا الضرر ولكن ما الفائدة من ذلك لانك فى مساء الغد لا تجد نفسك متقدما أكثر مما تقدمت اليوم ويبقى فى أعناقكم دم عساكركم بل عساكرنا أيضا الذين يسفكون دماءهم لغير فائدة فقد أخبركم الجنرال ملتك ان مقاومتكم انما هوس (الجنرال) ملتك انى أؤكد لك مرة أخرى ان خرق صفوف عساكرنا لا يمكن ولو كان عسكركم على أحسن أهبة لانه فضلا عن كون عسكرنا أكثر عددا من عسكركم فانى مستول على مواقع تمكننى من احراق سيدان فى بعض ساعات وهذه المواقع متسلطة على جميع الجهات التى يمكنكم المرور منها وهى منيعة فلا يمكنكم حوزها (الجنرال) الفرانساوى ليست مواقعكم قوية كما تذكرون (الجنرال) ملتك أنت لا تدرى المواقع حول سيدان وانى أفيدك فائدة تبلغ من أمتكم المتكبرة وهى انكم عند

افتتاح

افتتاح الحرب بينناوزعمتم على ضباطكم خرائط كان رسمها وطبعها في المانيا فلم يمكن لكم حينئذ ان تطلعوا على مواقع بلادكم اذلم يكن عندكم خرائط لها فأقول لكم الآن ان هذه المواقع فضلا عن كونها منيعة فالاستيلاء عليها ضرب من المحال (الجنرال) الفرانساوى انى اغتنم الفرصة لارسال أحد من ضباطي كما عرضتم على في مبادى الامر حتى يرى مواقعكم المنيعة وعند رجوعه أجاوبكم (الجنرال) مانتك لاترسل أحدا فان ذلك عبث اذ ليس لكم وقت طويل حتى تتداركوا ما يلزم فعله فالوقت الآن نصف الليل وبعد أربع ساعات تنقضي المهلة ولا يمكنني أن أمهلكم بعدها ولو دقيقة واحدة (الجنرال) الفرانساوى ولكن يلزم ان تعلموا انه لايمكنني بت الرأى على شيء وحدى فيلزم ان أشاور سائر رفقائي الضباط ولست أدرى أين أجدهم في سيدان في هذه الساعة فلا يمكنني أن أعطيكم جوابا في الساعة الرابعة فمن الضرورة والحالة هذه اطالة المهلة فعند ذلك أسر البرنس بسمارك الى الجنرال مانتك في اذنه وأشار اليه بتطويل المهلة الى الساعة التاسعة أعنى قبل الظهر بثلاث ساعات فلما حانت سلم الجنرال الفرانساوى جميع عساكر فرانسا الذين في سيدان على موجب شروط الجنرال مانتك وبذلك يتبين حالة قوة فرانسا اذ ذاك واستعدادها فلذلك انقلب رأى الامة الفرانساويه وحملوا الذنب على نابليون وخلعوه وأعادوا الدولة الجمهورية ثانيا وعاندوا المانيا الى ان حاصرت باريس وأخذت مئات آلاف من عساكر فرانسا أسرى منهم مائة وخمسون ألفا أو يزيدون سلموا من غير دفاع في قلعة متس تحت رياسة الماريشال بازين ثم عقدوا الصلح على نحو ما طلبت المانيا بأخذها ولاية الالجاس وقسم من ولاية اللورين وغرامة خمسة آلاف مليون فرنك مقسطة على خمس سنين وتتوج ملك بروسيا امبراطورا على المانيا في قصر فرساى وحضر له ملوك المانيا ودخلت عساكرهم الى باريس على وجه الانتصار بالحرب ومن ذلك الوقت تغيرت السياسة الاروباوية وصارت المانيا هي معدلة الميزان لكن فرانسا استولى رياسة جمهوريتها الرجل الشهير تيرس ولم يشغلها بعد حصول حرب أهلية هائلة من جمعية تعرف بالكومون أى الاشتراكيين الذين يريدون ان تكون الناس كلهم شركاء في جميع ما يمكن ان ينسب الى انسان وأضروا بباريس أكثر من اضرار المانيا بها وقد أظهرت فرانسا من الغنى ما لم يكن في الحسبان ودفعت الغرامة تماما قبل ابانها بأزيد من سنتين ولم يؤثر ذلك في ماليتها أدنى خلل فان المقدر من خسائرها وغراماتها في ذلك الحرب نحو عشرة آلاف مليون ومع ذلك فانها عند ارادتها

استقراض ثلاثة آلاف مليون لدفع بقية الغرامة هرعت لها أرباب المال من كل فج حتى من المانيا واحضروا لها ما ينيف عن الخمسين ألف مليون وأقبلت على اصلاح داخليتها وعساكرها باعتبار أرجعها الاعتبار وأوجس غالبها منها خيفة وقد أحدث الفرانساويون في حديقة الشانزي لزي محلا حيطانه مرايا مكبرة بحيث يحسبه الداخل بلا حيطان ويرى منه صورة حالة باريس من الحرق والهدم وقت الحرب تذكارا منهم لاحياء أخذ الثار وقد رأيت ذلك المكان وله منظر هائل واستقرت الحكومة الى الآن جمهورية

مطلب

﴿في السياسة الداخلية في فرانسا﴾

قد تقررت الحكومة الجمهورية على القانون الآتي ترجمته (البند الاول) ان مجلس الاعيان ومجلس النواب يجتمعان كل عام يوم الاربعاء (الثاني) من كانون الاول يناير الا ان يكون جمعهما قبلا لرئيس الجمهورية فالمجلسان ينبغي أن يعقد جلساتهما أقله في مدة خمسة أشهر كل سنة وجلستا كليهما تجتمعان وتنتهيان معا وتقام الادعية الجمهورية لله سبحانه في الكنائس والمعابد لالتماس المعونة منه تعالى في اعمال المجالس (البند الثاني) ان رئيس الجمهورية يختتم الجلسة وله حق أن يستدعي المجالس للاجتماع فوق العادة وينبغي أن يستدعيها اذا ما صار الطلب في اثناء الجلسة من أكثرية الاعضاء المؤلفة لكل مجلس على ان رئيس الجمهورية له أن يؤجل اجتماع المجالس انما لا يمكن أن يطول هذا التأجيل أكثر من شهر ولا يحدث أكثر من دفعتين في جلسة واحدة بعينها (البند الثالث) وقبل ما ينتهي الاجل القانوني لسلطة رئيس الجمهورية أقله بشهر واحد يجب ان تجتمع الاعضاء في مجلس الامة ايما اشهر والانتخاب الرئيس الجديد واذا لم يصر استدعاء المجالس للاجتماع فعلى المجالس ان تجتمع من تلقاء ذاتها قبل نهاية سلطة الرئيس بخمسة عشر يوما واذا ما توفي رئيس الجمهورية أو تنازل عن وظيفته يجتمع المجلسان حالا باسلطانهما الخاص واذا ما وقف مجلس النواب حين ما يفرغ مسند الرئاسة الجمهورية تبعا للبند الخامس من قانون ٢٥ شباط فبراير سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٥ م تستدعي المجامع الانتخابية حالا ويجتمع مجلس الاعيان الخاص بمطلق سلطانها (البند الرابع) ان كلا من مجلس

مجلس النواب والاعيان اذا اجتمع فى غير الوقت المعين للجلسة العمومية يكون باطلا ولغوا مطلقا ماعدا الحادث المنبه عليه فى البند السابق وماعدا ما اذا اجتمعت الاعيان للقضاء فى الدعاوى والعدلية وفى هذا الحادث لا يحق لها الا مباشرة اوظائف القضائية (البند الخامس) ان جلسات الاعيان ومجلس النواب تكون مشتهرة على ان كل مجلس له أن يقيم جمعية سرية فى طلب عدد معلوم من أعضائه معين بالقوانين ثم تقضى بموجب رأى الاكثرية المطلقة اذا ما اقتضى اعادة الجلسة جهارا على نفس المشروع (البند السادس) ان رئيس الجمهورية يخابر مع المجالس بواسطة رسائل يقرؤها أحد الوزراء ويحق للوزراء الدخول فى المجلسين والتكلم فيما اذا ما طلبوا الاصغاء لاقوالهم ولهم ان يستعينوا بمعتمدين معلومين للبحث فى انشاء قانون معين بحكم رئيس الجمهورية (البند السابع) ان رئيس الجمهورية يبث السنة فى الشهر الذى يلى تسليم السنة المقررة نهائيا للحكومة وعليه أن يبث فى ثلاثة أيام السنن التى حكم كلا المجلسين بوجوب السرعة فى بثها على ان رئيس الجمهورية له فى المهلة المعينة لاذاعة السنن أن يطلب بواسطة رسالية محققة ولا يرفض طلبه اعادة المخابرة فى تقرير القانون والسنة (البند الثامن) لرئيس الجمهورية أن يخابر فى المعاهدات ويقررها ويبلغها للمجالس حالما تسمح له بذلك صوالح الدولة وأمنيتها أما المعاهدات المتعلقة بالصلح والتجارة والمعاهدات المرتبطة بمالية الدولة والمنوطة بحالة الاشخاص وبحق الملكية لتبعة الدولة الفرنساوية فى الخارج فلا يجزم جزما نهائيا الا بتقرر المجلسين ولا يعطى ولا يبدل شئ من الاراضى الفرانساوية ولا يضاف اليها شئ الا بتقرير قانونى من المجالس (البند التاسع) ولا يحق لرئيس الجمهورية أن يشهر الحرب بدون رضى المجلسين (البند العاشر) ان كلا من المجلسين قاض فى انتخابه أعضائه وفى أحكام قانونية انتخابه وله وحده أن يقبل اعتفاء من يعتفى من وظيفته (البند الحادى عشر) ان رؤساء كل من المجلسين ينتخبون كل عام لمدة الجلسة بتمامها ولكل جلسة فوق العادة تصير قبل الجلسة المألوفة فى السنة التالية ومتى اجتمع كلا المجلسين بجلسة مجلس الامة تتألف رؤساؤه من الرئيس ونائب لرئيس وكتمة أسرار الاعيان (البند الثانى عشر) لا تقبل شكوى على رئيس الجمهورية الا من مجلس النواب ولا يحكم عليه الا الاعيان وتقبل الشكوى على الوزراء من مجلس النواب بجناية ارتكبوها فى مباشرة وظيفتهم فحينئذ تقام محاكمتهم فى الاعيان ولرئيس الجمهورية ان يقيم على الاعيان مجلس محاكمة بحكم يصدره فى مجلس الوزراء لمحاكمة كل من تقدم عليه شكوى بذنب

يخل بأمنية الدولة واذا ما شرع بالاستعلام فى محكمة العدلية المألوفة فيمكن أن يصدر الحكم باستدعاء الاعيان للاجتماع الى حين استئناف الدعوى اليها ويقام قانونا يعين كيفية سماع الدعوى والاستنطاق والحكم (البند الثالث عشر) لا تقام دعوى على أحد الاعضاء من كلا المجلسين ولا يطالب بشكوى فى شأن رأيه واقتراعه حال كونه فى مباشرة وظيفته (البند الرابع عشر) ولا تقام دعوى على عضو من كلا المجلسين بمادة جنائية أو تأديبية ولا يلاقى القبض عليه فى مدة الجلسة الا باذن المجلس الذى هو عضو منه ما لم يؤخذ فى حال فعله ويتوقف ضبط أحد الاعضاء من كلا المجلسين ومحاكمته فى الجلسة وفى كامل مدتها بطلب المجلس اه فهذا القانون يبين لك أصول الادارة ورئيس الجمهورية الآن قد عينت له مدة الرياسة خمس سنين وهو الآن البرنس اقريفى وأما بقية تفصيل الادارة فهى على نحو ما تقدم فى الكلام على سياسة ايطاليا من انفراد الادارة العامة عن الاحكام الشخصية وتصرف رئيس الدولة بواسطة الوزراء وكون الوزراء مسؤلين لمجلس النواب ومجلس الاعيان بحيث ان الحكومة شورية حقيقية لا يصدر عنها الا ما وافق عليه غالب الامة بواسطة وكلائهم يجرى ذلك فى حقير الاشياء وعظيمها والوزراء ينتخبون ممن تثق بهم اغلبية المجالس لكى يأمن المجلس بتصرفاتهم لان للمباشرة فى الاجراء مدخل عظيم فى نجاح الافكار ولان بعض الامور تفوت بفوات وقتها فهب ان الوزير مسؤل ويجرى عليه العقاب باخلاله لكن منفعة الامة عموما تفوت بفوات الفرصة ولذلك كان انتخاب الوزراء ممن تعتمد المجالس عليهم زيادة على شروط الاهلية الذاتية وهكذا بقية الادارات على نحو ما مر فى ايطاليا غير ان فرانسا لما كانت لها مستعمرات كثيرة فهى تعدهم مثل ولايات فرانسا واوطانها فى كيفية الادارة وكون مصدرها هم الوزراء المعهودون من غير تخصيص بوزير للمستعمرات كما تفعل الدول التى لها مثل ذلك فهى من هاته الجهة تعد مستعمراتها اجزاء منها لكنها تحرمهم مما تحوزه اهل فرانسا من الحقوق والمنح كالحرية وحق ادخال اعضاء فى مجلس النواب وأعضاء فى مجلس الاعيان الى غير ذلك من الامتيازات المحصل عليها أهل فرانسا فلذلك كانت مستعمراتها أسوء حالا من غيرها لفقدانهم حريتهم الاصلية وعوائدهم واستقلالهم مع حرمانهم مما للمتسلطين عليهم من الخصائص (وأما) ادارة الاحكام فهى أيضا على نوع ما تقدم فى ايطاليا ومن أهم ما يذكر فيها وجود حكام الجورى وهم أعداد من مطلق الناس تنتخبهم العامة لمدة من الزمان لاجل مشاركة

مجلس

مجلس الجنايات الشخصية فى النظر بمعنى أنهم يحضرون المجلس المركب من رئيس وعضوين ويعمل المجلس جميع المقدمات بحضرهم ثم يسألهم رئيس المجلس عما يرون فى النازلة هل صاحبها مجرم أم لا ومن أى نوع جريمته فيتفاوضون وما يستقر عليه رأيهم يعملون به المجلس ثم المجلس يطلق المدعى عليه حالا ان رأى الجورى براءته أو يعين العقوبة من القانون ان رأى ذنبه والسبب فى ايجاد الجورى هو زيادة الاحتراس فى الحكام عن ميلهم الى محاباة الامراء والوزراء لان وظيفة الحكام وان كانت عمرية وهم منتخبون بشروط العفة والاهلية ووراءهم احتساب مجلس الاعيان ومجلس الامة ومن ثبت ارتشاؤه يعاقب أشد العقاب ولانهم لا العفو به بعفو أوشفاعة لكن ربما أغرتهم مع ذلك الدواعى بالترقى الى الرتب العالية التى هى بيد الامراء والوزراء وبتعدد الاحتساب عما يترتب من الحيل فدفع هذا بمشاركة الجورى الذين هم ليسوا بموظفين ولا خوف ولا طمع لهم لكن فى ذلك مفسدة أيضا اذ هؤلاء الجورى كثيرا ما يكونون غير فقهاء ولا دراية لهم بالاحكام ولا بمواقعها ولا بالتحرى فيها فيخبطون خبط عشواء ويضيع الحق بسببهم اذ لا تعقب ابرونه وبه يعلم مدرك الشرع الاسلامى فى أناطة الحكم بالعلماء أهل العدالة وما أدراك ما العدالة ومشاورة الحاكم للعلماء وكون حكمه جهريا ثم وراءه احتساب أهل الحل والعقد الداخل فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن المفاسد الموجودة أيضا عندهم فى انتخاب أعضاء مجلس النواب أوغيرهم ممن تنتخبه الاهالى ان افرادا ممن يعدون أنفسهم للانتخاب يعقدون مواكب ويدعون اليها الاهالى فى أماكن فسيحة ويلقون عليهم خطبا يبينون فيها أفكارهم ومقاصدهم فى سياسة المملكة وجدارتهم للقيام بالمناضلة عنها وتنتهم بالسامعين لان يكونوا من حزبهم حتى يقع انتخابهم على الخطيب ومع ذلك يعطون الرشا لمن له صوت فى الانتخاب لكى يحصلوا بذلك أكثرية المنتخبين فكثيرا ما ينجح سعيهم ويحصلون على الوظيفة بذلك الطريق بعد أن تقع غوغاء وتشاتم وسباب بين أحزاب المنتخبين فيدخل بسبب ذلك فى الوظيفة من لا ترتضيه الاهالى حقيقة أو من ليس جديرا بها لكثرة أغراضه وغير ذلك وهذه المفسدة ولان كانوا جعلوا لها علاجا وهوانه بعد التئام المجلس المنتخب ينظر فى المنتخبين هل هم مستكملو الشروط أم لا ومن كان غير مستكمل يفصل عن المجلس ويعاد انتخاب غيره لكن ذلك لا يفيد فى أغلب الاحوال لان الذى انتخب بحيلته ورشائه قد يكون مستكمل الشروط الرسمية فلا يبعد المجلس

سبيلا للقدح فيه لكنه غير مستكمل الشرط الاساسي وهو ارتضاء الامة حقيقة بسلكه السياسي فلذلك كان ينبغى أن يعتبر ان طالب الولاية والامانة يحرم منها فشرعنا الشريف ولله الحمد مزيج عن امثال تلك المفسدة وطالب الولاية وان كان عدلا متوفرة فيه شروط وظيفته فانه يحرم منها بحرصه عليها هذا وقد تضمن كتاب أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك تفصيل ادارة هاته المملكة بما يعز وجوده فى غيره وينبئ عن باع صاحب التأليف وبصارته فى السياسة فمن أراد تحقق الامور وتفصيلها فليرجع اليه

مطلب

﴿فى السياسة الخارجية فى فرانسا﴾

(اعلم) ان فرانسا لما كانت من أعظم الدول الاوروباوية وفى طبيعة أهلها حب الفخر والوجاهة أكثر من غيرهم كانت تحب التداخل فى أمر غيرها أشد من سواها من يقاربها وكفى بما ذكرناه فى أحوال نابليون الاول والثالث وأسباب حرب سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م شاهدا على ما ذكر ولذلك كانت فرانسا لها مالايطاليا مما ذكرناه فى سياستها الخارجية وتزيد بتطلب النفوذ فى جميع الجهات اذ جعلت فيها مستعمرات كثيرة فى كل مملكة جاورتها ولو فى مستعمراتها تتطلب النفوذ لديها ولو بالاعتبار فيما اذا كان الجار ذا شوكة وشأن (أما) اذا كان ضعيفا فى القوة والادارة فانها تلتقمه مهما سمحت لها الفرصة شأن طبيعة الدول القوية ودونك ما وقع فى تونس هاته السنة وهى سنة ١٢٩٨ هـ مما يوضح هذا المقصد وهو الذيل الذى نبهنا عليه فى الباب الثانى عند الكلام على سياسة تونس الداخلية والخارجية

ذيل

﴿فى تسلط فرانسا على تونس﴾

قدمر فى المطلب الثامن من أحوال الادارة الداخلية فى تونس حالة وزارة وزيرها مصطفى ابن اسماعيل وتصرفاته وما وقع فى نازلة صانى الفرانساوى التى كانت سببا فى خوف هذا الوزير من القنصل ورام أن تبدله دولته وتقدم أيضا ما هى مقاصد فرانسا فى تونس وانها تروم نيل الدرجة العليا فيها ولما رأت سيرة الوزير المذكور لم تأمن وقوع ارتباط كانت مغايرة لما كانت راضية بالبقاء عليه وخشيت ضياع الفرصة من

سهولة

سهولة التوصل على يد ذلك الوزير الى مالم يمكن التوصل به على يد غيره من ذوى العرض والعقل فلذلك بينما كانت مساعى الوزير جارية فى ابدال القنسل واذا بالسعاية اليه قد غيرت مشربه حتى طمع فى ولاية العهد بان يتولى هو الامارة بعد سيده الوالى الحالى الصادق باشا اذا أتم ادخال تونس طوعا تحت فرانسا فراكن حينئذ القنسل واحكم معه المودة وصارت بطانة الوزير تأتى اليه معلمة بجميع اسرار الحكومة وسائر تصرفاتها واضمر ابن اسمعيل الشر لمن كان أوعز اليه بان يتشكى من القنسل الى دولته ثم تفطن بذلك التواطؤ السرى ونصحه بانه لا ينتج له شيأ وعلى فرض الوفاء له بالوعد فانه لا يلبث ان يناله ما نال الوزير العلقمى فى انقراض دولة بنى العباس من بغداد واتفق ذلك الوزير مع القنسل على شروط ادخال تونس تحت فرانسا غير ان الوالى لم يساعف على لائحة تلك الشروط التى قدمت اليه سرا بواسطة الوزير وخشى من الدول ومن الاهالى فى البغى منه على الدولة العثمانية وفى تغيير حالة السياسة وجعل الوالى يسوف العقد من وقت الى آخر وجعل الوزير يسعى فى احداث وجه لتداخل فرانسا وانفاذ أمرها فاكثر من الرسل السرية الى الاستانة متطلبا ان يدعى هو اليها رسميا أو يرسل بعض الاسطول العثمانى الى مرسى تونس مع اظهار زيادة التشيع الى الدولة العثمانية حتى لا يتفطن الى مساعيه الباطنية فلم يساعف من السلطان الى مطلبه اذ لم يكن له من داع كما انه لم تتدقق الدولة العثمانية الانتقادات الى دسائسه وعزمه حتى تسعى فى سعة لدفع الغوائل المتوقعة اذ من المعلوم ان الدغل السياسى هو كالمرض المزمن الذى لا ينجع فيه العلاج الا تدريجا عند أول حدوثه سيما اذا كانت الدولة المعالجة محتاجة الى استمالة غيرها من الدول القوية الى معاضدتها على قرنها الاقوى ومع ذلك أيضا قد عكر الوزير ابن اسمعيل حالة الخلطة مع ايطاليا لعلها تعلن على تونس الحرب ومنح للفرانساويين منحا لم يطلبوها مما يزيد فى نفوذهم والشحناء معهم كما تقدم ذكره فى المطلب الثامن من أحوال تونس ولما لم تنجح جميع تلك المساعى التى كان يمكن لفرانسا الاستناد عليها فى وضع حمايتها على تونس أحدثوا اقاويل فى اهمال حقوق الفرانساويين بتونس وأظهر الوزير المذكور الاستخفاف بقنسل فرانسا ومال عنه كل الميل ظاهرا ورام ان يظهر التعطيل فى اجراء المنح التى أنالها الى الفرانسيس باوجه من الاعتذارات حتى اغريت رعايا فرانسا بتونس على ان تكتب تقريرا بالتشكى من ضياع حقوقهم وطلب دولتهم للانتصاف لهم فلم يرع الامم الا ان فرانسا اجلبت بخيلها ورجلها على حدود تونس معلنة

بان قصدها انما هو حفظ حقوقها من جهة الحدود وغيرها واستندت في عملها لما تضمنته لائحة وزير خارجيتها الى سفرائه وهذا نص تعريبها باريس ٩ مايس سنة ١٨٨١ أيها السيد اتشرف بأن نرسل لكم جملة رسائل في شأن تونس ونريد ان نحقق لكم المقصود اجمالا ونخبركم عن سبب ارسال العساكر الآن وعن النتيجة التي نرجو اتمامها فكم من مرة قد عرفت الدولة الجمهورية بدواعيها ومقاصدها وانتم تتذكرون ذلك خصوصا ما صرح به السيد رئيس الوزراء في المجلس العام وهو لا يمكن ان يكون فيه ادنى شك من جده وصدقه ومع هذا فاني اريد زيادة ايضاح لكم لينفعكم لدى الدولة التي انتم عندها فنقول ان سياسة فرانسا في تونس ليس لها الا مقصد واحد وهذا المقصد الذي يكفي لوضوح موضوع سيرتنا منذ خمسين سنة نحو المملكة هو الواجب علينا لحفظ راحة مستعمراتنا العظمى الجزائرية فمن سنة ١٨٣٠ لم تأت دولة من الدول المتتابعة وتركت هذه المهمة العظيمة وانما العمل الواجب علينا لحفظ مستعمراتنا الافريقية التي لا يوجد أحد من أوروبا انكر علينا ذلك فيما لحفظها من جار عدو كثير الاراجيف وقد كانت القبائل التونسية مخوفين ومحاربين حتى فيما بينهم وقد فاق على الجميع قبائل وشتاتة والفراشيش وخمير ولا تعرف كمية المحاربين ولا كمية قوتهم فلذلك التزمنا الآن ان نرسل من العساكر عشرين ألفا وهذا مما يدل على قوتهم أي الاعداء المتحصنين في بلاد منيعة تقريبا وكان الداعي الاول لارسال العساكر هو قهر قبائل حدودنا الشرقية ولكن لا فائدة في تقرير الامن والراحة واعداؤنا الازلوا يهددوننا ونحن لا نخاف من الهجوم الكبير المنسوب لباي تونس اذا كان منه وحده لكن النظر القليل في العواقب الزمنا التحري من اتحاد الباي مع غيره وهذه التشويشات يمكن ان يأتي لها وقت وتقلقنا كثيرا في الجزائر وتصل حتى الى فرانسا فلزمنا بناء على ماذكر ان يكون لنا عند الباي محبة كبيرة واتفاق قلبي ويلزمنا جار يعوضنا المحبة التي لنا عليه ولا يسمع التشويشات الخارجية لضررنا واستحقار قوتنا الراسخة وقد وضحنا من نحو أربعين سنة بانه يلزمنا لمحافظة فرانسا الجزائرية ان نحصل في المملكة على قاعدة راسخة ونحن نحترم بالتدقيق منافع الاجانب وهم يقدرون ان يتوسعوا بثبات مع فوائدنا والدول يتحققون ان مقاصدنا من جهتهم لا تتغير والى هاته المدة الاخيرة اتحادنا مع دولة الباي المفخم مستمر الا ما يحدث احيانا من الاختلاف في دفع تعويضات لقبائلنا المضرورين ثم في الحين يرجع الاتحاد ويزداد ثبوتا بعد هاته الاختلافات

الصغيرة

الصغيرة الاهانة المدة الاخيرة فانه باسباب يصعب الاطلاع عليها قد تغير ميل الدولة
التونسية الينا دفعة واحدة وكانت اذ ذاك الحرب ساكنة ثم لازالت تزداد الى ان
وضحت وتقوت ومبناها ضد كل الامتيازات التى حصلت للفرانساويين فى تونس مع
شدة الارادة الرديئة الى ان وصلت لهذا الحال وهذا هو السبب الثانى لارسال العساكر
الذى كنا نود التجنب منه ولكن بسبب السيرة الرديئة التى طالما صبرنا عليها التزمنا
بما هو واقع ولو اننا بما ضمنا الباى فى المطالب الحقانية لاننا نعترف بتونس كمملكة
مستقلة وأما الحالة فى الخلطة الآن مع الباب العالى فهى مخالطة محبة وميل طبيعى
وبودنا ان لو كنا رأينا نازلة تونس فى منظر آخر غير التى هى عليه الآن ولكن قد بان
ما يجب علينا مما ذكرناه سابقا واننا نقدر ان نستفهم من الباب اذا كان باى تونس هو وال
من قبلهم فلماذا لم يمنعوا سيرته التى فعلها نحو فرانسا منذ عامين ولماذا لم يفتشوا الجمع
القصير الموجود الآن الذى نحن منذ زمن طويل كنا نسعى فى عدم ايقاعه ويلزم لهذا
القصير الذى نحن مجتهدون فى حصره ان ينتهى بشروط تؤمن حدودنا من الهرج
المستمر والتشويش المغرى لبارود اما من غيره أو من نفسه فهذان هما المقصدان
لارسال العساكر ولا نخف عندما نقول ان لنا فى أوروبا الرضاء العام فى جميع الجهات عدا
الجهات التى بها النظر الفارغ المطمس للعقول وهذه هى أيها السيد التى خيمت حول
الباب وحول تونس ومن كلا الطرفين فنحن مشمولون بالمحبة وجميع ما نرجو من الباى
هو ان لا يكون عدوا لنا ولو ان المملكة تنظر لفوائدها فتقدر ان تحصل من اتحادها معنا
فوائد لا تحصى أكثر مما تحصله نحن منها ونقدر ان نأتى لها بكل خير من العمران
الحاصل عندنا ففى سنة ١٨٤٧ فعلنا فيها البريد وفى ١٨٥٩ وسنة ١٨٦١
فعلنا التلغراف وفى سنة ١٨٧٧ وسنة ١٨٧٨ فعلنا الشمندفير الذى طوله ٥٠
فرسخا من حدود الجزائر الى تونس وفى هذا الزمان نفعل لها شمندفيرين جديدين
أحدهما يربط تونس بابن زرت من جهة الشمال وطوله ٢٠ فرسخا والآخر يربط
تونس بسوسة من جهة الجنوب وسنبتدئ عن قريب فى ابتداء عمل مرسى فى تونس
نفسها لتدخل المراكب من الشط ومن حلق الوادى حتى الى ذات القاعدة ودين تونس
وان كان رأس ماله مشتركا بين فرانساوى وانكليزى وطليانى لكنه اذا اعتبرت القسمة
فيوجد ثلاثة اخماسه لفرانسا وان الحنايا الجميلة لادريان التى تأتى بالمياه العذبة
لتونس قد أصلحها أحد المهندسين الفرانساويين ولما ترجع الخلطة الطيبة فانا لا نزال

نفعل اشياء حسنة ومنارات على الشطوط وطرقا داخلية توصل بين البلدان العامرة الناجحة ونسقى الارض بالترع الكبيرة فى البلاد التى بها انهر كثيرة ولكن هاته البلاد أهلها ليسوا معتنين بتلك الانهر وكذلك الغابات وكذلك نعمل استخراج المقاطع الموجود بها كل نوع من المعادن وكذلك ترتيب الفلاحة فى الاراضى الحسنة التى للاجانب فى المملكة والتى للاهالى أيضا وكذلك استعمال المياه المعدنية التى اكتشفها الرومانيون واستعملوها وبالجملة ان مملكة تونس خصبة وغنا قرطاجنة القديمة يدل على ذلك وتحت الحماية الفرانساوية يمكن ان تزال جميع الحجب عن المنافع الطبيعية فى هاته البلاد وتنتشر بقوة وبشدة الترتيب الجديد نقدر ان نزيد أشياء أخر وهى انه اذا كان الباى يعتمد علينا فى الترتيب الداخلى فى المملكة فاننا نفعل تعديلا لازما قارا وهذا الخير الذى يسهل علينا عمله منه ترتيب كيفية قبض المدخول وترتيب الخروج وترتيب دفاتر الحساب على مقتضى ما نستعمله نحن فى ماليتنا ومنه أيضا خير عظيم وهو ترتيب العدلية على الاصول التى فعلتها الدول فى ترتيب العدلية فى مصر وفائدة هاته التراتيب لا ترجع لفرانسا وحدها بل ان المملكة يرجع لها النفع وكذلك لجميع الدول المتمدنة التى نحن منها ومن غير فتح ولا حرب فلا شئ يمنعنا من عملنا فى تونس مثل الذى فعلناه فى جزائرنا والذى فعلته انكلاتيرة فى الهند اذ نحن جعلنا باى تونس متكفلا بعطايانا الحقانية فهو دليل على ما نحسبه دائما من ان تونس مملكة مستقلة من غير ان نراعى بعض آثار للتبعية بالاسم فقط لبعض اسياد قد تركوها منذ مدة قرون وقد تظهر تلك التبعية نادرا ولو نحسب المدة التى هى فيها مستقلة لكانت أكثر من مدة التبعية ففى سنة ١٥٣٤ أخذها المشهور بباربوروس خير الدين أربع أو خمس مرات بانتصاره على الاسبانيول وفى العام الذى بعده أخذها شارل كين وكذلك فى سنة ١٥٥٣ ثم أخذها داى الجزائر سنة ١٥٧٠ ثم أخذها دون جوان النمساوى سنة ١٥٧٣ ثم فى طول القرن السابع عشر كانت تحت ظلم الانكشارية من غير حكم ورأساؤهم الموسومون بالدايات كانوا اذ ذاك أربعين فقسموها تقريبا كالماليك الذين قسموا مصر ثم فى سنة ١٧٠٥ كان أحدهم المسمى بحسين بن على الذى اصله كريكى أو كرسكى صار مسلما وكان هو أحذقهم فعرف كيف يشدهم وقتل جميعهم واشتهر بالباى وبعصبيات العساكر أقام العائلة الحسينية ومن ذلك الوقت لم تزل الامارة فيهم على هيئة السيادة الاسلامية والآن ٢٠٠ سنة تقريبا وهم مستقلون والرابطة الحقيقية بينهم

وبين

وبين الباب العالى هى رابطة دينية وهم يعترفون بالخليفة الا انهم ليسوا تحت السلطان ومما يوضح هذا انهم لا يدفعون له اداء الا انه عند ولاية كل باى يرسل هدية غنية تعظيما لرئيس الديانة القاطن بالقسطنطينية وفى باقى مدة الولاية فلا مسئلة سياسية يمكن ان تذكر غير هاته التحية الودادية فليس لامير المؤمنين حق آخر على باى تونس والمملكة تعقد شروطا كدولة مستقلة مع الدول الاجانب وتعقد معهم اتفاقات ويكون لها قوة وذلك برضاء الباى فقط وعلى هذا النمط وقعت معاهدة مع فرانسا فى سنة ١٧٤٢ وكذلك فى العام الثالث والعام العاشر وفى سنة ١٨٢٤ وهكذا صارت المعاهدة المهمة فى ٨ اغسطوس سنة ١٨٣٠ التى تمنع ملك العبيد والتلصص فى البحر ولا يلزم التكلم على المعاهدات الباقية كالتى فى حق صيد المرجان وان الباب لا يحكم على الولاية الاحكما وقتيا وهو راض باستقلالها ومما يؤيد هذا انه فى القرن الثامن عشر لما يقبل تشكى دول اروبا من التلصص البحرى والسعى البربرى وليس له حكم عليهم وهو ليس مولاهم وهو لم يضمن السرقات التى فعلوها مخلة بتجارة البحر المتوسط وان دول أروبا عملوا الحرب عشرين مرة مع المملكة من غير عقد الحرب مع تركيا وفى سنة ١٨١٩ كانت معاهدة اكس لاشبيل قد حكمت على تونس بمنع التلصص البحرى من غير ان تطلب من الباب التداخل على انه متسيد على تونس وفى سنة ١٨٣٣ فمملكتا سردينيا ونابلى عملا الحرب مع تونس من غير عمله مع الباب لانهم يرون مثل ما نرى ان تونس مستقلة ثم ان علاقة تونس مع فرانسا من وقت أخذها ايالة الجزائر على النحو السابق من غير واسطة تركيا ولما قدم الينا أحمد باى فى سنة ١٨٤٣ اقتبل بكل ما يلزم من التعظيم للملوك والباب العالى لم يتوجع اذ ذاك من عملنا التعظيم الملوكى المذكور وكذلك جميع أروبا لم تلم على ذلك لان رأيها موافق لرأى اللورد آبردين الذى يقول فى تسجيله ضد أخذنا الجزائر المكتتب بتاريخ ٢٣ مارث سنة ١٨٣١ ان الدول الاروباوية من مدة طويلة يفعلون المعاهدات مع الدول البربرية مثل الدول المستقلين وخصوصا تونس فانها لا تحسب نفسها الا حرة والدليل الواضح الحق الذى لا ينكره أحد هو عمل القوانين فى تونس المسماة بيورلدى وحلف عليها الباى الموجود بتونس محمد الصادق لما جلس على الكرسى فى ٢٣ أيلول سنة ١٨٥٩ مثل ما حلف اسلافه فان قانونا واحدا منها وهو المسمى بالقانون النظامى لمملكة تونس قد احتوى على مائة وأربعة عشر مادة وانتشر بالعربى والفرانساوى فى تونس وفى بونة ولم يصرح فيه ولا بكلمة واحدة

ثقول السلطان ومما لا يقدر ان يشك احد معه في استقلال الباى ما نشر في الصحيفة الرابعة من المقدمة في ذلك القانون ونصه ان الموظفين الكبار التونسيين اختاروه بكلمة واحدة ليكون رئيس الدولة على مقتضى قانون الوراثة المعروف في المملكة وفي ذلك القانون فصول تامة شرحت الحقوق والواجبات للملك وحالة الامراء من العائلة الحسينية وحقوق وواجبات الرعايا وكيفية خدمة الوزراء وترتيب خدمتهم والمجلس الكبير بالمملكة والمداخيل والحساب ولاشك ان من يطلع عليها يقدران يجد ذلك البيان غريبا اذا اراد ان يقيس على رأينا الاوروباوى ومع هذا فهو دليل واضح على استقلال مملكة تونس وانها ليست تحت دولة اجنبية وجميع المعاهدات التي بين الدول الاوروباوية ومملكة تونس منذ مدة الثلاثة قرون الاخيرة لم تقل ابدا الا مملكة تونس وملك تونس ومنها خمسة عشر أو عشرون معاهدة امضيت بفرانسا فيها ذلك القول وفي سنة ١٨٦٨ المعاهدة التي وقعت مع ايطاليا مذكور فيها مملكة تونس وتونس أيضا لم تسم نفسها في قانونها النظامي الا الاسم الذي أطلقته عليها جميع الدنيا وهي ارادت ان توضح المزية التي لها بالاستقلال والقدرة الموافقة له فبناء على ما سبق من الادلة القطعية والمتعددة فالباب العالى لا يقدران يتعجب من انكار فرانسا سيادته على تونس مهما طلب هو ذلك حتى الى الآن ونحن نقربان الباب شدد في طلبه منذ خمسين سنة وفي سنة ١٨٣٠ ادخل تحت سيادته طرابلس بعد ما ضبط التحيير الهائل هناك وأراد ان يعمم سيادته على تونس الا ان قوة فرانسا المضادة له منعته من مقصده وبعد عشر سنين أى في سنة ١٨٤٠ اتا مايبجى السلطان الى تونس ومعه فرمان ليقلد الباى منصب الولاية الا انه لم يقبل منه ثم مضت عشرون سنة من غير تجربة جديدة ولكن في أواخر سنة ١٨٦٤ رجعت التخمينات القديمة وانما هاته المرة كانت المملكة بنفسها هي التي طلبت التقليد ولكن هذا كان من الغريب اذ وقع من الامير الذي هو حتى لذلك الوقت بعينه وهو يظهر المدافعة عن استقلاله وهذا انما كان من الاشارات القوية التي خوفت الباى من حالته امام الباب فارسل لذلك أمير الامراء خير الدين الى القسطنطينية ليعرض ويأتي بالفرمان وهاته المرة أيضا فرانسا عارضت في ذلك وعوضا عن الفرمان السلطاني فالباى ومستشاريه التزموا بالرضاء بمكتوب وزيرى متضمن لما في الفرمان ثم اغتنموا الفرصة وقت مصيبتنا في سنة ١٨٧١ وتمموا ما كانوا ممنوعين منه سواء كان في مدة الوى فليب

الذى

الذى كان غالبا اسطوله يمنع الاسطول التركى من القدوم الى تونس أوفى مدة الامبراطور الذى لم يقل من العزم المشار اليه وفرمان ١٥ تشرين أول سنة ١٨٧١ الذى اتخذوه تحت ظل مصيبتنا اشتهر فى ١٧ تشرين ثانى فى باردو واعان به خير الدين باسم السلطان وقبله الباى الذى كان طالبه له مع شئ من الغضب وفرانسا على كل حال سجلت بقوة وحسبت الفرمان باطلا أو كانه لم يقع ومن مدة عشر سنين لم تبطل شيأ من عملها عندما يقتضى الحال ومع نجاح الباب هو بنفسه له شك فى اجراء حق فرمانه بتاريخ سنة ١٨٧١ الذى ضرب استقلال مملكة تونس المتقادم وهذا الفرمان انتشر قليلا الا انه عند الغالب لا يعرف ما عدا بعض الدول الذين لهم فوائد نوا وفى ترتيب الفرمان المذكور ان تونس تكون جزء تحت الباب مع ان حكم باى تونس باق كما كان يعرف من منذ مائتى سنة غير ان باى تونس صار واليا أى والياعاما على ايالة تونس وعلى موجب ذلك فالوراثة فى الحقيقة لم تكن مستمرة فى العائلة الحسينية خلافا لما ذكره الفرمان بل الوالى يعزل بارادة السلطان ومن الممكن أن يعرف الباى ضرره وضرر مملكته وحريته وحياته التى هى غلطة كبيرة حسبما أشاروا عليه بها ومحمد الصادق ليس له خوف من جهة فرانسا ولو مع ما عمل من الشر معها ومع هذا فهى ليست بضده لا لذريته ولا لذاته ولا لدولته وأما من جهة الباب فهو بالعكس وله الخوف الكبير منه لانه يمكن أن يبدله بحسب الحال انتهت لائحة وزير فرانسا واذا تأملها المتبصر وتدبر معانيها يجدها مخالفة للواقع فى كثير من الامور سيما بعض الاحوال التاريخية كما يتبين من مقابلة كلامه بما ذكرناه فى تاريخ تونس وسياستها وصلتها مع الدولة مع المكاتيب الرسمية التى نقلناها حرفيا حتى من متوظفى فرانسا ويؤكد ذلك ما تراه فى لوائح الباب العالى الآتى بيانها فان الحالة لما بلغت الى درجة هجوم العساكر على الحدود تظاهر والى تونس بان أرسل اذ ذاك الى الباب العالى مكاتيب فى التشكى من فعل فرانسا وأرسل الى نواب الدول تسجيلا على ذلك أيضا ولما تحقق الباب العالى الاحوال الرسمية أرسل عدة لوايح الى سفرائه مستنجدا بالدول لمحافظتهم على معاهدة باريس التى أشرنا اليها سابقا وعلى معاهدة برلين ومما يفصح عن مقاصد الباب وحقوق اللائحة التى أرسلها وزير الخارجية بالدولة العثمانية الى سفراء الدولة ونص تعريبها القسطنطينية ١٠ مايس سنة ١٨٨١ ان الاماتى المختلفة عرفت فطانة بكم الوقائع التى صارت فى المسئلة التونسية وقد نسيت بهجوم بعض القبائل البدوية من جهة الجزائر ولهذا الهجوم

فالحكام التونسيون أعلنوا بانهم حاضرون ليضبطوه من غير تراخ فالدولة الفرنساوية حكمت بانه يلزمها ارسال عدد وافر من العساكر الذين قد استولوا على جزء كبير من الولاية ولم يبعدوا عن المركز الا بعض فراسخ فمن غير التفات الى ما كنا أكدنا به على حضرة الباشا الى أخذ التدابير اللازمة لتمهيد الراحة فى المواضع الثائرة فدولة الجمهورية لا تريد أن تنظر للمخالطة الاقترانية بتونس مع السلطنة العثمانية التى هى محسوبة جزأ منها للسلطنة المذكورة وأظهرت بانها لا تقبل قولنا للاتفاق الودادى معها لقطع الاختلاف الذى وقع وترتيب حقوق الباب العالى مع منافع فرانسا فى ذلك المحل وترتيب الاشياء الموجودة من زمن قديم ولا نقدر أن نزيد فى ايضاحها كما يلزم وهى سيادة السلطان التى ليس فيها اختلاف على هاته الولاية وهى سيادة لا تنكرها ولا دولة عموما وهذا الحق بقى الى الآن صحيحا ولم ينقطع من زمن فتحها وهو اذ ذاك سنة ١٥٣٤ بخير الدين باشا وفى سنة ١٥٧٤ تقليج على باشا وسنان باشا وكانت الدولة العلية أرسلت الى تلك المواضع قوة عظيمة برا وبحرا ومن زمن ذلك الفتح فالتأسيسات التى فعلها الباب العالى هى ان جميع ولاة تونس يتوارثون الولاية من ذرية الوالى الاول المسمى من السلطان ويتقلدون الى الآن المنصب منه وفرمانات الولاية تبقى فى خزنة الديوان وكذلك جميع المكاتيب التى تأتى منهم للباب العالى فانها تارة تكون فى شأن مخالطاتهم مع الدول الاروباوية وتارة تكون فى شأن أحوالهم الداخلية والى هاته المدة الاخيرة فان الباب العالى من استحفاظه على حقوقه زيادة على كونه يسمى الوالى العام فانه يرسل من القسطنطينية الى تونس قاضيا وباش كاتب الولاية ولم يكن الامن ترحم الدولة العلية ان منحت الوالى ان يسمى هو بنفسه هذين المتوظفين وأيضا فاتباعا للمذهب وخصوصية سيادة السلطان فان الخطب يذكر فيها اسم جلالته ويضرب على السكة أيضا وفى وقت الحرب ترسل تونس الاعانة الى التخت وعلى حسب العادة القديمة يأتى الى القسطنطينية دائما أناس رسميون ليقدموا تعظيمات الوالى وخضوعه لاعتاب السلطنة وليقبلوا أيضا الاذن اللازم من الباب العالى لامور عظيمة فى الولاية ثم ان الباشا الموجود الآن والاهالى التونسيون طلبوا زيادة فى التفضل وأعطى ذلك لحضرته السامية بالفرمان المؤرخ فى سنة ١٨٧١ وتعرف به جميع الدول والآن قد استغاث الوالى بجهده بسيده الحق ليعينه على الحالة الرديئة التى وقعت فيها تونس الآن وهاته الاشياء التحقيقية لا ينكرها أحد فهل تريدون أن تعرفوا الآن تقريرها بالتاريخ

وبالمكاتبات

و بالمكاتبات الرسمية هو سهل لكن نقتصر على المهم منها لئلا يطول الكلام فى هذا التلغراف ففى المعاهدات القديمة التى بين تركيا وفرانسا تعدد ألقاب الحضرة السلطانيه و يكون منها لقب سلطان تونس (فانظر مثلا) معاهدة ١٠ صفر سنة ١٠٨٤ ﻫ ١٦٦٨ م وفى هاته المعاهدات أيضا وجد بان كل المعاهدات التى بين الدولتين تجرى أيضا فى تونس وفى نصف القرن الرابع عشر أى فى ١٥ صفر سنة ١١٦٦ أرسل السلطان فرمانا للباى والحاكم الكبير بالولاية فى رضاء الباب العالى بان قنسل فرانسا يجمع خدمات قناسل الدول الذين لم يكن لهم اذ ذاك نواب بالقسطنطينيه كالبرتقال وكتالونى واسبانيا وفينيسيا وفريقسا وغيرهم والقنسل وكالته هى حماية السفن تحت الراية الفرنساوية فى المراسى المشهورة بالولاية والفرمان يمنع تداخل قناسل الانكليز والهولنديز وغيرهم من التداخل فى خدمة نائب فرانسا وذلك سند منع التعدى بين الباب العالى والنمسا المؤرخ فى ٩ رمضان سنة ١١٩٧ ﻫ المتقرر بمعاهدة ستوفا فى ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٠٥ فانه يأذن حكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بان يحموا على اسم السلطان السفن المتجرية لسلطنة الرومان القخيمة وأيضا فان الاتفاق الذى تقدم هذا السند وتم فى ٥ شوال سنة ١١٦١ ﻫ بالاذن من السلطان وكان هذا الاتفاق وقع بين الحكام المذكورين والسلطنة المذكورة فان الوالى العام بتونس وهو اذ ذاك فى رتبة بكلر بيك ونال اسم على باشا يذكر فى مقدمة كل مكتوب يمضى عليه منه هاته الكلمات بعينها وهى (مولانا السلطان الغازى محمود) وعلى ذكر واقعات ذلك الزمان استطرد لكم الاذن الصادر من الباب العالى فى ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٤٥ ﻫ ١٨٢٧ م لحكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب فانه يأمرهم أن لا يتداخلوا فى الخلاف الواقع بين سلطنة النمسا ومملكة المغرب وكذلك الاذن الصادر من القسطنطينية لوالى تونس فى ١٤ صفر سنة ١٢٤٧ ﻫ ١٨٣٠ م فانه يأمر بترتيب العسكر النظامى بالولاية على نمط الترتيب العسكرى النظامى العثمانى وأيضا قد أتى مكتوب معين بالطاعة من الباشا التونسى لجلالة السلطان فى سنة ١٨٦٠ وذلك الباشا هو الذى سماه السلطان والياً ماماً وقد انتشر هذا المكتوب فى جميع صحف أروبا من غير أن يعارض ولا من جهة واحدة وتزيدكم شيئاً آخر وهو انه فى سنة ١٨٦٣ فى واقعة القرض التونسى الذى وقع فى باريس من غير رضاء الباب العالى كان وسيو دوا روان دولويس وزير خارجية

الامبراطورنابليون الثالث قد أعلن رأيه بناء على شكايات الدولة العثمانية وقال انه يلزم اما الباشا بتونس أو الصراف الذى يريد عقد القرض معه أن يطلب رضاء الباب العالى ليصح هذا القرض وللمدافعة عن حقوق الباب العالى فان الوزير الفرانساوى أرسل يقول هذا الكلام للصراف المشار اليه وهانحن نضع بثبات الكلام السابق لدى ميزان العدل والحق الذى للدول الممضين على معاهدة برلين وانا المتحققون بان فكر الدول محيط بدلائل كثيرة فى الواجبات العمومية التى يقتضيها المؤتمر المحترم وانهم يريدون أن يفصلوا بالعدل قولنا الذى قدمناه وانهم يحافظون على حقوق الباب العالى الاخرى المحفوظة بالمعاهدة المذكورة ويصلحون الحال بين الدولتين فرانسا وتركيا فى علائقهما التى لهما فى هاته الولاية المرؤف بها التونسية المتممة للسلطنة العثمانية والمرغوب من جنابكم ان تتكلم مع وزير الخارجية فى مضمون هذا التلغراف وتشرح له ماتراه نافعا ولكم الاذن بان تعطوا نسخة من هذا الجناب الوزير اذا طلبكم اه (الامضا مصطفى عاصم) ومن تأمل هذه اللائحة مع ماقررناه فى سياسة تونس الخارجية ومقاصد فرانسا فيها لايشك فى أن فرانسا لم تكن تنازع قط فى أن تونس من ممالك الدولة العثمانية وانما غاية دعواها هوان تلك الايالة لها امتيازات جارية تحافظ هى عليها لاجل منافعها ويصدق ذلك تصريح وزير فرانسا دواروان دولويس فى مجمع فيينا آخر حرب القريم لماسأل وزير الروسيا عن تعيين الممالك العثمانية للجهل ببعضها ومثل بتونس وانه يتراءى فيها نزاع فأجابه الوزير الفرانساوى بان لاشك ولا نزاع فى كون تونس من الممالك العثمانية وان كانت لها امتيازات تخصها وكذلك المعاهدات المعقودة بين فرانسا وتونس حتى التى وقعت بعد الاستيلاء على الجزائر بمدة طويلة يصرح فيها بان سائر المعاهدات المعقودة مع الدولة العثمانية تكون مرعية الاجراء فى تونس ولا يعزب عن عاقل ان ذلك التصريح لاتحاد تونس بالممالك العثمانية ومع هذا كله لم يفد استصراخ الدول لان فرانسا لم تعلن بعملها الا بعد ان استأنست أفكار أغلب الدول الكبيرة فوجدتهم غير معارضين لها الا دولة انكلترة متولى زمامها حزب الاطلاق الذى لايرى نفع دولته فى المحافظة على الدولة العثمانية بعد ان طال تجريبهم لها فى الحث على الجريان على مقتضى نصائحهم ولكنهم لم يروا العمل ودونك ماانتشر فى الكتاب الازرق من المخاطبات التى وقعت من الحضرة السلطانية ورئيس وزرائها ومع سفير انكلترة بالاستانة حسبما

أخبر بها وزيره بعدة تلغرافات تنبئ بما تقدم فنها تلغراف من موسيو غوشن (سفير انكلتره الى وزير خارجيتها) بتاريخ ١٩ نيسان سنة ٨٨١ هاته ترجمته انى وجدت جلالته (أى السلطان) مشغول الفكر بهذه الافعال وبناء على ما عندى من الاذن أعلنت له بان الدولة الانكليزية تريد بقاء الحالة الموجودة فى تونس والنائب الانكليزى بتونس له الاذن ليرشد الباى اذا استشاره بان يعين فرانسا فى تقرير راحة الحدود وانى أرجو ان جلالته يشير على الباى أيضا بذلك فالسلطان سكت بعض دقائق ثم ظهر على وجهه الغضب وقال انه فهم من كلامى ان الدولة البريطانية تريد بقاء الحالة على ماهى عليه فى تونس ولها نفع فى ذلك وفهم أيضا انا أشرنا على محمد الصادق بان يعين العساكر الفرنساويه فنبهت عظمته بانى ماقلت ان الدولة الانكليزية تنتفع بابقاء الحالة الموجودة ولكنها تظهر تمنى ذلك فقط على هذه الكيفية ونحن نتأسف كثيرا من فتح مسئلة جديدة فى الشرق وانا لا نفتكر أنه توجد فوائد خصوصية لانكلتره مربوطة باى كيفية كانت فى أحوال تونس فعند هذا أجاب السلطان بانه لم ير كيف يجمع بين رجائنا فى ابقاء حالة تونس على ماهى عليه ومع ذلك نشير على الباى بان يعين العساكر الفرنساويه فهذان الشيئان لا يتوافقان لانه على رأيه يكون دخول العساكر الفرنساويه الى تونس ناقضا للحالة الموجودة وفى تلغراف آخر من موسيو غوشن أيضا يقول فيه ان الجلسة التى وقعت بينى وبين باش وكيل كان يطلب فيها صحبة انكلتره وقال ان الدولة الانكليزيه تقدر أن تعمل مع الدولة العثمانيه المعروف وان الباب العثمانى يكون ممنونا اذا كانت انكلتره تريد أن تفعل معه ذلك فقلت له ان ما كنت قلته لكم قد وقع والذى كنت تقوله دائما هو انه يأتى زمن تكون فيه تركيا متذكرة بان صحبة انكلتره لها لازمة وقد تكلم على الحاجة الاكيدة الآن وتكلم أيضا على ردمودة انكلتره فتبعته وقلت ماهو دليل المودة الذى أظهرته تركيا لانكلتره منذ بعض سنين وفى أى وقت اتبعتم اشاراتنا وفى أى وقت قبلت استشاراتنا النافعة للسلطنة التركية نعم ان الترك قد عملوا غاية جهدهم ليتركوا المودة التى فى رأى العموم فى انكلتره ورجوعها الآن ليس بسهل فحضرته العلية أجابت بان جميع الاشياء الآن تتغير من غير ان يظهر على وجهه الغضب من الكلام الذى قلته له قصدا واستمر فى طلبه الاعانة وانا شرحت له بان نازلة تونس مثل النوازل الاخر الشرقية ولا تقدر انكلتره على اتمامها وحدها ومع هذا فليس لنا فائدة خصوصية وسياستنا متمسكة بالموافقة الاروباوية ولا دولة تريد قيام

عصر جديد قبل ان تتم الاعمار القديمة وكل دولة تكون حازمة اذا كانت تفتش كل واسطة لحصر النازلة التونسية في حدود ضيقة أقل ما يمكن لئلا تقوم نازلة تدخل فيها الدول برأى مختلف فجنابه العالي يقدر يفهم من جملة كلامي بان ليس لي اذن لتقرر الرجاء بان تكون الدول العظام الاروباويه يظهرون أنفسهم مختلفين على نازلة مخابطة بين الباب العثماني وتونس والطلب الخصوصي من انكلتره ليس بموافق لحالة الباب العثماني منذ بعض سنين مع الدولة المشار اليها فهذا الخطاب كاف في بيان الحال مع انكلتره وهي وان أظهر بعض أهل شوراها التنديد على سياستها وطلب المحافظة على تونس وابقائها للدولة العثمانية وبين ما ينشأ لانكلتره من المضرة عند استيلاء فرانسا على مرسى ابن زرت وعلى قربها من خليج السويس وربحان كفتها في البحر الابيض لكنه لم ينفذ كلامه حيث كان من حزب المحافظين الذى هو مغلوب حينئذ واحتجت عليه الوزارة بان حزبه هو الذى فتح الباب لفرانسا فان اللورد صالسبرى الذى كان وزير الخارجيه عند عقد مؤتمر برلين لما شاحته وزير فرانسا على استيلاء انكلتره على قبرص أجابه بانه لا يعارض فرانسا اذا أرادت الاستيلاء على تونس فاذا يكون استيلاء فرانسا بوعد انكلتره وقد غفل المستند لذلك عن كون الوعد من صالسبرى كان في سياق ان ترضى بذلك الدولة العثمانية صاحبة الملك مع الرضى العام لا اغتيالا ومع ذلك فلانكلتره مقاصد على تونس مخفية في مصر فرأت ان مساعدة فرانسا على تونس تلائمها في مقصدها في مصر عند الحاجة اذا ساعدتها فرانسا ولهذا لم تعترف بالمعاهدة الجديدة مع تونس رسميا حتى ان وزير فرانسا الاول اعلن في مجلس النواب بان انكلتره وافقت على معاهدة مابه استنادا منه لما دار بينهم من الكلام فيها فاعلن وزير خارجية انكلتره حالا بتكذيب ذلك الادعاء وما ذاك الا تحفظا على ما يريد لدولته حتى اذا لم تساعفه فرانسا في مصر وآل بينهم الامر الى المشاحنة الحقيقية كان لانكلتره وجه في نقض ما حل بتونس وأما دولة الروسيا فلا اشكال انها يسرها كلما يضعف الدولة العثمانية ولا فائدة لها في مشاحنة فرانسا ولذلك كان جوابها مثل محصول جواب سابقتها وأما دولة المانيا فاجابت خصوصيا بان الاولى للدولة العثمانية الاضراب عن هاته النازلة وانها هي لا تتعرض لفرانسا بشيء والباعث لها على ذلك وجوه (اولها) اظهار عدم التجافي عن فرانسا التي لها عليها حقد أخذ الثار (وثانيها) جذب أعداء ومضادين الى فرانسا كالدولة

العثمانية

العثمانية وايطاليا حتى اذا أعلنت الحرب يوما ما بين المانيا وفرانسا تجد المانيا الظهير على قرنيها لذلك الظهير من الباعث الذاتي (وثالثها) اشغال فرانسا بفتوحات جديدة في أراضي فسيحة وخلق كثير في افريقيا بما طال اشتغالها بهم حتى يبرد لهيب أخذ الثار (ورابعها) اضعاف قوة فرانسا وقت الحرب اذ الامم الذين تريد التسلط عليهم وان لم يكونوا كفؤا لمحاربة فرانسا لخلوهم عن آلات الحرب والاستعداد لها لكنهم لما كانوا مسلمين وأهل نجدة وشجاعة ومثاقفة للحرب لا يلبثون دائما أن يحدثوا عليها ثورات سيما اذا علموا بوقوع حرب بينها وبين أجنبي فتضطر فرانسا في وقت الحرب الى أن تبقى قسما عظيما من جيشها محافظا على ذلك المستعمر وذلك يفيد المانيا بنقصان قوة جيش خصمها في حربها (وخامسها) تمهيد السبيل اليها فيما تريد التعاوض به بينها وبين النمسا لان المانيا ليس لها مرسى على البحر الابيض وقد بقي من جنس الالمان تحت النمسا عدة ملايين حول الجهات التي بقرب مرسى ترست فلو أخذت المانيا ذلك الباقي من الالمان مع تلك المرسى يكون ذلك غاية أمانيها ولكن ذلك لا يحصل الا بحرب مع النمسا وقهرها أو بمعاوضة ذلك لها بشئ يرضيها من ممالك الدولة العثمانية مثل أخذها لايالات مقدونية ومرسى سلانيك الموازي لذلك المأخوذ منها حسبما أشيع ذلك مرارا ولذلك كانت المانيا أول من بادر لامرنا انها في تونس باتباع سياسة فرانسا فيها وتبعتها على ذلك أيضا النمسا لانها ليس لها سياسة تخصها في تونس وهي لها مع المانيا عقد محالفة اتحاد على الذب والاقدام ثم انها لها مطامح في جهة بحر الجزر لتتمكن فيه بمواقع مهمة لكي تسلم في مرسى ترست الى المانيا حليفتها حيث لم يكن لها مرسى في البحر الابيض كما تقدم ذكره فلا تعارضها فرانسا عند العمل وأما ايطاليا فانها تجردت من ذلك الغصص وطوت على الضغائن التي لا تزال ولكنها لما كانت غير كفؤ بانفرادها لمعارضة فرانسا واتحادها مع الدولة العثمانية أيضا لا يجدي لاحتياج كل الى المال مع ما في الدولة العثمانية من الحالة الداخلية والخارجية التي أعقبها الحرب الاخيرة فلم يسعها الا السكوت وتحمل عرق القربة مع عظم الضغينة في عموم الاهالي والدولة اذ هي حريصة على ابقاء ما كان على ما كان في تونس وكانت عند ملاحظتها مبادي الشر عرضت بالسعي السياسي مع الدولة العلية فلم يكن من المقدر قبول الانتباه لما أرادت حتى أنكر الوزير العثماني على المأمور الطلياني التكلم معه

فى تونس وقال له انها تابعة لنا ولا دخل فيها لاحد وعند هجوم فرانسا صار يتملق الى ذلك المأمور لكى تمد ايطاليا اليد اليه فقال له مصداق المثل الصيف ضيعت اللبن وعندما تعهد عبرت عساكر فرانسا حدود تونس معلنة بانها تريد تأديب قبيلة خمير من أعراب الجبال الشمالية عند حدود الجزائر ولم يتعرض لها أحد بالمصادمة لان حكومة تونس قد تقدمت حالتها الباطنية من التوافق مع فرانسا ومع ذلك فليس عندها تحت السلاح ألف عسكرى ولا اقتدار لها على معارضة فرانسا بالقوة واستندت ظاهرا الى أمر الدولة العلية بارتكابها سبيل الملاينة وأظهر الوزير التونسى اذ ذاك التزام العمل برأى مجلس الشورى حيث فات الابان مع ان جميع ما يتفاوض فيه يقرره الى تابعه على ابن الزى ليلا وهو يقرره الى نائب فرانسا كما عزل المجلس فزلا نقضه لهم من هو بالمرصاد منهم حتى تعجبوا من اطلاعه على جميع أحوالهم وتمكنت عساكر فرانسا من بلد الكاف وباجة وابن زرت وفى اثناء تلك المدة كانت الحكومة التونسية لاتزال تسجل وتشكى وانها مستعدة لتربية قبائلها الذين هم فى نفس الامر انما اتخذوا وسيلة فقط ومع ذلك فقد أوعز الوزير بواسطة تابعه المشار اليه الى نائب فرانسا بان لا واسطة مفيدة فى الدخول تحت فرانسا الا قدوم شرذمة من العساكر الى قصر الوالى والاحاطة به اذ القسوة لما ترى ذلك تصعق بالخوف فيضطر الوالى الى الامضاء على الشروط و يجد العذر عند الاهالى ومع ذلك أرسل خبرا بالسلك الكهربائى الى الباب العالى يقول انه قد علم ان فرانسا تطلب عقد شروط ولا يعلم ماهى فماذا يعمل فأجيب من الباب بان يحيل كل ما يطلب منه على الباب العالى ولا يمضى شيأ وقبل ذلك أشاع أصحاب الاخبار ان فى عزم الدولة ارسال خير الدين باشا الى تونس معتمدا فى حسم النازلة لمعرفته بأحوالها وسياسة الاهالى والاجانب ولكى يكون عونا على ابقاء الحالة المعروفة فأرسل الوالى تلغرافا الى الباب بطلب أن يكون المرسل غير المشار اليه وتعجب كل غافل عن المقاصد الخفية من ذلك الطلب اذ تلك الحالة لا تدع مجالا للشخصيات سيما وقد سبقت من خير الدين الى الوالى المشار اليه المجاملة وعدم الاكتراث بما فعل معه عند حلوله بالاستانة وترقيه فيها لكن المطلع على الباطن زاده ذلك تيقنا فى التواطئ على تلك الاعمال لان وجود مثل خير الدين فى تونس لا يروج عليه ما يروج على غيره ممن لم يثاقف طبائع الشقين ومع مجاراة الباب العالى وتقليله لمواقع النزاع قدر الامكان لتأمين الوالى حيث أظهر الميل الى الدولة

فانه

فانه أى الوالى أسرع الى امضاء الشروط مع فرانسا والحال ان مـدد الجـبر من الباب العالى بنهيه عن الامضاء لم يحف ولم يخبر الباب بعـد ذلك بشئ حتى سأله عما شاع من امضائه فاجابه بانه مكره عليه وكلما ورد بعد ذلك من الباب سلمه الى نائب فرانسا مدعيا ان الشروط قاضية بذلك (وهذا نص تعريب المعاهدة) ان دولة جمهورية فرانسا ودولة باى تونس أرادوا أن يقطعوا بالمرة التحيير المخرب الذى وقع قريبا فى حدود الدولتين وفى شـطوط تونس وأرادوا أن يربطوا مخالطتهم القديمـة التى هى مخالطة مودة وجوار حسن فاعتمدوا على ذلك وعقدوا معاهدة فى نفع الجهتين المهمتين فعـلى موجب ذلك رئيس الجمهورية الفرانساوية سمى وكيله موسيو الجنرال بريار الذى يتفق مع حضرة البـاى الساميـة على الشروط الآتيـة (أولا) المعاهـدات الصلحية والودادية والتجارية وغـيرها الموجودة الآن بين الجمهورية الفرانساوية وحضرة البـاى يتحتم تقريرها واستمرارهـا (ثانيا) ليسهل لدولة الجمهورية اتمام الطرق للتوصل الى المقصـود الذى يعنى الجهتـين العظيمتين فحضرة البـاى ترضى بان الحكم العسكرى الفرانساوى يضع العساكر فى المواضع التى يراها لازمـة لتتقرر وترجع الراحة والامان فى الحـدود والشطوط وخروج العساكر يكون عنـد ما يتوافق الحكم العسكرى الفرانساوى والتونسى على ان الدولة التونسية تقـدر على تقرر الراحة (ثالثا) دولة الجمهورية تتعهـد لحضرة الباى بان يستند عليها دائمـا وهى تدافع عن جميع ما يخوف منـه لضرر ما اما فى نفسه أوفى عائلتـه أو فيمـا يجبر دولتـه (رابعا) دولة الجمهورية الفرانساوية تضمن فى اجراء المعاهدات الموجودة الآن بين دولة تونس والدول المختلفة الاوروباوية (خامسا) دولة الجمهورية الفرانساوية تحضر نحو حضرة الباى وزيرا مقيما لينظر فى اجراءات المعاهدة وهو يكون واسطة فيمـا يتعلق بالدولة الفرانساوية وذوى الامر والنهـى التونسيين وفى كل الامور المشتركة بين المملكتين (سادسا) ان النواب الـسياسيين والقناصل الفرانساويين فى الممالك الخارجيـة يتوكلون ليحمـوا أشغال تونس وأشغال رعيتها وفى مقابلة هذا فحضرة الباى تتعهد بان لا تعقد معـاهدة عمومية من غير أن تعلم بها دولة الجمهورية ومن غير أن يحصل على موافقتها من قبل (سابعا) دولة الجمهورية الفرانساوية ودولة حضرة الباى أبقوا لانفسـهم الحق فى أن يؤسسـوا ترتيبا فى المالية التونسية ليمكن لهما دفع ما يلزم الدين التونسى العام وهـذا الترتيب

يضمن في حقوق أصحاب الدين التونسي (ثامنا) ان غرامة الحرب يغصب عليها القبائل العصاة بالحدود والشطوط وتفعل دولة الجمهورية مع حضرة الباي فيما بعد شروطا على كميتها وكيفية دفعها ودولة حضرة الباي تضمن في ذلك (تاسعا) للمدافعة على منع ادخال السلاح والآلات الحربية للمملكة الجزائرية الفرانساوية فدولة باي تونس تتعهد بان تمنع دخول الاشياء المشار اليها من جزيرة جربة ومرسى قابس وسائر المرسى الجنوبية في المملكة (عاشرا) ان هاته المعاهدة توضع لدى رضاء دولة الجمهورية الفرانساوية وترجع في أقرب مدة ممكنة لحضرة الباي السامية حرر في ١٢ مايس سنة ١٨٨١ بالقصر السعيد الامضا محمد الصادق باي والجنرال بريارو الذي يؤكد صدق التواطئ من قبل ان الوالي طلب ظاهرا من نواب فرانسا وهما أمير العساكر والقنصل أن يمهلاه مدة للتأمل من حالة الشروط فاجابه القنصل بانه لا داعي الى ذلك حيث ان الشروط عند وزيرك منذ مدة وتأملتها أنت وهو ولم يبق الا الامضاء ويؤيده أيضا ان رئيس المجلس البلدي السيد محمد العربي زروق أحد أعضاء مجلس الشورى أصر على عدم الموافقة على امضاء الشروط وألح على الوالي بذلك عند جمعه للمجلس وأميره عسكر فرانسا منتظر لانبرامها ونصحه بان ما يخشى منه بعدم الامضا سيقع لا محالة بعد الامضاء فالتمسك بالبراءة الاصلية أسلم وأشرف وعورض بانه قد علم ان الوالي اذا لم يمض يولي الفرانسيس عوضه أخاه الثالث (محمد الطيب باي) لانهم أكدوا ان له اتفاقا مع الفرانسيس فاجاب بان جميع الاهالي لا تطيع الوجه المذكور وعلى فرض قهرهم يكون الوالي على شرفه وربما اضطرت الدول الى التداخل بوجه يحسن الحال فلم يلتفت لكلامه وعزل أثر ذلك من جميع وظائفه وجعلت عليه مراقبة في داره وحجر عليه مخالطة الناس وتحقق مزيد الاضرار به الى ان احتمى بقنسلاتو انكلترة وسافر عن وطنه وأقام بالاستانة ويشهد صراحة للتواطئ ما صرح به البارون دي لنك الفرانساوي في تشرين اول سنة ١٨٨١ عما وقع في هاته المسئلة وانه كانت أرسلته دولته حيث كان أحد مأموري الوزارة الخارجية لاستقراء أمر تونس وذلك في كانون ثاني سنة ١٨٨١ وان الوالي أجاب اذذاك فرانسا بانه يقبل الشروط اذا كان الواسطة فيها هو فردينان دلسبس لانه كان يؤمل بواسطة المذكور الحصول على شروط أوفق له وان الشروط اذذاك كانت غير التي قررت الآن ومع ذلك كله لم تعلم الدولة العلية بشئ وبه يعلم

صدق

صدق الكلام فى اضمار الوزير التونسى الشر للادولى بالخصوص حيث دافعت عن
الحق ونصحته بما يقتضيه الدين والامانة ثم كانت فاتحة أعمال نائب فرانسا عند امضاء
المعاهدة أن طلب من الوالى نفى على ابن الزى حالا لكى لا يبيح بما وقع من الاسرار التى
اطلع عليها فنفى الى حصن قابس ثم توجه الوزير ابن اسماعيل الى باريس فى سفينة
فرانساوية حربية شاكرا الانعام فرانسا بتلك المعاهدة ومعلنا لها بانه يصدق فى خدمتها
أزيد مما كان يبذله سابقا كذا فى عبارته الرسمية عند ملاقاته رئيس الجمهورية
المنشورة فى الصحيفة الرسمية فقلدته فرانسا بأكبر نيشان لها مع الشريط الكبير
ورجع الى تونس ولم يلبث بضع أشهر حتى ورد الامر على الوالى من وزير فرانسا بعزل
وزيره ابن اسماعيل لان نائب فرانسا بتونس توجه الى باريس وتفاوض مع دولته
فيما يسلكونه فى تونس حيث ان الاعراب والجهات الجنوبية أعلنوا بان الوالى لما
بغى على الدولة العثمانية بدخوله تحت حماية فرانسا فهم لا يطيعونه لانهم بايعوا أمير
المؤمنين سلطان الدولة العثمانية قديما وحديثا فلا يحل لهم الخروج عليه وهرب
على الوالى جميع عساكره فاضطرت فرانسا لتعبئة الجيوش لتطويع الاعراب وكان
من جملة التدبير عزل ذلك الوزير الذى توقعوا منه أن يفعل معهم مثل ما فعل مع البلد التى
وصل فيها الى تلك الدرجة وتحقق الوزير ما ضرب من المثل بوزارة العلقمى وان
كان هذا أى ابن اسماعيل قد احتاز بجميع خزائن أمراء تونس حتى كان آخر ما بقى
للوالى من مفاخر الجواهر عقد لؤلؤ منظم سبحة بها مائة حبة مع حلية زمرد محاط بها
الياقوت الابيض فاعطاه اياه عند سفره لباريس بعد العزل المذكور ورام بسفره
ارضاء فرانسا عليه وارجاعه الى الوزارة وبقيت البلاد الى الآن فى حيرة واضطراب
ودخلت العساكر الفرانساوية الى قصبة الحاضرة والى منازل العساكر فى المدينة وأمام
قنسلاتو فرانسا وسكن رئيس العساكر الفرانساوية بدار المملكة فى بطحاء القصبة
وصارت الحكومة لا تتصرف فى شئ الا بامر الوزير الفرانساوى سواء كان فى الداخلية
أو فى الخارجية وتفاقم الضرر بولايات غير الاهل فى الوظائف بوسائل غير مرضية وعظم
الكرب على القبائل والبلدان مما حصل فيهم من العساكر الذين أقاموا بالقيروان
وسوسة وهدموا صفاقس ونحو جوامع قابس بعد دخولها وعادوا اليها ونسأل الله ان
يتداركنا بالطافه ويحسن العاقبة ومما ينبغى التنبيه اليه هنا ان الاحوال السياسية التى
أشرنا اليها مع الدول سيما مقاصد المانيا لا يمكن ان تخفى على أمة عاقلة مثل

الفرانساويين فكيف مع ذلك قدموا على تبوء تونس مع كون الفائدة التي تحصل لهم منها
لا توازي ما ذكر سيما اذا كانت المعاهدة مع تونس التي ذكرناها تجري حقيقة على
ظاهرها فالجواب ان كثيرا من عقلاء الفرانسيس قد نددوا على دولتهم ولا زالوا في
الاعتراض عليها لكنها ابت الوقوع في الامر المتسبب عن تهور من بيدهم مقاليد
السياسة حتى اتهمهم مضادوهم من نفس الفرانسيس بان لهم في ذلك أرباح ذاتية من
التجارة في الرقاع الدولية وموهوا على العامة بالانتصار لحفظ ناموس فرانسا فبعد ذلك
صعب على الدولة اهمال سعيها مع ما خسرته من الاموال المتجاوزة مائة مليون ومن
الرجال الذين ماتوا بالحرب مع الاعراب وبالامراض المتجاوزين خمسة وثلاثين الفا فرأت
فرانسا التحفظ على ما وقع مع السعي في حسن السلوك الذي يخفف أو يدفع عنها الغوائل
المنتظرة ثم وراء ذلك أمر مهم جدا للفرانساويين طمعوا في احداث مملكة عظيمة في
أفريقية مثل ما للانكليز في الهند فقرروا أن تمتد من الجزائر الى ما جاورها شيئا فشيئا الى ان
تصل الى دواخل أفريقية والسودان وتصل بين شاطئ افريقية الغربي في سانيقال
والشرقي في الجزائر وتونس حتى رسمت جمعية فرانساوية رسما للخط الحديد في ذلك
ولو يتم هذا يكون لفرانسا شأن عظيم غير ان القياس على الهند الانكليزي هو قياس مع
الفارق لا من جهة سياسة الفرانساويين في مستعمراتهم من حيث قلبها الى عوائد
الفرانسيس واناطتها الادارة في الكليات والجزئيات بباريس ولا من حيث أخلاق
الامم المستوطنين بافريقية والمستوطنين بالهند وان شئت الوقوف على برهان ذلك فانظر
ما حررناه في أحوال الجزائر وفي أحوال الهند وسياسة كل من الدولتين يتبين لك حقيقة
الحال وبما ذكرناه هنا يندفع الاعتراض على ما ذكرناه في سياسة تونس الخارجية من
كون فرانسا لا تريد الاستيلاء عليها مع كون أعمالها ناقضت ذلك وشرح الدفع
يؤول الى أن الحامل لدولة فرانسا على مخالفة ما سبق من مقاصدها في تونس شيآن
أحدهما سياسي ظاهري والآخر خصوصي باطني فالباطني هو المشار اليه بما وقع من
التهمة في نفع الافراد الذي يأتي له مزيد شرح في بحث الاحكام والظاهري هو أن
الدول قد تغيرت أفكارهم بالنسبة لمحافظة الدولة العثمانية منذ عقد معاهدة برلين
فدلت أعمالهم على ان من ناسبه شيء منها وكانت له قدرة على حوزه بادر اليه وغض عنه
النظر بقيتهم اذا كان الحوز أكثر مناسبة بالحائز وقد علمت مقاصد فرانسا في تونس ورأت
ان ايطاليا لها من المقاصد والمناسبات ما يزاحمها ثم رأت سيرة ابن اسماعيل وانه غير
أمين

أمين فلا يبعدان يفعل مع ايطاليا أوغيرهما من الدول مافعل معها الخوف أو طمع مع تيسر اجراء الامور بواسطته فانتهزت الفرصة خوفا على درجة نفوذها فبادرت قبل ان تبادر ومن المعلوم ان السياسة تدور مع الاحوال الحاضرة ولله عاقبة الامور

الفصل الخامس

﴿فى عوائد أهالى فرانسا وصفاتهم﴾

(اعلم) ان الاهالى أصلهم القديم مجهول غير انهم لما هجمت القبائل الشمالية الشرقية من آسيا على أروبا تسلطت منهم قبيلة الافرنج على فرانسا بعدان اناخت فى البلجيك ولازالت تتقوى الى أن ملكت جميع فرانسا واتحدت القبائل الاخر معها بالنسل والاسم كما تقدمت الاشارة اليه فى مبحث التاريخ وكان لهم اذذاك شهرة بالشجاعة والتقدم بالحرية حتى كانوا أول من كثرت مخالطتهم من الاروباويين بالعرب وأهل المشرق ولذلك ترى ان اسم الافرنج يطلق على جميع أهل أروبا عند جميع المشرقيين والعرب وذلك بابدال السين جيما لان أصل الاسم افرنك فقلبت الكاف سينا عند نفس الامة ثم حرف فى الترجمة فى لسان المشرق وصار افرنج وذلك الاشتهار كاف فيما كان لتلك الامة من التقدم وحب الاسفار والتجارة ولازالوا على ذلك الى الآن لكنهم يؤثرون الاقامة فى وطنهم عن الاقامة الدائمة بغيره ولهذا تراهم أقل أهالى أروبا استيطانا فى سائر الممالك اذ أمريكا التى هى ذات ثروة وأمن وقليلة السكان بالنسبة لاتساع الارض يهاجر اليها سنويا من الانكليز والالمان والطليان وغيرهم خلق كثير يتجاوز مئات الالوف وأقل القليل من المهاجرين هم الفرانساويون بل ان ذلك حاصل ولو فى مستعمراتهم فى الاقاليم اذ الجزائر الآن تحت سلطتهم نيفا وخمسين سنة ومع ذلك لايوجد منهم فيها الانحو مائتى ألف أو ينقصون وانما بلغوا ذلك العدد بعد استيلاء المانيا على الالجاس واللورين فرغبت دولة فرانسا أهالى ذينك الاقليمين للاتحاد بها بان تعطيهم جميع حاجتهم مع الاراضى الخصبة الوسيعة فى الجزائر وحيث كان فى ذينك الاقليمين كثير ممن لايريد الانفصال عن فرانسا لى المانيا هاجروا الى الجزائر ومكنتهم الدولة بارزاق العرب الذين استأصلت أموالهم بدعوى الخروج عنها والعصيان عليها ومع هذا الترغيب فانما كان عددهم ما أشير اليه لولوع القوم بوطنهم فى السكنى وان كانوا منتشرين فى سائر الاقطار للتجارة والسياحة كما انهم لهم ولوع زائد بالتفاخر بمدينة

باريس التي يحق لها الفخر ويسر كل فرنساوي عدها وان لم يكن من أهلها وهذا الطبع وهو حب التفاخر وان كان طبيعيا في البشر لكن بعض الامم فيه أزيد من بعض كما هو في الافراد فالفرانساويون ذوو فخر ونشاط الى الاعمال وسرعة الى تبدل الاراء والافعال حتى أورث ذلك فيهم كثرة الانقسامات في الاحزاب السياسية وقد ذكرت صحيفة الديبامرة عدد أحزابهم في السياسة فاذا هي أربعة عشر حزبا أحد طرافها حزب الاشتراكيين أي الذين يريدون ان يكون الناس كسائر الحيوانات السائمة مشتركين في جميع ما بايديهم ولو النساء ولا يستأثر أحد عن أحد بشيء والطرف الثاني الاستعباد التام لشخص ملك يتصرف فيهم تصرفه في الاثاث والمتاع وما بين ذلك درجات أقواها الآن حزب الجمهورية المضبوطة على نحو ما تقدم في السياسة الداخلية ويليه حزب المالكية القانونية وان كان في ذاته له عدة اقسام من اتباع عائلة بونابارتي واتباع عائلة أورليان أو البربون الى غير ذلك ولا تغتر أيها المطالع بكثرة أولئك الاحزاب في ضعفهم مع من ناواهم من الخارج فانهم اذا رامهم أجنبي يكونون عليه يدا واحدة فاذا انفصلوا منه عادوا الى الشقاق بينهم ولولا هذا الشقاق لزادوا قوة ونفوذا فطباعهم مهذبة ومعارفهم متزايدة وتجارتهم وفلاحتهم متقدمة للغاية حتى أقر لهم بذلك اضدادهم وهم لينوا الجانب بشوشون في الملاقاة غيرانهم يتجبر قسم منهم على من تسلطه الفرانساويون عليه وفيهم كثير من المؤتمنين الناصحين العقلاء مثل من رأيناهم قدموا الى بلادنا متوظفين وأحسنوا السيرة والانصاف والنصح الى وطننا ومن الانصاف الوفاء لهم بالذكر الجميل فمن هؤلاء صاحب رتبة الوزارة فيليت الذي قدم الى تونس بصفة محتسب عام مالي عندما أنشئ الكومسيون المالي فابدى من نصح الوطن والوقوف على حقوقه ودفع الغوائل عنه ما لم يصله كثير من أعيان ابناء الوطن مع العفة والصدق وسعة المعرفة وعلى قدمه من أتى بعده بتلك الوظيفة وهو لبلان ومثله كايي الذين شهد لهم كل ابناء الوطن بالاستقامة والانصاف بحيث يصح ان يقال ان دولة فرانسا انما تختار لوظيفة الاحتساب المالي من هو جدير بها ولا مطعن فيه اذ كل من الثلاثة هو من متوظفي دولة فرانسا في الاحتساب العام المالي وعلى نحو من هؤلاء صاحب رتبة الوزارة فالات الذي قدم الى تونس بوظيفة نائب سياسي سنة ١٢٩٠ فابدى من أوجه الانصاف ومساعدة الحكومة والاهالي على حقوقهم ما لهجت به السن الثناء عليه من جميع أبناء الوطن وقلما يرد مثل هؤلاء الا وطننا لتحاميهم عن المقاصد السيئة

وانباعهم للانصاف فدولتهم تقتصر بهم على وظائف داخليتها ومن مشاهير رجال سياستهم فى عصرنا ممن اجتمعت به وله صيت بين الامة الفرانساوية كنبيتا رئيس مجلس النواب وممن أدركناه أيضا زيادة على نابليون الثالث الرجل الشهير بالسياسة والمعارف تيرس وقلما تحدث أفراد مثله وان كانت المعارف والتقدم حاصلة الى العموم ومع ذلك فلا يزال فى فرانسا خلق كثير على السذاجة والجهل ودونك حكاية ظريفة تقيس عليها ما يقرب منها ففى سنة ١٢٩٧ ه‍ ١٨٨٠ م كان أحد أصحاب العمل باليد مشتغلا جهة باريس وكان له ابن مشتغل جهة بردو فلم يوفر الابن من كسبه ما يشترى به حذاء أفأرسل الى أبيه يشتكى له القل ويطلب منه شراء حذاء له فاشتراه له وحمله فى الطريق وهو مفكر فى كيفية ايصاله اليه فبينما هو ماش اذ مر محاذيا للسلك الكهربائى فقال هذا أسرع طريق انى أحمله الحذاء وهو يوصله لابنى فجاء الى عود السلك وعلق فيه الحذاء وأسر الى العود بقوله أوصل هذا الابنى فلان فى المكان الفلانى وذهب مسرورا باطلاعه على مسلك سهل بلا مصروف ثم مر من غد متفقدا ما فعل السلك بالحذاء فوجد فى ذلك المكان حذاء عتيقا فمساه اللابس ففرح وقال ان ابنى لعاقل حيث أرسل لى الحذاء القديم لاستعين به على ثمن الجديد فانظر لهاته البلاهة التى لو صدرت من أحد المشرقيين لشنعوا بجميع الجنس بانه وحشى بعيد عن المعارف وتهذيب الاخلاق واعلم ان مثل ذلك الرجل كثير سيما فى القرى الصغيرة والجبال بل وفى أهل المدن كثير ممن يعتقد بالخرافات الباطلة ويعتقد التأثير لاحجار وجمادات ويتشاءم بالاوقات فقد رأيت فى كثير من بلدانهم وبلدان الطليان وكذلك الانكليز طاقات فى حيطان فيها منارات توقد اما بالزيت أو بالشمع العسلى تقربا الى بعض أوليائهم أو الجن معتقدين حلول المتقرب اليه بتلك الطاقة ولا ينورونها بغير ما ذكر من الانواع لان القسوس يقولون لهم ان شمع الشحم أو الغاز من البدع التى لا يتقرب بها وكذلك يطلبون البخت وقضاء الحاجات من جمادات أو أماكن اعتقاد حلول أرواح فيها وقد ذكر من هذا النوع فى كشف المخبا عن فنون أروبا ما يتعجب منه المسامع مما ترى الاروباويين ومن تشكل بشكلهم وتباهى بتقليدهم يحملون عيبه على البلاد الاسلامية وحدها ويجعلونها مخربة وينزهون أروبا عن مثلها مع انها حاوية لشبهها ولاشد منها بل ربما أسند ذلك الجاهل أو المتجاهل الى ديانتنا الشريفة وحاشا الله ان تؤدى أو ترشد لمثل ذلك بل انها هى المهذبة والمنقذة من غياهب الجهل الى نور المعارف الحاثة على العلم وفتح البصائر وقد

أفردنا لهذا تأليفا خاصا واعلم انا لا نقصد من ذكر ما مر نسبة الجهل بالمعارف الدنياوية الى عموم الفرانساويين أو ترجيح كفتنا على كفتهم كلا بل الحق ان الناس على ثلاثة طبقات فاهل الرفعة وأشراف القوم من ذوي البيوت العالية بالتوارث في الوظائف أو كثرة المال والترف تجد أغلبهم مقتصرين على معرفة مبادي العلوم ومحبين الى انفاذ الاغراض وزيادة علو الصيت والرعاع من أهالي الجبال والقرى والبوادي أغلبهم أيضا جهلاء ولا فكر لهم الا فيما ينفع كل فرد في خصوصية نفسه والطبقة الوسطى هي مجال التمدن والمعارف والصنائع والتقدم وهم أيضا أصحاب الترجيح السياسي في فرانسا وهاته الطبقة هي المتقدمة بالنسبة لمشابهتها فينا فهي فيهم أرجح ميزانا وأهلها كثيرون بالنسبة لاهلها عندنا وبالنسبة الى نفس أهاليهم أيضا فترى عدد أهل المعارف يزداد ويترقى يوميا وأهل هاته الطبقة عندنا مشاكلون في الصفات لاهل الطبقتين الآخرتين كما ان أهل الطبقة العليا عندهم أوسع تبصرا ومعرفة منها عندنا (وأما بقية) عوائد الاهالي فهي على نحو من عوائد الطليانيين في السلام والحياء والسماع والرماية والفروسية وغير ذلك وقد كانت فيهم تربية حسنة من التواضع بينهم ولين القول لكن منذ حدثت الحكومة الجمهورية تظاهر فيهم التهور شيئا فشيئا حتى اني أدركت ذلك ما بين سنة ١٢٩٢ وسنة ١٢٩٥ فقد رأيت من أخلاق الطبقة السفلى من الناس كالكرارسية والحماليين والسائلين ما لم نعرفه منهم في السنة السابقة وفات السائلين مع انهم يمنعون السؤال للفقراء لوجود أماكن المرحمة للعاجزين ومن يباح له السؤال تجعل له علامة تؤذن باباحته ولا يكون الا ناقص عضو أو حاسة وغيرهم يتحيلون على السؤال بعزف آلة طرب أو اهداء باقة زهر أو نحو ذلك من غير الحاف في السؤال حتى اذا رأت الضابطية واحدا الحانه أو سجنته وفي السنة الثانية رأيت تغاضي الضابطية عن ذلك وعن سوء معاملة الكرارسية للركاب حتى يكون بعضهم سكرانا ويتكلم الكلام الفاحش ولا يتعرض له أحد كما رأيت في هاته السنة عدة مواطن للتشاكم والتلاكم وبعضها وقع فيه الضرب بالحديد ومات فيه المضروب وفي بعض الاوقات يركض الكراريسي ركضا زائدا يمكن ان ينشأ منه الضرر بالمارة وكل هاته الاشياء ممنوع ولم نر منه شيئا في المرة الاولى لكن الدعوى بمزيد الحرية التي تتبع الجمهورية أورثت ذلك الاهمال المفضي الى التهور والخروج من الاعتدال كيف لا وأحد أحزاب الجمهورية طالب المصير لما عليه الحيوانات العجم من الاشتراك وقد ذكر لي انه كان وقع مثل ذلك

الحزب

الحزب فى احدى مدن اروبا العظيمة وثار على الحكومة واقتحم منازل الناس وكان فى تلك البلاد أحد الاغنياء المشهور بالثروة حاذقا فطنا فأخذ عدة اكياس بالسكة الفضة وجلس عند باب داره وكلما امر عليه انسان أعطاه فرنكا فجاءه جمع من الثائرين فقال لهم انى منكم وقد حسبت مالى فاذا هو كذا كذا مليونا وأهل المملكة يساوون الى هذا العدد فيصح لكل واحد فرنك فكل من اتى أعطيته حصته ولا يسوغ ان أعطى لاحد منابا غيره فلم يسعهم الا الرضا وتخلص من نهب أمواله وتشتيتها ومن قتله بيسير آلاف فرنك دفعها لاولئك الثائرين الى ان قهرتهم الحكومة واضمحل أمرهم ومن تفاخر الاهالى اتقان الاغنياء للكراريس وبعضهم يجر كروسته اربعة أو ثمانية من الخيل بسائق واحد وبعضهم يكون هو السائق بنفسه وتجد بعض هاته الكراريس تركب اثنى عشر راكبا اربعة داخلها مثل المعتاد وأربعة على سطحها على كراسى لازمة كل اثنين على كرسى مثل الاسفل غير ان ظهورهم لبعضهم واثنان على كرسى السائق واثنان على كرسى الخدمة من وراء وفى قعر الكروسة محل لرفع ما خف من المأكول واللوازم فيركب صاحب الكروسة مع خواص عائلته وأحبابه وما يلزمهم لنزهة يوم ويذهبون لاحد المنتزهات خارج البلاد ومن عاداتهم ايضا انهم يتأنقون فى ظرافة اللبس والاثاث والبناء وتنظيمه وترتيبه وينشئون المنتزهات وأماكن الارتياح ليشترك فى فائدتها الحقير والعظيم وان كان لكل جهة كالقهاوى فما كان منها للعظماء زاد فى سعر ما يعطيه واتقن آلاته حتى لا يزاحم الفقير الغنى لكثرة المصرف من غير تحجير حكمى بحيث يصح ان يقال ان الملاذ والنزهة عند الفرانساويين ينال منها الحقير حظه وهى مشهورة يعرفها الوافد بادنى سهولة مع كثرتها وتهيئتها الى قبول كل أحد

مطلب

(فى التجارة)

(اعلم) ان تجارة فرانسا لها الرتبة الاولى فى سائر أقسام المسكونة ولهم براعة تامة فى ادارة الاشغال ولكن الاصول فى ذلك هى ما قررناه فى ايطاليا غير انها هى فى فرانسا أقوى وأروج وتسبب عنها كثرة الثروة والغنى المفرط حتى صارت شركات تجارتهم لا يخلو عنها اقليم من العالم وبواخر بريدهم تخترق سائر البحور ودونك أنموذجا يدل على مال فرانسا من الغنى فان دولتها اعدت المسكوكات الرائجة فيها سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م

فكانت كمايرى فرنكات	
٢١٠ر٩٤٧ر١٩٠	صرف قطع فضة بخمسة فرنكات
٩٦٥ر٠٥١ر٢٩٠	صرف قطع ذهبا الواحدة بعشرة فرنكات
٦ر٩٦٤ر٠٨٠ر٣٦٠	صرف قطع ذهبا الواحدة بعشرين فرنكا
٠ر٣٠٤ر٤٢٢ر٣٦٠	صرف قطع ذهبا الواحدة باربعين فرنكا
٠ر٠٤٦ر٥٦٨ر٧٠٠	صرف قطع ذهبا بخمسين فرنكا
٠ر٠٤٤ر٣٤٦ر٤٠٠	صرف قطع ذهبا بمائة فرنك
٥ر٣٦٧ر٤٧٧ر١٩٠	صرف قطع فضة من نصف فرنك وفرنك الى الاربعة فرنكات وقطع نحاس لاتمام الكسور
١٣ر٨٠٣ر٨٩٣ر٤٩٠	

فذلك من عين السكة خاصة عدا آلاف الملايين من قطع الاوراق المعدودة عوضا عن السكة من بنك الدولة وهاته الاوراق لها اعتبار أحسن من السكة لخفة مؤنتها فتزيد في الصرف نصفا في الألف وترو ج في سائر الاقطار مرغوبا فيها لدى الصرافين وفي خصوص فرانسا وايطاليا وسفيسرا والبلجيك يرغب فيها حتى غير الصرافين أما غير هاته من الممالك فانها تعتبر عند الصرافين فقط ويؤيد اعتبار غناها ماذكرناه في غرامة حربها مع المانيا وكذلك سنة ١٢٩٨ ه ١٨٨١ م طلبت دولة فرانسا استقراض ألف مليون فرنكا فاحضر لها الصرافون وأرباب الاموال ما اكتفت به عما تطلبه باخذها خمسة عشر فقط من كل مائة أحضرت لها وأساس ذلك الغنى هو الامن الذى سوغ للاهالى عقد الشركات باظهار أموالهم وترويجها والشركات هى الاساس الثانى مع حسن الادارة فاورث ذلك ما أشرنا اليه من أنموذج الغنى وتبعه ثروة الدولة التى هى بيت مال الاهالى بعد ان كانت منذ مدة ليست بطويلة فى غاية العسر والفقر من سوء ادارة حكومتها والحروب الاهلية والخارجية فذكر لى ان منذ نحو سبعين سنة كان لرجل منهم من أوراق دين دولتهم ما قدره عشرون مليونا فرنكا واحتاج ان يفطر ولو بيضا وخبزا فلم يجد من يعامله ولو بالعشرين مليونا التى معه مع ان دين الدولة الآن الذى يدفع فائدة خمسة فى المائة تساوى المائة منه مائة وعشرين نقدا فانظر عجيب الفرق بين الحالتين فى المدة القريبة وأحوال البريد هى فى أول درجة من الانتظام فى هاته المملكة

براو بحرا ومواصلة الطرق الحديدية والصناعية مع مجلات حمل الاثقال المختلفة الاشكال مع المتانة والحسن زادت التجارة رواجا بحيث ان السلع وغيرها الا تحمل الا على العجلات وفى المدن العظيمة لا تجرها الا الخيل السليمة او البغال بقلة وسفن البريد تصل الى أقصى ممالك المشرق والمغرب ومما يحسن ايراده عنوانا عما عندهم من الغنى ان الحكومة المصرية مدة ولاية خديويها اسمعيل باشا باعت سهامها من خليج السويس لدولة انكلاتيره بمائة مليون فرنكا فكثر فى ذلك القيل والقال من جهة السياسة خوفا من استيلاء انكلاتيره على الخليج المذكور واهتزت لذلك فرانسا أزيد مما سواها فذكرت احدى صحفهم يوما ان روشيلد أحد الصرافين الكبار المشهور بالغنى قد أعطى لصهره اذذاك مائة مليون فرنكا وخمسة وعشرين مليونا مهرا بنته ثم ذكرت على وجه التحمس والدعابة بان البائع لو خطب هاته البنت لولده وزوجها به لاخذ مائة مليون لحاجته وزاد بخمسة وعشرين مليونا مع بقاء السهام على ملكه واراحة العالم من التشويش والاضطراب

مطلب

﴿فى الاحكام﴾

(الاحكام) فى فرانسا أصولها هى المذكورة فى ايطاليا لان القانون الاصلى فى ذلك هو قانون نابليون الاول امبراطور الفرانسيس وانما بينهم بعض خلافات مبنية على اختلاف العوائد وادارة الاحكام منفردة عن الادارة السياسية ولا ساطة لهاته عليها بامارة ودونك مثلا لذلك وهو ان رستان الذى كان قنسلا لفرانسا وسعى فى الانقلابات التى حدثت فى تونس قد تكلم ضده وضد تصرف دولة فرانسا كثير من رجالهم فى المجامع العامة وكذلك تكلمت ضدهم جملة صحف خبرية فرانساوية وغيرها واشد الصحف مضادة الى رستان وأعماله صحيفة لانترانسيجان التى يطبع منها يوميا ١٥٠٥٣١ نسخة وصاحبها هو الرجل الشهير رشفور الفرانساوى وقدح فى عرض رستان فى المال والسياسة وصار الكلام معه رنة عظيمة حيث جعل استيلاء فرانسا على تونس كان لفوائد خصوصية مالية لمن سعى فى ذلك ولمن أعان وكان رستان أشد تهمة فاراد رستان تبرئة نفسه باقامة الدعوى على صاحب الصحيفة لدى مجلس الحكم وترافعوا وأدلى كل منهما بما توصل اليه من الحجج وكانت عدة رجال من الدولة الفرانساوية فى الانتصار الى رستان حتى الوزراء السابقون

فى الخارجية شهدواله بانه منفذ لاوامرهم ولم يتحقق عندهم مايدعى به عليه ومثلهم المنتصبون فى الوزارة وحاولوا استفاءهم فى نصرته لكن الحق بدا وغلب ولم يمل مجلس الحكم لاهواء أحد وحكم على رستان وألزمه بأداء مصاريف التحاكم وبذلك محت مقالات الصحيفة المشار اليها وخرج صاحبها صاحب اصادقا منصورا وقد ترجمت جميع جلسات مجلس الحكم المشار اليه وأفردت بالطبع حتى باللسان العربى وبالاطلاع على ذلك الكتاب يتأيد جميع ماذكرناه فى الاحوال التونسية وأسباب انقلابها ويتأيدماذكرناه فى السياسة الخارجية لفرانسا وفى السياسة الخارجية لتونس وماذكرناه هنا من انفراد ادارة الاحكام عن ادارة السياسة سيما بعد ارجاع رستان المذكور لوظيفته فى تونس بعد تلك المحاكمة مما يشهد لما قلناه فى مباحث السياسة من أن سياستهم الخارجية ليست هى كانصافهم فيما بينهم فى داخليتهم وهو مما يحقق أن الرجال المنتخبين للاحكام انما يكونون من أعف الموجودين وأنصفهم لاتميل بهم الاهواء عن الاستقامة غيران هذا هو الاغلب لاسيما فى المدن العظيمة وفى المجالس الانتهائية (وأما) غيرهم فالارتشاء بينهم فاحش يكاد أن يكون مثل مايصفون هم به حكام المشرق وطريقة الوصول اليه عندهم أيسر عمالهم من اباحة خلطة النساء فالمعطى للرشا يجعل الوسائل للتوصل الى احدى النسوة ذات النفوذ لدى الحاكم ويرشيها فتبلغه قصده بنفوذها بسبب قرابة أو وداد أوغير ذلك لدى الحاكم وربما أوصلت اليه حصة من الرشا وعلى تقدير الاكتفاء بما أخذته هى فهو أيضا ارتشاء الحاكم حيث مال بالحكم للجهة التى انتفعت منها من يريد نفعها وبهاته الوسيلة تكون خصلة الارتشاء عندهم مستورة نوعا مالان ظهورها يوجب العقاب الشديد بالقوانين مع عدم وجود الشفاعة عندهم ومع ذلك يوجد فى هؤلاء أيضا كثير متعففين وقد حضرت يوما فى مجلس الحكم لرؤية هيئة الاحكام والحكام فى باريس فاذا هو بيت كبير مستطيل له باب يدخل منه المتفرجون وباب للموظفين وباب للخصوم وفى صدره مسطبة عالية عليها ثلاث كراسى وأمامها مائدة مستطيلة عليها لكل كرسى دواة وأقلام وورق وعن يمين تلك الكراسى كرسى طويل يجلس عليه أزيد من عشرين شخصا وعن شمالها باب وأمامها فى نحو نصف البيت درابزين حائلة بين المتفرجين والخصوم وللمتفرجين كراسى يجلسون عليها وبقرب الكراسى التى فى الصدر كراسى سفلية أحدها لرئيس الكتاب والثانى لوكيل الحق العمومى الذى رتبته رتبة محتسب عام على الحقوق وله اعتبار كاعتبار رئيس المجلس وبعد هنيهة من دخول المتفرجين خرج من

الباب

الباب الذى على الشمال رئيس المجلس ومعه عضوان كل منهم لابس جبة طويلة بأكمام واسعة حمراء وعلى أكتافه منديل مقصب بالذهب وعلى رأسه شعر أبيض عارية له ذنب معقود على قفاهم فوقف لهم الحاضرون وأومأ الرئيس بالسلام لهم ثم جلس الرئيس على الكرسى الوسط والعضوان عن يمينه وشماله وجلس كل من وكيل الحقوق والكاتب على مرتبته ولكل منهم أيضا زى خاص يشبه زى الرئيس والاعضاء ثم دخل وكلاء الخصام الذين لهم ذلك الوقت دعوى ولكل منهم مثل ذلك الزى ثم دخل من باب خاص جمع من الناس باللباس المعتاد وجلسوا على ذلك الكرسى الطويل وهم الجورى فتكلم الرئيس بالسؤال عن حضور شاهد فأحضر واقفا خلف أمامهم ثم أدى شهادته وبعد سكوته سار الرئيس والاعضاء ثم خاطبه الرئيس لائما عن عدم حضوره فى اليوم المعين له ومعلما له بما يجب عليه من العقاب عن ذلك فاعتذر بالوحدة فأمهله بلزوم الحكم فيه فوقف وكيله وقال ان الشاهد مسكنه فى المحل الفلانى وهو غريب وفقير عاجز عن اكراء من يستعين به فوجه الرئيس القول للشاهد مشددا بلزوم الحكم عن مخالفة القانون ثم سار العضو الذى عن يمينه ثم الذى عن شماله ثم أمر الشاهد بالانصراف وانه ان عاد لمثلها أجرى عليه الحكم وانصرف ثم قام الرئيس والاعضاء ودخلوا من ذلك الباب الخاص ولحق بهم وكيل الحق العام وبعد نحو ربع ساعة خرجوا وأحضروا المحكوم عليه مع أحد أعوان الحاكم وقرأ الرئيس ورقة صغيرة بالحكم على الجانى ثم التفت الى الجماعة الجالسين عن يمينه وهم الجورى وسألهم عما ظهر لهم فوافقوه وانصرفوا جميعا وخرج المتفرجون اذ لم يكن ذلك اليوم الا تلك النازلة وقد أفهمنى وكيل الحق العام أن الحكم كان مهيأ من قبل لتمام النصاب بدون ذلك الشاهد غير أنه لما حضر تمم شهادته والمحكوم عليه جانى بتزوير السكة وكان جميع من حضر سكوتا بغاية التوقير للمجلس وذلك الشعر الذى يضعونه عارية على رؤسهم الاصل فيه ان الملك لويس الرابع عشر كان ردىء الشعر فاتخذ له عارية وكان اذ ذاك شيخا فاقتدت به أماثل البلاد وسرت منهم الى غيرهم من الامم وان قل استعمالها الآن الا فى المواكب الحافلة والقضاة ومن ✽ أهم ما يذكر فى أحوال الادارة الحكمية تنبه الضابطية وهم الحارسون للبلدان وشدة تنقيرهم وبحثهم ومراقبتهم حتى يتمكنوا بسهولة على الجناة ومع هاتيك المراقبة والاحتراس الشديد يقع الاحتيال البليغ من الجناة لكى يتوصلوا الى غاياتهم وكثيرا ما يبلغون اليها لكنهم أيضا كثيرا ما تنكشف أمرهم الضابطية وتتمكن منهم فقد ذكران ✽

أحد الصيارفة الكبار في باريس كان جالسا يوما في محله واذا برئيس ضابطية باريس قد جاء فأكرم مقدمه ورحب به فأخبره الرئيس انه محتاج لمبلغ وافر من المال لبعض المصالح غير انه لا يريد افشاء ذلك ولهذا أتاه بنفسه ليقرضه لمدة قصيرة ايماء لضرورة المصلحة عاجلا مع رجوعها المتعلقات وظيفته فاقرضه ذلك المبلغ على نحو القواعد الجارية عندهم وكتب له خط يده فيه وانصرف فمضى الاجل ولم يأت المال لصاحبه فبعد ثالث يوم ذهب الصيرفي بنفسه الى رئيس الضابطية ودخل عليه وبعد السلام انتظره الرئيس فيما يقول لانه من العادات المتأكدة عندهم ان الزائر لا يؤخر الكلام في مقصد زيارته ولا يخوض في الفضول سيما لاصحاب الوظائف لان الزمان مقسم كما انه لا يدخل عليهم اثنان معا ليس بينهما علاقة في نازلة واحدة لكن الصيرفي اعتمد على علم الرئيس فيما هو مطلوب فيه ولم يذكر له شيأ فلما مضت بعض دقائق سأله الرئيس ما هي حاجتك فتعجب الصيرفي وقال انها ذلك المال الذي أتيت اليه بنفسك ولذا لم أرسل لك غيري فاستغرب الرئيس في سره وتلطف في السؤال بقوله ذكرني النازلة لانه علم أن الصيرفي من كبار الاغنياء المعتمدين ولا يقول كلاما مثل ذلك افتراء ويعلم من نفسه انه لم يذهب اليه فعلم أنه لا بد للامر من واقعة فبين له الصيرفي ما وقع منه الى ان قال له وكتبت خط يدك ففكر مليا وطلب منه التمهل بعض ايام أخر من غير كشف للسر الى أن يقع الخلاص فخرج الصيرفي أيضا مفكرا فيما رأى من الرئيس وفي نفس الجواب لان ذلك مخالف لعادة الاقراضات ثم ان الرئيس أعمل فكره بان النازلة لا بد انها وقع فيها احتيال على الرجل من انسان مشابه للرئيس ثم دعا ضابط مركز الضابطية الذي بقرب دار الصيرفي وسأله هل رأيتني منذ كذا يوما قدمت الى ناحيتكم فقال نعم فقال في أي وقت فبين له الوقت وهيئة الركوب بانها على الوجه الرسمي من الابهة والملابس والعجلة فازداد تحققا لارتكاب الحيلة ثم سأله والى اين ذهبت فاجابه بانه ذهب لدار الصيرفي الفلاني وبقي عنده حصة كذا ثم خرج من عنده متوجها الى الجهة الفلانية فدعا الرئيس ضابط الجهة التي عينها الضابط الاول وأخبره بمثل ذلك وانه ذهب الى جهة كذا فدعا ضابطها أيضا وهكذا تتبع الحال الى ان أخبره الاخير بانك دخلت الدار الفلاني ثم رجعت العجلة خاوية وبقيت أنت هناك ولم تخرج باللباس الرسمي فدعا بدفتر من سكن تلك الدار لان كل محل سكن فيه انسان لا بد وان يقيد اسمه عند صاحب الباب أو عند صاحب منزل المسافرين وأحضر الناس الذين سكنوا في الوقت المعين في تلك الدار فوجد بينهم رجلا

يشبه الرئيس في الذات والوجه فدعاه منفردا وقال له أين المال الذي أخذته باسمي وان لم تظهره بطيب نفس أظهرته منك من غير ارادتك كما أظهرتك أنت فلم يسعه الا الاقرار به ورجع الرئيس المال الى صاحبه معلما له بانه لم يستقرض منه وانه احتيل عليه في ذلك ولهم من أمثال هاته الاحتيالات في السرقات أمور كثيرة وساعدهم على ذلك تيسر احضار الوسائل مثل ما مر في كون السارق تيسر له لبس مثل لبس رئيس الضابطية ووجد أيضا عجلة ذات أبهة وخدمة مثل عجلة الرئيس الى غير ذلك لان تلك الامور موجودة بسهولة كراء وشراء ولا منع من استعمالها الا ما كان منها من مشارات الحكومة الحماية أو غيرها فانه اذا كشف على المزور يعاقب ومع شدة الاحتراس والضبط على نحو ما ذكرناه فانك لا تكاد تجد رجلا بل وكثيرا من النساء يخرج بدون حمل سلاح صغير خفي كالحديد في وسط عصا الاتكاء وكالطبانجة ذات الطاقات المتعددة موضوعة في الجيب الى غير ذلك وهذا جار حتى في نفس باريس وقد كنت مارا ليلة في عجلة مع أحد الوجوه ومع زوجه ذاهبين لدعوة عند فرديناند لسبس فاتح خليج السويس فسألتني المرأة عن نوع السلاح الذي معي فاجبتها متعجبا باني ليس معي سلاح وما الحاجة اليه وانا في وسط باريس فقالت هي وزوجها لابد من حمل شئ فان الوقائع في باريس تحير الافكار ولذلك لا يخلو أسبوع بل وأقل منه بدون وجود مقتولين سيما في نهر السين فانهم يجدون في الشباك الموضوع في أسفل النهر خارج باريس كثيرا من جثث المقتولين اما بقتل غيرهم أو بقتل أنفسهم وذلك لان كثيرا من الاهالي من يقتل نفسه لتسخط من أمر دنيوي غير ان هذا التخوف في باريس لا يقع في الطرق الشهيرة كالشانزيليزي والبلفار لكثرة المارة بها ومن عوائد حكمهم اغضاء النظر عن الزنى بحيث ان المومسات يتبرجن جهرة بلا معارض ولهن ديار تجمع اعدادا وافرة ودار لابناء الزنى الذين تلقيهم امهاتهم وأكثر التجاهر به في باريس ودونك شاهدا على تفاحشه فقد حرر عدد النفوس سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م فكان المتزايد في سائر فرانسا ٩٢٠١١٧ مولودا منهم ابناء زنا ٦٨٢٢٠ مولودا

مطلب

﴿في المعارف﴾

(اعلم) أن المعارف الدنيوية في فرانسا قد تناهت لاعلى درجة من الاتقان والاجتهاد

وماتقدم فى أحوال باريس ومافيها من المكاتب والكتب وجمعيات الفنون والحث عليها كاف فى بيان ارتقاء تلك الفنون فى فرانسا حتى أقر لها بذلك سائر الامم فى أروبا وصاروا عيالا عليها فى كثير من الفنون ومن ذلك فن الطب ومقدماته فان المعالجة بالمعادن بمجرد اللمس التى ذكرنا طرفا منها فى الباب الاول عند ذكر معالجة مرضى كان اطلع عليها أحد الاطباء الكيمياويين من النمساويين ولكنه لم تقبل منه حتى قدم الى باريس واطلع عليها الحكيم شاركو وبعد تجربته لها واعطائه الشهادة والاجازة فيها اشتهر أمرها وتعاطتها الاطباء فى سائر الاقطار ومن أسباب الترقى فى المعارف عموما صناعة الطبع وقد تقدم فيها الفرانساويون الى الذروة القصوى وعندهم من الصحف الخبرية السياسية فقط مما يطبع فى مدينة باريس وحدها يومياستة وخمسون صحيفة يخرج من مجموعها يوميا ١٠١٠ر٩٤٣ر١ نسخة وهى منقسمة الى أحزاب السياسة فن صحيفة واحدة تسمى لبتى جرنال يطبع يوميا ٨٢٠ر٨٣٥ نسخة وما عداها أقل كل على قدر رواجه ولا تكاد تجد سائق كروسة أو عجلة حمل بدون ان تكون عنده صحيفة يومية يقرأها وقد أطنب الاطناب الحسن فى بيان تقسيم العلوم وترتيب اقرائها وافادتها العلامة رفاعة بك رحمه الله ونعمه فن أراد الوقوف على التفصيل فعليه بمراجعة رحلة المذكور الى أروبا

والحاصل ان الفرانساويين محصلون على الدرجة العليا فى المعارف الدنياوية ولهم اعتناء بسائر الفنون فيترجمون الى لغتهم كل كتاب فى فن غير معروف أو غريب ويدرسون اللغات الاجنبية واللغات القديمة التى لم يبق من يعرفها وتوصلوا الى معرفة خطوطها بوسائل جيدة لكن مما ينبغى علمه أن مدرسيهم فى الفنون التى يقصرون فيها يستعوضون قصورهم بعالم براعة فيه فترى مدرس العربية مثلا يخرج بادنى مناسبة لفظية الى علم الجغرافية ثم الى علم الاقتصاد السياسى ثم التاريخ ثم الهندسة ثم الكيميا ثم وثم الى أن ينقضى الزمان من غير ان يفيد حقيقة المقصود من بلاغة بيت شعر أو مثل مما هو موضوع البحث وتخرج تلامذته معجبين من براعة شيخهم وانه علامة العربية مع انه لا يعرف مزية تقديم المسند أو المسند اليه بل معادات الضمائر لا يحسنها فضلا عن الاعراب وذلك يوجب الجهل باصل الفن والغلط من العموم بظن تحصيلهم حقيقة للغة العربية وقل جدا من يحسنها مع أن فيهم المتفاخرين بعلم الترجمة بل والمدعين بالتآليف فيها ثم ان التعاليم لها مكاتب على طبقات ابتدائية ووسطى وانتهائية وعليا فالطبقة (الاولى) لا تكاد تجد قرية خالية عنها والثانية والثالثة انما توجد فى المدن الكبيرة

الكبيرة كرسيايا (وأما الرابعة) فلا توجد الا فى باريس واليها تأوى التلامذة بعد استكمال معارفهم على ان المثرين يؤثرون التعليم من البداية فى باريس بل ولا يختص هذا باهل فرانسا فان الكثير من ممالك المشرق وبعض غيرها يرسلون ابناءهم للتعلم بها وفضلا عن الفخر بالعلم يفتخر بالتعلم بها وهى جديرة بذلك لولا طيش فى اخلاق غالب المتعلمين بها من الغرباء سيما المسلمين فانهم يحدث لهم فساد فى اخلاقهم لخروجهم عن الطور والادب الداعى له العرض والدين وكان سبب ذلك رؤيتهم بها كثرة الخلاعة والاطلاق والنفوس مائلة الى الخبائث نسأل الله التوفيق ومن أسباب ترقى المعارف كثرة الكتب وسهولة التوصل اليها ففى فرانسا ٥٠٠ مكتبة تحتوى على ٤٫٥٩٨٫٠٠٠ كتابا من الكتب المطبوعة و ١٣٥٫٠٠٠ من كتب الخط ومكتبة الامة فى باريس هى أكبر الجميع ففيها ٣٫٠٧٨٫٠٠٠ مجلدا

مطلب

(فى الصنائع)

(الصنائع) فى فرانسا مضاهية لما فيها من المعارف والفلاحة فهى متقدمة للغاية علما وعملا بحيث ان لها مدارس عديدة تأوى اليها التلامذة من الآفاق لاخذ علومها بالتدريس والمشاهدة وكل مدرسة تحوى من آلات العمل وآلات العلوم الآلية للفلاحة كالطبيعيات جميع ما يحتاج اليه وهكذا سائر الصنائع بحيث أن مصنوعاتها متقنة ظريفة للغاية يرغب فيها فى سائر الاقطار لظرفها وتحسينها ورونقها وان كانت بعض الاقطار أمتن صناعة وفرانسا جامعة لكل الصنائع المعروفة فى العالم حتى الخزف الصينى والمنسوجات الكشميرية يقلد علها فى فرانسا ويؤتى بالمصنوع مشابها للاصل وقد برعوا فى الآلات بانواعها سيما الكهربائية وقد خصوا لها معرضا سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م لامتحان ما أثمرت من الفوائد وقد رأيت سنة ١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م آلات غريبة كهربائية منها آلة يمكن بها رؤية ما فى داخل المعدة بان تؤخذ قناة جيدة من الاصطيك وطرفها زجاج وتدخل فى الحلق الى ان تصل للمعدة ويجعل فى أعلى الحلق مقابل المعدة مرآة صغيرة ومقابلها على اللسان مثلها ثم يدخل فى القناة سلك معدنى لين الى ان يصل الى الزجاج الذى فى المعدة ثم يوصل بالسلك من خارج أسلاك الكهرباء المضيئة فيضئ السلك فى المعدة من غير احراق ويرتسم خيال المعدة بما فيها فى المرآة

العليا ويرتسم مثله منها فى المرآة التى على اللسان وينظر الطبيب بالمرآة المكبرة ما يريد وعمل ذلك ينظر فى الرحم وداخل الاذن والحلق ورأيتهم بصدد تجربة جر الاثقال بالكهربا ورونى آلة صغيرة تغلب قوة الانسان الجيد اذا كان قابضا يديه تفتحهما والعكس باسرع وقت فلا يبعد ان تطال تلك الآلة على طريق مناسب وينقل بها الاشياء من مكان الى آخر وان بعدا مع تدبير حفظ الجسم من خرق الهواء فى السرعة المحرقة وقد رأيت سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م سيرقطار صغير للتجربة بالكهربا على وجه آخر كما ذكرنا فى أحوال ايطاليا ورأيت فى باريس أيضا ماسك صورة باشكال حيوانات تتحرك أعضاؤها وعيونها بالكهربا مع صغر جرمها حتى يوضع الماسك من الذهب فى رأس المرأة والآلة الكهربائية تخفى فى الشعر ويرى الحيوان متحركا ومنه صورة فراش بالوانه البديعة من أحجار الزمرد والياقوت الاحمر والابيض وغير ذلك من الاحجار الكريمة المطابقة لالوان أجنحة الفراش وهو يخفق باجنحته الاربع فوق الرأس بالكهربا وهو غريب بديع جدا

مطلب

﴿فى هيئة المساكن والطرقات﴾

قد تقدم فى ايطاليا الهيئة العامة فى المساكن وهاتيك الهيئة بنفسها هى التى عليها العمل فى فرانسا غير أن باريس وحدها تزيد ونقاء بما احتوت عليه من كثرة الطرقات المتسعة جدا وبكثرة التنظيف والتنوير فى الليل كما انها تختص بان بعض طرقها مستعوض عن تبليطه أو تحصيبه بطليه بنوع صمغى يسمى اسفالت بحيث يكون بعد الجفاف رخوا فاذا مرت عليه العجلات لا تسمع لها الا همسا وتسمع قرع حوافر الخيل على الارض كالتصفيق المغلوط مع مزيد الهدو للركاب حتى كأن العجلة لا تتحرك فتلك الطرق مروحة جدا غير انها لم تعم لانها فى الصيف تفشو منها رائحة كريهة ولانها فى الطرق الكثيرة المرور تعطب فيها العجلات المارة بسبب عدم سماع حركتها وامكان الغفلة من الجانبية هذا (وأما) عموم البلاد والقرى فان لكل منها مجلسا بلديا دأبه التحسين والتنوير فى الليل بالبخار الغازى أو زيت النفط وهو قليل الاستعمال أو بالكهربا وهى أيضا لم يزل التنوير بها قليلا ولكنك لا تجد قرية غير منورة الطرق أو غير مصونة وتتها على حسب اقتدار الاهالى فضلا عن المدن والامصار وكل طريق مسمى

باسم

باسم مكتوب على مبدئه وعلى كل باب عدد خاص ثم ان طرق الحديد يوجد منها كثير حتى صارت فرانسا مرتبطة جميع الاطراف والاواسط ببعضها وعلى حافتي الطريق اخشاب شاخصة مربوط بها اسلاك حديدية علامة على حرم الطريق لكي لا يجتازه الناس ولا حيوانا تهم ولا زالوا مجتهدين في تكثير هاته الطرق الحديدية ثم ان مساكن الجهات الشمالية أحكم استعدادا للبرد من الجهات الجنوبية وان كان لهاته أيضا نصيب وافر منها بحيث لا تجد بيتا في الجميع بدون موقد اما للحطب أو للفحم المعدني أو البخار الغازي بل وبعضهم يطبخون بهذا البخار وقدمران في باريس اخترعوا التدفئة للديار من مركز عام في البلد ثم ان سائر الديار لا يبلط منها بالرخام أو غيره من الاحجار الا الدرج والمجازات الخارجة (وأما) بقية البيوت والمقاصير فانها مبلطة بالخشب المتين وتحسينه وزخرفته تبع لحالة الدار وكل الطواقي التي هي مثل الأبواب في الارتفاع والانتهاء الى الارض لها أبواب من خشب منجور ولها أبواب نحو ثلثها الاسفل خشب وثلثيها العلويين ذوي أطباق من الزجاج وأكثر الطواقي لها مع ذلك أيضا أبواب من أضلاع الخشب المنجور مقصبة يتحرك تقصيبها وكل تلك الابواب ذو دفتين ينفتحان يمينا وشمالا (وأما الحمامات) فهي عبارة عن ديار ذات مجازات طويلة بها عدة مقاصير صغيرة كل منها يحتوي على حوض من معدن أو حجر له منفذ من أسفل يخرج منه الماء الوسخ وله أنبوبان للماء الحار والبارد وتحتوي على كرسي ومسطبة ومرآة ومشط وأرضها مفروشة بزرابي والاغتسال انما هو في الحوض وكل الاهالي يعتني بتنظيم مفروشات بيته على قدر سعته والاغنياء لهم ترف زائد في الاثاث والتحف وفي المدن الكبيرة يقيمون اسواقا في يوم خاص من كل اسبوع في الحارات المتطرفة وحوانيته من خشب أو كتان تنصب في الطرق الوسيعة وترفع في يومها يباع بها أنواع الاكل من لحم وبقول وفواكه وبعض تحف وثياب يشتري منها أهل تلك الحارات كفايتهم للاسبوع

مطلب

في اللبس

اللبس في فرانسا وفي ايطاليا سواء عند الرجال والنساء وكذلك اللبس الرسمي والعسكري الا بعض شارات والوان في الملبوسات تختلف بينهم (أما أصل) الهيئة فواحدة وحيث كانت الرفاهية في الفرانساويين أزيد فتجد نساءهم أكثر تبدلا في لون اللباس وشكله

ورفعته على الجملة كما انهن أزيد ايضا فى وضع دقيق أبيض وادهان أخرعلى وجوههن قصد التزين وان كان ذلك يورث فسادا فى البشرة وأ كثر ذلك العمل فى نساء باريس وتراهن يتفاخرن بالنحول واصفرار اللون لانه كثيرا ما يحدث من كثرة السهر او العشق وكلاهما ممدوح عندهم لان السهر ينشأ من اجتماع الاحبة والاجتماع يستدعى المصاريف فهو علامة على الغنى بالوسائط كما ان من علامة الكبرياء ان تكون خدمة البيتوتات فى المحافل يذرون على رؤسهم غبارا أبيض والاصل فيه ان بعض المغنين كانوا يغنون فى موسم صان جرمان بخارج باريس وبهم قرع فبيضوا رؤسهم ليضحكوا الناس فتدرجت العادة شيأ فشيأ الى ان فشت سنة ١٦١٤ ثم فى سنة ١٧٩٠ جعلت عليه ضريبة للدولة واستمرت الى الآن

مطلب

﴿فى الاكل﴾

هيئة الاكل فى فرانسا هى الموجودة فى ايطاليا على السواء وكذلك المأكولات سواء غيران طعام الفرانسيس أكثر أشكالا وألذ طعما والطعام الابزرة فى الطبخ أحسن من الطليان ولذلك تجد لطعامهم رائحة لذيذة مثل رائحة طعام العرب (وفى المدن) توجد انواع الخبز على مراتب شتى ولهم نوع يؤكل صباحا مع اللبن والزبدة جيد جدا صنعة وصفاء وطبخا وفى خصوص باريس جميع أنواع الاطعمة المتداولة بين الامم الشهيرة وان كانت بأثمان غالية فقد أخبرت فيها بوجود مطبخ خاص باطعمة الترك والعرب وأوتيت منه بصحن كبير عملوا كسكسوا بلحم الدجاج وصحن آخر بالباسمية المعروفة فى تونس بالقناوية وثمنهما مع أجرة الحمل اثنان وأربعون فرنكا وهما يكفيان لشبع ستة أنفس طبخهما الذيذ على نحو الاصل كما انك تجد فيها جميع الغلال من جميع الاقطار لاى وقت كان بل قد أتوا بعشوش نوع من الخطاف فى الهند والصين يصنع عشه بنبات بحرى ويطبخونه ويأكلونه أعنى ذات العش بما احتوى عليه من زرق افراخ الخطاف ويستلذونه ويمدحونه وأغرب من ذلك انهم يأكلون الضفادع ويستلذونها أيضا بحيث يصح ان يقال انهم يأكلون كل ما يؤكل ولا يكون قتالا أو مضرا عاجلا غيران الاكل العام هو الدقيق من القمح ولحم البقر وللفقراء لحم الخيل أيضا والضان أقل استعمالا من البقر وفى القرى وشبهها يأكلون الشعير والذرة والبطاطس والفقراء أكثر استعمالا للخنزير

من

من الاغنياء والا كل فى القرى والبلاد الصغيرة أسلم من المدن والامصار من الغش بالخلط للاشياء المضرة كالقهوة مثلا لا تكاد تجد قهوة فى باريس مطبوخة غير مخلوطة بالسريس وهو نوع من البقول ثم ان أهل المدن لا يصنعون الخبز فى بيوتهم ولا يدخرون الاقوات وكل شئ يشترى من السوق يوميا الا قليلا من السكر ونحوه ويشترى اسبوعيا أو شهريا والحوم المشوية أو المقلية يجعلون فى نوع منها قطعا صغيرة من شحم الخنزير بحيث يشاهد عيانا كالمسامير فى اللحم وبعض الطيور يشوونها ويجعلون عليها نحو رداء من الشحم المذكور كما يجعلونه أحيانا فى بعض أنواع المرق فى ألوان الطعام الذى يكون مع اللحم شئ من المرق وكيفية الذكاة فى أوروبا عموما حسبما علمت ان البقر بعد ان يربط من قرونه يمينا وشمالا ومن ارجله أيضا حتى لا يستطيع الحراك وهو واقف يضرب على جبهته بمطرقة عظيمة من الحديد ضربة أو اثنتين حتى يغمى عليه فيذبح ويجمع دمه ليعمل منه نوع من الاكل فى المصارين وبعضهم يكتفى بالقتل بالضرب على الرأس لكنه نادر وقد أبطل فى ايطاليا منذ سنة ١٢٩٨ والزم الحكم بالذبح بحيث لا يباع غير المذبوح (وأما الغنم) وشبهها فتذبح ابتداء (وأما الطيور) فالاوز ودجاج الهند وأشباهها مما هو طويل العنق فيذبح ذبحا (وأما الدجاج) فيجذب عنقه الى ان ينقطع النخاع فيموت وينحصر الدم نحو الدماغ فيتجمد ويؤكل على حدة (وأما الحمام) فالاكثر ذبحه وتارة يخنق وتارة يكسر ظهره مع قطع النخاع فيموت واذا تقرر هذا فلنذكر حكم طعامهم شرعا فطعامهم اما ان يكون من الخنزير ومثله الحيوانات المحرمة عندنا كالسباع واما ان يكون من الحيوانات المذكاة أى التى هى حلال عندنا وانما يتوقف أكلها على التذكية واما ان يكون من غير ذلك من المأكولات كالنباتات والمعادن والسمك وكل منها اما ان يتخذ لعادة كسائر المآكل المعتادة أو يتخذ لعبادة كالمتخذ لخصوص أعياد أو يتخذ لخصوص هدية لمسلم فهذه تسع صور حاصلة من ضرب ثلاث فى ثلاث وكل منها اما ان يكون محققا العين أو مشكوكا فيه فتصير ثمانى عشرة صورة وها أنا أذكرها اجمالا مع أحكامها ثم نورد أدلة الحكم

١ الخنزير وشبهه محققا العادة حرام ١ مـ	٢ هو لعبادة محققا حرام ٢ مـ	٣ هو لهدية محققا حرام ٣ مـ	٤ مشكوك فيه لعبادة مكروه ١ هـ
٥ مشكوك فيه لهدية مكروه ٢ هـ	٦ مشكوك فيه لعادة مباح ١ حـ	٧ المأكولات غير المذكاة محققة للعادة مباحة ٢ حـ	٨ هي محققة لهدية مباحة ٣ حـ
٩ هي محققة لعبادة مكروهة ٣ هـ	١٠ هي مشكوك فيها العادة مباحة ٤ حـ	١١ هي مشكوك فيها الهدية مباحة ٥ حـ	١٢ هي مشكوك فيها العبادة مكروهة ٤ هـ
١٣ اللحوم المذكاة محققة للعادة مباحة ٦ حـ	١٤ هي محققة لعبادة مكروهة ٥ هـ	١٥ هي محققة لهدية مكروهة ٦ هـ	١٦ هي مشكوكة للعادة مباحة ٧ حـ
١ م	١٧ هي مشكوكة لعبادة مكروهة ٧ هـ	١٨ هي مشكوكة لهدية مكروهة ٨ هـ	١ م

فاما

فأما الدليل على تحريم المسائل الثلاثة الاول فهو واضح لحرمة تلك الاعيان بالنص ولا حاجة الى بسطه لمعلوميته للجميع ولما كانت أحكام الشرع كلها مناطة بحكمة فما ادركناه قلنا انه معقول وما لا قلنا انه تعبدى مع العلم بانه فيه مصلحة لنا لتنزه البارى تعالى عن الاحتياج وانما قصور عقولنا أوجب عدم الادراك ومهما بحثنا ودققنا النظر الازدنا خبرة وبصارة بحكم الشرع فمن ذلك القبيل ما اكتشف بالنظارات المكبرة والتحليلات الكيمياوية من ان فى لحم الخنزير حيوانات مضرة تورث أمراضا معضلة جدا وتلك الحيوانات ممتزجة فى لحمه لا تموت بالطبخ ولا بغيره فاذا أكل لحم الخنزير سرت تلك الحيوانات فى دم آكله وأضرته وأهالى أوروبا اكتشفوا ذلك واحتمى كثير منهم عن أكله (فنحمد الله) على شرعنا القويم ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (واما دليل) مسائل الكراهة الثمانية وهى ٤ و ٥ و ٩ و ١٢ و ١٤ و ١٥ و ١٧ و ١٨ فاصل الحلية اما بأصل الاباحة فى غير المذكى أو باباحة طعامهم فى المذكى على ما سيأتى وانما أتت الكراهة من حيث الاشعار بالتعظيم لشعائر الكفر فى المتخذ للاعياد وكان أشعر بذلك مكروه (أما) اذا قصد التعظيم فينتقل الحكم الى الكفر والعياذ بالله والمشكوك داخل فى ذلك كما سنوضحه والكراهة فى المذكى المتخذ للهدية جاءت من الخلاف فى حليتها حيث قال بعض العلماء ان النص دال على حلية طعامهم وما يتخذ للهدية لمسلم ليس بطعام لاهل الكتاب فلا يشمله النص وهذا القول وان لم يكن هو المعتمد عند غالب العلماء لكن مراعاته توجب كراهة التنزيه على ان لقائل ان يقول ان أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشاة المسمومة التى أهدتها له يهودية دليل على الاباحة وشمول النص للهدية فتنتفى الكراهة وهو مقتضى اطلاق النصوص الفقهية عندنا كما يأتى (وأما دليل) الاباحة للمسائل السبعة وهى ٦ و ٧ و ٨ و ١٠ و ١١ و ١٣ و ١٦ فما كان منها من غير مذكى فهو مباح بأصل الاباحة التامة لان كل ما لا تذكية له لا يتوقف على شئ يبيح سواه عدم المضرة والطهارة فهو من المسلم وغيره على السواء والاصل الطهارة حتى يتحقق النجاسة والشك فى كونهم لا يتحرون من النجاسة غير عامل كما كما صرح به شيخ الاسلام بيرم الرابع فى جواب سؤال عن جواز التيمم فى بلاد الحرب للشك فى مياههم وأوانيهم من حيث عدم اتقاء النجاسة فقال بعد ذكر حكم التيمم وهذا كله مبنى على نجاسة مياه أولئك القوم وأنى لنا بذلك ومجرد احتمال عدم التوقى غير مقتض

الى الجزم بالنجاسة بل لابد من تحققها أو غلبة الظن بها ومن ثم جاز تناول طعام أهل الكتاب واستعمال أوانيهم ولبس الثياب المجلوبة من بلاد الكفر بل المشتراة منهم بعد لبسهم لها كل ذلك حملا على الاصل الذى هو الطهارة حتى يثبت ضدها الخ وفى حواشى الدر للسيد ابن عابدين (رضى الله عنه) من كتاب الذبائح مانصه أقول وفى بلاد الدروز كثير من النصارى فاذا جىء بالقريشة أو الجبن من بلادهم لايحكم بعدم الحل مالم يعلم أنها معمولة بأنفحة ذبيحة درزى والا فقد تعمل بغير أنفحة وقد يذبح الذبيحة نصرانى تأمل الخ والاصل فى هذا ماصرح به فى قواعد الاشباه من قاعدة اليقين لايزول بالشك والمتيقن فى أصل الاشياء الطهارة فلا تزول بالشك فى المطعومات التى ليست بمحل للتذكية ويوافقنا على ذلك مذهب مالك رضى الله عنه فقد نقل عنه أنه سئل عن الجبن الذى يؤتى به من بلاد الروم وقد قيل انه يعمل بأنفحة الخنازير فقال أما أنا فلا احرم حلالا (وأما) ان كرهه الانسان فى نفسه فلا أرى بذلك بأسا فأنت ترى تصريحه بالحلية وتبريه من التحريم وانما جعل اجتنابه من الورع وهذا فى المذكى فما بالك بغيره ولا يرد على هذا قاعدة اذا اختلط الحرام والحلال غلب الحرام الحلال المذكورة فى الاشتباه لان ذلك فيما اذا تيقن وجود الحرام كاختلاط أشياء نجسة بأخرى طاهرة وكل منهما محقق الوجود غير أنه ليس معلوما بعينه واستويا أو كان النجس أكثر فانه تغلب الحرمة للجميع أما اذا كان الطاهر أكثر فيتحرى ويستعمل ما غلب على الظن طهره (وأما) مسئلتنا فان موضوعها كون الذات المعينة التى أصلها الطهارة وقع الشك فيها هل طرأت عليها نجاسة أم لا (وأما ما كان) من مسائل الاباحة مما لا يحل أكله الا بالتذكية (فالدليل) على الحلية فيه ماذكر فى الدر فى كتاب الذبائح حيث قال وشرط كون الذابح مسلما حلالا خارج الحرم ان كان صيدا أو كتابيا ذميا أو حربيا الا اذا سمع منه عند الذبح ذكر المسيح الخ قال محشيه السيد ابن عابدين قوله الا اذا سمع الخ فلو سمع منه ذكر الله تعالى لكنه عنى به المسيح قالوا يؤكل الا اذا نص فقال بسم الله الذى هو ثالث ثلاثة حاشا اه هندية وأفاد أنه يؤكل اذا جاء به مذبوحا غائبة كما اذا ذبح بالحضور وذكر اسم الله وحده والذى علمناه من حالهم الآن انهم لا يسمون شيأ بل واللحم يوجد فى بلاد أغلب أهلها متدينون بالنصرانية سيما فقراؤهم كالقصابين وفى مثل ذلك يحمل على حالة الجواز لما قال فى الدر فى آخر الحظر والاباحة من قوله فعلم ان العلم بكون الذابح أهلا للذكاة ليس بشرط الخ ويؤيده تصريح محشيه فيما نقلناه سابقا فى مسئلة القريشة والجبن بل وسيأتى

النقل

النقل بجواز ما لم يسم عليه أو سمى غير الله تعالى اذا كان الذابح كتابيا وفى تنقيح الحامدية أول الذبائح ما نصه سئل فى ذبيحة الذمى الكتابى هل تحل مطلقا أولا (الجواب) تحل ذبيحة الكتابى لان من شرطها كون الذابح صاحب ملة التوحيد حقيقة كالمسلم أو دعوى كالكتابى ولانه مؤمن بكتاب من كتب الله تعالى وتحل مناكحته فصار كالمسلم فى ذلك ولا فرق فى الكتابى بين أن يكون ذميا يهوديا أو نصرانيا أو حربيا أو عربيا أو تغلبيا لاطلاق قوله تعالى وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمراد بطعامهم مذكاهم (قال البخارى رحمه الله) فى صحيحه (قال ابن عباس) رضى الله عنهما طعامهم ذبائحهم ولان مطلق الطعام غير المذكى يحل من أى كافر كان بالاجماع فوجب تخصيصه بالمذكى وهذا اذا لم يسمع من الكتابى أنه سمى غير الله تعالى كالمسيح والعزير وأما لو سمع فلا تحل ذبيحته لقوله تعالى وما أهل به لغير الله وهو كالمسلم فى ذلك وهل يشترط فى اليهودى أن يكون اسرائيليا وفى النصرانى أن لا يعتقد ان المسيح اله مقتضى اطلاق الهداية وغيرها عدم الاشتراط وبه أفتى الجد فى الاسرائيلى وشرط فى المستصفى لحل مناكحتهم عدم اعتقاد النصرانى ذلك وكذا فى المبسوط فانه قال ويجب أن لا يأكلوا ذبائح أهل الكتاب ان اعتقدوا أن المسيح اله أو أن عزيرا اله ولا يتزوجوا نساءهم لكن فى مبسوط شمس الائمة وتحل ذبيحة النصرانى مطلقا سواء قال ثالث ثلاثة أولا ومقتضى الدلائل واطلاق الاية الجواز كما ذكره التمرتاشى فى فتاواه والاولى أن لا يأكل ذبيحتهم ولا يتزوج منهم الا لضرورة كما حققه الكمال قال العلامة قاسم فى رسائله قال الامام من دان دين اليهود والنصارى من الصابئة والسامرة أكل ذبيحته وحل نساؤه (وقد حكى) عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كتب اليه فيهم أو فى أحدهم فكتب مثل ما قلنا فاذا كانوا يعترفون باليهودية والنصرانية فقد علمنا أن النصارى فرق فلا يجوز اذا جمعت النصرانية بينهم أن نزعم أن بعضهم تحل ذبيحته ونساؤه وبعضهم يحرم الا بخبر يلزم ولا نعلم فى هذا خبرا فمن جمعه اليهودية والنصرانية فحكمه حكم واحد اه وعلى هذا النحو ماذكر فى الهندية وغيرها والسند للفقهاء فى هذا الحكم وهو قوله تعالى وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والذى رأيته فى الكشاف والبيضاوى وروح البيان وتفسير أبى السعود والرازى يفيد ماذكر فى تفسير فتح البيان لسلطان بهوبال معزيادات مفيدة فى هذا فلنقتصر على ما ذكر فيه قال والحاصل ان حل الذبيحة تابع لحل المناكحة والطعام اسم لما يؤكل ومنه الذبائح وذهب أكثر أهل العلم الى تخصيصه هنا بالذبائح ورجحه الخازن وفى هذه الآية دليل

على ان جميع طعام أهل الكتاب من غير فرق بين اللحم وغيره حلال للمسلمين وان كانوا لايذكرون اسم الله على ذبائحهم وتكون هاته الآية مخصصة لعموم قوله تعالى ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وظاهر هذا ان ذبائح أهل الكتاب حلال وان ذكر اليهودى على ذبيحته اسم العزير والنصرانى على ذبيحته اسم المسيح وان سمعته يسمى غير الله فلا تأكل وهو قول طاوس والحسن وتمسكوا بقوله تعالى ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ويدل عليه أيضا وما أهل به لغير الله وقال مالك انه يكره ولايحرم وسئل الشعبى وعطاء عنه فقالا يحل فان الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم مايقولون فهذا الخلاف اذا علمنا ان أهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم غير اسم الله وأما مع عدم العلم فقد حكى الطبرى وابن كثير الاجماع على حلها لهذه الآية ولما ورد فى السنة من أكله صلى الله عليه وسلم من الشاة المصلية التى أهدتها اليه اليهودية وهو فى الصحيح وكذلك جراب الشحم الذى أخذه بعض الصحابة من خيبر وعلم بذلك النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى الصحيح أيضا وغير ذلك الى ان قال وقال القرطبى وجمهور الائمة ان ذبيحة كل نصرانى حلال سواء كان من بنى تغلب أو غيرهم وكذلك اليهود قال ولاخلاف بين العلماء ان مالايحتاج الى الذكاة كالطعام يجوز أكله الخ فتحصل مما مر حلية المسائل السبعة المذكورة من الطعام وان الشك غير مؤثر فيها فان قلت قد ذكرت ان بعض الطيور يخنقونها ويأكلونها بلا ذبح وان بعض الاطعمة يجعل فيها شحم الخنزير فكيف الحكم فى ذلك (فالجواب) أما الطعام الذى يتحقق فيه شحم الخنزير أو لحمه فهو حرام بالنص على نجاسة ذاته كما مر وطريق الوصول الى التحقق امابرؤية ذاته من الآكل فيما تتبين فيه أو بغلبة الظن فى الالوان التى جرت العادة بوضعه فيها أو باخبار الطابخ أو المناول بان يسئله الآكل هل فى هذا شئ من لحم الخنزير أو شحمه فان أخبره بالوجود امتنع والاحل لان خبره مقبول فى المعاملات وان كان كافرا كما نص على ذلك فى كتاب الحظر والاباحة من دواوين الفقه وصوروها بقول الكافر اشتريت اللحم من كتابى فيحل أومن مجوسى فيحرم رصرحوا بانه وان آل خبره الى ديانة يعمل به بخلاف ما اذا أخبر أولا عن حكم دينى كقوله هذا طاهر أونجس أو حلال أو حرام لجهله بذلك بخلاف المعاملات وهذا السؤال انما هو على وجه الورع والا فالاصل فيما لم يتحقق فيه شئ من النجاسة هو الطهارة كما مر وينبغى ان يعلم انهم لايقصدون الآن غش المسلم بأكله المحرم عليه كما يتوهم بعض العامة اذ عندهم الاخبار بذلك

بذلك كله ولهم هو لحم دجاج أو لحم أوز ولا يعنيهم أمر الحرمة والحل عند المسلم بل جمهورهم لا يدري شيأ من ذلك (وأما) مسئلة الخنق فان كان لمجرد شك فلا تأثير له كما تقدم وان كان لتحقق فلم أر حكم المسئلة مصرحا به عند دناوقياسها على تحقق تسمية غير الله انها محرمة عند الحنفية وأما عند من يرى الحل في مسئلة التسمية كما هو مذهب جمع عظيم من الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين فالقياس عليها يفيد الحلية حيث خصصوا باية وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم آية ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وآية وما أهل به لغير الله وكذلك تكون مخصصة لاية المخنقة ويكون حكم الآيتين خاصا بفعل المسلمين والاباحة عامة في طعام أهل الكتاب اذ لا فرق بين ما أهل به لغير الله وما خنق فاذا أبيح الاول فيما يفعله أهل الكتاب كذلك الثاني وقد كنت رأيت رسالة لاحد أفاضل المالكية نص فيها على الحل وجاب النصوص من مذهبه بما يثلج به الصدر سيما اذا كان عمل الخنق عندهم من قبيل الذكاة كما اخبر به كثير من علمائهم وان المقصود التوصل الى قتل الحيوان باسهل قتلة للتوصل الى أكله بدون فرق بين طاهر ونجس مستندين في ذلك لقول الانجيل على زعمهم فلا مرية في الحلية على هاته المذاهب فان قلت كيف يسوغ تقليد الحنفي لغير مذهبه قلت أما ان كان المقلد من أهل النظر في الادلة وقلد الحنفي عن ترجيح برهان فهذا مما يقال انه لا يسوغ له ذلك وأما اذا كان من أهل التقليد البحت كما هو في أهل زماننا فقد نصوا على جميع الائمة بالنسبة اليه سواء والعامي لا مذهب له وان مذهبه مذهب مفتيه وقوله انا حنفي أو مالكي كقول الجاهل انا نحوي لا يحصل له منه سوى مجرد الاسم فباي العلماء اقتدى فهو ناج على ان الكلام وراء ذلك فقد نصوا على الجواز والوقوع بالفعل في تقليد المجتهد لغيره والكلام مبسوط في ذلك في كثير من كتب الفقه وقد حرر المبحث أبو السعود في شرح الاربعين حديثا النووية وألف في ذلك رسالة عبد الرحيم المكي فليراجعهما من اراد الوقوف على التفصيل فان قيل قد ذكرت ان الخنزير محرم وان كان من طعامهم فلماذا لا يجعل مخصصا للحلية أيضا بهاته الآية أي آية طعامهم واذا جعلت آية تحريمه محكمة غير منسوخة فكذلك تكون المخنقة ولماذا تقيسها على مسئلة التسمية ولا تقيسها على مسئلة الخنزير وأي مرجح لذلك (فالجواب) ان المأكولات منها ما حرم لعينه ومنها ما حرم لغيره فالخنزير وما شاكله من الحيوانات محرمة لعينها ولهذا تبقى على تحريمها في جميع أطوارها وحالاتها (وأما) متروك التسمية أو ما أهل به لغير الله والمخنقة فان التحريم أتى فيه لعارض وهو ذلك الفعل

ثم أتى نص آخر عام فى كل طعام أهل الكتاب وانه حلال فاخرج منه محرم العين ضرورة وبالاجماع أيضا وبقى المحرم لغيره وهو مسئلتان احدهما مسئلة التسمية والثانية مسئلة المخنقة فبقيتا فى محل الشك لتجاذب كل من نصى التحريم والاباحة لهما فوجدنا احداهما وهى مسئلة التسمية وقع الخلاف فيها بين المجتهدين من الصحابة وغيرهم وذهب جمع عظيم منهم الى الاباحة وبقيت مسئلة المخنقة التى يتخذها أهل الكتاب طعاما لهم مسكوتا عنها فكان قياسها على مسئلة التسمية هو المتعين لاتحاد العلة (وأما قياسها) على مسئلة الخنزير فهو قياس مع الفارق فلا يصح اذ شرط القياس المساواة وانما اطلنا الكلام فى هذا المجال لانه مهم فى هذا الزمان وكلام الناس فيه كثير والله يؤيد الحق وهو يهدى السبيل

مطلب

﴿فى المواكب﴾

(اعلم) ان المواكب الرسمية فى أوروبا وما متشابهة وقد تقدم ذكر حالتها فى ايطاليا فلاداعى لاعادتها هنا غير انه ربما يشكل على القارى شئ وهو ان فرانسا ليس لها الآن ملك فمن هو مناط المواكب الرسمية فاعلم ان دعواهم فى الجمهورية انها خالية عن الملك هو أمر وهمى لان وظيفة الملك كانها أمر ضرورى لامندوحة عنه حتى وقع الخلاف بين علماء الكلام هل أن الملك واجب بالعقل أو السمع فقط واحتج القائلون بانه واجب سمعا بانا نجد أمما عاشون على وجه ما من الاستقامة بدون ملك وكل ذلك أمر وهمى ولا مجال للخلاف فى المسئلة اذ اقامة الملك أمر طبيعى لا تمكن الاستقامة بدونه وماذكره المحتج من وجود أمم الخ هو كاف فى الرد عليه لانه معترف بان تلك الامم أو القبائل تنقاد الى رؤسائهم فالخلاف حينئذ انما هو فى اللقب وفى تحديد السلطة أو اطلاقها وكذلك حالة الجمهورية فى بعض الممالك الآن لان من يقيمونه رئيسا لها ماهو فى الحقيقة الا ملك عليهم لمدة معينة وتصرفه مقيد بحدود معينة فلا مندوحة لهم حينئذ عن الاقرار بوجوب الملك والانقياد اليه وغاية أمرهم هو اختلاف اللقب وزيادة الابهة والعظمة أما أصل التوقير والسمع والطاعة والانقياد له فكله موجود عندهم فرئيس الجمهورية يفعل جميع ما يحتاج فيه الى الملك من مراسم المواكب وغيرها غير انه أقل أبهة وضخامة من الملوك فى اللبس والاعوان وأما بقية المواكب الاعتيادية فهى

كما

كما ذكره فى ايطاليا وقد دعونى فى سنة ١٢٩٢ للفرجة على موكب دفن اثنين من الجنرالات ماتا سنة ١٢٨٦ ه‍ ١٨٧٠ م فى حرب الكومون أى الاشترا كيين فى باريس وكانت جثتهما مصبرة فى صناديق بكنيسة ليزان فاليد المدفون بها بونابارتى الاول وأعدوا لهما موكبا حافلا باحضار جم غفير من العساكر المشاة والخيالة والطبجية بمدافعهم وقوفا فى البطحاء الكبيرة أمام الكنيسة وغصت سائر الطرقات والميادين بالخلائق المتفرجين وامتلأ داخل الكنيسة بالاعيان المدعوين وكانت فوانيسها موقودة والشموع الكثيرة مسرجة وكبار القسوس حول المعبد يرطنون بالحان ونغمات تعديديه تميل الى الحزن يتفننون واحدا فواحدا ولهم سكتات فى الوسط يضج فيها قوم من صغار القسوس جالسين فى دواشن عالية محيطة بداخل الكنيسة ويلحنون ترطينهم بانغام أيضا شبيهة السافيين وهكذا الى ختام أدعيتهم ثم حملوا الجنازتين المكسوتا بوتهما بلباس أصحابهما الرسمى ووضعتا فى عجلات معدة لذلك مزينة بالازهار وتقصيب الذهب والفضة وسارت العساكر بمدافعهم فى المقدمة ومن ورائهم الجنازتان ومن ورائهما بقية المشيعين ركوبا فى كراريس سود وسرج الخيول أسود والخيل سود ولباس الركاب أسود وذهبوا الى المقبرة وكانت المدافع تطلق بعد كل خمس دقائق كل ذلك اظهار العناية بمن نفع وطنه منهم ترغيبا لمن يسلك ذلك المسلك وعلى نحو من ذلك رأيت سنة ١٢٩٥ ه‍ ١٨٧٨ م جنازة ملك الهانوفر الذى أدخلت مملكته دولة البروسيا فى مملكتها وفر هو وسكن فى باريس وهو شيخ مسن والساميات حضرت جنازته امراء ووزراء المانيا وجعلت له دولة فرانسا أبهة على نحو ماتقدم غيرانه أخرج من داره لامن الكنيسة ولقد تذكرت فى تلك الكنيسة عند ماشاهدت حركاتهم وهيئتهم قول نبينا صلى الله عليه وسلم الصادق الامين لتتبعن سنن من قبلكم شبرا شبرا وذراعا ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قلنا اليهود والنصارى يارسول الله قال ومن اه كما ورد ذلك فى الصحيح اذ علمت من ذلك منشأ وجود الكلات فى الجوامع وتغنى المؤذنين والمقيمين فيها واجابتهم للائمة بالحان متناسبة وتلحين الخطباء والائمة فى القراءة والدعوات الى غير ذلك من البدع التى ما أنزل الله بها من سلطان وماهى الا ضلالة وافساد وزيادة ونقصان فى العبادة ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وحيث كان أعظم المواكب الاعتيادية عندهم هو رأس السنة نذكر ما وقع فى باريس فى رأس السنة الاعجمية الموافق لذى القعدة سنة ١٢٩٠ من حالة التزاور عندهم

فيها الا انهم يكتفون عن اتعاب الزيارة بارسال أوراق الاسماء فيما بين المعارف وترسل بواسطة البريد أو بواسطة الحمالين المعدين لقضاء الحاجات يقفون في الطرق وعلى صدر كل واحد قطعة من نحاس عليها عدد وسام من الحكومة بانه أمين مجاز له في تلك الصناعة فوزع بواسطة البريد فقط مليون وخمسمائة وستون ألف ورقة عدا ما وزع بواسطة الحمالين وأرسلت الى أهالي باريس مكاتيب تهنئة من الخارج مليون وخمسمائة ألف وكان المرسل منهم في يوم رأس العام من المكاتيب المضمنة في البريد تسعة آلاف مكتوب ونسبتها لغير المضمن نسبة واحد من مائة

مطلب

﴿في اللغة﴾

(اللغة) الفرانساوية فرع من اللغة اللاتينية ولهذا لم يزالوا يراعون في الكتابة أصول تلك اللغة حتى يكتبون أحرفا لا ينطقون بها بل وبعضها لمجرد مراعاة الاصل بدون فائدة أخرى ولا زالت في التهذيب والاعتناء بها ولهم جمعيات علمية لتحسينها وضبطها وقد اشتهرت اشتهارا كليا في العالم من وقت ارتقاء نابليون بونابارتي الاول الى امبراطورية فرانسا حتى وقع الاتفاق بين الدول الاروباوية على ان تكون هي اللغة المستعملة في المحاورات والمخاطبات بين الدول وصار من لوازم أهل السياسة معرفة التكلم بها ولذلك وقع الاصطلاح فيها على ألفاظ تؤدي معاني سياسية منضبطة محررة مختصرة تحتاج في غيرها الى تطويل وابهام وذلك الاتفاق على اجرائها في الخطابات السياسية لم يزل جاريا الى الآن حتى ان المانيا لما غلبت فرانسا سنة ١٢٨٦ هـ ١٨٧٠ م حاولت نقل هاتيك المزية الى لسانها فلم توافقها انكلاتيره وقالت (اما) ان نبقى على الاصطلاح المتعارف على اللغة الفرانساوية (واما) ان كل دولة تخاطب بلسانها فابقى الوجه الاول لان الثاني فيه من الصعوبة ما لا يخفى اذ يلزم رجال السياسة تعلم لسان جميع الدول ذات السياسة ووجود مترجمين في وزاراتهم لتلك اللغات بخلاف الاستقرار على اللغة الفرانساوية التي هي ما وقع فيها من التحرير ومن اعتنائهم بلغتهم اعتناؤهم بالفصاحة فيها وارتجال الخطب المستطيلة أعني الخطب على النحو العربي الاصلي بارتجال الكلام مع فصاحته وانسجامه لا كما يصنع الخطباء الآن من حفظهم اما ينشئونه ان كانت لهم قدرة على الانشاء أو حفظ منشآت غيرهم أو سردها من ورقة اذ هذا خلاف الاسلوب العربي

العربي الاصلي واغناهو أى الاصلي استحضار معان مرتبة فى فكرة الخطيب والقاؤها عند الحاجة بالفاظ منسجمة فصيحة بليغة وذلك هو شأن كل أمة ترقت في سجايا الفخار فالفرانساريون توجهوا لهذا المقصد أيضا وبلغوا فيه على حسب اصطلاح لغتهم الى المبالغ الحسنة فترى خطباءهم يقف أحدهم خطيبا بكلام ساعتين وثلاثا بدون تلعثم أو مراجعة سوى البطاقة أحيانا مكتوب بها رأوس النوازل التى يريد الخوض فيها وينتقل من واحدة الى أخرى بربط المناسبات الى انتهاء مقصوده وقد يعترض له بعض اضداده أفرادا ومجتمعين بالاستهزاء منه والسخرية من كلامه والرد عليه ولو بالضجيج وهو مثبت فى مسالكه ويجيب الراد عليه بالمناسبة لان أغلب ما تكون خطبهم فى السياسة مع تنازع الاحزاب فيها سيما فى مجالس النواب والاعيان وكثيرا ما يوضع للخطيب فوق المائدة أمام منبره كاس بالماء والسكر والزهر لئلا يجف لسانه من كثرة الكلام أو الغيظ هذا أصله لكني رأيت من يتخذ الشرب منه آلة للتفكر ومهلة للتدبير فيما يقول حتى أكثر من ذلك وصار يشرب كل ثلاث دقائق أو خمس وهو دليل عيه والحاصل ان خطبهم الآن شبه خطب أسلافنا العرب فى الصورة وشبه الدروس المتقنة فى ادائها من علمائنا الفحول الآن مثلما أدركت من دروس شيخنا العلامة محمد النيفر الاكبر قدس الله روحه اذ يستطيع الكاتب ان ينقلها من تقريره لفظيا وتصيرتا ليفا جيدا وخطباء القوم الآن يحضر مواطنهم كتاب عارفون باصطلاح مختصر فى الكتابة حتى يحيطوا بجميع ما يقول الخطيب وأكثر الاسباب فى طول خطبهم هو ادماج مسائل من فنون شتى فيها سيما علم التاريخ فبأدنى مناسبة يذكر تاريخ أدنى شئ مبحوث عنه وما وقع فيه من قديم الزمان وحديثه فلذلك كان فن التاريخ ضرورريا لاهل السياسة وهو المعقول لان الوقائع الدهرية متشابهة متقاربة فمن أحاط علما بالتاريخ عرف الاسباب والدواعى والنتايج والخاصات والغلطات فيتبع فى الحال الحسن ويجتنب المضر ويحترس بالتشاور واجتماع الآراء وذلك هو مقدور البشر والله يفعل ما يريد وانما اجرى سبحانه عادته بالصلاح اذا اجرى العمل على حسب التدبير والامر الالهى باتخاذ الاسباب على مقتضى حكمة لا رب سواه ومن قواعدهم فى اللغة ان يخاطبوا الانسان بدون تلقيبه بالسيادة الا الزوجة مع زوجها أو العكس والمخدوم مع خادمه ومع ابنه الصغير واذا كان المخاطب ذا وظيفة الوزارة يزاد له لفظ بمعنى المرفع أو كان ذا خطة الامارة يزاد له لفظ بمعنى المعظم أو كان ملكا يزاد له لفظ بمعنى صاحب الجلالة بحيث يتحرون فى ذلك غاية ويكثرون من

اعادته فى الخطاب مرارا وليس هناك استعمالات أخرفى مزيد التملق والخضوع والذلة فى الخطاب والفاظ المكاتبات والتخاطب سواء وغاية الفرق هو الفرق الحاصل بين افراد المتكلمين فى البلاغة كما ان من عاداتهم تلقيب كل انسان بلقب عائلته ولا يذكر اسمه الا فى المكاتبات أو اذا كان أكبر العائلة موجودا فالصغار منها يذكر اسمهم للتمييز مع ذكر اللقب ولم تزل عندهم عناية بالقاب الشرف وهى (كونت) و (بارون) و (دوك) و (مركيز) و (ترنس) وغيرها لكنها قل استعمالها منذ استقرار الدولة الجمهورية وصاروا يكتفون بلفظ موسيو اى سيد لتسوية الناس فى نظر الجمهور

مطلب

فى القوة الحربية المالية والتجارية فى فرانسا سنة ١٨٨٠

فرنك	
	بلغ طول سكك الحديد فيها ميلا ١٣٨٧١
٠٠ر٦٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠	دخلها أى تلك السكك
٠٤ر٥٩٤ر٨٣٧ر٠٠٠	قيمة الداخل الى فرانسا من السلع سنة ١٨٧٩
٠٣ر١٦٣ر٠٩٠ر٠٠٠	قيمة الخارج منها فى تلك السنة
٠٢ر٧٥٢ر٧٩٤ر٨٣٠	دخل الدولة سنة ١٨٨١
٠٢ر٧٥٠ر٤٣٢ر٩٠٠	خرجها فيها
١٩ر٨٦٢ر٠٣٥ر٩٨٣	ما على الدولة من الدين
٠٠ر٠٥٤	عدد السفن المدرعة العاملة والاحتياطية
٢٢٥ر٠٠٠	حمولتها طونولاتو
١ر٥٠٠ر٠٠٠	عدد عساكرها وقت الحرب
٠ر١٨٠ر٠٠٠	عدد الفرسان

قد انتهى طبع هذا الجزء من صفوة الاعتبار وهو الثالث بتاريخ أوائل صفر الخير سنة ثلاث وثلثمائة وألف فى المطبعة الاعلامية لمؤلفه الأمثل الاكرم الشيخ محمد أفندى بيرم وتحرر تصحيحه على يد الفقير الى الله تعالى مصطفى قشيشة الازهرى

ويليه الجزء الرابع أوله الباب الخامس فى قطر الجزائر

طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣

﴿فهرست الجزء الثالث من صفوة الاعتبار﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿تمت﴾

﴿طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣﴾

الجزء الرابع من كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار تأليف الفاضل المحقق والاستاذ المدقق قدوة العلماء وصفوة الاذكياء وحيد عصره وفريد دهره الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي نفعنا الله به وبعلومه آمين

﴿ طبعة أولى ﴾

﴿ بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ هجرية ﴾

ماشاء الله كان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الباب الخامس في قطر الجزائر

الفصل الاول في سفري اليه

قد تقدم انى لما رجعت المرة الاولى من فرانسا كان رجوعى بحرا مارا على بلد بونه المعروفة بعنابه وهى أحد فرض الجزائر فأرست بها الباخرة صباحا فى مينا صناعية واسعة متينة تصل البواخر فيها الى الرصيف فى البر ويصل الرتل بطريق الحديد الى حذو فوهة هاته المرسى الصناعية لكنه رتل للسلع خاصة وبهاته المرسى كثير من السفن والبواخر منها نحو ثلاثة بواخر لشركة معدن الحديد الموجود بقرب عنابه فهذا المعدن هنالك غنى ويستخرج بكثرة ويحمل فى حوافل طريق الحديد وهى توصله الى ذات البواخر التى تحمله الى مرسيليا وفى كل يوم تخرج من المرسى باخرة مشحونة به وتدخل أخرى

خاوية

خاوية وفي مرسيليا يصفي ويشغل لانهم وجدوا ذلك أرخص مصروفا من جلب معمل لتصفيته في محله ولما ارسينا رأينا البلاد من جهة الغرب متصاعدة في جبل وحول المرسى أبنية حسنة من النوع الاروباوي ثم نزلنا الى البر فوجدنا عجلات الركوب للكراء لكنها رديئة وسخة فذهبت لداخل البلد فاذا فيها قرب المرسى بطحاء وطريق متسع وحواليه أبنية جميلة وقهاوي ومنازل للمسافرين وحوانيت لبيع الحلويات والتحف الظريفة وفي وسط البطحاء حديقة صغيرة متنزه للمارة وفي وسط البلد بطحاء أخرى صغيرة يحيط بها اسرادقات تحتها حوانيت وفي هاته البطحاء الجامع الكبير فذهبت الى الحمام الذي هو قرب الجامع حيث كان فرضي التيمم في السفينة اذ لا حمام بها ولما دخلت الى البلد وجب الحمام فاذا هو على نحو حمامات تونس وسائر بلاد المشرق غير انه غير متقن النظافة وليس فيه بيوت منفردة للتطهير للانسان وحده وانما يتطهر الانسان بعد التنظيف في محله فيقع الحرج من التحفظ على كشف العورة أمام المغتسلين ولذلك كان أكثرهم مكشوف العورة وهي مصيبة عامة في أغلب البلاد الاسلامية التي رأيتها على خلاف تونس فان حماماتها لها بيوت صغيرة ذات أحواض صغيرة لغرف الماء منها ولها أنابيب للماء الحار والبارد وللبيت باب يغلق وينفرد الانسان للتطهير وحده بلا مشقة ولذلك كنت أختار الحمامات الافرنجية في أكثر اسفاري ولو في البلاد الاسلامية لانها أبعد عن الحرم من كشف العورة وان حصل فيها تعب من جهة الاغتسال المعتاد وذلك ان هيئتها بيت صغير فيه حوض كبير يحمل الانسان وله أنابيب للماء الحار والبارد وفي البيت متكأ ومصطبة ومعلاق للثياب وأرض البيت مفروشة بزربية فلا يمكن اخراج الماء عن الحوض وانما يغطس الانسان في الحوض ويغتسل فيه بالصابون اما بنفسه او بخادم من الحمام ثم يجذب سلسلة من قعر الحوض لجذب سدادة فيخرج ما فيه من الماء ثم يجدد له ماء ثانيا او يأتي بمناديل من الكتان مسخنة نظيفة جدا يتنشف بها الانسان وهو منفرد وبابه مغلق لا يدخل عليه أحد الا باذنه فاذا أراد الانسان التطهير يزيل ما على بدنه من النجاسة في بيته ان أمكنه والا عند اتيانه الى الحمام يأمر الخادم بأن لا يملأ الحوض بالماء ولما ينفرد يقف في الحوض ويأخذ الكاس الموضوع في البيت لاجل الشرب فيملأه بالماء الحار والبارد من الانابيب ويزيل ما عليه من النجاسة ويغسل رجليه ويخرج من الحوض ثم يفتح له منفذ خروج الماء منه ويفتح أنابيب اندفاع الماء ويطهر أرض الحوض بالغسل ثم يسد منفذ الخروج ويملأ الحوض

ماء على قدر ما يكفيه و يغتسل و يتطهر فيه وهو سائغ على مذهبنا لان الماء لا يصير مستعملا الا بعد انفصاله عن جميع البدن والبدن كله فى الاغتسال عضو واحد (وأما) على مذهب المالكية فهو أيسر وقد اضطررت فى ذلك الحمام الى استئجار أحد خدمته ليستر زاوية من الحمام بمسك ازار فى يديه حتى تيسر لى تطهير ما تحت ازارى وهناك صعوبة أخرى وهى بعد الماء بحيث ان كل مغتسل يأتى اليه بنحو عشرة مما يسمى برميل مملوءة له ليتطهر بها بعد التنظيف ثم خرجت من الحمام وأتيت الجامع واذا هو نظيف محروس قائم الادوات مفروش بالحصير من المسمار على نحو ما هو بتونس ولما كنت لابسا النعل كالخف مما يصح المسح عليه وهو نظيف دخلت به المسجد وصليت به وكان هناك بعض الناس فرأيتهم ينظرون الى شزرا منكرين الدخول بالنعل الى المسجد لكن لم يقل لى أحد منهم شيئا فلما فرغت من الصلاة خاطبنى من بجنبى فقال لى أنت مسلم ولم تدخل المسجد بنعلك فقلت له هل تعرف الفقه قال نعم قلت ما هو مذهبك قال مالكى فانظر فى مختصر الشيخ خليل فى كتاب الطهارة فانك تجد فيه مسئلة المسح على الخفين وان المسافر يمسح عليهما ولا ينزعهما و يصلى فيهما وأنا مسافر وحتى المقيم أيضا له لبسهما والمسح عليهما والصلاة فيهما وقد فعل ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وهو مذكور فى كتب الحديث وكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يدخلون المسجد بنعالهم بعد تفقدها وتطهيرها ان كان بها نجاسة فهذا جائز شرعا وليس فى نعلى نجاسة ولا وسخ فرضى بذلك وأخبر الحاضرين جهرة بأن الرجل مسافر وعارف بالحكم ثم خرجت من هناك وتطوفت فى البلد وقد فطرت فيها فى حانوت لطباخ مسلم أكلا عربيا واستلذذته للغاية كيفما كان لاشتياقى للمعتاد سيما وقد كانت تلك السفرة هى أول سفراتى والاشياء الغير المعتادة تصعب على النفس أولا وأحسن ما فى البلد سوق الخضر فانه على النحو المتقن فى أوروبا من كونه واسعا ذا قبة من الزجاج محمولة على قطع حديد مرفوعة على أعمدة حديد والحيطان أيضا مثل ذلك مع النظافة وحسن التقسيم ولكن ليس فيه حوانيت وانما كل بياع يجلس فى جهة و يضع مبيعه أمامه وبخارج البلد آثار قديمة للرومان من البناء والدهاليز تقصد للتفرج وبخارجها أيضا بستان عمومى و يباع منه الاشجار الصغيرة وليس هو بمتقن والحارات القديمة فى البلد وديارها على نحو ديار تونس وحاراتها الضيقة الطرق غير ان أبواب دورها بدفة واحدة و بناء الباب مقوس قليل الارتفاع وبخارج البلد أيضا جهة شاطئ البحر بعض من البساتين وحمامات من الخشب

الخشب على ماء البحر تتخذه الناس فى الصيف وحولها سواقى ماوى تحوى فى الصيف الغث والسمين وسافرنا من هاته البلدة بعد الغروب قاصدين تونس وعدت اليها فى سنة ١٢٩٥ فى سفرتى الى فرانسا ذهابا وايابا وأقمت فيها فى الاياب أسبوعا وكان الزمن صيفا وهى لصغرها وعدم وجود الحركة الكثيرة بها لا ينشرح المسافر فيها وفى هاته السنة أيضا مررت فى الاياب على مدينة الجزائر قاعدة هذا القطر وهى لها مرسى على نحو ما تقدم فى عنابه والبلد أكبر من السابقة ومنظرها من جهة المرسى أبهج وأضخم وقد انشئ بها طريق للترمواى يخترق البلد من جهة المرسى ويذهب الى قرية تسمى مصطفى جهة الشرق من الجزائر وأبنية البلاد على نحو ما ذكر فى عنابه وهى أيضا متصاعدة فى جبل وليس بها عيون غزيرة بل الماء له خزنة فى الجبل تجتمع فيها مياه الامطار من جهات الجبل ولذلك كانت الطرق الواسعة فى الصيف محتاجة الى الرش لقلة ما ترش به وبها أربعة جوامع للخطب اثنان مالكيان واثنان حنفيان والجوامع نظيفة مستقيمة وبقية ما كان بها من الجوامع هدمت وبدلت وبها حصون متينة وهاته البلد هى مقر الحاكم العام لقطر الجزائر ومنظر البلد من جهة البحر جميل لكثرة الديار والبساتين فى الجبل محفوف به درج يصعد فيها من أسفل البلد الى أعلى الجبل كما أنه به طرق صناعية قليلة الانحدار يصعد بها فى العجلات الى قمته وأمام دار الحاكم بطحاء صغيرة منظمة والدار من نوع أبنية الاهالى قديما وأمامها محل لطائفة من الجند حرسا وفى خارج البلد وداخلها مقامات للأولياء والعلماء محترمة منها مقام سيدى عبد الرحمن الثعالبى رضى الله عنه خارج البلد فى الجبل فى مكان منشرح نزه واضريح الشيخ مهابة ووقار قلبى وحوانيت البلاد على نحو ما ذكرنا فى تونس وبساتينها تسقى بآبار يسنى عليها بالدواليب وأغلب القصد منها الانتفاع بالغلال وأكثر ذوى اليسار يسكنون فى بساتينهم فى الصيف وتنور البلد ليلا بفوانيس الغاز وبخارجها بستان انتزاه عمومى قليل الجدوى وبقربه سبيل قديم لا زال قائما وحذوه قهوة على النحو العربى لكنها قذرة يغنى بها بعض الناس ومنازل المسافرين بالبلد جيدة على النحو الاوروباوى وقد أقمت بهاته البلدة ليلتين ثم سافرت بحرا قاصدا عنابه ومنها الى تونس فمررت ببلد دلس وهى قرية صغيرة على البحر لم نستطع الدخول اليها لشدة هيجان البحر وعدم مرسى أمينة بها ثم مررنا على بجاية ثم جلجلى ثم اسكيكده وكلها قرى صغيرة الجديد من بنائها على النحو الاوروباوى والقديم على عادة أهل القطر والاهالى أغلبهم فرنساويون ارتحلوا الى هناك وأما اسكيكده فالبلاد

القديمة قد خسفت بها الارض والعياذ بالله وقد بنى على شاطئ البحر قرية جديدة منتظمة الطرق واسعتها على نحو النوع الاوروباوى ولم أشاهد تفاصيل هذه القرى لان الباخرة لا ترسى فيها الا قليلا وجمال حالهم يندمج فيما سيأتى ان شاء الله تعالى ومن القرى التى رأيتها قرية قالمة البعيدة عن عنابه نحو أربع ساعات فى طريق الحديد فى الجهة الجنوبية الشرقية منها وهى قرية مستجدة يغلب على طبع أهلها البداوة وهى منتظمة البناء والطرق قليلة الماء وبها جامع وقاض وحاكم فرانساوى وعساكر وحصن وكنيسة وحديقة صغيرة للعامة

الفصل الثانى

﴿ فى التعريف بالجزائر ﴾

هذا القطر واقع على شط أفريقية الشمالى ويحده جنوبا الصحراء الكبيرة وشرقا تونس وشمالا البحر الابيض وغربا مراكش وهو قطر متسع ذو جبال شاهقة وأنهر عديدة وعيون دافقة وبه معادن غنية من الحديد والفضة والآن مشتغلون باخراجها سيما المعدن الذى أصله تابع الى تونس قرب حدودها فى القالة وبها معادن أخر عديدة منها المستعمل كالقصدير ومنها الذى لم يزل فى زوايا الخمول وأما هواؤه وحيواناته ونباته فهو مثل تونس فى عموم ما ذكرناه فيها والجهات الشمالية هى ذات الخصب والاشجار العظيمة والغابات ومدن هذا القطر وبلدانه أشهرها قاعدته الجزائر ثم وهران ثم تلمسان ثم قسنطينة ثم بونه وغيرها كثير لا يبلغ مبلغ ما ذكر ومراسيها المهمة هى المدن المذكورة غير قسنطينة لان هاته متوغلة فى البر على قمة جبل وينقسم القطر بالنظر الى طبيعة الارض والسكان والادارة الى ثلاثة أوطان كبار (أولها) وطن الجزائر وهو فى الوسط ويمتد من الشط شمالا الى الصحراء جنوبا (وثانيها) وطن وهران غربى السابق ممتد مثله كذلك (وثالثها) وطن قسنطينة شرقى الاول ممتد مثله كذلك ولكل وطن قاعدة هى المدينة المنسوب اليها وله فروع على حسب الاحتياج وعدد سكانه نحو مليونين وسبعمائة ألف وستون ألفا والمسلمون منهم مليونان وخمسمائة ألف والنصارى مائتا ألف ونيف واليهود نحو الثلاثين ألفا وقاعدة الجميع هى الجزائر عدد سكانها نحو خمسة وسبعين ألفا منهم ثمانية عشر ألفا مسلمون وتسعة آلاف يهود وثمانية وأربعون من النصارى من أجناس مختلفة وأكثرهم الاسبنيول والسكان المسلمون أصلهم من البربر

وهم

وهم أكثر سكان الجهات الجنوبية والجبال وباقي الجهات سكانها من نسل العرب والمختلط منهم ومن البربر وبعض من نسل الترك الذين استوطنوا هنالك وكذلك الاندلسيون الذين هاجروا بعد استيلاء الاسبنيول على بلادهم (واما النصارى) على العموم فاكثرهم فرانساويون انتقلوا الى هنالك بعد استيلاء الفرانسيس سيما بعد حرب المانيا معهم سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م وأخذها اقليمي الالجاس واللورين فارتحل من أهالى ذينك الاقليمين نحو المائة والسبعين الفا سكنوا الجزائر واعانتهم دولتهم باعطائها لهم الاراضى الخصبة التى أخذتها من الاهالى الاصليين عقابا لهم على الثورات وغيرها وأغلب هؤلاء الفرانسيس سكنوا جهات الشطوط وانشؤا فيها قرى (وأما المسلمون) فاغلبهم على مذهب أهل السنة فى العقيدة وعلى مذهب الامام مالك فى الفروع ونسل الترك على مذهب الامام أبى حنيفة وبعض السكان على مذهب الاعتزال كبنى مزاب ثم ان أهل السنة فى المدن والقرى يكثر فيهم معرفة احوال الديانة وان حصل الآن من كثير منهم تهاون كثير بالشعائر (وأما البوادى) فيغلب عليهم الجهل بالاحكام لكنهم لازالوا متصلبين فى العقيدة الاسلامية سيما أهالى الجهات الجنوبية والوسطى

الفصل الثالث

﴿فى اجمال تاريخ الجزائر﴾

﴿مطلب فى التاريخ القديم﴾ اعلم ان احوال هذا القطر التاريخية فى القديم كانت فى الاغلب متحدة مع تونس وطرابلس والمغرب فما بيناه فى احوال تونس كان شاملا لهذا القطر حتى فى زمن الفتح واستقرار الحكومات الاسلامية لانه فى أغلب الاعصار تابع لتونس لما كانت هى مقر الحاكم العام الاسلامى لافريقية ثم لما انفرد المغرب عن تونس كانت الجهة الغربية من الجزائر تابعة له ثم اتحد الجميع تحت دولة بنى حفص وعند تقهقرها وانفراد المغرب انتشأت بعض حكومات منفردة فى الجزائر كمملكة بنى زيان من زناته التى مقرها فى تلمسان ثم لما اشرفت الدولة الحفصية على الاضمحلال واستولى الاسبنيول على عدة جهات من شطوط افريقية وكانت الفرق المنقسمة اليها الجزائر غير قادرة على مدافعة دولة كبيرة مثل الاسبنيول اذ ذاك وكانت الدولة العثمانية رافعة علم الحماية لاهل الاسلام واسطولها يجوب البحار تحت عدة امراء وارست فرقة من هذا الاسطول تحت امرة خير الدين بربروس باشا واخيه عروج على

شطوط الجزائر للبحث عن حالة الاندلس مع الاسبنيول ضج الى هـذا الاسطول اهالى الجزائر وطلبوا من الامراء حماية هذا القطر الاسلامى مادام فيه رمق قبل هجوم الاسبنيول عليه وذلك أحق من تتبع الاسبنيول فى الاندلس اذ لم يبق فيها مسلم فاجابوا طلبتهم بعد تصحيحهم للاتفاق ومن ذلك التاريخ استقرت الحكومة للدولة العثمانية وذلك فى حدود سنة ٩٤٥ وجرت احمال الدولة فى الجزائر على نحو ماقررناه فى تونس لان المراد هو حماية البلاد الاسلامية واتحادها وجرى من الولاة الترك أولا الاستقامة والعدل ثم لما تهورت العساكر الينكشارية فى جميع الجهات حصل منهم أيضا فى الجزائر ماضجرت منه الاهالى وطغوا فى النصب والعزل للولاة من هولاء العساكر حسب الشهوات وقوة العصبية ولم يحسن من هولاء الولاة الامتثال لاوامر الدولة العثمانية الى ان ولى حسين باشا الذى كان سببا فى دخول الفرانساويين الى البلاد والحكم لله رب العباد

﴿مطلب فى تاريخ الجزائر الجديد﴾ اعلم ان الدولة الفرانساوية لما ترقت فى المعارف والقوات سيما فى الاعصر الاخيرة لازمها حب الظهور وعدم تحمل الهوان وكانت الدولة العثمانية فى شغلها الشاغل من احمال الينكشارية وحروب الروسية وثورات اليونان وضم الى ذلك طغيان ولاة الاقاليم وعدم امتثالهم للاوامر وكان حسين باشا والى الجزائر مستبدا ظلوما متشيا قليل التدبر وحصل منه اهانة لقنسل فرانسا وذلك على مافى تاريخ ابن الضياف أحد التجار اليهود الاغنياء الجزائريين الملقب ببقرى أبو جناح له خلطة مالية مع تجار من الفرانسيس وتداعوا فى خسائر من الجهتين وانتصر حسين باشا لرعيته بالالحاح على قنسل فرانسا فى انصافه وآل الامر الى صلح يدفع على مقتضاه التجار الفرانساويون الى التاجر الجزايرى مالا وافرا واضمر حسين باشا أخذ المال لنفسه لما رآه ذريعا وراجعا لرعيته وتلك عادة الفوها ولما قرب دفع المال واذا بتجار أخر فرانساويون قاموا على بقرى المذكور بدين اوقفوا عليه المال الذى يريد قبضه فاستاء حسين باشا من ذلك وطلب من القنسل رفع الايقاف وقال ان ارباب الدين الفرانسيس الطالبين لرعيته يتبعون ذمة المدين بعد قبضه للمال بحيث لا يكون للطالبين حق فى المال الذى يدفعه الفرانساويون فامتنع من ذلك القنسل مستندا الى ان المال المعرقل مال المدين والغرماء لهم حق فيه الا اذا ضمنه من يرضون بذمته وكان المدين نفسه مغريا بهذا التدبير خوفا على ماله من الضياع باستيلاء الباشا عليه

فاعرض

فاعرض الباشا عن القنسل وكاتب دولة فرانسا في غرضه فارسلت المكتوب الى القنسل وامرته بالجواب عنه ولما قدم القنسل الى الباشا لبعض مآرب خاطبه الباشا في استبطاء جواب مكتوبه المشار اليه الى دولة فرانسا فقال له القنسل ان المكتوب ارسلته الدولة الي وامرتني بالجواب عنه فسأل عن سبب عدم اجابة الدولة له فاجابه بما فهم منه احتقاره وكانت بيد الباشا منشة يطرد بها الذباب فضرب بها وجه القنسل وطرده وبقي أسفا على ما فاته من مال بقرى وتهددت فرانسا الوالي المذكور على اهانة نائبها وألحت عليه بان يطلب منها الرضى ويعترف بالخطا فابى واصر مع امر الدولة العثمانية له بذلك ومن النصائح المتتابعة له من الدول الاجانب وخواص الاهالي وقد كانت فرانسا في شغل من داخليتها في ذلك الوقت حسبما مر بك في تاريخها لان ذلك كان اثر حروب نابليون الاول وكانت أيضا متوقية المشاحنة مع العرب ومع الدولة العثمانية حتى رضيت فرانسا بان يكلف الباشا أي انسان كان في باريس بطلب الترضية لكي تندفع عنها المعرة ولا تلحقه هو مذلة بارسال أحد من موظفيه الى القنسلاتو ولا الى باريس وكان قصدها بذلك كله اجتناب الحرب ما امكن لاشتغالها بحروبها واخوابها الداخلية فاصر الوالي على رأيه وارسلت فرانسا اسطولها وحاربت بلاد الجزائر واستولت عليها وحمل ذلك الوالي الى باريس ثم مات في اسكندرية وقد نسب المؤرخ المذكور منشأ اعمال الباشا المشار اليه الى كونه لا غيرة له على الوطن من حيث كونه لم يكن من ابناء ترابه ولذلك خابر به الى ذلك الحد مع علمه بالضعف وانحلال عرى عصبيته ونفرة الاهالي من جوره الخ والحق ان مثل ذلك التعليل تأباه الشريعة على ما سيأتي ايضاحه في الخاتمة ان شاء الله تعالى فالجنسية الاسلامية واحدة ثم المشاهدة تناقض مقاله أيضا فكم شاهدنا وسمعنا من التاريخ ما يثبت غيرة الوافدين على الاقطار ووفاءهم لها بشكر نعمائها واداء واجبات الديانة فيها من التحسين والتحصين وكم شاهدنا وسمعنا ايضا ضد ذلك من ابناء الاقاليم ومن دعيين فيها فتحقيق السبب هو ان الله اذا تأذن في امة باضمحلالها فسدت أخلاق اكابرها ففسقوا فيها ومن فسوقهم اسناد الامر الى غير أهله فحق عليها القول وسلط عليها ما يدمرها وذلك هو الدال عليه القرآن الكريم والحديث الشريف وهو المشاهد بالعيان والمعلوم من التواريخ في اضمحلال الدول وتقهقرها وحذاق الناظرين في احوال الدول ينسبون نكباتها لاصول منشأ الفساد وان طال الزمان ويكون الذي انحل بيده الامر ظهر الكامن الداء الزمن وهو مع ذلك مسؤول لله ولعباده

اذا كان يمكن له توقيف المرض فيعوض ذلك بزيادة مهيجات بحراناته فيكون أشد على الامة من وقع الصواعق اذا الجسم العليل يتأثر عاجلا بما أثر منه السليم وكفاه خزيا في الدنيا والآخرة ان كان مظهرا للشرور فداء الجزائر قديم مبتدأ منذ انخرم أمر الينكشارية في القسطنطينية التي هي مقر الدولة العامة ونشأ عنه ما نشأ من فساد الادارة والولاة الى ان اصيبت عدة جهات وباء حسين باشا في الجزائر باتم الظلم والخراب والتهور الذي كان أعظم النكبات وانتقلت حالة الجزائر بل وحالة السياسة في شطوط افريقية الشمالية الى طور آخر وكان مبدأ استيلاء فرانسا على الجزائر سنة ١٢٤٦ في مدة كارلوس العاشر ملك فرانسا وتمكن الفرانسيس أولا من القاعدة وما حولها لكن بقية الجهات اصروا على الامتناع من الطاعة لفرانسا لانها انما ارادت الانتقام من الوالي حسين باشا وقد حصل فالجهات الشرقية من القطر انفرد بالحكم فيها الحاج احمد باي قسنطينة والجهات الجنوبية والغربية تشتتت تحت رؤساء القبائل ورام الفرانساويون محاولة تطويعهم بالرفق بان يتولى الامر في وهران والي تونس بارسال أحد عائلته أو احد متوظفيه فارسل والي تونس واحدا من جهته ومعه شرذمة من الحرس فلم ينفذ أمره في مدينة وهران فضلا عن خارجها ورجع من حيث أتى ثم اجمعت الجهات الغربية والجنوبية على مبايعة الرجل الوحيد سلالة النسل المطهر الامير سيدي عبد القادر بن محي الدين الحسني وقام لله حق القيام وصحبته النصرة الالهية في كثير من الوقائع الى ان كان في بعض ما هو خارق للعادة من الكرامات كطفر فرسه الازرق به ستين ميترو حيث احاطت به العساكر الفرانساوية كالحلقة وراموا مسكه باليد فطفر به فرسه على رؤس العساكر واسلحتهم ذلك المدى ونجا راكضا الى منعته ودام محاربا لهم نحو سبع عشرة سنة واستقامت له حكومة ضرب فيها السكة باسمه وانشأ المدافع والبنادق ونفذ أمره وخشيته فرانسا ودعا الحاج أحمد باي ليتحدا ويكونا يدا واحدة فامتنع تجبرا وطغيانا وخذل الامة الى ان وهن أمره واستولى الفرانساويون على ما كان تحته وبقي الامير سيدي عبد القادر مدافعا ومهاجما الى ان سولت المغالطات النفسانية المخالفة للديانة الاسلامية لسلطان المغرب الاتحاد مع الفرانسيس على محاربة الامير المشار اليه وقطع عنه سلطان المغرب خط النجاة جهة الصحراء فاضطر الامير الى التسليم للفرانسيس فاقتبلوه بالرحب والاكرام وجلوه الى باريس تحت المراقبة فيها وكان اذذاك نابليون الثالث مقبوضا عليه هناك فحصلت منه مودة للامير ويقال

انه

انه وعده بالمساعدة لو يقضى ملك فرنسا اليه وعندما استقر نابليون الثالث فى منصب الامبراطورية لم تساعده رجال دولته على انجاز قصده من تولية الامير المشار اليه على الجزائر فاهدى اليه رسالة فى محاسن الشام وخيره فى انتخاب محل لاقامته فاختار الامير سيدى عبد القادر أرض الشام وقدم من فرانسا أولا الى الاستانة وأكرم مقدمه السلطان عبد المجيد وأقام مدة فى بلاد الترك ثم استقر فى دمشق الشام أدام الله بركته للانام وحاطه بالامن والسلامة فى نفسه وفى آله الكرام وبعد خروج الامير المشار اليه من الجزائر خف الخطب على فرانسا لكن بقى جبل الزواوة ثائرا عليها تحت امرة كبرائه فطوعته أخيرا بمثل مافعلته فى أغلب الجهات من انخداع الرؤساء بالمال وتسلط بعضهم على بعض كما انها حاربت بتهافى الجزائر أيضا دولة المغرب بجيوش كثيرة خالية عن التدبير والتدريب الحربى فلم تفد شيأ سوى ضياع ماحملوا معهم وكان البوادى المنضمين الى الفرانسيس أشد على المغاربة من نفس الفرانسيس وذلك سبب الخذلان ولازالت تتوالى الثورات فى الجزائر على الفرانسيس منذ دخلها الى الآن تارة مشتدة وتارة خفيفة ولله عاقبة الامور

﴿مطلب فى كيفية اجراء السياسة الداخلية فى الجزائر﴾ اعلم ان ادارة الجزائر فى الحقيقة مناطة بارباب الامر والنهى فى باريس على ماهى قاعدة الفرانسيس من ارجاع كل الامور فى عمالكهم ومستعمراتهم الى باريس من غير التفات الى بعد المستعمرات أو قربها ولا الى الجهل بأحوالها وأخلاق أهلها وعوائدهم فيضطر أصحاب الحكومة الى اعتماد أقوال المباشر فى المستعمر المبحوث فيه فيؤل الامر الى ماتقتضيه حالة ذلك المباشر من الانصاف أوضده مع أنه فى نفس الامر غير مسؤل عما يقع الا فى الاجراء فلا يلزمه الاحتراس اللازم للمسؤل ومع ذلك فالاحكام والادارة كلها فى الجزائر كانت استبدادية بحتة تحت الحكم العسكرى فماهى الا اجتهادات من المباشرين بلا تعقب لحكمهم لان الدولة منعت الاهالى من الحرية السياسية ومنحتهم بعض الحرية الشخصية من التصرف فى دياناتهم وأشخاصهم وأموالهم كيفما أرادوا فيما لا يضر بالدولة ولا بأحد فى نظر الحكام والدولة تنتخب حاكما عاما من أهل المناصب العالية من الفرانسيس ويولى حاكما عاما على الجزائر جميعها ويستقر فى مدينة الجزائر وهى أيضا تنتخب ثلاثة حكام أخر من كبار الفرانسيس تناط بأحدهم ولاية الجزائر وبالآخر ولاية وهران وبالآخر ولاية قسنطينة ويرجعون فى النظر لحاكم الجزائر العام وعلى كل قبيلة قائد

والاغاب ان يكون من بنى القبائل و يلقب كبراء هؤلاء القياد بالاغه و يتصرفون حسب اجتهادهم وحسب ما يلقنون به من الاوامر من الولاة وفى كل بلدة قسم من العساكر ولكبرائهم نفوذ كبير فى الاهالى وفى كل بلدة أو قرية حاكم فرنساوى والرسوم الظاهرية فى الجباية وان كانت محدودة مقوننة بأخذ الاعشار من المزروعات والزكاة على الحيوانات فكثيرا ما تمتد الايدى الى المكاسب من غير الثقات من المتوظفين على أوجه شبيهة بالمصرية حيث انه ليس عليها احتساب حقيقى ثم للمتوظف مخلص عندما تقع به الشكاية بان ينسب المأخوذ منه الى الثورة أو السعى فيها او بادنى قول فى ذلك تثبت التهمة واثباتها موقوف على القرائن لدى الحاكم المستبد وكل من ثبت عليه شئ من ذلك يؤخذ جميع كسبه للحكومة زيادة عن عقابه البدنى الشديد ولا معقب لتلك الاحكام وقد ابتدا ذلك العمل منذ دخلوا الجزائر فان حمدان بن عثمان خوجه الذى هو من الاعيان العلماء الاغنياء العارف بالالسن الاجنبية اتهم بانه كانت الحكومة السابقة أمنت عنده أموالا فأخذ ماله وسافر هو وشتكيا الى دولة فرانسا فاحالته على مجلس شوراء الدولة المسمى كونسيل دى تا ووكل أشهر العارفين باحكامهم وعكف منتظر الحكم ثلاث سنين صارفا أوقاته فى مطالعة الكتب وتأليف كتابه باللغة الفرانساوية المسمى مرآة الجزائر الذى أودعه اخلاق القبائل وحالة سيرة حكام الترك وما آلت اليه من مظالم الفرانساويين مالم يكن يظن صدوره عن أمة متمدنة وقد قبل هذا التأليف فى فرانسا بالاعتبار لكن حكام الجزائر استاؤا منه وزادوا نكالا بكل من له علاقة بالمؤلف المذكور و بعد ما دام عليه ما مر صدر الحكم من المجلس المشار اليه ان حمدان المدعى محق فى دعواه لكنها لما رفعت الى المجلس بعد صدور أمر الدولة بان لا تقبل دعاوى ثلاث السنة التى حصلت عليه فيها المظالم فلا حق له حينئذ فآواه سفير الدولة العثمانية واستقر بعدها فى الاستانة وكان ابنه على باشا من أعيان رجال الدولة وعلى نحو ذلك العمل تجرى الادارة السياسية فى الجزائر الى الآن فترى فى صحيفتها الرسمية المسماة بالمبشر على الاستمرار صدر الامر بثقاف أملاك فلان وهى كذا وكذا وأملاك فلان الخ لكن منذ سنة ١٢٩٥ أدخلت المدن و بعض قرى تقربها تحت الحكم المدنى القانونى لكنه خال عن الحرية اللازمة وانما هو أهون من الحكم العسكرى الاستبدادى لبعض أقسام الناس وأما كثير من البادية وجهال العامة فانهم يريدون الحكم السابق العسكرى ويرونه خيرا لهم لما يأتى بيانه ولمجموع ما تقدم ذكره مع التخالف فى الديانات بين الاهالى والدولة المتسلطة

دامت

دامت الثورات وتعاقبت عند كل فرصة وعذرهم على ذلك منصفوا الفرانسيس حتى سمعت من كثير منهم ساكنى الجزائر يتشكون من الادارة ومازالت صحفهم تطلب انصافهم واستقامة ادارتهم واعطاءهم الحرية المناسبة بل ويطلبون المساواة مع فرانسا فى جميع قوانينها وهو على هذا الرأى قسم وافر من أهالى فرانسا أيضا بل ان نابليون الثالث نقر عن أسباب الثورات وذهب بنفسه الى الجزائر مرتين ثانيتهما للتسكين ثورة وقعت هناك وعلم ان أعظم أسباب ذلك من سوء معاملة الاهالى من الحكام فصغى الى شكاياتهم وأزال عنهم كثيرا من المظالم وساعفهم الى مطالبهم فسكنت الثورة بدون سفك للدماء ولا تشفى فى الثائرين كما صرح بذلك الامبراطور بنفسه فى خطبته عند رجوعه الى فرانسا وكان توغل فى دواخل الجزائر وأواسط القبائل الجسيمة ذات السطوة منفردا عن الحامية الفرانساوية معتمدا على وفاء العرب وصدقهم وقد تعهدوا له بذلك وقاموا له حق القيام من عامتهم وخاصتهم وفرحوا بقدومه لهم ومالوا اليه والى انصافه وأظهروا له من الطاعة والتعظيم ما عاد به مسرورا منهم موقنا بانصاف مطالبهم وصحبا خاصا وعطفا احنوا عليهم واختص منهم فى باريس قسما من العساكر لحراسة ذاته وأكرم مقامهم ورفع من شأنهم واتخذ قسما من الفرسان فى مصاحبته فى ركوبه بلابسهم العربية وكذلك العساكر يلبسون العمامة ويسمون بالزواف وقد حاربوا فى الدفاع عن الفرانسيس فى حرب سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م بحمية أكثر من حمية الفرانسيس أنفسهم وشهد لهم بالشجاعة والصبر والمعرفة والجرءة كل من الفرانسيس والالمان ولما وقع انكسار الفرانسيس اثناء تلك الحرب حركت الدسائس أهالى الجزائر الى الثوران فامتنعوا وفاء بعهدهم مع الامبراطور نابليون الذى أحكم معهم الصلة ووعدهم بمزيد المساعدة والنجاح قبيل تلك الحرب الى ان علموا انخلع الفرانسيس له فثار بعضهم اذ ذاك لكنه لم يجد نفعا لتفرغ فرانسا من حرب خصمها ولعدم اتفاق الكلمة بين الجزائريين ولا زال أهل الجزائر يثنون على نابليون وعائلته لما شاهدوا منه من انصافهم واعتبار حرمتهم حتى قال فى خطابه الرسمى انى امبراطور الفرانسيس كما انى امبراطور العرب وكان ذلك هو الذى أوجب للكثير ترجيح الحكومة العسكرية ظنا منهم انها لا تسير الا على نحو ما تركها عليه الامبراطور بخلاف غيرها ممن لا يراعى لهم ذمة حتى ان العساكر مع ما مر ذكره لم يمنع لاحد ضباطهم ان ينال رتبة رفيعة فى العسكرية فذلك هو سبب الملل الذى لا يبرح من نفوس الاهالى وان جعل منهم بعض أعضاء فى المجلس

الذى يدعوه الحاكم للتشاور فى المصالح لكنهم أعضاء صورية لان أغلب الاعضاء من الفرانساويين مدافعون عن حقوق الفرانساويين المتوطنين هنالك وهؤلاء يرون أنفسهم مظلومين بالنسبة لامثالهم فى فرانسا مع عدم الداعى الى ذلك لانهم قد تحققوا ان الاهالى اذا نالوا انصافهم وتسويتهم فى الحقوق يكونون اهلا لنيل سائر المنح الحائز لها الفرانساويون وأهالى الجزائر الآن يعتبرون انهم فى حماية الفرانسيس لا ان لهم الجنسية الفرانساوية والفرق بين هذين هو ان من له الجنسية ينال سائر المنح الفرانساوية وعليه ما على أفراد الفرانسيس من القوانين من الدخول فى العسكر واجراء أحكام الزواج المدنى والتوارث على مقتضى القانون الى غير ذلك وأما صاحب الحماية فيجرى أحكام ديانته فيما ذكر ولا يدخل العسكر الا برضاه نعم يتخذ منهم نوع من العسكر الخيالة يسمون بالسبايس دون رتبة العسكر وللافراد ان يدخلوا فى الجنسية باختيارهم بحيث لا غصب فيها وقد دخل فيها كثير بعضهم للشهوات وبعضهم تعلقا كاليهود وبعضهم طمعا فى الرتبة العالية العسكرية وهو وان نال شيئا منها لكنه مهان فى اعتبار النفوس لما يوجب ذلك من امتهانه لديانته فى نظر العموم ولو من الفرانسيس ولما تقدم لم يكن للاهالى المساواة فى الاعتبار بينهم وبين الفرانسيس ويظهر ذلك حتى بنظر العين فى المعاملات التكريمية والتوقير وترى اليهود أحرز للحرية فى معاملة الفرانسيس وخطابهم من المسلمين

* (مطلب فى السياسة الخارجية للجزائر) ليس للجزائر سياسة خارجية اذ السياسة انما هى لفرانسا ولا ترى فى قاعدة الجزائر ولا غيرها من اعتبار أو ذكر لقناصل الدول الاجنبية وما هم فيها الا كامثالهم فى احدى مدن فرانسا

* الفصل * الرابع

(فى بعض صفات الاهالى وعوائدهم)

أغلب عوائد الاهالى وصفتهم فى الجزائر هى مثل ما فى أهالى تونس فى السلام والحياء غير ان الجيل الجديد فى المدن تخلق أغلبه باخلاق مخضرمة بين العادات الاصلية وبين عوائد الفرانساويين ومن المعلوم ان النفوس مائلة الى التشبه بالغالب غير انها أول ما تسرى اليها الاخلاق الشريرة أما المحامد فانها انما يحمل عليها العقل بالمكافة ولهذا فشت قلة الحياء فى كثير حتى سرى ذلك الى أبناء الفرانسيس الذين نشؤا هنالك وقد

صاحبنى

صاحبني في الفابور من الجزائر الى عنابة امرأة حاكم بلاد قالمة مصاحبة لابنائها الصغار وهم ثلاثة دون البلوغ كانوا يتعلمون الفنون في مكتب بلاد الجزائر ولما أرست البابورة على مرسى جيجلي صعد اليها نائب لجنة تلك البوابور متفقدا وكان حضر اذ ذاك وقت الفطور فجلس مع الركاب على المائدة وكان من جملة الحاضرين الابناء المذكورون وبعد الاكل أتى بالقهوة ومن عادة الافرنج الاتيان بقنينة فيها نوع من المشروبات الروحية المسمى بالكنياك ومعه كيسان صغار لمن يريد الشرب من ذلك مع القهوة فأخذ منه من أخذ وامتنع من امتنع فمد أولئك الصبية الى المشروب وأخذ كل منهم كأسا ووضعه أمامه فتبسم كبار الحاضرين متعجبين من ذلك وأما هم فارعليها العرق من الحياء ولم تكلمهم بشئ وبعد هنيهة أخذني نائب اللجنة الى ناحية منفردة وقال لي أرأيت ماوقع قلت ماهو فقال لا تهزء مني لو كان أولئك أبنائي لألقيتهم في البحر فقلت لماذا وهو عندكم ليس بممنوع قال كلا فانه وان كان الخمر عندنا مباحا لكن اغماهو ما يؤخذ منه مع الاكل من نوع ماء العنب بمقدار لا يفعل نشوة أما هذا فانه لا يستعمل الا بعد الاكل بمجرد النشوة والصغار يمنعون من ذلك بمقتضى التربية الحسنة ولكن نحن قد خرجنا عن طورنا وفسدت أخلاقنا وأفسدنا أخلاق غيرنا فهؤلاء أبناء أحد حكام البلاد على هذا النحو فما بالك بغيرهم الخ وكان منشأ هذا الفساد هو ان الحرية في الفرانسيس قد فطروا عليها بقسميها أعني الحرية الشخصية والحرية السياسية لكنهم تحملوهم في بلادهم الحرية السياسية على التخلق بمحامد الاخلاق على قدر مستطاعهم وادراكهم وأما في الجزائر فقد حرموا في أنفسهم من الحرية السياسية وكذلك الاهالي أطلقوا لهم الحرية الشخصية وحرموهم من الاخرى فانبعثت القوات كلها الى الاولى مع ملائمة الطبائع النفسانية فأتوا على كل ما يمكنهم التوصل اليه من الفسوق وقبائح الكلام والتزوج بين كل متراضيين من غير نظر لديانة ولا صحة شرعية بل يقع حتى لبنات مسلمات الفرار من آبائهن الى رجال من الافرنج أو غيرهم ويصاحبنهم بدون زواج أو به ولا مانع عندهم من ذلك وأضف الى ما تقدم من السبب ان الحكام لما كانوا من العساكر مستبدين فتراهم يشتمون بالكلام الفاحش وكأنه هو أول ما يتعلمونه بالصدفة من لغة الاهالي ثم ان السيرة العسكرية الاستبدادية معلومة في ان الغالب على الضباط الصغار فمن دونهم هو الميل الى الشهوات الطبيعية والانهماك فيها ولا ينفكون عنها الا بالوازع الحكمي أو العادي كما في بلدانهم في فرانسا بالنظر للعادة وهاته العادة منتفية في الجزائر لعدم

اعتبار عادات الأهالي حق الاعتبار فنشأ في ذلك القسم زيادة الاطلاق وقلدتهم صغار الاهالي على قاعدة الناس على مذهب أمرائهم ومع هذا فلا زال في ذوي البيتوتات وأصحاب الاصول مكارم الاخلاق الاسلامية وفضائل الطباع العربية وان كانوا بالاصالة قليلين في المدن وأما أهالي القبائل من البادية والمتوغلين في الجنوب ودواخل القطر فالاكثر منهم على الطبائع والعادات الاصلية والقليل الذين لهم علقة بالحكام والتداخل معهم تغيرت عاداتهم الى نحو ما وقع في الكثير من أهل البلدان ومن الاخيار الذين اجتمعت بهم ومحو في فضائل أخلاقهم النحرير العالم الشيخ علي بن الحفاف المفتي المالكي بقاعدة الجزائر وهو من تلامذة علامة القطر الافريقي الشيخ ابراهيم الرياحي كما أخبرني بذلك عن نفسه وله فضائل كاملة وتقوى وسكينة واطلاع والسعة في الفقه والحديث وذاكرني في الهجرة فذكرته بأن مثله قليل الوجود في ذلك القطر وان بقاءه فيه لتعليم الناس دينهم أنفع للعامة وله عند الله من خروجه برأسه وابقاء تلك الامة المسلمة خالية عن مثله بل وربما جل خروج غيره ممن هو على شاكلته على الخروج فتبقى العامة بلا تعلم لديانتهم وتضمحل منهم الديانة شيئاً فشيئاً والعياذ بالله بخلاف ما اذا بقي هو وأمثاله فانه تنتشر تعاليم العقائد والفقه وتبقى الديانة ان شاء الله محفوظة في الاهالي وذلك هو المنصوص عليه في كتب فقهنا حتى ان الاسارى اذا لم يمكن فداؤهم جملة فيؤخر منهم العلماء ومن الاخيار أيضا الاصيل الفهامة الشيخ أحمد أبو قندوره المفتي الحنفي بالقاعدة المشار اليها وهو ذو تبحر في المعارف السياسية ومتقن للغة الفرانساوية وصاحب حمية في المدافعة عن أهالي وطنه وهو عضو أيضا في مجلس الوالي وله مشاركة في الفقه والحديث وكل من الشيخين المومى اليهما امام وخطيب في جامع بالقاعدة المشار اليها وقد زرت كليهما في مقصورة جامعة ودعاني ثانيهما للوليمة اتخذها اكراما لي جازاه الله أحسن الجزاء وتوجهت معه الى بستانه في الجبل وهو بستان ظريف جامع للشكلين العربي والاوروباوي وبناؤه ظريف نظيف على النحو العربي المتقن ومن أكارم من اجتمعت به صفوة الخيرة سيدي قدور الشريف نقيب السادة الاشراف صاحب شمائل تليق بجلالة نسبه ومنهم العالم المتفنن الشيخ علي بن موسى نقيب زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي رضي الله عنه وهو صاحب ورع وديانة كان ولي في احدى المناصب الحكمية ولما لم يمكنه الامتناع تصامم واعتذر بالصمم فأعفي ومنح نقابة الزاوية المذكورة فبقي ساكنا هنالك معتكفا على العبادة والمطالعة وله

أشعار

أشعار ... ومنهم الوجيه السيد الشريف الصفصافي وغيرهم من الاعيان كما اجتمعت ... موظفي الفرانسيس كالجنرال شريز حاكم وهران ونائب الحاكم العام ... جزائر عند مغيبه في وقت قدومي الى هناك وهذا الجنرال زيادة على معارفه العسكرية التي توصل بها الى رتبة الفريق فانه منصف عاقل عارف بأحوال سياسة الوطن والسياسة الخارجية صدوق في الكلام بدون محاباة ورايت سائر كبارة وظفهم هناك مثله والذي أعانه على معرفة مصالح الاهالي هو معرفته لغتهم ومنهم أمير البحر الكماندان دي سان اندري وهو شيخ مسن منصف في السياسة وممن لاقيته في غير القاعدة الفقيه النبيه الشيخ السعيد بن شتاح قاضي بلد قالمه وهو مشارك في الفنون الآلية وله اطلاع حسن في الفقه مع عفة واستقامة ثم ان الاهالي على العموم في طبعهم نوع من الحدة والنشاط وذرية البربر في لونهم شقرة وصهوبة ولهم ولوع بالفروسية والملاهي في المدن على نحو مافي أوروبا وفي بقية القرى والبوادي على نحو ما ذكر في تونس

﴿مطلب في التجارة بالجزائر﴾ التجارة مع خارج القطر أغلبها بيد الفرانسيس ثم الاسبنيول والطليان ثم غير كالبعض من الاهالي والانكليز والنادر من غيرهم وفي دواخل القطر مقسمة بين الاهالي والفرانساويين وهي على نحو التجارة بتونس اذلم تحدث بها معامل ولا كبير حركة تجارية سوى بعض معادن كما تقدم في معدن الحديد بعنابه ومعدن فضة في القالمه على ان تصفيتها وصناعتها تكون في فرانسا وأصول التجارة الجارية على نحو الاصول الفرانساوية وعلى ما فيها من المعاهدات مع الدول وأما البريد براو بحرا فهو بيد شركات فرانساوية وفي الجزائر دار صرف تسمى بانكة الجزائر لها أوراق مالية مثل البنوك المعتبرة في أوروبا ولتسهيل طرق التجارة وان شئت قلت لتسهيل الحركة العسكرية قد امتدت طريق الحديد بين الجزائر ووهران وتلمسان ثم أخرى بين عنابه وقالمه وسوق هراس وقسنطينه واسكيكده وهم بصدد وصلها بطريق تونس ووصل البقية ببعضها والمذاكرات جارية في مد طريق الحديد الى دواخل افريقية والصحراء حتى تجمع بين شطوط افريقية الشمالية الشرقية من جهة الجزائر وتونس وبين شطوطها الغربية من جهة سانيغال وتمر على ممالك السودان ولا يخفى ما في ذلك الربح الباهظ

﴿مطلب في الاحكام بالجزائر﴾ الاحكام الشخصية منقسمة الى قسمين فما يرجع الى الوقف والنكاح والطلاق والارث عند المسلمين له قضاة مسلمون على مذهب مالك

وفى بعض المدن مفتون حنفية والقضاة معهم بين لهم الحكم بكتاب مختصر الشيخ خليل ويجلس مع القاضى عدلان للشهادة على الخصوم وينوبه أكبرهما عند مغيبه وأما بالرجوع الى سائر المعاملات والجنايات فله مجلس مركب من ثلاثة أعضاء فرانساويين ويحضر معهم عضو مسلم وهذا المجلس على نحو مجالس الاحكام فى فرانسا غير ان القانون الذى يحكم به ممتزج بين ما ترجم من مختصر الشيخ خليل وبين القانون الفرانساوى فاذا كان الخصمان من المسلمين والدعوى من أنواع المعاملات الاختيارية فلهما الاختيار بين فصلها فى هذا المجلس أو لدى القاضى المشار اليه وأما اذا كانت الدعوى من قبيل الجنايات أو بين مسلم وغيره فلا تفصل الا بالمجلس كما ان للمجلس حق التحقيق على القاضى فيما يحكم به فى نوازل المعاملات وذلك جار فى كل بلدة (واما القبائل) فحكامهم القواد والاغوات والقضاة ثم لما كان أعضاء المجالس فى الاغلب غير عارفين بلغة القوم لزم احضار مترجم مع مراقبة العضو المسلم ومع هذا فلا يحصل الانصاف المعهود فى محاكم فرانسا لان حيث الاعضاء الفرانساويين فانهم يتحرى فى انتخابهم استكمال الصفات والاستقامة لكن يحصل أطوارا عدم احسان الترجمة جهلا أو عمدا مع عدم جدارة العضو المسلم فلا يجرى الانصاف وأغلب ما يكون ذلك فى الحكم الذى لا يقيم المحكوم عليه وكيلا عارفا باللغة الفرانساوية ومتضلعا بمعرفة الاحكام وقد حضرت يوما متفرجا فى مجلس الحكم بعنابة الذى هو فى الهيئة على نحو ما تقدم فى باريس فأتى برجل فى دعوى جنائية وبينما هو يتم فى كلامه واذا بالمترجم تكلم للحكام كان الرجل تمم مقاله فصدر الحكم حالا بسجنه وما أخرج من بيت الحكم الا ولاقى من اللكم والالطام والسب من أعوان المجلس ما تعجبت من صدوره من فروع الامة التى كنت أشاهد فى اعتدالها فى فرانسا وأولئك الاعوان هم من الاهالى غير الثقاة ومنهم أيضا أعوان للضابطية ويتجسسون على من يقدم من خارج وربما يهيج الاعراب اذا توجه اليهم وبمجرد التهمة يسافر من البلد وهم لا يحسنون لا التجسس ولا الخطاب لعدم الاهلية فى الانتخاب وعلى هذا النحو فى عدم الجدارة جمع من قضاتهم فلا يتقون الارتشاء ولا يحسنون حفظ ناموس المنصب حتى شاهدت قاضيا فى عنابة يتلاطم ويتخانق مع الخصوم ويجلس فى حانات الاراذل بما يتنزه عنه أعضاء مجالس الحكم وكان ذلك فى أصل القصد من عدم التحرى فى الانتخاب لتنفر الاهالى من أحكام القضاة ويفضلون أحكام المجالس بل وربما أدى ذلك مع

زيادة

زيادة جهل العامة الى اعتقادهم الاختلال فى الشعائر الدينية لما يرون من سوء حالة القضاة واحكامهم واعتدال المجالس وانصافهم

﴿مطلب فى المعارف بالجزائر﴾ المعارف فيها على قسمين الاول علوم الديانات والثانى علوم الرياضيات فالاول قسمان أيضا الاول ماهو مختص بالديانة الاسلامية وله مدرسون فى الجوامع يقرؤن النحو والفقه وفى خصوص الجزائر من هؤلاء عشرة مدرسين والفقه هو المالكى وقليل من الدروس فى الحديث أو غيره وأكثر الاجتهاد فى هاته العلوم فى بلد قسنطينة ثم تلمسان وفى الجهات الجنوبية يقرؤن العلوم فى زوايا الطرق ولاهالى هاته الجهات اعتناء بأخذ العلم فيرحلون اليه الى فاس وتونس وقليل منهم يرحل الى مصر فلذلك لم ينقطع فى تلك الجهات من له اطلاع حسن ومشاركة جيدة وقليل من يتضلع حقيقة التضلع لانه ليس فى أوطانهم علماء فحول وانما يقرؤن صغار الكتب وأكثر الانكباب فى الفقه المالكى على حفظ مختصر خليل وتفهمه ومن تمهر فى العلوم فى احدى البلاد الخارجية قلما يرجع الى وطنه وفى كل تلك العلوم مدرسون فى الجوامع لهم مرتبات من قبل الدولة الفرانساوية وهى القائمة بمصاريف اقامة الجوامع ومافيها من قراءة الاحزاب أو كتب الحديث لانها استولت على جميع الاوقاف والمساجد واقتصرت فى كل بلد على عدد مخصوص من المساجد تقوم به وغيره تصرفت فيه بما ناسبها وحرمت المستحقين من مالهم كاوقاف الحرمين والقسم الثانى ما يختص بالديانة النصرانية ولا دخل للدولة فيه وانما القسيسون لهم مدارس لتعليم ديانتهم وقد كان نوع من القسوس يعرف بالجوزويت أنشأ مدارس للتعليم حتى للعلوم الرياضية مع الديانة ولهم اتقان فى كيفية التعليم والتربية وقد كانوا فى حدود نيف وثمانين ومائتين وألف احتازوا بكثير من أولاد الاعراب وغيرهم المسلمين بناتا وأطفالا ونصروهم وذلك عندما وقعت مجاعة شديدة بالقطر ولما بلغ مجلس النواب فى فرانسا ذلك العمل شدد قسم منه النكير على الدولة فى اطلاق القسوس على ذلك العمل لكنها لم تمنعهم وعند ما كبر البعض من أولئك الاولاد وعلموا بان أهلهم مسلمون فروا الى أهليهم ثم لما منعت الدولة الجوزويت من التعليم فى فرانسا واستولت على مدارسهم ومكاتبهم فى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م عممت ذلك فى الجزائر أيضا ونفتهم من كل عمالتها لكنها أوصت بهم نوابها فى الممالك الاسلامية بان يحموهم فى حريتهم أى اذا ارادوا ابتناء مدارس والتعليم فيها فليس للدولة الاسلامية منعهم وان منعوهم تعارضهم نواب فرانسا مع ان

الدولة الفرانساوية الآن جمهورية وتطلق الحرية فى كل شئ غير انها سلبت حرية الجزويت فى ممالكها ولم يتيسر لها حمايتهم فى ممالك أوربا اللاتى اكثرها فعل بهم مثل مافعلت هى فكيف يسوغ مضادة ذلك فى الممالك الاسلامية مع اختلاف الديانة فيها وأمافى فرانسا فان ديانتهم متحدة لان الجوزويت نصارى من أتباع الكنيسة الكاتوليكية الخاضعة للبابا غيرانهم لهم مذهب فى دقائق الديانة والتأويلات والفلسفة فيها جعل لهم نوع انفراد عن بقية القسوس بيدان الدولة الفرانساوية تستند فى منعهم من التعليم بانهم يمزجون فى تعليمهم الاحوال السياسية على الاصول الاستبدادية بما لايوافق سياستها وتخشى من فشوه فى الناس مع المكاتب التى يتخذونها تصير كالمعسكرات تحدث منها الثورة ويأوى اليها الثائرون (وأما القسم الثانى) من أصل المعارف فهو سائر المعارف الرياضية وهاته لها مكاتب من الدولة فى البلدان المتمدنة وهى على نحو المكاتب الفرنساوية غير انها قاصرة عن العلوم العالية فبعد اتمام التلميذ فيها معارفه ينتقل الى باريس التى هى مركز سائر العلوم العالية والمكاتب بالجزائر فيها ماهو للولدان وفيها ماهو للبنات وقد حضرت بالاستدعاء فى امتحان البنات بعنابة ووقع الامتحان فى اللغة الفرنساوية وفى الكتابة وعزف البيانو وأنشدت المديرية خطبة فى تحسين التعليم وأغلب المعلمين نساء فى هذا المكتب كما حضرت امتحان مكتب الولدان من مسلمين وغيرهم وحضر كلا من الامتحانين وجوه البلد وحكامها

﴿مطلب فى الصنائع وغيرها بالجزائر﴾ الصنائع بها أحسنها الفلاحة وقد اتقنت فى الجهات الشمالية على نحو ماهى فى فرانسا (وأما بقية الصنائع) فانها على نحو ما بتونس مع الانحطاط فى الدرجة لافى الكمية ولا فى الكيفية عما فى تونس الا بعض أنواع من البرانس فلهم فيه مزيد اتقان كالمسمى بالعباسى (وأما هيئة المساكن والطرقات) فان الجديد على نحو مافى فرانسا والقديم على نحو مافى تونس لكن الطرقات معتنى بتنظيفها وتنويرها على كل حال كما فى فرانسا (وأما اللبس) فالرسمى فرانساوى وقواد الاعراب الكبار يلبسون قفطانا طويلا مطرزا باسلاك الفضة المذهبة وبقية لبس الاهالى على نحو لبس التونسيين سوى عموم لبس الرداء المسمى بالحرام حتى فى المدن ويجعلون العمامة فوقه وكلهم يدخلون رؤسهم فى فوهة البرنس ولباس النسوة أحسن سترة منهن فى تونس لانه متدلى وكذلك الاكل والمواكب على أنواعها فانها نحو مافى تونس الا

الذين

...حرية الذين لهم مزيد اعتناء بتقاليد الاروباويين فقلدوهم في أشياء كثيرة وقد رأيت من
...عادات القديمة انهم لا يدخلون ديارهم بنعالهم بل كل من وصل الى السقيفة نزع
...بانة له ولبس نعلا خاصا بالدار أو دخل حافيا تحفظا على النظافة والطهارة ولهم أنواع
...ريفة متقنة في الاكل سيما المتخذ من ورق العجين حلوا ومالحا (وأما اللغة) فهي
...ضا عربية محرفة على نحو ما في تونس غير أنهم أقل فصاحة في النطق ببعض الاحرف
...وجود كلمات غير معروفة في تونس كقولهم أدروك بمعنى انظر أو ما قاربها وفي جهات
...ربة البربر لم تزل لغات أسلافهم مستعملة كما في زواوة وبني مزاب

الباب السادس في انكلاتيره

الفصل الاول في سفري اليها

...د تقدم انى أقمت في باريس سنة ١٢٩٦ نحو شهر وحيث كنت علمت أغلب ما فيها ولزمني انتظار أشياء يتوقف عليها رجوعي الى تونس أحببت أن أقضي بعض أيام في رؤية انكلاتيره لشهرتها مع قربها من باريس فركبت الرتل السريع صباحا وذلك في رمضان الموافق لتموز الاعجمي واستمر الرتل سابحا بسرعة يقطع بها نحو الخمسة والاربعين أو الخمسين ميلا في الساعة فرأيت من منظر شمال فرانسا ما يربو عن الجهات الشرقية والجنوبية انتظاما وعمرانا الى أن وصلنا الى بلد كالي التي هي مرسى على أضيق خليج بحر المنش بين فرانسا وانكلاتيره ولها عدة أسوار وخنادق متينة حصينة للغاية ودخل الرتل بين سورين الى أن وصل الى محاذات الباخرة اللاصقة بالرصيف وكنا أخذنا ورقة الكراء الى ذات لندره فانتقلنا من الرتل الى الباخرة وصادفنا باخرة عجيبة الشكل اذ هي مؤتلفة من باخرتين متلاصقتين عرضا وسطحهما متحد ولكل آلة بخارية وبها بيت جلوس واسع جدا ذو اتقان بالغ وبها أيضا بيوت صغار لمن يريد الانفراد لكنه يزيد نحو عشرة فرنك في الكراء عن الطبقة الاولى وفي الباخرة جميع ما يحتاج اليه المسافر لكنه له ثمن زائد عن الكراء والداعي لجعل الباخرة كذلك هو صعوبة ذلك الخليج وشدة اضطرابه لانه مضيق بين بحرين ويمر فيه التيار بسرعة فاذا في ريح يشتد اضطرابه مع تطلب الراحة للمسافر فاخترعوا ذلك النوع من البواخر لكي لا يحصل فيه الاضطراب بكثرة عرضه فلم يفد واخترعوا نوعا آخر فيه أيضا وهو أن يكون بيت الجلوس منفصلة عن الباخرة من جميع الجهات ومعلقة فيها

على نحو الفوانيس بحيث اذا مالت الباخرة لا يميل البيت حيث كان معلقا فيتبع ثقل المركز فلم يفد أيضا لانه اذا اشتد الميلان يلاطم بعض أجزاء السفينة حائط البيت ويتبعه في الميلان فحاولوا أن يخترقوا طريقا تحت قعر البحر ووضعوا لذلك رأس مال قدره أربعة ملايين فرنك بين الفرانسيس والانكليز للتجربة أعني تجربة معرفة الطبقة السفلى من أرض البحر هل هي صلبة قابلة للاستمساك أم هي رخوة أما أصل امكان النفاذ فقد جرب وتحت نهر التيمس كما سيأتي ذكره ولازال العمل جاريا في هاته التجربة وذكروا أنهم وجدوا الارض صلبة بان حفروا في شطي البحر بئرين أعمق من أعمق محل في ذلك البحر فوجدوا طبقة الارض صلبة فاجتهاد الجهتين متوال في احداث هذا الطريق وهذا ينبيك عن عزائم الامتين في العمل والمال ولا يبعد حصول المقصود في وقت قليل ثم أقلعت بنا الباخرة ولم تحمل الا الركاب والبريد وما خف من البضائع ورحل الركاب وأنعم الله علينا بأن كان البحر في نهاية السكون ولله الحمد فكنا في غاية الراحة غير أنا لانظر الاما قرب من البحر للباخرة لكثرة الغيم في الشطين وبعد سير ساعة وأربعين دقيقة وصلنا الى مرسى دوفر من انكلاتيرة التي هي أقرب مرسى في مقابلة مرسى كالي ووصلت الباخرة أيضا للرصيف ونزلنا الى الرتل الذي هو على أهبة السفر بلاصق الباخرة فسألني خدمة الرتل الى أين توجهي فقلت الى لندره فقالوا أي جهة منها فتعجبت هل هؤلاء لهم عجلات يوصلونني بها الى محل نزلي مع اني لم أتخذ منزلا وانما كنت كتبت لاحد معارفي بها ليلاقاني في المحطة فاعدت لهم اني ذاهب الى لندره الى محطة سكة الحديد فقالوا أي محطة فتذكرت ما كتب لي الملاقي الى في المحطة من انه ينتظرني في محطة فكتوريا وعلمت اذ ذاك فائدة تنصيصه على اسم المحطة وحينئذ ذكرت لهم اسم المحطة فعينوا لي الحافلة التي نركبها وكان ذلك بعد تعب في التفاهم من الجهل باللغات حتى كان الذي فرج الحال رجل يعرف الفرانساوي ثم قفل الرتل سرعان سابحا بسرعة أزيد مما هي في فرانسا حتى لا يتمكن الناظر من رؤية الاشياء القريبة وكان الرتل يطفر طفرا من تقارب مقاطع قضبان الحديد الجاري عليها من سرعة السير اذ هو يسير ستين ميلا أو أزيد الى الثمانين في الساعة الواحدة وكنت أرى على بساط الارض آجاما عديدة من شجرة الدينار التي يضم ورقها الى ماء الشعير المتخذ سكرا المعروفة بالبيرة ونرى أكواما كالقرى المنثورة من الآجر المصنوع حتى تعجبت من كثرته وكثرة معامله ولكنني عندما شاهدت بلادهم زال التعجب لان

الآجر

الآجر وحده هو مادة البناء لسائر مبانى لندره واذا بسط الارض على نحو مد البصر
انه شبكة صياد بقضبان طرق الحديد المتفرعة الى جميع الجهات والرتل واردة صادرة
كالنمل السارب فوصلنا الى المحطة وتلقانى المنتظر الى ونفس عنى ملالى بكلامه العربى
وهو مستر اميو فى أحد ابناء الشام انتقل الى هناك وسكن بلندره محترفا بصناعة التعليم
للسان العربى وكان دخله من التعليم كافيا له بميسرة لولا الاسعار وكانت مدة السفر من
باريس الى لندره تسع ساعات وثلاث أرباع الساعة بين السير فى البر والبحر وسكنت فى
الحارة المعروفة بهيت بادلك وأقمت بلندره يومين منفصلين وثلاث ليال واليوم الوسط
ذهبت فيه الى بلد ابريتن صباحا ورجعت منها مساء حيث انها على شاطئ البحر ويقصدها
أعيانهم صيفا وهى من أعظم متنزهاتهم وأبنيتها مثل أبنية لندره وأحسنها فى هاته البلد
ثلاثة أماكن (أولها) قصر الانو وبستانه فالبستان جميل اجمالا (وأما) القصر فقد بناه
ملكهم وليم الثالث المتوفى سنة ١٦٨٩ الذى كان محبا بالصيد والخلاعة محبا
للانفراد فبنى قصر بريتن وكان مغرما بأحوال الصينيين فجعل بهاذاك القصر بعيدا عن
القاعدة ليهنى عيشه بالانفراد ثم أنشأ القصر على نحو قصور ملوك الصين وجلب اليه من
هناك سائر الادوات والمفروشات وغاية الفرق بين هذا البناء والبنايات المعهودة انه
لا يشتمل الا طبقتين والقباب كلها على شكل مخروط الوسط والحيوط والابواب كلها
منقوشة مزخرفة بالاشكال الصينية وألوانها وتصاويرها والدرج ذات شكل غريب
رتاج وظاهر القصر مزخرف وعلى زواياه وأبوابه شرافات وصوامع جيدة مزركشة وقد
ءت الملكة فكتوريا المتولية الآن هذا القصر لجمعية أهلية ليبقى منتدى للعموم فى
حظهم واجتماعهم وقد انتدبوا اليه عقب شرائه من سائر أقطار انكلاتيره ومازال
هكذا مباحا للمتفرجين وقد شنعت صحف أخبارهم على شح ملكتهم ونهمتها فى المال
ببيعها ذلك القصر للاهالى وكان ينبغى لها أن تهديهم اياه واظن ان الثمن لم يبلغ
المليونين فرنكا (والمكان الثانى) فى البلد هو محل معرض أنواع السمك فى أحواض
من الزجاج وراءها الضوء مركوزة فى الحيوط ينزل اليه بدرج على الشط وحوله مطاعم
أنيقة وحدائق وفوقها قهوة وفى بيوت هذا المعرض بيوت عديدة جميع حيوطها
حواض زجاج فيها أنواع الحيوانات البحرية مما الله به عليم ويستفيدون من ذلك كيفية
حياة الحيوانات وتوالدها (والمكان الثالث هو دكة) على البحر طولها ما نحو نصف ميل
مصنوعة من خشب متين مرفوعة على أعمدة متينة من الحديد عالية عن سطح البحر

وحول الدكة وفوقها مقاعد ومنازه وقهاوى وذلك هو منتدى المتنزهين [illegible] ـين
والمتسابقين فى البحر وبقية البلاديس فيها ما يستغرب واغلبها حسنة [illegible] فـة
الطرق ولم تزل الاشغال جارية فى احداث حارات جديدة فيها ثم لما رجعنا [illegible] نسا
بت ليلة فى مرسى دوفر لان الباخرة تسافر بالبريد مبكرة فآثرت الذهاب اليها عشية
لكى لا نتعب بالركوب فى الرتل ليلا للوصول اليها وتطوفت فيها فاذا هى مرسى حربية
وحشة متينة الحصون كثيرتها ومبانيها ردية وطرقها وسخة ومنزل المسافرين الذى بقينا
فيه حسن متقن وطعامه ردىء وليس فى البلاد ما يبسط النفس فركبنا منها بكرى
الصباح ورجعنا الى فرانسا فى باخرة فرانساوية اعتيادية وكان البحر ساكنا مع الضباب
الكثيف وحول شاطئ فرانسا كان الجزر حاصلا حتى خشى السفن من مصادمة الارض
وكان قعر البحر يرى فى بعض الجهات

الفصل الثانى

لما كانت هاته المصر المنمصرة هى قاعدة انكلترة وفيها أغوذج سائر المملكة يلزم ان
تفرد بالذكر غير انه لا يخفى ما المعادات من المعادات وقد ذكرنا من أوصاف باريس
وتفاصيلها ما يغنى كثيرمنه عن اعادته فى صفة لندره فلنقتصر على ما تنفرد به هاته عن
تلك وهكذا نسلك فى سائر المباحث بحيث نقتصر على ما يفيد وما يشترك فيه الجميع يعلم
حاله مما سبق فى الابواب السابقة فنقول ان لندره أكبر مصر فى أروبا وسكانها على ما تحرر
سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م ٣٤٨٩٠٠٠ نسمة منهم ١٦٣٣٠٠٠ ذكورا
و١٨٥٦٠٠٠ اناثا ويخترقها نهر التيمس الذى يحمل السفن الكبيرة وعليه جسور
عديدة ضخمة جدا منها البناء ومنها الخشب ومنها الحديد الذى لا أعمدة له يقوم عليها فى
النهر وانما طرفاه على العدوتين ووسطه معلق بقضبان وسلاسل ممتدة الى طرفيه حيث
يوجد أبنية ضخمة مرتفعة تمر فى أعلاها تلك السلاسل والقضبان ثم تنزل الى الارض
بحيث تكون على شكل مثلث زاويته الوسطى قائم فيها ذلك البناء وتلك السلاسل
أربع فى كل جهة من طرفيه اثنان وبعض هاته الجسور يمر عليها طريق الحديد
وبعضها عليه جسر آخر يمر عليه طريق الحديد وقد خرقوا تحت النهر نفقا يمر فيه
الرتل أيضا وطول النفق ألف ومائتا قدم وكان انشاؤه سنة ١٨٢٥ ثم طمى عليه الماء
ثم جدد سنة ١٨٤٣ وكانت مصاريفه ١٥٣٥٠٠٠٠ فرنك بحيث ترى الطرق

عند نهر التيمس فى بعض جهاته على أربع طبقات فالرتل تحت الماء والسفن على الماء والعجلات والدواب والناس على الجسر والرتل أيضا على جسر فوقهم والطرق أكثرها فى عرض عشرين ذراعا والقليل أزيد من ذلك أو أقل حتى ان منها الضيق الذى لاتمر فيه عجلة والطرق قليلة النظافة حتى ان منها ما فيه الوحل من الطين بقدار لا تستطيع معه العجلات على سير الخبب وبعض الطرقات مبلط بقطع من الخشب فى شكل الحجارة ذات الشبر التى يبلط بها وذلك لقلة الوسخ من الخشب مع قلة الدوى وفقدان قرقعة العجلات وذلك انما هو فى الطرق الكثيرة مرور العجلات (وأما غيرها) فعلى النحو المعتاد والبناآت غالبها من الآجر الا قليلا من أبنية خاصة ضخمة متخذة من الحجارة وقليل أيضا من أساسات بعض الابنية فهاته نحتت لها الحجارة على شكل مستوى جميل المنظر وكثير من الديار عند أبوابها اسطوانات من المرمر محمول عليها رواشن أو سرادق وعامة البناء ذو ثلاث طبقات والرابعة السفلى وكل دار تسكن عائلة فقط ولذلك كان منظر باريس أبهج الا بعض حارات بنيت على نحو باريس فلم يستحسنها الاهالى وبقيت منفورا من سكناها وكل دار تجد على بابها روشن خارج عن حائط الدار وفى البلاد عدة حدائق رحيبة جدا أعظم مما فى باريس منها حديقة هيت بارك ولكل حارة تقريبا حديقة صغيرة خاصة باهلها وأعظم مكان فى لندره هو الجهة المعروفة بالسيتى وهو طريق عظيم مشتمل على دار صرف الدولة وعلى دار حاكم البلد وهو مركز أشغال التجارة الكبرى ومحط ادارات أعيان التجار فترى فيه من الازدحام ودوى العواجل والحوافل والمحافل والركاب والساع ما يحير العقل والنظر واللب مع ان ابنيته وتحسيناته ابست مما يذكر وعادة أهالى لندرة ان حارات الاشغال والحوانيت والمخازن لا يسكنها الا الصنف السافل من الناس وحارات السكنى تكون خالية عن جميع ذلك حتى يتعب الساكنون فى جلب ضرورياتهم لولا التيسير الكثير فى اسباب الانتقال من مكان الى مكان على نحو مامر فى باريس وتزيد لندره بان خط طريق الحديد يطوقها بدائرتين احداهما أوسع من الاخرى وبالجملة فقد انفردت لندره عما رأيت بوسعها من مدن العالم بكثرة الحركة وهول الجد فى الشغل والاخذ والعطاء والسفر والرجوع ويرى أثر ذلك فى محطات طرق الحديد كما أشرنا الى ذلك سابقا من رؤية براح شبكة القضبان مبسوطة عدة أميال ويحار العقل كيف لا يغلط مسير المزجيات وحراس مفاتيح الطرق بذهاب الرتل الى غير قصده ففى لندره ثمان محطات على نحو

ماذكرنا فى محطة فكتوريا وقد أحصى فى احداها عدد الداخل والخارج من الرتل فى مدة نصف ساعة فكان اثنى عشر رتلا وليقس على ذلك وقد نظرت يوما من قصر الزجاج دخان المرجيات الصادرة والواردة جارة للرتل فاذا هى مثل الجراد المنتشر فى كل الجهات (وأما بقية) الاحوال فهى دون باريس فى نظارة الحوانيت وبهجة البناء وعدم وجود محل للبول أوكنف فى الطرقات وفى النظافة والتنظيم والتنوير ولنذكر بعض محلات لم نر مثلها فى باريس فمنها قصر الزجاج وهو قصر عظيم جدا متخذ من قضبان حديد مرصف بينها قطع الزجاج وقد انشئ أولا مركزا للمعرض العام فى لندره وهو أول معرض فى اوروبا وبعد انفضاض المعرض نقل ذلك القصر الى ربوة حذاء لندره واتخذ سوقا لبيع تحف وسلع ظريفة ولوضع عجائب وآثار دهريه وصناعية للفرجة والنتزه وحوله حديقة انيقة ذات فوارات وقهاوى وعلى كل داخل ان يدفع شيأ زهيدا من المال لمجرد الدخول والفرجة وما يشترى فهو بثمنه وطريق الحديد يصل الى هذا القصر من جهتين وهو ذو ثلاث طبقات ومقسم على عدة اقسام (وفيه) ملاهى (وفيه) محل للرمايه (وفيه) حديقة (وفيه) عدة فوارات (وفيه) عدة مطاعم (وفيه قسم لمثال حمراء غرناطة بالاندلس اعنى مثال بعض جهاتها الشهيرة كوسط الحمراء والبيوت الكبيرة متقن التمثيل اعنى تمثيلا مجسما بحيث يدخل الانسان الى قصر هو على شكل الحمراء فيما تقدم وفى كيفية طلى البيوت وتمويهها بالذهب وما فيها من الكتابات الانيقة بالخط الكوفى وذلك القصر هو على نحو الابنية العربية لكنه فائق الاتقان والصنعة والتأنيق والتزويق وفى القصر الزجاجى (قسم) لاحوال الصينيين وصناعاتهم وأشكال اناسهم مجسمة بتصاوير من الشمع وهيئة المكثرين منهم لاستعمال الافيون وتأثيره القبيح فى عقلهم وذاتهم (وقسم) منه لتاريخ بلاد بمبي من ايطاليا تاريخا بالمشاهدة لصورة أطوارها وقسم منه لحيوانات غريبة منها الغول المسمى بالكوريلا الذى هو نوع من القرد الكبير وقد مر ذكره فى باريس وأنواع أخر من القردة صغار شبيهة بالانسان الزنجى وفى القصر الزجاجى أيضا (قسم) لبيع التحف والبضائع الرقيقة وقد رأيت فيه نحو سبعة رجال من العرب من أهل الشام ومصر والمغرب متخذين محلات لبيع تحف بلدانهم والعطريات (والحاصل) ان هذا القصر الزجاجى جامع لاشتات الظرف والنزاهة (ومن الاماكن الشهيرة) فى لندره أيضا التربيعة المعروفة ترافلكر وفيها عمود دباسون المبنى من المرمر ارتفاعه ١٧٦ قدما انقليزى وعليه تمثال وحوله شرافات من النحاس اتخذت من

مدافع

مدافع أخذت من الفرانسيس وحول العمود فوارتان بالماء أمامهما صورة الملك شارلس الاول وكان نصب العمود (سنة ١٨٤٣ ومنها أعمدة) أخرى (ومنها) الملاهى المتعددة وقد شرعوا فى بناء أكبر ملهى فى أوروبا وأكثرها تأنقا باهاء الملهى قران لوبرة فى باريس لكنه لم يتم الى الآن وأعجب ما رأيت فى ملاهيها فى محل التخيص من اللعب ان بنتا ترتفع فى الهواء الى السقف وتغيب فيه وتارة لا ترتفع الى نحو نصف الفضاء تذهب فى الهواء طائرة الى جهة اليمين من المتفرجين من غير أن يرى لها ماسك أو شئ تعلق به وقد خاضت صحفهم فى ذلك ولم يقفوا على قول حقيق فى صورة ذلك غيرانى شعرت بأنهم يقلون الضوء عند ارادة تلك اللعبة (ومنها) دار الامتحانات العلمية (ومنها) قصر الندوى وهو أعظم بناء فى هاته البلاد ويمكن ان يقال فى أوروبا أيضا عدا قصر الفاتكان برومه فهذا القصر بلندره يشتمل على ٢٦ مدرجا أوازيد للصعود اليه وأكثر من ١١٨٠ حجرة و ١٩ ايوانا (منها) ايوان الاجتماع الرسمى الرحيب ويشتمل على اسرة ومقاعد ومطاعم وقهاوى بحيث ان أعضاء الندوة اذا احوجهم الحال الى اقامة ايام هناك فلا يحتاج أحد منهم لشئ سوى الملبوس يأتى به من محله ولما كان لبثهم طويلا ويقضون أشغالهم فيه فكان فى القصر من التنوير ما يتعجب منه الناظر وكذلك أمر تدفئته (ومنها) المتحف البريتانى الشامل للآثار العتيقة والذخائر الغريبة وعلى نحوه ودونه عدة متاحف أخر (ومنها) دار الصرف اى البنك الدولى وهو أعجب بنوك أوروبا كبرا وغناء اذ فيه من الذهب فقط عشرات آلاف الملايين مخزونة قطعا كبيرة وصغيرة للدولة ولمن يؤمن ماله فضلا عن المصوغ والفضة وللخزنة محل حصين محاط بالمياه خشية الحريق (ومنها) البورس أى محل اجتماع التجار (ومنها) مجامع التجار العديدة (ومنها) قصر الهند أى محل ادارة الهند المؤنق (ومنها) دار شيخ البلد (ومنها) الحصن العظيم المسمى توراف لندره (ومنها) منزل المسافرين المسمى رتيش مانت وهو خارج البلاد على ربوة مطل على فياض ومرج ونهر ويتنابه الناس للاكل بكثرة وللسكنى بقلة وأكله أحسن من غيره (ومنها) بستان الملك وقصره خارج لندره أيضا المسمى همبتون كورت وليس به من الغرائب الا عريشة عنب واحدة مغروسة فى بيت من الزجاج لوقايتها من البرد حيث ان شدة برد انكلاتيره يمنع من نبات العنب بها فكانت هاته الشجرة معتنى بها منذ ازيد من قرن وقد عظمت جدا حتى ملأت أغصانها جميع البيت التى طولها نحو الاربعين ذراعا وصارت تثمر آلافا من العناقيد ولا يخرج منها

عقود الابنذكرة من عند ذات الملكة تهادى بها من تحفه من الاقارب والاعيان وعلى تلك الشجرة قيم خاص وخدمة وتقصد للتفرج بانفرادها (والحاصل) ان لندره لاتونس الوارد بنظرها الاجتماعى ومحاسنها المخبئة يروق بها الاعالى من الناس ومن أكرموه معهم حتى انها ليست بها قهاوى كما فى سائر أروبا وليس فيها الا الحانات لايدخلها الا السفهاء أو حوانيت تبيع الحلويات لمن يدخلها واقفا ومنها عمود مصر المسمى بالمسلة موضوع على عدوة نهر التميس الحاوية للقصور الملكية وسائر مهمات لندره وقد صرف على جلبه من اسكندرية أموال باهظة تجاوزت عدة ملايين من الفرنك وأنشئ لجلبها سفينة خاصة بخارية وصاحبتها للمراقبة سفينة أخرى وتلقيت عند الوصول الى لندره باحتفال وركزت فى موضعها غير ان هذا الموضع وماحوله ليس مما يذكر وبينه وبين مركز المسلة بباريس بون بعيد وكان الانقليز انما قصدوا اسم وضع مسلة ببقاعهم لا انهم أرادوا جمالها وبهاءها (ومنها تمثال) زوج الملكة الحالة المتوفى سنة ١٨٦١ فاقيم له تمثال فى غيضة هيت بارك من أعظم الهياكل بناء ورونقا واتقانا من أنواع المرمر الملون المزخرف بقناطير الذهب وصرف عليه عدة ملايين من الفرنك (ومنها) المكتبات العديدة الحاوية لملايين الكتب واحداها شاملة للكتب التى غنمت من ممالك الهند التى استولى عليها الانكليز استيلاء تاما وهاته المكتبة ليس بها قاعات وأواوين كبيرة كغيرها وانما هى عبارة عن قصر ضخم كقصور السكنى الكبيرة فى باريس وفيه عدة طبقات وكل يشتمل على بيوت بها نوع من الكتب والفنون وعلى كل نوع مدير تحته عدة قيمين والكتب المجلوبة من الهند فى أعلى طبقات القصر فى عدة بيوت ضيقة غير مرتبة ولا نظيفة والغبار على أكثرها ووضعها فى الخزائن على ترتيب وضعها فى دفتر قيد أسمائها وهذا الدفتر انما رتب منذ عهد قريب لان الكتب أتى بها من الهند فى أزيد من أربعين صندوقا كبيرا وبقيت متروكة على حالها زمانا طويلا ثم لما فتحت الصناديق وجدت ملآنة بالكتب وضعت هنالك زمانا طويلا من غير ترتيب ثم كلف بتنضيدها وكتب فهرس لها أحد المستعربين من جهات سورية فرتبها على حسب حروف المعجم فى أسمائها من غير نظر لموضوعاتها ومعانيها فتجدها مجموعة ولاجامع الا حروف أسمائها ولم يتمها كلها بل قيد منها ألفا وخمسين مجلدا وبقى غيرها غير معروف ثم ان الكتب المزخرفة والاوراق المذهبة جمعت فى صناديق من الزجاج للناظرين فترى ورقة من مصحف كريم وبازائها ورقة من تصاوير الصينيين

الى

الى غير ذلك وتشتمل هذه المكتبة على كتب غريبة قليلة الوجود أو غير معروفة وقد طبع ماتم من فهرسها وأعطيت منه نسخة وليس هو مجرد اسم الكتاب بل يذكر اسمه وطالعته وخاتمته ومؤلفه وكاتبه وسنته بالعربي مع الترجمة للانكليزي ومما رأيت به نسخة من التلويح بخط جميل صحيح أظنها بخط المؤلف حيث قال فى آخرها كتبت هذه النسخة للشاب العزيز مني وأنا العبد المذنب الغريب الموسوم بسعد التفتازانى غفر الله ذنوبه وستر عيوبه وهو المحترم المكرم صاحب المروءة والكرم علاء الملة والدين بلغه الله أقصى ما يتمناه اه وعلى ظاهر هذه النسخة ختم مدغم كأنه ختم تيمور لنك والله أعلم

الفصل الثالث

﴿فى وصف انكلاتيره﴾

مسمى هاته المملكة جزيرتان كبيرتان احداهما أكبر من الاخرى واقعتان فى البحر الشمالى من أوروبا تبتدئ من دقيقة ٥٧ ودرجة ٤٩ شمالا الى دقيقة ٥٠ ودرجة ٦٠ وفى الطول الغربى معتبرا من باريس من دقيقة ٣٤ ودرجة ١ الى دقيقة ٥٠ ودرجة ١٢ ويحدهما من ثلاثة جهات المحيط الشمالى ومن الجهة الرابعة الخليج المسمى بالمنش الفاصل بينهما وبين فرانسا ثم يفصل بينهما فى ذاتهما خليج مارجرس وبحر ارلانده وأكبرها تين الجزيرتين يسمى انكلاتيره وجهاتها الشمالية تسمى اسكوتسيا والجزيرة الصغيرة تسمى ارلانده ولهذا كانت هذه المملكة معتبرة ثلاثة أقسام نظرا للتاريخ القديم ويسمى مجموعها الآن بريطانيا العظمى وعلى الاجمال فأرضها خصبة جدا ذات مزارع ومراعى واسعة الا الجهات الشمالية المسماة اسكوتيا فانها لشدة بردها كانت غير صالحة للزراعة وهاته المملكة أراضيها منبسطة بها ربوات قليلة الارتفاع وكلها معمورة حسنة المنظر متقنة الصناعة (وأما الجبال) فهى منخفضة بها الا فى اسكوتسيا فانها مرتفعة شاهقة وأشهرها جبل بلكانى (وأشهر) مكان فى الجبال جهة الشمال على البحر فى اسكوتسيا المكان المعروف بممشى الجبابرة وهو أعمدة صخرية مركبة على بعضها الى علو ٤٠٠ قدم بغاية الاحكام خلقة فكانت نزهة للناظرين (وأما أنهرها) فكثيرة وأعظمها نهر ساورن الذى يصب فى المحيط عند مدينة بريستل ونهر مرسى الذى يصب فى بحر ارلانده عند مدينة ليفربول ونهر التيمس الذى يحمل

السفن العظيمة الى مدينة لندره وبين هاته الانهر ترع عظيمة سهلة المواصلات وكذلك نهر شانون فى ارلانده والترعة الملكية بها الموصلة بين البحرين (وأما بحيراتها) فكثيرة أيضا وهى فى اسكوتسيا أبهج لما يحيط بها من المرج والجبال ولذلك كانت منتدى الاغنياء فى الصيف وأشهرها بحيرة نس وبحيرة لومند طولها نحو ٣٠ ميلا وكذلك بحيرة نياغ فى شمال ارلانده وبحيرة أرن فيها أيضا (وأما هواؤها) فهو على العموم بارد وفى الشمال أشد وسليم موافق للصحة لكن يكثر بها الضباب صيفا وشتاء وكذلك المطر الذى يسقى مزروعاتهم صيفا وشتاء ويوم الصحو الذى ينظرون فيه زرقة السماء يعد من حسنات الايام لان الضباب يتكاثف أحيانا الى أن يحوج الى ابقاء النور نهارا وربما كان غير مجد الا فى البيوت والمسقفات أما فى الطرق فالنور راغيا يقوم بنفسه ولا تخرق أشعته تكاثف الضباب وكاد المطر أن لا يفارقهم ثلاثة أيام متواليات وقد يشتد الحر فى الصيف الى أشد من أقاليم خط الاستواء سيما فى دواخل القارة حتى يموت الناس فى الطرق وذلك لانعدام النسيم وسكون الهواء سكونا زائدا فيشتد الحر الى درجة عالية للغاية لكنه لا يدوم غالبا الا يوم أو بعض يوم وتعقبه السحب والامطار والبرد (وأما نباتاتها) فهى نباتات الاراضى الباردة والجهات الوسطى والجنوبية تخصب فيها سائر الحبوب وان كانت لا تكفى السكان وأما العنب وما شاكله من نباتات الاعتدال والحر فلا يوجد منه الا ما يحصل له بيوت خاصة معالجة بالتسخين النارى ومع ذلك فتجد الارض بهجة مخضرة بالنباتات لكثرة العلاج واتقان الفلاحة وتجربة المياه وغاباتها كثيرة بها الاشجار الضخمة الصالح خشبها لانشاء السفن العظيمة فيراها الناظر معمرة لاغلب البقاع ونباتات المراعى خصبة جدا تسمن عليها الحيوانات (وأما معادنها) فالغنى منها الحديد والفحم الحجرى بكثرة فى أغلب الجهات وفيها الرصاص وغيره وهى أغنى ممالك أوربا فى المعادن (وأما حيواناتها) ففيها كل أنواع الحيوانات الموجودة فى فرانسا وايطاليا كما سبق ذكره والسباع منها منقطعة للاجتهاد فى ازالتها من قديم فان وجد شئ من صغار السباع فانما هو فى الجبال الشمالية وذلك كالدب والثعلب وما شاكلهما وأول من اعتنى بافناء السباع من الملوك الملك أدغر المتولى سنة ٩٥٩ فقد ألزم رعيته فى كل سنة بأن تأتيه بثلاثمائة ذئب واستمر ذلك الى ان فنى ذلك النوع وقد كان مالك أرضها مع خبثه الشديد لان الذئاب الشمالية كالسباع الكبيرة فى الجرءة والاذاية كالمشاهد الآن فى الروسية وخيلها جيدة للغاية وفيها من أجود الخيل العرابية

لشدة

اشـدة العناية بحلبها وتوليدها وتربيتها حتى فاقت سائر أروباني الخيـل وكذلك غنمها أحسن أنواع الاغنام وصوفها مرغوبة للاصناعات النفيسة لانها كادت ان تكون مثـل الحرير

(وأما مدنها فقاعدتها اندره) وقد مر ذكرها وبقية المدن كثيرة ومن أشهرها ليفربول وهى ثانيـة اندره (فى التجارة) واقعة على مصب نهر مرسى فى بحر ارلانده وفى مرساها من السفن ما يستغرب من كثرته ثم (مدينة) مانشيستر لها من الشهرة ما بينا كب السابقة وهى شرقيها على نحو (٣٢) ميلا ثم (مدينـة) بيرمنهام ثم (مدينة) وشفليد (ومدينة) كدرمنستر وفى اسكوتسيا (مدينة) ايدنبر (ومدينـة) ابردين (ومدينة) دندى (ومدينة كلاسكو وهاته أعظم اخواتها تجارة ومركزا ومعارفا وفى ارلانده أربع عظيمة (احـداها) جهة الشمال وهى بلفاست (الثانيـة) جهة الشرق وهى دوبلين (الثالثة) جهة الجنوب وهى كورك (الرابعـة) جهة الغرب وهى قلوه وكل من هاته الاربع قاعدة للقسم الذى هى فيه وهناك مدن أخرى عديدة غيرهاته

(وأما مراسى هاته المملكة فحيث كانت هى جزائر بحرية فكادت مراسيها أن لا تعدوا كثرها محصن تحصينا جسيما حتى ان كثيرا من الحصون فى المراسى الحربيـة صارت الآن مدرعة بصفائح الحـديد الثخين الذى لا يعمل فيه الكور ومن المدافع الجديدة وفى بعضها معامل للسفن المدرعة والخشبية ومن هاته المراسى ما هو مأمن للسفن بأصل الخلقة كاكثر مراسى ارلانده لان فى شطوطها تعاريج كثيرة حسنة المنظر ومنها ما هو مأمن بالصناعة وتجيء الى هاته المراسى التجارة فى السفن والبوابر من سائر الاقطار وأكثر سفن العالم انما هو للانكليز كما يأتى توضيحه ان شاء الله تعالى وقد تحرر ان لها على شطوطها الهداية للسفن ليلا أزيد من مائتى منارة

(وأما تقاسيم المملكة) بالنظر للادارة فهى فى انكلاتيره الاصلية اثنان وخمسون مقاطعة وفى اسكوتسيا ثلاثة وثلاثون مقاطعة وفى ارلانده أربع مقاطعات فالجميع تسعة وثمانون مقاطعة لكل منها ادارة على نحو ما يأتى بيانه ان شاء الله

(واعلم) ان هاته المملكة تتبعها جزر أخرى صغيرة حوالها كثيرة أشهرها جزيرة مان وجزائر نورمونديا وذلك عدا المستعمرات الخارجيـة لان ما ذكر هو قطعة من ذات المملكة

(وأما أهـل المملكة) فهم اثنان وثلاثون مليونا كلهم انكليزيون وديانتهم نصرانية على مـذهب البرتيستانت الا البعض وهـم أكثر أهـل ارلانده فهؤلاء على مذهب الكتوليك ويوجد فيهم قليل من اليهود والدهريين وأفراد من المسلمين منهم من أهل المناصب العالية والبيتوتات الكبيرة الملقبين باللورد كاللورد استانلى وهومن

الصادقين فى الاعتقاد الاسلامى ولله الحمد دخل اليه عن روية وبرهان نسأل الله له مزيد
التوفيق والحماية وعلو الكعب والهداية ثم ان هاته المملكة لها مستعمرات واسعة فى
جميع اقطار الارض حتى كانت اول دولة فى العالم فى اتساع الممالك وثانى دولة فى كثرة
الرعية اذ هى تالية لدولة الصين فى كثرة الرعية لكنها الاولى فى اتساع المملكة وعلو
الشأن فى اقطار الارض جميعها فاعظم مستعمراتها هو الهند وما معه وقد مر فى المقدمة
تفصيل ما وصلنا اليه من أحواله ولها فى آسيا أيضا جزيرة هنكونغ فى الصين ومدينة
عدن وباب المندب وجزيرة بريم فى جزيرة العرب وجزيرة قبرس فى البحر الابيض دخلتها
بمعاهدة مع الدولة العثمانية سنة ١٢٩٥ وحماية على مسقط وبعض قبائل شطوط
جزيرة العرب الشرقية ولها فى أوروبا جزيرة الياغولاند فى بحر الشمال وجزرجرسى
وغرنسى فى بحر المنش وجزائر صغيرة حول المتجمد الشمالى وجبل طارق الهائل
التحصين فى ارض اسبانيا على الخليج الموصل بين المحيط والبحر الابيض المسمى ببوغاز
طارق لان طارق هذا هو الذى عبر البحر من افريقية واستملك الجبل المذكور للمسلمين
فسمى به ثم افتتح بقية الاندلس وكذلك لها فى أوروبا جزيرة مالطه فى البحر الابيض
وسيأتى تفصيل حالها ان شاء الله ولها فى افريقية شطوط من سانيغال وجبال الاسد
فى كينيا العليا وارض شط الذهب فيها وراس الرجا الصالح وجزائر سنتلين وموريس
ولاسانيول وشطوط فى جزيرة مدغسكار لها نوع حماية او سلطة على ممالك مستقلة
فى افريقيا أيضا مثل الزلوس وغيرها فى ارض الكفرونفوذ فى الزنجبار ولها فى
اماريكا البريتانيا الجديدة فى شمال اماريكا وكاندا وبرنزويك وسكوسيا ولابرادور
وكلها توصف بالجديدة وجزيرة الارض الجديدة وأراضى أخرى غربى شمالى اماريكا
وجزائر المتجمد الشمالى وجزائر الانتيل الصغار وجزائر جامايك وبعنان الانقليزية وما
جلان ولها فى استراليا الشط الشرقى ومعظمها من بقية الشطوط وجزائر تزمانيا
وزيلاندة الجديدة ونورفولك فاذا نظر المتأمل لاتساع هاته المستعمرات وافتراقها على
جميع اقسام المسكونة علم مقدار اقتدار هاته الدولة وسيأتى فى فصل التاريخ ان من
حسن ادارتها كانت هاتيك الممالك قوة لدولتها الاجالية لضعفها وهذا جدول لعدد
السكان

٠٢٢٧٠٤١٠٨	سكان انكلاتيره
٠٠٢٣٥٨٦١٣	سكان اسكوتسيا
٠٠٥٤٠٢٧٥٩	سكان ايرلانده
٠٠٠١٤٤٤٣٠	سكان الجزر التابعة لها
٠٠٠٢٠٧١٩٨	عساكر و بحرية خارجها
١٦٢٠٧٢٧١٥	سكان ممالكها بالهند
٠٠٠١٦٠٣٦٩	سكان بقيه اماكن باروبا
٠٠٥١٣٣٧٢٢	سكان ممالكها بامريكا
٠٠١٨٦٠٠٠٠	سكان مستعمرات افريقيا
٠٠١٩٥٨٦٥٠	فى استراليا
٠٠٠٤٢٦٠٤٧	فى بقية الجهات
٢٠٣٤٣٠٦١١	

الفصل * الرابع

﴿ فى اجمال تاريخ انكلاتيره ﴾

٥ مطالب فى تاريخها القديم لايخفى ان سائر اوروبا كانت فى الاعصر السالفة على جانب عظيم من التوحش فلذلك كانت تواريخها القديمة غامضة مجهولة ومن ذلك تاريخ انكلاتيره أيضا وغاية مايعلم من أحوالها ان قوما من السكنيين أى قدماء الفرانسيس الذين مقرهم فى فرانسا بين نهر السين ونهر غارون عبروا الى أراضى انكلاتيره بقصد توسيع التجارة فلم يجدوا لهم ممانعا واستوطنوا هنالك ثم لحق بهم فرقة من اهل البلجيك وبقوا جميعا على التوحش التام وحكمهم بايدى رؤساء القبائل بل العائلات حتى ان غيرهؤلاء هم كالعبيد بايديهم و بينهم كهان لهم سلطة على الجميع بما يتعلمونه خفية من علم السيمياء والطبيعيات ليوهموا العامة بخرق العادة لهم حتى اعتبروهم كالالهة وكانوا جميعا يعبدون الاصنام حتى انهم يقربون اليها دماء الانسان بالتضحية لها وفى سنة ٥٥ قبل التاريخ المسيحى عبر الى انكلاتيره يولوس قيصر بجيوش الرومان فلم يتمكن منها لمعارضة الاهالى مع هيجان عظيم فى البحر ثم عاد اليها ثانيا واستملك منها بعض الجهات لكنها لم يستقر حالها ايضا وفى سنة ٤٣ بعد التاريخ المسيحى اعاد

الرومان البكرة وافتتحوا الجزيرة وارسلوا رئيس عصبتها الى رومة أسيرا ثم زداد الرومان تمكنا منها بما وقع من التخاذل بين أولئك الكهان الى ان ابادوهم غير انه كانت احدى القبائل مترئسة عليهم امرأة يقال لها بوديكيا فاستنهضت جميع الاهالى وقهرت الرومان وقتلت منهم (سبعين) ألفا ثم اعادوا الكرة وانتقموا من الاهالى حتى قتلوا منهم ثمانين ألفا وزادوا عليهم العذاب المعروف من الرومان ثم عدلوا فيهم وكان اخضاعهم بالعدل أحسن من السيف لكنهم شغبهم أهالى اسكوتسيا الساكنون فى الجبال بغاراتهم المتتابعة فبنوا بينهم سورا ثم آخر أعظم منه طوله ثمانون ميلا وذلك فى حدود سنة ١٢١ مسيحية وفى سنة ٦٨٧ استبد على الرومان احد قوادهم بميل الاهالى اليه وصار ملكا على انكلاتيره ثم عادت الى الرومان بلا حرب لتكاثر الانقسامات الداخلية ودامت ولاية رومانية الى القرن الخامس وفى مدة استيلاء الرومان التى هى أربعة قرون حصلت الاهالى على معارف جمة مما كان عند الرومان حتى كانت ذات مدن وحضارة وصنائع وتجارة لما فى الاهالى من النشاط الى الكد ثم فى سنة ٤٢٠ اضطر الرومانيون الى تسليم انكلاتيره لاهلها ورفع جيوشهم منها لما وقع فى ايطاليا من الحروب الاهلية والخارجية فكان حفظ قاعدتهم أولى لهم من حفظ المستعمر غير ان أهالى انكلاتيره وان حصلوا على حظ من التمدن بسبب التسلط عليهم فقد فقدوا ما يوازى ذلك من الحرية والشجاعة للهوان الذى حملوهم اياه فلم يستطيعوا الاستقلال بانفسهم لمهاجمة أهل الشمال من جبال اسكوتسيا فلذلك استنجدوا قبيلة من الالمان مقرها على مصب نهر الالب من أوروبا الشمالية تسمى السكسونية لما كان بينهم من المودة والمخالطة وطلبوا منهم الاعانة على دفاع الاعداء فأنجدوهم لكنهم استأثروا عليهم بفائدة النصر فجعلوا الاهالى كالعبيد لهم وتملكوا عليهم وعندما أرادوا دفاعهم شتتوهم واستقلوا هم بالبلاد ورحلت فرقة من أهالى انكلاتيره فارة بحياتها الى أراضى فرانسا وسمى المكان الذى استعمروه منها باسم برنيطانيا نسبة اليهم حيث كانوا من أهالى برنيطانيا وكان مبدأ استملاك السكسونية من سنة ٤٤٢ ميلادية ثم قسموا انكلاتيرة الى سبع ولايات تسمى باسماء أعيانهم ولكل منها أمير ويرجع الجميع الى ملك وهو احدهم ونشأ عن ذلك منازعات فى هاتيك السيادة دامت بسببها الحروب الداخلية وعندما فاز بها ملك ولاية كانت احد السبع المذكورة دخلت فى الاهالى الديانة النصرانية وذلك سنة ٥٩٦ وامتدت الحروب فيهم الى أن جمعتهم وفى سنة ٨٢٧ زال استقلال سائر الولايات بدخولها

جميعا

جميعا تحت عائلات واسبكس وهو اغبرت وهو أول مستقل حقيقة بالجميع وأول ملك لانكلاتيره جميعا من العائلة السكسونية وتوارثت الولاية أولاده وفى مدتهم هجم عليهم أهالى الدانيمرك وتملكوا أولا عدة جهات ثم عمت ولايتهم لكنها لم تطل واسترجع منهم الفريد الملك الاصلى من العائلة السكسونية بعض الجهات ثم عقد معهم صلحا ومعاهدة على الذب والاقدام واشترط عليهم الدخول فى النصرانية ثم التفت الى اصلاح البلاد من جهة التمدن ومن جهة القوات الحربية وأدمل جراحاتها ورقاها الى أوج حسن ومع ذلك كان منكبا على التأليف والترجمة فافاد أمته فوائد جسيمة وفتح لهم بابا من الحرية حتى كان من جملة حكمه التى جرت عندهم مثلا الى الآن قوله يجب ان يكون الانكليز احرارا مثل أفكارهم ولمثل ذلك لقب هذا الملك بالفريد الكبير وكانت وفاته سنة ٩٠٠ ومن مشاهير ملوك هاته العائلة حفيد المذكور اشاستان الذى أتم استخلاص المملكة من بقية الدنيمرك ورقى قواته الحربية الى أن رغب فى موالاته غالب الملوك من أروبا فعقد الصلح مع فرانسا وصاهر باخته ملكها وباخته الاخرى ملك المانيا ومن مشاهيرهم ايضا ادغر المتولى سنة ٩٥٩ فانه أبلغ القوات البحرية الى درجة لم تعهد لهم فى ذلك التاريخ حتى صارت سفنه أربعمائة سفينة وكان يتفقد بنفسه المملكة مرة فى السنة وهو الذى قطع الذئاب منها كامرآ نفا ومنهم أيضا الملك اثريلد الذى كان سبب استيلاء الدنمرك على المملكة بقتله جميع من كان فيها منهم فافتتحوها بحروب ذريعة وتملك منهم على انكلاتيرة ثلاثة ملوك أشهرهم الملك كانوت الذى عمم العدل والراحة حتى استطاع السفر منها لزيارة البابا فى رومية وكتب الى عماله بما تعريبه اعلموا جميعا انى نذرت حياتى لله وأن لا أحكم فى ممالكى الا بالعدل وأن لا أفعل فى كل أمر الا المستقيم فان كان صدر منى وانا فى عنفوان شبيبتى وعدم مبالاتى ما يناقض ذلك فها أنا ذا قد عزمت بحول الله على تعويض ما فرط منى ولذلك أرجو وآمر كل من قلدته شيئا من الامر ويريد خلاص نفسه وبقاء طاعته لى ان لا يظلم أحدا سواء كان فقيرا أو غنيا ولتسووا بين الاشراف وغيرهم فى انالة حقوقهم على مقتضى الشرائع التى يجب حفظها ولا يحولكم عن ذلك الخوف منى ولا تطلبوا رضاء الاشراف ولا الميل الى ملء خزائنى المالية فانى لا أحب مالا جمع بظلم اه وبعد وفاة هذا الملك ثارت الفتن بين أعقابه وأعقاب العائلة السكسونية الى ان استولى منها اثنان فى ارتباكات متوالية حتى انقرض الجميع سنة ١٠٦٦ وبينما كانت الاهالى فى نزاع فيمن يملكوه عليهم واذا باحد امراء ولاية نورمندية التابعة

لفرانسا فقد هجم عليهم وقهرهم جميعا واستقر ملكا عاما على انكلاتيره وعلى نورمنديه مع انه حصلت له حروب فى انكلاتيره حملته على الانتقام بالقتل لاهلها وافساد الزرع حتى نشأت عنه مجاعة مات فيها نحو مائة ألف نفس ثم ثار عليه ابنه الذى خلفه فى نورمنديه وحاربه وانتصر عليه وبعد موته خلفه ذلك الابن فى كل من المملكتين مع حروب دائمة فيه وفى خلفه حتى استولى هنرى الاول من احفاده وحاربته فرانسا فى مدة لويس السادس عشر لاستخلاص ولاية النورمنديه وغلبها ونازع البابا فى حق اعطائه وظائف الديانة واستقل هو بها مثل سائر الوظائف ثم تعاقبت الثورات والحروب تارة داخلية وتارة مع الولاية النورماندية فى استخلاص نفسها ونزاع فى التملك الى ان ولى هنرى الثانى أول العائلة البلانتاجينية وهو اسم حشيشة كانوا يصنعونها فى قلانسهم فنسبت العائلة اليها وذلك سنة ١١٥٤ فاعمل هذا الملك حزمه فى ازالة تعصبات الجهات وأزال ما فيها من الحصون وخضد شيئا من شوكة الاعيان وأجرى نوعا من التسوية فى الحقوق فهدأت الحروب فى مدته ومن مشاهير فروعه فى الملك ريكادوس الملقب بقلب الاسد المتولى سنة ١١٨٩ وهو الذى اشترك فى حرب الصليب ثم أسر عند النمسا وفداه أهله وقتل وهو محاصر لاحدى القلاع فى فرانسا وولى أخوه يوحنا الموسوم باختلال العقل حتى خسره مستملكات الانكليز فى فرانسا وقتل ابن أخيه فثارت عليه الاعيان وألزموه بما يأتى خبره وانتقلت حالة المملكة الى طور آخر

(مطلب فى تاريخ انكلاتيره الجديد) اعلم ان مبدأ ظهور الحرية فى جميع أروبا على الاصول المعروفة هى انكلاتيره ولذلك كانت هى أسبق ممالك أروبا الى ذلك وحصل فيها هذا الامر على نحو ما سيأتى ولهذا اعتبرنا ذلك فهو تاريخ جديد الى انكلاتيره لانها استمرت على أصوله وزادتها ارتقاء الى الآن وان اعترت فى الاثناء توقفات ومعارضات تارة تخضد شوكة القانون وتارة تزيلها لكن على كل حال قد نشبت أصوله وأدركتها العقلاء ومرت منهم الى غيرهم الهوينا شأن الاصلاح فى كل شئ (وحاصل هذا البناء) ان الملك يوحنا وبلفتهم جان سانتيرلما تصرف تصرفات أضرت بالمملكة والدولة تعصب أعيان المملكة وفرضوا قانونا سموه بالشرط الكبير وألزموا الملك بقبوله وامضائه والعمل به وذلك فى سنة ١٢١٥ فلم يسعه الا العمل بذلك وملخص هذا الشرط الكبير هو ان الملك التزم فى حق نفسه وحق من يأتى بعده بمنح الحرية الى جميع الانكليز وان فرض الضرائب على الامة لا يكون الا برضاء مجلس مركب من الاساقفة ورؤسائهم

واهل

وأهل الخطط الديذية والاعيان من الامة أصحاب القاب البارون والكنت والموظفين في الدولة وان ذلك يجرى أيضا فيما اذا اقتضى الحال جعل اعانة مالية على مدينة لندره مع بقاء حريتها القديمة وان مجالس الحكم العام لا يلزم اتنقاله الى حيث ينتقل الملك وان المكترين للاراضى لا يلزمهم العقاب المالى لاجل هفواتهم وانما يكون العقاب على الجناية ولا يؤخذ لاجلها الا ما يزيد على القدر الضرورى للجانى وهكذا الباعة والسوقة لا تمس رؤس أموالهم ولا تعطل حركاتهم التجارية ولو لجناية وكذلك الفلاحون الذين تحت تسلط الملك أو أصحاب الاملاك لا توضع عليهم ضرائب العقاب عند الذنب الا بقدر الطاقة بحيث لا تتعطل أشغالهم وان جنايتهم الملزمة لذلك لا تثبت الا بشهادة اثنى عشر نفسا ممن يرضون للشهادة مع اليمين وان يبطل عمل التسخير بأخذ حيوانات الاهالى وعجلاتهم لحمل اثقال الملك وان يتحد عيار الكيل والوزن والقيس فى سائر المملكة على عيار لندره وان لا يمس حق لانسان مطلقا فى كل ما يرجع لذاته وماله وعرضه ولو من الملك الا بمقتضى القانون وحكم المجالس به وأن لا يمنع أحد من السفر الى أى مكان اراده برا و بحرا ولا يمنع من الرجوع متى اراد مع التزام الطاعة على مقتضى القانون (الخ) فمن تأمل ما لخصناه من ذلك الشرط يعلم ما كانت عليه الحالة سابقا مما يناقض الشروط المشار اليها ثم خلف ذلك الملك ابنه هنرى الثالث ودام فى الملك خمسا وخمسين سنة مع كونه غير جدير بالتصرفات وانما عضد ابقاء العمل بذلك الشرط وزاد تأكيدا بالقانون المسمى بتقرير اكسفورد نسبة الى البلد المنعقد بها وملخصه ان مجلس البارلمان أى مجتمع البارونات هو الذى يعين أعيان الموظفين والحكام الذين يتبدلون فى كل سنة ويحرس قصور الملك ويجتمع ثلاث مرار فى السنة ويبقى فى بقية السنة لجنة منه مركبة من اثنى عشر عضوا يتفاوضون دائما مع مجلس الملك ويؤلفون فى كل مقاطعة أربعة أعضاء لقبول الشكاية من الاعيان والموظفين ويعرضونها على البارلمان عند أول اجتماع (الخ)

ثم ولى ادورد الاول الملقب بذى الساقين سنة ١٢٧٢ ودخلت فى مدته ايالة والس تحت انكلاتيره وولد ابنه بها ولهذا صار لقب ولى العهد برنس والس وبرنس دى غال نسبة الى الى المكان المولود به من الاسمين المذكورين ثم ولى ابنه ادوارد الثانى سنة ١٣٠٧ بعد حروب طويلة فى مدة الملكين أفضت بالثانى الى الموت فى السجن واستولى بعده ابنه ادوارد الثالث سنة ١٣٢٧ وهو ابن اثنتى عشرة سنة وهو المبتدى لحروب المائة سنة مع فرانسا بدعوى استحقاقه تاجها لانه من ذرية البنات الاقرب من فليب غالوا ملكها

واستولى على كالى وبردو وبايون مع مستتبعاتها من فرانسا بعد حروب هائلة وفى مدته ظهر مذهب البرتيستانت الذى انتشأ فى انكلاتيره من رجل فاسق متدين بالنصرانية ولازال يتقوى فيهم ذلك المذهب والحروب مستمرة تارة للديانة وتارة لجور الملوك الى أن استولى الملك هنرى الرابع سنة ١٤٠٠ وهو أول العائلة المسماة لانكستر نسبة الى دوك ولاية تسمى بذلك الاسم ودامت الحرب فى أيامه الى أن خلفه ابنه هنرى الخامس سنة ١٤١٣ الذى جمع تاج انكلاتيره وفرانسا فافتتاحه للمانيه وعند موته تتوج ابنه فى حضن مرضعته بمدينة باريس بالتاجين معا لانه ابن تسعة أشهر ولقب بهنرى السادس غير انه ضعف أمره بانقياده لامر زوجته عند شبوبيته فانقسمت انكلاتيره الى قسمين أحدهما تابع لهذا الملك والاخر لأثر من العائلة السابقة واتخذ الاهالى شعارا دالا على التبعية فأتباع الملك شعارهم وردة حمراء والاخرون شعارهم وردة بيضاء ولهذا تسمى حروبهم تلك التى دامت ثلاثين سنة بحروب الوردو خرجت فى مدتهم فرانسا واستقلت وكشفت الحرب عن رجوع الملك الى العائلة السابقة بكاندو فظائع من الملك ادوردالرابع الذى تسبب فى ذلك ولم يطل الملك فى عقبه عند وفاته سنة ١٤٨٣ وغايته انتزاعه من ابنه الصغير الذى تحت وصاية عمه فاغتنم العم الامر الى نفسه بقتل الموصى عليه وأخيه معا واستمد هو سنة ١٤٨٥ متلقبا بهنرى السابع وأشهر ما أثره تأسيس ادخال أواسط القوم فى ادارة المملكة بان ينتخب الاهالى منهم نوابا فى مجلس للمفاوضة فى مصالحهم وأن لاتشهر حرب الابعد تعذر اطفائها ولو بتوسط أجنبي وسلم لفرانسا فيما بقى لانكلاتيره بها من ايالة برتيه انيابعوض قدره أربعمائة ألف ليره واغتنم من الاموال خزائن عظيمة حتى قيل انه خلف فى خزائنه الخاصة عشرة ملايين ليره وارتقى الى مالكه بعده ابنه هنرى الثامن سنة ١٥٠٩ وكان شديد البطش لكنه نفع المملكة بالاصلاحات التى أجراها وهو أول متمذهب بالمذهب البرتيستانت وتعصب له حتى أحرق وقتل كل من لا يقبله وفى مدته دخلت ارلانده تحت انكلاتيره وصارت مملكة واحدة وعلى عكسه ابنته المتولية بعد أخيها وهى مريم حتى لقبت بالدموية لقتلها أهل ذلك المذهب بل حرقتهم أيضا وخضدت شوكة القوانين ومجلس البارلمان بعزلها من عارضها وتوليه من يوافقها وخسرت مدينة كالى من فرانسا لحاربتها اياها انتصارا لزوجها ملك اسبانيا ثم لما خلفتها أختها سنة ١٥٥٨ رفعت الاضطهاد الدينى وزاد مذهب البرتيستانت انتشارا ونال الاهالى من الحرية فى سائر أطوارهم وحصلوا على

درجات من التقدم بالصنائع والمعارف ممن هاجر اليهم من المانيا وفرانسا وغيرهما من أهالى المذهب البروتستانت لما وجدوا هناك حريتهم من القتل لهم فى أوطانهم وفى مدتها عرف الشاى عندهم وعرفت الساعات وفى سنة ١٦٠٠ تشكلت جمعية الهند التى تقدم بيان أعمالها فى المقدمة وحيث لم يكن لها وارث عهدت الى أحد قرابتها وهو ملك اسكوتسيا الملقب جمس استوارد وبه اتحدت المملكتان وهو أول عائلة استوارد استولى سنة ١٦٠٣ وكانت أيامه على نوع من التقدم لانقطاعه من الحروب وكاد فى مدته أن يحرق مجلس البارلمان بمن فيه بدسائس الباباوات فوضع تحته لغم لكنهم تفطنوا له وولى بعده سنة ١٦٢٥ ابنه كارلوس الاول وتفاقم الخلاف بينه وبين الامة فى حدود سلطنته اذ أراد أن يبقى مجلس الندوة المسمى بالبارلمان صوريا وهو يتصرف كيف يشاء ويحمل المسئولية على المجلس لاخضاع الامة وتبرئة نفسه فلما عارضه المجلس عزل أعضاءه وانتخب آخرين لكنه كان كلما انتخب اناسا كانوا على نمط سلفهم فى معارضته حتى تفاقم الخلاف واشتهرت الحرب بين الامة والملك وكان من حزبه أغلب الاعيان وكبراء البيوتات لما لهم من الحظ من اطلاق الملك لانه كلما أطلقت يده انطلقت أيديهم أيضا فالحظ يقتسمونه بل يكون لهم منه القسط الاوفر حيث ان كلا منهم يجتهد فى خصوص مرضات الملك وحواشيه بشئ من التملق والتعظيم الباطل الذى يسخر منه العاقل ويضيف الى ذلك جزءا من الاموال التى ينتهبها رشاء لاولئك الافراد ثم يطلق عنان شهواته فى ملايين من الناس على حسب ارادته يستعوض منهم كلما دفعه من المال والاعمال بل وربما أنفذ أغراضه فى أقرانه لما وقع بينهم من التحاسد والتشاحن فما هو الان يرضى تلك الشرذمة وينتقم من ضده بالقتل على أوجه لا تحصى منها الجهرى بدعاوى من الزور وحكم مجالس صورية تلقن ما تقول من الملك ومنها السرى بالتسميم وغيره من أنواع الغدر أو يحصل التنكيل بدون القتل كالتغريب والسجن مع أخذ المال كل ذلك باحتيالات صورية على ظاهر الاعين ليقال انهم لم ينقضوا القوانين حتى لا تثور العامة وأما متولى كبر حزب الامة فهو البعض من الاعيان والكبراء وجمهور الاوساط والرعاع فاما الباعث لهذا الجمهور على ذلك فهو واضح لانهم هم موضوع الاغتيال الواقع فيه المنافسة وقد كانوا علموا من السابق ما كانت عليه حالتهم ثم ما آلت اليه بعد تأسيس القوانين والاحتساب عليها وأما الباعث لبعض الاعيان والكبراء فربما أشكل مع ما قررناه فى حق أغلبهم لكنه فى الواقع بين وهو ان هذا القسم

عاقل ينظر في العواقب ولا يستغني بالعاجل عن الآجل فعلم ان الزخرفات التي تحصل بالتسلط لا تدوم لانها مآلها الى انقراض الامة وضعفها فتهجم عليها أمة أخرى قويه وتصير أولئك الاعيان كالسوقة (كما قال تعالى) وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وربما عاضد السوقه وهم الجمهور ذلك الهاجم للاستراحة مما هم فيه وأيضا فان تلك الزخرفة التي يحصلونها أي الاعيان بتسلطهم مع قلة مدتها هي في نفس الامر غير هنية لعدم الامن معها وعدم الاطمئنان عليها لما أشرنا اليه من كونها موقوفة على رضا شخص تتلاعب به أهواء حاشيته والمقربين اليه لمجرد أغراض شهوانية وبعضها معها عرضة للاضحية متى ما اراد الملك فلا يأمن المقرب من طبيعة الملك المفسدة للاخلاق فربما غضب عنه مقربه اليوم لشيء كان يرضى به عنه بالامس وأيضا لا يأمن دبيب سعايات أقرانه وحساده الغافلين عن كونها تجرى عليهم مثلما جرت على صاحبهم كما قيل (من حلقت لحية جاره فليسكب الماء على لحيته) ولهذا انضم القسم حتى عقلاء حاشية الملك والبعض من رجال الدولة اذ تيقنوا انه لا خير لهم في نعيم لا أمن معه لا على الدم ولا العرض ولا المال ولا الحريم ولا الذرية فاي نعيم يحصل لهم وهم على شفا جرف هار وكان مقدام هذا الحزب رجلا من أعيان المبتوتات اسمه اوليفر كرومويل ذا بسطة في المال والعقل والشجاعة وجرت حروب هائلة كشفت عن خلع الملك وحبسه ثم قتله بحكم مجلس على انه خائن للامة واستولى اوليفر رياسة الدولة بعد ان تلقب بجنرال وكان يوم دخوله بالعسكر منتصرا الى لندره تلقاه الجم الغفير بالهناء والترحيب فقيل له ألم تر هذا الاحتفال من العامة بك أيها الحامي عن انكلاتيره وجعل ذلك لقبه فقال ان هؤلاء الرعاع لا يلتفت لا الى تعظيمهم ولا الى تحقيرهم فهم تبع للغالب اذ لو كان هذا اليوم أخرجت فيه الى القتل لكانوا خرجوا الى التفرج على مثلما خرجوا الى لقائي الآن وبه يعلم ان تلك الحالة جارية في سائر الامم على السواء اذ هاته أمة الانقليز التي قيل في المثل فيها يجب ان تكون حرة مثل أفكارها اقد قال فيها زعيمها المذكور ما سمعت وبقيت الدولة الانقليزية جمهورية بضع سنين الى وفاة الجنرال المذكور واستيلاء ابنه من بعده واستعفائه في مدة قليلة فأرجعوا ابن الملك السابق سنة ١٦٦٠ ولقبوه بكارلوس الثاني وسار على نحو ما كان يريد أبوه وخرق سياج القانون باستبداده على البارلمان متسترا باقامة نخبة من أكابر الاعيان لتدبير الامور وانفاذها بدون مراجعة الندوه وحارب هلانده وأخذ منها مدينة نيورك من أمريكا ثم عقد معها ومع السويد محالفة على

فرانسا

فرانسا ثم اتحد مع فرانسا على هلاند. ثم خضع للندوة وبقى مضطربا الى ان مات وخلفه اخوه جمس سنة ١٦٨٥ فزاد الامراتبا كا من ايثاره للمذهب الكاثوليكى الى ان خلع ونودى باحد امراء هولانده لتزوجه بابنة ملك انكلاتيره الاسبق ولقب بويليم الثالث سنة ١٦٨٩ فاحيا اجراء القوانين واتبع اشارة الندوة وارتاح فى نفسه حتى لقب بالصياد لاشتغاله براحته وحبه الانفراد بما هنت به السياسة وذاته والمملكة وزادت الندوة أحكاما فى شروط القوانين منها ان لا يتولى الملك الا من كان على مذهب البروتستانت واحتاجت الدولة الى اموال لاصلاح داخليتها فى ايامه فاستقرضت من الاهالى وهو اول دين على الدولة وتشكل لاجله بنك انكلاتيره اى محل اجتماع الاموال من اناس كثيرين لاجل الشركة فى التجارة بذلك المال او لاجل ان يقرض المال على شروط وذلك البنك هو المعروف الى الآن وذلك سنة ١٦٩٤ وهو دليل على اجراء القوانين بعدم غصب الاموال من الرعية وترقت المملكة فى أيامه بالصنائع والمعارف بزيادة من هاجر اليها من فرانسا لمثل ما وقع سابقا من الاضطهاد المذهبى ثم خلفه الملكة بوحنا سنة ١٧٠٢ وفى مدتها استولت انكلاتيره على جبل طارق من اسبانيا واشتدت الحرب مع فرانسا وكان معاضد الفرانسا بافيرة واسبانيا ولانكلاتيره النمسا وهولانده ثم انقرضت العائلة بموت تلك الملكة اذ لم يكن فيها من تتوفر فيه الشروط فنادى الاهالى باحد قرابة العائلة وهو امير من الهانوفر من المانيا ولقبوه جورج الاول سنة ١٧١٤ وهو أصل العائلة الموجودة الآن واستقرامره بعد حروب مع فرانسا لارادتها تمليك ابن من العائلة السابقة كاثوليكيا وبعد استقرار جورج المذكور لم يسكن فى انكلاتيره والغى الازم بلاده والتصرف بيد الوزراء والندوة ثم خلفه ابنه جورج الثانى سنة ١٧٢٧ ونشأت فى مدته عدة حروب منها الداخلية لاجل الملك من بقايا العائلة السابقة ولم ينجحوا (ومنها) الخارجية واعظمها مع فرانسا حيث كانت الحرب قائمة بين ابروسيا والروسيا والنمسا لاجل الاستيلاء على بولونيا وكانت فرانسا ضد البروسيا معاضدة لخصمها فحالفت انكلاتيره بروسيا لاجل زيادة اشغال فرانسا فاحتاجت فرانسا لجلب قوتها من مستعمراتها باماريكا لتقوية نفسها فى اروبا وعند ذلك هجمت انكلاتيره على مال فرانسا من امريكا وضمته الى تملكاتها حتى صارلها اذ ذاك جميع مالها الآن فى اماريكا مع جميع الممالك المتحدة الآن وذلك بعد حروب هائلة ثم خلفه ابنه جورج الثالث سنة ١٧٦٠ واستقلت فى مدته أمريكا أعنى الدول المتحدة وذلك لان دولة الانكليز لما امتدت املاكهم هناك

وتكاثرت فيها الخلق المهاجرون الراغبة في الغنى لما فيها من الخصب واتساع الاراضي الجديدة قسمت الدولة تلك المملكة الى ولايات وجعلت عليهم ولاة انكليز بينهم احق بانهم مستبدين في التصرف فتحش ظلمهم للاهالي فاشتكوا منهم الى الدولة وبينوا لها اعمالهم فعزلتهم واولت ولاة من الاهالي بانتخابهم غير ان الانتخاب لم يكن حقيقيا بالرضى ولذلك اقتفى هؤلاء الولاة أثر اسلافهم فتمكن الحقد على الدولة ثم انها زادت عليهم الضرائب لما رأت من غناهم فنفروا منها حتى منعوا بالجبر مع اظهار الاسترحام ان تجرى فيهم ضريبة الورق المختوم في صكوك الحجج فساعدتهم الدولة لكنها حاجتهم غيرها فعقدوا جمعية سرية واعلنوا الحرب بالاستقلال تحت راية الجمهورية سنة ١٧٧٦ واعانتهم فرانسا واسبانيا وهولانده لما لهم على انكلاتيره من الضغائن الحربية ودامت الحرب الى سنة ١٧٨٣ التي عقد فيها الصلح بباريس على ان ترجع انكلاتيرة الى فرانسا اراضي سانيغال بافريقيا وترجع الى اسبانيا اقليم فلوريدا في امريكا وعلى ان تستقل الممالك المتحدة بامريكا الشمالية وتكاثرت الحروب في مدة جورج الثالث المذكور مع فرانسا وغيرها سيما مع نابليون الاول واشتهرت اذذاك انكلاتيره بالقوة البحرية والمهارة في حروبها البحرية لما اظهره الاميرال نيلسون من البراعة والشجاعة في مواقعه المتجاوزة على المائة ونيف واقعة واشهرها هجومه على حصون كونهاك قاعدة الدانيمرك مع ان القسم الكبير من الاسطول لم يدخل معه الى المضائق وانفرد هو بمن تحت امرته من الاسطول وعند ما رآه الاميرال الكبير قد فقد اربع من سفنه أشار اليه بالرجوع وكان هو أعور فلما أخبر بالاشارة جعل النظارة على عينه العوراء وقال اني لم ارشيئا مما تقولون وزاد في الهجوم الى ان غلب عدوه وأجرى شروطا مثلما اراد ومع هذا الانتصار حكم عليه المجلس الحربي بالعقاب لمخالفته الامر وقدمات ذلك الاميرال في حرب سنة ١٨٠٥ ضد فرانسا واسبانيا وكانت سفنهما اربعين وسفنه سبعا وعشرين فاقتربت من سفينة سفينة فرانساوية وراقبوا شخصه الى ان اصابوه برصاصة نحر منها للنزع وكان ينتظر البشارة بالانتصار ويدعو نائبه قبل الموت فدخل عليه الابعد قريب من ساعة مبشرا بالنصر فقال كم غنمنا من السفن قال أظن اربع عشرة او خمس عشرة لاني لم اتمالك عن القدوم اليك عند ثبوت النصر قبل عدها فقال لكني كنت أشترط على نفسي ان تكون عشرين ثم قضى نحبه وقد دام الملك جورج الثالث في الملك ستين سنة لكن كان في اغلبها لا يتصرف في شئ بل لا يدرك شيئا من مصالح الملك لاختلال في

عقله ولذلك جعل له ابنه ولى عهده نائبا عنه فى حدود سنة ١٨٠٤ ثم توفى ذلك الملك سنة ١٨٢٠ ومع ما حصل فى مدته من خروج الممالك والحروب فان انكلاتيره تقدمت فيها خطوة وسيعة فى التمدن والاعتبار والقوة حتى وصلت الى الذروة القصوى فانها احدثت فى ظرف أربعين سنة مائة وخمسا وستين ترعة وتكاثرت فيها معامل القطن والصوف الفائقة حتى راجت سلعتها على سائر ما فى غيرها لرخصها واتقانها واكتشفت واستملكت اوستراليا وغيرها وتقدمت فيها المعارف والتآليف الى نحو ما هى عليه الآن واستفادت حكما سياسية علمتها كيف تدير مستعمراتها الواسعة فى سائر أقطار العالم وحصلت على فخر النصر على نابليون وغيره واستتبت الادارة القانونية بغير نزاع ولا دسائس ولذلك صار يضرب المثل عندهم بان حرية الانكليز اعتنوا بها فى مدة ملكهم المجنون وخلفه ابنه جورج الرابع وفى أيامه وقع الغدر فى أسطول الدولة العثمانية من اسطول انكلاتيره المترئس على أساطيل الدول فى تظاهرهم على طلب تسليم الدولة العثمانية لليونان بالاستقلال فى غير اعلان بالحرب لما تخللت الاساطيل ما بين أسطولها المركب من سفنها وسفن مصر وطرابلس وتونس والجزائر وهم على اطمئنان السلم والامن وأطلقت عليهم النيران دفعة واحدة بحيث لم يبق منهم باقية غدرا وشناعة لا تنمحى ومعرة لا تزال على خصوص الانكليز لانهم هم الذين بيدهم أمرة جميع الاساطيل الدولية وعندما سمعت الندوة الانكليزية بفظاعة الواقعة هاجوا وماجوا وطلبوا محاكمة رئيس الاساطيل وحكم عليه مجلس حربى بالقتل مع دفاع وزير البحر عنه بكل ما أمكن من الاعتذار وتلفيق دعوى بان احدى السفن العثمانية أطلقت النار عليهم ولم يجد كل ذلك شيئا وعندما تحقق الرئيس الحكم عليه بالقتل أسر الى وزير البحر بان التذكرة التى بخطه فى الامر باحراق الاسطول العثمانى قد نسى أن يحرقها معه مثل ما أمر (وحينئذ) تحول المجلس الى جلسة سرية ثم أطلق الرئيس وسيأتى فى الكلام على الدولة العثمانية الباعث على ذلك التحامل على المسلمين ومآله الديانة وان سياسة الدول الكبيرة فى الخارج ليست كسياستهم فى الداخلية ثم ورث الملك وليم الرابع سنة ١٨٣٠ وزاد القانون فى أيامه تحديدا ونفوذا وأول سكة حديدية أنشئت فى أول سنة من ولايته وألزمت الدولة عتق العبيد فى الهند وعوضت أصحابهم بأثمانهم وكانت نحو عشرين مليونا ليره واحتسبت انكلاتيره على عتق العبيد فى سائر الاقطار ترغيبا وترهيبا لاهلها ولا زالت على ذلك الى الآن ثم

ورثته الملكة فيكتوريا سنة ١٨٣٧ وهي الملكة الحالية وأعانت الدولة العثمانية على اخضاع مصر واسترجاع الشام منها وعلى حرب القريم فحاربت الروسيا وآلت الحرب الى معاهدة باريس وحاربت الصين بالاتحاد مع فرانسا وأخضعت الهند من الثورة الهائلة بمعاضدة افغانستان وخرج الهند من وقتئذ من تحت الشركة التجارية الى الحكومة السياسية كما مر في المقدمة وتلقبت بامبراطورة الهند ثم استولت على الافغانستان ثم جعلتها مستقلة تحت نظارتها بعد أخذ أجزاء منها وحاربت الزلوس من بلاد الكفر بافريقيا ثم صارت تلك المملكة تحت نظارتها وتداخلت في حرب الروسيا مع الدولة العثمانية عند عقد الصلح الى أن أفضى الى معاهدة برلين مع زيادة التقدم والغنى في داخلية المملكة الانكليزية

* (مطلب في السياسة الداخلية بانكلاتيره) (اعلم) أن السياسة المستقرة الآن كان استتبابها سنة ١٨٣٢ وأما أصولها فقديمة حسبما أشرنا اليه في التاريخ وهاته السياسة مبنية على اعتبار تسلط الملك ونفوذ الاعيان واحتساب الاواسط من الناس فكل من السلطات الثلاثة مرتبطة ببعضها ويتنتج منها ادارة المملكة بما يرضي الجميع ولا يتجاوز كل منهم حدوده بما يضر بغيره ولهذا كانت قوانين الانكليز على نوع مغاير لبقية ادارات الاروباويين من حيث الاشتراك في السلطة وعدم التساوي بين طبقات الرعية في الاعتبار ونيل الرتب مع انالة الرعية غاية الحرية والامن وتفصيل هاته الادارة ومحل ارتباطها وانفرادها وقد تكفل به كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك لخير الدين باشا التونسي بما يفيد تجاذب أطوارهم واصطلاحهم فليرجع اليه من أراد البيان

* وانما نقتصر هنا على الالمام بكليات الادارة (فنقول أما القسم الاول) من ذوي السلطة فهو الملك وله حدود مضبوطة بقوانين من أهمها ان الملك وارثي في ذرية الملك الذي هو من عائلة الهانوفر من البكر الى بكره والانثى تستحق ذلك على شرط أن لا يوجد لها أخ ذكر والا فهو أحق بالتقديم وان كان أصغر منها (ومنها) التزام مذهب البروتستانت (ومنها) اذا اقتضى هذا التوارث ان حاز التاج الانكليزي من له ملك أو أرض بمملكة أخرى فان الامة لا يلزمها الدفاع عن ذلك مثل ما يلزمها مما يرجع الى انكلاتيره مالم ترض بذلك الندوة (ومنها) ان رياسة الديانة للملك بحيث يوظف مناصبها مثل ما يوظف المناصب السياسية (ومنها رياسة سائر القوات والصلح والحرب الى غير ذلك مما مر في ملك ايطاليا (ومنها) تلقبه بملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند حتى يقول في

طالعة مكاتيبه الرسمية ماصورته فلان بنعمة الله ملك المملكة المتحدة من بريطانيا العظمى وارلانده وامبراطور الهند محاميا عن العقيدة الخ والتلقيب بامبراطور الهند حدث سنة ۲۹۲ ا باتفاق المجالس وقوله محاميا عن العقيدة اشارة الى رياسته الدينية (ومنها) ان اجراء كل حق للملك فى التصرف انما يكون بواسطة رؤساء متوظفيه وهم رؤساء الاساقفة والوزراء (وأما القسم الثانى) وهو سلطة الاعيان فهؤلاء الاعيان هم الملقبون باللوردات وبالقرناء وسيأتى فى مبحث العوائد خصوصياتهم وامتيازاتهم والذى يتعلق بهم هنا انه يتركب منهم مجلس اللوردات المشتمل (على) رؤساء الديانة (وعلى) عائلة الملك (وعلى) سائر لوردات انكلاتيرة (وعلى) سبعة عشر لوردا من لوردات اسكوتسيا (وعلى) أربعة لوردات من لوردات ارلانده ولوردات المملكتين الاخيرتين ينتخبان من أمثالهم فى أقاليمهم لذلك المجلس لمدة حياتهم ويناط بهذا المجلس سائر الاحتساب على التصرفات وانشاء القوانين وتغيير العادات والحكم فى المتوظفين بحيث لا يصدر عن الدولة شئ الا برضائه وليس لاعضاء هذا المجلس مرتب وعددهم غير محصور وربما قد يبلغون زهاء خمسمائة ولاعضائه اعطاء الرأى فيه بالمباشرة أو بارساله مع أحد أمثالهم كتابة والوزراء ينتخبون من هذا المجلس ومن مجلس النواب والملك انما ينتخب رئيسهم فقط وهو ينتخب بقية الوزراء كما فى بقية أوروباء وعدد الوزراء تسعة الرئيس وهو وزير المال فى الاغلب ووزير الخارجية ووزير الداخلية ووزير الهند ووزير المستعمرات ووزير رياسة المجلس الخاص ووزير الحرب ولورد قاضى القضاة وهو رئيس مجلس اللوردات وموظف الحكام القانونية ولورد المحاسبات وهؤلاء الوزراء هم المباشرون لسائر أعمال الدولة بعد اذن الملك وليس له مخالفتهم الا اذا وافقته أغلبية الندوة فحينئذ يستبدلهم بغيرهم وهؤلاء الوزراء يضم اليهم الملك أعضاء من بقية اللوردات فيتشكل منهم مجلس الملك الخاص ورؤساء ادارات الوزارات ولا يزيد مرتب الوزير عن مائتين وخمسين ألف فرنك فى السنة (ومنهم) من له خمس ذلك فقط ووظيفة هذا المجلس الخاص التدبير فى اجراآت الاعمال كما ان من حقوق الاعيان ان يكونوا هم حكام الولايات كل ولاية حاكمها من لورداتها وليس للملك عزل أحد منهم من مرتبته اللردوية (ومنهم) أيضا أعضاء المجالس العليا فى الولايات التى لها التصرف الكلى

(وأما القسم الثالث وهو سلطة الاواسط) فهى بانتخاب الاهالى منهم نوابا عنهم

لمجلس النواب للاحتساب على تصرفات الدولة وحماية حقوق السكان وما يستقر عليه رأيهم يجرى اذا وافقهم مجلس اللوردات كما انه يسوغ للملك أن ينتخب من هذا المجلس رئيس الوزراء ولهذا انتخاب بعض الوزراء من بقية أعضاء هذا المجلس ومدة انتخابهم لاعضاء المجلس سبع سنين وشرط العضو أن يكون وجيها غير محكوم عليه بما يشين العرض ذا دخل من أملاك فى المملكة غير منقولة يبلغ مائتين وخمسين فرنكا أوصاحب معارف له اجازة فيها من المدارس العلمية ولهذا اختص هذا الاحتساب بأواسط الناس ولم يكن للأسافل فيه حظ وعدد أعضاء هذا المجلس بحساب واحد على العشرين ألف نسمة من السكان فكان عددهم يتردد فى زهاء سبعمائة ومجموع هذا المجلس مع مجلس الاعيان هو المسمى بالقمرة أى الندوة وعليها مدار سائر الاعمال فى الداخلية والخارجية ومن أصولها أن ميزان المال ليس بجمود على حالة واحدة دائما بمعنى أنه اذا كان الدخل الموضوع يوفى بمصاريفها للسنة ويفضل منه يبقى الفاضل فى الخزنة أو يشترى به من ديون الدولة واذا كان لا يوفى يزاد فى الضرائب الى أن يقع التسديد كما هو جار فى الدول الاخرى بل ان قاعدة الانكليز هى جعل الميزان فى كل عام بحسبه فينظر الى مقدار اللازم من المصاريف وعلى مقتضاه يجعل الدخل بحيث لا يكون للدولة فاضل ومن الاصول أيضا اعطاء الحرية لكل فرد وجماعة فى مملكتهم بان يتكلموا فى السياسة العامة والخاصة وتصرفات المتوظفين مطلقا واعلان آرائهم بالقدح أو بالمدح فى الصحف وفى مجامع الناس ولهم الاستدعاء الى الاجتماع ولو اجتمع ملايين من الخلق من غير ان يتعرض لهم أحد بشئ ومن الاصول أيضا التى استقرت الآن أنه انتشأ فى الامة حزبان (أحدهما) يسمى حزب المحافظين يعنى أنه يريد التحفظ على القوانين الموجودة والجرى عليها فى الداخلية والمساعدة على كل ما ساعدها فى الخارجية وأن لا يتغير شئ الا ما تدعو اليه الضرورة (والحزب الثانى) يسمى بحزب الحرية يعنى أنه يريد زيادة اطلاق الحرية فى الداخلية وفى كل الممالك ويساعد على قطع عوائق الحرية فى أى جهة كانت بما يقتضيه حال الانكليز والكل من الحزبين زعماء مشهورون بما يقولون ويكتبون للاشتهار وتشتمل عليهم الندوة ومهما مالت أكثريتها الافكار أحد الحزبين وجب أن تكون الوزارة مركبة من أعضاء ذلك الحزب فلا تزال تتداول الدولة بينهم ومن لازمها أنه كلما تغيرت الوزارة يتغير معها سائر المأمورين الذين عليهم مدار الاعمال ولو من ملازمى ذات الملك فان كاتب

سره وحواشيه الذين يخدمونه فيما يتعلق بتصرفات الدولة يلزم تبدلهم أيضا مع الوزارة خشية من افشاء أسرارها لضدها ومن الوشاية أو التراخي من جهة ما يتعلق بالملك مما يضر بالاجراء ونشأ عن هذا عدم ثبات السياسة الخارجية على طريق واحد أعني في الاجراء لتبدل المنهج بتبدل الوزارة وان كانت كل وزارة تراعي أصل ما أسسته سابقتها لكنها تنحو به منحى لايلائمها فلا يحسن الاعتماد عليه من الخارج ومن الاصول أيضا أن الخدمة العسكرية لايدخل اليها بالغصب أو بالقرعة وانما هي بالاختيار ان رغب فيها ولهذا نجد في عساكر الانكليز في الحرب كثيرا من الاجانب الراغبين في المال الذي يبذل اليهم هذا اذا كانت الحرب خارج المملكة أما اذا هاجم العدو المملكة فيجب على كل الاهالي الدخول في سلك العسكرية على قانون لهم في ذلك حتى ان النساء أراد بعضهن الدخول في ذلك والفن لتعلم وكذلك العساكر اللازمة لحراسة المملكة يدخل اليها بالاختيار وهي عدا الضابطيه التي تلزم أهالي كل جهة ومن أهم أصولها أن لاينتخب اليها الا العفيف المرضي للشهادة حتى يكون كلامه حجة على الجاني وذلك من الاصول العامة في أروباويها تيسر استقرار الراحة لان حراسة الضابطيه ونفوذهم من أهم الوسائط الفعالة فهي أهم ما يعتني بها ومن أصول الانكليز أن لايتولى المراتب السامية في الدولة الامن كان على مذهب الكنيسة البرتستانت فتأمل في هذا مع ما يأتي ان شاء الله في أحوال تداخلهم في بلاد الاسلام بدعوى الحرية ومن عاداتهم قبول جاه العائلة منهم والاعيان في توظيف معارفهم وأقربائهم اذا كان فيه شيء من الاهلية مع اهمال غيره وان كان أحق من المقدم ومنه ذلك رتب العسكرية لاتنال الا للاعيان والعائلة والافراد العسكرية لايستحقون ذلك مهما فعلوا غير انه قد حل منذ سنة ١٢٨٩ هـ ١٧٧١ م ابطال اشتراء الرتب العسكرية من ملازم الى أميرالاى بامر من الملكة حيث أن أصل انشاء ذلك كان بامر من الملك لابقانون واغتاظ لذلك كثير من ندوتهم لكن المصلحة غلبت فصارت الرتب العسكرية مطلقا لاتنال الا بالاستحقاق في المعرفة وبهذا التغيير العسكري يعلم ما للملك من السلطة وان خالفته الندوة بناء على حق قديم له مع موافقة الوزارة اليه

﴿مبحث ادارة الولايات﴾ قد تقدم في صفة برنيطانيا أنها تنقسم الى تسعة وثمانين ولاية فهاته الولايات فيها مدن ذات خصوصية بالامتياز بالشرف حسب عوائد قديمة ومدن كبيرة استحقت بكثرة سكانها ان تسمى عضوا أو اكثر في الندوة ومدن يسكنها مطران

من كبراء بلادهم ومدن وقرى خالية عن الامتيازات المذكورة (فاما) الانواع الثلاثة الاول فان لها ادارة خاصة لا تدخل في عموم الولايات التي هي بها (وأما) النوع الرابع فهو مشمول بادارة عموم الولاية (والحاصل) في ادارة عموم الولاية هو انها راجعة الى الوالي العام على الولاية وهو احد لوردات انها المحصل على عضوية الندوة ينتخبه الملك لذلك وليس له مرتب على هاته الوظيفة وهو ينتخب اثنين من اهل ولايته الاعيان أيضا لاعانته ويونافهم له الوزير الملقب بقاضي القضاة وليس لهما مرتب أيضا ومدار أعمالهم حفظ الراحة ورياسة العساكر المحافظة والنظر في الاعمال العسكرية ولهم أيضا مرجع الاحكام الشخصية والنظر في مصالح الولاية الادارية وحفظ الطرق وانشائها الى غير ذلك من المصالح كما تنفرد البلاد الممتازة من الاصناف الثلاثة المشار اليها سابقا (ومنها) مدينة لندرة بان يكون لها شيخ وهو رئيس المجلس البلدي الذي أعضاؤه من الاهالي المنتخبين منهم والمجلس ينتخب رئيسه من أحد اعضائه كل سنة ولا مرتب له ولهاته المجالس البلدية مرجع جميع المصالح المتعلقة بالبلد ومنها ادارة الضابطية ولا دخل للدولة فيها بشئ وعلى رؤساء هاته المجالس ايضا الاحتساب على كيفية انتخاب أعضاء مجلس النواب فيما تحت نظرهم لكي يكون الانتخاب موافقا للاصول وهو الذي يرأس جمعية الانتخاب ويتصرف في الاحكام الشخصية كتصرف قضاة الصلح الآتي بيانهم ويوم توليه رئيس هذا المجلس المسمى بشيخ البلد يكون في لندرة موكب حافل من أعظم المواكب وله من الاحترام والتوقير كالاحاد الملوك ثم ان متوظفي الديانة في كل الجهات هم مرجع عدد من يزداد أو يموت وهم المكلفون بحفظ الكنائس والمقابر والفقراء والطرقات أيضا واعانة الضابطية عند الحاجة هذا (وأما) الاحكام الشخصية فان لها ادارة مخصوصة رئيسها اللورد قاضي القضاة الذي هو رئيس ندوة اللوردات ثم نائبه ثم اللوردات قضاة المجالس العليا في الجهات الكبرى ثم حكام مجالس الولايات ومجالس الضابطية وكل هؤلاء لهم مرتب وهناك حكام الصلح لكنهم لا مرتب لهم وكذلك حكام الجوري على نحو الممالك التي تقدم ذكرها غير ان الامر الذي انفردت به انكلاتيره هو ان احكامها لا تستند الى قانون خاص فشريعتها أصعب الشرائع لانها تستند الى مجموع أشياء وهي ما يوجد من القوانين في بعض أمور وما يوجد في احكام سابقة صدرت من مجالس الاحكام القديمة وما في احكام الرومان وما يقع عليه اجتهاد أصحاب الاجتهاد وهم

اللوردات

الموردات أهل المجالس العليا وقاضي القضاة وقرناؤه وعلماء الاحكام وهم المسمون بالابوكاتية فلذلك كان علماء الاحكام من أشهر الناس وأوجههم ومن غريب عادات الممالكة انها اذا وجدت نازلة ووجد حكمها في احدى تلك الاصول لكن أصحاب اجتهادهم ظهر لهم ان المصلحة الوقتية تقتضي بخلاف تلك الاحكام لاختلاف الزمان فانهم يجرون اجتهادهم لكنهم لا يجعلون ناسخا للسابق بل يبقى السابق و يبقى المحدث حتى تكون الاصول متناقضة و يبقى لاهل الاختيار عندهم الخيار و بذلك يعلم مقدار النفوذ والسلطة للطبقة العليا من الناس عندهم لانهم هم الذين يكون منهم أهل الاختيار كما يعلم به فساد اعتراض بعضهم على أحكام المسلمين بانها ناشئة باختلاف الاقوال في كتب الفقه مع خيار القاضي في القضاء بها مما يوجب لهم التحرز من الدخول تحتها لانها غير معلومة للمحكوم عليه لان ذلك الاعتراض على فرض تسليمه كما هو فهو عندهم أعظم مما يعترضون به علينا ثم ان الاحكام المذكورة لها مراتب في تحقيقها من مجالس وراء مجالس الحكم باعتبار الخفيف منها والثقيل وما يرجع الى المعاملات وما يرجع الى الجنايات فالخفيف لا يستحق التحقيق الا اذا حصل ظلم فيقع فيه الاحتساب العام وأما الثقيل فينتقل الى مجالس تحققه الى ان ينتهي الى المجلس الاعلى بالتثبت وحيث كانت الحرية مطلقة والاحتساب في رفع الظلم سائغ الى كل احد برفعه الى مجالس الاحتساب ولو كان في حق غيره مع اباحة نشر النوازل والافكار في الصحف الخبرية وفي اعلانات ومطبوعات تنشر متى ما اراد الناشر وفي مجامع عمومية علنية كان التعدي على الحقوق من أصعب الامور عندهم

﴿مبحث ادارة مستعمرات الانكليز﴾ اعلم ان الانكليز انما تيسر لهم اتساع مستعمراتهم في مشارق الارض ومغاربها بشيئين (أحدهما) نفس انتظامهم في داخليتهم المثمر للغنى المثير للقوة الحربية (وثانيهما) حسن الادارة لما يستملكون عليه بالنسبة لغيرهم من الدول سيما بعد خروج امريكا عنهم واستفادتهم من ذلك للاسباب والبواعث الموجبة للنفرة منهم فاستقر امرهم انهم في كل جهة من المستعمرات يجعلون مركز الوجود قوة مركزية لهم ويجعلون فيها نائبا من ثقات اعيانهم مقيد التصرف بالشورى مع اعضاء منهم ومن أهالي المستعمر ويرجع الى هذا النائب الذي هو الحاكم في تلك الجهة الامور الكلية من الادارة السياسية وأما بقية الجزئيات والاحكام والسيرة فانها تفوض للاهالي يجرون على حسب عقائدهم وعاداتهم وأحكامهم وكذلك الاداء المرتب

للحكومة وكيفية استخلاصه وتوزيعه الى غير ذلك من غير تداخل الانكليز معهم في شئ
سوى انهم يشترطون عليهم ابطال المظالم والتعدى على بعضهم وابطال بعض العوائد
القبيحة بالعقل الراجعة الى ظلم الغير كاحراق الاحياء تبعا لمن يموت من قرابتهم أو رؤسائهم
وكتفريق الناس لمثل ذلك أو ذبحهم مما يحصل به الخلاص منه جمهور الاهالى ويبقى
الحاكم الانكليزي بجانبه مراقبا للشكايات ولمنافع الانكليز والاهالى حتى ان اعظم
مستعمراتهم الآن وهو الهند له حكومة مخصوصة كما تقدم في المقدمة وأعظم الوظائف
فيه هو الحاكم العام وهو انكليزي لكن ثاني رتبة منه وهو قاضي القضاة هو مسلم من
العلماء الاعيان وجميع أحكام الهند راجعة اليه ومرتبه سنويا أربعة وعشرون الف ليرة
انكليزية وعلى ذلك المنوال بقية الامور ودخل تلك الحكومة خاص بها لا تأخذ منه
الدولة الانكليزية شيئا ومصاريفها كلها راجعة الى حكومة الهند وربما اذا حدث
حرب بجوار الهند مع حكومته اعانتها الدولة الانكليزية على مصروف الحرب لعود النفع
اليها بواسطة بل ربما تحمل أكثر المصروف عليها كما وقع منذ قريب في حرب الافغانستان
كما ان انكلاتيره تستفيد من عساكر الهند بدخولهم في أمرها عند الحاجة اذا عقدت
حربا مع دولة أخرى وكثيرا ما تبقى الممالك على حالتها بملوكها وامرائها واعمالها عليهم
مجرد المراقبة والحماية وتلزم الملوك باجراء العدل في ممالكهم واجراء الشورى وبذلك
يحصل ميل العموم اليها (فان قيل) اذا كان الامر كما ذكر فاى فائدة للانكليز في هاته
المستعمرات سوى تشويش البال وخسائر الاموال في الحماية او الثورات (فالجواب)
ان فائدتهم عظيمة من وجوه (أولها) وهو لاهم رواج التجارة الانكليزية فان مائتي
مليون من الخلق لا يحولون الا في السلع والبضائع الانكليزية له من الاهمية ما لا يخفى
وبضائع بقية الممالك اما ان تمنع بما يوظف عليها من عظيم القمرق في تلك
المستعمرات أو يدخل منها ما لا وجود له عند الانكليز مما هو حاجي فاما البضائع
الانكليزية فتدخل معفاة من الاداء فلا تبور لهم بضاعة ولا تقفل لهم معامل فما ينتجه
ثلاثون مليونا من الانكليز من الصنائع يكونون مطمئنين على رواجه في مستعمراتهم
كل على قدر احتياجه زيادة عن الممالك الاجنبية وكفى بذلك غنى للامة الانكليزية
وأي فائدة أعظم لها من ذلك ودونك مثالا لهذا فان مستعمر الهند وحده كانت قيمة التجارة
الصادرة والواردة اليه في سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م ثلاثة آلاف وخمسمائة مليون
فرنك يخص الانكليز وحدهم منها الفان اثنان مليونا والباقي مع سائر الممالك وأغلبها

الصين

الصين فهذا مستعمر الهند وحده راجت تجارتهم فيه بذلك المقدار وليقس عليه غيره (وثاني الفوائد) أشغال معلميهم في الفنون والصنائع في تلك المستعمرات الواسعة الكثيرة السكان بما يحدثونه للاهالي على وجه الارشاد والتعليم والتمدين عن طيب نفس منهم من المكاتب والمعامل وطرق الحديد وغير ذلك (وثالث الفوائد) حوز الاراضي الخالية عن المالك والتعمير لها باهالي انكلاتيره الذين ضاقت بهم جزائرهم فصاروا يهاجرون منها الى كل الآفاق التي تتيسر لهم بها المعيشة والعمل فيهاجرون الى مستعمراتهم أولى لهم حتى تنشئ منهم دولة جديدة كما وقع بالفعل في دول امريكا المتحدة اذ غالب أهلها أصلهم انكليز وكذلك ما هو حاصل الآن في استراليا (ومن أعظم فوائدهم) القوة الحربية التي تتصرف فيها انكلاتيره من عساكر ذلك المستعمر مع ان المصاريف على العساكر من دخل المستعمر فاعظم بذلك من قوة للانكليز حتى ان عساكر الهند الذين تحت أمرها أضعاف عساكرها المستديمة فهاته الفوائد أعظم وأنجح لامة الانكليز من أخذهم ضريبة على سكان المستعمرات تحوجهم الى الحقد والثورة عليهم كما وقع في أمريكا وأفيد لهم أيضا من جهة السياسة فان النفوذ والرهبة والوقار الحاصل للانكليز في جميع جهات المسكونة ليس بحاصل لاي دولة كانت أروباوية وذلك أفيد للانكليز من ان يفيدوا ألفا أو عشرة آلاف منهم باطلاق التصرف في أحد المستعمرات فيكون أهلها تحت قبضتهم ويديرون فيهم قانون الانكليز بانذره ويوظفون فيهم من قضاتهم ويغيرون عوائدهم وشرائعهم لما يلزم لذلك من مصاريف تكثير القوات وكمون الحقد في المستعبدين حتى ينتهزوا الفرصة لفك قيودهم متى ما سنحت الفرصة وبمثل هاته السياسة ومجاراة الاهالي في مقاصدهم وعاداتهم وأحكامهم وكبرائهم وديانتهم تيسر لها امتداد المستعمرات واتساعها وطول بقائها هانية بدون كثرة مصاريف فان الهند الذي هو أعظم المستعمرات وفيه من السكان ما ينيف عن مائة وستين مليونا انما تضبطه دولة الانكليز بعشرين ألف عسكري انكليزي فقط وان كانت حكومة الهند لها نحو ثلاثمائة ألف من العساكر تحت السلاح لكنهم كلهم من الاهالي ما عدا العشرين ألفا المذكورة وذلك ما خلا ما للملوك والامراء المستقلين بالادارة في الهند من العساكر والقوات وما ذاك الا لمجاراة الاهالي بما لا ينفرهم مع اجراء العدل فيهم والزام أمرائهم وملوكهم بذلك وحريتهم في سائر أطوارهم حتى انها تعظم لهم شعائرهم الدينية كما يعظمونها في أنفسهم فالمسلمون مثلا

تطلق لهم المدافع في أعيادهم وتعفيهم من الاشغال في المواسم وتعزف الموسيقى العسكرية في أعيادهم وكذلك تفعل مع المجوس وتصرف على الجميع أموالا باهظة في المعابد وأهل الديانة من دخل الهند وفي عيد القا جوز الكوكو في نهر الهند يحضر أهل الامر والحكم من الانكليز ويأخذون ذلك الجوز من أيدي الكهنة ويلقونه في النهر مجاراة للاهالي (وحينئذ) تنشر الرايات وتطلق المدافع من الابراج والسفن هذا فالبلاد التي تحت ادارتها ابتداء فضلا عن البلاد المستقلة بالادارة فالاهالي يوازنون بينما فاتهم من حالة الاستقلال وماهم عليه من المنافع التي لم تكن حاصلة اليهم مع موازنة المشقات والاهوال الحاصلة من اعلان الثورة لان الانكليز أيضا قساة وقلوبهم فظة غليظة عند الثورة يجازون بالفظائع التي تقشعر منها جلود السامعين ويقول القائل أين التمدن ورحمة الانسانية والشفقة التي تملئ صحفهم بالتنويه بها وماهي الا سواد على بياض يأمرون بها غيرهم ولا يرى منها شيء مما يستعملونه من الغدر باغراء أقسام الاهالي للانقسام وبذل الاموال العظيمة في ذلك فاذا حصل الانقسام وقع الانتقام من الكل على التدريج وربما حصل من بعض الاقسام لبعض أشد مما يحصل من نفس الانكليز فلذلك آثرت أهالي المستعمرات السكون والرضى بما هو عليه مستغنمي ثمرة ذلك بقدر الامكان بل ان بعضهم مكنتهم دولة الانكليز من الاستقلال وأعانت لهم بذلك ورفضوا هم قبوله خوفا من تسلط غيرها عليهم لضعفهم وربما يعاملهم المتسلط بما لم يعاملهم به الانكليز يومئذ مثل ماوقع في جهة من استراليا منذ نحو من خمس سنين ومع مامر فقل مايخلو وقت عن حدوث ثورة في احدى الجهات من المستعمرات المذكورة وفي الاغلب بعد حصول الراحة بالقوة أو باللين وهو الاغلب تزيح الدولة البواعث على الثورة حتى تعود المصافاة مع الاهالي على وجه كأنه راسخ وانما قلنا ان اللين هو الاغلب لانا رأيناها لاتستعمل القوة الا بعد انفلال حدود اللين حتى انها في نفس حروبها مع الثائرين لاتوجه عليهم قوة كبيرة من أول وهلة بل ترسل مقدارا غير كاف لاخماد النار اذا كانت مستعرة بهيجان قوي وكثيرا ماتنكسر قوتها أولا وثانيا وثالثا لكنها لاتنكص على عقبيها الا بعد بلوغ أربها امابمداومة الحرب على النحو السابق مع تزييد القوة شيئا فشيئا الى أن تغلب أو بوقوع الصلح على مايرضيها وترضى به الثائر على نوع ما كان ذلك لعدم وجود قوة عسكرية تحت السلاح ولا حاضرة للدعوى متى أرادت الدولة لما مر من ان الانكليز لايدخلون العساكر الا بالرضى وليس لهم الا قدر حفظ الراحة فاذا ثارت

جهة

جهة لزم الدولة احضار العساكر برضاهم وذلك لا يتأتى عاجلا مثل ما يأتي للدول المرتبة العساكر وأيضا بعد حضورهم تلزمهم مدة التدريب ثم ان العساكر عندهم تلزمهم المصاريف أكثر من عساكر بقية الدول لان من قانونهم ان العسكري لا يخدم شيئا سوى الحركات الحربية فيلزمهم من الخدمة وحمل الاثقال ما هو أضعاف عددهم ولا يخفى ما في ذلك من المصاريف والكلفة المحوجة الى الوقت حتى ان عساكرها الذين وجهتهم على الحبشة منذ نحو عشرين سنة لزمها أن تجعل لهم طريقا حديدية وقنوات لجلب المياه كلها موقتة وكان خادمو العسكر ضعف عدد العساكر وهكذا دأبها في حروبها وبناء على اتساع المستعمرات وافتراقها وبعدها عن مركز الدولة وكون الطرق اليها بحرية مع ان نفس مركز المملكة جزيرة لزم أن تكون دولة الانكليز هي اقوى دولة في البحر من حيث السفن الحربية ومن حيث كثرة السفن التجارية ووجود البواخر والعارفين بفن البحر

﴿مطلب في السياسة الخارجية للانكليز﴾ اعلم ان ما تقدم من الاحوال العامة في الخارجية للدول العظيمة مما تقدم ذكره في ايطاليا وفرانسا وهو أيضا جار في انكلاتيره مثل وجود السفراء والمراقبة لجهات المنافع الخ فالذي يخص انكلاتيره هنا هو بيان محلات اهتمامها في الخارج وحيث قد تقدم ان لها مستعمرات في جميع أقسام الكرة المعروفة كانت عنايتها في الخارج أوسع من غيرها من بقية دول أوروبا لكن ليست الجهات كلها سواء في الرتبة بل هي متدرجة ففي أوروبا ليس لها من النفوذ في داخلية دولها شيء سواء كانت الدول كبيرة أو صغيرة لابتناء اداراتهم على قواعد راسخة مسلمة بين جميعهم مقررة بمعاهدات فان ترى حاكما انكليزيا ذا سلطة في برلين قاعدة المانيا ولا في موناكو التي هي دولة مستقلة في بلدة محاطة بايطاليا عدد سكانها نحو أربعة آلاف نسمة والكل في الدخول تحت أحكامهم من رعية الانكليز سواء وانما نواب الدولة يراقبون الاحوال السياسية لا الاحكام الشخصية نعم لدولة الانكليز زيادة اعتبار في خصوص مملكة البلجيك لما اقتضته معاهدة سنة ١٨١٥ من استقلال هاته المملكة عند سقوط نابليون الاول وجعلها تحت حماية كبار الدول غير ان المراقب لتلك الحماية هي دولة الانكليز فهذا هو وجه زيادة اعتبارها هنالك ومثل ذلك حاصل في دولة البرتغال لما تسبب عن حروب سالفة مع اسبانيا وفرانسا (وأما) بقية الدول فلا فضل عندهم لانكلاتيره على موناكو في أحوالهم سوى ما تجر اليه السياسة الآتي ايضاحها (وأما) امريكا فهي أيضا على ذلك المنوال (وأما) آسيا وافريقية فعلى وجه

آخر مع دولها من حيثيتين (الاولى) سوء المعاهدات القديمة معهم التي لم يراع فيها الا الحالة الراهنة اذ ذاك مع عدم تقييد المعاهدات بمدة محدودة فتغير الزمان وتغيرت الحالات وبقيت أحكام المعاهدات على ماهي عليه فلزم منها ان تكون لدولة الانكليز شبه دولة مستقلة في كل من هاته الممالك بحيث ان رعاياها غير داخلين تحت الاحكام مثل الاهالي بل يحكم في الشخصيات فيما بينهم وحدهم أو بحضورهم أو حضور أحد من سفارتهم مع حاكم البلد وله الاعتراض على الحاكم في الحكم وفي بعض الممالك اذ كان الحكم في جناية فاغاية ينفذ في احدى ممالك الانكليز الى غير ذلك مما يتعسر معه للاهالي الوصول الى الحق ويحصل منه شبه حكومة مستقلة في وسط المملكة وليس ذلك يخص بالانكليز بل عام في جميع دول أوروبا مع تلك الممالك وغاية الخلاف هو زيادة التظاهر والتظلم من أحكام البلاد من الدول القوية ذات الغرض في النفوذ في تلك المملكة وفقد ذلك ممن ليس له قوة أو ليس له غرض (وثانية) الحيثيتين هو أن مستعمرات الانكليز قد صار أن أهمها هو الهند فكانت نقطة خاشية من كل ما يوهن قوتها فيه اما بواسطة أو قصدا حتى صارت تحافظ على الطرق الموصلة اليه فكانت قبل فتح خليج السويس تتوصل اليه من المحيط الجنوبي وراء افريقية فاستملكت عدة مراكز في افريقية الغربية والجنوبية والشرقية مع عدن في آسيا كل ذلك لتكون لها اقوات ومراكز تلتجأ اليها عند الحاجة وبه يعلم ان ثمرة المستعمرات ليست خاصة بالاوجه التي أشرنا اليها بل منها أيضا أهمية المستعمر من جهة كونه مركزا حربيا فقط وذلك مثل جبل الطارق ومثل مالطة وغير ذلك فبناء على ما شرحناه صارت سياستها الخارجية مع كل الدول القريبة من الهند والتي هي في طريقه والتي لها مصالح أو مطمح نظر اليه على نوع آخر من المشاحنة مع القوي والنفوذ مع الضعيف وتستعمل لذلك كلا من الترغيب والترهيب فالدول التي لها معهم داعمًا زيادة محاورات سياسية هي دولة الروسيا من حيث انها امتدت في دواخل آسيا حتى اقتربت من الافغانستان الذي هو في حدود الهند ومن حيث طموح نظرها الى الاستيلاء على الممالك العثمانية التي يهمها بقاؤها كما يأتي ايضاحه والدولة الثانية التي لها معها زيادة عناية سياسية هي الدولة العثمانية وذلك من وجهين (اولهما) انها لا تريد زيادة نخوتها وقوتها خوفا من امتدادها الى المشرق وارتباط المسلمين هناك بها حتى يلتحم بها مسلموا الهند ويعود الهند لما كان عليه من الالتحاق بالخلافة الاسلامية (وثانيهما) الخوف عليها من الضعف المفرط حتى تلتقمها الدول المجاورة لها

فيكون

فيكون لمن يحوزه وقعها الجغرافي النفوذ والسطوة التي تخشى منها انكلاتيره على فقد قوتها واعتبارها المادي والمعنوي وبناء على هذا صار لها تداخل كلي في سياسة الدولة العثمانية الخارجية وجماها على ذلك التداخل مع بقية الدول الكبيرة الستة لما لهم من المساس بتلك السياسة سواء كانت قصدا أو بواسطة واضطر ذلك انكلاتيره الى جانب ملاينة فرانسا لانها دولة بحرية قوية فسالمتها ووالتها أولى لها بمقاصدها بسماح ابتناء سياستها على مجانبة الحرب مهما أمكن كما تقدم بذلك تستعمله حتى في الحرب مع الخارج حتى تستعين بكل الوسائل لقطع أسبابه مع التحفظ على حقوقها كما وقع منها أخيرا سنة ١٢٩٤ من التوسل بالسلطان العثماني لامير افغانستان بارساله له رسولا لكي يلاين انكلاتيره و يقطع معها المشاحنة الداعية للحرب من عدم قبوله لسفير مقيم عنده في كابل وغير ذلك مما بعث عليه اغراء الروسيا ولم يقبل التوسط حتى وقع في الحرب كما تقدمت الاشارة اليه في محله فذلك الباعث دعاها الى ملاينة فرانسا كما تقدم في سياستها الخارجية طمعا في التسليم لها في السلطة على مصر أو في الاقل على تعاضدهما معا على ازديادنفوذهما في مصر حتى تسنح الفرصة لانكلاتيره في الحاقها بها حيث كانت الآن هي أقرب الطرق الى الهند بعد فتح خليج السويس مع ما في ذات مصر من الاهمية الكبرى فتبين (حينئذ) وجه زيادة اشتغال انكلاتيره باحوال الدولة العثمانية وعلى الخصوص أحوال مصر وما يجرها من ذلك الى بقية الدول الكبيرة ومع بقية الدول التي تجاور مستعمراتها على حسبها في القوة والضعف ثم اعلم ان سياسة الانكليز لما كانت مبنية في التصرف على مذهب الحزبين الذين مر ذكرهما في السياسة الداخلية وهما حزب المحافظة وحزب الاطلاق الحرية كانت تختلف في الخارج على حسب مقاصد الحزب الذي يتولى ادارة المملكة فيؤثر ذلك في السياسة الخارجية أيضا تأثيرا بينا فترى تغير السياسة يتعاقب على توالي الحزبين حتى يكاد ان لا تثق دولة بالاعتماد على سياسة الانكليز في موالاتها لانه بينما يكون حزب المحافظة جانلا في الاحتراس على ممالكهم مهم بقوتها وتعتمد هي على معاضدتهم واذا بحزب الاطلاق قد جلب أفكار العامة اليه فيصعد الى تخت الادارة و ينقض غزل سابقه و يخذل من اعتمد عليه وسياسة كل من الحزبين وان لم تكن مباينة دفعة واحدة لسياسة الآخر حتى لا يتيسر له ابطال حرب معقودة أو نقض صلح انبرم لكنه يسعى بقدر الطاقة في انهاء كل ما وجده وعدم اتمامه حتى يبرهن الخارج على فساد ما سعى فيه

سافه من غير أن يثبت عليه انه هو الذى كان سببا فى الفساد ولهذا صار كل من الحزبين يجهد مستطاعه فى عدم الدخول فى حرب مع ومة لكى لا يجد ضده بابا للتشنيع به عليه لان عاقبة الحرب مع الدول الكبيرة مجهولة وانبنى على هذا وسم دولة الانكليز من سائر الامم المستقلة أنها دولة تجارية انما تبحث على زيادة غنى أهاليها من غير بحث عن الشرف والجاه لدى الامم الكبيرة القوية وعند دخولى الى انكلتيره وجدت رئيس الوزارة هو رئيس حزب المحافظين وهو اللورد بكنسفليد وانما حاز ذلك اللقب عند معاهدة برلين سنة ١٢٩٥ حيث نجح سعيه فى تغيير معاهدة صان استيفانوس بتلك المعاهدة واستولت انكلتيره على قبرس وكان هذا الرجل من نسل اليهود فلما ترقى فى السياسة غير دينه لدين الدولة حتى يمكن له الترقى للمناصب العالية واشتهر بتآليفه وأفكاره وخطبه حتى سلمت له رياسة حزب المحافظين وولى الوزارة مرارا (وأما رئيس حزب الاطلاق) حينئذ فهو مستر اكلادستون وليس له لقب شرف لكنه باتساع معارفه حاز تلك الرتبة واستولى الوزارة مرارا

﴿فصل فى بعض عوائد الانكليز وصفاتهم﴾ اعلم أن كتاب كشف المخبا عن فنون أوروبا للبليغ اللغوى أحمد فارس قد اشتمل على تفاصيل فى عوائد القوم يعز وجودها فى غيره فمن رام الاطلاع على جزئياتها فليرجع اليه وانما نلم هنا بشئ كاف فى التعريف بذلك (وحاصله) أن أصل الاهالى كما تقدم من قبيلة من قدماء الفرانسيس اختلطت مع قوم قدماء فى الشمال وتناسل منهم هذا الجيل وهم أقوياء بيض نصع حمر من الدم يغلب فيهم الطول وشقورة الشعر نساؤهم جميلات ابناههم رزينة مع الاطلاق الحرية فيهم لا يطيشون عن حدود الاستقامة والانقياد الى الحكم حتى اذا تجمع منهم الجم الغفير البالغ لعدة مئات من الالوف وتكلموا فى السياسة وهاجوا واضطربوا ووقع بينهم خلاف فى تلك المجامع أحوجت الى الخروج من القول الى الفعل فما هو الا أن يصعد حاكم ذلك الصقع على مكان مرتفع ويقول سيدنا ونا حاكمنا الملك يأمر كل فرد منكم أيها المجتمعون بالتفرق حالا وأن يدخل كل منكم مسكنه أو محل صناعته تحت قيد الحكم الصادر فى أول سنة فى دولة الملك جورج فى قطع الهرج والغوغاء والله يحرس الملك فحينئذ يتفرق الجمع الاما ندر فيحتاج الى اعمال القوة من الضابطية والحرس والعساكر بل وعلى كل مار اعانة الحرس الا أصحاب رتبة اللورد فانهم غير مكلفين بذلك ومن النادر القليل وجود حالة مثل تلك بل الافراد الجناة يخضعون للحكم وينقادون الى أمر أعوان الحكم بمجرد

القول

القول وعلى فرض الامتناع فيخرج له العون عصبة على رأسها صورة تاج الملك فيطاطي رأسه وينقاد وان لم يفعل وجب على كل من رآه اعانة العون على جبره فاعانت هاتيك الحالة على اطلاق الحرية واطمئنان الدولة من الهرج وقد تقدم أن عدد السكان نحو اثنين وثلاثين مليونا ودياناتهم الغالبة بروتستانت وقليل من الكاثوليك ثم اليهود ثم الدهرية ثم الموحدين أى الذين يوحدون الله ويعترفون بالرسالة والعبودية والبشرية لعيسى ويصدقون بالكتب فهم أقرب الى الاسلام ولازال يكثر عددهم سيما فى المانيا وأماريكا كما يوجد القليل من المسلمين ثم ان عوائد الاهالى لا يمكن اطلاقها على الجميع سواء بل بين طبقاتهم البون البعيد فهم على خمسة أصناف (الاولى) العلية ولهم امتيازات تقدم بعضها فى السياسة ومن خاصيتهم أن لا يدخلوا فى الاعمال البدنية التى تجب على العموم ويتنزهون عن مخالطة غيرهم بحيث يكون كل منهم فى داره عنده سائر ما يحتاج اليه ولا يحتاج فى الخارج الا لمجرد المشى فى الطريق لمكان نزهته أو اصاحبه الذى هو من نوعه وعلى نحوهم نساؤهم وهؤلاء هم أصحاب لقب اللورد وغيره من ألقاب الشرف كالمركيز والسير وغيره من الالقاب الوراثية والتى يعطيها الملك بموافقة مجلسه الخاص ومثل هؤلاء الامراء والوزراء وأصحاب المناصب السامية والاساقفة الكبار (الثانية) هم الاعيان الذين لهم أملاك تغنيهم عن معاطاة شغل أو حرفة مع تنعم العيش والرفاهية والاسراف لكنهم ليس لهم لقب مثل الاولى (الثالثة) العلماء والمتشرعون والقسوس والتجار الكبار (الرابعة) التجار وأصحاب العمل النبيه مثل الكتبة (الخامسة) بقية الناس المتعيشين من كد أبدانهم فالاولى والاخيرة بينهما التباين والثلاثة الباقية لكل منها جهة تناسب بها من فوقها وجهة تناسب بها من تحتها ويمكن على حسب التقريب ان يقال أن الثلاثة الوسطى فى عاداتهم واطوارهم على نحو ما تقدم فى فرانسا وايطاليا وأما الطبقة العليا فليس لها مثيل فى تينك المملكتين ومحصل حالهم انهم على نوع من صفات ملوك الاستبداد فى العظمة والكبرياء والفخر والمباهاة باللعب واللهو والتكاثر فى الاموال والاولاد والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث فترى للواحد من ملاك الارض مسيرة يوم للراجل ويملك الفرس باربع مائة الف فرنك ويعد دخله بالدقيقة فيكون له فى الدقيقة ألف ليرة أو ليرة أو نحو ذلك ويفرش بيته بصنائع أهل المشرق والمغرب والمنسوجات التى قيمة ذراعها بخمسمائة فرنك ونحوها الى غير ذلك من الاطوار التى لا يعلم بها الا هو وعائلته أو من

كان من طبقته وبينهم مودة أو من يتفضلون عليه بالمعرفة وهى انما تحصل للغريب اذا كانت له وصاية من أحد قرابة أولئك العلية قد تعرف به فى أحد الاقاليم وحينئذ يرى من اكرامهم وتنعيمهم له باشتراكه معهم فيما هم عليه ما يقربه منهم من القنص واللهو واللعب والمراكب والمآكل والمشارب والمنازه حتى يكون لبعض هؤلاء العلية مراكب خاصة فى طريق الحديد محتوية على سائر اللوازم يسيرون بها الى حيث أرادوا ويولونه أى الضيف من ملاطفة نسائهم واكرامهن له باعطاء قدح الشاى من يد كبيرتهن ما يكون به على يقين من الصداقة لان ذلك من غاية الاكرام وان لزم الضيف من الغذاء ما هو عنه فى غناء من المحافظة على الآداب والقواعد المعروفة لديهم كعدم التهوع ولا حك جهة من بدنه ولا التدخين ومن عجيب أطوارهم فيه التناقض التام فبعض نسوتهم يكرهون شم أثره على الثياب وبعضهن يدخن كالرجال وان ترى من واحد من هؤلاء ذوى الملايين او آلاف الملايين يتكرم بشئ ذى قيمة ونهاية التوادد بالهدية هى صورته أو ماشا كلها مما قيمته اذا تناهت تبلغ ألف فرنك بل كاد ان لا يوجد من يتصدق منهم على الفقراء الا أن يكون لرياء أو سمعة فلو مر أحدهم على فقير يتضوع جوعا لما رأى له من داع الى مرحمته حيث انه يعلم انه يعطى سنويا الى ديار الفقراء مقدارا من المال فلا يهمه ان يكون ذلك الفقير الذى رآه فى حالة النزع من البرد أو الحر أو الجوع انه لا يمكن له الوصول الى تلك الدار أو انها لم يكن فيها سعة لقبوله وأقول ان هاته الخلة كادت ان تكون عامة فى أروبا لا فى الالمانيين فانهم يجرون على حسب مكارم الاخلاق وأما أطوار الطبقة السفلى فهى أشنع مما مر ذكره فى همج الفرانسيس سواء كان من جهة الاعتقاد أو من جهة السيرة والحركات فيتطيرون من أشياء كادت ان لا تحصى وينقادون الى السحرة والدجالين بما يخرج عن حد المعقول وكاد التعلم ان يكون عندهم مجهول الاسم فضلا عن المسمى سوى ما يرطن لهم القسوس فى الكنائس ومن هذا القبيل اعتقاد عامة اهل ارلانده ان انقطاع الحيات من جزيرتهم بسبب قسيس مع انها افقدها الثلج والبرد مع عدم الاتصال بالقارة حتى يخلفها غيرها وهم فى ذلك خرافات والحاصل ان صفة الانكليز على الاجمال هى السكون والرزانة والتجافى عن الغريب الا بواسطة فى التعرف حتى لو بقى بين أظهرهم سنين لا يكاد ان يقول له واحد أسعد الله صباحك كما ان من طبعهم الاقبال على الشغل والجد فيه وعدم الايمان بالقدر حتى اذا يئس أحدهم من المال قتل نفسه فكثيرا

ما تسمع بذلك وبقتل الآباء لاولادهم وكذلك الامهات والعكس ومما يحصل عندهم
من الوقاحة أحيانا مضاجعة الاب ابنته والاخ أخته لكنه لم يسمع بمضاجعة الابن امه ✽
ومنها أيضا بيع الزوج زوجته لمن يحبها ويمضي لهم الحكم ذلك فاعجب لقوم يحدثون
على بيع الرقيق في الآفاق ويحكمون بصحة بيع الزوجة بفلس اوفلسين لان الطلاق
عندهم له شروط وهي ثبوت الفاحشة من الزوجة لدى الحكم ومن غريب الوقائع في هذا ✽
الصدد ما وقع منذ عهد قريب ونشر في سائر صحفهم وغيرها من ان زوجة احد اللوردات
ولدت وعندما بشرت بانها ولدت ذكرا قالت من لفرح هو ابن ولي العهد وكانت قرابة
زوجها يسمعن ذلك فثار عجاج النازلة الى أن رفعت لدى مجلس الحكم لكي يستطيع
الرجل طلاقها وادعى وكيلها انها اعتراها جنون من النفاس حتى صارت تقول ما لا أصل
له وادعى وكيل الزوج ان الخلطة حاصلة من قبل مع ولي العهد وكانوا يتزاورون
ويتنزهون معا فقضى الحال باستدعاء الشهود ومنهم ولي العهد وعند حضورهم في
المجلس الذي هو واني وحاضر فيه كتاب الاخبار وغيرهم قال القاضي علمنا ينبغي ان
لا يسئل الانسان عما يستهجن أو يشين العرض وينبغي للشاهد ان لا يجيب اذا سئل عما
يشين عرضه ثم دعى بولي العهد فسأله عن معرفة المرأة فاجاب بمعرفتها ثم سئل عن
اجتماعه بها فاجاب الى ان قال انهما اجتمعا في منزل من المنتزهات للطعام فشربا وأكلا
وبقيا حصة بعد الاكل في محل خاص ثم رجع كل منهما الى محله بعد قضاء التنزه فقال
له القاضي الذي نبه على ما سمعته أسألك هل واقعت هاته المرأة عند الخلوة فرفع ولي العهد
صوته قائلا لا فضج المجلس له بالتصفيق وحكم القاضي ببراءة المرأة وبقاء الزوجية وانما
الاعيان يتحاشون عن بيع الزوجات لكنه شائع في السوقة وصحفهم تنشر منه شيئا كثيرا
ومن عاداتهم الاكرام وهوانه كما عرض لاحدهم حنق على صاحبه الاتبادر بضرب جمع ✽
الكف وعندما يغلب أحدهما كثيرا ما يصافح صاحبه ويتراضيا ولا حكم في ذلك
ولا يحصل هذا بين الاعيان وانما يتعاوضون عنه بالمقاتلة كما هو جار في الممالك الاخرى
من أوروبا وهي انه اذا اشتد الغضب بين اثنين على شرط التكافؤ في العرض يرمي أحدهما ✽
لصاحبه بقفازيه أوشيء من متاعه ثم يرسل له شاهدين يطلب منه التقاتل فيعين الآخر
شاهدين ويتفق الشهود على آلة التقاتل ومكانه وزمانه بعد أعمال ووجوه للتراضي
واسقاط الطلب فان لم يجد أحضروا طبيبا وحضر المتقاتلان والشهود والطبيب وتقاتلوا
على الصفة المتفق بها فاما ان يموت أحدهما أو يسلما أو يحصل عطب فيعالجه الطبيب

وينفصل الامر فان لم يجب أحدهما للقتال صار ذليلا أمام الناس وصحبه وقدر صاحبه
مهما لاقاه ان يهينه بما بدا له وهذا التقاتل وان لم يكن مباحا بالاحكام لكن الحكومات
غاضة النظر عنه بمعنى انها لا تحتسب عليه وان أضاع واحد شرفه بالشكاية فيه حكم له
لكنه يهان فهو وان كان فيه ماينبئ عن علو الهمة والشجاعة غير انه من أعمال الهمج
لان الحكومات انما أقيمت لدفع التعديات والغاء الاغراض الشخصية المضرة بالغير
فيجب الغاء هاته العادة في أوروبا بل والعجب من ازديادها تدريجا ومن عادة الانكليز
التطير بأشياء كثيرة منها اصباح المرأة الحولاء مالم تتكلم ومن الجهل العام لاسيما في
عامتهم الى أقوال المتكهنين وأصحاب الحدثان وانزعاجهم من أخبارهم حتى يقتلون
أنفسهم وكثيرا مايقتلون أنفسهم وأولادهم خشية الاملاق وكثيرا ماتلد المرأة أربعة أولاد
في بطن واحد وتكاثر الخلق عندهم في ازدياد حتى لا يجدون شغلا في بلادهم فترى مئات
الالوف يهاجرون سنويا الى الآفاق لتحصيل الكسب ومع ذلك فعددهم في مملكتهم
لازال يزداد ودونك برهانا على ذلك في أقرب وقت وهو ان عدد اهل انكلاتيره أي
المملكة الاصلية من الجزيرة الكبيرة وحدها كان في سنة ١٨٥١ لا يصل الى سبعة
عشر مليونا ونصف والآن وهو سنة ١٨٨٢ أعني في ثلاثين سنة صار عددهم يناهز
ثلاثة وعشرين مليونا فازدادوا خمسة ملايين أو تزيد مع كثرة من هاجر منهم الى ممالك
أخر مما يقرب من ذلك العدد وجمهورهم تغال في عقائدهم فمن ذلك محافظتهم على يوم
الاحد بحيث لا يفتح فيه محل عمل سوى الاكل والشرب ومن فتح حانوته عوقب ولو لم يكن
من مذهبهم وهو غاية التناقض مع مايطلقونه من الحرية وملكتهم الحالية زيادة توغل
في ذلك حتى حكى عنها الشيخ أحمد فارس انها عرض عليها أحد وزرائها أوراقا مهمة
للامضاء في ليلة الاحد لكنه تلطف لها بامكان تأخيرها للصباح فقالت كيف وهو
يوم الاحد فقال هي مهمة للحكم فقالت اذا بعد الكنيسة فقال نعم ولما رجعت من
الكنيسة وكان الوزير مصاحبا لها أعلمته بأن الخطبة التي أعجبتني بايعازها الى
القسيس في المحافظة على يوم الاحد وبناء على ذلك فليأتها صبيحة يوم الاثنين ولو في
الساعة الثالثة قبل الظهر لتمضي له أوراقه وتلك الساعة عندهم من العجيب مباشرة
الاشغال فيها لانها مبكرة جدا حسب عوائدهم ومن عاداتهم التزحلق على الجليد ولهم
مهارة في ذلك وقلدهم الفرانسيس وكثيرا مايحصل العطب بانكسار الجليد وتغرق
من عليه في النهر أو البركة أو البحيرة والحاصل ان اخلاق الانكليز بدوية ولا يلتحمون

بالاجنبي

بالاجنبي مثل ما يقع من الفرانسيس غير انهم اذا ود أحدهم أحدا سيما من عائلتهم فانه يحافظ عهده ويدوم على ولائه ويحمون ذماره ولهم ولوع بالخيل وتربيتها وتنسيلها وغناهم بالنسبة للطليان والفرانسيس ردئ لتقطع أصواتهم وحصرها وبقية الصفات هم فيها مثل من تقدم ذكره من الممالك ثم يوجد في انكلاتيره نوع من البشر يسمون عند أهل تونس بالزمازية وفي الاستانة جينكاله وبالفرانساوي بالبوهمية وهم في الحقيقة، يوجدون في أغلب الاقطار شراذم وفي كل جهة محافظون على عوائدهم وأهمها الجهل وعدم مخالطة الغير وتعاطي علم الغيب وسكنى الخيام وتعاطي الصنائع البسيطة الرذيلة مع الفقر ولهم لغة تخصهم ومن عادات أواسط الانكليز وعليتهم حسن تربية الام لاولادها بحيث ينشؤن على التهذيب والتفطن الى التعليم من غير تعب حتى انهم كثيرا ما يتعلمون الاحرف ومبدأ القراءة بمجرد التربية فيما تديمه الام أو المربية للصغير مع النظافة والابعاد عن الاخلاق الذميمة وكل أوربا على هذا النحو لما لهم في النساء من التعليم الحسن

«مطلب في التجارة بانكلاتيره» اعلم ان الاصول التجربية التي مر ذكرها في الممالك السابقة هي جارية كذلك في انكلاتيره لكن لهؤلاء زيادة بسطة وغنى عن سائر الممالك بما يروج من تجارتهم في مستعمراتهم وغيرها حتى أحصى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م ملك الانكليز من المنقولات التي لها دخل مثل اسهام سكك الحديد وديون الدول وغيرها فكان سبعة وثمانين مليارد فرنك والمليارد ألف مليون ودخل ذلك في السنة أربعة مليارات فلو قسم على نسبة عدد أنفسهم أصاب لكل انكليزي (١١٠) فرنك منها ٥٠ من خارج المملكة وذلك كاف في بيان مقدار غنى هؤلاء القوم وحركة تجارتهم فان بريدهم يصل الى جميع جهات المسكونة وبوابيرهم مالئة للبحر وأعظم البضائع الخارجة من ممالكهم هو الفحم الحجري فقد أخرج من مقاطعه سنة ١٨٦٦ ما يزيد على ألفي مليون قنطارا والمقاطع الموجودة في انكلاتيره من هذا الفحم ثلاثة آلاف ومائتان واحدى وثلاثون مقطعا وهو سبب عظيم لثروتهم من حيث البيع منه للخارج واستعماله في الداخل ومن حيث توقف الاشغال الصناعية عليه لكثرة المعامل البخارية ولذلك اشتدت عنايتهم به حتى انه كان كثير من علماء الاقتصاد عندهم يبحث عن أحوال فراغ ذلك المعدن وما يتسبب عنه من الرزية للانكليز وفي سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م اشتد البحث في هذا الامر وعينت الدولة لجنة لتحقيق الامر وبعد مدة وأبحاث استقر رأيهم على

انه يمكن بقاء هذا المعدن عندهم الى مدة الاثمانمائة وخمسين سنة ثم بفرغ نظرا لكمية مايستخرج منه سنويا ونظرا الصعوبة استخراجه فيما سفل من طبقات الارض وكثرة المصاريف عليه حينئذ ومن ثلاث السنة ارتفع ثمنه نظرا للاقتصاد فى استخراجه ولا زال البحث عما يعوضهم عنه من القوات أو وجوده بحرى فى مستعمراتهم ومن موارد تجاراتهم الواسعة أيضا ما يخرج منهم من الحديد وأغلب المجلوب لهم الحبوب لان ما يخرج منها عندهم غير كاف لهم وتجد فى أفراد الانكليز الغنى الذى لا يوجد فى غيرهم كما يوجد فيهم الفقر المدقع بكثرته وقد انعقدت فى خصوص لندره شركات للتجارة والزراعة ٢١٢٥ شركة أفاس منها ٤١٢ شركة رأس مالها ٥٠٠ مليون فرنك وذلك فى خصوص سنة واحدة وهى سنة ١٨٨١

﴿مطلب فى الاحكام بانكلاتيره﴾ قد مرت أصول الاحكام الشخصية عندهم فى مبحث السياسة الداخلية وانما نقول هنا ان قضاة الانكليز يضرب بهم المثل فى أروبا فى العفة وعدم الميل الى الاغراض ولوفى متعلقات دولتهم وهناك مدن يقيم فيها القاضى ومدن تذهب اليها القضاة فى أوقات معلومة من السنة فتعرض عليهم النوازل المهيآت لهم من حكام الجهات والاحكام الثقيلة انما تصدر من القضاة بمحضر الجورى وقد تقدم الكلام عليه غير أن جورى الانكليز يختص بانه على قسمين فالاحكام الخطيرة جوريها يتألف من فقهائهم وأعيانهم ولكل منهم ابرة على كل نازلة والاحكام الحقيرة جوريها من السوقة وأصحاب الحرف مثل فرانسا ويزيد جورى الانكليز بجور عظيم على نفس الجورى فان للقاضى توقيفهم فى محل منفرد بمكان الحكم حتى يقع اجماعهم على رأى واحد من غير أكل ولا شرب واذا وجد مع أحدهم شيئا من مواد المعاش غرم مالا وهذا من عجائب الاحكام اذ كيف يلزم اتفاق آراء عديدة على قول واحد دائما أو يغصبون على ذلك فعوضا أن يكون ذلك وسيلة للعدل ربما كان واسطة للجور كما انهم صاروا يستحسنون تعويض الحكم بالاعمال الشاقة عن القتل مهما أمكن وذلك جالب لزيادة الشر كما صرحت به صحفهم المنصفة وكذلك صاروا لا يحكمون بحبس المدين وانما على الدائن اثبات ماله والحكم يوصله به ومن أحكامهم المبنية على العادات القديمة تغريقهم للوطى فى وعاء من العذرة الى أن يموت وهو من أشد الشناعات عندهم ومع ذلك فهو فاش فى كثير منهم سرا سيما العساكر البحرية وقد وقع عندهم منذ عهد قريب أن أحد الملاهى وجد فيه لاعبات جميلات جدا فدعاهن مترفوهم واختلوا بهن وبعد

مدة

مدة مديدة اكتشفت الحرس على أنهن في الواقع غلمان وشدد البحث عن حالهم فوجدوا بحكم الاطباء انهم مفعول بهم كثيرا لكن حكم فيهم أشد حكم ولم تتبع الجزئيات لكي لا يقع الافتضاح لبعض العائلة وقد ابتنى على عدم حصر احكامهم في مرجع واحد طول مدة الحكم وكثرة المصاريف عليها أزيد مما يوجد من الطول في محاكم اوربا التي تطول فيها النوازل جدا ومن أحكامهم اباحة الزنى بالتراضي مثل ما في غيرهم لكن يمكن أن يقال نساء ءابائهم أعف من غيرهن في الممالك الاخرى ونساء أواسط الفرانسيس على ذلك النحو وما عداهؤلاء فلا ترداد لهن تعريضا لما قل بل وربما فاتحت هي الرجل

(مطلب في المعارف بانكلاتيره) لا خفاء أن امتداد الثروة مبني على كل من العدل والعلم فعلى قدر ارتقاء ذلك تنمو الثروة وما تقدم من اجمال حال ثروتهم دال على حالة المعارف عندهم وأصول المعارف هي الموجودة بغيرها من الممالك السابقة وتنقسم تعاليمها الى التقاسيم الموجودة في فرانسا وأعظم المدن التي توقد اليها مزجيات الارتحال لاقامة التلامذة بمدارسها هي مدينة كمبريج واكسفورد وأكثر أبناء الاغنياء يقيمون بهاته المدارس ولهذا كان كل من البلدين غالي الاسعار اذ أغلب التلامذة يقضون أوقاتهم في التلهي والتفاخر والوسيلة لاسم التعلم وقل ما يبرع ابناء الاغنياء في العلوم لكن على كل حال لا يوجد فيهم الجهل المطبق ومما اختصت به انكلاتيره وجود جمعية ديانية لنشر مذهبهم البروتستانتي وانفاق النفقات الباهظة على ارسال الرسل لتنصير الناس في أقسام الارض وحماية دولتهم ورءاهم فيغرون الناس بالمال وبالمباحثات الدينية وبفتح المدارس لتعليم العلوم ودرس العقائد فيها وقد بذلوا مستطاعهم في الهند لتبديل عقائد أهله وحصلت مع المسلمين مباحثات شهيرة وكان الانتصار فيها ولله الحمد للمسلمين حتى انه أسلم بسببها كثير من المجوس بل في هاته المدة أسلم أربعة قسوس من الذين تصدوا للنزاع والجدل بسبب صدق الديانة الاسلامية ورسوخ العلماء هنالك وتبحرهم في العلوم ثم ان أسباب تيسير نشر المعارف في انكلاتيره كثيرة سهلة المتناولة فقد حرروا في سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م انه يوجد بلندره وحدها ٨٧١ مطبعة و ١٦ معملا لصنع المكابس التي تشغلها الايدي فضلا عن معامل مكابس البخار (وتسعة) معامل لآلات اعطاء الحبر للحروف و ٢٢ معملا لصنع مكابس المطابع الحجرية و٢٢ معملا لسبك الاحرف ولوازمها وكل مدينة فيها من المطابع والمكاتب

مايناسبها وعدد المكتبات التي بانكلاتيره ٢٠٠ مكتبة فيها من الكتب المطبوعة ٢٨٧١٤٨٣ ومن الكتب التي بالخط ٢٦٠٠٠ وأعظم هاته المكاتب مكتبة لندرة الكبرى وهي ثانية لمكتبة الامة في باريس ومن أهم وسائط المعارف والتجارة والحرية عندهم الصحف الخبرية وهي على أنواع في الموضوع فمنها الخاص ببعض فنون علمية كالطب والكيميا وغيرها والبعض عام في الفنون والبعض جامع للسياسة والفنون والتجارة وأهم صحيفة من هذا النوع صحيفة التيمس وكان أول انتشارها غرة كانون ثاني سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٨ م وكانت لرجل خاص ثم صارت ذات سهم للمشتركين ولم يزل حفيده منشيها له حصص منها وصارت لها آلة تطبع منها ستين ألف نسخة في الساعة الواحدة مع طبع الهاء على نحو كتاب ذي ثمان صفحات أو ستة عشرة صفحة والورق الذي تطبع عليه يؤتى به ملفوفا على نحو اسطوانة فتلتقمه الآلة وتخرجه مطبوعا مطويا وأول كل قطعة من الكاغد قدر ثلاثة أميال انكليزية ويوضع لها من تلك القطع من الثلاثين الى الاربعين قطعة بحيث لو وصلت ببعضها ممتدة تبلغ مسافة مائة وعشرين ميلا هذا في طبعة الصباح وحدها وتارة تطبع ثانيا وثالثا ورابعا اذا تكاثرت الاخبار ولها لخدمة الطبع والانشاء وغيره أربعمائة عامل نصفهم لخدمة النهار والنصف لخدمة الليل ورئيس المنشئين مرتبه مائة ألف فرنك في السنة وزيادة على المنشئين الرسميين بالمرتبات كل من أتى بمقالة في اي موضوع كان وحسنت عند المدير فانه يعطى صاحبها أجرا عليها يبلغ الى الالفي فرنك على المقالة الواحدة وله في سائر الاقطار مكاتبون بمرتبات وافرة ولهم أعوان وكتاب وادارة مثل سفارة لدولة من الدول ولهم اذن في صرف كل ما يلزمهم لاخذ الاخبار وايصالها للادارة زيادة على مصاريفهم الخاصة فيصرفون احيانا على مجرد خبر واحد بسلك الكهرباء ثلاثة آلاف فرنك وازيد بل ويرشون من يرتشي من متوظفي الدول لاعطائهم الاخبار السرية وقد حصلوا في بعض الدول المهملة على لوائح رسمية قبل وصولها الى السفراء برشوة آلاف من الفرنك وهؤلاء المكاتبون تقتبلهم الوزراء والامراء مثل متوظفين ويحاورونهم في المواد السياسية وعند وقوع حرب فللادارة الصحيفة مكاتبون حاضرون ترسلهم الى ميادين الحرب في المعسكرين حتى يخبروا بما يكون وتقبلهم رؤساء الحرب بالرحب غير انهم يشترطون عليهم ان لا يخبروا الا بما يوافقهم فيحصل من الاخبار من الشقين ما يستنتج منه صحة الخبر وينال هؤلاء المكاتبين من الاخطار ما هو معلوم في الحرب غير انهم يتباعدون عن مواقع الرمي

الرمى وكثيرا ما يكونون بقرب رئيس العسكر ومن المعلوم ان لا يخاطر احدهم بذلك الا لكثرة المال فادارة التيمس لهما من الدخل والخرج السنوى ما يضاهى دولة من الدول الثانوية مع ان كل نسخة منه لاتباع الابنلاثين صانتيما أى ثلاثين من مائة من الفرنك الواحد ولو اشترى الورق وحده أيضا لكان أغلى من ذلك لان ورقه هو من معمل خاص به فالربح العظيم انما هو من كثرة الخرج مع كثرة الاعلانات وعدد نسخ كل دفعة نحو من السبعين ألف نسخة وعلى نحو منه فى أصول الادارة صحف أوروبا الشهيرة كلها

﴿مطلب فى الصنائع فى انكلاتيره﴾ اما الفلاحة فهى مترقية للغاية وأكثر ما يستنبت هو القمح والشعير والبطاطس وشجرة الديفار التى تستعمل منها السكركة أى البيرة وكل المستنبتات لا تكفى حاجة الاهالى فيجلبون من الخارج كثير الاشجرة الديفار وبقية الصنائع فاعظمها عمل آلات الحديد بانواعها والسفن والمنسوجات القطنية ولهم فيها مهارة على سائر الممالك حتى صارت أرخص عندهم من غيرهم ثم المنسوجات الصوفية لاسيما المستخرجة من صوفهم الرفيعة المشابهة للحرير وبقية الصنائع هى دون ما فى فرانسا فى الحسن والرونق لكن جميع مصنوعاتهم متينة

﴿مطلب فى هيئة المساكن فى انكلاتيره﴾ المساكن فى انكلاتيره على خلاف الممالك المتقدم ذكرها فان هيئة البناء من خارج على نحو ما فى الاستانة من خروج جهات من الدار ودخول أخرى وكذلك الطواقى تنفتح أبوابها بالرفع الى فوق مع كونها غير كبيرة مثل ما فى بقية أوروبا وكذلك الديار كل منها لا يسكن الا عائلة واحدة ولا تزيد طبقاتها على ثلاث والبناء كله من الآجر والسقوف والدرج من خشب متقن الصنعة والالصاق بعضه ومن أحسن ما عندهم هيئة الكنف واتساعها ونظافتها وان كانوا يجلسون عليها جلوسا فما تقدم فى الابنية هو الغالب والقليل مثل بقية ابنية الممالك السابقة ثم ان منازل المسافرين هى أيضا مثل الممالك السابقة غير ان أكثر الواردين انما يسكنون فى ديار منفردة يجدها الانسان حاضرة بجميع لوازمها وينفق فى أكله على حسب ارادته والذى يقوم له بلوازمه هو صاحب المحل فيسأله عن مقدار ما يريد يصرف يوميا وعن اجمال وقت أكله وما هو مشتهاه منه فيصرف له على نحو ما يريد وتخدمه خوادم المحل الذين هم فى الاغلب من البنات الجميلات ومن أراد كراء بيت واحد فله ذلك وهذا الطريق أرفق بكثير من السكنى فى منازل المسافرين لانها فى انكلاتيره غالية جدا كانها

معدة لارباب الترف خاصة ثم ان حارات السكنى لا تجد فيها حوانيت للسمان أو غيرها من
اللوازم بل ذلك من عيب المسكن عندهم والطرق التي بها الاسواق وحوانيت الباعة
لا تسكن الا للاراذل بحيث يصح ان يقال ان عاداتهم في المسكن قريبة كثيرا من عادات
المسلمين في انفراد العائلات وحماية الديار من التطرق وشدة النظافة في داخل الديار
تنظيمها كل على قدر سعته أما الفرش والاثاث فهو على نحو ما تقدم في الممالك السابقة
من أوربا ومواقد الانكليز في البيوت أتقن من غيرهم وتلزمهم نفقة تضاهي نفقات
المعيشة لشدة البرد وطول مدته ولما رأيت ان بلادهم كادت أن تكون كلها من الآجر
زال تعجبي مما رأيته من كثرة معامله في الطريق (أما الطرق) في انكلاتيره فهي
دون غيرها من ممالك اروبا المتقدمة في الذكر من جهة النظافة والاعتناء بتنظيمها
حتى اني رأيت في ذات لندره طرقا لا يسع الا عجلة واحدة لا تكاد العجلة تتحرك فيه من
كثرة ما فيه من الوحل والطين مع كونه كثير المرور فيه (وهكذا) سائر الطرقات كثيرة
الوحل قليلة النظافة سيما وقت نزول المطر الذي لا يكاد ينقطع ولهذا شرعوا في عمل
تبليط الطرق بقطع الخشب لانها أنظف (وأما تنوير الطرق) فهو على نحو ما في سائر أوروبا
لكن القرى الصغيرة في بلاد الانكليز هي اسوء حالا من غيرها اذ كثير منها لا تجد
فيه حانوتا لبيع شئ الا نادرا من يبيع ما لا بد منه عوزا كما ذكره الشيخ أحمد
فارس في صفتهم في هذا الصدد حتى يكادوا يلحقوا بالوحشيين نعم ان طرق
الحديد والترع والسفن هي هنا أكثر وأمتن من غيرها ومن الابنية المعتنى
بها السجن فهو عندهم بل وعند سائر أوروبا منقسم على أنواع على حسب الجنايات
وحسب الايقاف والحكم فمحل الايقاف للمتهم حتى يثبت عليه الحكم أشبه بمنتزه منه
بسجن ثم يتدرج الامر الى الجنايات الشديدة فيحبس الجاني في بيت منفرد يدخل له
الضوء من أعلى ويتجدد به الهواء ويعطى شغلا عمليا أو فراشا نظيفا يدفع الحر والبرد وأكلا
سليما من طعام واحد ويخرج في وقت معلوم للتمشي في البستان الذي حول السجن
لكنه يمنع من الكلام مع غيره مطلقا فان خالف الاوامر سجن في محل مظلم بطال
واذا مرض عولج بالطبيب والدواء فسجنهم سجن لا مقتل

﴿مطلب في اللبس في انكلاتيره﴾ لبس الانكليز مثل لبس الفرانسيس بل
والشابات المترفات عيال في التقليد على الفرانساويات وهم يؤثرون مصنوعات
الفرانساويين عن مصنوعاتهم في اللبس ولبس العساكر أحسن من لبس عساكر غيرهم

نظافة وشكلا وان كان على نحو واحد ولما كانت الابخرة والدخان والضباب في انكلاتيره تتكاثر جدا كانت الثياب البيض كالقمصان تحتاج الى التغيير بكثرة تحفظا على النظافة فاحتاجوا الى جعل رقبة القميص ورؤس يديه وصدره مفصولة عن القميص وتمسك به بواسطة زرر حتى لا يلزم تغيير جميع القميص لمجرد وسخ ما يظهر منه عدة مرار في اليوم وهذا وان كان موجودا في سائر أوربا على السواء عند أواسط الناس لكن الذي خصت به انكلاتيره هو جعل تلك القطع من ورق ثخين أبيض حيث وجدوا ثمنه وان كان لا يصلح لازيد من لبسة واحدة أرفق من ثمن الكتان مع دوامه لما يحتاج اليه من كثرة غسل الصابون والنشاء والتمليس بالحديد المحمى ✽

✽مطلب في الاكل في انكلاتيره✽ الانكليز أكثر أكلات من غيرهم حتى ان المقل منهم لعدد ها يأكل أربع مرات في اليوم صباحا وقبل الظهر وفي الساعة السادسة بعد الظهر وقبل النوم والاخيرة هي الخالية عن المطبوخ ومنهم من يأكل ثمان مرات في اليوم وأكلهم على العموم بسيط اذ هو شوربة ولحم خالص مقلى أو مشوى أو مسلوق وبطاطس مسلوقة في الماء ليس الا ولا يضعون في الطعام شيئا من التوابل بل يأتون بها في أواني أمام الآكل يأخذ منها ما شاء بدون طبخ بل حتى الملح كذلك عند بعضهم ومن هاته التوابل الحريفة كثيرا كالفلفل وغيره مما يستعمله الهنود ويأتون الى موائدهم بقطع كبيرة من الجبن وهو الذي بين رأيته كما ان اللحم أيضا يأتون به قطعا كبيرة جدا بحيث يأتون بفخذ بقرة صغيرة كله قطعة واحدة كما انهم أكثر أكلا للخنزير من غيرهم ممن رأيت والمترفون منهم والمطاعم الشهيرة العامة يأتون بطباخين فرانساويين وقد رأيت باحدى المطاعم بلندره (قسما) لاكل الانكليز (وقسما) لاكل المشرقيين (وقسما) لاكل الفرانساويين فيختار الآكل الجهة التي يريدها وكان الداعي لبساطة أكلهم ولو عند الاغنياء كثرة الغش في المأكولات بحيث لا تكاد تجد خبزا من دقيق الحنطة حقيقة بل هو فيه أنواع شتى تركب باتقان حتى لا يفرق بينها وبين الاصل الا بعمليات كيمياوية وكذلك الزبدة فما هي الا شحم حيوانات تركب مع اجزاء بأعمال كيمياوية حتى تصير مثل الزبدة (وهكذا) سائر الاشياء الا اللحم وقد ذكر في كشف المخبا ما يتعجب منه من خلط المأكولات وغشها وجهل العموم بانواع الطبخ وهم كثيرو الشرب للمسكرات الروحية وكذلك المسكر كة أى البيرة لشدة البرد وقلة الخمر وغلائه حيث لا ينبت بأرضهم العنب ويخلطون البيرة بورق التبغ حتى تصير شديدة التأثير ويكثرون

منها حتى يغمى عليهم بل ان أيام الاحد ترى النساء والرجال سكرى على الطرق ملقون ويتفوهون بالفحش وبعضهم احيانا يموت من كثرة السكر وأهل اليسار يشربون الشاى بكثرة سيما فى السمر ليلا ويدعوا الاحبة بعضهم اليه ويختلفون اشربه ويجعلون فى أقداح الشرب قطعا من الليمون الحامض أو يخلطونه بشىء من اللبن ويأكلون معه شيئا من الخبز والزبدة وغير ذلك من المآكل الخفيفة لكنهم لا يضعون فيه العنبر أو غيره مما تصنعه المغاربة والمشارقة وأكثر طبخهم فى الاوانى من الحديد لا النحاس لانه اذا لم يبيض دائما ينشأ منه الصدء القتال ولذا صار أغلب أروبا انما يطبخ فى أوانى الحديد أو النحاس التى يجعل داخلها مطليا بنوع من الخزف بحيث لا يمس النحاس الطعام ومن عاداتهم فى الاكل أكل اللحم النتن سيما فى بعض الطيور حتى يصير الطير يكاد يتحرك من الدود الذى نشأ فيه واذا أدخل الى بيت الاكل زكمت أنوف حتى الكلاب من قبح نتن رائحته وهم يستلذونه على ذلك مثل سودان افريقية ومن القواعد الجارية فى عموم أروبا ان لحم البقر لا يؤكل الا بعد يوم من ذبحه فى الاقل ومثله الطيور والمجرى ان هذا لحسن من جهة تليين اللحم وقابليته للطبخ واللذة سيما فى البلاد الباردة لكن لا يصل الحد به الى حدوث أدنى رائحة به فان هذا مضر بالصحة فضلا عن استقذاره (أما لحم الغنم) وما شاكله فيؤكل فى يومه وهو لذيذ لكنهم ممنوعون من لذة أكل الخروف الصغير اذ الحكم يمنع ذبح الشاة دون سن العامين لاجل الاقتصاد بكثرة اللحم لان الشاة اذا كبر جسمها كفت أضعاف أضعافها وهى صغيرة نعم من أراد ذلك فله ذبح خروف لخصوصه ويؤدى عليه أداء زائدا للحكومة بحيث لا يوجد الا بالاعتناء

* (مطلب فى المواكب فى انكلاتيره) المواكب عند الانكليز هى رأس السنة والاعياد الدينية واجالها مثل ما تقدم فى غيرهم غير انهم عند تهنئتهم للملكة يلبس الكبراء ذلك الشعر الابيض العارية ويقبلون يدها على ظهر الكف ومنهم من يقعد عند ذلك على ركبة ورجل وتقبيل يد الملكات جار عند غيرهم أيضا وزوجة الملك تعامل معاملة الملكة فى ذلك بل وبعض الممالك مثل المانيا العساكر فيها يقبلون يد الملك أيضا ومن المواكب الشهيرة فى لندره يوم دخول صاحب الملك المدينة رسميا متوجها الكنيسة مار بولس متشكرا على ظفر أولافتتاح بناء مهم عام فحينئذ يأتى راكبا الى البلاد ولا يدخل الا من باب تمبل بار وهو فى أول طريق السيتى الشهير فيغلق الباب فى وجهه شيخ المدينة فيقدم الملك الى أن يصل للباب فيفتح أحد كبراء

أتباعه

أتباعه فى بوق ويدق آخر الباب وتقع مخاطبة بينه وبين شيخ المدينة ثم يفتح الشيخ الباب ويقدم للملك سيف البلاد فيأخذه منه ثم يرجعه عليه ثم يسير الشيخ فى ركابه الى أن يصل الى مقصده مع الاحتفال التام وكمال الازدحام ومن المواكب المشهورة يوم تولية شيخ المدينة فى كل سنة فى شهر تشرين ثانى فانه يجعل فى الطرق حواجز لمنع مرور العجلات وتغص الطرق بالخلائق فيخرج الشيخ من قصر كلدهال فى موكب حافل ويركب عجلة مؤنقة ذات قيمة بليغة تجرها أفراس ويركب معه قاضى القضاة والكل باللباس الرسمى وتوضع أمامه آلات الحرث على عجلة مزينة بأتربة الارض وعلى عجلة أخرى سفينة ذات شراع تجرها ستة أفراس أيضا وتنتشر فى الطرق الشرط وتمشى أمامه وتقف حول طريقه فرق عديدة منهم بعضها يعزف بآلات الطرب وبعضها ينفخ فى ابواق وبعضها يحمل رايات مختلفة الالوان وبعضهم متدرع بالدروع العتيقة وفى موكبه جميع أصحاب الرتب العالية وشيخ المدينة المعزول ويلاقيه فى الطريق وزراء الدولة وأعضاء المجالس والندوة وسفراء الدول وعند استقراره بالقصر الخاص به يدعو جميع الاعيان لوليمة فاخرة تشتمل على ٢٦٣٧ صحن مع زينة المائدة باوانى الذهب والفضة ويجعل أمامه صحن به سمك صغير من سمك نهر التمس ويكون ذلك اليوم يوما مشهودا وذلك الشيخ من أعظم رجال الدولة مع أنه يمكن ان يكون سوقيا أو نفرا عسكريا على حسب ما ينتخبه المجلس البلدى وبقاؤه سنة فقط ومرتبه نحو عشرة آلاف ابره لا يستنفع منها لذاته بشئ اذ كلها تصرف فى أهبة المنصب وولائمه

﴿ مطلب فى اللغة فى انكلاتيره ﴾ اللغة الانكليزية مستحدثة متولدة من اللسان التودسكى القديم وهى لغة ضيقة سهلة التعلم بدون المعانى كاملها بالتركيب وقد اشتهرت جدا فى أمريكا والهند حتى صار عدد من يتكلم بها ثمانون مليونا عدا من يعرفها وليس يستعمل لها لغة له وكأنها لغة حلقية لان أغلب أحرفها حلقى ولا تساعد على انشاد الشعر والغنا الا بكلفة كبيرة

﴿مطالب في القوة الحربية والعمرية والمالية والتجارية﴾

فرنك	
٢ ٧٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠	دخل الدولة الانكليزية عدا حكومة الهند والخرج مثله سنة ١٨٨١ نحو
١ ٦٣٠ ٠٠٠ ٠٠	دخل حكومة الهند والخرج مثله
٠ ١٦٠ ٠٠٠	عساكر برية تحت السلاح
٠ ٣٥٠ ٠٠٠	عساكر الهند تحت السلاح
٠ ٠٦ ٠٦٥ ٠٠٠	عساكر بحرية وليس للهند منها شئ في وقت الحرب في الخارج تحضر بالاجرة كما تريد وعند الهجوم عليها فاهلها كلهم محاربون
١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	قوة التجارة المالية نحوا
٠٢٠ ٥٣٨	عدد السفن الشراعية الحاملة للراية الانكليزية
٠٠٥ ٠٢٧	عدد البواخر الحاملة للراية الانكليزية
٠٠٧ ٢٩٤	عدد المعامل ذوات الآلات لسائر المصنوعات في بريطانية
٠٠٠ ٠١٨	امتداد سكك الحديد أميالا اجمالا من الركاب في سنة واحدة ستة ملايين
٠٠٠ ٠٦١	عدد البواخر المدرعة العاملة والاحتياطية
٠٠٠ ٣٦٠	حمولتها طونولاته وكل طونولاته عشرون قنطارا ومدافعها على حساب المعدل الواحد طونولاته ٣٧

الباب السابع ❁ في جزيرة مالطه

﴿الفصل الاول في سفري اليها﴾

لما رجعت من فرانسا الى تونس في أواسط رمضان سنة ١٢٩٦ ووجدت انقلاب الاحوال فيها باستيلاء فرانسا عليها قد نشم ولم تفد نصائحي الى وزير تونس مصطفى بن اسماعيل بل رأيته أضمر لي الشر حتى أوعز الى بعض الصادقين بعزمه على البطش بي ولو أفضى الى القتل معتضدا بربستان قنسل فرانسا اذ ذاك خشية من فشو ما اطلعت عليه من عزمهم وحصول التعطيل لهم حسبما سبقت الاشارة الى طرف منه في ذيل تسلط فرانسا على تونس وفي اسباب سفري ولم نجد مخلصا الا الخلاص برأسي وطلبت من ذلك

الوزير

الوزير كتابة اعفائي من الوظيف منه لا بحالة بدني فاجابني بكتابة بالمنع فطلبت الاذن بالتوجه الى الحج فمنعني أولا فاستجرت اليه بمن لم يسعه الا قبول جاهه فاذن لي قانعا بالاستراحة مني وشافهني الوالي عند وداعه بما يشف عن غيظه الذي ملأ به وزيره صدره فانقذني الله من شرهم وأخذت ورقة الجواز وسافرت أواسط شوال من تلك السنة الى الحج على طريق مالطة بحرا فوصلت اليها بعد سير الباخرة البريدية نحوا من يوم فاذا هي جبال فعلة ترى فيها حيطان من الحجر مرصوفا منتشرة على تلك الجبال ومرساها من أعظم مراسي البحر الابيض اتقانا وصناعة وتحصينا واقعة على الجهة الشرقية من شاطئ بلاد فاليتا التي هي قاعدة الجزيرة فصعد الى الباخرة السماسرة لمنازل المسافرين واتفقت مع سمسار المنزل المسمى أوتيل دي باريس على أن يكون سعر اليوم والليلة فيه عشرة فرنكات سكناي وأكلي ولتابعي والسكنى في حجرتين والاكل مرتين لانهم يسألون عن كمية الاكلات لما تأذوا به من كثرة أكلات الانكليز فدخلنا الى البلاد ولم يطلب الكمرك الاداء على المأكولات وذلك لان السفر الى الحرمين يلزم فيه قطع براري ليس فيها مرافق فاحضرت معي من المأكولات التي تدخر مالا نجده في البلدان التي نمر عليها ومع ذلك كنت خففت ما استطعت ولم نعمل باشارة بعض الاحباء من حمل كثير من اللوازم ظنا منهم اني أجدها في البلدان القريبة هناك وكان الامر على ما قالوا كما سيأتي في محله ان شاء الله ولما كانت مالطة مرسى حرة لما يأتي في سياستها لم يكن فيها اداء على شئ سوى المأكولات التي تؤدى الى المجالس البلدية لمصالح البلاد وحيث كنت لا احتاج الى تلك الاشياء في مالطة أبقيتها مؤمنة في الكمرك وأخذت فيها حاجة لكي لا نؤدي عليها شيأ وبعد الاستراحة بالمنزل نظرت فاذا بالطبقة السفلى ملآنة بصناديق مكسوة بالجلد الجميل ومسامير النحاس ومعها بعض خدم وحشم والطبقة العليا فيها عائلة من المسلمين ومعهم رجل ممن اتخذ السخرية صناعة له فتقدم الي وحادثني بكلمات بعضها عربي وبعضها تركي ولم أكن اذذاك أفهم التركي فاعلمته باني لم أفهم فعدل الى العربي وأعلمني انه من حاشية أحد الكتبة بطرابلس الغرب من موظفي الترك وانه أرسل الى الاتيان بعائلته من الاستانة فصحبها مع بقية الخدم وذكر في حديثه مقدار مرتب متبوعه فظننت انه هازل فحقق لي المقدار فاذا هو لا يبلغ ماذتي فرنك في الشهر فتعجبت من الامر كيف يكون صاحب تلك البذخة مكتفيا بذلك المرتب ويتعب لاجله من الاستانة الى طرابلس الغرب مع شدة التباين في الهواء بالحر والبرد مع خلو الوظيفة عن مقام عال حتى يتحمل لصاحبها برغبته في

الصيت فدل على وجود بحر آخر على غير الوجه الرسمي مما يضر بالمملكة والله لطيف
حفيظ (وهاته) البلاد أعني فالينا قاعدة مالطة متصاعدة في جبل حتى ان أغلب طرقها
يصعد فيها بدرج وبها طرق رحيبة للعجلات أحسنها واحد يمر من الشمال الى الجنوب
خارق البلاد الى طرفيها وبعضه مبلط بالخشب لمجرد تقليد بلاد لندره والا فلا باعث عليه
لا من جهة الوسخ المتسبب عن عدم انقطاع الامطار ولا من جهة قرقعة العجلات
المتكاثرة ولا من جهة رخص الاخشاب اذ مالطة على خلاف ذلك كله وهي على نوع
البلاد الاروباوية المتوسطة في الكبر والحسن غير انها متقنة نظافة الطرقات وان كان
أهلها يبولون ليلا في الطرقات لكنهم يغسلون محلات البول كل يوم وبها قصر الحاكم
وفيه آثار عتيقة على قدر حالة البلاد وليس منها ما يذكر الا مدافع من أول نوع اخترع
وهي ورقات من نحاس معصبة بحبال ثم ملفوف عليها جلد غليظ مطلي بالقطران طول
كل مدفع ثمانية أشبار وقطر داخله سبع عقد وبقية ما في البلاد ليس منه ما يفرد بالذكر
غير انها حاوية لانموذج ما في المدن الحسنة مما يرجع الى التحسين على نحو ما في أوروبا
فلا نطيل باعادته (أما في التحصين) فهي من أول أقسام المراسي والبلدان الحصينة
بما حولها من الحصون المعمرة بالمدافع الضخام جدا مع الكثرة وجعلها طبقة فوق
أخرى لما ساعد على ذلك من الجبل فهي حصون منحوتة فيه لا تخربها القنابر ولو من
أعظم المدافع بحيث يصح أن يقال انها لا يمكن للهاجم اقتحامها أو أخذها الا بالحصار
لاحتياجها الى القوت من خارج نعم يلزم طول مدة الحصار لانها مركز متوسط في البحر
الابيض فتجئ اليها التجارة من البحر الاسود وغيره ويخزن فيها من الحبوب وغيرها ما يكفي
أهلها عدة سنين كما انها تشتمل مرساها على معمل مهم للسفن واصلاحها محتوية خزائنه
على كل المواد اللازمة لها وبها مرسى أخرى تسمى مرسى موشيه وكنها منحرفة عن مرسى
الشط وهي مرسى الكرنتينة أي مكان اقامة الواردين من البلاد المصابة بالامراض
المستوبية وهي دون الاولى وحولها مساكن مقسمة على أقسام على وجه يمكن به
الاحتراس من مخالطة السكان بعضهم ببعض وهي مساكن لا باس بها كما يوجد خارج
البلد مقبرة اسلامية محوطة بسور ولها باب مغلق مفتاحه عند امام الجامع وهو جامع
ظريف والامام يقيم هناك والقائم بالجميع الدولة العثمانية لكثرة ورود المسلمين الى
هناك حجاجا وتجارا من المشرق والمغرب فاقيم ذلك الامام للصلاة بالجامع وعلى من يموت
لكنه عوضا عن سلوكه مسالك الديانة كان مقيما على الخنا والجامع معطل ولله عاقبة
الامور

الامور وعند مروري على حوانيتها وجدت بها أسرة من حديد صغارا خفيفة تطاق حتى يصير الواحد في طول ذراع وغلظ سبع عقد و يقف في المكان المخفى الذى يفرش على ظهره للنوم عليه فاخذت منها اثنين للرحلة في الحجاز وفتشت على معمل صغير يمكن حمله بسهولة للثلج فلم أجده هناك ولا وجدت شيأ يحتمل أني لا أجده في غيرها فاكتفيت بذلك وسافرت منها بعد الاقامة بها ثلاثة أيام راكبا باخرة تجارية انكليزية متوجها الى اسكندرية

الفصل الثاني

﴿ في التعريف بمالطة ﴾

يسمى هذا الاسم ثلاث جزر واقعة في البحر الابيض على دقيقة ٤٥ درجة ٣٥ من العرض الشمالي ودقيقة ٤٤ درجة ٢٢ من الطول الشرقي الجزيرة الاولى تسمى مالطة و بها ستة عشر قرية أكبرها فاليتا التي هي القاعدة والجزيرة الثانية تسمى (أدوج) بها ستة عشر قرية والجزيرة الثالثة تسمى كمونة وبقربها أخرى تسمى فلفلة صغيرتان ليس بهما سكان وانما يقدم اليهما أهل الجزيرتين الاخريين للفلاحة بهما واختلف الجغرافيون في الحاق مالطة فمنهم من جعلها من أفريقية ومنهم من جعلها من أروبا لقربها الكل منهما (وكل هاته) الجزائر جبال صخرية غيران حجرها لين سهل النحت فاذا جف بالشمس تصلب نوعا ما فارضها غير جيدة لكن لشدة العمل والمعالجة صارت صالحة لزراعة كل النباتات التي بالبلاد الحارة (وأما جبالها) فليست بمرتفعة وليس بها الكافي وليس بها انهار الا ما يحدث عند المطر من السيول وليس بها بحيرة (وأما عيونها) فتوجد بها عينان ضعيفتان (احداهما) بالجزيرة الاولى (والثانية) بالثانية ماؤهما عذب مشوب بشيء يسير من الملوحة وأكثر شرب أهلها من ماء المطر المخزون في دهاليز وجرار (وأما هواؤها) فهو أميل للحر لقربها من المنطقة الحارة وتحدث فيها الاسحبة فجأة بامطار كأفواه القرب مع رعود و بروق هائلة ثم تنكشف بسرعة ويحدث ذلك بها في الصيف الا انه بقلة فيه وأما في الخريف والشتاء فهو كثير والهواء حريف مضر بالصدر كثير الندى حتى يفسد المأكولات وغيرها المخزونة في أماكن قليلة تغير الهواء (وأما نباتها) فينبت بها سائر البقول وهي جيدة والقمح والشعير وغيرهما من الحبوب و يحصل فيها خصب متوسط كما ينبت بها القطن والعنب والرمان والزيتون وغير

ذلك من الاشجار التي تتحمل الحر ولا تحتاج الى كثرة الماء ولذلك لم يكن بها غابات وما ينبت فيها من الشجر لا يرتفع على وجه الارض الا يسيرا فترى الخرنوب الذي يكون في تونس الواحدة منه مثل غيضة شاهقة هو في مالطة لاصق بالارض لا يكاد يبين (وهكذا) سائر الاشجار ويعظم بها الصبار جدا (وأما حيواناتها) ففيها المعز الحسن كثير الحلب وبقية النعم يجاب لها من خارج ويعلف علفا الا قليلا من الرعي لعدم المرعى وبها الحمير بكثرة والبغال والخيل بقلة (أما الحيوانات) الوحشية فليس بها الا الارانب ومنها نوع انسي يعظم ويربي والسباع منقطعة والطيور الانسية كلها مربات عندهم ويوجد بكثرة العصفور الاصفر الحسن الصوت المسمى بالكناري والبرية قليلة الا بعض الرحالة كالسمان (وأما المعادن) فليس بها الا الحجر ويصنعون الملح عند شاطئ البحر بعملية صناعية (وأما مدنها) فهي قاعدتها المسماة بفاليتا والبقية قرى مجموعها أحدى وثلاثون قرية أهم ما فيها الكنائس (وأما مراسيها) فقد تقدم ان بها مرسيين عظيمتين جدا وما عداها فانما هو مراسي طبيعية حول القرى للقوارب وما شاكلها (وأما أهلها) فعددهم مائة وخمسون الفا كلهم مالطيون وبينهم قليل من الطليان تجارا ومن الانكليز عسكرا أو بعض متوظفين ومن العرب افراد اتجارا أو مجتازين وأصل الاهالي على غالب الظن من بربر تونس ودياناتهم نصرانية على مذهب الكاثوليك ولهم غلو شديد وانهماك في اعتقاد خرافات

الفصل * الثالث

﴿في تاريخ مالطه﴾

﴿مطلب في التاريخ القديم﴾ أول من سكن هاته الجزيرة الفنيقيون وسموها اجاجية ثم عمرها اليونانيون وسموها مالينة واشتهرت بذلك من قبل التاريخ المسيحي سنة ٨٢٢ ولم تزل ولايات المستولين على ايطاليا تتوالى عليها ثم سلموها للقرطاجنيين ثم رجعت للرومان ثم ألحقت بالدولة الشرقية ولما ظلموا الاهالي واشتدت وطأتهم استغاثوا بالمسلمين فافتتحها المسلمون بعبورهم البحر من تونس اليها والى صقلية في المائة الثالثة هجرية ولاقوا من أهلها أحيانا ثورات شديدة الى ان تم الاستيلاء عليها ونقلوا اسمها الى مالطة المعروف الآن وكأنه مصحف من الاسم اليوناني السابق وبقيت بأيدي المسلمين نيفا ومائتي سنة ثم لحقت بصقلية تحت عائلة النورمان ثم التحقت بمملكة

النمسا

النمسا الملقبة اذذاك امبراطورية جرمانيا ثم الحقت بفرانسا ثم بنابلى ثم استولى عليها نابليون الاول وألحقها بفرانسا ثم عند حرب الدولة العثمانية لفرانسا فى مصر وتحزب انكلاتيره للدولة العثمانية استولت انكلاتيره على مالطة

﴿مطلب فى تاريخ مالطة الجديد﴾ لما أساء الفرنساويون الى أهل الجزيرة بانتهاك عوائدهم وكذا بهم ثاروا عليهم ثورة شديدة واستنجدوا الانكليز فاعانوهم وسلموا الحكم اليهم وكان ذلك فى سنة ١٨٠٠ ولم تزل حكومة الانكليز مستقرة هناك وأغلب الاهالى مائلون اليهم عن طيب نفس

﴿مطلب فى سياسة مالطة الداخلية﴾ الحكومة انكليزية بمعنى ان الحصون والقشل بيد عساكر انكليزية والحاكم العام انكليزى مراع للاهالى وعوائدهم حتى انه يجرى لهم أحيانا ويرسل لهم حاكما على مذهب الكاتوليك من أهالى ارلاند، وقد وقع ذلك مرة عندما تعرض أحد الحكام البروتستانت لعادتهم فى أحد أعيادهم فاشتكوا منه وعزلته دولة انكلاتيره حالا وعوضته بكاتوليكى ولا تزال تراعى لهم ذلك وهو عندها احدى الكبرلما ربك من قانونهم وعوائدهم حتى فى التعصب لمذهب البروتستانت وذلك الحاكم يبقى فى وظيفته خمس سنين ثم يبدل بغيره الا أن تطلب الاهالى ابقاءه ثم ان تصرفه مقيد بشورة عشرة من أعيان المالطيين فى كل ما يعود على مصالحهم وحالة بلادهم وكل المتوظفين فى السياسة والاحكام هم من أهل مالطة الا الكاتب الاول للحاكم العام وجميع دخل الحكومة لا تأخذ منه دولة الانكليز ولا دانقا واحدا بل كله يصرف فى مصالح الاهالى وعساكر الدولة تصرف عليهم من خزينتها لا من دخل مالطة والاحكام الجارية هى أصول القانون الانكليزى ممتزجا بما يصلح بالاهالى ومطابقا لعاداتهم حتى ان احترام يوم الاحد الذى يلزم فى انكلاتيره غلق جميع الدكاكين فيه لا ترى منه فى مالطة شيئا فتلخص ان الحكومة شورية قانونية والاحكام الشخصية منفردة من الادارة العرفية واسم الحكومة الانكليزية وحقيقتها أهلية غير ان أكثر الواردين من الانكليز سواء كانوا متوظفين أو غيرهم يتكبرون كبرا عظيما على الاهالى لاستحقار عاداتهم وبلادهم فأورث ذلك كره رعاع الاهالى لهم وان لم يقدر واحد من الانكليز على ظلم أحقر الاهالى

﴿مطلب فى السياسة الخارجية بمالطه﴾ ليس فى مالطة من سياسة خارجية تعتبر اذ هى لاحقة بانكلاتيره وانما فى قاعدتها قناصل لكل الدول الكبيرة مراعاة لكونها

مأوى متوسط بين المشرق والمغرب فتأوى اليها السفن المارة لكلا الطرفين وليس لاولئك القناصل من شئ سوى قضاء ما يحتاج اليه اتباع دولهم اذ الحكم في البلاد جار على الجميع سواء من دون دخل لقنصل فالقناصل أشبه بوكلاء تجارية نعم لهم فائدة في الاعلام بالحوادث السياسية ان حصلت هنالك ولذلك كانت أغلب القناصل هناك أصحاب وظائف شرف لا وظائف عمل فكثيرهم لا مرتب له وانما يكون من ذوى الثروة يقنع برسم اشارة الحكومة المنسوب اليها على باب داره لمجرد الفخر اذ الافرنج مطلقا سواء كانوا من أهل مالطة أم من غيرهم لهم ولوع زائد بحب الفخر فتراهم يتهافتون على نياشين الافتخار وعلامات الامتياز ولو من دولة صان مارينو التي هي عبارة عن أربعة آلاف نسمة ليزينوا بها صدورهم في المواكب أو يثبتوا في ستراتهم غرزات على شكل الوردة ذات ألوان مشيرة الى ما عندهم من علامات الامتياز فاذا دخل الزائر مقابلا بتلك الوردة نال من المزور زيادة المراعاة ولو من جبابرة لندره وطغاة باريس ومن سخافة عقول بعضهم أن يتخذ تلك الاشارات وسيلة للتدجيل على النساء حتى تعشقه للزواج أو غيره بناء على انه من علية الناس وقد نشأ عن هاته الرغبة في النياشين ان بعض الدول صار لا يعطيها الا بثمن لذات النيشان الذى هو أزيد من قيمته وزيادة على ذلك صار بعض الدول يعين لسفرائه في الخارج عددا مخصوصا من كل طبقة من النيشان ليبيعه ويتعوض بثمنه عن أخذ مرتب له من دولته وكذلك مرتب اتباع السفارة مع ما يحصل له من رعيته اذا كان مقيما في مملكة يسوغ فيها تداخل السفراء والقناصل في الاحكام

﴿مطلب في بقية عادات المالطيين وأحوالهم﴾ لما تقدم لنا الكلام في الممالك السابقة على بيان أطوار الاوروباويين وعاداتهم فلا داعى الى الاطالة بالاعادة على غير فائدة لان مالطة قطعة من ملحقات أروبا واجمال أطوار أهلها على العموم مثل أطوار سفلة الطليان والاعيان منهم مثل أعيان أروبا سوى انهم يزيدون عليها بكثرة لبس الخواتيم في الاصابع ونساؤهم جميعا اذا خرجن في الطرق يجعلن على رؤسهن رداء أسود مدلى جهة اليسار ويمسكن طرفه الايمن بايديهن وكذلك لغتهم مخالفة لغيرها لانها عربية محرفة جدا مدخول فيها كثير من الالفاظ والاصطلاحات الايطاليانية

الباب الثامن فى الاقطار المصريه

﴿الفصل الاول فى سفرى اليها﴾

بعد أن أقمت بمالطه ثلاثة أيام ننتظر سفر باخرة توا الى الاسكندرية حيث لم يكن بينهما بواخر بريدية توا وانما البريد يسافر الى ايطاليا أوغيرها من جهات المشرق ثم يذهب الى الاسكندرية ويلزم طول مدة السفر فلذلك أتيت باخرة تجارية من بواخر الانكليز التى تتوجه الى هناك بكثرة فوجدنا واحدة مشحونة بالفحم الحجرى أنزلت منه ما أنزلت فى مالطه وجاءت بالباقى الى الاسكندرية والكراء فيها وفى أمثالها أرخص من بواخر البريد لانه راجع الى السفن حيث ان أصحابها ليس لهم الا محمولات التجارة التى هى موضوع تشغيل السفينة فلم يكن بها الا الطبقة العليا والاخيرة للركاب وليس بها المتوسطة وهما مثل طبقات البريد فركبنا ليلا لان الباخرة عند تمام افراغ شحنها تسافر من غير تأخير ولكنها لم تسافر الا صباحا بعد الشروق وأسفت من ركوبها لما رأيت بها من الوسخ سوى داخل البيت الكبير فانه نظيف ومثله حجرات النوم ومن المعلوم أن الجلوس به دائما مقلق لكنه مامضى من وقت السفر أربع ساعات الا وقد غسل ظاهر الباخرة غسلا محكما ونشف فصارت من أنظف البواخر والحق أن يقال ان بواخر الانكليز مطلقا أشد نظافة مما يماثلها من غيرها أعنى كل نوع بالنسبة الى نوعه وذلك انى كنت رأيت بواخرهم الحربية مجتمعة مع غيرها من البواخر الحربية للدول الكبيرة عند قدومها الى تونس سنة ١٢٨٠ فى الثورة العامة فاذا بواخر الانكليز أتقنها نظافة وكذلك البريدية والتجارية ويليهم فى ذلك الفرانساويون ثم استمر السير والبحر فى غاية السكون وكان معنا من الركاب فى الطبقة الاولى اثنان انكليزيان لهما معرفة بالتصوير فكدنا أن لانمر بشئ الا وصوراه من طير أو سحاب أو سفينة بل وكل من فى الباخرة حتى كان فيها فى الطبقة الاخيرة على ظهر السفينة أناس من المغرب وآخرون من صفاقس كلهم متوجهون الى الحج وفى كل يوم عند ارادة غسل ظاهر الباخرة يؤمرون بالانتقال من مكان الى آخر مع حمل رحالهم فيكونون فى أشد التعب مع الدوار الحاصل لبعضهم بعرض البحر فصوروهم على تلك المشقة والجهد الجهيد ولما نظرت الى حالة هؤلاء الحجاج شاهدت مصداق قول الفقهاء بعدم وجوب الحج على تلك الصورة لانهم لا يصلون وصلاة واحدة مثل فريضة الحج وتركهم للصلاة يأتى من نجاسة أبدانهم من تغوطهم بلا

استقذروه من المياه الملقاة عليهم بغسل السفينة ومن عدم وجود مكان للصلاة لانهم يمنعون
من تجاوز محل جلوسهم ومع ذلك يعاملون معاملة الحيوانات البهم من الخريتين
بالاهانة والسب الى غير ذلك وأيضا يعتري بعضهم الدوار البحري فيتقايا في مكانه بل
منهم من يتغوط ويبول فيه وتصل نجاسته لمن بجنبه فلما رأيتهم في سوء تلك الحالة
ذهبت اليهم وأعلمتهم بالحكم الشرعي في وجوب الحج وشروط الاستطاعة فيه وسألتهم
لماذا يعدلون عن ركوب الطبقة الوسطى في بواخر البريد أو في العليا هذا مع أنها ليست
بغالية وبعضهم تظهر عليه آثار الثروة فأجابوا بان ذلك العذاب لا ضير فيه لانه مدخول
عليه في السفر الى بيت الله بل مهما ازداد كان ثوابه أكثر وأصروا على ذلك منكرين
على قولي فعدلت عن ذلك ولاطفتهم في المحافظة على الصلاة فقالوا كيف نصلي ونحن على
هاته الحالة وأين نصلي فقلت لهم انكم مالكية ومذهبكم يرى صحة الصلاة ولو على ما أنتم
عليه لان ازالة النجاسة تجب وقيل تستحب فقط مع القدرة والتذكر فقال لي واحد منهم
اني أصلي كما رأيتني قلت نعم رأيتك تصلي والآخرون قالوا لو نجد مكانا ويتركوننا نتطهر
فاننا نصلي فتلطفت لرئيس الباخرة الى أن أذن لهم في التمسح واستعمال الماء في
المرحاض فقط لكن أغلبهم مع ذلك لم يصل وقد سألتهم أيضا عن موجب كثرة رحالهم
حتى ان بعضهم رافع جرة كبرى ملفوفة بشرطان الحلفاء الا ما وقربة من الادام والقديد
الى غير ذلك فقالوا ذلك اقواتنا فقلت انكم متوجهون الى مدن ان لم تكن أكبر من
مدنكم فهي نحوها ولا بد أن يكون لاهلها ما يكفيهم فهلا وسعكم ما وسعهم وزاد الطريق
في البراري يؤخذ من أقرب مدينة اليه فقالوا يلزم لذلك الثمن وهذا الذي عندنا انما هو
من بيوتنا فقلت لو بعتم هذا وأضفتم عليه كراء حمله بحرا وبرا لكان أرخص عليكم من
شراء الزاد من الاماكن اللازمة فقالوا تلك بلاد لا نعرف أحوالها والاولى التزود من
أماكننا وهكذا جرت العادة فعلمت ان تأثير العوائد أمر صعب جدا وفي غروب اليوم الرابع
وصلنا الى الاسكندرية ولم يظهر لنا منها شيء لان أرضها منخفضة ولا جبال بها حتى يمكن
رؤيتها من بعد وحيث كان وصولنا بعد الغروب ومن الرسوم ان لا تدخل السفن اليها
الا بهاد يهديها الطريق حيث كان قرب مرساها صخرات لا تتبين من البحر وتضر بالسفن
اذا صادمتها لزم حضور أولئك الهداة ليدلوا السفن على الطريق ولهم على ذلك أداء
معين فلزم الباخرة ان تكون طول الليل غادية رائحة في نحو ميلين ولم يظهر لنا من البلد
سوى منارة هداية السفن وقرب الشروق ظهر الهادي في قارب قادما للباخرة فاعرض

عنه السفن محتقر اله وابتدأت مشاهد في لتعاظم الافرنج على المصريين وتبين ان السفن
كان عالما بالطريق لكنه انما توقف من الدخول لمجرد الرسم فدخلنا المرسى فاذا هي
ذات أمن وذات مرسى صناعية فيها من بواخر الحكومة المختازة الى جهة خاصة ثمانية
بواخر كبار كلها خشب وفيها من البواخر التجارية الاجنبية أزيد من عشرين وفيها
باخرة حربية أجنبية وبعد تمام الارساء وأخذ الاجازة للباخرة من مأموري الصحة في
انزال سلعها وركابها أذن للركاب بالنزول وذلك لان من القوانين العامة ان كل سفينة
تسافر من مكان يلزمها أن تأخذ من مأموري الصحة به الذين لهم ديوان خاص صكا
منصوصا به حالة البلاد التي سافرت منها من جهة الامراض العامة ومقدار ما في السفينة
من الركاب وأنواع البضاعة التي بها فاذا وصلت الى مرسى مقصودة لها أول ما يتلاقاها
مأمورو الصحة فيطالعون ذلك الصك ويبحثون عن صحة الركاب وعددهم فان لم يوجد
بها شيء مضر أذنت بافراغ ما تريد في تلك المرسى فاحاطت بالباخرة القوارب الغفيرة وثار
عجاج الصياح من أصحابها المختلطين من أهالي وافرنج في النزاع على حمل الاثقال
والركاب ولما رأيت الامر تفاقم اضطربت خرجت من الباخرة عند دقات رحلي وجلست
حارسا لها في زاوية لان أصحاب القوارب كادوا يختطفون أرحال شتى أصحابها أم أبى
من غير مسارعة للاجر وتلك خلة فيهم في أي بلد كانوا ثم بعد الوصول يطلبون الاجر اضعافا
مضاعفة ولما نزل جميع الركاب مع رحالهم ولم يبق حول الباخرة الا قوارب السلم التي
عهدتها على القمرق دعوت قاربيا واتفقت معه على أجرة معين وأعانني على ذلك ابن
وكيل حكومة تونس الحاج علي الفيزاني رحمه الله حيث تلقاني في الباخرة بعد ان ورد
تابعه سائلا عني وظننته أحد أولئك القاربيين فأسقط خبري لان حركاته لا تميزه ثم
لما وصلنا الى القمرق طلبوا ورقة الجواز وكادت ان تحصل لنا أتعاب بمنع الدخول الى
الاسكندرية حيث كانوا يمنعون دخول من يريد الحج واذا جاءوا لهم خارج البلاد مكانا
محاطا بالعساكر بحيث لا يسوغ للوارد الا الركوب في البحر أو طريق الحديد الى
السويس وكان سبب ذلك كثرة من كان يرد من الاقطار الغربية للحج بلا مال ولا زاد
فيتكاثرون بمصر ويحملون حكومتها وأهاليها أعباء ثقيلة مما لا داعي اليه لا شرعا
ولا عقلا لان أصل فرض الحج معلق على الاستطاعة بنص القرآن الكريم فلا يسوغ
الاقدام على السفر بدون شروطه نعم اذا وقع لعارض فقد المسافر لمال يقوم به في
الرجوع لوطنه أو لمحل ماله أو اقامته ففي بيت مال المسلمين قسم معين بنص الكتاب لابناء

السبيل فيعطون حاجتهم الى بلوغ مكانهم ولو كان ابن السبيل غنيا لكنه فى ذلك الطريق لامال له فتدارکنا الله بلطفه واذننا المکلف بالدخول للبلد فنظروا الى رحالنا وأرادوا التشديد فى تفتيشها وقلب عاليها على سافلها مطالبين الاحسان اليهم فلم يسعنى الا التخلص من الظلم بدفع شئ من المال ارتكابا لاخف الضررين من الخوف من تشتيت رحلى والسرقة منه مع التعب ثم قصدت منزل المسافرين الافرنجى المسمى أوتيل دى روب فى أكبر بطحاء البلاد بعد مشقة فى التخلص من النزول عند وكيل تونس الذى لا داعى اليه سوى تحميله الكلفة بالضيف والمصروف عليه مع تكليفى بلزوم مراعاة أحواله وعاداته مما عساه لا يوافق حالتى وعاداتى اذ لم تكن لى معرفة به قط مع ما أنا عليه من المرض الملازم الذى اشتد منذ رجوعى الى تونس بسبب الانفعالات النفسانية فيلزمنى المساعدة لمزاجى فى الاكل والنوم وغير ذلك مما يحمل مضيفى مشقات أو يضر بى تركه فاكتريت فى ذلك المنزل بيتا واسترحت به على ما ساعدنى واغتسلت فى حمامه واكلت وغت ثم اكتريت عجلة وقصدت أخى فى الله الصفوة الخيرية عالى الاخلاق والاعراق سيدى ابراهيم السنوسى الحسينى وهو المحدث البليغ المتفنن فى علوم المنقول والمعقول والسياسة صاحب الاخلاق المطابقة لانتسابه العالى نشأ من بيته الاصيل بمدينة فاس البيضاء قاعدة مملكة المغرب وحصل من العلوم ما استكمل به فخره ثم رحل الى تونس وأقام بها بضع سنين وامتزجت به أفاضلها وأعيانها سامة أنسين بعلمه وأدبه وكاد أن يتخذها قرارا لولا المحنة التى وقعت بها من سنة ١٢٨٠ الى سنة ١٢٨٦ فارتحل عنها على ما دعت اليه مقتضيات الاحوال من فساد الحكومة واستقر بالاسكندرية مثنيا عليه على كماله وفضله وعفافه واتسعت نعم الله عليه لازال أهلا لكل فضيلة فلاقيته فى الطريق وألزمنى بالاستقرار فى مقره وحيث كانت الاسباب المشار اليها آنفا فى التخلص من الضيافة مفقودة مع أخى الفاضل المومى اليه لا من جهتى ولا جهته ساعفت مراده وأقمت عنده سبعة أيام ولاقيت أيضا أخى فى الله التقى النقى الكامل رستم باشا التونسى وهو الفاضل العفيف النصوح المؤتمن نشأ فى بلاد الجراكسة من جبال القوقاس ووفد على تونس دون سن العشر فأدخل الى مكتب الحرب وحصل على القرآن العظيم ونصيب كاف من العقائد والعبادات والتجويد والنحو والحساب والهندسة وغيرها من الفنون الرياضية والحربية مع تحصيل اللغة الفرانساوية ومعرفة اللغة التركية وثافن علم التصوف ثم تقلد الوظائف السامية فى حكومة تونس فولى أمير لواء حراسة الامير ثم مستشار الداخلية

ثم وزيرا فيها وعضوا في المجلس الخاص والمجلس الاكبر وكان من أشد المحامين عن العدل والشورى ولما وقعت النكبة العامة لتونس سنة ١٢٨٠ وما نشأ عليها من المظالم سافر المشار اليه الى اروبا ثم رجع الى تونس سنة ١٢٨٦ باستدعاء الحكومة وقلد وزارة الحرب مع توظفه في كل من المدنيين بولايته عاملا على أعمال نديهة بجربة والاعراض وغيرها وسافر مرارا أميرا على المعسكرات لاقرار الراحة والامن في الولاية وفي كل ما تقلد به كان مستقيم السيرة والسريرة مثنى عليه بالسن الخاص والعام ولما ابتدأت النكبة الكبرى الاخيرة لتونس ورأى مباديها ترخص من الوالي السفر للتداوي فأقام في أروبا مدة ثم أقام بالاسكندرية فلاقيته بها في احدى المنازه الكائنة بالرملة وانهمرت من الكل الدموع لما توقعناه للوطن العزيز ولا حول ولا قوة الا بالله وهاته البلاد أعني اسكندرية هي ثاني مدينة في القطر المصري وهي مناخ تجارته مع سائر الممالك التي على البحر الابيض والمحيط الغربي وبها حصون حصينة وقشلات للعساكر ومكاتب عديدة لسائر الفنون وقصر للخديوي بقرب المرسى أنيق فاخر ومتنزه عام خارجها بالمكان المسمى بالمحمودية وهو متنزه جدا تغنى به الموسيقى الرسمية في العشية ولكن أكثر من يرد اليه الاجانب وفي المحمودية طريق وسيع صناعي حوله الاشجار العظيمة يتماشى فيه المترفون بعجلاتهم وبقربه فرع من النيل وعليه آلات بخارية لرفع الماء وتصفيته وتقسيمه صافيا على البلاد في قنوات وأغلب طرق البلاد مبلطة بالحجارة حسنة المنظر سيما حارات الافرنج التي بوسطها البطحاء الكبرى ذات الجنينة والفوارات وحولها القصور الشاهقة ومن تحتها الحوانيت المزخرفة وبوسطها صورة محمد علي باشا مجسمة ضخمة كأنه راكب جواده وأغلب طرق البلاد في حارات المسلمين ضيق وما عداها فهو متسع وبها من الجوامع الشهيرة جامع الامام البصيري رحمه الله وهاته المدينة بناها اسكندر المقدوني وهو الرومي اليوناني الذي نشأ في مقدونية المعروفة الآن بالرومييلي في بلد فيليه وهو تلميذ أرسطو الذي أشار عليه بتفريق ممالك الفرس عند تغلبه عليها سنة ٩٣٥ قبل الهجرة وقال له الحكمة المأثورة الى الآن وهي اقسم تحكم قال في الاقيانوس وليس اسكندر هذا باني سد يأجوج فان ذلك من الملوك المعروفين بالاذواء من قبائل حمير ببلاد اليمن واسمه الصعب ولقبه ذو القرنين ولقي ابراهيم الخليل وعانقه كما في الصحيحين واطال في ذلك فليرجع اليه من أراده وهذا مما يؤيد ما قلناه في الكلام على سور الصين في المقدمة ولله

المجد وقد سماها الاسكندر هاته البلدة بالاسكندرية باسمه وكانت هي قاعدة الاقطار المصرية الى الفتح الاسلامي وكان تجاهها جزيرة يقال لها جزيرة فارس فاتصلت بالبر برصيف بناه بطليموس وهي الآن جهة رأس التين وفي الشمال الشرقي منها بني المذكور منارة الاسكندرية الشهيرة وكان ارتفاعها اكثر من ١٥٠ قامة واحد جوانبها يزيد من ٥٠ ذراعا وكان أنشأ اعلاها احمد بن طولون قبة من خشب فأخذتها الرياح ثم أصلح المنارة لتداعيها الملك الظاهر بيبرس وبنى عليها مسجدا انهدم بزلزلة ثم جدد ثم انهدم الجميع وبنى بمحلها القناطر الموجودة الآن من آثار محمد علي باشا وقد كان أسس بها بطليموس الاول خزانة كتب تعد اذ ذاك من عجائب الزمان تحتوي على ٧٠٠ ٠٠٠ مجلدا وزعم بعض المفترين من المؤرخين ان امير المؤمنين سيدنا عمر أمر بحرقها مع انها احترقت قبل الاسلام بمدة مديدة لان الذي أحرقها هو يولس قيصر الرومان عندما كان محاصرا بالاسكندرية ورامت أعداؤه الاستيلاء على سفنه فأضرم فيها النار وكانت بقرب من القصر الملكي المحتوي على الخزانة المذكورة فاحترق الجميع كذا في جغرافية مصر البكري قال ومن المحقق انه بعد مدة من الزمن كان انطوان الروماني أهدى الى الملكة كيلوبطرة من كتب خانة برجام ٣٠٠ الف او ٤٠٠ الف كتاب فتجدد بذلك خزنة كتب عظيمة وان كانت دون الاولى فأصابها الحريق مرتين ثم دمرت بالتمام بواسطة المتعصبين للديانة النصرانية لازالة أفكار عبدة الاوثان في مدة حكم تيودوس قبل الاسلام اه باختصار وسكان هاته المدينة الآن نحو من ٣٠٠ ألف نسمة وبها ازيد من ٣٠ ألف محل ما بين كبير وصغير وتشتمل على محل فاخر للسفن واصلاحها ومن غرائب البلدة المسلة الواقعة قرب محطة سكة الحديد الموصلة للرملة وهاته المسلة على نحو المسلة التي ذكرناها في باريس ولندره اذا الجميع نقل من مملكة مصر ولم يبق بها الا هاته فقط وطولها ٦٤ قدما في قطعة واحدة منحجرعليها كتابة قديمة عملت مدة الملك موريس المتملك سنة ١٧٣٦ قبل الميلاد ومثلها غرابة عمود السواري الشهير الواقع جهة ميناء البصل وهو عمود على قاعدة عظيمة فوق تل عال ارتفاعه مع تاجه أكثر من ٣٠ ميترو ومحيطه نحو ٢٨ قدما يقال انه عمل مدة قياصرة الروم وبعد اقامتي بهاته البلدة سبعة أيام وتزودي منها ما يلزم لطريق الحجاز غير الخيام والقرب فاني أخذتها من مصر لانها هناك أرخص ثمنا وارسالي جميع ذلك الى السويس توامع الطباخ والخادم اللذين استأجرتهما من الاسكندرية توجهت حينئذ الى مصر القاهرة راكبا حافلة

طريق

طريق الحديد ولم نجد بها محذ عاخاصا اذا فرش ومرافق مثل ما يوجد في اروبا وكان ركوبي بعد العصر فسار الرتل سيرا وسطا ولم يقف الا ببعض بلدان كبيرة وكان منظر الارض قرب اسكندرية ليس بهيجا وانما توجد براحات وسيعة بها الماء راكدا ومزروع بها الارز لكن تغير المنظر بحسن النبات والزراعة بعد حصة ولم يطل بنا ذلك المنظر الجميل لارخاء الظلام سدوله فوصلنا الى القاهرة بعد سير اربع ساعات ونصف فتلقاني في الموقف النجيب الوجيه الحاج علي الشماخي وكيل تونس واعتذرت اليه عن الاقامة بمنزله بما مر ونزلت في منزل المسافرين المسمى الخمارة الكبيرة مواجها لروضة الازبكية واسعار هاته المنازل نحو من اسعار اروبا

الفصل * الثاني

﴿ في صفة مدينة مصر القاهرة ﴾

هاته المدينة هي قاعدة الاقاليم المصرية منذ الفتح الاسلامي غير انها اختلفت اسماؤها وبقاعها على حسب اختلاف الدول والاعصار وان كان مركز جميعها واحدا فبعضها محاذ لبعض فاول ما اختطه الصحابة رضوان الله عليهم مدينة الفسطاط حيث ضرب سيدنا عمرو بن العاص فسطاطه في الفتح وعند ارادته للتقدم جهة الاسكندرية التي هي القاعدة اذذاك وجد يماما قد فرخ على عمود فسطاطه فاجاره وابقى الفسطاط الى ان رجع الجيش بعد الفتح واختط المدينة حول الفسطاط فسميت به ثم لما تغلب المعز الفاطمي على مصر على يد قائده جوهر اختط القاهرة وصارت هي دار الامارة وهي مدينة رحيبة على النيل بحذائها وعليه آلات بخارية لرفع الماء وتصفيته وارساله في قنوات تفرق على جميع المدينة وعليه جسر حديد طوله ميترو ٥٠٠ وعرضه يمر عليه ستة عجلات وعلى حافتيه طريقان للمشاة وقد صنع سنة ١٢٧١ وعلى حدودها جبل شاهق عليه قلعة حصنها وكانت مستقر الامراء وهي ذات حصون متينة صناعية مشحونة بالمدافع من الطرز الجديد الضخم زيادة على تحصينها الطبيعي وتنظر منها سائر المدينة وارباضها فترى عظم اتساعها وبهاته القلعة جامع ضخم ذو قبة شاهقة جدا ومنائر جميلة مرتفعة وبه اسطوانات من المرمر الملون ذات بهجة وارتفاع عظيم وبصحنه الرحيب متوضأ انيق جميل وبنى هذا الجامع محمد علي باشا كما انه اتقن قصر الحكم بها وهو ذو بيوت وسيعة واوارين رحيبة مشتمل على جميع الفرش ولا زال هو القصر الرسمي للمواكب المهمة

وان لم يكن فانحوا مثل القصور المحدثة التى يقيم بها الخديوى وبالقلعة أيضا معسكر وديوان نظارة الحرب وبها بئر عميق جدا يدعى الجهال انه جب يوسف عليه السلام وكان الحامل لهم على ذلك غرابة وجود بئر فى ذلك الارتفاع فعدوه معجزة وبالقاهرة أسواق كثيرة جدا بل انى لم أر بلدا أكثر منها حوانيتا فى سائر الجهات وأهم طرقها القديمة هو الطريق الموصل من الازبكية الى جامع سيدنا الحسين ويسمى بالموسكى فهو متسع فى بعض جهاته نحو ثمانية أو عشرة أمتار وفى بعضها نحو الخمسة امتار وأما بقية الطرق القديمة فأكثرها لا تمر به العجلات وبعضها تمر به عجلة واحدة نعم ان الطرق الجديدة التى افتتحها اسماعيل باشا فى عشرة الثمانين والمائتين وألف فى الحارة المنسوبة اليه المسماة بالاسماعيلية هى على نحو الطرق الاوروباوية اتساعا واستقامة وهاته الحارة كلها محدثة ملحقة بمصر ومن محاسن القاهرة حديقة الازبكية الجميلة الانيقة المحاطة بسياج من قضبان الحديد الجميلة وبها أبواب من كل الجهات على الطرقات المحاطة بها وهى ذات خماش ورياض واشجار وانوار ومقاعد وقهاوى تغنيها الموسيقى الرسمية كل يوم عشية لكنها لا يحضرها غالبا الا الافرنج وقصور الخديوى واقاربه وحواشيه مالئة الحارات الجديدة مبهجة لها برونقها وأهمها قصر عابدين أما القصور التى له حول القاهرة فهى كثيرة مضاهية أو فائقة على قصور ملوك أروباو جمعت بين ما للاروباويين من التحسين وما للشرقيين من التزويق والاسراف ولكل منها حدائق وعيون وحيوانات غريبة ومن هاته بستان شوبرة وقصره ذو البركة الرحيبة الذى أنشأه محمد على بعيدا عن القاهرة نحو ثلاثة أميال وله طريق جميل هو منتدى أهل التمشى والتنزيه بعجلاتهم وخيلهم لما له من البهجة بالاشجار العظيمة ومن ورائها البساتين والقصور المونقة لاهل الترف والمذخة من الاروباويين والامراء والوزراء وعلى جانبه ترعة من النيل وهكذا حارات الافرنج والحارات الجديدة فى تأنيق البناء والقصور وبهجتها من الظاهر فضلا عن الداخل لكن ديار الاهالى ليس منظرها من الخارج مما يسر النظر أما ما اشتملت عليه القاهرة من المقامات والاماكن المعظمة فاولها مقام سيدنا الحسين رضى الله عنه وارضاه وذلك انه بعد الشنيعة الشنعاء بكربلاء أيام يزيد سنة ٦١ حمل الرأس الشريف المكرم ويقال انه دفن بعسقلان الى ان نقله الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الفاطمية سنة ٥٤٨ الى القاهرة فى موكب عظيم ودفن بالمقام المشار اليه ثم عملت عليه المقصورة من النحاس الموجودة الآن سنة ١١٧٥ وبنى حوله المسجد

الرحيب وقد تشرفت بزيارة هذا المقام الشريف وصليت الجمعة وغيرها في مسجده ولله الحمد وقد صلى الخديوى محمد توفيق تلك الجمعة هناك فلم يكن له من الابهة والضخامة الكبريائية ما يذكر واغرا امه بعض خدم وأعوان ومن المشاهد أيضا مشهد سيدتنا زينب شقيقة السبطين رضى الله تعالى عنهم ومشهد سيدتنا رقية ابنة سيدنا على بن أبى طالب ومشهد سيدتنا سكينة بنت الحسين السبط ومشهد سيدتنا نفيسة الطاهرة من ذرية سيدنا الحسن الشهيرة بالزهد والصلاح والمناقب المأثورة ومشهد الامام الشافعى خارج القاهرة فى القرافة وغير ذلك من المشاهد والمقامات التى لا تكاد تحصى رضى الله تعالى عنهم أجمعين وذلك لان مصر محط رحال الصحابة والتابعين والعلماء والمصنفين رحمهم الله أجمعين وكذلك الجوامع التى بها تكاد تفوق العد وأول مسجد بنى بها هو الجامع العتيق ويسمى الآن جامع عمرو أسس سنة ٢١ عند الفتح الاسلامى ثم زاد فيه مسلمة بن مخلد الانصارى سنة ٥٣ وزوقه وقيل انه بنى به اربع منائر باركانه الاربع بامر سيدنا معاوية وهو أول اختراع فى ذلك وفيها يقول عابد بن هشام الازدى

وكم لك من مناقب صالحات * واجدر بالصوامع للاذان
كان تجاوب الاصوات فيها * اذا ما الليل الفى بالجران
كصوت الرعد خالطه دوى * وأرعب كل مختطف الجنان

ثم الجامع الازهر وهو أول جامع أسس بالقاهرة بعد الفسطاط أسسه جوهر القائد سنة ٣٦١ وجدد اتساعه مرارا وهو ينقسم الى بيت وسيع ذى تقاسيم مرفوع سقفه على أعمدة والى صحن وسيع محاط به اروقة يقيم بها جماعات من الطلبة المجاورين لاخذ العلم وهذا الجامع هو مدرسة العلم الجامعة فى الاقطار المشرقية وفى القاهرة جوامع أخر عديدة ذات بناآت ضخمة أشهرها باعتناء البناء وضخامته وارتفاعه واتقانه جامع السلطان حسن بن قلاوون ابتدأ فى عمارته سنة ٧٥٧ وأتمه فى ثلاث سنين ومقدار ما صرف عليه بسكة الوقت نحو ثلاثة عشر مليونا فرنكا فهذه هى أشهر الاماكن بقاهرة مصر ومنها مدارس العلوم الرياضية وقد جمع بها خزائن الكتب التى كانت متفرقة وتشتمل على نحو مائة الف مجلد منها ثلاثون الف مجلد بخط اليد وفيها من نفائس الكتب تأليفا وخطا ما لا يوجد بغيرها ومنها مصحف كريم يقال انه بخط سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ومصاحف أخر عديدة عظيمة الحجم مزوقة بالذهب الى غير ذلك من الكتب العتيقة والنفيسة وذلك بقية ما فات الفرانسيس من الكتب التى نقلها الى باريس عند استيلائه

على مصر مدة نابليون بونابارتي وكذلك المارستانات أي المستشفيات الجامعة للتداوي وتعليم فنون الطب وقد شاهدت أحدها فاذا هو جامع لسائر أدوات الكيميا والطبيعيات والاجسام المصبرة والمشرحة من بني آدم وغيره غير اني كانت مشاهدتي اياها انه الآثار وهي على شفا جرف من الاضمحلال لما سيأتي خبره مما اشترى مصر أواخر مدة خديويها اسمعيل باشا ومن مهمات ما يذكر في القاهرة الاهرام التي بقربها في المكان المسمى بالجيزة وقد ذهبت اليها راكبا حمارا الان العجلات لاتصل اليها الا بكلفة حيث ان الارض حولها مرملة ولم تتصل الطرق الصناعية بها والاهرام بارض مصر كثيرة جدا منها ما هو باق الى الآن وعدها بعضهم فقال انها ٢٧ هرما ومنها ما اندثر بالهدم وصروف الايام وأكبرها وجودها اهرام الجيزة المذكورة وهي ثلاثة أهرام أكبرها أوسطها ويعرف بابي هرميس وأشهر الاقوال في بانيه هو فرعون كيوس أحد فراعنة العائلة الرابعة من فراعنة مصر وعلى ما حرره المؤرخون ان تلك العائلة لها الآن نحو ستة آلاف سنة وكانت مدة ذلك الملك في الملك ٥٠ سنة وتم بناء هرمه في ٢٠ سنة وكان المشتغلون في بنائه ٣٦٦ الف نفس كل تلك المدة كانه جعل بحساب كل يوم من السنة الف نسمة للشغل وسلك في بنائه طريقا عجيبا حتى صبر على تقلبات الزمن فقد وضع على شكل مخروط قاعدته مربعة وينتهي بنقطة ومن خواصه أنه يتساند على نفسه اذ مركز ثقله في وسطه ويتحامل على نفسه وليس له ما يتساقط عليه وقوات زواياه عباب الرياح كي لا تؤثر فيه لانها تنكسر سورتها بصادمة الزاوية بخلاف ما لو لاقت السطح وفي داخل هذا الهرم عدة محلات يدخل اليها المتفرجون وان كنت في نفسي لم أستطع الدخول اليه لان المدخل ضيق مظلم يدخله الانسان حبوا ويدخل أمامه أحد السكان هناك بنور شمعة وأنا قائم بي ذلك المرض الذي يصحبه ضيق الصدر فلم أدخله ونقلت الكلام فيه من جغرافية مصر للفاضل محمد أمين فكري وكذلك نقلت منها جملة مهمات تتعلق بالاقطار المصرية فانه ترى انه كتاب جامع الفوائد قلما توجد بغيره مجموعة مع حسن السبك والافادة والاختصار ومما قال في هذا الهرم ان بوسطه حجرة تسمى حجرة الملك فيها حوض بديع الصنعة من قطعة واحدة وأخرى تعرف بحجرة الملكة ويرى الناظر في داخله ما يبهر العقل من كمال احكام تركيب تلك الاحجار الهائلة حتى قيل ان مقدار الواحدة منها ثمانية اقدام مكعب وجميعها يرى كانه قطعة واحدة وينتهي أعلاه من داخل بسطح نحو عشرة أمتار ويقال انه سقطت منه حجرة وارتفاع أعلى الهرم على سطح أرضه

١٤٦ أما طول سطح أحد جهاته فهو ١٨٤ وطول كل ضلع من قاعدته ٢٣٠ ميترو والاهرام الاخر أصغر من هذا وقد اختلفت الاقوال فى الغرض من بناء الاهرام حتى قال عمارة اليمنى

تنزه طرفى فى بديع بنائها * ولم يتنزه فى المراد بها فكرى

اه باقتصار وأظهر الاقوال انها قبور لاصحابها وبقرب هاته الاهرام صورة أسد جاثم نحتا فى الحجارة راسه راس آدمى مسدول الشعر وهى أضخم ما يكون من الصور وأصله من أعمال الفراعنة الاقدمين يسمى أبا الهول وبقربها أطلال بناءات هائلة سطاءلها الرمل ثم كشفت منها بيوت حائط كل بيت منها فى قطعة واحدة من الحجر وسقفها كذلك حجرة واحدة يندهل الرائى منها وكيف أمكن نقلها ووضعها بمحلها وحول هاته الجهات أناس سكان كأنهم لاصناعة لهم سوى التفتيش على الاشياء العتيقة من تحت الارض وبيعها للسواح والتطوف معهم لاراءتهم غرائب تلك الآثار القديمة مع أن الحكومة المصرية اعتنت كثيرا بجمع الآثار العتيقة التى يمكن نقلها وحفظتها فى محل خاص بها هو من أهم امثاله فى الدنيا مباح لكل قاصد دخوله كما أنه يتنها وفى سائر الجهات المصرية عجائب من صنائع الاقدمين مما يدل على تقدمهم التام فى المعارف والصنائع ومنها ما اندثر علمه الآن مثل الاقتدار على جر الاثقال وحفظ أجسام الاموات على حالها المسماة بالمومية المصرية التى نقل منها لسائر أقطار التمدن ونسج المنسوجات من مواد حجرية المسماة

وغير ذلك وأغلب ما يوجد من أمثال هاته الاشياء فى أقاليم الصعيد حيث كانت مقر تخوت ممالك الفراعنة وبعض اليونان والحاصل انه يوجد بمصر من غرائب الآثار القديمة ما لا يوجد بغيرها وكل ما يمكن أن ينقل ولم تمتد عليه أيدى الدول الاجنبية فقد جمع فى القاهرة فى ديوان الآثار والغرائب حتى ذكر ان بعض دول أوروبا رضيت بشراء جميع ما فى ذلك الديوان بما على الحكومة المصرية من الديون وعلى تقدير عدم صحة ذلك القول فانه ينبئ عما لتلك الآثار من الغرابة والعناية حتى صح أن يقال فيها مثل ما ذكر وقد اجتمعت فى القاهرة بأجلاء من فضلائها وأعيانها فقد زرت العلامة النحرير شيخ المشائخ الشيخ ابراهيم السقا وهو طريح الفراش بمرض الفالج الذى لم يبق له من حراك سوى الكلام والنظر وثبات العقل وهو على جلالة علمه وفضله والتقدم من العلماء على جانب عظيم من التواضع ولين الجانب وحسن الاخلاق فاخبرنى

انه من تلامذة الشيخ سيدى ابراهيم الرياحى التونسى وانه اخذ عليه واجازه عند اجتيازه بمصر للحج وسألنى عن ذريته ودعا لهم بخير وأعجبه التشرق من التبغ التونسى ودعا لى وللمسلمين بسائر جوه من الله قبوله وأظن ان سنه نحو الثمانين سنة وكذلك

* حضرت تبركا بدرس العلامة النحرير الشيخ محمد عليش صاحب التآليف الشهيرة ووجدته يقرأ فى شرحه على مختصر خليل فى الفقه المالكى اثناء كتاب العتاق بمسجد قرب جامع سيدنا الحسين رضى الله عنه لانه لم يستطع الاقراء بالجامع حيث تكثر فيه الاصوات من المدرسين وهو الكبر سنه البالغ نحو الثمانين وضعف بدنه كان منخفض الصوت حتى انى لم أتمكن من سماع تقريره كما ينبغى لانخفاض صوته مع مزيد السكون فى المسجد ومع ذلك قد أطال الدرس حسب معتاد المصريين فمكثت فيه ساعة ونصف وانصرفت وهو لازال بصدد الاقراء وعليه من مهابة العلم والصلاح مايؤذن بصيته الشهير وكذلك اجتمعت بالفاضل الصفوة الخيرة سيدى عمر السنوسى

* أخى صديقى سيدى ابراهيم السنوسى المتقدم ذكره فى الاسكندرية وهو ذو اخلاق مطابقة لماله من مجد الاعراق وغيرهؤلاء من بعض الاعيان من الاهالى والمستوطنين من أهالى الاقاليم الاسلامية كالفاضل الحسيب محمد الاحبابى من أعيان

* تجار أهل المغرب ذوى الثروة وكالشهم الهمام الزبير باشا الذى كان مالكا على قسم من مملكة دارفور من السودان ودخل طوعا تحت الخديوية المصرية رغبة فى اتحاد كلمة الاسلام ثم عزله اسماعيل باشا وبقى مقيما بالقاهرة وهو رجل ذو فضائل جمة يتعجب مجالسه من كمالاته مع انه من أهالى السودان وان كان أصله من نسل العرب الكرام فهو مهذب الاخلاق عارف بالسياسة والحروب وبجغرافية دواخل افريقية وشطوطها الشمالية غيور على الملة كثر الله من أمثاله وقد دعت المقتضيات الى الاجتماع بحضرة الخديوى

* محمد توفيق باشا توجهت اليه وأحضرت أبياتا تضمنت تاريخى ولايته اذ كان اذ ذاك قد ولى منذ بضعة أشهر وتلقاها منى بسرور وفيبيت التاريخ الهجرى هو قولى

فى سماء الملك ارخ * لاح توفيق الخديوى

وبيت التاريخ الميلادى هو قولى ١٢٩٦

فانشد التاريخ صاح * قرة توبيج الخديوى

١٨٧٩

والصاد بعدد تسعين لان ذلك هو حساب المشارقة فيها وأما المغاربة فهى عندهم بستين

وذلك

وذلك لان حروف أبجد بحساب الجمل وقع فى اعداد بعضها خلاف بين المشارقة والمغاربة وهاته الحروف نذكرها هنا تتميما للفائدة حيث رأيت كثيرا من اهالى القطرين يجهلون ماعند اخوانهم حتى انهم ربما حملوهم على الخطأ فى العدد مع ان ذلك مبنى على الاصطلاح الذى لامشاحة فيه ودونك حساب الاحرف والذى فيه الخلاف نضع حساب الشرق عن يمينه والغرب عن شماله وباقيها اضع له عددا واحدا ا ١ ب ٢ ج ٣ د ٤ هـ ٥ و ٦ ز ٧ ح ٨ ط ٩ ى ١٠ ك ٢٠ ل ٣٠ م ٤٠ ن ٥٠ ٩٠ ص ٦٠ ٦٠ س ع ٧٠ ٨٠ ف ٨٠ ٩٠ ض ٩٠ ق ١٠٠ ر ٢٠٠ ٦٠ س ٣٠٠ ت ٤٠٠ ث ٥٠٠ خ ٦٠٠ ٧٠٠ ذ ٩٠٠ ظ ٨٠٠ ٨٠٠ ١٠٠٠ غ ٩٠٠ ٣٠٠ ش ١٠٠٠ وحيث كنت قائلا للايات فى المشرق رايت قاعدتهم فاجتمعت بالخديوى فى قصر عابدين ولم يكن معنا أحد وهو متواضع دين متفنن متبصر وبعد اقامتى بالقاهرة بضع أيام واشترائى منها القرب لحمل الماء فى الطريق واشتراء الخيام اللازمة لذلك سافرت الى بلدة السويس فى طريق الحديد وكان العمران قرب القاهرة جميلا لكننا ما تجنبنا عن خط النيل الا وكانت الارض صحراء خاوية لانبات بها ولا أنيس سوى بعض شجر القصب على حافتى الترعة الذاهبة الى السويس وبها أفراد من القوارب الصغيرة الحاملة كل منها الانسان أو اثنين مع بعض بضائع فوصلنا الى السويس بعد الغروب وكان السير من القاهرة اليها نحو ثمان ساعات فتلقانا الخبير العفيف وكيل المغاربة بتلك البلدة ونزلنا باحد منازل المسافرين على نحو ما مر فى غيرها فاذا هى قرية بها بعض الاجانب وبها حاكم يلقب بالمحافظ وضابطية وعساكر واهم مافيها مرساها الصناعية وبقربها من الشرق فوهة الخليج الجامع بين البحرين الابيض والاحمر وحول المرسى محل للتحفظ المسمى بالكرنتينة وعليه عساكر محافظون وفى البلد شجرات وشبه جنينات حول ديار بعض الافرنج وما وراء ذلك فهو صحراء خالية وان كانت الارض قابلة للاصلاح لكن تشديد الحكومة فى اعلاء سعرها أبقاها خرابا وجميع المنازل التى لخدمة خليج السويس لها بعض تحسين ومياه النيل واصلة اليها

الفصل ❁ الثالث

(فى التعريف بمصر)

هاته المملكة صارت الآن متشعبة من عدة ممالك عظيمة فى افريقية فحدها شمالا البحر

الابيض ويبتدئ الحد الشرقي منه مارا على خط موهوم بين الشام ومصر ثم على شاطئ البحر الاحمر الغربي شاملا بلاد النوبة الى أن يصل لمملكة الحبش التي يفصل بينهما جبال هناك فينعطف الحد معها مشرقا محيطا بها مارا للجنوب مارا مع البحر الاحمر فيمر أيضا معه الى أن يحاذي زباب المندب ومملكة الحبش حينئذ داخلة في الحد لكنها لاتصل للبحر لما لمملكة مصر من شطوطه ثم يمر الحد مع البحر ويشمل مملكة عادل المسماة بزيلع فيمر على شاطئ افريقية الشرقي على المحيط الشرقي الى أن يصل الى حدود مملكة زنجبار ثم يبتدئ الحد الجنوبي فيمر من الشاطئ مغربا الى دواخل افريقية السودانية وينعطف الى الجنوب حتى يصل الى حد الدرجة الثالثة جنوبا وراء خط الاستواء ويشمل مملكة دارفور ويصل الى حدود مملكة وداي ويمتد الحد الغربي مع مملكة وداي الى أن يصل الى الصحراء الكبيرة فينعطف معها ذاهبا الى الشمال من غير تعيين لخط معين حيث ان الامر مهمل فلا حصر فيه وهذا في الجهات السودانية الى أن يصل الى طرابلس ويمر معها الى أن يصل الى البحر الابيض حيث ابتداء التحديد وحيث كانت على ماعلمت من الاتساع والكبر لاجرم ان كانت صفة أرضها مختلفة جدا (فاما مصر) الاصلية فالمعمور منها هو عبارة عن واد بين سلسلتين من الجبال مارة من الجنوب الى الشمال يضيق تارة الى ثلاثة أميال ويتسع أخرى الى نيف وعشرين ميلا كلها يسقيها نهر النيل وذلك كله في غاية الخصب والنضارة تتجدد أرضه سنويا بفيضان النيل وتخرج الله منها بركاتها مما جعل به مصر غنية عامرة وما عدا هذا الوادي فهو عبارة عن جبال محلة لانبات بها وأراضي يابسة مرملة لاترى فيها الا الحصا (وأما) بلاد النوبة الداخلة في مملكة مصر وهي المحادة لها من الجنوب فهي ذات صحاري وجبال خصبة وأراضي خصبة وبقية الممالك وهي وداي ودارفور وزيلع وغيرها فكلها ذات جبال وآجام وخصب (وأما جبال) ممالك مصر فهي كثيرة ليس منها جبل بركاني ولا منها الزائد في الارتفاع وأعلاها هو الفاصل بينها وبين الحبشة (وأما أنهرها) فأولها نهر النيل وما أدراك ما النيل وهو نهر يحمل السفن الصغيرة الى أول شلالة به عند الخرطوم وهو عندهم ينقسم الى ثلاثة أقسام (أحدها) يسمى نيل السودان وذلك من منبعه الى الخرطوم (الثاني) منها الى فيلة وهي جزيرة في وسطه قرب مدينة اسوان (الثالث) منها الى البحر الابيض فالقسم الاول يتكون من نهرين يسمى أحدهما البحر الابيض والآخر البحر الازرق عبارة عن عظمهما حتى الحقا بالبحر والبحر الابيض كأنه هو الاصل للنيل وهو يجتمع من عدة أنهر في أواسط افريقية

وهو

وهو أعظمها وأبعدها منبعاً لانه ينبعث من بحيرة أوكيريفى المعروفة بفيكتوريا على ظن آخر الجغرافيين الآن وان كان التحقيق انه مجهول حيث تبين ان تلك البحيرة تستمد من بحيرة أخرى ولكن الوصول الى اكتشافها صعب ولعله تحدث أسباب لذلك وطوله الى حيث يجتمع بأخيه قرب الخرطوم ٢٣٠٠ كيلومترو أى نحو ألفى ميل (وأما) الازرق فجمه نحو الثلث من السابق ومنبعه من بحيرة دمبيعة فى بلاد الحبشة ويمر على عدة شلالات ثم يجتمع باخيه ويصير حينئذ القسم الاوسط فتصب فيه عدة أنهار غير معتبرة وذلك فى بلاد النوبة فاذا وصل الى أصوان حدثت منه الشلالة الاخيرة التى تمنع زيادة صعود السفن عنها الانها متكونة من ارتفاع الارض فى المجرى الاعلى وانخفاضها فى المجرى الاسفل مع صخور مرتفعة فيكون له خرير كالرعد القاصف يسمع من بعد بعيد فاذا وصل النيل الى أسفل القاهرة انقسم الى فرعين شرقى وغربى فالشرقى يصب فى البحر الابيض عند دمياط والغربى يصب فى البحر المذكور عند رشيد واحدثت من النيل ترع عديدة حتى صار يصب فى البحر الاحمر وخليج السويس والاسكندرية وغير ذلك وصنعة الترع فى مصر كانت معروفة فى مصر باحسن مما هى عليه الآن حتى كانت تروى سائر رباها بل وجبالها أيضاً ويرشد الى ذلك قوله تعالى حكاية عن فرعون وهذه الانهار تجرى من تحتى فكانت أرض مصر كلها عامرة بالانهار وهاته الترع تحمل القوارب وتقع بها المواصلات وتبين مما ان فى مصر أنهاراً عديدة عظيمة سيما فى السودان ويجتمع الجميع فى النيل ولولا عظمة المياه لتلاشت فى الصحارى التى تمر عليها ومن غرائب النيل أنه يفيض فى وقت معين من كل سنة وهو وقت الانقلاب الصيفى ويستمر على ذلك الى الاعتدال الخريفى فيأخذ فى النقصان الى الانقلاب الشتوى فيجد فى مجراه الى السنة القابلة ويختلف فيضانه بالزيادة والنقصان واعتداله المطلوب للسكان هو أن يرتفع على المجرى الاعتيادى سبعة أمتار فان زاد أهلك بالغرق وان نقص أجحف الناس بالقحط ولهذا الفيضان كانت مصر الاصلية لها مناظر عجيبة ففى الربيع الذى هو شباب الزمان فى سائر البقاع تكون مصر عموما أقل بهجة من نفسها فى وقت آخر وفى الصيف الذى تجف فيه المياه فى المعروف تكون مصر بحراً من الماء العذب راسية فيه قرى ومدن وأمصار يسلك من بعضها البعض فى القوارب وفى الخريف الذى يبتدئ فيه فى غيرها ذبول النبات تكون هى قد شب نباتها وازدخرفت وربت وفى الشتاء تبتسم أزهارها وتغرد أطيارها

ويحصد زرعها وتدخر أقواتها وتفيض على العالم محصولاتها فانفردت بذلك عن غيرها
وليس هناك مايشبهها الا نهر السند المار على بلوجستان فانه يقرب من ذلك من حيث
فيضانه فى الصيف ولما أحدثت الآلات البخارية لرفع الماء من النيل زمن نزوله قل
ضرره من القحط اذ لم يعهد أنه جف ماؤه الا سنة ١٢٧٨ وكان كربها شديدا (أما ضرر) تفاقم
فيضانه فقد اعان على تخفيفه الاخبار بالسلك الكهربائية حيث يأتى الخبر بتفاقمه
مبريعا من السودان ومصر العليا فتفتح له أفواه الخلجان وترتفع الناس عن الاراضى
المنخفضه ومع ذلك يحصل منه ضرر عظيم أحيانا وقد اختلفت الاقوال فى أسباب فيضانه
وأظهرها انه متركب من شيئين أحدهما ذوبان الثلج المتراكم على جبال
الحبشة الشاهقة وعلى جبال أواسط افريقية بحر أوائل الربيع فتسيل مياهها ويطموا
بها النهر الازرق وغيره واطول امتداد الانهر ما يصل ماؤها الى مصر الا فى الانقلاب الصيفى
(وثانيهما) ان جنوب خط الاستواء فصوله على عكس فصول شماله فالربيع عندنا هو
الخريف عندهم والصيف عندنا هو الشتاء عندهم وقد علمنا ان النهر الابيض منبعث من
جنوب خط الاستواء بعدة درجات وان الامطار فى الاقاليم الحارة تتراكم دفعية سيما
وقت الخريف والخريف فى الجنوب هو ربيع فى الشمال فما يصل ماؤه الا فى الصيف
فى الشمال فيحدث من ذلك طمو النهر الابيض أيضا ويلتقى باخيه وهما طاميان
فيحدث فيضان النيل زمن الصيف فى مصر (أما) بقية الانهر فى ممالك مصر ففى النوبة
والسودان كثير من الانهار والجداول منها ما يصب فى النيل ومنها ما يجف فى الصحارى
وليس منها ما يهم سوى النهر الابيض والازرق المتقدمى الذكر وفى أرض مصر من
صعيدها الى بحريها لا يوجد نهر أصلى سوى النيل لكن أحدثت منه أنهار عديدة عظيمة
تسمى بالترع حتى صارت أغلب الاراضى المصرية مخترقة بتلك الانهر الصناعية ومنها
الكبير الذى يحمل السفن النهرية ومنها الصغير ومنها الدائم الامتلاء بالمياه ومنها ما يجف
عند انتهاء انخفاض النيل والموجود الآن من هاته الترع يزيد عن الستمائة وأحد
عشر نهرا أطولها الابراهيمية فانها تقرب من مائتى ميل ولا زال الاعتناء بتكثير الترع
المستلزم لتكثير أراضى الزراعة حتى بلغت الآن الى ما يقرب من خمسة ملايين فدانا
مسقية مزروعة والفدان عبارة عن مساحة ٥٩٢٩ مترو مربع وهذا المقدار وان
كان كثيرا فى ذاته لكنه لم يبلغ الى ما كانت عليه الترع فى مصر قديما حيث كانت زمن
الفراعنة تصعد مياه النيل الى أعالى رباها وجبالها وتسقى جميع أراضيها حسبما نص

عليه

عليه فى التاريخ ويشهد له قوله تعالى حكاية عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار
تجرى من تحتى فجمع الانهار والافتخار بها بل والتعاظم الى حد دعوى الالوهية قاض
بانها كثيرة جدا وبالغة الى حد خارج عن المعتاد فى الكيفية كصعودها الى الاعالى
والواسطة فى ذلك امّا ان تكون بواسطة آلات تحمل الماء من أسفل الى أعلى بكثرة
حتى يجرى فى الانهار ثم من هاته يحمل كذلك الى ما فوقها الى أن تجرى ومن هذه أيضا
الى ما فوقها وهكذا الى نهاية الارتفاع والآلات امّا ان يديرها الماء نفسه أو قوة
أخرى جهات الآن فيما اندثر من علوم الاقدمين أو تكون الواسطة هى تفريع الترع
من أعالى النيل قبل الوصول الى الشلالات بان يؤتى لاول شلالة قبل انحدار الماء منها
فتفتح له فروع ذاهبة مع ارتفاع الاراضى بكيفية هندسية وبناء قناطر وحنايا للمرور
الماء من الاعالى الى الاعالى ثم من شلالة أخرى يفعل هكذا وحج تجرى الانهار فى
الارتفاعات كما تجرى فى الانخفاضات ويحصل منها النباتات الجبلية ومناظرها البهيجة
(وأما) بحيرات مصر فهى عشرة أربعة كبيرة وأكبرها بحيرة المنزلة ومحيطها نحو من
مائتين وخمسين ميلا وتسير بها السفن الصغيرة وبها السمك دائما وموقعها شرقى مدينة
دمياط ويخترقها خليج السويس والبقية أغلبها أبضاع الخليج وليس لها فائدة معتبرة
سوى استخراج الملح من بعضها عند جفاف حافاته صيفا وبعضها يجف تماما أما ممالك
السودان ففيها بحيرات مهمة مثل بحيرات منبع النيل وغيرها ولكنها قليلة الجدوى
بالنسبة للمنافع مثل بقية ذخائر السودان (وأما) هواء مصر وما يتبعها فهو على العموم
حار وغاية الفرق ان الجهات الشمالية على شاطئ البحر الابيض يلطف حرها صيفا
سيما عند ازدياد النيل (وأما) الجنوب وسائر السودان فهو حار جدا حتى انى كنت فى
مدينة مصر فى شهر نبر بعد فيضان النيل ولم أكن أستطيع النوم بالغطاء باللحاف
الكتان ولكنى لا أستطيع أيضا فتح الطيقان لكثرة الندى المضر ورأيت مثل ذلك فى
اسكندرية أيضا التى هى مهرب السكان من الحر مع انى كنت بها فى ذلك الشهر أيضا
(أما) السويس والصعيد فلا تسأل عن شدة حرها نعم هى بعد الانقلاب الشتوى يحصل
بها البرد الى درجة طاب التدثر والتدفى فيكون الهواء عموما معتدلا مع ابتهاج الارض
بالنبات (وأما) نباتاتها مع سودانها وجباله فيصح أن يقال ان فيها كل ما يوجد
من نبات الدنيا الا ما ندر حتى الاشجار التى تكون فى الاراضى الباردة فانها توجد فى
الجبال الشاهقة فى دواخل السودان ذات الثلج الدائم وفى السودان غابات عظيمة صالحة

أخشاب البناء السفن والدبار وللاعمال الجيدة أيضا مثل الابنوس وغيره لكن أرض مصر الاصلية ليس بها من غابات طبيعية وغاية ماله بها منظر الغابات هو النخيل فالحاصل ان عمالك بها مشتملة على كل ما يحتاج اليه من المزروعات الحبوبية والاشجار ذات الثمار وغيرها (وأما حيواناتها) ففيها الخيل بقلة بالنسبة لذاتها لكن يوجد في السودان نوع منها جليل يعرف بالكحيل والبغال قليلة والحمير كثيرة ويركبها حتى الاعيان ولها اعتبار ويحلقون شعرها وتصبر بالتربية تفهم قصد صاحبها حتى اذا قال الحمار لحميره صخرة ظلعت وصارت تمشى على ثلاث ما دام الشرطي ينظر اليها خوفا من تخديمها للحكومة بلا أجر والابل كثيرة جدا ومنها نوع الهجين وهو نوعان في السير أحدهما متعب راكبه وهو الذى اذا سار رفع رأسه وعنقه والثاني لين لراكبه وهو الذى اذا سار دلى رأسه الى الارض ومد عنقه الى أمام وكلاهما من الابل المعتادة غير ان أصحابها يختارون الجيد الاطراف الخفيف الحركة ثم يمرنونه من الصغر على مداومة سرعة السير فيتربى عليها ويبقى ناحلا فيكون عدة لاصحابه للوصول الى الامد البعيد في الزمن القريب وكان عند الاقدمين عوضا عن طريق الحديد الآن غير انه لا يحمل الاثقال الكثيرة ولقد رأيت من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ما يزيد القلب ايمانا وذلك في الحديث الذى رواه الامام مسلم في صحيحه في الكلام على سيدنا عيسى عليه السلام وانه يترك القلاص أى الابل بمعنى انه لا يستعملها وخاضت الشراح في تطبيق ذلك والحق ما بينته المشاهدة من الاستغناء عنها بالرتل وطريق الحديد والله أعلم انه سيعم جزيرة العرب ويصل الى مكة والمدينة حيث ان سيدنا عيسى عليه السلام ينزل هناك والله أعلم والبقر قليل وهو نوع ضخم والجاموس كثير والفلاح من العامة الذى له بقرة منه تغنيه عن كثير من الاشياء فيشرب ويبيع من لبنها ويأتدم ويبيع من سمنها ويحرث عليها ويوقد بخثيها ويستنتج أولادها ولذلك صارت البقرة عنده أعز شئ عليه في الدنيا (وأما) الغنم فهى كثيرة في السودان والحيوانات الوحشية يوجد منها في السودان كل الانواع التى تألف البلاد الحارة كالاسد والنمر والفيل والزرافة وغيرها (وأما) الطيور فيوجد سائر الطيور الالفة (وأما) الوحشية فاغالبا يوجد منها بعض الرحالة كاليمان والخطاف والحدأة كثيرة وكذلك الغراب ولقد شاهدت منه نوعا غريبا الان لونه أبلق وعليه فتكون الصفة في قوله تعالى وغرابيب سود هي صفة كاشفة لا مؤكدة حيث يوجد في الغراب الاسود والابلق بعضه أسود وبعضه أبيض كما يوجد في السودان أنواع شتى من

الطيور

الطيور الغريبة كالببغاوات الالوان البهية المذهبة والمفضضة وغير ذلك من أنواع الطيور
(وأما) معادن مصر ففيها أكثر أنواع المعادن المعروفة فالذهب يوجد بكثرة في عدة أماكن من السودان فمنه ماهو في معدنه ومنه التبر الذي يوجد في الرمال من سيول المياه وأشهر معادنه في سنار حتى يعرف بالذهب السناري وكذلك يوجد الفحم الحجري الغني في بلاد النوبة ويوجد أنواع المرمر والرخام الابيض والازرق في جهات من الصعيد وكذلك الملح في عدة سباخ والجص والسيمان والرصاص في موضعين حوالى شط البحر الاحمر والنحاس في عدة أماكن والحديد بكثرة في عدة جهات والكبريت حتى انه يوجد جبل يسمى به (وأما) الفضة فهي قليلة وتوجد أحجار ثمينة وأهمها الزمرد لكنه قليل ويوجد الفيروزج والعقيق والذي يحق به الاعتناء هو حجر البلور اذ هو كثير ونقي يضاهي مافي بوهيمية النمساوية كثرة وصفاء وأكثر هاته المعادن متروك اما لعدم العناية به أو لصعوبة نقله حتى رأيتهم يأتون بالحجارة لبلاط الطرق في الاسكندرية من بلد تريست في مملكة النمسا مع ما في البلاد من الحجارة التي صنع منها القدماء تلك الاهرام والهيا كل والعواميد التي تنقل ذخائر في قواعد الدنيا ولا شك ان العناية لو توجهت الى استخراج منافع السودان لسهل نقل تلك الحجارة وسائر المعادن بأخذ الفحم الحجري للطرق الحديدية التي تسهل ايصال الاثقال ومواصلة الاقطار اذ في السودان كنوز لا يحصيها الا خالقها وأعظم بكثرة غاباتها وأخشابها المرغوبة كالشمشير والابنوس وغيرها حتى لا يحتاجون لجلب أخشاب البناء وغيره من خارج المملكة فانهم يأتون حتى بحطب الوقد وفحمه من الخارج وذلك ضعف للبلاد (وأما) مدن مصر ففي مصر من القرى والمدن ما يتجاوز الثلاثة آلاف بلدة وأشهرها قاعدتها وقد تقدمت صفتها ثم الاسكندرية ومر ذكرها ثم طنطا ورشيد ودسوق وأشمون والابيض على وزن محمد قاعدة كردفان وأبو حراز وتندلتي قاعدة دارفور سابقا وتسمى فاشر وغير ذلك وقد كانت بها مدن هائلة في الصعيد تحتوي على بناآت عجيبة وصنائع غريبة وقد دثرت تلك المدن ولم يبق لها من اعتبار سوى ان بعضها صار يجعله قريات ليست بذات أهمية وتلك الهيا كل القديمة قد اكتشف عنها وتسمى بالبرابي وتقصدها السواح للاطلاع على ما احتوت عليه من الاعاجيب والصنائع المندثرة ومن هاته البرابي واحدة في بلد ادفو التابعة لمديرية اسني أخبرني الرحالة محمد برادة أنه رأى به ايوانا كبيرا منقوشا في الصخر على حيطانه صور جميع المصنوعات المعلومة اذ ذاك وأنه رأى فيه بعين رأسه صورة طريق

الحديد بقضبان ممتدة وعليها حوافل ذات عجلات لكنها بدون مرجية أعنى الآلة الجارة كما رأى فيه صورة السلك الكهربائى يعنى صورة أعمدة عليها أسلاك ممتدة منتهى الى آلة ورأى صورة سفينة ذات عجلات وصاعد من مدخنتها صورة الدخان وسمعت من غيره أنه يوجد فى جملة البرابى بيتان عظيمان أحدهما يحتوى على صور جميع الحيوانات والآخر على صور جميع المصنوعات وان منها ما تقدم وكله نقش فى الحجر ورأيت فى جغرافية فكرى ذكر تلك البرابى واحتوائها على النقوش والصور لكنه لم يذكر خصوص ما تقدم ذكره (وأما) مراسى مصر فأولها الاسكندرية ثم برت سعيد ودمياط ورشيد فى البحر الابيض والاسماعيلية والسويس فى الخليج ومصوع والقصير وسواكن فى البحر الاحمر وزيلع وغيرها فى المحيط الشرقى وأما أهاليها فهم على قسمين الاول أهالى مصر وهم نحو ستة ملايين بعضهم من ذرية القبط أبناء المصريين القدماء وبعضهم أبناء العرب الفاتحين واختلط نسل من أسلم من القدماء بالثانى وصار واجميعا مصريين وتكاثر عددهم فى هذا القرن أعنى حيث كانوا فى أول دولة محمد على باشا لا يبلغون الاربعة ملايين ولما امتد فيهم التهذيب والتحفظ على الصحة بتحسين الهواء والعلاج عافاهم الله من مصيبة الوباء والجدرى الذين كانا دائمين فيهم فبلغ عددهم الآن الى ماذكرنا والقسم الثانى منهم هم السودان وهم أيضا على قسمين الاول أهالى النوبة وكانت قاعدتهم سنار وهم من الزنج وذرية الكوش من العرب ثم تسلطت عليهم قبيلة الفنج ودخلت فى الاسلام وبقيت هى الحاكمة الى أن افتتحها محمد على سنة ١٢٣٦ وثانى أقسامها هو قسم دارفور وعدد سكانه خمسة ملايين وهم من نوع سودانى يسمى فور وسميت البلاد بهم وديانتهم الاسلام ومعهم نوع يسمى المسبعات ولكثرة اختلاط الجميع بالعرب ودخول قبائل منهم فيهم حتى كانت عائلة الملك عربية صار الجميع يتكلمون بالعربية وتلخص مما مر أن الاهالى على العموم أكثرهم عرب واللغة الغالبة والرسمية عربية وتوجد لغات أخرى سودانية وعدد الجميع بالمضافات ستة عشر مليونا والديانة الغالبة هى الاسلام وتوجد النصرانية على مذاهب شتى ومنها المختلطة بشئ من شعار اليهود وشئ من شعار الوثنيين كما يوجد كل من ذينك الديانتين (وأما) صفتهم على العموم فأهالى المدن الكبيرة يكثر فيهم النبهاء والعارفون بالمصالح العامة المشتركة والباقى على الاطلاق هم على السذاجة والجهل بالمنافع الخاصة فضلا عن المشتركة واللون الغالب أسمر وأسود وأهل السودان والعرب

من

من أصل المصريين شجعان (وأما) فلاحو مصر فلما طال عليهم الاستيلاء الاستبدادي ضعفت فيهم الشجاعة بالمرة وكادوا أن يفقدوا الغيرة كما حكاه المقريزي

الفصل * الرابع

﴿ في اجمال تاريخ مصر وملحقاتها ﴾

﴿مطلب في تاريخها القديم﴾ اعلم أن مصر أشهر بقاع العالم بمعرفة أصول تاريخها القديم لكنه في الواقع غير محرر ولا موثوق به وقد أطنب العلماء الاسلاميون وغيرهم في تواريخ مصر وعلومها ونحن نهاية غاية ما نستطيع هنا انما هو الالمام باشارات الى أنموذج ذلك معرضين عما لبعضهم من المبالغات والخرافات ويدعي بعض المتأخرين ان المحقق عندهم في علم مبدأ التاريخ فيها المحقق هو قبل الميلاد بالفي ومائتي سنة والحق أنه غير محرر لان استنادهم في ذلك انما هو للتوراة التي بين أيديهم وهي كما علمت سابقا غير صحيحة سيما في محل التاريخ وقد أقر بعض متدينيهم بالغلط الفاحش في ذلك المحل سيما فيما يرجع الى التاريخ العام وانه مخالف للموجود من الكتابات المنقوشة على الاحجار العتيقة جدا وغيرها من القرائن الواضحة وتعلل في تصحيح التوراة بان موسى عليه السلام لم يقصد تاريخا عموميا للخليقة وانما قصد ذكر عمود نسبه ولا يخفى ان هذا غير معقول اذ كيف يذكر عمود نسبه في تواريخ مخالفة لنفس الامر لانه يلزم ان يكون قائلا بان فلانا مثلا بعد الطوفان بكذا ثم فلان بعده بكذا أو في زمن الملك الفلاني المتسلطن في تاريخ كذا مع ان ذلك الوقت ليس مطابقا لذلك التاريخ فما هو الا عين الكذب أو الغلط المنزه عنه كلام الباري تعالى والمعصوم منه الرسول فلا محيص عن القول بالتحريف في التوراة التي بين أيديهم واذا أضفت الى ذلك الميزان المعقول في حساب العمران وكمية التناسل من البشر بعد الطوفان ولو على القول بعدم عمومه في سائر الكورة ونظرت الى المدة التي ذكر ان ابراهيم عليه السلام أرسل فيها وما كان عامرا من الجهات التي لا نزاع ان الطوفان عمها وهي محل اقامة ابراهيم عليه السلام وقومه ومن كان معاصرا له من الامم الذين طغوا في البلاد وتجبروا بما لهم من القوة والعدد والعدد والعلوم لا شك انه يستحيل عندك انهم كلهم نشؤا في مدة مائتي سنة من نسل أربعة من أولاد نوح عليه السلام وأيضا يستحيل ان تنمحي وتنفد ثمرة معجزة الطوفان الهائلة من عقول أمة في قرنين اذ يمكن ان يكون بعض من

أدرك من أدركها لم يزل بقيد الحياة فكيف مع ذلك ينسى توحيد الله و يعبد اله غيره ولا يتأتى ذلك الا بطول الزمان ونسيان المعجزات وانقراض العلماء ومن عاصرهم في مدة مديدة ولذلك لا نعتمد حينئذ على تعيين أوقات ما نتعرض له من الدول القديمة

* وانما نقول ان مصر قبل بعثة موسى عليه السلام كانت قامت فيها دول عظيمة ذات شان وقوة وعمران وملوكها يسمون بالفراعنة جمع فرعون وهي عبارة مصرية معناها نور الشمس وأول من يعرف الآن من فراعنتها هو منتر (أو) مصرايم الذى حول مجرى النيل و بنى مدينة منفيس ثم زادها اخلافه بهجة واتقانا حتى كانت أعظم مدن الدنيا واتخذتها الفراعنة تختا لهم ولو بعد انقراض عائلة فرعون المذكور وفي مدة أحفاد المشار اليه نشأت دول اخرى صغيرة في أراضى مصر وانقسمت على ثلاثة أقسام بقى أحدها تحت العائلة المذكورة والاخريان تحت عائلتين أخريين الى ان تغلبت على الجميع العائلة الرابعة من الفراعنة ومنها فرعون البانى للهرم الكبير الذى بالجيزة ومدركه ثم انقسمت الى عدة أقسام كان منها العائلة الخامسة وتولى منها عدة ملوك أحدهم بانى الهرم الثانى بالجيزة أيضا وكذلك العائلة السادسة وغيرها الى الثانية عشر كلهم متفرقون على جهات من مصر الى ان قهر الجميع تحت حكم فرعون أوسيرطاسن (أو) سيزوستريس ثالث ملوك العائلة الثانية عشر وضم الى ممالكه بلاد الحبشة وغيرها من السودان وانقرضت عائلته بعده بقليل وغاية ما يعلم انه تداول مصر بعد ذلك عائلتان وهما الثالثة عشر والرابعة عشر وكان حوادثهما ليست مهمة فلم يوجد لهما وقائع شهيرة (وأما) الخامسة عشر والسادسة عشر فلهما اخبار من جهة قوة الملك والترقى فى الصنائع والمعارف وفى آخر الاخيرة ابتدأ تسلط الملوك

* الرعاة على مصر وتم استيلاؤهم على قسم عظيم منها أو عليها كلها لكن بقى للاهاليين جهة من أعالى الصعيد ملكوا عليها العائلة السابعة عشر من الفراعنة ولم يكن لها اهمية فى جنب مملكة الرعاة وهؤلاء الرعاة يغلب على ظن محققى المؤرخين انهم من العرب اجتازوا الى مصر و بقوا فيها مدة طويلة ذوى شأن وسلطان مهيب قوى وقال بعض الاخباريين ان دخول يوسف الى مصر كان فى دولة هؤلاء الرعاة ولما قضى على تلك الدولة بالانقراض كان الذى باشر قهرها فرعون أموسيس وانتشأت العائلة الثامنة عشر ولها عدة آثار باقية الى الآن من المبانى والصور الدالة على قوة الملك والتمدن كالمسلتين الموجودتين بالاسكندرية والقسطنطينية وكذلك الموجودة بروميه

وقال

وقال بعض المؤرخين ان دخول يوسف عليه السلام انما كان في هاته الدولة ويستدل
من الآثار ان عبادة الاصنام تفاحشت في مدة تلك العائلة ثم استولت العائلة
التاسعة عشر من الفراعنة وكان منها فرعون سيزوستريس المشهور عند اليونان
بذلك الاسم وامتدت ممالكته من نهر الطونة في اروبا الى نهر الكنك في الهند
وانشأ في كل مملكة افتتحها آثارا تدل عليه وارتقت مصر في مدته الى غاية
كبرى من المعارف والغنى حتى قيل انه أول من رسم خريطة اصورة ممالكه الواسعة
وزادت ارتقاء وفخرا وانتهت في معارف الطبيعيات والهندسة والسحر في مدة حفيده
فرعون زمن موسى عليه السلام حتى ادعى بملكه ومعارفه الالوهية وكان من قصته
ماهو مذكور في القرآن العظيم ومن غريب ما يستحق الذكر ان مؤرخي مصر القدماء
لم يذكروا حادثة غرق فرعون ونجاة موسى عليه السلام ببني اسرائيل بانفلاق البحر
مع انها حادثة كبرى وبناء على اهمالها أنكرها من لادين له من معتمدي هذا العصر
وأضافوا الى ذلك في الاستدلال ان قبر فرعون المذكور واسمه منفطا الثاني موجود
بين قبور الفراعنة في الصعيد بالمكان المعروف بباب الملوك فلو كان غرق لما كان له
قبر وأجاب عن هذا بعض النصارى بان وجود القبر لا يدل على وجود المقبور كما ان وجوده
يمكن ان يكون قبل موت فرعون على عادة أسلافه من احضار قبورهم مضخمة مزخرفة
وهو قد هيأ ذلك وان لم يدفن فيه ويحتمل ان يكون ايجاد القبر تعصبا من المصريين وعنادا
في اخفاء الامر الذي احاط بهم دفعا للعار عنهم في الاجيال المستقبلة واستدل المجيب
المذكور على ان فرعون موسى هو منفطا المذكور بان الذي ولي الملك بعده ابنته
وتصرف بالنيابة عنها زوجها لانه لم يكن له ولد سواها وابن صغير قاصر فدل ذلك على
حدوث أمر عظيم انقرضت به عائلة الملك حتى سلموه الى امرأة وزوجها مع ان جدهم
القريب سيزوستريس المار ذكره قد ترك من الاولاد نحو عشرين فهذا الحادث
الذي انقرضت به العائلة ليس هو الا ذلك الغرق لفرعون وملائه اه ولا يخفى ان كلا
من الجواب والاستدلال غير مسلم (أما) الجواب فان وجود القبر الاصل فيه أن يكون فيه
مقبوره سيما اذا كانت عليه كتابة اسمه التي بها عرف انه قبره وتاريخ موته فانه لا ترسم
الا بعد وضع صاحبه فيه واحتمال ان المصريين أقاموا ذلك القبر على تلك الكيفية
قصد الاخفاء الواقعة في الاجيال القادمة احتمال بعيد كسابقه لا يؤثر مع الباحث سيما
وواقعة غرق فرعون مع ملائه ونجاة موسى ببني اسرائيل بانفلاق البحر من المعجزات

الباهرة التي لا يبقى معها للمصريين عناد بعد مشاهدتهم اوهلاك ملكهم الذى كانو يعبدونه فلا تبقى فيهم بقية يفكرون بها عن الاجيال المستقبلة وأين هم من هذا مع افتضاحهم لانفسهم ولجميع معاصريهم ومن هو تحت ممالكتهم من الامم المالئين لما بين الطونة والكنك فهم أشغل بانفسهم والانقياد الى الحق أوالى تدارك أمرهم الدنياوى فقط فى الاقل بين أعين الامم الذين ينظرون الى هلاك مدعى الالوهية مع امرائه ووزرائه وجيوشه فكيف يخطر لهم فى تلك الحالة التعمية على أجيال مستقبلة مع ان سائر معاصريهم ينقلون خلاف ذلك (وأما) الاستدلال فهو غير منتج اذلا يلزم من تولية البنت انقراض عائلة الملك كيف ذلك ونحن نرى فى التاريخ بل وفى خصوص تاريخ المصريين عدة نسوة صرن ملكات مع وجود العائلة بل ولم يزل ذلك جاريا فى جهات من الارض الى الآن فلم لا تكون ولاية البنت لان قاعدتهم كانت وراثة الملك لاكبر أولاد الملك الاناث والذكور سواء وتصرف زوجها حينئذ نيابة عنها باختيارها الالانقراض العائلة وكانى أرى هاتيك التمحلات فى الجواب مبنية على اهمال علم السند والرواية أما لو كانوا يعرفون ذلك وجرت عليه اعمالهم لعلموا بانهم لما استحقوا مثل ذلك ولتخلصوا من مهاو مهلكة مع ان علم السند والرواية أمر ضرورى بل طبيعى لاخذ الاخبار الغائبة عن المشاهدة واذا بنيت عليه الاحكام استقام الامر وخلص من الغلط والغش والكذب وبناء على اعتبار ذلك فنحن المسلمون نقول ان الذى نقطع بوجوده هو غرق فرعون مصر مع ملائه ونجاة موسى عليه السلام ببنى اسرائيل بانفلاق البحر معجزة له أما كون فرعون المذكور اسمه منفطا أو غيره وكون مدته الى الآن كم هى فلا علم لنا بها ولا دليل لنا عليها وذلك العلم حصل لنا بالنقل المتواتر فى القرآن من نبينا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الذى ثبتت نبوته وصدقه بالمعجزات المتكاثرة فاخباره لاشك فى صدقه ويوافقنا على ذلك النقل المتواتر من أمة بنى اسرائيل منذ حصول الحادثة ممن شاهدها منهم وهم أمة عديدة يستحيل تواطؤهم على الكذب الى من بعدهم منهم ومن غيرهم نقلا منهم جيلا بعد جيل على تلك الصفة الى الآن وعدم ذكر الواقعة فى تواريخ علماء ذلك العصر لا ينفى وقوعها لان السكوت عن الشئ ليس بنفى له وهناك حامل على عدم الذكر لان المؤرخ انما يكون من علمائهم الذين هم أشد مضادة للديانة واذا شاهدوا شيأ مثل ذلك ولم يجدوا وجها للقدح فيه وتخريجه على مايلائم منهجهم يسكتون عنه على انه مندمج فى زمرة مانسبوه الى اعمال القادحين فيه التى ينسبونها الى نوع من الباطل عنادا

أو جهلا والعياذ بالله وانى لا أعجب من انكار ذلك من غير ذوى الديانات من أهل العصر وانما أعجب من انكار النصارى واليهود الآن معجزة لنبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى انشقاق القمر مستدلين على انكارهم بمثل ما استدل علماؤهم فى انكار ✽ واقعة الغرق من عدم ذكرها فى التواريخ مع انهم يجيبون بمثل ما تقدم ونحن نقول ان معجزة انشقاق القمر ثبوتها أبين وأمرها أوضح وذلك انها وقعت ليلا بعد مضى حصة منه لان القمر كان ليلة البدر أى الرابعة عشر وهو فى كبد السما كما تشير اليه روايات البخارى من ان نصفه بقى ظاهرا فوق الجبل ونصفه غاب وراءه والروايات وان اختلف لفظها فهذا مدار معناها ثم ان الحصة فى انشقاقه لم تطل وعاد لما كان عليه ولا ريب ان حوادث السماء لا يشتغل بها العموم دائما الا اذا احدث العلم من قبل بها فتلتفت اليها الانظار أو تقع بحسب الصدفة سيما الامر الذى لا يطول زمانه مثل بعض الشهب المؤثرة للضوء القوى أو غيرها مما لا يطلع عليه الا الافراد صدفة ولا يعلم بخبره فى جميع الجهات والآفاق وان ذكره بعض الناس فلا يثبت عند علمائهم المؤرخين لعدم تيقنه عندهم لعدم ثقتهم باخبار الافراد القليلين فلا يكون سكوتهم دليلا على عدم الوجود على ان وراء ذلك ما هو أوضح وهو ان الممالك المتمدنة اذ ذاك الحاوية للعلماء المؤرخين الذين يمكن لهم رؤية القمر عند استقامته فى كبد السماء فى مكة المكرمة انما هم سكان ما بين شطوط المغرب الى مبادى جبال هملاى أما أهالى أوروبا فلم يكونوا اذ ذاك من أهل المعارف والتدوين سوى جهاتها الجنوبية من بقايا الرومان (وأما) الصين وشمال آسيا الشرقية فلا يرون القمر اذ ذاك لغروبه عندهم أو قرب غروبه فى ضوء النهار فهم وان كانوا اذ ذاك متمدنين وعلماء لكن ذلك غير مرئى لديهم ثم ان الممالك المذكورة التى يمكن لهم رؤية القمر اذ ذاك هم فى أنفسهم مختلفون فى الوقت فيكون الوقت اذ ذاك عند الهنود بعد نصف الليل وعند المغربيين عند غروب الشمس أو ما قارب ذلك فى كل من المكانين وهاتيك الاقطار ما مضى عليها من وقت انشقاق القمر نيف وعشرون سنة الا وقد أدخل خالد بن سنان قائد جيش المسلمين فى المغرب قوائم فرسه فى المحيط الغربى ✽ وقال ليس لى وراء هذا ما أفتحه وقد بلغت فتوح الجيوش الاسلامية فى الشرق الى بخارى وسمرقند وأفغانستان وسائر تلك الجهات فعلماء هاته الاقطار عند الفتح الذى كان بقرب انشقاق القمر لان الانشقاق كان فى السنة الخامسة قبل الهجرة والفتح تم فى مدة الخلافة سيدنا عثمان كانوا على قسمين منهم من آمن وهو الاغلب ومنهم من

بقى على دينه (فأما) من آمن وألف فقد روى مثل سائر المسلمين الانشقاق امالرؤيته أو لرؤية أحد ممن يثق به من أهل وطنه مع التأييد بالرواية المستفيضة والتواتر القطعى من الصحابة الذين شاهدوا ذلك وعلموه ونقلوه بالكلام الذى يتعبدون بتلاوته ولا يرتابون فى حرف منه وكذلك صار نقل كل من آمن من سائر تلك الاقطار ولهذا تواتر النقل بغير ذكر سندوا قتصر ذكره على كيفية الوقوع وهو أيضا بالغ مبلغ التواتر مع ان الاصل ثابت بغير احتياج للسند كما فى سائر التواترات لانه اذا قال قائل ان الكعبة فى مكة المشرفة فلا يقال له عمن تروى هذا لانه قطعى معلوم بالضرورة وكذلك نقل الانشقاق لانه مواتر بالقرآن فى قوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر (وأما) القسم الثانى من علماء تلك الاقطار الذين لم يؤمنوا فانهم لم تحقق عندهم ماتقدم عند المسلمين فمن ثبت ذلك عنده منهم من قبل لاشك انه يضرب عن ذكره فى تاريخه لانه يكون حجة عليه وهو يتأول فى وقوعه بما تشير له الآية الكريمة فهو حريص على عدم اثباته بالمرة لكنه لما عارضه النقل القطعى سكت عنه ولم يتعرض له بنفى ولا اثبات والا فبالهم لم يذكر أحدمنهم ان ذلك الزمان قد كان فلان وفلان يرصدون القمر أو السماء ولم يروا ذلك الحادث مع انهم حريصون على ذكر كل قادح فى الدين فكان سكوتهم فى الحقيقة هو نفس الاقرار بالوقوع ولا يتخيل مع ماذكرناه ان مجرد السكوت عنه حجة فى عدم الوقوع والحال ماذكرناه ويتأيد هذا بالممالك التى بقيت لم تفتح وكان فيها بقية من التمدن وهى يمكن منها رؤية الانشاق مثل بقية مملكة الرومان الشرقية والغربية فانهم لما تقلص ظلهم فى تلك المدة القريبة بدولة ذلك النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان من معجزاته انشقاق القمر وهم على دين النصرانية وثبت ذلك عندهم قطعيا ممن فتحوا أقطارهم وعلموا ان ذلك الانشقاق حجة لخصمائهم فعلى تقدير ان يكونوا رأوه واثبتوه فى بعض تواريخهم عند وقوعه فلا يبعد ان أضربوا عنه بعد بلوغ قصته اليهم لكى لا يكون حجة عليهم ولا بعاد اثباته عند من يأتى من قومهم سيما والملوك اذذاك تحت الانقياد للقسوس وكبراء الديانة فربما انهم منعوا من ذكره كما يمنعون سائر ما يضر بديانتهم فهاهنا يأتى مثل هذا التعليل الذى مر ذكره عن بعض النصارى فى شأن غرق فرعون وهوهنا على نحو ما أوضحناه أبين وأمكن فلذلك قلنا باشتداد عجبنا من انكارهم له ولا يقال لعلهم أنكروه واستندوا الى عدم ذكره فى التواريخ من حيث وقوع الخلاف فى وقوعه حتى

عنـد المسلمين لان رواية أحاديثـه لاتخرج عن الافراد والاكية المارة قـد قال بعض المفسرين فيها ان الفعل الماضى وضع موضع المستقبل تحقيقا لما سيقع فلا يكون هناك النقـل بالتواتر للوقوع بالفعل والوجـه فى سقوط ذلك بديهى عند من تضلع بالفنون الشرعية وبيانه انا قدمنا ان الاحاديث المروية فى الصحاح انما هى فى بيان الكيفية والاسباب أما أصـل ثبوت الواقعـة فانه منقول تواترا محققا لان مدار جميع الروايات البالغة حـد التواتر على اثبات الوقوع فليس هى من الآحاد وكذلك صريح القرآن قطعى فيـه وماذكره بعض المفسرين ليس هو من كلام أحد من الامة اذ لاخلاف عندنا فى ذلك وانما هو من كلام بعض الملحدة والمريدين لادخال الشـبهة كيفما كان الحال على المسلمين وان نسب القول بذلك لاحـد الامـة فانما هو من التزوير والبهتان حيث لم يثبت بطريق الرواية الصحيحة عن الثقاة نسبة قول ذلك لاحد علماء الامة ولذلك لاترى كل من نقـل ذلك من المفسرين الا وقال أثره ويرده قوله تعالى وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر الآية فانه اذا كان المعنى سينشق القمر لايكون لقوله يعرضوا الخ من معنى لان ذلك الزمن الآتى ليس فيه من مدع لمعجزة حتى ينسبوها الى السحر وأيضا قوله تعالى وكذبوا نص صريح فى تكذيبهم بأن انشقاق القمر معجزة وانما نسبوه الى السحر وقد جاءت قراءة وقد انشق القمر بزيادة التأكيد للماضى ولهذا نقل الاجماع غير واحد على ان الانشقاق قد وقع وانه لاخلاف بين المفسرين فى ذلك وكذلك الروايات فى الوقوع قـد قال الواقدى انها متواترة بالقطع وبه صرح القاضى عياض وغيره من ممارسى الرواية والحديث وقال القاضى عياض أيضا ما معناه ان من يدعى عدم التواتر فى ذلك انما هو الجاهـل لكن يغمض بصره ويقول مالى لاأرى الضوء وكذلك هـذا فان المعرضين عن الاطلاع على الحديث والسير هـم الذين لايعرفون تواتر الرواية فى ذلك زيادة عما قدمنا من صراحة القرآن فيه واجماع الامة على تفسيره بما لايحتمل تأويلا ولاشبهة ولم ينقل أحد خلافه سوى دسيسة الملحدة المذكورة مما لايروج على عالم وكان نقل كثير من المفسرين لها للرد عليها هو الذى صيرها ذكرا والحق ان كثيرا من المتأخرين الذين فسروا لم يراعوا حق القرآن فى تنزيه تفسيره عن سفاسف الاقوال مما هو مردود بالبداهة وأصول العقائد والاجماع كما وقع فى هاته الآية مما جعـل للقول ذكرا وان لم يكن له من أساس ولاسند ولاعجب لالحاد الملحدين ودسائسهم فى المعانى بما استطاعوا بل انهم طمعوا حتى فى

الالفاظ وأرادوا أن يدخلوا عليها الشك والتحريف مع العلم القطعي بتواتر كل حرف من القرآن في محله ومرور ألف وثلاثمائة سنة وعشر سنين عليه ولم يقع الشك فيه ولا راج التشكيك على أحد من الامة من عامتها فضلا عن علمائها ومن هذا القبيل ما رأيته عند كتبي لهذا المحل في تأليف جديد للغوي أحمد فارس سماه بالجاسوس على القاموس فهو وان كان في بابه من جهة اللغة حسن الموضوع لكن لما كان صاحبه غير متضلع بالعلوم الشرعية اغتر وراج عليه ما يذكر في بعض كتب أدبية لذوي مجون متمخرقين بذكر ما يرونه من الطرف والظرائف لتقضية الوقت والتزلف لدى جهال الامراء حتى قالوا ان بعض كلمات القرآن الكريم وقع فيها التحريف واختلاف الرواية في القراءة بسبب عدم وجود الشكل والنقط في الاحرف العربية في الزمن القديم وعدوا من ذلك جملة الفاظ حتى قال ان منها اناناقرئ اوثاناوقضى قرئ وصى وييئس قرئ يتبين وعباد الرحمن قرئ عند الخ ولولا التحامل المقصود لهؤلاء لما صح لهم ذكر ذلك والا فأى ذى عقل يقول ان أحرف الكلمات المذكورة يشتبه بعضها ببعض حتى يقرأ على ما ذكر فن أين أتت الواو في اناثا حتى صارت اوثانا وكيف يشتبه القاف بالواو في وصى ومن أين أتت الالف في عند حتى صارت عباد وهذا كاف في بيان التمشدق والا فالحقيقة ان القرا آت السبع كلها متواترة باجماع أهل الملة والدين كما نص على ذلك علماء أصول الفقه وأصول الدين وسائر القراء واذا قال أحد مدعى العلم في عصرنا ان التواتر يحصل به العلم العام فمالى لم يحصل لى حتى الظن بذلك فضلا عن العلم فنقول ان ذلك من الجهل المركب وذلك لان المراد بكون التواتر محصلا للعلم انما هو عند من علم التواتر وعند أهله أى أهل موضوع التواتر لا عند جميع الخلق ومثاله سهل جدا فانك اذا سألت أحد أهل السياسة وعلماء الجغرافية عن وجود بلد تسمى استكهولم اجابك حالا بانها موجودة قطعا وانها تخت مملكة السويد وانه لا يرتاب في ذلك مثل ما لا يرتاب في وجود نفسه فاذا أتيت لجمهور علماء الجامع الازهر وعلماء جامع الزيتونة وعلماء جامع القرويين وغيرهم من عمد علماء الدين وسألتهم عن تلك البلاد لا تجد عند أحد منهم شعورا بها ولا يجيبك الا بانى لا أعلم لهذا الاسم من موضوع فهل يكون عدم معرفة الجمهور العظيم من علماء الشريعة قادحا في وجود تلك البلاد أو في خروجها عن كونها تخت تلك المملكة بثبوت التواتر ان لم يشاهدها من أهل العلم بذلك كلا فكذلك لا يكون جهل جميع الجاهلين قادحا في وجود التواتر بالقرا آت السبع بل قال جمع من الاصوليين

ان

ان القراآت العشرة متواترة فضلا عن السبع واذا كان كذلك فلم يبق محل لدعوى التصحيف أو التحريف فى تلك الكلمات واشباهها مما ثبتت به القراءة واغاجاء ذلك من التشديد الذى لا اعتبار له سوى التسويد فى الكتب لينقل عنه من يرى ان العلم كاف فيه وجوده فى كتاب مسود وسيأتى لهذا الموضوع مزيد بيان فى الخاتمة ان شاء الله تعالى ولنرجع الى تاريخ مصر فنقول انه من عهد منفتاوا بثنه لم يوجد فى التاريخ شئ معتبر من أحوال مصر سوى استيلاء عائلات أخرى الملك الى ان بلغت الى العائلة الثانية والعشرين فكان منها فرعون شيشق الاول الذى حارب ملك الشام وهو ابن سيدنا سليمان عليه السلام وفتح مملكته وبقيت تحت حكمه وصور فتوحه على هيكل الكرنك وكتب عليه بالنقش بحروفهم مملكة يهوذا فى قبضتى ثم خرجت عليه الشام وحار بها ابنه وانكسر ثم لم يكن لوقائع مصر من أهمية الى ان استولت عليها العائلة الخامسة والعشرون وهى من ملوك الحبشة وأولها فرعون سباكون وصارت من هاته العائلة عدة ملوك وحاربوا ملوك أشور التى كانت مملكتهم بين الفرس والشام وعظمت مملكة مصر فى أيام تلك العائلة حتى اتحدت بالحبشة وغالب أفريقية وصار فيها تمدن عظيم حسبما دلت عليه الآثار ثم انقرضت الدولة وانقسمت المملكة المصرية الى اثنى عشر قسما ثم اتحدت تحت العائلة السادسة والعشرين وأولها فرعون أسامتيس وترقت المملكة فى أيامه وكان فيها ابتداء استعمال الحروف الابجدية فى الكتابة عوضا عن الكتابة بالصور التى كانت مستعملة سابقا كل صورة علامة على كلمة ومن مدته ابتدأ التثبت فى التاريخ المصرى وانجلى حاله نوعاما عما كان من قبل فى اثبات الزمن فكانت ولايته المذكور سنة ٦٦٤ قبل الميلاد وكان خالط بمعارفهم معارف اليونان وكثرت بينهم المخالطة ثم استولى ابنه وفتح بعض آسيا ومنها بابل وأراد وصل النيل بالبحر الاحمر ولم يتمه وخرج عنه أيضا بعض مافتحه فى آسيا كملك الشام ثم استولى عدة من ذريته الى أن فتح مصر بخت نصر وقتل فرعونها وأولى عليها أحد أعيانها فخالف عليه فحاربته مملكة فارس وتغلبت على جميع البلاد وصارت مصر ولاية فارسية حدثت فيها عدة ثورات من الاهالى لانقاذ أنفسهم من الفرس ولم تغن شيأ ونهاية خروج مصر من يد أهلها كان فى حدود سنة ٣٥٨ قبل الميلاد ولم يتولاها أحد منهم الى الآن بل كانت سائر دولها من المتسلطين من خارج ثم بقى بعد تلك الثورات استقرار ملك فارس الى ان ظهر اسكندر المقدونى اليونانى

وشرع فى الفتوح فافتتح مصر وجعل قاعدتها الاسكندرية كما مر وكان فتوحه سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ثم استولى عليها بطليموس الاول من اليونان أحد قواد الاسكندر عند اقتسام ممالكه بعد موته وانشأت الدولة البطليموسية التى تحفظت على ما أمكن لها معرفته من علوم قدماء المصريين وزادت بمعارف اليونان وقد فتح بطليموس المذكور الشام وجعله ولاية مصرية وأهلك من اليهود ما أبقاه بخت نصر حتى لم يبق منهم الا القليل النادر من الرعاع ثم لما تولى ابنه أعتق من وجد منهم وردهم الى بيت المقدس مكرمين وهو الذى أمر بترجمة التوراة من سبعين رجلا من اليهود العارفين باللغة اليونانية فترجمها كل منهم بانفراده وقوبلت التراجم مع بعضها واستخرج من الجميع نسخة واحدة وهى المعروفة الآن بالسبعينية ومع ذلك فهى مخالفة الآن للعبرانية والسامرية وكأن السبعينية أقل تحريفا للاتفاق عليها اذ ذاك وكان تحت مصر اذ ذاك تونس وطرابلس وكثير من جزيرة العرب والشام وكثير من جزائر اليونان ثم تولى بطليموس الثالث وزاد فى الفتوح الى ان دخل أواسط آسيا ثم تولى الرابع وقتل اليهود فى سائر ممالكه شر قتلة وكان بطاشا وتولى بعده ذريته ولكنهم لم يكن لهم من تقدم اجدادهم سوى اسم الملك أما الاعمال فهى قهرية استبدادية شهوية وسنة الله فى انقراض الدول حتى استولت منهم امرأة ذات جمال فائق واسمها كليوباترة فعاثت فى البلاد والعباد وضعف ملكها فقصدها امبراطور الرومان بالحرب وأرسل لها جيشا ولكنها لما اجتمعت برئيس جيوشه شغفته حبا حتى تزوجها بعد ان كانت تزوجت أخويها واحدا بعد آخر ثم أقام معها رئيس الجيوش الى ان أرسل اليه جيش آخر وقتل فى المعركة ولما أيست الملكة من النجاة مكنت حية قتالة من ثديها فنهشتها وماتت وقد رأيت صورتها فى عدة أماكن من أوربا والحية فى ثديها وكان بذلك انقراض دولة اليونان عن مصر وابتداء استيلاء الرومان عليها فلم تزل ولاية رومانية يلقب واليها بالمقوقس له استقلال فى التصرف الى ان جاءت البعثة وخاطب النبى صلى الله عليه وسلم الملوك بالدعوة الى الاسلام فكان من الملوك المخاطبين منه عليه الصلاة والسلام المقوقس ونص الكتاب الذى بعثه اليه بسم الله الرحمن الرحيم من (محمد) عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فانى أدعوك بداعية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك اثم القبط يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا

بعضا

بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون اه فاجابه بالعربية بما نصه بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت ان نبياً قد بقى وكنت أظن ان يخرج من الشام وقد أكرمت رسولك وبعثته اليك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم وكسوة واهديت اليك بغلة لتركبها والسلام فلم يكن فيه اجابة ولا انكار والغماه ويومى الى قرب الاجابة ثم فتحت مصر فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه سنة ٢٠ على يد عامله سيدنا عمرو بن العاص فى جيش عدده ثمانية آلاف وامده الخليفة باربعة من أسود الصحابة قال ان الواحد منهم فى مقام ألف فتلك اثنا عشر ألفاً ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة وتمادى الفتح منها لبقية أفريقية وحيث كانت أخبارها الى العائلة المحمدية العلوية مبسوطة فى التواريخ لا يمكن استيعابها نقتصر هنا على ذكر الدول وسنيها وملاحظات فى صفحتها فى جدول خاص بهذا وأما بقية الملحقات السودانية وهى القسم الجنوبى من النوبة وما يليه جنوباً من بقية السودان وقاعدة ملكهم تسمى سنار باسم المملكة فغاية ما يعلم من أحوالها انها قبل الهجرة بنحو ٣٧٣٥ سنة كان يسكنها قوم من الزنج لا تعرف أحوالهم ثم وردت عليهم طائفة الكوش من العرب وحصلت بينهم وبين المصريين وقائع اضطرت المصريين الى اقامة قلاع فى الحدود وتقلص ظلهم عما كان لهم فى النوبة من النفوذ ثم تسلط أهل سنار العرب على مصر وهم الرعاة ثم خرجت منهم كما سبق ذكره ثم دخلت فى أهالى سنار وغيرهم الديانة النصرانية فى القرن الرابع من الميلاد ثم فى القرن الاول الهجرى افتتح العرب هاتيك الجهات وبقيت على الاستقلال بادارتها سوى التبعية الدينية للخلافة الى سنة ٨٨٩ فاقبلت قبيلة تسمى الفنج (أو) الفون ولا يعرف من أين أتت فتغلبت على تلك الجهات وتملكتها وكانت على الديانة الوثنية ثم أسلمت وصار منها علماء أجلة فى عدة مدن وارتحل منها طوائف الى قواعد الاسلام لاخذ العلوم فبرعت منهم فحول وكان ملكهم من أقوم ملوك الاسلام الى أن حدث فيهم التنافر الداخلى والانقسام وتماروا فيما بينهم فخلوا بذلك وسيلة لجارهم فى التسلط عليهم فاغتنمها محمد على باشا فرصة واستولى على جميع سنار بعد استيلائه على النوبة سنة ١٢٣٦ أما شطوط النوبة الشرقية أعنى ما كان منها على البحر الاحمر فانه كان فى أغلب الاوقات تابعاً لمصر حتى بعد الفتح الاسلامى وعند ما افتتحت الدولة العثمانية مصر بقيت هاته الجهة تحت ادارة خاصة بها تابعة للدولة

الى سنة ١٢٤٣ ففوضت ادارتها الى محمد على وجعلت جزأ من الممالك المصرية وألحقت بها أيضا بلدة أنصاوه وملحقاتها التى كانت تابعة للحبشة فاستولت عليها مصر شيأ فشيأ (وأما) دارفور فغاية ما علمت من تاريخها انها كانت من الممالك الاسلامية القديمة وأهلها من اخلاط السودان والعرب وآخر عائلة من ملوكها عربية سودانية يسمى أولهم السلطان عبد الرحمن توفى سنة ١٢١٨ وانتقل الملك فى أبنائه الى ان تغلب على المملكة اسماعيل باشا سنة ١٢٩١ (وأما) زيلع وغيرها من بقية جهات السودان على شطوط أفريقية الشرقية فحاصل ما بلغت اليه انهم قوم من العرب اجتازوا الى هناك من قبل الاسلام ثم أسلموا فى صدر الاسلام ولما استولت الدولة العثمانية على اليمن وغيره من جزيرة العرب وأفريقية دخلت تلك الممالك أيضا طوعا فى طاعة الدولة ولم تزل مجرية لهم عوائدهم ولها الحكم السياسى الى أن ألحقت ذلك بمصر بمقتضى فرمان منحة الى اسماعيل باشا وورثته وذلك سنة ١٢٩٢ (وأما) بلاد النوبة فكانت قديما مشمولة بما ذكرناه فى منار الى أن استقر الاسلام بمصر فبقى أهل النوبة على الشرك حتى انه فى زمن المأمون لما قدم الى مصر اشتكى اليه ملك النوبة من عامل اسوان وأهلها بانهم ملكوا أراضى فى بلاده بالشراء من أناس والحال انهم أى البائعين عبيده فأحال فصلهم على قاضى اسوان ولم يقر البائعون بالرق فضغن عليهم ملك النوبة وبطش بهم ثم صار التعدى متواليا من النوبيين على أهالى مصر وكلما أغاروا وجه لهم حاكم مصر رادعا فيذعنون ثم يعودون الى زمن صلاح الدين بن أيوب فالتجأ اليه ابن أخ ملك النوبة مستنصرا على عمه فأعانه وأولاه ملك النوبة وضرب عليه خراجا وألحق بمصر نحو الربع من النوبة ثم لما ملكت الدولة العثمانية استقلت النوبة وكانت حدودها عند مصر مأوى للامراء أصحاب الفتن فيلجؤن اليها الى أن استولى محمد على فاستولى على جميع النوبة وغيرها وصار أغلب أهلها مسلمين ودونك جدول حكومات مصر منذ الفتح الاسلامى

﴿ جدول حكومات مصر ﴾

التاريخ من الهجرة	أسماء الحكومات	ملاحظات
٢٠	سيدنا عمرو بن العاص وخلفاؤه	عمال للخليفة من الخلفاء الراشدين ثم الامويين ثم العباسيين
٢٦٤	أحمد بن طولون وذريته	سلطان مستقل بالادارة خاضع الى الخليفة العباسى تدينا
٢٩٢	عمال العباسيين	مثل سائر العمال
٢٩٣	الدولة الاخشيدية ومنها كافور الاخشيدى	سلطان مستقل يدين بالتبعية للخلافة العباسية
٣٥٨	الدولة الفاطمية أولها المعز بن المهدى	خلافة مستقلة على مصر وسائر المغرب
٥٦٧	الدولة الايوبية وأولهم استقلالا صلاح الدين وآخرهم شجرة الدر	مستقلين وتملكوا الشام وغيره وصلاح الدين هو فاتح بيت المقدس من أيدى الافرنج وصاحب الوقائع الشهيرة فى حرب الصليب وفى مدتهم انتقل الخليفة العباسى الى مصر سنة ٦٥٩ وهو صورى فقط
٧٨٤	دولة الجراكسة أولهم المعز ايبك زوج شجرة الدر المذكورة	مستقلين خاضعين لخليفة عباسى بالاسم
٩٢٢	الدولة العثمانية وعمالها ومنهم المماليك	عمال لآل عثمان لهم ادارة مختارة فوضى
١٢١٣	الفرنساويون	تغلب نابليون الاول وبقى الى أن أخرج بسيف الدولة العثمانية واعانة الانكليز

﴿مطالب فى تاريخ مصر الجديد﴾ لما استولى الفرانسيس على مصر وكان قاصد التوصل من هناك الى افتكاك الهند من الانكليز لما كان بينهم من الحروب والعداوة بل وكانت سائر أوروبا اذ ذاك ضد الفرانسا وبين حسبما تقدم ذلك فى محله فحينئذ عاضدت انكلاتيره الدولة العثمانيـة على حرب فرانسا وأخرجاها من مصر ١٢١٦ وبعـد استقرار أمرها للدولة استولى على امارتها محمـد على باشا الذى أصله من الارناؤط وقدم عسكر بامع عساكر الترك لاخذ مصر من الفرانسيس وكان كامل الاوصاف للرياسه فتقدم اليها بنفسه على بنى جنسه وانقاد له الجميع وقررت ولايته الدولة على دفع خراج معلوم سنويا وذلك سنة ١٢١٩ فوجد مصر فى نهاية درجة الفقر والبربرية والجهل بل حتى ان الامراض الوبائية من الطاعون وغيره تمكنت فيها وصارت عادية تفنى من الناس سنويا خلقا كثيرا حتى قل العمران ولم يبق من مآثر تقدم المصريين سوى الاسم فى التواريخ ثم وجد للعلوم الشرعية بقية آثار فى الجامع الازهر من العلماء وذلك كله لما مر عليها من تقلبات الدهر والظلم والجور والاستبداد والحروب فى الايام الخاليـة فشمر عن ساعد الجد ووافقه البخت وفتح لمصر عصرا جديدا فنظم فيها جيشا نظاميا من أهلها ورتب الاداء على الاهالى على قانون غير مجحف وألزمهم بتعمير الارض وفتح الترع وانشأ المدارس العلية للعلوم الرياضية والحربية وأحضر المعلمين من أوروبا وأحيى المارستانات وألزم الاهالى بالنظافة وتوسيع الطرقات والمنشآت وأرسل التلامذة الى أوروبا للتعلم الفنون وأحيى نمو العلوم الشرعية وسهل أبواب التجارة وانشأ معامل السلاح والسفن وترجمت الكتب النافعة فى فنون شتى من لغات شتى الى العربية فنشأ فى مصر جيل جديد وعصر جديد بسطت فيه طرق العمران والتمدن والقوة فى مدة يسيرة فافتتح النوبة وسنار واستولى على الشام والحجاز وافتكه من الوهابى بل امتد بالاستيلاء الى قرب الآستانة فى الاناطولى وخشيت شوكته من عصيانه على الدولة العثمانيـة فتعصب الانكليز الى الدولة فى الظاهر لتوطيد أركانها وفى الباطن خشية من انشاء دولة اسلامية شابة ذات قوة مثل تلك ومركزها مصر فتخشى ان تمتد من هناك الى الهند الذى هو روح قوة الانكليز سيما اذا عاضدتها احدى الدول الاوروباوية مثل فرانسا فلذلك حاربتـه مع الدولة العثمانيـة التى هى اذ ذاك على ضعف شديد من حرب الروسيا والثورات الداخلية واستقلال اليونان وغير ذلك فقهر محمد على ولكن لاتمام مقصد انكلاتيره لم تسمح للدولة بالاستيلاء التام على مصر لمراعاة المقاصد المشار اليها أيضا

فكان الاوفق لهما ابقاء مصر على شبه استقلال اضعف كل من الجهتين وبقى محمد على
واليا على مصر على أن تكون الولاية فى ذريته من أكبر الى أكبر ويؤدى خراجا سنويا
للدولة ويعينها عند وقوع حرب معها بالعساكر الذين يبلغ عددهم الاربعين ألفا
وكذلك يعينها بالسفن وان الرتب العالية فى مصر يعين هو أصحابها وتوابعهم الدولة
والسكة والخطبة تكون باسم السلطان العثمانى والعلم عثمانى أيضا وخرج الحجاز عنه
الى الدولة وكذلك الشام وبقى على ذلك الى أن ضعف بالسن فتنازل عن الولاية لابنه
الاكبر وهو رئيس جيوشه وحروبه ابراهيم باشا سنة ١٢٦٥ وكان على قدم أبيه
وتوفى تلك السنة فتولى بعده ابن أخيه عباس باشا بن طوسون بن محمد على سنة ١٢٦٥
فاخذ عنه فوان التمدن فى شىء من الانحطاط لصرف المداخيل فى الشهوات لكنه أحدث
شيئا من المنافع كبعض طرق الحديد والسلك الكهربائى وأحكم الصلة مع الدولة
العثمانية ثم توفى سنة ١٢٧١ وولى بعده سعيد بن محمد على فزاد انحطاط التمدن
واتسع خرق الاسراف ومنح جمعية لسبس الفرانساوية فتح خليج السويس وكثر الدين
على الحكومة ثم توفى سنة ١٢٨٠ وولى اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا فاعاد عصر
التمدن والمعارف واتساع القوات البرية والبحرية وشدد الالتحام بفرانسا وانكلاتيره
بما جعله آخذا طريق الاستقلال بالمرة عن الدولة العثمانية وصادف ان كان فى أيام
ولايته حصلت حرب أمريكا المتحدة فى بعض سنين فانقطع منها جلب القطن الى انكلاتيره
واشتد طلبه من مصر وحصلت فيها ثروة لم تعهد مع امتداد طرق الحديد الى جهات
شتى والى السودان ثم تم فتح خليج السويس فى مدته ودعى له ملوك أوروبا فحضر له كثير منهم
كامبراطور أوستريا وامبراطورة الفرانسيس زوجة الامبراطور نابليون الثالث
من غير توسط الدولة العثمانية مما زاد الشبهة فى دعوى الاستقلال لكنه كانه تحقق
من زائريه ان المقصد لا يتم له فتغيرت سيرته من وقتئذ وعاد لمصافاة الدولة العثمانية
وقد قدم اليه السلطان عبد العزيز بنفسه الى مصر والى مقره فى الاستانة وحصل منه
على فرمان امتياز بانحصار الوراثة فى خصوص بنيه من أكبرهم الى ابنه الاكبر
وهكذا وزاد فى الخراج للدولة وأخذ منها مملكة زيلع وفتح دارفور وكردفان وغيرها
من السودان وزادت المعارف كلها شعشعة فى أيامه وانشأ المحاكم الحاكمة بمصر لمنع
حكم القناصل وانشأ مجلس النواب من الامة لكنه صورى وكذلك مجلس الوزراء
الا ان الكل تحت امره وحده لكن ازداد الدين على الحكومة بكثرة المصاريف

الداخلية فى انشاء القصور وغيرها كالترع والطرق وبكثرة المصاريف للدول لتحصيل مطلوب منهم مماذكرناه وافتقر الاهالى من الظلم وأخذ أموالهم بالضرب وغيره لحد غير معلوم ومع ذلك لم تقدر الحكومة على الوفاء بفائض الديون الاروباوية وجعلت تزيد فى القرض الى أن توقف المقرضون عنها فتداخلت الدول فى حفظ أموال رعاياهم وأنشأوا وزارة فيها وزيرانكليزى للمال ووزير فرانساوى للاشغال العامة وتحرش الوزراء غير الاجنبيين حينئذ فى عدم الاذعان لمجرد ارادة اسماعيل باشا وتقلب مرارا فى تغيير الوزراء فلم يفده الى أن ثار الجيش بالاغواء متفقا مع مجلس النواب وأهانوا الوزارة المختلطة كما بدعوى انها نقصت من مصاريف الجيش وعدده لكن المعاملة مع الوزير الفرانساوى كانت لينة وهو مغض عنهم حتى كان لسان الحال يدل على ان لفرانسا باطنا نوع اتفاق مع الخديوى يوافق قصده فى التباعد من انكلاتيره حتى تفطنت لذلك وأرسلت له رسولا خاصا ليبلغه نصيحة شديدة ما لها ان النافع لذاته هو الرفق بالرعية والكف عن الاسراف وان ركونه الى غيرها لا يفيده عند تمحص الحق فأجاب بالتخلص مما رمى به واشتد حنقه من التداخل الاجنبى الى أن حصلت تلك الامور من العساكر فعزل الخديوى الوزارة فثار غيظ فرانسا وانكلاتيره وطلبوا من الخديوى أن ينعزل عن الخديوية فأبى وألحوا الى أن كادوا أن يباشروه بالحرب وكانت الدولة العثمانية اذذاك أثخنوا جهها من حرب الروسيا التى قسمت بها كثيرا من ممالك الدولة فارادت الدولة أولا أن تحمى الخديوى لكنها لما علمت أن لامناص من عزله جعلتها كما قيل بيدى لا بيد عمرو وحفظا للناموس واسطتها فعجلت بارسال أمر بسلك الكور بالى اسماعيل باشا تعلمه بعزله وأمر آخر الى ابنه الخديوى الحالى محمد توفيق تأمره بالولاية وتسلم زمام الامور وذلك سنة ١٢٩٦ ثم سافر اسماعيل الى ايطاليا بحريمه وأبنائه وبقى ساكنا فى نابلى بقصر لحكومة ايطاليا وتصرف الخديوى توفيق فى مصر بواسطة الوزراء وجعل رئيس الوزارة مصطفى رياض باشا وجعل لكل من انكلاتيره وفرانسا مراقبا ماليا يحضر مجلس الوزراء وله صوت فيه بحيث لا يمضى شئ الا ما وافق عليه المراقبان وقسمت مداخيل الحكومة على قسمين أحدهما لفائض الديون وقدر تلك الديون نحو ألفى مليون فرنك ومقدار ما عين لفائضها واستهلاك أصلها نحو مائة وستين مليونا فرنكا سنويا والباقى من مداخيل الحكومة يدفع منه خراج الدولة العثمانية وبقيته مصاريف الحكومة وجرى التصرف للوزارة بدون مجلس النوّاب

مع

مع وعد الخديوى عند ولايته بفتحه واجراء مقتضاه الى أن ظهر للوزارة ان تحدث قانونا فى رتب العسكر كان من مقتضاه ان أبناء مصر العارفين بالكتابة والقراءة لا يتجاوزون رتبة رئيس الالف أى بين باشى والذى لا يعرف ذلك لا يتولى الارتبة رئيس عشرة وبقية الرتب يتولاها الدخيلون فى مصر كالترك والافرنج فامتنع من الامضاء على القانون فى وزارة الحرب عدة من أمراء الالايات معلنين بان ذلك خلاف الانصاف فسجنهم وزير الحرب فثارت العساكر وأخرجوهم من السجن وأحاطوا بقصر الخديوى طالبين عزل وزير الحرب فعزل وحصلت (حينئذ) طمأنينة لاتحاد العساكر وانصافهم وحماة المصريين ونشأ فى الامة حزب يسمى الحزب الوطنى زعيمه فى الكلام رجل يسمى عبد الله نديم ✻
فصيح اللسان عارف بطرق الكلام وكثرت منه الخطب فى الجامع والمواكب ومن غيره أيضا فى الحث على الاتحاد وأخذ الاشغال لابناء الوطن وكذلك الوظائف والخروج من ولاية الاجانب الذين اشتد احتقارهم للاهالى واستبدادهم عليهم بالمرتبات الباهظة حتى انى لما مررت بمصر كنت أسمع دوى غليان الاهالى من التشكى من كثرة توظيف الاجانب الذين بلغ عددهم نحو ألف ومائتى متوظف يأخذون سنويا نحو أحد عشر مليونا فرنكا مع اقتدار الاهالى على الوفاء بتلك الوظائف ونقصان مرتبهم عن ذلك بكثير ثم بدا للوزارة لزوم التنقيص من عدد العساكر فثار الجند وأحدقوا بقصر الخديوى متسلحين حتى بالمدافع بعد ان أرسلوا الى نواب الدول بالامن عليهم وعلى رعاياهم والاعلام بمقاصدهم وكان رئيس ذلك الاتحاد رجل من أهل مصر فى رتبة أمير ألاى فصيح اللسان ثبت الجنان اسمه أحمد عرابى فطلب هو ورؤساء الجيش الاجتماع بالخديوى فلما تيقن الخديوى جد طلبهم بواسطة خطاب قنصل الانكليز معهم تلقاهم فأعلموه بأن مطلبهم هو عزل الوزارة وولاية رئاستها لشريف باشا وجمع مجلس النواب واجراء قراره حقيقة وان تكون له الحرية اللازمة لمثله وانه لا يمس حقوق الاجانب وتعهدات الحكومة معهم فلم يسع الحال الا القبول بجميع المطالب واجرائها فعلا وازداد عرابى نفوذا وانطلقت الالسن بالحرية فلما اجتمع مجلس النواب ألف قانونه الذى تبتنى عليه أعماله وكان من جملته انه له الحق فى الاطلاع على حساب الحكومة فى الحال وله الرأى فيه مع ان ذلك من ✻
خواص مأمورية المراقبة الفرانساوية الانكليزية فامتنعت وزارة شريف باشا من قبول ذلك لما تعلم من تداخل الدولتين فى الامتناع حتى يفضى الى التداخل فى السياسة فأصر المجلس على طلبه وأظهرت العساكر التعصب الى المجلس فاستعفى شريف ووزارته

ومن هنا خرجت الاعمال عن القصد الجميل لما يوقعها فى الزوال لان العاقل ينظر لجميع مقتضيات الحال ونسبة قوة الدول فيتباعد من موجبات الفساد ولا تطلب النهايات فى البدايات كما هو القاعدة الشهيرة القائلة من طلب الشئ قبل أوانه عوقب بحرمانه وما بالعهد من قدم قد رأوا تداخل الدولتين فى عزل الخديوى السابق حتى تم مرادهم فكيف يفتح لهم باب التداخل وهم بالمرصاد منهم لكن سبق القدر فلم يتدبروا واستعجلوا فاصروا على طلبهم ففوض الخديوى انتخاب الوزارة الى المجلس مع انه من حقوقه تطييبا لخاطر الاهالى فاستولى رئاسة الوزارة محمود سامى واستولى وزارة الحرب عرابى وابتدء أيضا من هنا الاعتراض عليه من العقلاء فى قبول الوزارة لان مقامه من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر يحجب بتلك الولاية ويصيرله غرض خاص به من الارتقاء الى المناصب العالية سيما بعد ان رقى من كان معه من رؤساء العساكر الى رتبة اللواء وقبل هو من الخديوى تلك الرتبة بعد الالحاح عليه فوافقت هاته الوزارة رأى المجلس وكانت اذ ذاك ألسن الاهالى وصحفهم بذية مطلقة بالقدح فى الاروباويين والتبجح بما هم عليه مما أسف منه عقلاء المسلمين فهاجت ضدهم صحف أروباجميعا واشتدهم الفرانساويون والانكليزيون حتى أبرقت وأرعدت دولتاهم متهددين بالحرب طالبين نفى عرابى وبعضا من رؤساء العسكر الذين رقوا الى رتبة اللواء وارجاع وزارة شريف ودحض مطلب مجلس النواب فى التداخل فى أمر المراقبة فوقع اضطراب وهيجان ظهرت فيه دعوى على بعض من العساكر الجراكسة بانهم قصدوا قتل عرابى باغراءات سرية منها المنسوب الى طلعت باشا أحد علائق اسماعيل باشا فنفى أولئك الجراكسة الى الاستانة وبقوا فيها تحت الحفظ مكرمين فى أحد البناآت السلطانية الى أن رجعوا بعد الحرب الآتى ذكرها فلما أصرت الدولتان على ذلك أعلن الخديوى بعزل الوزارة فثارت الاهالى والعساكر وألزموا الخديوى بارجاع عرابى الى وزارته وقدم اذ ذاك مرخص عثمانى وهو المشير درويش باشا ومعه عدة رجال لاقرار الراحة فى مصر بالوجه السياسى لان الاهالى أيضا أكثروا من التنويه بانتمائهم للدولة العثمانية ووردت منها افراد على الوجه الخصوصى من قبل لاراحة الاهالى وكان الخلاف بين عرابى والخديوى عند قدوم درويش باشا مشتدا حتى ظهر الخبر بأن الاهالى قدموا مضبطة بطلب عزل الخديوى بل جرى الطمع حتى الى اخراج الخديوية عن عائلة محمد على بالمرة وطلب أن تكون مصر مثل البلغار فى امتيازاتها التى منها اختيار الوالى وأن لا تتداخل فيهم الدولة العثمانية

العثمانية بشئ فى ادارتهم بل ربما تحرشت صحفهم بانها لو ترسل عساكر ضدهم فانهم يقاتلونهم كما يقاتلون سائر الدول وحينئذ أعلنت كل من فرانسا وانكلتيره بلزوم ابقاء الخديوى ونفوذه وقطع مضادته بالقوة الجبرية غير ان فرانسا تطلب أن تكون قوتها وقوة انكلتيره هى الفعالة ولا تسمح للدولة العثمانية بذلك وانكلتيره على ضدها تطلب مبادرة عساكر الدولة العثمانية لذلك فرأت الدولة العثمانية ان فصل النازلة يتم بدون احتياج الى قوة وأرسلت درويش باشا ومن معه لذلك وحصل من قدومه ما أغاظ كثيرا من الاروباويين لانقياد العساكر المصرية والاهالى للسلطان وامتثال أمره وابتدأ السكون والتوافق والرضى بالحصول شيئا فشيئا لكنه حدث فى اسكندرية التى كانت اذ ذاك مرساها غاصة بأساطيل الدول الاروباوية حادثة شنيعة وهى قتال بين المسلمين والنصارى السكان بسبب مشاجرة عادية فطبل الاروباويون بذلك وزمروا حتى توجه الخديوى ودرويش باشا وعرابى الى الاسكندرية لاقرار الراحة وأقر الدول ان الواقعة عادية لادخل لها فى السياسة غير ان أصل المسئلة من اصرار الدولتين على مطالبهم وامتناع أهالى مصر لازال على ما كان وفرانسا أشد اقداما وتهديدا باعلان الحرب وطالبت انكلتيره عقد مؤتمر فى الآستانة لما يجب من العمل فامتنعت الدولة العثمانية من التداخل فيه لما لها من حق السيادة وحدها على مصر فرأت ان ذلك من باب تداخل الدول فى داخليتها لكنهم عقدوه ودخلت فيه الدولة العثمانية أخيرا وبينما هو فى التفاوض كانت العساكر المصرية تصلح فى حصون الاسكندرية حيث انها خربة ولا استعداد فيها الان الدولة العثمانية كانت جبرت على اسماعيل باشا تحصينها عندما أحكم حصن أبوقير جوار الاسكندرية وحصون دمياط وغيرها لما سبقت الاشارة اليه فى أخبار اسماعيل باشا ولما رأت أساطيل الدولتين ذلك التحصين ادعوا انه تهديد لهم وطالبوا الاقلاع عنه فأمرت الدولة العثمانية بالكف عن التحصين وادعى المصريون الامتثال وادعى رئيس أسطول الانكليز عدمه وطلب دخول عساكره الى الحصون فتفاقم الخلاف وأطلقت النيران من الاسطول الانكليزى على الاسكندرية فخربتها فى نحو عشر ساعات وتضررت بعض مدرعاته وانحازت العساكر المصرية الى مكان يسمى كفر الدوار وجيشوا هناك واستولت العساكر الانكليزية على الاسكندرية وبقى الخديوى فيها وانكشف الغطاء على مخالفة العساكر للخديوى وكان معه درويش باشا المذكور فرجع الى الآستانة وبقى مع الخديوى الكاتب الثانى

للسلطان واشتد الحاح انكلاتيره على الدولة فى ارسال العسكر ولم ترسل الدولة الى أن وقعت عدة محاربات برية كان النصر فيها للمصريين واستولت انكلاتيره على برت سعيد وسائر خليج السويس وكان أكبر المعسكرات المصرية فى التل الكبير بين القاهرة والاسماعيلية وتضايق الانكليز فى لزوم قوة كبيرة لهم لاتمام قصدهم لان فرانسا لما فتح مجلس نوابها الاستشارة فى حرب مصر انكر ذلك أشد الانكار فسحبت أسطولها وبقيت على الحيادة والدولة العثمانية وان وافقت أخيرا فى ارسال عسكرها لكن تشدد الانكليز فى جعله تحت أمرهم وأن لا يتصرف الاعلى نحو اشارتهم وأن يخرج متى ما أمروه بالخروج ألزم تأخر ارساله وكان تصرف العساكر المصرية بغاية الاحتراز من الافعال البربرية سوى ما صدر من افراد من العربان والفلاحين فى جهات قليلة وبينما الامر على ذلك واذا بالدولة العثمانية نشرت اعلانا حسب طلب انكلاتيره بان عرابى وكل من انحاز الى حزبه عصاة فلم يمض على ذلك بضع أيام الا وقد انحلت عرى التعصب المصرى ودخلت العساكر الانكليزية الى القاهرة راكبة فى الرتل بدون أدنى حرب ولا معارضة مع ان الجيش المصرى ومن انضم اليه من العربان وغيرهم المتجاوزون المائة ألف والخمسين ألف محارب باتم قوات الاستعداد فتفرقوا جميعا أيدى سبا فى بضع ساعات وسلم عرابى نفسه أسيرا الى الانكليز فرجع الخديوى الى مصر وأقيم وكيل مدافع انكليزى عن رؤساء العساكر المصرية وآل الامر حسب ارادة انكلاتيره ان حكم بعقاب عرابى لكن الخديوى عفا عنه لانه لم يفعل شيئا الا عن وفاق من يقبح وأبقى له مرتبا للقيام بنفسه ونفى هو وكبراء الرؤساء الى جزيرة سيلان فى الهند وذلك هو التعليل الباطنى مع ان حزبا عظيما من الانكليز يرون ان جناية أولئك العساكر سياسية لا توجب القتل فلذلك حكم عليهم المجلس الحربى بالقتل لكن الخديوى عفا عنهم وأبدل القتل بالنفى ولم تزل العساكر الانكليزية مقيمة بمصر وحالهم السياسيون هم مرجع الامر والنهى والوزارة تحت رآسة شريف باشا وناظر الداخلية الذى له كمال النفوذ رياض باشا وانكلاتيره بصدد ترتيب حالة جديدة للسيرة السياسية داخلية وخارجية لمصر مع اعلانها بان مصر تحت سيادة الدولة العثمانية على امتيازاتها المقررة بالفرامانات السلطانية وان التراتيب التى هى بصددها لا تمس شيئا من حقوق الدولة ولا معاهدات الدول الاجنبية وتقلص نفوذ فرانسا فى مصر ولم تزل غير مسلمة رسميا لانكلاتيره بمرادها وللروسية ميل الى معاضدة فرانسا هذا ما وقع الى الآن وهو المحرم

سنة

سنة ١٣٠٠ وبه يعلم صحة ما كنا ذكرناه في استيلاء فرانسا على تونس وكتبناه سنة ١٢٩٨ والله يفعل ما يشاء ويختار وله عاقبة الامور

﴿مطلب في السياسة الداخلية المصرية﴾ اعلم ان مصر مملكة عثمانية لها امتيازات خاصة بينها الفرمان الصادر في ولاية الخديوي محمد توفيق باشا وهذا نصه

الدستور الاكرم المفخم الخديوي الافخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الامم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأي الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديوي مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلا والحامل لنيشانا الهمايوني المرصع العثماني ولنيشاننا المرصع المجيدي وزيري سمير المعالي توفيق باشا أدام الله تعالى اجلاله وضاعف بالتأييد اقتداره واقباله انه لدى وصول توقيعنا الهمايوني الرفيع يكون معلوما لكم انه بناء على انفصال اسماعيل باشا خديوي مصر في اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ وحسن خدمتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا بان لكم وقوفا ومعلومات تامة في خصوص الاحوال المصرية وانكم كفؤ لتسوية بعض الاحوال الغير المرضية التي ظهرت بمصر منذ مدة ولاصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضي المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالي الصادر في ١٣ محرم سنة ١٢٨٣ المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى أكبر الاولاد وحيث انكم أكبر اولاد الباشا المشار اليه وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هي من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوباتنا ومطلوبنا وقد ظهر ان بعض أحكام الفرمان العالي الشأن المبني على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيه الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قد نشأ منه الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة صار تثبيت المواد التي لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدها وصار تبديل المواد المقتضى تبديلها وتعديلها واصلاحها فانقرر اجراؤه الآن هو المواد الآتية وهي ان كافة واردات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهاني وحيث ان أهالي مصر أيضا من تبعة دولتنا العلية والخديوية المصرية ملزومة بادارة أمور المملكة الملكية

والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعدٍ فى وقت من الاوقات
لخديوى مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها
بصورة عادلة وأيضا يكون مأذونا بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الاجنبية
فى خصوص الكمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لاجل ترقى الحرف والصنائع
والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والاجانب أو
الاهالى والاجانب مع أمور ضابطة الاجانب بشرط عدم وقوع خلل فى معاهدات
دولتنا العلية السياسية وفى حقوق متبوعية مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية
المشارطات التى تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالى وايضا يكون
حائزا التصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من
الآن فصاعدا بوجه من الوجوه وانما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع
المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا
فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها وحيث ان الامتيازات التى أعطيت الى
مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت
لديه لا يجوز لاى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة
أرض من الاراضى المصرية الى الغير مطلقا ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية
الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه كذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر
تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ١٨ ألفا لان هذا القدر
كاف لمحافظة أمنية ايالة مصر الداخلية فى وقت الصلح وانما حيث ان قوة مصر البرية
والبحرية هى مرتبة من أجل دولتنا العلية يجوز أن يزاد مقدار عساكر بالصورة التى
تستنسب حالة كون دولتنا العلية محاربة وتكون رايات العساكر البحرية والبرية
والعلامة المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم ويباح لخديوى
مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية رتبا الى غاية رتبة أمير الآلاى والملكية الى
الرتبة الثانية ولا يرخص لخديوى مصر أن ينشئ سفنا مدرعة الا بعد الاذن وحصول
رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة
الذكر والاجتناب من وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد
السابق ذكرها قد أصدرنا أمرنا هذا جليل القدر الموشح أعلاه بخطنا الهمايونى وهو
مرسل صحبة افتخار الاعالى والاعاظم ومختار الاكابر والافاخم على فؤاد بك باشكاتب
المابين الهمايونى ومن أعاظم رجال دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية
والمجيدية

والجديدة ذات الشأن والشرف حرر في تاسع عشر شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٦ من هجرة صاحب العز والشرف

وبهذا تعلم أصول الحالة التي عليها حكومة مصر (أما) كيفية الادارة فلما قدمناه في التاريخ لا يتيسر لنا التصريح بالحقيقة التي يجرى عليها الحال لانها غير مستقرة كما علمت وانما نقول انها الآن لها خديوى يتصرف بواسطة الوزراء على نحو القاعدة الاروباوية وما عدا هذا فهو موقوف الى الآن وهو سنة ١٣٠٠ ومن العجب ان بقى الحال هكذا على غير استقرار وكل حين يسمع انهم يريدون ان ينشئوا أساسات للادارة ولم تظهر للوجود مع شدة التشكى من الاهالى من الحالة الراهنة التى مآلها عدم العلم بمرجع الامر وعدم تعين المتصرف رسميا وفعلا فان القوة الحربية بيد الانكليز وهم أصحاب النفوذ لكنهم مصرحون بانهم لا يتصرفون فى الادارة وانها راجعة الى الخديوى وحكومته وهؤلاء أيديهم قصيرة اذ كل شئ مرجعه صاحب القوة لاسيما بعد ان استعفت وزارة شريف باشا وتولية وزارة نوبار باشا الذى علم ان لا مناص من مجاراة القوى مع تفاقم الثورة فى السودان التى كانت ابتدأت أوائل مدة اسمعيل باشا بسبب تعدى المأمورين على رجل منسوب للصلاح يسمى محمد أحمد كان شيخ طريقة وله اتباع ففارت منهم أتباع طريقة أخرى فاغروا بهم عامل تلك الجهة وهى دارفور فارسل اليهم بعض اتباعه فخالفوهم وقهروهم وتكرر ذلك وكلما أرسل اليهم قوة كسروها فحصل لمحمد أحمد شهرة الى أن ادعى المهدوية وكانت الاعيان والامراء من السودان فى حرج من ادارة المصريين فانضموا اليه بتدبيرهم وأموالهم الى ان استولوا على أغلب السودان المصرى وكسروا المصرية جيوش عظام أحدها يشمل أزيد من عشرة آلاف قتلوهم عن آخرهم واستولوا على مهماتهم وفى اثناء ذلك دخل عسكر الانكليز الى مصر فاعلمت انكلاتيره بفصل السودان عن مصر وانه لا لهم بامرهم متعللة بانهم لا نفع فيهم للحكومة مع ضيق ماليتها عن الوفاء بصريهم وكان ذلك سبب استعفاء وزارة شريف باشا متمسكا بان ذلك لا يصح بدون أمر الدولة العثمانية المسلم لها السيادة ولضرره بمصر أيضا لكن انكلاتيره أصرت على رأيها وأولت نوبار باشا وفائدتها من ذلك هى تضعيف مصر واستمالة السودان بموافقتهم اليها لكنهم كانوا أشد عليها مما كانوا مع المصريين فارسلت اليهم انكليزيا كان مع اشراهم يسمى غردون كان متوليا حاكما عاما عليهم مدة اسمعيل باشا فحاول تسكين ثورتهم فلم يقبلوا منه صرفا

ولاعد لافتحصن ببلاد الخرطوم وطلب القوة من دولته وكانت الوزارة اذ ذاك بيد حزب الحرية فاظهروا من التناقض فى القول والعمل ما يتعجب منه فى ارسال القوة وأمرها بالتقدم تارة وبالتأخر أخرى الى أن فتح السودانيون الخرطوم وتم لهم جميع أمر السودان وحصل من مجموع الامور الحالة الراهنة فى تخضرم الامور وكثرة التشكى من الادارة التى هى على غير أساس فعقدت انكلتيرة التى زمامها حينئذ بيد حزب المحافظين اتفاقا مع الدولة العثمانية هذا نص تعريبه (أولا) ترسل كل من الدولة العثمانية وانكلترا مندوبا عاليا الى مصر (ثانيا) يتدبر المندوب العالى العثمانى متفقا مع جناب الخديوى أو مع من يعينه هو لهذا الغرض المبين فى الوسائط النافعة لتسكين السودان ويتفاوض المأموران والخديوى فى جميع التدبرات التى يمكن بها تعديل الاحوال المصرية عموما ويكون اجراؤها برضاء الجميع (ثالثا) يباشر المندوبان العاليان ومعهما الخديوى اصلاح وترتيب العساكر المصرية (رابعا) ينظر المندوبان العاليان مع الخديوى فى جميع فروع الحكومة المصرية ويمكن لهم أن يدخلوا التعديلات التى يرونها لازمة فى كل ما هو داخل فى دائرة الفرامين السلطانية (خامسا) يقع الاعتراف من طرف السلطنة العثمانية بجميع المعاهدات العمومية الاجنبية التى عقدت مع الحضرة الخديوية وذلك اذا لم تكن مخالفة للامتيازات المضمنة فى الفرامين السلطانية (سادسا) عندما يرى المندوبان العاليان ان هناء الحدود استقر وصارت سيرة الحكومة المصرية مستحسنة وأمرها راضية يقدم كل منهما تقريرا الى دولته لعقد الاتفاق باخلاء العساكر الانكليزية البلاد المصرية فى وقت مرضى (سابعا) يقع امضاء هاته المعاهدة فى ظرف خمسة عشر يوما وتكون مبادلتها ممضية فى القسطنطينية اه وقدم المرخصان المشار اليهما فى الاتفاق وعند وصول المرخص العثمانى وهو مختار باشا احتفلت به الحكومة أزيد من احتفالها بالمرخص الانكليزى الذى كان سبق صاحبه (وأما) الاهالى فاحتفلوا بالثانى فقط وعند ملاقاتى معه للسلام مع جمع من الاعيان أنشدته هذين التاريخين أولهما

الى الخليفة تنهى دام منتصرا * قد احتفلنا هنا أرخ بمختار كم

وثانيهما بشرى الهنا العموم أهل المصر اذ * اصلاحها أرخ بمختار نجز

وبقى المرخصان بمصر وهما مباشران الآن للنظر فى الاصلاح وتأسيس الادارة على أصول راسخة فهذا ما وقع الى تاريخ طبع هذا المحل وهو ربيع الثانى سنة ١٣٠٣

مطلب

﴿مطلب في السياسة الخارجية﴾ الاسباب التي بيناها في ابهام الداخلية هي بعينها جارية في الخارجية والامور بيد الانكليز وجميع الدول مسلمة بذلك الا فرانسا فمصرحة بالاعتراض وبمقتضى ماذكرنا في سلطة فرانسا على تونس يظهر ان رجحان الانكليز بمصر سيما وهم متخذون طريقتهم في جلب الاهالي اليهم قلبا وقالبا بمراعاة حريتهم وسائر عوائدهم وأصولهم كما هو ديدنهم في الممالك التي لهم فيها النفوذ لكن الاهالي مصرون على النفور لان التصرف الانكليزي كان في مصر على صورة لم تعهد من أحد قط لانهم في الرسم معلنون بانهم لا يأخذون مصر ولا يجعلونها تحت حمايتهم وفي نفس الامر النفوذ بيدهم ولا يصدر شيء الا عن ارادتهم الى أن حصلوا على الاتفاق المار ذكره في المطلب السابق مع الدولة العلية فحينئذ صار لهم حق المداخلة برضاء صاحب الحق اقناعا للدول لان بعضهم وهي المانيا أشارت بالتعريض مرارا على انكلتيره بتصريحها بالاستيلاء على مصر والنمسا موافقة لها وايطاليا كذلك مع مزيد التحام بانكلتيره في المساعدة حتى أدخلت عساكرها الى مرسى مصوع وأعانت بالاستيلاء عليها لكنها لا تمس حقوق الدولة العثمانية وهو كلام لا يعقل ولا مفهوم له الا عدم التصريح بالاستخفاف وأغرب من ذلك ان الدول أجابوا الدولة العثمانية لما طلبت منهم التداخل مع ايطاليا في خرقها حقوق الدول بانهم لا يتداخلون حيث صرحت ايطاليا بمراعاة حقوق الدولة (وأما) الروسيا فلم تبد ممانعة ولا موافقة (وأما) فرانسا فكانت ممانعة للانكليز لكنها منذ رأت الدول الكبيرة موافقة على نحو ما رأيت وقد تكفلوا بان تكون عليهم جميعا كفالة قرض الى مصر قدره تسعة ملايين ليره ومع ذلك كله فان الانكليز امتنعوا من الاستيلاء الرسمي أو وضع الحماية كذلك بل حتى من كفالة القرض المذكور وحدهم لخوفهم من كونهم اذا فعلوا ذلك فتحوا بابا للدول في اضرار بالدولة العثمانية ويرجع ذلك الى عدم معرفة ما تأخذه كل دولة وبترجح به ميزانها فربما رجحوا على انكلتيره ولذلك مالت الى ذلك الوجه من التراضي مع صاحب البلاد وكان لها وحدها حق برضاه لعلها تتخلص من اضرار الدول بالدولة العثمانية الآيل عليها بالضرر أيضا لكن الاساغة الى الطليان في الاستيلاء على مصوع مع تلك الدعوى التي أقرت الدول بانها كافية في اقناع الدولة العثمانية هل يبقى معها الدواء الذي ارادته انكلتيره وهو ان تداخلها لم يكن الا بالرضى الظاهري فان كل دولة يسوغ لها ان تستولي على بلاد الاخرى وتقول لها انها لا تمس حقوقها والكلام وحده سهل فالحاصل ان السياسة التي

وقعت من الدول فى مصر وبالخصوص من الانكليز أمرها عجيب واختراعها غريب والله فيهم علم غيب هم صائرون اليه

﴿مطلب فى بعض صفات وعوائد المصريين﴾ أما أهل مصر الاصلية فهم مختلطون من العرب الفاتحين وأبناء القدماء المعروفين بالقبط وأبناء الروم الذين امتلكوا مصر نحو الستمائة سنة ولون الجميع أسمر الا قليلا من أبناء الترك والمغاربة وغيرهم من الوافدين الى هناك ولهم حسن أخلاق وظرافة وبشاشة فى الخطاب واذا احتدت نفوس الرعاع الخصام تراهم بذيئى اللسان لهم مهارة فى أصناف السب حتى اذا بلغوا الى حد التضارب قال أحدهما لصاحبه (ماعليهشى) فتسامحا وعادا الى المصافاة ومن أخلاقهم حب السماع لكنهم اختصوا بكثرة اظهار استحسانه بالتأوه مع رفع الصوت ولا يتحاشى من ذلك حتى بعض أعيانهم بل انهم يستأجرون أناسا معدين لذلك لكى يصرخوا بالتأوه حتى تحجب أصواتهم صوت الموسيقى والمغنين وتقضى الحصة كلها هكذا ومن عاداتهم احضار قراء القرآن فى بيوتهم ليلا للتلاوة بالانغام ويعطونهم أجورا على ذلك بل من الغريب ان بعض القبط أيضا يفعلون ذلك ومن عاداتهم فى السلام انه اذا دخل الداخل يقف له جميع الحاضرين فيشير بيده للسلام هاويا بها نحو الارض ويرفعها الى رأسه فيحيونه بنحو ذلك ولا يقع منهم التقبيل الا ليد العالم على ظهرها أو القادم من سفر يقبل فى كتفيه وسلامهم مع الامراء والكبراء هو بالاشارة أيضا لكنه فيه تعظيم كبير بان يدخل الداخل قابضا يديه الى صدره ويقرب خطاه منكسا رأسه مجللا بالخطا حتى اذا لصق بالرئيس هوى الى الارض كأنه يريد تقبيل رجله أو ذيل سترته ويمسك الذيل ثم يجعل يده على فيه ثم جبينه والمتواضع من الكبراء المسلم عليهم يضم ذيله اليه كأنه يمتنع من ذلك ويقول أستغفر الله أستغفر الله وغيرهم لا يفعل ذلك لكن أكثرهم متواضع وكلهم يقفون للداخل كبيرا كان أو صغيرا الا الحقير بالمرة مع العظيم جدا ويتكرر الوقوف الى الداخل مهما تكرر دخوله الا اذا كان خادما أو صاحب شغل وأكثر ركوب المصريين على الحمير الا العرب فالخيل وتوجد فى المدن العجلات للركوب على أنواع شتى وسائقوها أسوء أخلاقا من أمثالهم فى سائر البلاد وان كانوا فى الجميع غير مستقيمين واذا ركب أحد الاعيان عجلته جعل أمامه رجلا يركض وهو لابس لباسا مزركشا وبيده عصا طويلة وهو حافى الرجل ويصيح بالمارين ليستيقظوا للعجلة وما أصبرهم على الجرى وما أجراهم حتى اذا خرجوا من البلاد وتعبوا وذهبت العجلة فاذا رجعت الى البلاد رجع

جاريا

جاريا أمامها والمصريون أهل جد وكد في أشغالهم لايميلون الى البطالة بل يقبلون على أشغالهم من غير فتور ويوجد عندهم السؤال المجحون المحفوف حتى انهم اذا رأوا من ❁
أعطى سائلا يكادون أن يسلبوه ثيابه غصبا من الالحاح بل ربما أضروه في بدنه فالاصلح بالانسان ان لايعطى الاسرا ان يعلمه حقيقة محتاجا اذا السؤال صار صناعة لتلك الفرقة ولهم رؤساء وعليهم أداء مقدر ولهم وقائع عجيبة في الغنى وكتمانه فقد ذكر لي ثقة انه في حدود عشرة السبعين من القرن الثالث عشر كان أحد الشحاذين مارا في الطريق فسقط منه كيس وكان بمرأى من أحد الضابطة فايقظه لذلك فلما علم به انه ضابطي انكر ان يكون الكيس له فالح عليه الضابطي وآل الامر الى المشاحنة حتى بلغ الى رئيس الضابطية فامر الشحات باخذ كيسه الذي وجد به عدد كثير من الليرات الذهب فامتنع وأنكر ان يكون له حتى جلده رئيس الضابطية جلدا وجيعا وهو مصر على انكاره فاطلق سبيله وحمله شيخ الشحاذين وداواه من ضربه وشكر صنعه كل بني جنسه وأدوا له جميع ماخسره في الكيس وزيادة لانه لم يظهر عليهم أثر الغنى لكي لايحصل عليهم ضرر ولكي لاتقسى عليهم القلوب ولهم وقائع كثيرة من هذا القبيل مع أياد وصنوف في الالحاح والتضرع تفتت القلوب ولم أر في البلاد مثلهم قط ويغلب على الجميع الوسخ في الثياب وفي البيوت والديار الابعض الاعيان ومن نحا النحو الافرنجي وأكثر ذلك في الفلاحين وأصحاب ❁
القرى بل ان هؤلاء لايستحيون من كشف العورة نساء ورجالا (وأما) أهل النوبة وبقية السودان والعرب فقد تقدم في التاريخ أصلهم وأما عاداتهم فالسودان وان كانوا قريبي الطبع من الهمج لكنهم أحذق أنواع السودان وأقربهم للتمدن سيما من خالطوا العرب فكانوا أمثالهم وأما العرب فهم على نحو الصفات التي ذكرناها في عرب تونس ومن عادات الجميع ان مبدأ توقيت الساعات عند الغروب فيجعلون اذذاك عقارب الساعات في الساعة الثانية عشرة وهي مبدأ الحساب عندهم ومايقابلها من الاثنى عشر ليس لها وقت معين بل هي على حسب مايصادف وهذا أول رؤيتي لذلك وعليه عمل جميع الجهات الشرقية (أما) جميع الاقطار التي مر ذكرها كلها فانها تعدل على الزوال أي الزوال هو ❁
الساعة الثانية عشرة وتنتهي الى نصف الليل فتبتدئ الساعات الاثنتا عشرة التي هي تمام الاربعة والعشرين ساعة المقسم عليها الليل والنهار ولاشك ان اعتبار الزوال أصح في التأقيت لانه لايختلف عن زمنه سواء طال النهار أو قصر بخلاف الغروب وذلك لان الزوال عبارة عن توسط الشمس في قوس النهار وخط نصف النهار يقسم جميع أقواس

النهار بالسواء أعنى أقواس طوله وقصره فلا يختلف الزوال عن وقته بخلاف الشروق والغروب لان الشمس تنتقل عن محلاتها كل يوم وبذلك يكبر قوس النهار أو يصغر فتجد الغروب: انما امامتقدما عن زمنه بالامس أومتأخرا عنه حسب سير الشمس فى طول النهار وقصره بحيث انك اذا حررت الحساب تجد من زوال يومك الى زوال غده أربعة وعشرين ساعة تامة واذا حررته من الغروب الى الغروب القادم تجدها أربعة وعشرين ساعة الادقائق فى أوقات زيادة النهار فى القصر أو أربعة وعشرين ساعة ودقائق زائدة فى وقت زيادة طوله لكن كان عدول المشرقيين عن التاقيت الذى لايختلف هو محاذاة الشرع فى اعتبار مبدأ اليوم من الغروب وان لم يكن بينهما تلازم

﴿مطلب فى الاحكام بمصر﴾ الاحكام بها الآن على ثلاثة أنواع (النوع) الاول الشرعى الاسلامى وهو فى كل مايرجع الى الزواج والطلاق والوقف وغيره ممايرجع الى أحوال الديانة فى المعاملات وهذا له قضاة ومفتون على المنهاج الشرعى وان أحدث فيه مصاريف يأخذها القاضى على الدعاوى مع بعض عوائد تجحف بالخصوم مما أوجب التشكى من ذلك والنوع الثانى بقية المعاملات بين سائر الاهالى ولها مجالس سياسية (ومنها) الضابطة تحكم بحسب قوانين سياسية موافقة للشرع غالبا وتارة بحكم الحاكم باجتهاده كما فى سائر الاقطار السودانية والنوع الثالث المعاملات التى بين الاهالى والاجانب فلها مجالس مختلطة من سائر الاجانب يحكمون بقانون عقلى ملائم لعادات القطر وعلى الاجمال فاهل مصر لهم الحرية الشخصية فيما يرجع الى الديانة وشعائرها حتى صارت المنكرات جهرا ولا يقدر الاب على منع ابنته من مثل ذلك بالحكم اذا بلغت سنامعلوما أمابقية الحرية الشخصية وهى أمن الانسان على نفسه وماله وعرضه الا بحق فهذا كانه موجود فى العموم لكن اذا أراد الحاكم المخالفة فالحيل ممكنة وأما الحرية السياسية وهى مشاركة العامة للحكومة فى الرأى فالتحقيق انه غير موجود وان كانت الصحف تتكلم فى السياسة لكنها مخصوصة بالسياسة الاجنبية أما القدح فى تصرفات الحكومة فهو ممنوع نعم لبعض الصحف المستند أصحابها على خصوصيات عينية القدح فى سيرة بعض افراد لمنفعة خاصة والامر موقوف على مايستقر عليه الحال من الترتيب السابق ذكره فى أحوال السياسة

﴿مطلب فى تجارة مصر﴾ التجارة بها متسع جدا فى السلع الوطنية والهندية والسودانية والاروباوية وأغلب الاروباوية فى يد الاجانب (فاما) غيرها فبيد الاهالى

ولهم

ولهم براعة فى الاكتساب ولكنهم قليلوا الاسفار فلا تكاد تجد منهم خارج ممالكهم الا النادر وكل من أقام بمصر من الغرباء ربح الربح الحسن من التجارة لان محصولات الاقطار كثيرة فيخرج منها أنواع كالقمح والشعير والفول والتمر والعدس والذرة والارز والسكر وهو جيد كثيرا وقصبه والصمغ وفيه أنواع شتى والنطرون والصوف والافيون والعصفر والجلود والحصر والقطن وهو الغالب وفيه أنواع جيدة وبزره وكذلك سن الفيل وريش النعام والمنسوجات الكتانية وغيرها وهذا كله يصدر منها أما الداخل اليها فأهمه الجوخ أى الملف والحرير والشاشية والزرابى على أنواع والاخشاب للبناء والوقد والعنبر والنقل كالفزدق والجوز والاشربة والبن والصابون والدخان والورق والشمع والزجاج والنحاس وغيره من المعادن مصنوع وغير مصنوع والفرش الصوفية وغيرها بحيث ان مصر مسابقة لاروبا فى الغنى بالتجارة وأنواعها مختلفة منها ما هو على النحو الاروباوى كالتجارة فى الرقاع الدولية والتجارية ولها مرسى عظيم فى الاسكندرية وكذلك البريد فيها على غاية الانتظام برا وبحرا خاص بالحكومة وتأتى اليها أيضا برد أجنبية بحيث لا يخلو يوم من ورود بريد اليها من الاقطار مع السفن التجارية الكثيرة ومنها ما هو على النحو البربرى من التجارة فى القوافل الى دواخل السودان والصحراء واهمها القوافل السنوية وهى قافلة دارفور وقافلة الحبش وقافلة فزان ولكل منها عند وروده يوم حافل وكل منها تأتى بتجارة ما والاها من دواخل افريقية ولو زاد تسهيل الطرق والاعتناء بها فى السودان لاستغنت عن الخارج وزادت ثروتها للنهاية فان فى السودان كنوزا مكتومة ودونك قيمة قوة التجارة مع الممالك الخارجية لتعلم منه ما يفضل سنويا من المال فى المملكة

٣٦٠,٠٠٠,٠٠٠	قيمة السلع الخارجة فيها		
١٦٠,٠٠٠,٠٠٠	قيمة السلع الداخلة سنة	١٢٨٩	نحو فرنك
٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠	الفاضل		

فلولا فائض الدين الاجنبي الذى يخرج سنويا الى أروبا حيث كان أغلبه بيد الاجانب لكان يبقى سنويا فى مصر مائتا مليون فرنكا ولكن مع ذلك أيضا فلا أقل أن يبقى فيها خمسون مليونا كل سنة هذا فضلا عن حركة التجارة فى داخل المملكة وبين أقسامها

(مطلب فى الصنائع بمصر) عنصر الصنائع منحط بالنسبة لتقدمها وان كان بها بعض المنسوجات الحريرية والقطنية وغيرها كالفخار والنجارة حتى فى السودان لكنها متأخرة

عم يا يحب لهما نعم ان الفلاحة من الصعيد الى نهاية بحر الروم هي في غاية التقدم وللفلاحين معرفة جيدة بكيفية رى الارض حتى بالآلات الجارية الرافعة للماء من النيل والترع و بكيفية اثارة الارض وتعميرها فلهم اليد الطولى فى ذلك وترى الفلاح بنسائه و بناته يشتغل آناء الليل وأطراف النهار وأصحاب الفلاحة من الاعيان لهم منازل فى أراضيهم لمباشرتهم الاعمال ولهم ثروة عظيمة من ذلك أما أنواع الفلاحة فهى زراعة القمح والشعير والفول والعدس والحمص والترمس الذى يتخذ منه الاشنان والكتان وخس الزيت والسلجم لما فيهما من الزيت والبرسيم والجلبان والبلة والحلبة والقرطم وهو حب العصفر والخشخاش والخردل وغير ذلك من الخضروات والحبوب والقطن على أنواع لذاته ولبزره ليخرج منه الزيت للصابون والتسريج وكذلك قصب السكر الرفيع و يزرع أيضا التبغ المستعمل للتدخين والفول السنارى فى كل من السودان ومصر وهو صالح للاكل و يستخرج منه زيت جيد لذيذ لا رائحة له ولا طعم واذا اشعل ليس له دخان مثل غيره (وأما) الاشجار فلا يكثر عندهم الا النخل فى جميع الجهات والزيتون استنبت لكنه ردئ الزيت لكنهم لهم حبوب أخرى زيتية كالسمسم والخروع غنية جدا (وأما) البرتقان والليمون فهو قليل والموز كثير غير لذيذ وعندهم شجر الدوم الشبيه بالنخل وكذلك الاهليلج و يزرعون الزهور الطيبة مثل الورد والياسمين وغيرها والاشجار الغير المثمرة قليلة كما تقدم تفصيله فى التعريف بمصر وأيضا قد وجد اعتناء بأنواع من الصنائع سيما التى تمس اليها حاجة الحكومة وتقدم فيها الاهالى كصناعة الاسلحة والبواخر وتوجد معامل للحكومة منها نحو عشرين للسكر متقنة ومعمل آخر لسبك أحرف الطبع وتجليد الكتب ومعمل للسلاح وآخر للسفن وحوض لها وآخر للجوخ وآخر للدبغ وآخر للورق وكلها على النحو الاروباوى المتقن و يمكن أن تقوم بنفسها من الاهالى حتى فى صنع المدافع والبنادق من الطرز الجديد وللاهالى أيضا عدة معامل فى صنوف شتى (وأما) الجهات السودانية فكثير من أراضيها وان كانت صالحة للزراعة لكنهم باهلون بها فلا يوجد منها الا القليل حول المدن واشتغالهم انما هو برعى الغنم والخيل والابل وصيد الوحوش النافعة للتجارة كسن الفيل و ريش النعام وجلد الاسد والنمر وتحصيل الذهب من معدنه الملقى بالطبع كالتبر من سنار والصحراء وغيرها

﴿مطلب فى المعارف بمصر﴾ العلوم الشرعية كلها نافقة فى القاهرة وكفى بالجامع الازهر

مدرسة

مدرسة للعلوم عامة فقد دخلت اليه ووجدته يزدحم بالدروس والتلامذة ولهم طريقة حسنة في سرعة ختم الكتب اقراء بحيث ان كل كتاب لهم فيه مدة معينة لا يسوغ مجاوزتها ولا يخرجون في التقرير عن الشارح والحاشية المعينة للقراءة ووجدت عندهم اعتناء في الاقراء بالحواشي بحيث لا يقرا كتاب بلا حاشية معينة يتفق عليها الشيخ والطلبة ولهم اصطلاح في الاوقات للعلوم مثلا الصباح كله الى الزوال للعلوم النقلية كالفقه والحديث الخ والمساء للعلوم العقلية كالنحو والبيان الخ ويقرأ فقه المذاهب الاربعة وللازهر شيخ هو مثل شيخ الاسلام له النظر على سائر العلماء ووظائفهم وكثير من التلامذة يقيمون بالازهر في رواقات خاصة وتجد صحن المسجد ملآن بالتلامذة المطالعين والحافظين للمتون وغيرها وفي كل من الاسكندرية ودمياط وطنطا جوامع حافلة بالعلوم الشرعية وفي بعض مدن السودان أيضا مثل سنار وهرر كذلك ومن عاداتهم جميعا في الدروس التطويل حتى يبلغ الدرس الى ثلاث ساعات ولا أقل من ساعة ولذلك كان للتلامذة الاطلاق في هيئة الجلوس بل حتى يتكئون على جنوبهم ووجوههم ويأكلون وينامون وهم في الدرس (وأما) العلوم الرياضية فلها مدارس عديدة منها للابتدائيين ومنها للانتهائيين جامعة لتعلم اللغات كالتركية والفارسية والانكليزية والفرانساوية ولتعلم الطبيعيات والفلاحة والهندسة والحساب والجبر والهيئة والفلك والطب والتشريح العامي والعملي والكيمياء وتركيب الادوية وسائر العلوم ومعلموهم من الاجانب والاهالي وفي المدارس سائر الآلات والكتب المحتاج اليها ومنها ما هو مجانا ومنها ما هو بالاجر من التلميذ ومنهم المقيم ومنهم المتعلم فقط وكذلك المدارس الحربية وهذا كله خاص بالقاهرة وتليها اسكندرية (أما) بقية البلدان فلا يوجد بها الا المدارس الابتدائية في بعض مدن والبقية انما يوجد بها مكاتب للقرآن والخط وبعض من العلوم الشرعية في بعض من الجوامع لكن لا توجد بلدة ولو قرية صغيرة بدون مكتب وقد أخذت هاته المكاتب الابتدائية في التحسين حتى شملت تعلم مبادي الحساب والعبادات والعقائد ورأيت في جغرافية فكري احصاء في سنة ١٢٩٢ لاحوال المعارف دونك خلاصته

تلامذة	مكاتب ومدارس	معلمين
١٤٠٫٩٧٧	٤٨٠٧	٦٠٤٦

ولا شك ان العدد تزايد من ذلك التاريخ فلا شك انها في غنى عظيم بالمعارف والعلوم

النهائيـة الرياضية يكملون تحصيلها فى الممالك الاوروباوية ورأيت من تلامذتهم فى باريس ولندره وجنيف وغيرها ورأيت فى مصر وبواخرها اثر العاملين والرؤساء من الاهالى والاجنبيون متوظفون لا للضرورة بل لدواع أخر ولهذا وقع التشكى المشار اليه فى بحث التاريخ وقد كثرت المطابع وطبعت فيها الكتب مما جعل سائر المسلمين ممنونين لهم وكذلك كثرت الصحف الخبرية يومية واسبوعية لكنها فى الحرية على حسب حالة الحكومة

﴿مطلب فى هيئة المساكن﴾ البناء الجديد كله على النحو الاوروباوى ظاهرا وباطنا سيما محلات الحكومة ورجالها (وأما) الابنية القديمة والمعتادة للاهالى فليست بجميلة الظاهر بل انه لما كان الطين الذى يبنون به مسودا من أصل لون التراب ولا يضعون فيه الجير الا قليلا حيث كان غاليا ولا حاجة اليه لقلة المطر أو انعدامها عندهم ثم انهم لا يطلون ظاهر البناء بالطرق ولا يبيضونه فصار منظره بشعا وان كانوا يتأنقون فى الرواشن الخشب بالنقش والهيئة لكنهم أيضا لا يصبغونه فيكون لونه مكدرا وصورة عموم الديار ان يكون فيها دهليز ووسط غير مسقوف يحتوى على بعض بيوت لجلوس الرجال والضيوف ووضع بعض المرافق ومحل لغسل الثياب والطبخ محجوز للنساء كل ذلك فى الطبقة السفلية ثم باب ودرج فى الغالب غير حسنة يتوصل منها للطبقة العليا فتجد فيها عدة بيوت أغلبها مائل الى التربيع ويكمل منها طواقى للضوء والنظر وتشمل أيضا كنيفا بالوعته مكشوفة وغالبا تحصل منه رائحة كريهة وغالبا تكون البيوت والدرج غير مبلطة ويستعوضون عن ذلك بفرش الحصر والزرابى فى البيوت ويجعلون عليها للجلوس امامساطب من خشب أو تبن وعليها مقاعد محشوة قطنا وعلى الابواب ستارات ليست بانيقة وانما هى من منسوجات القطن وحول المقاعد متكئات يابسة محشوة تبنا وعليها أخر طريفة من القطن ولا يزيد البناء على طبقتين غالبا وأما الاعيان فتكون ديارهم على ذلك النحو لكنها أكبر وأنظم وأنظف وربما زادت طبقة ثالثة الى السابعة فى القديم والمفروشات تكون حريرية وصوفية جميلة مع تزيين البيوت بالمرايات والساعات والادوات الصدفية والذهبية والفضية على حسب الرفاهية ويكون فى الطبقة السفلى التى للرجال دواوين كبرى وفى أطرافها دكة من البناء عريضة للجلوس عليها والجميع مبلط بنحو الرخام والكذال وعند الجميع فرش النوم عدة فرش محشوة قطنا أو صوفا خفيفة يوضع بعضها فوق بعض من اثنين الى ثلاثة توضع ليلا عند النوم وتسوى بالوسادات واللحف

وتارة

وتارة يوضع عليها ناموسية ثم يرفع جميع ذلك صباحا ويوضع في خزائن في البيت معدة لذلك ويبقى البيت للجلوس فليس لهم فرش دائمة ولا مكان خاص بالنوم وخدمتهم من ذلك في تعب كبير وتلك العادة جارية عند جميع المشرقيين فيما رأيت من البلدان لكن من اتخذ تقليد الاروباويين صارت بيوتهم ودارهم ومفروشاتهم ونومهم كله على نحو ما ذكرنا في بلاد أروبا ومما تعجبت منه في مصر رؤيتي للزرابي مفروشة وغير ذلك مما ذكرناه مما يزيد في الحر مع ان قطرهم حار وكان الاولى به الرخام والزليز وغير ذلك مما يبرد المكان ويروق هواءه لكني لما تذكرت قاعدة الناس على مذهب أمرائهم زال عني التعجب وذلك ان أمراء مصر منذ مدة طويلة وهم من الترك وهؤلاء بلادهم باردة ففرشوا في مفروشاتهم على ما اعتادوه في بلادهم وقلدتهم الاهالي وحتى العائلة الخديوية الآن لم تزل ناهجة منهج شارة الترك واصطلاحهم بحيث لا يشك الرائي انها قسم من الدولة التركية لما يرى من أسلوب جميع حركاتهم وهيئتهم هذا (وأما) الطرقات فالجديد منها متسع تمر فيه العجلات والقديم في ضيق عظيم لا يكاد يتخلله الهواء وكلها غير مبلطة الا اسكندرية لان المطر قليل النزول عندهم أو مفقود الا في اسكندرية وفي كل بلد نظارة لنظافة الطرق والتنوير ليلا ولتحسين البلاد على حسب التدبير اذ لم يزل العمل متماديا في توسيع الطرق ومصيبة ضيق الطريق عامة في سائر بلدان المشرق التي رأيتها وكان ذلك في الاقاليم الحارة لشدة الحر فاذا ضاق الطريق لا تنزل الشمس الى الارض لارتفاع الابنية فيقل الحر نوعاما لكن ذلك مضر بالصحة لصعوبة تخلل الهواء وكثرة الندى ومخالف للشرع أيضا لان المشروع في الطرق ان يكون عرض المعتاد منها سبعة أذرع والطريق العام اثني عشر ذراعا والبطحاآت التي من المشروع أيضا ان تكون أمام المسجد تكون ستين في ستين كما نص على ذلك في الفقه والسير وصرح به مكتوب الخليفة الثاني سيدنا عمر رضي الله عنه الآمر برسم الكوفة ومما ذكره ان لا تزيد طبقات دورها عن طبقتين والوجه في ذلك هو ان الدار اذا اشتملت على أكثر من طبقتين سكن بها أزيد ممن يسكن في طبقتين فتصغر البلاد مع انها بلاد اسلامية منشأة في وجه العدو فالاصلح تكبيرها وأيضا فساد الهواء من كثرة الاجتماع في محل واحد ضيق المساحة اذا كان ذا طبقات كثيرة وأيضا تعب الساكن بكثرة الصعود وأيضا كثرة التعب والاسراف في مصروف البناء اذا علت الطبقات لان المصروف في الطبقات العليا أزيد بكثير من الطبقة السفلى لما يحتاج اليه من كثرة العملة وأيضا فيه نوع من الكبرياء

والتعبير المنهى عنه شرعا وعلى هذا فضيق الطريق قبيح شرعا وعقلا وحر الشمس يدفعها بعمل من المظلات والسقوف كما هو واقع فى عدة جهات من مصر فى الاسواق بل وفى الطرقات أيضا من سقوف خشبية بعضها محسن و بعضها ليس فيه الا دفع اذاية الشمس والطرقات فى القاهرة ترش بالماء عدة مرار فى اليوم حتى يحصل فيها نوع طين والطرق الجديدة العامة كلها محصبة الارض وحواليها الاشجار المظلة والقليل من الديار بها حنفيات و بها ماء النيل جار فى القنوات والغالب ان يأتى السقاؤن بقرب أو براميل من ماء النيل غير المصفى و يخزن فى الديار فى جرار كبيرة وكل دار لها عدد معلوم يأتى لها به السقاء بثمن معين

﴿مطلب فى اللبس بمصر﴾ (أما) لبس رجال الحكومة العادى والرسمى فهو على النحو الافرنجى غير ان الشارات والعلامات هى تركية صرفة حتى الشاشية والسترة والنياشين هى ذات العثمانية باسمائها (وأما) لبس الرجال فاهل المدن الاعيان يلبسون قميصا وسراويل واسعة يربطونها تحت القميص ويسدلون القميص عليها وهو طويل الى نحو نصف الساق و يلبسون عليه صدرية مقفولة الوسط بعقد وفوقها قفطان طويل الى الكعبين ويداه تصل الى أصابع اليد ويطبقونه على صدورهم ثم يتحزمون عليه بحزام ويلبسون فوق جميع ذلك جبة طويلة أيضا الى حد القفطان ومقدمها مفتوح الى الاسفل ويداها ضيقتان الى أسفل المرفق والجميع من الحرير من منسوجات رفيعة وعلى رؤسهم شاشية تونسية وعمامة قليلة الطول ملفوفة على نحو العمامة التونسية وهو لباس العلماء وكبراؤهم يزيدون فوق الكل جبة واسعة جدا و واسعة الاكمام أيضا و بعضهم يلبس العباءة عوضا عن الجوخه والقفطان (وأما) الاواسط و بعض التجار فيلبسون القميص من أسفل وفوقه صدرية مثل السابقة وفرملة أى صدرية غير مقفولة ومقمان يصل الى الحزام وسروالا واسعا جدا طويل الالية الى الارض اسود اللون و يتحزمون به فوق القميص وعليه حزام والجميع من المنسوجات الرفيعة المخيطة والمزينة بخيوط من الحرير حتى تصير كلها مزينة وفى الشتاء يلبسون فوق ذلك كبوطا من الجوخ يصل الى الركبة وعلى رؤسهم شواشى تركية وحدها أومعها عمائم هندية مطرزة بالحرير (وأما) الاساقل والخدمة فيلبسون من الشكل الاول الى القفطان وفى الاكثر يكون من قطن أبيض وعليه بنطلون افرنجى وشاشية تركية أوتونسية والفلاحون وأهل القرى يلبسون قمصا زرقا وعراقية ليس الا ولا يلبسون فى أرجلهم شيئا (وأما) بقية الاصناف فيلبسون الاحذية على أنواع شتى من الانواع الافرنجية أونوع من

من الحذاء أحمر بلا قدم عال ومن جهة الاصابع يكون مخروطا منحنيا مخروطه الى أعلى

(وأما) النساء فالصنف الاسفل يقتصر على القميص ولا يتستر فى الطريق بل رأيتهن يخدمن فى آلات البناء ويناولن الحجر والطين وغير ذلك مثل الرجال وهن مشوهات الوجوه

(وأما) الاواسط والاعالى فبعضهن صرن يلبسن مثل نساء الافرنج نصا سواء غير انهن اذا خرجن فى الطريق يلبسن رداء من حرير و يتنقبن بصفيق من الحرير أو القطن على أنوفهن فما دونها وفى الحقيقة وجوههن كله مكشوف واذا ركبن فى العجلات تكون طواقيها مفتوحة غير انهن يسدلن ستاراتها نحو النصف من الطاقة والبعض الآخر الذى لم يزل على العادة القديمة فيلبسن على القميص فرملة مزركشة بالفضة وعليها عمامة رفيعة وعلى رؤسهن مخروطة من ذهب أو فضة أو نسيج رفيع وكل ثيابهن يصل الى الكعب واذا خرجن التحفن فى رداء ثخين وعلى وجوههن نقاب ثخين ويجعلن على الانف شيئا مثل الاصبع ممسوكا فى النقاب ليبعد النقاب عن الاعين والانف للنظر والتنفس والنساء لهن صولة على الرجال فى البيوت

﴿مطلب فى الاكل بمصر﴾ (أما) الخبز فالعام عند الجميع هو نوع مستدير فى ارتفاع أصبع قليل النضج قطره أزيد من شبر ويوجد بقية أنواع الخبز الافرنجى (وأما) الاطعمة فلها أنواع عديدة والغالب فى الاسواق نوع من الفول مطبوخ فى الماء وعليه شئ من السمن وكذلك نوع من السمك مقدد عفن الرائحة وسائر طعامهم فيه الادام بكثرة وادامهم السمن (وأما) الزيت فلا استعمال له الا فى السلاطة وزيتهم ردئ لانه مجلوب من اكريد والشام وكل لا يحسنون عصر الزيتون والحسن عندهم هو المجلوب من ايطاليا ولا يستعمل الا فيما ذكرناه كما انهم لا يأكلون من النعم الا الغنم ولحم البقر لا يأكله الا الفقراء وهو معيب كما انه فى نفسه ردئ والافرنج يأكلونه والفقراء يأكلون الجاموس والابل وفى القرى والعرب والسودان يكثر أكل الابل وكذلك الذرة والدخن أى الدرع أما هيئة الاكل فهى على نحو الانواع التى ذكرناها فى تونس (وأما) وقته فهم يأكلون مرتين غالبا احداهما صباحا بعد الشروق ويخرجون الى أشغالهم ثم يعودون الى ديارهم قرب الغروب فيتعشون

﴿مطلب فى المواكب﴾ (أما) المواكب الرسمية فهى فى العيدين أى الفطر والاضحى فيجلس الخديوى فى ايوان كبير بقصره بعد الاعلان من قبل بوقت المعايدة و يكون لابسا لباسه المزركش الرسمى متقلدا بنياشينه فيدخل عليه رجال دولته والعلماء الاعيان واحدا اثر الآخر مسلمين عليه بتقبيل ذيله و يقف هؤلاء الكبراء

ثم ينصرفون ويكثر تزاور الناس فيما بينهم (وأما) الاعراس والختان فيحتفلون
لها بزينة الدار ويدعون طباخين معدين لذلك فيأتى الطباخ بسائر أدوات الطعام
والموائد والمناديل والخدمة ويطبخ كفاية كل المدعوين الذين يعين لهم
الوقت للدعوة من بعد الظهر الى قرب الغروب ومهما حضر اثنان أو أزيد أدخلوا
الى بيت كبير وتقدم لهم مائدة على قدرهم فيها أنواع شتى من الطعام المطبوخ والحلو
ويكثرون من الاصناف الى نحو العشرين لونا والمترفون يزيدون الى نحو الاربعين لونا
وهكذا الكل جماعة بحيث يأكلون أكل شبع ولا يوضع اناء يظهر عليه انه به أثر أكل
سابق وعادة تكثير الطعام موجودة حتى للضيوف بل حتى فى الاكل العادى يوميا
بحيث ان أواسط الناس لا يكون فى مائدتهم أقل من ستة ألوان فطورا وعشاء ولهم
عادة التطوف بالمختونين على نحو ماذكرنا فى تونس بل ويزيدون بالتطوف به ليلا
والشموع والمنائر موقودة والمغنون رافعون أصواتهم بالشعر والمدائح وكذلك
الاعراس يطوفون بالعروسة ومعها الموكب والطبول والمزامير تعزف ولهم أيام لبعض
المنتسبين للصالحين يخرجون فيها تلامذتهم بالالبسة الرفيعة والاعلام والمباخر وغيرها
وينبطح بعض الناس على الارض فى الطريق ويأتى شيخهم راكبا فرسه ويمر فوق أولئك
الملقون ولا يضرهم يوطئ أرجل فرسه يدعون ذلك كرامة وأعظم المواكب يوم خروج
ركب الحاج وكسوة الكعبة فيحضره الخديوى والعساكر وخلائق لا تحصى وتحمل
الكسوة فى محمل على جمل مزين ويحاذيها الخديوى وكبار الدولة بل قد فعل ذلك أمراء
الانكليز مع الخديوى بغاية التوقير والمدافع تطلق الى أن يخرج الركب عن البلاد
وينزل هناك حتى يجتمع المسافرون ويتوجه برا الى الحجاز ويحمل ذلك الركب أيضا
أموالا عديدة لمرتبات وعوائد لاهل الحرمين مع صدقات ومحصول وقف الحرمين ومن
المواكب مولد السيد البدوى فى بلد طنطاو يعقد فيها سوق عظيم تأوى اليه التجار من
سائر أطراف القطر المصرى ولهم حكايات فى كراماته رضى الله عنه فى نفاق السلع لكل
قادم غير ان ذلك السوق يشتمل من منكرات الزنى ما يستقبح ذكره وشهرته (وأما) الجنائز
عندهم ففيها من عادات الجاهلية أمر فظيع جدا وذلك انه اذا مات الميت تأتى النائحات
الصائحات وتبقى تنوح أسابيع ليلا ونهارا بما يزعج أهل الحارة بحيث انى سئمت المكث
بدار صديق فى الاسكندرية لموت جار له ولم أستطع النوم ليلا ولا نهارا وأقبح من ذلك
ان النائحات والنسوة يخرجن مع الجنازة فى الطريق الى أن تدفن ويرجعن هكذا

نائحات

ناحات والغريب ان ذلك يقع ولو فى محلات العلماء مع انه منكر شرعا وفيه وعيد شديد وكذلك انكاره عقلا وعادة ولهم اتباع للسنة عند دفن الميت فيطلب قائل الشهادة فيه من الحاضرين فيشهدون فيه بالخير عملا بحديث من أثنيتم عليه شرا وجبت له النار ومن أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة أو كما قال صلى الله عليه وسلم

﴿مطلب فى اللغة بمصر﴾ اللغة هى العربية ولو فى السودان غير ان بعض جهاته لهم لغات أخرى بربرية لكن اللغة العربية حرفت هناك كثيرا سواء فى تغيير الحروف أو فى ذات الكلمات فان الجيم لا يكادون ينطقون به وكذلك الذال يبدلونها زايا الى غير ذلك واذا سألت أحد عما تريد قال (تعوزايه) وأشباه ذلك بل ان ذلك جرى حتى عند بعض أصحاب الصحف فيكتبون كتابة مختلطة بين أصل العربية والاعتيادية مع ان الاصل فى الكتابة هو الرجوع الى حقيقة العربية وهو الجارى عند العلماء والكتاب نعم ان الكتاب الرسميين صاروا يستعملون بعض الفاظ اصطلاحية أو فرانساوية وكذلك نفس اصطلاح الكتابة كاد بعضهم أن يخرجه عن الاصطلاح والاسلوب العربى غير ان هذا ليس بعام بل المهرة تسحر الالباب بلاغتهم فى الصحف وغيرها من المكاتبات ومع ما ذكرنا من صعوبة النطق عندهم ببعض الحروف تجدهم أتقن خلق الله أداء لقراءة القرآن وتجويده ولهم نحلة فيه تخشع لها القلوب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

﴿مطلب فى الاحصائيات بمصر﴾

٥٠٠٠٠٠٠	عدد أهالى مصر
٥٠٠٠٠٠	عدد أهالى دارفور
٦٠٠٠٠٠٠	عدد أهالى النوبة وزيلع وغيرها
١٦٠٠٠٠٠٠	
١١٠٠٠	طول سكك الحديد أميال
١١٤٧٢	طول اسلاك التلغراف أميال
١٦٠٠٠٠٠٠	قيمة التجارة الداخلة فرنك
٣٦٠٠٠٠٠٠	الخارجة

٢٤٣٠٠٠٠٠ دخل الحكومة فرنكا وكان دخلها فى ولاية سيدنا عمرو بن العاص من خصوص الدخل الشرعى مائة وثمانين مليونا فرنكا خصص منها الثلث لتكثير الترع والزراعة حتى أوصل ترعة تسير فيها السفن من الفسطاط الى مراسى الحجاز

٢١٦ر٠٠٠ر٠٠٠	خرجها
٢٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠	الدين الذى عليها الف مليون فرنكا
٠١٦٢ر٠٠٠ر٠٠٠	فائضه
٠٠١٧ر٦٠٠ر٠٠٠	خراج الدولة العثمانية
٠٠٠ر٠١٨ر٠٠٠	عدد العساكر وقت السلم
٠٠٠ر٠٠٠ر٠١٣	عدد السفن ليس منها مدرعة وهذا عدا بواخر البريد والنهر

الباب السابع فى الحجاز

الفصل الاول فى سفرى اليه

بعد ان أقمت فى السويس بعض أيام منتظرا السفر بباخرة الى جدة وجدت عدة بواخر أجنبية ومصرية فاخترت المصرية وكان رئيسها مسلما وسائر موظفيها أيضا مسلمون ولا يركب أحد الابعد أخذ اذن مرسوم على ورقة جوازه من محافظ البلدة و يؤدى على ذلك أداء نسبت قدره وأظنه نحو سبعة فرنكات وعند ركوبى فى الباخرة وجدت الازدحام من الركاب والمشيعين فوق الحد فالتزمت ان أضم الى أتباعى ورحلى الى استقرار الحال فى السفر وجلسنا فى حجرتى بالطبقة الاولى لان بيتها صغيرة ليس بها الا حجرتان احداهما سكنها أحد المصريين بعياله والاخرى سكنتها أنا ورأيت من ازدحام الركاب وتراكمهم على بعضهم مع الوضع وسوء الحالة وعدم احترامهم للطبقة الاولى وكثرة السكان على سطحها من النساء والرجال بحيث لا يجد الانسان محلا فسيحا يرتاح به ما أسفت منه على الركوب هناك ولكنى تسليت بما رأيت من انشراح جميع الركاب وعدم اكتراثهم بما هم فيه من المشقة والكدر كما تسليت برفقة الحال منى محل البنوة أحمد ظافر النجيب النسيب و بحسن اخلاق رئيس الباخرة والركاب على السطح من الطبقة الاولى وهم من أعيان قرى المصريين وعربانها و بعضهم له اطلاع على مسائل الفقه وكان أيضا راكبا معنا ناظر بواخر البوسطة الخديوية فى الحجاز وهو محمد موسى لطفى رتبته العسكرية بين باشى وهو كامل الاخلاق والمعارف وله مشاركة حسنة فى العقائد والفقه والعربية مع محافظته على شعائر الدين من الصلاة وغيرها وله اطلاع كامل على أحوال فن البحر لانه كان رئيسا للباخرة التى نحن بها المسماة بالزقازيق ورأيته يشير على رئيسها بعدة أمور وهو ينقاد اليه وله اطلاع أيضا على الجغرافية والعلوم الرياضية وبعض الالسن مع

تفطن

تفطن للاحوال السياسية فانستني رفقته مع بقية الركاب وكثيرا ما يقضى الوقت فى مداعبات مع بعض العربان الموسومين بالشيخ وكنت أجد الباخرة كانها بلاد اسلامى باقامة الاذان فى الاوقات كلها والصلاة جماعة فى عدة جهات لكن الكثير لم يصل ولا يستطيع الصلاة سيما عند اضطراب البحر وان كان لم يقع منه شئ شديد لكن حصل فى الباخرة تعفن الرائحة سيما فى اليوم الاخير لان أكثر الركاب لا يغسل يديه من الطعام مع كثرة ادامه فضلا من غير ذلك حتى كانت بيت الطبقة الاولى عفنة لازدحام خدمة سكانها وكثرة أكلهم المودم وعدم توقيهم الوسخ لكنهم يقضون أغلب الاوقات بالتلاوة الحسنة أو انشاد الشعر وقد وجدوا عند تفقدهم الركاب وأوراق ركوبهم ان أحدهم ركب فى الازدحام بدون أداء الكراء وهو فقير وأحجمت أصحابه عن الاداء عليه فسجن فى سجن الباخرة وبعد عدة ساعات انتدب أحد أصحاب الخير الى ان دعا رفيقا لذلك المسجون خيرا وأذنه بالتطوف على جميع الركاب البالغين ستمائة شخص واعلامهم بحالة رفيقه وطلب اعانتهم له فى اجرة الركوب فحصل له مقدار ذلك وزيادة وعند حضور المال أحضر المسجون وأطلقه نائب البوسطة محمد لطفى المشار اليه مجانا ودفعت له الدراهم والدنانير المجتمعة له ليستعين بها فى حجه ورأيت من بعض الاغنياء الشح المطاع فى هاته الواقعة ومن بعضهم الاقتصاد ومن بعضهم الكرم ولما بلغنا سمت رابغ اعلم الرئيس الحجاج بذلك ليحرموا فاغتسلوا وأحرموا بنزع ثيابهم والله اعلم بكيفية غسلهم وأدائهم فرض الاحرام لان حالة الضيق والوسخ فوق ما أقدر ان أعبر عنه ولا يعلم مقدار ذلك التعب الا من شاهده وأضف الى ذلك ان الباخرة لا تعطى الاكل الا لاصحاب الطبقة الاولى فلزم كلا أن يطبخ لنفسه وأغلب الركاب كان معهم زادهم مما يصبر من الطعام من لحم وغيره وكنت أخذت زادنا من السويس محارد جاجا وخبزا وغيره فكان طباخى يطبخ لى ولمن معى فى مطبخ الباخرة وفى ذلك من المشقة لمن لم يعتد البحر ما لا يخفى فكان ذلك من عجيب أمر الباخرة مع انها بريدية وذلك خلاف معهود صفتها ولما سألت نائب البوسطة عن سبب ذلك قال ان الركاب الى جهات البحر الاحمر لا يوجد منهم من يأكل من الباخرة فرأينا ترتيب ذلك عبثا ولهذا تجد بواخر البريد فى البحر الابيض على نحو غيرها وأمامنا فلا تم عند غروب اليوم الثالث من ركوبنا قل سير الباخرة وأعلمنى الرئيس بذلك لانها ان دامت فى سيرها تصل الى جدة ليلا ولا يتيسر الدخول اليها الا نهارا فكان تقليل السير أولى من الوقوف قربها وبعد شروق اليوم الرابع وصلنا الى جدة فتلقانا دليل المرسى

وهواعرابي لابس قميصا أزرق وعلى رأسه عمامة حمراء راكب قاربا فصعد الى الباخرة وصار يأمر بالسير يمينا وشمالا لكثرة شعاب الحجر المغطاة بالماء حتى دخلنا حوض المرسى فاذا هو حوض وسيع أمين طبيعي بما حوله من الاحجار الخلقية وفيه عدة بواخر أجنبية وباخرة حربية صغيرة للدولة العثمانية وعدة سفن شراعية صغيرة وبعد الارساء وأخذ الاذن في النزول من مأموري الصحة ونزول أغلب الركاب نزلت مع رفقائي ودفعت على كل واحد منا نحو أربعة فرنكات لاخذ ورقة على أن المدفوع لنظافة أماكن الحجيج فكان نمرة ورقتي ٧٦ ألف ونيف من المئات والآحاد ونسيت الآن تحرير كل الاعداد ولقيت أحد مطوفي التونسيين وهو جميل الاخلاق على خلاف غيره فاديناً ارحالنا للكمرق وتعسف المأمورون الى أن أخذوا عشرة فرنكات وأقل مكرهم بمن لا يعطيهم تركهم لحوائجه أياما بدعوى كثرة شغلهم فهم من أخس المأمورين وأكثرهم سرقة كما علمت ذلك من التجار وغيرهم ثم دلني المطوف على دار اكتريت احدى طبقاتها واقمت هنالك ثلاثة أيام وجدة بلدة على ساحل البحر هي مرسى الحجاز العظيمة للحجاج والتجارة من سائر الجهات وسكانها أغلبهم من العرب والهنود ثم المغاربة والافاقيون حتى الافرنج ولها أسواق رحيبة مسقفة وتكنس البلد وترش يوميا وتنور ليلا بزيت النفط وبها جوامع حسنة وماء شربها يؤتى به من بعد في قرب من مصانع وفساقي وهواؤها حار جدا ردىء لان أرضها سبخة وبها بعض ديار جميلة المنظر لنواب الدول وبعض التجار وأغلب المباني الكبيرة للكراء فيها املاك للاشراف وبعد ان أتممت فيها لوازم السفر من الفرش والبسط وأحرمت منها حيث كنت قاصدا لها لما قرب لي فيها غيراني لم أنزع ثيابي وفديت عن لبسها بدما اكتريت جمالا لي ولاصحابي فركبت الهودج الذي اشتريته من هنالك وهو مثل مهدين من عيدان مسمرة ومشدودة في بعضها على نصفين كل نصف طوله نحو ذراعين وعرضه ذراع أسفله الذي هو محل الجلوس حصير من عزف النخل مشدود في تلك العيدان وفي زواياه الاربع عيدان صاعدة نحو ذراعين ونصف ثم تقوس الى أن تتصل ببعضها فيحصل منها شكل أربعة أقواس متقابلة ويشبك على نحو الربع الاسفل منها شباك من حبال جيدة من الحلفاء لتحمي الراكب من السقوط وذلك في جهة واحدة وهي جهة الجنب المقابل لظهر الجمل ثم يوصل كل من النصفين بصاحبه فيتألف من ذلك مهدان متلاصقان مسوكان مع بعضهما بحبال متينة ولكل منهما أربعة أرجل تستند بها على الارض اذا برك الجمل ثم يوضع على الجميع من فوق

زربية

زربية أو كليم أو منسوج قطني على حسب ارادة صاحبه ويدلى ذلك مع الجنبين الخارجين ويخاط على تلك الاعواد ثم يجعل من فوق جلد بقر أو جمل ويخاط أيضاً ليمنع نزول المطران وقع ثم يفرش كل من الشقين بزربية على عدة طبقات ومعها الحاف محشو قطنا ثم توضع عليه سنة أو ثمانية وسادات محشوة قطنا أيضاً من جهاته الاربع ويشق بالقطع في الغطاء الشامل من الجهة الخارجة نحو طاقة لها ستارة من ذاتها ترفع وتنزل وتمسك بخيوط ويربط في قوائم الاقواس عدة جيوب من سعف النخل لوضع اناء الماء وغيره مما تخف من ضروريات المسافر وزاده بحيث يصير كل من القسمين فراشا مريحا يضطجع به الراكب ويكون أمامه وخلفه مفتوحا وجنبه الذي من جهة رفيقه مفتوحا أيضا وجنبه الآخر به طاقة ان أراد فتحها والا أغلقها ثم يوضع الجميع على الجمل ويربط به ربطا محكما ويوضع سلم من خشب رقيق في مقدم الهودج المسمى بالشقدف ليصعد منه الراكب الى شقه ويمسك الجمال الشق الآخر الى ان يصعد اليه صاحبه أيضا ويعدلان في الثقل ويسير بهما الجمل ويلزم ان يكون جملا مؤنسا بذلك وكان ركوبنا بعد صلاة العصر خارج البلد ومع كون ذلك المركب متوسط الراحة وجدت في نفسي تعبا من سير الجمل المهين حتى حصل لي نوع من الدوار لكن اذا تأنس به الانسان يومين يزول عنه ذلك ويصير مرتاحا ستوى الفرق بين قوة الجمل وسيره فان الضعيف والغير المؤنس يتعب مشيه التعب الزائد وكان عديلي أحد أتباعي وبقيتهم ركبوا على جمال الرحال وبعد ان سرنا عشيتنا وليلتنا وصباحنا ولم ننزل سوى الصلاة في أوقاتها وصلنا عند الضحاء قرية تسمى حدة في صحراء مقفرة بها بعض عيون عذبة عليها شيء من النخل ❁ وعلى الطريق قهاوي من أعواد الحطب والحصير كثيرة العدد أكثرها فارغ لمن يريد النزول فنزلنا بها واكتريت اثنين منها ففرش لنا بها حصر وأتى لنا بماء فأكلنا من زادنا وأطعمنا الجمالين والقهوجي واسترحنا الى بعد الظهر فركبنا ووصلنا مكة المشرفة بعد نصف الليل ولم نر في الطريق الا أفرادا ويكثر المشي ليلا سيما على الحمير لان كثيرا منهم من يركب من جدة الى مكة على الحمير هي سيارة فيصلونها في نحو تسع ساعات الى احدى عشرة ساعة لكن ذلك وان كان فيه قلة الحصة لكنه متعب فلذلك آثرت الجمل وعند الوصول الى خارج مكة المشرفة سألت هل يوجد حمام هناك فاجبت بانه لا يوجد الا الماء البارد ولم نستطع الاغتسال به فلذلك اكتفيت بالوضوء ثم تلقانا المطوف وطلبت منه ان يكتفي باعلامي بالامكان والاعلام بالمشاعر كأن يقول لي هذا

باب السلام والكعبة مقابلة اليك أو عن يمينك الى غير ذلك حيث كنت علمت انهم يزيدون وينقصون ويدعون ويأتون بما لم يرد به الشرع وكنت استصحبت عدة كتب فى الفقه وفى خصوص المناسك وأخذت منها ما يسره الله لفهمى غير انى وجدت فى بعضها رسالة فى المناسك لملا على قارى فلم أنظر اليها الان صاحبها له معرفة فى حق أبوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يكون له على أدنى منة وأغنانا الله عنه بتآليف علماء أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم المحبين فى آله الكرام والمعظمين لجنابه العظيم عليه وعلى آله أكمل الصلاة والتسليم فاقبلت الى باب السلام وأديت هنالك ما ينبغى ونظرت الى الكعبة المشرفة ولله الحمد ثم دخلت المسجد الحرام وطفت بالبيت الكريم وقبلت الحجر الاسعد وسعيت بين الصفا والمروة وأديت ما استطعت مما ينبغى فى ذلك القدوم المبارك ثم توجه بى المطوف الى دار وكيل تونس حيث كان سا كنا فيه كل من الاخيار الثقات السيد أحمد والسيد اسماعيل والسيد محمد أبناء زروق القادمون من تونس قبلى حجاجا وأقمت بقية تلك الليلة عندهم وصلينا الصبح فى المسجد الحرام ثم أخذت منزلا أقمت فيه ولم يرد صاحبه أخذ كراء عليه وابتدأت رؤيتى لسوء أخلاق بعض الاهالى مما كان ينبغى لهم التحاشى عنه عفا الله عنا وعنهم وبعد ان أقمنا بضعة أيام تشرفت فيها بالدخول الى داخل البيت المعظم بمحاسن أخلاق الفاضل الشيبى وذلك ليلا ولم يكن معنا الا افراد قليلون بحيث تيسر لنا التنعم بتلك البقعة العظيمة والتبرك بما احتوت عليه من المشاعر وكذلك تشرفت بالمثول بين يدى المولى الشريف المعظم صاحب الاخلاق الحسان والتواضع مع ما هو عليه من رفعة الشأن المقدس الشهيد سيدنا حسين أمير مكة قدس ثراه وهو رحمه الله حسن الاخلاق متواضع عفيف جدير بمنصبه السامى ولاقينا بعضا من أعيان البلاد كالنحرير البارع أحمد المشاط وغيره ولما آن وقت التوجه الى منى ابتدأ المطوف ووكيل تونس فى تهويل أمر الذهاب اليها والى عرفات وأكبرا فى ذلك ما شاءا حتى ظننت انها مسافة سفر وان الحرب ثائرة فى الطريق فوجهت رحلى على الجمال واكتريت أجرة لركوبى وركوب من معى مدة أيام الحج وبينما نحن سائرون والطريق فى غاية الراحة والامن والعمران واذا نحن بقرية سألت عنها فقيل لى هى منى فبقيت متعجبا من قول أولئك المرشدين اذ لم تكن تبعد عن مكة الا أربعة أميال ولكنى عرفت السبب فى عملهم تجاوز الله عن الجميع وأقمت ليلة بمنى ثم توجهنا صبحية اليوم الثامن الى عرفات لوقوع الشك فى ثبوت الشهر

وأقمنا

وأقمنا فيه الى ليلة العاشر من الشهر وبعد الوقوف وأخذ حصة من الليل أفضنا من من عرفات بعد ان أدينا ما نسأل الله قبوله وكان موقفا تقشعر منه الجلود من خشية الله لالتجاء عباده اليه حسبما أمرهم وكانت الارض تموج بالخلائق ضارعين لباريهم جل وعلا تقبل الله من الجميع وعند الافاضة اتفقت مع الحمار ومع الرفقاء على التأخر عن الازدحام وأخذ الطريق الاقل ازدحاما وكان دليلنا مضمرا خلاف ذلك لانهم انما يرون من شعائر الحج الظواهر وهم عن حقائق المشروعات غافلون فيرغبون في الالتحام والزحام والخصام لتبقى لهم وقائع يتحدثون بها سنتهم فلما افضنا كانوا يسرعون السير ومن عادة جميرهم أن لا ينقاد الى راكبه بل الى سائقه فقط ولو انقطع اللجام من فيه فأدخلونا كرها في وسط الزحام ولم يبق منا واحد يسمع صوت صاحبه لثوران عجيج الصياح والرغاء والنهيق فمن حاد يحدو ومن داع يدعو ومن مصرخ ينادي رفيقه ومن صائحة مستجيرة بالمارة من سقوطها ومن آن يئن من كسره بسقوطه ومن باك متذكر هول المطلع ومن بعير يرغو لسقوط حمله وحمار ينهق لرؤية أتان وأناس ملقاة وآخرون يجرون وآخرون يزدحمون وآخرون واقفون، الظلام مرخ سدوله والناس لا يذكر بعضهم بعضا كل طالب النجاة لنفسه فرأيت أنموذجا لهول يوم الفزع الاكبر وما أيقنت بالنجاة لنفسي حتى دهمني بعض شقادف الجمال فاسقطني عن حماري وخرجت من بين أرجل الحيوانات متطلبا النجاة ذات اليمين حتى يسر الله لى الخروج عن الطريق بالصعود الى محجر مرتفع فجلست هناك حامدا الله على النجاة وبعد هنيهة لحق بي بعض أصحابي وجاءني الدليل حاثا على الذهاب والا نكن في خطر من البدو فقلت له يا أيها الرجل ان الله حرم في هذا الموطن الجدال ولكن ما عليك من الانذار فقد أديته وأنا في نفسي أفعل أخف الضررين لان البدو لا يفعلون أكثر من القتل وهو الذي تدعوني اليه لان افعله بنفسي على انهم يقنعون باخذ السلب ودونه الدفاع ما استطعت ووراء هذا كله انه لا وجود لشيء مما تهول به وهؤلاء الخلائق في الطريق وعند آخرهم أتوجه فدعني ونفسي فذهب مغاضبا وبقيت أنظر في عجائب الخلق من الحالة التي بينا بعضها الى أن خف الماشي فرافقت آخرهم حتى وصلنا الى المزدلفة ولم أجد رحلي فجلست في قهوة حتى مر بي أحد أصحاب رحلي فانتقلت اليه وجمعنا بين المغرب والعشاء ثم بعد أداء مناسك المزدلفة توجهنا الى منى وخيمت في مرتفع من الارض في أطراف نزل الحاج مع أهالي جاوة ورجعت الى مكة وأديت بقية المناسك وفككت الاحرام ثم رجعت

الى منى الى تمام أيامها وكان فى اليوم الاول عند رمى الجمار من الزحام ماوصفنا بعضه حتى مات عدة أناس وانكسر عدة وانما ذكرت هذا تنبيها الاخوانى حتى يحترزوا من ذلك ولا يغتروا بأقوال الادلاء لان لهم مقاصد وأطوارا غير محمودة ثم اتممنا مناسك منى ورجعنا الى مكة واكتريت بيتا فى المحصب خارج مكة طلبا لصحة الهواء وبرودته لان المرض اشتد على ثم أحرمت بعمرة وأديت مناسكها ثم خيمت قرب الركب الشامى الى أن تهيأت القافلة التى أكتريت بها الجمال للتوجه للمدينة المنورة فسافرنا اليوم التاسع عشرون الشهر واشتريت حمارا للارتياح عليه فأفادنى جدا لانى كنت أركبه بعد الظهر فنسير ومعى أحد رفقائى الذين صاروا منهم بعض التونسيين الى أن نصل الى أول القافلة الحاوية عدة مئات من الابل والمسافرين فنأتى الى جهة مستظلة قرب الطريق ونجلس على زربيتين ونستريح ونتوضأ ونصلى فى نحو ساعة أو ساعة الا ربعا فيأتى آخر القافلة فنركب الحمار ونفعل كذلك مرتين أو ثلاثا الى أن نصلى المغرب ويشتد الظلام فنركب الجمل وكان سفرنا على الطريق الفرعى بعد ضمانة مشايخ أصحاب الابل لامير مكة فى أمن من معهم وكان كراء الجمل الذى عليه الهودج ثلاثة وعشرين ريالا دورو أى مائة وخمسة عشر فرنكا من مكة الى المدينة ومنها الى ينبع وبقية جمال الرحل والاتباع لكل جمل خمسة وسبعون فرنكا واكتريت رجلا بدويا من موالى الجمالة شجاعا قويا لقود الجمل الذى نركبه والاعانة على بقية اللوازم فرأيت منه خيرا لكنه لم يوف بوعده فانه تخلف عنى فى المدينة المنورة ولم يصل الى ينبع فرحلنا من مكة اليوم الاول بعد الظهر وسرنا يومنا فى طريق طيب ونزلنا بعد العشاء ثم رحلنا قبل الشروق وصعدنا فى جبل وعر جدا وبعد ان سرنا فيه نحو خمس ساعات سرنا فى طريق بسيط الى المدينة المنورة ولولا ذلك الجبل لكانت العجلات تستطيع السير بسهولة فى الطريق وكان سير الجمال لا يزيد عن ثلاثة أميال فى الساعة حسبما حررته اذ ذاك وهو سير هين متعب وتدوم المرحلة من اثنتى عشرة ساعة الى ستة عشرة ساعة وواحدة منها دامت اثنتين وعشرين ساعة بحيث جعلوا مرحلتين فى واحدة لكى يستريحوا ويوما بدون رحيل فى بلادهم وهى الجديدة ولا ينزلون الا قرب ماء وفى الليلة الثانية عشر وصلنا المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فدخلناها عند الفجر وتلقانا المعرف التونسى الخبير حلابة والمعرف هنالك يسمى مزورا ونزلت عند الفاضل النحرير صاحب الاخلاق الجيدة والصفات السديدة البليغ الكامل عبد الجليل برادة جازاه الله خيرا وكثر من أمثاله فى الامة وبعد أداء الآداب والسنن

أسعدنى

أسعدنى الله بالوقوف بين يدى نور العالم وسيد الخلائق وملجأ الامم وفضل الله على خلقه ورحمته للعالمين سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيالله من حظ نفديه بالمهج ويالله من فضل تبدى من كرم الله وبلج وحظيت بالسلام عليه وعلى صاحبيه عليه الصلاة والسلام وعلى آله الكرام وأصحابه الاعلام وفى اليوم الثالث انشدت بين يديه عليه الصلاة والسلام قصيدة فى التى مطلعها

الى السدة العظمى شددت عزائمى * الى سدة الاجلال شمس المكارم

وبثثت اليه عليه الصلاة والسلام شكواى فى دنياى وأخراى ونلت قضاء أغلب مطالبى ولله المنة والحمد منها ما قضى فى حينه ومنها ما تم قضاؤه بعد مدة قليلة وأنا أرجو كرم الله فى قضاء باقيها بوسيلة رسوله عليه الصلاة والسلام وزرت آل البيت عليهم السلام وكثيرا من الاصحاب والائمة الاعلام والمشاهد المباركة ثم قفلت مع القافلة وتوجهنا الى ينبع ورفعنا ما أبقيناه من رحالنا فى بلد الجديدة ووصلنا ينبع فى الليلة الرابعة قرب الفجر فاردت النزول فى خيامى فمنعت لاجل ان اكترى دار الاخ حاكم البلدة واكتراها الى بخمسة وثلاثين فرنكا فى الليلة وهى أربع بيوت خربة اثنان فوق اثنين والدرج خربة وليس بها ولا حصير فأقمت بها ثلاثة أيام وكان فى المرسى ثلاث أو أربع بواخر تنتظر ازدحام الحاج فجاءت باخرة نمساوية قافلة من الهند ومرت على جدة ثم ينبع فاكتريت بها قاصدا الاستانة

الفصل * الثانى

﴿فى صفة البلدين المكرمين وموكب الحج﴾

﴿مطلب صفة مكة المكرمة﴾ أما مكة المشرفة فهى واقعة فى عرض ٢١ درجة و ٣٠ دقيقة شمالى وطول ٣٧ درجة و ٣٦ دقيقة شرقى ومن اسمائها مكة وبكة وأم القرى وأول من سكنها سيدنا ابراهيم عليه السلام بوالدة ولده سيدنا اسماعيل عليه السلام فكان سيدنا اسماعيل أبا العرب ورفع هو وأبوه قواعد البيت العتيق فكان مقصد الامم الحنيفية وهذا البيت الكريم هو فى وسط المسجد الحرام وزواياه الاربع مقابلة للجهات الاربع أعنى الجنوب والشمال والغرب والشرق وآخر بنائه الى الآن هو بناء السلطان سليم الثانى على نحو الاصل الذى كان عليه زمن النبى صلى الله عليه وسلم لان سيدنا عبد الله بن الزبير بناه على قواعد ابراهيم عليه السلام وأدخل فيه الحجر ثم هدمه

عبد الملك وأعاده على هيئته زمن الرسالة فلما استخلف أبو جعفر المنصور أراد أن يعيده على ما بناه ابن الزبير لان النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضى الله عنها لولا قومك حديثو عهد بكفر لبنيت الكعبة على قواعد ابراهيم فلما زال المانع وحدوثية الايمان ترجح عوده الى الاصل واستشار الخليفة الامام مالك بن أنس رضى الله عنه فقال له ما معناه يا أمير المؤمنين لا تجعل بيت الله ملعبة بأيدى الملوك فان الذى رأيته وان كان صوابا لكن ابقاؤه على حالته احتراما لشأنه أولى فبقى على ما هو عليه الآن وأساس جدران الكعبة مرتفع من الارض ما بين عشرين صانتى الى ثلاثين وزائد العرض عن الحيطان ما بين عشرين الى أربعين فهو كالدرجة محيط بالجدران وهو المسمى بالشاذروان والحجر الذى هو من قواعد ابراهيم عليه السلام فى جهة البيت الواقعة بين المغرب والشمال ومحيط به الحطيم الذى هو بناء مستدير نحو نصف دائرة ارتفاعه ميترو وسمكه ميترو ونصف مغلف بالرخام وينتهى قوس النصف دائرة قبل أن يصل الى جدران الكعبة بنحو ميترين وخمسة وثلاثين صانتى والبيت مبنى بصخر كبير وأرضه مرتفعة عن مساواة المسجد نحو ميترين وبابه قرب الركن الشرقى مستقبلا ما بين المشرق والشمال ويصعد اليه بدرج مثل المنبر فى المواكب العامة وعند فتحه الخصوصى يؤتى له بسلم صغير وعتبة الباب من فضة وعواضده من مرمر والباب بدفة واحدة وقفله من ذهب وهو من خشب الساج وداخل البيت ثلاث أسطوانات من القمارى قطر الواحدة أزيد من شبرين وارتفاعها أزيد من ستة أذرع وعليها مكابس من ذهب والبيت مبلط بقطع كبيرة من المرمر وكذلك حيطانه وسقفه من الساج وفى ركنه الشرقى من خارج ما بين المشرق والجنوب فى ارتفاع قامة الحجر الاسود وهو حجر محفوف الجوانب بصفائح من فضة أسود لامع أثرت فيه أيدى اللامسين حتى صار فى بعض جهاته انخفاض وصار ذا شكل مقعر مثل اناء الشرب واصله قطعة واحدة ثم تشقق من ضرب المنجنيق عند ما حوصر ابن الزبير رضى الله عنه فجعل له صندوق من الفضة وبه فوهة يظهر منها الحجر قطرها سبعة وعشرون صانتى ميترو أى نحو شبر وثلث وفى سطح البيت ما بين الشمال والغرب ميزاب الرحمة من ذهب يصب فى الحجر والبيت طوله مما بين المشرق والشمال أزيد مما بين المغرب والجنوب فطوله اثنا عشر ميترو وعرضه عشرة أمتار وعشرة صانتى عدا الشاذروان وارتفاعه خمسة عشر ميترو ويكسى كل عام بكسوة من الديباج الاسود يؤتى بها من مصر وعليها حزام مزركش بالفضة مكتوب به آيات كريمة

كريمة وكذلك نفس الكسوة فيها كتابات جيدة بالقلم الثلثي من نفس النسيج وقبالة
باب الكعبة على نحو اثني عشر ميتر ومقام ابراهيم عليه السلام وفيه بيت مربع داخله
آيات بينات من تأثير القدمين في الصخرة ووراءه بانحراف الى الجنوب الشرقي بير زمزم
وعليه قبة وحوله أحواض وعليه بكرات من النحاس ثم صحن المسجد متسع جدا طوله مشرقا
ومغربا مائة واثنان وتسعون ميتر و وعرضه مائة واثنان وثلاثون ميتر و والرواقات
مرفوعة أقواسها على اسطوانات من حجر وسقوفها قباب من بناء وفي وسط الصحن على بعد
نحو اثني عشر ميتر و من الحطيم اسطوانات من حديد أو نحاس ذاهبة في الهواء موصولة
ببعضها بسلاسل من نحاس يعلق بها منائر ومصابيح وهي دائرة بالبيت علامة على حدود
المطاف وعلى سمت الركن الشمالي على بعد كالة لجلوس المؤذنين والمسمعين وخلف المطاف
وقبالة جهة البيت التي بها الميزاب يقيم امام الصلاة من مذهب الحنفي وله محراب وهو أول
مصل في الاوقات كلها ما عدا الفجر فاذا أقيمت الصلاة وتقدم الامام الحنفي رأيت المسجد
الحرام كله على غاية من الهدو ولم أر شيأ لم تدخله البدعة أبدا الا الصلاة في ذلك الوقت
ما عدا تسميع المسمع فهو زيادة على بدعة تغنيه يزيد أن يضع المؤذن أصبعيه في أذنيه وهو
في الصلاة وما عدا هذا فانك ترى آداب الاسلام حقيقة وامتثال الخلق أمر خالقهم فيقع
من الخشوع ما لا يعلمه الا الله سيما في صلاة الجمعة ولله الحكمة البالغة في وسع المسجد
كل من يدخله وترى الخلق مع ذلك الازدحام على غاية من التؤدة وامتثال أمر الشرع بحيث
لا تسمع الا همسا من تسبيحهم وتكبيرهم في الركوع والسجوع فاذا سلم الامام الحنفي
عادت الحركة لما كانت عليه ولو عند صلاة كل من أئمة المالكي والشافعي والحنبلي حتى
لا يكاد المؤتم يعلم بحركات الامام أمامه الا صلاة الفجر فيتقدم فيها الشافعي على غيره لان
مذهبه يرى استحباب التبكير بها وكل أحد من الائمة له جهة من جهات الكعبة يصلي
اليها وقد علمت محل الامام الحنفي وأما الشافعي فمحرابه خلف مقام ابراهيم عليه السلام
وأما المالكي فمحرابه تجاه الضلع الغربي الجنوبي من الكعبة خلف المطاف بميترو بن
وأما الحنبلي فمحرابه مواجه للضلع الجنوبي الشرقي على نحو ذلك البعد أيضا وباب السلام
من المسجد الحرام تجاه باب الكعبة وباب الوداع في الجهة المقابلة له ووراء الرواقات
عدة مدارس لسكنى المجاورين ويسكن بيوتها الحجاج أيضا وحول المسجد من أغلب
الجهات طرق وباب السلام يفتح في الطريق الواقع بين الصفا والمروة وهو طريق متسع
حوله ديار ذات عدة طبقات ومنها دار الشيبي وأسفل الديار حوانيت عليها مظلات يباع

بها المأكولات وغيرها وكل من الصفا والمروة محل فى نهاية زاوية من الطريق متسع ذو درج عريضة تنتهى الى حائط وبينهما طريق متسع عرضه ما بين عشرة واثنى عشر مترو وطوله نحو أربعمائة وخمسة أمتار وفى وسطه محل الهرولة فى السعى تبتدئ من الميلين أى العلمين الاخضرين على بعد خمسة وسبعين مترو من الصفا عند باب البغلة من الحرم وتنتهى الى العلمين الآخرين بعد مسافة نحو سبعين مترو وعند باب على وكل من العلمين يقابله مثله فى الحائط المقابل وفى مكة المشرفة أسواق كثيرة يباع بها سلع سائر الاقطار وأكثرها سلع الهند كما أن التجار أكثرهم من أهالى الهند والاسواق مسقوفة بالواح وفيها قهاوى كما أن أطراف البلاد عند مداخلها فيها قهاوى على نحو الخصوص ومجالس فيها على كراسى كبيرة وصغيرة من اخشاب الحطب وعزف النخل وخارج البلد على طريق عرفات مقبرة المعلى ثم بعض بساتين لافراد من الاشراف رضى الله عنهم وبيوت لبعض من الاعراب وغيرهم وفى جبل أبى قبيس المطل على المسجد الحرام مسجد صغير وبعض دياروزاوية للشيخ السنوسى وشرب جميع الاهالى من عين زبيدة التى أوصلتها المرأة الخليفة هارون الرشيدى من قرب عرفات الى مكة فصنعت بها وعلى مجراها فى الطريق والبلاد عدة منافذ يملأ منها السقاؤن وغيرهم ويحصل من كثير من الناس تقذيرها بما يلقون فيها من الاوساخ كما توجد آبار أخرى عميقة جهة الزاهر وغيرها يؤتى بالماء منها ويفرقه السقاؤن على الديار فيوضع فى جرار ثم تملأ منه دوارق وتوضع فى طواقى أوغيرها مما يمر عليه الهواء البارد فيبرد الماء لكن من عادتهم فيه أنهم يبخرون الدوارق بعود يسمى عود القفل وهو الكثير وتارة بالمصطكى فيحصل طعم فى الماء غير شهى والقفل أسوء وهم يرونه حسنا وتنقسم مكة الى سبعة عشرة حارة وقيل ان عدد سكانها مائة وسبعون ألفا

✽ ﴿مطلب فى صفة المدينة المنورة﴾ واسمها المدينة وطيبة وطابة ويثرب واقعة فى فسيح من الارض المرتفعة فى عرض ٢٥ درجة و ٢٠ دقيقة شمالى وطول ٣٧ شرقى وغر بيها على نحو أربعة أميال جبل أحد وعليها سور حصين وحصون ذات مدافع وخزائن للذخائر الحربية والحرم الشريف النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام فى جهتها الشمالية الغربية وقد جدد الحرم الشريف والمسجد السلطان عبد المجيد فكان المسجد وحده مائة وخمسة وخمسين ذراعا طولا أى من الجنوب الى الشمال وعرضه مشرقا مغربا من جهة الجنوب مائة وخمسة عشر ذراعا ومن جهة الشمال ثمانية وثمانون ذراعا

ذراعا ونحو تلك المسافة أيضا صحن المسجد الذى هو جهة الشمال ومحيط به رواقات وكله من بناء ضخم مرفوعة قبابه على أقواس قائمة على اسطوانات من المرمر الاحمر المأخوذ من مقاطع بجاز به قرب المدينة وكذلك عواضد الابواب وصحن المسجد تحيط به رواقات وما عداها مكشوف وليس بين المسجد والصحن أبواب وباب السلام من غربى المسجد قرب حائط القبلة والمحراب فى نحو ثانى عرض المسجد أعنى أنه أقرب الى الشرق حتى يكون قبالة المحراب النبوى الاصلى لان المسجد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام قد زيد فيه مرارا أولها فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه حين ازدادت كثرة المسلمين وآخرها الى الآن ما زاده السلطان عبد المجيد رحمه الله وكل من زاد فيه تحرى مواقف النبى عليه الصلاة والسلام لتبقى محفوظة فلذلك وان زيد فى جهة القبلة حتى صار حائطها يبعد عن حرم الحجرة الشريفة نحو الثمانية أذرع مع أن حائط القبلة كان مساويا لحائط الحجرة لكن بقيت بقعة المحراب الاصلى معلما عليها والمحراب الجديد قبالته أما المنبر فهو وان تغيرت ذاته لكن محله لم يتغير وهو الآن من المرمر المتقن والاصلى من خشب وأما الحجرة الشريفة فالاصلية عليها بناء ضخم مستطيل من الغرب الى الشرق وعليه قبة عالية أرفع من سائر قباب المسجد وداخلها القبر الشريف المكرم لصق الحائط القبلى من جهة الغرب ويليه قبر الصديق رضى الله عنه لجهة الشمال متأخرا الى المشرق بحيث ان رأس الصديق رضى الله عنه مسامتة لاسفل من رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو ذراع وذلك تأدبا من الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يليه شمالا أيضا بانحراف لالغرب قبر الفاروق رضى الله تعالى عنه وهاته الحجرة لا يدخلها أحد وو راء حيطانها من خارج شباك من حديد متين متصلة قواعده برصاص مذاب غليظ الجرم مالئ للاساس الى عمق عميق حتى اتصل بطبقة الماء فى الارض والسبب فى وضعه هو انه كان فى مدة السلطان نور الدين الشهيد بمصر حدث حادث عظيم بالمدينة وكان أمر الحجاز اذ ذاك تابعا لسلاطين مصر فرأى السلطان نور الدين رؤ ياها لته وهى أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فى ليلة واحدة وهو يقول له أنجدنى أنقذنى من هذين الرجلين وأشار اليهما فرآهما رجلين أشقرين وتحقق وصفهما وعلم التأكيد من النبى صلى الله عليه وسلم فى أمرهما والاسراع به فاستيقظ السلطان رحمه الله مهتما جادا فما صلى الفجر الا وقد أحضر وزيره وعشرين نفرا من صناديد فرسانه وأحضر أموالا جسيمة وركب جواده فى خاصته وفرسانه وما خف من الزاد وقفل الى المدينة المنورة مجد

السير ولم يعلم بما رآه أحد فوصلها في ستة عشر يوما فزار النبي صلى الله عليه وسلم ثم أمر باحضار أهل المدينة بعد كتابتهم وصار يتصدق عليهم ويتأمل تلك الصفة التي رآها في النوم الى أن انفضت الناس فقال هل بقي أحد قالوا لم يبق سوى رجلين صالحين عفيفين مغربيين يكثران الصدقة فلما رآهما اذا هما الرجلان اللذان رآهما منا ما فسأل عن منزلهما فأخبر انهما في رباط خارج المسجد بقربه جهة الحجرة الشريفة فامسكهما ومضى الى المنزل فلم يجد به سوى ختمتين وكتبا في التصوف ومالا كثيرا وأثنى عليهما الاهالى ثناء كثيرا فرفع السلطان حصيرا في البيت فوجد تحته سردابا ذاهبا صوب الحجرة الشريفة فارتاعت الناس لذلك وقال السلطان اصدقاني وضربهما حتى أقرا بانهما نصرانيان بعثهما ملك من النصارى في زي الحجاج وأعانهما بأموال كثيرة للتوصل للذات الشريفة ونقلها فنزلا بأقرب رباط وصارا يحفران ليلا ولكل منهما محفظة جلد يعلآنهما ترابا صباحا ويذهبان الى المقبرة فيفرغانهما هناك على عدة كرات وهكذا دأبهما منذ مدة فقتلهما علناً وعمل ذلك الحاجز الرصاص رحمه الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه ومن والاه ولا يخفى ان الواقعة كانت مدة حرب الصليب فرأى أحد ملوك النصارى المحاربين للمسلمين ولم يعينه أصحاب التاريخ · لعدم اعتنائهم اذذاك بمثل ذلك حتى انك تراهم يذكرون الوقائع الحربية في الشام مع النصارى ولا يذكرون من هم حيث تعصبت اذذاك ملوكهم مع البابا وصاروا يدا واحدة على المسلمين ولذلك لم يعين الملك المرسل لذينك الرجلين لاجل مكيدة المسلمين بنقل نبيهم اليهم والتشفي منهم ولاجل ابطال معجزة تعيين محله عليه الصلاة والسلام دون غيره من الانبياء عليهم جميعا الصلاة والسلام وفي المدينة المنورة أسواق وصناع لكل ضروري ومدارس لسكنى المهاجرين وكتب موقوفة في عدة خزائن بمكتبات أهمها مكتبة عارف باي ورأيت بها كتابا لم أكن أعرفه وهو الجامع الصغير في النحو لابن هشام مع اشتهار كتبه وطرق المدينة غالبها ضيق لا يعبره الارجل واحد الاطريق الباب المصري الموصل لباب السلام وقرب الباب المصري المناخة وهاته المناخة بطحاء وسيعة وحولها مخازن للذخائر ومن عادات أهل المدينة انهم لا يركبون داخلها تأدبا مع النبي صلى الله عليه وسلم الا المعذور واذا لاقى أحدهم غيره خارجها وهو راكب ترجل له عملا بالاثر المروى وبقية عوائدهم على ما سيأتي في العادات العامة غير ان اخلاقهم رضي الله عنهم أحسن أخلاق أهل الارض فيما علمت من لين الجانب وصفاء القلب ومواساة القريب

والبعيد

والبعيد والكرم ولو كان بهم خصاصة وحرية النفس والشهامة والشجاعة فهم أهل لذلك الجوار كما ورد وصف مدحهم في القرآن العظيم ومن وفد عليهم تخلق بخلاقهم لان أصل الانصار لم يبق منهم هنالك الا عائلة واحدة وبقية السكان كلهم من الوافدين فيما بعد الا السادة الاشراف حقافهم من ابناء سيد الوجود وابن عمه سيدنا علي رضي الله عنه وأما بقية المهاجرين فلم يبق من نسلهم هنالك أحد معروف سوى واحد نقيب في ضريح سيدنا حمزة وهو من بني العباس رضي الله عنهم أجمعين

﴿ مطلب في صفة موكب الحج ﴾ لما كان الحج فرضا على كل مستطيع له من المسلمين فهم يهرعون اليه من كل فج عميق فيجتمع المسلمون من جميع قبائل الارض من مشارقها ومغاربها وقد كان في الزمن السابق يأتي أكثرهم برا أما بعد حدوث البواخر فصار الاكثر يأتي بحرا بالركوب في البواخر الا من كان من أهالي جزيرة العرب فانهم يأتون برا وكذلك الركب المصري وان بطل سفره برا عند طبع هذا المحل وأما عند حجي فانه كان يأتي برا ومثله في الاتيان برا الركب الشامي الذي كان يخرج من القسطنطينية ويأتي الى دمشق الشام ويجتمع هنالك بركب العراق مع حجاج الشام ويسافر الجميع الى مكة وصورة هاته الاركاب هو أن يعين السلطان حاكما من رجال دولته على الركب ويصحبه أمين الصرة أي الحامل للاموال المعينة لمصاريف الحرمين ولسائر المتوظفين وللاعراب الذين لهم عوائد من الدولة وتلك الاموال مأخوذة من دخل أوقاف الحرمين ومن خزنة الدولة كل لما يخصه وكذلك يحمل الهدايا والصدقات الخاصة التي يرسلها السلطان وأهالي دولته وسكان قصره بحيث يجتمع عنده أموال جسيمة وقد سمعت ان الذي ترسله الدولة للقيام بما يعود اليها من جميع ما يلزم الحرمين سواء كان من الخزنة أو من الاوقاف هو الآن نحو مليونين ونصف فرنك عدا الهدايا الخاصة ثم يعين مع هؤلاء قسم من أنواع الجيوش فرسان ومدافعية ورجالة وتنصب لهم خيام للرحلة بها ثم ينضم اليهم كل من اراد الحج بخيامه وسائر لوازمه كل حسب مستطاعه ويحصل يوم خروج المحمل من دار الخلافة موكب مشهود ثم يسافر الركب نهارا ويقيم ليلا على مراحل معلومة الى أن يصل الى مكة وكلما مر على بلد انضم اليه حجاجها وقد بقي الحال الآن على ذلك سوى كون السفر من الاستانة الى مرسى بيروت صار بحرا ثم من بيروت الى دمشق الشام يسافر من غير أبهة ولا انتظام ومن دمشق ترتب له العساكر وغير ذلك ويسافر على نحو ما ذكر وعلى نحو منه الركب المصري وأما القوافل من الجهات البرية فانها تأتي كل قافلة

عليها نحو شيخ للرفقاء و يسافرون حسب مستطاعهم فاذا اجتمع الجميع فى مكة وا لكل منهم مكان يخصه للاقامة فيه خرجوا اليوم الثامن من ذى الحجة الى منى ومنها الى عرفات وهم محرمون فيقفون يوم عرفة وبعد الغروب يفيضون الى المزدلفة ثم قبل الشروق يأتون الى منى وذلك يوم العيد ويقيمون ثلاثة أيام لاداء المناسك ويحصل ليلة ثانى العيد أفراح عظيمة من معسكرى الاركاب بالالعاب النارية واعمال صور حربية بالمشاهدة لكى يحصل ارهاب الاعراب من الحركات العسكرية وسرعة سلاحهم وعظم مدافعهم ثم فى صبيحة يوم ثانى العيد يحصل موكب عظيم فى منى لدى فسطاط الشريف أمير مكة فيحضره الوالى وأمراء الاركاب ورئيس العساكر بالحجاز وسائر الاعيان من أهل مكة والحجاج كلهم بالملابس الرسمية ولما يحتبك الموكب يخرج السيد الامير الشريف ويقف فى الصدر وتقف الناس حوله على حسب مراتبهم ثم يتلى المنشور السلطانى المؤذن بالثناء على الامير وتقليده الامارة أو ابقائه فيها وتحريضه على ادامة الامن والقيام الواجب بحقوق الحرمين والاهالى وهو باللغة التركية ثم يتلى تعريبه ثم يخلع عليه أمير الركب الشامى الخلعة التى يرسلها أمير المؤمنين الى أمير مكة السيد الشريف وهى جبة من الجوخ واسعة سوداء مطرزة بالذهب ثم يقبل الجميع بالتهنئة للسيد الامير ثم يتفرق الناس لتهنئة بعضهم بعضا ثم يسافر كل ركب بعد عوده الى مكة فى يوم معين بعد اداء جميع المناسك وتسليم الاموال لاصحابها والمقيض بها من الامراء والرؤساء وكل منهم أى الاركاب يعود الى بلده على الطريق الذى قدم منه ويكون كل ركب كانه بلد راحل يحصل فيه من النزهة والانشراح لذوى اليسار ماترغب فيه النفوس هذا ولا يخفى ان مناسك الحج مقررة فى كتب الفقه بل وقد خصت بتآليف منفردة لعلماء كثيرين فلا يمكن لنا الاتيان بذكرها لانها خارجة عن الموضوع وانما الذى يناسب ذكره هنا هو ان الحج من أحد أركان الاسلام الخمس وهى كلمة الشهادة أى أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت على من استطاع اليه سبيلا وهو فرض مرة فى العمر و يندب تكراره كلما استطاع الانسان وقد ذكر العلماء حكمة مشروعيته كما ذكروا الحكمة فى مشروعية جميع الاركان وحاصل ما أشاروا اليه هو كونه شكرا لله على ما خصنا به من نعمة السلطة على الانعام أى الحيوانات وهو عبادة مركبة من أعمال بدنية وأعمال مالية و يمكن ان يكون مشتملا أيضا على حكمة أخرى مرعية فى نظر الشارع وهى أحكام الوصلة بين قبائل

المسلمين

المسلمين وتعرفهم ببعضهم واطلاع كل منهم على حاجات أخيه وعوائده ليعين كل منهم أخاه فى الحضرة والغيبة بما يستطيع حسبما أمره الشارع بذلك وينتج منه مزيد المواصلات بين الامم والشعوب والقبائل من مشارق الارض ومغاربها كما هو الامر الواجب شرعا فى جعل المؤمنين عصابة واحدة وقد مثلهم الشارع بالبنيان يشد بعضهم بعضا ومثلهم بالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد وجعلهم اخوة فى الدين الواحد الى غير ذلك من النصوص الدالة على التحامهم ووحدتهم مما لا يمكن ايجاده بدون تعرف فجعل لهم فى كل سنة موعدا يجتمعون فيه ليحصل ذلك القصد وفيما تضمنته مناسك الحج ايماء الى ذلك حتى يحصل على أكمل وجه فانه عين لهم المحل الذى يجتمعون فيه بصورة لا يحصل معها تكدر من بعضهم على بعض فى التفضيل كما لو كان الاجتماع فى بلد قبيلة أو جهة دنيوية بل جعل ذلك المحل هو خاص وخالص النسبة للخالق جل وعلا وحده ثم عند زيارة نبيه الذى هو واسطتهم الى خالقهم فلا يحصل من قصد ذلك المحل أدنى امتياز بغير القلوب ثم انه أوجب عند أول القدوم الى ذلك المحل الاحرام الذى هو من جملة ما تضمنه ترك لبس المخيط وغيره من سمات الرفاهية التى يحصل فيها التحاسد بحيث يكون الناس كلهم سواء لا افضل لملك على راع ولا لعالم على جاهل وأوجب على من اضطر الى ترك ذلك أن يزيد فى الاحسان والصدقة الجالبة لقلوب الفقراء الذين هم مظنة انكسار القلوب مما يرونه من الرفاهية فيعوض ذلك بزيادة صلاتهم والاحسان اليهم والاحسان يجاب القلوب فتنعدل الحال وكذلك شرع مزيد النفقات والاحسان على حسب رتبها واستطاعة المنفق لكى يزيد التوادد ثم قصر ذلك الاحرام على مدة مخصوصة هى مظنة حصول التعرف واستقرار التوادد بين الافراد فاذا حصل التوادد وتأكد بالصلات يبعد زواله بمجرد رؤية أثر النعمة على المنعم عليه ولذلك اباح اللبس حينئذ وكذلك شدد النهى والنكير على الجدال فى الحج الموجب للتباعد الذى هو نقيض المقصود كما شدد مثل ذلك فى الفسوق الذى هو موجب لاستنقاص العبد بمعصية خالقه فيقول أخوه اذا كان هذا لم يراع حق الخالق فى بلده الامين فكيف يراعى حق أخوتى بالغيب وكذلك منع التمتع بالنساء لكى لا ينصرف الفكر هناك الا لطاعة الخالق وحده ومن طاعته ما أشرنا اليه من احكام الوصلة مع اخوانه المؤمنين وهذا الامر وهو كون الحج مشتملا على حكمة الوصلة بين الامم قد أشار اليه بعض المتأخرين تبعا لبعض المتقدمين فى التحريض على مزيد المواصلة

بين الامة وقالوا ان أهل المحلة الواحدة أكد عليهم الشارع زيادة عما يلزم فى حق الجوار أمراً تضمنته عبادة الخالق وهو اجتماعهم خمس مرات فى اليوم بمجد محالتهم للصلوات الخمس فيجتمع الاعلى والادنى فى صعيد واحد ببيت الله على سواء فيروا أحوال بعضهم ويتأنس البعض بالبعض لكى تتأكد الوصلة الروحية بالوصلة البدنية ويعمل كل بما يجب عليه فى حق أخيه ثم أوجب على أهل المصر الواحد الاجتماع العام فى يوم من الاسبوع وهو يوم الجمعة ليحصل ما أشير اليه مع جميع أهل المصر ثم زاد لهؤلاء يومين آخرين فى كل سنة على حالة مخصوصة من اظهار الترفه لكل واحد بحسب حاله حتى يستدل غيره بهيئته على حالته ليعلم مقتضى الحال فى الوصلة وذلك يومى العيد وكان وجه تكريره ذلك مرتين احداهما بعد الصيام شهرا المؤثر فى الخلق وفى الخلق والثانية فى وسط العام على معتاد الناس لمزيد التبين فيما يقتضيه الحال للتعرف بالفراسة وأكد الشارع فى جميع هاته الاجتماعات باجتناب المنفرات وباجتلاب المقربات كالتباعد من أكل الثوم وكالتطيب والنظافة ثم أوجب على كل فرد الحج مرة فى العمر ورغبه فيما زاد على ذلك ليحصل ما أشرنا اليه فى الحج ولاشك أن التيسير للحج لا يحصل لجميع أهل القطر كلهم فى عام واحد فيحصل على الاستمرار اجتماع الامم من كل قطر فى عام فاذا حصل منهم ما أشرنا اليه دامت المواصلة بينهم ولا أقل انها تحصل فى ذلك الوقت وحده أما اذا عمل بمقتضى التعرف فانها تشتد الوصلة بالمراسلات والاسفار والتجارة فضلا عما يجب أحيانا من الفزع من أمة الى اعانة أمة أخرى وانقاذها اذا هجم عليها العدو كما هو معلوم فى وجوب القتال وجوبا عينيا على كل فرد فيما اذا هجم العدو على قسم من الامة وعجز أو تقاعس عن دفاعه فانه يجب على من جاوره أو بلغ اليه الخبر انقاذه ومنه يسرى الى من وراءه وهكذا حتى يعم الوجوب المشرق والمغرب ولو على النساء والاطفال ممن يقدر على الدفاع وما ذاك كله الا لتوحيد المؤمنين وحفظ بيضتهم الاسلامية لكنا الآن نرى أن الناس غافلون عن جميع ما ذكرناه ولا يعتبرون تلك الحكمة ولا يلتفتون اليها ولا نرى الا أهل كل اقليم مقتصرين على مجرد المخالطة مع بعضهم فقط بل ربما لا يخالطون ولا يتعرفون الا بمن عرفوه فى بلدهم سابقا فضلا عن التخالط مع أهالى الاقاليم الاخر كأنهم ليسوا منهم ولا هم مكلفون بالوفاء لهم بحاجاتهم حتى انه ترجع الناس الى أقطارهم من غير شعور لهم بشئ من حالة اخوانهم فى الاقطار الاخر كأنهم لا مطالب لهم بشئ وقد كانت رجال الامة على غير هذا وكانوا الا حظين لما ذكرناه فترى من جاء منهم يتعرف بأهالى

الارض

الارض وحصل بذلك اشتهار رجال الامة فى الاقطار لاسيما العلماء والصالحين فانهم يتشرفون بذكرهم ويطيب خاطرهم بما يسمعونه عنهم من الحجاج وان لم يروه فى حجهم ومن طالع التواريخ والسير والرحلات علم من ذلك كثيرا فسبحان محول الاحوال وهو الباقى لارب سواه

الفصل * الثالث

﴿ فى التعريف بالحجاز ﴾

اعلم أن الحجاز قسم من جزيرة العرب ممتد على شاطئ البحر الاحمر وحدوده الآن التى تحت تصرف الدولة العثمانية هى انه يحده شمالا العمير وغربا البحر الاحمر وجنوبا اليمن من قرب صنعاء وشرقا الحناكية وهى تبعد شرقا عن المدينة بمرحلتين فى حدود نجد وهذا الحجاز أحد أقسام جزيرة العرب الخمس وهى اليمن وهو القسم الجنوبى منها الممتد على شاطئها على المحيط الهندى الى أن يصل الى خليج فارس والحجاز هو القسم الثانى وهو القسم الغربى منها الممتد على شاطئ البحر الاحمر ويليه شرقا القسم الثالث وهو نجد يتصل شمالا بالشام ويحده غربا الحجاز وشرقا العراق وجنوبا اليمامة والقسم الرابع تهامة وكان مقره بين الحجاز واليمن ويمتد من البحر الاحمر الى أن يتصل باليمامة على خليج فارس فيحده جنوبا اليمن وشمالا الحجاز ثم نجد وشرقا اليمامة وغربا البحر الاحمر وقد اضمحل هذا القسم فى اعتباره السياسى وصار مقسما بين جيرانه والقسم الخامس هو اليمامة وهى يحدها جنوبا اليمن وشمالا العراق وشرقا خليج فارس وغربا نجد وكذلك هذا القسم صار فى السياسة تابعا اغلبه لنجد فتلك الاقسام هى الاقسام الاصلية لبلاد العرب التى كانت معتبرة أقساما أصلية للقارة وان كانت لا فرق بينها من جهة طبيعة الارض غير ان القسم المشهور بحسن الهواء وخصوبة الارض وجودة الحيوانات فهو قسم نجد وطال ذكره فى اشعار العرب وامتداحه بينهم وأما بقية الاقسام كلها فما كان منها مرتفعا فهو جيد الهواء وخصب النبات وما كان منخفضا فهو حار أجدب وعلى ذلك النحو ما نحن بصدده وهو الحجاز وقد علمت حدوده الآن واما جباله فهى كثيرة وان شئت قلت انه كله جبال ذات صخرية متشققة سوداء من شدة حر والشمس بها حصل بالمكان غير انه فى مستهل جمادى الثانية سنة ٦٥٤ حصل فى المدينة المنورة وما حولها زلزال شديد دام أزيد من ثلاثة أيام بلياليها اعقبه خروج نار هائلة من جهة جنوب

المدينة على مرحلة منها من جهة الموضع المعروف (حبس وسيل) وسالت النار فى وادى أحيلين كالنهر العظيم تحطم جميع مامرت به وتجعل الصخور ذائبة مائعة تجرى كالنهر العريض العظيم وامتدسائلا الى قرب المدينة أى الى أن بلغ حرمها فصرف عنها ساذات الشمال ووقف وانطفأت النار بعدان كانت ظهرت أول يوم نهار الجمعة كالغمام الاسود الذى عم الافق حتى أظلم الجو وظنوا أن الشمس والقمر قد كسفا ثم لما أظلم الليل ظهر ضوؤها وملأ فى الجو الى أن رئيت من حول بصرى ومن مكة والطائف وكان لها دوى كالرعد ونهرها يغلى بأمواج كالبحر من النار المتلاطمة وتقذف فى الهواء الصخور كالجبال والمدن ونهرها ذو الوان زرق وحمر ورعبت منها قلوب الناس والتجؤا الى ملاذ الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما بلغ سيلها الى حرم المدينة صرفت وانطفأت ومع عظيم لهيبها وسطوع ضوئها على الاماكن البعيدة لم يصل من حرها الى المدينة المنورة شئ وكان النسيم يأتيها باردا وكان خروج تلك النار احدى معجزاته صلى الله عليه وسلم التى لاتحصى فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما وهما فى أول القرن الثالث حديث لاتقوم الساعة حتى تظهر نار الحجاز وللبخارى تخرج نار من أرض الحجاز تضئ أعناق الابل ببصرى وروايا تها كثيرة حتى كان فى احداها تعيين محل خروجها وانذار الساكنين به منها فكان الامر كما قال صلى الله عليه وسلم وبقية جبال الحجاز كثيرة منها المشهور كاحد وأبى قبيس وعرفات وهو ليس بمرتفع ومن أحسن جبالها هواء الطائف فانه فى شدة الصيف يكون معتدل الهواء وهو مصيف أعيان مكة وجدة وأما أنهر الحجاز فليس به نهر مستديم وانما تسيل الانهر به عند نزول المطر حتى ان أحدها يأتى من جبال الطائف ويمر على المدينة المنورة على صاحبها أكمل الصلاة والسلام ثم يذهب مغربا الى البحر وأما البحريات فليس بالحجاز بحيرة وأما العيون فيها عيون عظيمة عذبة احداها العين الزرقاء التى تسقى المدينة وهى نابعة من قباء تحت الارض فى عمق عدة أذرع وتذهب الى المدينة تحت الارض وعليها عدة منافذ لملئ المياه وفيها الكفاية لجميع البلد وماحولها وانما سميت الزرقاء نسبة لجاذبها مروان بن الحكم أزرق العينين أجراها بأمر معاوية رضى الله عنه ومنها عين زبيدة التى تسقى بها مكة وهى آتية من قرب عرفات تحت الارض مثل السابقة وقد أجرتها زبيدة زوج الرشيد العباسى وقد عمرت الآن عمارة حسنة صارت بها فى غاية الانتظام ومنها عين بلد الصفراء وهى أيضا تحت الارض لكنها ليست بمنخفضة بل انها تبعد عن سطح الارض نحو ذراعين وبها ماء غزير صاف عذب حار يشرب فاذا جعل فى

الاوانى بردوهى تغور بعد البلد فى الارض ولا ينتفع منها الا بشئ يسير للشرب وسقى بعض بساتين ومثلها عين بلد الجديدة مع أن كلا منهما يصلح لسقى غابة عظيمة مع حسن الماء وجودته فقد شاهدت عين الصفراء وقد أناخت حولها قافلتنا المحتوية على أزيد من ستمائة نسمة وهرع الى العين جميعهم لغسل ابدانهم وثيابهم بل ولغسل اكراش الغنم التى ذبحت يومها فى القافلة ومع تراكم تلك الاوساخ كنت أرى الحصباء كالفضة فى مجرى العين والماء يزيد عمقه عن ذراعين وأما هواء الحجاز فهو على الجملة حار لمكان عرضه من خط الاستواء ولا شك أن الاودية بين الجبال تزيد حرا بخلاف المرتفع ولذلك يختلف الحال فمع كون مكة المشرفة شديدة الحر حتى انى كنت بها فى دجنبر ولما أردت صلاة العشاء فى الحرم لم استطع الجلوس على الارض بدون بساط فى وقت العشاء لما أثرت الشمس فى الارض فان الطائف لا يمكن فيه فى الصيف الا التدثر فى الليل بالغطاء الثخين وقد شاهدت من أمر السراب شيئا عجيبا فانى لما كنت مسافرا من مكة الى المدينة سمعت من اصحاب القافلة انهم يقولون ان الماء هنا ليس بموجود ولا بد من المبيت على الماء وكان الوقت بعد العصر فرأيت على قرب من الطريق غدرانا كثيرة فسألت الجمال هل هناك سبخة أم ان المطر صبت قبل مرورنا فقال كل ذلك لم يقع فقلت من أين هذه الغدران حينئذ فقال ليس هنا غدران وانما ذاك سراب فلم نطمئن لقوله وأرسلت أحد أتباعى باناء لملاه من ذلك الماء الذى أريته له فشاهده وذهب اليه فلما بلغه صاح لى قائلا ليس هنا شئ فضحك منى الجمال وما ذاك الا للتعود فانى لم أعهد السراب على ذلك النحو وذلك لحر القطر وتأثر الهواء بذلك وأما نباتاته فينبت بالحجاز جميع النبات الذى يكون بالاقاليم الحارة ووراء جبل أحد من الشق المقابل للمدينة غابة كبرى بها عيون ضعيفة وأشجار كثيرة صالحة للبناء بأخشابها وأكثر الشجر المستنبت النخيل على أنواع شتى وبقية الشجر ذو الغلال يغرس منه الليمون بكثرة والبردقان والعنب والرمان وهو جيد للغاية لاسيما رمان الطائف والتين كما يستنبت بعض البقول مثل الباميا والطماطم وقليل من بقية المستنبتات ومن تأمل الحكمة فى حماية أشجار الحرم المكى والمدنى من القطع علم قصد الشارع الى استكثار الشجر هناك لما يعود من مصلحته على الامة فانه يجلب السحب ويكثر المطر ويحسن الهواء ويشرح النفوس ويقى الناس من الشمس ويلطف الحر ويوقد بفواضل ما يقطع منه للتحسين ومن شاهد تلك البقاع علم شدة الاحتياج الى الاستظلال من الشمس وعلم حكمة تحريم الشجر حول البلدين المكرمين

الذين تلزم عمارتهما وتهرع الناس اليهما من كل فج عميق وقد أشار الى حكمة تحسين الحرم بالشجر وحرمة قطعه بعض العلماء ومنهم السمهودي في خلاصة الوفا باخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال قال الطحاوي يحتمل أن يكون سبب النهي عن صيد المدينة وقطع شجرها كون الهجرة كانت اليها وكان بقاء ذلك مما يزيد في رؤيتها ويدعو اليها كما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن هدم آطام المدينة فانها من زينتها فلما انقطعت الهجرة زال ذلك الخ وقوله انقطعت الهجرة أي بقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وكلامه تعليل لمذهب الحنفية في عدم تحريم المدينة وأما الائمة الثلاثة فهم على تحريمها مثل مكة وأدلتهم قوية والحاصل أن مرادنا هو أن تكثير الشجر في البلاد لاسيما البلاد الحارة مما يرغب فيه وقد صرح الفقهاء في كتاب السير بالنهي عن قطع شجر دار الحرب بلا حاجة اليه فكيف بغيرها فضلا عن دار خير الخلق عليه الصلاة والسلام القائل بتحريمها وتحريم ما حولها أكثر الائمة رضي الله عنهم مع الفائدة الظاهرة من ذلك (وأما) حيوانات الحجاز فيوجد به الحيوانات الانيسة المعلومة كلها لاسيما الخيل العرابية التي يضرب بها المثل في الدنيا وترغب فيها جميع الامم واعلاها الخيل النجدية وكذلك الابل الجيدة لاسيما النجيبات السريعة مثل ماذكرنا بمصر وأحسن منها كما توجد البغال بقلة والحمير بكثرة والحيوانات البرية كلها موجودة الا القليل كالدب والفيل (وأما) الاسد والنمر فوجود بكثرة وكفى بما ذكره بشر في قصيدته التي شطرها الشيخ قبادو التونسي بعد ان زاد عليها مطلعا بيانا لحالة أسود أرض العرب وتلك القصيدة لما كانت بديعة أثبتها هنا مع تشطيره المتنظر براعة المشطر الذي صار كأنه بدوي قح مع كونه حضريا بحت وهي

(أفاطم لو شهدت ببطن خبت) * لهانت عندك الاخبار خبرا
ولو أشرفت في جنح عليه * (وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا)
(اذا لرأيت ليثا أم ليثا) * وكل منهما بأخيه مغرى
يرى كل على ثقة أخاه * (هزبرا أغلبا لاقى هزبرا)
(تبهنس اذ تقاعس عنه مهري) * وأقبل نحوه أذنيه ذعرا
فكاد يريه فيخال مني * (محاذرة فقلت عقرت مهرا)
(أنل قدمي ظهر الارض اني) * أرى قدمي للاقدام أحرى
ولست مزحزحي شيئا ولكن * (رأيت الارض أثبت منك ظهرا)

(وقات

(وقلت له وقد أبدى نصالا) * باهرة فاغر يهررن صرا
وسوسا ذات ألحاظ تلظى * (محددة ووجها مكفهرا)
(يكفكف غيلة احدى يديه) * كآلى القوس ينزع مسبطرا
ولا يثني براثن منه الا * (ويبسط للوثوب على أخرى)
(نصحتك فالتمس ياليث غيري) * فلي بقيا عليك وأنت أدرى
ومهري قائل لك لا تخالني * (طعاما ان لحمي كان مرا)
(ألم يبلغك مافعلته كفي) * الست ترى بها الاظفار حمرا
ألم تك طاعما اشلاء فتكي * (بكاظمة غداة قتلت عمرا)
(فلما خال ان النصح غش) * وغرته الجراءة فاستمرا
وجد على التهور في نزال * (وخالفني كاني قلت هجرا)
(مشى ومشيت من أسدين راما) * مساورة فلاقى البحر بحرا
ورجا الارض اذ بغيا عليها * (مراما كان اذ طلباه وعرا)
(سللت له الحسام فخلت أني) * اسلت من المجرة فيه نهرا
ولم أمش الضراء له لاني * (شققت به لدى الظلماء فجرا)
(وأطلقت المهند من يميني) * فاوثقه لغير المن أسرا
بابريق هفا هفوان برق * (فقد له من الاضلاع عشرا)
(فخر مضرجا بدم كأني) * بمهجته أفضت عليه سترا
وكدت لهول وجبته أراني * (هدمت به بناء مشمخرا)
(بضربة فيصل تركته شفعا) * وشقاه لقى بطنا وظهرا
وشكا ما اثنى منها مثنى * (لدى وقبلها قد كان وترا)
(وقلت له يعز على انى) * أراك معفرا شطرا فشطرا
واستحيى المروءة أن تراني * (قتلت مناسبي جلدا وقهرا)
(ولكن رمت أمرا لم يرمه) * أبي لا يبيع النفس خسرا
ولهيك سامني بالنصح خسفا * (سواك فلم أطق ياليث صبرا)
(تحاول أن تعلمني فرارا) * فهل علمت نفسك أن تقرا
وتنفض مذرويك لفل عزمي * (لعمر أبيك قد حاولت نكرا)
(أتيت تروم للاشبال قوتا) * طلبت به الدماء ورحت سفرا

ولكنى أقيـد بها وأحمى * (وأطلب لابنة البكرى مهرا)
(فلا تبعـد فقـد لاقيت حرا) * يرى ويقرآن أبلغت عـذرا
وعن كرم برزت الى كريم * (يحاذر أن يعاب فتحرا)
ولا أسـف على عمـر تقضى * أفادك منـه حسن الذكر عمرا

* وأما معادن الحجاز فانه يوجـد به المرمر الرفيع ويوجد قريبا من المدينـة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسـلام حجر البلور المشابه للالماس ويوجد أيضا الذهب وكان مستخرجا ثم دثر ولا يبعد وجود الفحم الحجرى وكذلك غيره من المعادن المحتاجة للبحث عنها * وأما مدن الحجاز فاصل قاعـدته وقاعدة عموم الاسلام هى المدينة المنورة وكانت مدة اقامة الخلافة بها اتسعت وكبرت وكذلك بعد ذلك فى العصور الاولى من الاسـلام وان حدث فيها الخراب الكلى والجلاء العام مدة يزيد ثم دون ذلك مدة القرامطة ثم تراجـع عمرانها الى النمو ثم عادت الى ما هى عليـه الآن مما ذكرناه فى صفتها وقاعدة الحكومة الحجازية الآن هى مكة المشرفة وقد مر ذكر صفتها ومن اعتبر ما جرى عليه الحال فى ظهور الاسـلام يرى ان عناية الله بالمدينة عظيمة وقد جعلها مظهرا للدين القويم وانتصار الرسول الامين عليه الصلاة والسـلام وكانت مكة تابعة فى الحكم للمدينة حتى بعد فتح مكة وقد خالج الانصار عنـد الفتح انتقال النبى صلى الله عليه وسـلم الى بلده الاصلى فاعلمهم بانه لا يفارقهم واستقر هو ومن بعده من الخلفاء الراشـدين بالمدينة الى خلافة سيدنا على فكان صدرها بالمدينة وآخرها بالكوفة ومع ذلك فقاعدة حكم الحجاز هى المدينة وذلك هو الموافق لحالة السياسة لتوغل المدينة من القارة واذا كان الحاكم فى مكان تمهدت سائر السبل اليه وعلى تقدير حدوث بعض العوائق فى الطرق يزال عن محل وتنفذ الاحكام فى الاطراف لاستقرار القوة فى الوسط وليست مكة المشرفة على ذلك النمط وقد تغير الحال مرارا مدة الاسلام فى قاعدة الحكم بالحجاز فكان الامر على ما ذكرناه من كون المدينة هى القاعدة ثم انفردت مكة بحكمها وبقيت المدينة مستقلة ثم صارت الاحوال تتقلب فتارة تكون مكة تابعة وتارة متبوعة وتارة يستقل كل منهما بحكم ولو بعد استقرار الدولة العثمانية والذى عليه العمـل الآن هو أن مكة هى القاعـدة وللمدينة حاكم يرجع فى أمره الى حكومة مكة وأما بقية المدن بالحجاز فليست بموجودة وانما الموجود عبارة عن قرى مثل الطائف وهى أكبرها والصفراء والجديدة وحده ورابغ وخيبر وقـد غلط كثـير من الجغرافيين حتى من المسلمين فى ذكرهم لسكان هاته البلدة

وكونهم

وكونهم يهوداغترارا بما كان فى أصلهم وغفلة عما وقع فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه من جلاء جميع الاديان الا الاسلام عن جزيرة العرب مستندا للنص من الشارع فى كونه لا يجتمع بها دينان ومنذ ذلك التاريخ لم يبق بها الا المسلمون وسكانها الآن من ضعفاء القبائل مسلمون وهم تبع لحكم المدينة صورة وفى الحقيقة تحت حكم محمد بن رشيد النجدى أكبر حكام قبائل نجد بل هو الحاكم على جميع أواسط قارة جزيرة العرب وهو على مذهب الوهابى وله نفوذ تام وحكم عادل ذو هيبة وسطوة بحيث أن رقعة منه يد حاملها تؤمنه فى جميع الانحاء من أواسط القارة ويجلس فى مجلس حكمه ويحضر القاضى ومعه أحد العلماء بصفة المفتى ويقف حوله أصحاب الخيل من أعوانه لبرءاهم فى الخصومات فاذا دخل المشتكى ألقى دعواه على القاضى ويجيب خصمه بما يظهر له ويحكم القاضى بما يراه فيستشير الامير ذلك العالم الحاضر هل ان حكم القاضى موافق للشرع أم لا فان وافقه فيها والا تباحثا وما يرسى عليه ينفذه الامير حالا وأما النوازل المتعلقة بالادارة وحفظ الامن فيحكم فيها باجتهاده مراعيا فيها الانصاف والعدل بما لا يخرجها عن السياسة الشرعية مع الصرامة التامة فى التنفيذ حتى انه قيل انه أتاه يوما رجل وهو فى مجلسه الحكمى وأخبره بأنه وجد عدلا لبعير ملقى فى الطريق وهو مملوء بالرمل ولا يعلم صاحبه فأخبره به لكى يبلغه محله فسأله الامير من أين علمت أنه رمل فقال له انى مسسته فقال له كيف مسسته وبأى يد فقال له مسسته بيدى هاته وأشار باحدى يديه فما كان من الامير الا أن جرد سيفه وقطعها وقال له ما كان ينبغى لك أن تمسه حتى تعلم ما فيه وأى فائدة لك فى ذلك لولا نيتك الخيانة اذ لو وجدته شيأ ثمينا لما كنت أخبرت عنه ومن علم حالات القوم وطباعهم فى هاته الازمان يرى أن ذلك الحكم الصارم مطابق لما يقتضيه الحال اذ لم تأمن ولايته ولم تستقر بها الراحة والهناء الا بمثل ذلك الحكم واذا أمر احدا بأمر ولم ينفذه ولحمله قبيلته على تنفيذه فانه يصدر فى الحال أوامره الى القبائل التى بقربها الى جهة المأمور بحضور فرسانهم فى وقت معين ثم يركب هو وفرسان جيشه ومامر بقبيلة من المأمورين المشار اليهم الا انضموا اليه الى أن يعظم جيشه فيصل الى المأمور وقبيلته ويأخذهم أخذة رابية ويملك أرزاقهم لمن كان معه من العسكر وبمثل ذلك نفذ أمره وعلا صيته وخضعت القبائل اليه مع كونه جوادا وفيا بالعهد عالى الهمة على شيمة كرام العرب وهاته البلدان المار ذكرها أغلبها به حصن أو بقربه حصن لاقامة العساكر للمحافظة على الامن غير ان أغلب الحصون صار خرابا

للاهمال وليس به حامية وأما مراسى الحجاز فأعظمها مرسى جدة ثم ينبع البحر وهاته هى أقرب المراسى الى المدينة المنورة بحيث يصلها البريد فى يوم وتبلغها القوافل فى ثلاثة ثم بقية المراسى على قلتها ليس لها أهمية غير ان الموجود منها كلها هى مراسى أمينة للسفن لما خلقها الله عليه من احاطة الصخور العظيمة حول الحوض الذى ترسى به السفن بحيث يصح أن يقال ان الذين انتخبوا تلك البقاع جعلها بادئا المراسى هم من حذاق أهل التدبير واتساع المعارف بالصناعة البحرية فقد شاهدت كلا من مرسى جدة وينبع وحوض كل منهما يسع مئين من السفن الضخام فى أمن تام ولو عند تلاطم الامواج التى كالجبال وأغلب الخريتين لا يدخلونها الا بدليل من بحرية أهالى تلك المراسى وقد شاهدت الخريطة البحرية التى فى الباخرة المصرية التى سافرت فيها الى جدة معلما بها على جميع الحجارة المستورة بالبحر حوالى شاطئ البحر الاحمر مع بيان حجمها ومركزها وهى من صنع الانقليزيين فسألتهم هل لهم خريطة مصرية أو عثمانية فأجابوا بأن تلك الخريطة هى المعول عليها عند جميع الامم ولو العثمانيين الذين يعد البحر الاحمر بحيرة فى مملكتهم من جميع جهاته فعجبت واندهشت من خمود قوم واهمال آخرين وهى احدى علامات تأخرنا اذ صرنا لا نعلم بلادنا وشواطئها الا بتعريف الاجانب لنا بها وسبحان الفعال لما يريد

وأما سكان الحجاز فهم كلهم عرب من نسل العرب الاقدمين الا سكان البلدين المكرمين فأغلبهم من الوافدين من جميع الاقطار وأكثرهم بمكة من الهنود وأما فى المدينة فأكثرهم من المغاربة وعدد جميع السكان فى الحجاز يقرب من نحو مليونين فالذين يعمرون الارض ما بين مكة والمدينة هم قبيلة مزينة وتعرف بالاحامدة ومنها فخذ يعرف بقبيلة حرب وهم التجار ومنهم البغاة الذين يكثرون قطع الطرق بين البلدين المكرمين وهاته القبيلة وهى مزينة المعروفة بالاحامدة تنقسم الى قسمين كبيرين أولهما يسمى المسروح وهم سكان البرارى من مكة الى الصفراء وثانيهما يعرف ببنى سالم ومنهم فخذ حرب وهم سكان بقية الجهات وديانة الجميع هى الاسلام على مذاهب شتى أغلبهم أهل سنة على المذهب الحنفى والشافعى وانتشر فيهم التعاليم الدينية بكثرة زوايا الشيخ السنوسى المنتشرة فى جميع جهاتهم وقدم الكلام على مذهبهم عند الكلام على جزيرة العرب فى المقدمة وعلى حوادث تونس فى فصل سفرى الى فرانسا كما يوجد المذهب الوهابى بقلة وان كثر فى جهات نجد الخارجة عن حكم الحجاز وأما تقاسيم الاهالى بالنظر للحكم فان كل قبيلة لها مشايخ منها ويرجع الجميع الى أمير مكة السيد الشريف

﴿ تم الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس أوله فصل فى تاريخ الحجاز ﴾

بحمد من أسبغ نعمه على العباد والصلاة والسلام على بدر الهدى وعلى آله نجوم الرشاد قد تم طبع الجزء الرابع من صفوة الاعتبار على يد مصححه مصطفى محمد دقشيشة المفتقر الى رحمة الكريم الغفار مصححا كما يرام حاويا من الفوائد ما يتم به المرام وذلك بالمطبعة الاعلامية التى هى عن التعريف غنية ووافق طبعه يوم الاثنين المبارك وهو التاسع من شهر جمادى الاخرى الذى هو من شهور سنة ثلاث وثلاث مائة وألف من هجرة من خلق على أكمل وصف وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ ﴾

﴿ فهرست الجزء الرابع من كتاب صفوة الاعتبار ﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿ تمت الفهرست ﴾

﴿ طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ ﴾

الجزء الخامس

من كتاب

صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

تأليف

الشيخ الجليل والعالم المحقّق النبيل

السيد محمّد بيرم الخامس التونسي

رحمهُ الله ونعمهُ

الطبعة الاولى

طبع في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله اللهمّ صلِّ على سيّدنا ومولانا محمّد وآلهِ وسلّم تسليماً

فصل في تاريخ الحجاز

مطلب في تاريخهِ القديم

اعلم ان سكان الحجاز هم العرب فتاريخهُ هو تاريخهم نعم قد كان الحجاز معمورًا قبلهم لكن ذلك العمران قد جُهل تاريخهُ بالمرة لتقادم العهد تقادماً كثيرًا وغاية ما يعلم من حوادث ذلك التاريخ هو بعض جزئيّات لها تعلق ببعض الاماكن المشرفة هناك مثل بيت الله الحرام فانها بُنيت منذ عهد سيدنا آدم ابي البشر عليهِ الصلاة والسلام وجُدِّدت ايضاً قبل سيدنا ابراهيم ولكن الاخبار عن ذلك كادت ان تكون خليّةً عن التحقيق ثم انهُ لما تكوّنت امة العرب واستقرت في جزيرتها حدثت فيها حوادث تاريخيّة مهمة جدًا غير انها في ذاتها ايضاً منقسمة الى اربعة اقسام باعتبار انقسام العرب في انفسهم لان العرب منذ نشأتهم الى الآن منقسمون الى اربع طبقات فالطبقة الاولى هي العرب البائدة والثانية العرب العاربة والثالثة العرب المستعربة والرابعة العرب المولدين او المخضرمين

فاما الطبقة الاولى فهي التي كانت قبل سيدنا ابراهيم وانما سميت بائدة لابادتها اي انقطاعها وانقطاع اخبارها وان كانت ذريتها لم تزل وهم بقيّة الطبقات وانقطاع اخبارها انما جاء من شدة طول العهد والامد فلم يعلم من احوالهم الّا بعض حوادث قصها الله تعالى في القرآن المجيد مثل ما ذكر من احوال رسول الله سيدنا صالح الى قومهِ ثمود وكذلك قصة عاد مع رسولهم سيدنا هود والاشارة الى ما كان لهاتهِ الامة

من القوة والعمران والثروة وشدة البأس الى غير ذلك من احوال انقراضهم والاعتبار بما كان لهم وبقيت بعض آثاره في ديارهم واما غير ذلك من تفاصيل تاريخهم فلا يوجد منهُ الَّا قصص يذكرها بعض المفسرين او المؤرخين لا سند لهم فيها الَّا الاعجاب بقصص القصاص مما لا ينبغي الاعتماد عليهِ اللهمَّ الَّا ما اذا ورد شيء من ذلك عن الصادق الامين رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فانهُ ينبغي ان يتلقى بالقبول ولعلهُ لا يوجد من ذلك عدا ما في القرآن المجيد الَّا ما ندر مما روي بصحيح السند وهكذا ما يروى عن الصحابة رضي الله عنهم في ذلك الصدد لانهم اذا صحت الرواية عنهم لايقولون الَّا ما لهُ ثبوت باحدى الوجوه الموصلة وحاشاهم ان يذكروا خرافات القصاص ولذلك كانت الاخبار عن تلك الطبقة من العرب في غاية الابهام وانما المحقق منها هو انهم كانوا امة عظيمة ذات نخوة وشهرة وعمَّروا الارض عمرانًا عظيمًا وحادوا عن جادة الصواب في عبادة الخالق * فأرسل اليهم الرسل في ازمان مختلفة يدعونهم الى الرشاد فعاندوا الى ان احاط بهم العقاب وطول الزمن الواقع ما بين اولئك الرسل الدال عليهِ سياق القرآن المجيد والدال عليهِ ايضًا نسيان القوم لما كان اصاب سابقيهم يدل على طول الزمن بين سيدنا نوح وبين سيدنا ابراهيم عليهم جميعًا الصلاة والسلام زيادةً على ما يزعم انهُ مذكور في التوراة باضعاف مضاعفة فان تكوُّن الامة وكثرتها بعد الطوفان الى ان تبلغ الى ذلك المقدار من الكثرة والشدة وغير ذلك من الصفات لابدَّ لهُ من زمن طويل كافٍ لتكوُّن ذلك العدد الوافر من رجل واحد ثم ان نسيانهم لمعجزة الطوفان وسبب نجاة جدهم يستدعي ايضًا ذلك الطول ثم ان تعدُّد الرسل مع التعاقب اي ان كل واحد منهم في زمن بعد الآخر وكل واحد منهم يحل العقاب بمن خالفهُ فبعضهم أُهلك بالريح وبعضهم أُهلك بالصيحة الى غير ذلك يدل ايضًا على شدة طول الزمن فيما بينهم حتى تنوسي خبر السابق وكل ذلك قبل سيدنا ابراهيم عليهِ السلام فلابدَّ ان تكون المدة بينهُ وبين سيدنا نوح طويلة جدًّا لا يعلم مقدارها الَّا الله تعالى ومجموع ذلك يدل على طول عمر الدنيا وانما غايتها انها حادثة وانها مآلها الى الفناء وهذا كلهُ يبين لنا معنى قولهِ عليهِ الصلاة والسلام بعثت انا والساعة كهاتين وقرن بين اصبعيهِ الكريمتين الوسطى والسبابة وكذلك ما دلَّ من الآيات والاحاديث على قرب الساعة فربَّ قائل يقول اين هذا القرب وهذا الاقتراب وقد مضى من زمن البعثة الى الآن أزيد من الف وثلاثمائة سنة ومع ذلك لم تظهر العلامات الكبرى كنزول سيدنا عيسى عليهِ السلام وطلوع الشمس من مغربها الى غير ذلك فنقول لهُ ان الامور نسبيَّة فمن علم المقدار الكثير

من مدة الدنيا التي مضت وعلم ما بقي منها رأى ان الساعة قربت وانها مقترنة بالبعثة ولا يتأتى ذلك الأ اذا كانت المدة الماضية طويلة طولاً كثيرًا كما هو الواقع والمشاهد من حالة الآثار الدالة على ان ما مضى يزيد على العشرات من آلاف السنين فنسبة الفين سنة او ثلاثة آلاف من تلك العشرات من الالف ما هي الأ كنسبة المتلاصقين والمقترب واما اذا اعتبر ما يزعمهُ اهل الكتاب من المدة وانها ستة آلاف مثلاً فلا يمكن الفهم الأ على ضرب من التأويل الذي لا حاجة اليهِ لمخالفتهِ للواقع ولتبين التحريف الثابت فيما يستند اليهِ اهل الكتاب الذي غرَّهم فيما ذكر فللهِ الحمد على تنزُّه شريعتنا المطهرة عن مثل الخرافات المخالفة للواقع

واما الطبقة الثانية من العرب وهي العرب العاربة فهي التي من زمن سيدنا ابراهيم وسيدنا اسماعيل ابنهِ ابي العرب المعروفين الى عصر البعثة وهاتهِ الطبقة اخبارها معروفة اجمالاً لاسيما قرونها المتأخرة بما يستنتج من اشعارها وقصائدها واخلاقها وان كانت تفاصيل الحوادث التاريخيَّة غير محققة لاسيما القرون الاولى لها والمتوسطة لعدم وجود تواريخ محررة في اخبار هاتهِ الامم من العرب دوّنت قبل الاسلام وانما الذي يوجد في ذلك من التآليف انما هو بعد الاسلام عند ما حدث تدوين الكتب في الامة الاسلاميَّة وذلك من القرن الثالث من الهجرة فيوجد في التواريخ الاسلاميَّة اخبار كثيرة عن هاتهِ الطبقة وكثير منها تلوح عليهِ سمات الصحة لما يؤيدهُ من الاشعار في الوقائع وحوادثها واتياننا على جميع ذلك في هذه الخلاصة مغاير لمقصدنا لانهُ لا يكون الأ زيادة نسخة من احدى التواريخ المشتهرة في ذلك مثل تاريخ المسعودي او تاريخ ابن خلدون او غيرهما من التواريخ الكثيرة وانما الذي يليق بنا ذكرهُ هو ان نقول ان هاتهِ الامة قد انتشأت فيها دول عظيمة وممالك واسعة وكانت في أغلب الاوقات منقسمة الى ثلاثة اقسام جنوبي وشمالي ووسط

فاما القسم الجنوبي فهو اليمن وحدثت فيهِ دول عظيمة مستقلة بنفسها في أغلب الاوقات ولكنها لم تتسلط على غيرها من الامم الأ نادرًا نعم قد يتسلط عليها غيرها احيانًا فتارةً تكون تابعةً لملوك فارس وهو الاكثر وتارةً تتبع دولة الحبش او دولة اليونان او الرومان او المصريين وفي كل الاحوال الاغلب ان يكون حكامها منها وان كانوا تابعين لغيرهم ممن ذكرناهُ ونشأ فيهم تمدنًا جميلاً كما تدل عليهِ الآثار التي حول المدن القديمة مثل صنعاء وغيرها وصار في اليمن رجال ذوي فطنة وفكر وقاد وتأهل للكمال كما يرشد اليهِ الحديث الشريف القائل الايمان يمان والحكمة يمانية او كما قال عليهِ الصلاة والسلام

واما القسم الشمالي فهو مملكة غسان اي الجهة الموالية للشام والعراق فهاتهِ كثيرًا ما حدثت بها دول مستقلة ذات شأن لكنها لم تبلغ مقام دول اليمن وفي اكثر الاحوال تكون هاتهِ المملكة تابعة لصاحب ملك الشام كالرومان وغيرهم وفي اكثر الاحوال ايضاً تكون رؤساؤهم منهم وان كانوا تابعين لغيرهم

واما القسم الثالث وهو الوسط الشامل للحجاز ونجد وتهامه فالحجاز منهُ في أغلب الاوقات ان لم نقل في كلها كان منفردًا

واما غيرهُ فيكون تارة تابعاً للجنوب وتارة للشمال وتارة ينفرد بنفسهِ مثل الحجاز والحجاز الذي هو بيت القصيد مع كونهِ كان منفردًا عن الخضوع لغيرهِ الاَّ ان يكون خضوعاً اسميًا بمعنى الادلاء بالبيعة لبعض ملوك اليمن العظيمي الملك فانهُ في نفسهِ لم تكن بهِ دولة ملكيَّة قط وانما جميع السكان منقسمون الى قبائل كل قبيلة خاضعة الى رؤسائها فقط ولا سلطة لواحدة على أخرى الاَّ ما يكون على طريق الظلم والعدوان وقد انفردت قبيلة قريش من بين سائر قبائل العرب بالمجد والفضل لما لها من المزيَّة باختصاصها بالسكنى حول بيت الله الحرام الذي لم يزل معظماً عند الجميع منذ بناهُ سيدنا ابراهيم وسيدنا اسماعيل ابو العرب وكانت سائر القبائل العربيَّة تحجهُ من جميع الآفاق اليمن والشام وغيرها وتعظم اهلهُ وتكرمهم واختص بمزيد الشفوف على قريش بنو هاشم منهم فكانوا هم سدنة البيت وهم حماتهُ * وقد تقررت في قبائل العرب اكثر شيم المكارم لا سيما قريش فكانوا ابعد الخلق عن تحمل الضيم وكانوا احرص الناس على حفظ المجد وحماية النسب فيحفظون انسابهم ويتفاخرون بها ويكرمون الضيف ويتنافسون في البذل والكرم ويحمون الجوار ويوفون بالعهد ولهم اليد البيضاء في الشجاعة والرماية والفروسيَّة والاعتناء بتربية الخيل الجياد والابل ويتفاخرون بالعدل ويستقبحون الظلم وان افتخروا بهِ في قهرهم بهِ لاعدائهم والحاصل انهم اقتنوا اكثر سمات الفضائل ومكارم الاخلاق حسب ما يرشد الى ذلك قولهُ عليهِ الصلاة والسلام بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ويؤكد ذلك حلف الفضول الذي قال فيهِ صلى الله عليهِ وسلم لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما احب أن لي بهِ حمر النعم ولو أُدعى بهِ في الاسلام لاجبت الخ وذلك ان قريشاً تحالفوا على ان لا يجدوا مظلوماً الاَّ انتصروا اليهِ حتى يردوا ظلامتهُ ويأخذون حق الضعيف من القوي ولتنافسهم في سمات الكمال حدثت بين القبائل المشاحنات على استحصالها وتمكنت العداوة بينهم وصاروا على قلوب شتى

وكان اعظم همهم وغاية تفاخرهم هو البلاغة في لغتهم التي بها يعبرون عن خصال فضائلهم ومناط تنافسهم حتى صاروا يعقدون لذلك اسواقاً كسوق عكاظ فيفيضون اليهِ من كل فج عميق وتأتي القبائل بما لديها من البضائع والتجارة ويقع بينهم تعارف ورواج في المتجر ولكن موضوع اصل الاجتماع هو عرض كل قبيلة كلام فحول فصحائها من نثر ونظم فتنصب لاصحاب البلاغة واللسان الطلق المنابر وينشد كلٌّ منهم ما لديهِ من القصائد التي كان تأنق في احضارها حتى ربما بلغ الحال بأحدهم ان لا يظهر قصيدتهُ الّا بعد التروّي والتدبر فيها واصلاحها مدة العام والعامين حتى كانت لهم قصائد تسمى بالحوليَّة وقد يكون الانشاد ارتجالاً مع الابداع والاغراب من مصاقعهم في اغراض شتى من نصائح وحكم وصفة مكارم الاخلاق او في الشجاعة والبطش والحروب او في الغزل والنسيب او المفاخرة والمدح والذم الى غير ذلك مما اشتهر امرهُ في الآفاق بين سائر الامم الى الآن ولا زال يضرب بهِ المثل فيما كان للعرب من سعة اللغة وكمال الادراك فيما خاضوا فيهِ من مناهج الكلام وكانت لهم حكام مسلم اليهم الانصاف ومعترف لهم بكمال الخبرة والاحاطة بأساليب البلاغة وجزالة المعنى ودقة المدرك فيحكمون بتفضيل بعض الكلام على بعض وربما بلغ الحال من العناية بالكلام البليغ ان يكتب في صحائف مونقة ويعلق في داخل الكعبة التي هي مناط تعظيمهم قديماً وحديثاً ولو في الجاهليَّة دلالة على ان ذلك الكلام قد بلغ الغاية القصوى في المهيع الذي هو بصددهِ لما احتوى عليهِ من الفصاحة ومن ذلك المعلقات السبع الشهيرة غير انهم مع هاتيك الكمالات قد تناسوا دين آبائهم ابراهيم واسماعيل عليهم السلام ولم يبقَ فيهم من آثارهِ الّا اعتقاد الخالق والاعتراف لهُ بالوجود كما يرشد اليهِ قولهُ تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولنَّ الله وكذلك تعظيمهم للبيت الحرام ثم تفرقوا في بقيَّة العقائد على انحاء شتى باطلة من وثنيَّة ومجوسيَّة ودهريَّة وكتابيَّة اي متنصرين او متهودين مستغرقين في الضلال الذي عم جميع اطراف الارض في ذلك العصر بحيث لم يكن بها من يعبد الله على حق الّا عدد من افراد مخصوصين * وبينما كان اهل الارض في ذلك الظلام الحالك واذا بنور الله قد سطع وكشف عن البصائر الحجب ببعثه رسول الله سيدنا ومولانا محمَّد صفوة بني هاشم سادة العرب فانقلب الكون حينئذٍ الى طور آخر في سائر الاحوال المتعلقة بالدين والدنيا وظهر في العالم عصر جديد عمَّ اعتدالهُ واستقامتهُ اغلب المعمور من الارض في سنين قليلة والكلام على تفاصيل زمن البعثة وما سبقهُ وما لحقهُ من مكملات

دعائم الدين الاسلامي قد بسط ووفر في مجلدات عظيمة من كتب السير والتاريخ لا تمكن الاحاطة بها هنا وشهرتها غنية عن البيان وانما الذي ينبغي التنبيه عليهِ هنا لمن لم يكن خبيرًا هو ان تاريخ ذلك العصر اعني عصر البعثة وعصر الخلفاء الراشدين يلزم فيهِ من القيود ما لا يلزم في غيرهِ من التواريخ وهو صحة السند واتصالهِ بحيث يصح ان يكون معتمدًا لانبناء الاحكام الشرعيَّة عليهِ * لان جميع حركات وسكنات رسول الله صلى الله عليهِ وسلم تشريعيَّة للامة الأَّ ما قام الدليل على اختصاصهِ بهِ عليهِ الصلاة والسلام وهكذا اعمال خلفائهِ الراشدين من بعدهِ ومن المقرر في كتب الاصول ان الادلة الشرعيَّة لا تثبت بمجرد النقل بل لا بد ان يكون النقل على الوجه المعتبر وهو روايتهُ اي الدليل بالتواتر او الشهرة او الافراد على ما هو مبسوط في كل منها وبهذا يتبين غلط من يزعم ان الامام ابا حنيفة رضي الله عنهُ كان غير عالم بالسير الذي هو تاريخ سيرة رسول الله سيدنا مُحَمَّد صلى الله عليهِ وسلم وعلى آلهِ وكذلك سيرة خلفائهِ الراشدين من بعدهِ وهم سيدنا ابو بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علي وسيدنا الحسن وسيدنا الحسين رضي الله عنهم لان كل ذلك يتوقف عليهِ كثير من مسائل الاجتهاد كمعرفة الناسخ والمنسوخ من الاقوال والافعال وكذلك نفس الادلة التي يستند اليها المجتهد فمن تمشدق بحكايات عن ابي يوسف او مُحَمَّد فيما سلمهُ امامهم ابو حنيفة رضي الله عنهم اجمعين ليس هو الأَّ جهول بمقام الاجتهاد وبمعاني الكلام وارتباط العلوم ببعضها ولا غرابة حينئذٍ في فحش غلط وكذب مؤرخي غير المسلمين فيما ينسبونهُ بهتانًا الى النبي صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وسلم في بعض سيرهِ وصفاتهِ لانهم يظنون ان تاريخ ذلك العصر خصوصًا ما يتعلق بالنبي صلى الله عليهِ وسلم هو مثل سائر التواريخ التي تتوقف على مجرد الرواية مع عدم المانع العقلي وقد عرفت ان الامر عندنا ليس كذلك بل هو مشروط بما ذكرناهُ فلا يغتر مسلم بما يذكرهُ الافرنج الآن في تواريخهم في هذا الموضوع ونتبه على الخصوص ابناء أوطاننا المعجبين بأحوال الافرنج على الاطلاق لانكبابهم على تعاليمهم وعدم فتح بصائرهم في حقائق معارف المسلمين حتى جرهم ذلك الى استحسان طريقة التاريخ عند الافرنج مطلقًا مع انها في نفس الامر ليست مطابقة للواقع في الموضوع الذي ذكرناهُ ثم ان هاتهِ الطبقة من العرب لما كتب الله لها ان تسود على الارض ويعم حكمها فيها في الطول والعرض وأنجز لها وعدهُ في اقرب مدة بحيث انها في خلافة سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنهُ المتوفى سنة ٢٧ هجرية امتدَّ حكمها من جبال

القوقاز الى المحيط الغربي جهة اسبانيا ومراكش وكان ذلك احدى معجزاتهِ عليهِ الصلاة والسلام حيث قال (وزويت لي الارض فأوريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي مقدار ما زوي لي منها) فكان الامر كذلك ولم يتوغل ملك الامة في الجنوب وفي الشمال مثل ما توغل في المشرق والمغرب كما قالهُ حجة الاسلام الغزالي في الاحياء وسبب ذلك والله اعلم أن العمران في الارض كان في ذلك التاريخ غير معتبر في جهتي الجنوب والشمال وانما مناخ الامم ومقام اغلب الخلق في جهتي الشرق والغرب وكان الوجه في الاتيان بلفظ المشارق والمغارب بصيغة الجمع هو الاشارة اما الى المشارق بالنسبة للعرض اي تعددها نظرًا لاختلاف الفصول او بالنظر الى الطول اي مشارق اهل الارض فان كل جهة من الارض شرقيها مسكون الى نهاية المحيط الشرقي بالنسبة لنصف الكرة الذي هو القسم المعمور والمعروف اذ ذاك وهكذا الغرب فيكون في الحديث على الوجه الثاني اشارة الى عدم تملك المسلمين في امريكا كما هو واقع بالفعل لانها ليست بمشرق ولا بمغرب لاحد سكان هذا القسم اعني القسم المشتمل على آسيا وافريقيا وأوروبا لان بعد قارة امريكا من هاتهِ القارة جعل مشرق شطوط قارّاتنا ومغربها هو البحر فبسبب امتداد ملك هاتهِ الطبقة الى ذلك الحد وانتقال القبائل الى تلك الاصقاع المفتوحة واختلاطهم بأممها ورجوع تلك الامم ايضاً الى مركز الحكم وتخهِ وتحت الديانة ايضاً لانهم دخلوا فيها افواجاً * فبسبب ذلك كلهِ حدثت الطبقة الثالثة من العرب وهي العرب المستعربة اي الذين تعربوا وان لم يكونوا في الاصل عرباً وامتدّت هاتهِ الطبقة الى نهاية دولة العرب في الصورة والمعنى اعني إلَى حدود المائة الثالثة التي تقلص فيها ظل دولة جنسيّة العرب وان بقي فيهم الملك لكن عصبتهُ وانصارهُ والقائمون بهِ والذين امر الدولة في أيديهم حقيقة هم الاعجام من الترك والموالي الذين اتخذهم بنو العباس بطانة لهم فتغلبوا على الاطراف وعلى نفس الخليفة تارةً مع شدة في الاستيلاء وتارةً مع ضعف الى ان اندثر ملك الخلفاء بالمرة بواقعة هلاكو خان على بغداد التي بها انقرضت دولة بني العباس وان عادت اسماً بلا مسمًّى بعد مدة قليلة من السنين بظهور احد ذريّة بني العباس في مصر واكرامهم لهُ بالبيعة الصوريّة وتسميتهِ بالخليفة ثم يحجرون عليهِ في قصرهِ الرحيب بحيث لا يكون لهُ من الامر شيء ويكتب كتاباً يشهد فيهِ على نفسهِ انهُ فوّض الامر الى ذلك السلطان الذي ولاهُ ويبقى ممتعاً في لذاتهِ التي يتفضل بها عليهِ حسن ظن من سلاطين ذلك الزمان بمصر حتى اعتقدت العامة ان وجود الخليفة

موقوف على شرط النسب العباسي وحده فأزاحت هاته البدعة الدولة العثمانية عند استيلائها على مصر سنة ٩٢٢ هجرية بفتوى العلماء

ومن تاريخ انحصار دولة العرب اي بني العباس في مملكة العراق وخروج الحجاز عنها غالباً الى بيعة من هو بمصر حدثت الطبقة الرابعة وهي العرب المخضرمون الذين هم سكان جزيرة العرب الى الآن فانهم وان كان اكثرهم قبائل عربية النسب اصالة لكن لغتهم قد خرجت عن اصلها وكذلك طبائعهم وعاداتهم لتقليدهم الامم المتغلبين على الدولة التي هي اكثر نفوذاً في ممالك الاسلام فهم وان كانوا عرباً من جهة الانساب لكنهم غير عرب من جهة اللغة والطبائع وبعض الاختلاط في الانساب ولذلك اطلق عليهم اسم المخضرمين وقد أدانا الكلام على اجمال اوصاف الطبقات الاربعة من العرب الى التكلم عن شيء من حالة التاريخ الجديد للحجاز لكي ينسجم تعريف تلك الطبقات على وتيرة واحدة ثم نعود الآن الى ديدننا في التكلم على التاريخ فنقول ان انتهاء التاريخ القديم للعرب كان بظهور الاسلام

فصل

في التاريخ الجديد للحجاز

اعلم انهُ ببعثة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم خلاصة العرب وسيد الامم قد حدث تاريخ جديد في سائر العالم لا في الحجاز فقط الذي هو مطلع نورهِ عليهِ الصلاة والسلام وذلك لعموم رسالتهِ صلى الله عليهِ وسلم فانهُ ولد عام الفيل الذي كانت تؤرخ بهِ العرب وهو العام الذي قدم فيهِ ملك الحبشة للاستيلاء على مكة ومعهُ فيلة للحرب فولي كبيرها على عساكرهم وانهزمت الحبشة بدون حرب وكان ذلك من الارهاصات الدالة على البعثة وذلك العام قبل الهجرة بسنة ٥٣ ويوافق ذلك سنة ٥٦٩ ميلادية وقد كان والد النبي صلى الله عليهِ وسلم قد توفي قبيل ولادتهِ فكفلهُ جدهُ عبد المطلب وارضعتهُ اخوالهُ بنو النجار في المدينة ثم نشأ صلى الله عليهِ وسلم على كمال الاخلاق واشرفها سجية فطر عليها من غير تعليم ولا تأديب حتى انهُ كان امياً لا يقرأ ولا يكتب على ما هو الغالب في الامة اذ ذاك وكفلهُ عمهُ ابو طالب بعد وفاة جدهِ فلما استكملت شبوبيتهُ تعاطى التجارة

على وجه المضاربة وهي ان يكون المال لانسان والعمل على الآخر والمال الذي اتجر بهِ كان لخديجة بنت خويلد احد اعاظم قريش واغنيائها فسافر الى الشام ورجع بربح فاق على انظارهِ ثم تزوج السيدة خديجة وقد رغبت فيهِ لعلو نسبهِ حيث كان صفوة بني المطلب وبني هاشم سادات العرب كما تقدَّم ولكمال حسبهِ لما رأت من جزيل الارباح في تجارتهِ مع ما هو عليهِ من استجماع كافة مكارم الاخلاق ووفرة العقل والجلالة والمهابة حتى كانت قريش يدعونهُ الامين وينقادون لاشارتهِ وامرهِ حتى انهم لما اختلفوا عند تجديدهم بناء الكعبة فيمن يبني الحجر الاسود وهم بالمسجد الحرام وتراضوا على تحكيم اول داخل فكان هو النبي صلى الله عليهِ وسلم فقالوا جميعاً رضينا هو الامين

ومن كمال تدبيرهِ ارضى جميعهم في ذلك حيث اخذ ثوباً ووضع فيهِ الحجر الاسود ثم قال لهم لترفع كل طائفة من احدى جهاتهِ فرفعوهُ جميعاً حتى اذا بلغوا بهِ محلهُ وضعهُ فيهِ هو عليهِ الصلاة والسلام وهكذا عرف بين الجميع بالصدق والوفاء والنزاهة عن كل نقيصة فلما بلغ الاربعين من عمرهِ بعثهُ الله رسولاً بنزول الوحي عليهِ صلى الله عليهِ وسلم مع الملك واقام بعد ذلك بمكة ثلاثة عشر سنة يدعو فيها الناس للايمان بما انزل عليهِ من القرآن واقامة الدليل والبرهان واظهار المعجزات الخارقات للعادات من الاخبار بالمغيبات الماضية لحوادث الامم الماضية مما اختلفت فيهِ اخبار اهل الكتاب فجاءهم فيهِ بما يوافق الحق والعقل وان خالف اقوالهم جميعاً وكذلك المغيبات الحاليَّة كالاخبار عن بيت المقدس وتوصيفها توصيف معاين لها مع انهُ لم يرَها قط الأ في الاسراء الذي هو معجزة لهُ عليهِ وآلهِ الصلاة والسلام وكذلك المغيبات المستقبلة كغلب الروم من الفرس وعود الكرة لهم وانتصار المؤمنين وعزتهم وامتلاكهم مشارق الارض ومغاربها مما جاء كلهُ على نحو ما قال وهكذا اجابة دعواتهِ وغير ذلك من المعجزات واعظم بمعجزة انشقاق القمر التي بينَّا ثبوتها القطعي في الكلام على مصر وفوق ذلك كلهِ معجزة القرآن الذي هو من جنس كلامهم ومن النوع الذي فيهِ مجال تفاخرهم واعتنائهم فاذا هو يومياً يقصص عليهم القصص ويقيم البراهين على الايمان ويوعظ ويرغب ويرهب باساليب شتى ويدعوهم الى المعارضة باتيانهم بمثلهِ ويناديعليهم بالتعجيز مما يزيد في حماستهم في المعارضة ولم يأتوه واحد منهم بشيءٍ حتى لجأوا الى انهُ سحر وغير ذلك من اعذار المعاندين العاجزين كقولهم انهُ تعاليم نسطور الرومي مما ردهُ عليهم القرآن الكريم حيث قال لسان الذي يلحدون اليهِ اعجمي وهذا لسان عربي مبين (الآية) فقد اخطأوا وافتروا ولم يفقهوا ان مناط المعجزة هو اللسان

العربي وهو محل مناداتهم الى المعارضة وذلك لا يتأتى فيهِ قولهم لان لسان من زعموهُ عجمي وليس هو موضوع التعجيز وهذا كافٍ في دحض اصل الدعوى من كون نسطور لم تكن بينهُ وبين النبي صلى الله عليهِ وسلم علقة ولا مواصلة وغاية الامر ان النبي صلى الله عليهِ وسلم قد رآهُ اثنان من الرهبان قبل النبوّة وآمنا بهِ حتى عدهم البعض من الصحابة على قول من يرى الصحبة تثبت بالرؤية مع الايمان ولو قبل البعثة وهذان الراهبان اولهما يسمى بحيرا او جرجيس رآهُ صلى الله عليهِ وسلم عند اول سفرة لهُ صلى الله عليهِ وسلم مع عمهِ ابو طالب الى الشام وهو ابن اثنتي عشر سنة وكان الراهب في صومعة لهُ ينزل حولها الركبان فلما رأى النبي صلى الله عليهِ وسلم ورأى بعض العلامات التي استدل عليهِ بها قرب من النبي صلى الله عليهِ وسلم وتفحص جسمهُ فرأى الخاتم وتعرف اخبارهُ من رفقائهِ ثم تلطف الى عمهِ حتى رجعهُ الى بلدهِ خوفاً عليهِ من اليهود واخبر عمهُ ورفقاءهُ بما يكون لهُ من الشأن والامر (وثاني) الراهبين هو نسطور الراهب رآهُ ايضاً قبل البعثة وعند سفرهِ للتجارة الى الشام ومعهُ ميسرة غلام خديجة زوجتهِ فلما رآهُ من الصومعة ايضاً تعرَّف خبرهُ من الرفقاء واخبرهم بما يكون لهُ من الشأن ايضاً ولا يعلم ولا ينقل عن احد لا في الثقات ولا في الموضوعات انهُ اجتمع بغيرهما في غير ذلك الموطنين الاّ ما روي بضعف من انهُ صلى الله عليهِ وسلم سافر وهو ابن عشرين سنة الى تجارة ايضاً بالشام وفي صحبتهِ ابو بكر الصديق رضي الله عنهُ وان نسطورا اجتمع بهِ اذ ذاك ايضاً وحذرهُ ورغبهُ في الرجوع عن الشام خوفاً عليهِ من الروم فارسل معهُ ابو بكر رضي الله عنهُ غلامهُ مصاحباً في الرجوع وهاتهِ الرواية على ما فيها من الضعف ليس فيها شيء زائد عما في الروايتين السابقتين بالنسبة لامر الراهبين فيا ليت شعري من اين افترى بعض المتشدقين من الافرنج المدعين معرفة التواريخ بان النبي صلى الله عليهِ وسلم كانت لهُ مودة مع ذلك الراهب وهو بحيرا وينصحهُ بالنصائح وقد علمت مما مرَّ سابقاً ما يشترط في حالة تواريخ ذلك العصر ثم ان النبي صلى الله عليهِ وسلم قد امرهُ الله بالهجرة الى المدينة التي قدر ان تكون هي مظهر اصلاح هذا العالم الارضي ونجاة اهلهِ في الآخرة وكان اذ ذاك قد فشا خبر الاسلام والبعثة فتلقاهُ الانصار اهل المدينة بالبيعة والطاعة وانثالت عليهِ القبائل بالايمان واستعد اذ ذاك لاجراء امر الله واحكامهِ على من عاندوا بعد اقامة البرهان والحجة وتمم ابعد وعدهِ لرسولهِ وللمؤمنين ففتحت مكة وآمنت في اثرها جميع قبائل جزيرة العرب ولم يزل الدين ينتشر الى ان عمَّ البسيطة في نحو نصف قرن ثم ان تاريخ

الحجاز لما كان من ذلك الوقت هو تاريخ الامة الاسلاميّة الى انتقال الخلافة منهُ في خلافة سيدنا علي ثم عودها اليهِ في خلافة سيدنا الحسن رضي الله عنهم جميعاً ثم خروجها منهُ من ابتداء خلافة سيدنا معاوية والكلام على ذلك كله مبسوط في جميع التواريخ الاسلاميّة فلا ثمرة في ذكرنا لازيد مما ذكرناهُ هنا طبقاً لقاعدتنا وانما نقول ان الخلافة لما انتقلت عن الحجاز صار على كلٍّ من مكة والمدينة والٍ مخصوص غير ان والي مكة قد تعين من وقت الفتح واول والٍ بها هو عتاب بن اسيد وُلي سنة ثمان عند الفتح وولي ايضاً على اقامة الموسم والحج ثم ان بني اميّة كانوا لا يولون على المدينة الاَّ اقرب الناس وآمنهم لديهم واستمرَّ الامر على ذلك الى حدود سنة ٢٥١ التي استقلت فيها عائلة ساداتنا الاشراف بني الاخيضر وبقيت بايديهم الى ان غلب عليهم القرامطة سنة ثلاثمائة وسبعة عشر وهولاء القرامطة قوم ظهروا باليمن مظهرين الاسلام والتمسك بالسنة وهم اشد كفراً ونفاقاً من المنافقين فادخلوا في الدين الدسائس ووضعوا الاحاديث وفعلوا من المناكر ما لهُ خبر مأثور حتى استولوا على مكة والمدينة وخربوا الكعبة وقلعوا الحجر الاسود من موضعهِ الى ان رجعهُ بعد ذلك عمال بني العباس الذين طهر الله بايديهم الحرمين من اولئك القرامطة ثم استقلَّ بالحرمين ايضاً السادة الاشراف بنو سلمان بن داود بن الحسن المثنى وبقي الملك بأيديهم الى سنة اربعمائة واثنين وخمسين فاستقلَّ بملك الحجاز الهواشم الذين هم العائلة المستولية الى الآن من ساداتنا الاشراف واولهم سيدنا المولى الشريف ابو هاشم مُحمَّد العلوي المستولي في السنة المذكورة والمتوفي سنة ٤٨٧ وبقيت في بنيهِ الى الآن فانهم كانوا من ذلك التاريخ مستقلين بالامر والنهي والنصب والعزل وسائر الادارة الداخليّة الاَّ انهم يدلون بالبيعة ظاهراً الى الخلفاء العباسيين والسلاطين الذين تغلبوا عليهم ببغداد الى انقراض دولتهم فادلوا بالبيعة الى سلاطين مصر وانما كان الحال يختلف عندهم فتارة تنفرد مكة والمدينة باميرٍ واحد منهم وتارة تستقل كلٌّ منهما باميرٍ الى ان فتح السلطان سليم الاول مصر واقام بها مدة فاستقبلهُ في الطريق وهو راجع الى الاستانة الشريف المقدس ابو نمي ابن الشريف بركات فبايعهُ نيابةً عن ابيهِ وقلدهُ السلطان حالاً امارة الحجاز كلهِ بمشاركة لابيهِ في حياتهِ واستقلالهِ بعد مماتهِ ولم تزل ولله الحمد هاتهِ العائلة الكريمة الشريفة هي الحاكمة على الحجاز الى الآن وذاك اعظم دليل على ثبوت نسبها لانها من عهد استقلالها الذي هو كبد القرن الخامس وتوفر حالة معرفة الانساب من الدولة العباسيّة التي لم تزل الى ذلك التاريخ لها صولة وشوكة خصوصاً فيما يعود لامر النسب الذي

يخشى منهُ حتى السلاطين المتغلبين عليهم لانهم يخشون من خروج الخلافة الى غير العباسيين الذين هم من شيعتهم واخضعوا الناس باسمهم ان يتلاشى امرهم بتلاشي متبوعهم فلم يقروا لهم بالنسب ويرضوهم بالسكوت عن الحجاز الاَّ لما يعلمون من حقيقة نسبهم وثبوتهِ عند الخاص والعام وهكذا بقيت هاتهِ العائلة بارك الله لنا وللمسلمين فيها حاكمة على منبع البعثة أقرَّ الله اعيننا والمسلمين بوجودهم والقيام بسنة الحق لابائهم وجدودهم والامير الحالي هو مولانا الهمام الشهم عون الرفيق ابن مولانا المقدس المبرور سيدنا مُحَمَّد بن عون صلوات الله وسلامهُ على جدهم رسولهِ وعليهم وعلى جميع آلهم

مطلب في السياسة الداخليَّة للحجاز

اعلم ان مدار الادارة كلها جليلها وحقيرها كلياتها وجزئياتها قد كان سابقاً مناطهُ هو الامير السيد الشريف وكانت على حسب اصول المراسم الشرعيَّة المتعارفة من قديم مثل تفويض الاحكام الشخصيَّة الى القاضي والمفتي وانفراد الامير بالجلوس الى رفع المظالم واجراء بقيَّة الادارة واستمر على ذلك بعد الخضوع للدولة العليَّة ايضاً قسماً مديداً من الزمن حتى في امر القوة الحربيَّة فقد كان للامير عساكر خاصون بامارتهِ ليقيم بهم ما تستدعيهِ القوة وقد بقي الى الآن شيءٌ من ذلك حيث ان للامير نحو الحراس او العساكر الخاصة لا يبلغ عددهم المائتين وعند ما بدى للدولة العليَّة الاحتراس من امر الولاة مدة السلطان محمود الثاني في اواسط القرن الثالث عشر لكثرة مخالفة ولاة الاطراف على ما سيأتي بيانهُ في محلهِ حصل ذلك التغيير ايضاً في الحجاز لكنهُ بأمر هين وهو جعل القوة العسكريَّة الكبرى خاصة بالدولة العليَّة بان ترسل هي من تحتها عساكر يقيمون هناك وتزيد قوتهم وتقللها على قدر الحاجة ورئيسهم من طرف الدولة ايضاً ليس بملزوم لامتثال امر الامير فيما يراهُ من معاقبة بعض القبائل بل هو على حسب ما يظهر لهُ في الواقعة وعند مخالفتهِ في الرأي للامير يخبران الدولة معاً لتأمر بما تراهُ وكذلك امر العاشر اي الكمرك في المراسي البحريَّة استبدَّت بهِ الدولة وحدها بمأمورين ترسلهم من طرفها ونشأ عن ذلك في اول الامر قلاقل ومحاربات افضت الى ابدال الامير بغيرهِ من فروع عائلتهِ الكريمة ولم يزل يزداد تداخل الدولة في التصرفات الداخليَّة الى ان جعلت والياً على الحجاز من احد كبار رجال دولتها مثل بقيَّة ولاياتها مع بقاء سيادة الامير على منصبهِ واعتبار نفوذ وامرهِ

على الاطلاق ولا يخفى ما في وجود آمرين على مأمور واحد في زمن واحد من الاضطراب ونشأ ايضاً عن ذلك الاحتراس ان الدولة صارت تستدعي من يلي سيادة الامير في السن من عائلتهِ ليبقى بتخت السلطنة ويتخلق بأخلاق الدولة ويتعرف سياستها الداخلية والخارجيَّة لانهُ هو وليُّ عهد الامير فاذا آلت لهُ الولاية كان عالماً بأحوال الدولة التي هو خاضع لها وتقلدهُ الدولة مدة اقامتهِ بتخت السلطنة رتبة الوزارة والمشيريَّة وتجعلهُ عضوًا بمجلس شورى الدولة الذي يرجع اليهِ غالب التدبير في اغلب مصالح الدولة الداخليَّة هكذا ظاهر الحال ونعم المسلك لو يكون هو الامير والوالي بحيث تحدد لهُ الدولة تصرفاتهُ على نحو بقيَّة ولاتها غير انهُ ينفرد بكونهِ ممتازًا بعدم خروج الامارة عنهُ وعن عائلتهِ وبكون الادارة في امارتهِ تجري على طبق الشريعة المطهرة مع غاية الاحتراس عن البدع التي لا داعي لشيء منها هناك لكنهم اقتصروا على خصوص الفائدة في ابقاء ولي العهد بالتخت لمآرب للدولة ربما احتاجت اليها مع سيادة الامير نسأل الله التوفيق

والجاري الآن هو ان يختص سيادة الامير بالامر والنهي والولاية والعزل في جميع قبائل الاعراب وكذلك الوظائف المتعلقة بالبيت الحرام من امامة وخطابة وغيرها الاَّ انهُ ينهي الى الدولة ما يراهُ في كبارها لتصدر الاوامر السلطانيَّة على حسب ما ينهيهِ وعلى نحو من ذلك الوظائف الدينيَّة بخصوص مكة كالفتوى في المذاهب ونقابة الاشراف وما شاكلها واما القاضي فانهُ يرسل الى مكة قاضٍ والى المدينة المنوَّرة قاضٍ من تخت السلطنة على نحو بقيَّة ولاياتها وكذلك بقيَّة الولايات العرفيَّة كلها تتصرف فيها الدولة والحاصل ان الذي استقرَّ عليهِ الحال الآن هو اختصاص الامير بأمر قبائل الاعراب ما لم يستدعِ الحال محاربتهم وبعض الوظائف في خصوص مكة مما مرجعهُ الديانة كائمة الصلاة في البيت الحرام من المذاهب الاربعة وهم وان كانوا اربعة الآن لكنهم لم يقع استقرارهم هكذا في زمن واحد بل كان الامر اولاً امام واحد شافعي ثم زيد ثانٍ من المذهب الحنفي ثم آخر من الحنبلي ثم آخر من المالكي في ازمان متباعدة بحسب المناسبات في اتباع ذلك المذهب ونفوذهم لدى الدولة الحاكمة وهكذا الامر في ائمة المسجد النبوي على صاحبهِ اكمل الصلاة والسلام وعلى آلهِ فان الامام المالكي لم ينصب الاَّ في عشرة التسعين من القرن الثالث عشر

واما بقيَّة مدن الحجاز التي هي المدينة المنوَّرة وجدَّة فاما المدينة المنورة ففيها محافظ وهو كبير العساكر وشيخ الحرم النبوي على صاحبهِ اكمل الصلاة والسلام وقاضٍ

وكلهم يأتون من تخت السلطنة وفيها مفتٍ وائمة وخطباء وامين الخزنة مع وظائف أُخر صغيرة وهؤلاء المتوظفون سيما اصحاب الادارة والحكم تابعون لوالي الحجاز مع بعض امتياز لهم في مخاطبتهم للدولة رأساً

واما جدَّة فمتوظفوها مثل متوظفي بقيَّة مدن المملكة العثمانيَّة ما عدا المجالس الحكميَّة القانونيَّة لان الاحكام سيأتي بيانها وانها على خلاف بقيَّة الممالك العثمانيَّة اذ لا مجالس عرفيَّة بها فاجمال الحال ان الادارة السياسيَّة مرجعها هو سيادة الامير مع الوالي اللذان يرجعان جميعاً الى ما تراهُ الدولة العثمانيَّة

وكليات الادارة الآن هناك ليس فيها مكوس ولاضرائب ما عدا الكمرك على الواردات البحريَّة وبعض اعشار على النخيل في القبائل الخاضعة حقيقة وكل هولاء القبائل لا يدفعون شيئاً الى الحكومة ولا الى الامير بل ان خضوعهم الذي ذكرناهُ الى سيادة الامير في الحقيقة هو ظاهري فقط وانما يختلف الحال فيها بحسب الزمان وشدة الطغيان في الانقياد وعدمهِ وبعض الجهلة ينسبون ذلك الى ارادة بعض الامراء من العائلة الشريفة معللين ذلك لان بقاءهم في الامارة انما هو لاخضاعهم تلك القبائل فهم لا يريدون ان يكسروا شوكة القبائل بالمرة حتى تجري فيهم الاحكام مثل غيرهم ويدخلون تحت قياد المذلة اذ ربما استغنت اذ ذاك الدولة عن الامراء الاشراف والحق ليس كذلك فان بعض هولاء الامراء قد اخضعوا جميع القبائل الى الاحكام حقيقة منذ عهد ليس ببعيد زمن السلطان عبد المجيد وولاية المولى المقدس الامير الشريف عبدالله بن عون عند ما ساعدتهُ الدولة وعملت برأيهِ وامدتهُ بالعساكر مثل ما اراد والباعث الحقيقي على اهمالهم هو عدم مساعدة الدولة للامراء على اخضاعهم متعللاً رجالها في الظاهر باحترام هاتيك البقاع الكريمة ومراعاة مجاوريها وسلاطين آل عثمان احترامهم وتعظيمهم لشعائر الدين وتوقيرهِ شنشنة معروفة قديماً وحديثاً ولذلك يوافقون على مثل تلك النصيحة على انها ربما كان باطنها غير ذلك وهو عدم استفادة اولئك الرجال من انقياد تلك القبائل لانهم وان خضعوا حق الخضوع فلا مساغ لضرب شيء من الضرائب عليهم لا سرًّا ولا جهرًا فتكون فائدة خضوعهم راجعة لسيادة الامير وحدهُ من نفاذ احكامهِ واوامرهِ فيها فيظهر اولئك الرجال النصيحة الى السلاطين على نحو ما قدمناهُ مع ان اخضاعهم واجب شرعاً لأمن السبل وحفظ الحجاج من التعدي واقبال تلك القبائل على عمران اراضيهم لانهم الآن زيادة عن عدم دفعهم للدولة ولا للامير حتى اعشار ابلهم فهم يأخذون من الدولة

اموالاً في كل سنة بمجرد محافظتهم على امن السبل ولا يؤخذ منهم شيء من المال قل او جل غير انهُ قد كان في اواسط القرن الثالث عشر رجل من قبيلة حرب يسمى الشيخ سعد قد تقوى بدهائهِ على اتحاد جميع قبيلتهِ وعظمت شوكتهُ بانقياد غيرهم من القبائل ايضاً ولم يخضع الى الحكومة قط الاَّ انهُ اذا اخذ المرتبات التي اشرنا اليها امن طريق الحاج الى المدينة وعند ما تسافر القوافل اليها يعد جمال كل قافلة ويأخذ على كل جمل نصف ريال اي اثنين فرنك ونصف ضريبة منهُ على اصحاب الابل وبعد موتهِ وخضوع ابنهِ وانقياد القبائل نوعاً ما ابقت تلك الضريبة على اصحاب الابل عند ما يكترونها الى الحجاج وليس للدولة غير ما مرَّ ذكرهُ من انواع المداخيل الاَّ انواع من الضرائب الخفيَّة اكثرها يستفيدهُ افراد من المتوظفين لانفسهم مما يؤخذ على الحجَّاج بأسماء سموها كضريبة على تنظيف منى في العيد من الضحايا وغيرها مما لا يصرخ منهُ في الحقيقة الاَّ نزر يسير في الجهات التي يذكرون الصرف لاجلها وكل المصاريف اللازمة لكلّ من الحرمين سواء كانت الوظائف الدينيَّة او السياسيَّة او شعائر المسجدين او اقامة المواسم كلهُ تصرفهُ الدولة من خزانتها وهو مقدار يبلغ نحو مليونين ونصف فرنك لان الاقامة بخصوص شعائر المسجدين الشريفين مبالغ في اقامتها ولا اقول على حسب الاستحقاق لان حقهما لا يبلغ اليه ولو يبذل النفس والنفيس . ومن المعلوم ان الشريعة المطهرة كان منبعها تلك الاماكن المكرمة وقد اجريت فيها الشريعة حق الاجراء واستقر الامن في سائر جزيرة العرب وكانت القبائل تؤدي الى بيت المال الاسلامي ما اوجبهُ الشرع على كل مسلم فكيف يغير ذلك الآن حتى يتجروا على ابدال حرم الله بعد الامن بالخيفة والاتيان بما يسود منهُ الوجه يوم القيامة وتثقل بهِ في الذنوب الصحيفة مع ان حملها على الاستقامة امر سهل يسير

وما اجدر هاتيك الاماكن الشريفة بالمحافظة فيها على ادارة تحافظ على السنة واعمال الخلفاء الراشدين الذي هو الامر الوحيد في جلب قلوب سائر المؤمنين الى الدولة التي تجري ذلك فضلاً عن خصوص اهالي الحجاز ولا ريب ان ذلك يرسخ قدم الدولة وتستغني عن الاحتراسات الناشئة عن الدسائس في رمي بعض ذوي الامر بمعاضدة بعض الدول الاجنبيَّة لتطلب الخلافة او الاستقلال نسأل الله اصلاح الحال

مطلب في السياسة الخارجيَّة

اعلم ان الحجاز مرتاح ولله الحمد من امر السياسات الخارجيَّة اذ ليس في دواخلهِ ومدنهِ ما عدى جده وينبع اجانب ولا يدخلهُ الاَّ المسلمون وليس لواحد الادعا بحماية احدى الدول الاجنبيَّة وكل من دخل فهو خاضع لاحكام البلاد ولا ريب ان المسلمين يحجون في كل عام من جميع آفاق الارض وعلى الكثير منهم استيلاء الدول الاجنبيَّة التي يبلغ عددها في هذا الوقت الى ثلاثة عشرة دولة منها القوي ومنها الضعيف ومنها المنصف ومنها المعتسف ومع ذلك كلهِ ليس لهم ادنى تداخل او تكلم فيما يتعلق برعاياهم المسلمين هناك والله يديم سترهُ الجميل نعم ان جده يوجد بها قناصل كثيرون للدول الاجنبيَّة الذين لهم عناية او علقة بالمشرق ولهم تجار افرنج في تلك المرسى وكذلك بعض الدول الاجنبيَّة الذين ليس لهم هناك شيء يذكر تجد لكثير منهم قناصل يستولون تلك الوظيفة برغبة منهم للدولة الموظفة لمجرد الفخر لهم من غير داع ولا مرتب وعلى كل حال فسياسة اولئك القناصل متعلقة بالدولة العثمانيَّة اما بواسطة واليها هناك او بواسطة سفرائهم في تخت السلطنة فالسياسة الخارجيَّة حينئذٍ في خصوص جده تابعة لسياسة الدولة العثمانيَّة التي سيأتي الكلام عليها في محلهِ ان شاء الله تعالى

مطلب في عوائد وصفات الاهالي

اعلم ان البلدين الاكرمين سكانهما الآن اغلبهم من غير العرب الاصليين فان المدينة لا يوجد بها الاَّ العائلة الشريفة حقيقة من العرب وقد كنت رأيت رجلاً واحدًا من ذريَّة العباسيين قيمًا في ضريح عمهم سيدنا حمزة ولم يبق من الانصار هناك الاَّ بقيَّة عائلة واحدة وبقيَّة سكانها كلهم من الآفاق واكثرهم مغاربة واما مكة فلا يوجد بها من العرب المحققين الاَّ عائلة السادة الاشراف وعائلة الشيبي والبقيَّة كلهم من الآفاق واكثرهم هنود ولا يخفى ان العوائد والصفات تغلب على السكان باعتبار اصلهم غير انهُ لا بدَّ ان تحدث فيهم تغيرات تناسب حالة السكان الاصليين فأخلاق هذين البلدين على الاجمال مناسبة لاخلاق العرب غير ان اهالي مكة تعتري اخلاقهم الحدة بخلاف اهالي المدينة فانهم لينو الاخلاق كرام الطباع ويغلب على الجميع الحشمة والحياء وسلامهم بالمصافحة او الاشارة باليد ويقفون لكل داخل ولو تكرر دخولهُ واهالي المدينة اشد حريَّة في الطباع

وعدم المذلة والتمكن في اخلاق الرجولية والجلد فيركبون الخيل ويسافرون الى الحج ركوباً على الهجين من غير تخوت مع السير الحثيث مع التمكن في معرفة الرماية والفروسية ولكل منهم سلاح مستوفر . واما الملاهي فلا يلتفتون اليها ولا وجود لها كما هو الواجب سيما في تلك الاماكن نعم قد وجد من بعض الوافدين تساهل وتجري على استعمال الخمر وآلات السماع سرًّا وكاد ان يكون من بعضهم جهريًا سيما من بعض اجلاف العساكر او المتوظفين الذين لا يخافون الله ومن المعلوم ان الفساد ملائم لطباع البشر فيسرع فيهِ التقليد لكنهم مع ذلك لا يزال الامر بحمد الله مستورًا فلا تجد المحارم متجاهرًا بها ولا ترى حانة لخمار او دارًا معينة للفسوق وان وجد شيءٌ فانما يكون في بيت صاحبهِ في الستر . وعلى قريب من هذا المنحى اهالي جدة . واما بقيَّة البلدان فهم على اخلاق بقيَّة السكان من قبائل العرب الذين لم تبقَ فيهم من الاخلاق العربيَّة التي قال فيها صلى الله عليهِ وسلم (بعثت لاتمم مكارم الاخلاق) الَّا القليل وعاد اليهم التفاخر بالتظالم وهجوم القوي على الضعيف فلا تجد الامن مستقرًّا الَّا قليلاً الَّا انهم بقي فيهم حفظ الذمار وتوقير الصغير إلى الكبير فاذا جعل الرجل من بيتوتاتهم يدهُ على ذقنهِ كناية عن حفظ ذمة المستجير بهِ فانهُ يوفي بعهدهِ ولو حملهُ ذلك على الحرب وهلاك فيها هو وقبيلتهُ هذا غاية ما يمكن ان يذكر لهم من الصفات الحميدة مع اكرام الضيف واطعام الطعام . واما بقيَّة الاخلاق السابقة العربيَّة فكادت ان لا يوجد منها شيءٌ كجودة القريحة والدهاء في الامور ومعرفة احوال العالم فمن عجيب ما شاهدتهُ من السذاجة في بعضهم وبلههِ ان كان احد الجمَّالين ماشياً بقرب منى في طريق المدينة المنوَّرة على صاحبها افضل الصلاة والسلام وعلى آلهِ وهو كهل يخاطب شابًا في حساب بينهما فقال لهُ الشاب سبعة وعشرون مع سبع كم هو فقال لهُ الكهل هيه فأعاد عليهِ السؤال فأجابهُ بالجواب الاول ثم اعادا ذلك ثالثًا ايضًا فقال حينئذ الشاب هي سبعة وعشرون فقال لهُ صاحبهُ هيه ايضًا وانفصلوا على ان ذلك هو الحساب وعلى ذلك فقس فلا تكاد تجد من عامتهم من يصلح للخطاب في البديهيَّات وانما لخواصهم بعض من الآداب التي يفقه بها الضروريَّات غير ان حفظ الحريم والبنات من صغرهنَّ فلهم فيهِ مبالغة كليَّة بحيث لا يمكن ان يرَ الرائي امرأة ولو معتجرة وما اصبر نسائهم على الجلد في التخدر فقد كان رئيس الجمَّالين في قافلتنا استصحب معهُ عيالهُ من مكة الى بلد الجديدة وكان مردفًا لها على جمل لهُ فكانت من ساعة ظهورها الى ساعة دخولها لبيتها التي هي مدة تنيف عن ستة ايام وهي ملتحفة

بعباءة ثخينة من الصوف سوداء لا يظهر منها مقدار ظفر ولو من اصابع رجليها فضلاً عن يديها او وجهها ليلاً ونهارًا لاتفارق حويَّة البعير وعلى هذا النمط النسوة في المدن فلم أرَ بالمدينة امرأة قط . واما مكة فكان بعض نسائها يخرجنَ لاداء مناسك الحج لكنهنَّ في غاية التستر بحيث لا يظهر منهنَّ شيءٌ وعادتهنَّ في الجميع ان لا يخرجنَ الاَّ ليلاً مع شدة التستر بالخمار والالحاف وان اضطررنَ للخروج نهارًا فلا يمررنَ بالاسواق ولا بالطرقات الكثيرة المرور وتوجد قبيلة تسكن في عوالي المدينة اي خارجها بقرب من فنائها يسمون النخاولة وهاتهِ القبيلة اصلها من قوم قد تفرقوا في آفاق الارض وهم في كل قطر مستقلون بأنفسهم لا يداخلون احدًا ولا يخالطون الناس الاَّ في ضرورة البيع والشراء ولهم في كل قطر لقب بحسب عرف اهلهِ فيقال لهم في بلاد الترك شنكانة وفي تونس جمازيَّة ويتبعون في كل جهة الصنائع الخسيسة مثل اصلاح اواني النحاس وصفائح الخيل وقد اتخذوا في جهة المدينة صناعة خسيسة ايضاً ويتمذهبون بمذهب الشيعة على دعواهم ويستحلون نكاح المتعة فاذا قدم بعض حجّاج الفرس ممن يرى مذهبهم يأوي الى بيوتهم لقضاء الوطر بنكاح المتعة وامرهم في ذلك شهير وليس عليهِ نكير والامر لله الذي اليهِ المصير

مطلب في التجارة بالحجاز

اعلم ان بلد جدة هي مرسى تجاريَّة عظيمة لانها مركز للبضائع الهنديَّة وغيرها من البضائع في الاقطار الشرقيَّة ومنها يرسل لبقيَّة الممالك الاسلاميَّة التي تجارها مسلمون وكذلك لكثير من البلاد الاورباوية كما ان البضائع الاورباويَّة والبضائع الغربيَّة من بلاد المسلمين وكذلك بلاد الترك ومصر والشام يؤْتى بها الى هناك وترسل الى الهند وغيرهِ من الاقطار الشرقيَّة فبذلك كانت جدة مرسى تجارية كبرى فضلاً عما يدخل منها الى جزيرة العرب على طريق البر سواء كان للحجاز او لغيرهِ من بقيَّة الاقطار ومركز تجارة جزيرة العرب هي مكة المشرفة فتأتيها البضائع من جدة وتوزع منها على القوافل الى سائر جهات جزيرة العرب الاَّ ما قرب من الجزيرة الى جهات اليمن التي بها مراسي تجاريَّة مثل الحديدة وقليل ما هي فكانت مكة حينئذٍ هي المعتبرة لتجارة العرب والتجار المعتبرون فيها اغلبهم هنود واما جدة فتجارها من اجناس مختلفة وفي اسواق كل من هذين البلدين تقاسيم حسنة تجعل لكل

صنف من التجار جهة مخصوصة وتجارتهم غنيَّة جدًّا واما المدينة المنورة فالتجارة فيها مقصورة على اهلها غالباً فيؤتى اليها بالبضائع المحتاج اليها فيها وتباع لاهلها والقبائل تحمل البضائع على قوافلهم الى مراكز القبائل والى جهات جزيرة العرب مع الامان على البضائع التي يحملونها فالقافلة لها رئيس يكون ذا ثروة ولهُ كفال اغنياء في الجهات التي يذهب اليها ويحمل منها فتسلم اليهِ البضائع والمكاتيب البريديَّة ويبلغها بامان الى اصحابها وان حصل ضياع لشيء منها ولو بتعدي بعض القبائل بالاغارة فكفلاؤهُ يؤدون لاصحاب البضائع جميع ما يضيع لهم ومن اهم انواع التجارة التجارة في المأكولات من الحبوب كالقمح والشعير وقد علمت ان البريد موكول الى هولاء القوافل التجاريَّة فامرهُ غير منتظم كما انهُ غير محتاج اليهِ في اغلب تلك الجهات غير انهُ يوجد بين مكة وجدة بريدًا منتظماً يوميًا صباحاً ومساء يحمل على الحمير السيَّارة فيصل في نحو تسع ساعات كما انهُ يوجد في مكة مركز للتلغراف اي السلك الكهربائي ويصل الى جدة ومنها يتصل بجميع العالم كما انهُ يوجد بريد منتظم في كل شهر مرة بين مكة والمدينة الآن يكون امرًا مستعجلاً فيرسل مع سيَّار مخصوص وهذا البريد كلهُ ما عدا اصحاب القوافل مرتب من الحكومة والمباشرون لهُ من قبائل الاعراب الساكنون في اماكن مرورهِ وفي كل سنة في موسم الحج تروج التجارة في مكة لان اغلب الحجاج يشترون منها البضائع التي لا تعلم في بلادهم مما على وجه التجارة فيها وهو القليل او على وجه الاهداء الى اقاربهم واحبائهم وكذلك تروج التجارة بالمدينة المنورة لان سكانها يأتيهم في ذلك الوقت واردهم المالي اما من اموالهم في بلدانهم او من الهدايا التي ترسل من الآفاق او من الاوقاف والارصادات المعينة لذلك في بعض الجهات وهاتهِ الجهات هي الدولة العثمانيَّة وهي الركن في ذلك لانها ترسل في كل عام للقيام بشعائر الحرمين الشريفين ولمرتبات المجاورين واهل الوظائف ما يبلغ مقدارهُ سنويًا نحو المائة الف ليرة اي مليونين ونصف فرنك وكذلك الحكومة المصريَّة ترسل كل عام احدى وعشرين الف اردب من القمح مع اموال عينًا يبلغ مقدار جميعها الى نحو العشرين الف ليرة اي نحو خمسمائة الف فرنك فضلاً عن قيامها بمدرستين كل منها في احدى الحرمين لها اوقاف مخصوصة بمصر يرسل منها قدر كفاية القائمين هناك في كل عام وكذلك القطر التونسي يرسل من اوقافهِ المعينة على الحرمين الفين ليرة في كل سنة لكل حرم الف اي خمسة وعشرين الف فرنك فاهالي المدينة اذا فرقت عليهم تلك الاموال يدفعون منها ما كان عليهم من ديون ترتبت عليهم في ضروريَّات اشتروها

نسيئة ثم يشترون كفايتهم للسنة القابلة اكلاً ولبساً وان فضل شيء بعد ذلك ادخروهُ لبقيَّة السنة فلذلك يحصل في ذلك الوقت رواج للتجارة وهذا بالنسبة لغير ذوي الثروة منهم اما هولاء فهم على نسق غيرهم من ذوي الثروة وكذلك بعض قبائل الاعراب المقيمين بين الحرمين لهم نصيب مما ترسلهُ الدولة والحكومة المصريَّة فيحصل منهم ايضاً رواج في التجارة بما يشترونهُ من ضروريَّاتهم والحاصل ان التجارة المعتبرة مركزها هو جدة ادامها الله بلد اسلام

مطلب في الصنائع

لا يخفى ان الصنائع شعبة من شعب التمدن فتتكاثر وتقل على حسب ما في المكان التي هي بهِ من التمدن وحيث تطاول زمن بعد الخلافة عن الحجاز وتكاثر بعد عهدها فيهِ الهرج وقل العمران وتغيرت طباع العرب السكان على حسب ما اشرنا اليهِ فلم يكن الآن بالحجاز الَّا الصنائع الضروريَّة وبعض الحاجيَّة فاما الفلاحة فكادت ان تنعدم الى ان صار اهل الحجاز عيال في قوتهم جميعهِ على ما يرد اليهم من خارج بلادهم الَّا ما ندر والمسافر في تلك الاقطار لا يرى من الزراعة الَّا نزر يسير حول بعض البلدان لا يسد من عوز مع ان عشر ما حول المدينة وحدها قد كان في خلافة سيدنا عمر يبلغ الى اربعمائة الف اردب من الشعير وحدهِ فضلاً عن بقيَّة الجهات ولو جمع الآن حاصل جميع ما بالحجاز لما بلغ الى عشر المعشار من ذلك المقدار وعلى نسبة من ذلك امر زراعة الاشجار فانهُ يوجد بالطائف بساتين بها كثير من انواع الشجر الليمون والرمان والعنب وغيرها من الفواكه المتعارفة كثيراً وغير هاتهِ البلد لا يوجد بها الَّا بعض شجيرات من تلك الانواع لا تستحق الذكر وان كان حول المدينة بعض من البساتين لكنها ليست على ما ينبغي الَّا النخيل فيوجد بها كثيراً كما يوجد بجهات اخرى حول المدن والقرى وفيهِ انواع كثيرة جداً من انواع التمر منها الحسن للغاية ومنها دون ذلك وفيهِ بعض تجارة سيما في موسم الحج لشراء الزائرين للتمر وحملهِ الى آفاقهم كل على قدر سعة حالهِ تبركاً بذلك واما البقول فكادت ان لا يوجد منها الَّا النادر كالبصل وما شاكلهُ من البقول المتعارفة الشهيرة وكذلك الازهار واما بقيَّة الصنائع فيوجد منها البناية والخياطة والتجارة وبعض صنائع اخرى من الحاجيات كالسروج وحوايا الابل وغيرها مما يحتاج

اليهِ اكيدًا من غير تحسين والسبب في هذا الانحطاط في كل من الفلاحة وبقيَّة الصنائع هو اعتماد السكان اعني اغلبهم على المرتبات والجرايات من الدولة والاوقاف وتعويل الاعراب على مثل ذلك ايضاً لان الدولة جاعلة للقبائل جرايات سنويَّة من مال وحبوب للقوت ليقوموا بحفظ امن الطرق ومن الطبيعي ميل الانفس الى ما يرد بلا تعب فصاروا حينئذٍ عيالاً على تلك الواردات ونشأ عن ذلك اعتساف الاعراب بقطعهم للطرق وتعديهم على قوافل الحجاج اذا تأخرعنهم ذلك المرتب او شيء منهُ حتى ان بعض المتوظفين الذين لهم يد في توزيع ذلك المال ربما تساهل في تنقيص شيء باولئك الاعراب من مرتباتهم فيثورون ويعثون في الارض بالفساد ونشا عن ذلك قلة الامن في جميع الجهات حتى ان المدينة المنوَّرة على صاحبها وآلهِ افضل الصلاة والسلام كثيرًا ما تبقى محصورة ويدافع عن اسوارها وابوابها من حصونها بالمدافع والطرق منقطعة عنها وتتضايق اهلها لقلة القوت والحبوب ويتطاول الاعراب على ما حولها من البساتين بالتخريب والافساد فاذا كان هذا حال المدينة فما بالك بغيرها الَّا القرى التي هي لنفس القبائل ممَّا لا يزرع حولهُ الَّا النخيل فلذلك ضعف الامن وقل العمران وجدبت الارض مع انها صالحة للزراعة وفيها عيون كثيرة احدثها المتقدمون في عصر الخلافة وما قرب منهُ وقد شاهدت في كل من بلدي الصفرا والجديدة عيناً غزيرة الماء عرضها ازيد من ذراع ونصف وعمقها ازيد من ثلاثة اذرع جارية في غاية العذوبة غير ان ماءها حارٌّ فاذا رفع في الاواني برد وصلح للشرب وهو صالح جدًّا للزراعة لكنهُ الآن ليس عليهِ الَّا بعض نخيلات وباقيهِ يسيح على الارض الى ان يغور فيها وقد ذكر في خلاصة الوفاء في اخبار دار المصطفى صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم عيونًا وآبارًا كثيرة على ذلك النحو لم يبقَ الآن منها منتفعًا بهِ سوى ما ذكرناهُ وكذلك الغابات والآجام التي بقرب المدينة وغيرها كلها ذات اشجار مثمرة وغير مثمرة صالحة لاخذ الاخشاب للبناء وهي الآن مهملة ولا ينتفع اهالي البلدان الَّا برقاب شجر النخل ممَّا حولهم وبقيَّة الخشب يؤتى بهِ اليهم من الهند وغيرهِ مع انهُ حولهم مبذول والمانع من الوصول اليهِ عدم الامن والجهل بكيفيَّة القطع هذا فضلاً عن الاراضي الخصبة الوسيعة الصالحة للزراعة وامابقيَّة النباتات فقد كان سيدنا عمر رضي الله عنهُ حمى في وادي القرى جهة تكفي اربعين الفاً من الخيل المسبلة للرعي فيها ثم زاد بعدهُ سيدنا عثمان ومن بعدهُ الى اضعاف ذلك المقدار فيا اسفا على الخوف في بلاد الامن وتلك العوائد وان كان القصد منها حسنةً فقد آلت الى سيئةٍ اذ لو انقطع عنهم ذلك المدد

ومن تجرأ على السبل عوقب وأُقيمت الشريعة حق القيام لاقبل السكان على العمران وكفى الله المؤمنين غوائل الطغيان وما الله بغافل عما يعملون

مطلب في المعارف

من البديهي ان الذي ذكرناهُ في الصنائع من جهة الرواج والكساد هو اساس ايضاً في المعارف فالمعارف الآن بالحجاز على غاية من الخمول وما يوجد منها انما هو محصور ومقصور على خصوص البلدين المكرمين فيوجد في كل منهما بعض دروس في المسجدين المحترمين في بعض العلوم الدينيَّة وبعض وسائلها فيوجد من الوسائل قليل من دروس النحو والمعاني ومن المقاصد بعض دروس في التفسير والحديث والفقهِ على اختلاف مذاهبهِ وان يكن يوجد بكل من البلدين الاكرمين علماءُ اجلة لكنهم نبغوا في اقطار أُخرى ثم جاوروا الآن هناك الاّ ما ندر من بعض الاهالي لذين تلقوا العلم هناك من العلماء الوافدين من الاقطار على احوال خصوصيَّة غير منتظمة ولا مفيدة للعموم وفي هاتهِ المدة الاخيرة أنشأ بعض الهنود ذوي التوفيق بواسطة العالم الجليل الشيخ رحمة الله مؤلف كتاب اظهار الحق مدرسة بمكة المشرفة يقرأُ بها الشيخ المذكور ومن معهُ من العلماء المجاورين بعض دروس في الهيئة والجغرافيا والطب وبعض علوم اخرى رياضيَّة وعلم التصوُّف ايضاً وبما ذكرناهُ بلغ السكان لاسيما الاعراب الى درجة عالية في الجهل وفساد الاخلاق غير ان لطف الله حف بما حدث منذ مدة قريبة من انتشار طريقة الشيخ السنوسي لذي كنا ذكرناهُ عند ذكرنا لرجوعي من فرانسا لان هذا الشيخ كان استقرَّ بمكة المشرفة وأنشأ في جبل ابي قبيس زاوية نشر فيها طريقتهُ فأَنبثت في قبائل اولئك الاعراب حتى كادت ان لا توجد قبيلة الاَّ وفيها زاوية وشيخ يرشد الى الطريق فحصل في القبائل نوع من معرفة اصول الديانة الاسلاميَّة والفروض العينيَّة والمحرمات الذاتيَّة ودب في هؤلاء شيءٌ من صلاح الحال وان لم يكبحهم عن التعدي على عباد الله القاصدين لاحد الحرمين فيا اسفا على اهمال المعارف وضياعها في مكان ينبوع الحكمة وظهورها ولولا وجود افراد من اطباء الدولة الذين ترسلهم لاحد البلدين الاكرمين او البعض من الهنود العارفين بالطب على الطريقة القديمة لكن معرفتهم لذلك عن علم وتدريس للكتب على طريقة اخذ العلم حقيقة فلهم باع حسن في علاج الامراض ولولا هؤلاء لحرمت السكنى في البلد التي

يفترض على عموم الامة تعميرها فان ابا حنيفة وغيرهُ من الائمة يقولون بحرمة سكنى البلاد التي لا طبيب بها وكل من المدينة المنوّرة ومكة المشرفة يفترض حمايتها فكيف يسوغ اهمالها بأمر المعارف واهلها حتى تخلو من طبيب لولا أُولئك وانما قلت في اطباء الهند انهم عالمون بالطب على الطريقة العلميَّة احتراساً من المدجلين ممن يدعي هذا العلم مع جهلهِ المطبق بهِ المتكاثر ظهورهم بالبلدان التي لا تنتبه حكوماتها لمنعهم من ذلك التدجيل لانهم يضرون بجهلهم وقد شاهدت ذلك في نفس مكة عياناً حيث كنت مريضاً بابهام رجلي اليمنى حيث انقلب الظفر تدريجاً وغاص في اللحم واشتدَّ امرهُ حتى كاد يمنعني عن المشي وكان حصل لي مثل ذلك وانا بباريس فجيء لي بطبيب خاص بذلك النوع من الامراض وعالجني برفع الظفر بآلات وكيفيَّة في عملها لم يحصل لي منها شدة ألم وجعل تحت ظفري ورقة من الرصاص صفيقة لكيلا يغوص ثانياً وقطع الظفر الى محل التصاقهِ باللحم وعافاني الله بسبب ذلك فلما كنت بمكة وعاودني مثل ما وقع سابقاً وذكرت لبعض الحاضرين عندي ما كان وقع اخبرني بانهُ يوجد حكيم يفعل مثل ذلك فجيء بهِ اليَّ وكنت محترساً منهُ لكني رايت معهُ آلات للقطع وغيرهِ كثيرة متقنة وابتدأ في العمل من غير كثرة ألم فظننت انهُ عن علم فلم يفعل الَّا قطع الظفر لكن عقبهُ ألم كدت معهُ ان لا استطيع المشي لولا لطف الله لانهُ اراد الزيادة في القطع بعد ذلك فامتنعت لانهُ ليس لهُ من العلم شيءٌ سوى كونهِ حلاقاً حجاماً تعوَّد على فصد بعض الناس فامثال هذا يمنعون شرعاً عن مباشرة اعمالهم

ولكن البلاد اذا اقشعرت وصوح نبتها رعى الهشيم

فاذا خلت البلاد عن حكماء عارفين بعلم الطب يضطر الناس الى هؤلاء الدجالين والحق ان امر المعارف مع كونهِ واجباً في كل صقع وبلاد فهو في الحرمين اشد تاكيدًا وانّا لله وانّا اليهِ راجعون

مطلب في الاحكام

قد علمت مما مرَّ في مبحث السياسة الداخليَّة الاصول التي تجري عليها الاحكام وحاصلها ان سيادة الشريف امير الحجاز هو مرجع الحكم في قضايا الوقائع التي تقع بين القبائل وهو ايضاً مرجع الشكايا من مظالمهم فيحذر رؤساءهم ومشايخهم ويأمرهم بما يراهُ

وينفذ الحكم في الظالم بحسب اجتهادهِ هكذا الاصل ولكنهم الآن مستبدون بامورهم كل قبيلة لا تخضع الأ لمشايخها ورؤسائها مما يذكر في زمن الفترة وكلٌّ يحكم باجتهادهِ واستبدادهِ ولو في القصاص في الانفس واذا تعدت قبيلة على أُخرى كان الامر لمن هو اقوى فطاعتهم الآن لسيادة الامير انما هي ظاهريَّة وهو وان استطاع على اخضاعهم ولو بدون عساكر الدولة بل بمن ينضم اليهِ من بقيَّة القبائل لكنهُ لا يقتدر على تنفيذ ذلك لما مرَّ في احوال السياسة الداخليَّة كما يرجع الى سيادة الامير فصل المظالم في اهل مكة والوالي هو الذي يجلس الى فصل المظالم فيما يقع بين السكان في مكة ايضاً فكانها مشتركة بين الامير والوالي لكن الوالي ينفرد بسائر مظالم جدة. والمدينة المنوَّرة يجلس فيها المحافظ في مثل ما ذكرناهُ وفي كل بلد حاكم يلقب قائمقام يجري ما ذكر ايضاً في المسائل الخفيفة والمسائل الثقيلة ترفع الى الوالي بمكة او الى سيادة الشريف الامير والقبائل كلها مشايخها هم مرجع الحكم في سائر القضايا ثم ان كلاًّ من البلدين الاكرمين بها قاض هو مرجع الحكم في كافة النوازل الشخصيَّة يجريها بمقتضى الشريعة وفي كل من البلدين مفت حنفي يسترجعهُ الخصوم في احكام القاضي لكن القاضي ليس ملزوماً باتباع فتواهُ بل لا يجري الأ ما يراهُ وان كان جاهلاً والمفتي عالماً ولا يخضع القاضي الأ لاوامر باب مشيخة الاسلام في تخت السلطنة ان اقتدر الخصم الى البلوغ اليهِ ولا يخفى ما في ذلك من المشقة لبعد الشقة كما يوجد في كل من البلدين الاكرمين محتسب لهُ النظر في امر المعاشات وقيم البيوعات وغش البائعين وخسران الكيل والميزان ويحكم في ذلك كلهِ بما يراهُ من الاجتهاد ولو بالضرب المبرح كما يوجد بهما مفات أُخر على بعض المذاهب الاخر يرجع اليهم اهالي ذلك المذهب في الاحوال الشخصيَّة ويفتونهم بحسب مذاهبهم وهؤلاء المفتيون كلهم يولون بأَمر من الدولة العثمانيَّة

واما بقيَّة البلدان فجدة بها قاض يُولى مثل السابقين وغيرها من البلدان يولى فيها نائب عن القاضي يعينهُ قاضي مكة لاجراء الاحكام الشرعيَّة في البلد التي هو بها وبقيَّة الادارات والاحكام ترجع الى القائمقام او الشيخ وهو الذي يحكم بما يريد. والحاصل ان ادارة الاحكام بالحجاز لا زالت الى الآن على شبه من النمط القديم اعني انها ليس بها مجالس للاحكام العرفيَّة وغيرها من القوانين الجارية بالممالك العثمانيَّة الآن ويا ليت الامر يجري حقيقة على المنهج الذي سلكهُ الخلفاء الراشدون كيف وهو مكان ظهور الشريعة واقامة العدل وتأسيس التمدن الحقيقي الصالح لاستقامة الدنيا والآخرة والامر لله وحدهُ لا رب سواهُ

مطلب في هيئة المساكن

المساكن بالحجاز تختلف بين حالها بالمدن وحالها بالقرى فاما المدن فالديار بها هي شبيهة بالنوع الذي ذكرناهُ في مصر غير انها في مكة تكثر طبقاتها حتى انها ربما بلغت الى الست طبقات كل منها مستكمل اللوازم لا يحتاج الى غيره في السكنى والطبقة الارضيَّة لا يعتنى بها للسكنى وانما هي للمرافق وجلوس الرجال بخلاف المدينة المنوَّرة فان دورها كل منها بها طبقة ارضيَّة يسكن فيها في الصيف لانها ابرد من العلوية غير ان المبيت بكل منهما يكون غالبًا في الصيف في السطوح التي يجعل لها حرم كاف لوقاية السكان من السقوط والابنية كلها لا تجصص حيطانها الَّا في بعض الديار الحسنة لاهل الثروة فانها تجصص وتبيض حيطانها وتدهن سقوفها التي تجعل من عيدان النخل ويجعل عليها من اسفل ألواح لاصقة منظمة ويعلق فيها ثريَّات . واما بقيَّة الديار وسائر الابنية فان الحيطان يسد فيها ما بين الاحجار بطين البناء المركب من الجير والطين ثم تبيض بماء الجير والسقوف تكون من عيدان النخل مكشوفة للرائي وفوقها حصير من انواع الحلفا وفوقهُ التراب وليس في الحجرات بلاط ولا غيرهُ بل الارض تكون ترابًا عليها الحصير او الزرابي (الابسطة) الَّا المدينة المنوَّرة فان الطبقة الارضيَّة مبلطة بأنواع من الاحجار الشبيهة بالمرمر والدرج في كل غير محسنه متعبة الَّا نادرًا وديار مكة لا سيما المعدة للاجرة كل طبقة منها لا يوجد فيها مطبخ وانما يطبخ اهلها باحدى حجراتها بالفحم او الحطب نادرًا لاحضار مياه الاغتسال في الشتاء واما في الصيف فلا يسخنون الماء للاستغناء عنهُ ولهذا لا يوجد في كل من مكة والمدينة الَّا حمَّامان بكل منهما لان السكان يغتسلون في ديارهم غالبًا وهكذا بقيَّة البلدان ليس بها حمَّامات ومفروشات الديار على النحو الذي هو جارٍ بمصر وغيرها من التشبه بالمفروشات التركيَّة والاورباويَّة ومن غريب صناعتهم المغالق التي تقفل بها الابواب فان المفاتيح نحو عود مستطيل في آخرهِ اسنان تدخل في ثقب في المغلاق وترفع الى فوق ويجذب المغلاق بعجلة اذ ذاك فينفتح ولا ريب انهُ سهل السرقة اذ تقليد المفاتيح على ذلك النحو يسير لكن الامر الفظيع هو ان تلك المغاليق على شكل الصليب وقد رأيت على باب الحجرة النبويَّة مغلاقًا من تلك المغاليق وهو من ذهب تقشعر من رؤْيتهِ الجلود وقد خاطبت من يقتدر على تغييرهِ فتعلل بان ذاك لا يخطر على فكر احد من الاهالي لجهلهم الصليب وبقي الحال على ما هو ولله الامر

هذا في المدن واما في بقيَّة البلاد الاخرى فكل دار تؤلف من طبقة واحدة الَّا نادرًا من طبقتين وهي في الحقيقة بيوت لا ديار والفرق بين الدار والبيت ان الدار هي المسكن الذي يشتمل على جميع المرافق المحتاج اليها وابواب حجراته الى فسحة تكون في وسطها غالبًا مكشوفة الى السماء واما البيت فهي التي مثل ما ذكر غير انها لا فسحة بها مكشوفة اعني الفسحة التي فيها ابواب الحجرات وهذا هو الفرق اللغوي وان كان الاستعمال مختلف بحسب الاصطلاح في البلدان فالحجاز ومصر مثلاً يطلقون على الكل بيوت وتونس والمغرب يطلقون على الكل ديار وهاتيك البيوت في القرى الحجازيَّة مظلمة غالبًا اذ لا يجعل لها شبابيك على الطرقات وليس بها فسحة مكشوفة فغاية الامر ان يجعل للحجرات منافذ للضوء بقرب السقوف احتراسًا من كشف النساء لانهم يشددون بحجبهنَّ كما تقدم سابقًا فتلك البيوت شبيهة بالغيران ولا تبيض بالجير الَّا نادرًا ما عدا سطوحها التي هي على نحو سطوح المدن من الاتقان في تجصيصها لكيلا تخترقها الامطار فتكاد هاته القرى ان لا تبين للناظرين الَّا اذا بلغوها خصوصًا التي هي في مرتفعات الجبال السود فانها لا تكاد تبين والحاصل ان الابنية على العموم نسبتها للتمدن كنسبة بقيَّة الصنائع التي مرَّ ذكرها في مطلبها غير انهُ يوجد في صناعة النجارة اتقان للرواشن وبعض الابواب والشبابيك على العموم اي الطواقي المطلة على الطرقات او غيرها لا يوجد بها زجاج يمنع دخول الريح الَّا نادرًا في بعض الديار المترفه اهلها ومن الغريب ان ترى البيوت مفروشة بالزرابي في مدة الصيف مع شدة الحر هناك فهم في الحقيقة غير مستعدين للتوقي منهُ الَّا اهل المدينة فانهم معدون الطبقات السفلى لذلك فيجعلون فيها بيتًا رحيبًا لهُ جهتان يمنى ويسرى مرتفعتا الارض عن الوسط الذي بهِ حوض للماء غالبًا وسقفهُ مكشوف الى السماء ينجذب منهُ الهواء الى اسفل ويكون الماء جاريًا الى ذلك الحوض ويجلس السكان باحدى الجهتين التي يجعل بهما مساطب وارائك وكل تلك الطبقة مبلطة بنحو الرخام كما ذكرنا سابقًا وذاك مناسب لشدة الحر على خلاف من اهل مكة وغيرهم الذين ليس لهم مثل ذلك واما الطرقات على العموم بالبلدان وغيرها فهي طبيعيَّة ليس بها تحسين ولا صناعة وغاية الامر انها تكنس في المدن فهي نظيفة واغلبها ضيق حتى يكاد ان لا يمشي ببعضها الَّا انسان واحد مع ان اصل الشريعة على خلاف ذلك * فان سيدنا عمر رضي الله عنهُ لما استشير في بناء بلد للصحابة والجيش الذي فتح الفرس لما استوخموا ارض فارس وامرهم باختيار ارض تشبه ارض العرب فاختاروا الكوفة فامرهم ببناء بلد بها وان تكون دورها لا تتجاوز الطبقتين

وان تكون طرقها العامة كل منها ثلاثة عشر ذراعاً والطرق الخاصة سبعة اذرع عرضاً والبطحاء التي تكون امام المسجد ستون ذراعاً في ستين وهذا هو الاصل الذي يستند اليهِ المذهب الحنفي في ذلك فانظر كيف كانت حالة البلدان في صدر الاسلام ويؤيد هذا ان بئر حا التي هي بستان كان لابي طلحة الانصاري رضي الله عنهُ قد كان في زمن النبي صلى الله عليهِ وسلم تجاه المسجد النبوي كما هو مذكور في صحيح البخاري رضي الله عنهُ فاين هو الآن من المسجد النبوي اذ بينهما الآن ابنية وديار وطرقات واسوار وغير ذلك فيا اسفا على وقوع مثل هذا التغيير المخالف للشريعة المكدر للتمدن ومصالح الناس حقيقة فليس توسيع الطرق وتنظيفها من تقليد الافرنج كما يدَّعيهِ الجهلاء بل هو من شريعتنا التي تنوسي الالتفات لمثل ذلك فيها وحيث كانت الطرق على نحو ما مر ذكرهُ يكثر فيها الوحل زمن المطر غير انها تنور ليلاً من قبل الحكومة بفوانيس من القصدير والزجاج تعلق في الحيطان او سقوف الاسواق لان كل صناعة لها سوق يخصها وبعض هاتهِ الاسواق بل اكثرها مسقوف بالالواح على نحو ما ذكرنا في اسواق تونس والحوانيت هيئتها ايضاً على ذلك النحو وليس للديار جنائن ولا بطحاآت خاصة وانما ابوابها في الطريق تفتح الى سقائفها المختلفة كبرًا وصغرًا واما الطرقات خارج البلدان فهي على طبيعتها الاصلية واغلب الطرق بين مكة والمدينة صالحة لمشي العجلات وتمر فيها المدافع الآن وهي مثل العجلات وكذلك الطريق بين جدة ومكة فيا ليت شعري اي مانع لاستعمال العجلات في السفر هناك فاني لم أرَ الاَّ عجلة واحدة لوالي الحجاز بمكة وقالوا انهُ ليس بها غيرها ورأيت بالمدينة عجلة قيل انها لركوب بعض المرضى هي اشبه شيء بعجلات حمل السلع ملقاة في الطريق وكأن امر الامن هو الاساس

مطلب في اللبس وبقيَّة العادات

اما اللبس الرسمي فهو كاللبس بالدوله العثمانيَّة الذي تقدم مثلهُ في مصر وكذلك لبس الرجال هو مثل لبس اهل مصر والاعيان يلبسون جبة واسعة الاكمام كعلماء مصر الاَّ انها لها رقبة مرتفعة خصوصاً للسادة الاشراف ويجعلون على رؤُوسهم كوفيَّة مطرزة بالحرير على اشكال حسنة بديعة تكون مكشوفة الوسط وعليها عمامة مكورة عظيمة يشدونها شدًّا محكمًا جميلاً وهي بيضاء . واما الاشراف في القبائل فيجعلون على رؤُوسهم

منديلاً من الحرير ملوَّناً وعليهِ عوض العمامة عقال من وبر الابل مقصب بخيوط الفضة المذهبة ولكل واحد منهم مطلقاً في البلدان او القبائل خنجر يجعلهُ في حزامهِ في وسطهِ من امام وكانها هي علامة الشرف مع لبسهم لعباءة يمانيَّة او عراقيَّة مقصبة بالذهب ونحوهم في هذا سائر الاعيان من القبائل وبقيتهم يلبسون عباءة على قميص ويتمنطقون على القميص بمنديل او غيرهِ وكثير منهم يعلق على جنبهِ خنجرًا والكل يلبسون في الارجل النعال الحجازيَّة ذات الشرطان التي تدخل بين الاصابع وتختلف جودة ورداءة على حسب ثروة اللابس وربما تدثر بعض اهل البلدان بالجبائب ذات الفراء المعروفة بالكرك ولبس نسائهم سراويل من نسيج الحرير او المقصب بالذهب بحيث انهنَّ يتنافسنَ في صنعهِ على حسب الثروة والمكان والزمان للابسهِ ومثل السراويل فيما ذكر منتان يفتح صدرهُ ويغلق ذو اكام ضيقة لا تبلغ المرفقين وفوق الجميع نحو عباءة من المنسوجات الثمينة مشقوقة الى السرَّة من اعلا بلا اكام واسعة جدًّا حتى انها تغطي اصابع الكف وان كان لها ثقوب في محل الاكام تخرج منها الايدي وعلى رؤوسهنَّ نحو المناديل من منسوجات صفيقه يخيطون باطرافها شريطاً مكعباً بخيوط الفضة او الحرير على حسب الاحوال وفي ارجلهنَّ احذية من نوع البشامق التونسيَّة واذا خرجنَ من البيوت زدنَ على ذلك خفاً من الجلد الاصفر مع رداء واسع جدًّا ذي اكمام ساتر للاصابع وخمار مسدل الى السرة مثقوب جهة العينين ويلبسن ايضاً المصوغ بانواعهِ كلها. واما الاكل فانهم يجلسون لهُ على الارض ويوضع على الخيوان وهو مثل ما تقدم في اكل اهل مصر غير انهُ اكثر اداماً من السمن واكثر ابهرة والاعراب اكثر اكلهم الارز مع العدس ولا ياكل الجميع لحم البقر الاَّ نادرًا بحيث يستعير بهِ الاعيان في المدن وياكلون الجمل بكثرة ويبخرون الماء بالمصطكي او بعود القرنفل ثم يجعلونهُ في اواني ويضعونها في ممرّ الريح لاكتساب البرودة

واما المواكب فأعظمها موكب الحج وقد تقدَّم الكلام عليهِ ولاهل مكة موكب يسمي الرجبيَّة يسافر به ذوو اليسر الى زيارة النبي عليهِ وعلى آلهِ اكمل الصلاة وازكى السلام ويحصل من ذلك في المدينة المنورة موكب حافل في رجب ولكثرة اسراف اهل مكة في حجهم والتباهي بينهم فيما يفعلونهُ فيهِ يضطرُّ بعضهم الى تأخير فرضهِ الى ان يبلغ سن الشيخوخة خشية المعرة من كونهِ لم يفعل تلك العادات الاسرافيَّة في الرحل والمركب والخيام والمأكل واما الاعراس فهي اقرب عندهم الى الطريقة المشروعة

من جهة عدم وجود المغنيات جهرة والملاهي الا الدفوف وشيء من غيرها مع حفظ التستر في النساء ولاهل المدينة عادة وهي ان الرجل اذا تزوج ببكر ودخل بها فلا يخرج من بيته اسبوعاً تاماً الا انهُ يجتمع باحبائهِ في بيتهِ وان خرج يوماً ولو للصلاة استاء اهل المرأة لان ذاك دليل على انها غير مستحسنة عند زوجها واما الثيب فلا يعتبرون ذلك فيها . واما المآتم فهي على الوجه المشروع من اكثر وجوهها فلا عياط ولا زياط ولا قراءة بالطرقات ولا ولائم من صاحب المأتم وانما يفعلون في ذلك ما هو المشروع في السنة اجرى الله احوالنا واحوالهم جميعاً على الوجوه المشروعة

مطلب في اللغة

لا يخفى ان الحجاز هو ميدان بلاغة العرب ومجال تسابق فرسان الكلام لكن ذلك كلهُ قد انعكس على ضدهِ فلا تكاد تجد متكلماً باللغة العربيَّة المعربة حيث دخلت العبارات العجميَّة بين القوم منذ تغلب الاعجام على الدولة الاسلاميَّة لان الناس على مذهب امرائهم فيقلدون الغالب والقوي حتى في نحلتهِ وكلامهِ وما كفى ذلك في ادخال المفردات الاعجميَّة حتى سرى الامر الى اللحن في الاعراب كما هو مقرر من قديم حيث ذكروا في سبب وضع علم النحو سماع سيدنا علي عليهِ السلام للحن في الكلام فاشار بوضع ذلك العلم ومن البديهي ان الامر يتفاقم بطول المدة وشدة الاسباب ففي ذلك الوقت لم يكن الا اختلاط الامة بامم اخرى ثم ازداد بعد ذلك بتمكن الاعاجم من الدولة ففسدت اللغة في الحجاز فساداً كلياً حتى لم يبقَ من يكتب كتابة مستقيمة في الاعراب والالفاظ الا النادر ممن هم اهل علم وربما اضطروا الى كتابة كثير من المفردات الاعجميَّة لشهرتها وتعارفها وهجران ما يرادفها من اصل العربيَّة وسبحان مقلب الاحوال وهو لا يتغير ولا يزال

الباب العاشر

في المملكة العثمانيَّة

(تنبيه) * لما كانت هاتهِ المملكة ليست كسائر الممالك التي مرَّ الكلام عليها لا من جهة الذات ولا من جهة المعنى اما الذات فانها مركبة من ممالك شتى كانت كل واحدة منها مستقلة بنفسها ولا يزال كل منها لهُ صفات خاصة من جهة جغرافيتهِ وجنسيَّة اهلهِ وعوائدهم واخلاقهم وغير ذلك فيمتنع الكلام عليهم كلهم من هاتيك الجهات بصفة واحدة وان تكلمنا على كل واحدة منها بانفرادها ربما عدل الكلام فيها جميع ما تقدم وما يأتي في الممالك التي شاهدناها ولذلك راينا ان نتكلم عليها من الحيثيَّة التي يدل عليها اسمها وهو كونها مملكة عثمانيَّة اذ ليس هناك قطعة من الارض تسمى في الاصل بهذا الاسم وانما لكل منها باعتبار ذاتهِ اسم خاص والجامع بينها في هاتهِ التسمية انما هو كونها تحت سلطة دولة سلطانها من هاتهِ العائلة وهي العثمانيَّة اي المنسوبة الى عثمان الذي هو اول من تسلطن من العائلة وبقيت في ذريتهِ الى الآن هذا من جهة الذات واما الحامل على مخالفة ما سبق في مثلها من جهة المعنى فلصعوبة الامر او تعسره لان قول الحق صعب والكذب حرام ونحن وان كنا في هذا القطر السعيد بأمنهِ في ظل خديوينا المعظم التوفيقي لا زال قرة لاعين اهل الاسلام ولكل سكانهِ من الامن والحريَّة ما يسيغ لهُ ان يقول الحق ولا يخشى لومة لائم غير ان بعض مقتضيات الحال تستدعي الاقتصار في المقال فلا مخلص في الكلام على هاتهِ المملكة العثمانيَّة الَّا الاقتصار على الاجمال على حسب ما تسيغهُ الاحوال الى ان ييسر الله بفضلهِ افراد هاتهِ المملكة بتأليف خاص يحتوي على التفاصيل في الحقير والجليل ورحمتهُ تعالى قريبة لا يعزب عن امره شيءٌ وهو على كل شيءٍ قدير

فصل في سفري اليها

قد تقدَّم انا ركبنا من مرسى ينبع في رجوعنا من الحج وقد كان ركوبنا في باخرة نمساويَّة من اجمل البواخر البريديَّة السيَّارة بين الهند واوربا فاجتازت بجدة وحملت منها ذلك الطود الشهير ذا النسب الخطير والحسب المنير السيد سلمان القادري حفيد قطب الاقطاب الاكبر مولانا سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنهم وهو نقيب اشراف

بغداد ايضاً واكبر عائلته وكان حاجاً في ذلك العام فمن الله تعالى عليَّ برفقته عند ما اجتازت الباخرة بمرسى ينبع وركب في الباخرة ايضاً بعض من الحجاج الترك العثمانيين والروسيين غير انهُ لم يركب في الطبقة الاولى سوى السيد وبرفقته اخوهُ السيد احمد وابن عمهِ السيد عبد القادر وجوار لهُ وبعض من الخدمة القائمين بين يديهِ لانهُ ابقاهُ الله قد اتخذ في الحجرة الكبرى في الباخرة احدى زواياها واختص بها وفرش بها فرشاً عربيةً وكانت خدمتهُ هم القائمون بشؤونهِ زيادة عما يباشرهُ خدام الباخرة مثل كونهِ ياكل منفرداً هو ومن معهُ على مائدتهِ الخاصة في الارض من خصوص طعامهِ الذي يطبخهُ لهُ طباخهُ الخاص غير انهُ من مكارم اخلاقهِ كان يتحرى للاكل وقت اكل الرفقاء بحيث كنا نتخاطب وكل منا على مائدتهِ حتى على الطعام الذي بين يدي كل منا اذ كنت اجلس مع بقيةً ركاب الطبقة الاولى أنا وتابعي في ذلك الايوان للفطور والعشاء وسارت بنا الباخرة ثلاثة ايام فوصلنا جبل الطور ووقفنا هناك مدة الحمية وهي يومان وانزل كل من كان بالباخرة الَّا اصحاب الطبقة الاولى ومن انزل ابقى رحلهُ في الباخرة الَّا القدر الذي يحتاجون اليهِ واخبرونا عند صعودهم انهُ لم تحصل لهم مشقة لقلة الازدحام وكان من هولاء الترك رجل من اهل بوسنه يعرف قليلاً من العربي حصلت بيني وبينهُ مودة حتى استأذنت عليهِ رئيس الباخرة وأذن لهُ في الجلوس معي بايوان الطبقة الاولى وهو جميل الاخلاق لهُ بعض مشاركة في النحو والفقه وقد ترجم يوماً بيني وبين احد الترك الروسيين من اهل ولاية قازان وان كان تفهمهُ منهُ عسر جداً لان لغتهُ مخالفة للغة التركيَّة العثمانيَّة ولهُ بعض اطلاع على العربيَّة من جهة كونهِ قرأ بضاعة مزجاة في الفقه فسألتهُ عن حالة المسلمين اهل بلدهِ من جهة الاحكام الروسيَّة فكان مآل كلامهِ ان الروسيَّة لا زالت محترمة لهم في احوالهم الشخصيَّة ولا يتداخلون فيما شجر بينهم اذ مرجعهم في ذلك الى حكام منهم وكأن هذا خاص باهل تلك الولاية التي صارت مع الروسيَّة على توافق لطول عهد استيلائها عليهم ومحافظتهم على الشروط التي خضعوا بها اليها لان الروسيَّة مجرية في الولايات التي استولت عليها في الحرب الاخيرة مع الدولة العثمانيَّة ما هو جارٍ في بقيَّة ولاياتها والزمت جميع السكان من مسلمين وغيرهم بان يكون التعليم بلغتها فقط لان اللغة هي التي توحد الجنسيَّة فاذا تنوسيت لغتهم صاروا روسيين حتى في الجنسيَّة ثم انَّا وصلنا الى خليج السويس الموصل بين البحر الابيض والبحر الاحمر وهو احدى مآثر هذا القرن لان السفن صارت تصل من شطوط المغرب في افريقيا الى

شطوط الصين والهند في ايام قليلة لا تتجاوز الشهر الى ابعدها بعد ان كانت يلزمها عدة اشهر لانها كانت يلزمها الخروج من خليج طارق ثم تحيط بجميع قارة افريقية بالبحر المحيط ثم بحر الهند فلعمري انها لمأثرة مفيدة للتجارة على العموم وان كانت فيها مضرّات سياسيّة بالنسبة لكثير من المسلمين وقد روي ان عمرو بن العاص استأذن سيدنا عمر بعد فتحهِ لمصر ليفتح خليجاً موصلاً ما بين البحرين ولعلهُ بهذا المكان الذي هو عليهِ الآن لانهُ اصلح الاماكن لذلك حيث كانت بالوسط بحيرات عميقه مغنية عن حفر خليج فيها . ثم ان سيدنا عمر سألهُ عن هذا الخليج الذي يراد فتحهُ هل يحصل بهِ فصل بين ارض جزيرة العرب ومصر فاجابهُ بنعم فقال لا افصل بين ارض المسلمين بالبحر . ويقال ان سيدنا علي رضي الله عنهُ قال للخليفة عند ما استشار كبار الصحابة في ذلك انهُ اذا تمّ ذلك الخليج تصير سفن الروم تضرب الى جده وغيرها من مراسي بلاد العرب وليس للمسلمين سفن تعارضهم فيسهل عليهم غزو بلاد الاسلام ولذلك كتب سيدنا عمر رضي الله عنهم اجمعين الى عاملهِ عمرو بن العاص بان يضرب عن ذلك صفحاً ويمكن ان يكون الخليج في اصلهِ موجودًا في العهد القديم . ثم ان الرمال تراكمت في احدى جهاتهِ على ما سيأتي ذكرهُ فسدت البحر وامتدّ عرضها الى ان صارت الارض واحدة ما عدا البحيرات التي في الوسط على سمة واحد التي ربما دلت على اتصال البحر سابقاً . ويدل على هذا ان بعض المفسرين روى في تفسير قولهِ تعالى "حتى اذا بلغا مجمع البحرين" في قصة موسى والخضر عليهما السلام ان بعض المؤرخين يقول ان المراد بالبحرين هما بحر فارس والروم اما بحر الروم فهو معلوم واما بحر فارس المعروف الآن فيستحيل ان يتصل ببحر الروم الذي هو البحر الابيض خصوصاً في هذا الزمن القليل نسبياً من زمن موسى عليهِ السلام. الى ما قبل البعثة المعروف فيهِ حالة الارض على ما هي عليهِ الآن فلا يصح ذلك الكلام الّا اذا كان البحر الاحمر يطلق عليهِ بحر فارس سابقاً لانهُ متصل بهِ وقريب منهُ جدًا لانهما يلتقيان الآن في جزيرة العرب اي شطوطها الجنوبيّة فلا يبعد ان يكون الاسم يطلق سابقاً على الجميع سواء. واتصال البحر الاحمر ببحر الروم سهل جدًّا لما مرّ بيانهُ ولما هو مشاهد بالفعل حيث اتصلا في هذا الزمن وسبب هذا الاتصال هو ان رجلاً فرنساويًا يقال لهُ فردنان دي ليسبس لهُ مهارة في الهندسة وهو من مشاهير قومهِ بدى لهُ يوماً امكان اتصال البحرين بهذا الخليج واعانتهُ على مرغوبهِ دولتهُ لمآرب سياسيّة في قرب الاتصال بالهند لعلهُ يمكن لها

يوماً ما اخذ الثار من الانكليز على نحو ما سبق في تاريخ الدولتين فساعفهم على قصدهم والي مصر اذ ذاك سعيد باشا ابن مُحَمَّد علي باشا وكان الانكليز من اشد المعارضين في ذلك سرًّا وكأن الاقدار تقول لهم (وعسى ان تكرهوا شيئًا وهو خير لكم) فانهم حصلوا فيهِ على اكبر فائدة اذ صارت سفنهم هي اكثر السفن المارة بهِ مع تحصيلهم على مآرب اخرى سياسيَّة كتداخلهم في القطر المصري وغير ذلك زيادة عن كونهم صاروا هم المالكين للقسط الاوفر منهُ ومحصلين على ارباحهِ الباهرة وذلك لان فردنان دي ليسبس ألَّف جمعيَّة لذلك العمل وجعلت هاتهِ الجمعيَّة التي هو رئيسها رأس مال لمصاريف العمل وجعلتهُ على اوراق ذات أسهم تباع وتشترى لكل من اراد وكان للحكومة المصريَّة من تلك الاوراق ما مقدار قيمتهِ نحو المائة مليون فرنك وآل الامر بعد ذلك الى بيع اسماعيل باشا خديو مصر لاسهم حكومتهِ فاشترتها الدولة الانكليزيَّة تماماً زيادة عما اشترتهُ سابقًا ولا حقاً من الاسهم افذاذًا وصار دخل هاتيك السهام يوازي اصل قيمتها حتى صارت كل رقعة منها اصل سعرها خمسمائة فرنك تباع الآن بالفين وثلاثمائة فرنك او نحو ذلك لان تلك الجمعيَّة شرعت في العمل وتممتهُ بحفر خليج من البحر الاحمر بمحاذات مرسى السويس واوصلتهُ بالبحيرة الاولى ثم حفرت خليجاً بين هاتهِ البحيرة والبحيرة الثانية الى ان وصلت الى البحر الابيض وعند ما تم عملها عقد اسماعيل باشا خديو مصر لفتح هذا العمل الغريب موكبًا مشهودًا جعل بهِ القطر المصري كانهُ دار عرس واستدعى اليهِ ملوك اوربًا كلهم لمشاهدة مرور اول باخرة تمر في ذلك الخليج وكذلك اعيان غيرهم من الاوربًاويين وكل من قدم منهم فمصاريفهُ مدة اقامتهِ بالقطر المصري على الحكومة المصريَّة ولهم ان يتفرجوا حيث شاؤوا وقد ساح بعضهم حتى الى السودان مع القيام بكل منهم على حسب مقامهِ اعظم قيام ووفد عليهِ من ملوك اوربا العظام امبراطور النمسا وامبراطورة الفرنسيس اي زوجة الامبراطور وولي عهد كل من انكلترا والروسيا وبروسيا فضلاً عن بقيَّة الملوك المتوسطين والصغار وصرفت في ذلك كلهِ من الحكومة المصريَّة اموال تكاد ان لا تحصى تعاظمت بها ديونها وذلك كلهُ لمآرب سياسيَّة لم ينجح منها المقصود ونشأ عنها وحشة مع الدولة العثمانيَّة آلت الى الرضاء بعد صرف اموال باهظة ثم استقر عمل جمعيَّة الخليج على اقامة فعلاء ومراقبين على محافظة الخليج ويستخلص على كل سفينة تمر فيهِ مقدار معلوم من الاموال على حسب حمولتها ونوعها حربيَّة او تجاريَّة وفي رأس كل سنة تقسم الارباح على اصحاب الاسهم بعد

اخراج المصاريف المستمرة لان الخليج من جهة السويس لم تزل الرمال تنثال عليهِ منذ فتحهِ الى الآن لولا شدة العمل في رفع تلك الرمال ليلاً ونهارًا على مسافة طويلة تزيد عن العشرة اميال ومع ذلك كلهِ فقد شاهدت في الباخرة التي اجتزنا فيها ان سيرها كان بطيئًا جدًّا هناك وكذلك غيرها احتراساً من الغرز في الرمل مع كثرة العلامات المجعولة في المياه لمحل المرور ومع ذلك كلهِ قد اصطدمت الباخرة في الرمل عدة مرار حتى اني خلت انهُ عمل لا يدوم لشدة التعب الذي شاهدتهُ من العملة في جلبهم للسفن والبواخر المصطدمة في الرمال حتى كانها تجر بالايدي مع كثرة ومداومة العمل بالآلات الرافعة للرمال ومع ذلك كلهِ لا تجتاز فيهِ الأسفينة واحدة وفيهِ اماكن لوقوف السفن اذا كانت تعارضها سفينة اخرى اي احداها غادية والاخرى رائحة فتلك الاماكن وسيعة تمر بها السفينتان ولذلك يجعلون علامات على اعمدة مرتفعة في البر يمينًا وشمالاً ليدرك منها رئيس الباخرة ما يأمرهُ بهِ محافظو الخليج من الوقوف او المشي السريع او البطيء او غير ذلك ولذلك رأيت رئيس باخرتنا قد اخرج كتاباً فيهِ تلك العلامات وشرح المراد منها ليعمل بمقتضاها عند دخوله الى الخليج وبسبب ذلك كانت السفن لا تتحرك فيهِ ليلاً في تاريخ مرورنا وقد وقفنا مرة لمعارضة باخرة انكليزيَّة حربيَّة ذاهبة الى الهند حاملة للعساكر فلما مرت بنا خيل الينا انا راكبون في زورق مع انا راكبون في اعظم البواخر البريديَّة لكن عظم تلك الباخرة الحربيَّة التي هي من نوع الفرقطين خيل الينا ذلك فانها كانت ذات ثلاث طبقات من المدافع وحاملة لاربعة آلاف وخمسمائة عسكريًّا وكثير منهم معهم عيالهم وكانوا على همجيَّة فانهم لما رأونا صاروا يصرخون ويضحكون ثم وصلنا الى مرسى الاسماعيليَّة التي هي بوسط الخليج وبقربها ينصب جسر يصل بين اسيا وافريقيا ولا ينصب الأعند وجود المارين ويدفعون عليهِ خراجاً للحكومة المصريَّة وبتنا بالخليج ليلتين وفي صبيحة اليوم الثالث وصلنا الى بورت سعيد ووقفنا بضع ساعات وكان عمال الحكومة المصريَّة حارسون لباخرتنا لكيلا ينزل منها احد لانهم رسموا في ذلك التاريخ بان لا يدخل الى القطر المصري حاج الأمن هو من اهلهِ لانهُ كان كثير من المغاربة يدخلونهُ وهم فقراء فربما حملوا الاهالي والحكومة مصاريف لرجوعهم الى اوطانهم ولذلك اعلنوا بذلك التحجير ثم قفلنا من هناك الى ان وصلنا الى مرسى بيروت اعظم مراسي ولاية الشام المعروفة بسورية فطلب مديرو جمعيَّة تلك الباخرة من الركاب ان ينزل منهم الى تلك البلدة كل من كان قاصدًا القسطنطينيَّة وما حولها واما القاصدون بوسنه وهرسك وغيرها ممن تكون لهم

مرسى تريست طريقاً فانهم يبقون في الباخرة لانها قاصدة هناك توًّا والذين ينزلون وكانت الباخرة تعهدت لهم بالوصول الى القسطنطينيَّة وما حولها فانهم ينتظرون هناك الى ان تأتيهم بعد خمسة ايام باخرة اخرى لجمعيَّة الباخرة الاولى وتحملهم الى مقاصدهم وكل من اراد من هولاء اخذ مصاريفهِ مدة انتظارهِ فلهُ ذلك يدفعها اليهِ القيمون بامر شركة تلك البواخر البريديَّة النمساوية المسماة بشركة لويد وقد اخذ منهم بالفعل كثير ممن نزل لكن بعد مشقة لعدم التفاهم حيث كان اغلبهم من الترك الروسيين الذين قل من يعرف لغتهم ولاستشاطة بعضهم في مقدار المصاريف التي طلبها مع ان اللجنة مقومة لاهل كل طبقة مقداراً عن كل يوم لم اعلم ما هو لاني صرفت النظر عنهُ حيث كان النزول هناك من اعظم مرغوباتي لمزيد التأنس بذلك السيد الجليل القادري وللتعرف بتلك البلاد

فنزلت هناك وكانت المرسى صعبة جداً لبعد ارساء الباخرة عن الشط وركوبنا في زوارق مع هيجان البحر وبعد ان خلصنا رحلنا من الكمرك الذي لم نرَ من اهلهِ الأ خيراً دخلنا الى البلاد راجلين لقربها وعدم وجود ما يركب حول الكمرك فدلني رجل من المتشبثين بخدمة المسافرين على منزل المسافرين قريب من جهة طريقنا كاشف على البحر فاذا هو منزل لاحد الافرنج مثل منازل اوربا المتوسطة الحسن واخذت بهِ بيتاً واسعة ذات حجرة للنوم والصناديق وحجرة للجلوس واغتسلت في حمامهِ وبتنا تلك الليلة والاكل فيهِ حسن ومن غد شرعنا في زيارة بعض اعيان البلاد والتفرج على منازهها ومنافعها فاذا هي بلد جميلة الوضع في سفح جبل مطلة على البحر وحولها كثيب رمل وجبل لبنان بحيث ان حدودهُ منها على نحو ربع ساعة مجعول لهُ علامات ولهُ ادارة ممتازة كما سيأتي في محلهِ وواليهِ يسكن في الشتاء في بيروت وهو اذ ذاك رستم باشا وقد رايتهُ يوماً راجعاً من الجبل الى دارهِ متخذاً ابهة فاخرة في عجلة يجرها ثلاثة من الخيل العتاق وامامهُ فارس ووراءهُ اربعة من العساكر الخيالة متسلحين وبندقيَّة كل منهم حاملها في وجههِ وهذا الباشا هو شيخ مسن اصلهُ طلياني خدم الدولة العليَّة بنصح وشاخ في خدمتها وسمعت الثناء عليهِ في تلك البلد وغيرها من مسلمين وغيرهم غيور على الدولة محافظ على ناموسها ومصالحها ومن غريب ما سمعتهُ عنهُ انهُ كان مرة يتفقد في جهات ولايتهِ على ذلك الجبل فصادف انهُ يتفقد الجهة القريبة من طرابلس الشام ويصل الى تلك الجهة آخر النهار وليس بقربهِ مكان صالح للمبيت الأ بلد طرابلس فارسل من صباح اليوم الى متصرفها اي حاكمها يعلمهُ بانهُ يبيت ضيفهُ وكان الوقت رمضان فعرضهُ آخر النهار ذلك المتصرف وعلماء البلد

ووجهاؤُها ثم دخلوا جميعاً الى دار المتصرف وجلسوا في ايوانها كلهم فدخل الخدمة باطباق المشروبات المبردة والحلويات وكان الغروب لم يقع وكان هو اي رستم باشا لا زال على دين نصرانيتهِ لكنهُ لما راى تلك الاطباق داخلة وعلماء البلد ووجهاؤُها جالسون اكفهر وجههُ وقال للمتصرف ما هذا فاجابهُ بانهُ مشروبات مبردة فقال الباشا أليس هذا رمضان فتبسم المتصرف وقال تملقاً من غير ان يريد اظهار قصدهِ لمخالفة الدين نعم هو رمضان ولكن جنابكم مسافر وانا ايضاً مثلكم وها انا ابتدئ بذلك واخذ الكاس وشرب فاشتد حنق الباشا عليهِ وخاطبهُ بشدة بما معناهُ انك ان كنت لم تراعِ ديانتك فانا يجب عليَّ ان اراعي دولتي ووظيفتي لاني متوظف ووزير لخليفة المسلمين وهذا المقام انما جاءني منهُ وهاتهِ البلاد بلاد مسلمين وهؤلاء الجمع مسلمون جاؤُني لاجل وظيفتي فهبني نصرانياً فاني اذب على الشعائر الاسلامية التي صرت بها انا من انا واقتدر بها على احتقارك وطردك ايضاً من هنا فاخرج حالاً حيث لم تراع سلطانك وامامك الذي هو خليفة المسلمين ولا اهل البلاد التي انت عليها ولا انا الذي تعدني ضيفاً فخرج المتصرف من المجلس وشكر الحاضرون كلهم عمل ذلك الباشا فقال لهم ما فعلت هذا لاشكر وانما هي واجباتي اديتها ولعمري ان مثل هذا الرجل يحق ان يستخدم ويا ليت متوظفي الدولة كلهم على نمطهِ كثر الله من المخلصين الناصحين امثاله ووفقهُ لسعادة الدارين . وحاصل وصف هاتهِ البلد هي انها بلد جميلة المنظر لان ديارها محسنة الحيطان من خارج وحسن اكثر طرقها غير ان بجانبي الطريق مجاري للمياه على عمق شبر مكشوفة ربما اضرت بالمارين والبناء طينهُ مخلط بالجير فهو حسن المنظر ويقرب شكل الديار من ديار تونس غير انهم يجعلون لبعض الديار ذات الطبقات درجاً مكشوفة في البطحا آت الخاصة بالديار وجعل في البلد طريق للعجلات وهذا الطريق واصل الى دمشق الشام جعلتهُ جمعيَّة افرنجيَّة منتظم السير في اوقات معلومة وكراء معين وتغير الخيل في مراكز معينة ليلاً ونهارًا وكنت اردت الذهاب فيهِ الى دمشق لكن قصر الوقت مع تعطل السير في الطريق لكثرة الثلوج منعني من ذلك

واعظم جوامع البلد الجامع المنسوب لسيدنا يحيى عليهِ السلام وهو جامع واسع نظيف وكذلك بقيَّة جوامعها نظيفة وحماماتها جميلة نظيفة جداً منقنة التحسين بأنواع المرمر وفوارات المياه وبها اسواق جميلة وان كانت صغيرة على نسبة البلاد لان البلد الاصليَّة صغيرة وكثر حولها البناء المتقن على اشكال شتى منها قصر بديع صالح للملوك

وحولهُ بستان مؤنق غاية التأنيق فيهِ من المرمر في البناء والرخام وانواع المفروشات البديعة والاشجار وتقاسيم الماشي وهو لاحد الاهالي النصارى ذوي الثروة الكبيره التي حصلت لهُ من بعض خدمات لهُ عند خديو مصر السابق ثم استحصل على ان يكون قنصلاً للروسيا في بلدهِ وتوجد بيوت اخرى حسنة تقرب من ذلك كما توجد مدارس علميَّة اسسها القسوس من البورتيستانت الاميريكانيين ومن الجزويت الفرنساويين وقد اثرت هاتهِ المدارس تأثيرًا واسعاً في المعارف هناك فتقدمت النصارى سكان بيروت في التحصيل على معارف جيدة من اللغة العربيَّة نحوًا ولغة وانشاء وفي معرفة بعض اللغات الاجنبيَّة واغلب مبادي الفنون الرياضيَّة حتى صاروا متاهلين للتقدم وتقلد الوظائف في بلادهم وغيرها ويحصلون ذلك في مدة قليلة لسهولة التعليم بالكتب التي اخترع بعضها نفس الاهالي وغيرها غير ان انشاءهم بالعربيَّة يكون غالباً على غير اللهجة الفصيحة والاسلوب العربي القح لان غالب التلامذة يولعون باللغات الاجنبيَّة فينسجون كتاباتهم العربيَّة على منوال تلك اللغات فيصير السبك اعجميًا في قوالب عربيَّة يمجها من ذاق طعم البلاغة ودونك ما كنت رايتهُ من رسالة لاحد برعاء ذلك الوطن وهو البارع المتفنن رشيد الدحداح كتب بها في ذلك المعنى نص محل الحاجة منها بعد ان ذكر ما طرأ على اللغة العربيَّة الشريفة وما حصل لها من التغيير بالاساليب الاعجميَّة الى ان قال" وكذلك لاجل تحبيب الفرنسيس للمسلمين يجب ترويج لسان العرب باللغة الفرنساويَّة حتى تصير لباساً لهُ ويصير لباساً لها فيبدأ بتبديل الاسماء فيجعل اسم المعلم ميخائيل ميشال افندي ويبدل مريم بماريا واذا كتب رسالة قلب رجلاً على قدم. وتناول ريشة عوض القلم. وقال اخذت الحريَّة لاكتب لكم اوعندي الشرف ان اخبركم اني قبلت رسالتكم المكرمة وبالطبع صرت ممنونًا لما تضمنتهُ من الاحساسات الوديَّة. والشعائر الوطنية. ورايتها ملهومة من روح الصداقة . وراغبة في دوام العلاقة. واخذت الاحتياطات اللازمة لادخالها في اعمدة الجرائد ليس فقط لاجل مسرتكم بل بالسبب الاقوى لاجل مصلحتنا ولكن من سوء البخت مراعاة الظروف توجبنا على نوع ما ان نتخذ التمهل بالعمل الى فرصة وفوق كل شيء لانهُ الآن حاصل هنا افكار واستعدادات حريَّة واما عاملو الالقاب فبالضد ومع الاعتبار يقدم لكم الشكر ويهدي لكم السلام حبكم فلان وقس على ذلك الف داهية. من التعبيرات الواهية. التي هي بالمقت حريَّة والتي في اعجميتها مسرف. كعندي الشرف. وما هو احط من السفالة. كقبول الرسالة. وآلم من الصفع. كطبيعيًا وبالطبع. وامر من ريب

المنون. كالممنون. واسمج من الخسائر. كهذا الاستعمال للروح والافكار والتقدم والاستعدادات والاحساسات والشعائر". الى ان قال" اما تشبثهم بمادة اخذ فداءٌ اصفر وموت احمر ولو حرمت عليهم اليوم هذه المادة لكسروا الاقلام وعجزوا عن الكلام فتراهم يعبرون بها عن كل الافعال العربية فيقولون اتخذ الباشا مادبة للقناصل واتخذ الملاطفة لهم واتخذوا الدعاء للدولة الى ان قال فيا للخسارة والاسف. على مرض اللغة واشرافها على التلف. فوأيم الله انهُ لصدع لا يلتئم. وجرح لا يلتحم" الى آخر ما اطال بهِ في تلك الرسالة المنشورة في جرائد عديدة عربية ومنها العدد ٩٥ من مرآة الشرق وهذا الكاتب وان كان من اهل لبنان البارعين في العربيَّة والفرنساويَّة لاقامتهِ بفرنسا وصيرورتهِ من اغنيائها لكنهُ استفاد من ذلك التعليم لان هذا التعليم شمل اهل لبنان ايضاً بفوائدهِ والحق يقال ان فوائدهُ جليلة لحسن التعليم وان اثر بعض تأثيرات سياسيَّة في جلب طباع سهل الطبيعة الى حب جنسيَّة المعلمين لكنهُ من حيث التعليم لهُ مزيَّة معتبرة تقدم بها النصارى هناك على المسلمين حتى تفطن في المدة الاخيرة بعض المسلمين الغيورين لهذا المدرك ووجدوا والياً يمد اليهم يد المساعدة وهو مدحت باشا فعقد لهم جمعيَّة تسمى جمعيَّة المقاصد الخيريَّة ومكنها من الاوقاف التي في البلد وكانت استولت عليها ايدي الاغتصاب والمنافع الشخصيَّة فاستعانوا بها مع ما يوزعونهُ على اهل البلد من كل ذي حميَّة وعلى اباء التلامذة وانشأوا بذلك مدارس على نحو النوع السابق ذكرهُ وكنت دخلت الى كِلاَ القسمين فرايت من تلامذتها ما يسر القلب ولعمري انها لمأثرة جليلة تحق ان تذكر * وهذا الرجل وهو مدحت باشا هكذا دأبهُ في كل ولاية وليها لا بد ان يترك فيها مأثرة تذكر وان اعترى كثيراً منها بعدهُ بعض الخلل الاَّ انها لا تزال قائمة لما فيها من المصلحة المشاهدة وهو في الحقيقة من افراد رجال الدولة الذين يشتمل عليهم تاريخها نصحاً وتدبيراً وعملاً وعملهُ اكثر من قولهِ بحيث لا يجد القادح فيهِ قولاً لولا عجلة فيهِ كأنهُ حملهُ عليها مداومة ما يشاهدهُ في وظائفهِ من التأنيات والتسويف الذي يستعملهُ الرؤساء في وظائف الدولة حتى صار لهم طبيعة والوقت لديهم ليس لهُ اعتبار فاداهُ ذلك الى انتهازهِ للفرص التي يجدها لاجرائهِ المصالح فعلا وجراهُ ذلك لما اوقعهُ اخيراً فيما اداهُ الى الوقوع في حتفهِ رحمة الله عليهِ رحمة واسعة. وقد حصل من تلك الجمعيَّة فائدة لا تنكر في المعارف لاهل تلك البلاد وهي وان تأسست في جميع البلاد الشاميَّة لكنها كانت في بيروت اشد تقدماً في المعارف حتى صارت هي اول البلاد الشاميَّة في المعارف على العموم وان كان لدمشق

مزيد التقدم في الفنون الشرعيَّة ثم ان اهالي بيروت وان كانوا قسمين مسلمين ونصارى لكنهم جميعاً في غاية الالفة بعضهم مع بعض وعوائدهم جميعاً واحدة حتى في محاسن اخلاقهم وقد شاهدت من فضلاء القسمين ما اشكرهم عليهِ من محاسن الاخلاق والفرح بالضيف مثل الشيخ الدراكة البليغ البارع ابرهيم الاحدب ولهُ ديوان شعر شهير ومثل الاعيان الاجلاء حسين بيهم ومحيي بك رئيس الجمعية الخيريَّة وعبد القادر القباني صاحب جريدة ثمرات الفنون احدى الجرائد العربيَّة المتكاثرة في هاتهِ البلد لما في اهلها من التقدم الذي اشرنا اليهِ مع بعدها عن مراكز السياسة ومن اصحاب الجرائد الذين اجتمعت بهم هناك ايضاً البارع المجيد المتفنن سليم البستاني صاحب جريدة الجنة وجريدة الجنان وهو من النصارى اعيان البلاد وممن اجتمعت بهِ منهم ايضاً الوجهاء الاعيان ابرهيم اليازجي ابن الحسن الذكر المتفنن اللغوي البليغ ناصيف اليازجي صاحب المقامات الشهيرة ومنهم سليم ثابت وغيرهم ومنهم الكاتب البارع حسن الجابي وهو وان كان من اهالي دمشق الّا اني اجتمعت بهِ في بيروت لانهُ قدم اليها صحبة والي الشام اذ ذاك مدحت باشا رحمهُ الله لانهُ كان من كتّاب الولاية المجيدين عربيَّة وتركيَّة فاستصحبهُ الوالي لنصحهِ ونجابتهِ ثم ترقى بعد ذلك في خدمات الدولة العليَّة وكذلك اجتمعت بالوالي المشار اليهِ هناك لما لي معهُ من المعرفة السابقة في باريس ولاقيت عندهُ مرة النصوح رائف باشا متصرف بيروت اذ ذاك ولقد شاهدت من هؤلاء الجمع اكراماً يوجب عليَّ الثناء عليهم جازاهم الله عني كل خير واجل ما حصلت عليهِ في هاتهِ البلاد اخذي للاجازة في الطريقة القادريَّة من مولاي وسيدي السيد سلمان القادري ومثلهُ ابقاهُ الله من يجيز ويحافظ على شريعة جدهِ الاعلى عليهِ وعلى آلهِ الصلاة والسلام فانهُ عند ما اجازني قال لي ما معناهُ في امر الاذكار وآداب الطريقة ليست هي الّا الشريعة فقف على ما ورد بهِ الشرع واعمل بهِ فهكذا يكون المرشدون وما اجازني بذلك الّا بعد مزيد الالحاح تواضعاً منهُ ابقاهُ الله الى ان اتت ليلة سفري فساعفني ببرغوبي فودعتهُ وسافرت صبيحة تلك الليلة الى القسطنطينيَّة في احدى البواخر السابق ذكرها * فوقفت بنا بضع ساعات على ازمير التي هي قاعدة احدى ولايات الدولة ونزلت متفرجاً على مرساها وما حولها فاذا هي ذات مرسى جميل حصين صنعهُ احد الافرنج برخصة من الدولة وفيهِ بواخر جمة وتصل سكة الحديد الى رصيفهِ وهي ذات فرعين يمتدان الى داخل الولاية شرقاً وغرباً وحول المرسى قشلاقات عسكريَّة وبعض ديار للافرنج والطريق فيها واسع جميل وبقيَّة الطرقات والاسواق ضيقة عليها

آثار الهرم لان غالب الابنية من الاخشاب وقدم عهدها فلم ارَ ما يذكر الا كونها بلاد تجاريةً لغنى الولاية بما منحها الله تعالى من كثرة الغلال والفواكه التي تحمل منها الى سائر الآفاق مثل التين المجفف وغيرهِ ثم مررنا على جزر كثيرة تابعة للدولة العليَّة ذات جمال باهر لكثرة اشجارها وجبالها الخضر المتعممة اذ ذاك بالثلج ومن اجملها جزيرة رودس وجزيرة استانكوى التي تشرح الخاطر بما كساها الله من حلل النبات والاشجار العظيمة ثم وصلنا الى جنه قلعة قبيل الغروب من اليوم الثاني وهي باب الخليج القسطنطيني والبلدة ليست بشيء يذكر سوى انها مقام حربي اذ حولها وامامها من الحصون والطوابي والاستحكامات ما يدهش الناظر وهي كثيرة ممتدة على طول مضيق ذلك الخليج على فوهتهِ الى البحر الابيض التي هي ضيقة جدًّا لا تسع ازيد من مرور اربع بواخر جسيمة وتلك الحصون اكثرها لا يكاد يبين لتخللهِ وسط الجبال المحيطة بالجانبين وما يظهر منها تلوح منهُ مدافع ضخمة تكاد تخرق الجبال عند انطلاقها ولذلك يعد هذا المركز اعظم المراكز الحربيَّة تحصناً بحيث لا يمكن ان يجتازهُ مجتاز بغير رضاء صاحبهِ ولا تدخلهُ سفينة الآن ولو تجاريَّة الَّا بالاذن من موظفي الدولة هناك ولذلك وقفت الباخرة هناك لاخذ الاجازة وهي لا تطول مدتها الَّا نحو نصف ساعة في اثنائها طافت بنا القوارب من البياعين لسلع تلك البلاد والمأكولات والفواكه والذي يمكن ان يذكر من سلعها ليس هو الَّا اباريق من طين مطلي بمعدن اخضر يصير بهِ الطين صقيلاً ويذهَّب باشكال وعلى نحو هاتهِ الاباريق اوان أُخر على اشكال مختلفة للمياه ثم دخلنا الى بحر مرمره المتوسط بين فوهتي خليج الاستانة التي مر ذكر احداها التي على البحر الابيض والاخرى بجنب الاستانة على البحر الاسود فبقينا سائرين الى طلوع الفجر وما انفلق الصبح الَّا وقد بانت مآذن جوامع القسطنطينيَّة التي هي مثل غابة من النخيل وبينها قباب الجوامع الضخمة فارست الباخرة في داخل الخليج على مقربة من القنطرة الموصلة بين استانبول وغلطه وطافت بالباخرة القوارب لمن يكتري من الركاب وقوارب السلع ثم بعد هنيهة قدم اليَّ البعض من اصدقائي مع زورق مخصوص للوزير خير الدين باشا التونسي انزلوني فيهِ وتكفلت اتباعهم مع تابعي بانزال صناديقي فنزلت ضيفاً عند الوزير المذكور ثم بعد بضع ايام اكتريت دارًا جميلة على الخليج وسكنت بها بعد ان اشتريت لها جميع مفروشاتها اللازمة واحضرت من الخدمة اللازمين والطباخ مقدار الحاجة واقمت ساكناً من صفر سنة ١٢٩٧ الى شعبان سنة ١٢٩٨ واحضرت اليَّ ابني البكر من

تونس وبقيت بالقسطنطينيّة مستريح الفكر والبدن متنعماً بهوائها الحسن متأنساً بالاصدقاء ذوي الوفاء الى ان حل بالوطن ما حل في سنة ثمانية من استيلاء الفرنساويين عليهِ مما كنت بهِ انذرت ولم تفد النصيحة لغلبة الهواء والله يقضي ما اراد فذهبت الى ايطاليا لاخابر عائلتي في نقلتهم وبيع املاكي وفي اثناء ذلك ذهبت الى جنيف من مملكة سفيسرا فوضعت بها ابني في مكتب خصوصي ثم رجعت الى ايطاليا لاتمام ما ذكرناهُ ثم رجعت الى القسطنطينيّة بعد ان اعلمتني عائلتي بسفرها اليها فمررت على مملكة المانيا ثم النمسا ثم الرومانيا ثم الصرب والبلغار وسيأتي ذكر هاتهِ الممالك ان شاء الله كل منها منفردًا ببابهِ ثم رجعت الى القسطنطينيّة مقيماً فيها بعائلتي من اول سنة تسعة الى اول سنة اثنين وثلثمائة التي توجهت فيها الى مصر حيث لم اجد من الراحة الفكريَّة والبدنيَّة ما يستقيم بهِ الحال وكذلك امر المال وان كانت الحضرة السلطانيّة تفضلت عليَّ بمرتب وكراء بيت لم يمكن استطرادهما لما في خزنة الدولة من التضايق المجحف حتى بالقيام بالضروريَّات الواجبة في اغلب الجهات نسأل الله تفريج الكربات

مطلب في صفة القسطنطينيّة

هاتهِ البلدة قديمة الانشاء وتأسست تختاً لمملكة الرومان المعروفين بالروم سابقاً على ما تقدم في تاريخ ايطاليا وسميت البلدة باسم احد ملوكهم ذوي الصيت المنتشر وهو قسطنطين المتولي سنة ٣٢٣ ميلاديّة واتخذ موقعها في اجمل مواقع الكرة الارضيَّة في نصفها المعروف قديماً وموقعها ايضاً احصن هاتيك المواقع لانها متحكمة بين البحر الاسود والبحر الابيض ويوصل بينهما الخليج الذي بوسطهِ بحر مرمرا وهذا الخليج بمكان البلدة يكتنفهُ جبال يميناً وشمالاً والجبال مكساة بحلل النبات الباهر في جميع الفصول وقد وضعت البلد على سفح ثلاث جبال يفصل بينها الخليج اما قسم منها فيفصل بينهُ وبين غيرهِ الخليج الكبير وهذا القسم هو المسمى باسكودار الواقع في قارة آسيا والقسمان الآخران يفصل بينهما فرع من هذا الخليج داخل في قارة اوربا الى ان يتصل بجدول يعرف بكاغدخانة فالقسم الشرقي من القسمين يسمى بغلطه والقسم الغربي يسمى باستانبول وقد كان في القديم محل البلدة مفصولاً عن بقيَّة القارة بخليج واصل الى بحر مرمرا وهو قرب مقام سيدنا ابي ايوب الانصاري الآن فكانت جزيرة منفردة

وهذا القسم هو مقر البلاد الاصلية الذي يشتمل على مركز الادارة والاسواق وغير ذلك وحيث كانت البلد واقعة في عرض سبعة واربعين شمالي كان هواؤها يغلب عليهِ البرد وتنزل عليها الثلوج في كل سنة وربما جمد الخليج في بعض السنين فهي في جميع اوقاتها لها منظر منفرد في الارض لمن يراها داخلاً من الخليج حيث كان الخليج في الوسط وتحفهُ على جميع شطوطهِ الممتدة نحو ٢٢ ميلاً قصور ودساكر جميلة الصنع ذات ألوان لان البناء بالاخشاب ويدهن ظاهرًا وباطناً بألوان جميلة مع كثرة طاقاتهِ ويتخلل هذا البناء الصوامع المتناغية في الجو مع جودتها وتعدد ادوار مآذنها وبينها القباب الشاهقة ثم وراء هاتهِ البناآت على سفح الجبال البساتين والجناين والاشجار الملتفة والعيون المتدفقة فتدهش رؤيتها ابصار الناظرين وتستمر البواخر خارقة لهذا الخليج في ذلك المنظر البديع مدة نحو ساعتين فلا ريب ان كانت هي سيدة البلدان السياسية خصوصاً ووضعها قد جاء على كل من قارتي اوربا وآسيا وعلى كل من البحرين الابيض والاسود ولهذا يسمونها في القديم بفاروق لفرقها بين البرين والبحرين لكن ذلك المنظر والجمال ينحط درجات عديدة اذا نزل قاصدها الى البر وتخلل بالمشي في شوارعها لان طرقاتها اغلبها ضيق ومبلط بحجارات على اصل خلقتها مقلبة مكعبة تتعب الراكب والماشي وكثيرًا من الديار قد اخذ منهُ الهرم مأخذهُ خصوصاً في هذا الوقت الذي تفاقم فيهِ على اهلها الضيق المالي لان اهلها المسلمون وهم اكثر السكان اغلبهم لهُ جرايات ومرتبات بحيث ان اقامتهم مناطة بالدولة التي ضاقت خزينتها عن القيام بشؤونها وبقيتهم ذوو صنائع خسيسة كسائقي العربات والنوتية وما شاكل ذلك والقليل النادر لهم تجارة على قدر الحاجة والتجارة المعتبرة انما هي بيد الافرنج او النصارى من رعيَّة الدولة وكذلك اغلب الصنائع الضروريَّة والحاجيَّة والتحسينيَّة على كثرتها كلها بيد النصارى ايضاً الّا ما ندر وكأن سبب ذلك هو اختصاص المسلمين قديماً بالوظائف والرتب فانحصرت معيشة غيرهم فيما يجيدونهُ من صنائعهم وتجارتهم ولما انفتح الباب في الازمان المتأخرة شاركوا المسلمين في الوظائف وسابقوهم فيما كان خاصاً بهم لمد أيدي المساعدة لهم من الافرنج ودولهم الاجنبيَّة فاتسعت معارفهم الرياضيَّة واتقنت صنائعهم واتسعت تجارتهم وتقهقر المسلمون لوقوفهم فيما كانوا عليهِ بل لانحطاط درجة المعارف لديهم واعراضهم عن الصنائع وغيرها من اوجه التكسب لانحصار الامال في مجرد التوظف في الدولة ولهذا ترى البلاد ممتلأة بالقهاوي وبالقرائتخانات التي هي

قهاوي نظيفة ينتابها الوجهاء من الناس فلذلك صارت الديار الحسنة قليلة في هاتهِ البلد العظيمة التي يتجاوز سكانها المليون وربع واذا ضممت القرى التابعة لها في جوارها مثل بيوك آطه اي الجزيرة الكبيرة وغيرها من بقية الخليج يكون مجموع سكانها مليون ونصف على ما يقال حتى انها كانت هي اعظم البلاد المعروفة وسميت بالقسطنطينية العظمى والحاصل ان طرقها الآن التي لها نوع من الحسن هي طريق يبتدى من بطحاء في وسط استانبول تسمى بميدان السلطان احمد وفي وسطها مسلة من المسلات المصرية متناغية في الهواء فيمر الطريق على الباب العالي ثم على القنطرة الموصلة الى غلطه ثم يمر منها الى الطوبخانة على سمت نحو المستقيم وهكذا يمتد على ذلك النحو الى قبطاش وبشكطاش واورطه كوى ثم قورى شيشمه ثم ارنؤوط كوى ثم الى بيك ثم الى روم ايلي حصار ثم الى يني محله ثم الى طرابيا ثم الى بيوك دره ثم الى نهاية الخليج المسمى بروم ايلي قواغي جهة البحر الاسود والاماكن التي تقدمت اسماؤها كلها حارات مثل البلدان متصل بعضها ببعض ممتدة على طول الخليج وانما كان هذا الطريق محسناً لان اغلب اماكنهِ بها بناآت للدولة او للسلاطين او ابنائهم او بناتهم او وزرائهم او امرائهم او لسفراء الدول الاجنبيَّة او للاغنياء من الافرنج والنصارى اتباع الدولة مع كون شركة افرنجية قد جعلت بذلك الطريق عجلات الترامواي برخصة من الدولة على شرط تحسينها للطريق وتوسعتها لهُ حتى لا يعارض مروره العجلات الاخر وهكذا يمتد هذا الطريق أيضاً بفرع آخر من البطحاء المذكورة ويمر على بطحاء السلطان بايزيد ثم على آق سراي ويمتد هكذا مستطيلا على نحو استقامة الى ان يصل الى آخر استانبول في باب ادرنه ويوجد طريق آخر على ذلك النحو يبتدي من غلطه امام القنطرة ويصعد في جبلها ويمر في بابوغلي التي هي حارة السفراء في الشتاء واما في المصيف فانهم يسكنون في الخليج ومثلهم بقيَّة الاعيان وحسن طريق بابوغلي فائق على الكل لمزيد التحسين في الديار الحافة بجانبيهِ وقد احدثت طرق اخرى كثيرة على النوع المتعارف في اوروبا في جهات سراية يلدز ونيشان طاش الى ان تتصل بطريق بابوغلي لكن هاتهِ الطرق لم تنتظم الديار التي على حافتيها فاغلبها خالٍ عن البناء بالمرة ويمكن ان يقال ان البناآت الحسنة الموجودة في هاتهِ البلاد تكاد اصحابها ان لا يخرجون عن الاصناف الذين ذكرناهم وهذه البناآت قديمها كلهُ من اخشاب ذو طبقتين او ثلاث نادراً وجديدها من بناء اغلبهُ بالطوب المطبوخ الاحمر او الحجارة والمرمر متقاربة الشكل الحسن منها حسن الظاهر والباطن

وصورتها ان يدخل من الباب الى دهليز فيهِ درج قليلة يصعد منها الى الطبقة الاولى التي هي ايوان مثل وسط الدار مسقوف مع بقيَّة بيوتها وفيهِ ابواب هاتيك البيوت التي هي مربعة او مستطيلة وفيهِ ايضاً نحو المقعدين يميناً وشمالا في الغالب ثم تلك الدرج تنبعث صاعدة الى الطبقة العليا التي هي على نحو التي تحتها وتختلف اشكال الدرج في كونها ذات فرع واحد الى آخرها او ذات فرع وفرعين وكل دار تشتمل على عدة مراحيض جميلة الوضع نظيفة كل منها بهِ محل للوضوء ومحل لمنديله بحيث ان الوضوء في هاتهِ البلاد ايسر شيء على صاحبهِ مع نظافة المكان والحق ان جميع الديار بل وجميع احوال السكان نظيفة للغاية كل على حسب حالهِ عسرًا ويسرًا وقصور السلطنة ومساكن السلاطين قد اشتملت على اشكال البناآت المستحسنة في اكثر البلدان واعظمها بهجة ورونقاً قصر دولما بغچه الذي هو الآن قصر السلطنة الرسمي فانهُ لهُ باب عظيم ذو اتقان وتزويق بالذهب لم ارَ مثله قط ضخامة وزخرفة في جميع اوروبا وغيرها وهو ينتح الى بطحاء عظيمة امامهُ وفي مقابلتهِ جامع انيق لهُ باب مقابل ذو بهجة وقريب من باب القصر في الحسن باب ثان يفتح الى طريق بشكطاش وكلا البابين يدخل الى بطحاء عظيمة بها باب القصر الذي هو منقسم الى ثلاثة اقسام في الحجم متصلة ببعضها اوسطها ارتفاعهُ يوازي ارتفاع القسمين الآخرين مرتين وهذا القسم الوسط كلهُ ديوان واحد هو مجلس السلطان في المواكب فانظر الى هذا البيت الذي اتساعه قدر اتساع قصر تام سلطاني فان القسم الاول هو قصر ذو طبقتين وطبقة ثالثة سفليَّة نصفها تحت الارض ونصفها فوقها وتشتمل كل طبقة على دواوين واواوين وحجرات مزخرفة مكللة مزوقة بالذهب والفرش الفاخرة والثريات المتكاثرة وغير ذلك من الزخرفة والابهة التي تأنق فيها السلاطين للمباهاة وهذا القسم خاص بجلوس السلطان للرجال والقسم الثالث مثل هذا القسم وربما زاد عليهِ رونقاً في الفرش وهو مسكن حرم السلطان ثم عند الباب الاول في الذكر قصران يميناً وشمالاً لحاشية السلطان وخاصتهِ وبطانتهِ ووراء قسم الحريم قصر آخر مفصول عن السابق مثل احد القسمين السابقين هو مسكن ولي العهد لكنهُ لا يلقب بهذا اللقب وانما يقال فيهِ اكبر ابناء السلاطين بعد السلطان المستولي وهاتهِ القصور انشاها السلطان المنعم عبد المجيد رحمهُ الله وتسمى دولما بغچه وقريب منهُ قصر آخر انشأهُ السلطان عبد العزيز يسمى تشارغان هو اشد رونقاً وزخرفة في داخلهِ من الاول لكن الاول ابهج منظرًا والجميع على

شاطىء الخليج تفتح اليهِ رواشينها المتكاثرة كما هو شان جميع الديار هناك فلا تجد بين الشباكين ازيد من نصف ذراع او ذراع وعلى نحو من هذين القصرين في قسم اسكودار قصر بناهُ السلطان محمود رحمهُ الله يسمى بكار بك وهو اصغر من الكل ثم قصر آخر بديع للغاية يسمى يقوز حجارتهُ كلها داخلا وخارجًا من المرمر الاحمر والاخضر فنصفهُ الاعلى اخضر والاسفل احمر وهناك قصور أُخرى عديدة صغيرة دون هاتهِ الا القصر السلطاني الآن المسمى يلدز الذي هو في الاصل مثل هاتيك الصغيرة لكنهُ لما رجحهُ السلطان المعظم عبد الحميد للانفراد فيهِ والسكنى بهِ دائمًا تزايدت قصورهُ شيئًا فشيئًا حتى صار ابهى في الداخل من الكل وان كان من خارج لا يظهر منهُ الا القليل لوقوعهِ في وسط بستان متسع ملتف بالاشجار ومحيط بهِ اسوار ومساكن للعساكر على جميع محيطهِ

فصل

في مجمل تاريخ الدولة العثمانية

اعلم ان الدولة العثمانية كانت تأسست عند ما تفرقت الملوك الاسلاميةُ واستبد كل منهم بجهة مع الخروج عن العمل بالشرع بل اتبعوا الشهوات واسترقوا الرعيةَ وتصرفوا في الاموال بحسب الاغراض فضعفت شوكة الاسلام وصارت ممالكهم طعمة للاجانب فرحل من وراء النهر اي نهر سيحون ويعنون بما وراءهُ ما كان على عدوتهِ الشرقيةَ قبيلة من مسلمي الترك تحت رئاسة سليمان شاه جد عثمان خان ملتجئين الى السلطان السلجوقي لما شملهم من ظلم التتر فاظلهم بالامن واسكنهم ارضًا بالاناضول واذن لرئيسهم ارطغرل بعد وفاة ابيهِ سليمان شاه بالغزو حيث كانوا قومًا شدادا متمرنين على الحرب فافتتح بسيفهِ الباتر اراضي وبلدانًا وفوض امرها اليهِ السلطان السلجوقي والى ابنهِ عثمان من بعدهِ فتلقب بالسلطان عثمان وذلك في سنة ٦٩٩ وقد نظم الجد الشيخ محمد بيرم الثاني قصيدة تشتمل على انموذج من تاريخ هاتهِ الدولة مع اسماء سلاطينها ذكرناها هنا لا يفائها بالمقصود وسماها "عقد الدر والمرجان في سلاطين آل عثمان" وهي

اقدم قبل القصد شكرًا لمنعم   علينا بما اربى على كل انعم
على عز هذا الدين والملة التي   وان لحقت فازت بفضل التقدم
واتبعهُ ازكى الصلاة مسلمًا   على اشرف المخلوق قدرا واعظم
نبي لهُ وصف النبوة ثابت   وادم بين الماء والطين فاعلم
﴿محمد﴾ من قد اظهرالله دينهُ   بمكة ذي البيت العتيق المعظم
واعلاهُ بالانصار اذ حل طيبة   فحيا بوجه مشرق ذي تبسم
وما زال محروس الجناب مؤيدًا   بكل امام بالعلا ذي تهمم
محوطًا الى ان آل تدبير امرهِ   وحفظ حماهِ بالخميس العرمرم
لحي حلال يعصم الناس امرهم   اذا طرقت احدى الليالي بمعظم
كرام فلا ذوالضغن يدرك تبلهُ   لديهم ولا الجاني عليهم بمسلم
ملوك بني عثمان سلسلة العلا   غصون نمت اذ فرعت عن غطمطم
فللهِ ما قد شيدوا من بنائهِ   وما هدموا للكفر من كل معلم
لقد احكموا امر الجهاد بما اتوا   باعظم صنع فيهِ من بعد اعظم
فكان لهم والله يكلأ مجدهم   بما فعلوا حق على كل مسلم
وقدرمت في ذا النظم جمع ملوكهم   وبعض مزاياهم لتروى فتعلم
فأولهم (عثمان) با كورة العلا   مذيق الردا من بأسهِ كل مجرم سنة ٦٩٩
لهُ فتحت برصا فاضحت سريرهم   فكان لها في ذاك فضل التقدم
وثانيهم (ارخان) من قد اتت بهِ   كريمة من صلب الولي المعظم سنة ٧٢٦
شجاعتهُ قد اظهرتها حروبهُ   فعنهُ بما تختار فيها تكلم
وثالثهم من نال فضل شهادة   (مراد) محلى القرن حمرة عندم سنة ٧٦١
فذاك الذي قد فض ختم ادرنة   فذاقت بهِ برد الهنا والتنعم
ورابعهم شمس العلا (بايزيد) هم   مواقفهُ في الحرب مرة مطعم سنة ٧٩١
لئن كان مع تيمور ما انفذ القضا   فان ارتكاب الغدر منشا التثلم
ولا عجب للاسد ان ظفرت بها   كلاب الاعادي من فصيح واعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردا   وحتف علي من حسام ابن ملجم
وخامسهم فخر الملوك (محمد)   مجدد هذا الملك بعد التصرم سنة ٨١٦
وسادسهم ثاني (مراد) بن من رقى   من العز مرقى لا ينال بسلم سنة ٨٢٤

تخلى عن الامر اختيارًا لشبله ... وعاد لجبر الحال خوف تألم
وسابعهم فحل الفحول (محمد) ... لهُ فتح اصطنبول اشرف مغنم سنة ٨٥٥
عقيلة عن صيد الملوك تمنعت ... وكلهم في وصلها ذو تهمم
لقد جاءها يختال في العز مودعًا ... خبايا المنايا بين جيش عرمرم
لدى اسد شاكي السلاح مقذف ... لهُ لبد اظفاره لم تقلم
فدحرج عنها سيد الروم خاسئًا ... لدى حيث القت رحلها ام قشعم
وحل بها لما تنادت جنوده ... بتكبير منشي العالمين ومعدم
وقدوسم السيف العدافي رؤوسهم ... كأنهم قد خضبوها بعظلم
فما الحرب الا ما رأوا من بلائهِ ... وما هو عنها بالحديث المترجم
وثامنهم فرع لهُ (بايزيد) هم ... ابو الجود ما ذا سد خلة معدم سنة ٨٨٦
وتاسعهم مفتاح فتح ممالك ... غدت في جبين الدهر غرة ادهم
(سليم) الذي قدحل بالشاه بأسهُ ... فادبر يطوي الارض من قرب جهضم سنة ٩١٨
ولاح بتبريز سناه فاصبحت ... عروسًا تجلت في وشاح منمنم
ومذ برقت بالشام انوار برقهِ ... دعتهُ دعاء البائس المتظلم
فسكن منها روعة بقدومهِ ... وضمت عليهِ سورها ضم معصم
وواجه مصرًا بالاذى اذ تلكأت ... فاجرى بها نيلاً تدفق بالدم
وقد غرها الغوري فغار بدابق ... واقبل طومان كذيب لضيغم
فاصبح مصلوبًا بباب زويلة ... يداس باقدام ويوطا بمنسم
ولم يبق من ابناء شركس ناعق ... كانهم قد لامسوا عطر منشم
واضحى سليم للمقامين خادمًا ... بذاك ينادي للسلاطين خدم
وعاشرهم ذو الرأي والبأس والندا ... (سليمان) جراع العدا كاس علقم سنة ٩٢٦
قد انتظمت بغداد في سلك ملكه ... فصار له امر العراقين ينتمي
وقد ظهرت آثاره لحديثها ... حداة الورى تحدو بها كل موسم
فمنها ويا لله غزوة رودس ... تغنى بها طير الفلا بترنم
وفي سكتوار بعد ان فتحت له ... اجاب الى المولى بقلب مسلم
فلاحت بافق الملك طلعة شبله ... (سليم) عظيم الملك فرع معظم سنة ٩٧٤
لهمتهِ العلياء قبرص اذعنت ... تقابل مسعاهُ بوجهٍ مقسم

وفي يمن من بعد بدء فتوحهِ لوالدهِ الارضي اتى بالمتمم
واحيا بهِ الرحمن تونس عند ما غدت بعد عزةٍ شائخ في تحطم
فشدَّ بضبعي سعدها فاقامهُ وكان بقهر الاسر صاحب مجثم
ومن بعدهِ قد بايع الناس فرعهُ (مرادًا) كريم النفس وابن مكرم سنة ٩٨٣
ويتلوهُ في دست الامامة شبلهُ (مُحَمَّد) مغضي الطرف عن فعل مأثم سنة ١٠٠٣
اقام على اغرى فابدى بافقها سحائب حرب امطرت كل لهذم
وعفر للرحمن في الارض وجههُ فآب بفتحٍ للطواغيت مرغم
وقام ابنهُ ذو الحسن (احمد) بعدهُ يحيي ببدر تحت تاج منظم سنة ١٠١٢
ومن بعد هذا (مصطفى) بن مُحَمَّد اقيم ولكن عقدهُ غير مبرم سنة ١٠٢٦
فبويع (عثمان) بن احمد بعدهُ وأُنزل عن قربٍ لامر محتم سنة ١٠٢٨
وقد عاد بعد الخلع خاقان مصطفى وأُنزل بعد العود مثل المقدم سنة ١٠٣١
فجاء (مراد) نجل احمد بعدهُ فكان كحلمٍ لاح اثر توهم سنة ١٠٣٢
اطل على دار السلام بجيشهِ فأنقذها من رافضيٍّ مذمم
وقد لبست ما زانها لمسرةٍ والقت بما قد شان من ثوب مأتم
وعادت الى عاداتها دار سنة تجرّرُ اذيال الهنا والتنعم
وقد قام (ابراهيم) وهو ابن احمد فللهِ من حزمٍ وحسن توسم سنة ١٠٤٩
بكندية منهُ وقد جاس ارضها باسياف اجنادٍ لها نهشُ ارقم
اقاموهُ عن كرسيهِ وتقدموا لمن هو في عهد الصبا والتعلم
(مُحَمَّد) فرع منهُ فانصدع البنا وهبَّ من الكفار كل تضرم سنة ١٠٥٨
ولكنهُ لما تكامل واستوى بدا منهُ حزمٌ فاضح كل احزم
فتمم فتحًا سنهُ والدٌ لهُ بكندية اعظم بهِ من متمم
وناهيك من فتحٍ يضيق بيانهُ عن النظم فانظر في التواريخ تعلم
ومن بعد هذا تمَّ بالخلع امرهُ فيالك من فعلٍ قبيحٍ مذمم
فقام (سليمان) اخوهُ مقامهُ ولم يألُ جهدًا في صلاح المحطم سنة ١٠٩٩
ومن بعدهِ قد قام (احمد) صنوهُ فبانت جراحٌ لا تداوى بمرهم سنة ١١٠٢
واعقب هذا (مصطفى) بن مُحَمَّد واخر عما نالهُ من تقدم سنة ١١٠٦
فقام اخوهُ (احمد) بعد خلعهِ وسلم لما شام برق التألم سنة ١١١٥

وقد فتحت تبريز قهراً وموزة   بايامه وجه الزمان المطهم
فبويع للسلطان (محمود) بعده   هو ابن اخيه مصطفى المتقدم سنة ١١٤٣
سنه ١١٦٨ ومن بعده قدقام (عثمان) صنوه   ومن بعد هذا (مصطفى) ذوالتقدم سنة ١١٧١
الى الموسقواذ وجه العزم نحوه   وجرد في حرب له كل اصرم
ومن بعده (عبد الحميد) امامنا   اخوه عظيم من عظيم مفخم سنة ١١٨٧
ابان له الله الهدى واناله   رشاداً وتسديداً لدى كل مبهم
فهاك سلاطين الزمان جمعتهم   بنظم كسمط باللآلي منظم
وعدتهم سبع وعشرون قد غدت   سماء العلا منهم تضيء بأنجم
ودولتهم خمس المئيدات عمرت   وفي طول هذا العمر لم تك تهرم
وذا في ثمان بعد تسعين ضمها   الى مائة من بعدها الالف تعلم
وناظمها العبد الفقير محمد   اقل الورى المشهور فيهم ببيرم
يقول تناديني المعالي بقولها   اليك الذي قد قلت فيهم به اختم
ايا دولة اربت على كل سابق   عليها لعز الدين والملة اسلم
وقد سلمت حتى رأت في سريرها   هماماً به الدين الحنيفي يحتمي
(سليم) ابن خاقان الخواقين مصطفى   لدينك يا مولاي صنه وسلم سنة ١٢٠٣
فلا زال منها قائم اثر قائم   الى زمن المهدي وعيسى بن مريم
يقول حفيد الشيخ قدس سره   موافقه في الاسم لا في التعلم
لقد انجح الدعوى بفضل نواله   كريم له النعمى على كل مسلم
بتسليم هذا الامر لليث (مصطفى)   لعبد الحميد الفرد لقب بابنم سنة ١٢٢٢
ولما قضى نحباً قتيلاً من الاولى   اضاعوا التقى واستبدلوا الامن بالدم
تعالى الى دست الخلافة حازماً   اخوه الرضى (محمود) خير ميمم سنة ١٢٢٣
له صولة في الروسيا مع بغاته   فارواهم ماء الردى والتقسم
ومن بعده قام ابنه من لمجدهم   غدى ينشر الاعلام في كل معلم
ألا انه (عبد المجيد) وحيدهم   له النصرة الغراء في كل معظم سنة ١٢٥٥
بحرب القريم الخطب دام مصابراً   فنال المنى من بعد طول تجهم
ونظم قانوناً الى الخير راشداً   وتمم ما ابداه رأي المقدم
فاصبح وجه للبسيطة مبهجاً   بما نالها من فرط عدل متمم

ومن بعد ذا وافى الى الدست ضيغم | له مفخر اربى على كل ضيغم
فذاك الذي عم البسيطة عزه | وسلطانهُ فاق السوى بالتنظم
وان رمت عداً للمآثر تكتفي | بذكر اسمهِ (عبد العزيز) مترجم
لقد خضعت سود الجبال لعزمهِ | فاضحت اعز بالخلافة يأتمي
ومذ ارتقى فوق السرير تتوجت | بافعالهِ هام الزمان بانعم
لذاك تباشير الولاية ارخت | حسيبٌ بهِ الاسلام ما زال يحتمي سنة ١٢٧٧
ولكنما قد حل ما جلّ امرهُ | نخيف من الخطب العظيم المطهم
فتم باهل الحل والعقد خلعهُ | ونادوا بنجل للهمام المقدم
(مراد) ولكن لم يطق عبء حملها | لاخلال شرط بالامامة محرم سنة ١٢٩٣
فنادوا سراعاً مجمعين باسرهم | بمن يحسم الاهوال في كل معظم
الا انهُ (عبد الحميد) امامنا | عماد الورى والدين نجل المكرم
فاربى على كل الملوك مفاخراً | تحلى بها الافاق في كل موسم
تلافى بحسن الرأي ما جل خطبهُ | بدس العدو الموسقو المذمم
فارجع قهراً طاعة الصرب بوسنا | وهرسك بلغارا بنصر متمم
كذا الجبل المسودلان عريكة | بفتك وحلم ثم عاد لاعظم
فكان الى الروس الطغاة معاضداً | وحل القضا اعظم به من محتم
وابقى اله العرش حوط الخلافة | بابقاء جل للممالك محتمي
فاسدى لها سلطاننا فيض عدلهِ | باجرائهِ تأسيس عدل منظم
ولا زال يبدي كل يوم فضائلاً | تترجم عن شد النهى والتقدم
فنسأل من فيض الكريم لهُ حمى | بنصر لاعلام الخلافة مبرم
ودونك بشرى للولاية ارخت | مفتتح ابواب الصفا والتقدم سنة ١٢٩٣
وان رمت بشرى الحال تاريخها اذاً | لعبد الحميد العيد اسعد موسم سنة ١٢٩٧

فتضمنت قصيدة الجد المشار اليهِ عليهِ سحائب الرحمة تاريخ السلاطين الذين اولهم السلطان عثمان وآخرهم السلطان سليم ابن السلطان مصطفى كما تضمن تذييلنا تاريخهم من السلطان مصطفى الى سلطاننا الخاقان عبد الحميد ايدهُ الله وتبين مما سبق ان الدولة العليّة لم تزل منذ ستمائة سنة ولله الحمد قائمة معتبرة بين الامم غير انها منذ نحو مائتي سنة تناقصت سطوتها عما كانت عليهِ لا سيما في حروبها مع الروسيا لان الدولة

الروسيَّة منذ وليها بطرس الاكبر في سنة ١٦٨٢ جعلت مطمح نظرها توهين شوكة الدولة العليَّة والاستيلاء على ما يسمح لها من ممالكها ثم الاستيلاء على بقيَّة المعمور اقتداء بدولة الرومان في استيلائها في عنفوانها على سائر المعروف من الكرة اذ ذاك ويبرهن لهذا صريح الوصيَّة المنسوبة الى ذلك القيصر واول من اشهرها في اوروبا هو فريدريك كياردي سنة ١٨٣٦ وهذا تعريبها

من بطرس الاول الخ — الى كل من يخلفني على تخت الروسيا التحيَّة . فان الله سبحانهُ لم يزل منذ بداية الابد في اعانتنا واسدل فضلهُ علينا بما حملني على الاعتقاد بان الامة المسكوبيَّة تتسلط ان شاء الله على الممالك الاورباويَّة (لا قدر الله) والدليل على ذلك ان الامم الاورباويَّة قد هرم اكثرهم واخذ البعض منهم في التلاشي فان ادركت الروسيا تمام قوتها لا شك انها تتغلب على سائر الممالك لما لها من شوكة الصغر وعندي ان هجوم الامم الشماليَّة على اوربا من احكام القدرة الالهيَّة التي لا بد من نفوذها كما وقع سابقاً عند هجوم الامم المذكورة على مملكة الرومانيين فاحيتها بعد اضمحلالها وانا وجدت الروسيا جدولاً صغيرًا فتركتها نهرًا وارجو انهُ باعتناء من يخلفني تصير بحرًا عظيماً يغطي بمياههِ اوربا باسرها ولا يتعرض لسيلانهِ عرمرم فحملني هذا الاعتقاد على ان اقرر هنا الاصول التي لا بد من اتباعها نظرًا الى ادراك هذا المقصود المعتبر وهي

اولاً

على ملوك الروسيا ملازمة الحرب لتكون جيوشهم دائماً على حال الرياضة والاستعداد فلا يكفوا عن الحرب الَّا لاصلاح شأن الماليَّة وجبر ما نقص من العساكر وتربص فرصة الهجوم على الاعداء فالحرب والصلح يتناوبان حسبما تقتضيهِ الحاجة نظرا الى توسيع دائرة شوكتنا وفلاح البلاد

ثانياً

عليهم ان يجلبوا من سائر الاقطار الاورباويَّة العارفين بالفنون الحربيَّة مدة الحرب واما مدة الصلح فعليهم جلب من اشتهر من العلماء لتنفيع الروسيا بما يلائم الاخرى من دون خسارة ما لها طبيعة

ثالثاً

عليهم التداخل في سائر احوال الممالك الاورباويَّة وخصوصاً المانيا لقربها الينا

رابعاً

التداخل في احوال بولونيا وفي انتخاب ملوكها حتى لا ينتخب الأ المحب للروسيا وادخال جيوشنا بها لحماية هولاء الملوك الى ان يتيسر التسلط على البلاد راساً فان تعرضت الدول الاخرى تجب الاجابة الى مطالبهم الى ان نقدر على استرجاع ما سلمناهُ

خامساً

نأخذ من مملكة السويد ما يمكن اخذه ونجعل بينهم وبين الدانمرك عدواناً دائماً

سادساً

لا يتزوج اهل بيتنا الأ بنات ملوك المانيا لتاكد المحبة بين الروسيا والمانيا وتكثير وسائل المواصلة بينهما

سابعاً

يجب الاعتناء بمحالفة انكلترا لما لها من الحاجة الى اشجارنا لسفنها ولما نستفيدهُ منها نظراً الى اصلاح شأن اسطولنا فضلاً عن تبديل فائدة تبديل ما لنا من الخشب وغيره من النتائج بذهب انكلترا وما ينشا منهُ من كثرة المواصلة بين تجارها وتجارنا

ثامناً

نمتد بقدر الامكان من جهة الشمال وعلى شواطيء البالتيك كما يجب السعي بالامتداد من جهة المغرب وعلى شواطيء البحر الاسود

تاسعاً

نقرب من القسطنطينيَّة والهنود بقدر الامكان فمن ملك القسطنطينيَّة فقد ملك الدنيا فبناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع الترك ومملكة الفرس وجعل ترسخانات بشواطيء البالتيك والبحر الاسود وهذا من اللازم لنجاح ما قصدناه وينبغي ايضاً تعجيل مملكة الفرس من الاضمحلال وتنشيط التجارة التي كانت بين الشام وجبل قاف فنتقدم الى الهند التي هي مخازن الدنيا وان حصلنا على ذلك لا حاجة لنا بذهب انكلترا

عاشراً

يجب السعي في تاكيد المحبة مع دولة النمسا باسعافها ظاهراً على ما قصدتهُ من التسلط على المانيا مع اننا نحرض عليها ملوك المانيا سراً

حادي عشر

نشارك النمسا فيما قصدناهُ من اخراج الترك من اوربا فان ظفرنا بالاستيلاء على القسطنطينيَّة واظهرت دولة النمسا شيئًا من الغيرة لاجل ذلك فاننا نحث دولة من دول اوربا على محاربتها او نسلم لها جانبًا مما حصلنا عليهِ ونسترجعهُ في اول فرصة

ثاني عشر

نجمع سائر الاغريق ببولونيا وبمالك النمسا ونسعفهم بقدر الامكان بالحماية والدفاع عنهم حتى يكونوا لنا احباء ما بين الاعداء

ثالث عشر

بعد الاستيلاء على مملكة السويد وغلبة الفرس وبولونيا والتسلط على الممالك العثمانيَّة وجمع جيوشنا ودخول اساطيلنا بالبالتيك والبحر الاسود نشرع في المفاوضة السريَّة مع فرنسا ودولة النمسا في قسمة الدنيا بيننا فان ارتضت احدى الدولتين ما نعرضهُ عليها نستعين بها على قهر الاخرى ثم نهجم عليها ونغلبها ولا يصعب علينا ذلك حينئذ حيث يكون بيدنا ملك المشرق ومعظم اوربا

رابع عشر

ان امتنعت كلا الدولتين المذكورتين مما نعرضهُ عليها وهذا مما يبعد وقوعه يجب السعي بتحريض احداها على الاخرى فنتربص الفرصة ونهجم على المانيا بجيش عظيم ونوجه اسطولين الى البحر المحيط والبحر الاوسط للاستيلاء على فرنسا وبعد قهر فرنسا والمانيا لا يصعب الاستيلاء على بقيَّة ممالك اوربا . اه

وهاتهِ الوصيَّة وان انكرتها رجال الدولة الروسيَّة لكن السيرة السياسيَّة والعسكريَّة الموجودة في الخارج من ذلك التاريخ الى الآن تصدق وجودها اذ هي مطابقة لها مطابقة النعل للرجل فلا زالت تمد سطوتها في اسيا واوربا ولما كانت الدولة العليَّة هي الدولة ذات الشأن المجاورة لها في كل من القارتين مع مخالفة الديانة جعلتها مطمح نظرها ووجدت سبيلاً لمخادعة الدول الاورباويَّة بالانتصار للمسيحيين الموافقين لهم في الديانة لما تدعيهِ من التعدي عليهم فتريد تحريرهم من استيلاء الدولة العليَّة عليهم على ما سيرد بسطهُ في الفصل الاول من الخاتمة فجعلت تثير ثورات في احد الاقسام ثم تنتصر لهُ بان يجعل لهُ ادارة مستقلة في داخليتهِ وبعد مدة تغريهِ بالاستقلال وتنتصر لهُ فاذا تمَّ

استقلاله لا تلبث ان تبتلعهُ ثم تنتقل الى قسم آخر يواليهِ وهكذا ولما تفطنت الدولة العليَّة الى هذا المقصد تداركت الامر باصلاح الادارة على حسب ما تقتضيهِ الاصول الشرعيَّة ويزيل تلك الاعتراضات حتى تتقوَّى وتمنع نفسها وتستميل بقيَّة الدول الاوروباويَّة الى انصافها من مشاحنها فتعاطى المرحوم السلطان محمود مبادي الانتظام بعد ان لاقى متاعب شديدة مع العساكر الينكشاريَّة الذين كانوا اعظم اسباب التخضرم في الممالك العثمانيَّة العليَّة حيث عاثوا في الارض بظلم الرعيَّة والاستيلاء على الاحكام السياسيَّة في القاعدة وانحاء الممالك وخروجهم عن طاعة السلاطين وتلاعبهم بهم هذا بعد ان كانوا هم عدة الاسلام وناشري اعلام انتصارهِ عند ما نظمتهم الدولة الى خلال القرن الحادي عشر فابتدأوا بما سبق ذكرهُ وتمادوا عليهِ الى ان وهنت الشوكة وتداركها السلطان محمود فازال ذلك الصنف بالمرة بعد حرب ذريعة ونظم عوضهم العساكر النظاميَّة على نحو انتظام العساكر الاوروباويَّة في الممالك المتمدنة مع انهُ كان اذ ذاك في تعب عظيم من حرب الروسيا التي كانت خاتمتها معاهدة ادرنة الموهنة لتمام استقلال الدولة العليَّة والجاعلة للروسيا اليد في احوال الممالك العليَّة وكذلك كان السلطان في مهم من ثورة الاغريق في جزيرة مورا وأُضيف اليهِ غدر الاسطول الانكليزي باسطولهِ واساطيل الولايات التابعة للخلافة كمصر وتونس والجزائر اذ بينما تلك الاساطيل العظام راسية في بحار الجزر للاحتراس في شأن ثورة مورة واذا بالاسطول الانكليزي وارد عليها في صورة المعاضد لان السلم متأكد بين الدولتين ولم تكن بينهما شائبة حرب بالمرة واشارت الاساطيل الى بعضها بعلامات السلم فلم تلبث ان تخللت بين الاساطيل العثمانيَّة حتى اذا تم تمكنها منها اطلقت عليها النيران من جميع الجهات في آن واحد مع شدة الالتحام والتداخل والمسلمون في حال الدعة اعتمادًا على السلم المحقق فهلكت جميع تلك الاساطيل وغرقت في لجة البحر دفعة واحدة بمن فيها فكانت حادثة لا تنسى ولا تمحي من صفحات التواريخ حتى ان اعضاء مجلس الاعيان ومجلس النواب من الانكليز انفسهم هاجوا وماجوا على دولتهم من تلك الفعلة والزموا الوزراء بالمحاكمة والقصاص فانكر وزير البحريَّة اذنهُ بذلك وقال ان فعل رئيس الاسطول لما فعل هو افتيات منهُ ولا علم للدولة بهِ فألزموا احضارهُ والحكم عليهِ بالقتل وعند ما أُحضر ورُوفع في مجلس الحكم وصدر الحكم بقتلهِ وعلم انهُ لم يبقَ لهُ مفر اقبل على وزير البحريَّة وسارَّهُ في اذنهِ بقولهِ ايها الوزير ان تلك البطاقة التي بخطك قد نسيت ان احرقها وها هي الآن في جيبي فبهت وجههُ واطرق صامتًا ثم عقد جلسة

سرية واطلق سبيل الرجل ويقال ان الحامل على ذلك ما هو مركوز في طباع الدول سيما اذا كان القصد هواركاس المسطوعليهِ لما يأتمر بهِ الساطي يد ان الدولة الانكليزية لم تزل من ذلك الوقت الى الآن تعاضد الدولة العليَّة وتنصح لها وتظاهرها متى استطاعت كما ياتي ومع هاتهِ الشدائد التي تقدمت الاشارة الى بعضها فالسلطان محمود رحمهُ الله ونعمهُ لم يزل جلدًا مقداماً حتى انهُ لما بلغهُ خبر الاسطول وهو يحادث احد كبراء دولتهِ لم يزد على سؤالهِ عن تحقق الامر من غير انزعاج ثم عاد لحديثهِ الذي كان فيهِ وشمر عن ساعد الجد في تجديد الاسطول واقرار الراحة بانتظام العساكر النظامية والاحكام السياسيَّة والشرعيَّة فاخترمتهُ المنيَّة قبل الاستتباب وتسلطن ولدهُ السلطان عبد المجيد فاخذ في السعي في الانتظام وتغيير السيرة القديمة الى التهذيب الوقتي الذي هو موافق للشرع العزيز كما يأتي في الفصل الرابع من الخاتمة واصدر الفرمان العالي المحدث للتنظيمات وتعريبهُ هو

من المعلوم عند الجميع ان دولتنا العليَّة لم تزل من مبدإ ظهور امرها معتنيَّة بكمال الرعاية للاحكام القرآنيَّة الشريفة والقوانين الشرعيَّة المنيفة وان سلطنتنا السنيَّة قد وصلت بذلك الى الدرجة القصوى من القوة والمكانة ورفاهيَّة الرعايا وعمارة المدن والقرى الَّا انها منذ مائة وخمسين سنة تناقصت قوتها ومعموريَّة ممالكها واخذت في التاخر والضعف وذلك لغوائل متعاقبة واسباب متنوعة نشأ منها تجاوز الحدود الشرعيَّة والقوانين المرعيَّة ولا يخفى ان الممالك التي لا تنسج ادارتها على منوال القوانين الشرعيَّة لا تدوم استقامتها فلذلك لم تزل افكارنا منذ جلوسنا على سرير الملك مصروفة الى تدبير وسائل عمارة الممالك ورفاهيَّة الاهالي مما يحصل بهِ المطلوب في مدة يسيرة بعون الله تعالى نظرًا الى حسن الموقع الجغرافي المحتوي على ممالك دولتنا العليَّة ذات الاراضي الخصبة والاهالي ذوي الاستعداد وتمام القابليَّة الى ان راينا من المهم وضع قوانين جديدة موسسة على القواعد الشرعيَّة المشيدة واعتمادنا في وضع ذلك على العناية الربانيَّة متوسلين بحرمة سيد البريَّة صلى الله عليهِ وسلم ومدار القوانين المشار اليها على وجوب حفظ النفس والعرض والمال وعلى بيان المرجع في تعيين الاداء وجلب العساكر اللازمة اما وجوب حفظ النفس والعرض فلكونهما اعز الامور الدنيويَّة فاذا خشي الانسان عليهما اضطر الى التشبث بمن يرجو بهِ وقايتهما كائنًا من كان وان لم يكن في اصل فطرتهِ مجبولا على الخيانة ولا يخفي ان ذلك مما يضر بالدولة والمملكة بخلاف ما اذا كان آمنًا

على نفسهِ وعرضهِ فانهُ لا يحيد عن طريق الصدق والاستقامة وصرف الهمة الى حسن الخدمة لدولتهِ وملتهِ. واما المال فان من نقد الامن عليهِ لا يتأتى لهُ القيام بحقوق دولتهِ اذ لا يخلو دائماً من شغل بال واضطراب حال بخلاف ما اذا كان آمناً على مالهِ فانهُ يشغل نفسهُ بما يعنيهِ في دينهِ ودنياهِ وينظر في توسيع دائرة معارفهِ وعيشهِ وبذلك يتمكن من قلبهِ حب الوطن وتشتد غيرتهُ عليهِ وعلى دولتهِ ويكون سعيهُ على حسب ذلك واما تعيين الاداء فالمرجع فيهِ ان كل دولة تحتاج في حفظ ممالكها الى القوة العسكرية كما تحتاج في ضبط تصرفاتها الى مصاريف لازمة فلا بد لها من مبلغ وافر من المال بحسب احتياجها وانما يتحصل ذلك بما يضرب على اتباع تلك الدولة فلزم ان يوضع للاداء المشار اليهِ طريقة مستحسنة وذلك ان الاستبداد وان بقيت معهُ ممالكنا سالمة والحمد لله على ذلك لكن ظهرت آثارهُ من الاختلال والخراب وذلك لان جعل زمام مصالح المملكة السياسية وامورها المالية بيد شخص واحد موكولة الى اختيارهِ بل لا مانع ان يقال موكولة الى قهرهِ وجبرهِ يتسبب عنهُ ما ذكر خصوصاً اذا لم يكن ذلك الشخص من اهل الخير فانهُ يوثر منفعتهُ على منفعة الغير وتكون تصرفاتهُ مبنيَّة على الظلم والضير فوجب لذلك ان نبادر بترتيب معيار مضبوط يعتبر في توزيع الاداء على الاهالي مراعى فيهِ قدر المكاسب واليسار بحيث لا يؤخذ من احد ما فوق مقدورهِ بعد ان يجعل لمصاريف الدولة اللازمة للعساكر وغيرها حد محدود بقوانين لا تتعداها واما جلب العساكر فهو من اهم ما يتوقف عليهِ حفظ الدين والوطن والذب عنهما فيلزم الاهالي ان يقدموا اشخاصاً منهم للخدمة العسكرية لكن الطريقة الجارية في ذلك الى الآن معا فيها من عدم الانتظام تؤدي الى اختلال اصول الزراعة والتجارة والى قلة التناسل (فيقع النقص في الاموال والانفس والثمرات) ومنشأ ذلك عدم اعتبار عدد النفوس الموجودة ببلدان المملكة فيؤخذ من بعضها اكثر من المقدور ومن بعضها اقل من الميسور واستمرار الجندي في الخدمة العسكرية مدة حياتهِ وبذلك يقل النسل ويحصل الضجر المخل بفوائد الخدمة المذكورة فبناء على ذلك نرى من اللازم اذا مست الحاجة لاخذ العسكر من الممالك ان يوضع لذلك اصول مناسبة جارية على منهج المساواة المطلوبة ثم يسلك في الاستخدام العسكري طريقة المناوبة بحيث لا يبقى الشخص في الخدمة المذكورة اكثر من خمسة اعوام مثلاً فبهذه الاصول التي عليها مدار القوانين والتنظيمات يحصل بعونة الله نمو العمران والقوة والامن والراحة فلذلك نقول يلزم من الآن فصاعداً ان لا يعامل احد

من ارباب الجرائم والجنايات بما يفضي الى اتلاف نفسهِ من سم ونحوهِ بدون مبالاة بل لا يحكم عليهم الا بما تقتضيهِ القوانين الشرعيَّة وان لا يسلط احد على الوقوع في عرض آخر وهتك حرمتهِ وان يتصرف كل انسان في امواله واملاكهِ بغاية الحريَّة وعدم المعارضة وان من جنى جناية لا يحرم ورثتهُ من حق وراثتهِ بالاستيلاء على امواله لجناية التي هم براء منها وهذه المساعدة منا جارية في حق المسلمين وغيرهم من اهل الملل التابعين لسلطنتنا بدون استثناء احد منهم ولاتمام الامان وتعميم الاطمئنان يزاد في اعضاء مجلس الاحكام العدليَّة قدرما يلزم للنظر في سائر اللوازم وفصلها بما يتفق عليهِ الاكثر وعلى وكلاء دولتنا العليَّة ان يحضروا المجلس المذكور في بعض الايام ويبدي كل واحد ما يستصوبهُ دون تحاش ولا مداراة واما المفاوضة في شأن التنظيمات العسكريَّة فانها تكون بدار الشورى الكائنة بمحل السر عسكر وكل ما يستقر عليهِ الرأي من القوانين يعرض علينا لنوشحهُ بالخط الميمون ويكون دستور العمل الى ما شاء الله وحيث كان وضع القوانين الشرعيَّة المشار اليها انما هو لاحياء الدين والدولة والملك والملة اكدنا ذلك بالعهد والميثاق من طرفنا الملكي على ان لا يصدر منا شيء يخالفها واقسمنا على ذلك في بيت الخرقة الشريفة بمحضر جميع العلماء والوكلاء وسيحلف كل منهم على ذلك فاذا صدر بعد ذلك من احد الوزراء والعلماء ما يخالف تلك القوانين الشرعيَّة فانهُ يجازى بالتأديب المناسب لجريمتهِ الثابتة بدون التفات لرتبتهِ ولا مراعاة لذاتهِ وحيث ان مأموري الدولة لهم مرتبات كافية ومن ليس لهُ ذلك الآن سيرتب لهُ ما يكفيهِ وجب ان نشدد في قطع مواد الرشوة المستبشعة طبعاً وشرعاً بوضع قانون يخص عقوبتها ولاستبقاء التنظيمات المشار اليها والاصول المبنيَّة ثم عليها المغيرة للعوائد الجورية القديمة وجب ان ننشر هذه الاوراق السلطانيَّة الى سفراء الدول المتحابة المقيمين بالاستانة العليَّة ليكونوا شاهدين على امضائها كما ننشرها الى اهالي الاستانة وسائر ممالكنا المحميَّة فمن سعى في حل عرى هاتهِ القوانين الموضوعة على اساس شرعي متين فعليهِ لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ولا ينال فلاحاً الى يوم الدين ونسأل الله تعالى ان يوفقنا لاجراء هذا الخير العميم آمين ".اه

ثم ان الجهلاء واصحاب الفوائد الشخصيَّة من المنتسبين للعلم او من اهل السياسة كادوا ان يحدثوا تحييراً في الممالك باشاعة ان التنظيمات تضادد الديانة الاسلاميَّة فاضطر المرحوم السلطان عبد المجيد الى ازالة هذا الوهم من الافكار بارساله شيخ الاسلام احمد عارف الى الممالك فقام فيهم خطيباً يشرح ان الشرع المحمدي لا يخالف التنظيمات بل

يقتضيها ولما كان هذا العالم معروفاً بالرسوخ في العلم والورع انقادت العامة لمواعظهِ اما ذوو الغايات الخصوصيَّة من ذوي الرياسات فلم يألوا جهداً في تعطيل اجراء التنظيمات بالفعل الى ان وجدت الروسيا سبيلاً الى المداخلة سنة ١٢٧٠ فاضطرت الدولة العليَّة الى حربها المعروفة بحرب القريم وظاهرها كل من دولتي فرنسا وانكلترة وسردانيا حيث توجه نامق باشا الى فرنسا والقى على مسامع الامبراطور نابليون الثالث باعانة وزيرهِ دوروان دولويز ان غض النظر عن تطاول الروسيا لا تأمن بوائقهُ الدول الغربيَّة لان الروسيا لا سمح الله لو تسلطت على الاستانة اما حساً او معنًى لملكت التسلط على البحر المتوسط وحجرت التجارة عن سائر الممالك الشرقيَّة من الممالك الغربيَّة وايضاً تحصل على النفوذ السياسي الذي تخضرم بهِ الدول الغربيَّة اذا لم نقل انها تستولي عليها وحيث كانت فرنسا ناشرة راية الفخر في المعمور لا يسوغ لها اغضاء النظر عن هذا الحادث وترك الدولة العليَّة منفردة مع خصمها الالد وبسط هذا المعنى بحرارة نفس حركت النخوة الفرنسوية في الامبراطور فاجابهُ الى معاضدة الدولة العليَّة واشار عليهِ بان يستوثق من انكلترا محالفتها ومعاضدتها فما وصل الى لندرة حتى وجد القوم في قلق من انتظارهِ وكادوا ان يحملوهُ على الاعناق وفتحت دار الندوة لمطلبهِ وتلقاهُ اهلها بالرحب والقبول وحماية الذمار فلم تلبث الحرب بضع اشهر حتى اعلنت فرنسا وانكلترا حربهما للروسيا وانضمت اليهما دولة سردنيا اذ كان ذلك تسبباً منها لاتحاد ايطاليا ودخولها في زمرة الدول العظام وامتدت الحرب واستعرت نيرانها الى ان سلمت الروسيا للصلح على شروط معاهدة باريس ومضمونها هو ابقاء استقلال الدولة العليَّة في جميع اجزاء ممالكها واستقلالها في سائر تصرفاتها الداخليَّة التي يشترط فيها الحرية والامن التام لرعاياها على اختلاف اصنافهم واما الممالك التي لها استقلال في ادارتها وهم من النصارى كالصرب والجبل الاسود والافلاق والبغدان فتبقى ممتازة تؤدي الخراج للدولة تحت حمايتها واما البحر الاسود فيكون حائداً حتى لا يسوغ لاحدى الدولتين المالكتين لشطوطهِ جعل سفن حربيَّة فيهِ سوى عدد يسير لمجرد حفظ الراحة الداخليَّة وكذلك نهر الطونة يكون نهراً تجاريًّا فقط تحت مناظرة جمعيَّة اورباويَّة ومن ذاك الوقت تخلصت الدولة العليَّة من اثقال الروسيا السابقة ودخلت في سلك الدول الاورباويَّة العظام وتكفلت الدول باستقلالها ومن سوء البخت لم يزل اغلب المتوظفين في غفلاتهم مصرين على السيرة الاستبداديَّة والعدو منهم بالمرصاد فالف جمعيات سريَّة في قواعد مملكتهِ وارسلت عمالها الى الولايات العثمانيَّة التي اغلب

سكانها نصارى والقوا دسائسهم بتعليم الثوران والقاء العداوة بين الراعي والرعيَّة هذا وسفير الروسيا في قاعدة الخلافة يحسن اوجه التودد الى الروسيا والاستماع الى نصائحها الملائمة لطباع من استمالهُ من الرجال من الاستمساك بالسيرة الاستبداديَّة التي هي سيرة الروسيا لكن على شرط التسليم في الولايات التي يسكنها الصقالبة وبذلك تعقد دولة الروسيا مع الدولة العليَّة معاهدة على الذب والاقدام وتعوضها بمعاضدتها ممالك اسلاميَّة عوضاً عمَّا يخرج من عندها وتساعدها ايضاً على الحط من ديونها الى المقدار الذي يظهر لها فاثرت هذه الوساوس واعلنت الدولة العليَّة بعدم اقتدارها على دفع فائدة ديونها حتى اغتاظت منها سكان اوربا واستعمل الاهمال في شأن تلك الجمعيات السريَّة حتى ثارت ولايتا بوسنه وهرسك ثم البلغار ثم الجبل الاسود ثم الصرب وتدارك رجال الدولة الصادقين الخطب بتفطنهم الى الدسائس الباطلة التي ليس القصد منها الاَّ اضعاف الدولة بيدها وجعلها في قبضة عدوها وافرادها عن الدول الناصحة لها مع انها استقرضت من رعاياهم منذ سنة ١٢٧٠ نحو خمسة الاف مليون فرنك ولم يحصل منها ومن مداخيل الدولة التي هي نحو عشرين مليوناً ليرة في السنة على ممر تلك السنين التي هي نيف وعشرون سنة ممَّا يصح ان يعد الاَّ ما تضمنهُ التقرير الذي قراهُ الصدر الاعظم بمحضر السلطان عبد العزيز في الباب العالي وهذا مضمونهُ «انهُ قد اتخذ جميع الوسائل اللازمة لاصلاح شأن المجالس الحكميَّة واتقان تنظيمها وترتيب خدمتها على اعدل وجه ممكن حتى ينال جميع رعايا الدولة منها غاية مأمولهم من حسن المعاملة والانصاف من غير مراعاة الجنسيَّة ولا المذهب وانهُ بذل جهدهُ في اصلاح قوى الدولة وتنظيمها على ما يعادل تنظيمات الدول الاخرى وان جملة العساكر مع الرديف تبلغ الآن ثمانمائة الف نفر مجهزة الجهاز التام ومصحوبة بما يلزمها من المدافع المتقنة حسب الاختراعات الجديدة وان الاساطيل اعتنى باصلاحها غاية الاعتناء حتى اصبحت الدولة العثمانيَّة الآن عندها منها ما يجعلها بمنزلة الدول البحريَّة الكبار وانهُ متى نجزت السفن المشروع الآن في انشائها في الترسانة العليَّة يكون للدولة من الفرقاطات المدرعة والمونيتور (وهي سفن ذات ابراج) سبعة عشر فلكاً وانهُ أبرز الاوامر اللازمة لتحصين سائر حدود السلطنة بالابراج والحصون حسبما تقتضيهِ ضروريات الوقت وانهُ جهز ترسانات الدولة بالادوات والماكينات والمهمات اللازمة حتى صارت الآن تستطيع ان تجاري ترسانات اوربا في انشاء السفن الحربيَّة او اصلاحها وانهُ يفرغ عما قريب من انشاء المصنع الجديد الذي شرع في انشائهِ

منذ مدة في الطوبخانة وهومصنع يستطيع ان يصب ثلاثمائة مدفع في كل عام من أحسن مدافع الشيشخان وان اهتمامهُ الآن بمساعدة وزير المعارف واقرانهِ الوزراء الاخر موجه الى تكثير عدد المكاتب والمدارس توفيراً لاسباب التعليم وترتيبها على وجه يمكن سائر الناس من الانتفاع بها الانتفاع المطلوب وان الاعمال المتعلقة بالسكك الحديديَّة والطرق المعدة لسير العجلات واقع الاهتمام بها من غير انقطاع ولا توانٍ وان في اواخر اغسطس الآتي تكمل سكة الحديد المشروع في انشائها بين اسكودار وازميد وان الحراثة لايزال موجهاً اليها كل ما تستحقهُ من عظيم اعتنائهِ واهتمامهِ وتنال يوميًا من التسهيلات سائر ما تحتاج اليهِ منها دوام اعفاء الادوات والآلات اللازمة لها على اختلاف انواعها من اداء رسوم الكمرك على الاطلاق في سائر اقاليم السلطنة وهذا كلهُ لزيادة ترغيب الناس في الاشتغال بها حالة كونها هي اعظم ينابيع الثروة في الممالك وختم الصدر الاعظم تقريرهُ بقولهِ ان ماليَّة الدولة باقية على ما كانت عليهِ » . هذا وبعض التقرير لم يكن في الخارج طبق ما ذكر ولهذا تفاقم الامر فيما بعد الى ان استندت رجال السياسة والعساكر الى فتوى من شيخ الاسلام في اختلال فكر السلطان واولوا السلطان مرادًا وحيث كان ضعيف المزاج وانزعج بكيفيَّة ولايتهِ وبموت عمهِ وبالثورة على الوزراء من بعض المعينين لم يطق تحمل عبء الخلافة فاستند اهل الحل والعقد الى فتوى ايضاً واولوا سلطاننا عبد الحميد ايدهُ الله فتدارك امر الادارة باصدارهِ الخط الهمايوني عند تقلدهِ البيعة وهذا تعريبهُ

" انهُ لما اعتزل اخي الاكرم حضرة السلطان مراد الخامس عن مشاغل السلطنة والخلافة وفرغ منها جلسنا بموجب القانون العثماني على تخت اجدادنا العظام وقد وجهنا لعهدتكم مسند الصدارة العظمى ورياسة مجلس الوكلاء ابقاء وتجديدًا بناء على ما لذاتكم من الرويَّة المسلم بها والحمية المجربة وما لكم من الوقوف والاطلاع على مهم امور الدولة وكذلك اقررنا جميع الوكلاء على مناصبهم وانني شديد الاتكال في جميع الاحوال على تسهيلات جناب موفق الامور (هو الله سبحانهُ وتعالى) وتوفيقاتهِ الصمدانيَّة وقصارى آمالي ومقاصدي معطوفة بالحصر لتأييد اساس شوكة دولتنا ومكنتها بحيث تنال صنوف تبعتنا بلا استثناء الحريَّة ويتنعمون جميعاً بنعمة العدالة والرفاهيَّة فاؤمل بثقة تامة ان جميع وكلاء دولتنا وعمالها يشاركوننا في هذا الاثر ويعاوننا عليهِ وقد عرف الناس اجمع بان حال البحران والاغتشاش الملم بدولتنا لهُ جهات واسباب متنوعة وصور واشكال متعددة فاذا امعنا النظر في ذلك من اي جهة كانت تجتمع مباديهُ واسبابهُ في نقطة واحدة وهي عدم

جريان القوانين والنظامات المؤسسة على الاحكام الجليلة الشرعيَّة التي هي المسند الاساسي في دولتنا على حقها وتمامها واتباع كل فرد اهواء نفسهِ في ادارة الامور اما اتساع ميدان عدم الانتظام الطارىء على ادارة دولتنا ملكاً ومالاً وما حصلت عليهِ امور ماليتنا من عدم الامنية في الافكار العموميَّة وتعذر وصول المحاكم الى الدرجة المتكفلة بتأمين حقوق الناس وتاخر استفادة مملكتنا حالة كونها قابلة لانواع وسائل العمران كالحرف والصنائع والتجارة والزراعة كما هو مسلم فهو من عدم الثبات الذي وقع على كل ما شرع بهِ من الاجراآت وكل ما حصل من التشبثات الصادرة عن نيَّة خالصة لمقصد اعمار مملكتنا ورفاهيةُ حال رعايانا وتبعتنا وسعادة حالهم ونوالهم بدون استثناء الحريَّة الشخصيَّة وكون ذلك باجمعهِ صار عرضة لتغييرات متنوعة منعت انتاج المقصد الاصلي فلا ريب في انهُ تولد ونشأ عن عدم الثبات باتباع القانون والنظام ولذا كان من اهم ما يلزم ان التدابير الواجب وضعها اولاً فاولاً في مطلب قوانين المملكة المقتضي وضعها وتنظيمها في صورة تتكفل بامنية العموم وثقتهم ينبغي ان يبتدا بها من هذه النقطة المهمة وهي ان يترتب مجلس عمومي تكون افعالهُ وآثارهُ مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم ويكون موافقاً لقابليَّة مملكتنا واخلاق اهاليها كافلاً باتمام تامين اجراء القوانين حرفاً بحرف سواء كانت القوانين الموجودة او التي تتأسس من الآن فصاعدًا توفيقًا (موافقة) لاحكام الشرع الشريف المقدسة ولما هو بالحقيقة ضروري ومشروع لمملكتنا وملتنا وناظرًا في موازنة واردات الدولة ومصاريفها فليبحث الوكلاء في هذا المطلب ويتذاكروا فيهِ بتدقيق وتأمل ويعرضوا قرارهم لدينا ويستأذنوا عنهُ ثم لما كانت مسئلة توديع الماموريات الى غير اهلها من المامورين وتبدلاتهم المتوالية من غير سبب مشروع هي من جملة الامور الباعثة على ايقاع جريان القوانين والنظامات كما ينبغي في حيز الاشكال وهذا مما ياتي بكبر المضرة ملكاً ومصلحة فينبغي ان يتعين من الآن فصاعدًا مسلك مخصوص لكل نوع من الخدم والماموريات وتتخذ قاعدة ثابتة يستخدم بمقتضاها في كل عمل من يكون اهلاً لهُ ولا يعزل احد او يبدل من ماموريتهِ بلا موجب على وجه ان تكون كافة الوكلاء وماموري الدولة كبارًا وصغارًا مسئولين عن الوظائف الموكولة لهم كل بحسب درجتهِ وكما هو معلوم لدى الخافقين ان ترقيات ملل اوربا الماديَّة والمعنويَّة انما هي حاصلة بقوة الفنون والمعارف ولما كان استعداد كافة صنوف تبعتنا وما فطروا عليهِ من الذكاء والحمد لله يؤهلهم من كل وجه للترقيات واهم ما لدينا من الامور

الاسراع بتعميم المعارف فاخص ما نتمناهُ والحالة هذه ان يحصل الاجتهاد بابلاغ تخصيصات المعارف الى الدرجة الكافية حسبما يساعد الامكان وان تستحصل الوسائل الموصلة لتعميم نشر اصول المعارف على النور ويبادر عاجلاً لاصلاح الاصول الملكيَّة والماليَّة والضبط في الولايات بحيث توضع ضمن دائرة الانتظام في صورة مناسبة للقاعدة التي تتخذ في المركز وحيث ان الحادثة التي ظهرت في العام الماضي في اطراف هرسك وبوسنة باغراء ارباب الاغراض قد انضم لها ايضاً مسئلة عصيان الصرب والدم المهرق من الطرفين انما هو دم اولاد وطن واحد وكان دوام هذه الحال التي يرثى لها موجب لكدرنا وتاثرنا الشديد يلزم التشبث بالتدابير المؤثرة المفضية لاستئصالها وفيما نؤيد مجدداً كافة احكام المعاهدات المنعقدة مع الدول المتحابة نؤثر رعايتها على الوجه الحسن فينبغي المثابرة بالاجتهاد على ازدياد روابط الحب والمسالمة المتبادلين بيننا وبين الدول ونسئل حضرة الرب المتعال ان يقرن مساعينا جميعاً بتوفيقاتهِ السبحانيَّة في كافة الاحوال آمين . يوم الاحد في ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٣ »

ثم اعمل الحزم في الثورة وقهر جميع العصاة في سائر الانحاء وعند ما رأت الروسيا تهلهل الوسائل التي اعدتها لم تطق صبراً حتى جيشت الجيوش ووقفت على قدم الحرب بدعوى ان تعهدات الدولة العلية في حق النصارى لم تجرِ وانهم لا زالوا في الظلم من الولاة والتعدي من المسلمين وان تعهداتها الجديدة الموافقة للائحة الكونت اندراسي وزير النمسا التي قدمها على وجه المودة والنصح والمساعدة للدولة العليَّة للاصلاحات المطلوبة للولايات الثائرة هي غير كافية ولم ترضهم فتريد اذاً الدولة الروسيَّة ان تطلب الاستقلال في الادارة لتلك الولايات على ان تكون تحت حمايتها وانها تنفذ هذا بقوة السلاح لولا ان انكلترا جاشت في حلقها وصرحت لها عند ما كانت تمد الثائرين حساً ومعنى انها ان لم تكف عن هذا الحرب السري فانها تدخل معها في الحرب الجهري وكذلك دولة النمسا اظهرت التحرش من جهتها خوفاً من كل منهما على مصالحهما اذ دولة الانكليز تخاف من تملك الروسيا لخليج فارس وخليج السويس وبذلك تسقط من يدها مستعمراتها في الهند ودولة النمسا تخشى علو كعب الصقالبة بجوارها فيظهرون عليها وتتلاشى فيما بينهم مع سابقيَّة التآلف بين العثمانيين والهنكاريين الذين هم قسم مستقل من مملكة النمسا حتى ان رئيس الدولة يلقب بامبراطور النمسا وملك هنكاريا وهذا التآلف جاء من مساعدة العثمانيين لهم عند ما كان قسم النمسا قاهراً لهنكاريا ومستبداً عليها في التصرفات السياسيَّة غير

انهُ منع كل من الدولتين مانع من انفاذ قصدها بالفعل . فاما دولة انكلتره فانها لما كانت دولة حربيَّة بحتة لم يكن في قدرتها التصرف الأَعلى طبق ارادة الامة وامتها منقسمة الى حزبين احدها يسمى حزب المحافظين والثاني يسمى حزب الاحرار وتقدم بسط هذه التسمية في الكلام على انكلترا وكان الحزب الثاني مضاداً لانتصار دولتهِ للدولة العليَّة حتى انهُ لما كان بيدهِ زمام التصرف في سنة ١٢٨٨ وانتهزت الروسيا الفرصة من حرب جرمانيا وفرنسا فطلبت تغيير معاهدة باريس فيما يتعلق بتقوية شأنها في البحر الاسود ساعدت اذ ذاك دولة انكلترا على ذلك المطلب وغير شرطهُ وفي هاتهِ النازله المتكلم عليها كان التصرف بيد حزب المحافظين لكن الحزب الآخر مضاد لهم وكاد ان يجذب اليه الحزب الآخر فلم يكن في وسع زعماء هذا الحزب الذين بيدهم زمام تصرف الدولة ان يخالفوهم بالمرة سيما والباعث على انفاذ سياستهم مع المخالفة لم يحصل في هاتهِ المسأَلة كما يفقههُ البصير واضف الى ذلك عدم تحقق محالف ذي قوة بريَّة معتبرة يمكن لانكلترا ان تتعاضد معهُ للانتصار للدولة العليَّة لان فرنسا الوحيدة لمثل ذلك لم يكن في وسعها الارتباك في الحرب لما تقدم في الفصل الثالث من المقصد في الكلام على فرنسا وهذا السبب المتعلق بفرنسا ذاتهُ هو الذي نكص دولة النمسا عن انفاذ قصد المنكاربين في معاضدة الدولة العليَّة حيث ان الموازنة الاورباوية تغيرت وتحالف الامبراطرة الثلاثة اي امبراطور المانيا والروسيا والنمسا امَّا حقيقة واما حكمًا على مساعدة بعضهم ونفعهم كما بينتهُ الحوادث فلاجل الجواذب المتباينة المشار اليها غاية ما استطاعتهُ كل من انكلترا والنمسا لكبح الروسيا ان عقدوا مؤتمرًا في الاستانة للاتفاق ما بين الدول الموقعين على معاهدة باريس على ما ينصلح بهِ الحال ويرجع السلم بين الدولتين المتنافرتين فأرسى امرهم فيهِ على ان طلبوا من الدولة العليَّة ما يأتي

اولاً . تغيير حدود الجبل الاسود باعطائهِ بعض اراضي من المملكة العثمانيَّة . ثانياً تشكيل لجنة من مرخصي الدول الاورباويَّة لتعيين تلك الحدود الجديدة . ثالثًا ابقاء حكومة الصرب على الحالة السالفة بان تكون لا لها ولا عليها وتقرر حدودها من جهة بوسنة عملاً بمقتضى الخط السلطاني الصادر سنة ١٢٣٢ . رابعًا الولاة الذين يتعينون الى بوسنة وهرسك والبلغار ينتخبون من جانب الباب العالي مع موافقة دول اوربا في ذلك وابقائهم في مأمورياتهم مدة خمس سنين . خامسًا نظرًا الى الموقع الجغرافي تقسم تلك الولايات الى الوية ويتعين لها متصرفون من جانب الباب العالي بعد انتخاب اولئك الولاة لهم . سادسًا

انشاء مجلس مركب من ثلاثة اعضاء بكل من الولايات تنتخبهم مجالس الولايات لتحرير دخل الولاية وخرجها وانتخاب اعضاء مجالس الادارة وتوزيع الضرائب السلطانيَّة على الاهالي ما عدا رسوم الكمرك والدخان الراجعة للدولة العليَّة . سابعًا ابطال طريقة التزام مداخيل الدولة واسقاط البقايا السابقة بكل من الولايات الثلاث . ثامنًا دخل الولايات المذكورة عدا ما هو راجع للدولة كالدخان والكمرك يعطى منهُ قسط لخزينة الدولة العليَّة والقسط الباقي يصرف في مصالح الولايات المذكورة وينظم لكل منها دستور للعمل بذلك . تاسعًا ترتيب المحاكم النظاميَّة . عاشرًا اعطاء حريَّة الاديان . حادي عشر تنظيم الحرس الاهلي . ثاني عشر العفو العمومي عما سبق من الجنايات السياسية . ثالث عشر اعطاء رخصة للاهالي في شراء الاراضي السلطانية . رابع عشر الشروع في تنفيذ تلك الشروط قبل مضي ثلاثة اشهر . خامس عشر تعيين لجنتان من طرف دول اوربا للاحتساب على اجراء تلك الشروط . غير ان الدولة العلية امتنعت من قبول الاقتراحات المذكورة محتجة بانها صارت دولة قانونية حريَّة لجميع اصناف رعاياها على السواء بالقانون الاساسي الذي أحاط بهِ المملكة السلطان الغازي عبد الحميد ايد الله ملكهُ وقد سبقت الاشارة اليهِ في الفرمان الذي اصدرهُ عند البيعة العامة وابرزهُ للعمل بالفعل عند ما كان المؤتمر في مفاوضاتهِ واصحبهُ بالخط الشريف الآتي نص تعريبهِ في موكب مشهود وكانت تلاوتهُ في يوم كأنهُ يوم عيد وهو

" وزيري سمير المعالي مدحت باشا

" ان سطوة سلطنتنا كانت في حالة القهقرة في الايام السالفة واسباب ذلك التقهقر لم تكن ناشئة عن المشاق الخارجية فقط بل انما وقعت لاجل الانحراف عن الطريقة المستقيمة في الادارة الداخلية حتى ضعفت اماني وثوق الرعايا بالدولة ولذلك كان المرحوم والدنا الماجد السلطان عبد المجيد منح بعض اصول في تحسين الادارة معروفة بالتنظيمات الخيريَّة اشتملت على تأمين جميع الرعايا في انفسهم واموالهم وعرضهم وشرفهم طبقًا لقواعد الشريعة المطهرة والتنظيمات المذكورة هي التي كانت سببًا لابقاء السلطنة محافظة على لوازم الامنيَّة الى الآن ومن آثارها المشكورة انها سهلت لنا نجاح مساعينا في تأسيس هذا القانون الجديد الذي اقتضتهُ اراء رجال دولتنا التي نتجت عنهم بحريتهم حيث استندوا الى تلك الامنيَّة وقد تيسر لنا في هذا اليوم الاعلان بهِ . ولما كان هذا اليوم من الايام السعيدة فانهُ يلزمني ان نذكر الآن المقدس المرحوم والدنا ونصفهُ بعنوان محيي الدولة وان نذكر

مقاصده الحسنة ولا شك انهُ كان سعى بنفسهِ في ادخال السلطنة في العهد القانوني الذي سنستظل بهِ الان ولو توفرت مدة تأسيس التنظيمات الخيريَّة الاسباب المتوفرة الان لكان والدنا المرحوم اسس اذ ذاك احكام هذا القانون الاساسي ولكن العزة الالهيَّة قدرت ان يكون هذا التبديل السعيد الذي هو الكفالة العظمى لخير رعايانا في مدة ولايتنا ولله المنة على ذلك. ومن المعلوم المقرر ان اصول ادارة الدولة صارت مغايرة للتبديلات المتتابعة التي وقعت شيئاً فشيئاً في تصرفاتنا الداخليَّة وفي زيادة خلطتنا مع الدول الاحباب وغاية مرغوبنا ازالة جميع الاسباب المانعة للامة وللبلاد من الانتفاع بالنتائج الطبيعيَّة التي لهم حق فيها كما يلزم وان نرى جميع رعايانا قد جاوزوا الحقوق التي من علائق الامم المهذبة بحيث يكون كلهم متعاضدين بنيَّة سالمة في التقدم والالفة والاتحاد فكان من الواجب اتخاذ طريقة نافعة مستقيمة للحصول على المقصد المذكور ووقاية حقوق الدولة ومحو الخطيئات والغلطات الناتجة من الاعمال الغير المباحة الناشئة من وجود التصرف الاستبدادي بيد نفر واحد او بعض انفار وان نمنح حقوقاً متساوية لجميع الطوائف المركبة منهم الامة وان نجعلهم في حالة يمكنهم معها الانتفاع بخير الحرية والعدل والتسوية ولا فرق بينهم في ذلك وهذا هو الوجه الوحيد الصالح لحماية جميع المصالح وضماناتها وهذه القواعد الكليَّة انتجت وجوب عمل آخر مفيد للغاية وهو وجوب تقييد اساس ادارتنا بصورة شوريَّة قانونيَّة ولذلك لما اصدرنا خطنا عند صعودنا على كرسي السلطنة قررنا لزوم احداث مجلس للامة (وفي الاصل برلمنتو) وقد اشتغلت جمعيَّة خاصة مشكلة من رجال دولتنا واهل العلم والمتوظفين الاعيان في تاسيس اصول هذا القانون بغاية التدقيق ثم وقع التامل منها بمجلس وزرائنا والموافقة عليها وهذا القانون اشتمل على اثبات الحقوق الراجعة للذات السلطانيَّة وحريَّة جميع الرعايا العثمانيين السياسيَّة والعرفيَّة وتسويتهم لدى الاحكام السياسيَّة والعرفيَّة ايضاً وبيان مسئوليَّة الوزراء والمتوظفين ومتعلقات وظيفتهم وحق مجلس الامة في الاحتساب على اعمالهم واستقلال المجالس الحكميَّة في خدمتها والمعادلة بين دخل الدولة وخرجها معادلة حقيقيَّة وقسمة التصرفات الحكميَّة بالاوطان مع بقاء النظر الاعلى فيها للدولة وجميع هذه الاصول المطابقة لاحكام الشريعة المطهرة ولضروريات الوقت ولمرغوبنا قابلت النيَّة الحسنة التي شأنها تحقيق خير الجميع حيث ان ذلك غاية المراد وقد جعلت اتكالي على الله وعلى امداد رسولهِ في ذلك وانطت لعهدتهم هذا القانون بعد ان وافقت عليهِ بامضائي السلطاني ويقع العمل بهِ حالاً بحول الله في جميع جهات السلطنة

فالآن ارادتنا انكم تعلنوا بهذا القانون وتجروا العمل بمقتضاه من هذا اليوم كما يجب عليكم ايضاً اتخاذ جميع الوسائل اللازمة المتأكدة للاشتغال في تهيئة التراتيب التي تضمن ذكرها القانون المذكور والله تعالى المسئول ان يقارن بالنجاح سعي كل من اشتغل فيما يؤول الى نجاة السلطنة والامة وكتب في ٧ ذي الحجة الحرام سنة ١٢٩٣ ».

غيران اعضاء المؤتمر لم يقنعهم ذلك وسافروا جميعاً من الاستانة دفعة واحدة مظهرين الضديَّة للدولة العليَّة والدولة لم تكترث بذلك حيث ان ما فعلتهُ من الرفض لمطلبهم كان عن رأي الامة لانها عقدت مجلساً عامًا من جميع وجوه اصناف رعيتها حتى انهُ حضرهُ المعروف بالدراية والديانة امير الامراء (الفريق) رستم باشا وزير الحربيَّة اذ ذاك في المملكة التونسيَّة حيث كان رسولاً عن اميرنا في تهنئة حضرة السلطان بالولاية واجمع جميع اولئك الاعيان على اختلاف دياناتهم على رفض تلك المطالب بل ان النصارى واليهود منهم قالوا نؤثر اراقة آخر نقطة من دمنا وصرف آخر درهم من مالنا على حفظ شرف مملكتنا من الاهانة بالتجزئة وان كان هذا لم يبدِ فيما بعد حقيقة الأمن البعض دون البعض هذا بعد ان كان عرف جميعهم الرجل الوحيد مدحت باشا صاحب الصدارة اذ ذاك بعواقب الانفراد عن الدول واحتمال تعصبهم جميعاً لكي يتبصروا وليعلم حقيقة ضميرهم فلم يتزحزحوا شيئاً فانفذ السلطان ووزيرهُ هذا الرفض ولله درهم من رجال اذ لم يسع سائر الامم الآ انصافهم والاذعان بان لهم الحق في رفض ذلك الاقتراح بل ان اللورد صالسبوري اشد المخاصمين في المؤتمر قال عند ما استقرَّ بمجلس الوزراء في انكلترا لقد انصف القوم في رفضهم لمطالب نعم ان الخصم زاد تألباً وأعلن بان الدولة العليَّة اهانت اوربا لكي يموه احقاقهُ في اشهار الحرب بيد ان انكلترا مع ذلك لم تسمح لهُ بما اراد وألحت على التعلل للدولة العليَّة واجتمع سفراء الدول في انكلترا واستقرَّ امرهم على لائحة هذا نص تعريبها

« ان الدول التي تعاطت عموماً اسباب سلم المشرق واشتركت لهذا المقصود في مؤتمر الاستانة قد رأت ان الطريقة الوحيدة في بلوغ المقصد الذي اعتمدت عليهِ هي المحافظة على التوافق الذي وقع من حسن البخت بينهم ومع ذلك يجددون تقرير امر يهمهم وهو من مصالح العموم اعني تحسين حالة امم النصارى بالممالك العثمانيَّة واجراء الاصلاحات في بوسنه وهرسك والبلغار حسبما قبلهُ الباب العالي على ان يجريها من عند نفسهِ ولذلك اعتبر عقد الصلح مع الصرب حجة اما ما يتعلق بالجبل الاسود فان الدول تعتبر عقد الصلح معهُ امراً مرغوباً فيهِ ولا بد لهُ من توطيد بهِ يقع تعديل الحدود وتعطى حريَّة الجولان في

نهر البويانة لان الدول تعتبر التأويلات التي تقع او ستقع بين الباب العالي وهاتين الولايتين كأنها تقدمت خطوة الى السكون الذي هو الداعي لرغبتهم العمومية ولهذا يستدعون الباب العالي لتوكيدهِ بترجيع العساكر على قدم السلم ولا يبقى منها هنالك غير عدد العساكر اللازمة لتقرير الراحة ويبادر الى اجراء الاصلاحات اللازمة للراحة وخير الولايات في اقرب وقت حتى يقع ما اشتغل بهِ المؤتمر وقرروا بمقتضاهُ ان الباب العالي حاضر الى اجراء القسم المهم من تلك المطالب واتخذوا منشورهُ المؤرخ في ١٣ فبراير سنة ١٨٧٦ وما قررتهُ الدولة العثمانية في المؤتمر حجة سيما وذلك كان على يد وكلائها وقد كان ظهر للدول بالنظر الى استعدادات الباب العالي الحسنة ومصالحهِ الحقيقية في اجرائها انها متيقنة بما أملتهُ من ان الباب العالي حيث انتهز هذه الفرصة الحاضرة فانهُ يقوم بحزم لاجراء الوسائل المعدة لتحسين حال النصارى حقيقة وهذا المطلوب من الامور الضرورية لراحة اوربا وحيث سلك هذه الطريقة علم يقيناً ان من شرفهِ ومصلحتهِ ان يجتهد في ذلك بعزم على وجه مستقيم فتطلبت الدول اذ ذاك ان تلاحظ كيفية اجراء الدولة العثمانية مواعيدها بواسطة وكلائهم في الاستانة ونوابهم واذا بات مأمولهم عديم النجاح مرة اخرى بان لم تحسن حال النصارى رعايا حضرة السلطان بكيفية تمنع رجوع التشعبات التي تضطرب بها دائماً راحة المشرق فلعلهُ سيظهر لهم من الواجب ان يقرروا ان مثل هذا الحادث لا يوافق مصالحهم ومصالح اوربا عموماً وفي هذا الحال تحتفظ الدول باعلان ما يرونهُ عموماً من الطرق التي ستظهر لهم التزاماً لتقرير خير الامم النصارى ومصالح السلم العمومي. وكتب في لندرة في ٣١ مارس سنة ١٨٧٧ »

وارسلوها للدولة العلية كالبلاغ الاخير فرفضتها ويا ليتها قبلتها اذ هي مطابقة لما كان اصدرتهُ من الفرمان المطابق للائحة الكونت اندراسي والمراقبة من الدول اذا كان اجراء الاصلاح حقيقة مقصوداً لا ضير فيها سيما ونفس معاهدة باريس المصرحة بكمال استقلال الدولة العلية في ادارة ممالكها هي ايضاً مصرحة باشتراط اصلاح الادارة المتضمن لمراقبة الدول لها اذ لا معنى لجعلها شرطاً في معاهدتهم الآن يكون لهم حق في طلب اجرائها كما يطلبون اجراء سائر شروط المعاهدة نعم في ذلك ما ينافي النخوة لكن باب ارتكاب اخف الضررين لا ينسى ولا يخفى ان دولة الروسيا تشمل ما ينيف عن الثمانين مليوناً واذا اضيف لها مظاهروها من اتباع الدولة العلية كانت نحو تسعين مليوناً من النفوس وهي مرتاحة من الحرب وتهيأت لها منذ عشرين سنة واوصلت سكك الحديد الى اطراف

ممالكها التي يعتنى بها ولا ينسى انهُ منذ ثلاثة وعشرين سنة فقط قد حاربتها اربع دول معًا وكانت الحرب بينهم سجالاً والدولة العليَّة لا تشمل اكثر من اربعين مليونًا منهم خمسة عشر مليونًا اكثرهم معاضد لعدوها بالمال والرجال واقلهم لا يعينون بالمال الاَّ عن مضض فضلاً عن الانفس وقد كانت اذ ذاك في حرب اهليَّة دامت نحو السنتين ولم تتهيأ بكمال الاستعداد لتوهم انتصار الدول لها فاذا هم قد انفردوا عنها وتركوها وخصمها فقامت الحرب على ساق وظهر من صناديد العثمانيين ما هو معروف حتى اقر سائر الاجناس لهم بانهم امة لم تزل حيَّة سيما ما بدا من عسكر البطل الغازي عثمان باشا المشير فانهُ قاتل في بليفنا التي صيرها حصنًا عظيمًا في مدة حربهِ بجيش لا يبلغ الاربعين الفًا جيشًا عرمرمًا من الروس والرومانيا يتجاوز المائة والعشرين الفًا وقتل منهم ما ينيف على عدد جيشهِ ولولا سبقيَّة القدر بعدم انجادهِ لما تيسر للروس مجرد حصار جيشهِ حتى اضطر الى الهجوم لخرق الحصار بن بقي سليمًا من جيشهِ الذي قدرهُ سبعة وعشرون الفًا فتراكمت عليهِ مائة الف او يزيدون الى ان خرج واضطر للتسليم فاقبل عليهِ القيصر نفسهُ ولما سلم لهُ سيفهُ قال لهُ " ان مثلك ايها البطل يحق لهُ الفخر الدائم " ورد اليهِ السيف وكفى بذلك شهادة لهُ فصحى الجو للروسيا وتقدمت الى ان بلغت جوار القسطنطينيَّة وامتنعت من توسط الدول في الصلح حتى طلبتهُ الدولة العليَّة منها رأسًا وعقد على شروط تضمنتها معاهدة صان استيفانوس وهذا نص تعريبها

« الشرط الاول انهُ بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة وبمقتضى الشروط والوجوه الآتي ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العليَّة والجبل الاسود وذلك لاجل انهاء المنازعات والمصادمات المتتابعة الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل دوبروزيجه على الوجه الذي عينهُ المؤتمر الذي كان حصل في الاستانة الى غوربتو وبيلكه والحد الجديد يستطيل الى غاجقة وعلى هذا متوتركيا غاجقو تبقى في تصرف الجبل الاسود وتمتد الحدود ايضًا من مجمع انهر بيوه وتارة وتمر من نهر درين الى جهة الشمال وتنتهي الى مجمع هذا النهر مع النهر المعبر عنهُ فيم واما حدود الجبل المذكور الشرقيَّة فتبتدئ من نهر فيم الى بريرة بولرة ومن روستراق الى سوق بلاتينا وبيهور وروستراق تبقيان داخل الجبل فعلى ذلك يكون تحديد الخطوط هكذا اعني من الجبال المسلسلة الجامعة لروغوة وبلاو وكوزنه الى شلب باقليني ومن رؤوس جبال قوبريونيق وباباور وبورور حذاء حدود بلاد الارناوط الى اعلى ذروة جبل بروقليتي ومن هذه النقطة الى

كثيب يسقاشيق وينتهي الحد على الخط المستقيم الى عين الماء في جيسني هوتي ويفصل فيما بين جيسيني هوتي وجيسيني قاستراني ويتجاوز ماء اشقودرة الى ان ينتهي لنهر بويانة وهكذا مع النهر الى مصبهِ في البحر وبموجب ذلك تبقى نكسيك وغاشقه واشبوزي وبودغوريجة وزابلياق وبارضمن الجبل المذكور وقد يصير تعيين حدود امارة الجبل قطعياً بمعرفة لجنة مركبة من بعض مأموري دول اوربا بشرط ان تكون وكلاء الباب العالي والجبل معهم ايضاً فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وامنية البلاد الكائنة في الجهتين ثم تشير في الخريطة الى التعديلات التي ترى لها لزوماً وتعلم انها هي الحق وتوضح في ذلك ما راتهُ من صالح الجهتين ثم لا يخفى ان امر سير السفن في نهر بويانة لم يزل يجلب النزاع فيما بين الباب العالي والجبل الاسود فلاجل قطع هذا النزاع يصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة

الشرط الثاني. ان الباب العالي يثبت استقلال امارة الجبل الاسود على الوجه القطعي ثم فيما ياتي تتقرر فيما بين دولة الروسيا والدولة العليَّة والامارة المذكورة كيفية المناسبات التي ستكون بين الباب العالي والجبل وقضية تعيين وكلاء من طرف الامارة في الاستانة وفيما يقتضيه الحال من ممالكها ويتقرر ايضاً امر اعادة ارباب الجنايات الذين يفرون من بلاد الدولة العلية الى الجبل ومن الجبل الى بلاد الدولة وامر اطاعة اهل الجبل المقيمين او المارين في بلاد الدولة العلية وانقيادهم الى نظامات ومأموري الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة التي كانت تجري بحقهم في بلاد الدولة وستنعقد ايضاً مقاولة فيما بين الباب العالي والجبل الاسود لاجل توضيح وتنظيم المسائل المتعلقة بالانشآت العسكرية في قرب الحدود واحوال ومناسبات الاهالي المتجاورة هناك واذا اختلف الباب العالي مع الجبل في بعض مسائل ولم يكن فصلها باتفاقهما فتحكم بينهما دولتا الروسيا واوستريا ومن بعد هذه المعاهدة اذا وقعت مباحثة او مصادمة فيما بين الباب العالي والجبل ما عدا المطاليب الملكية الجديدة ينبغي ان يفوضا امرها الى دولتي الروسيا واوستريا وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر انهُ من بعد امضاء مقدمات الصلح الى عشرة ايام يجب على عساكر الجبل الاسود ان تخرج من البلاد الغير الداخلة ضمن الحدود المذكورة اعلاه

الشرط الثالث . ان امارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهر « درين » وتبقى « كوجك ازورنيق » و « سقار » في

ادارة الصرب ويمتد هذا الحد الى منبع نهر « ره زه وه » الكائن جوار « استايلاق » على حسب الحدود القديمة وتبتدىء الحدود الجديدة من هنا اعني مع مجرى نهر رزوه الى نهر راسقة ومنهُ الى « يكي بازار » ومن يكي بازار يصعد الخط الفاصل ويمر من جوار قريتي « مهنتره » و « ارغويج » الى اعلى النهر المذكور حتى ينتهي الى منبعهِ ويمتد الى بوسور بلاتينا الكائنة في وادي ايبار وينزل مع الماء الجاري الذي يصب في النهر المذكور ومنهُ يسير مع انهر ايبار وسيديج ولاب الى منبع نهر ياتنسه الكائن في جبل غرابا شينجة بلاتينا وبعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهري قربوه وترينجة ومن اقصر الطرق الموجودة على مصب نهر ميو واجقة حتى ينتهي ايضاً الى نهر ويرنجة ويسير مع هذا النهر ويقطع ميو واجقة وبلاتينا ويصل الى جهة موررواة في قرب قرية قاليمانس ومن هنا يسير الى قرب قرية استابقوجي ويجتمع هناك مع نهر بلوسينة وهكذا مع النهر الى موراوة ويمتد مع النهر الى اعلى حتى يصل الى « فونقاويجة » ويقطع سوق بلاتينا ويجتمع بنهر نيساوة ويتصل بقرية فرونجاج ومنها يمر من اقصر الطرق ويمتد على حدود الصرب القديمة الى جنوب شرق « قرة ول بور » وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونة وتقرر اخلاء « اطه قلعة » وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مأموري الدولة العليَّة والصرب لاجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعي في برهة ثلاثة اشهر ويكون ذلك بمعاونة مأمورين من طرف دولة الروسيا وهذه اللجنة تفصل ايضاً المسائل المتعلقة بجزائر نهر « درين » وتقطعها وحينما تبتدىء هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والبلغار ينبغي ان يكون وكيل واحد من طرف البلغار بين يشترك معهم في هذا الامر

الشرط الرابع . ان المسلمين الذين لهم املاك في البلاد التي صار الحاقها بالصرب اذا لم يريدوا الاقامة هناك فلهم الخيار ان احبوا اجروا املاكهم وان احبوا اقاموا وكلاء من طرفهم لاجل حفظها واستغلالها والمسائل المتعلقة باموالهم الغير المنقولة تفصلها لجنة مركبة من مأموري الدولة العليَّة والصرب باعانة مأمورين من طرف دولة الروسيا في ظرف سنتين وهذه اللجنة تفصل ايضاً في برهة ثلاث سنين امر فراغ املاك الدولة والاوقاف والمسائل المتعلقة ببعض الاشخاص الذين لهم علاقة ونفع في الاملاك المذكورة وذلك يكون غب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العليَّة والصرب والاناس المقيمون او الذين يجولون في بلاد الدولة العليَّة من تبعة الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكليَّة بمقتضى الحقوق الكائنة بين الدول وقد تقرر انهُ من بعد امضاء مقدمات الصلح الى خمسة عشر يوماً

يجب على عساكر الصرب ان تخرج من البلاد التي ليست داخلة في ضمن الحدود المذكورة اعلاه

الشرط الخامس . ان الباب العالي قد اثبت استقلال رومانيا اعني المملكتين ولها ان تطلب من الدولة العليّة غرامة الحرب وتجري المذاكرة بهذا الشأن فيما بينهما وعند ما تنعقد المعاهدة بين الدولة العليّة ورومانيا تنال تبعة رومانيا الامن والامتياز طبق تبعة دول اوربا

الشرط السادس . تقرر ان تكون البلغار امارة مختارة في ادارتها تدفع مبلغاً معلوماً الى الدولة العليّة ويكون مأمورو الحكومة والعساكر الاهليّة من المسيحيين ويصير تعيين حدودها على الوجه القطعي بمعرفة لجنة مركبة من مأموري الدولة العليّة والروسيا وذلك قبل خروج عساكر الروسيا من الروم ايلي وهذه اللجنة تبين هناك في الخريطة التعديلات التي ينبغي اجراؤها وتلاحظ مليّة اكثر الاهالي وتوضح المنافع المحلية تطبيقاً لفن تخطيط الاراضي وتقرر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة في خريطة وجعلها اساساً في قطع الحدود وخط الحدود يبتدئ من حدود الصرب الجديدة ومن غرب « ورانجه » الى سلسلة الجبل الاسود ومن جهة الغرب يمر من غرب « قومانوه » و « قوجاني » و « قلقان دلن » الى جبل « قوارب » ومن هناك يمر من نهر « وبوجيجه » الى درينه ويلتفت الى جهة الجنوب الى حدود غرب قضاء اخرى حتى ينتهي الى جبل ليناس ومنهُ يمر من غربي كوريجه واستاوره ويتصل بجبل غراموس وكذلك يمر من ماء « قاستريا » ويلتصق بنهر موغلينجه ويسير مع النهر الى « بكيجه » ويمر من نهر وارديكيجه ومن مصب نهر « واردار » وقرية « غاليقو » الى قراء « بارغه » و « صاري كوي » ومن هناك يمر من وسط عين الماء المعبر عنهُ « بشيك كل » الى مصب نهري « استروما » و « قره صو » ومن السواحل الى « بوروكل » ويمتد الى الشمال الغربي ويمر من سلسلة جبل « رودوب » الى جبلي « جالتبه » و « اشوه » ويمر من جبال « اشك قولاج » و « جيبليون » و « قره قولاس » و « جيقلر » الى « نهر ارده » ويلتفت لجهة الجنوب ويمر من قراء سوكوتلين وقره حمزة وارناؤد كوي واقارجي واينجه الى « تكه دره سي » في قرب « ادرنه » ومن تكه دره سي و « جورلي دره سي » الى « لوله برغوسي » ومن هنا وعن نهر « صوجق دره » الى قرية « سور كن » ومنها من التلال ويقطع « حكيم طابيه سي » حتى يتصل في ساحل البحر الاسود ويبتدئ ايضاً من « منقاليه » ويترك السواحل ويمر من شمال حدود لوا طولجي ومن فرق راسوه الى نهر الطونه

الشرط السابع . ان امير البلغار يصير انتخابهُ من طرف الاهالي بالحرية التامة والباب العالي يثبتهُ بانضمام اراء الدول ولا يجوز انتخاب احد من اقارب ملوك دول اوربا الجالسين على سرير الملك للامارة المذكورة وحينما تنحل الامارة كذلك يكون انتخاب الامير الجديد على هذا المنوال وهاته الشروط وقد تقرر انهُ ينبغي من قبل انتخاب الامير ان يجتمع مجلس معتبري البلغار اما في « فلبه » واما في « طرنوفا » تحت نظارة مامورين من طرف الروسيا وفي حضور مامورين من طرف الدولة العليَّة وتؤسس نظامات هذه الادارة المستقلة توفيقاً لامثالها اعني لنظامات المملكتين التي تنظمت في سنة ١٨٣٠ غب انعقاد مصالحة « ادرنه » وعند تاسيس تلك النظامات ستصير وقاية حقوق ومنافع الاهالي من المسلمين والروم والاولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع البلغاريين وتقرر ايضاً احالة تاسيس هذه الادارة الجديدة في البلغار مع ما يلزم من النظر في صور اجرائها لعهدة مأمورين موظفين من طرف دولة الروسيا من هنا الى سنتين وفي انقضاء السنة الاولى من تاسيس الادارة الجديدة اذا لم يحصل اتفاق بهذا الشأن فيما بين الروسيا والباب العالي ودول اوربا يكون للدول المشار اليهم حق ان يوظفوا مأمورين يرافقون المأمورين الروسيين

الشرط الثامن . ليس لعساكر الدولة العثمانيَّة حق بعد هذا للاقامة في البلغار وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هناك بمعرفة الحكومة المحليَّة وان الباب العالي لهُ حق ان يتصرف بالادوات الحربيَّة الموجودة في قلاع الطونة التي صار اخلاؤها من العساكر بموجب سند المتاركة الذي تحرر في ٣١ يناير ولا لات الحربية الكائنة في مدينتي شمنى ووارنه وجميع الاملاك المتعلقة بالحكومة العثمانيَّة كيفما شاء وتبقى عساكر الروسيا في البلغار مقيمة الى ان ينتهي ترتيب العساكر الاهليَّة الكافلة لحفظ الراحة وتوطيد الامنية واذا اقتضت الحال يقومون فعلاً باعانة المأمورين وسيصير تعيين عدد العساكر الاهليَّة بالاتفاق فيما بين الدولة العليَّة ودولة الروسيا وان مدة اقامة عساكر الروسيا في البلغار تكون سنتين والعساكر التي تبقى هناك بعد خروج جميع العساكر الروسية من بلاد الدولة العليَّة تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها خمسون الفاً ومصروف هولاء العساكر يكون على البلغار ويكون لها طرق مراسلات في المملكتين في شطوط البحر الاسود من جهة وارنة وبرغوس وفي مدة اقامتها هناك يكون لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة

الشرط التاسع . ان المرتب السنوي الذي يلزم على البلغار ايفاؤهُ للدولة العليَّة يتسلم الى البنك الذي يعينهُ الباب العالي وهذا البنك يصير تعيينهُ بمعرفة دولة الروسيا والدولة العليَّة وسائر الدول وذلك في انتهاء السنة الأولى من ابتداء اجراء اصول الادارة الجديدة ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لايراد البلاد والاراضي التي تكون في ادارة الامارة على الحساب المتوسط والبلغار تتعهد بالقيام في التعهد الذي على الدولة العليَّة الى شركة سكة الحديد في طريق وارنة وروسجق غب المذاكرة مع الباب العالي وادارة الشركة المذكورة ومسألة سكة الحديد الاخرى الموجودة ضمن الامارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العليَّة وحكومة البلغار وادارة الشركة

الشرط العاشر . ان الباب العالي لهُ حق في مرور العساكر ونقل المهمات والذخائر من الطريق المعينة في داخل البلغار الى الايالات العثمانيَّة التي وراء البلغار ولاجل عدم وقوع مشاكل في هذا الخصوص وتأمين الايجابات العسكريَّة العثمانيَّة سيوضع نظام بالاتفاق مع الباب العالي والامارة من ابتداء تعاطي هذه المعاهدة الى ثلاثة اشهر في ذلك وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظاميَّة فقط دون الباشبوزق والجراكس والعساكر المعاونة والباب العالي كذلك لهُ ان يتعاطى البوسطة عن طريق الامارة ويستعمل مسالك التلغراف في مخابراتهِ فهذان الامران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمهما في المدة والشروط المحررة اعلاه

الشرط الحادي عشر .ان المسلمين وغيرهم من اصحاب الاملاك اذا ارادوا الاقامة في خارج الامارة لهم ان يحفظوا املاكهم ويؤجروها او يفوضوا امر ادارتها الى من يريدونهُ ثم ان مأمور الدولة العليَّة ومأمور البلغار بين يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسيا ويفصلون المسائل المتعلقة بتصرف الاملاك وفي منافع مسلمي البلغار وذلك يكون في ظرف سنتين واملاك الدولة والاوقاف يصير تعيين امرها اما بالبيع واما باستعمالها على الوجه الذي يكون فيهِ النفع الزائد لجهة الباب العالي ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة في السنتين المذكورتين والاراضي التي تبقى بدون صاحب عند انقضاء السنتين تباع بالمناداة والمزايدة ويؤخذ ثمنها ويدفع الى ايتام وارامل المصابين في الاحوال الاخيرة من المسلمين والمسيحيين

الشرط الثاني عشر . ان القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعاً ولا يبقى من بعد هذا على سواحل نهر الطونة قلعة ما مطلقاً ولا يجوز وجود سفن حربيَّة في مياه

رومانيا والصرب والبلغار سوى السفن الصغيرة والزوارق المختصة والمستعملة في الامور الانضباطية فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونة المختلطة تبقى بتمامها على اصلها

الشرط الثالث عشر . ان الباب العالي يتعهد بتنظيف البحر في مضيق «سنه» وارجاعهِ الى حالهِ السابق ليصلح لمرور السفن منهُ ويتعهد ان يضمن العطل والضرر الذي حصل للتجار بسبب منع مرور السفائن من نهر الطونة مدة الحرب وسيصير فصل ٥٠٠٠٠٠ فرنك من اصل دين لجنة الطونة الى الباب العالي لاجل هذا الامر

الشرط الرابع عشر . ان الاصلاحات التي قدمت الى مرخصي الباب العالي في اول جلسة مؤتمر الاستانة ينبغي حالاً اجراؤُها بالفعل في بوسنة وهرسك مع التعديلات التي ستقرر فيما بين دولتي الروسيا واوستريا ويجب ان لا يطلب من هاتين الايالتين بقايا الخراج وان لا يؤخذ شيءٌ من الواردات الى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها في الاحتياجات المحليَّة ويسد بها عوز الاهالي والعيال الذين اصيبوا في الاحوال الاخيرة ومن بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المبلغ الذي يلزم على الاهالي دفعهُ في كل سنة الى الحكومة المركزيَّة بالاتفاق فيما بين الدولة العليَّة ودولتي الروسيا واوستريا

الشرط الخامس عشر . يتعهد الباب العالي باجراء احكام النظام الاساسي الذي وضع في سنة ١٨٦٨ المختص بجزيرة كريد طبق مطلوب الاهالي الذي ينوه مقدماً ويلزم اجراء الاصلاحات المماثلة لنظامات كريد في «ترحاله» و«يانيه» وفي سائر جهات الروم ايلي التي ليس لها نظامات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الاهالي المحلية في كل ايالة لاجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديمها الى الباب العالي ليتذاكر مع دولة الروسيا في ذلك

الشرط السادس عشر . ان خروج عساكر الروسيا من ارمينيَّة وارجاع تلك البلاد الى الدولة العليَّة يمكن ان يفضي الى المناقشة والاختلاف فيما بينهما فلهذا يتعهد الباب العالي حالاً باجراء الاصلاحات على حسب الاحتياجات المحليَّة في الولايات التي سكانها ارمن وتأمين المسيحيين من تعدي الاكراد والجراكسة

الشرط السابع عشر . ان الباب العالي سيعلن العفو العمومي عن المتهمين في الاحوال الاخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك

الشرط الثامن عشر . ان الباب العالي يتعهد بالتبصر بعين الدقة الى ما ينهُ وكلاء الدول المتوسطة في خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الايرانية على الوجه القطعي

الشرط التاسع عشر. ان مبالغ الغرامة الحربية التي طلبها حضرة قيصر الروسيا هي في مقابلة الاضرار والخسائر التي تكبدتها دولة الروسيا بسبب هذه الحرب والباب العالي قد تعهد بدفعها فمن هاته المبالغ (اولاً) ٩٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل في مقابلة مصروف العساكر والادوات الحربية والاشياء التي بليت. (ثانياً) ٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل لاجل الاضرار الحاصلة في سواحل بلاد الروسيا الجنوبية وفي اخراجات البضائع التجارية وفي طرق الحديد (ثالثاً) ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل بمقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس (رابعاً) ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل لاجل الخسائر التي حصلت لتبعة الروسيا المقيمين في الممالك العثمانية ولتأميساتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن ١ر٤١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ روبل يعني ٢٤٥ر٢١٧ر٣٩١ ليرة عثمانية وريال مجيدي ابيض ونصف هذا وان القيصر المشار اليهِ قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال وتامل في مقاصدها التي نوهت عنها في هذا الشان ووافق بالقبول على ان تترك الدولة العلية الاراضي المحررة اسماؤها ادناه عوضاً عن القسم الاكثر من المبالغ المذكورة. (اولاً). لواء طولجي يعني قضاء كيليا وسنه ومحمودية وايساقجي وطولجي وماجين وباباطاغي وخرسوه وكوستنجة ومجيديه والجزائر الكائنة في نهر الطونة قد تركتها الدولة العلية جميعاً الا ان الدولة الروسية ليس لها فكر بالحاق هاته البلاد الى ملكها بل انها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارابيا التي اخذت منها بموجب معاهدة سنة ١٨٥٦ فحدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من اراضي كيليا ومصب نهر الطونة والجهات التي يصطادون بها السمك في النهر يصير تفريقها بمعرفة مامورين من طرف الروسية ومن حكومة المملكتين في برهة سنة واحدة اعتبارًا من تاريخ تعاطي هذه المعاهدة. (ثانياً). اردهان وقارص وباطوم وبايزيد مع الاراضي الحاوية عليها الى جبل صوغانلي سيصير تسليمها الى دولة روسيا وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا اعني يبتدىء الخط الفاصل من الجبال التي فيما بين المياه الجارية والمنصبة في نهري «هوبا» و«جورق» ويمر من الجبال المتسلسلة الواقعة في جنوب قضاء «وارتوين» ومن جوار قريتي «والات» و«بشاكت» ومن فوق «درونيك» و «كتي» و «هوجه زار» و «بجقين طاغ» ومن الجبال الفاصلة لمياه التي تختلط بنهري «تورتم» و«جورف» ومن فوق قراء «بالي» و «هين» و «لم كليسا» الى ان ينتهي الى نهر تورتم ومن هنا يمر من سيوري طاغ ومن مضيق سيوري طاغ ويتصل بقرية نريمان ويلتفت الى جهة الجنوب حتى يصل الى «زوين» ومن زوين يمر

من غربي طريق اردوست وخراسان الى جنوب جبل صوغانلي ويتصل بقرية « كيلجان » ومنها يمر من جبل « تريا » ومن قرية خميرومن اون رست مسافة ومن تلال « طاندور » ومن جنوب وادي بايزيد وينتهي في الجهة الجنوبيّة من « قازلي كول » وهذا المحل هو الحد الفاصل قديماً في ما بين حدود اراضي الدولة العليّة واراضي دولة ايران وان الاراضي التي صار الحاقها بممالك الروسيّة ومذكورة في الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة يصير تعيين حدودها قطعياً بمعرفة مأمور من طرف الروسيّة ومأمور من طرف الدولة العليّة وهما يلاحظان قواعد تخطيط الاراضي وقضيّة تأمين حسن ادارة القضوات . (ثالثاً). ان الاراضي التي صار تركها لدولة الروسيا كما هو محرر اعلاه قد اعتبرت بمبلغ ١٫١١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ روبل (مليار ومائة وعشرة ملايين روبل) واما الباقي من الغرامة وهو ٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ روبل (يعني ثلاثمائة مليون روبل) ماعدا ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ روبل التي هي في مقابلة خسائر تبعة الروسيّة وتأسيساتها ستتفق دولة الروسيا مع الدولة العليّة على قضيّة دفعها وتأمين ايفائها. (رابعاً) ان العشرة ملايين روبل التي تخصصت لتبعة الروسيّة ومؤسساتها يصير تسويتها هكذا اعني ان سفارة الروسيّة في الاستانة تجري التدقيقات اللازمة بهذا الشان على مستدعيات ارباب العلاقة وتعرض الكيفيّة الى الباب العالي والباب العالي يجري التسوية على مقتضى عرض السفارة

الشرط العشرون . ان الباب العالي يتعهد بان يستعمل التدابير المؤثرة سريعاً في فصل الدعاوي المتنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسيّة وانهُ اذا اقتضى الامر يدفع غرامة وينفذ احكام الاعلامات

الشرط الحادي والعشرون . ان اهالي البلاد التي تسلمت الى الروسيّة ان ارادوا الهجرة منها لهم ان يبيعوا املاكهم واراضيهم ويهاجروا وقد اعطي لهم مهلة في ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطي هاتهِ المعاهدة فالذين لا يبيعون املاكهم في هاتهِ المدة ولا يهاجرون يدخلون في حكم الروسية عند انقضاء تلك المدة واملاك الدولة والاوقاف يصير بيعها على حسب الاصول التي يعينها مامور الروسيّة ومامور الدولة العليّة في مدة السنين المذكورة وهما يتممان ايضاً كيفيّة نقل الادوات الحربيّة الموجودة في المحلات التي هي الآن في يد الروس سواء كانت من البلاد التي تسلمت الى دولة الروسيا او غيرها

الشرط الثاني والعشرون . ان القسيسين والزوار الذين يسكنون او يسيحون في الممالك العثمانية في الروم ايلي والاناطولي من تبعة الروسيا سينالون الحقوق والامتيازات

التي ينالها القسيسون والزوار من تبعة سائر الدول سوية وسفارة الروسيا الكائنة في الاستانة وقناصلها يحمون حقوق الاشخاص المذكورة وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودين في الاماكن المقدسة وبالخصوص في « اينوروز » فهم حائزون حقوقهم التي كانوا حائزين عليها في السابق ويحفظون الديورة الثلاثة الكائنة في اينوروز مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديورة والمؤسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هناك سوية

الشرط الثالث والعشرون . ان المعاهدات والمقاولات التي كانت موجودة فيما بين الدولة العليَّة والروسية المتعلقة بالتجارة والمحاكمة وبتبعة الروس المقيمين في بلاد الدولة العلية وتعطلت احكامها بسبب هذه الحرب ينبغي ان تجري احكامها كما في السابق وان دولتي الروسية والعثمانية قد اعادوا المناسبات التي كانت قبل هذه الحرب في الامور التجاريَّة وغيرها بمقتضى احكام المعاهدات والمقاولات المذكورة ما عدا المواد التي نسختها هاته المعاهدة

الشرط الرابع والعشرون. ان خليج الاستانة وخليج جناق قلعه سواء كان في زمن الحرب او زمن الصلح يكون مفتوحاً للسفن التجاريَّة التي تريد المرور منهُ الى بلاد الروسيا من الدول التي تكون على الحيادة والباب العالي ليس لهُ من بعد هذا ان يضع الحصر الغير المؤثر على الشطوط الموجودة فيما بين البحر الاسود وبحر الازاق والمخالف لمضمون معاهدة باريس التي صار امضاؤها في ٤ ابريل سنة ١٨٥٦

الشرط الخامس والعشرون. ان عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العليَّة الكائنة في اوربا (الروم ايلي) ما عدا البلغار وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعي الى ثلاثة اشهر هذا وان العساكر المذكورة لهم ان يأتوا الاساكل الموجودة في البحر الاسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب في السفائن التي تحضرها او تستأجرها دولة الروسيا حتى لا يكونوا مجبورين على اطالة مدة الاقامة في الممالك العثمانيَّة وفي رومانيا واما خروج عساكر الروسيا من الاناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعي بستة اشهر ولهم ان يأتوا الى طرابزون لاجل الركوب في السفن ومن هناك يسافرون الى القريم او القوقاس

الشرط السادس والعشرون . ان اصول الادارة والاوامر التي وضعتها دولة الروسيا في البلاد التي دخلتها عساكرها والتي ينبغي تسليمها الى الدولة العليَّة بموجب هاته المعاهدة تكون باقية وجارية الى حين توجه العساكر منها وليس للباب العالي المشاركة في الاحكام ولا للعساكر العثمانيَّة الدخول اليها قبل ذلك بناء على هذا

ان امير العساكر الروسية يخبر الضابط الذي يعينهُ الباب العالي عن سفر عساكر الروسيَّة وليس للباب العالي ان يجري الاحكام من قبل ان تسلم لهُ القلاع والايالات

الشرط السابع والعشرون. ان الباب العالي لا يجازي احدًا بسوء من تبعتهِ الذين دخلوا في المناسبات مع دولة الروسيا في زمن الحرب وليس لمأموري الدولة العليَّة ان تمنع او توقف احدًا من الاهالي الذين يرغبون ان يسافروا مع العساكر

الشرط الثامن والعشرون . ان اسرى الحرب يصير ارجاعهم تحت نظارة مامورين مرتبين من طرف الدولتين وذلك عقيب تعاطي مقدمات الصلح وهولاء المأمورون يسافرون الى اودسا وسباستبول واما مصروف اسراء العساكر العثمانيَّة تدفعها الدولة العليَّة في ظرف ست سنوات تحت ثمانية عشر قسطًا بموجب الدفتر لذي يحررهُ المأمورون المذكورون واما قضيَّة مبادلة الاسرى فيما بين حكومتي رومانيا والصرب وامارة الجبل الاسود فيصير اجراؤُها على هذا الاساس لكن يطرح مقدار الاسرى الذي عند الدولة العليَّة من مقدار اسرى عساكرها ولا تلزمها فيهِ تلك المصاريف

الشرط التاسع والعشرون. ان حضرة امبراطور الروسيا والحضرة الملوكانيَّة سيثبتون هذه المعاهدة وامضاء تثبيتها يكون في بطرسبرغ في ظرف خمسة عشر يومًا او بوجه اسرع من ذلك ان امكن وكذلك يجري التصديق رسميًا على الشروط المذكورة في هذه المعاهدة على حسب الاصول الجارية في المعاهدات الصلحيَّة وان الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطي المعاهدة يعدون انفسهم رسميًا بانهم متعهدون بان مرخصي الطرفين قد امضوا هذه المعاهدة كما يأتي تصديقًا لمضمونها.— حرر في ايا ستفانوس في ١٩ شباط الرومي (فبراير) و٣ ايار (مارس) الافرنجي سنة ١٨٧٨ الامضاء

الكونت اغناتيف صفوت نليدوف سعدالله

لكن انكلترا لم تسمح بالاقرار بذلك حتى ادخلت اسطولها بحر مرمرا وعاضدتها بقيَّة الدول في طلب تعديل تلك المعاهدة وعقدوا لذلك مؤتمرًا في برلين وارسى الامر فيهِ على معاهدة نص تعريبها

بسم الله القادر على كل شيء

لما كان حضرة سلطان العثمانيين وحضرة ملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلاندة وامبراطورة الهند وحضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا وحضرة امبراطور اوستريا وملك بوهيميا وملك هنكاريا وحضرة رئيس جمهوريَّة فرنسا وحضرة ملك ايطاليا وحضرة

امبراطور جميع الروسيا يريدون لاجل اقرار الراحة العامة في اوربا انهاء المسائل التي ظهرت في الشرق بسبب تقلبات الاحوال فيها في هذه السنين الثلاث وبسبب الحرب التي عاقبتها معاهدة ايا سطفانوس استقر رأيهم جميعاً على عقد مؤتمر يكون احسن الوسائل لاجل الاتفاق بحسب ما تقرر في معاهدة اياسطفانوس وبناء على ذلك عينت الذوات الملوكيَّة المشار اليهم وحضرة رئيس جمهوريَّة فرنسا مرخصين وهم

حضرة ملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وامبراطورة الهند عينت الاونورابل بنيامين دزرائيلي الذي هو كبير وزراء انكلترا والاونورابل روبرت ارثرتالبت عاسكون سيسل مركيز صالسبري الذي هو ناظر خارجية انكلترا والاونورابل لورد اود وليم ليوبولد روسل الذي هو سفير من الطبقة الاولى لانكلترا لدى حضرة امبراطورجرمانيا وملك بروسيا

وعين حضرة امبراطورجرمانيا وملك بروسيا البرنس بسمارك كبير الوزراء في بروسيا وبرنارد ارنست دوبولوى مستشار الخارجية والبرنس هوهنلوه شلنغفورست سفيرالمانيا لدى رئيس جمهوريَّة فرنسا

وعين حضرة امبراطور اوستريا وملك بوهيميا وملك هنكاريا الكونت اندراسي وزيرهُ الخاص ووزيرهُ في الامور الخارجية والكونت لويس كاروليني سفيرهُ لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا والبارون هنري دوهايمل سفيرهُ لدى ملك ايطاليا

وعين حضرة رئيس جمهوريَّة فرنسا موسيو وليم هنري وادنطون احد اعضاء مجلس الاعيان ووزيرهُ في الامور الخارجية وشارل رايموند كونت دوصان فاليه من اعضاء مجلس الاعيان وسفير فرنسا لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا وفيلكس ديسبرز المكلف بادارة الامور السياسية في دائرة الخارجيَّة

وعين حضرة ملك ايطاليا الكونت لويس كورتي احد اعضاء مجلس الاعيان ووزيرهُ في الامور الخارجية وادورد كونت دولوني سفيرهُ لدى امبراطورجرمانيا وملك بروسيا

وعين امبراطور جميع الروسيا البرنس الكسندر غورچيقوف وزيرهُ في الامور الخارجيَّة والكونت دوشوفالوف من قرناء الحضرة الامبراطوريَّة ومن اعضاء المجلس الخاص وسفيرهِ لدى دولة بريطانيا وبول دوبريل سفيرهُ لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيه

وعين حضرة سلطان العثمانيين الكسندر قره تيودوري باشا وزيره في الامور النافعة ومحمد علي باشا المشير في عساكرهِ وسعد الله بك سفيره لدى امبراطور جرمانيا وملك

بروسيا فاجتمعوا في برلين بحسب اشارة دولة اوستريا هنكاريا وبموجب استدعاء دولة جرمانيا ومعهم سائر المحررات المؤذنة بالترخيص فبعد ان وجدت مطابقة للاصول وقع بينهم الاتفاق على المواد الآتية

(المادة الاولى) صارت الآن البلغار امارة مستقلة في امورها الداخلية (ادارة مختارة) تدفع خراجاً في كل سنة الى الباب العالي وتكون تحت تابعية الحضرة السلطانية ويكون لها حكومة مسيحية وعساكر وطنية

(المادة الثانية) تكون امارة البلغار عبارة عن الاراضي الآتي ذكرها وهي ان حدود تلك الاراضي من جهة الشمال تبتدئ من حدود الصرب القديمة وتمر عن يمين ساحل نهر الطونة وتنتهي الى محل في شرقي سيلستريا وهذا المحل سيصير تعيينهُ من طرف المؤتمر الذي يشكل من ماموري دول اوربا ومن هنا ايضاً يتصل الحد في البحر الاسود ويمر من جنوب منقاليا التي صار الحاقها برومانيا اما من جهة الجنوب فانهُ يبتدئ من مصب النهر ويمر من جوار القرى المسماة « هوجه كوي » و « سلامكوي » و « ايواجق » و « قولبة » و « صوجيلق » على شاطئ النهر الى جهة فوق المحاذية « اوادي قاججق » ومن جنوب « بليبة » و « كمحالق » على بعد من « جنكة » مقدار متر ٢ ونصف ويتجاوز « دلي قامجي » ويمر من شمال « حاجي محله » ويصعد الى ذروة المحل الكائن فيما بين « تيكنلك » و « ايدوس برهسا » ومنهُ الى بلقان « قرين اباد » وبلقان « ويره زويقه » ومن بلقان « قرغان » الواقع في شمال المحل المسمى « قوتل » الى ان يتصل بمحل « تيمورقبو » وعلى هذا يكون مرورهُ من سلسلة البلقان الكبير الاصلية ويمتد على جميع مساحتهِ الى ان ينتهي الى ذروة « قوزيقه » ومن هنا يترك ذروة البلقان ويلتفت الى جهة الجنوب ويسير من بين قريتي « پيرتوب » و « دوزنجي » ويغادر قرية بيرتوب المذكورة الى البلغار وقرية دوزنجي الى شرق الروم ايلي ويتصل بنهر « طوزلي دره » ويسير مع مجرى النهر الى مصبهِ في نهر « طوبولينجه » ثم الى نهر « اسموسكيو » الذي يصب في نهر طوبولينجه المذكور بجوار قرية « پتريجوه » ويترك من الاراضي الكائنة فوق نهر اسموسكيو المذكور مقدار كيلومتر ٢ الى شرقي الروم ايلي ويمر من مقسم المياه فيما بين اسموسكيو ونهر قامنيفه ويلتفت الى الجنوب الغربي من التل المسمى وونجاق وينتهي رأساً الى النقطة المذكورة في خريطة اركان حرب دولة اوستريا عدد ٨٧٥ ومن هنا يقطع بخط مستقيم الجهة العليا من وادي اهتمان ويمر من بين بوغدينه وقره ولي ويتصل بالخط في مقسم انهر

المريج فيما بين اسقر وقمرلي وحاجيلر ويسير مع الخط المذكور من تلال « ولنيا » و « موغيلا » الى الممر الواقع في نقطة عدد ٥٣١ والى المحلات المسماة « ازمايليقا » و « ره وسومناتيقه » ويدخل من بين « ميوري طاش » و « قادرتبه » ويتصل بحدود لواء صوفية ومن هنا يبتدىء من « قادرتبه » الى جهة الجنوب الغربي ويمر من بين نهر قره صو ونهر « استروما قره صو » ويسير مع خط مقسم المياه ومن تلال الجبال المسماة « تيمورقبو » و « اسقوفنيه » و « قاضيمسار بلقان » و « حاجي كدك » تجاه بلقان قابتنيق ويتصل بحدود لواء صوفية القديمة وكذلك يمر من بلقان قابتنيق المذكور ومن بين وادي « ريلسقارقا » ووادي « بسقرارقا » ويسير مع خط مقسم المياه ويدور تل « ودينجه بلانينا » وينزل الى وادي استروما في المحل الذي يختلط به نهر استروما مع نهر ريلسقارقا ويدع قرية « براقلي » للدولة العليّة ويصعد من جنوب قرية « بلشيتقة » الى فوق ويمر من اقصر خط الى سلسلة « غولما بلانيانا » وتل « غيتقة » ويتصل بحدود لواء صوفية ويترك كامل منشا صوهارقا للدولة العليّة ويلتفت الى جهة الغرب من جبل « رجينقا » ويدور جبال قارونا يابوقه وحدود لواء صوفية القديمة من جبل « قرني وره » ويمر من فوق مياه « اكريصو » ولبذيقه ويطلع الى تلال « بابنابولانا » حتى ينتهي ايضاً الى جبل قرني وره المذكور ومن هذا الجبل يمر من تلال « اسنرزر » و « ويله غوصو » و « مسيدبلانينا » ومن بين « استروما » و « موراوه » مع خط مقسم المياه الى غاسينا وقرنه طراوه ودار قوسقة ودرانيقة بلان وبعدها من فوق دوشا قلادانق ومن مقسم انهر صوقوه وموراوه ويذهب رأساً الى المحل المدعو « استول » ومن هنا ينزل الى الطريق الموصلة الى صوفية وبيروته ويقطع في هذه الطريق الف متر ومنهُ عن طريق ويدليا بلانينا ويصعد على خط مستقيم الى جبل « رادوجينا » الكائن في سلسلة البلقان الكبير ويترك قرية دويقنجي الى صربستان وقرية سنافوس الى البلغار ثم يلتفت الى جهة الغرب ويدور تلال البلقان المسمى سبروق من صوب استاره بلانيا ويتصل بشرقي حدود امارة الصرب القديمة بجوار « تولا اسميلوه قوفة » ويسير على هاتهِ الحدود حتى ينتهي الى نهر الطونة عند « راقوبجه » ثم ان هذه الحدود جميعها سيصير تعيينها بمعرفة لجنة مركبة من وكلاء الدول الممضية على المعاهدة وحصل الاتفاق اولاً على ان هاتهِ اللجنة تنظر بالاعتناء في خصوص محافظة حدود بلقان شرقي الروم ايلي الكائن تحت سلطة الدولة العليّة وثانياً ان لا يصير انشاء استحكام في اطراف « صماقو » بمسافة ١٠ كيلو متر

(المادة الثالثة) يكون انتخاب امير البلغار من اهلها بحرية تامة واقراره من الباب العالي برضى دول اوربا العظام ولا يصح انتخاب امير عليها من بيوت الدول المذكورة فاذا توفي عن غير ولد يكون انتخاب امير بمدة على الشروط والاصول المقررة

(المادة الرابعة) بعد انتخاب الامير تجتمع اعيان البلغاريين في طرنوفا لترتيب احكام ونظامات تخص الامارة وفي الجهات التي تكون سكانها من الترك واهل رومانيا والروم وغيرهم يلزم مراعاة حقوقهم ومصالحهم فيما يتعلق بقضية الانتخاب وترتيب الاحكام الاساسية

(المادة الخامسة) المواد الآتية تكون اساساً للحقوق العمومية في البلغار وهي « ان الاختلاف في المذاهب والاعتقادات لا يخرج احداً من الاهلية والجدارة من تمتعه بالحقوق المدنية والسياسية او بدخوله في الوظائف الميرية اوالعمومية او نواله الشرف او استعماله الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقره فان الحرية ومباشرة جميع الاعمال الدينية ينبغي تأمينها لجميع الناس القاطنين في البلغار من اهلها ومن الاجانب ايضاً ولا يسوغ اتخاذ مانع ما لترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او لعلاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين »

(المادة السادسة) تكون ادارة « البلغار الموقتة » تحت ادارة مأمورين من دولة الروسية الامبراطورية الى ان تنتظم فيها القوانين الاساسية ويستدعى مأمور من طرف السلطنة العثمانية والقناصل الذين تنتخبهم الدول الذين وقعوا على هذه المعاهدة بقصد مراقبة اعمال « الادارة الموقتة » المذكورة فاذا حصل خلاف بين القناصل المذكورين فابرام العمل يكون على حسب اكثرية الاراء كما انه اذا حصل خلاف بين اكثرية اراء المذكورين والمامورين من طرف امبراطورية الروسية او المامورين من طرف الحضرة السلطانية تجتمع سفراء الدول بالاستانة الذين وقعوا على هذه المعاهدة في مؤتمر (كنفرانس) ليقر رأيهم على انهاء الخلاف المذكور

(المادة السابعة) تشكيل « الادارة الموقتة » المذكورة لا يبقى اكثر من تسعة اشهر اعتباراً من يوم التوقيع على هذه المعاهدة وبمجرد انتخاب الامير تصير مباشرة اجراء الاحكام الجديدة فتصير تلك الاحكام دستوراً للعمل وتكون الامارة قد حازت استقلاليتها الادارية (ادارتها المختارة) حوزاً تاماً

(المادة الثامنة) جميع المعاهدات التجارية والسفرية والاتفاقات التي جرت بين الدول الاجنبية وبين الباب العالي والتي لم يزل عملها جارياً تبقى مرعية الاجراء مع امارة

البلغار فلا يصح تبديل شيء منها مع احدى الدول المذكورة بدون رخصة منها ولا يسوغ وضع شيء من الضرائب على البضائع التي ترسل الى احدى الجهات في مرورها على البلغار وتكون معاملة جميع الاهالي ورعايا الدول وتجارتهم في الامارة على قدم مساواة تامة وتبقى امتيازات وخصائص الاجانب المقررة في المعاهدات (التي امضيت بين الدول والباب العالي) مرعيَّة الاجراء في الامارة ما دام لم يحصل تعديلها برضى الدول

(المادة التاسعة) الويركو السنوي الذي يجب على امارة البلغار ان تدفعهُ في كل سنة الى متبوعها الحضرة السلطانيَّة يكون دفعهُ الى البنك الذي يعينهُ الباب العالي ويكون تعيين المبلغ عند ختام السنة الاولى من جريان نظاماتها الجديدة باتفاق بين الدول الموقعين على هذه المعاهدة وهذا الويركو يحسب بمناسبة ايراد الامارة وحيث انها ستحمل جانباً من ديون السلطنة العموميَّة يلزم للدول ايضاً ان يتذاكروا على مقدار الدين الذي يعين على الامارة وذلك عند مذاكرتهم في امر الويركو

(المادة العاشرة) جميع التعهدات والاتفاقات التي وعدت السلطنة العثمانيَّة باجرائها مع شركة سكة الحديد بين وارنه وروسجق تدخل في عهدة امارة البلغار اعتباراً من مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة اما تسوية الحسابات السابقة التي كانت بين الشركة المذكورة وبين الباب العالي فامرها يكون بين الباب العالي وحكومة البلغار والشركة المذكورة وكذلك دخل في عهدة البلغار سائر تعهدات الباب العالي مع دولة اوستريا وهنكاريا ومع الشركة المنوط بعهدتها تشغيل سكك الحديد في الروم ايلي فيما يتعلق باتمام السكك المذكورة واتصالها في الاراضي التي دخلت الآن في حوزة البلغار ويكون عقد شروط الاتفاقات اللازمة لتسوية هذه المسائل بين دولة اوستريا وهنكاريا والباب العالي والصرب وامارة البلغار عند اقرار الصلح

(المادة الحادية عشرة) بعد هذا لا تبقى العساكر العثمانيَّة في البلغار وهدم سائر القلاع والحصون يكون على مصروف حكومة الامارة في ظرف سنة واحدة او اقل من ذلك ان امكن وينبغي لتلك الحكومة ان تتخذ وسائط معجلة لذلك ولا يسوغ لها ان تبني بدلها حصوناً جديدة ويكون للباب العالي حق في ان يتصرف في المهمات الحربيَّة وغيرها من الاشياء التي هي ملك لهُ الباقية في حصون الطونة التي اخلتها العساكر العثمانيَّة بموجب الهدنة التي حصلت في ٣١ جنيواري (كانون الثاني) وكذلك التي في شمله (شمنى) ووارنه

(المادة الثانية عشرة) المسلمون وغيرهم الذين لهم املاك في البلغار ويريدون السكنى

خارجاً عنها يبقون متمتعين باملاكهم فيمكنهم والحالة هذه ايجارها الى غيرهم وادارتها بمعرفة من ينتخبونهُ وتشكل لجنة مؤلفة من الترك والبلغاريين لتسوية جميع المسائل المتعلقة بكيفيَّة نقل وتشغيل املاك الوقف لحساب الباب العالي والمسائل المتعلقة بالذين لهم مصالح فيها وهذه التسوية تكون في ظرف سنتين ثم ان البلغاريين الذين يسافرون يسكنون في باقي اطراف الممالك العثمانية يكونون تحت الاحكام والقوانين العثمانية

(المادة الثالثة عشرة) تشكل على جنوب البلقان ولاية تحت اسم « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » وتكون تحت تابعيَّة الحضرة السلطانيَّة تابعيَّة سياسيَّة وعسكريَّة بشرط ان تكون مشمولة باستقلاليَّة ادارتها ويكون واليها نصرانياً

(المادة الرابعة عشرة) حدود « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » تكون متصلة بحدود البلغار من جهتي الشمال والشمال الغربي والولاية المذكورة تكون عبارة عن الاراضي الكائنة ضمن الدائرة الآتي ذكرها « فحد هذه الولاية يبتدىء من البحر الاسود ويسير على النهر الواقع في جوار القرى المسماة هوجه كوى وسلام كوى وايواجق وقوليه وصوجيلق » الى جهة فوق محاذياً لوادي « دلي قامجق » ويمر من فوق « چكنه » مقدار مسافة كيلومتر ٢ ونصف تقريباً ويتصل بجنوب قراء « بلبيه » و « كمحالق » ثم يصعد الى التل الكائن فيما بين « تبكنلك » و « ايدوس برہ سا » ويمر من بلقان « قرين اباد » و « بره زوبجه » و « قزغان » حتى يصل الى « تيمورقبو » بالجهة الشماليَّة من « قوتل » وبعدها يدور جميع سلسلة البلقان الكبير وينتهي الى تل « قوزيقه » وفي هذه النقطة اعني من ذروة البلقان الكائن على غربي حدود الروم ايلي ينزل الى جهة الجنوب ماراً من بين قرية بيتروب التي تركت للبلغاريين قرية دوزانس الباقية في الروم ايلي ويصل الى نهر « طوزلي دره » ويسير مع النهر الى مجمعهِ مع نهر طوبولينقا وكذلك يمر مع هذا النهر الى مجمعهِ مع نهر « سموسقيور » في جوار قرية « بتريسووا » وعلى هذا يترك لروم ايلي الشرقيَّة في شطوط مجاري هاتهِ الانهر محلاً مقدار كيلو مترو ٢ ثم يتبع الخطوط الفاصلة للمياه المذكورة ويسير الى جهة فوق على طول انهر « سموو سقبور » و « قامنيقا » ويلتفت الى الجنوب الغربي في تل « وواتجاق » ويصل الى المحل المبين في خريطة اركان حرب دولة اوستريا عدد ٨٧٥ ثم يقطع على خط عمودي مجرى نهر « ايجان دره » من الاعلى ويمر من بين « بوغدينا » و « قارولا » حتى يصل الى الخط الفاصل الكائن فيما بين نهري « اسقر » و « ماريقا » ويسير على طول الخط الموضح في الخريطة المذكورة تحت رقم ٥٣٠

من تلال « وولينا موجيلا » و « جمابليقا » و « روه سومناتيقا » ويجتمع بحدود لواء صوفيه فيما بين « سيوري طاش » و « قادر تبه » فعلى هذا تفرق حدود الروم ايلي والبلغار من جبل « قادر تبه » ثم الخط الفاصل المذكور يمر الى قدام من بين انهر ماريقا وتوابعه وبين انهر « مستاقره صو » واتباعه تابعاً استقامة الخطوط الفاصلة لهذه المياه ويتوجه الى جهتي الجنوب الشرقي والجنوب ماراً من تلال جبل « دسبوط » الى صوب جبل « كروشووا » وهذا الجبل كان مبدأ الحدد التي عينتها معاهدة اياسطفانوس ثم الخط المذكور يتبع الخط المعين في المعاهدة المذكورة اعني انهُ يبتدئُ من هذا الجبل ويمر على سلسلة « قره بلقان » من تلال « قولا قلي طاغ واشك جبلي وقره قولاس » وايشيقلر ويسير جهة الجنوب الشرقي حتى ينتهي الى نهر « واردا » ويسير مع هذا النهر على طولهِ حتى يصل الى قرية « اطه قلعه » وتبقى هذه القرية في سلطة الدولة العليَّة ومن هنا يصعد ذروة جبل « بش تبه » ثم ينزل ويمر من جسر « مصطفى باشا » ويتجاوز نهر المريج من جهة فوق بمسافة خمسة كيلومتر ثم يتوجه الى جهة الشمال مع بين الانهر الصغار التي تصب في نهري « خانلي دره » و « مريج » ويسير على خط مقسم المياه الى المحل المسمى « كودلربايري » ومن هنا يلتفت الى جهة الشرق ويمتد الى « صقار بايري » ومنهُ الى وادي « طونجه » والى « بيوك دربند » ويترك « بيوك دربند » « و صوجاق » الى جهة الشمال ثم يسير من بين الانهر التي تصب في نهر طونجه من جهة الشمال وفي نهر المريج من جهة الجنوب على خط مقسم المياه ويصعد الى تل « قبيلر » وتبقى قبيلر في الروم ايلي الشرقيَّة ثم يلتفت الى جهة الجنوب ويمر من بين المياه الكائنة فيما بين نهر المريج من جهة الجنوب وبين قريتي « بلورن » و « التلي » التي تصب في البحر الاسود ويصل الى جنوب قرية « المالي » ويدور تلال « ووسنه » و « زواق » من شمال المحل المسمى « قراكلق » ويسير مع الخط الفاصل فيما بين نهري « دوكه » و « قره اغاج » حتى يتصل بالبحر الاسود

(المادة الخامسة عشرة) يكون للحضرة السلطانيَّة حق في ان تباشر محافظة الحدود البريَّة والبحريَّة وذلك بان تبني في تلك الحدود استحكامات وتقيم فيها عساكر ولتأمين الراحة العموميَّة في ولاية « الروم ايلي » الشرقيَّة يشكل فيها ضبطيَّة وعساكر داخليَّة ومذاهب الاهالي الذين تؤلف منهم هذه العساكر والضبطيَّة تكون مرعيَّة ويكون تعيين ضباطهم من طرف الحضرة السلطانيَّة وقد تعهدت الحضرة السلطانيَّة بان لا توظف في

حصون الحدود عساكر غير نظاميَّة كالباشي بوزق والجراكسة وفي جميع الاحوال لا يسوغ للعساكر النظاميَّة المذكورة ان تتعدى على الأهالي وعند مرورهم في الولاية (لاستقرارهم في الاستحكامات) لا يسوغ لهم الاقامة فيها

(المادة السادسة عشرة) يكون للوالي حق في ان يستدعي العساكر العثمانيَّة اذا حصل ما يخل بالراحة الداخليَّة والخارجيَّة فاذا وقع ما يوجب ذلك يخبر الباب العالي نواب الدول بالاستانة عن قراره وعن السبب الذي احوجهُ اليهِ

(المادة السابعة عشرة) يكون تعيين والي « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » مدة خمس سنين من طرف الباب العالي باتفاق الدول

(المادة الثامنة عشرة) بمجرد مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة تشكل لجنة اورباويَّة للنظر في تراتيب ادارة « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » بالاتفاق مع الباب العالي ومن خصائصها ان تبين في ظرف ثلاثة اشهر وظيفة مأموريَّة الوالي وما لهُ من الاستطاعة وترتيب الولاية الاداريَّة والنظاميَّة والماليَّة ويكون ابتداء اشغالها تنظيم اختلاف احكام الولايات وما حصل عليهِ المذاكرة في الجلسة الثامنة من المؤتمر الذي عقد في الاستانة وبعد ان يحصل القرار على جميع المصالح المتعلقة بالولاية المذكورة يصدر فرمان من طرف الحضرة السلطانيَّة فيبلغهُ الباب العالي الى الدول

(المادة التاسعة عشرة) يناط بعهدة اللجنة الاورباويَّة المذكورة بالاتفاق مع الباب العالي ادارة الماليَّة في الولاية الى ان تنجز القوانين الجديدة المراد وضعها

(المادة العشرون) جميع المعاهدات والاتفاقات والمعاملات التي جرى تداولها بين الباب العالي والدول الاجنبيَّة او التي ستعقد فيما بعد يكون معمولاً بها في « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » كما هو جارٍ في سائر السلطنة العثمانيَّة وجميع الامتيازات والخصائص التي حازتها الاجانب على اختلاف وظيفتهم ومصلحتهم تبقى محترمة في الولاية المذكورة وقد تعهد الباب العالي بان جميع احكام السلطنة هناك فيما يخص المذاهب المختلفة يكون معمولاً بها ومرعيَّة الاجراء

(المادة الحادية والعشرون) تبقى حقوق الباب العالي وتعهداتهِ فيما يتعلق بسكك الحديد في الروم ايلي الشرقيَّة معمولاً بها ومرعيَّة الاجراء

(المادة الثانية والعشرون) تكون قوة الروسيَّة في البلغار وفي « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » مؤلفة من ست فرق من المشاة وفرقتين من الخيالة وجميع ذلك لا يزيد على

٥٠٫٠٠٠ نفر وتكون مصاريفهم على الولايات التي يتبوأونها وتبقى علاقتهم ومواصلتهم مع الروسيا بواسطة رومانيا بحسب الاتفاق الذي يحصل بين الحكومتين المذكورتين وفضلاً عن ذلك تكون بواسطة مراسي البحر الاسود مثل وارنه وبورغاس حتى يمكن لهم ان يتخذوا هناك مخازن للوازمهم مدة اقامتهم وتقرر أيضاً ان اقامة العساكر الامبراطورية في « ولاية الروم ايلي الشرقية » والبلغار تكون مدة تسعة اشهر اعتبارًا من يوم مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة وقد تعهدت دولة الروسية الامبراطورية انهُ قبل انقضاء هذه المدة تتم مرور عساكرها من رومانيا فتخلو منهم امارة البلغار

(المادة الثالثة والعشرون) قد تعهد الباب العالي بان يجري في جزيرة كريد النظامات الَّتي تقررت فيها في سنة ١٨٦٨ والتعديلات الَّتي يرى من العدل اجراؤها وكذلك يجري في بقية الولايات نظامات وقوانين على ما تقتضيهِ المصالح الداخلية كما في كريد مما لم ينص عليهِ في هذه المعاهدة نصاً خصوصياً الاَّ فيما يتعلق بالغاء الضرائب كما هو جارٍ الآن في كريد ويشكل من طرف الباب العالي لجنات مخصوصة يكون اكثر اعضائها من الاهالي للنظر في متعلقات النظامات اللازم اجراؤها في كل ولاية ثم تعرضها على الباب العالي للتروي فيها وقبل ان يعمل بها وتجعل دستورًا للعمل يلزم الباب العالي ان يستشير اللجنة الاوروباوية المنعقدة للنظر في احوال الروم ايلي الشرقية

(المادة الرابعة والعشرون) اذا فرض انهُ لم يقع اتفاق بين الباب العالي ودولة اليونان فيما يتعلق بتعديل الحدود كما تقرر في المادة ١٣ من مضبطة مؤتمر برلين فدول جرمانيا واوستريا هنكاريا وفرنسا وبريطانيا العظمى وايطاليا والروسية تحفظ لنفسها عرض التوسط بين الفريقين تسهيلاً للمذاكرات

(المادة الخامسة والعشرون) تتبوأ عساكر اوستريا وهنكاريا ولايتي بوسنه وهرسك ويناط بها ايضاً امر ادارتهما وحيث انها لا تريد ان تتولى ادارة سنجيقة يكي بازار الممتدة بين الصرب والجبل الاسود على الخط الجنوبي الشرقي ما وراء ميتروونسه فالادارة العثمانية تبقى معمولاً بها هناك وحيث ان المراد اقرار الاحوال السياسية الجديدة وحرية المواصلات وتأمينها فدولة اوستريا وهنكاريا تحفظ لنفسها الحق بأن يكون لها قشل وطرق تجارية وعسكرية في جميع الجهات المذكورة ولهذهِ الغاية تحفظ لنفسها هي والدولة العثمانية ان تتفقا على المواد المتعلقة بهذه المسألة

(المادة السادسة والعشرون) قد اعترف الباب العالي استقلال الجبل الاسود

وكذلك اعترفتهُ بقيَّة الدول الموقعين على هذه المعاهدة الذين لم يعترفوهُ سابقاً

(المادة السابعة والعشرون) اتفق الموقعون على هذه المعاهدة على ان استقلال الجبل الاسود يكون مربوطاً بالمواد الآتية وهي « لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينيَّة في الجبل فلا يخرج احدًا من الاهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنيَّة والسياسيَّة او بدخولهِ في الوظائف الميريَّة او العموميَّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ فلجميع الاهالي التابعين لجبل الاسود وللاجانب ايضاً الحريَّة التامة في جميع المتعلقات المذهبيَّة ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او في علاقتهم مع روٴسائهم الروحانيين »

(المادة الثامنة والعشرون) قد صار تعيين حدود الجبل الاسود كما سيأتي وهي انها تبتدئ من « ايلينو برودو » وتسير الى شمال « قلوبوق » وتمر من فوق « تره بنيجه » وتصل بمحل « غرانقارو » وتبقى غرانقارو ضمن لواء هرسك ومنها يصعد الخط الفاصل الى جهة فوق من نهر غرانقارو ويصل الى محل يبعد عن النهر الذي يصب في « سيدلقه » مقدار كيلو متر فقط ومن هنا يسير على اقصر طريق ويصعد الى التلال الَّتي في جوار « تره بنيجه » ثم يذهب الى « بيلاتوه » ويترك هذه القرية للجبل يسير من التلال الى جهة الشمال وعلى قدر الامكان يمر بعيدًا عن طريق « بيلكه » و « فوريتو » و « غاجقه » مقدار ٦ كيلومتر ويصل الى الطريق الكائنة فيما بين « سوينا بلانينا » وجبل قوربله ومنها عن جهة الشرق يمتد الى جبل اورلين ويترك قرية « وارنقوبجي » لهرسك ثم يمتد من الشمال الشرقي ويدع « روانه » داخل الجبل ويمر من تلال « لبرسليك » و « ولجاق » ويسير من اقصر طريق وينزل الى نهر « بيوه » ويتجاوز هذا النهر ويصل الى « تاره » الكائنة بين « قرقويقه » وبين « وندوينه » ومن تارة يصعد الى « موجقواق » ويتصل بمحل « سقوج زرو » ومن هنا الى قرية « صوقولار » ويجتمع بالحدود القديمة ثم يمر الى تلال مقرا بلانينا وتبقى قرية مقرا داخل الجبل ويمر ايضاً من السلسلة الاصليَّة الى الطريق المذكور في خريطة اركان حرب اوستريا تحت رقم ٢١٦٦ ومن فوق مقسم المياه الواقع بين « ليم » و « درين » وبين « سيونه زم » ثم يتصل بالحدود الجديدة بعد مروره فيما بين قبيلة « قاجي دره قالوبجي وبين قوسقار جنه » و «قلامنتي» و « غرودي » وبعد ذلك ينزل الى صحراء بودغوريجه ويترك قبائل قوسقارجنه وقلامنتي وغرودي وهو تي لبلاد الارناووط ويتصل « ببلاونيقه » ومن هنا يمر من جوار جزيرة « غوريقه طوبال »

ويتجاوز ماء اشقودره ويسير رأساً من « غوريقه » طوبول الى التلال ويمر من مقسم المياه الكائن فيما بين « مغورد » و « قاليمد » مع خط المقسم المذكور ويترك « ميرقوبق » داخل الجبل وينتهي الى بحر ونديك (فينيسيا) عند قرية « فروجي » ثم يلتفت الى الشمال الغربي ويمر في الساحل من بين قرى « سوسانه » و « زويسى » ويتصل بمنتهى الحدود الجديدة في جهة الجنوب الشرقي فوق « ورسوته بلانينا »

(المادة التاسعة والعشرون) انضمام انتواري (باري) وشطوط البحر التي تخصها الى الجبل الاسود مشروط على الصورة الآتية وهي ان يعاد على الدولة العثمانية الاراضي الكائنة على جنوب تلك الجهة الى بويانا من ضمنها دولسنجو ويضم الى دلماتيا مرسى سبزا والاراضي المتعلقة بها الى غاية حدودها الجنوبية كما هي مبينة بالتفصيل في الخريطة ويكون للجبل الحرية المطلقة التامة للسفر في نهر بويانه ولكن لا يسوغ لهُ ان يبني على النهر حصوناً او استحكامات الأ ما لزم للمحافظة على اشقودرة خاصةً فتكون تلك الحصون والحالة هذه غير خارجة عن دائرة مسافتها حول المدينة المذكورة بستة كيلومتر (٦٠٠٠ متر او نحو عشرة اميال) ولا يكون لهُ بواخر حربية ولا رابة ولا يسوغ لاي دولة كانت ان تدخل بواخرها الحربية الى مرسى انتواري اما الحصون الكائنة في ارض الجبل بين النهر وشط البحر فتهدم بالكلية ولا يسوغ اعادة بنائها ويفوض لعهدة اوستريا وهنكاريا ادارة البحرية والصحية في انتواري وفي شطوط الجبل وعلى الجبل ان يستعمل القوانين والاصطلاحات البحرية على موجب القوانين والاصطلاحات الجارية في دلماتيا (باوستريا) وقد تعهدت اوستريا وهنكاريا بان تحمي بواخر الجبل الاسود التجارية ويلزم للجبل ان يتفق مع اوستريا وهنكاريا على مد سكك الحديد وانشاء طرق عادية في الاراضي التي دخلت حديثاً في حوزته وعلى تأمين حرية المواصلة عليها

(المادة الثلاثون) المسلمون وغيرهم الذين يملكون عقارات في الاراضي التي انضمت الى الجبل الاسود ويريدون ان يستوطنوا خارجاً عن الامارة لهم حق بان يبقوا مالكين عقاراتهم بايجارها او تشغيلها بواسطة من يختارونهُ وتشكل لجنة مؤلفة من مأمورين من العثمانيين واهل الجبل الاسود لتسوية المسائل التي تتعلق بكيفية نقل الاملاك او حرثها او ادارتها سواء هي من املاك الوقف او الاملاك الميرية التي للباب العالي فتجري تسوية جميع متعلقات الذين لهم مصلحة فيها وهذه التسوية تكون في ظرف ثلاث سنين

(المادة الحادية والثلاثون) على امارة الجبل الاسود ان تتفق مع الباب العالي على

ما يتعلق بتعيين وكلاء من طرفها في الاستانة او في جهات اخرى من السلطنة العثمانية مما يرى لازماً اما اهل الجبل المقيمون في السلطنة العثمانية او المسافرون فيها فيكونون تحت احكام الدولة العثمانية على حسب الاصول المقررة بين الدول وعلى حسب العوائد المقررة مع الجبل

(المادة الثانية والثلاثون) يلزم ان عساكر الجبل الاسود تخلي الاراضي ٱلَّتِي هم الآن مستولون عليها مما لم يدخل في حدود امارة الجبل الجديدة وذلك في ظرف عشرين يوماً اعتباراً من يوم التوقيع على هذه المعاهدة او اقل من هذه المدة اذا امكن كذلك يلزم للعساكر السلطانيَّة ان تخلي في المدة المذكورة الاراضي التي دخلت الان في حوزة الجبل

(المادة الثالثة والثلاثون) حيث انهُ يلزم الجبل الاسود ان يتحمل جانباً من الديون العثمانيَّة العمومية في مقابلة الاراضي الجديدة ٱلَّتِي دخلت في حوزتهِ بموجب شروط الصلح تعين نواب الدول الاجنبيَّة في الاستانة هذا المبلغ بالاتفاق مع الباب العالي على اصول عادلة

(المادة الرابعة والثلاثون) لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين استقلالية امارة الصرب ربطتها بالشروط المحررة في المادة الآتية

(المادة الخامسة والثلاثون) لا يسوغ التميز في الاعتقادات الدينية في الصرب ضد احد حتى يخرجهُ من الاهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنيَّة والسياسيَّة او بدخولهِ في الوظائف الميريَّة او العموميَّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ فلجميع الاهالي التابعين للصرب والاجانب ايضاً الحرية التامة في جميع المتعلقات المذهبيَّة ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين

المادة السادسة والثلاثون) امارة الصرب تكون مالكة للاراضي الموجودة في ضمن الحدود الآتي ذكرها وهي ان الخط الفاصل يمر على طول الخط الحالي ومن مصب نهر « درينا » في نهر صاوا ويذهب مع المجرى ويترك « ازرونيق وزخار » للامارة ولا يترك الخط المذكور اعني الحدود القديمة الى « قابونيق » ثم يفترق في ذروة جبل قابونيق عن الخط المذكور ويسير من جنوب الجبل على طول حدود نيش الشرقيَّة ويمر من تلال « ماريقا وماردار بلانينا » وهذه التلال هي الخط الفاصل بين انهر « ايلبار وسينيقا

وطوبليقا » وعلى هذا تبقى « بره بولاد » للدولة العليَّة وبعدهُ يسلك خط مقسم المياه الى جهة الجنوب من بين « برونيقا » ومدودجا ويترك وادي مدودجا كلهُ للصرب ويصعد الى تل « قوجاق بلانينا » ويكون هو الخط الفاصل فيما بين الانهر المسماة « بوجنيقا وترنيقا وموروا » ويصل الى تل « بوجنيقا » ثم يذهب من تجاه « قابنابلانينا » الى مجمع انهر « قوانسقا وموراوه » ويتجاوزهُ ويسير على الخط الفاصل فيما بين مياه النهر الذي يختلط بنهر موراوه في جوار « قوانسقا ونره‌دوس » ويتصل « بيلانينا ايليجه » فوق « ترغويست » ومن هنا اعني من ذروة جبل ايليجه يمتد الى ذروة جبل « قلتروق » ويمر من المحلات المدروجة في الخريطة تحت عدد ١٥١٦ و١٥٤٧ ومن « بابينا غورا » وينتهي الى جبل « قرني وره » ثم يبتدئ من هذا الجبل ويجتمع بحدود البلغار يعني يمر من تلال « استره سرو ويلوغلو ومسيد بلانينا » ويسير على خط مقسم المياه الواقع فيما بين استروما و « موراوه » وينتهي الى المحلات المدعوة « غاسينا وقرنه تراوه ودارقوسقوه ودراينيقه بلان » وبعدها يمر من فوق « دشاني قلادنق » ومن اعلى مقسم مياه « صوقوه وموراوه » ويذهب رأساً الى « استول » ومن هنا ينزل الى قرية « سفوزه » من جهة شمالها الغربي ويقطع طريق « بيروت » بمسافة مقدار الف كيلومتر عن صوفية ويصعد على خط مستقيم الى « ويدليق بلانينا » ويمر من جبل « رادوچينا » الواقع في سلسلة البلقان الكبير ويترك قرية « دوقنجي » لامارة الصرب وقرية « سناقوس » الى البلغارستان ثم يسير من ذروة هذا الجبل الى جهة الشمال الغربي ويمر من بلقان « سيروق » ومن « استارا بلانينا » ويصعد الى تلال البلقان وفي جوار « قولا اسميلجوه قوقا » يتصل بحدود الصرب الشرقيَّة القديمة ويسير على هذه الحدود الى نهر الطونة وينتهي عند النهر في « راقوبجه »

(المادة السابعة والثلاثون) لا يغير شيءٌ في الصرب من الشروط الحاليَّة فيما يخص العلاقات التجاريَّة الكائنة بين الممالك الاجنبيَّة وبين امارة الصرب الى ان يجري بدلها اتفاقات جديدة ولا يسوغ ان يؤخذ على البضائع الَّتي تمر في الصرب مرسلة الى جهة أُخرى شيءٌ من العوائد او الرسومات اما المزايا والامتيازات الشاملة الآن رعايا الدول الاجنبيَّة في الصرب وحقوق الاحكام وحماية القناصل لرعاياهم على الاصول المعمول بها الآن فتبقى مرعيَّة الاجراء الى ان يحصل اتفاق بين امارة الصرب والدول الاجنبية على تعديلها

(المادة الثامنة والثلاثون) التعهدات اَلَّتِي تعهد بها الباب العالي مع دولة اوستريا وهنكاريا او مع شركة سكة الحديد في الروم ايلي او فيما يتعلق باتمام السكك الحديديَّة وتشغيلها في الاراضي اَلَّتِي دخلت في حوزة الصرب تبقى مرعية الاجراء عند امارة الصرب وعند التوقيع على هذه المعاهدة يجري اتفاق بين دولة اوستريا وهنكاريا والباب العالي والصرب وامارة البلغار على قدر ما يخصها لتسوية هذه المسائل

(المادة التاسعة والثلاثون) المسلمون الذين يملكون عقارات في الاراضي اَلَّتِي انضمت الى الصرب ويريدون ان يستوطنوا خارجاً عن الامارة لهم الحريَّة بأن يبقوا مالكين عقاراتهم بمؤاجرتها او تشغيلها بواسطة من يختارونهُ وستشكل لجنة مؤلفة من مأمورين من العثمانيين والصربيين لاجل تسوية جميع المسائل اَلَّتِي تتعلق بكيفية نقل وادارة الاملاك المتعلقة بالوقف او الاملاك الميريَّة اَلَّتِي للباب العالي وكذلك تسوية جميع متعلقات الناس الذين لهم مصلحة فيها وهذه التسوية تكون في ظرف ثلاث سنين

(المادة الاربعون) تكون معاملة رعية الصرب القاطنين في السلطنة العثمانية او المسافرين فيها بحسب اصول الاحكام والقوانين المتداولة بين الدول الى ان تحصل معاهدة بين الدولة العثمانية والصرب

(المادة الحادية والاربعون) يلزم لعساكر الصرب اخلاء جميع الاماكن اَلَّتِي لم تدخل في حوزة امارتهم في ظرف خمسة عشر يوماً اعتبارًا من يوم التوقيع على هذه المعاهدة كذلك يلزم للعساكر السلطانية ان تخلي في المدة المذكورة الاماكن التي دخلت في حوزة الامارة

(المادة الثانية والاربعون) حيث انهُ يتعين على الصرب حمل جانب من الديون العثمانيَّة العمومية في مقابلة الاراضي الجديدة اَلَّتِي حازتها بموجب هذه المعاهدة فسفراء الدول الاجنبيَّة في الاستانة يعينون مبلغ قيمة الاراضي المذكورة على صورة عادلة بالاتفاق مع الباب العالي

(المادة الثالثة والاربعون) لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين استقلالية رومانيا ربطتها بالشرطين الآتيين

(المادة الرابعة والاربعون) لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينيَّة في رومانيا ضد احد حتى يخرجهُ من الاهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنية والسياسية بدخولهِ في الوظائف الميريَّة او العمومية او نواله الشرف او استعماله الصنائع والحرف

المختلفة كيفما كان مقره فلجميع الاهالي التابعين لرومانيا والاجانب ايضاً الحرية التامة في جميع المتعلقات المذهبية ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين فتكون معاملة رعايا جميع الدول سواء كانوا من التجار او غيرهم في رومانيا بدون تمييز في المذهب على قدم مساواة تامة

(المادة الخامسة والاربعون) امارة رومانيا تعيد على حضرة امبراطور الروسية اراضي بيسارابيا التي كانت انفصلت من الروسية بموجب معاهدة باريس التي امضيت في سنة ١٨٥٦ وحدودها في الجهات الغربية من مجرى نهر البروث وفي الجنوب من نهر «كيليا» وفم «ستارى استانبول»

(المادة السادسة والاربعون) يضم الى رومانيا الجزر الثلاثة التي على الطونة وجزر «يلان طاغ» وسنجقية طولجي وهي تشمل قضاآت كيليا وسولينا ومحمودية وزانجه وطولجي وماجين وبابا طاغ وهرسوا وكوستنجه ومجيدية وما عدا ذلك يعطى لها ايضاً الاراضي الكائنة على جنوب الدبروجه الى ان تصل الى خط يبتدىء من شرق سيليستريا ويمتد الى البحر الاسود على جنوب منغاليه ويكون تعيين تخوم تلك الحدود في تلك المواقع بمعرفة اللجنة الاورباوية المنوط بعهدتها تعيين حدود البلغار

(المادة السابعة والاربعون) مسألة تقسيم المياه والصيادة تعرض على لجنة الطونة الاورباوية فتكون حكماً عليها

(المادة الثامنة والاربعون) لا يجوز وضع رسومات او عوائد في رومانيا على السلع التي ترد اليها بقصد ارسالها الى جهة اخرى

(المادة التاسعة والاربعون) يسوغ لرومانيا ان تعقد مع الدول الاجنبية اتفاقاً لتسوية مسألة امتيازات ووظائف قناصلهم فيما يتعلق بحماية رعاياهم في الامارة الآن الحقوق الحالية تبقى مرعية الاجراء ما دام لم يحصل اتفاق عمومي بين الامارة والدول

(المادة الخمسون) تبقى رعية رومانيا القاطنون في الممالك العثمانية او المسافرون فيها او رعايا العثمانيين المسافرون في رومانيا او القاطنون فيها متمتعين بالحقوق التي تشمل رعايا بقية الدول الاورباوية الى ان تعقد معاهدة لتسوية امتيازات القناصل ووظائفهم بين الدولة العثمانية ورومانيا

(المادة الحادية والخمسون) تعهدات الباب العالي ووظائفه فيما يتعلق باتمام الاشغال النافعة وما اشبهها في الاراضي التي دخلت في حوزة رومانيا تعود الى عهدة رومانيا

(المادة الثانية والخمسون) لاجل زيادة تأمين حرية السفر في نهر الطونه ٱلَّتي اعترف انها من المصالح الاوروباوية قرَّ رأي الموقعين على هذه المعاهدة بان جميع الحصون والاستحكامات الموجودة الآن على النهر من عند المحل الذي يقال لهُ « ابواب الحديد » الى فم النهر تهدم بالكلية فلا يسوغ بعد هذا بناء غيرها ولا يجوز سفر احدى البواخر الحربية على الطونة منحدر « ابواب الحديد » الاَّ البواخر الصغيرة المعينة لخدمة الضبطية في النهر وخدمة الكمارك ولكن يسوغ لبواخر الدول الموجودة في فم نهر الطونة لاجل الحراسة ان تسافر في النهر الى غاية « غلاتس »

(المادة الثالثة والخمسون) تبقى لجنة الطونة الاوروباوية مقررة في وظائفها ولرومانيا فيها نائب وتجري اعمال وظائفها الى « غلاتس » بحرية تامة مستقلة عن مداخلة مأموري تلك الاراضي وتبقى ايضاً سائر معاهداتها واتفاقاتها واشغالها واعمالها وقراراتها فيما يتعلق بامتيازاتها وخصائصها ووظائفها ثابتة الاجراء

(المادة الرابعة والخمسون) قبل نهاية الاجل المقرر لبقاء لجنة الطونة الاوروباوية بسنة واحدة يلزم للدول ان يتفقوا على تطويل سلطتهم او على التعديلات ٱلَّتي يرون اجرائها من اللازم

(المادة الخامسة والخمسون) جميع النظامات المتعلقة بالسفر في النهر وبوظائف الضبطية فيهِ من « ابواب الحديد » الى « غلاتس » يكون ترتيبها وتنسيقها من طرف اللجنة الاوروباوية بمساعدة نواب من طرف الممالك الكائنة بسواحل النهر ويصير تأليفها بالنظامات الموجودة او ٱلَّتي ستحدث في امور النهر اسفل من غلاتس

(المادة السادسة والخمسون) يلزم للجنة الطونة الاوروباوية ان تتفق مع الدول فيما يتعلق بتنوير الفنارات الكائنة على جزر « يلان طاغ »

(المادة السابعة والخمسون) قد فوض لاوستريا وهنكاريا الاشغال اللازم اجراؤها لازالة موانع السفر التي تحدث من « ابواب الحديد » والشلالات ويلزم على الممالك المجاورة النهر من الجهة المذكورة ان تجري جميع التسهيلات اللازمة لمصلحة تلك الاشغال اما المواد المقررة في المادة الرابعة من معاهدة لندرا ٱلَّتي امضيت في ١٣ مارس سنة ١٨٧١ فيما يتعلق باخذ ضرائب موقتة لسد مصاريف تلك الاعمال والاشغال فتبقى منوطة بدولة اوستريا وهنكاريا

(المادة الثامنة والخمسون) الباب العالي يسلم الى امبراطورية الروسية في اسيا

(الاناطول) اراضي اردهان وقارص وباطوم مع مرسى باطوم وجميع الاراضي الكائنة بين تخوم الروسية والتركية القديمة والتخوم الآتي بيانها وهي « الحدود الجديدة » تبتدىء من البحر الاسود على حسب الخط المقرر في معاهدة اياستفانوس الى نقطة في الجهة الشمالية الغربية من « خورده » وعلى جنوب « ارتوين » وتمتد على خط مستقيم الى نهر « جوروك » وبعد عبوره هذا النهر بسير شرقي « اشمشين » ويستمر على خط مستقيم في الجنوب وهناك يلاقي حدود الروسية المشروحة في المعاهدة المذكورة وذلك في نقطة على جنوب «ناريمان» مع بقاء مدينة « اولتي » في حوزة الروسية ثم يبتدىء الخط بالقرب من « ناريمان » الى الجهة الشرقية ويكون مروره من « تربنيق » وبعد دخول مدينة تربنيق في حوزة الروس يسير الى « بنك شاي » مجارياً نهره الى ان يصل الى « باردوز » وبعد دخول مدينة باردوز ويكي كوى في عهدة الروسية يؤخذ نقطة من غرب قرية « قره اونجان » تجعل الحدود عليها على خط الى ان يصل الى « مجنجرت » ومنها على خط مستقيم الى ان يصل الى تلال « قباداغ » فيستمر على خط مصب نهر « الاركس » في الشمال ومصب نهر « مرادصوى » في الجنوب الى ان يصل الى حدود الروسيا القديمة

(المادة التاسعة والخمسون) امبراطور الروسية يصرح هنا بان غاية مقصده ان يجعل باطوم مرسىً حراً (معنى حر ان تكون البضائع معفاة من جميع رسومات الدخول او الخروج)

(المادة الستون) تعيد الروسية على تركية اودية الشغراد ومدينة « بايزيد » ٱلَّتِي سلمت للروسية بموجب المادة ١٩ من معاهدة اياسطفانوس وقد سلم الباب العالي الى مملكة ايران مدينة « قطور » واراضيها كما قرّ عليهِ رأي اللجنة الانكليزيَّة والروسيَّة ٱلَّتِي نيط بعهدتها تعيين تخوم تركية وايران

(المادة الحادية والستون) الباب العالي يتعهد بان يجري بدون تأخير في الولايات ٱلَّتِي سكانها من الارمن سائر الاصلاحات والتحسينات ٱلَّتِي تحتاج اليها امورها الداخليَّة وان يتعهد بتأمينهم من تعدي الجراكسة والاكراد عليهم ويفيد الدول الاجنبية المرة بعد المرة التشبثات ٱلَّتِي اتخذها لهذه الغاية وهي تراقب كيفية اجرائها

(المادة الثانية والستون) حيث ان الباب العالي اظهر رغبتهُ في ابقاء اصول حرية الديانة وتوسيع مداها توسيعاً مطلقاً فان الموقعين على هذه المعاهدة ينزلون هذه الرغبة منزلة الفعل فلا يسوغ التميز في الاعتقادات الدينية في جميع اطراف السلطنة العثمانية

حتى يخرج احدًا عن الاهلية والجدارة بجميع مايتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنيَّة والسياسيَّة او بدخولهِ في الوظائف الميريَّة او العموميَّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ ويؤذن لجميع الناس بان يؤدوا الشهادة في جميع المحاكم بدون تمييز احد في الدين واستعمال سائر الامور الدينيَّة يكون بحريَّة فلا يكون مانع ما لترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او لعلاقتهم مع رؤسائهم ويكون الاكليروس (اصحاب الرتب الكنائسيَّة) والزوار والرهبان من جميع الامم الذين يسافرون في الممالك العثمانيَّة في الروم ايلي والاناطول حائزين حقوقاً واحدة وامتيازات وخصائص واحدة وفوض الى القناصل ونواب الدول الاجنبيَّة في تلك الممالك حق في حماية اولئك المذكورين وحماية محلاتهم الدينيَّة والخيريَّة حماية رسميَّة في الاماكن المقدسة او غيرها اما الحقوق المسلمة لفرنسا فلم تزل مرعية الاجراء وصار من المعلوم المقرر هنا انهُ لا يسوغ تبديل حال من الاحوال الحاضرة في الاماكن المقدسة اما زوار جبل اثوس من اي جنس كانوا فيبقون حافظين لاملاكهم وامتيازاتهم ومنحهم السابقة ويبقون متمتعين بمساواة تامة في الحقوق والمزايا

(المادة الثالثة والستون) تبقى معاهدة باريس ٱلَّتِي امضيت في ٣٠ مارس ١٨٥٦ ومعاهدة لندرة ٱلَّتِي امضيت في ١٣ مارس ١٨٧١ مرعية الاجراء وذلك فيما يتعلق بالمواد ٱلَّتِي لم تنسخها ولم تعد لها هذه المعاهدة

(المادة الرابعة والستون) يقع التصديق على هذه المعاهدة بعد ثلاثة اسابيع او اقل ان امكن وللشهادة بذلك اثبت الموقعون اسماءهم على هذه المعاهدة بعد ان وضعوا عليها اختامهم

تحريرًا في برلين في اليوم الثالث عشر من شهر يوليه (تموز) سنة ١٨٧٨

الامضـــــــــاء

فون بسمارك	صالسبري	هايمول	شوفالوف
فون بولوى	اود روسل	وادنطون	دوبريل
هوهنلوه	كورتي	صان فاليه	قره تيودوري
اندراسي	لاوني	ديبريس	محمد علي
كارولي	غورجيقوف	بكنسفيلد	سعد الله

وعند الاخذ في العمل بمقتضى هذه المعاهدة طلبت الروسيا عقد معاهدة نهائية لتصحيح ما سلم من معاهدة صان استيفانوس لتخرج عساكرها من الاراضي العثمانيّة فاستقر الامر على معاهدة تعريبها

(المادة ١) يقع بعد هذا صلح ووداد بين السلطنتين

(المادة ٢) قد وقع الاتفاق بين الدولتين على ان تصرحا بان المواد ٱلَّتِي تضمنتها معاهدة برلين ٱلَّتِي صار اجراؤها بموجب توسط الدول السبع جرى العمل بها عوضاً عن شروط صلح معاهدة اياسطفانوس ٱلَّتِي صار تعديلها او تبديلها في مؤتمر برلين

(المادة ٣) جميع مواد معاهدة اياسطفانوس ٱلَّتِي لم يحصل تبديلها او تعديلها او الغاؤها في معاهدة برلين جرت تسويتها في المواد الآتية من هذه المعاهدة تسوية قطعيَّة

(المادة ٤) بعد اسقاط قيمة الاراضي التي سلمتها تركية الى الروسية بموجب معاهدة برلين يبقى مبلغ الغرامة الحربيَّة المتعين على الباب العالي اداؤهُ ٨٠٢٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك وكيفيَّة اعطاء هذا المبلغ والضمان عليهِ تكون بالاتفاق بين دولة الحضرة العليَّة السلطانيَّة ودولة قيصر الروسية ما عدا ما صرح بهِ في المضبطة الحادية عشرة من معاهدة برلين فيما يتعلق بالغرامة الارضيَّة والحقوق الاولوية المختصة بالذين لهم مطالب على الدولة العليَّة

(المادة ٥) مطالب رعيَّة الروسيَّة القاطنين في تركية بصفة تعويض عن الضرر الذي حصل لهم في مدة الحرب الاخيرة تعطى عند رؤيتها وتسويتها بمعرفة سفارة الروسية بالاستانة واطلاع الباب العالي عليها وعلى كل حال لا يمكن ان تزيد على ٢٦٫٧٥٠٫٠٠٠ فرنك ويلزم تقديمها الى الباب العالي في ظرف سنة واحدة اعتبارًا من يوم مبادلة هذه المعاهدة المصدق عليها وبعد مضي سنتين لا يقبل الباب العالي شيئًا منها

(المادة ٦) يعين من طرف الباب العالي ومن طرف دولة الروسية مأموران مخصوصان لتسديد حساب تموين العساكر العثمانيَّة الذين كانوا اسرى في الحرب الاخيرة وهذه المصاريف تعين الى يوم التوقيع على معاهدة برلين ويسقط منها المبلغ الذي صرفتهُ الدولة العثمانية على مؤونة الروس الذين كانوا اسرى عندها وبعد تسوية هذا الحساب يدفع الباب العالي المبلغ الى الروسية في احد وعشرين قسطاً متساوية يكون دفع آخر قسط منها في ظرف سبع سنين

(المادة ٧) سكان الاماكن التي الحقت بالروسية الذين يريدون الاقامة في غيرها يسوغ لهم الخروج منها بحرية تامة كما انهُ يسوغ لهم ايضاً بيع املاكهم وعقاراتهم «الغير المنقولة» ولاجل هذه الغاية تعطى لهم مهلة ثلاث سنين اعتبارًا من يوم التصديق على هذه المعاهدة فاذا انقضت هذه المدة ولم يخرجوا من الاماكن ولم يبيعوا عقاراتهم يصيرون رعية للروسية

(المادة ٨) قد تعهد الموقعون على هذه المعاهدة بان لا يعاقبوا او يسببوا معاقبة رعيَّة الدولتين الذين كان لهم علاقة او مشاركة مع عساكرهما في الحرب الاخيرة واذا اراد احد من العثمانيين ان يتبع عساكر الروس عند خروجهم من ارض الدولة العلية فلا يسوغ لمأموري هذه الدولة ان يمنعوهم

(المادة ٩) منحت رعيَّة الدولة العثمانية الذين اشتركوا في الانقلاب الاخير الذي وقع في ولاياتها بالروم ايلي الامان والعفو التام بحيث ان كل من حبس منهم لهذا السبب او نفي او ابعد من بلادهِ يعفى عنهُ ويخول الحريَّة التامة

(المادة ١٠) جميع المعاهدات والاتفاقات والتعهدات التي كانت حاصلة بين الموقعين على هذه المعاهدة فيما يتعلق بالاحكام وحال رعيَّة الروسية القاطنين في تركية ثم الغيت بسبب الحرب الاخيرة تصير معمولاً بها كما كانت سابقاً فتبقى علاقة كل من الدولتين من جهة تعهداتها وعلاقتها التجاريَّة وغيرها على الحالة التي كانت عليها قبل الاعلان بالحرب ماعدا ما صرح بهِ في هذه المعاهدة او في معاهدة برلين

(المادة ١١) يتشبث الباب العالي بالوسائط الفعالة لتسوية جميع الدعاوي والمنازعات المختصة برعية الروسية الموقوفة منذ بعض سنين ويعطى لهم تعويض اذا اقتضتها الحال مع المبادرة الى انهاء جميع الدعاوي التي صدر بها لهم اعلامات وقرار من المجالس

(المادة ١٢) بعد التصديق على هذه المعاهدة يقع تبادلها في صان بطرسبرج في ظرف اسبوعين او اقل اذا امكن

تحريرًا بالاستانة العلية في ٨ شباط (فبراير) ١٨٧٩

فتلخص ممَّا تقدم ان سائر الممالك العثمانيَّة هي آمنة للوارد عليها واحكام الدولة المعلنة بها لكل من حوتهُ ممالكها شرعيَّة سياسيَّة منظمة ولها مجلس شورى ومجلس اعيان

ومجلس مبعوثان (نواب) وان اعترض الآن من القلاقل الخارجيّة ما اوجب تأخير اجتماع المجلسين الاخيرين لاتمام اجراء الاصلاحات حقيقة واما تعيين قواها البريّة والبحريّة والدخل والخرج فقد تقدم ذكرهُ مع بقيّة الدول

﴿ الى هنا وقف بالمؤلف رحمهُ الله القلم * وبذلك اختتم هذا الكتاب وتم ﴾

تقاريظ

كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

مكتوب

وارد من فخر العلماء والاشراف السيد علوي السقاف شيخ السادة بمكة المكرمة سابقًا حرسهُ الله

الحمد لله تعالى

حضرة العالم العلامة والحبر الفهامة الملاذ الافخم والماجد الهمام الاكرم مولانا الشيخ محمد بيرم ادام الله النفع بهِ امين

بعد اداء تحيات عاطرة . واشواق متكاثرة. هو اني بعد ان تشرف ناظري بالمرور على جملة صالحة من تحريراتكم البديعة العالية المنار . وجدتها جديرة بما سميت بهِ من صفوة الاعتبار . بمستودع الاقطار والامصار . اضاء بسياحتي فيها ناظري . وتنزه من الغموم بجولاني بها خاطري . كيف وهي خريدة غراء عربيَّة الَّا انها غريبة في بلاد الروم . وعروس تجلت في منصتها الَّا انها لا يكافئها كل خاطب لها يروم . اشرقت فيها كواكب التدقيق . واضاءت في آفاقها شموس التحقيق . ابدعتم معانيها واحسنتم . واحكمتم مبانيها واتقنتم . فشكر الله تعالى لكم حسن هذا الصنيع . واسالهُ تعالى دوام النفع بكم لكل وضيع ورفيع . وها هي بيد الخادم عائدة اليكم . بمعية عريضتنا هذه النائبة عنا في لثم اياديكم . ودمتم . في عز كما رمتم

في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٠٠

مستمد دعواتكم الصالحة

علوي بن احمد السقاف

ترجمة مكتوب

وارد عن لسان صاحب الحشمة ملك السويد والنوروج اوسكار الثاني من مدينة او بسالا بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٩

حضرة السيد

بأمر من جلالة الملك اتشرف بأن اخبركم بورود تأليفكم الموسوم بصفوة الاعتبار الذي تفضلتم بتقديمهِ الى مقامهِ السامي بصفة كونهِ حامياً ورئيس شرف للمؤتمر الثامن الدولي للمستشرقين وقد كلفني جلالتهُ بان ابلغ سيادتكم جزيل شكره على هذه الهديَّة النفيسة وتفضل يا حضرة السيد بقبول فائق اجلالي واحترامي رئيس الكتَّاب

دوسيلسنغ

واسم الكتاب مذكور في الصحيفة ٦٢ من فهرسة الكتب التي قدمت الى جلالة الملك المشار اليهِ بتلك المناسبة

ترجمة مكتوب وارد باللغة التركيَّة

من اكبر كتاب عصرهِ الوزير المرحوم سعدالله باشا سفير الدولة العلية في ويانه سابقاً من مدينة ويانه بتاريخ ٤ مايس ١٨٨٨

فضيلتلو افندم حضرتلري

وصلت ليد الاعزاز نميقتكم الكريمة واني لفي غاية الابتهاج مما تفضلتم باظهارهِ في حق هذا العاجز من آثار توجهاتكم الوداديَّة وارجوكم قبول عذري لتأخري عن المبادرة بالاجابة. هذا واني اتباهى بوقوفي بالخبر على ما كنت اسمعهُ بالخبر عن فضائل ذاتكم العالية وكمالاتكم المشهورة وانكم نحرير صاحب قلم اوقفتموهُ لخدمة الملة والمدنيَّة الاسلاميَّة واقبالها وترقيها وقد حفظت ذكرى ملاقاتنا التي تشرفت بها عند ما حضرتم الى اوربا لتبديل الهواء واهنيكم على توفيقكم لتحرير رحلتكم المسماة بصفوة الاعتبار المشحونة بالفوائد العميمة التي اتحفتموني بنسخة منها لطفاً منكم وتكرُّماً «خير الناس من ينفع الناس» واني ارجو ان لا تنسوني من دوام توجهاتكم والامر لسيدي في كل حال

سعد الله

فهرست

الجزء الخامس مِنْ صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

ترجمة

المرحوم السيد محمد بيرم الخامس

هو السيد مُحَمَّد بن مصطفى بن مُحَمَّد الثالث بن مُحَمَّد الثاني بن مُحَمَّد الاول بن حسين بن احمد بن مُحَمَّد بن حسين بن بيرام حضر الى تونس قائدًا على احدى فرق الجيش العثماني عند فتحها مِن يد الاسبانيول على يد الصدر الاعظم سنان باشا سنة ٩٨١ هجريَّة وقد تزوج بيرام بنتاً من آل ابي عبد الله بن الابار القضاعي صاحب كتاب التكملة وإعتاب الكتاب وهو الذي ارسلهُ صاحب بلنسية زيان بن ابي الحملات الى صاحب افريقيةً (تونس) ابي زكريا يحيي بن ابي حفص يستغيث بهِ لما حاصرهُ ملك برشلونة الاسبانيولي فانشدهُ قصيدتهُ المشهورة الَّتي اولها

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا

وقد قدر الله ان الاسطول الذي ارسلهُ صاحب تونس لم يصل في الوقت المناسب لانجاد الاندلسيين فرجع ابن الابار لتونس حيث استوطن بها سنة ٦٣٥ وقد امهرها بيرام اربعة آلاف ريال هذا هو المنشأُ الاصلي لهذه العائلة

وقد ولد السيد مُحَمَّد بيرم بمدينة تونس في المحرم سنة ١٢٥٦ هجريَّةً الموافق لمارس سنة ١٨٤٠ ميلاديَّة وامهُ بنت الفريق محمود خوجه وزير البحريَّة بالايالة التونسيَّة وامها بنت الغماد ذي الشرف المعروف ويتصل نسب آل بيرم

بالسادة الاشراف من جهات اخرى ايضاً اهمها جهة محمد بيرم الاول فان والدتهُ بنت السيدة الشريفة حسيفة بنت محمَّد بن ابي القاسم بن محمَّد بن علي بن حسن الهندي الشريف وهذا السيد قدم الى تونس واجمعت عامتها وخاصتها على الاعتقاد بنسبهِ الطاهر والتبرك بهِ ونسلهُ فيها بركة اهل تونس الى الآن اما نسبهُ فيتصل الى الحسين السبط عليهِ السلام وقد تولى محمَّد بيرم الثاني نقابة الاشراف في حياة ابيهِ مضافة الى خطة القضاء التي كانت بيدهِ سنة ١٢٠٦ واستمرت النقابة في يد ولدهِ محمَّد بيرم الثالث وحفيدهِ محمَّد بيرم الرابع الى حين وفاتهِ سنة ١٢٧٨ كما ان رئاسة المفتيين الحنفيَّة المعبر عنها في تونس بشيخة الاسلام استمرت في يدهم ويد ابيهم محمَّد بيرم الاول من ذي القعدة سنة ١١٨٦ الى ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٧٨ اي احدى وتسعون سنة وستة اشهر ولم تنقطع الاَّ مدة قليلة بين وفاة بيرم الاول وولاية بيرم الثاني . وكان جميع آل بيرم منخرطين في سلك العلماء مفتخرين بخدمة العلم الاَّ القليل منهم فقد دخلوا في الخدمة العسكريَّة فاجتمع لهذه العائلة خدمة الدين من الطريقين طريق العلم وطريق الجهاد حتى ان احمد بيرم توفي بجراحة اصابتهُ في محاربة الجزايريين لمراد باي امير تونس اذ ذاك سنة ١١١٢ وكأن هذه الخدمة السياسيَّة اثرت في صاحب الترجمة مع قرابتهِ لوزير البحريَّة حينئذٍ فصار لهُ ميل كلي للتداخل في الامور الملكيَّة ومعرفة احوال الحكومة وقد كان جدهُ محمود خوجه رام ادخالهُ في الخدمة العسكريَّة لولا ممانعة عمهِ شيخ الاسلام بيرم الرابع فدخل صاحب الترجمة الى جامع الزيتونة وقرأ على مشايخ الوقت المعدودين ولم يمنعهُ ذلك عن اشغال فكرهِ بما يهواه من

امور الادارة مع تباعد اهل العلم عادة عن كل ما هو خارج عن دائرة دروسهم وقد جرت عادة الكثير من العلماء والادباء بتونس ان يكون لكل واحد منهم سفر شبيه بالسفينة يسمونهُ "كناشا" يجمعون فيهِ ما يحلو لديهم جمعهُ من انشاآتهم او انشاآت غيرهم علمية وادبية نظماً ونثرًا متضمنة الفوائد المختلفة في فنون ومعانٍ شتى وقد خطى صاحب الترجمة على خطاهم وعمرهُ سبعة عشر سنة واول ما افتتح بهِ كتابةُ ما تجمع لديهِ من اوامر وقوانين وانظامات في شؤون الحكومة اصدرها اذ ذاك صهرهُ الامير محمَّد باشا وهذا يدل دلالة واضحة لا شبهة فيها على ميل صاحب الترجمة وتعلقهِ باحوال السياسة وقد كان في حال صباهُ يرى العربان يفدون على والدهِ وهو مشغول بالزراعة يتضجرون ويتوجعون مما يصيبهم من ظلم الحكام وتشديدهم في نهب الاموال بسائر الطرق التي اخترعوها في ذلك الوقت مما هو مبسوط في الكلام عن سياسة تونس الداخلية في صفوة الاعتبار فاثر فيهِ نحيبهم وبكاؤهم فاوقف حياتهُ من ذلك العهد على الانتصار للرعايا وتخفيف الاستبداد عليهم والسعي وراء نشر القوانين وتأسيس المجالس النيابية والميل بكل جوارحهِ للحرية مع ما جرت بهِ العادة من تباعد ذوي البيوتات عن مثل ذلك حتى لقد بلغ بهِ الولع بالحرية وحب المجالس الشوروية ان تخالف رأياً يوماً وهو صغير السن لا يتجاوز من العمر عشرين سنة مع ابيهِ وابن عمهِ عندما افتتح الامير الصادق باشا المجلس الاكبر واسس قوانين عهد الامان (كونستيتسيون) فكان صاحب الترجمة ينتصر لهذه المستحدثات ويتوسم فيها خيرًا للبلاد وذانك يخالفانهِ مع ان احدهما كان من جملة اعضاء المجلس لما غرس في اذهان اصحاب

البيوتات من التنحي عن مثل هذه المستحدثات التي لا تروق في اعين حكامهم وبعد وفاة عمهِ الشيخ بيرم الرابع ولاهُ الامير مشيخة المدرسة العنقيّة في ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٧٨ فباشر التدريس فيها ومن عادة علماء تونس من مشايخ المدارس ان يقرأوا فيها صحيح البخاري خصوصاً في الاشهر الثلاثة المكرمة واعتبارًا من ١٥ رمضان يبتدئ كل واحد منهم بحسب الدور بختم ما قرأهُ وذلك بان يتلو الحديث الشريف الذي وقف عليه ويكتب عنهُ ما يعن لهُ من الشروح والتعليقات ويكون لذلك مجلس حافل يستمر من العصر الى قريب الغروب وتتوالى الاحتفالات المذكورة الى الليلة السابعة والعشرين من رمضان حيث يكون ختم جامع الزيتونة ودور المدرسة العنقيّة في اليوم الخامس والعشرين منهُ وقد حضر الامير بنفسهِ ذلك الختم في تلك السنة تشجيعاً للشيخ الجديد وكان حديث الختم قوله عليهِ الصلاة والسلام "ان امتي يدعون يوم القيامة غرًا محجلين فمن استطاع منكم ان يطيل غرتهُ فليفعل" وفي ٩ جمادى الثانية سنة ١٢٧٨ صار مدرساً في جامع الزيتونة من الطبقة الثانية وفي ١٥ رجب سنة ١٢٨٤ رقي مدرساً من الطبقة الاولى فاستمر مباشرًا للتدريس مشغولاً بادارة املاكهِ وعقاراتهِ واموره الخصوصية وتوفي والده الى رحمة ربهِ في ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢٨٠ وترك لهُ ثروة عظيمة وفي تلك الاثناء ظهرت الفتنة العموميّة في الايالة التونسية متسببة عما كان يتوقعهُ ويخشاهُ من عاقبة ظلم الرعيّة واستبداد الحكام وقبيل ذلك اقفلت المجالس الشورويّة التي كان صاحب الترجمة يتولع بها ويهواها ولا يتوسم لخير المملكة سواها وكأن ذلك اثر عليهِ تأثيرًا شديدًا حتى انهُ كاتب احد

اصدقائهِ من امراء المسلمين المقيمين باوربا بما نص محل الحاجة منهُ " فيا لها من حال . يرثي لها من رام النزال . وتخر لشدتها شامخات الجبال . الى ان قال فقد فاز من نهض بنفسهِ . واستراح من فتنة باطنهِ وحسهِ . اذ الآيات وردت على ذلك ناصة . فقال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . ففاز المخففون . وابتلى المتأهلون . ووالله العظيم . ونبيهِ الكريم . طالما نهضت عزائمي الى الترحال . فاثقلتني قيود العيال . مع ما انا عليهِ من الوحدة عن اخ شقيق . اوقريب يخلفني فيهم عند الضيق . ولم استطع التخلص بكلي . لما لا يخفى مما يثقل كلي . واقسم بالقرآن . وصفات الرحمن . انني عرضت للبيع املاكي . لاتخلص بها من اشراكي . واستعين منها بالاثمان . فلم اجد من يصرف لهذا الوجه اي عنان . ولو من اعيان الاعيان . الخ " (والمكتوب كلهُ منشور في الصحيفة ٣٦ من الجزء الثاني من صفوة الاعتبار) ومن ذلك الحين اشتد اتصالهُ بالوزير خير الدين باشا اذ كان هو رئيس المجلس الاكبر الذي الغي وكانت مناسبة الوصلة بينهما حبهما للحرية وتعميم الشورى في المملكة وهما كما لا يخفى القوتان الوحيدتان لحفظ استقلال البلاد من التلاشي ولذلك فانهُ لما تولى خير الدين باشا الوزارة الكبرى في تونس في رمضان سنة ١٢٩٠ كان صاحب الترجمة من اكبر انصارهِ ومحازبيهِ وتظاهر بذلك تظاهراً كلياً حتى نشر في الرائد التونسي الذي هو جريدة الحكومة الرسمية مكتوبين اظهر فيهما انبساط الاهالي من تغيير الوزارة وبين غلط المنتصرين للحاكم السابق وانهم فئة قليلة لا تحب خير البلاد وكان بذلك اول تونسي جاهر بآرائهِ السياسية في الجرائد تحت امضائهِ على ما اظن وزاد

على هذا التظاهر الادبي بان سعى في اعمال تظاهر ماديّ وذلك بان اتفق مع علماء جامع الزيتونة على اقامة احتفالات في الجامع شكراً لله على انقاذ البلاد من عهد الجور وادخالها في عصر الاطمئنان والرجوع لعهد الامان وحصل بالفعل ذلك الاحتفال واعقبهُ كثير مثلهُ في جهات الحاضرة وبقيَّة بلدان المملكة فكانت نهضة حقيقيَّة وطنيَّة صادرة عن اخلاص نيَّة حبًّا في الحريَّة واستقامة الاحكام ولما استقرَّ الوزير المشار اليهِ في المنصب ووجه عزيمتهُ لاصلاح الادارة رأى ان الاوقاف مشتتة قد استولت عليها ايدي الخراب والاطماع فرأى ان جمعها في ادارة واحدة يكفل حفظها ويجمع ريعها فيصرف في اوجههِ المشروعة وذلك على النحو الجاري في دار الخلافة السعيدة وقد رأى الوزير ان يعهد الى صاحب الترجمة امر هذه الادارة الجديدة لما يعهده فيهِ من معرفتهِ بالاحكام الشرعيَّة واطلاعهِ على المقتضيَات الوقتيَّة فامتنع المرحوم اولاً من قبول اي وظيفة كانت لانهُ لم يكن يميل الى التقيد بشيءٍ مَّا يمنعهُ عن السعي وراء ضالتهِ المنشودة وهي الحريَّة للرعيَّة ودخولهُ في الوظائف يجعلهُ بلا ريب مقيداً مع الوزير بالآداب الَّتي تقتضيها الوظيفة اما بقاؤه خارجاً عن دائرة الحكومة فيبقيهِ على حريتهِ الَّتي تمكّنهُ من تذكير الوزير بما عساه ينساه من تتميمهِ لما كان تعهد باجرائهِ هذا فضلاً عما كانت عليهِ سجيَّة صاحب الترجمة من الهمة واباءة النفس حتى كأن جدَّهُ حسين بيرم المتوفي سنة ١١٥٥ قد نظر اليهِ بظهر الغيب لمَّا ذيل البيتين الشهيرين

شيآن لو بكت الدماء عليهما عيناي حتَّى تؤْذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الاحباب

بقوله

واشدّ من هذين ان يلقى الفتى ذل السؤال ووقفة الابواب

ومع ذلك فقد تغلب اصحابهُ عليهِ وقبل ادارة الاوقاف في ١٧ صفر سنة ١٢٩١ ولم ينفرد مع ذلك بامرها بل شارك معهُ مجلساً مؤلفاً من ثلاثة اعضاء احدهم من رجال الادارة والاثنان الآخران من اعيان الاهالي والتجار وجعل نظرهم في الاوقاف على قسمين الاول الاوقاف الاهليَّة اي الَّتي هي موقوفة على ذريَّة الواقف او قرابتهِ والثاني الاوقاف الَّتي على اعمال البر مثل الجوامع وقراءة القرآن وغير ذلك فاما نظرهم في الاول فهو مجرد نظر ارشاد واما القسم الثاني فنظرهم عليهِ نظر تصرف مطلق والمباشر للاعمال هو الرئيس بعد اخذ رأي الاعضاء عنها وقد جمع الاوقاف كل نوع منها لجهة واحدة بان ضم مثلاً جوامع الخطب كلها لجهة والمدارس كلها لجهة واوقاف القرآن لجهة وهكذا الى آخر انواع الموقوف عليهِ وجعل لكل قسم وكيلاً خاصاً يباشر العمل في ذلك تحت النظر الاصلي فيقبض الوكيل ويصرف في اقامة الشعائر وفي اصلاح الموقوف والموقوف عليهِ ولكنهُ لا يعمل شيئاً الَّا بعد الاستئذان من رئيس المجلس وجميع حساباتهِ ترسم في دفترين مخصوصين بشهادة عدلين احد الدفترين للحسابات اليوميَّة والثاني للحسابات العموميَّة وانما جمع كل نوع من الاوقاف تحت نظر وكيل واحد لان الموقوف عليهِ مختلف الريع بعضهُ غني وبعضهُ فقير فاذا كانت ادارتها جميعاً متحدة فيصرف من دخل الغني على الفقير لانهما من نوع واحد وبذلك تيسرت سهولة الاصلاح ثم انهُ في آخر كل اسبوع يقدّم الوكلاء حساباتهم ويوردون

قسمين احدهما مجاني للفقراء يسع مائة مريض والآخر للموسرين باجرة معينة زهيدة وافتتحهُ الامير بنفسهِ في موكب حافل حضره في يوم ١٠ فبراير سنة ١٨٧٩ (١٨ صفر سنة ١٢٩٦) واعلن الوزير عن لسان الحكومة بحسن مساعي صاحب الترجمة في تنظيم هذا المستشفى بقوله في خطاب القاهُ على مسامع الامير في ذلك الاحتفال وهو "بمقتضى الاذن العلي وعناية سيدنا ادام الله تعالى بقاءه بمصالح بلاده وقع انجاز هذه المأثرة الجميلة التي هي احدى مآثر الحضرة العليَّة وهي هذا المستشفى الصادقي الذي شرفهُ سيدنا ايده الله تعالى بالحضور فيهِ هذا اليوم وقد اعتنى الشيخ السيد محمَّد بيرم ببذل الجهد في انجازه وترتيبه على الكيفيَّة المشاهدة بما نرجو من الله تعالى ان يحل ذلك من سيدنا محل الاستحسان" فاجاب الامير بالشكر والثناء واهدى الى صاحب الترجمة في ذلك اليوم علبة مرصعة ذات قيمة وافرة مكتوب عليها اسمهُ بالاحجار الكريمة. وفي اواسط تلك السنة تطاول احد اعوان الوزير على القاضي المالكي الشرعي بديوان الحكم وهو امر لم يعهد له مثيل في تونس حيث لم تزل الاحكام الشرعيَّة وحكامها مرموقين بعين التبجيل والاحترام اللائقين فهاجت البلاد لذلك وماجت واتفق الحكام الشرعيون على تعطيل الاحكام الى ان يسترضيهم الامير بعزل الوزير وعقاب تابعهِ العقاب الصارم واجراء القوانين والمجالس الشورويَّة في البلاد لتكون ضمانة كافية على عدم العود لمثل هذا الحادث المكدر وعدم تسليم الادارة لمن لا يكون كفوءًا لها وبعد ان اتفقت كلمتهم على هذه المطالب وكادوا ان يحصلوا عليها دخل بين بعضهم داخل الغرور والتفرقة فتشتتت آراؤهم وانحلت جامعتهم ورضوا

بتبعيد التابع المتطاول لاحدى معاقل المملكة في قابس الواقعة على حدود طرابلس وبتشكيل الامير لمجلس سماه مجلس الشورى للنظر في مهمات امور الدولة وجعله تحت رئاسة الوزير نفسهِ واعضاؤهُ بقيةّ وزراء المملكة ومستشاروها وليس فيهم الاَّ اثنان من الاهالي والباقي كلهم من مماليك الجراكسة وزاد عليهم اثنين هما السيد محمَّد بيرم والعربي باشا زروق رئيس المجلس البلدي وكانا من اشد المعضدين لعزائم الحكام الشرعيين في مطالبهم التي طلبوها وكان ذلك في ١١ رجب سنة ١٢٩٦ ولا يخفى ما في رضاء المشايخ بمثل هذا المجلس خصوصاً بعد تعيين صاحبيهم فيهِ من الايقاع بهما والتغاضي عن صالح البلاد الحقيقي ولم تطل الايام حتى اختلق الوزير مأموريةّ لصاحب الترجمة وارسلهُ بها الى فرنسا وحاصلها السعي لدي كبراء القوم وخصوصاً غامبيتا رئيس مجلس النواب اذ ذاك وصاحب القول الفصل في بلاده لتغيير قنصلهم في تونس لانهُ اشتد على الحكومة اشتداداً لم يبق لها حريةّ للعمل في شؤونها الداخليةّ قط ولم يقف عند حدٍ في القاء الدسائس والفتن وتوغير الصدور بين الراعي والرعيةّ حتى انهُ لما طلب اعيان الاهالي التونسيين ما طلبوه من تأسيس الحريةّ والشورى في بلادهم كان الموسيو رستان نائب الجمهوريةّ الفرنسويةّ ينصح الامير بعدم الاصغاء الى هذا الطلب وان العساكر الفرنسويةّ بالجزائر مستعدة لمعاضدتهِ وكسر شوكة الاهالي واذلالهم عند اللزوم وهي سياسة قديمة اتبعتها فرنسا في تونس نفسها فان قوانين عهد الامان السابق ذكرها المؤسسة في تونس سنة ١٢٧٤ كانت بمساعي فرنسا وانكلترا ظاهرًا وتهديدهما للامير باسطوليهما اللذين حضرا لذلك الغرض

وكان ذلك لمجرد قتل يهودي في اقامة حدٍّ اقتضتهُ الشريعة ولما اجريت تلك القوانين بالفعل سنة ١٢٧٧ وتوجه الامير لمقابلة الامبراطور نابليون الثالث في الجزائر واهدى اليهِ نسخة من تلك القوانين اقتبلها منهُ بالشكر ظاهرًا ولما اختلى الامبراطور بقنصلهِ ليون روش وبخهُ توبيخًا شديدًا على ما رواه المرحوم الجنرال حسين وافهمهُ غلطه من المعاضدة على اجراء القوانين الشوروية في تونس حقيقة وقال له ان العرب اذا تأنسوا بالعدالة والحريةِ فلا راحة لنا معهم في الجزائر مطلقًا ومن ذلك الحين وجه القنصل همتهُ لاقناع الوزير مصطفى خزنه دار بالغاء تلك القوانين ووجد منهُ اذنًا صاغية فالغاها وبقيت كذلك الى هذا الوقت . وقد قبل السيد محمّد بيرم مأموريتهُ كما قبل المرحوم حسين باشا وزير المعارف اذ ذاك بتونس مثلها لدى البرنس بسمارك ولما توجه صاحب الترجمة للسلام على الامير سلام الوداع واجههُ بكلام اللوم والعتاب على ما جرى منهُ من تعضيد المطالب الاهلية فاجابهُ الشيخ بيرم بكلام اثر في نفسهِ تأثيرًا لم يزل يكرّره بتوجع الى آخر مدتهِ وهو انهُ قال له اننا نطلب الحريّة التي قال سيدنا انهُ لا يعطيها لنا غيره فاجابهُ الامير لمن اعطي الحريّة أللنجار والحداد ام لك او لهذا (واشار الى احد كبار الحاضرين) فان النجار والحداد اذا اعطيا الحريّة اساءا التصرف بها ولم تبقَ لنا معهما راحة فقال له السيد بيرم ان الحريّة التي يعطيها سيدنا للحداد والنجار تصيرهما مثلي انا ومثل هذا واشار الى ذلك الوجيه وسبب انزعاج الامير من هذا الجواب هو تكرار لفظة الحريّةِ فيهِ ولم يعهد انهُ سمعهُ من قبل حتى ان امراء تونس قديمًا كانوا يعتقدون انهم يمتلكون البلاد بمن فيها من

الارزاق والانعام والسكان امتلاكاً شرعياً لا ينازعهم فيهِ منازع واورد المؤرخ اللبيب الشيخ احمد بن ابي الضياف في تاريخهِ نادرة جرت له مع امير تونس حسين باشا الثاني في هذا الموضوع كادت ان توردهُ حتفهُ رحمهُ الله . ولما وصل صاحب الترجمة هذه المرَّة الى باريس وكان ظاهر امره انهُ توجه للتداوي اجتمع بالموسيو غامبيتا وفاوضهُ في المسألة الَّتي كلفهُ بها الوزير وسلمهُ تقريراً فيها هذه صورتهُ

" اني اقدم على وجه خصوصي غير رسمي الى حضرتكم العليَّة تقرير ما هو واقع في المملكة التونسيَّة مما عساه ان يكدر صفاء القلوب حيث كنت أنا واهل بلادي على علم من ان الدولة العظيمة الحرَّة لا يبلغها ما هو حاصل الآن من نائبها في تونس الذي اتخذ طريقة التشديد والتخويف ديدناً في كل شيء حتى صير حكومتنا متحذرة من اصدقائها عوضاً عن زيادة الالفة والركون الذي هو الواجب مع الامة الفرنسويَّة الَّتي كل اهالينا يعلم انها وحدها هي الَّتي تفيدنا ولهذا عند ما امتلأ وطابنا من الكدر لم نقصد الاَّ ابلاغ الحال الى رجالها المنصفين من غير ان نطرق باباً غير بابها وذلك ان موسيو رستان النائب المذكور بعدان اوقع دولتنا في ارتباك وكاد يغير علينا الدولة الفرنساويَّة في نازلة موسيو دو صانسي الَّتي لا تستحق تلك الاهميَّة حسبما يوضح ذلك التقرير الذي حررهُ مجلس التحقيق المعين مِنْ فرنسا وبعد ان اضطر حكومتنا الفقيرة الَّتي لم تستطع دفع كبونها (فوائد ديونها) ولا مرتبات متوظفيها الى دفع مبالغ مجاناً من المال والاملاك الى اناس لا فائدة بهم لكلا الدولتين لاسباب نتحاشى عن ذكرها امام فخامتكم حتى انهُ خسرنا

في مدة الستة اشهر الاخيرة فقط نحو مائة الف وسبعة واربعين الفًا فبعد هذا كلهِ اذا هو الآن يتعرض رسميًا لتحسين ادارة البلاد التي بها تتمدن الاهالي ويدخلون في الحضارة وكانت الدولة الفرنساويَّة انالتنا اياها على يد نائبها سنة ١٢٧٤ (١٨٥٨) انتصارًا للانسانيَّة والحق فعوضًا عن زيادة التقدم مع تقدم العالم اذا هو الآن مضادٌ لذلك وقال الى سيادة سيدنا الباي لا تفعل مجلس الشورى الذي طلبتهُ منك الاهالي وابق على حالتك العتيقة بل اوعز اليهِ مع بعض اعوانهِ المنكشف حالهم بان يقتل نحو ثلاثة اشخاص وينفي نحو سبعة ويلتجي الى حمايتهِ ولا عليهِ في شيء فلولا مكارم سيادة سيدنا الباي لاوقع البلاد بل فرنسا ذاتها في ارتباكات مضادة للانسانيَّة والعدالة المجبولة عليها الدولة الجمهوريَّة الفرنساويَّة . فيا ايتها الحضرة الفخيمة هل ترضى الامة والدولة التي ترسل ابناءها الى اقصى المشرق والمغرب لحفظ الانسانيَّة ان يكون نائبها مضادًا لذلك في بلاد هي جارة لها عندما كانت الدولة العظيمة تخرج اهل الجزائر من الحكم العسكري الى الحكم البلدي متسترًا في دعواهُ بعدم التعرف بالمجلس بانهُ سمع ان المقصد منهُ هو التعرض لمصالح فرنسا مع انهُ على علم بان مصلحة الامة الفرنساويَّةِ يعتبرها ويراعيها كل من الآمر والمأمور في بلادنا لعلمنا بمقامها بيد انهُ اذا كانت المصلحة ليست لفرنسا وانما هي مجرد فوائد شخصيةٌ فان مصلحة البلاد نقدم عليها وهو الذي نؤمل المعاضدة عليهِ من الرجال المشهورين في العالم من الدولة الفرنساويَّةِ وتبقى بما ثرهم مزينة صحف التاريخ فهذا انا انهي الى مسامعكم الشريفة اختصار ما هو حاصل ولحضرتكم ان تطلبوا الايضاح ممن يعلم حالة بلادنا من الذين لهم خبرة بها من الصادقين"

وقد بادر صاحب الترجمة بارسال تفصيل المقابلة وما حصل فيها من الكلام الى الوزير بمكتوب مؤرخ في ١٢ شعبان سنة ١٢٩٦ من جملة ما قالهُ لهُ فيهِ عن لسان غامبيتا " ان كنتم تريدون الارتياح من الرجل (اي رستان) فيجب ان تكتموا هذا الامر بل ولا اجتماعكم بي في شأنهِ والاَّ كان ذلك ينقض قصدكم " وما كاد يصل هذا المكتوب الى تونس حتى انتشر الخبر بسر المسألة ولم يعلم ان كانت الاشاعة حصلت من نفس الوزير او من المترجم الذي كان الواسطة في الكلام بين غامبيتا وصاحب الترجمة الذي لم يكن يتكلم اللسان الفرنساوي والحاصل ان القنصل انتهز هذه الفرصة الجديدة وارعد وابرق على الامير والوزير وزاد في ايغار صدورهما على صاحب الترجمة وساعده البخت او الصدفة بانهُ في الوقت الذي كان الاهالي في تونس يطلبون تأسيس الشورى في بلادهم كانت الدول مشغولة في مصر بخلعِ اسماعيل باشا وحصل ذلك على يد خير الدين باشا صاحب الصدارة حينئذٍ وارتباطات الباشا المذكور بتونس وخصوصاً بصاحب الترجمة مشهورة عند الجميع فاستنتجوا من ذلك ان طلب الشورى في تونس لم يكن القصد منهُ الاَّ احداث ارتباكات في المملكة تفتح الباب لمداخلة الباب العالي خصوصاً وكان صاحب الترجمة معارضاً شديد المعارضة في وصل سكة الحديد بين الجزائر وتونس وتعيين الحد الفاصل بينهما الاَّ بعد العرض للدولة العليَّة وزادوا في اقناع الباي بالتلغراف الذي ارسلهُ خير الدين باشا يعلمهُ فيهِ بفصل اسماعيل باشا عن خديويَّة مصر وقد استعمل الصدر الاعظم في تلغرافهِ عبارات اشتم منها رائحة التهديد والوعيد للباي حتى التزم الحال للاستفهام من الباب العالي

بواسطة السفارة الفرنساويّة عن الغرض من عبارات ذلك التلغراف مع انهُ في ذلك الوقت كانت العلاقات الخصوصيّة بين المرحوم وخير الدين باشا معكرة مكدرة من حين خروج الباشا المذكور مِنْ وزارة تونس ولم يصف ماؤُها الاَّ بعدذلك التاريخ كما يدل عليهِ المكتوب الآتي

"الفاضل الزكي الثقة المعتمد الشيخ سيدي محمّد بيرم حرس الله تعالى كمالهُ وبعد قد وصلنا مكتوبكم في ٢٢ من الشهر وعلمنا ما احتوى عليهِ من لذيذ الخطاب ونحن لله الحمد على ما يسر الاحباب من العافية التامة في امورنا الحسيّة والمعنويّة واما ما اشرتم اليهِ مِنَ الاحوال السالفة عن قدومنا لدار الخلافة فجوابهُ عفى الله عما سلف والسلام من خير الدين في ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٦"

ومن راجع تاريخ مكتوب صاحب الترجمة المذكور اعلاه وجواب المرحوم خير الدين باشا عنهُ وقارن بينهما وبين تاريخ انفصال الباشا المشار اليهِ عن الصدارة العظمى الواقع في ٩ شعبان سنة ١٢٩٦ يعلم علم اليقين انهُ في مدة صدارة الباشا المشار اليهِ لم تكن بينهُ وبين الشيخ بيرم ادنى علاقة وان كل ما بناه اذ ذاك المرجفون بناءً على علاقاتهما الودادية القديمة هو محض اختلاق وكأن الوزير التونسي غفل او تغافل عن حقيقة المأموريّة التي اناطها بعهدة صاحب الترجمة فارسل اليهِ تلغرافاً رسمياً الى باريس نص ترجمتهِ

مِن باردو في ٧ اغسطس سنة ١٨٧٩ (الموافق ١٨ شعبان سنة ١٢٩٦)

"من الوزير الاكبر الى الشيخ سيدي محمّد بيرم . شاعت الاخبار بانك متداخل في امور سياسيّة خصوصاً وانهُ لم يصدر لكم ادنى امر فيها ولذلك

فان سيدنا المُعَظَّمَ يأمركم صريحاً بان لا تتداخلوا مطلقاً في هذه المسائل حيث انكم سافرتم لمعالجة صحتكم واذا انتهت مدّة التداوي فارجعوا الى تونس "

ثم بعد ذلك ورد له مكتوب من الوزير بتاريخ ٢٥ شعبان جواباً عن مكتوبهِ المؤرخ في ١٢ شعبان وفيهِ يقول " اما بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاتهُ فقد بلغنا مكتوبكم الخصوصي وعلمنا ما ذكرتم وما وقع مع موسيو غامبيتا فمثلك من يعتمد عليهِ وعلى صداقتهِ واما كتمان السر فيكون مهناً لان نفعهُ لنا وانما الله يحقق الامل من اتمام الوعد لان القنصل في غاية القوّة الخ "

فلم يسع صاحب الترجمة بعد هذا الاضطراب في اقوال الوزير الاَّ ان يستعفى من وظائفهِ فاجابهُ الوزير عن الاستعفاء بهذا المكتوب ونصهُ " الفاضل الزكي المدرس الشيخ السيد محمَّد بيرم رئيس جمعيَّة الاوقاف حرسهُ الله اما بعد السلام عليكم ورحمة الله فان ما عرضتموه علينا من طلب الاعفاء من رئاسة جمعيَّة الاوقاف علمناه ومن معلوماتكم انكم كنتم طلبتم هذا منا قبل سفركم على خير فلم نسعفكم لذلك والذي نعرفكم بهِ انني لم نزل على رأيي في عدم اسعافكم لما ذكر ونرجو الله ان يجمعنا بكم وانتم على حال كمال ودمتم بحفظ الله والسلام من الفقير الى ربهِ امير الامراء مصطفى الوزير الاكبر عفا عنهُ في ٣ رمضان سنة ١٢٩٦ "

وفي اليوم نفسهِ ارسل لهُ مكتوباً آخر نصهُ " اما بعد السلام عليكم ورحمة الله فانهُ بلغنا كتابكم المؤرخ في ٢٥ الشهر الفارط متضمناً ما نحن

على ثقة منهُ من سلوككم الطريق المستقيم في اقوالكم واعمالكم وتحرزكم في الاجتماع من ان ينسب اليكم غير ما قصدتموه ولا يستغرب ذلك من مثلكم ونرجو الله ان يجمعنا بكم وانتم على حال كمال ودمتم بحفظ الله والسلام"

وقد رجع صاحب الترجمة الى تونس بعد الالحاح الشديد عليهِ من اصدقائهِ فوجد الحال متغيرًا وملامح الوزير تظهر الشر ومع ذلك فقد ابلغهُ صاحب الترجمة ما رآهُ وسمعهُ في باريس بخصوص المسئلة التونسيَّة وآراء رجال السياسة فيها ومن جملة ما بلَّغهُ ان الاخبار رائجة هناك بان القنصل اقنعهُ بمساعدة فرنسا على مرغوباتها من ضم تونس اليها وفي مقابلة ذلك تضمن للوزير ولاية العهد علَى الامارة واستيلائهِ عليها بعد سيده ونصحهُ بان لا يغتر بهذه الترهات فان القنصل اذا حصل على مرغوبهِ لا يوفي وعدهُ للوزير ولا تعود الخسارة الأَ على البلاد واهلها وقد حقق الزمن حدس السيد بيرم فانهُ لما دخلت فرنسا في تونس سنة ١٢٩٨ لم تطل مدتها فيها حتى عزلت مصطفى ابن اسماعيل عن الوزارة واخرجتهُ من البلاد بالمرة ولم توفِ له بما وعدتهُ بهِ بل نظرت اليهِ نظر الخائن وكثيرًا ما تكلمت جرائدها وارباب الوجاهة فيها لتجريده عن نشان اللجيون دونور الفرنساوي وهو حامل اول درجة منهُ وبقي يتقلب متغربًا في البلدان تقذفهُ امواج الذل والسؤَال بعد ان صرف ما ادَّخرهُ ايام عزه من الاموال الطائلة واصبح

يومًا بحزوى ويومًا بالعقيق وبالـ حديب يومًا ويومًا بالخليصاء

الى ان جاءَت بهِ المقادير الى القسطنطينية حيث تغاضت الدولة العثمانيَّة عن ذنوبهِ وابقتهُ يتنعم بلذيذ الحياة ويتحسر على ماضي عزه وغبن

صفقتهِ . اما صاحب الترجمة فانهُ بعد عودتهِ الى تونس من مأموريتهِ توجه الى (المرسي) للسلام على ولي عهد الامارة الامير الحالي السابق ذكره فوجد الامير المشار اليهِ في مركبته امام محطة السكة الحديد فاركبهُ معهُ وسارا الى بستان الامير فكبر هذا الامر على مصطفى بن اسماعيل وامر صاحب الترجمة بالكف عن التردُّد على ولي العهد وكثرت الدلائل على سوء نيَّة الوزير نحو السيد بيرم وتغلب دسائس موسيو رستان ضدَّه حتى نصحهُ بعض الاصدقاء من خواص حاشية الباي بالسفر خارج المملكة لان بقاءه في البلاد فيهِ خطر عليهِ فطلب بعد عيد الفطر التوجه لاداء فريضة الحج خصوصاً وقد تهدَّدهُ الوزير بانهُ اذا شاع الخبر الذي كان اعلمهُ بهِ بخصوص مساعيهِ لولاية الامارة يلقيهِ تحت اعباء المسئوليَّة الثقيلة فامتنع الوزير من اعطاء الرخصة بالسفر وقد توسط حينئذٍ السيد الشريف نقيب الاشراف السابق في تونس للحصول على تلك الرخصة وبين للوزير عدم جواز منع المسلمين من اداء فريضة الحج وزيارة النبي صلى الله عليهِ وسلم وللسادة الاشراف في تونس النفوذ الكبير والكلمة المسموعة فالتزم الوزير بالاجابة وقد سافر صاحب الترجمة من تونس في ٢٦ شوال سنة ١٢٩٦ ولم يعد اليها بعد وقصد مالطه ومنها للاسكندريَّة ومصر القاهرة وفيها تقابل مع الخديو المرحوم توفيق باشا وكان ذلك في ابتداء ولايتهِ فقدَّم له قصيدة في التهنئة بالولاية وتاريخها

وقد دار الحديث بينهما عن كيفيَّة نظام اللاجنة الماليَّة الدوليَّة المؤلفة في تونس لادارة اشغال الدين وعن النتايج الَّتي انتجتها وهل البلاد متضررة منها ام لا وكان ذلك بسبب ما اقترحتهُ انكلترا وفرنسا اذ ذاك على الحكومة

المصريّة من اقامة لجنة للمراقبة الماليَّة ثم ان المرحوم سار الى الحجاز وقد تقابل في مكة المكرمة مع المولى الشريف حسين الامير الاسبق واكرم وفادتهُ ثم بعد اداء فريضة الحج والمناسك توجه للزيارة في المدينة المنورة حيث اقام ثلاثة ايام وكان مرضهُ العصبي مشتدًا عليهِ في الطريق وهناك توسل للحضرة النبويَّة بقصيدة طويلة طالبًا من الله الشفاء للبدن واللطف بالوطن ومطلع القصيدة

الى السدّة العظمى شددت عزائمي الى سدةّ الاجلال شمس المكارم
الى باب خير الخلق خصصت وجهتي ومن فضل باب الله املت راحمي
اليك رسول الله قد جئت ضارعاً وفضلك ممدود على كل قادم
فياخير خلق الله جدلي بالرضا وامِن مخافي من عقاب المآثم
ويا اكرم الامجاد هب لي توبة واسس على التقوى قيام دعائمي
وانت ملاذي في اموري كلها فعجل شفائي من سقامي الملازم
ألا يا رسول الله طهر بلادنا فقد جار في الانحاء ظلماً مخاصمي
يريد خلاف الحق في الخلق جائرًا فننصحهُ رشدًا لذا كان ظالمي
فعجل بانقاذ البلاد من الذي تأبط شرًا وارتدى بالمظالم
وفرج همومي والكروب وعلتي وليس سواك يرتجى للعظائم
وللعدل ان ينقاد كل ملوكنا لكيما يحل الدين اعلى العواصم

ومن المدينة المنورة توجه الى ينبع وسافر منها الى بيروت مارًا على خليج السويس وقد ذكر هذه الرحلة في اول هذا الجزء الخامس وما لاقاه في سفره من كرم واكرام صاحب السماحة السيد السند السيد سلمان افندي القادري نقيب اشراف بغداد

ولما وصل الى بيروت لاقاه والي سوريّة اذ ذاك المنعم المقام الجليل الذكر مدحت باشا بمزيد العناية الرعاية واحتفل بهِ اعيان المدينة من مسلمين ومسيحيين بما ابقى لهم في نفسهِ الذكر الحسن والثناء المستطاب وكان المرحوم من جملة المشتركين المساعدين في جمعيّة المقاصد الخيريّة الّتي تأسست في بيروت لانشاء مدارس خيريّة وقد زار تلك المدارس ولاقى من احتفال الاساتذة والتلامذة وانشادهم القصائد والمقالات الرائقة بين يديهِ ما زاد ابتهاجهُ وقد هنأه الشاعر الدراكة البليغ المرحوم الشيخ ابراهيم الاحدب بقصيدة شائقة ذات اربعة واربعين بيتاً مطلعها

بدر العلى تاريخهُ (من غربهِ)		في الشرق اشرق نوره لمحبهِ

ومنها

من اين هذا الطيب هل ريم النقا		ليلاً سرى ليدير راحة صبّهِ
او جاءَ بيروتاً محمَّد بيرمٍ		من طيبة فذكت نوافح قربهِ
حيث الزمان على تلوّن طبعهِ		ادّى بهِ كفارة عن ذنبهِ

وقد مدحهُ ايضاً الاديب الفاضل واللوذعي الكامل الشيخ ابو حسن قاسم افندي الكستي البيروتي بقصيدة غراء منها

بهِ تونس الغرب استعزت واحرزت		بصحبتهِ الفضل الذي ليس يجحد
يغار على الدين الحنيف لانهُ		خبير بهِ لا يعتريهِ التردّد
عليهِ من العلم الشريف جلالة		يقوم لها الدهر الحسود ويقعد
وسيرتهُ الحسناء في كل موطن		بألسنة الايام تتلى وتنشد

وبعد ان اقام هناك اسبوعاً رام فيهِ التوجه لدمشق الشام لرؤية

معالمها العظام وملاقاة السيد الامير عبد القادر الجزائري غير ان الوقت لم يسعف بذلك لتراكم الثلج في الطريق وتعطيلهِ للسكة فتوجه توًا الى القسطنطينيَّة وهناك ورد عليهِ مكتوب من الامير المشار اليهِ نصهُ

بسم الله الرحمن الرحيم — الحمد لله حمد المتوسلين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين . وعلى آله وصحبهِ آمين . من خادم اهل الله عبد القادر بن محيي الدين الحسني الى جناب العالم الفاضل . والهمام الكامل . صاحب المقام السني . الشيخ السيد محمَّد بيرم افندي المحترم . ادام الله عليهِ سوابغ النعم . اما بعد اهداء تحيَّة مقرونة بالاخلاص والتكريم . وادعية متوالية بدوام نفعكم العميم . فالموجب لتحريرهِ اولاً السؤَال عن راحة وجودكم السعيد . والابتهاج بسماع حديثكم المجيد . وثانياً قد بلغنا من ولدنا عبد القادر افندي الدنا سلامكم . ومزيد محبتكم ووداكم . وحصل لنا بذلك تمام السرور . زادكم الله نورًا على نور . ورغبة بربط اسباب المودَّة بجنابكم . واستجلاب بدائع خطابكم . ومجاب دعائكم على الدوام . تحرَّرت لكم هذه الارقام . وعليكم السلام في ١٦ جمادى الاولى سنة ٩٧

المخلص

عبد القادر الحسني

وكان المرحوم قبل توجههِ الى الاستانة ارسل مكتوباً بواسطة بعض خواصهِ للوزير بتونس نصهُ " الصدر الهمام امير الامراء جناب الوزير الاكبر سيدي مصطفى اطال الله عمره اما بعد السلام التام فاني قضيت المناسك ولله الحمد ولم استطع المبادرة بالرجوع الى الوطن لاني في اضطرار الى اراحة البال والبدن للاسباب التي تعلمونها حقاً فلزمتني مراعاة الحال الى ان ينفس الله

الكرب لقوله تعالى ولاتلقوا بايديكم الى التهلكة والله حفيظ وولي من يتوكل عليهِ والسلام في غرة صفر سنة ١٢٩٧ " الّا ان هذا المكتوب لما بلغ تونس منعهُ احباء صاحب الترجمة وخواصهُ من الوصول ليد الوزير وبقي المرحوم في وظائفهِ الى حين وصوله للاستانة ولما ورد خبر وصوله اليها اسرعت الحكومة التونسيةّ بتوجيه جميع وظائفه الى غيره وهو المرحوم الشيخ احمد الورتتاني ومما يجمل بي ذكره هنا ان عائلة صاحب الترجمة رأت من مكارم اخلاق هذا الخلف وحسن تودُّده وتلطفهِ بها ماينذر وجود مثلهِ في الاعصر السالفة فضلاً عن هذا الزمان في وقت اضطهاد الحكومة لسلفهِ ومراقبتها الشديدة لكل ما يتعلق بهِ ثم ان صاحب الترجمة لما استقر بدار الخلافة مدح الحضرة السلطانيةّ بقصيدة مطلعها

النصر والتأبيد والعمر المديد قد توجت في عرشها عبد الحميد

وارّخ سنة الجلوس الشاهاني بقوله

بشرى الولاية قد اتت تاريخها لخلافة يسنى بها عبد الحميد

ولم تطل الايّام حتّى ارسل الوزير التونسي يطلب من الباب العالي ارجاع الشيخ بيرم الى تونس مدّعياً انهُ سافر بدون رخصة الحكومة ولم يقدم حساباً عن ادارتهِ في الاوقاف والواقع ونفس الامر انهُ لم يطلبهُ الّا بالحاح قنصل فرنسا عليهِ من جهة لان فرنسا لا تحب حصول الارتباط بين تونس والدولة العليّة باي وجه من الوجوه حتّى انها من بين سائر الدول لم تعترف بفرمان سنة ١٢٨٨ المقرَّر لتابعيةّ تونس للخلافة الاسلاميةّ ومن جهة اخرى قد خشي الوزير من التحام صاحب الترجمة بخير الدين باشا وافسادهما مساعيهِ

لتولي الامارة واطلاع الدولة العثمانية على دسائسهِ وسوء سياسة الحكومة التونسية في مدة الصادق باي لانهُ سلم جميع الامور بيد وزيره العديم الخبرة وقد بذل مصطفى بن اسماعيل جميع مجهوده واغرى بعض كبار الرجال في الاستانة لمساعدتهِ على اخراج الشيخ بيرم منها غير ان حكمة مولانا امير المؤمنين وعدالتهُ حالت بين صاحب الترجمة وبين اعدائهِ واصدر امره العالي بانهُ اذا كانت هناك دعوى على ناظر اوقاف تونس المقيم بالاستانة فلترفع فيها اذ ان تونس لم تخرج عن كونها من الولايات العثمانية التي تجمعها جامعة تخت السلطنة وبذلك سكت مصطفى بن اسماعيل عن دعواه الفاسدة اما اولاً فلانّ صاحب الترجمة لم يخرج من تونس الَّا بجواز (باسبورت) رسمي ممضي عليهِ من الوزير نفسهِ بصفة كونهِ وزير الخارجية لم يزل محفوظاً للآن وقد حضر لوداعه يوم السفر كثير من كبار رجال الحكومة بما فيهم وزير البحرية وأعد له بامر الوزير الاكبر زورق خصوصي من زوارق الباي لتوصيله للباخرة وقد اوصاه الوزير بمحضر جمهور عديد من التونسيين لاحضار بعض هدايا من الحرمين المحترمين هذا ما يتعلق بالسفر واما حساب الاوقاف فقد جرت العادة بنشره سنوياً في الجريدة الرسمية " الرائد التونسي " ولم يتأخر نشره قط وهو محفوظ في مجموعة الرائد يمكن مراجعتهُ ثم ان صاحب الترجمة قبل سفره للحجاز اخذ براءة من مجلس ادارة الاوقاف ممضى عليها مِن جميع الاعضاء ومن امين الصندوق وهي حجة قوية ناطقة بان لا شبهة في الحساب ولا شيءَ من اموال الاوقاف باقٍ في ذمة الناظر وتلك البراءة هي بنصها بالحرف الواحد

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمّد وسلم

ريالات فضه

٣٥٣٩٣٩	١/٢ ١٠
٣٠٤٨٧٩	٣/٤ ٠٤٣
٤٩٠٥٩	٣/٤ ٠٥ ١/٢
٨٦٢	٥″٠٠″
٤٠٤٣٤	٣/٤ ٠٥ ١/٢

اطلعت الجمعيّة على حساب دخلها وخرجها سنة ١٢٩٦ التاريخ بانضمام حسابات السنين السابقة اليها فكانت جملة الدخل ثلاثمائة الف وثلاثة وخمسين الف ريال وتسعمائة وتسعة وثلاثين ريالاً ونصف ريال وعشرة نواصر فضة وجملة الخرج ثلاثمائة الف واربعة آلاف وثمانمائة ريال وثمانين ريالاً الاَّ ثمانية نواصر ونصف ناصري فضه الذي بتذاكر الجمعيّة وكان الفاضل ما قدره تسعة واربعون الف ريال وستون ريالاً الاَّ سبعة نواصر ونصف ناصري فضة اخرج منهُ الرئيس ثمانية آلاف ريال وستمائة ريال وخمسة وعشرين ريالاً فضة صرف خمسة آلاف فرنك صرفت في مصالح الدولة وخرجت فيها تذكرتين منها لقابضها يدفعها مصروفاً على يد الوزير الاكبر ولم يدفعها القابض الى الآن احداهما تذكرة مؤرخة في ٢٧ القعده من عام ١٢٩٣ عدد ٤٦١٩ بها الفا فرنك اثنان وثانيتهما مؤرخة في ١٥ الحجة سنة ١٢٩٥ عدد ٣٥٦٩ بها ثلاثة آلاف فرنك ولما كان الفصل الواحد والعشرون من ترتيب الداخليّة للجمعيّة قاضٍ بابقاء المفتاح الثالث

للخزنة الثانية عند الرئيس والفصل السابع عشر من الترتيب المذكور قاضٍ بان كاهية الجمعيّة يقوم مقام الرئيس عند غيبتهِ وقد اراد الرئيس السفر الى اروبا فبمقتضى ذلك ابقيت تذكرتا الدولة المذكورتان بالخزنة الثانية المذكورة وسلم الى الكاهية مفتاحها الثالث بمحضر الجمعيّة بعد اطلاعها على الحساب المذكور وسلامة ذمة الرئيس مما في عهدتهِ وكان الباقي تحت يد امين مال الجمعيّة اربعين الف ريال واربعمائة ريال وخمسة وثلاثين ريالاً الَّا سبعة نواصر ونصف ناصري فضة وكتب في ٢٠ يونيه الموافق لرجب الاصب ١٣ من عام ستة وتسعين ومائتين والف

صح احمد الورثتاني	صح محمد بن الامين
صح محمد الشاذلي السنوسي	صح من محمود بن سالم

هذا وقد خرج صاحب الترجمة مِن القطر التونسي وترك وظائفهُ فيهِ ولم يكسب منها شيئاً مع انهُ كان يسهل عليهِ كثيراً في تلك الاوقات الدخول في ابواب الكسب بلا معارض ولا ممانع كما جرت بهِ العادة عند الكثير محافظة منهُ على الاستقامة واحترام الحق لا سيما والاوقاف لم تكن في بادئ امرها مضبوطة ولا معلومة فامرها في الواقع موكول لذمتهِ وطهارة نفسهِ فكان كثيرًا ما يلتزم لبيع املاكهِ وعقاراتهِ لتسديد مصاريفه الواسعة حتَّى ان مصاريف سفره الاخير لباريس حيث توجه بمأموريَّة من طرف الوزير التونسي تحمل بها من عنده وبلغت اربعة عشر الف فرنك مع ان الوزير المذكور وعدهُ بتسديدها ولم يوفِ بعد . ولما استقرت اقامتهُ في دار الخلافة وجد المرحوم خير الدين باشا مهتمًا

بتقديم تقرير بشأن الاصلاحات المقتضي ادخالها في نظام الدولة العليَّة لزيادة سطوتها وتأييد عظمتها على حسب ما يفتكر وقد انهى التقرير المذكور بالفعل غير انهُ لم يحز محل القبول لانهُ لم يكن مطابقاً في بعض وجوههِ لاحكام الشريعة الغراء فاخذ الشيخ بيرم في تطبيقهِ عليها ولما انتهى منهُ حصل تقديمهُ للحضرة السلطانيَّة ومن ذلك الحين شملتهُ الانظار الشاهانيَّة بعين ملاحظتها لدقة علومهِ واتساع معارفه ثم انهُ تفرغ لتدوين "صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار" وتم الجزئين الاولين منهُ وكان يقصد تقديمه للحضرة المعظمة المشار اليها عند اتمامهِ خصوصاً وهو شارع في جعل خاتمة الكتاب المذكور على نحو مقدمتي ابن خلدون واقوم المسالك اي انها تتضمن ما يقتضيهِ الحال لاصلاح الاحوال في البلاد الاسلاميَّة لعود عصر شبابها اليها كما هو غرضهُ الوحيد الذي يدأب لهُ منذ زمان ويتحمل في سبيله كل مشقة وعناء وقد تحسنت صحتهُ اذ ذاك واستراح من اتعاب المرض وكاد ان يشفى منهُ تماماً حتى ان استعماله المرفين قل بحيث بلغ درجة تقرب العدم وبينما هو على ذلك الحال متنعم البال منتظراً الرحمة من الله بانقاذ بلادهِ من حكومتها الجائرة اذ ذاك وقد اعتذر عن العمل بمقترحات اقترحها عليهِ الموسيو فورنييه سفير فرنسا في ذلك الحين حاصلها الرجوع الى تونس تحت كنف فرنسا او الاقامة بالجزائر او بباريس اذ فاجأتهُ الاخبار بزحف العساكر الفرنسويَّة على الحدود التونسيَّة وابتداء حركة "خمير" المخترعة . نعم ان الشيخ بيرم كان عالمًا بما ستأول اليهِ البلاد من السقوط في يد فرنسا ولكنهُ لم يكن ينتظر حصول ذلك في العصر الحاضر وكانت في تلك

الاثناء ترد عليهِ مكاتبات من بعض احبائهِ التونسيين وغيرهم بما يحصل في تونس مِنْ تلاعب الوزير بين قنصلي فرنسا وايطاليا وارضائهِ احدهما يوماً واغضابهِ الآخر يوماً ثانياً وكان الشيخ ينصح مكاتبيهِ ومحبيهِ بتجنب هذه الالعاب المضرة خصوصاً تظاهر الوزير بالميل الفجائي لايطاليا واغضائه مرة واحدة عن فرنسا حتى انهُ اهان كرامتها لان ذلك لا تؤمن عواقبهُ ولم يمض على ذلك شهر حتى ايدت الوقائع ما كان يخشاهُ وليس مِنْ غرضنا تكرار كتابة ما حصل في ذلك العهد لدخول فرنسا الى تونس واعلان حمايتها عليها اذ ان ذلك تكفلت بهِ كتابات غيرنا ولكنا نقول ان الحضرة السلطانيةً اصدرت امرها لخير الدين باشا ولصاحب الترجمة بتقديم ما يريانهِ في هذه المسئلة لجانبها وقد كتب صاحب الترجمة في ذلك تقريرًا مفصلاً لخص فيهِ بيان حقوق الدولة العليّة على البلاد التونسيّة وارتباطاتها بها قديماً وحديثاً واستنهض هم الدولة لانقاذ تلك المملكة المسلمة حيث انها مرقد المجاهدين ومدفن الصحابة والتابعين من الوقوع في يد دولة اجنبيّة وختم التقرير بنتيجة ما يراه وهو انهُ اذا كانت الدولة تشغلها شواغل الحرب الروسيّة وعواقبها من انقاذ تونس بالقسر من مغتصبها فلا اقل مِن انهُ يلزمها التحالف مع دولة اجنبيّةً اخرى للتساعد بها على نيل ذلك المرام ولو اقتضى الحال التنازل لها عن مدينة واحدة مثل مينا بنزرت في مقابل هذا التحالف وكانت الدولة جرت على مثلهِ مرارًا عديدة فان خسارة مدينة واحدة خير من خسارة مملكة برمتها وقد كان الشيخ بيرم يكتب هذا التقرير والدموع تقرح عينيهِ والالم العصبي الذي تحرك وتجدّد يفتك بجسده وكان يكرر القول على جلسائهِ بان

لا حذر مما قدّر لا سيما وان الفرصة المناسبة للدولة قد فاتت وهذا الزمن زمن قتال لا وقت جدال وسيأتي ذكر هذا التقرير في مجموعة منشآتهِ ورسائله ولما رسخت قدم فرنسا في البلاد يئس المرحوم من قرب العودة اليها ورام التقرب من عائلتهِ للمخابرة في شؤون بيع ماتبقى من املاكهِ ونقله العائلة من تونس الى بلاد اخرى فسافر الى ايطاليا لذلك الغرض واقام في مدينة ليفورنو لقربها من تونس وكان مدة اقامتهِ في الاستانة معاشراً لاهلها وخصوصاً ابناء العرب منهم معاشرة الصفاء والاخلاص متباعداً عن المزاحمة في طلب المناصب او التداخل فيما لا يعنيهِ ولم يرَ منهم الاَّ ما يسره وكان السيد سلمان القادري رجع من القسطنطينيَّة الى بغداد فلما استقرَّ بها كاتب صاحب الترجمة بما نصهُ

"كتابي هذا وانا ممتلي من الاشواق . ومضطرب لما لها من الاحراق . كيف لا وحب ذلك المولى الاجل . والنجيب الافضل . قد اخذ بمجامع القلوب. واحاط بالفكر على اتم اسلوب. لمزيد ما انطوى عليهِ من الاوصاف الحميدة . والمكارم السديدة . مع طبع رائق . وعلو جناب فائق . وشهامة كاملة . ونجابة فاضلة . وعلم وافر . وفضل متكاثر. فكل فضيلة بهِ حريَّة . وكل مفخرة لهُ سجيَّة . وليكن معلوماً لسيدي ادام الله تعالى بقاه . وانالهُ كل ما يتمناه . باني لم اخل ذكر ثنائهِ الجميل من لساني . ولم ينفك تخيل شخصه المنير لحظة عن جناني . بل لا زلت آنساً بما ذكرتهُ من الذكر والخيال. مفتخراً بما حصلتهُ من محبة ذلك المولى النبيل بين الاحباب في جميع الاحوال. ثم اني وان قدمت من قبل هذا عريضة لم احظَ بجوابها من ذلك الجناب

الرفيع لكني ابدي عذرًا لما وقع من القصور مدة من عدم ترديفهِ بكتاب آخر اذ ترادف العرائض . معدود لدي من جملة الفرائض . فلم يكن التأخير المذكور ناشئًا من قصور في المحبة . ولا عن تقصير في العلم بعلو الدرجة والمرتبة . بل ذلك نوع من التقدير . ووجدانك القوي عالم خبير . يصدّق ما يدعيه هذا الخالص الفقير . فالمرجو من بعد هذا ان تستمر المراسلات في البين . وينقطع بوجودها البين . افندم

الداعي

في ١٩ جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ پوست نشين حضرت كيلاني

نقيب بغداد

﴿ السيد سلمان القادري ﴾

وقد كان صاحب الترجمة على عادة اهل تونس وعلى ما امتاز بهِ من التشيع الكلي لآل البيت النبوي الكريم يميل ميلاً خاصاً للسيد المشار اليهِ لنسبهِ العالي وحسبهِ الغالي وفضلهِ المتلالي حتى ان ذلك كان من جملة البواعث على الايقاع بهِ تشفياً من سيادة السيد النقيب رحمهُ الله ومع ذلك فقد كان المرحوم يسعى جهدهُ لجعل علاقاتهِ مع جميع من يعاشرهُ مِن العرب وغيرهم في الاستانة على احسن ما يكون من المجاملة وحسن المعاملة وكان مع صاحبي السماحة السيد احمد اسعد افندي والسيد ابي الهدى افندي على قدم الوداد وحسن الاعتقاد كما يظهر من آثارهما المحفوظة لديهِ ونذكرها هنا تبركاً بهما وافتخارًا بودهما

"اخذت يابهجة الفضلاء . وقرّة اعين العلماء .
كتابكم الكريم . وامركم المحترم الفخيم . واطلعت على رسالتكم الجميلة" (١)

(١) عقد الدر والمرجان في سلاطين آل عثمان

الشاهدة لحضرتكم بايادي العلم الطويلة . واني بحمده تعالى ممن يحب ان يسدي المعروف لاهل الفضائل . سيما لمثل حضرتكم من ارباب المزايا العلية والفواضل . فاذا وفق المولى نقوم بتقديمها لمحلها . ودمتم ارباب المناقب واهلها "

الداعي

(ابو الهدى)

" قدوة الاماجد الكرام . ذو الفضل والاحترام . محبنا العزيز السيد محمَّد بيرام . حفظهُ الله آمين

وبعد مزيد السلام . مع التحيَّة والاكرام . نعرف سيادتكم هو ان الساعة ثلاثة ونصف في يومنا هذا لازم تشرفونا في البيت مع نجلكم المكرم لاجل ان نتبرك بكم . هذا ما لزم ودمتم . في عز وسرور . وانعم حبور في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٠٠ "

الداعي

(احمد اسعد)

وبعد ان اتفقَ صاحب الترجمة مع عائلتهِ على العود الى الاستانة والسكنى بها حيث لم يرَ محلاً انسب منها من بلاد الاسلام ولا تليق السكنى بعائلة مسلمة في بلاد اجنبيَّة مع انهُ كان يخطر في بال بعض التونسيين اذ ذاك التوجه في عدد كبير الى امريكا للاستيطان بها غير ان هذا الفكر لم يمكن تنفيذه لصعوبات حالت دونهُ فقصد المرحوم التوجه الى القسطنطينيَّة وعرج على جنيفا من بلاد سويسره حيث ابقى كاتب هذه الاحرف في احدى مدارسها المعتبرة ثم قصد ويانه وبلاد المجر والصرب ورومانيا حيث اقام ليلة في بخارست ومنها توجه الى وارنه من اعمال البلغار

ومنها ركب الباخرة قاصدًا دار الخلافة حيث لم تتصل السكة الحديد اذ ذاك بينها وبين اوروبا وقد قاسى في هذه السفرة آلام البرد واتعاب السفر الذي حق فيهِ القول بانهُ قطعة من العذاب خصوصاً ولم يكن صاحب الترجمة يتكلم بلغة اجنبيةً الاَّ بعض كلمات فرنساويَّة وليس في النمسا ولا في البلاد الّتي عرج عليها كثيرًا ممن يتكلم تلك اللغة وكان يسرع المسير للوصول قبل عائلتهِ الى الاستانة لتحضير محل لنزولها وقد وصل اليها قبل العائلة بنحو يومين او ثلاثة وبعد ان استراحوا قليلاً فاجأهم ذوو الدسائس والاغراض بوشايات اوغرت الصدور على صاحب الترجمة وكادت ان توقعهُ فيما لا تحمد عقباهُ وكان مبنى تلك الوشايات علَى حصول الحركة العرابيَّة بمصر اثناء وجود الشيخ بيرم في اوروبا فبنى عليها اصحاب الاغراض اقوالاً فاسدة ومزاعم بعيدة منشأُها الحقيقي حزازات في صدورهم من الحسد له وبغية الايقاع بارباب المناصب من اصدقائهِ واحبائهِ فارادوا الانتقام منهم بالاساءَة الى صاحبهم وجعلهِ محل تهمة يستخرجون منها ما يروج غرضهم في النكاية باولئك الرجال فالتزم هذا المهاجر بدينه الى دار الخلافة الاسلاميَّة ان ينزوي في بيتهِ ويلازمهُ مدة تقرب من الستة اشهر لا يخرج منهُ الاَّ لقضاء الضروري او اداء فرض عين كصلاة الجمعة وقد رأى في تلك الاثناء من تودّد الهمام الابر الصالح الورع الشيخ محمَّد ظافر افندي المدني وتلطف الفريق الغيور الحاج حسن باشا محافظ مركز بشكطاش محل سكنهِ وكلاهما من اقرب المقرَّبين للذات الشاهانيَّة المخلصين لها في السر والعلانيَّة ما اطلق لسانهُ بالشكر وقلبهُ بالدعاء الصالح لهما والحق يقال ان

الحضرة الخاقانية لم تفتر عن شمول صاحب الترجمة بعين رعايتها وكثيرًا ما
كان امير المؤمنين نصر الله بهِ الدين يظهر علائم رضائهِ وصفائهِ عليهِ حتى انهُ
لما اراد يهدي الى امبراطور المانيا فريدريك الثالث وكان اذ ذاك ولي العهد
بعض جياد الخيل امر احد الاعوان ان يتوجه الى الشيخ بيرم ليكتب رسالة
عربيةً يصحبها المأمور السلطاني معهُ عند ذهابهِ الى برلين ليقدمها مع الخيل
الى الامير المشار اليهِ وكان ذلك بعد صلاة يوم الجمعة الثالث والعشرين من
رجب سنة ١٢٩٩ وكان يطلق عليهِ عند ذكره من الفاظ العناية ما يستدل
بهِ على قرب منزلتهِ من خليفة المسلمين وبمجرد وصول جلالتهِ الى قصره
الفاخر يلدز بعد صدور ذلك الامر جاءهُ الرسول بالكتابة المطلوبة فسرَّ
بها كثيرًا واثنى على كاتبها وتلك الرسالة هي " الحمد لله بديع الخلق كما شاء
واراد . جاعل الصافنات الجياد . عدة مستمرة من أهم آلات الاستعداد .
وصلاتهُ وسلامهُ على رسولهِ متمم مكارم الاخلاق . الحاث على الفروسيةً
واقتناء الخيل العتاق . وعلى آلهِ واصحابهِ فرسان ميادين الوفاق . اما بعد
فلا يعزب عن نباهة نبيه . ودراية خبير في المعارف وجيه . ما للخيل على
الاطلاق من المزيّة . في المنافع البشريّة . بسائر الآفاق . حتّى ورد في الخبر
الشهير " الخيل معقود بنواصيها الخير " لا سيما نوع العراب منها . الجامعة
لاشتات المحاسن فلا مندوحة لاهل الفضل عنها . ألم ترانها قد حوت جمال
الصورة . واستقلت بالحذق وتهذيب الاخلاق المشكورة . فكادت ان تشارك
النوع الانساني في الادراك . وفضلت سائر انواع الحيوان بلطافة الذات
والمزيةِ في مواطن العراك . ألا وهي العاديات ضبحاً . المغيرات صبحاً .

متوسطة الجموع . مستشرفات الفروع . مبلغات الآمال . مقربات الشواسع لهم الرجال . فلذلك توجهت اليها عناية اهل الفضل . وتسابقت اليها الرغبات في الخصب والمحل . ولم تزل كريماتها محفوظة الانساب . متوارثة الخصال الحميدة من الاجداد الى الاعقاب . لا يأتلي اهل العناية عن اقتنائها . ومعرفة اصلها ونسبتها وانتشائها . ويفوز عليها بالمزيَّة ما صلح منها لاقتناء الملوك العظام . سيما ما اختص بان يعتلي صهوتهُ خليفة الاسلام . لا زال تاجاً على هامة الايام . وما تختارهُ اليهِ العرب مِنْ صفوة جيادها الكرام . وعلى الخصوص ما تميز باهدائهِ . لخلاصة اهل ولائهِ . من الملوك الفخام . وكان منها هاتهِ الخمس الجياد . العتيقات الاعراق الامجاد . ثلاثة منها عراب الآباء والامهات . واثنان من خلاصة الاعاجم الوطن وان ناكبت العراب في الصفات . وقد تحرر هذا التحرير في التعريف باصولها . وما جمعت من سمات الكمال وفصولها . فاما الثلاثة العراب . السابقة القرين في العراقة والانتساب . فاولها اشقرها المبارك . الذي لا يدانيه في استجماع المحاسن مشارك . واسمهُ المجلى . وقد طابق اسمهُ مسماه اذ هو لمفاخر الخيل مجلى . وهو من جياد نجد العربيَّة . الشهيرة الصفات والمزيَّة . سقلاوى القبيلة . شامل لما يحمد في امثالهِ من الفضيلة . كل سلسلة اصولهِ من قبيلته المحمودة . وكلا ابويهِ متفرع من ذلك القبيل الى جدود كثيرة معدودة . مسماة اجداده وجداته . خالصة من اشتباه النسب وكمالاته . واما ثانيها وهو الاشهب . الجاعل ابعد القصبات الهين الاقرب . واسمهُ السابق . فهو مناكب متقدمهِ في جميع صفاتهِ حتى غدى بهِ لاحق . سوى انهُ استعوض عن النجديَّة . بان كان من العراق العربيَّة .

ولا يخفى ما لعتاقها من شهرة المزيَّة . سيما في حفظ النسب من الاختلاط . وانتساق عمودهِ على اقوم صراط . لا جرم ان كان وحيد اقرانه . بنباهة شانه . واما ثالثها المسوّم . وهو الاحمر المستكمل المقوّم . واسمهُ ابو ليلى . فقد جمع لما في جياد الخيل يتلى . اذ هو من صنف كحيل العجوز . الذي هو لصفات العتاق من العراب يحوز . وعلى من جاراهُ في ميادينها يفوز . فهو لا يجارى اذا ما ضمر . لانهُ مِن خلاصة خيل قبيلة شمر . فلعمري ان هاتهِ الثلاثة وان اختلفت انسابها . فقد اتحدت عراقتها واحسابها . وكل منها قد استكمل صفات الجودة والفضيلة . واستتبت فيهِ محامد كل الخصال الجميلة . فلا بدع ان تبعها ما يكمل بهِ عدد الخمس . مما تنبسط لهُ الروح وتنشرح بهِ النفس . وهما الفرسان الاخضران . اللذان استكملا صفة العتاق ولو انهما اعجميان . وهما من جزيرة مدلي الشهيرة . ذات النقطة المهمة مِن البحر الابيض الفائزة بالخيل ذات المناقب الخطيرة . وهما وان افترقا هيكلاً . فقد تفردا منظرًا مجملاً . اذ هما فرسا رهان . متحدا الاخلاق والسمات والالوان . فاستكملت هاتهِ الخيل مزايا التناسب . وكانت لها جهة ملائمة بما للمتهادين من التوادد المتقارب "

وقد كان السلطان ارسل لهُ قبل ذلك ايضاً كتاب الشفاء لابن سينا في نسخة جميلة لتفحصهِ وتقديم كتابة بمضمونهِ وبعد مدة من الزمن صفا فيها الجوّ للشيخ بيرم من رمي الاعادي وحسد الحساد زاد السلطان في اكرامهِ باحتساب مصاريف اقامتهِ في الاستانة على خزينة الدولة باعتبارهِ ضيفاً من ضيوف الحضرة السلطانيَّة وذلك بان تدفع نظارة الماليَّة اجرة المنزل ولوازم

البيت وقدرت في الشهر بخمس وعشرين ليرة عثمانيةً وقد استمر صرف هذا المرتب مدة ثمانية عشر شهراً اي لحين خروج صاحب الترجمة من الاستانة

وقد بادر المرحوم بكتابة المكتوب الآتي لاداء واجب الشكر على هذه العناية السلطانيةً ونصهُ

المقام الذي اناخت بهِ مطايا البيان واستقرت . واعترفت البلاغة بانهُ وحيد عصرهِ واقرت . وعضد اليراع اشهادها اذ كان بعد ان جست يدها استطاعته ونقرت . فلا بدع ان ابصرت بهِ عين الوزارة وقرت . وكان يمين الخلافة المؤتمن منها على ما تشا . ألا وهو صاحب الدولة علي رضا باشا . باشكاتب الحضرة السلطانيةً . افاض الله عليهِ آلاءهُ القدسيةً . اما بعد سلام تحملهُ ايدي التعظيم . وتحفهُ آداب الاجلال والتفخيم . فقد بلغ العبد ما حصل لهُ من عناية مولانا صاحب الخلافة العظمى . والسلطنة الباذخة المجد الشمى . فوقع مني هذا الانعام الموقع الذي ليس وراءهُ حد في الاعجاب . وهزني السرور حتى اعجزني عن التلفظ بالخطاب . كيف لا وقد لاحت من ذاك الانعام بفضل الله علائم اخلاصي فيما اقتحمتهُ من مفارقة وطني وكسبي وعشيرتي وخواصي كما كنت بسطتهُ لدى جنابكم قبل ان تحدث على وطني الطامة الكبرى . المرجو من الله ان يبدل بأمير المؤمنين عسرها يسرا . من اني اعد عملي قربة لله جل وعلى . اذ في ذمتي ورقبتي بيعة لامير المؤمنين لا تبلى . ولا يجوز لي شرعاً ان ابتغي بعبد الحميد سلطاني بدلا . فقد ورد في صحيح البخاري " من خرج عن السلطان قيد شبر مات ميتة جاهليةً " فلم ابالي لذلك بالمضادات الوطنيةً والخارجيةً . واستقررت في ظل الخلافة

الاسلاميةً . إلى ان غمرتني الانعامات الخاقانيةً . فكيف لا اطير لهذا الانعام سرورًا . وهو علامة بارادة الله تعالى ان تنال النفس الرضى موفورًا . فقلت يا نفس قرّي عيناً . وردي من مناهل امير المؤمنين عذباً معيناً . فها انت شاهدت قسطاس عدلهِ . واين انت من جودهِ وفضلهِ . وفوق ذلك الطاف العناية . التي ليس وراءها للتطلب من غاية . فحسبي حسبي . ولنتوجه ضارعاً الى ربي . بشراشر لبي . واخلاص قلبي . ونقول اللهم يا من تجلى بجلائل نعمائهِ . ويا من احتجب برداء كبريائهِ . يا من توجهت الى جنابهِ الاقدس عزائم الآمال . ويا من تعلقت بعميم جوده اطماع السؤال . نستوهبك من الصلوات والتسليمات . ما يناسب من فضلتهُ على جميع المخلوقات . وانرت بهِ اقطار الارض والسموات . سيدنا ومولانا محمَّد خاتم الرساله . ومنار الدلاله . وتنظم فيهما معهُ صحبهُ الكرام وآله . ونتضرَّع اليك اللهم ان تكسو هاتهِ الدولة العليَّة العثمانيَّة حلة النصر . خافقة ألوية عدلها الى آخر الدهر . مؤيدة اعلامها . مكتوباً على صفحات الايام اجلالها واعظامها . بتأييد اسد غابها . وامام محرابها . قرة اعين المسلمين . مولانا امير المؤمنين . المحفوف بالتأييد الرباني . الخليفة الاعظم السلطان عبد الحميد الثاني . اللهمَّ وكما جعلتهُ منخرطاً في سلك المدح من رسولك عليهِ الصلاة والسلام لامراء القسطنطينيَّة من آله الكرام حسبما هو في الصحيح المأثور . فاجعله اللهمَّ مظهرًا لوعدك حيث قلت " ولينصرَنَّ الله من ينصرهُ ان الله لقويٌّ عزيز الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور " واطل اللهم في طاعتك عمره . واجعل السداد

والصلاح فيما دبره . منكسة اعداؤهُ على الاعقاب . مستبشرة احباؤهُ بعملهِ المستطاب . وألسنتهم بالدعاء اليهِ صادحة . خاتمين ضراعتهم باسرار الفاتحة . وبعد ان انتظمت دعواتنا بمشيئة الله في سلك الاجابة . واحرزت من حضها موقع الاصابة . حان لعصابة الشكر والحمد والثناء ان تكون لسدّة امير المؤمنين ايده الله مصروفة . ومن البديهي ان وقوعها موقع القبول لدى جلالتهِ على حسن تمهيد مثلك أيها الوزير بعد الاعتماد على الله تعالى موقوفة . فلتورِ لها زناد الحميّة . من تلك الغيرة الرضائيّة . لا زلتم صاعدين مدارج السعادة في العناية السلطانيّة "

وفي تلك المدة تفرغ الشيخ لتأليف الجزء الثالث من صفوة الاعتبار وتحرير رسالة سماها " التحقيق في مسألة الرقيق " بحث فيها عن كيفيّة معاملة الرق عند المسلمين بمقتضى الشريعة وبيان اسباب الرق ودواعيه واحكامه وذهب فيها الى ان العبيد المباعين الآن هم احرار وان منع الحكومات الاسلاميّة لتجارة العبيد هو شرعي محض لا يحتاج الحال فيهِ لطلب الدول الاجنبيّة وقد حرر قبل ذلك جواباً علمياً لبعض نبلاء الانكليز عن سؤال وجههُ اليهِ مضمونهُ هل ان التونسيين مسرورون من دخولهم تحت دولة اجنبيّة فاوضح السيد بيرم في جوابهِ بان التونسيين ليسوا اقل الامم حباً في الاستقلال والتنعم بلذائذه والغيرة على الوطن وانهم مسلمون يتمنون بكل جوارحهم دوام صلتهم بالجامعة الكبرى الاسلاميّة واستدل على ذلك بادلة عقليّة ونقليّة طويلة مقنعة وقد كانت من عادة صاحب الترجمة منذ كان في تونس ان يحتفل كل سنة بالمولد النبوي الشريف احتفالاً

شائقاً واظب عليهِ لحين وفاتهِ حتى انهُ كان آخر اعماله في هذه الدنيا رحمهُ الله وفي كل سنة يكتب رسالة مخصوصة في موضوع من المواضيع العلمية يتخلص فيها لذكر المولد الشريف وقد الف في الاستانة رسالتين لذلك الغرض احداهما فيما يجب لآل البيت النبوي الكريم من التبجيل والتعظيم مبيناً حقوقهم على المسلمين بشرط ثبوت النسب العلي حتى لا يدخل في هذه السلسلة السامية دخيل تترتب له تلك الحقوق الواجبة وثاني الرسالتين فيما يجب للنبي صلى الله عليهِ وسلم على سائر المسلمين وألف رسالة اخرى في سكنى دار الحرب وذلك عند ما رأى ماطرأ على بلاد الاسلام من التقهقر المستمر نسأل الله اللطف والسلامة وقد ذهب في هذه الرسالة بعد شرح ما عليهِ البلاد الاسلامية الآن الشرح الكافي وايراد الادلة والنصوص الشرعية الى ان الانسان حر فيما يختاره حسب مصلحتهِ واجتهاده . وقد سأله بعض الافاضل عن رأيهِ في مسألة الاجتهاد والتقليد مستنداً على الرسالتين المطبوعتين في الاستانة المنسوبتين لملك بهوبال صديق حسن خان فشرع في الجواب غير انهُ لم يتمهُ ويظهر من فحوى كلامهِ واعماله الخصوصية انهُ يرى تقليد احد الائمة الاربعة واجباً على حسب المشهور في مذهب اهل السنة . ولما تولى امير تونس الحالي منصب الامارة هنأهُ الشيخ بيرم بمكتوب مصدر بهذين البيتين

ألا بعلي ملك تونس سدّدا فلا زال فخراً للبلاد مؤيدا
ونجح دعائي بان اذ قلت ارّخن ألا بعلي ملك تونس سدّدا

وقد توجهت في ذلك الوقت آمال احباء قائل هذين البيتين لرجوعهِ

الى تونس اذ ان نفوره الذاتي كان من الوزير مصطفى بن اسماعيل الذي افل نجمهُ بوفاة سيده الصادق باي ولم يبق من مانع له من العود الى بلاده ومسقط رأسهِ ومدفن اجداده خصوصاً ورستان نائب فرنسا استبدل بغيره وصفا الوقت وزال المقت فكاتبهُ بعض المتشيعين للسفارة الفرنسويَّة بتونس بمناسبة الفرصة لا سيما وقد كان وعد الامير عند توديعهِ وهو اذ ذاك ولي العهد بالعود الى الوطن عند ولايتهِ عليهِ فاعتذر صاحب الترجمة عن كل ذلك بان السيرة العموميَّة هناك لم تبقَ على الحالة المألوفة ثم ان صحتهُ لم تزل في تقهقر في الاستانة لتأثره من الانفعالات النفسانيَّة المتسببة عن دسائس ذوي الاغراض السابق شرحها التي لا يكاد يخلو منها من كان له شأن بين الناس او فضل يميزه بين اقرانه والمعالجة والعيال يلزمها الكثير من المال فباع صاحب الترجمة جميع املاكهِ بتونس وصار يصرف من ثمنها في حاجياتهِ وعوائدهِ التي لم يغير منها شيئاً بحيث رأى نفسهُ في تأخر مالي مستمر لا يأمن معهُ من الوقوع في مخالب الفقر وهو لم يحسن من العمل الَّا مباشرة عقاراتهِ والتفرغ للاشغال العلميَّة وكان بعض كبار اصدقائهِ ينفرهُ من سائر الوظائف العادية لاعدادهِ الى وظيفة مخصوصة تليق بعلومهِ وما زال منتظراً حتى ضاق لذلك ذرعاً وزاد عليهِ اشتداد المرض العصبي اذ وجد عاملاً لتحريكهِ قويّاً وهو الانفعال النفساني المستمر فنظر في امرهِ فلم يجد من البلاد الاسلاميَّة التي يمكنهُ الاقامة فيها براحة بال الَّا القطر المصري وهو مع حرارتهِ التي يأباها مزاج صاحب الترجمة الَّا انهُ اوفق من غيرهِ من البلاد الاخرى . اما الولايات العثمانيَّة فقد اشار عليهِ بعض المطلعين على الاحوال على ان طلبهُ

التوجه اليها لا يحوز محل القبول خصوصاً وهو لم يكن لهُ ميل الاَّ للتوجه الى المدينة المنوّرة للمجاورة او الى الشام ويمنعهُ عن الاقامة في الحجاز احتياجهُ المستمر للحكماء والعلاجات وهما شيئان مفقودان تقريباً من تلك الجهات المباركة فاستخار الله في القدوم الى مصر وساعدتهُ المقادير بالحصول على مكاتيب توصية لبعض ذوي النفوذ في هذه البلاد فاراد طلب الرخصة للقدوم اليها ولكنهُ استشعر ان طلب الاذن للتوجه اليها ربما لا يحوز قبولاً خصوصاً وانهُ تعذر عليهِ وجود من يبلغ الحضرة السلطانيَّة تفصيل امرهِ وشكوى حالهِ على الوجه الحقيقي والاَّ فان احترام الخليفة لمثلهِ من علماء المسلمين كان يدفع شكواهُ ويرفع عنهُ ألم معيشتهِ ولكن دون الملوك من عقبات الاشغال ما يمنعهم عن الوقوف احياناً على مثل هذه الاحوال فاذا فقد الناصح الامين الذي يتيقظ لملافاة هذه الامور بحسن تبليغها الى مقام الخلافة حصل الاهمال الذي وقع فيهِ صاحب الترجمة وامثالهُ فالتزم التمحل بطلب العودة الى الوطن وقارن هذا الطلب الاجابة اذ كاتبهُ علي رضا باشا باشكاتب المابين الهمايوني بهذه البطاقة العربيَّة وهذا نصها بالحرف الواحد بخط يدهِ

"العالم الفاضل والاديب الكامل محمَّد افندي بيرم سلمهُ الله

بعد التحيَّة الوافية نبدي لكم انَّنا عرضنا مادة العزيمة الى بلدتكم فصدرت الارادة السنيَّة السلطانيَّة على عزيمتكم الى ذلك الطرف ان شاء الله تكون مصحوباً بالسلامة ونروم منكم ان لا تنسونا من دعائكم الصالح في السفر والاقامة ودمتم في ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٠١ (علي رضا) "

ومما يذكر هنا مقروناً بمزيد الاسف ان القسطنطينية العظمى تشتمل على نحو المليون نفس من السكان من اجناس مختلفة اقلهم ابناء العرب او المنتسبون اليهم ومع ذلك لا ترى اشد منهم تهافتاً على الايقاع فيما بينهم فبينما ترى الروم والارمن واليهود يعاضدون بعضهم بعضاً ويسعون لبني جنسهم في الخير بحيث يصدق عليهم انهم كالبنيان المرصوص يشد بعضهُ بعضاً ترى اولاد العرب المسلمين ينتحلون ويتلهفون على اختلاق الاسباب وايجادها لابعاد بني جنسهم عن دار الخلافة وتنفير قلوبهم منها ولله في خلقهِ آيات. فقد راجت فيهم سوق التحاسد والتباغض والتنافر والتشاحن حتَّى لا يكاد يخلو حديث من احاديثهم او حركة من حركاتهم الاَّ في ايذاء بعضهم وايقاع السوء بأنفسهم والتخاذل فيما بينهم لا فرق في ذلك بين الكبير والصغير والعظيم والحقير بل الداء واحد في الكل الاَّ من وفق الله ولا شك ان هذا من سوء حظ الاسلام الذي كان ينبغي ان يصرفوا لهُ اوقاتهم في خدمتهِ بما في يدهم من القدرة على نفعهِ نسأل الله ان يرفع من بينهم آفة الدسائس الَّتي يشوشون بها على انفسهم وعلى بلادهم ويسقطون بها سائر الامة العربيَّة في أعين الامة التركيَّة

وقد غادر الشيخ مركز الخلافة والعين مغرورقة بالدمع والحشاء ممتلئ بالاسى والصدر مفعم بالاسف ليس ذلك لمنصب فارقهُ او لرفاهة عيش زايلها او لطمع في شيء من نعيم الدنيا الزايل وعيشها الفاني وانما كان يتحرق فؤادهُ لما كان يرى عليهِ الامة الاسلاميَّة من الانحلال والاخذ في اسباب الضعف وكيف ان بلادهُ وقعت اولاً في يد الاجنبي وخرج لاجل ذلك

مشتتاً بعائلتهِ في البلاد ليسكن بها ببلدة اسلامية فلم يرَ امامهُ مكاناً هو اولى ان يقصد لهذا الغرض وأليق بعالم مسلم مثلهِ من اولاد نقباء الاشراف ان يقيم بعائلتهِ فيهِ سوى دار الخلافة وعلل النفس بأن ما يراه هناك من صولة الاسلام وتشييد الدين واستقامة أُمور المسلمين واجتهاد امير المؤمنين ومن حولهُ من خاصتهِ وحاشيتهِ ورجالهِ لانقاذ الاسلام واهلهِ مما سيسلي مصابهُ بفقد بلادهِ ومنَّى النفس بانهُ لا ييأس على ضعفهِ وعجزهِ من القيام بخدمة تفيد الاسلام او نصيحة تشيد الدين او اشتراك في عمل يجمع بهِ كلمة المسلمين او ما يماثل ذلك مما يجب على كل فرد من المسلمين القيام بهِ وخصوصاً من كان من طائفة العلماء فرأى لسوء الحظ من تلك الدسائس ودنايا السعايات ومسابقة الوشاة اضرارًا بكل من كان مثلهُ على رأيهِ حتى يخلو الجوّ لاولئك المسابقين ما اضطرهُ الى مبارحة دار الاسلام للتشتت مرة اخرى في البلاد بعائلتهِ بعد ان يئس من العمل في حقهِ بمقتضى الآية الشريفة "قل لا أسألكم عليهِ اجرًا الاَّ المودة في القربى" والمرحوم يمت بحبل النسب الى البيت الطاهر النبوي من جهة ويتصل من الجهة الاخرى الى مجاهد في سبيل خدمة الدولة العلية اراق دمهُ في افتتاح البلاد التونسية ولم تزل اعقابهُ تتوارث الولاء والاخلاص والصداقة المتينة للدولة العلية في كل زمان ومكان حتَّى انهُ لما اهدى السلطان عبد المجيد كركاً من السمور الفاخر من ملبوساتهِ الذاتية الى امير تونس احمد باشا لم يرَ الامير المشار اليهِ أليق بلبسهِ من الشيخ بيرم الرابع فاعطاهُ اياهُ ولم يزل محفوظاً يتبرك بهِ في بيت بيرم بتونس وصار لبس الكرك مزية لهم لم يقلدهم فيها سواهم وقد اكتفى الشيخ

الرابع بذلك عن قبول نشان الافتخار التونسي لما عرضهُ الامير عليهِ واتبعهُ في ذلك صاحب الترجمة ايضاً سنة ١٢٩٥ اذ صارت العادة في تونس ان العلماء لا يتقلدون النياشين وفي حرب الدولة مع الروسية سنة ١٢٤٤ تقاعست الولاية التونسيةً عن نصرة الدولة مادّياً وادبياً فلم يجد شيخ الاسلام بالاستانة من يستعين بهِ لحث المسلمين في تونس على مساعدة الدولة الأ جد صاحب الترجمة بيرم الثاني لما هو مشهور عن هذه العائلة منذ القدم انها متعلقة بخدمة الدولة لا تفتر عن ذلك ابداً فاجابهُ بالمكتوب الآتي نصهُ

" ربنا افرغ علينا صبرًا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . ان احسن ما تشرفت بهِ الامة المحمديةً . وتجملت بهِ العصابة الاحمديةً . اتباع اوامر الله تعالى ونواهيهِ . وبذل الجهد في اعلاء هذا الدين وتشييد مبانيهِ . اقتداء بصدرها الاول . وعملاً بسنة نبيهِ المرسل . ولعمري ان هذا في العبارة وان كان سهلاً يناً . ففي ابرازه للوجود ليس هيناً . لتوقفهِ على امدادات الهية . وهداية ربانيةً . وداع الى هذا بلسانهِ . وبرمحهِ وسنانهِ . وقد تطابقت حملة الانباء في سائر البلاد . مِنْ جميع العباد . ان القائم بهذا الشأن . والحائز قصب السبق في هذا الميدان . ومجدد الدين بعد الاندراس . ومظهر اعلامه اثر الانطماس . الدولة العثمانيةً اعلى الله منارها . وضاعف اقتدارها . وانام الانام في ظلها . واعاد عليهم من فيض فضلها . فلم تخل والحمد لله من امام يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . ولم يأل جهداً في رمي اعدائهِ بالعذاب الاليم . مؤيد من الله بعلماء . عاملين هم ورثة الانبياء ناهجين في نصح العباد مناهج الاصفياء . وقد ورد علينا من حضرة مولانا شيخ

الاسلام . وامام العلماء الاعلام . ومرجع الحكام في الاحكام . ومن بيده مقاليد النقض والابرام . لا زالت اقلامهُ في بحار العلوم سابحة . ومواعظهُ للقلوب جارحة . وتجارتهُ عند الله تعالى رابحة . كتاب كريم . هادٍ باوامره ونواهيهِ الى الصراط المستقيم . لا يقابلهُ كل مؤمن الّا بالقبول والتسليم . وكيف لا وقد جاء بالذكرى التي تنفع المؤمنين . المأمور بها في الكتاب المبين . حاثاً على الجهاد . والتشمير عن ساق الاجتهاد . وتعاطي اسبابه . وطرح الامور الصارفة عن بابهِ . فاجتمع لقراءتهِ الاعيان من العلماء وغيرهم بحضرة الامير جمعاً . وفتحوا لهُ قلباً وسمعاً . وتلقوه بالاذعان والقبول . والمبادرة لامتثالهِ بالفعل والقول . واميرنا مثابر على تنفيذ اوامر الدولة العلية . التي طاعتها من طاعة رب البريَّة . وماهو الّا ان يؤمر فيطيع . ويكاف فيأتي بما يستطيع . والله تعالى يؤيد سلطاننا بمدد نصره . ويجعل اعداء الدين تحت قهره . ويعلي رايتهُ الشامخة في البر والبحر . ويكتب على صفحاتها سورة الفتح والنصر . والسلام اللائق بجلالكم . من العبد الفقير محمَّد بيرم"

وفي الحرب الاخيرة تأخرت الحكومة التونسيَّة عن مساعدة الدولة ايضاً لخوفها من معارضة فرنسا فقام الشيخ بمقتضى ما ورثهُ عن ذويهِ من محبة الدولة العليَّة يحرض الوزير وينصح الامير ويحض المسلمين جميعاً على اعانة الدولة ولم يكتف بذلك فقط بل سعي سعيهُ حتَّى توصل لاستخراج فتاوى شرعيَّة بوجوب القيام بواجب المساعدة للدولة حتى لا يبقى هناك عذر لمعتذر في ذلك التقاعس وهذا صورة السؤال الذي طلب عليهِ الفتوى

" علماء الاسلام . بعد اهداء السلام . والتحيَّة والاكرام . ما قولكم . رضي الله عنكم . في نازلة صورتها ان امام المسلمين قد اخبر اهل قطر من المسلمين ممن هم تحت طاعتهِ . وداخلون تحت بيعتهِ يخطب ائمتهم باسمهِ على منابرهم بان العدوّ قد فاجأ بلاد المسلمين معلناً بالحرب ووقعت منهُ المباشرة بالفعل في حدود المملكة وكان الامام استشعر من العدوّ ما آل امرهُ اليهِ من مباشرتهِ بالحرب فهيأ من العساكر بحدود المملكة للمدافعة عن بيضة الاسلام نحو الستمائة الف وحين اطلاعهِ على جيوش العدوّ وعلم ما امكن من اخبارهم رأى الامام ان الستمائة الف تحتاج الى ضم آخرين اليهم من العدد الكثير الذي تحصل بهِ مقاومة العدد ويمكن لهُ بهِ مدافعة العدوّ فاستنفر كل من استطاع من اهالي ذلك القطر الى الانضمام الى حوزة العساكر ثم الذي وقع في الخارج بعد استنفار الامام هو ان العدوّ قد استولى على بلدان وقرى من مملكة ذلك الامام واهاليها مسلمون جارية في تلك البلدان والقرى شعائر الاسلام كما استولى على قسم من مملكة ذلك الامام سكانه نصارى يؤدون الخراج ويذعنون بالطاعة للامام وهذا القسم له بال من المملكة يبلغ عدد سكانهِ نحو الخمس ملايين وقد جعله العدوّ مركزًا لذخائره وعَدَدهِ وعُدَدهِ بما فيهِ مِن الحصون ومع ذلك لم يقدر العدد الوافر المهيأ من عساكر المسلمين على اخراج العدو لما تسلط عليهِ ثم حصلت للعدو مضرات اخرى من غزو سفنهِ وثورة قسم ممن كان تحت سلطانهِ من المسلمين باعانة الامام لهم فهل يجب والحالة ما ذكر على احاد ذلك القطر المستنفر اهله ممن قدر على الزاد والكراع والسلاح ان ينفر للامام ويلبي دعوتهُ سواء كان

ذلك القطر موالياً لموضع الهجوم او بعيداً عنهُ وعلى تقدير ان يكون الموضع الموالي اهله تكاسلوا اوعرض لهم مانع يتعلق الوجوب حينئذٍ بمن يلي من يليهم وهكذا ام لا يجب واذا قلنا بوجوب ذلك على الافراد والاشخاص بذلك الشرط فلو كان هناك من له منفعة عامة كمثل عالم لا اعلم منهُ في البلد بفصل القضاء فهل ذلك مسقط للوجوب عنهُ ام لا جوابكم الشافي "

وما فتئ رحمهُ الله يخلص الخدمة للبيت العثماني عند كل فرصة وبكل وسيلة حتى انهُ رأى رأياً ينتج عنهُ نفع المسلمين وارتقاء شأنهم جميعاً من جهة توثيق عرى الجامعة الاسلامية وائتلاف ممالك المسلمين وتنظيم احوالها على ما يضمن قوة المركز وثبات الوجود ومن جهةٍ اعتلاء شأن البيت العثماني بتشييد امر الخلافة فيهِ على جميع المسلمين وممالكهم وذلك الرأي هو ان تتحد الممالك المستقلة الاسلاميةُ والولايات العثمانيةُ المستقلة استقلالاً داخلياً ثم يصير الجميع عصبة واحدة ومملكة واحدة تحت رئاسة الخليفة السلطان العثماني ومن ضمن الامور التي اوصى بها في روابط هذه الجامعة ان يجتمع امراء الممالك الاسلاميةُ في بعض السنين بالكعبة المطهرة لتكون شاهداً على قوة ارتباطهم وفي ذلك من اعلاء شأن الممالك الاسلاميةً ما لا يخفى على كل من امعن النظر في نظام الممالك الالمانيةُ التي كانت ضعيفة ضئيلة بتفرقها ممالك صغيرة يسهل على الطامع ابتلاعها كما حصل مراراً فلما اتحدت جميع المقاطعات الالمانيةُ على النمط الذي نراهُ الآن بمملكة بروسيا اصبحت اعظم الممالك شأناً واشدها قوة وصارت مملكة بروسيا التي كانت تحت رحمة الطامع لضعفها وانفرادها اقوى الممالك باتحادها مع بقيةُ الممالك الالمانيةُ وقد

كتب المرحوم في هذا الباب كلاماً طويلاً مستشهداً فيهِ بالشواهد الدينية والتاريخية كقول احد مشايخ اسلام الاستانة الاقدمين عند تحسينهِ هذا المشروع لمن كان يعارضهُ ان الاليق بمجد السلطان وفخر الدولة ان يكون السلطان سلطان السلاطين لاسلطان الولاة وربما ادخلناهُ في ضمن ما سننشرهُ من بعض كتاباتهِ التي تركها عند الفرصة

وقد خرج الشيخ على تلك الحال يُقلب طرفهُ في البلاد لعلهُ يجد بلدة اسلامية يشد اليها رحلهُ فلم يجد من بلاد المسلمين بلدة يطمئن فيها الساكن على نفسهِ وعرضهِ ولا يكون عرضة لمثل تلك الدسائس الاَّ البلاد المصرية وان كان دمعهُ ليجري اسفاً على تلك البلاد ايضاً التي اصابها ما اصاب غيرها من سيطرة الاجنبي عليها ولكن رب ضار نافع وبعض الشراهون من بعض وقد انكر عليهِ المتشدقون عملهُ هذا وقدومهُ على مصر في حالة وجود الانكليز وتضارب الاحوال فيها غير انهُ كان يجيب على ذلك " بان لا حق لأحد في الاعتراض عليَّ اذ ان الدولة رضيت لي الاقامة في تونس تحت حماية فرنسا حسب منطوق الارادة السنية المسطرة اعلاه وتونس انسلخت بالمرة عن الممالك العثمانية ولا اثر لسلطة الدولة او المسلمين فيها. اما مصر فانهُ مع وجود الانكليز فيها فانها لم تزل ولاية من ولايات الدولة وسيطرة الحكومة المحلية فيها قائمة وعلى فرض المساواة في المعاملة لا قدَّر الله فلا فرق بين الانكليز والفرنسيس "

وقد انتقل المرحوم بعائلتهِ الى مصر معرجاً في طريقه على بلاد اليونان وذلك في المحرم سنة ١٣٠٢ (نوفمبر سنة ١٨٨٤) اي بعد الاحتلال الانكليزي

بسنتين وشهرين ولما استوطن بالقاهرة هنأهُ حضرة المصقع البليغ الشيخ حمزة افندي فتح الله بهذين البيتين البديعين

لئن اشرقت في الشرق مصر ببيرم واضحت بهِ تلك الكِنانة تونس
فكم شاد مع آبائهِ مِن مكارم اضاءت بها في الغرب من قبل تونس

وبعد ان استراح اياماً قابل الجناب الخديوي التوفيقي المرحوم فاظهر لهُ مزيد العناية وانزله منزلة الثقة الامين فحكى له سموهُ جميع ما جرى في الثورة العسكرية وتفاصيلها وكلما يتعلق بما قاساهُ فيها وختم كلامهُ بقوله "انني ذكرت لكم كل هذا لتتاكدوا من صداقتي لكم" ثم اظهر له من علائم الاكرام ما جعله دائم الشكر له ومِنْ ذلك انهُ امر بان تكون مصاريف الشيخ على نفقة الحكومة كما كان في ضيافة مولانا السلطان وفي ٢٥ ربيع الاول من تلك السنة اصدر جريدة الاعلام وهي جريدة علمية سياسية يومية غير ان صحة صاحب الترجمة وقلة اختباره بالقطر المصري لم تساعداهُ على توالي اصدارها يومية فجعلها تظهر ثلاث مرات في الاسبوع ثم صارت اسبوعية واستمرت كذلك مدة طويلة بحيث ان اول عدد منها صدر في التاريخ المذكور وآخر عدد وهو ٢٦٩ صدر في غرة جمادى الاولى سنة ١٣٠٦ ثم احتجبت الجريدة المذكورة عن الظهور بتولي صاحبها خطة القضاء في محكمة مصر الابتدائية الاهلية وكان في نيتهِ عند تأسيسها مع فتح مطبعة مخصوصة بهِ ان يشغل نفسهُ بتحريرها وبطبع الكتب المفيدة طلباً لنفع العموم بما اكتسبهُ من الاختبار بالتجول في البلدان وبما يعلمهُ من العلوم الشرعية الاسلامية وتطبيقها على الاحوال السياسية التي ينتج عنها تحرير البلاد وانتظام امورها كما كانت تتولع بهِ نفسهُ منذ القديم

حتى قال خير الدين باشا عن هذه الجريدة انها لا تلبث ان تكون "تيمس العرب" ودفعهُ الى ذلك ايضاً ما كانت عليهِ سجيتهُ من حب الاشتغال بالعلوم وفن التحرير والانشاء وما يتسع هذا الغرض الَّا في مثل الاشتغال بطبع الكتب وانشاء الصحف ولكن قد خاب جميع امله اذ ان الجريدة لم تطل ايامها حتى رماها بعض الناس بانها تحث على الانتماء للاجنبي وهو امر لم نقله ابدًا وغاية ما هنالك انها كانت تحث علَى الاستفادة من الانكليز ما داموا موجودين في البلاد اذ ان معاكستهم وامر البلاد والامة جميعاً في يدهم لا تحمد عقباها كما بينتهُ التجربة بعد والذي ألجأهُ لانتهاج هذا المسلك ما قاساه مِنْ ظلم الاستبداد وما رآه من وجود عوامل محركة في مصر باغراء بعض الاجانب لتوغير صدور الناس على حكامهم اذ ذاك وخشي من دوام الحال علي ذلك المنوال ان يأتي بالضرر المادي والمعنوي على الطائفة الاسلاميَّة والحاصل ان كثيرًا من الناس لم يقدروا عملهُ حق قدرهِ هذا زيادة عن ان حال الجرائد في الشرق ليس هو على ما يشاهد في البلاد المرتقيَّة في التمدن والحضارة بحيث ان الجرائد هنا لا تنجح الَّا اذا كان لها معضد قويٌّ ولم يتعوَّد الشرق لغاية الآن ان ينمي شيئاً ما لم تكن يد الحكام فيهِ والشيخ بيرم كان قليل المعرفة بالناس واخلاقهم في مصر فلم يجن من جريدتهِ ثمرة تذكر ثم ان الكتب التي طبعها تحمل بخسارة مصاريفها ولم يكسب منها شيئاً وزد على ذلك انهُ تربى في ترف وعزة نفس وهمة عالية ومن تكن هذه اخلاقهُ فلما ينجح في عمل تجاري ثم ان الحرّ اضر بهِ بصحتهِ وزاد في تقهقرها فزاد في استعمال المرفين زيادة مفرطة حتى صار يستعمل نحو الغرام وكسور

في اليوم وهو مقدار كاف لقتل عدة من الانفس الغير المتعودة عليهِ فالتزم بعد سنتين ونصف من الاقامة بمصر ان يسافر الى اوربا وكان ذلك قريب احتفال ملكة انكلترا بمضي الخمسين سنة على توليها الملك فتوجه اولاً الى مدينة فلورنسا من اعمال ايطاليا لملاقاة صديقهِ المرحوم الجنرال حسين باشا التونسي حيث طلبهُ لتسوية شؤونهِ لما اعياهُ المرض فأوقف جملة من املاكهِ على بعض اخصائهِ وخصصها بعدهم لجيوش المسلمين ومن هناك قصد المرحوم مدينة باريس لاستشارة حكمائها في امر صحتهِ ثم سافر الى لندرة عاصمة الانكليز وهناك قابل جملة من نبلائها وكبار اعيانها كاللورد سالسبوري واللورد نورثبروك وقد تكلم مع من قدَّر الله والاهمال ان يكون بيدهم زمام الاحوال المصريَّة بما رآهُ نافعاً لبني جلدتهِ وجنسهِ وحامياً لذمارهم ومشيدًا في المستقبل لفخارهم وكان اذ ذاك النفور متمكناً بين نائب الانكليز في مصر وبين رئيس مجلس النظار فيها فكان القوم في حيرة من هذا الامر خصوصاً والمرشحون لمنصب الوزارة في مصر قليلون جدًّا والفكر القائم في اذهان بعضهم حينئذٍ ان رياض باشا مكروهٌ في البلاد مستدلين على ذلك بظهور الثورة فيها مدة وزارتهِ الاولى فبذل المرحوم جهدهُ لصرف هذا الفكر وسعى بقدر استطاعتهِ لما فيهِ اعلاء شأن المسلمين وبعد ان حضر الاحتفال رجع الى باريس لاتمام المعالجة ثم عاد الى مصر بعد ان تغيب عنها نحو الخمسة اشهر معرجاً في طريقهِ على برلين وويانه وفي الاثناء المذكورة سعى الساعون كثيرًا لارجاعهِ الى الاستانة وكاتبهُ بعض اصدقائهِ في ذلك حسب ما صدرت بهِ الاوامر السلطانيَّة فأظهر المرحوم كمال

استعداده للرجوع اليها قائلاً ان بيعة امير المؤمنين لم تزل في عنقي واوقف رجوعهُ على تسوية احواله المالية ثم يقدم الى القسطنطينية ومع ذلك فلم تكن الاعداء تكف عنهُ الاذى في غيابه ايضاً حتى انهُ لما طبع صاحب الترجمة احدى رسائله المذكورة آنفاً المختصة بحقوق الاشراف دس ارباب الدسائس لهُ في دار الخلافة ما اوجب المخابرة مع الحكومة المصرية بشأن موضوع تلك الرسالة اذ قيل انهُ تعرض فيها لمسالة الخلافة وهو امر لم يخطر لهُ على بال ومن العبث ان يفتكر فيه عاقل وحاشا لمثل الشيخ بيرم وقد وصل لما وصل اليه من التعب المادي والمعنوي غيرة منهُ على بني جنسه وملته ان يتصور حدوث زيادة الشقاق بينهم وزرع بذور الخلاف بمسألة استقرّ القرار عليها منذ قرون واجمع المسلمون قاطبة في مشارق الارض ومغاربها عند عربها وتركها وزنجها بالاقرار فيها لبني عثمان منذ عهد السلطان سليم الاول ثم تعقبوهُ ايضاً فيما يكتب في جريدة الاعلام الى ان يسر الله بقدوم الغازي مختار باشا الى مصر وظهر لهُ بالعيان فساد تلك الوشايات

وفي اثناء سفره كاتبهُ العلامة المرحوم الشيخ عبد الهادي نجا الابياري من كبار علماء الجامع الازهر ومفتي المعية السنية بهذا المكتوب

بسم الله والسلام عليكم ورحمة الله

ورد الكتاب على المحب المغرمِ فشفاهُ من وجد الغرام المؤلمِ
قد شمت منهُ مذ شممت اريجهُ بشرًا بصحة ذي السيادة بيرمِ
حيًا فأحيا مهجة كانت بما قاساهُ تمسي في اشد تألمِ

وابيك ما ذاقت شراباً سائغاً من بعد فرقته وراحة نائم
الاَّ بان سرّت سرائرنا بما ابداهُ من سريان برء محكم
لجناب مولانا الهمام فانهُ هو بهجة الدنيا ونور العالم
جمع الاله لهُ الفضائل مثلما جمع الزهور الروض تحت المِرزم
ما بين اخلاق كازهار الربى ومحاسن تزهو بكل مخيم
بجمالةٍ وجلالةٍ وفخامة وسماحة موروثة عن حاتم
وسيادة وسعادةٍ ابديةً وجميل تدبير برأي محكم
فالله يكمل صحة لجنابهِ ما غردت قمريةً بترنم

استفتح ألوكتي هذه بلطائف تحيّات تتمسك. بها نسائم الاسحار فتتمسك. واستفتح كمائم رقائق تضرعاتي بقلب سليم الى ربهِ تنسك . مبتهلاً اليهِ تعالى ان ينعم البال ويشرح الصدر بكمال صحة مزاج حضرة نضرة وجه الايام. وغرة طلعة الزمان وقرة اعين الانام . شمامة الدنيا الّتي بها تتأرج . وشمس قلادة العلياء الّتي بها تتبرج . علامة العصر . الذي انست محاسنهُ محاسن ابناء سلافة العصر . فما هو الاَّ روح الارواح . ولوح الفضائل الّتي تتبلج في المساء والصباح . وان شفاء جسمهِ لشفاءٌ لكل عليل . ورواء ظما كل غليل . فمهما صح مزاجهُ الشريف صح مزاج الايام . ومهما لبس حلل العافية فعلى الدنيا السلام. هذا ورجائي ان تنعشوا روحي بتوالي اخبار صحتكم كلما وفد وافد . وتنعموا نفسي بورود اخبار صحتكم كلما ورد لهذا الطرف وارد . ثم سعادة الهمام فكري باشا يتحف حضرتكم بلطائف التحيّات . احسن الله لنا ولهُ ولحضرتكم النهايات

في ١٣ الحجة سنة ١٣٠٤ عبد الهادي نجا الابياري

وعلى ذكر هذا المكتوب والشيء بالشيء يذكر ننشر هنا بعضاً من محررات وردت على صاحب الترجمة عن لسان المغفور لهُ توفيق باشا دلالة على منزلته لديهِ وانموذجاً على معاملته له فمنها تلغراف جاءَهُ جواباً على التهنئة التي قدَّمها يوم تذكار الجلوس الخديوي في ٢٦ يونيه سنة ١٨٨٨

حضرة الاستاذ الفاضل السيد محمَّد بيرم بمصر

تلغراف حضرتكم الوارد بتهنئة الحضرة الخديويَّة على اليوم السعيد بعرضهِ قد صارت الممنونيَّة لجنابهِ العالي من ذلك ولزم تبليغ الامر للمعلوميَّة

سر تشريفاتي خديوي

برأس التين

ومنها مكتوب ورد لهُ من محمَّد زكي باشا تشريفاتي اول خديوي اذذاك وهو

حضرة والدنا العزيز المحترم دام بالخير والنعم

تشرفنا بورود تذكرة حضرتكم ومتشكرين غاية التشكر وبوقتهِ قدمنا الامانة للاعتاب الكريمة فحصلت الممنونيَّة التامة وامرنا بتبليغ ذلك لسيادتكم افندم

الداعي

في ٦ شعبان سنة ١٣٠٦ محمَّد زكي

ولما كنا بصدد ذكر هذه المحررات فلنجعل خاتمتها مكتوباً ورد على المرحوم من صديقهِ الحميم . الملاذ العظيم . ذي القلب السليم . الاستاذ الابر مولانا الشيخ محمَّد ظافر دامت بركاتهُ اذ الغاية بيان ما كانت عليهِ صلات صاحب الترجمة بمعاصريهِ ومعارفهِ ومخاطباته مع محبيهِ ونص المكتوب

الحمد لله

الى حضرة الهمام الفاضل . والعمدة الكامل . جامع شتات الفضائل . وناظم فرائد محاسن الشمائل . ومنبع المعارف . ومجمع اللطائف . وقطب فلك السياسة ومركز دائرة ارباب الرئاسة . جناب الاعز الاكرم . مولانا الشيخ سيدي محمّد بيرم . ادام الله عزهُ واقبالهُ . واناله مناهُ وآمالهُ . آمين

بعد اهداء تحيّات اطيب نفحا من روض الازهار . وألطف من نسيم الاسحار . فقد وصل كتابكم الكريم . المشتمل على الدر النظيم . الحري بالتبجيل والتعظيم . وقرت بهِ اعيننا سرورًا . وامتلأت بهِ قلوبنا بهجة وحبورًا . وما اعلنتموهُ من الفرح والجذل . بحصول نشاط محبكم من عارض المرض الذي حصل . فهو من علامات تمام الوداد . وخلوص محبتكم الاصيلة وكمال الاعتقاد . ولكم عندنا من ذلك الحظ الاوفر . والقسط الاكبر . وما عطفتم بهِ على ذلك من الذكر الجميل . والثناء والتبجيل . على المحب فهو من انطباع كمالاتكم الظاهرة . التي تجلت في مرآت ذاتي واصبحت في عالم الشهادة لكم ظاهرة . كما هو مصداق قولهِ صلى الله عليهِ وسلم المؤمن مرآة اخيهِ كما يشهد بذلك ذوق كل صديق وموقن وعلى كل فنحن معترفون بالقصور . ونسأل الله سبحانهُ وتعالى التوفيق في جميع الامور . وان يجعلنا ببركة دعاكم مظهرًا للخيرات . وواسطة لتوالي المبرات . وان يجعل العاقبة للمتقين . وينجز وعدهُ بنزول نص النصر على اعلام جيوش المؤمنين . ونخص بالسلام كامل من بحضرتكم وجناب اخينا الشيخ سيدي حمزه مسلم عليكم . وكذا كامل اولادنا مقبلين يديكم . وهذا ما لزم . ودام مجدكم والسلام

خادم الفقرا

١٣ شعبان سنة ١٢٩٤ محمّد ظافر المدني

وقد تفرغ صاحب الترجمة في الاوقات التي يتركها لهُ المرض لاتمام تأليف ابتدأهُ في استانبول سماهُ "تجريد السنان للرد على الخطيب رونان" وذلك ان العالم الفرنساوي المذكور وهو من مشاهير اهل بلادهِ تعرض في خطابة القاها بباريس تحت عنوان "الاسلام والعلم" الى ذكر الديانة الاسلاميَّة وانها تمنع العلوم من الانتشار بين ابنائها فأفسد صاحب الترجمة هذا الزعم برد مقنع اتى فيهِ على ذكر جميع العلوم والفنون التي استنبطها المسلمون او نقحوها ولهُ رسالة في صورة سؤال حرَّرها في جواز شراء اوراق الديون التي تصدرها الممالك الاسلاميَّة حتَّى تبقى اموال المسلمين في بلادهم ولا يحجبهم عنها اشتباه الرباء الذي لا ينطبق في هذه الحالة عليها وكتب تقريرًا مسهبًا في شأن التعليم بمصر ذهب فيهِ الى لزوم انتشاره باللغة العربيَّة لسهولة تناوله وتعميمهِ بين العموم مستندًا في ذلك على عمل العرب في صدر الاسلام وعلى عمل الاروباويين انفسهم فانهم لا يعلّمون الاَّ بلغاتهم وقد نجحوا اما مصر فلما اتبعت طريقة التعليم باللسان الاجنبي لم تنتشر فيها العلوم والفنون مع طول الزمن الذي مضى من حين تأسيس المدارس فيها ولهُ ايضاً عدة كتابات على جملة احاديث نبويَّة شريفة وهي التي كان يحتفل بختمها في تونس على حسب العادة الجارية هناك في المدرسة العنقيَّة التي كان شيخًا عليها وفي سراي المرسى عند جناب الامير الحالي وسننشر جميع هذه الرسائل والمنشآت والقصائد وغيرها من التحارير العلميَّة والسياسيَّة التي كتبها في مجموعة خاصة بحول الله تعالى ولم تتركهُ ايضاً في مصر دسائس بعض الفرنسيس وتهمهم الباطلة فمن ذلك ان جريدة لانفترن

(المصباح) الباريسيَّة نشرت خبرًا عن مكاتبها في القاهرة في شهر أُغسطس سنة ١٨٨٩ مفادهُ ان الشيخ بيرم سافر متوجهًا الى الشيخ السنوسي للاتفاق معهُ على اهاجة نار الفتنة في السودان بواسطة المهدي والقصد من ذٰلك كلهِ معاكسة فرنسا وصادف نشر هذا الخبر خروج صاحب الترجمة حقيقة من القاهرة ولكن لاستنشاق الهواء البارد على شاطىء البحر في جهة رأس البر بدمياط وقد تجول المرحوم في كثير من انحاء القطر المصري وكان يكتب اثناء تجولهِ في ذهبيَّة بقيَّة صفوة الاعتبار فاتم الجزء الرابع واول الخامس ولم يمهلهُ الاجل لاتمامهِ فانهُ كان يقصد التوسع في الكتابة عن بلاد النمسا وسويسره والمانيا ورومانيا والبلغار والصرب واليونان وهي البلاد الَّتي شاهدها ولكن ما كتبهُ اجمالاً عنها في الجزء الاول يمكن ان يغني القارىء عن التفصيل والاسهاب وكان ينوي كتابة خاتمة صفوة الاعتبار على نمط مقدمتي تاريخ ابن خلدون واقوم المسالك فلم تمكنهُ صحتهُ ولا اجلهُ من اخراجها من حيز الفكر الى قوة العمل ونحن نورد هنا بعض تعليقات كتبها ليوسع البحث فيها في هذا الموضوع عسى ان يقيض الله من يمشي على نمطها اذ المقصود هو نفع ملتنا وايقاظنا من غفلتنا وكفى بماجرى للامة في القرنين الماضيين من التقهقر والتلاشي والانحلال واعظًا في ديوان العبر واهم باب المبتدا والخبر لمن يروم الاستفادة بالماضي ليدفع بهِ غائلة المستقبل اما تعليقاتهُ في فيما ينبغي لنا اتخاذهُ وتدبير نفوسنا عليهِ وفيهِ فصول الاول في زيادة نشر العلم الثاني في كيفيَّة الحكم وانهُ ينبغي اتخاذ قول واحد من المذهبين (اي في تونس حيث الاحكام جارية بمقتضى المذهبين الحنفي والمالكي). الثالث في كيفيَّة ادارة

السياسة وما هو عمل الملك وما هو عمل كل وزير وما هو عمل مجلس النواب الذي حقهُ ان يتخذ من الاهالي وان لا تعطى الكلفة دفعة واحدة بل على قدر استطاعة الاهالي وقابليتهم وان ذلك يأتي في المسلمين من الملك وهو المربي لرعيتهِ والسبب في عدم اعطاء الحريَّة التامة في فرنسا كما هو جار في انكلترا ثم تعامل الدول مع دول الاسلام على خلاف التصرف في داخليتهم لضعفنا وعدم انصافهم فعلينا بالوسائل وحكم تذاكر البنوك شرعاً وليس هو من قبيل السفتجة . وعلاقة الدول والاحكام وفوائد الصحف وفوائد سكك الحديد والبريد والتكلم عليهِ وعدم تأخير المقصد في الكلام عند الزيارة لاثنين معاً . والنهي عن الغيبة بين الاخوان . اجتهاد اليهود في المال بكل بلاد واغلب الصناعات بأيديهم وعدم تعاطيهم الصنائع المجهدة . الطرق الموجبة للنفرة بالتفاضل . ابلاغ الشريعة الى الكفار واجب ولو بدون حرب . اجتهاد الاجانب في العمل حتى وصلّوا بين شاطىء اميركا والبحرين الاحمر والابيض وخرق المنسني والخرق تحت المنش . اسباب عدم استواء الدول الاجانب في التظلم ببلاد الاسلام على حسب مقاصدهم وقوتهم فامريكا مثلاً وان كانت رعيتها عند الترك قدر رعيَّة الانكليز فلا تجد منهم تظلماً ولا اقامة حجة مستمرة من سفيرهم . الوجوب على الحكومة والعلماء فيمن يتوجه الى الحج بتعليمهِ ما يجب عليهِ قبل السفر والَّا فيمنع

وفي ١٢ جمادي الاولى سنة ١٣٠٦ (١٤ يناير سنة ١٨٨٩) عين صاحب الترجمة قاضياً في محكمة مصر الابتدائيَّة الاهليَّة في مدة وزارة رياض باشا الثانية وكان في وزارة نوبار باشا كُلف المرحوم بكتابة ما يراهُ

عن القوانين المعمول بها في المحاكم الاهلية من حيث مطابقتها للشريعة الغراء او القوانين الجارية في الدولة العثمانية الشامل لها كتاب المجلة والدستور فرام اولاً التوسع في الموضوع بتقسيم القوانين المصرية باباً باباً ومقارنتها بالمجلة او الدستور واذا لم يجد نصاً مطابقاً لها فيها فيطبقها بقدر الامكان على قول احد المجتهدين بدون تقيد بمذهب مخصوص غير ان عملاً مثل هذا يلزمه طول الوقت وكثرة العمال والزمن غير قاض بذلك فالتزم ان يصرف النظر عن هذا العمل وكتب عن القوانين ما نصهُ

" القوانين الاصول التي عليها مدار الحقوق في الحكومة المصرية هي القانون المدني وقانون التجارة البري وقانون التجارة البحري وقانون العقوبات وهاتهِ القوانين الاربعة نظر مطابقتها للقوانين العثمانية اوللشريعة المطهرة على التفصيل الآتي

فاما قانون العقوبات وقانون التجارة البرية والبحرية فجميع ما يوجد من موادها في القوانين العثمانية المماثلة لها هو مطابق مطابقة كاملة وهو ايضاً الاكثر من مواد القوانين المصرية لكن القليل جداً من مواد هاتهِ القوانين لا يوجد اصلاً في مثلها من القوانين العثمانية . واما القانون المدني المصري فهو مخالف للمجلة العثمانية التي هي قائمة مقامهُ مخالفة كثيرة كلية غير ان القانون المدني المصري مع ذلك اكثرهُ مطابق للشريعة المطهرة على الاطلاق من غير نظر الى خصوص مذهب معين بل بالنظر الى اقوال الائمة المعمول باقوالهم في الديانة والقليل من هذا القانون المدني مخالف ايضاً لجميع تلك الاقوال غير ان تحويره بما يرجع بهِ الى مطابقة احدها مما يقتضيهِ الحال امر سهل يسير بفطنة حذاق اهل الخبرة والعلم "

وكذلك كلفهُ الباشا المشار اليهِ تقديم تقرير بما يراه لاصلاح حال الاوقاف وقد فعل وكان موجهاً همتهُ في مدة توظفه بالمحاكم للسعي وراء تطبيق قوانينها على الشريعة الغراء ولماقدم ولي عهد الانكليز الى مصر كان صاحب الترجمة من الافراد القليلين الذين اجتمعوا بهِ وفي تلك السنة انهى رياض باشا ترميم منزله بالحلمية فهنأهُ المرحوم بهذه الابيات

ان الوزير المصطفى في عصرهِ		لا زال عوناً للمليك بازرهِ
ابدى من التدبير في الاصلاح ما		قد حقق المعهود منهُ بقطرهِ
فلقد اتى في قصره ما يبتغي		حسناً بهِ ومتانةً مع وفرهِ
والقطر قصر واسع الارجاء قد		ابدى له انموذجاً من قصرهِ
وكلاهما مستأهل بعيالهِ		وادارة باصابة من فكرهِ
فكما نشاهد في الصغير اجادة		فكذا الكبير نراهُ صار بامرهِ
اذ اتقن التحسين حتى ارَّخوا		قصر رياض فيهِ جنة مصرهِ

(سنة ١٨٨٩)

وقد عُين عضواً في اللجنة التي تشكلت للنظر في تعميم المحاكم الاهلية بالوجه القبلي وعضد هذا التعميم وكذلك انتُخب عضواً في لجنة تشكلت في المحكمة بناء على طلب نظارة الحقانية لتقديم تقرير للنظارة بكل ما يرى لزوم تعديله في القوانين على حسب ما يلائم حالة البلاد وعُين عضواً في لجنة بنظارة الداخلية لمراجعة الاحكام الصادرة من قومسيونات الاشقياء وانبنى على عمل هذه اللجنة الافراج عن عدد عظيم من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في طره وكان امضاؤه على تقرير هذه اللجنة آخر اعماله

الرسمية فتوجه الى مدينة حلوان لتغيير الهواء وهناك اشتدَّ عليهِ المرض وبلغ بهِ الضعف غاية المنتهى وظهر في جهة جنبهِ الايسر خرَّاجان بسبب الحقن بالمرفين اعقبهما بعد فتح الطبيب لهما تكوُّن المادة في الرئة وبعد ان لازم الفراش بالمرض المعروف بذات الجنب نحو الخمسة والعشرين يوماً فارق الحياة وذلك في الساعة الخامسة ونصف بعد ظهر يوم الاربعاء ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ (١٨ دسمبر سنة ١٨٨٩) وقد خلف ثلاثة بنين رزق بهم من بنت عمه التي تزوَّج بها في ١٤ ربيع الثاني سنة ١٢٧٧ وكان قبل ملازمته للفراش محتفلاً بالمولد النبوي الشريف هناك بحضر بعض الاصحاب وقد دخل الى الحرم من تلك الحفلة ولم يخرج حيًا وفي مدة مرضه ورد عليهِ مكتوب من صديقهِ رياض باشا ونصهُ

"جناب الاستاذ

من صميم الفؤاد قد تكدرت من خبر ما طرأ على جنابكم من انحراف المزاج الذي لم اعلم بهِ الاَّ من منذ كم يوم وادعو المولى سبحانهُ وتعالى ان يمنَّ عليكم بالشفاء وكمال الصحة والعافية ونراكم معنا عن قريب وعلى اي حال ارجاكم ان لا تؤاخذوني والعذر عند كرام الناس مقبول

في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ محبكم المخلص

﴿ رياض ﴾

وقد حضر دولة الباشا المشار اليهِ الى حلوان وقصد عيادتهُ وارسل اليهِ نجله وكذلك كان المرحوم توفيق باشا كثير السؤال عنهُ يوميًا بواسطة طبيبهِ عيسى باشا حمدي ولما توفي اظهر لابنائهِ جميل التلطف تغمدهُ الله

برحمتهِ وقد شيع رياض باشا جنازة صاحب الترجمة صبيحة يوم الجمعة وكانت مودتهما صافية خالصة ودفنهُ في التربة المخصوصة التي شيدها بقرب ضريح الامام الشافعي رضي الله عنهُ وقد كُتب على قبرهِ هذه الابيات وهي من انشاء الشاعر البليغ حفني بك ناصف

يا قبر اضنانا البكاء وتبسمُ　　ادريت ان الفضل فيك مخيمُ
أَعلمتَ انك قد حويت محمَّدًا　　وتركت اكباد الورى تتضرَّمُ
هذا الذي كانت بدائع فكرهِ　　تملي البيان على اليراع فينظمُ
من عترة ثوت العلوم بدارهم　　فهم لطلاب الهداية انجمُ
اولاهُ مولاهُ مواهب فضلهِ　　والله يعطي من يشاء ويرحمُ
واقام في دار النعيم فأرخوا　　في جنة الفردوس أُسكن بيرمُ

سنة ١٣٠٧

وقد رثاهُ جملة من احبابهِ وكتبت الجرائد تنعيهِ ولنقتصر منها على ما قالتهُ " الوقائع المصريَّة " جريدة الحكومة المصريةِ الرسميَّة الصادرة في ٢١ دسمبر سنة ١٨٨٩ نمرة ١٤٥ " انا لله وانا اليهِ راجعون . في آخر ليلة الخميس الماضي انتقل من هذه الدار الفانية الى الدار الآخرة الباقية المرحوم الشيخ محمَّد بيرم احد قضاة المحكمة الابتدائيَّة الاهليَّة بمصر وصاحب جريدة الاعلام العربيَّة وكانت وفاتهُ رحمهُ الله بمدينة حلوان عقب اشتداد الداء العصبي الذي مني بهِ من عدة سنين ولم ينجع فيهِ علاج الاطباء

وفي صباح يوم الجمعة الماضي احتفل بنقل جسدهِ من حلوان احتفالاً يليق بمقامهِ وفضلهِ وانتظرهُ على محطة ميدان محمَّد علي العدد العديد من

رجال الحكومة السنيّة واكابرها وفي مقدمتهم صاحب الدولة رياض باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخليّة والماليّة وكثير من العلماء وقضاة المحاكم الاهليّة ومشاهير المحامين وذوي الفضل من الوجوه والاعيان . ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام ما كان من صاحب الدولة رياض باشا من العناية بأمر المرحوم والاهتمام بشأنهِ والمساعدة في اكرام تشييع جنازتهِ ودفنهِ وتعزية اولادهِ وتشجيعهم على تحمل المصاب الى غير ذلك من الاحتفال والاكرام ولما وصلت الجنازة الى المحطة شيعت في مشهد حافل مشى فيهِ دولة رئيس النظار ومن تقدم ذكرهم ومن حضروا مِن حلوان بغاية السكون والوقار وكان في مقدمة المشهد الذاكرون ومرتلو البردة وغيرها من الاحزاب والاوراد ثم المشيعون للجنازة فحملة السرير وكلهم آسفون لفراق هذا الرجل العظيم الشان وقد دفن رحمهُ الله في المدفن الذي بناهُ صاحب الدولة رياض باشا بقرافة الامام الشافعي عليهِ الرضوان وفرّقت الصدقات على الفقراء والمساكين ودعا الناس للمرحوم بالرحمة والغفران

اما الرجل رحمهُ الله فكان عالمًا فاضلاً فقيهًا كاملاً متضلعًا من العلوم الشرعيّة بأنواعها مطلعًا على احوال الامم ولهُ الباع الطولى في فنون التاريخ القديم والحديث وكان من ذوي الاقلام البليغة فيما يريد كتابتهُ من المواضيع وقد ألف رسائل كثيرة في الاحاديث والاصول والاحكام الشرعيّة والجغرافيا التاريخيّة والسياسيّة وغيرها وكلها تدل على غزارة مادتهِ وسعة تفننهِ في المعارف والعلوم وكان كثير الاستشهاد بأحوال الامم الغابرة والحاضرة في كتاباتهِ واقوالهِ ولهُ قوة حاضرة في اقامة الدليل والبرهان كما يشهد بذلك

المقامات الافتتاحيَّة التي كان ينشرها في جريدة الاعلام رحمهُ الله رحمة واسعة وافرغ على آلهِ وذويهِ جميل الصبر . وعزاهم على مصابهم فيهِ اكمل العزاء واثابهم على الصبر عظيم الاجر آمين"

وهذا ما قالتهُ جريدة الحاضرة الصادرة بتونس في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٩ عدد ٧٤ "صباح يوم الخميس الفارط نشرت اخبار التلغراف من حلوان مصر القاهرة خبر وفاة العلامة النحرير صاحب الصيت الشهير المؤلف الشيخ السيد محمَّد بيرم وبما انهُ من مفاخر البلاد التونسيَّة تقوم الحاضرة بواجب رثائهِ وهي ادرى من غيرها بفضائل رجالها فقد ولد هذا العالم في بيت العلم البيرمي سنة ست وخمسين ومائتين والف وتربى في مهاد العلم والتعليم وقرأ على ابن عمهِ الشيخ احمد بيرم وعلى عم جدهِ الشيخ مصطفى بيرم وعَلَى شيخ الاسلام الشيخ محمَّد معاوية وقرأ على الشيخ الطاهر بن عاشور والشيخ الشاذلي بن صالح والشيخ محمَّد الشاهد والشيخ علي العفيف وغيرهم من فحول جامع الزيتونة الى ان حصل على مرتبة عالية وتقدم لخطتي التدريس وقرأ كتباً مهمة بجامع الزيتونة وولي مشيخة المدرسة العنقيَّة بعد وفاة عمهِ شيخ الاسلام الرابع وختم بها الاختام المهمة وكان يعيدها كل سنة في بيت الحضرة العليَّة وكان عالماً فاضلاً عالي الهمة عزيز النفس رفيع الحسب منشئاً فصيح اللسان جميل المحاضرة صاحب اناة ووقار خبيراً بالسياسات الشرعيَّة والوقتيَّة حسن التدبير واسع الادارة امتنع من قبول الخطط الشرعيَّة عدة مرار متعللاً بضعف بدنهِ وكان عضواً في عموم الجمعيَّات التي انعقدت لوضع التراتيب العلميَّة والتنظيميَّة اول الوزارة

الخيرية وهو الذي قام برئاسة جمعية الاوقاف عند تأسيسها فأسس اصولها
بعد ان جمع شملها بما يقتضيه العلم والانصاف وولي نظارة المطبعة الرسمية واعترتهُ
امراض عصبية بمدتهِ سافر بسببها عدة مرار لباريز وايطاليا وحنكتهُ الاسفار
بما يزيدهُ في الاعتبار وباشارتهِ كان انشاء المستشفى الصادقي وباشر اقامتهُ
على النمط الذي رآهُ بباريز ومن قلمهِ كان انشاء قانونهِ وشكرهُ الامير يوم
فتحهِ في الموكب العمومي وولي عضوًا في مجلس الدولة الشوري على عهد
وزارة ابن اسمعيل واشتد مرضهُ والحَّ في طلب الاعفاء ولم تسعفهُ الدولة
بذلك وخرج لبيت الله الحرام اواخر سنة ست وتسعين ومائتين وألف
ورجع على طريق الشام ولما رأت الدولة انحلال وظائفهِ احالتها لغيرهِ في
الثامن والعشرين من محرم سنة ١٢٩٧ وتنقل من الشام الى دار الخلافة
العثمانية فنزل بمنزل التعظيم والتكريم وعرضت عليهِ نقابة الاشراف والفتوى
بالشام فلم يقبل لضعف بدنهِ ثم انضمَّ اليهِ ابناؤهُ وعائلتهُ واجرت عليهِ الدولة
جراية سلطانية وهنالك ألف رحلتهُ صفوة الاعتبار بمستودع الاقطار والامصار
واودعها من الاصول السياسية والاصول العلمية ما يدل على كمال تضلعهِ
وقوة عارضتهِ واقام بالاستانة الى ان شق عليهِ مرضهُ العصبي واشار عليهِ
الاطباء بالتنقل الى البلاد الحارة فتنقل بأهلهِ وابنائهِ اول المحرم سنة اثنتين
وثلاثمائة والف وتلقتهُ الديار المصرية بالرحب والقبول وانزلهُ الجناب
الخديوي منزلة التكريم واجرى عليهِ جراية تليق بأمثالهِ وفتح بها مطبعتهُ
الاعلامية وافادت صحيفة "الاعلام" في سائر الجهات العربية الى ان ولي
حاكمًا بالمحكمة الاهلية وفي اثناء هاتهِ الاسفار كان مجدًا في الاعتناء بكرام

ابنائهِ في المدارس الى ان وصلوا الى قدم الكفاءة للمهمات وترقى اولهم لخطة كاتب بمجلس النظار بالديار المصرية نسأل الله ان يجعل منهم خلفاً محموداً وان يديم عليهِ في نعيم الجنان ظلاً ممدودا"

هذا وقد قيل ان قيمة المرء لا تقوم بمقدار مادحيهِ فقط بل بانضمام المنتقدين عليهِ ايضاً وعلى ذلك نقول انهُ من دون سائر الجرائد العربية والافرنجية قد انفردت احدى جرائد الاستانة العربية بنشر ما يخالف امره عليهِ الصلاة والسلام "اذكروا موتاكم بخير"

ولم يكن ذلك ليؤثر على حسن صيته وشهرتهِ فقد قيل — كلام العدى ضرب من الهذيان — ومن تأمل في تاريخ حياة المغفور لهُ علم انهُ كلما خفض الاعداء والحساد من شأنهِ ذراعاً ارتفع ميلاً وكلما اشتدت بهِ مهمات الحوادث وكوارث الزمن زاد قدره اعتلاء فقد خرج المرحوم من دياره مغرباً مشرداً فما زالت بهِ همتهُ حتى بلغت بهِ الى شرف المقابلة بالحضرة الشاهانية ونوال اقصى الرعاية السلطانية وخسر امواله واملاكه فقام له فضله وعلمه بعدم الحاجة لاحد فعاش ميسوراً ومات ميسوراً واجتهد بعض ذوي التقصير في الحط من سيرتهِ والطعن في شهرتهِ فما زاده ذلك الا اعتلاء في الصيت واحتراماً في النفوس وتوقيراً في الصدور فقضى حياتهُ حميد السيرة وانتقل الى رحمة ربهِ طاهر السريرة وعلى كل حال فنسأل الله ان يجازي الجميع خيراً ولا يريهم ضيراً هذا وقد كتبت ما كتبتهُ والله يعلم اني لم اقصد بهِ فخراً ولا حباً في الظهور وانما هي حقائق مثبوتة بمستنداتها القيتها تحت نظر القارئ ليرى في حياة هذا المؤلف وما طرأ عليهِ من

نعيم وبؤس العبرة التي يتوخاها وقياماً بحقوق الابوة والتربية واجابة لما كان كلفني بهِ عند قدومهِ الى مصر ولكوني اعلم الناس بأحوالهِ رحمهُ الله رحمة الابرار

وكلما تذكرت على قبره محاسن افعاله في حياتهِ العمومية وجميل اخلاقه وشهامة نفسهِ في حياتهِ الخصوصية اكاد انشد بيت المعرّي مخاطباً لقبر ابيهِ

لأُطبقتَ اطباق المحارة فاحتفظ   بلؤلؤة المجد الحقيقة بالخزن

٩ ذي الحجة سنة ١٣١١   ❊ محمّد بيرم ❊